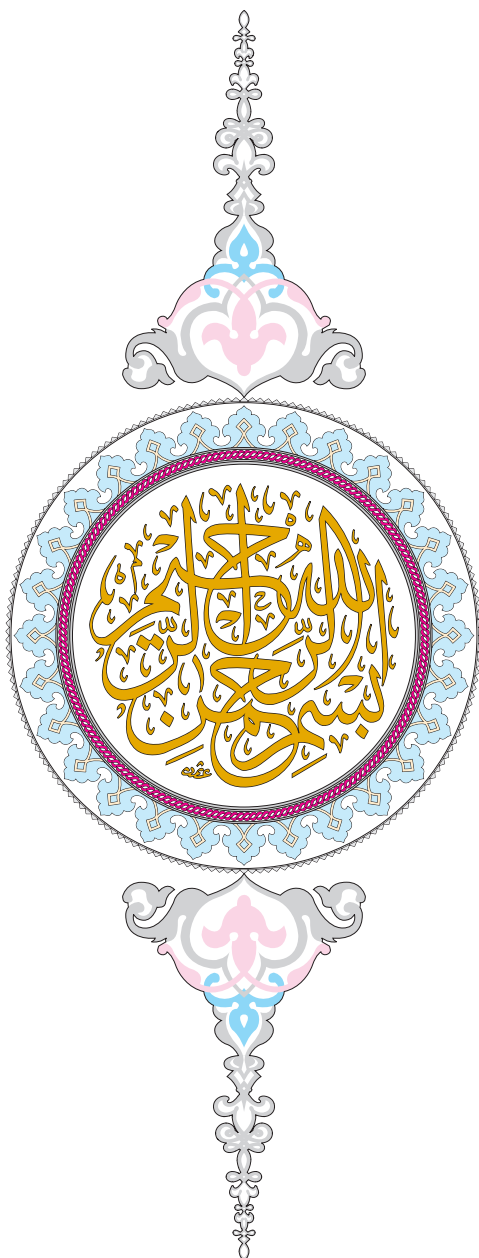
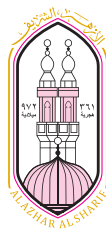






مَجَلَّةُ الْإِسْلَامِ

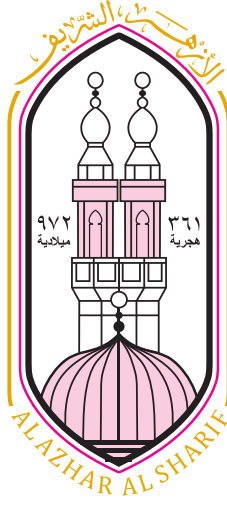
مَجَلَّةُ شَرْعِيَّةِ جَامِعَةِ

تَصَدَّرَ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرِ عَرَبِيِّ

٢٢

المجلد الثاني والعشرون

السنة ١٣٧٠ هـ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www.azhar.eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية

SAQIFAT AL-SAFATRUST

لبوان - ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مَجَلَّةُ الْأَزْهَرِ

المجلد الثاني والعشرون

١٢
٢٢٢٦
روبا

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمَّد فريد خان بك

الاشتراك السنوي } ٤٠ لمصر والسودان
٥٠ لخارج القطر المصري

ثمان العدد ٤٠ ملبا

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر

١٩٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين

الحمد لله على ما وفقنا إليه من خدمة دينه القويم ، والصلاة والسلام على نبيه
ورسوله الكريم محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا قد شارفنا السنة الثانية والعشرين من حياة هذه المجلة ، اللسان
الناطق للأزهر والأزهريين ، ولست بمبالغ إذا قلت إنها نالت في هذه السنوات
القليلة ما لم ينله سواها في مثلها من الشهرة ، وبعد الصيت ، والثقة التي لا تحد ،
وقد أدت في مدى هذه المدة من الخدم للعالم الإسلامي في مشارق الأرض
ومغاربها ، ما لا يتفق لغيرها ، لنسبتها إلى الأزهر المعمور . فترى المسلمين يتلقون
أعدادها كلها ظهرت تلقى الظَّهْم للعلم النير ، فيكتبون على قراءتها ، ومن لم يعرف
العربية منهم يترجم حتى يترجم له قومه ما يهيم جماعتهم منها . وهذه المنزلة ترجع
لحبهم للأزهر ، واعتقادهم الراسخ أنه كعبة العلوم الدينية ، ومورد الثقافة
الإسلامية ، والذين يحرونها خيرة الأزهريين علما وعملا .

إن هذه المنزلة توجب علينا المزيد من التدقيق فيما ننقل من مقالات أصحاب
الفضيلة العلماء الذين يتفضلون بتزويدها من محصولهم العلمي الثمين ، وتضطرننا
لأن نزيدها تحسينا بقدر ما تمكنا منه الطاقة البشرية ، فإنه ليس وراء هذه الخدمة
مجال تصرف الألمعية فيه ، ولا بعدها غاية تتوق الهمة البشرية أن تصل إليها .

وأنا في هذا المقام نرى لزاما علينا أن ننوه بالتشجيع الذي تترى شآئبه
علينا من حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، ونذكر ما يمنحنا إياه من
عطفه الملكي الثمين ، فإن هذا كله من العوامل التي ثبتت وثبتت أركان هذه المجلة ،
وتهمها قوة على مضاعفة جهودها في خدمة الإسلام والمسلمين .

كذلك لا يجوز أن نغفل ما يبذله شيوخ الازهر الأكرمون من العناية بأمرها ، والرعاية للقائمين بها ، وخاصة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، فإن فضيلته كان يمدّها بفتاويه القيمة في الشؤون الدينية والدنيوية ، مما كان لها أكبر الآثار في كسب إكبار المسلمين لها ، واعتزازهم بها .

أما وقد وفينا ببعض ما عاهدنا الله عليه من صادق الخدمة ، وخالص الوفاء لهذه المجلة ، فإننا نعد قراءها بأننا سنكون عند ظنهم بنا حماة مخلصين لعقائد الإسلام ، ودعاة مروجين لفضائله بين الأنام ، معتمدين على الله في أداء واجبنا نحو دينه ، راجين منه العون والسكفاية ، إنه ولي التوفيق ، وهو أكرم مسئول .

محمد فريد وهبى

الاستاذ الاكبر الجديد

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ عبد المجيد سليم

صدر أمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، في اليوم السابع من شهر أكتوبر الجارى ، بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخاً للجامع الأزهر ، خلفاً للاستاذ الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخه السابق رحمه الله وتولاه برضوانه .

لقد وفق الله جلالة الملك توفيقاً عظيماً ، وسدد مرماه أكمل تسديد ، باختياره هذا الحبر النبيل لمشيخة الأزهر ، وهو البقية الصالحة من الاعلام الذين حفظوا تراث العلم جيلاً بعد جيل ، وصانوا ثروته القيمة في أحوال كانت تكنى لأن تبددها كما بددت سواها من مذخور آبائنا الاولين .

وفضيلته مع تحليه بهذه الدرجة العالية من العلم ، قدر له أن يكون مشرفاً على تيار التطور الاجتماعى الذى تقلبت الامة في أدواره في عهدها الاخير ، بتوليته مهمة الإفتاء في الشؤون العامة سنين كثيرة ، فكانت وظيفته تستدعى منه أن يكشف عن مكنونات الشريعة الخالدة ، وأن يجلى سماحتها ، وسعة صدرها لكل جديد نافع ، ولكل طريف لابد منه ، فما كل بدعة ضلالة ، ولا كل محدث جهالة . فكان بفتاواه القيمة نعم العون للامة في دور نهوضها العقلى والمادى ؛ إذ جنبها موقف سوء الظن الذى وقفته أكثر الشعوب الإسلامية حيال التيار المدنى الحديث ، فلم تستفد منه شيئاً وجمدت حيث هى فأصبحت نهياً للمستعمرين .

وإن في تولى فضيلته مشيخة الأزهر على سعة علمه بالعوامل التى تعمل في الامم الإسلامية من ناحية العلم وناحية الدين ، تحت تأثير المدنية الغربية ، وما تسلمت به هذه من علوم وفلسفات وفنون ، سيكون له إن شاء الله أثر بالغ في هذا الدور من الانتقال الذى نحن فيه .

ولسنا نشك في أن فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم رجل هذا العهد السعيد ، فلندع لفضيلته بالتوفيق ، ولجلالة الملك المعظم بدوام التأيد .

محمد فريد وهبى

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر

تحية من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

أعلُّ ، وسد ، واهتز ، يا أزهري هذا سليم ، شيخك الأكبر
في تيمته ، في طيُّ أبراده تطابق المظهرُ والمخبرُ
السلفُ الصالح عادت به أيامه ، والطابعُ الآخرُ
والأملُ البسامُ لاحت لنا في وجهه ، أنواره تزهَرُ

يا أيها الشيخ الجليل الذي ينفخ طيب المسك إذ يُذكر
لا يعوزُ الأزهر علم وما للعلم إلا بابه — مصدر
شجاعة الدين ، وإيمانه أعز ما ينشده الأزهر
فانهض بروح الدين في حصنه يحملك الأسود والأحمر
واهتف بشرع الله في قدسه ينكف هذا الزمن الأغبر
لن يُخذل الحق ، وأنت الذي يدعو به ، والأزهر المنبر

تهنئة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الازهر

يوم أغر على الزمان مخلد
وافتر ثغر الدهر عن بسماته
والقوم بين مهل ومكبر
سبحانك اللهم فضلك سابغ
والازهر المعمور صنت عرينه
وبعثت فيهم قائدا من بينهم
شيخ الشيوخ ولا أبالي قائلا
ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا
الازهرى سليقة وطبيعة
وهو البصير بدائهم ودوائهم
ياوحد العلماء أنت إمامهم
لك غيرة في الدين ذاعت شهرة
والحلم طبع والوفاء سجيّة
ومنايع التقوى تفيض جداولها
اخلع على المعمور منك مهابة
في الشرق والإسلام هزة نشوة
دم للشرعية حاميا ومناخا

سطعت كواكبه ولاح الفرقد
والازهر المعمور شكرا يسجد
بالبشر يشدو هاتف ومردد
تحمى الخنيقة أن تمد لها يد
وأعدت عهدا للأولى قد شيدوا
يعلو بهم هام السحاب ويصعد
أنت المرجى والرئيس الاوحد
وأيتت تعلى ما بنوا وتشيد
أدرى بطبع الازهرى وأرشد
يأسو الجراح وللجراح يضمند
فاسلك بهم سبل الهداية يهتدوا
ما العلوم فأنت فيها المفرد
والعدل تاج شع منه العسجد
من نور قلبك والدلائل تشهد
وأعد إليه شبابه يتجدد
هتفوا بحبك يا إمام ورددوا
في ظل فاروق تعيش وتسعد

السباعي السناوي

المراقب بالازهر

من فضيلة شيخ الجامع الأزهر إلى إخوانه المسلمين وأبنائه الأزهريين

ننشر فيما يلي الكلمة التي وجهها حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر ، إلى المسلمين وأبنائه الأزهريين ، لمناسبة رأس السنة الهجرية :

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونستغفرك وتوب
إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسألك العصمة من الزل ،
والتوفيق إلى صالح العمل ، ونصلي ونسلم على نبيك الذي بعثته رحمة للعالمين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين .

ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .
ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم .

أما بعد ، فإنني أهنيء إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى
الهجرة النبوية المباركة ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العام مباركا عليهم ،
وأن يوفقهم فيه إلى تبوء مكانة العزة والقوة ، وأن يربط على قلوبهم برباط
الإيمان والأخوة في الإسلام حتى يكونوا في سائر شعوبهم وبلادهم كالجسد الواحد ،
يشعر قاصيهم بما يشعر به دانيهم ، ويرفعوا بأنفسهم وأمتهم عن عوامل التفرق
والتقطع ، وأسباب التنازع والتباغض .

ولأنه ليسعدني ويشرح صدري أن يكون أول ما أطلع به إخواني المسلمين
بعد أن توليت منصبى هو هذا البيان الذى أتفامل خيراً بمناسبته السعيدة وأجعل
النصح فيه ، والدعاء شكراً لله على ما حباني به من نعمة ، وولاء للمليك المعظم
على ما تفضل به على من ثقة ، وعرفانا وتقديراً لعاطفة إخواني المسلمين الذين رحبوا
بمقدمى وهناؤنى بمنصبى .

إذا كانت الذكريات في تاريخ الأمم مشارف واعتزاز ، يثيرها الآخرون إعجاباً وغرراً ، بما فعل الأولون ، فإن فيها لعباً ينبغي أن تدرك ، ومثلاً يجب أن تحتذى ، وإلا كانت مجرد أقوال تقال ، وخطب تذاع .

وإن تاريخ نبينا الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، هو تاريخ المثل العليا ، والأخلاق الفاضلة ، والبطولة التي أساسها الصبر على المكروه ، والثبات للبعث ، والتضحية بكل عزيز وغال في سبيل الحق والخير والإصلاح ، وما الهجرة إلا فصل من فصول التاريخ العظيم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة فوق الخمسين من عمره بثلاث سنين ، فلم يركن في هذه السن إلى الهدوء والراحة ، ولم يفشد النعيم والدعة ، ولكنه احتمل عبء الجهاد في سبيل الله راضياً مطمئناً صابراً على الأذى محسباً أجره على الله ، واثقاً بالنصر والفوز ، وقد راودوه عن دينه ورسالته ، على أن يكون ملكاً أو يملأوا عليه بيته فضة وذهباً ، فأبى واستمسك بما ندبه الله إليه ، وقال كلمته الخالدة التي يهتز لها قلب كل مؤمن : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وظل يصدع بكلمة الحق في وجوه أساطين الباطل عالية تدوى بها أرجاء مكة وما حولها ، وتقض مضاجع مشركيها وطواغيتها ، فآذوه إيذاء شديداً وحاربوه حرباً منسكرة ، وألبوا عليه قوى الشر والفساد تأليباً ، فما لانت قناته ، ولا صدعت صفاته ، حتى إذا لجئوا إلى آخر وسيلة يلجأ إليها المبطلون حين يضيقون بأهل الحق ذرعاً هتموا بقتله ، ودبروا تدبيرهم الخبيث للفتك به ، أمره الله أن يخرج من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بلد طيب ، صالح لاستقبال بذور الخير والصلاح ، ونباتها لإنباتاً حسناً « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » .

وهكذا ضرب المثل في الصبر حين صابر ، وفي الهجرة حين هاجر ، وعلم المؤمنين وسائر المصلحين أن أول مراتب الجهاد هي الصبر كل الصبر والاحتمال كل الاحتمال ، فإذا لم تجد المثابرة والمصابرة في بيئة من البيئات لفسادها والتوائها كان الرأي والحزم أن تتحول دعوة الحق إلى غيرها ، وأن تطرق أسماعا جديدة وعقولا

رشيدة، فإن المبادئ والدعوات كما تحتاج في نشرها وتشبيتها إلى قوة وشجاعة وصبر واحتمال، تحتاج كذلك إلى سياسة وبصر وحسن تصرف وتجديد في التماس وسائل النجاح .

إن هذه الذكرى تطالع المسلمين ، وقد تألبت عليهم في شتى بلادهم قوى الشر، وداخلتهم عوامل الفساد ودواعي الفشل والضياع، فإذا لم ينتهبوا من غفلتهم ويستيقظوا من رقادهم ، ويعالجوا أسباب ضعفهم وخذلانهم ، فإن الأمر والله جلل، وقد دلتنا عبر التاريخ وحوادث الدهر ، أن الأمم إذا انحلت أخلاقها، وفسدت عقيدتها وخرجت على دينها والصالح من تقاليدها، وتسكرت للفضائل، وانغمست في الرذائل، كان ذلك من علامات ساعتها ودلائل آخرتها .

فإذا كنتم موجهي في بياني هذا إلى إخواني المسلمين نصيحة، فهي أن يفيثوا إلى رشدكم، ويتوبوا إلى ربهم، ويعودوا إلى دينهم، ويخلعوا أنفسهم من المباديل والمنكرات وسائر ما نهى الله عنه، ويتمسكوا بالفضائل وأخلاق الشرف والاستقامة التي قضت سنة الله في خلقه ألا تنهض الأمم إلا بها، ولا تقوم الحياة السعيدة إلا عليها، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا .

أما أنتم أيها الإخوان والابناء في الازهر من أساتذة وطلاب فنصيحتي إليكم أن تدركوا حق الإدراك أنكم مجتهدون في سبيل الله، تبينون للناس طريق الهدى وتدعونهم إلى الخير، وتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر، وسبيلكم إلى ذلك أن تصلحوا أنفسكم أولا، وأن تجعلوا منها مثلا لعملية يراها الناس فيجتذونها، في الدين والعلم والخلق والمظهر والخبر، فأقبلوا على دراساتكم ناشطين مخلصين، وابدلوا في سبيل كمالكم العقلي غاية ما تستطيعون، وتجهلوا بالفضيلة فيما بينكم وفيما بين الناس، فإن العلم سلاحكم والخلق صلاحكم؛ وليستحضروا لاستاذ وطلابه دائما أن العلاقة بينهم كالعلاقة بين الأب وأبنائه . له عليهم السمع والطاعة والتوقير والإجلال، ولهم عليه الإخلاص والصدق والنصح والتوجيه إلى التي هي أقوم .

إنني أريد لكم الخير وأبغىكم سبيل الرشاد، وأرجو تحقيق آمال الأمة فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم، وتأييد الحجة القائمة على أنكم أعلام الحق ودعائم الخير، فأعينوني على إصلاح شأنكم، وارفعوا رأسى أرفع رؤوسكم، واستوجبوا العدل والإنصاف بالجد والإخلاص، وكونوا على اختلاف بلادكم وشعوبكم ومذاهبكم إخوانا في الله متحابين. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

أسأل الله لي ولكم الصلاح والرشاد.

«يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

«والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

اللهم إني أتوجه إليك، توجه العبد الخاضع، لجلالك وعظمتك، الراجي لرحمتك ونعمتك، أن تنصر الإسلام والمسلمين، وأن تكلاً بعين رعايتك، وتمد بتوفيقك وهدايتك ملوكهم ورؤسائهم، ولا سيما ملك مصر وملاذها وموضع آمالها، ومناطق مجدها وعزها، فاروقا الأول حفظه الله وأيده بنصره، ووفق رجال حكومته إلى ما فيه الخير والصلاح.

اللهم وارحم ملك مصر الراحل الطيب الذكر فؤادا الأول، وأسبغ عليه حلل غفرانك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم أجمعين.



احتفال الأزهر بذكرى الهجرة النبوية

احتشدت ألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والطلاب يوم الجمعة أول العام الهجري بعد صلاة العصر بالجامع الأزهر ، لسماع كلمة الجامعة الأزهرية في يوم الهجرة النبوية ، وكان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم في مقدمة المحتفلين بهذا اليوم الكريم ؛ فنهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر فألقى كلمة أحسن فيها كل الإحسان ، ووفى المقام حقّه أكمل توفية ، فهابلها المستمعون بالإعجاب والثناء . وما هي :

إذا ذكرت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رجع الذهن إلى سبعين عاما وثلاثة عشر قرنا مضت على حادث تمخض عنه التاريخ ، لم يحدث مثله في العصور القديمة قط ؛ حادث تغير له وجه الزمان ، وانقلبت به الأوضاع والشرائع ؛ ذلك هو هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ؛ حادث تجلت فيه قوة العزيمة ونفاذ البصيرة ، وكال البطولة ، وصدق الإرادة ، وقوة الإيمان ، وغاية التضحية والإيثار .

أجفر فجر النور المحمدي ، وأشرق سناؤه ، وتباج ضياؤه في جزيرة العرب ، وكان يسودها ظلام الشرك والجهالة ، وتتناوشها أحابيل الشرور والبوائق ، وعقائيل الاضطهاد والمظالم ، والعالم كله كان يئن تحت أنقال الحياة وضراوتها .

ظهر المعصوم ، صلى الله عليه وسلم ، في هذه البيئة يدعو الناس إلى الصراط المستقيم ، فوعد وأوعد ، وبشر وأنذر ؛ فمنهم من آمن به وهم قل ، ومنهم من صد عنه ، وهم من لهاميم قومه وعشيرته من قريش ، ومن لف لفهم من صناديد العرب المقادير ذوي العصبيات والكثرة ، فلم يلق منهم إلا تأييدا ونفورا ، فما زال بهم يلاينهم ويصانعهم ، ويفتل بهم في الذروة والغارب ، وما زالوا به يحاورونه

ويداورونه ، ويلفون حوله بالتهديد مرة ، وبالإغراء أخرى ، ويعمدونه ويمنونه بالمال والجاه والملك والشرف ، وهو عن ذلك متأبٍ ، معرض أشد الإعراض ، فعادلوا عن الإغراء إلى مطاردته والتضييق عليه ، وتعذيب أصحابه أشد العذاب . كان يصلي بالكعبة فأنوه وهو ساجد ، ووضعوا سلا البهائم على رأسه ورقبته ، فجاءت فاطمة باكية وأماطت هذا الأذى عنه . وكان يصلي مرة أخرى فيجىء أحد أعمامه ويخنقه ، وجعل يعتصر رقبته حتى جحظت عيناه فيأتى أبو بكر ، ويمنع عنه ، ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، ومع ذلك التضيق والتعذيب يثبت في دعوته ، ويحتمل الأذى في سبيلها ، ماضياً لا يصدده صاد ، مقداماً لا يرهب الردى . ويؤخذ بلال ، وهو أحد الموالى المؤمنين بالدعوة ، ويجلد بالسياط وهو يقول : « أحد أحد » . وعمار بن ياسر توضع الصخرة حمأة فوق بطنه ، ويعذب هو وأهله بالنار ، وهم صابرون ثابتون على إيمانهم .

ولقد تفنن المشركون في ضروب الإيذاء للصادق المصدوق ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في غضون ذلك ينتهز الفرص في المواسم ، ويدعو الوافدين على أسواق مكة ، والبيت الحرام ، ويعقد البيعة سرّاً على الهدم والدم مع رهط من الخزرج من أهل المدينة ، فكانوا أعضاداً له وأنصاراً في مستقبل الأحداث الجسام .

ولقد مُنى المسلمون بأعظم المحن والبلايا في أنفسهم وفي أموالهم ، ففر كثير منهم رجالاً ونساء إلى الحبشة ، وإلى غير الحبشة من الاصقاع النائية ، وبقي البعض بمكة يعاني من الشدة والضييق ما لا يحتمل ، ولا يستطيع الصبر عليه ، وفي آخر الامر رأى أعداء الحق أن يقضوا على الدعوة قضاء مبرماً ، وأن يغتالوا صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فاشتوروا وتراؤدوا الامر بينهم ، واتفقوا على أن يقوم بالامر في ذلك فتیان أشداء من قبائل العرب ، ويعضروه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد المطلب على النار له ؛ فأطلعه الله على مكرمهم ، وتأذن له بالهجرة إلى المدينة ، وإذ يمسكرك بك الذين

كفروا اليُثْبُتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

مضى النبي قدما إلى الغاية التي رسمها الله له ، ومعه صاحبه أبو بكر ، وضربا في الصحراء في ليل أليل حتى بلغا غار ثور ، فلما بلغاه تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخله الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضى الله عنه ؛ ويصبح المتآمرون وقد دخلوا دار الرسول شاهرين أسلحتهم ، لتنفيذ انتماءهم ، فيجدون عليا نائما في موضعه ، مسجى بردائه صلى الله عليه وسلم ، فيرتدون خائبين . ثم تجدد قریش في طلبه واللاحاق به ، ويمرون بغار ثور ، ولو أنهم نظروا تحت أرجلهم لرأوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعى أبصارهم كما أعى بصائرهم ، وأنجاه من كيدهم .

« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

وبعد ثلاثة أيام مضاهها الرسول صلى الله عليه وسلم في غار ثور ، اتخذ سبيله إلى المدينة فاستقبله أهلها مكبرين مهللين . قال البراء : « ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة » . وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم ، وسمى المسلمين بالمدينة الانصار .

وعلى أثر ذلك هاجر كثير من أصحابه إلى المدينة ، فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الانصار ، وجعلهم أمة متراصة متماسكة قوية ، ثم وحد بين الاوس والخزرج ، وقد دخلوا في الإسلام أفواجا أفواجا ، فكانوا إخوة متحدى الاقنعة والغاية والامل ، وزال ما كان بينهم من جفاوة وعداوة قديمة مستحكمة .

وبعد أن استقر الامر للرسول صلى الله عليه وسلم عباً للجيش ، وعقد

لها الأولوية ، وبعث البعوث ، وأخذ من ذلك الحين يحمى الدعوة الإسلامية ويدود عنها ، ويقاتل من يصد عن سبيلها .

« ألا تقاتلون قوما فكشوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدوكم أول مرة ، أنخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعدبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، .

ومن ذلك قويت شوكة المسلمين ، وتأمنت الدعوة الإسلامية ، وجعل الناس يدخلون في دين الله آمنين مطمئنين ، وعم الإسلام ربوع الجزيرة ، ثم أخذ يزحف إلى جوارها ، وما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حتى كان الإسلام قد شرق وغرب ، وكانت له الكلمة العليا .

والعبرة في الهجرة :

١ — أن القادة والاحرار إذا سيموا الضيم في أوطانهم ، ولم يستطيعوا تأدية رسالتهم في قومهم ، هاجروا إلى بلاد يتهيأ لهم فيها العمل أحراراً ، ويتمسكون من إسماع صوتهم الى مواطنهم .

٢ — أن الاحرار بهجرتهم يستطيعون بحيلتهم ، وحسن سياستهم أن يجمعوا حولهم أنصاراً يساندونهم في بلوغ غايتهم ، ومعتقد آمالهم ، وبذلك يرجعون إلى أوطانهم منتصرين فاتحين .

ويقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ،

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعياً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً ، .

وفي هذه الهجرة بالذات تحققت تلك العبرة ؛ وكانت فرقا بين الحق والباطل ، والظلام والنور ، والخير والشر ، وكان فيها هداية الناس ، وسعادة البشر .

وإن الأزهر إذ يحتفل بالهجرة النبوية ، إنما يحتفل بحادث إسلامي عظيم له خطره في حفز الجماعة الإسلامية إلى أقدم الغايات ، وأسمى المقاصد ؛ وتذكيرهم بأيام البطولة الخالدة للمسلمين الذين كانوا يعيشون للحق ويتسابقون إلى سُوح الموت والشهادة ؛ للذيادة عن الراية الإسلامية ، وإعلاء كلمة التوحيد .

أما بعد : فإن الأزهر ليأسف أشد الأسف لفقد شيخه السابق المغفور له فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، فقد كان عضداً للدين ، وأباً رحماً للأساتذة والطلبة ، وكان ميمون النقيبة ، عظيم النفع .

وللإسلام والمسلمين خير عوض في شيخ الأزهر الحالى ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، ولقد فرحنا بتوليته كرسى المشيخة فرحاً عظيماً ، ففضيلته معروف بالورع والتقوى ، والغيرة على الدين والكرامة ، والتضلع من علوم أصول الدين ، والفقهاء الإسلامى على الأخص .

حفظه الله نصيراً للدين ، وأبقاه عضداً للعلم والعلماء ، وأعانه على عمل الخير للأزهر والأزهريين .

ونصلى ونسلم عليك يا رسول الله صلاة وسلاماً دائماً دوام ملك الله .

وندعوك اللهم أن تهدينا بهديه ، وأن تيسر لنا السير في سبيله ، وأن تبصرنا بحالنا ، وأن توفقنا الى خدمة الوطن الإسلامى ، وأن تسدد خطوات ولاية الامور فينا ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة المتوكل على الله الملك فاروق الأول ، ناصر الدين ، وحامى حى الإسلام والمسلمين .

اللهم احمه بحمايتك ، وارعه برعايتك ، واكفل له حياة مديدة مقرونة بالعرز والتأييد .

وأن توفق رجال حكومته الرشيدة لعمل ما فيه خير العباد والبلاد .

لَيْسَ مِنْ هَيْئَانِ بَلْ

صدر كتاب تحت عنوان (من هنا نبدأ) أحيط بـلغظ شديد ، ثم صدر ، و وكل أمره إلى محكمة القاهرة الابتدائية ، فحكمت بأن ليس للقانون مسوغ في مصادره ومنع انتشاره ، فأقبل الناس على قراءته ليروا مثار الضجة التي أوجبت محاكمته ، حتى طبعت منه عدة طبعات في مدى نحو ثلاثة أشهر ؛ وهو لإقبال لم يصادفه كتاب قبله في هذه البلاد . ولذلك عنيينا بأمره وقرأناه بنفانية ، فوجدنا مؤلفه الفاضل فضيلة الاستاذ خالد محمد خالد خريج كلية أصول الدين ، قد خاض بحراً لا ساحل له من فلسفة الدين ، وفلسفة الاجتماع ، أداه إلى وجهات نظر تحتاج لتحيص دقيق ، وتحليل محكم ؛ لأنه بعد أن منحه المصادر هذه الدرجة من الذبوع يجب أن ينال حقه من النقد ، لاسيما وقد عاج أعظم المسائل خطورة ، وهي الدين ، والاجتماع ، وتوزيع الثروة العامة ، ولا توجد مجلة من اختصاصها هذه المسائل أجدر من مجلة الأزهر بنقده .

* * *

كتاب (من هنا نبدأ) يشتمل على أربعة أبواب ، أولها (الدين لا السكينة) ، وقد شغل منه ثمانية وأربعين صفحة ؛ ثانيها (الحزب هو السلام) ؛ وقد استدعى منه ثمانية وأربعين صفحة أيضاً ؛ ثالثها (قومية الحكم) وقد أخذ منه خمسة وستين صفحة ؛ رابعها (الرئة المعطلة) وقد استوعب منه تسعة وخمسين صفحة . وقد وضعنا كتاباً ناقشنا فيه فضيلة الاستاذ مناقشة علمية ، الغرض منها الوصول إلى الحقيقة لا إثارة الممازرة ، وعرقلة المساعي التي تبذل للإصلاح والتكامل ، وقد سلمناه للطبعة على أن لا تذيعه إلا بعد أن يتم نشره في هذه المجلة .

قال فضيلة الاستاذ في أول فصل من كتابه :

« كل ما نود أن ننصح به ، هو أن نبارك هذا (الوعي) وندعه ينمو ويتسلق ، وأن لا نحاول قط كبجه وزجره ، فإن ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل ، الذى نريد أن نكونه . قد تصيب مرة وتخطئ مرات (يريد الأمة) ، وتهتدى تارة وتضل تارات ، ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب . »

« إننا لن نقدم لمجتمعنا في هذه الفترة الحاضرة خبراً من (الحرية) ، كي يستطيع في ضوءها وسناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق القويم . »

« والتحرر من (الخوف) هو نقطة البدء في طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة . »

« ومن أجل ذلك يحىء هذا الكتاب في أوانه ، ليقول للمجتمع (لا تخف) ، وليرى من طريقه تلك الاشباح التى تخيفه وتخذله وتملؤه روعاً ورعباً - كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد في شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا الواجبات الجديدة التى تفرضها علينا الحياة وظروفها ، وأن يكون كل مواطن أداة حية تساهم في التحول الاجتماعى الرشيد الذى تنوق إليه ، والذى يجب أن يبدأ فوراً ويتم سريعاً . »

ثم فسر حضرته ما يريده من قوله التحول الاجتماعى ، أنه : « إلى قومية شاملة لا تنافر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للسكينة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً ... وتربصه ولاء وأماناً ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة . »

ونحن نعلق على هذا الكلام بقولنا :

إن وعى الجماعات كوعى الأفراد يكون عادة مقدمة لبلوغها جميع مقدمات الحياة ، وأسباب البقاء ؛ ولكنه كما هو لدى الأفراد يحتاج لتوجيهات من الآباء والمعلمين ، هو كذلك لدى الجماعات فى حاجة ماسة إلى هداية ومرشدين ؛ فإن أعوزوا ارتد هذا الوعي كارثة عليهم ، وانقلب بحكم التطور إلى اندفاع لا يقف فى عنفه عند حد ، وهو مانعنا اليوم من تدهور الاخلاق ، وانحلال الرُّبُط الادبية

وتدافع الجماهير إلى ما يبديها ويبددها . ومن العجيب أن المؤلف ينصح - والحال كما ترى - بمنحها (الحرية) ويعظمها بالتحرر من (الخوف) أيضاً ١ .

إن الخروج على الآداب المتفق عليها في هذا الدور الذى نحن فيه ، ويسميه الأستاذ ، وعياً ، ويطلب له المزيد من الحرية ، قد بلغ إلى حد لا يمكن أن تقبله وتطبيقه أمة لها أمل في البقاء ، فقد عتق الأبناء الآباء والأمهات ، واستخفوا بالآداب والمعتقدات ، ولولا أن القوانين تحد قليلاً من هذه الإباحة الجنونية ، لأصبحت الطرقات والمتنزهات بؤراً لأحقر ضروب الموبقات .

أفيظن مؤلفنا أن هذا الضرب من الوعي المنروك لسلطان الشهوات ، يؤدي إلى ما يتخيله من نهوض ، وخاصة بعد أن يهبه الناس قسماً من الحرية أوفى مما كان سبباً في هذه المنسكرات ؟ لم يقل بهذا رأى عالم اجتماعي في العالم ، لأنه مما لا يعقل ؛ فإن الشعوب إذا تبادت في ركوب أهوائها ، جرفت انحرافاتها في متاهة من الضلال ليس وراءها إلا التفسك والانحلال .

إن الشعب الذى يترك له الزمام ، وخاصة في دور شبابه ، لا يزال يهيم في متاهات طيشه حتى يصاب بالإعياء الذى يسلمه إلى اليأس ، وإذ ذاك إما أن يفنى في جثمان شعب آخر ، أو أن تحتله دولة مستعمرة تستغل الدماء الذى بقى له من الحياة . أما البقاء فلا والله ، إلا إذا وعى الحياة على ما يفهم المصلحون ، وحد من شهواته وحرية ، واحترم الوصايا التى أجمع العالم كله على أنها أصول الرقي ، ويتابع الفلاح .

ومن عجب أن الأستاذ يتيح للشعوب أن تؤتى كل هذه (الحرية) ، وينصح بعدم الحد لها منها ، ويوصيها أيضاً بأن تنزع (الخوف) من قلبها ، أى أن لا تحسب لمغبة تهورها حساباً ! فليسمح لى أن أقول : إنه لا يوجد شعب يدخل في هذا الدور ملقى حبله على غاربه ثم يخرج منه وله وجود بين الشعوب ! بل أن أقول : لم يوجد شعب كتب له البقاء وجد في الشروط التى يوصى بها الأستاذ منذ عرف التاريخ ؛ فقد جرت سنة الله على أن الشعوب التى كتب لها الوعى

والارتقاء ، ينشأ من صميمها أفراد يتولونها بالنصح والإرشاد ، ويعملون من هوجها كلما انحرفت عن الطريق ، ويرشدونها إلى سواء الصراط ، تارة بالوعظ والتذكير ، وطوراً بالزجر والعقاب ، حتى تبلغ أشدها ؛ ولا تحرم في دور من أدوارها من المرشدين والهداة . فعلى أى أساس على يدعو الأستاذ القادة والقائمين على الأخلاق والآداب أن يلزموا الصمت والاستكانة ، تاركين شعبهم يهيم على غير هدى حتى يتنزل عليه الرشد من نفسه فيستقيم ؟ هذا طلب ما لا يمكن ولا يكون ، وما لم تجر سنة الله به في أمة من الأمم من يوم خلقها إلى هذا اليوم .

وبعد ، فإلى أى هدف يرمى الأستاذ بعد إسدائه هذه النصائح : « إلى قومية شاملة لا تنافر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج لا سلطان للرجعية ولا للسكينة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حبا ... وتربصه ولاء وأمنا ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة . »

نقول : أما الاشتراكية فهي لا تزال في الميزان ، فقد قال بها أفلاطون قبل نحو ألفين وأربعمئة سنة ، فاعتبر قوله الناس من الأمور الخيالية . ولكن التفكير فيها بقي حياً يظهر حيناً ويختفي أجيالاً . ففي القرن الخامس عشر دعا إليها الفيلسوف (توماس مور) الإنجليزي . فشرع الناس يؤسسون مدناً على النظام الاشتراكي البحت ، فلم تقم لها قائمة ، وعلل الاشتراكيون فشلها بأنها لم يراع في إنشائها ما يحيط بها من المؤثرات .

فلما نبغ (كارل ماركس) ، وكان من يهود ألمانيا ، وضع للاشتراكية أساساً علمياً ، فدعا إلى الاشتراكية العالمية لتتوحد الانظمة في سائر الممالك ، ويكون ذلك داعياً لبقائها ، فاعتبر أباً للاشتراكية . وهي تقوم على أصلين رئيسيين : إلغاء الملكية الفردية إلى حد ما ، وإلغاء الوراثة إلغاء تاماً ، لتتكون الأرض ملكاً لجميع العائشين عليها . فهي كما ترى تصطدم بعقبتين كأداوين : إلغاء الملكية والوراثة ، وهما أعلق بقلب الإنسان من أعز شيء عنده ، ولسكنهما يسهلان على من لا يملك شيئاً .

نعم لا توجد مملكة تخلو من دعوة اشتراكية واشتراكيين ، ولكنهم في كل بلد ، ما عدا روسيا ، قلة لا تستطيع أن تنفرد بالحكم فيه ، ومع ذلك يقول الأستاذ في صفحة (١٢٨) من كتابه : « لقد انعقد (إجماع العالم المتحضر كله) على أن النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حداها الأقصى في الوقت الحاضر هو الاشتراكية ، ويتجلى هذا (الإجماع العالمي الرشيد) في أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله . ولكنه في شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة . وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهي سائرة في طريقها إلى قم الاشتراكية العليا . »

نقول : إننا نعجب من قول الأستاذ بالانعقاد إجماع العالم المتمدن على أن الاشتراكية خير نظام تبلغ به المنفعة الاجتماعية حداها الأقصى ، وأن الدول الناهضة تأخذ بها وتطبقها الخ ، وأنت ترى وتقرأ في الجرائد كل يوم أن الاشتراكية حزب من الأحزاب لا أكثر ولا أقل ؛ وأنهم تل الحكم فيها منفردة بالسلطان إلا في إنجلترا ، ولكن اشتراكي الإنجليز معتدلون لا يقولون بإلغاء الملكية الفردية ولا الوراثة ، بل لهم مطالب يتقاضونها من أصحاب رؤوس الأموال طلباً لتحقيق التوازن الاقتصادي ، ودفع كابوس البؤس عن الطبقة العاملة ، وقد رضخ لهم أصحاب رؤوس الأموال بكثير مما يطلبون . وقد فازوا في الانتخابات مراراً وتولوا الحكم ، فلم يصدر منهم أقل تطرف يشير ثائرة المحافظين . ووزارتهم اليوم في إنجلترا على وشك السقوط ، فلا تزيد أغليتها عن نحو ستة أصوات .

ولم يلِ الاشتراكيون الحكم منفردين قط لا في فرنسا ولا في إيطاليا ولا في أية مملكة أوروبية ، ورغمما عما يحدثونه من المشاغبات والإضرابات عن العمل هناك ، فإن تلك الممالك لا تهتم في الانتخابات العامة إلا عدداً محدوداً من المقاعد لا تبلغ ربع ما لبقية الأحزاب . وذلك لأنهم يكرهون العمال ويرونهم أجدر بالكسد والإرهاق ، ولكنهم يكرهون التنازل عن الملكية الخاصة

والوارثة ، ويتساحون بكل ما دونهما ، فأصبح ما سمحوا به من مطالب العمال الحققة حدا يشكرون عليه .

فالدول الأوروبية لم تأخذ بالنظام الاشتراكي كما يقول الاستاذ ، ولم ينعقد إجماع العالم المتحضر كله على أن الاشتراكية هي النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حداً الأقصى في الوقت الحاضر . ألا ترى أنه لو كان الأمر كذلك لاندحجت جميع الأحزاب في الاشتراكية ، ولانتخب الناس لمجالسهم النيابية الاشتراكيين دون سواهم .

يجوز أن تصبح الاشتراكية في عهد من العهود المستقبلية مذهب الناس أجمعين ، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا بلغ الناس حداً من التعاطف الإنساني ، والترابط الأخوي ، ومن عدم الأنانية ، والتزهد عن الذاتية ، بحيث تنعدم في نظرهم الفوارق الشخصية ، وهذا ، إن لم يكن محالاً ، فلن يكون إلا بعد أدوار عديدة من التطور العقلي والنفسي لا يمكن أن نتخيله تخيلاً ، لأنه لا يوجد في العالم بعد بلوغ الثقافة إلى الحد الذي وصلت إليه اليوم ما يدل عليه . فلا تزال الأمم تميل للتناحر ، والآحاد في أرقاها كمها في المدنية دائبين على التزاحم ، ولا تزال الطبيعة البشرية يشينها حب الذات ، والميل إلى التفوق ، ويزيدها شينا الكبر والحسد والضعف والطمع والشر ، وتلوثها بشرور كثيرة من حب العدوان والثأر والسرقة والغش والتدليس والتحايل وغيرها مما لا يحصى ، أفلا ترى معي أنه قبل أن يعيش الناس إخواناً مشتركين في الحياة ، يجب أن تزول كل هذه الآثام والأرجاس من الطباع ، وأن تطهر النفوس من أدرانها ، وما تؤدي إليه من مآسها ، وأن يحل محلها أضدادها من الصفات النبيلة ، والميول السامية ، والنوايا السليمة ، ليتمكن أن يعيش الناس جميعاً كأنهم أفراد أسرة واحدة ؟

فإن أردت - مع تلوث بني آدم بكل هذه الشرور - أن تسود الاشتراكية الأمم ، فذلك لن يكون إلا بإكراهها عليها ، ومن ذا الذي يكرهها وهي حرة تعطي بلادها من ضروب الحكم ما تشاء .

محمد فريز وجري

التأريخ

لفضيلة الاستاذ الشيخ فسكرى يس

أخرج البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : « ما عدُّوا من مبعث
النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عدُّوا من مقدِّمه المدينة . »

* * *

نبينا هذا الاثرُ الجليل أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يجعلوا وقت مبعثه
صلى الله عليه وسلم ، ولا وقت وفاته مبدأ لعدد السنين والاعوام ، وحساب
الشهور والايام ، وتاريخ الحوادث والاحوال ، وإنما جعلوا وقت خروجه
من مكة إلى المدينة مهاجراً هو المبدأ لذلك ، فقد اتفقت له صلى الله عليه وسلم
أربع حوادث جسام ، وقضايا عظام ، كل منها يصح أن يؤرخ به ، ويصلح
أن يكون مبدأ للتاريخ ، وهى : مولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، ولكنهم
رجحوا الهجرة على غيرها ، لأن المولد والمبعث لا يخلو كل منهما من الخلاف
والنزاع حول تعيين وقته بالضبط والتحديد ، ولأن الوفاة يُوقع تذكُّرها
واستحضارها فى كثير من الأسف والالـم على فراقه صلى الله عليه وسلم ، فاختروا
الهجرة ، لأنها لا ينبجم عنها شيء من ذلك .

والتأريخ بالهمز ، ثم ترك تخفيفاً ، وهو تعريف الوقت من حيث هو وقت ،
ومثله التورخ بالواو ، وهو قليل الاستعمال ، يقال : أرخت وورخت : وقتت ،
وقيل : تأريخ كل شيء غاية ووقته الذى ينتهى إليه ، ومنه قيل : فلان تأريخ قومه ،
أى ينتهى إليه شرفهم ورياستهم .

والتأريخ فى الاصطلاح : توقيت الفعل بالزمان ، ليعلم مقدار ما بين ابتدائه ،
وبين أية غاية مُفرضت له ، فإذا قلت : كتبته فى يوم كذا من شهر كذا
من سنة كذا ، وقرئ بعد ما كتبته بسنة مثلاً ، عُلم أن ما بين الكتابة
وبين قراءتها سنة ، وقيل : هو أول مدة الشهر ، ليعلم به مقدار ما مضى .

وكان التأريخ يستعمل أولاً في نفس الوقت الذي يحدث فيه الشيء، ثم توسع فيه حتى صار يستعمل فيما يعرض لهذا الشيء من أحوال .
وهناك خلاف مشهور في أن لفظة « تأريخ » هل هي عربية أو أعجمية ؟ ، فن يرى أنها عربية يقول : إنها مشتقة من الأرخ — بفتح الهمزة وكسرهما — وهو ولد البقرة الوحشية ، كأنه شيء حدث كما يحدث الولد ، وقيل : الأرخ : الوقت ، والتأريخ التوقيت ، وقيل : التأريخ قلب التأخير .
ومن يرى أنها أعجمية يقول : إنها معرب « ماه روز » ، ومعناه حساب الشهور والأيام .

وقال بعض الباحثين : إن كلمة « تأريخ » في اللغة العربية مولدة من كلمة « ياروخ » في اللغة العبرية ، ومعناها فيها هو القمر ، والقمر في اللغة التركية اسمه « ياروق » ، ومعنى الاسم هو المنير المضيء ، استعارته اليهود من الأتراك ، كما استعارت اسم « التوراة » من « توره » ، ولذا لم ترد كلمة « تأريخ » في القرآن ، ولا في لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

والتأريخ معروف عند الناس من قديم الزمان ، فإنه لما كثر بنو آدم ، أرخوا بهبوط آدم من الجنة ، فلما بعث الله نوحاً ، أرخوا من الطوفان ، فلما كان تحريق إبراهيم ، أرخوا من ذلك إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ، بنى إسرائيل ، ثم إلى زمن داود ، ثم إلى زمن سليمان ، ثم إلى زمان عيسى ، وقيل : أرخت اليهود بخراب بيت المقدس ، والنصارى برفع المسيح ، وقيل : كان بنو إسماعيل يؤرخون من بنيان البيت ، حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موته ، فلما كان عام الفيل أرخوا منه ، وقيل : كان في اليمن والحجاز تواريخ كثيرة ، يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وأنها كانت باعتبار حوادث وقعت في الأيام الخالية ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، اتخذ المسلمون هجرته مبدأ للتأريخ ، وتناسوا ما قبله .

وذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة مهاجراً في شهر ربيع الأول ، ويعضد هذا ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر عليّاً أن يكتب فيه : إنه كتب لخمس من الهجرة ، فيكون أول مؤرخ بالهجرة — على هذا — هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن المحفوظ المشهور أن أول من وضع التاريخ الهجرى هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد ذكروا فى سبب ذلك عدة روايات :

منها إنهم كانوا قبل خلافة عمر يسمون كل سنة باسم حادثة وقعت فيها ، كسنة الإذن ، وسنة الأمر ، وسنة الابتلاء ، فلما كانت خلافته رضى الله عنه سأله بعض الصحابة فى ذلك ، وقالوا : هذا أمر يطول ، وربما يقع فى بعض السنين اختلاف وغلط ، فاختار رضى الله عنه عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها ، فاستحسن الصحابة رأيه فى ذلك .

ومنها أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر أنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، ولا ندرى بأيتها نعمل ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرخ بالبعث ، وقال بعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل ، فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة ، فلما اتفقوا على التاريخ بالهجرة ، قال بعضهم : ابدأوا برمضان ، فقال عمر : بل بالبحر ، فإنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه .

ومنها أنه رُفع لعمر صكَّ محمَّله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ ، الماضى ، أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ، ثم قال : إن الاموال قد كثرت فينا ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ضبطه ؟ ، فقال له ملك الاهواز — وكان قد أمر وأسلم على يده — : إن للعجم حسابا ، يسمونه د ماه روز ، ويسندونه إلى من غلب من الأكاسرة ، ثم شرحه له ، وبين كيفية ، فقال رضى الله عنه : ضعوا للناس شيئا من ذلك يتعاملون عليه ، ويضبطون به أوقاتهم ، فذكروا له تاريخ القرس ، فلم يوافق عليه ، فاستحسنوا الهجرة تاريخا .

ومنها أنه قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئا يسمونه د التاريخ ، يكتبون من عام كذا ، وشهر كذا ، فقال عمر : هذا حسن ، فأرخوا ، فلما أجمعوا على جعله من الهجرة ، قال عمر : بأى شهر نبدأ ؟ ، فقال قوم : من رجب ، وقال آخرون : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم ، فإنه شهر حرام ، وهو أول السنة ، ومنصرف الناس من الحج ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو ست عشرة فى منتصف ربيع الاول .

ومنها أن عمر جمع الناس ، فسألهم عن أول يوم يكتب التاريخ ، فقال على : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك ، ففعله عمر .

هذا هو المحفوظ المشهور في وضع التاريخ الهجري ، ويرى بعض العلماء أنه لا تنافى بينه وبين الأول ، فإنه لا مانع من أن يسكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتاريخ من الهجرة ، وأن عمر قد تبعه في ذلك .

وذكر السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » ، لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً ، فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمهر ، وهو أول الزمن الذي عرّف فيه الإسلام ، وعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ربّه آمناً مطمئناً ، وابتدأ بناء المسجد ، فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم ، وفهم من فعلهم أن قوله تعالى : « من أول يوم » ، أنه أول أيام التاريخ الإسلامي ، أى أول يوم تدخل فيه النبي وأصحابه المدينة .

وإذا كانت الهجرة قد وقعت في شهر ربيع الأول ، فما هي الحكمة في تأخير التاريخ منه إلى التاريخ من المحرم ؟ .
وقد بينوا الحكمة في ذلك من عدة وجوه :

أحدها : أن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ البيعة وقعت في أثناء ذى الحجة ، وهي مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة ، والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبدأ للسنة الهجرية .

ثانيها : أن المحرم أول شهور السنة عند العرب ، وكانوا يعظمونه ، ويستأنفون فيه أعمالهم بعد انصرافهم من الحج ، أخرج البخاري في تاريخه عن عبيد بن عمير قال : المحرم شهر الله ، رأس السنة ، فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب الورق .

ثالثها : أن أول يوم من المحرم هو اليوم الذي تنفجر منه السنة وتبتدىء ، كما يشير إلى ذلك تفسير ابن عباس وقتادة من أن الفجر الذي أقسم به الله تعالى في أول سورة الفجر ، هو أول يوم من شهر المحرم بفر السنة .

وعلى كل حال ، فالذى يستفاد من مجموع الآثار والروايات الكثيرة الصحيحة أن الذى أشار بجعل المحرم مبدأ للسنة الهجرية هم عمر وعثمان وعلى ، والصحابة وافقوهم على ذلك .

وأما ما قيل من أنهم كانوا فى صدر الإسلام يؤرخون بربيع الاول ، فالمراد منه أن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يؤرخون بسنة القدوم ، وبأول شهر منها ، وهو ربيع الاول ، وأما ما حدث فى زمن عمر ، فهو التأريخ بالهجرة وبالمحرم .

ويقول أهل الصناعة فى الكتابة والتحرير : إنه لا بد من تأريخ الرسائل والمكاتيب ، لأنه لا يُدَل على تحقق الأخبار ، ووقوع الحوادث ، ولا يُعرَف قربُ عهد الكتابة وبعده ، وتقدمه وتأخره إلا بالتأريخ .

ومن أصحاب هذه الصناعة من ينظر فى التأريخ إلى ما مضى من الشهر ، وما بقى منه ، فإن كان ما بقى أكثر من نصف الشهر ، كتب لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف ، جعل مكان مضت . . . بقيت . ومنهم من لا يؤرخ إلا بما مضى من الشهر ، لأنه واقع معروف ، وما بقى مغيب مجهول ، وأكثر العمل جار على هذه الطريقة .

والليل فى تأريخ العرب مقدم على النهار ، فإن السنين عندهم مبنية على الشهور القمرية ، فالليالى سابقة على الأيام ، لأن القمر إنما يطلع ليلا ، ولأن أول الشهر ليلة ، وآخره يوم ، ولهذا يقال فى التأريخ بأول ليلة : كتب لأول ليلة من الشهر ، أو لغرته ، أو لمهله ، أو لمستهله ، وفى الليلة الثانية : كتب لليلة الثانية من كذا ، وعلى هذا القياس إلى آخر الشهر ، ويكتب فى الخامس عشر : للنصف من كذا ، لأنه أخصر ، وفى الليلة الأخيرة يكتب : لآخر ليلة منه ، أو سلاخه ، أو انسلاخه ، وكذلك يكتب فى اليوم الأخير ، وإذا كتب لآخر ليلة ، أو لآخر يوم ، علم أن الشهر كان تاما .

وكانوا فى مبدأ التأريخ بالهجرة ، لا يفتنون السنة بكونها هجرية ، ولهذا لا يكاد يوجد أثر لذلك فى الكتب العربية القديمة ، ويظهر أنهم لم يحدثوا هذا النوع إلا بعد استعمال التأريخ بغير الهجرة ، فاحتيج إليه للاحتراز ؟

المنفعون بمسك القرآن

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

سأل سائل عما ورد فى وصف القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :
« هدى للمتقين ، و ذكرى للمؤمنين ، و هدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، مما
يفيد أن القرآن ليس له تأثير إلا على صنف خاص من الناس : هم المؤمنون
أو المتقون ، أما غيرهم فلا تأثير له عليهم ، ولا ينفعون بهديه ، ولا تشرق على
قلوبهم أنواره ؛ وإذا كان القرآن كذلك فهو كتاب خاص لقوم مخصوصين ،
ولا يصلح أن يكون « عالمياً ، قادراً على هداية الناس أجمعين .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال تتبعنا ما ورد فى القرآن الكريم من مثل
ذلك ، فوجدناه على ما قرر السائل ، فإن كلمة « هدى » أو « موعظة ، أو « ذكرى ،
أو « شفاء ، لم يوصف بها كتاب الله إلا مضافة « للمتقين ، أو « المؤمنين ،
أو « المحسنين ، أو ما إليها من الأوصاف الخاصة ، ولإذن فما بنى عليه السؤال
صحيح ، وعلينا أن ننظر فى الجواب :

إن هذا الوصف للقرآن الكريم وصف متفق مع الواقع وحقيقة الأمر
فى الناس ، فليس كل إنسان مستعداً لقبول الهداية الإلهية والانتفاع بها ، فإن
النفوس تختلف ، فمنها نفوس غلبت عليها المادية المظلمة ، فصار أصحابها أجساداً
ليس للروح سلطان عليها ، وليس للمعنويات حظ فيها ، ومنها نفوس صافية
راقية تعلم أن الحياة ليست مُحَسَّسات خُصب ، وتثق فيما وراء هذه المادة أكثر
من وثوقها بالمادة ، وتتقبل فى اطمئنان حكم الشعور القلبي ، والإحساس
الداخلي ، كما تتقبل المرئيات أو المسموعات أو الملموسات .

والصنف الاول من الناس أقرب إلى البهائم ، بل فيهم شبه من الجماد الذى
لا يعى ولا يعقل ، أما الصنف الثانى فهو مثال الإنسانية ، وكلما ارتقى فيه هذا

الشعور الروحي ، والإحساس المعنوي ؛ اقترب إلى الكمال ، حتى يصل إلى
المثل الأعلى ، في الإنسانية ، والقرآن الكريم يصف لنا الصنف الأول في كثير
من الآيات فيقول : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم
إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، ولهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون
بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ،
« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ويقول « ثم قست
قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه
الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله .

وهو يبنى على هذه الطبيعة التي يقررها عنهم ، ما يذكره من انصرافهم عن
الذكر ، والتوائهم عن الحق ، وإعراضهم عما فيه صلاحهم ، فيقول : « إنك
لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمى
عن ضلالتهم ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، « أفأنت
تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون .

وقد صور الله لنا هذه الطبيعة الجامدة في عدة آيات تصويراً رائعاً يبين لنا
أمرها أتم بيان ، فمن ذلك قوله جل وعلا : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي
إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم
فهم لا يبصرون ، ولا شك أن صورة المغلول الذي أحاطت الأغلال بعنقه ،
ووصلت بعرضها إلى ذقنه ، فأقمعته - أي تركت رأسه مرفوعاً لضيقها فلا يستطيع
له حراكا - وقد حشر في مكان ضيق قد سدت من دونه المنافذ فلم يس له عنه
متقدم ولا متأخر ، وغشى على بصره فهو غير قادر على رؤية ما حوله ؛ لا شك
أن صورة كهذه الصورة البيانية البليغة تدل على مقدار فساد الفطرة ، وجود
الطبيعة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام : « قال رب إنى
دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدكم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتخبرهم
جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ،
ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فهذه أيضاً صورة
واضحة في بيان معنى الإعراض والتواء ، يصور فيها قوماً فسدت طبائعهم ، فلم

يتقبلوا الهدى على أى نحو جاءهم ، فإذا أسمعهم الداعى وضعوا أصابعهم فى آذانهم وإذا تعرض لهم استغشوا ثيابهم ، وإذا حاول أن يعالجهم من نواحيهم النفسية بالجهر لهم تارة ، والإعلان تارة ، والإسرار تارة ، أفسدوا عليه سائر محاولاته لإصراراً واستكباراً ، فهم كالوحوش السكاسرة ، أو القردة العاصية ، أو النور الشرسة ، ومن ذلك قوله تعالى ، وقد صرح فيه بطبيعتهم الوحشية النافرة : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حر مستنفرة فرت من قسورة ، إلى غير ذلك من الآيات .

أما الصنف الثانى من الناس فهو صنف طبع حساس مرهف الشعور ، فيه صفات الإنسانية : يخاف ويرجو ، ويسمع ، ويعقل ، ويتدبر ويدرك ، وتهزه الذكرى ، وتنفعه الموعظة ، ويتفتح قلبه للهدى ، ويهوى فؤاده للإيمان ، وينشرح به صدره ، ويطمئن إليه نفسه ، ولا تزيده حوادث الخير والشر إلا ثباتاً ، وهذا الصنف هو الذى يعده القرآن حياً ، ويوجه إليه الدعوة ، ويخاطب فيه ضميره وقلبه « إنما يستجيب الذين يسمعون » . « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » . « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وكما صور الله الصنف الأول بما ذكرنا ، صور الصنف الثانى فى كثير من الآيات ، فمن ذلك قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، فهذه صورة المتقل فى رياض الذكر ، تمر به آية تخويف فيقف عندها خائفاً وجلال يقشع لها بدنه ، ويرتجف من هول وعيدها فؤاده ، ثم تمر به آية ترجية فيلين ويرجو ويقبل على الله ، لا يخاف ظملاً ولا هضماً .

ومن ذلك قوله جل علاه « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، وهذه الآية فى وصف بعض النصارى وبيان استعدادهم لتقبل الحق ، والإيمان به ، لما فى قلوبهم من الرقة والخشوع ، ويقول الله تعالى فى وصف

قوم آخريّن من أهل الكتاب : د ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ، وكل ذلك تصوير للطبيعة الصّافية المواتية من أى ملة كان صاحبها ، فليس الأمر في ذلك خاصا بدين ، ولا مقصورا على طائفة بعينها من الناس ، وإنما هو أمر الطبيعة البشرية حيثما كانت ، وفي أى زمان وجدت .

تبين بهذا موافقة التعبير القرآني للواقع الطبيعي ، وأن القرآن حين يقول د هدى للمتقين ، د وذكرى للمؤمنين ، وما إلى ذلك ، يصف الناس على حقيقتهم ، ويشير لأرباب الدعوات وأصحاب الافكار إلى تلك الطبيعة فيهم ، حتى لا يضيعوا أوقاتهم ، ولا يشتتوا جهودهم في تطلب الماء إلا من ينابيعه ، وفي استنبات الخطي إلا من وشيجه :

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها الفخل

وهذه حقيقة إذا فهمت وتقررت في نفوس الدعاة والمصلحين كان لها في رسالتهم أعظم الجدوى ، وكانت لأشخاصهم نعم السلوى ، أما جدواها ففي أن تسير القافلة قدما لا تلوى على من ند أو شد ، ولا تنظر من تخلف أو كل ، فإنه من الخير كل الخير للإنسانية أن تخطو في سبيل الإصلاح خطواتها غير عابئة بمن يحاولون تعويقها ، ويعملون على إثقالها وتكسيها ، فلتدعهم فيما هم فيه ، ولتمض لطيتها راشدة قوية فسوف تحملهم بذلك على مجاراتها ، وتجذبهم ، ولو على الرغم منهم ، إليها ، وأما سلواها ففي أنها تطرد عن العاملين دواعي الحزن والأسف ، فإن صاحب الفكرة إذا جوبه بالعداوة في سبيلها ، وعوند فيها : ران على قلبه رين من الحزن والأسى ، فإذا علم أن الذين يعادونه ويعاندونه هم أصحاب الطباع الملتوية ، والنفوس الفاسدة ، سرى عنه وذهب ما يلاقى من الأسف والحزن .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الجدوى والسلوى جميعاً ، ذلك أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسير في سبيله دون اكتراث بمن حقت عليهم الكلمة

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ، » قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ، » فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، » قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، » كما أنه سلاه واستل ما في نفسه من اللوعة بمثل قوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، » كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، » إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، » فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، .

أما بعد فإن القرآن الكريم آية من آيات الله الكبرى ، فيه للعقول تبصرة ، وللقلوب موعظة ، ولكن لمن أراد أن يذكر : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، » .

سعة الصدر

هجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسن بن هلى بن أبى طالب ، وهو من هو علماً وعملاً وشرفاً ، فقال فيه :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجليل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة ، فأتاه أبو عاصم الأسلمى المذكور ، متسكراً فى زى الأعراب ، وأنشده قوله فيه :

ستأتى مدحتى الحسن بن زيد وتشهد لى بصفين القبور
قبور لم تزل منذ غاب عنها أبو حسن تعاديهما الدهور
هما أبواك من وضعاً فضعه وأنت برفع من رفعا جدير

فقال له الحسن : من أنت ؟ فأجابه : أنا الأسلمى .

فقال له الحسن : إذن حيّاك الله ، وبسط له رداءه ، وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يلبه بكلمة عما قال فيه .

الحج من الناحية الفلسفية

للدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الحج ، كما نعلم جميعا ، ركن من أركان الإسلام ، وشعيرة يتطلب القيام بها
البذل من المال والنفس ، وعبادة لا يتم للقادر عليها دينه إلا بالاضطلاع بها ،
حتى ليُروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من مات ولم يحج
فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرا » . وليس من همسى الآن بيان ما للحج
من مقدمات ومعالم وشروط لا يتم إلا بها ، بل موضوع الحديث هو الحج
باعتباره عملا اجتماعيا تدعو إليه الفكرة الفلسفية ، لو لم يدع إليه الدين .

الإنسان مركب من عنصرين : أرضى وهو الجسد ؛ وسماوى وهو الروح .
وقديما قام النزاع الحاد بينهما كما يكون بين الشيئين أحدهما للآخر ضد وعدو .
والناس في ميلهم لهذا العنصر أو ذاك بين مفرط ومفرط ، إلا من كان حكيما
فعرِف لسكل حقه وأرضاه بقدر . ولم ترتطم الإنسانية في هذه الغمرة التي نلّسها
هذه الأيام إلا بسبب انحيازها للناحية المادية وانغماسها فيها .

لهذا ، كان لابد من عمل يلفتنا بقوة عن هذه الحياة بما يستلزمه من إعراض
عن زينة الدنيا وطيباتها ، وبما يوجب من مساواة تشعر الغنى منا بأنه أخ لمن
يعيش بينهم من عبيد الله لا يتميز عنهم في ملبسه ومظهره وعامة أحواله .

هذا العمل هو الحج الذى ، كما يقول الغزالي ، يعتبر في الشريعة الإسلامية
عرضا عن الرهبانية في المسيحية ، إذ فيه ما فيه من كبت الشهوات والبعد عن
الدنيا والإقبال على الله والسمو بالروح ، وقد سلم مما يلزم الرهبانية من عنت
وإرهاق دائمين .

ثم ، في الحج مع هذا ، زيارة البيت العتيق الذى أضافه الله تعالى إلى نفسه لشرفه ، وجمع لا كبر عدد من المسلمين في صعيد واحد يؤمون غرضاً واحداً ، ولكل من هذين حكمته وأثره البعيد في حياة الأمة أفراداً وجماعات . إنما تشقى الأمة إذا تناكدت وتفرقت بها السبل ؛ والإسلام ، الذى حث المسلمين على أن يأتمروا بينهم بمعروف ، جعل لهم مؤتمرات : بعضها يومى وهو الصلاة جماعة ، وبعضها أسبوعى ، أوسع وأعم من سابقه ، وهو صلاة الجمعة ، وبعضها كل عام على نحو أشمل وهو صلاة العيدين ، وأخيراً المؤتمر الأكبر وهو الحج الذى يجب أن يشهده كل مسلم قادر ، مرة واحدة على الأقل في حياته .

ومن الناس من لا يفهم الحقائق إلا بمثلة ، أو مرموزاً لها بمثل محسة ، فكان من الحكمة أن يكون من شعائر الحج الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود ، رمزاً لما يجب أن يكون عليه المسلمون من وحدة في الهدف واتحاد في التوجه لله . إن البيت الذى أمرنا بالطواف حوله ، هو بيت الله ، الذى جعله مثابة للناس وأمناً ، وفي الطواف به تشبه بالملائكة الخافين بالعرش ، الطائفين به قانتين مسبحين لا يفترتون ، وفي ذلك ما فيه من سمو للروح وعروج بها إلى السموات العلى . ونفس الحلول بالبيت ورحابه ، تمهيد طيب لرؤية صاحبه جل وعلا ، متى صفت النفس ، فصارت أهلاً لهذه السعادة القصوى ، وفي استلام الحجر من المسلمين كافة بيعة منهم جميعاً لله عز وجل على كل ما هو حق وجميل وخير وفضيلة .

أليس هذا الحجر المقدس ، كما جاء في الحديث الشريف ، يمين الله يصافح بها خلقه ؟ ، إن في استلام هذا الحجر ، وهذا ما يرمز له ، حافزاً قوياً على وفاء الحاج بما يعاهد الله عليه من بُعد عن الشر ، وحب للفضيلة ، وحرص على عمل الخير .

وفي الحج مع هذا كله ، دلالة قوية على الثقة بالله واستجلاب لمونه . تعزم على الحج المرأة الضعيفة بطبيعتها والرجل الضعيف لمرضه وسنه الكبيرة ، فما هو إلا أن يبدأ من هذه حالته السعى له حتى يجد من نفسه القوة ومن غيره المساعدة ، وحتى يعود صعب الأمر ذلولاً ، فتنهياً له السبل ويمضى لما أراد دون عقبات

أو صعب . ذلك بأنه نزع عنه رداء الغرور بنفسه وحوله ، وألقى نفسه في سبيل الله وانقأ به ، متكلاً عليه ، معتداً به وحده ، فكان له ما أراد .

والحج ، بعد ما نعرف من الأعمال الظاهرة ، له حقائق باطنة يجب النفوذ إليها ، وأحوال نفسية يشعر بها الحاج وينعم بها . إنه ليعجبنى في هذا حديث جرى بين الشبليّ رضوان الله عليه ، وبين صاحب له . كان من هذا الحديث أن الشبليّ — وهو متصوف حريّ بهذا الوصف ، وليس كأدعياء التصوف في هذه الأيام — يرى أن من عقد الحج لله ، ولم يفسخ بهذا العقد كل عقد يخالفه ، كان كأنه ما عقد الحج ونواه ؛ وأن من تجرد من ثيابه للإحرام ، ولم يتجرد مع هذا من المعاصي ، يكون كأنه ما تجرد من ثيابه ؛ وأن من لبى ، ولم يذق هن الله جواب تلييته ، يكون كأنه ما لبى ؛ وأن من أشرف على مكة ، فلم يشرف عليه حال من الله تعالى ، يكون كأنه ما دخلها ؛ وأن من صافح الحجر الأسود ، فلم يجد أثر الأمن ، كان كأنه ما صافحه أو لمسه ، لأن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالى ، ومن صافح الله صار في أمن وسلام منه ؛ وأن من رمى الجمار ، فلم يرم بهذا جهله ولم يزد به علماً يظهر عليه ، كان كأنه ما رمى ؛ وأن من مضى من مكة إلى المدينة فزار الروضة الشريفة ، ثم لم يكشف بشيء من الحقائق ، ولم ير زيادة في الكرامات عليه ، كان كأنه ما زار ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الحجاج والعمار زوار الله ، وحق على المزور أن يكرم زوّاره » . وهكذا ، نجد من الشبليّ ، رحمة الله عليه ، تحليلاً دقيقاً طريفاً للحج وأعماله ومشاعره ، تفهم منه كثيراً من أسرار وفلسفته .

ومن الحق أن نوافق الشبليّ وأمثاله في نظرهم للحج وحكمه وأسراره ، هذه النظرة الفلسفية العالية . إن منا من يبذل في سبيل السفر للحجّاز كثيراً من المال ، ويتعب نفسه بكثير من المشقات ، وذلك في سبيل أن يظفر بلقب « حاج » ، ينال به من عروض الحياة الدنيا ! ومنا من يعيش أيام الحج في تلك البلاد المقدسة والأجواء الروحية السامية ، ثم لا يتذوق شيئاً منها ، فيعود أغلظ قلباً مما ذهب ! ومنا أخيراً من عرف يقيناً خطر ما هو مقبل عليه ، وعلم

أنه يهجر الأهل والوطن والشهوات واللذات في سبيل الله وزيارة بيته الحرام ، وإذا فهو يقدر البيت قدره ويرى لربه عظمته وجلاله ، فيخلص النية له ويرعاه في كل خطوة له وعمل ، ويجاهد نفسه وهواه حتى يرجع لبلده خيراً مما ذهب ، ويعود لأهله وقد تقبل الله حجه ورضيه وأرضاه .

ذلك ، والحج للكعبة وإن كان من خصائص أمتنا الإسلامية ، فإنه ، باعتباره قصداً إلى مكان مقدس ، عرفته الأمم المتقدمة في العصور المختلفة : عرفه اليونان فكانوا يحجون قبل المسيح عليه السلام إلى معابد مقدسة لديهم ، وعرفه الهنود والصينيون القدامى ، ثم عرفه اليهود والمسيحيون الذين لا يزالون يحجون إلى بيت المقدس .

وما يجدر ملاحظته أن الحجاج من هذه الأمم المختلفة وغيرها ، يلتزمون أثناء الحج التقشف والزهد في هذه الدنيا كما نلتزم ، ليشعروا أنفسهم شيئاً من الروحية العالية ، وطلباً لمرضاة معبوداتهم وطمعاً في ثوابها . وليس هذا التوافق من الأمم المختلفة بعجيب ؛ فالإنسان هو الإنسان في كل زمن ، ولأنه ليحس في قرارة نفسه : الحاجة للسمو الروحي والتقرب من المعبود أو من الرمز الذي اتخذته لهذا المعبود . وهذا السمو وهذا التقرب لهما سبل عدة ، من أهمها تجشم التعب وبذل المال في سبيل الحج للمكان المقدس الذي يراه ألصق البقاع بما اتخذته من إله .

هذا هو خطر الحج عند الأمم المختلفة لما يعتبرونه مقدساً من مكان ، فكيف عندنا وهو تلبية لنداء أبنائنا إبراهيم الخليل عليه السلام وإجابة لرجائه ربه إذ يقول : « رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » ! وهو مع ذلك استجابة لأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بقوله : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات . فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآيات صعد أبا قبيس فقال : « يا أيها الناس حُجُّوا بيت ربكم » ، فأسمعه الله تعالى من في أصلاب الرجال

وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه تعالى أنه يحج ، من الطائفتين والقائمين والرُّكَّع السجود .

إنى أحاول أن أتصور ديناً خلا من الحج لمشهد مقدس وبمناج طاهرة ، فلا أكاد أظفر إلا بصورة باهتة لدين ميت لا حياة فيه ، وقاصر عن بلوغ الكمال بمتبعيه . إنه من النافع كل النفع أن يصلى المرء ، فى هذا رياضة للجسم والروح ؛ وحسن وجمل أن يصوم ، ففيه تعويد على الصبر وترقيق للنفس وفائدة للجسم ؛ ومن الخير للمجتمع أن يودى أفراد الزكاة على اختلاف ألوانها ، فى هذا اقتلاع للحسد والحق من قلوب المعوزين على القادرين ، وعون للفقراء على متاعب الحياة ، وإغلاق لكثير من السجون ، وفتح لغير قليل من المنشآت الاجتماعية . ولكن ، هذه العبادات كلها لا تغنى عن الزام الأمة للحج لمكان واحد وقصد غرض واحد ، والعيش فترة من الزمن فى تجرد عن الحياة ومفاتها ، وإقبال على الله وحده ، واستعداد لتلقى فيضه ورحمته ما دمنا قد سعينا إلى بيته مخلصين النية له .

من ذلك كله ، نعرف أن الحج عمل يأمر به العقل قبل أن يوحى به الدين ، وأن لكل عمل من أعماله وشعبته من شعائره حكمته وفلسفته ، وأن ديننا صحيحاً لا يمكن أن يقوم بدونه ، وأن أمة من الأمم لا يسعها أن تستغنى عنه . وحسبنا دلالة على هذا ، ما أشرنا إليه من أن الأمم التى خلت عرفت له خطره ، وأن الأمم التى تعمّر العالم اليوم — على اختلاف مللها ونحلها — تعدّ الحج لمكان ما ، أمراً مقدساً فيه رياضة للجسم وسمو للنفس وخير للأمة عامة . وإن أمراً تجمع عليه الأمم فى العصور الخالية والأيام الحاضرة ، رغم ما يفرق بينها من اختلاف فى الجنس والدين والتقاليد ، هو أمر لا يقادر قدره ولا يكاد يُدرك كل ما فيه من جمال وخير وفضيلة .

من أجل هذا ، أدعو الله أن يوفقنا لهذا الخير مرة بعد مرة ، وأن يجعل حج من يحج من المسلمين عامة حجاً مبروراً ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء فى حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؟

المهاجرون والأنصار

أفضيلة الاستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الدين الإسلامي يطلب إلى المسلم الفرار بدينه عن الفتن ، والنأى بعرضه عن الشبهات ، والبعد بنفسه عن مواطن الأذى ، خصوصاً إذا كان ذلك لا يجر إلى عقبى طيبة ، ونهاية محمودة ، وخاتمة مشكورة .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم ظل بمكة يتحمل هو وأصحابه العنت ، ويتعرض للمهالك ، ويقدم نفسه بنفسه للذات الرخيصة ، والقتل الحقيق ، الذي كان يستهدف له هنالك ، لما قامت لدعوته قائمة ، ولظلت القوضى ضاربة أطنابها في ربوع الجزيرة كلها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

على أنه ليس من حصافة العقل ، وحزامة الرأي ، ونضج التفكير ، أن يقف الأعزل لشاكي السلاح ، أو ينازل الضعيف القوى ، أو يصول أفراد قليلون أمة بأسرها لا تزال فيها جاهلية السفهاء ، وطيش المأفونين .

ولهذا ، فقد كان الانتقال من مكة إلى المدينة بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة - كما يقولون - أو الخطط الموضوعة في نظام الحرب ، وأساليب الهجوم ، والذي يعرف أن المسلمين تكتلوا بعدها للغزو ، وتجمعوا للجهاد ، وباعوا أنفسهم لله ، يدرك إلى أي مدى غيروا وجه الزمن ، وحولوا معالم الدنيا ورسموا حدود الحياة وأبعادها ، واقترحوا على الدهر ما يجب أن تكون عليه نظمته وتقاليده .

ولولا أن المهاجرين تسالوا خلسة ، وخرجوا مباغتتين ، لضرب عليهم المشركون الحصار ، وحالوا بينهم وبين الخروج إلى يثرب ، لأنهم لا يشكون في أن العدو الذي يفارق ميدان القتال ، ربما كان فراره خداعاً أو تحفزاً للوثوب .

وفي التاريخ ما يدل على أنهم لم يهنا لهم صفر ، أو تهدأ لهم عاصفة ، أو تخمد لهم جندوة ، حتى إذ علموا أن محمداً قادم إلى مكة بعد تسع سنوات يفتحها ، ويبسط سلطانه عليها ، تقدموا إليه بعنوان : أخ كريم وابن أخ كريم ، وأبي أدبه - حينئذ - إلا أن يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا تلخيص ذلك الحادث الذي يردد الناس الكلام عنه طويلاً ، والتعليق عليه مستفيضاً ، وفي خلال هذا وهذا يفوتهم أن يهتدوا إلى الصواب ، أو يصيبوا أكباد الحقيقة .

والطريف الجديد في هذا الحادث أنه تمخض عن لون من ألوان التنافس الديني ، والعصية غير المرذولة . جعل الأذهان تنفتح إلى نعمة لم يكن لهم بها عهد سابق ، تلك هي كلمة : المهاجرون والانصار .

ففي المدينة لقيت هذه الرسالة مرتعاً خصيباً ، وجواً مناسباً ، وبيئةً صالحةً ، ونفوساً تفتديها بدمائها وأموالها . ولقي هؤلاء الذين تركوا ديارهم وزروعهم وثمارهم ، أهلاً بأهل وجيراناً بحيران ، وتسابق الأوس والخزرج في الإحسان إلى : اللاجئين ، وامتدحهم القرآن بقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وتمكن منزلهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وزادت محبته لهم ، وثقتهم بهم ، واطمأنانه إليهم ، إلى درجة أنه كان يحرمهم من الشيء ويقول : إني لأهطي الرجل ، وغيره أحب إلي .

على أن أهل مكة لا يقلون في الفضل ، ولا ينقصون في المزية ، فإنهم احتضنوا الدعوة في مهدها ؛ وتعمدوها في بادئ أمرها ، وجعلوا شمسها تسطع ونورها يضيء ، وكلمتها تدوى ، وصوتها ينبعث ، ومنهم السابقون الأولون .

ورجالانهم المرموقون أمثال الخلفاء الأربعة دعموا البناء ، ورفعوا اللواء ، وقفى العرب على آثارهم ، ومضوا على سننهم ، خصوصاً عمر الذي استجاب الله به دهوة الرسول : اللهم انصر الإسلام بأحب الرجلين إليك .

وإذا كان في الحديث ، الانصار كرشى وعيبي ، واستوصوا بالانصار خيرا ، والله الله في الانصار ، ولا يحبهم إلا مؤمن ، وغير ذلك مما يدل على أنهم بلغوا شأوا عظيما ، فإن القرآن — كذلك — يذكر المهاجرين أولا ، ويعدهم بالثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة ، والنعيم المقيم ، ويجعل للهجرة أجر الجهاد والاستشهاد .

وقد أغرى ذلك كله فرقة من أولئك جميعاً أن يشغلوا زمنا طويلا بالمفاضلة بين المهاجرين والانصار ، مفاضلة فيها شيء من المبالغة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتبأ بما يكون وراء هذا الجدل من الخطل في الرأي ، والخطأ في التقدير حين يقول : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وإذا ذكرتم أصحابي فأمسكوا !! :

وما كان يدور بخلد إنسان أن المسلمين الذين عاصروا الوحي وأدركوا نزول الآيات ، وتشرفوا بنور وجه الكريم تكون فيهم نزعة المكاثرة بالفضل ، والمفاخرة بالطاعة ، إلا أن الذي يدرى قرب عهدهم بما كان عليه أسلافهم من هذا الخلق الذي كانوا يقيمون له الأسواق ، ويختارون المحكمين ، يقول : شنشنة أعرفها من أخزم .

وفي اليوم الذي اختار الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة يتحدثون في انتخاب الخليفة الذي يرعى شؤونهم ، ويقضى بينهم ، ويرد عدوانهم ، ويكبح جماحهم ، ويقيم عليهم الحدود ضربوا على هذه النخمة : المهاجرون والانصار ، وأخذ أبو بكر رضى الله عنه يكيل التواء للفریقین ، ويغدق في المديح للطرفين ، عساه أن يخمد نيران الفتنة ، ولولا ما كان له من الصحبة للرسول ، وأنه خصه بالنيابة عنه في الصلاة بالمسلمين في مرض موته ، وأن عمر بن الخطاب سارع إلى مبايعته فبايعه كثيرون لكانت الحال غير الحال : كفانا الله شر الحلاف ، ورحم الانصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ؟

مِنْ تَوْجِيهَاتِ الْأُسْلَامِ

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالازهر

« ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ،

بنفسى وأهلى أولئك الذين تجردوا من أنفسهم ولذاتهم ، ومن أموالهم وأبنائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه فى سبيل الله ، إنهم لجديرون بأن نعطأطىء الرءوس إذا ذكروا ، وأن تلين لعظمة نفوسهم الجلود والقلوب ، أولئك الذين هدام الله . وأولئك هم أولو الألباب . .

قد عرف الإسلام كثيرا من هؤلاء المجاهدين الصابرين وعلى رأسهم سيد الأمة وأستاذها ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت فيه الأسوة الصالحة الكريمة لكل من يجاهد فى سبيل الله ، ويشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، لقد كان يؤذى فى ذات . ولأه . ومن أخلص أهليه وذوى قرباه ، فى غـدوه ورواحه ، وفى مسائه وصباحه .

ولقد تضافرت عليه قريش ، وتألبت عليه العرب ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف وما استكان ، ولا زاد على أن قال كلمته الخالدة المدوية فى فضاء هذا الوجود ، الناصعة المشرقة فى صفحات البشرية والخلود : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظمره الله أو أهلك دونه ، ما تركته . .

ولقد كان لاستاذيته العظيمة فى العزة الإسلامية والكرامة الأدبية ، والتمسك بالحق أثرها الخالد العظيم فى نفوس أصحابه وأتباعه ، منذ قام الصراع بدعوته الكريمة بين الحق والباطل ، ومنذ شمرت قريش عن ساعدها تتفنن فى أذى من عرف السبيل إلى الدين الحق ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من

المسلمين ، يعذبونهم بشقئ الألوان وصنوف الهوان . فهذا يلقى عبده الحبشى
 « بلالا ، على الرمل في الهجير تحت الشمس المحرقة ، ويضع على صدره الحجر
 ويسلمه للموت وهو يقول : أحد أحد ، ثم يمر به ورقة بن نوفل فيرثي لحاله ،
 ويكي له ويقول : « والله لئن قتلته قريش لا تخذه حنانا ، ثم يشتريه أبو بكر
 فيعتقه كما عتق كثيرا من الموالى قبله وبعده ، منهم جارية لعمر بن الخطاب قبل
 إسلامه ، وهذه امرأة أخرى عذبت أشد العذاب حتى ماتت ، لا تنصرف عن
 دينها الحق ، ولا تتحول عن مبدئها الصدق ، وهذه وهذه ، ومن إليهم من المعذبين
 في ذات الله وفي سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه الكريم .

وعزز الإسلام مواقفهم . ووجه الناس جميعا وجهتهم إذ يقول : « أم حسبتم
 أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستهم البأساء والضراء
 وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله
 قريب ، بنفسى وأهلى أولئك الذين اشترى الله سبحانه أنفسهم وأموالهم « بأن لهم
 الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل
 والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستمسكوا ببئحكم الذى بايعتم به ، وذلك هو
 الفوز العظيم .

كل تضحية يضحي بها المؤمن في سبيل الله فهي سعادة له ، وإعناق لنفسه ،
 وبرهان على أن الإيمان الصحيح خالط قلبه ، وكذلك الإسلام حين تخالط
 بشاشته القلوب .

التمسك بالحق ، والبقاء على المبدأ القويم ، والكلمة الصادقة العادلة عند
 السلطان الجائر ، وعدم الرضا بالضميم ، ولا المبالاة بما يصيب المؤمن في الثبات
 على مبدئه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على ما يصيب في سبيله
 وما يقع من تضحيات لأجله ؛ كل ذلك شراء للنفس ابتغاء مرضاة الله ، ذلك
 بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله . ولا يطأون .وطنا
 يغيبه الكفار . ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع
 أجر المحسنين .

ليت شعري متى نرى في أمتنا هذه ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

هم الذين تعمر بهم الارض ويستقر السلام والامن وترضى السماء ، وتم السعادة والرخاء .

أما أولئك المنافقون ، الذين يلقون هؤلاء هؤلاء بوجه ، ويتجمعون لكل من يلقون ، فيعاملون الجائر المقيم على جورهِ معاملة المعاونة والصفاء ، ويقابلون التقي المغرق في نسكهِ بمقابلة المجاملة والرياء ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، فانهم شر وبلاء على هذه الامة أ كثر من أعدائها ، وهم الشؤم على الحياة والمجتمع ، وهم الذين يغفلون شركة الجماعة ، ويغفلون أيدي أهل الحق والطاعة ، غناء كغناء السيل ، ما يبالي الله في أى واد هلكوا ، ولا من أى أبواب الجحيم ولجوا .

إن شراء النفس ابتغاء مرضاة الله فريضة محكمة ، وسنة قائمة ، وعزيمة صادقة ، يحلها الجهاد الصادق لإعلاء كلمة الحق ، وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، وإن يكون ذلك إلا بعد أن يجاهد المؤمن نفسه أولاً ، ليحصن إيمانه وليحفظ قلبه ولسانه ، وليستعمل جوارحه فى الخير وللخير ، فيجعلها كلها لله وبالله ، لا يضمن بصالحه ، ولا يدخر وسعاً فى منفعة ، وإن يكون ذلك أيضاً إلا بعد جهاد الشيطان والانتصار عليه ، حتى يسلم المجاهد من عبثه به ، فيعصى أمره ، ويكذب وعده ، فإنه متربص ببني آدم « يعدهم وينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم » .

وإن فى مجاهدة الشيطان لا كبر قوة للنفس ، ومناعة للقلب من الامراض الفتاكة التى تعميه عن إِبصار الحق ، وتفتره عن توجيه الجوارح فى الخير ..

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » .

وإذا تم جهاد النفس والشيطان « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » فقد سهل

جهاد الكفار والمنافقين وأهل الزيغ والمارقين ، واستطاع المؤمن أن يعيش كريماً عظيماً ، ويدعى بذلك في ملكوت السماء . .

ولقد ذكر الإمام العالم الصوفي ابن قيم الجوزية في كتاب « زاد المعاد » أن جهاد النفس على أربع مراتب :

١ — جهادها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذي لا فلاح بدونه ولا سعادة إلا به .

٢ — جهادها على العمل به ، فإن العلم وحده إن لم يضرها لم ينفعها .

٣ — جهادها على الدعوة إليه وتعليمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى .

٤ — جهادها لتصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق في سبيلها .

فمن استكمل هذه المراتب فهو من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرقتان :

الأولى : دفع ما يلقى إليه من الشبهات والشكوك في الإيمان ، وذلك يشمر اليقين .

الثانية : دفع ما يلقى من الإرادة والشهوات ، وذلك يشمر الصبر .

واليقين والصبر هما اللذان رفع الله بهما من رفع من عباده ، كما يشير إليه قوله . « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » ، وكانوا بآياتنا يوقنون . .

فمن استطاع أن يقوم نفسه ، وأن يزع شيطانه فقد اعتز بالله ، وارتفع عن كل من سواه ، يقول الحق ولو على والديه والأقربين ، ولا يكتم الشهادة ، وينهر أولياء الله مهما تحل عنهم سواه ؛ ويخذل أولياء الشيطان مهما تنافس الناس في القرب منهم ، الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه ، والقوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . يتعهد جاره وعشيرته وصديقه بإخلاص وطيب نفس ،

ويجد في مصالح المحتاجين . وإغاثة الملهوفين . نفسه منه في عناء ، والناس جميعاً منه في راحة .

ويعجبني من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام في كلمة لأخيه عقيل :
 « وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال فإن رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله ،
 لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، ولا تحسبني ابن أهلك ،
 ولو أسلبه الناس ، متضرعاً متخشعاً . ولا مفرأ للضميم وإهنا ، ولا سلس الزمام للقائد ،
 ولا وطيء الظهر للراكب ؛ ولكن كما قال أخو سليم :

فإن تسأليني كيف أنت فأنتي صبور على ريب الزمان صليب
 يعز على أن ترى بي كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب

العفو

لما دخل المأمون ببغداد أحضر (دُعَيْلا) الشاعر بعد أن أعطاه
 الأمان ، وكان قد هجاه وهجا أباه ، فقال له : يا دعبل (من الحضيض الأوهـد)
 يشير المأمون إلى ما قاله فيه من قصيدة هجاه بها .

فقال دعبل : يا أمير المؤمنين قد عفوت عمن هو أشد جرماً مني . وقد أراد
 المأمون من اللفظين اللذين واجه الشاعر بهما أن يذكره بالقصيدة التي هجاه بها
 ومنها قوله يخاطب المأمون :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
 شادوا بكرك بعد طول خمولة واستنقذك من الحضيض الأوهـد

نوه له في هذا البيت بما قام به طاهر بن الحسين من قتل أخيه محمد بن الرشيد
 وتوليته المأمون مكانه واستنشدته هذه القصيدة . فاستعفاه ، فقال : لا بأس عليك
 وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسممها منك . فلما أنشده إياها وانتهى إلى قوله منها :

بنات زياد في القصور مصونة وبنت رسول الله في الفلوات
 بكى المأمون وجدده له الأمان ، وأحسن له الصلة .

دعاء سنجاب

لفضيلة الأستاذ حسن جاد

المدرس بكلية اللغة العربية

ليس في تاريخ الإسلام كله صفحة أبلغ في الأسى والأسف ، وأدعى إلى الشجن والالم ، من تاريخ الأندلس . ففي الأندلس وحدها طوى للإسلام بساط ممدود ، ودالت دولة كبيرة ، وبادت أمة عظيمة ، ونحيت حضارة زاهرة . ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال دارسة ، وذكريات حزينة ، تثير في أغوار النفس بالغ الحسرات ، وتحفر في قلب كل مسلم أعمق الجراحات .

فند انفرط عقد الخلافة ، وشت شمل الوحدة ، ودبّ ديبب العصبية والفرقة ، واستبدت بكل فرد شهوات الحكم ونزوات السلطان ، وزال عن الكبرياء ذلك السلطان القاهر الذي خضعوا له منذ عهد عبد الرحمن الناصر ، اضطرب أمر الدولة وتخاذلت سواعدها ، ومادت أركانها . وصارت بعد ابن أبي عامر نهبا مشاعاً يتجاذبه الخلاف من ملوك الطوائف ، فهازل كل ما استطاع من البلاد ، وأخذت المدن الكبرى تستقل عن قرطبة منذ سنة ٤٠٠ هـ ؛ تغلب قواد البربر في الجنوب ، وكبراء الصقالبة في الشرق ، واستقل بالنواحي الأخرى أسر كبيرة من العرب . وكان أول المتغلبين بنو ذى النون في طليطلة ، ثم كان بنو هود في سرقسطة ؛ وبنو عباد في إشبيلية ، وبنو الأفطس في بطليوس ، وبنو جمهور في قرطبة .

وهكذا وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت الدويلات في المقاطعات والمدن يتنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل واحدة أن تتزع ما بيد الأخرى ، ووجد عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصته السانحة ،

فأخذ يؤلب بعض الدويلات على بعض ، وملوكها يرتمون في أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفهم على خصمه ، حتى انتقص النصارى البلاد من أطرافها ، وتوغلوا فيها إمارة بعد إمارة ، إلى أن طووا صفحة الإسلام بعد ثمانية قرون ، وخرج آخر جماعة إسلامية جلت عن الأدلس سنة ١٠١٧ هـ بعد ما رأوا مصارع إخوانهم ونفيم وتشريدهم . وتوالت السنون ، ومرت الايام ، والمأساة تحز في نفس كل مسلم ، وتتجدد في صدر كل عربي ، وكأنه في موقف أبي الحزم ابن جهور حين وقف على قصور الامويين وقد تقوضت أبنيتها ، وعوضت من أنيسها بالوحوش أفنتها ، فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أين^(١)

تولى أبو الوليد بن جهور أمر قرطبة بعد أبيه فيمن تولوا الأمر واستقلوا بالمدن الكبرى من ملوك الطوائف ، فلما أدركه الإعياء وألحت عليه الشيخوخة ، ترك الأمر لابنه عبد الملك ، وأسلمه الزمام . فلما طمع يحيى بن ذى النون في قرطبة ، هلى عادة هؤلاء الملوك ، وقد توفرت دواعى الطمع من الانحلال والفرقة ، وأرقته الرغبة فى الاستيلاء عليها فيمن ثورقه من المتربصين ، أنشب محالبه فيها فاستجار عبد الملك بالمعتمد بن عباد المتغلب على إشبيلية ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، حيث كان هو الآخر متبعا بقرطبة حتى جلا عنها ابن ذى النون بأسا . ولكن ما انقشعت سدفة الليل حتى هتك العباديون الحريم . خرج عبد الملك لى يشيعهم ويشكرهم على حمايته فلم يرعهم إلا لإحداقهم بقصره وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره . وقبض عليه وعلى سائر أهله ، وأخرج أبوه الشيخ أبو الوليد مفلوج الشدق ، مائل الشق ؛ فلما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على هجين رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل : اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا ،^(٢) .

(١) مطمح الأنفس ص ١٧ والفتح ص ١ ص ٢٤٩ .

(٢) عن الذخيرة لابن بسام ص ٢ ص ١١٤ وما بعدها .

ترى هل استجاب الله هذا الدعاء ؟

كان المعتمد هذا أكبر ملوك الطوائف وأنداهم راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكانت دولته كما يقول أبو بكر الداني أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ؛ وكانت حضرته ملتقى الرجال ووسم الشعراء ، وكان ذكي النفس ، غزير الأدب رقيق الشعر ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله ^(١) . أما ترفه وإسرافه وبذخه فشئ يسمو على الخيال ، ويتقاصر دونه افتنان القصاص . قالوا إن جاريته « اعتماد » رأت يوما نساء البادية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين ، فاشتت أن تفعل هي وجواربها مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا في القصر ، وجعل لها قريبا وحبالا من إبريسم وخرجت هي وجواربها تخوض في ذلك الطين ^(٢) .

أما نهايته فكانت من أجمع الهيات ، وكانت ظروفها على هذا النحو الذي سلكه هؤلاء الملوك من الرغبة في الاستبداد بالملك ، وحوك الدسائس ، وتحين الفرص ، والاستعانة بالاجنبي .

طمع الأذفونش في بلاد المعتمد ، فأرسل إليه يتهده ، فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه ، فتأهب له الأذفونش ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف ابن تاشفين ، فتم له النصر . ولكن دعاء أبي الوليد لا يزال يتردد في أطباق السماء ، فكما كان المعتمد نارا حين استجار به أبو الوليد من رمضان ابن ذى النون ، كان يوسف بن تاشفين نارا على المعتمد من رمضان الأذفونش ، فقد غدر بالمعتمد وانتزع البلاد من أبنائه ، وقتل ابنه الظافر المتولى زمام قرطبة المغصوبة ، في حالة مؤثرة وصفها صاحب القلائد ، ثم ابنه المأهون كذلك . وحوصر المعتمد بأشبيلية وقبض عليه واعتقل بمدينة « أغمت » ، وأودع ذل قيدها وظلام سجنها ، وشرّد أبنائه ، وذلت بناته ، وتحطم ملكه الشاخ ، وانطوى بساط عزه ومجده .

دخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد وكن يغزلن للناس بالاجرة في أغمت ،

(١) نفح الطيب ٢ ص ١١٢٤ .

(٢) المعجب - للرا كشي .

حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه ، فراهن المعتمد في أطهار بالية وحالة رثة ، فصدعن قلبه فقال :

فما مضى كنت بالاعیاد مسرورا	فساءك العید فی أغمت مأسورا
ترى بناتك فی الاطهار جائعة	یغزلن للناس لا یملكن قطمیرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حمیرات مكاسیرا
یطآن فی الترب والاقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك فی ملك یمر به	فإنما بات بالاحلام مغرورا

وكان القدر كان یسخر من عبثه مع جاریته (اعتماد) فرد بناته إلى الطین الحقیقی : طین الریفیات حاملات الجرار ، لاطین المسك والعنبر والسكفور :

یطآن فی الطین والاقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أجل :

أأرغب أن أعیش أرى بناتی	عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى	مراتبه إذا یدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه	ضمیر مخلص نفع الدعاء

ویدخل علیه ولده أبو هاشم والقیود قد عضت بساقیه عض الاسود ، وهو لا یطیق لإعمال قدم ، فلما رآه بكى وقال :

قیدى أما تعلمنى مسلما	أبیت أن تشفق أو ترحما
یبصرنى فیک أبو هاشم	فینثنى والقلب قد هشما
ارحم طفیلا طائشا لبه	لم یخش أن یأتیک مسترحما
وارحم أخیات له مثله	جسرعتهن السم والعلقما

وما زال یرسل من زفراته ، ویسكب من عبراته حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨هـ ، بعد أن صدع القلوب بأناته السکسيرة ، وهز النفوس بمواجعه الالیمة ، فما أمر الغلة بعد العز ، وما أقسى الشقاء بعد النعم ! . وقف ابن اللبانة فی جماعة من الشعراء علی قبره فی يوم عید ، والناس عند قبور أهلهم ، فأشد بصوت عال :

أهل النار ينضمون

لفضيلة الأستاذ على محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر في السودان

نعوذ بالله من النار ومن خصوماتها ، وإنها لخصومات عنيفة لا عهد لأهل الدنيا بمثلها ؛ فهي خصومات بين السادة والمسودين ، بين الاتباع والمتبوعين ، ظلم الجميع أنفسهم فرأوا العذاب ، فتهربوا المتبوعون ، وندم التابعون .
وهذه قصة عرض لها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، فبين في وضوح وجلاء حال أولئك الكبراء الذين حملوا أوزارهم ، وأوزار الذين أضلواهم بغير علم ، وحال أولئك الضعفاء الذين صغرت نفوسهم ، وسخفت عقولهم ، وذلت أراذلهم ، فانقادوا لكبرائهم ، يؤمنون بهم ، ويحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، ويعتقدون أنهم سيحملونهم على أجنتهم يوم يحشر الناس حفاة هراة ، فللمؤمن محبوب

ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عدتكَ عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وجعلت قبرك موضع الانشاد
واستمر في القصيدة يبكي والناس يجتمعون عليه ويكون .

تُرى هل استجاب الله دعاء أبي الوليد حين أخرجه المعتمد مفلوج الشدق مائل الشق ؟ نعم . ولعلها عظة لمن يصول بالقوة ، ويدل بالبأس ، ويعميه الغرور فيكيد للضعيف ، ويستبد بالمغلوب ، ويستعمر الشعوب ، ويستعبد الممالك ، ويدبر في الخفاء . وإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه ، وإنها لدعاء نافع مستجاب ، كما يقول المعتمد نفسه :
ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير مخلص نفع الدعاء .

واحد — هو الله تعالى — يعتقد أنه كل شيء ، ويبيده ملكوت كل شيء ، وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير فهو بهدايته وتوفيقه ، وما تعذر عليه من أمر فهو يكله إليه ، ويعول فيه عليه ، وللشرك أرباب متفرون ، فإذا تعذر عليه أمر ، لجأ إلى بشر أو صخر ، أو توسل بحيوان أو قبر ، أو استشفع بزيد أو عمرو ، فهو دائماً مضطرب البال ، لا يستقر من القلق على حال (١) .

هكذا يزين السادة للضعفاء ، وهكذا يذل الضعفاء للسادة ، ولكنهم ما يكادون يفارقون هذه الحياة حتى يتبين لهم ، فإذا بلغت الروح الخلقوم ، وحضرت الملائكة تتوفى أولئك الضعفاء ، سألهم : أين الذين كنتم تعتمدون عليهم ، وتوسلون بهم ، وتعتقدون أنهم شركاء لله ، فيلتفت الضعفاء يمنة ويسرة ، فلا يرون من يرد عنهم الموت ، أو يخفف من سكراته ، فيعرفون - لأول مرة - أنها كانت خدعة . حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ، قالوا ضلوا عنا . وينفخ في الصور فيخرجون من قبورهم فاكسى رؤوسهم ، خشعاً أبصارهم ، يهولهم الموقف ، ويشدد عليهم الحساب ، فيلتفتون لعلمهم يجدون من يأخذ بأيديهم ، فإذا سادتهم يبرزهم الملائكة لهم ، لكن لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، ولا يسأل حميم حمياً ، فهم يترامون ، ويبصر بعضهم بعضاً ، ولكن يفر المرء من أخيه وصاحبه ، فيسمعون الصوت ساخراً منهم ، هائلاً بهم : « ما لكم لا تناصرون ، فيتعابون عتاباً خفيفاً هادئاً ، يقول الاتباع : إنكم كنتم توسسون لنا ، وتزينون لنا الشرك والكفر ، فيجيبهم المتبوعون في حسرة لاذعة ، وألم بالغ ، : ما كان لنا عليكم من سلطان ، بل أنتم الذين آثرتم الشرك . » احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . ولكن يشتد عليهم العذاب ، ويطول بهم

الموقف ، فترفع أصواتهم وينفجر غيظهم ، وحنقهم على رؤسائهم ، فيترجعون القول ، ويتقاذفون التهم ، الضعفاء يتهمون ساداتهم بأنهم أضلّوهم ، ومنعوهم من الهدى ، وحادوا بهم عن طريق الحق ، وأوهموهم أن الخير في اتباعهم ، والرشاد في السير وراءهم ، والمستكبرون يتهمون الضعفاء بأنهم كانوا راغبين في الشهوات ، طامعين في الملذات ، محبين للفساد في الأرض ، متهاونين في حق أنفسهم ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صدّدناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب .

ثم يساق المستكبرون إلى النار يحدون فيها جزاء ما اكتسبوا ، في سحوم ، وحيم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، ويلتفتون في ساعة من ساعات الضيق والقلق - وكل ساعاتهم كذلك - إلى أبواب الجحيم ، فإذا الزبانية يسوقون فوجاً في السلاسل والأغلال ، فيتأملونهم فإذا هم أتباعهم في الدنيا ، فيتقربون منهم ، وينادونهم ، لا مرحباً بكم ، ولا سهلاً لكم ، كنا ظنناكم نجوتكم من العذاب ، وبعدتم عن النار ، ولكنكم تدخلونها كما دخلناها ، فلا حياكم الله ، فيرد عليهم الاتباع حانقين ثائرين : « بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . » وهكذا كلما دخل فوج لعن الأول الآخر ، ولعن الآخر الأول ، فإذا اجتمعت الأفواج كلها ، جعلوا يتصايحون ويتسابون ، ويظنون كذلك يتسابون ويتلاعنون حتى يأذن الله : « قال ادخلوا في أمم قد دخلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحرأهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأولاهم : فما كان لنا عليكم من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . » فإذا لم يجدوا من هذا التلاعن فائدة لجأ الضعفاء - كعادتهم في الدنيا - إلى ساداتهم - ولعلمهم يرجعون هذه المرة ساخرين - رجعوا إليهم يرجونهم أن يخففوا عنهم شيئاً من العذاب ، ولكن كيف ! وكل فيها : « وإذا يتعاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم

مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد ، وتبرأوا منهم - وهم منذ بعيد يتبرأون - ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم ، حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ، نعم ، لا رجعة ولا عودة ، ولا أمل في رجعة أو عودة ، فلم يبق إلا اليأس ، اليأس من المتبوعين ، واليأس من العودة إلى الدنيا ، فيندمون على ما فعلوا ، ويلجأون إلى الله يطلبون منه أن يضاعف لسادتهم العذاب : يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعف من العذاب والعنهم لعناً كبيراً .

حكم الله بين العباد ، وجازى كلا بما قدم ، جازى المتكبر بضلاله وإضلاله ، ولم يرحم الضعيف العقل ، السخيف الرأي ، فجازاه على ضلاله ، واستخفافه بعقله ، واتباعه لغيره على غير هدى ولا بصيرة ، ولم ينفع الاتباع بمتبوعهم ، ولا خفف عن المتبوعين أن الاتباع معهم في النار ، والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء وهؤلاء : ولئن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون .

أهل النار يختصمون : إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ، ويتحاجون ويتلاعنون ، ويتبرأ الكبار من الصغار ، ويشترك الجميع في العذاب .

هذه هي القصة التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع غير قليلة ، وبينها واضحة جليلة ، فهل لنا أن نطمع في أن يلتفت إليها أولئك الذين يعبدون الله على حرف ، ويتعلقون بآمال كاذبة ، وهل لهم أن يعلموا أن كل علاقة تقوم بين اثنين على غير رضا الله ومحبه هي وبال على الاثنين معاً ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، ولا يغني مولى عن مولى شيئاً ، ود الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ،

لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

لفضيلة الشيخ محمود جميلة

المدرس بكلية اللغة العربية

أجناس المخلوقات متنوعة ، وأنواعها متفاوتة وأعمال الإنسان متعددة ، وأقواله متكاثرة ، وقد اختار الله من كل جنس أطيبه ومن كل نوع أحسنه ومن كل عمل أصدقه ومن كل قول أوفاه .

فطيب كل شيء هو مختاره تعالى وموضع قبوله ورضاه ، وأن تناول خلقه ما سواه ، ففضل النورانية اللطيفة على البشرية السكثيفة ، ورفع الطين على النار ، وميز الناطق على الأعمم والحيوان على الجناد ، وجعل في كل ذلك ما به تأتلف وتختلف ، وتتحده وتفترق ، وتقبل وترد ، وتعلو وترسب .

والإحسان في كل شيء هو طلبته وموضع محبته وإليه دعوته ومنه اسمه وإليه مرده وعنده جزاؤه والزيادة منه وثوابه والفضل عليه .

والمحسن يحب الحسن والمحسنين ، ويكره الخبيث والخبيثين ، كما أن الطيب يحب الطيب والطيبين ، ويكره الخبيث والخبيثين فأعمال الإنسان وأقواله خاضعة لهذا الوضع تابعة لهذا القانون : من أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

والقول الحسن أو الكلام الطيب الذي إليه يصعد وبه يرضى وعنده يقبل هو المنزه عن الفحش والتفحش ، والكذب والبهتان ، والخبث والزور ، والباطل والضلال . فكان نصحاً للمسلمين أو صلحاً بين المتخاصمين أو شهادة تظهر الحق أو قولة تبطل العدوان أو سفارة مخلصة أو شفاعة حسنة أو ذكراً يرطب القلوب أو استغفاراً يمحو الذنوب أو صلاة ناهية أو حكمة شافية أو دعوة للإصلاح أو صرخة في الحق أو نداء في سبيل الله .

والعمل الصالح الذى إليه يرفع ولديه ينزل وعنده يقع موقعه من الرضى والقبول هو ما حسنته الفطر السليمة والشرائع المنزلّة والعقول الصحيحة .
 كتوحيد المبدع وإيثار رضاه على هدى النفس وتخصيصه بالطاعة والعبادة والإحسان إلى خلقه بنصحهم وإنصافهم وتحمل أذاهم ، والكف عن أعراضهم ومعاملتهم بالحسنى والأخذ بيدهم إلى طريق النجاة وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، كما أنه تعالى اختار من الأخلاق أذكاهم وأطهرها كالوفاء والرحمة ، والتواضع والعزة ، والحلم والشجاعة ، والحق والصبر ، والمروءة والسخاء ، وصيانة الوجه ، ونقاء القلب من الغل والحسد والحقد إلى غير ذلك من خلال الخير وصفات الرحمة التى أيدها النظر ودعت إليها الأديان ، ووافقت عليها الطبائع وقضت بها العقول .
 ويجب الله لعباده من الغذاء أو النساء أو الرائحة أو العشاء - الحلال الجلى ، والسليم الحنى ، والمرى الشهى ، والطيب الذكى ، والخل الوفى ، والناصح الابى ، والصاحب النقى .

فسبحانه وتعالى يحب الطيب لعباده ومن عباده ، ويكره لهم الخبيث فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ودعاهم بما أودع فيهم من قوة التمييز وقدرة التفكير وبعد النظر وصحة التأمل والاعتبار - إلى النافع الناصع والصالح الظاهر والحق المبين والطريق المستقيم ؛ حتى إذا ما استقاموا على الطريقة وطابت نفوسهم بالطيبات ونفرت من الخبائث توفتهم الملائكة طيبين ، وقال لهم خزنة الجنة سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

فالجنة طيبة ، غرسها طيب ، وماؤها طيب ، وربحها طيب ، أعدها الله للطيبين واختارها للمتقين ، كما أن النار خبيثة ، ريحها خبيث ، وطلعها خبيث ، أعدها الله للخبيثين ، وجعلها داراً للسرفين ؛ فهما داران لسكل منهما جزء مقسوم ونصيب معلوم وعدد مرسوم .

أما الدنيا فقد جمعت بين الأمرين ، واتسعت للتقيضين واشتملت على الضدين ففيها : شر وخير ، وعدل وظلم ، ونور وظلمة ، وهدى وضلال ، وعلم وجهل ، وحكمة ونزق ، وذنوب وتوبة ، وإصلاح وإفساد ، وطيب وخبيث ، كل ذلك وما وراءه لا تتردد النفوس فيه ولا يتطرق الشك إليه ، فالحلال بين والحرام بين ولكن للعقول المميزة بين هذه المتخالفات وتلك المتباينات قد يغطيها صدأ يعكر

صفوها أو سحاب يستر ضوءها أو حجاب يمنع نفوذها فتتردى في الباطل باسم الحق ونؤمن بالزور والضلال خضوعاً لغلبة الشهوة وسيطرة الشيطان .

وما كان الله ليدع عباده في ظلمة الدنيا حيارى بين حق مستور، وباطل مشهور ، وهو دون أن يبين لهم الطريق ويوضح لهم السبيل ويفتح لهم باب الرشاد والقبول - وكيف يجعل لهم موعداً ، ويضع لهم ميزاناً ويعد لهم صراطاً ويقفهم وقفة السؤال والحساب ، ويزف المحسن إلى الجنة ، ويسوق المجرم إلى النار وهو عدل في قضائه ورؤوف بعباده ، وقد بقيت الحجة للأخوذ ، والمعذرة للمطلوب ، تعالى الله عن ذلك ، وتنزه عما هناك ، فقضت كلمته وشامت إرادته أن تكون الحجة له والمعذرة إليه ، فله الحجة البالغة على خلقه ، وليس لخلق عليه حجة ، فاصطفي من عباده من شاء أن يصطفى ، واختار منهم من شاء أن يختار ، اصطفي رسلاً من الناس للناس ليتم التفاهم ، وتقطع الأعذار ، وتبطل العلل ، ويزول اللبس وتقوم الحجة ويحصل الإلزام .

أرسلهم لتمييز ما اختلط ، وكشف ما استتر وتوضيح ما اشتبه ، ونشر الحق وإقامة العدل وفتح مسالك الجنة وسد مسالك النار .

أرسلهم مبشرين ومنذرين وهادين وناصحين وداعين ومرشدين . صنعهم بيده وعلمهم من كلمته وأسبغ عليهم من نعمته وجعلهم مصابيح مضيئة تهدي إليه ، وتدل عليه وتحيا لأجله وتموت لأمره وتدهو لجنته وتنفق من ناره ؛ أمدم بنصره وأيدم بعنايته وأنزل معهم الكتب والحجج فاستبان الأمر ووضح السبيل وسلك كل طريقة وصوت الحق يناديه : هذا حلال وهذا حرام ، لهلك من هلك وبخيا من سلك .

وقد شامت حكمة الحكيم بعد دعوة المرسلين أن يبقى في الناس من الناس أمثلة من أمثلة الخير ودعاة من دعاة المعروف وهداة من هداة الآلة ، تهذب نفوسهم وسمت عقولهم وصدقت نياتهم وتولاهم ربهم ، فظهر قلوبهم وعرفهم بنفسه فباخوا من أجلها نفوسهم فلا يردون ولا يصدرون إلا متقين مؤمنين بمثلين موقنين ، وهؤلاء هم الأنبياء قبل حكم النبوة والأولياء والعلماء بعد البعثة المحمدية ، أولئك دعوا الناس بأفعالهم وأقوالهم وصمتهم ونطقهم فكانوا قدوة تحتذى وعصبة ترتجى ، رحمة من ربك وفضلا من خالقك ، وفقنا الله لمتابعتهم والسير على سنتهم ؟

الأفضل بن بدر الجمالى

الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

كان بدر الجمالى ، والد الأفضل ، أرمى الجنس ، اشتراه جمال الدولة بن عمار ورباه عنده ، ولصائب رأيه ، وقوة عزمه ، وشهامته ، استغنا به المستنصر الفاطمى على مدينة صور ، وقيل عكا . ثم أخذ يتدرج فى المناصب الكبرى لما أصابه من نجاح فى الحروب السورية ، وحرب الأتراك ، حتى أضحى أشد الحكام قوة فى سوريا . ولما أطبقت المصائب على الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر استجار به الخليفة ، ليربأ الصدع ، ويقوم المعوج ، فقدم مصر على رأس جيوشه السورية المسماة « الشرقيين Easterns » تميزا لهم عن الترك ، والبرابرة ، والعناصر الموجودة بالبلاد ، وذلك بعد أن فتكت المجاعة بأهل البلاد ثمانى سنوات (٤٤٦ — ٥٤٤ هـ) . وبعد أن عاث الترك فيها فساداً . وبعد بجهته فوض له الخليفة كل شىء ، فسميت الوزارة باسم « وزارة التفويض » ومن ثم علا نجم الوزارة وهوى نجم الخلافة ، وذلك طابع التاريخ الفاطمى ، فى عهده الأخير . وألحق يقال إن البلاد تدين لبدر وابنه الأفضل مدى نصف قرن بما سادها من هدوء ورخاء .

ولما مرض بدر الجمالى ، أوصى بتدبير المملكة من بعده ، لولده الثانى ، « شاهين شاه » ، وذلك لطول ما لازمه ، وتدريب على يده ، واكتسب من سيرته . ولما تولى « شاهين شاه » الوزارة ، لقب بالأفضل ، وبجميع الألقاب ، والامتيازات ، التى كانت لأبيه ولقد كان للأفضل ، أخ ، يكبره ، يدعى « الأوحى » ، لم يعهد إليه أبوه ، بالوزارة ، لأنه خرج عليه ، وتحصن فى الاسكندرية ، فضى إليه أبوه ونازله حتى هزمه ، ودخل الاسكندرية ، وبنى بها مسجد العطارين . أضف إلى ذلك ما تحلى به الأفضل من أخلاق وميزات ، لم تكن لأخيه الأوحى .

ولم يخلص الأمر للأفضل بسهولة ، فإن « أمين الدولة لاوون » ، وهو من فتيان بدر ، تنكر لماضيه مع سيده ، وحاول في ساعات بدر الأخيرة ، أن يقفز الى الوزارة ، عن طريق رشوة الأمراء ، واسترضاء الخليفة الفاطمي ، فأبى المستنصر الوفي ذلك عليه ، ودس له منافسه « ناصر الدولة أفتكين » ، حتى اجتمع الأمراء ، على مناصرة الأفضل . فركب الأفضل ، بعد فشل « لاوون » ، إلى باب العيد ، فأكرم الخليفة وفادته ، وأقامه مقام أبيه ، وسد به مسده ، وأتبع ذلك بزيارة لبدر ، وهو على فراش الموت ، مقرأً أمر ابنه من بعده ، بجمالة له ، وطمأنه على مصير ابنه . وبذلك أضحي الأفضل وزيراً مكان أبيه ، واجتمع له من الرتب والألقاب والادعية ما كان لأبيه . أما « لاوون » ، فقد عفا عنه الأفضل ، وأبقى عليه ، ثم اعتقله أثناء حركة « نزار » ، بالاسكندرية ، مخافة خيائته ، وظل كذلك حتى مات في معتقله .

وقد كان الأفضل يلقب « بالسيد الاجل » ، الأفضل ، سيف الامام ، جلال الإسلام ، شرف الانام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، أبو القاسم شاهين شاه ، ابن السيد الاجل ، أمير الجيوش المستنصري ، وفي الحقيقة أن لقب الأفضل ، يسترعى انتباهنا . وبقدر المستطاع تلست علة هذه التسمية أثناء قرامتي في الخطط المقرزية إذ يقول المقريزي ما نصه : « فلما قام شاهين شاه أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر في الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يلقب بها أيضاً . فمن حديث المقريزي يمكن أن نستنتج أن لقب الأفضل صار له عند ما فضل خلافة المستعلي على نزار ، وأقامه بدل أخيه . منذ ذلك الحين صار يقال له الأفضل ، أما الوزراء الذين حملوا هذا اللقب من بعده ، فقد حملوه تقليداً وتشبهاً .

قضى المستنصر عام ٤٨٧ هـ (٢٩ ديسمبر ١٠٩٤ م) ، وخلف من بعده ، سبعة أولاد ، كان أصغرهم المستعلي ، الذي اعتلى العرش ، بمساعدة الأفضل ، وأكبرهم نزار ، الذي أقصى عن العرش . وتضطرب الرواية الإسلامية في هل عهد الخليفة الراحل من بعده بالخلافة الى ولده نزار أم لا ؟ ويقال إن الخليفة

قد نص صراحة في حياته على أن يخلفه ولده « أبو المنصور نزار » ، فلما مرض أراد أخذ البيعة له ، فتقاعد الافضل ، ودافع المستنصر من يوم الى يوم حتى مات . ولقد عمد الافضل بشتى الوسائل الى إبعاد نزار عن الخلافة ، فأخذ يدس له ، عند العوام والخواص ، وخوفهم منه ، حتى انفضوا من حوله ، ثم فاوض عمه نزار في ولاية أبي القاسم على أن يلقب بالمستعلي على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضى والداعى . جد الافضل بعد ذلك فى أخذ البيعة للمستعلي ، وتم ذلك بحضور قاضى القضاة المؤيد بنصر الانام « على بن نافع بن السكحال » ، على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها ، واستجاب لهذه البيعة كل من اسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر ، وكتب بذلك محضرا قرأه على الأمراء « الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسنى » ، الكتائب بديوان الإنشاء .

لم يترك نزار الامر يمضى على هذا النحو سهلاً ليناً ، وهو فيما يرى صاحب حق مغتصب ، وقال للأفضل يوم طالب منه مبايعة المستعلي « لوقطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنأ ، وخط والدى عندى بأنى ولى عهده ، وأنا أحضره . » وخرج مسرعاً حيث مضى هو وأخوه عبد الله - ناقضاً البيعة - وابن « مصال السلكى » إلى الإسكندرية ، وهناك استمال نزار واليها المدعو « ناصر الدولة أفتكين التركى » ، إذ وعده بالوزارة ، وكذا بايع أهل الإسكندرية نزاراً ولقب « بالمصطفى لدين الله » ، وساعده على ذلك « ابن عمار » ، قاضى الاسكندرية ، فكان البيعة التى تمت بالقاهرة على يد قاضى القضاة « على بن نافع بن الكمال » ، قد تم مثلها بالاسكندرية على يد قاضى الاسكندرية « جلال الدولة على بن أحمد بن عمار » . وذلك ما أزعج الافضل كثيراً ، فأخذ يعد العدة لملاقاة نزار .

وفى آخر المحرم ٤٨٨ هـ (فبراير ١٠٩٥ م) ، أعد الافضل حملة سار بها متجهاً إلى الاسكندرية ، غير أنه انكسر فى جولته الاولى ، وتمكن نزار من الاستيلاء على الوجه البحرى بما توافر لديه من الانصار العديدين من أعراب الدلتا ، وبذا أصبح نزار خطراً حقيقياً يهدد سلامة الدولة . رجع الافضل إلى القاهرة منكسراً ، وليس خائب الرجاء ، فجمع على عجل جيشاً آخر ، وتوسل

بوسائل الدس والرشوة لدى أعوان نزار وأفتكين ، وأخذ يعدم الوعود الطيبة ، فانفض أعوان نزار من حوله ، وأقدم على محاصرة الاسكندرية ، وضيق عليها الخناق ، ففر « ابن مصال » إلى المغرب ، وضعفت بذلك شوكة نزار وأفتكين ، وطلبوا الأمان فأمنهما ، ثم قبض عليهما وعلى « ابن عمار » وأرسلهم مخفوريين إلى القاهرة ، فأما نزار فإنه قتل في القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه ، وأما أفتكين فقد قتله الأفضل بعد قدومه ، ويقول ابن خلدون [ج ٤ ص ٦٦] إنه قتل بالضرب بالعصى لأن الأفضل أحضره يوماً ووبخه فهم بالرد عليه .

وعلى هذا نرى أن الأفضل أدخل بالأمان الذي أعطاه لنزار وأفتكين وابن عمار ، لأنه كان حائقاً حقيقاً كبيراً على نزار وأفتكين ، ولأن الأخير كان يلعن المستعلي والأفضل على المنابر . كذا قتل الأفضل عبد الله أخ نزار ، وولى « أبا الحسن بن حديد » قاضياً على الاسكندرية بدل ابن عمار .

وتردد بعض المصادر سلباً طريفاً تعلل به فرار « ابن مصال » إلى بلاد المغرب ، وذلك أن ابن مصال رأى في منامه أنه راكب فرساً والأفضل يسير في ركابه فقال المعبر : المشاي على الأرض أملك لها ، فلما سمع ذلك جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ويقال إن الأفضل أثنى ابن مصال واستقدمه وأبقى عليه . وهكذا استطاع الأفضل القضاء على هذه الفتنة في مهدها ، التي لو قدر لها النجاح لاطاحت بوزارته وبخلافة المستعلي .

ويجدر بنا أن نتساءل : ما هي الأسباب التي حملت الأفضل على إقصاء نزار عن الخلافة ؟ تردد غالبية المصادر وخاصة العربية منها أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر ، وكان المعمر مظلماً فلم يره الأفضل ولم يترجل ، فصاح به نزار « انزل يا أرمني الجنس ،

وفي رواية أخرى «إنزل يا أرمني يا كلب» وفي الثالثة «انزل يا أرمني يا نجس»، وعلى هذا أضمر كل لصاحبه الكراهية، ومن دواعي هذه الكراهية أيضاً، أن كان لنزار حاشية وأعوان يعملون على إقصاء الأفضل عن الوزارة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأفضل يعارض نزاراً في أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بعلمانه... فلما مات المستنصر خاف الأفضل على نفسه فعمل على إقصائه عن العرش. أما المصادر الاجنبية فتورد جملة تعليقات لهذا الإقصاء، من أهمها أن الأفضل كان يرغب في الاحتفاظ لنفسه بالقوة التي كانت لأبيه أيام المستنصر، فعمل على إقصاء نزار عن الخلافة وكان عمره إذ ذاك خمسين عاماً، أما المستعلي فكان عمره في ذلك الحين ثمان عشرة عاماً، فيكون ولا شك في يده أطوع أمراً وأسلس مقادة من أخيه المسن، فكان الأفضل بإبعاده نزاراً عن العرش، كان مدفوعاً بعوامل شخصية قوامها الكراهية والطمع في تركيز السلطة في يده، ولم تذكر المصادر عربية كانت أو أجنبية عيوباً خلقية أو خلقية تحول دون تولى نزار الخلافة.

ويجدر بنا أن نلم في ختام هذا المقام بالنتائج التي ترتبت على حركة نزار وهزيمته، وأهمها نقيجتان: الأولى ازدياد قوة الأفضل بالطبع، إذ ظل المستعلي مسلوب السلطة معه طيلة خلافته. والثانية أن هذه الحركة سببت الانقسام في صفوف الفاطميين، فأصبح الفاطميون وأعوانهم بمصر قسماً، وأتباعهم خارج مصر قسماً آخر، وهؤلاء هم النزاريون الذين كانوا يدعون مبدئياً للمذهب الفاطمي عامة، ثم أصبحوا بعد مقتل نزار سنة ٤٨٨ هـ حزباً قائماً بذاته يعمل على مناوئة الفاطميين بمصر ويقول بإمامة نزار، ولقد سببت هذه الطائفة كثيراً من المتاعب للدولة الفاطمية، ولقد دخل بعضهم مصر ولا يبعد مطلقاً أن يكونوا هم الذين دسوا السم للإمام المستعلي.

والى مقال قادم نعرض فيه لفرقة النزارية، ونتم فيه الحديث عن وزير جليل خطير من أهم وزراء العهد الفاطمي هو الأفضل بن بدر الجمالي.

دراسات في التصوف :

العقل والنقل والذوق

الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

نشأت بين الفقهاء والصوفية خصومة عنيفة دامية ، بدأت مع بدء التصوف كعلم ، واستمرت تشتد وتضطرم كلما تقدم بها الزمن . فالصوفية قد اتبعوا مذهباً ، واصطنعوا آراء ، هي على طرف نقيض مع آراء الفقهاء ، فكان النضال بين الفريقين فضال مذاهب :

طريق التصوف ، كما نعرف ، هو التخلص من ربة البدن ، وهو تنقية النفس وتصفية الروح ، والصعود بها إلى السماء الأعلى ، هناك حيث تتحد بالحق ، وحيث تنكشف لها أنوار اليقين ، فالروح إن تخلصت من البدن ، سمت وارتفعت عن أدان الأرض وأحقادها ، إلى عالم الله ، إلى عالم الحقيقة . هنالك تجد الروح لذة لا تعادها لذة . أما السبيل إلى ذلك فهو كما قلنا التخلص من ربة البدن : بالرياضة والمجاهدة والزهد والحرمان والتعشف .

تلك جميعاً هي وسائل في سبيل غاية أولى ، ومقصد أسنى وأنبل ، لا بل في سبيل شيء أعظم من ذلك وأقدس ، إنما هي وسائل فصل بوساطتها إلى عين الحق . يريد هؤلاء القوم أن تتلاشى عن أبصارهم حجب الماديات ، فيأخذون أبدانهم بالمجاهدات والرياضات ، حتى يتخلصوا — إن أمكنهم ذلك — من مظهر الوجود الشخصي المحدود : يريدون الفناء عن أنفسهم في الله ، والتخلص من أبدانهم ليتصلوا بالله .

ولكن الفقهاء أبوا أن يسيروا مع الصوفية في نفس الطريق ، فأصموا آذانهم دون هذا الحديث ، فإنه لحديث مشكل ، وطريق غير معبد ، لا يستطيع السير

فيه إلا من يسلك طرق الصوفية ويتبع خلتهم ، فإنهم وقد بنوا عليهم على أصول كشفية ، وعلوم ذوقية ، فإن علينا أن نحكم الأصول حتى نعرف الفروع ، وأن نتجرد عن الدنيا والآخرة حتى نذوق ، وعلينا قبل أن نبدأ فهم كلامهم أن نكون منهم ، وأن نعلم ماهية النفس على طريقته .

وهنا نجد الفقهاء يخالفونهم في السير ، ويباينونهم في الفهم ؛ إن الروح عندهم من أمر ربهم ، لا يقبلون فيها نقاشاً أو جدالاً ، إنها حقيقة مسلمة أمرهم الله ألا يبحثوها ، ولذا عجز الفقهاء عن فهم الصوفية ، فرماهم هؤلاء بأنهم لا يعلمون من الحكمة إلا الحشف والقشر ، وحاصل ما حصلوه إنما كان معرفة الجسم وبعض أعراضها ، وبعض عوارض الوجود ، بل وليت ذلك سلم من الأخطاء ، فإن به الكثير من الخطأ .

رأى للفقهاء أن الصوفية يتزهدون ، ويعرضون عن الدنيا ، لا يبغون منها مأرباً ، وإنما هم يبغون وجه الله ذي الجلال والإكرام ، لا يسعون إلى منفعة إن عاجلة أو آجلة في عالم الفناء ، ولكنهم يرغبون في عالم الحقيقة ، يرغبون الاتحاد بالله والفناء فيه . ولكن الفقهاء يرون أن الزهد يخالف للشرعية السمحاء ، نهى الله عنه بآياته البينات ، أفلم يقل عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، ولكن ليت الأمر وقف عند الزهد ، فإن أمره سهل ميسور ، ولكنه تعدها إلى ما هو أكثر من ذلك خطراً وأقوى أثراً ، فنادى الصوفية بالسكر والغيبة ، قد سكروا وغابوا ، يقولون إن أرواحهم في العالم القدسي ، في حضرة الربوبية ، فهم إن نطقوا فإنما ينطقون بلسان الله ، وإن تكلموا فإنما يتكلمون عن الله ، فإن قال الخلاج : أنا الحق ، أو إن قال : ما في الجبة إلا الله ؛ أو إن قال ابن عربي :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

نظر الاشرافيون إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ولم لا ، وهم الواصلون إلى درجة العرفان ، المتحدون بالله قلباً وقالياً ، الناطقون عن لسان الحق ، المتكلمون عن إله الخلق ، إذن فليس في حديثهم هذا غرابة ، ولا يحق لنا أن ندهش إن سمعناه ، أو أن نعجب منه ، أو أن نستنكره ؛ أما الفقهاء فيرون فيه كفرأ

والحداد: فمن هو ذلك الإنسان ، ذلك العبد الذى يرتقى فيصل إلى الله ، من هو هذا المخلوق من طين وماء مهين ، أين هو من الله : نور السموات والارض ، النور على النور ، الذى يسكاد نوره أن يخطف الأبصار ، الله الذى إذا تجلى لجبل لحرَّ الجبل من هيئته تعالى ؛ أين هذا الإنسان إذن من عظمة الله وجبروته وقوته ، وأنى له أن يتصل به ، إن هو إلا إلك وبهتان ، وإن هو إلا تضليل للعقول :

فدع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا فهم ذئاب خفاف

فالتصوف عند الفقهاء كان حقاً في عهد واحد وحقيقة من الزمن واحدة ، أما ذلك العهد وتلك الحقبة ، فهو عهد الصحابة والتابعين ، عهد السلف الصالح ، أما بعد ذلك فقد خلط التصوف بالفلسفة الإشراقية ، وكسى بلون من الزهد الفارسي ، فأخذ التصوف حياة غير الحياة التي عرف بها الزهاد والوعاظ في صدر الإسلام ، وشاع يومئذ الغلو في الزهد ، وراج ما توهموه في معنى التوكل من أنه نزع اليد من الأسباب جملة .

ووحدة الوجود هي أهم المسائل التي أحنقت الفقهاء على الصوفية ، وأثارتهم صدهم ، فنظروا إليهم نظرتهم إلى الملاحدة أو الكفار .

ولعل هذه النظرية في أصلها هندية أو فارسية ، متأثرة ببعض الافلوطينية ، ولكن الصوفية قد صبغوها بصيغتهم الخاصة ، وأسبغوا عليها من روحهم ما أحالها إسلامية إشراقية خالصة : فالكائنات كلها مظهر لعلم الله وإرادته ، وفيض صدر عنه مباشرة أو بالواسطة ؛ فوجودها مستمد منه جل شأنه ، ولا موجود بذاته ولذاته إلا الله الواجب الوجود ، المستغنى عن كل ما سواه ، وعنه صدرت الكائنات الأخرى ، وأفادت الوجود والحياة فوجودها عرضي وبالتالي ، ومن هنا يظهر لنا أنه ليس ثمت إلا كائن واحد ، موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله . أما الكائنات الأخرى ، فلا تسمى موجودات إلا مجازاً . وإذا كان الله هو الموجود الحق ، فكل ما عداه ظواهر وأوهام . فليس ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله .

ولابن تيمية نقد مشهور لهذه النظرية ، يقول : لو صح هذا الذى يقولون لكان الله هو عين الخنازير والكلاب وسائر المخلوقات الدنيا ؛ وهذا كفر وبطلان ليس بعدهما كفر وبطلان . وثبت نتيجة تتفرع منها : لو أننا كنا نحن هين الله ، نحن بضعة منه وجزءه ، فأفعالنا إن أحسننا هي أفعال الله ، وأفعالنا إن أسأنا هي أفعال الله ، فكأن الله إن أثاب إنما يثيب نفسه ، وإن عاقب فإنما يعاقب نفسه ، وهذا هدم للشرع والدين .

ونادى الفقهاء بتكفير من يقول بهذه النظرية ، وكأنا أحس الصوفية بما ينتج عن نظريتهم هذه فقالوا قولهم المشهور : إن العلم علمان : علم مكتسب ، وهلم موحى به . أما الأول فلندعه لهؤلاء المنقبين بين الصفحات ، الباحثين بين الكلمات الساهرين الليل الطويل ، القارئين المؤلفين ؛ أما العلم الثانى فسيبيله الله ، والله وحده هو الذى يصطفى عبده ، ويختبئه ، ثم يشرق على قلبه نورا ليس بعده نور ، وعلمنا أكثر من العلم المكتسب ، بل وليس بينهما سبيل للمقارنة . وعلى الفريق الأول أن يكتفى بعلم الدنيا ، وألا يحاول أن ينفذ الى علم الله الذى لا يعرفه إلا هو ، والراستخون فى العلم المقربون منه المصطفون . [يتبع]

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام رجل :

يكفى قليل كلامه وكثيره ثبت إذا طال النضال مصيب
وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقض
توليد من حظ القديم شيئا :

طبيب بداء فنون الكلام	فلم يمشى يوما ولم يهذر
فإن هو أطنب فى خطبة	قضى للبعيل على المنذر
وإن هو أوجز فى خطبة	قضى للمقل على المكثر
وقال شاعر آخر يصف خطيبا :	

فإذا تكلم خلت منه متكلما	بجميع عدة ألسن الخطباء
فكأن آدم كان عليه الذى	قد كان علم من الاسماء

العلاقة بين أهـ سلام والنصرانية

لحضرة الأستاذ سالم أحمد الرشيدى

أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا روما إلى

اعتناق النصرانية ويعدده بالشهرة والمجد]

أخذت الدولة العثمانية بعد قيامها واستقرارها فى آسيا الصغرى ، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى تمت فتوحاتها شرقاً وغرباً ، وعبرت مضيق الدردنيل إلى أوروبا واستولت على كثير من ممالكها حتى بسطت سيطرتها على معظم البلقان . وقد أثار هذا التقدم السريع الباهر الذى أحرزته الدولة العثمانية الفزع والرعب بين دول أوروبا ، وطالما دعت البابوية فى روما إلى شن الحروب الصليبية على هذه الدولة الإسلامية الفتية والقضاء عليها .

وعند ما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) كانت لا تزال فى آسيا الصغرى بعض قلاع وإمارات إسلامية ونصرانية لم تدخل بعد فى نطاق الدولة العثمانية ، وكانت كلها تضرر لهذه الدولة أشد العدم والكراهية التى يمازجها شيء من التخوف والخشية . وما لبثت هذه القوى المختلفة أن أخذت تتآمر وتنظم الخطط للقضاء على الدولة العثمانية التى تزداد كل يوم قوة وخطراً ، ولا سيما بعد استيلاء السلطان الفاتح على القسطنطينية . وتولت زعامة هذه الحركات والمؤامرات طرابزون (١) .

(١) إمارة نصرانية صغيرة تقع فى شمال شرق آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود ، وكانت تعرف باسم : د إمبراطورية طرابزون ، .

وكان يوحنا انبراطورها^(١) وقتذاك كغيره من الروم ، كبير الاعتداد والعجب بنفسه ، يعتقد أنه لا يدانيه أحد في المهارة السياسية ومعرفة دوائها وحبالها ، فكان يستخف بأعدائه ويستهن شأنهم وقوتهم . ولما بلغته وفاة السلطان مراد الثاني وقيام السلطان محمد الفاتح مكانه - وهو فتى شاب - استطار فرحا وغبطة ، إذ ليس أيسر عليه - في اعتقاده - من أن يتغلب بمحنكته ودهائه على هذا الشاب الغر ، ويخضعه لأمره ، وأن في قدرته أن يستميل إليه من حوله من الأمراء في آسيا الصغرى وفيما وراءها من آسيا ، بل وفي أوروبا أيضاً ، يشد بهم أزره ويسخرهم لأغراضه ، ويؤلبهم جميعاً على العثمانيين .

وقد وجد يوحنا في الأمير الطموح أوزون حسن^(٢) خير حليف ونصير يعينه على تحقيق هذا الأمر ؛ إذ كان مثل يوحنا بنفس على الدولة العثمانية ما تحرزه من مجد وانتصارات ، ويكن لها أشد الكراهية والعداوة . غير أنه اشترط على يوحنا لمساعدته أن يزوجه ابنته كاترينه التي شغفته حباً من كثرة ما سمع عن جمالها وحسنها ، وقبل الامبراطور يوحنا ما طلبه أوزون حسن ، وسره أن يكسب هذا الحليف العظيم بهذا الثمن البخس ، وبعث إليه ابنته مع أخيه داود يصحبها عدد من الوصيفات النصرانيات وجماعة من الرهبان والقسس لمعاونتها على أداء شعائر دينها . ونجح يوحنا إلى جانب ذلك في توحيد صفوف الأمراء المجاورين له - أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى - الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم الحقدهم على الدولة العثمانية ، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بهجوم واحد عليها . وجاش في نفوس هؤلاء المتحالفين أو المتآمرين أمل قوى في قهر السلطان الفاتح وإخراجه من آسيا .

(١) يقول اللغوي العلامة الأب انستاس ماري الكرملى : « أن كتابة الامبراطور بهذا الرسم ، كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية ، لأنه لا يرى في الكلم الضادية من عربية ومعربة فيها الميم ساكنة ويلها باء متحركة ، فاذا وقع مثل ذلك رسمت الميم نونا ، ولهذا يجب أن تكتب « الامبراطور » بنون ،

(٢) أمير تركاني كان يحكم آمد وديار بكر .

وحاول الانبراطور يوحنا أن يضم إلى هذه القوى الشرقية المجتمعمة قوة الأوربيين في الغرب ، فتزلف إلى البابوية بالعمل على توحيد السكنيستين الشرقية والغربية ، وإزالة أسباب الخلاف بينهما على الرغم من أنه في قرارة نفسه كان شديد التمسك بأرثوذكسيته ، شديد التعصب لها ، لا يؤمن بالاتحاد ولا يعتقد صحته .

وفيما كان الانبراطور يوحنا يحرك هذه المأمرة ويرسم الخطط ويعد العدة للقضاء على الدولة العثمانية ، يدفعه إلى ذلك أعظم الآمال ، ويرنو إلى المستقبل بنظرة واثقة باسمه إذ بغته الموت في سنة ١٤٥٨ م قبل أن يشهد شيئاً مما كان أعد ودبر ، وقبل أن يشهد العاصفة التي كان يعمل على إثارتها وترك وراءه طفلاً صغيراً في الرابعة من عمره يدعى السكسيوس ، ولم يجد عمه داود صعوبة في تنحيته وأن يستبد بالحكم دونه .

واصل الانبراطور داود ما قد بدأه أخوه في تكوين تلك الجبهة المتحدة ضد العثمانيين ، وصرف كل جهده وقواه في التأهب للحرب المقبلة ، ولم يكن داود أقل من أخيه يوحنا عجباً وغروراً بنفسه ، يستخف قوة الدولة العثمانية وقوة الجيش العثماني ، ويعتقد أن أسوار مدينته طرابزون لا تقتمح ، سيرتدعها السلطان الفاتح إن هاجمها ، كما ارتد عنها غزاة من قبله ، كيف وقد اجتمعت حوله قوات أمراء الشرق ، وستناصره بعد ذلك قوات أمراء الغرب !

وكانت شؤون الروم في بلاد المورة تشغل بال الفاتح إذ ذاك ، فرأى أن ينهي أمره هناك ويقر فيها السلام ، قبل أن ينقل جيشه إلى آسيا . وبذلك تهيأت لداود فسحة من الوقت امتدت سنتين قبل بدء القتال يحكم فيها أمره واستعداداه ، فأتم زواج ابنة أخيه كاترين بأوزون حسن ، فقد توفي الانبراطور يوحنا قبل إتمامه . واستطاعت هذه العروس الحسنة الذكية أن تحلب لب الأمير التركياني وتسيطر على نفسه ، وأخذت توجع نيران الحقد الذي كان يتقد في صدره على السلطان العثماني وما آتاه الله من مجد وسلطان . وجدد داود المحالقات السابقة التي عقدت مع من حوله من الأمراء .

وكان البابا كاليكست الثالث Calixte III - وهو الذى أخذ منه السكرادة ميثاقا غليظا عندما انتخبوه للبابوية فى سنة ١٤٥٥ ليبدل أعظم الجهد فى قتال الأتراك العثمانيين - قد أرسل لوى دى بولونى Louis de Bologne - من رجال الفرنسيسكان وكان يجيد كثيرا من لغات الشرق - إلى امبراطور طرابزون وأوزون حسن وغيرهما من أمراء الشرق يدعوهم إلى الائتلاف والتضافر على قتال الأتراك . ثم عاد الرسول الفرنسيسكانى إلى الغرب يصحبه رسل آخرون بعثهم إلى الغرب هؤلاء الأمراء الشرقيون وفى مقدمتهم ميخائيل اليجرى Michael Aligeri رسول امبراطور طرابزون ، وكان يحمل رسالة خاصة من سيده للبابا عدد له فيها الجيوش الجرارة التى أعدها هو وأمراء الشرق لقتال العثمانيين ، ورسالة أخرى لفيليب لبون Philippe le Bon دوق بورغنديا أشد أمراء أوروبا تحمسا لقتال الأتراك .

سلك هؤلاء الرسل فى رحلتهم إلى الغرب طريق البر وعرجوا على المجر والنمسا ، وعندما وصلوا البندقية استقبلهم الناس بحماس عظيم وحفاوة بالغة ، وهم يحذقون بأبصارهم فى تطلع واستغراب إلى ملابسهم الشرقية الفضفاضة . ومن البندقية شخصوا إلى روما ، وكان البابا كاليكست الثالث قد توفى وخلفه البابا باى الثانى Pie II ، وكان يفوق سلفه فى الحماس إلى قتال الأتراك ، فاحتفى بهؤلاء الرسل وأكرمهم وقدم لهم رسائل توصية لملوك أوروبا . وبعث برسالة خاصة إلى دوق بورغنديا يوصيه فيها أن يحسن لقاء أولئك الرسل ويكرم وفادتهم ويستحثه على التعجيل فى القيام بالحملة الصليبية ، وأن لا يكون أقل همه وبلاء فى هذا السبيل من أمراء الشرق .

وفى شهر مايو من سنة ١٤٦١ كان هؤلاء الرسل الشرقيون فى باريس لدى بلاط الملك شارل السابع ، وذكروا له أن أمراء الشرق قد استجابوا دعوة أهل الصليب ، وأنهم قد عقدوا العزم على قتال العثمانيين ، وطلبوا منه أن تشترك فرنسا

بمجنودها في هذه الحملة . ومن هناك ذهب هؤلاء الرسل إلى سان أومير Saint Omer (في شمال فرنسا) حيث التقوا بفيليب لوبون دوق بورغنديا . ولم يكن هذا الدوق في حاجة إلى من يثير حماسه ويحثه على قتال العثمانيين ، فقد كان في مقدمة من دعا إلى طردهم من أوروبا قبل استيلائهم على القسطنطينية ، فكيف بعد استيلائهم عليها ؟ وسلم إليه ميخائيل البيجري رسالة سيده الانبراطور داود وفيها يحضه على الائتلاف والتحالف بين أمراء الشرق وأمراء الغرب والتألب على العدو المشترك ، ووعده داود بأن يعاونه — بعد إحراز النصر على الأتراك — على تويجه ملكا على بيت المقدس .

وكانت الخطة المرسومة بين المتآمرين هي أن يهجم أمراء الغرب من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ، ويزحفون إلى الشرق ، ويهجم أمراء الشرق من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويزحفون إلى الغرب . ويقع العثمانيون بذلك بين فكي د كاشه ، واسعة تضغط عليهم من هنا وهناك وتعصرهم عصرأ لا تبقى منهم على أحد إلا أن ينفلت إلى البحر ! وعاد هؤلاء الرسل بعد تطوافهم بأوروبا إلى روما .

وكانت جنوا تملك فيما تملك من مستعمرات في الشرق مدينة « إصارة » ، في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود و « كفه » ، بشبه جزيرة القرم .

وتعد هاتان المستعمرتان وبخاصة الأخيرة منهما ، من أهم المراكز التجارية لجنوا في الشرق . ولم تكن البابوية من جانبها أقل اهتماما بمصير هذه المستعمرات الشرقية إذ كانت تنظر إليها على أنها مواقع أمامية للصراعية ، فأخذت تمد الجنويين بالاموال عوناً لهم على الدفاع عن هذه المواقع . وأخذت من جهة أخرى تعمل على إنجاح تلك المؤامرة الكبرى التي لا نعرف لها نظيراً في التاريخ والتي اتلفت فيها الروح الصليبية بالمصلحة التجارية والاحتماد الشخصية على الدولة العثمانية .

من قبح بذر

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد حسن كحيل

مبعوث الازهر بالمدينة المنورة

[قتنا برحلة دراسية من المدينة المنورة إلى بدر ، ثم ينبع ،
فرايت أن أرسم صورة صحيحة لبدر ، وأتبع الطريق النبوي إليها ،
وأصور ما شاهدت فيها لحضرات القراء ، وأسجل ما جال في قلبي
من آلام وآمال .]

قد كانت بدر المعركة الفاصلة بين الحق والباطل ، والموقعة الحاسمة بين الإيمان
والشرك ، ضرب فيها الكفر على هامه ضربة خفت لها صوته ، وتقطعت أنفاسه
ولم تقم له قائمة بعدها ، وقويت شوكة الإسلام وتآلق سناه وامتد لواؤه ، ومن
يومئذ وهو يزداد عزا وقوة وتأيدا ؛ حتى تسكونت الامبراطورية الإسلامية ،
فعلى أكتاف أبطال بدر وبطلي سيوفهم وأسلات رماحهم قامت الدولة الإسلامية
وانتشر الإسلام من الصين شرقا إلى الأطلس غربا ، ولو قدر لهذه الفئة المؤمنة
أن تنهزم يومئذ لحبا ضوء الإسلام ، وأفل نجمه وقتلت الدعوة المحمدية وهي
لا تزال في المهد . وهذا ما كان يحسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤمن به
وقت أن حمى وطيس القتال فوقف في العريش يناجى ربه ويضرع إليه فيقول :
« اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة المؤمنة اليوم لا تعبد
في الأرض أبدا . » ولهذا المعنى تجلى الله على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم . فمن
ذا الذى يذكر بدرا ولا يتلفت إلى هذا التاريخ الحافل والعز الغابر والمجد الدائر
أيام كانت القلوب مؤتلفة والشمم مجتمعا ؟ من ذا الذى يذكر بدرا ولا يذكر
تلك القلوب العائرة بالإيمان ، الفياضة بالإخلاص ، وتلك النفوس الزكية التى
ضربت أروع المثل في التضحية والبذل ؟

من ذا الذى يذكر بدرا ولا يذكر كيف يفعل الإيمان بالنفوس ، فيخلق

من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، ومن الخور شجاعة وعزما ، وإقداما وحزما ؟؟ . من الذى يذكر بدرا فلا يهفو إليها قلبه ، ولا يهوى إليها فؤاده طلبا للذكر ، وشوقا إلى تلك السهول والربا التى طالما هبطت عليها الملائكة ، وسالت على بطاحها دماء المسلمين ، ورفرفت فى أجوائها أرواح الشهداء ؟؟ .

خرجنا إلى بدر - وقلوبنا تسبقنا - نلتمس العظة والذكرى ، ونبتغى غذاء الروح والعقل ، ففيها عظات بالغات ، وحياة للعقول ومتعة للأرواح وجللاء للقلوب ، وما أحوجنا فى هذا العصر لتلمس العظات بين أطلال الماضى وفى زوايا التاريخ علنا نجد قبسا يهذى الأمة الإسلامية وينقذها من ضلالها . ويبدد تلك الغياهب التى اكتشفتها ، ويحجبها المطامع والشهوات التى فرقها !! والحكمة عالية أمرنا الله أن نضرب الأرض نتبع تاريخ الأولين وآثار الغابرين .

ولقد كننا فى رحلتنا حريصين على أن نتبع الطريق النبوى إلى بدر لنعرف مقدار ما عاناه الصحابة من جهد وما تحملوا من نصب . فبعد أن خرجنا من المضينة إلى وادى العقيق سرنا فى طريق الحاج إلى مكة فمررنا بذى الحليفة وعرق الظبية وهى جبل قبل المسيجيد بأربعين ميلا تقريبا ، وفى هذا المكان قتل الرسول أحد الأسرى واسمه عقبة بن معيط ، ثم مررنا بالروحاء وهى قبل المسيجيد بعشرة أميال تقريبا يقال لها بئر الراحة ، وقد نزل بها الرسول .

ثم واصلنا السير إلى المسيجيد ، والسهل الفسيح الذى تقع فيه المسيجيد ، هو الذى كان يقال له المنصرف . وفى هذا المكان قسم الرسول الغنائم ثم تركنا طريق مكة إلى يسارنا وملنا ذات اليمين فقطعنا وادى رحقان عرضا ، ثم دخلنا فى وادى الصفراء وسرنا فيه مسافات مررنا خلالها ببعض الخيوف ومنها خيف الحزامى ، فلما وصلنا إلى خيف الحزام وجدنا أن الطريق النبوى اتجه إلى وادى ذفران ، وهو وادى متصل بالصفراء ولا يصلح لمرور السيارات ، فاضطررنا إلى أن نواصل السير فى وادى الصفراء وهو طريق عودة النبى صلى الله عليه وسلم .

ولقد وقفنا فى هذا المكان ، حيث يتصل وادى ذفران بوادى الصفراء ، نستوحيه العبرة ، ونستلهمه العظة ، فقد جرت فيه أروع حوادث التاريخ وتحلت

فوقه أعظم مظاهر الإيمان وآيات البطولة الخالدة، إذ بلغ المسلمين في هذا المكان أن قريشاً خرجت في جيش جرار لتحمي تجارتها، وتدافع عن هيبتها، والرسول مع أصحابه قلة لم يخرجوا لقتال ولا لحرب فإذ هم فاعلون ؟ !

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادى ذفران مؤتمراً يجمع المسلمين يستشيرهم في الأمر إذ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن طاغية مستبداً برأيه بل كان قائداً حكيماً . فقال عليه السلام : أشيروا على . فقام أبو بكر فتكلم خمس وقام عمر فتكلم خمس ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ وسكت . ثم التفت الرسول ناحية الانصار وقال : أشيروا على وكان يريد رأى الانصار الذين بايعوه يوم العقبة ، فقام سعد بن معاذ صاحب راية الانصار فقال يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . ؛ فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ؛ فما انتهى سغد من كلامه ، حتى أشرق وجه رسول الله بالسرور ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين !! لله تلك النفوس المؤمنة !!! ثلاثمائة رجل يخرجون للاستيلاء على تجارة قريش التي أخرجتهم من ديارهم ، واستلبت أموالهم ، وفتنتهم عن دينهم ، ولم يخرجوا لحرب ولا لقتال ، ثم يعلمون أن قريشاً خرجت إليهم في جيش كثيف العدد ، سابغ الدروع وافر العدة ، فلا تزلزل قلوبهم ولا يثشثون عن قصدهم بل يصمدون للعدو ويحرضون على نزاله !! .

إن هذا في لغة عصرنا تهور وانتحار، ولكنه في لغة العصر الاول تضحية وإيمان .

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك في عودته من بدر وادى الصفراء ولم يرجع من وادى ذفران وفي هذا الوادى — الصفراء — دفن عبيدة بن الحارث

ابن عبد المطلب أحد الأبطال الثلاثة — على وحمزة وعبيدة — الذين خرجوا لمبارزة عتبة وشيبة أبي ربيعة والوليد بن عتبة . فأصيب عبيدة بجراح ظلت تنزف دما ، واستشهد في الطريق وهم عائدون الى المدينة متأثراً بجراحه ولا يعلم على وجه التحقيق الموضع الذى دفن به ، وكل ما يقال عنه إنما حدس ورجم بالغيب لا يعتمد على شاهد ثبت ولا تحقيق تاريخي صحيح .

واصلنا السير فى وادى الصفراء متجهين غربا ، وقد يميل بنا الوادى ذات اليمين وذات الشمال ، وقد ينفرج ويتسع حتى يعظم اتساعه وقد يضيق حتى يشتد ضيقه .

وفى هذا الوادى الى بدر تسكث العيون التى يجرى منها الماء ويتدفق غزيراً فيروى ماحولها من نخيل ويطلق على كل عين وماحولها من نخيل « خيف » ، وأهم خيوسف هذا الوادى خيف الحزامى وخيف الحمرام وخيف أم ديام وخيف الواسطة .

ومن الغريب أنه لا يروى من ماء هذه العيون إلا النخيل ، مع أن كثيراً من أرض الوادى صالحة لزراعة الفاكهة والخضر !! ويبدولنا أن هذا الوادى غزير المياه ، طيب التربة : لو عنى به ، وغرست فيه أشجار الفاكهة ، وزرعت به بعض الخضر ، لدر الخير على أهل البادية ، ولا طعمهم من جوع ، وكفاهم من عوز ، وأغناهم من فقر — بل لقام بكفاية المدن ، فعسى أن يظفر هذا الوادى بحظ من عناية الحكومة السعودية واهتمام رجال الزراعة ، كما ظفر التعليم فيه بعناية المعارف ، فأنشئت فيه المدارس القروية والابتدائية لمحاربة الجهل ، فليست محاربة الفقر ومكافحة الجوع بأهون قدراً وأقل خطراً من محاربة الجهل !!

ولقد سررنا ما رأيناه من إقبال أهل البادية على التعليم ، وكما كان جميلاً أن نرى أبناء البادية وهم يخترقون الأودية ، ويتسلقون الجبال ، وينحدرون فوق الهضاب عند انصرافهم من المدرسة .

وفى الواحدة مساء قبل العشاء ، كنا نندفع من مضيق الصفراء إلى سهل بدر فنطرق أبواب هذه القرية الهادئة النائمة الغارقة فى ذكريات التاريخ ! فكم سجل لها

التاريخ نفرا، ورفع لها بين المدن والأمصاير ذكرا!! لا يذكر حق منتصر، ولا باطل منكسر، إلا وذكرت بدر! ولا يذكر تعاون واتحاد إلا كانت بدر مثلاً! ولا يذكر تضحية وإيمان إلا كانت رمزا وعلماً!!

وكان أول من استقبلنا فيها مدير مدرستها، وهو شاب يفيض نشاطاً وأريحية وكرماً، فوضعنا رحالنا في المدرسة وقضينا صدر ليلتنا نسهر وتتجاذب أطراف الحديث حول بدر وما فيها من آيات وعبر بالغات!! وكانت أكبر عبرة تمثلناها وأحسنها أننا وصلنا بدرًا بعد رحلة دامت سبع ساعات، وقد أجهدنا السفر وبلغ منا التعب مداه ونال السلال غايته ومنهاته! — مع نخامة المركب ولين الفراش وغدوية الماء ونوفر أسباب المتعة والراحة، هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يسلكون هذا الطريق وهو وعز لم يمهّد وصعب لم يذلّل، ويقطعون معظمه سيراً على أقدامهم! أي والله سيراً على أقدامهم! إذ لم يكن إلا سبعون بعيراً تحمل زادهم ومتاعهم فكانوا يعتقبونها كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة يتناوبون بعيراً حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أسعد حظاً من أصحابه فقد قطع ثلثي الطريق سيراً على قدميه، كان يتناوب بعيره مع علي بن أبي طالب ومرقد الغنوى، ويقطعون هذه المرحلة القاسية في ثمانية أيام ثم لا يجدون في انتظارهم — كما وجدنا فراشاً وثيراً ولا طعاماً شهيماً!! بل يجدون عدواً صعب المراس شديد الشماس متقد الحماس شاكى السلاح لا يمهّلهم حتى يستريحوا من وعشاء السفر ووعورة الطريق، بل يصحبهم في اليوم التالي فيخوضون معه المعركة ذابن عن دين الله مجاهدين في سبيل الحق يلتقون شبا الا سنة وظلمات السيوف بنحورهم ويستقبلون شائك السهام بوجوههم وصدورهم لا يشكون ظلاً ولا يبدون تعباً.

فمن أين لهم هذه القوة التي بهرت العدو وفرقت شمله وفلت حده!! إنها قوة اليقين وحرارة الإيمان وسلطان الحق وروح من عند الله أمد بها جنده، ونصر بها عبده وصدق بها وعده! سيهزم الجمع ويولون الدبر!

، لها بقية ،

عظمة الهجرة

لفضيلة الأستاذ المنشاوي عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

تعنى الأمم بذكر الحوادث الجسام ، لما لها من التوجيه الحازم فى حياتها والاساس القويم فى تكوين نهضتها والاثـر الخالد فى عزها وإسعادها . وإذا نظرنا إلى موضوع الهجرة ، وجدناه حادثاً فذاً فى تاريخ الإنسانية ، يجمع من السمو والعظمة ما تتضام أمامه قوة الحوادث وتلاشى روعتها . فهو أرفعها شأنًا ، وأنبها قصداً ، وأوسعها يمناً وإقبالا ، لذا كان أولى بالتقدير والإكبار ، وأحق بالتقديس والإعجاب .

وقد تضمن هذا الحادث الخطير أموراً جلية يصح كل منهما أن يكون مثلاً كريماً للبدا القيم ، والهدى الرشيد ، والعظة النافذة ، والحكمة البالغة .

فقد نشأ سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقعة من بقاع الأرض حُجبت عنها أنوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية ، وأظلمت الناس سحـب قائمة من الباطل الآثيم ، والضلال البعيد . وطبعت على الشر نفوسهم ، فعكفوا على عبادة الأوثان ، وتدنسوا برجسها ، وارتكسوا فى حضيض الشهوات ، وخف فى العلم وزنهم ، وطاش فى تقدير الأمور سهامهم فحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة وانتهاك الحرمات إقداماً وأد البنات عفافاً وشرفاً . وخيل إليهم أن هذا نهاية ما تصل إليه الإنسانية من رفعة وكال . فمن تنسكب سيلهم أجمعوا على محاربهه والسكيد له حتى يتخبط فى أهوائهم ويخوض باطلهم ويركض فى ضلالهم .

لكن الإله جلت قدرته جعل نبيه خلقاً آخر فاصطفاه طيب العنصر ، نقى الجوهر ، وفطره على الإيمان الكامل ، والخلق الماجد ، ورضيه أن يكون أمين وحيه ، ومبلغ شريعته .

ولما اختار الله نبيه من تلك البيضة التي هي أبعد البيئات عن المدنية والحضارة ليكون ذلك معجزة كبرى ، وآية عظمى تدفع إلى الإيمان به والتصديق برسالته . صدع الرسول بأمر ربه ، وهانت عليه نفسه في سبيل طاعته ، ودعا قومه إلى التشرف بعبادة الله وحده ، والتخلص من أدران الوثنية . وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق هو والفطرة البشرية ، وأحالمهم إلى ماركز في نفوسهم ، وما تدركه حواسهم ، فاستجاب لندائه نرّ يسيرٌ فتحوا أعينهم لنوره فاستضاءت به وقلوبهم لهديه فلاها حكمة وأمنا ، وسداداً ورشداً . لكن الأغلبية الساحقة أخلدوا إلى الأرض ، وصرفوا أبصارهم ولووا رؤوسهم ، وأصموا آذانهم ، واسغشوا ثيابهم ، وأصروا على هنادهم ، واستكبروا استكباراً .

كل هذا لم يهيج عاطفة الرسول ضدهم ولم يمنعهم من الحذب عليهم . والاهتمام بأمرهم . والحرص الفائق على هدايتهم ، فالزم معهم ما يسديه الطبيب إلى المريض من كريم العناية . وصادق المواساة حتى لقد نزل عليه قولُ ربه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) .

وليت أمرهم وقف عند هذا الحد . بل أمعنوا في السكيد له ، وسلطوا عليه من أنواع الإيذاء ما سولانه له نفوسهم ، ووسعته قدرتهم ، وجدّوا في إيقاظ الفتن حوله ، وتأليب العرب عليه ، وتنفير الناس من دعوته ، ووضع العقبات في سبيلها ، وعاملوه مع أقاربه معاملة المنبوذين ، وحاصروهم حصاراً اقتصادياً كما يفعل اليوم في عصر هذه المدنية العاتية الطائشة ، وقسوا في الانتقام من أصحابه ، وترهبوا بهم الدوائر ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ولم يتحصن هؤلاء الضعفاء إلا بقوة الإيمان ، وكأن برد اليقين يطفى نار الالم .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعى

أيقن الرسول بعد هذا أن جذور الشر تغلغلّت في نفوسهم فأوصدت دونهم أبواب الخير وسدت مسالك الهداية ، فليس من الحكمة إذن أن يستمر على قرع آذانهم بحقه بعد أن جرف سيل الباطل حواسهم وأهدر آدميتهم (لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (حقاً لقد كانوا أخس من الأنعام فإنها لا تحمل ضغناً لمن أحسن إليها . أما هم فكان جزاء إرشاده لهم أن أجمعوا على المنكر في ناديم ودبروا مؤامرة لاغتياله والقضاء عليه قبل أن يعظم أمره فتستعصى عليهم معالجته ، لكن عين ربه . تكلؤه وعنايته ترعاه ، وقد أعطاه أماناً موثقاً بقوله (والله يعصمك من الناس) ، لا شك أن الرسول يثق بجودة تعاليمه وصلاحياتها إلى حد تقصر عنه سوابق الأوهام ، غير أنه قد ظهر لديه أن قلوبهم قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فتشوقت نفسه إلى أفئدة خصبة يودعها بذوره الطاهرة لتنبت أصلاً قوياً ، وغرساً كريماً ، وتؤتي أكلاً مضاعفاً .

وهذا أقوم إرشاد لكل مصلح يؤمن بقيمة مبادئه ويبتلى بأناس لا يرفعون لها رأساً ولا يقيمون لها وزناً .

لذا كان من رحمة الله بنبيه أن أذن له في الهجرة إلى بلد يتفانياً فيه ظلال الأمن ويستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بجلال الإيمان وعزته ، وصفائه وروعته ، ويجد بيئة صالحة متسعة الأفق ينشر فيها وحيه المقدس ، وهديه الحكيم .

هكذا أمر الرسول بالارتحال عن قراره المكين ، وحب الوطن لاصق بنفس كل إنسان فقد أظلمت سماؤه وأرواه مأؤه ، وهو مشوى الأهل والعشيرة ومدرج الطفولة ، ومرتع الحداثة ، ومسرح الاحبة والخلان .

لكن محمداً عليه السلام قد أنساه شرف الغاية كل هذه الأمور واستأنس بلذة الطاعة ، وتجرد من جميع حظوظه ، وأسلم وجهه لله محسناً في تنفيذ أمره .

والهجرة ماجاً أمين لكل مضطهد في رأيه ، محارب في عقيدته . ربما يخطر على بعض الأذهان أنه ما دام النبي يؤدي رسالة ربه . ويبلغ دينه فلم لم يُسَعِفْ بالمعونة فيجعل له من قومه ظهيراً وسنداً ؟

ولا يخفى أنه لو حصل هذا لارتاب الناس في أمره وقالوا ففكرة أدعاها محمد وانفق عليها مع أهله وأحاطها بسياج من الهيبة والحلال .

أما وقد وقع أن حاربه أقرب الناس إليه ، ونصره أبعدهم عنه . فإن شمس الإيمان به تبديد ظل الشكوك والأوهام .

وجد الإسلام في المدينة ملاذا حصينا . وركنا رشيدا . فرسخت قوائمه . وامتدت فروعه فصار يغزو القلوب متحكما فيها والضمائر مهيمنا عليها وظلت حرارته تصهر غيوم الشبهات وتكسر أشواك الشك حتى ظفر الناس بروض اليقين ، ونعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة ، من هذا يتبين أن حادث الهجرة فيصل التفرقة بين الضعف والقوة والذلة والعزة ، كما تمثل صراعا عنيفا ، دار بين الحق والباطل وأن الأخير مهما كان أمضى سلاحا وأعز نفرا ، لا بد أن يكتسحه طوفان الحق عملا بسنة لله الخالدة (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

أيها المسلمون : ليس المقصود من ذكرى الهجرة أن تنشد القصائد وترتل الكلمات مع الغفلة عن موضع العبرة منها ، فإنى أخشى إن صنعنا ذلك أن ندخل في قول الله سبحانه : (وكأى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) إنما الواجب أن يأخذ كل منا نفسه بسيرة صاحب الهجرة ، فقد نجحت دعوته بعقيدته الراسخة ، وسياسته البارعة ، وعزيمته الماضية ، وصبره الذى افتتح به المحن وقهر الأهوال ، فخرج منها ظافرا منتصرا كالسبيكة الخالصة لا يجد الناقد الأملحى فيها مخمزا .

والهجرة ، وإن انقضت بصورتها وشكلها ، إلا أنها باقية لجميع المسلمين بروحها وجوهرها ، فلزام عليهم أن يهجرُوا أسباب غضب الله وموجبات سخطه حتى لا ينزل بهم ما حل بغيرهم من الأمم التى انحرفت عن الهدى الإلهى فتردت فى هاوية الشقاء وعوقبت بحرب ضروس تحصد الناس حصدا ، وتستأصلهم إستئصالا ، تركت الأطفال يتامى والنساء أرامل ، فجعت النفوس ، وأدمت القلوب ، وسلبتها لذة العطاء نينة والامن ، وأكلت الأخضر واليابس ، وأصلت المذن الزاهرة التى تأخذ زينتها بالأبصار ، وتستهوى الأبواب ليلا بهيما ، وحطاما بالياً ، وهشيا تذروه الرياح (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذته أليم شديد) .

شواهد البلاء

والإعجاز في القرآن الكريم

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي
المدرس بكلية اللغة العربية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الاولى
والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ؛ فقصت على الاوهام الباطلة ،
والاساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والاديان المنحرفة ، وأحالت الظلام
ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والجهل علما ومعرفة
وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب في الخير ، وطمح إلى النور والهدى
والامن والسلام ؛ ونقلت البشرية من الفوضى والطغيان والعبودية وسفك
الدماء ونهب الاموال وهتك الاعراض ، إلى حياة فيها رضا وطمأنينة ، وحرية
وعدل وإخاء ، ومعرفة ، وعمران ومدنية ، وحدود ، وشرائع ، ونظم وضعت
لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد
الخلق ، وأكرم الرسل ، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس ، وبشر به العرب
والبشر كافة ، وهدى به الدنيا كلها ، وفتح به صفحة جديدة في تاريخ العالم كله ،
وأخذ الناس من ضلال الجاهلية الاولى :

تصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا
هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير ،
وشدة التأثير ، قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر
يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، وكذبوا وأيم الله ، فما هو إلا وحى يوحى ،
ومعجزة تنحدى ، وبلاغة تتلى وتروى على مر العصور .

إن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة ، وجلالة الروح ، وإشراق البيان ، وجمال الديباجة ، وقرّة المنطق ، وعبقريّة التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، والقوة والمذوبة ، وحرارة الإيمان ، وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم في أسلوب لا يضارعه أسلوب ؛ فلا هو شعر ولا هو سجع ، ولا هو مزاجية ، ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع ، وألفاظ عذبة ، وجلال وروعة ؛ جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز .

تحدى الله به العرب فعجزوا ، فتحداهم بسورة منه فبهروا ، فتحداهم بأقصر سورة فغرسوا ؛ ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين .

وما إيمان عمر حين سمع د طه ، ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : د والله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ^(١) حين سمع د فصلت ، ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ؛ ما كل ذلك إلا مظهر الإعجاز الذي شهد به العلماء والبلغاء على مر الأجيال . يقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن :

د إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعبود من نظام كلام العرب ، ومباين للألوف من ترتيب خطابهم ؛ وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه ، عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ؛ على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ؛ فهو على ما وصفه الله تعالى به : د الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ،

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ، ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً .

ذلك إلى أن عجب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها .

وهناك شيء آخر ، وهو ورود تلك المعاني التي يتضمنها في أصل الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، بهذه الأساليب البليغة ، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وقد علم أن تخيير الألفاظ للمعاني المتداولة المسألوفة أسهل وأقرب من تخيير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مستحدثة ؛ وبراعة اللفظ في المعنى البارع أعجب من براعته في المعنى المتداول .

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الاسماع ، ولا ملتو على الافهام ، ولا مستكره في اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضئ كما يضئ الفجر ، ويذكر كما يذكر البحر ، كالروح في البدن ، والنور في الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، والصبح المبين .

وخصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبلغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والسكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والأطناب المفيد ؛ كل ذلك كثير جداً ، إلى حد يصعب بيانه إلا في مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال في كل غرض في الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعيد والوعيد ، وفي الدين والتشريع والتوجيه ، وهو في كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهي من غير معين العرب الذي ينهلون منه ، لا طمثنان النفوس إليها ، وارتياح

القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والاحكام الصائبة ؛ وبحق إنه معجزة البيان وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعدوبة ، ومع البعد عن الوحش والغريب النافر والسوقي المبتذل والبعيد المعقد ؛ فوق ما تتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهي حديث الدنيا ، والقضية التي سلم بها أساطين البيان ، وفول البلاغة ؛ أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزي الاليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . ثم أرأيت هذا الأعراى وقد سمع قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، فمسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟ »

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتبجدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاوول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، وبلاغة الكلام إلا وفقاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ؛ وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين .

أفليس ذلك كله مع ما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهد ، وحجته وبرهانه ؟ ألسنت إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبى خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ؛ لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ؟

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه فى غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس فى وجودها إلى برهان ؟ وسر بلاغته وإعجازه يستعصى على البيان ، ويدق على الفهم ، ويعلو على العقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التي اختص بها رسوله الأعظم محمدأ صلوات الله عليه و

منابع التصوف الإسلامي

للدكتور ينولد ا. نيكلسون

تعريب الأستاذ نور الدين شريفة

خريج كلية اللغة العربية

برهن البحث الحديث على أن أصل الصوفية لا يمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود . ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال : أنها رد فعل العقل الآري تجاه الدين السامي الفاتح ؛ أو أنها ليست إلا نتاجا خالصا للفكر الفارسي أو الهندي .

وأمثال هذه الاحكام — وإن يكن لها نصيب من الصحة — تغفل البديهية التي تحتمل لإقامة رابطة تاريخية بين (ا) وبين (ب) أنه لا يمكن أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن تبين في الوقت عينه :

١ — أن صلة (ب) الفعلية مع (ا) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة .

٢ — أن الغرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعمة .

وهذه الآراء ، التي ذكرت ، لا تقوم لهذه الشروط . فإن لم تكن الصوفية شيئاً غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفسر الحقيقة ، التي لا سبيل إلى الطعن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامي من أهل سوريا ومصر ؟ وأنهم عرب الجنس ؟

وكذلك يغفل المتحمسون للأصل البوذي ، أو الفيدى ؛ عن أن التيار الرئيسي ، للتأثير الهندي على الحضارة الإسلامية ، ينتمى إلى همد متأخر ؛ مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم في الإسلام ، قد آتت بواكيرها الغضة ، فوق تربة تشربت الحضارة الإغريقية .

والحق أن الصوفية شيء معقد . ومن هنا لم يكن في الطوق أن يقدم جواب بسيط في السؤال عن أصلها . ولعلنا أن تقترب من الجواب إذا حددنا القوى

والحركات المختلفة ، التي صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذي صارت إليه ، في عهود نموها الباكرة .

ولنعتبر أولاً أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها :

١ - المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التي أشرت إليها ، كانت على وفاق مع النظرية المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها . فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى المسيح ، مقتبس في أقدم تراجم الصوفية . والراهبة المسيحيون كثيراً ما يظهرون في مقام المعلمين ، يولون النصيح والتشديد لزهاد مسلمين متقلبين . وقد رأينا أن ثوب الصوف — الذي منه جاء الصوفي — مسيحي الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هذا الأصل نفسه . وفيما يتصل بمذهب الحب الإلهي ، ندع هذه المقتطفات تترجم عن نفسها :

« روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من العبادة ، كأنهم الشنان البالية ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن عباد » ؛ قال : « لاى شىء تعبدتم ؟ » ؛ قالوا : « خوفنا من النار نخفنا منها » ؛ فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم . » ثم جاوزهم ، فر بأخرين أشد عبادة ، فقال : « لاى شىء تعبدتم ؟ » ؛ فقالوا : « شوقنا إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه » ، فنحن نرجو ذلك ؛ فقال : « حق على الله أن يعطيكم ما رجوتهم . » ثم جاوزهم فر بأخرين يتعبدون ، فقال : « ما أنتم ؟ » ؛ قالوا : « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفاً من ناره ، ولا شوقاً إلى جنته ، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله . » فقال : « أنتم أولياء الله حقاً ، معكم أمرت أن أقيم ، فأقام بين أظهرهم . وفي لفظ آخر أنه قال للأولين : « مخلوقاً خفتم ، ومخلوقاً أحببتهم . » وقال لهؤلاء : « أنتم المقربون » .^(١)

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب . ٣ ص ٨٢ من ١٣ - ١٩ المطبعة المصرية .

حدث أحمد بن أبي الخوارى ^(١) قال : « قلت لراهب : « أى شيء أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » . قال : « ما نجد شيئاً أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق » ^(٢) .

وسأل بعض الزهاد راهباً آخر : « متى يكون الرجل أكثر إمعاناً فى العبادة ؟ » فأجاب : « حين يملك الحب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغبة : إلا فى العبادة المتصلة » .

وتأثير المسيحية — من خلال أحيارها ، ورهبانها ، وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين » ^(٣) Euchitae ، — ذو وجهين . زهدى ، وصوفى . والتصوف الشرقى المسيحى : كان — على أى وجه — يحوى عنصراً وثنياً . فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين ، واصطنع لغة المدرسة الأفلاطونية الحديثة .

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي الخوارى الدمشقى ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكاتب ، وعن الولد بن مسلم وصحب أبا سليمان الدرائى وحفظ عنه الرقائق . انظر الأنساب للسمعاني ص ١٨٠ طبع ليدن سنة ١٩١١ فى سلسلة « جب Gibb » التذكارية .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ح ١٠ ص ٨ ص ٧ - ٩ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٣) « المصلون Euchitae » ، فرقة مسيحية غالبية ، من الهرطقة ، يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تحت أصل الخطيئة وتبلغ بالإنسان حد السكال الروحى والتحتق . وقد قاموا بنشر مذهبهم ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس . بل إن تأثيرهم لیت إلى ما بعد ذلك . وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان يقويه على الوقوع فى الإثم ؛ وليس التعميد بكاف فى طرد هذا الشيطان ، إنما يحت التعميد هذا الإثم من ظاهره ويدع جذوره غائرة فى أعماق النفس . والدواء الشافى لذلك هو الصلاة المتصلة ، حتى يحس الإنسان إحساساً قوياً أن شيطانه قد فارقه . وقد تشاهد حينئذ الروح القدس داخل إلى جسم الإنسان على هيئة نار غير مؤذية ، بينما تشاهد روح الشر عندئذ خارجة من فيه على صورة حبة فى أكلمها . ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحادها مع عريسها ، كما تحس الزوج نفوة العناق مع زوجها حين يدخل بها ، وإذا فالصلى يعتمد أنه مشارك فى الطبيعة الإلهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تتيسر لعامة الناس . وكانوا يرقصون ليطنوا بأقدامهم شياطينهم التى كانت تراءى لهم . وكانو يدعون لأنفسهم علم الغيب ، والكشف عما فى نفوس الناس . كما كانوا ينظرون نظرة عدم أكثرات إلى وسائل الكنيسة العادية فى مقاومة الخطيئة من نحو رياضة الرهبنة و « العشاء الربانى Eucharist » ، وقد قصرُوا أوقانهم كلها على الصلاة وجعلوا يتكفون الناس حتى يشدوا رملهم . كما أنه كان من بينهم طوائفون فى الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها . وفى الصيف كانوا ينامون على قارعة الطريق . على أن مناهضهم يرمونهم بالفساد وانتشار الانحلال بينهم . انظر: Encyclopaedia of religion and Ethics المجلد الخامس ص ٥١٠ .

رسالة الأزهر

وكيف يؤديها ... ؟

للشيخ أحمد محمد صقر

ليس في رسالة الأزهر قولان . . ولا اعتراض على تلك الرسالة في موضوعها . ولكن الخلاف يقع في الوسيلة التي يمكن بها أداء ذلك الواجب كاملاً . . .

فلو أراد باحث دقيق أن يطنب في تحديد هدف الأزهر لما خرج عما نوجزه في كلمات قصار هي أن غاية الأزهر « المحافظة — على الدين الإسلامي واللغة العربية ونشرهما . . . ، ذلك أن الأزهر حصن الإسلام . وهو القائم على درسه ونشره وحفظ أصوله وفروعه ما بقيت السموات والأرض . . . ولا سبيل إلى ذلك الحفظ إلا بإتقان الفصحى وحفظ موادها وتذوق أدبها ورعاية طرق الأداء فيها . . . وقد يظن إنسان ذلك أمراً سهلاً المنال قريب المتناول . . ولكن من يدرك معنى الإسلام ومعنى اللغة العربية لا يسيغ لنفسه الحكم على مهمة الأزهر الناهض بهما بأنها مهمة سهلة ميسورة . .

فلو كان الإسلام دين رهبانية وصوامع . . أو دين عصر معين ومكان محدود فقط لمان الأمر وخفّت الممونة . . ولكنه دين مجتمع ودين سياسة . دين نظام ودين اقتصاد . . دين حكومة وإدارة وقانون . . وفوق ذلك فهو دين الغد كما كان دين الأمس ، وكما هو دين اليوم . . ليس محدود السلطان ولا موقوت العمل . . ولا مقصوراً على بلد من بلاد الله . . .

فحينما تقرر أن رسالة الأزهر هي المحافظة على هذا الدين العظيم ونشره يجب علينا أن نتصور مشقة الواجب وعبء الأداء . . وطول الطريق . . . وفي الوقت نفسه ننظر فنرى الأزهر لا يملك إلا رجالاً يشتغلون بالعلم والتعليم بمعنى أنه ليس هيئة سياسية ترسم الخطط وتحمل على الوصول إلى أهدافها ، وليس جماعة مالية تنثر الذهب في طريقها لتبلغ ما تريد . . .

وبالرغم من ذلك لا يستطيع أحد أن يدعى عيباً على الأزهر ، الذى يتخذ الحسنى وسيلته ، ونشر الثقافة جهده المستطاع .

فقد غزا العالم نوره ، وملاً مسامع الدنيا صوته ، فتقاطر المبعوثون إليه يغتفون من معينه ، وتتابع المتخرجون فيه صوب النفوس الظماء ، ييلون أوامها ، ويروون غليلها ، ويرفقون بالآفئدة الصادية ، والآنفاس اللاهثة .

وأصبح الأزهر قبلة العالم الإسلامى يحج إليها طلباً للنور والمعرفة ، وما كان ذلك بقيادة عبقرى مغوار ، بل كان بفضل الرسالة نفسها ، فإن ديناً أراد له الله الخلود ، ولغة حق لها البقاء ، لا بد أن ينتصرا على أحداث الزمن وصروف الدهر . ولا بد أن تسرى قوة الرسالة فى أوصال حاملها فتخلق منهم بشراً لا كالبشر ، وشباناً يسمون الشيوخ ، لأنهم جمعوا حكمة الشيخوخة وعزيمة الشباب . حملوا مشعل النور منذ ألف عام رغم الاغصير الهوج ، والريح الرعزع والعاصفة النكباء ، فما ضعفوا ولا انقادوا طوع الهوى .

وفى الحق أنى ما تأملت تلك المأثرة التى تمت على يد الأزهر ، إلا تملكنى شعور بالحب نحو هذا المعهد القديم العتيق .

وسرى فى نفس تيار من العرفان بالجميل والاعتراف بالواجب على العالم الإسلامى إزاء ذلك الحصن المنيع ، حقاً ما كان القرآن أن يضيع فالله تعالى ضمن له الحفظ والبقاء ، ولكن لو لم يكن الأزهر لاستعجمت الألسن وماتت القريحة العربية ، ولو ظل الأمر العربى سائراً فى طريق الشوك منحدراً إلى الهاوية بعد أن ذبلت زهرته فى بغداد لكنا اليوم فى ظلمات من الجهالة لا يعلم كنهها غير الله تعالى ؛ فاقتضت عناية الله أن يتلقف الأزهر مشعل الحياة ، ويحتضن الثقافة الإسلامية وتصبح أروقة مثابة الدارسين من كل بقعة وأمة ، وقد تخرج فى صحن الأزهر القديم رجال دافعوا عن الدين وحفظوا اللغة العربية وتدرج الأزهر فى أطوار متعاقبة فبعث العلم والأدب وكان محط أنظار الشعوب بمثابة معقل ترفرف عليه راية الزعامة الشعبية وليس غلوا أن تقرر : أن الأزهر هو الذى خطا بمصر نحو الحياة الدستورية وهىأها لسبق أخواتها فى الشرق .

وصارت الأمور إلى الأزهر الجديد ، فقد مضى الأزهر القديم محمداً مشكوراً ، وتجددت الحياة في العالم الإسلامي وفي مصر زعيمة هذا العالم .. وكان لزاماً أن يتجدد الأزهر كعجة العلوم الإسلامية .

وقد كان ١١٠ ولم يشمل التجديد ذلك الطابع الأزهرى ، وظلت الفكرة الأصلية واضحة ، وتمشياً مع مقتضيات العصر اتبع نظام التخصص في المراحل العالية فأُنشئ فيه كليات ثلاث وحددت لكل كلية مهمتها ونوع المواد التي تدرس فيها ، وكل ذلك جميل وعظيم ، غير أننا نحس في الأزهر الجديد فتوراً لعله نتيجة حتمية للبيئة والعصر ، وهي ظاهرة تتجلى في كل أنواع التعليم على اختلاف أهدافه . وهناك شيء آخر نلسه في الأزهر الجديد ولا ندرى أنسميه قصوراً أم تقصيراً ... ؟

ذلك أن الطالب لا ينال اهتماماً مذكوراً ولا يُراعى حقه في الثقافة العصرية كأنه مضطر أن يفسخ كل الانسلاخ من بيئته ولا سيما في مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، فيشب الطالب غريباً بين قومه كسير الفؤاد عاجزاً عن مسيرة إخوانه متهماً في ذوقه وتفكيره ، فإذا تكلم في الأمور العامة أعرض الناس عنه كأنهم يقولون : ما للأزهرى والحياة العامة ، وماله وثقافة العصر ، ؟ إن هو إلا منقطع للعلوم القديمة ، والخلافات الميئة العديمة الفائدة ! ولذلك كله أثر في نفسية الطالب لا ينمحي وطابع يسمه بميسم الانزواء والبعد عن مشاكل العالم . ولعل تلك الضجة التي أثارها السكتاب على صفحات الجرائد منذ قريب .

حول السكتاب الأزهرية ، والبرامج التعليمية في الأزهر تعتبر نتيجة للشعور بهذا النقص ... وإنى مع ذلك لا أوافق على كل تلك النقدرات ... فالأزهر صلة بين الماضى والحاضر ... ولا بد من الإبقاء على ما يربطنا بهذا الماضى ، وإن كنا نطلب التخفيف وإضافة مواد تتصل بالاجتماع والاقتصاد يستعين بها الطالب على تبليغ رسالته إلى قوم يعجبون بعصرهم ويقدمون جديدهم ، حتى لا ينفروا كل النفور من الدعاة والمصلحين ، وخير الناس من لبس لكل حال لباسها ، وطابق بين مقتضى الحال وما يقول ، أما في مرحلة التعليم العالى فإنى أحس السطحية غالبية على دراستها ونحن في حاجة إلى الغوص وإلى الدراسة بعمق ، كما يقول

النقاد المحدثون ، أما الدراسة السطحية العرضية فإنها عقيم لا تفتح ولا تفيده ، نريد دراسة مستفيضة وتوسعا في البحوث .

نريد أن تكلفونا تسليفاً بالغرض واستخلاص المعلومات من المراجع الشتية ، نريد أن تدفعونا دفعا إلى الاعتماد على النفس ، وتتبع العروق العلمية في مناجها !! نحن نعرف بأننا ننال قسطاً كبيراً من الحرية في المناقشة ولكن هذه الحرية مقصورة على كتب معينة وآراء لقوم سبقونا ولم يدعوا لأنفسهم العصمة ، فنحن ندور ونحاور ثم نعود إلى رأى فلان من المجتهدين ، ولو كان ضعيفاً اعتماداً على ما له من المكانة ، فإذا سئل أحدنا عن أمر يتعلق بالدين أو اللغة ، نجد أنفسنا مسوقين إلى ترديد تلك الخلافات فيمل السائل ، وينصرف عنا معتقداً ألا نفع فينا ولا خير عندنا ، وليس هذا الكلام بعيداً عن رسالة الأزهر بل إن ذلك جوهرها ، فإن التقارب بين المصلح والناس أول خطوة في نجاح الفكرة ، فنحن لا نتعلم لأنفسنا فقط ، ولا للناس فقط ، بل نقصد للثقافة لعقولنا وأفكارنا حتى نستطيع التأثير في غيرنا .

وقد أصبح التجديد في وسائل الاداء جزءاً من الرسالة نفسها . . . فإذا تم للأزهر ذلك استطاع طلابه تبليغ الرسالة وأداءها . . . فكل فرد يعتبر داعية حيثما حل . . . في قريته وبين أهله . . . والأزهر هو المسئول عن تسليحه ليكون صورة قوية واضحة من صور الأزهر . . . وليكون عنواناً صحيحاً للإسلام . . . أما أداء الرسالة العالمية التي وقف الأزهر نفسه عليها فإنه يحتاج في أدائها إلى التجديد في العرض والابتكار في التبليغ كما هو الشأن في الجامعات العلمية الحديثة وذلك بأن يخرج مطبوعات بانتظام تقوم مقام المشافهة والخطاب . . . وتلك هي الطريقة الجماعية . . . فيعيد طبع الكتب النافعة وتوضيحها وتحليل أفكارها وتبسيطها لتكون في متناول الناس في عصرنا .

ويعيد الكتابة في تاريخ الإسلام كتابة منصفة مليئة بالتحقيق والتحليل والنقد النافع والتمحيص المثمر ، وليسكن للأزهر دائرة معارف إسلامية كبرى تعين المتابعين للثقافة العربية الدينية وتسكن له رسائل تبحث في مشاكل العالم من الوجهة الإسلامية ليشعر الناس أننا قوم نخدم البشرية ونتابع أطوارها .

أسلوب التمثيل

في القرآن الكريم

لحضرة الأستاذ عز الدين اسماعيل

قال الاصمعياني : لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر شان ليس بالحق في إبراز خفيات الدقائق ، ورفع الاستار عن الحقائق ، ترك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ؛ وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لضاوة الجاح الآبي ، فإنه يؤثر في القلوب مالا يؤثر وصف الشيء في نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي وكلام الأنبياء والحكماء^(١) . وقال تعالى : ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ، وقال أيضا : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ؛ فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال^(٢) . وإذن فأسلوب التمثيل من الأساليب العربية البليغة ، عرفه العرب وكثر في القرآن والحديث ، فكانت له بذلك أهمية خاصة . وفيما يلي نستعرض تمثيلا من التمثيلات القرآنية لنعرف قيمته ونطلع على سر بلاغته وأدلة إعجازه .

قال تعالى : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

(١) الاتقان للسيوطي ، ٢ : ٢٢٣ ط ٢ - ١٩٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ، .

قال الزمخشري في الكشاف : « لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليثمل هدام الذي باعوه بالنار المضئمة ما حول المستوقد ، والضلالة التي اشتروها وطع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم ، وتركهم في الظلمات . كانت حواسهم سليمة ، ولكن لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كأنما ألغيت مشاعرهم . . . ثم ثنى سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاحا غب إيضاح . وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يحمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . وقد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فمما شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد والبرق والصواعق ؟ لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى أو كمثل ذى صيب . والمراد كمثل أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا . ثم كيف يصنعون في تارتق خفوق البرق وخفيتها ؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل

بما يأتون وما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين ، ولو شاء الله ل زاد في قصيف الرعد فأصمهم وفي ضوء البرق فأعماهم .

وقد أغفلنا في نقل هذا الشرح للزخشرى — وهو من أقوم الشروح — ما يتعرض له بين الفينة والفينة من مشكلات لغوية وبلاغية . والآن نبين رأيه في بلاغة هذا التمثيل فنراه يقول في مستهل كلامه : لما جاء بحقيقة صفتهم أعقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتمييز للبيان . ثم ينقل عبارة الأصهباني التي صدرنا بها هذا المقال ، إلى أن يقول : والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير . يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه . ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل . وإذا سأل سائل هل ما في الآية استعارة أجاب بأنه يختلف فيه ، وأن المحققين على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون . ونجده يورد آخر الأمر رأيا لعله أدنى إلى الصواب والفهم السليم فيخلص إلى أن الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه هو أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به . وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذلك فتشبهها بنظائرهما كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضاممت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى كقوله تعالى : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبدرًا . فالمراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر . فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالآفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا فلا . فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم وما ضبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طغمت ناره بعض إيقادها في ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

هذا الرأي الأخير الذى انتهى إليه المخشري رأى طيب لو أحسنّا استخدامه؛ فالذى لا شك فيه أن التمثيل فى الآية لا يمكن أن يفصل كل جزء من أجزائه ليشبه به ذلك الجزء من المشبه الذى لم يظهر فى الكلام ، لأن جوامع الشبه بذلك ستختلف وتعدد دون أن يُقصد إلى شيء من هذا الاختلاف والتعدد ، وإنما الذى قصد من التمثيل فى الآية هو إكساب المشبه الصفة الحاصلة من الصورة التى ترسمها جميع أجزاء المشبه به مجتمعة متضامة . ونحن الآن بسبيل الإشراف على جوهر الفكرة ورسم الخطوط الواضحة للعملية الفنية التى يقوم عليها التمثيل فى الآية وفى غيرها من الآى . فالملاحظ أنه فى كل أساليب التمثيل لا يكون لدينا إلا مشبه واحد . وهذا المشبه فى الأغلب الأعم يكون أمراً معنوياً لأنه يكون صفة ، والصفة على العموم تفهم ولا تحس ؛ ففى قوله تعالى : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، إنما يصف أعمال الكفار ، فإذا الصفة أمر معنوى فينقله بالتمثيل فى قوله كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف إلى شيء محسوس . ولكن يجب أن ننبه هنا إلى أنه لا يقصد أن أعمال الكفار تشبه الرماد الذى اشتد به الريح فى اليوم العاصف وإلا لما كان ذلك مفهوماً ، وإنما المقصود هو أن الصفة التى يمكن أن توصف بها أعمال الكفار تلتقى أخيراً بالنتيجة التى يستنبطها العقل من صورة الرماد حين تعصف به الريح . فصفة أعمال الكفار ، ومفهوم الصورة المادية التى رسمها الله لها هما اللذان يلتقيان ويتشابهان ، وهما فى الوقت نفسه أمران معنويان ، وغاية ما فى الأمر أن للصورة أو التمثيل المادى لصفة أعمال الكفار بهذه الصورة المادية ، صورة الرماد تذرره الرياح إنما هو أسلوب لا يقصد لذاته ولا يؤخذ فتفصل أجزاؤه لا كتناه معناه والوقوف على مرماه ، وإنما هو وسيلة إلى غيره ، هو وسيلة إلى تصوير معنوى لصفة معنوية هى صفة أعمال الكفار . وهذا التصوير المعنوى يتحصل بالضرورة من مجموع تلك الصورة المادية التى اتخذت معداة أو قنطرة إلى تلك الصورة المعنوية . فتجسيم القرآن وتشخيصه للمعنويات بهذه الصورة ينتج عملاً فنياً هو من الأعمال الفنية فى الذروة ، كما يؤدى غرضه الاصيل المقصود من التصوير وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى المفهوم وإدراك له .

رثاء

انتقل الى الدار الآخرة في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الازهر متأثراً بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر ، فكان لنعيه أسف عميق لدى كل من عرفه ، وغشى مجلسه ، لما كان عليه ، رحمه الله ، من محاسن الشيم ، والتواضع ، وحسن الإصغاء لذوى الحاجات . تلقى رحمه الله العلم فى الازهر ، ونال درجة العالمية فى سنة (١٩٠٦) ، وعين مدرسا فى معهد الاسكندرية ، ثم تولى القضاء بالمحاكم الشرعية ، وتقلب فى وظائفها واشتهر فيها بإيثار العدل والإنصاف .

وفى سنة (١٩٢٦) اختير ليكون إماما خاصا للمغفور له الملك فؤاد ، فشغل هذا المنصب نحو خمس سنين ، كان فيها حاصلا على رضا صاحب الجلالة وعطفه . وفى سنة (١٩٣١) ، حين وضع للتدريس بالازهر نظام جديد ، وقسمت الدراسة العالية فيه الى ثلاثة فروع ، وأنشئت لها كليات ثلاث : واحدة للشرعية وأخرى لأصول الدين ، وثالثة للغة ، اختير الشيخ رحمه الله شيخا لكلية الشريعة ، فمكث يشغل منصبه فيها بكفاية محمودة ، وعمل مشكور قرابة ثلاث عشرة سنة .

وفى سنة (١٩٤٤) أسندت إليه وكالة الجامع الازهر ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخا له ، فلبث فى هذا المنصب حتى توفى الاستاذ المذكور ، وترددت الحكومة فى تخير رجل كفء لشغل منصب المشيخة ، فوقع الاختيار على المرحوم الاسناذ مصطفى عبد الرازق ، فرئى أن قانون الازهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء ، ولم يكن الاستاذ المذكور منها ، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين من يصلح بمن لا تنطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء ، مادامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والادبية . فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوى أبى ورأى أن يستقيل من منصبه ، وأن يتولى هذا الأمر غيره . فقبلت استقالته . ومضت الحكومة فى إصلاح ذلك القانون ، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للازهر . فلما كانت سنة (١٩٤٨) وتوفى الاستاذ المذكور ، أسندت الحكومة مشيخة الازهر إلى

الشيخ محمد مأمون الشناوى فى الشهر الأول من تلك السنة . فلبث فيها إلى أن وافاه أجله فى الحين الذى ذكرناه آنفا .

ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذى شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية ، وفاء منها بشكر ما أداه إليهم من الخدم فى مساواة خريجهم بخريجى الجامعة المصرية فى المرتبات ، وفيما كان عاملا عليه من تحقيق أمانهم .

محمد فريد وهبى

مرشد الأنام

لمعرفة الحلال والحرام

هذا كتاب قيم ، جليل القيمة ، عظيم النفع ، وضعه الأستاذ النابه على فكرى بك ليكون لمقتنيه مرشدا أميناً لكل ما يهمه معرفته من الحلال والحرام ، فهو ذخيرة دينى لمن يستشير فى أموره الدينية ، لا يستغنى عنه المسلم الذى يهمه أن يترسم فى حياته الطريق المستقيم .

كتبنا مقدمة لهذا الكتاب قلنا فيها :

« وقد تعقب مؤلفنا الفاضل المحرمات الى أبعد وأخفى مظانها ، كما يتعقب (البكتريولوجى) الميكروبات الضارة فى أدق وأعضل مظاهرها . فقد أتى على المحرمات الصادرة عن هواجس القلوب ، ومسارح العيون ، واصغاء الآذان وفضول الألسنة ، كأضمار الشرور ، والنظر الى المحرمات ، وسماع البهتان والغيبة والنميمة الخ... فهذه كلها محرمات يتجاهلها أكثر الناس ، ويتخيلون أنهم ما داموا بعيدين عن مشهورات المحارم ، كالخمر والميسر والفسق ، فهم فى حل لأن يقعوا فى أعراض الناس بالظنون السيئة ، وأن يغتابوهم بغير ثبوت ، وأن يشهروا بهم ، لا كراهية فيما يرتكبون ، ولكن تشفيا منهم ، ونشرا لمساوئهم ، ليحملوا الناس على تحقيرهم وكراهتهم ، وما دروا أنهم يسيئون الى أنفسهم قبل أن يلحقوا الأذى بخصومهم . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ دعا حضرة صاحب
الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم جمهوراً من حضرات
العلماء ورجال الصحافة، وألقى فيهم بياناً مفصلاً، لما انتوى إحداثه
من الإصلاحات في الأزهر، وفضيلته في سمو تفكيره، ومضاء عزيمته،
وحبه للإصلاح، جدير أن يرى ضرورة إحداث هذه الإصلاحات
الجليلة، وما يتجدد منها في الناهيتين الدراسية والنظامية، حتى تصير
الجامعة الأزهرية أجمع جامعة لتشتيت المعارف، كما هي أقدمها جميعاً
في الوجود، وأنها المهمة جد خطيرة، نرجو أن يمدد الحق بروح من
عنده ليوفيقها حقها.

أهوائي وأبنائي الصحفيين

أحمد الله تعالى اليكم، وأصلي وأسلم على نبيه وصفوته من خلقه سيدنا محمد
الذي بعثه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأسأله تعالى أن يجعلني وإياكم
من الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، المحافظين
لحدود الله، وأن يؤيد بعنايته وتوفيقه حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم
فاروق الأول، صاحب اليد الطولى، والفضل المشكور في كل توجيه سديد
إلى ما فيه مصلحة الأمة، وتركيز الحق والعدل، وإعلاء شأن الدين والعلم،
كما أسأله تعالى أن يوفق رجال حكومته الجليلة وسائر أفراد رعيته المخلصين
إلى ما يرفع شأن الأمة، ويحيي مجدها، ويثبت دعائمها، وأن يفسر على العالم
في مشارق الأرض ومغاربها، لوام رحمته، وظل سكينته، ويهديهم صراطه المستقيم.

لقد دعوت إلى هذا المؤتمر اعتداداً بالصحافة الرشيدة ، وإدراكاً لمسكاتها وأثرها في توجيه الأمة إلى مواطن الخير والاستقامة والرشاد في شتى نواحي الحياة ، وإن بين الصحافة الموقفة والأزهر الشريف لاتفاقاً في الغاية ، وتلاقياً على الهدف ، ذلك بأنهما يرميان كلاهما إلى الإصلاح والتقويم ، ويرشدان إلى أهدى السبل لتحقيق الخير ، وتبثيت دعائم الحق ، لذلك لا أراى في حاجة إلى مناشدتهم أن يكونوا عوناً لدعوة الإصلاح والفضيلة في الأمة ، وأن يحجبوا إليها أخلاق الشرف والاستقامة التي تنهض بها الأمم ، وتقوم عليها الشعوب ، ويُكسّرُ هوا إليها أخلاق الضعف والانحلال التي ما تفتشت في أمة إلا أخذها الله بالعذاب ، وأتى بنيانها من القواعد ، صان الله أمتنا ووقاها ، وأعازها من كل سوء .

لقد تشرفت في العاشر من المحرم سنة ١٣٧٠ هـ الموافق (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠) بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم ، لرفع فروض الولاء والشكر لجلالته على ما تفضل به من إسناد منصب المشيخة إلى ، وأصار حكم بأننى كنت قبل أن أتشرف بهذه المقابلة محساً بثقل التبعة ، مشفقاً على نفسى من تحمل هذه الأمانة السكبرى ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته ، ولقيت من عطفه السامى ما لقيت ، وشعرت وأنا فى حضرتة بشدة رغبته فى الإصلاح ، وعظيم حرصه على أن ينهض الأزهر برسائله ، وكريم استعدادة لتأييد العاملين المخلصين ؛ شرح الله صدرى ، وأقر عيى ، وأحسست أن روحاً من القوة والعزيمة يسرى فى نفسى .

لقد وجدت جلالته حفظه الله محيطاً بشئون هذا المعهد دقيقها وجليلها ، حريصاً على أن يحفظ أمانته الغالية التى ائتمنه الله عليها ، وكان من ذلك أن جلالته - أدام الله توفيقه - بادرني بتوجيهات وإرشادات سامية ، أضاءتلى السبيل إلى تحقيق ما أبتغيه من ضروب الإصلاح ، وإنى إذ ألخص لحضراتكم خطى ومنهاجى فى الاضطلاع بشئون الأزهر ؛ إنما أصدر عن هذه التوجيهات الكريمة ، والإرشادات السامية .

إن مهمة الأزهر ، ذات شقين عظيمين :

أحدهما : تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغة كتابهم تعليماً قوياً مشمراً يجعلهم حملة للشريعة ، أئمة في الدين واللغة ، حُفَظَا حراساً لكتاب الله وسنة رسوله وتراث السلف الصالح .

الثاني : القيام بما أوجبه الله على الأمة من تبليغ دعوته ، وإقامة حجته ، ونشر دينه ، فإن هذا الدين عام خالد إلى يوم القيامة ، وقد شرعه الله للناس جميعاً ، وأنبأنا أن فيه صلاح العالم واستقامته على الصراط السوي ، وأنه سبيل الأمن والسلم والحياة الطيبة ، وأوجب على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يقوموا بالدعوة إليه ، وإظهار نوره ، وأن يسلكوا لذلك سبيله ، ويأخذوا بأسبابه .

وإذا كان تبليغ الدين ، ونشر أحكامه ، وبث تعاليمه واجباً على المؤمنين في كل الأوقات ، فإنه على أهل الأزهر أوجب ، وفي هذا الزمان ألزم ، فإن العالم ينوء اليوم تحت أعباء الدعوات الفاسدة ، والمبادئ الخطرة ، ولا يقوم من كارثة إلا إلى كارثة ، وأهل الأزهر بما لهم من الصدارة الدينية ، والتاريخ المجيد ، أقدر الناس على بيان ما في الإسلام من مزايا تكفل للعالم الحياة السعيدة والأمن والسلام ، وتوطد فيه دعائم الحرية الصحيحة والمساواة الحقيقية لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إلا بما يقدمه العاملون من أعمال صالحة ، وجهود نافعة . يأبىها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

على رعاية هذين الجانبين يجب أن تقوم خطة الإصلاح في الأزهر ، وأن يعمل العاملون على تحقيق آمال الأمة فيه .

* * *

وسبيلي إلى ذلك في الأمر الأول ، التي آخذ بها نفسي ، وأدعو إليها إخواني وأبنائي الأزهريين ، أن نستحضر دائماً هذه المبادئ ، وأن نصدر عنها في كل شئونا التعليمية .

فأول ذلك ، أن يكون همننا الأكبر التفرغ لتكميل أنفسنا ، والتزود من العلم يزداد طيب يعيننا على أداء حقوق الله وحقوق أمتنا العزيزة ، ويجعل لنا في الناس

منزلة وشأناً ، فإن العلم هو غذاء العقول ، وكال نفوس ، وأساس التقدم ، وما من خير يناله الأفراد ، وتحصل عليه الأمم والجماعات ، إلا والعلم أصله ، والمعرفة أساسه ، وما من شر أو ضعف أو فقر ، أو اضطراب أو اختلال أو انحلال ، إلا ومصدره الجهل ، وخطأ التصور والقصور أو التقصير في المعرفة والإدراك .

وإذا قلت العلم ، فإنما أريد العلم الذى يطبع أصحابه بطابع الفضيلة والخلق الكريم ، وتظهر آثاره فى أشخاصهم وأعمالهم قبل أن تظهر فى أقوالهم وكتاباتهم وخطبهم .

إذا استحضرننا هذا المبدأ دائماً ، فجعلنا العلم غايقتنا ، والتجمل بالمعرفة والفضيلة شعارنا ، أمكننا أن نتغلب على المشاق ، وأن نقهر الصعاب ، وأن نعتصم بالصبر فى جميع شئوننا ، وأن نطمئن إلى أن أمورنا ستيسر ، وأن آمالنا ستتحقق ، وأن الأمة ستقدرنا حق قدرنا ، وأن الدولة ستوفر لنا أسباب المعونة والإنصاف ، ولا تبخل علينا بما تجود به على غيرنا .

إن الأزهرين كغيرهم من طوائف الأمة ، للأمة عليهم حقوق ، ولهم عليها حقوق ، والمساواة بينهم وبين أمثالهم فى حقوقهم ، كالحرص على قيامهم بواجباتهم ، جزء من برنامجى ، وموضع من مواضع اهتمامى وعنايتى ، وإلى لوائقى أنهم بالعمل الدائب ، والجهد الخالص ، رافعون إن شاء الله صوتى ، ومؤيدون حجتى . أسأل الله أن يحقق آمالى فيهم ، وآمالهم فى ، وأن يحقق فينا جميعاً آمال الأمة التى هى أعز آمال المليك المعظم .

المبدأ الثانى : أن نعى بالأهم من العلوم بالنسبة إلينا ، فنبدل أكبر جهودنا لدراسة الدين واللغة وما يتصل بهما ، ويعين عليهما ، وألا نتخلى فى الوقت نفسه عن العلوم التى تفيدنا فى حياتنا العامة ، والتى لا يسعنا ولا يحمل بنا أن نجهلها .

إن الأمة تريد من الأزهر أن يخرج لها علماء فى الدين والشريعة واللغة وسائر العلوم العقلية والاجتماعية المتصلة بها ، على أن يكون هؤلاء العلماء مزودين مع هذا بقدر صالح من العلوم الأخرى التى تفيدهم فى مجتمعهم ثقافة عامة .

المبدأ الثالث : أن المقصود الأول من التعليم هو تحصيل الملمكة الصحيحة في العلم ، والتزود من قواعده ومسائله بما يفيد وينفع ، فكل تعليم لا يؤدي إلى غايته ، ولا يفيد الفائدة المقصودة من العلم إنما هو تضييع للأوقات والجهود وإففاق للأموال والمواهب فيما لا طائل تحته .

فإذا استحضرنا هذا المبدأ كان لزاما علينا أن نعمل على مراجعة ما لدينا من الكتب ، فنقر منها ما ثبتت صلاحيته لتحقيق الغاية من العلم ، ونبعد منها ما لم تنوافر فيه أسباب تلك الصلاحية .

إن الكتب التي ورثناها نوعان :

أحدهما : تلك الكتب الأولى التي ألقت والعلم صاف ، والمؤلفون يكتبون على سجيتهم ، ويمضون في البحث على فطرهم ، لا يقصدون إلا تجلية ما يبحثون والوصول إلى الفائدة من أقرب الطرق .

وهذا النوع من الكتب فيه علم غزير ، ومادة صالحة طيبة ، وغذاء للعقول وتخرج لها على طابع استقلال مشر ، فليس من رأى أن نحرم أنفسنا ما فيها من المزايا ، وأن نضل عنها مبعدين .

النوع الثاني : ما كتبه المتأخرون حين كانت تسودهم الرغبة في الإيجاز وجمع المعلومات الكثيرة في الألفاظ القليلة ، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى حد الإلغاز .

وهذه الكتب من شأنها أن تضيع أوقات المشتغلين بها ، وتبعث في نفوسهم الكراهية لها ، والنفور منها ، والطالب لا يصلحها - إلا أن يحب كتابه كما يحب أستاذه ، فإذا كره هذا أو ذاك كان غذاؤه كرها ، وهضمه كرها ، ورب غذاء تضوى به الأجسام .

ليكنها مع ذلك تحوى كثيرا من الفوائد العلمية ، التي قد تخلو منها كتب النوع الأول ، وتمثل في الوقت نفسه عصرا من عصر التفكير العلمي لا يسع الأذهان أن يحمله ، وأن يعجز عن مزاولته ، وإدراك ما فيه من خير .

والرأى عندى أن يراعى الأزهر المصلحتين ، وأن يوفق بين هاتين الغايتين
المحمودتين .

وسيكون من أهم ما أعنى به إن شاء الله تأليف لجان من جماعة كبار العلماء
وأساتذة الكليات والمعاهد والمختصين في شئون التعليم لمراجعة الكتب الدراسية
ولإبقاء الصالح منها ، واختيار لون جديد يوجه الطلاب توجيهها حسناً إلى العلم النافع
من أقرب طريق وأيسره .

ولا يفوتنى أن أشجع - إن شاء الله - مع هذا حركة التأليف والتجديد
عن طريق الجوائز وغيرها حتى يتصل جمل العلم ويمتد ، وتأخذ العقول والأفكار
سبيلها إلى غابات قد يكون فيها خير وبركة على العلم والدين .

* * *

أما الشق الثانى من مهمة الأزهر ، وهو القيام بتبليغ الدعوة ، ونشر دين الله
فسبيل الأزهر إليه أن ينظم اتصاله بالعالم اتصالاً فكرياً وعملياً .
وقد تشرفت فى هذا الشأن أيضاً بتوجيهات سامية حكيمة من لدن
جلالة الملك :

منها العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، نشر أ لكتاب
الله الكريم فى بيئات ومواطن يجب علينا أن ننشره فيها ، ولا يقبضى أن نتجاهل
ما يعود على ديننا وأمتنا من الفوائد الجليلة فى ذلك .

وقد كان هذا المشروع موضع تفكير الأزهر من قبل ، وأقرته جماعة
كبار العلماء بعد دراسته وتبين حكم الله فيه ، ويسرنى الآن أن أعلن ما اعتزمته
من أعداد العدة للمشروع فيه على بركة الله ، وأسأله جل شأنه المعونة
والتوفيق والسداد .

ومنها توجيه العلماء - أولاً - إلى وضع أبحاث فى الفقه والتشريع تسار
الروح العلمى الحاضر ، وتكفل إبراز ما فى الفقه الإسلامى من قواعد العدل
والرحمة والمصلحة التى تشهد بها الفطر السليمة ، والعقول الراجعة ، وتبين للناس
أن ما جاء فى التشريعات الحديثة القائمة على أسس سليمة ؛ موجود فى الفقه الإسلامى
مع بيان أدلته وحججه ، ودفع الشبه عنه .

و - ثانياً - إلى إصدار نشرات ووضع مؤلفات باللغات الأجنبية لبيان حقيقة الإسلام ، والتعريف بمزاياه . حتى يعلم المنصفون من الأمم أن الإسلام هو الكفيل وحده بالحياة الطيبة للفرد والأسرة والجماعة .

ومنها العمل على النهوض بالبعوث الإسلامية وتنظيم الاتصال بالبلاد المحتاجة إلى معونة الأزهر ، ولا سيما البلاد التي تربطها بمصر روابط وثيقة ، حتى يؤدي الأزهر واجبه في نشر الثقافة الدينية بين المسلمين ، ويجعل من يتلقاهم أو يبعثهم مُثلاً صالحاً تكون خيراً عنوان له .

ومنها العناية بمجلة الأزهر حتى تكون في طليعة المجلات الكبرى ، وتتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل .

ومنها العمل على إنشاء مطبعة خاصة تعين على إخراج ما يرى الأزهر إخراجه من الكتب ، وعلى طبع مؤلفات علمائه .

ومنها العمل على تنفيذ الرغبة السامية بشأن كتب الحديث الشريف .

* * *

هذه هي الخطوط الرئيسية في برنامجي للنهوض بالأزهر ، والسير به في طريق التقدم والكمال .

ولست أشك في أن أهل الأزهر سيتلقون هذه التوجهات الملكية السامية بعزائم صادقة ، وهم وثابة ، معترزين بها ، عاملين على تحقيقها ، وأن حكومة جلالة الملك ستعيني عليها ، وتؤيدني فيها ، فإن ما أعلمه عن صاحب المقام الرفيع رئيسها ، وأصحاب المعالي زملائه الكرام من حرص على كل ما يثبت دعائم الدين والعلم والخلق ، ويحقق آمال الأزهر وآمال الأمة فيه ، ليعث الاطمئنان كل الاطمئنان إلى قلبي وقلب كل مؤمن .

وفقنا الله جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه ، ويسر لنا سبيل العمل الصالح لخير الإسلام والمسلمين بل لخير العالم أجمع ، وأظل بالرعاية والتوفيق جلالة مليكنا المعظم ورجال حكومته ، إنه سميع مجيب ؟

لِسِرِّهِمْ هَيْبَانُجَلَّ

من هم الذين يوصمون بالكهانة ويصح أن يطلق عليهم لفظ الكهنة ؟

تابعنا قراءة كتاب (من هنا نبدأ) لحضرة مؤلفه الاستاذ خالد محمد خالد فالفينا يقول :

« هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الاولى ... وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقائلة . . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تنفث سمومها المبيدة في دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض !! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له ، وإعجابهم به . . »

نقول لم يذكر الاستاذ مؤلف الكتاب الطائفة التي تمثل هذه الكهانة ، واكتفى بقوله : أنه يقصد بها جماعة تزويوا بزى رجال الدين ، وانتدبوا لبث تعاليمه في الناس ، وهم ليسوا منه في شيء . وقد أعملنا الفكر لنصل إلى تعيينهم ، فلم نهتد إلا الى رجال من جبهة الناس تزويوا بزى رجال الدين ، واندسوا بين العامة يفتنونهم بما لا يعلمون ، ويصورون لهم الدين على ما يهونون ، تصورا يخرجهم عن حقيقته . وهم شر على الدين من أعدائه ، ويجب على أولى الأمر منعهم من تسميم عقول السذج بضلالاتهم الضارة .

ولكننا رجعنا فقلنا لو كان يريد بهم هؤلاء فإن أمرهم أهون من أن يكتب

فيهم فصلاً يقع في نحو تسعين صفحة من الكتاب ، ومن أن ينزعج هذا الانزعاج الذي يتمثل في هذه السطور من كتابه وهي :

« وهكذا تظل الكهانة تزحف وتمزج بتعاليم الدين ، وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذي يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينبجم ضرران خطيران : (الأول) استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم الى الهاوية ، بعد أن تسكرهم بتعاليمها التي تريحهم مما يتعب الكرام ، وحيث يظلون عبيد نصوص مميته ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب . (الثاني) أنه على مر الزمن لا بد من ظهور طبقة مثقفة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق الى الموت والظلام . . . فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين ، ثم أخذت تنمو فيه حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملاحه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس الى الشك فيه ، والتمرد عليه . هذا هو الذي حدث في أوروبا والغرب ، وهو الذي نخشى أن يحدث في الشرق إذا لم نبادر بعزل الكهانة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ، ونقدمه للناس وضيئاً متألقاً كيوم نزل من لدن حكيم عليم . »

قرأنا في الكتاب هذه العبارات ، فازددنا حيرة في تعيين الطائفة التي يسميها بالكهانة ، ويهبطها من التأثير بحيث تحتل كهانتها عقول الناس على أنها الدين الذي يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه الخ ! نعم ازددنا حيرة ، لأننا لم نجرؤ أن نفهم منها أنه يريد بها علماء الدين ، فليس للعلماء دعوة غير ما ينشرونه في مجلته من المقالات ، وما ينادى به وعاظهم في الأقاليم ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ول هؤلاء أيضاً مجلة خاصة ينشرون فيها ما يعن لهم من البحوث ، وكلها من خير ما تثمره الثقافة الفاضلة والمذهب القويم ؛ فكان بحسب الأستاذ خالد أن ينقل عنهما بعض ما تنشرانه من الأضاليل ، ليرى قراءه بدليل محسوس كيف تسمم هذه الكهانة عقول إخوانه في الدين !

أعدنا نظراً فيما كتبه الأستاذ في (الكهانة) لعلنا نعرف أى الطوائف في مصر يريد . فرأيناه يقول أيضاً :

« هناك شيء اسمه السكينة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ، وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقاتلة . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تنطفئ عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تفت سقمومها المبيدة في دأب ومثابة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض !! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى هزل هذه السكينة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها .

ثم قال :

« فالى أى شيء تدعو السكينة ؟ نستطيع أن نعرف الجواب من مناوأتها الحادة لرغبات المجتمع وطموحه ، فعندما اشتد احساس الشعب بيؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقا إلى عدالة اجتماعية يستعجم فيها من وعشاء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب له ، وقام جلاله الفاروق يمد بنفسه طريق اليقظة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء فى إحدى جلساته ، وخاطب الوزراء بنبرات حازمة مؤثرة تحمل آلام عشرين مليوناً من البشر : « جئت أطلب بحق الفقير والمحروم والمريض ، ! عندما حدث ذلك . . رأينا السكينة المصرية تختط مذهباً عجيباً . . إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملاً مبادئها الحزينة المدبرة ، داعية الناس إلى القناعة المقدسة ، بيد أن السكينة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق الناس إلى اقتناص المغانم ، والبحث عن المال والجاه ! ، انتهى .

لما طالعنا هذه الفقرات رجعنا نشك فيما ظنناه من أن المراد بالسكينة مذهب علماء الدين ، ففى عهد الناس أن واحداً منهم دعا إلى الرجعية الاقتصادية أو دافع عن مزايا الفقر والجهل والمرض ؟ أما كان يجدر بحضرة الكاتب أن يأتى بعبارة من خطابة منبرية لأحدهم ، أو كتاب وضعه بعضهم ، يثبت هذه التهمة عليهم ؟ وإذا كان الدينيون يستبطنون مذهب الرجعية ويعملون على ترويجه ، فكيف يعقل أنهم مع ذلك يقررون تدريس علم الاقتصاد السيامى فى كلياتهم ، وهو يثبت بأدلة لا تقبل النقض أن المال ضرورى للجماعات ضرورة الدم

للجسم الحى ، وأن لكل منهما دورة حيوية لا بد منها لحفظ الحياة الفردية والاجتماعية .

ثم إذا كان الدينيون المعاصرون رجعيين ، فكيف يعقل أن يخطوا في سبيل التجديد هذه الخطوات الجديدة الجريئة ، فيقرروا تدريس العلوم الطبيعية والرياضية والمذاهب الفلسفية الحديثة في كلياتهم ، ليتخرج الطالب آخذاً من كل علم بطرف ؟ .

إن المدارس والكتليات المسيحية تدرس هذه العلوم في العصور الحديثة ، ولكن لا تدرس منها إلا ما هو مؤلف بأقلام أعلامهم ، ولا تسمح بأن يلقيها إلا رجال منهم ، على خلاف كليات الأزهر فإنها تعين أساتذة هذه العلوم من الحاصلين على إجازات فيها من المدارس الأميرية ، ومن لا علاقة لهم بالدين أصلاً ، بل زادوا على ذلك فقرروا تدريس اللغات الأجنبية في تلك الكتليات ، وبالغوا في هذا التسامح فأرسلوا بأنجب طلبتهم إلى إنجلترا وفرنسا والمانيا لدراسة هذه اللغات وإتقانها ، ودراسة بعض الفروع العلمية بها . فهل يظن بل هل يعقل أن يصدر مثل هذا التسامح كله من طائفة تدين بالرجعية ، وتتمسك مثلها العليا من الجهل ، والمرض والفقر ؟ ؟ ؟

لست أريد بهذا أن أقول إن الدينين وصلوا بتسامحهم هذا ، الذى أصبح مضرب الأمثال ، إلى المثل العليا التى ينشدونها ويعملون للوصول إليها ، ولكنى أريد أن أقول إن انهم أولى الحل والعقد منهم بالرجعية ، وتشبيهم بالكهنة ، وعملهم في سبيل بلوغ المثل العليا ما رأيت ، يعتبر تجنيا يحار العقل في فهم مداه وفي تعليله !

إن الأزهر لم يبلغ هذا التطور الجديد من حياته إلا منذ سنين معدودة ، وهو ماض في سبيل الوصول إلى ما يقتضيه هذا التطور من التجديدات بكل ما يملكه من وسيلة ، ولكن أمثال هذه الانتقالات تقتضى المصلحين وقتاً كافياً لتثمر فيه ثمراتها المنتظرة منها ، بل لتتسكل وتصلح للإنتاج والإثمار . ولو كان الناقدون يشاركون العاملين في أحداث هذا الانقلاب ، ويعانون بعض مشقاته والتوائمه ، لأدركوا أن كل جديد لابد له من وقت لينضج فيه ، ووقت آخر

ليؤتي ثمراته . فلو أمهل الأزهريون جامعتهم ملاوة من الدهر مع مشاطرة كبار شيوخها جهودهم على النهوض بها ، لبلغوا الغاية في مدة وجيزة ، لاسيما وحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبيد المجيد سليم ، من أشد الناس شغفا بجعل الأزهر مثلاً أعلى للجامعات الدينية ؛ أما لو تعجلنا الثمرة قبل نضجها ، وعملنا على الإسراع بها قبل استيفائها أدوار ليناعها ، اضطررنا بحكم الظروف لانتظار زمن أطول للحصول على ما نتخيله لمرضاتنا .

يقول مؤلفنا الفاضل :

« وما دمننا بحاجة الى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة ، فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد ، والأزهريون اليوم على أتم الاستعداد النفسى والذهنى للقيام بهذه الرسالة الجديدة . وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ، ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك أو عجزوا عنه ، كان حقاً لزاماً على الدولة أن تنشئ في كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتي ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادئ الصحيحة التى تهدي الى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ الكنيسة في أوروبا . ولا بد من الإلهابة بالعلماء الراشدين كي يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالفاً ، وإذا كننا نقدر خطر تعاليم السكّهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الافكار أقوى من الجيوش ، فان الدولة ستهتم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على السكّهانة ومكافحتها ، فتؤلف بجمع العلماء ليقوم بالمهمة التى ذكرناها . وهى عرض التعاليم الدينية صحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف السكتب فى ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسعو الافق مع صفوة تختار من رجال الفكر والادب والاجتماع ، انتهى .

ونحن نقول :

إن الحالة التى وسماها الاستاذ المؤلف بالسكّهانة ليس لها وجود فى مصر ، وإن وجدت فى طبقة من الجفلة لا تخلو منها أمة فى الارض ، مهما بلغت من السمو العلمى والمدنى ، وإن كل ما ناهى حضرته لهذه الأمة من الرشد فى الدين ، والفهم

الصحيح له ، لمواجهة فتنة عهدنا العلى المدنى الراهن ، حدث منذ أكثر من سبعين عاما بنبوغ الفيلسوف الإسلامى الجليل جمال الدين الأفغانى . وقد عاونه على نشر تعاليمه ، وبث أصوله وفلسفته ، جمهرة من نبغاء الازهريين على رأسهم العلامة الجليل الشيخ محمد عبيده ، فى مجلة تدعى العروة الوثقى أذاعوها فى الخافقين ، فتتقظ نهام المسلمين من سباتهم الذى كان قد طال عليهم الالمد فيه ، وشرعوا يوقظون من حولهم بمن لا بصير لهم بما هم عليه ، ولا بما سيتأدون إليه تحت ضغط شبهات علمية لاقدرة لهم على فهمها ، ولا على اتقاء آثارها : مهيئين بهم إلى تدارك ما هم منتهون إليه من التدهور المادى والادبى ، ثم منه إلى الفناء فى أمم ليس بينها وبينهم أية صلة من الصلات الروحية والاجتماعية ، ولكن كيف تصل هذه الدعوة الى قلوبهم ، بل الى أسماعهم ، وهم فى درجة من الامية لا تسمح لهم بفهم شىء مما يشغل بال هؤلاء المصلحين الذين يهيئون بهم الى طريق النجاة ؟ ومع هذا فان هذه الصيحات الإصلاحية التى بدأت ضعيفة متخاذلة ، أخذت تقوى وتشتد رويدا رويدا حتى أصبح صوتها الآن مدويا فى الخافقين .

واليوم وقد زال خطر هذه الامية ، ونبيغ عندنا ألوف وألوف من رجال العلم والقلم ، وصدرت ألوف من المؤلفات تنشر أصول الإسلام الصحيحة ، وتدل على أن هذه الاصول أحكم وأكمل ما تأخذ به الامم لبناء وجودها ، وفى العالم الإسلامى اليوم مئات من المجلات تبين ماهية الإسلام ، وتبرهن بالدلائل المحسوسة على أن تعاليمه تبرز فى مرامها الادبية والاجتماعية والعلمية جميع التعاليم الموجهة الى الامم عامتها وخاصتها ، لتأخذ فى أسباب بناء مدنية فاضلة تناسب مواهب الإنسان وغاياته البعيدة ، وتذشر فى جميع البلاد التى يسكنها أبناء هذا الدين جرائد ومجلات تردد هذه الدعوة . وتنقل عن فلاسفة الاوروبيين وعلمائهم ، إعجابهم بالدين الإسلامى وشهاداتهم له بأنه الدين الوحيد الذى يأخذ بيد الإنسانية الى الغايات القصية ، والمثل العليا البعيدة : قلنا اليوم وقد بلغ العلم بماهية الإسلام الى هذا الحد من الذبوع والانتشار ، هل يخطر على بال أحد أبنائه أن يكتب ما كتبه الاستاذ خالد فى كتابه وهو قوله :

« انه على مر الزمن لابد من ظهور طبقة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالفسكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق إلى الموت والظلام فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . ، انتهى .

فهل يعقل ان يبلغ العالم بأجمعه صيت الاسلام في الحكمة ، وفي اسلوبه الفذ في إحياء الامم والشعوب ، وترقيتها أدبيا وماديا ، وفي ايتائها خلافة الله في الارض ، ولا يصل خبره الى طبقتنا المثقفة فيصبوا جام غضبهم عليه ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ؟ لا أظن ذلك

محمد فريد وهدي

الْمُنْتَفِعُونَ بِكِتَابِ الْقُرْآنِ

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

كنتبت في العدد الماضي من مجلة الأزهر الغراء بعض ما أسعف به الخاطر فيما يدل عليه مثل قوله تعالى في وصف القرآن الكريم « هدى للمتقين ، وذكرى للمؤمنين » ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إلى غير ذلك من الآيات التي تشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار ، إلى أنه لا يكفي في سيادة الحق وتقبله من الداعين إليه أنه حق ثابت تبدو معاملته ، ويعرف بسمياه ، ولكن يجب أن يكون المدعوون إليه ذوي قلوب حية ، ونفوس غير ملتوية ، حتى يكونوا مستعدين لتلقبه ، وتقبله ، والانتفاع به .

وقد ظلت دعوة الإيمان تتردد في أرجاء مكة ثلاثة عشر عاما ، يصدع بها رجل منهم ، عرفوه بالصدق والأمانة ، وشهدوا له بالفضيلة والزكاة ، واختبروه بألوان الابتلاء ، فما تزلزل ولا تحول ، ومع ذلك لم تشرق على قلوب أهلها شمس الحقيقة ، ولم يتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقام بينهم آمنا على نفسه ودعوته وأصحابه ، فهاجر إلى بيئة صالحة مستعدة ، هداه الله إليها ، فهدى به ، وأظهر دينه على الدين كله .

هذا المعنى الذي تناولته في مقال السابق يشير في نفسى طامحا رددته ورويت فيه ، هو أن هذا القرآن يعطى كل ذى اختصاص في ناحية من النواحي العقلية دليلا يناسبه على إعجازه وسموه وكونه من عند الله جل جلاله ، ومن ذلك أنه يتحدث عن النفوس البشرية في كثير من آياته حديث الخبر بها . العارف بدقائقها وما تنطوى عليه ، وكثيراً ما أمر ببعض هذه المواطن فيه فأقف

عندها موقف المسأخوذ بما لها من روعة وجلال ، إذ أرى فيها تحليلات نفسية قوية لا يطمع المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس أن يصلوا إلى مداها مهما توغلوا في البحث ، وصوبوا وصعدوا في آفاق النظر .

ولنضرب لذلك مثلاً من الآية التي جرت إلى هذا الحديث وما اتصل بها من الآيات في أول سورة البقرة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، فقد قررت أولاً منزلة الكتاب الكريم بهذه العبارة الموجزة التي يضرب بها البلغم المثل في القوة ، ويتخذونها مثالاً لما تفيد الإشارة والتعريف باللام من التعظيم والتفخيم والقصر ، ثم نفت عنه الريب بهذا الأسلوب المقيد للعموم حيث أتت بالنكرة في سياق النفي ؛ ثم أثبتت بعد تعظيمه وتفخيمه ونفي جميع ألوان الريب والشك عنه هذه الحقيقة التي كانت موضع بحثنا في المقال السابق ، ثم جاءت بعد هذا الإجمال بالصفات التي تنطوي عليها كلمة « المتقين » ، فقالت « الذين يؤمنون بالغيب ، ويسيئون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أفادتنا هذه الآيات في وصف المتقين خمس صفات :

الوصف الأول : الإيمان بالغيب ، والناس في هذه الناحية ليسوا سواء ، فمنهم من قر في نفسه أن الحياة هي ما يراه ويشاهده ويعرض كل حين من المحسّات والمبصرات ، فتراه لا يؤمن إلا بما يحسه أو يصل إليه عن طريق من طرق العلم المادى ، ومنهم من يعلم أنه وما يبصر وما يفعل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم الذى غاب عنه أكثره ، وأن وراء هذا الكون ما لا يعلم إلا الله ، فهو يقف عند حده ولا يغتر بما يعلمه ، ولا يتأنى على الاقرار بضعفه وعجزه وقصوره وحاجته إلى اللجوء إلى القوة القاهرة الخفية التي تسيطر عليه وعلى كل ما في العالم ، والتي تجري في أحكامها وتصاريقها على سنن يعلم بعضها ويجهل أكثرها .

فأما الصنف الأول ، فإنه بمنأى عن هداية القرآن ، لا ينتفع بها ، ولا تعمل فيه ، لأن هداية القرآن تستلزم الإيمان برب القرآن ، وبأنه أوحى إلى عبده ما أوحى ، وبأن هذا الوحي كان صلة خاصة بين ملك سماوى وبشر أرضى

ياذن الله ، وعلى سنة منه ، وكل هذا غيب ، وهو لا يؤمن بالغيب ، وأما الصنف الثانى فهو إنسان الفطرة الذى يرى نفسه فى كل حال موضعاً لتأثيرات خارجة عنه ، فلا هى من نفسه ، ولا هى من بنى جنسه ، تأثيرات خفية تخيفه أحياناً ، وترجسه أحياناً ، وتضعفه أحياناً ، وتقويه أحياناً ، ويرى نفسه يأخذ بكل ما يقع عليه فكره من أسباب فى ناحية من النواحي ، ومع ذلك لا يصل إلى الغاية التى تطلع إليها وابتغائها ، إما لأن أسباباً أخرى غابت عنه ، وإما لأن مانعاً منع وليس فى حسابه ، فهو إذن قاصر ، ووسائله قاصرة ، وعلمه محدود ، وقدرته محدودة ، وهو لهذا مؤمن بالغيب ، واثق بأن قوة وراء القوى الظاهرة لا بد أن تكون ، ولا بد أن يؤمن بها ، وذلك هو مبدأ الإيمان بالغيب ، وذلك هو أول شروط الانتفاع بالقرآن ، والنزول على حكم القرآن .

الوصف الثانى : إقامة الصلاة ، والإيمان بالغيب لا يستلزم إقامة الصلاة ، فإن الأول علم ، والثانى عمل ، وكثيراً ما نجد مؤمنين بالله معترفين بالغيب لا يقيمون الصلاة ، وإقامة الصلاة شرط من شروط الانتفاع بهدى القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان هى النسيان والصلاة تذكير ، فالمدائمة عليها من شأنها أن تقطع الجفوة ، وتفتح القلب فى الحين بعد الحين إلى وافدات الهداية ، وخواطر العرفان عن الله كما يقول المتصوفة ، وقد جربنا أن المرء إذا وازب على الاتصال بكبير ذى منزلة فى نفسه ، وهيبة فى قلبه ، فهم عنه ، وعرف إشاراته ومراميه ، وكان على بيئة من روحه ، وما له من توجهات أو توجهات ، وأن على العكس من ذلك المنتقطع عنه ، البعيد عن مجلسه ، الذى لا يناجيهِ ولا يلاقيه ، فالعبد المواظب على حضرة مولاه ، الحريص على الوقوف بين يديه كل يوم خمس مرات مقبلاً لصلاته ، مؤدياً لها على وجهها ، كما يفهم من التعبير بمادة « الإقامة » ، لا بد أن يكسب من هذه الإقامة ، وتلك المواظبة على الحضرة ، روحاً يجعله أهلاً لأن يفهم وينفع ويهتدى .

الوصف الثالث : الإنفاق من الرزق ، وهو لازم لسماحة النفس وما تنطوى عليه من الجود ومحبة البذل .

إن البخل والكزازة والحرص على المال والضمن به عن مواضعه أماره على فساد الطبع ، وضعف الإيمان ، فأما كون ذلك أماره على فساد الطبع ؛ فلأن المال وسيلة لا غاية ، فإذا انقلب غاية ، وصار جمعه والاحتفاظ به مقصوداً لذاته ، فقد خرج صاحبه بذلك على الفطرة ، وجانب الوضع السليم ، وأما كونه أماره على ضعف الإيمان ؛ فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وليس كذلك البخيل .

وكثيراً ما ترى أناساً يصلون ويصومون ويقومون حتى إذا امتحنوا ولو بالقليل في أموالهم ، ليسعدوا معروفاً ، أو يؤدوا حقاً ؛ رأيهم ينفضون رموسهم ، وينظرون إلى من يدعوهم إلى ذلك نظر المغشى عليه من الموت .

فهؤلاء لست أقول قد خرج الإيمان من قلوبهم فإنهم لمؤمنون ، وقد يبخل المؤمن ، ولكن أحداً منهم لن يكون مرآة صافية ينعكس عليها نور القرآن ولن يتفتح قلبه لتلقى هدايته كما تتفتح قلوب ذوى السباحة والصفاء ومن هانت عليهم الدنيا .

الوصف الرابع : الإيمان بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، ولا يصل إلى ذلك إلا من خلا قلبه من التعصب والتحيز ، فإن الذى يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض كالذى يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والدين عند الله واحد هو الإسلام ، فيما أن يؤمن المرء بالجميع وإما أن يكون كافراً ، وفى هذا بلاغ للذين يزعمون أنهم يحدون فى القرآن أو فى الكتب السماوية بعض أحكام صالحة للعصر ، موافقة للحضارة والرقى ، وبعض أحكام يزعمونها رجعية عتيقة كالحدود أو تحريم الربا أو ما إلى ذلك مما فتوا فى شأنه بما عندهم ، وهم عن أسرارهم غافلون ، فثل هؤلاء لا تتجلى لهم هداية القرآن ، ولا ينتفعون بها ، لأنهم يحكمون فيها ما عندهم ، ولا يحكمونها هى فيما عندهم ، فهم بما عندهم مؤمنون ، وبما جاءهم من الله كافرون ، فكيف يرجى لهم النفع ، وينتظر منهم الاهتمام ؟ وإنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون .

الوصف الخامس : الإيمان بالآخرة ، وهذه العقيدة هي أجدى شيء على الإنسان من حيث تصفيته وتهيئته للانتفاع بهدى القرآن ، فإن المؤمن بأن وراء هذه الدار داراً يحاسب فيها كل امرئ على ما قدمت يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، تكون نفسه دائماً مستعدة لتقبل هداية القرآن ، التي كثيراً ما تعتمد على الترغيب والترهيب ، أما الكافر بذلك فإنه يسخر مما يسمع ، ويعتقد أنه غير مسئول عما يفعل ، ويقول : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ، فيحمله ذلك على أن يركب رأسه ، ويتباعد في غلوائه ، ويعرض عن كل نصيح ، ويخرج على كل هدى ، ولذلك يصفهم الله تعالى بمثل قوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » .

أما بعد . فهذا مثال من حديث القرآن عن النفوس ، ووصفه للطبائع البشرية ، ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله ؟

بين رؤبة وأبي مسلم

قال الأصمعي : حدثني رؤبة قال : دخلت على أبي موسى صاحب الدعوة للعباسيين ، فلما أبصرني نادى يارؤبة ، فأجبتة :

لييك إذا دعوتني لبيكا أحمد رباً ساقى إليك

الحمد والنعمة في يديكا

قال : بل في يدي الله تعالى ، ثم قلت : يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد ؟ قال : نعم ، فأنشدته :

ما زال يأتي الملك في أقطاره وعن يمينه وعن يساره
مستعراً لا يصطلي بناره حتى أقر الملك في قراره
فقال : يارؤبة إنك أتيتنا وقد شف المال ، واستنفذه الإنفاق ، وقد أمرنا
لك بجائزة ، وهي تافهة يسيرة ، ومنك العود وعلينا المعول .

القرآن كتاب جامع شامل

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « أنزل في هذا القرآن كل علم ، وبتين فيه كل شيء ، ولكن علمنا يقصر عن إدراك ما بتين لنا في القرآن ، .

مهما كتب الكتّابون ، وأجاد المنشثون ، وأبدع المؤلفون ، وأحسن الباحثون ، وأكثروا من الحديث عن القرآن ، وبيان أسرارهِ ومقاصده ، واستنباط أحكامهِ وحكمهِ ، وإظهار مبادئهِ وتعاليمهِ ، والكشف عن فضائلهِ ومحاسنهِ ، فإنهم لن يبلغوا شأوَ السنة في هذا المضمار ، ولن يصلوا ما جاءت به من فرائد وآيات ، أو على الأقل لن يخرجوا عما رسمته من مناهج ، وأوصفت من معالم ، وعبدته من طرق ، وأوحى به من توجيهات ، وأرشدت إليه من موضوعات .

أجل ، فلقد تناولت الكلام عليه من كل نواحيهِ ، وعالجته من جميع أطرافهِ ، ولم تترك دقيقة ولا جليلة إلا أملت بها ، أو دلت عليها ، أو أشارت إليها .

ومن أول ما تحدثت به السنة عن القرآن تبيان أنه كتاب سماوى جامع ، وسفر إلهى شامل ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع سرّاً ولا حكماً إلا صرّح به ، أو رمز إليه .

نعم وإن كان هذا كله قد يكون معلوماً من مثل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء » ، وقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ،

ومن الامر بالسؤال عما لا نعلم في قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، إلا أن السنة قد زادت ذلك بيانا ، وأوسعته إيضاحا ، ووفته حقه من الشرح والتفسير .

ومن أجمع ما جاء في السنة مقورا لذلك ، وناظرا به ، ما أخرجه الترمذى وغيره عن عليّ رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملكه الاثقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقض عجايبه ، هو الذي لم تفته الجن إذا سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم » (١) .

وما أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم عن عبيد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فنعلموا من مأدبته ما استطعتم ، وذلك أن المأدب العامرة الفاخرة ، تجمع في العادة شتى أنواع الاطعمة ، ومختلف الألوان والاصناف ، ويجد فيها الآكل ما يريد ويشتهي ، فشبه الحديث الشريف القرآن الكريم بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ومصالح وفوائد ، ثم دعاهم إليه .

وقد ورد غير هذا كثير من الاحاديث والآثار ، وكلها تؤيد ما ذكرناه ،

(١) في سند هذا الحديث الحارث بن عبد الله ، وقد قال عنه القرطبي : « رماه الشعبي بالكذب ، وليس بشيء » ، ولم يبين من الحارث كذب ، وإنما فقم عليه إفراطه في حب علي ، وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث ، وكان أحد الكذابين » .

وتشهد له ، ومن ثم كثرت عبارات العلماء في هذا المعنى ، وتعددت أقوالهم عنه ، وإن اختلفت صيغها باختلافهم في المشارب والمنازغ ، فقد قال الشافعي : « جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن » .

وقال غيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحيط بها علماء حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضى الله عنهم وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، حتى لقد قال : لو ضاع لي عقل بعير ، لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضائل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه » .

وقال آخر : « ما من شيء إلا يمكن استخراجُه من القرآن ، لمن فهمه الله تعالى ، حتى إن البعض قد استنبط أن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله سبحانه في سورة المنافقين : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقده بنفس ذلك النبي صلى الله عليه وسلم » .

فهذا كله يدل على مقدار ما يشتمل عليه القرآن الكريم من علوم وفنون ، وغايات وأهداف ، وينبغي أن عجزنا عن الإحاطة بها ، والوقوف على تفصيلاتها ، واستخراجها من مواطنها ، إنما يرجع إلى تقصيرنا في الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إلى معرفتها ، وإلى الفتور في الهمم والعزائم ، والقصور في المدارك والأنهام ، لا إلى خلو القرآن الكريم ، وتجرده من تلك المعاني والأغراض .

وما تحدثت به السنة عن القرآن أيضاً ، لإخبارها بأنه مؤيد للكتب السالفة ، ومصدق لما جاء فيها ، أورد بن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « ومبيننا عليه » ، قال : « القرآن أمين على كل كتاب كان قبله » .

فإن توجيه هذا الكلام أن القرآن قد تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله ،
لأن الأحكام التي فيه ، إما مقررة لما سبق ، وإما ناسخة - وذلك يستدعي إثبات
المنسوخ - وإما مجدة ، وكل ذلك دال على تفضيل المجدد .

ويؤيد هذا ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب
بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمننا عليه ، » فقد قالوا في بيان
معنى تصديقه للكتب السابقة عليه : إنه نزل حسبما نعت فيها ، أو نزل مطابقا لها
في أصل الملة والدين ، أو مطابقا لما لم ينسخ ، كالقصص والمواعظ ، وبعض
المحرمات ، كالكذب والزنا والربا ، أو نزل موافقا لجميع ما فيها ، والمخالفة في
بعض جزئيات الأحكام ليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث
إن كلا منها حق في عصره ، متضمن للحكمة التي يدور عليها فلك التشريع ، وليس
في الكتب السابقة ما يدل على أبدية أحكامها المنسوخة ، حتى يخالفها ما ينسخها ،
بل إن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، وانتهاء وقتها الذي شرعت
للمصلحة فيه .

وليس هذا من البداء في شيء ، فإن المخالفة في تلك الأحكام المنسوخة إنما هو
اختلاف عصر وزمان ، حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتقدم ،
ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ، وإلى ذلك يشير ما أخرجه الإمام أحمد
وغيره عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « حين قرأ بين يديه عمر بن الخطاب
رضي الله عنه شيئا من التوراة ، : « لو كان موسى حيّا لما وسعه إلا اتباعي ، »
وجاء في رواية الدارمي : « والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه
وتركتموني لضللتكم عن سواء السبيل ، ولو كان حيّا ، وأدرك نبوتي لاتبعتني . »

وقالوا في بيان معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب : إنه رقيب على
سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ،
ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويبين أحكامها المنسوخة ،
وقيل : إنه شاهد عليها بأنه الحق ، أو إنه حافظ لها ، ومؤتمن عليها ، كما قال سعيد
ابن جبير : « القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب ، »

وعلى أى حال ، خلاصة ما قيل فى بيان هذين المعنيين : أن الذى يؤخذ منهما فى الجملة هو موافقة ما أفادته السنة فى أخبارها الكثيرة من تأييد القرآن للكتب السابقة ، وتصديقه لها ، وتقريره أو تعديله ، أو تجديده لأحكامها ، كما سلفت الإشارة إليه .

ومن حديث السنة عن القرآن كذلك ما جاء فيها شرحا لمعناه ، وتفسيرا لنصوصه ، وتأكيذا لمحكمه ، وتوضيحا لمشكله ، وبسطا لمختصره ، وتخصيصا لعامة ، وتقييدا لخاصه ، وتبيينا لما أجمل فيه من الأحكام ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم والطهارات والذبايح والأنكحة ، وما يتعلق بها من الإطلاق والرجعة والظهار واللعان وغير ذلك ، وهذا كبيان مواقيت الصلاة وركوعها وسجودها ، وسائر أحكامها ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها ، ونُصَب الأموال المزكاة ، وتعيين ما يزكى وما لا يزكى منها ، وكبيان انتهاء أمد الحكم الأول ، وهو النسخ ، وكالبيان بطريق الإلحاق والقياس ، والتفريع على القواعد العامة ، وبيان الحكم الزائد على الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، والحكم بالشاهد واليمين ، وغير ذلك مما لو رحنا نستوعبه ونستوفيه ، ونستعرض قضاياه ومسائله ، ونستكمل نصوصه وأمثله ، لطلأ بنا القول ، وأعيانا الاستقصاء ، ومما نتركه هنا للكلام عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وعلى الجملة ، فقد توافرت أحاديث السنة عن الكتاب ، وامتدت إلى موضوعات كثيرة غير هذا ، كنزول القرآن وكيفية إنزاله ، وأول وآخر ما نزل منه ، واللسان الذى نزل به ، والأحرف التى نزل عليها ، وجمعه وترتيبه ، وكتابه وقرآئه ، وتعليمه وتعلمه ، وفضله على سائر الكلام ، وحفظه واستظهاره ، وتعاهده واستذكاره ، وترتيبه وترجييعه ، وتحسين الصوت بتلاوته ، وخشية الله عند قراءته ، والرياء فيها ، والتأكل بها ، وما إلى ذلك مما هو موضوع لكثير من العلوم والفنون ، ومادة لطائفة من البحوث والدراسات ، ومما سيكون محلا لمحاولاتنا المقبلة فى الفصول الآتية بعون الله وتوفيقه .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الشجار

احتاج محمد كتابا ،

يشيع هذا الاستعمال ، ولا يرى مستعملوه ضيقا ولا حرجا ، ولا يخالج بعضهم شك في صحته في العربية . وهو بجانب لما درج عليه الاستعمال العربي منابذ له . فقد جرى العرب على أن يعدى ما صيغ من الحاجة بالحرف ، فيقال : احتاج محمد إلى كتاب ، وبني حاجة إلى كتاب . وفي الأساس : لا أحوجني الله إلى فلان . وهذه حاجتي ، أي ما أحتاج إليه وأطلبه .

وهذا الخطأ قديم ، فقد قال^(١) ابن عنين ، وهو من شعراء الدولة الايوبية ، وقد توفي سنة ٦٣٠ :

أنظر إلى بعين مولى لم يزل يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما يحتاجه فاغنم ثوابي والثناء الوافى
وقوله : « ثوابي ، أي الثواب من الله الذي يلحقك بإغاثتي . وفي بعض روايات الديوان :

فاغنم ثنأى والدعاء الوافى

وقوله : « تلافى ، يريد تلقى ؛ ولم أقف على التلاف ، في التلاف فيما رأيت من المعاجم ، وكأنا مد ابن عنين لام التلاف وأشبع حركتها ، فجاء التلاف ؛ ويشفع له في ذلك موقف الشعر ، ورغبته في التجنيس الذي كان كغيره من البديع يصبو إليه كل شاعر وكاتب في ذلك العصر . ولم يأت ابن عنين في ذلك بدعا من الامر ؛ فقد قال ابن هرمة من قبله :

وأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنزاج

(١) أنظر ديوانه ٩٢ ، ووفيات ابن خلكان في ترجمة الملك المعظم عيسى في أواخر حرف العين .

يريد بمنزج ؛ وقال الراجز القديم :

قلت - وقد خرت على السككالك : يا ناقى أما جلت من مجال

يربد السككالك ، وهو صدر الدابة .

ولبقى ابن عنين قصة طريقة أحببت لإيرادها . فقد كان أثيراً عند الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، وكان ملازماً له ، فانقطع عنه مدة لمرضه ، وكتب إليه بهذين البيتين ، وكان الجواب على هذا أن عاده الملك المعظم ، وأعطاه صرّة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا العائد . قال ابن خلكان ، وقد أورد هذه القصة في ترجمة الملك المعظم عيسى : « وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم ذلك منه ، لاسيما هذا الملك » . وكان من شئشنة ابن عنين أن يدخل في شعره الاصطلاح النحوى ويستعمل معانيه ، وقال ابن هشام في شرح القطر في مبحث وجوب تأخر إن وأخواتها على اسمها : « وما أحسن قول ابن عنين يشكو تأخره :

كأنى من أخبار إن ، ولم يجز له أحد في النحو أن يتقدما

وأعود لما كنت فيه من بحث ، فأقول : إن لابن عنين سلفاً قريباً منه هو يوسف بن محمد البلوتى صاحب كتاب « ألف باء » ، وقد طبع هذا الكتاب . وهذا البلوتى أخذ عن السهيلي المتوفى سنة ٥٨٩ ، وعن ابن الفخار ، ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه ؛ فأخذ عن الحافظ السلفى بسكندرية ، وغزا مع صلاح الدين الأيوبي في الشام ، وتوفى في رمضان سنة ٦٠٤ ، وترجم له ابن الأبار في التكملة . وترجمته في النسخة المطبوعة تحت الرقم ٢٠٨٩ . وقد عنيت بإيراد تاريخ وفاته إذ خلا منه مظان هذا التاريخ ؛ ككشف الظنون .

فقد تحدث عن كتابه « ألف باء » ، وذكر محتوياته ، ولم يعرض لتاريخ وفاته وكذلك فهرس دار الكتب المصرية . وفي معجم المطبوعات العربية لسركيس : « قيل : توفى سنة ٥٧٦ ، وتراه يأتي بهذا القول على جهة الشك والتردد ولا يذكر المراجع على عادته .

وأعود فأقول : إن البلوى قال في ألف باء ^(١) ، :

خرجت من شيء إلى غيره وكله علم وقول مسديد
يحتاجه القارىء والسامعون : الكل منهم راغب في المزيد
وتراه يستعمل ، الكل ، بأل ، وفي هذا الاستعمال مجال للقول والنقد : فإن
، كلا ، مما يلزم الإضافة إن لم يكن في اللفظ ففي التقدير . وبعد ، فقد يذهب
ذاهب إلى التضمنين في هذه المسألة ، وحديثي عن المنهج العربي ، وللتضمنين
بحث آخر .

(المستقيمون يحبون حيوات شريفة)

هكذا يستعمل العصريون جمع الحياة . وما وقفت على جمعها في القديم .
وقد تكرر ذكر الحياة في المكتاب العزيز في ضيغة الأفراد ، ولم تجاوزه ألبته .
وذلك أنها مصدر ، وسمة العرب الغالبة تجنب جمع المصدر ؛ إذ كان كاسم الجنس
يقع على القليل والكثير من الأحداث ، تقول : قام محمد ، أى حدث منه قيام ،
وهذا يشمل القومة والقومتين ، وما جاوز ذلك ، كما تشاء . قال ابن جني في اللع :
المصدر لا يثنى ولا يجمع : من قيل أنه بلفظه يدل على قليله وكثيره ، فأشبهه
من هذا أسماء الاجناس ؛ كالماء والزيت . فسكاً لا يثنى ولا يجمع أسماء الاجناس
فكذلك المصدر . فإن اختلفت أنواعه جاز تثنيته وجمعه ، بأن يكون ضرب أشد
من ضرب .

على أنه قد ورد عن العرب جمع المصدر ؛ فمن ذلك قول الأعشى :

قد جربوه فما زادت تجاربهم أباً قدامة إلا المجد والفعا

فتراه قد جمع التجربة ، ومنه قول الله تعالى : في سورة الاحزاب : وتظنون
بالله الظنونا . وقد سوغ جمع الظن تعدد متعلقاته ؛ قال أبو حيان ^(٢) في البحر :
والظنون جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند سيديويه جمع المصدر

(١) ج ٢ ص ٦٥

(٢) ج ٧ ص ٢١٦ .

إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا في أشعارهم ؛
أنشد أبو عمرو في كتاب الالخان :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
وقد ذكر في اللسان أن الظن يكون اسما ومصدرا ، وأن الذى جمع في الآية
الاسم . والفرق بين الاسم والمصدر فيما اتحدت صيغته عسير .

وأيا ما كان الأمر فقد يدعو الحال إلى جمع الحياة لتعدد أنواعها ، وهناك
وراء هذا ما يدعو لجمع « حياة » ، وهو أن تجعل علماء وهذا جار الآن ، يستعمل
اسما للأشئ . وهذا يجوز جمعه من غير نكير من أحد من النحاة .

وقد جرى البحث في صيغتها في الجمع ، فهل يقال : الحيوانات كما جرى به
الاستعمال العصري ؟ أو يقال الحيات بياءين ؟

إن تركيب الحياة هو « ح ي ي » ، أى إن العين واللام ياء . فالألف في الحياة
مبدلة من الياء ، ومقتضى هذا أن ترد إلى أصلها في الجمع ، فيقال : الحيات ؛
كما يقال : الفتيات والحصيات . ومن هذا مسأت الحاجة إلى النظر في الصيغة
العصرية : « الحيوانات » .

وأقدم بين يدي البحث في هذا الأمر أن العرب قالت : « الحيوان » ، في الحياة
وذى الحياة ؛ فيرى الخليل وسيبويه أن الواو بدل من الياء استكراها لتوالى
اليامين ؛ ويقول سيبويه في السكتاب (١) : « وأما قولهم حيوان فإنهم كرهوا أن
تكون الياء الأولى ساكنة ، ولم يكونوا يلزموها الحركة ههنا والآخرى غير معتلة
من موضعها ، فأبدلوا الواو ليختلف الحرفان ؛ كما أبدلوها في رحوى حيث كرهوا
الياءات ، فصارت الأولى على الأصل » يريد سيبويه أن « الحيوان » لو سكنت
الياء الأولى لنطق بالحرفين على الإدغام : « حيان » ، وكان ذلك عذبا في النطق ،
مستساغا ، ولكن لا يدين لنا بهذا التسكين ؛ فإن الحيوان مصدر قصد به الدلالة
على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والحققان ، وقصد أن تظهر الحركة

في اللفظ، ولما لم يكن سبيل إلى الإدغام كان النطق بالياء من متحركين فيه استثناء ما، فتجنب العرب هذا بتقلب الياء الثانية وأوا قراراً من توالى مثلين، كما قيل رحوى وأصله رحي، ولما جرى الإبدال في الثانية بقيت الأولى على الأصل. وهذا تعليل من سيديوه للشذوذ الذي وقع من العرب في هذه الكلمة. ولم تطب نفس المازني بهذا الشذوذ والتكلف له، فهو يرى أن الحيوان ليس من تركيب «ح ي و» بل هو من تركيب «ح ي و»، قالوا وفي الحيوان أصيلة غير مبدلة. وقد رد عليه مذهبه بأن التركيب «ح ي و» لم يأت منه فعَلْ، فيقول في رد هذا: كم من لفظ لم يرد له فعل؛ ألا ترى أنهم يقولون: فاذ الميت، يفيظ، فيظاً، وقالوا أيضاً: فوظا، ولم يرد فعل لهذا الأخير، فلم يقولوا: فاذ، يفوظ.

وأقول بعد هذا: إن الاختلاف في «الحيوان» لم نعهده في «الحياة»، فكأنهم يجمعون على أن لامي ياء. وإذا دعا الأمر إلى تحريك هذه الألف في «الحياة»، فهل لنا أن نأتى بالواو قراراً من توالى المثلين كما قيل في الحيوان، فيقال: الحيوأت.

هذا، وقد علمت أن إبدال الياء واوا في الحيوان عند الخليل وسيديوه شاذ لا ينقاس. ولقائل أن يقول: إن الشذوذ يُؤنس بالشذوذ، فالشذوذ في الحيوان يقرب الشذوذ في الحيوأت. والناظر في اللسان تعترضه هذه العبارة: «الحياة: تقيض الموت؛ كتبت في المصحف بالواو، ليعلم أن الواو بعد الياء في حدّ الجمع، فإذا يفهم القارئ من هذا الكلام؟ أليس يحق له أن يفهم أن الحياة إذا جمعت كانت الواو فيها بعد الياء أى يقال فيها الحيوأت، وأن اللغويين لم يضعوا هذا إلا بعد أن وقفوا في كلام العرب على هذا الجمع للحياة.

ونرى في اللسان أيضاً النص الآتي: «وحكى ابن جنى عن قطرب أن أهل اليمن يقولون: الحيوّة، بواو قبلها فتحة»، أنكون مخطمين وجه الحق إذا أخذنا من هذا أن لام الحياة واو عند هؤلاء اليمنيين، وإذا فاجع عندهم حيوأت، ألبتة.

وهذا يصحح الحيوانات في الاستعمال العصري .

وورد في شعر مالك بن الحارث الهذلي قوله :^(١)

إذا خلّقت باطنى سـرار وبطن هضاض حيث غدا صباح
تركت صديقنا ، وبلغت أرضاً بها عذر لنفسى أو نجاح
فلا ينجو نجائى ثم حى من الحيوانات ، ليس له جناح

فترى فيه الحيوانات ، وطاهر أمرها أنها جمع الحياة ، وكأن الكلام على حذف المضاف ، أى من ذوى الحيوانات ، والنجاء : الإسراع فى السير والعدو ، يريد أنه لا يبلغ مبلغه فى العدو حى من ذوى الحياة ليس له جناح ، يستثنى بذلك الطائر ذا الجناح ، فهو لا يزعم أنه يسبقه . ولكن السكرى فى شرحه يقول : « من اللىوات والحيوان ، أى لا ينجو نجائى حى فيه الروح ليس له جناح ، أى ليس يطير . ومن الأحياء : أى لا يعدو عدوى شيء فيه روح يومئذ .

والحيوات : جمع الحية أى ليسوا بأموات ، فهو يرى أن الحيوانات جمع حية وكأنه يريد نفساً حية . فيشمل المذكر . على أن هذا الجمع لم يأت على لفظ واحد ، ولو أتى على لفظه لقليل : حيّات . ولا أرى حرجاً فى حمل « الحيوانات ، فى البيت على أن يكون جمعاً للحياة على ما أسلفت . وعلى هذا يصح لنا الحيوانات .

ومما يؤنس لهذا ما جاء فى القاموس أن جمع الحية للثعبان : حيات وحيوات فتراهم قبلوا ياء حية الثانية فى الجمع واواً حين أرادوا تحريك اليامين ، وهذا يرشدنا إلى أن العرب ترفض فى هذه المادة اجتماع اليامين متحركين .

ويخرج القارىء من هذا ، وكأنى به قد اقتنع بصحة الجمع :
« الحيوانات ،

(١) أنظر شرح أشعار الهذليين المطبوع فى أوربة فى أول الجزء الأول .

العلاقة بينه سلامه والنصرانية

د. ساد سالم أحمد الرشيدى

أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا

روما إلى اعتناق النصرانية]

— ٢ —

لم تحذف على السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات وما يدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه وعلى دولته ، وأدرك ضرورة الإسراع فى العمل قبل أن يطبق عليه أعداؤه من هنا وهناك ، فما أن انتهى من فتح بلاد المورة حتى أعد فى ربيع سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولا قوياً يتألف من نحو مئتين سفينة ، وزحف لتوه إلى أماحره ، وأطبق عليها من البر والبحر ، وأخذت هذه المدينة على غرة فلم تجد مناصاً من الاستسلام لم تغن عنها قلاعها وعددها شيئاً ، وواصل الفاتح سيره بعد ذلك إلى سينوب ، ولم يحاول أميرها اسماعيل اسفنديا مدافعة العثمانيين ومقاتلتهم ، فقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكبر عليه أن يمالأ الأجانب على سلطان مسلم لا ينى عن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فأثر الاستسلام للفاتح وسلم له بلاده بغير قتال ، وأسرع السلطان الفاتح إلى ديار بكر وأخذ أميرها أوزون حسن على غرة ، فاستحوذ عليه الفزع والذعر ورأى أن لا قبل له بمفرده بمقاتلة السلطان الفاتح ، فبعث إليه أمه ساره خاتون مع بعض كبار رجال دولته يطلب الصلح ، وقبل الفاتح ما عرضه أوزون حسن على أن يكف عن مناصرة أنباطور طرابزون ، وعن الاغارة على الحدود العثمانية . ولم يسع الانباطور

داوود بعد أن قضى على حلفائه الأقربين إلا أن يستسلم صاغراً للسلطان الفاتح الذى نفاه وأهله إلى أدرنه .

وهكذا قضى السلطان الفاتح بما أظهر من نفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة ، على تلك المحالفة الكبرى التى دبرت للقضاء عليه وعلى دولته ، وقد كانت هذه المحالفة معقد آمال واسعة عريضة للبشركين فيها لاسيما انبراطور طرابزون واوزون حسن والبابا . أما انبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على انقراض الدولة العثمانية دولة بوزنطية عظيمة كذلك التى كانت فى عهد جستنيان ؛ واوزون حسن ذلك الأمير التركانى الطموح كان يستهدف - بعد القضاء على الدولة العثمانية - أن يقيم مكانها انبراطورية إسلامية كبرى فى الشرق تدخل فى حدودها مصر والجزيرة العربية ويتفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الإسلامية الفتية التى وصلت فتوحاتها إلى شواطئ بحر الادرياتيك وأصبحت تتحفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية فى هذه البلاد الشاسعة .

هذه هى الآمال ، أو بعض الآمال التى كانت تتخالج رؤوس بعض هؤلاء المتآمرين فأين هم الآن مما قدروا وأملوا ؟

أما الانبرطور داود فقد سيق أسيراً إلى أدرنه ليعيش فيها مع أهله وذوى قرباه ، وأن كانت نفسه لا تزال تجيش ببعض الآمال وتترقب الفرصة المواتية .

أما أوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح لإكراها وقبله على مضض ومرارة وأن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث بعد ذلك أن اشترك فى حلف نصرانى جديد ضد الدولة العثمانية .

أما البابوية فقد كان لها موقف آخر بعد هذه الهزيمة . وكان على كرسي البابوية حينذاك البابا د باى ، الثانى ، وكان إلى جانب حماسه الدينى الشديد رجلاً واسع المعرفة والاطلاع ، واسع الخبرة والتجربة ، قد جاب كثيراً من بلدان أوروبا قبل توليه البابوية ، وشغل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات

الصابينية العديدة التي شنتها البابوية على الدولة العثمانية ، وآلمه تخاذل ملوك النصارى في كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بداله ، رأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله :

لندسمع « باى ، الثانى كثيراً عن تسامح السلطان محمد بن الفاتح في الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً عن مجالسه مع بطريك القسطنطينية ومناظراته معه في شؤون النصرانية ، فلم لا يحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان ويدعوه بالحسنى إلى اعتناق النصرانية ويرضى في نفس الوقت طموحه إلى المجد والملك بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لقمه ويكسب بتنصره — وهو ما كان يتوقعه البابا — قوة عظيمة ، بل أعظم قوة في العالم كانت في ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا « باى ، الثانى رأيه فبعث إلى السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٦٣ م . كتاباً طويلاً يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيه : « إذا أردت أن تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفى على اسمك المجد فإن ذلك في وسعك دون ما حاجة إلى مال ولا سلاح ولا جنود ولا أسطول ، بل إن شيئاً هيناً جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجل بين العالمين وأشدهم قوة وأوسعهم صيتاً وشهرة .

« ستسألنى ما هذا الشيء ؟ إنه لا صعوبة في وجدانه ولا حاجة إلى الذهاب بعيداً للبحث عنه ، إنه في متناول كل الناس ، إنه قليل من الماء تعمد به ، فيجعلك نصرانياً خادماً للإنجيل . فإن فعلت ذلك فلن يكون على وجه الأرض أمير يستطيع أن يفوقك في المجد ولا أن يضارحك في القوة . إننا سننصبك إمبراطوراً للروم وللشرق وسيصبح ما فتحت من البلاد بالقوة وتمتلكها الآن ظلمنا وعدواناً — سيصبح حينئذ حقاً وملكاً شرعياً لك ، وسيجعلك جميع النصارى ويختارونك حكاماً لهم فيما يشجر بينهم من خلاف ، ويقصد إليك جميع المظلومين كما يقصدون إلى حاميمهم المشترك .

ولا ندرى هل أجاب السلطان الفاتح على رسالة البابا هذه ، أو بماذا أجاب ؟ والأمر الذى لا شك فيه أنه مضى في طريقه يجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة

الإسلام . ولم يجد البابا «باي» ، الثاني بعد فشل محاولته بدا من أن يعود إلى الطريقة الأولى ، التي درجت عليها البابوية من قبل ، وهي طريقة الحملات الصليبية .

وكانت الحرب قد اندلعت نيرانها حينذاك بين جمهورية البندقية والدولة العثمانية ، فوجد كل من البابا والبندقية في الآخر الخليف الطبيعي في كفاح العدو المشترك . وجد البابا في إعداد حملة صليبية جديدة إلى الشرق ، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة في تاريخ الحملات الصليبية في القوة والروعة والمهابة ، تحدث عنها الاجيال القادمة إلى آخر الزمن ، فكتب إلى رئيس جمهورية البندقية ، ودوق بورغنديا ، يعلنهما أنه سيخرج بنفسه في هذه الحملة وطلب إليهما أن يخرجوا معه ، لأن وجودهم على رأس الجيش الصليبي سيكسبه روعة وثغامة ، ويلقى في نفوس المسلمين الروع والرهبة ، ثم اجتمع بالكرادلة وخطبهم خطبة حماسية ، طلب إليهم فيها أن يصحبوه في الحملة القادمة ، فإن ذلك وحده هو المكفيل بأن يحمل ملوك أوروبا على الخروج والاشتراك فيها ، إذ سيخرجون من التخلف والقبوع في ديارهم حينما يرون البابا - وقد هدته الشينوخة - وكرادته الموقرين ، قد خرجوا بأنفسهم إلى القتال .

وفي ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣ أذاع الباب «باي» ، الثاني منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الاتراك العثمانيين وأعلن إن احتشاد الجيوش سيكون في أنكون (١) Ancone وأنذر بأن صواعق الكنيسة ستنزل على المتخاذلين والذين يعكرون صفو السلام في الداخل بمحاربة بعضهم بعضاً . ولكي يجمع البابا أكبر قدر ممكن من المال أمر ببيع صكوك الغفران في جميع أرجاء القارة الأوروبية ، وجعل لكل ذنب ثمناً محدداً . والصك الكامل لغفران جميع الذنوب كان ثمنه عشرين ألف فلورن ، ثم كتب مرة أخرى إلى رئيس البندقية يؤكد له عزمه على الخروج إلى الحرب الصليبية يصحبه الكرادلة والجنود المغاوير الأشداء ، وسينفق في ذلك كل ما يملك من مال وثروة وسيرافقه في هذه الحملة دوق بورغنديا مع جنوده البواسل الذين يناط بهم النصر ،

(١) مدينة في منتصف إيطاليا على ساحل بحر الادرياتيک ،

بيد أن هذا النصر سيكون أبهى وأتم إذا خرج رئيس البندقية بنفسه مع الجيش النصراني ، فإن ما للأمرء والملوك من الجلالة والمجد والنفوذ تأثيراً كبيراً في نفوس الجند ، كما أن الاسماء الضخمة العظيمة ستلقى الرعب والفرع في نفس العدو الذي سيستخذى ويتطامن أمام شخص دوق بورغنديا ومهابة الكرسي الرسولي فكيف إذا ظهر معهما رئيس البندقية على سفينته الفخمة « بوسدور » وهو في ثيابه الفاخرة ؟ إن آسيا كلها بل الشرق كله سيرتعد خوفاً ورعباً .

وفي ١١ يونيو ١٤٦٤ م أدى البابا د باي ، الثاني آخر صلواته في كنيسة الرسل بروما ثم بدأ سيره إلى انكون ليبحر منها إلى الشرق . وهذه أول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية ، وآخر مرة أيضاً ، يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه . وقد انتابت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه أن لا يذكروا عن ذلك لأحد شيئاً .

بيد أن هذه الحملة الصليبية برغم ما أحيطت به من الاسماء الالامعة وما أعد لها من الاستعدادات الضخمة لم تؤت الثمرة التي كان يتوقعها البابا د باي ، الثاني فقد تفشت روح الفوضى والتعاس بين صفوف الصليبيين ، وما لبث أن تشتت جموعهم وانتهى أمرهم بمأساة فاجعة أليمة ، واغتم البابا لذلك غماً شديداً ، وثار به العلل والاسقام ورزحت تحت وطأتها القائلة شيخوخته الذابلة ، وأحس الوهن يسرى في جسمه ، وشعر بدنو أجله ، فدعا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهم أن يصلوا لأجله . ومات البابا د باي ، الثاني بين أيديهم في ١٤ أغسطس ١٤٦٤ .

على أن أثر هذه الحملة لم يقف عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة ، فانها فوق ذلك قد أشاعت في نفوس النصارى نوعاً من القنوط واليأس في نجاح أعداد أية حملة صليبية أخرى ضد العثمانيين .

ولم يفت البابا د باي ، الثاني قبيل موته ، بعد أن تحقق من فشل الحملة التي أهداها أن يعود إلى محاولته الأولى فرجه نداء آخر إلى السلطان محمد الفاتح دعاه فيه إلى التنصر .

وكان ذلك آخر عمل قام به البابا د باي ، الثاني في سبيل النصرانية .

المج

المؤتمر الاسلامى الأكبر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج الذى تسكمننا عنه فى العدد الماضى من الناحية الفلسفية ، ويئسنا أنه المؤتمر الذى يجب أن يشهده المسلم مرة واحدة على الأقل فى عمره ، ليتذاكر فيه المسلمون أمورهم العامة ، ويعالجوا بعض ما يحسون به من مشاكل — نقول : هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية ، أيسلح حقاً أن يكون مؤتمراً عاماً للمسلمين يعقد كل عام فى البلاد المقدسة ؟ وهنا أجدنى ، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحققت ما تحققت ، مضطراً للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب .

إن لكل بلد من بلاد الأمة الإسلامية مشاكله الخاصة التى قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه ، فهو فى حاجة — لهذا — للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية ؛ وإن للعالم الإسلامى كله مشاكله العامة التى لا يكفى فى حلها ، كلها أو بعضها ، الأساليب التى يتبعها الرجال الرسميون فى الحكومات أو الجامعة العربية . لهذا وذاك ، لابد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم ، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام .

إلا أن ذلك يتطلب منا :

١ — أن تنتشر اللغة العربية وتعم جميع العالم الإسلامى .

٢ — أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر فى مكة والمدينة .

٣ — أن تتوفر ، لدى من يقوم على هذا المكتب ، النية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل .

١ — إنه من الواضح والبدهي وجوب تعميم اللغة العربية ، حتى تكون اللغة الأولى لسلك مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وبدون هذا لا يمكن التفاهم بين المسلمين والتشاور في كل ما ينوبهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعاً . وقد كان مؤلماً لي أشد الألم أن أرى بجوارى بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلاً ، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لأخيه والحاجة للتحديث معه ، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لجهله العربية .

وهناك في أمثال هذه المناسبات ، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الاستاذ الشيخ محمد حسن الاعظمي الباكستاني لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين ؛ أعنى الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان ، الدولة التي كان ميلادها أعظم فرح أحسن به العالم الإسلامي في هذه السنوات . لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع للغوى بالقاهرة ، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذي ضم كثيراً من رجال مصر المعنيين بالشئون الإسلامية العامة ، وكان في مقدمتهم الاستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة ، ولكن - وما أمراً لسن - كان هذا الاجتماع الأول والآخر !

وفي مكة التقيت بأحد رجال سوريا ، هو الوزير المفوض بالباكستان ، وهو يكاد يحترق لما يحسه من تخاذل المسلمين العرب وعدم عنايتهم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان . لقد ذكر لي أن الباكستانيين يقولون في مؤتمر عقد في كراتشي هذا العام : لقد سئمنا من مدينا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا ، وأن لنا الآن أن نستجيب للجهة الأخرى التي تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الانجليزية !

إذاً ، على الجامعة العربية ، على الحكومات الإسلامية ، على العرب المسلمين

على هؤلاء جميعاً واجب مفروض ، هو نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية بكل وسيلة ، وأن يكون ذلك عاجلاً ، وإلا كان من المستحيل أن يتفاهم المسلمون في أمورهم ، وأن يكون الحج مؤتمراً عاماً لهم يعالج شئونهم ومشاكلهم العامة .

٢ — ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التي تتطلب الحل ، وأن يقوم كل قادر من رجالات الإسلام بنصيبه في علاجها ووضع حلول لها ؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة ، وبخاصة بالأولى ، لطول إقامة المسلمين بها ، ولأن من المسلمين من يرى أحياناً أن يتمتصر على الحج لهذا السبب أو ذاك .

ولعل من أول هذه المشاكل استحقاقاً للبحث والعلاج ، إن أمكن أن يقوم هذا المؤتمر ، مشكلة كيف يتم الحج لبیت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوی الشریف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية ؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفتون بأن الحج أصبح غير واجب في هذه الأيام وفي هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين . هذه المشكلة التي تتطلب البحث العميق والحل السريع ، نتناول كل ما يتصل بالحج من جميع النواحي : وسائل السفر ؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة ، هذا الرسم الفاحش غير المعقول الذي فرض على الحجاج أدائه ؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة ؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة ، هذا الطريق الذي يساهم - بما فيه من عربات لا تصلح لنقل الناس - في استشهاد كثير من الحجاج والزوار ! ثم المرافق الصحية التي لا تعرف تلك البلاد لها وجوداً ، أو على الأقل لا نعرف لها وجوداً على وجه يرضى - في أدنى الدرجات - الكرامة الإنسانية .

٣ — وأخيراً ، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ، الذين يقوم هذا المكتب والمؤتمر عليهم ، النية الطيبة في الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر في معالجة مشاكل العالم الإسلامي .

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها ، ولكن لا نكون

قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات ، وأعظمها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الازهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التي يجب عليهم أدائها في هذه البقاع المقدسة وفي تلك المناسبة الجليلة . بل إن وسائل التعارف بينهم وبين أمثالهم ممن يعمنون بالتوجيه الديني في موسم الحج تكاد تكون معدومة ، وفي رأيي أنه يساعد في علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحج بين هذه البعثات الدينية ، وبين الرجال الدينيين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، على نواحي التوجيه ، ووسائله .

هذا ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

عظمة

كان أهل المدينة قد ثاروا على المنصور الخليفة العباسي تحت قيادة محمد بن هبة الله بن الحسن من أهل البيت النبوي ، فقاتلهم المنصور ، وقبض على قائدهم فقتله ، ثم أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال : « قد رأيت لإطباق أهل المدينة على حربي ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من ينور عيونهم ، ويحمر نخلهم . »

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من فصل الذين يعفون ويصفحون .

فقال له المنصور : « إن أحدا لا يعلننا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ولم ترفي فعلت ؛ وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الاساءة إليهم . »

نقد الدين البكي

للمفوض الاستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغي

مدير قسم المساجد بوزارة الاوقاف

التاريخ الإسلامى فى العلوم والفنون زاهر ، عظيم الفوائد ، جليل العوائد ، ومن أجل الظواهر التى نلفت إليها وننبه الباحثين عليها ؛ تخصص بعض الاسر من المسلمين فى الاشتغال بالعلم والعناية به والنبوغ فيه ؛ تلك ظاهرة خليقة بالتسجيل والتكريم لما تدل عليه من شوق أصيل عند المسلمين إلى العلم وإقبالهم عليه وخدمتهم له ، حتى بلغوا فيه القدر المعلى والمقام الكريم ، وحسبى أن أشير هنا إلى أن علوم الدين بفروعها المختلفة من أصول وحديث وتفسير ، قد عرفت ثلاثة من أسرة واحدة ، كلهم يسمى ابن تيمية ، وهم جد وابنه وحفيده ، قد تتابعوا فى نسق ، ومضوا على سبيل واحدة من التحصيل والفضل والتبريز .

فأولهم محمد الدين بن تيمية ، وهو عبد السلام بن عبد الله ، المولود ببحران سنة ٥٩٠ هـ ، وابنه شهاب الدين بن تيمية وهو عبدة الحلیم بن عبد السلام المولود ببحران سنة ٦٢٧ هـ ، وحفيده تقي الدين بن تيمية وهو أحمد بن عبد الحلیم المولود ببحران ٦٦١ هـ ، ويحسب بالدارسين لآثارهم المطلقين على أبحاثهم ، أن يلاحظوا ذلك كي يدركوا ما بين آرائهم من فروق ، وما لى كل منهم من اتجاه . وكذلك عرف الاسلام بالاندلس مثل ذلك من تعدد العلماء من أسرة واحدة ، فنحن نعرف ابن رشد الجسد وهو فقيه مالكي مقتدر مؤلف ، كثيرا ما يصادف القارىء فى كتب المالكية الإشارة إلى كتابه المسمى بمقدمات ابن رشد ، ثم جاء بعده ابن رشد الفقيه المجتهد والفيلسوف النابغة مفخرة المسلمين وأبو الفلسفة الحديثة باعتراف الاوربيين ، وهو معروف عند المؤرخين بابن رشد الحفيد تميزا له عن جده المذكور آنفا .

ومن تتبع هذه الظاهرة الكريمة استطاع أن يحصى من أئمتها البارزة كثيرا .

ولسكنى معنى هنا بأن أتحدث عن أسرة السبكيين المصرية الأزهرية فإنى أرى لهم من الفضل ما يستوجب نشر ذكركم وتفصيل أخبارهم وسيقتضى ذلك بضع مقالات .
أما لمنهم قد دارسوا العلم وخدموا الأزهر وألفوا فى علوم الدين واللغة ،
فذلك ما تشهد به مؤلفاتهم الجليلة السكينة التى أمضى الأزهر قرونا وهو دارس
لها ، مهتم بها ، يرجع إليها كل أزهري محقق ، وكل عالم باحث فى الفنون التى ألفت
فيها ، واعتبرت بحق مقياس البراعة وآية التحصيل لدارسها . والباغون من هذه
الأسرة أربعة علماء أجلاء سأترجمهم لك تباعا مبتدئا اليوم بأولهم تاريخا الإمام
تقى الدين السبكي والآخرون أبناؤه وقريب له .

أما تقى الدين فهو : على بن عبد الكافي بن على بن تمام بن يوسف بن موسى السبكي
المسكنى بأبى الحسن الملقب بتقى الدين الفقيه الشافعى المفسر الحافظ الاصولى النحوى
اللغوى المقرئ البيانى الجدى ، ولد سنة ٦٨٣ هجرية بسبك إحدى قرى مديرية المنوفية
بالقطر المصرى ، وقد أظفره بما سلف من أوصاف عديدة مجيدة سجلها مترجموه نشاطه
العجيب فى الدراسة ، وطموحه إلى مختلف العلوم وشعب المعرفة ، وملازمته لشيوخ
عصره ، ورحلته إلى داني البلاد وقاصيها فى سبيل التلقى والتحصيل ، فقد تلقى علم
القراءات على التقي بن الصائغ ، وأخذ التفسير عن العالم الواقى ، وتفقه على ابن الرفعة ،
وحذق الاصول على العلامة الباجي ، وثقف فى النحو على أبى حيان ، وسمع الحديث
على الشرف الدمياطى ، ثم شاقه أن يضم إلى ثقافته الواسعة علم التصوف فرحل
إلى الإسكندرية وتلقاه على تاج الدين بن عطاء الله السكندرى .

ومن العلماء الذين عرفهم ودارسهم ، أبو الحسن يحيى بن عبد العزيز الصواف :
وعبد الرحمن بن مخلوف بن جماعة ، ويحيى بن محمد بن عبد السلام . ولم يزل به
تحصيل العلم وابتغائه حتى كاتب علماء بغداد وكاتبوه وقدروا عليه ، وأجاز له
منهم الرشيد بن أبى القاسم وإسماعيل بن الطبال ، وكذلك احتفل وعشاء السفر
ومشقة البالغة فى تلك الأيام فى سبيل العلم والتحقيق به ، فرحل إلى الشام وسمع
من ابن الموازى ، وهناك ذاعت شهرته وعلا بين العلماء قدره ، فتولى قضاء الشام
وكان قاضيا عادلا عفيفا نزيها لا يخشى فى الله لومة لائم ، وتولى مشيخة دار الحديث
الشامية البرانية ، ثم هوى فؤاده إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة النبوية ، على

ما كنها أفضل الصلاة والسلام ، ولقى في الحجاز الإمام ابن مشرف وسمع منه ، ثم عاد إلى القاهرة وقد عرف بالتبحر في العلوم واشتهر في الفقه بالاستنباطات الجليلة ، والدقائق اللطيفة ، والقواعد المحررة التي لم يسبقه إليها أحد فأقبل عليه الدارسون والمحصلون يقتبسون من علمه ويستبصرون بتحقيقه ومن أشهرهم : الحافظ أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي . ولقد كان رحمه الله ، على علو قدره وعظيم تمكنه ، منصفاً في البحث رجاءاً إلى الحق ، فلا جرم أن جمعت هذه الصفات القلوب حوله ، وبثت في القلوب حبه وحملت الناس على اتباعه وتوقيره ، ولم تمنعه كثرة أسفاره واشتغاله بالتدريس لتلامذته من التأليف ، بل قد بلغت مؤلفاته مبلغاً عجيباً في كثرتها ودقتها وشمولها للباحث التي يتناولها ويحررها .

فأصحاب التراجم يعدون من مؤلفاته نحو مائة وخمسين كتاباً ، منها : تفسير القرآن ، وشرح المنهاج في الفقه ، ونيل العلا في العطف بلا ، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام رد به على ابن تيمية (ط) ، والعلم المنشور في إثبات الشهور (ط) ، والاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص . ومن مؤلفاته القيمة التي لها شأن في الأزهر جليل ، ويتنافس في دراستها أهل البراعة والتحصيل ، شرح منهاج البيضاوي في الأصول ، فقد ابتدأ شيخنا تقي الدين هذا الشرح ، ومضى فيه إلى قول البيضاوي رحمه الله والواجب إن تناول كل واحد فهو فرض عين ، ثم أتم شرحه إلى آخر الكتاب ابنه العالم الجليل ، تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع . والدارسون لهذين الكتابين من الأزهريين ، يشهدون على علم ويقين ، بما للترجم في علم الأصول من تمكن وإحاطة ، يجعلانه فارس ميدانه ، وواحد أقرانه . فكتاب جمع الجوامع - وإن كان من تأليف ابنه تاج الدين - يحتوى على أبحاث جليلة ، وتحقيقات فريدة لآبيه ، تجعله يشارك في فضله ويساهم في مجده ، وسنفضل القول عن هذا الكتاب حين نترجم لمؤلفه ، ونتوج هذه الترجمة بشهادة هؤلاء العلماء الاعلام للإمام السبكي بالفضل في علمه ومقدرته ودينه وسيرته . فالسيوطي عده من المجتهدين ، وقال الصلاح الصفدى : ما جاء بعد الغزالي مثله ، وقال السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعساني : هو عندى مثل سفيان الثوري . وليس لى بعد ذلك إلا أن أقول : إنما يعرف الفضل من الناس ذووه ، ورحمهم الله أجمعين ، ونفع بسيرتهم وآثارهم المسلمين ؟

بشيرة النبي

أفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

لما نال المسلمون من المشركين بيدر مناهم ، وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الرائع الذي حول مجرى التاريخ ، ولفت أذن الدنيا ، وأرهدف سمع الدهر ، حفز الكفار جهودهم ، وشحنوا عزائمهم ، واستنفضوا همهم ، وجمعوا جمعهم ، للبارزة من جديد ، فخرجوا بأحد ليقاتلوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال المثنى الحانق ، المتقيظ الغاضب ، راجين أن يضعوا بذلك حدا لما بينهم وبينه ، حتى لا يرتفع صوته ، ولا ندوى كلمته ، أو تسرى إلى النفوس دعوته ، وخرج معهم نسائهم ، ليلهم فيهم الثورة ، ويؤججن نيران الحماسة ، وكان في النساء هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب المسماة آكلة الكبد ، وكان في الرجال جبير ابن مطعم ، وكلاهما مورتور يتمنى أن تناح له الفرصة التي يأخذ فيها بوتره ، ويقتص لنفسه ، وكان لجبير عبد حبشي يدعى وحشى ، تمتلئ الجسم ، مفرط الشجاعة ، وفور القوة ، يخيف بشكله وبأسه ، طلب إليه أن يخرج لقتال المسلمين ، ومناه أن يعتقه إذا هو أردى الحزمة بن عبد المطلب ، وكانت هند قبل ذلك عرضت عليه مالا كثيرا ليقتل الحزمة . ولم يكن التآمر على قتل هذا الرجل تبريدا لغلة ، وإرواء لظما ، وإنما كان كذلك لمكانة الحزمة في المسلمين من البسالة والإقدام ، والعزم والقوة . وقد كان الرسول رضوان الله عليه يعتز بالحزمة ويحبه ، ويقدره ويحترمه ، لا لأنه عمه ، ولا لأنه منحاز إلى جانبه ، ولكن لأنه مع ذلك ، يغنى عن جيش محارب ، وجماعة مقاتلة ، والقضاء عليه هدم لركن متين ، وحصن حصين . وإذا كان الحزمة توافرت له معاني الشجاعة والإقدام ، والمغامرة والتضحية ، والعزم والمضاء ، والهمة وعدم المبالاة ، فإنه لم يعدم إلى جانب ذلك الحذر والحيلة ، واليقظة والانتباه ، والرأى والتدبير ، والفكر والنظر ، والاتعاظ بالحوادث ، إلا أن الحين الذي يسبق جهد الحريص ، كان يخبئه له

المقدار في ضربة صوبها له وحشى . نخيم الوجوم ، وسادت السكينة ، من عظم ما أصاب المسلمين من ذهول ، واعتراهم من هموم ، وربما كان هذا القاتل يعلم مبلغ ما أصاب النبي نفسه صلوات الله عليه من جراء هذه الفاجعة ، ولذلك فإنه بعد أن عتق وأطلق سيده صراحة أسلم وحسن إسلامه ، واطمأن خاطره لتوفيق الله إياه ، واتجاهه الى سبيل المؤمنين ، لكن شيئاً واحداً لا يزال يحز في قلبه ، ويعتقد أن الله لا يغفر له مهما صام وصلى ، وافى جهده في الطاعة ، وعمره في العبادة ، ذلك أنه أهاج حفيظة الرسول بهذا القتل ، ولهذا لم يجرؤ على أن يلاقيه وجهاً لوجه ، أو يضع يده في يده . وما زال هكذا يفر ويبالغ في الفرار ، ويهرب ويمعن في الهرب ، حتى قيل للنبي ها هو ذا . فقال له أنت ؟ ! قال : نعم أنا يا رسول الله وأرجو أن يكون الإسلام عفى على ما قبله ، فقال حول وجهك عني يا وحشى ، فأبى لا أطيق أن أرى يعينى رجلاً قتل الحمزة بن عبد المطلب .

ويروى الرواة أن وحشياً قال ما زالت هذه تغلق مضجعى ، وتؤرق جفنى ، وتتعيب خاطرى ، وأنا أرجو أن يوفقنى الله لعمل أرضى به رسوله ، وأكفر ما عسأى أن أكون قد اقترفته ، فلم أجد إلا أن أقتل مسيلة الكذاب حينما حمل راية الفتنة ، وشق عصا الطاعة ، وادّعى النبوة في خلافة أبى بكر الصديق هذان الله بهديه . . ولعل كثيراً ممن يمرون بهذه القصة أن يقولوا ما ذنب رجل لا ذنب له . . ولعلمهم يذهبون إلى أبعد من هذا كله ، فيقولون ما كان من اللائق أن يقف النبي هذا الموقف من مسلم راسخ القدم ، قوى العقيدة ، صحيح الإيمان . وهذه الدعوى إنما يدّعيها من يجرد الرسل من بشرتهم ، وعلماء النفس يقولون إن الألم الذى تفعله الذكريات المسببة ، والصور البغيضة ، والمناظر المسكروهة ، قد يقتل صاحبه بغير سكين ، ولا سيماء إذا كان من هؤلاء المرضى بما يسمى « ضغط الدم » والعياذ بالله ، فإنه يعتبره الشلل ، ثم يقضى لوقته . والمتنبى كان أدرى الناس بهذه الظاهرة البشرية على الرغم من أنه لم يدرس الطب ، ولم يزاول الفلسفة ، لأنه يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه — غذاء تضيء به الأجسام !!

والحواس تتغذى كما يتغذى الجسد ، ويعتريها الضنى والضعف ، والنحافة والهزال ، والتهدم والمرض ، حين تتناول طعاما لا تستسيغه ولا تحبه ... ويقول الأدباء فيما يزعمونه من هذا القميل : اكملت عيني لمراك ، وطاب قلبي بقلبيك .

والحديث في هذا يطول ويستترسل .. ونحن نود أن يفهم المؤمنون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن الكريم ينادى بأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ينام ويصحو ، ويكره ويحب ، ويفضض ويرضى .. وكان مشار العجب في قریش أن تكون هذه المهمة الشاقة ، والمسئولية العظمى ، في عنق إنسان ، قد تستهويه الشهوات ، وتملكه النزوات ، وتصرفه الأهواء ، وتوجهه المآرب ، وهم لم يألوا رجلاً سمو به روحه إلى هذا الأفق الطاهر وتحلق ذاته في تلك الأجواء البريئة ، بحيث لا يظلم ولا يظنى ، فافرحوا أن يكون من الملائكة المقربين ، ورد الله جل جلاله عليهم بقوله : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، لأنهم لا يأتسون به ، ولا يفهمون منه ، ولا يتلقون عنه ، إلا إذا تحول إلى جنسهم ، وعاد إلى نوعهم .. وكان هو يُصرِّح بهذا إذا احتكم إليه خصمان ، وحاول أحدهما بسحر بيانه ، وطلاقة لسانه ، وعدوبة منطقته ، أن يصور الباطل على شكل الحق ، فينهاهم عن الالتجاء إلى هذا الأسلوب في التقاضى خوفاً من أن يلتبس عليه الأمر ، وتشبهه المعالم ، فإذا هو يحكم بالشىء لغير صاحبه معلناً لهم أنه : بشر يخطئ ويصيب ، ... وإذا كان سبحانه بعث به إلى العرب أمياً لا يقرأ ولا يكتب ليتأتى التحدى ، ويتبين الإعجاز ، فهو كذلك لم يحرده من حصائص البشر ليرينا أن النبوة لا تتكسب بالتحصيل ، ولا تجيء بالاجتهاد ، بل هي سر إلهي يضعه الله فيمن يختاره من عباده الصالحين ؟

رضى الناس

لفضرة الأستاذ الشيخ على حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

من الامثال السائرة على السنة الخاصة والعامة (رضا الناس غاية لا تدرك) . وهذا المثل من أصدق الكلم ، وأحكم الحكم التي تعبر عن واقع محسوس ، ومشاهد ملموس ، فقد خلق الناس مختلفين في الطبائع والغرائز والأخلاق ، ولا يزالون مختلفين ، وموازينهم التي يزنون بها الرجال والأعمال مختلفة أشد الاختلاف ، ومقاييسهم مضطربة في أكثر الاحايين ، فما ظفر برضاهم خالق ولا مخلوق .

اختلفوا في ذات الاله ، واختلفوا في الانبياء ، فقال المسلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله وخاتم النبيين ، وقال المشركون إنه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : المسيح بن الله ، وقالت اليهود : أنه ولد من غير أب شرعى ، وقال المسلمون — كما نطق كتابهم الكريم — ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . واختلفوا في الخلفاء من بعد الرسل فقد أحب عليا قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببعضه ، وسمى جمهور المسلمين أبابكر وعمر شيخي المسلمين وكفروهما بعض الناس بل كفروا من يقول إن لها نصيبا في الإسلام ، واختلفوا في العلماء والشعراء ، والولاة والقضاة ، وفي شأن كل نابه حتى قال بعض الكتّاب : إن العظيم من الرجال من اختلف فيه الناس فرفعه قوم إلى السماء ونزل به آخرون إلى الحضيض ، وذكر العالم الكبير أبو عثمان الجاحظ أنه كان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه ، ثم قال : ألا ترى عليا

رضى الله عنه قال يهلك في فتيان : محب مفرط ، وهذه صفة أنبه الناس ، وأبعدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا .

بل إن التقدير عند الشخص الواحد ليختلف في آن عنه في آخر ، فهو يزن رجلاً فيرفعه ثم يعود بعد طویل أو قصير من الزمن فيخفضه ، وما حدث التاريخ ولا سمعنا أن إنساناً اتفق عليه الناس . وكيف وفي الناس قوم مولعون بالنقد ، مغرمون بتقص ذوى الفضل والمواهب الخالدة ؟ فكلموا رجلاً نابهاً تلمسوا له المثالب والعيوب ، فإن قاتل قالوا متهور وإن قعد قالوا جبان ، وإن أنفق قالوا مسرف ، وإن أمسك قالوا بخيل . . . وهكذا

ويروون في القصص الشعبي أن رجلاً أراد أن يرى ابنه طبائع الناس ، فأخذ دابة وركبها وأردف ابنه خلفه ، ومرا بجماعة من الناس فقالوا : ما أفسى قلبه ! يركبان معاً على هذا الحيوان المسكين . فقال الرجل : يا بنى نتعاقب ، فركب الرجل وسار ابنه خلفه ، فلما مرا بجماعة أخرى قالوا : ما أضعف تفكير هذا الرجل ، يشفق على الحيوان ، ولا يشفق على ابنه ، وهو فلذة كبده ! فترك الرجل وأركب ابنه فقال من لقيهما من الناس : ما أسوأ أدب هذا الولد ، يركب ويترك أباه المسن الضعيف يمشى خلفه ؟ فقال الرجل : لم يبق يا بنى إلا أن فسير معاً ، ونترك الدابة خفيفة الظهر ، حتى نسلم من انتقاد الناس ، ولكنهما ما سلما ، فما هو إلا أن مرا بجماعة من الناس حتى قالوا : ما أحقهما ، يمشيان ، ومعهما دابة موثقة الخلق ، قوية البنيان . فلم خلقت ؟

وهنا أخذ الرجل يعلم ابنه ويضع يده على موضع العبرة من حيلته وتدبيره فقال : يا بنى : ركبنا معاً فرماني الناس بقسوة القلب ، وركبت أنا فرموني بضعف التفكير ، وركبت أنت فرموك بسوء الأدب ، وسرنا معاً فرمونا بالحق . فما أحد من ألسن الناس يسلم !

وأنت مع الناس شديد الشبه بهذا الشاعر مع صاحبه : شكاً فلامته على شكواه ، وكره حبه فأنكرت عليه صبره ، ودناً فأبعدته ، وتباعداً فجذعت من بعده خمار في أمره وجعل يصيح :

شكوت فسمالت كل هذا تبرما بحبي أراج الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشدة ما صبرت . وما هذا بفعل شئى القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالبا رضاها فتعبد التباعده من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوؤها وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أجيئوا بها واستوجبوا الشكر من ربى

ونحن نقول : غفر الله لك أيها الشاعر ، وعفا عن أمثالك ، فما نعلم ،
ولا كان الذين يعاصرونك يعلمون لك حيلة ، فهم كذا شأن القوافي ، وهكذا
شأن الناس ، وأى كذا خلقت ، كما يقول النحويون . والإنسان مهما عامل الناس
بالحسنى ، وأخذهم باللين واللطف ، فلا بد أن يجد فيهم من يلتوى عليه .

عذ يرى من الإنسان ما إن جفوته صفالى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ولذلك قال المأمون حين سمع هذا البيت . . . وإنى لمحتاج . الخ . أين
من يأخذ نصف ملكى ويعطينى هذا الصاحب ، ثم جاء البديع الهمذاني فى القرن
الرابع فسكتب إلى بعض معارفه يقول : فأما الإنصاف فى الصداقة فهو ضالتي
عند الأصدقاء ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن
العشرة سلطان ، وليكنى أقول وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهداً يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

وسئل شريح القاضى : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت ونصف الناس
على غضبان . هذا شأن شريح ، وهو بعد قاض عادل نزيه ، لا يميل به غرض
النفس عن قصد السبيل ، ولا يعدل به هوى الرأى عن جادة الصواب ،

ومع هذا فمثل شريح من كل رجل يحكم بالعدل ، ولا يقول إلا الحق يجب أن يغتبط بهذه الحال أشد الاغتياب ، فحسب امرئ حر الرأى ، قويم الدين ، نظيف السلوك أن يرضى عنه نصف من يعاشرهم من الناس ، وقد يما قال خطيب العرب وحكيمهما أكتثم بن صيفى : أن قول الحق لم يترك لى صديقا .

حتى بعد أن ينتقل الإنسان عن هذه الدنيا لا يعدم من يستنزل عليه الرحمات ومن يصب عليه اللعنات ، وقد يسلّم روحه بين ابتسامة الشامت فيه ، ودموع الباكي عليه ، والشاعر يقول :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسـوؤه الايام حتى ما يرى شيئا يسره
كم شامت بى إن هلكك وقائل لله دره

والاديب الاريب ينبغي له أن يطلب رضا الناس فإن رضاهم يقيه من شرور كثيرة ، وليس أصعب من عداوات الرجال ، ولكن لا ينبغي أن يطلب رضاهم بما يسيخط الله عز وجل فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من أَرْضَى الله يَاسْخِطُ الناسَ كَفَاهُ الله ما بينه وبين الناس ، ومن أَرْضَى الناسَ يَاسْخِطُ الله وكله الله الى الناس ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته .

فاذا لم يكن بد فليؤثر الإنسان رضا الله مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ، ولكن كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وهى تناجى ربها :

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
وبعد ، فرضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ؟

على هامش المولد والهجرة

ميتلاد محمد ﷺ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود صبيحة

المدرس بكلية اللغة العربية

سلام عليك يا رسول الله مولوداً ومبعوثاً ، ومقيماً ومهاجراً ، ومبشراً ومنذراً ، وحيّاً وميتاً ، وروحاً في عليين . سلام عليك ما تعاقبت السنون ، وتوالت الأيام تردد دعوتك ، وتنشر صفحتك ، وتظهر مجدك ، وتتلو على الوجود آياتك البينات ، وعظائمك البالغات ، فلقد كنت سلاماً على الوجود منذ تعلقت الإرادة بوجودك ، والمشيئة بخلقك ، فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة ، ونور من النور ، ولدت فكنت خير مولود عرفته الأرض نقاءً وطهرًا ، وصفاءً وكرماً ، ونسباً وحسباً ، ونشأت فكنت خير ناشئ خلقاً وخلقاً ، وعز ومجداً ، وأمانة وصدقاً ، وبعثت فكنت خير مبعوث لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قدمتك العناية للناس رحمة بهم ، ومنقذاً لهم لما ضرب الفساد بجراحه في الأرض ، وشاع الضلال وذاع ، وتلاشت الحضارات الصحيحة ، والمدنيات السليمة ، وأنهك الأمم الراقية المبالغة في الترف والامعان في المجون ، وأصبحت الأرض تنتظر النجدة من السماء ليكشف ما بها من ضر ، وما أصابها من انحلال . وهيئات لامة انقصمت عراها ، وفقدت أخلاقها ، ونفدت طاقتها أن تقوم ببناء أو تعمیر ، أو بهدى أو إصلاح . لهذا لم تتجه الدعوة للإصلاح في الأرض إلى أصحاب الحضارات المشوهة ، والمدنيات الممسوخة ، وإنما ولت وجهها شطر الامة الالهية التي أكسبتها العزلة مناعة ، حفظتها من أدوار المستهترين ، وامراض المسرفين ، فبقيت طاقتها البشرية صحيحة سليمة ، ونوفر لديها كل ما يصلح لتكوين أمة حية تقوم الوجود ، وتنشر السلام . ذلك أن الامين عاشوا في جزيرتهم

هيشة شظف وجذب ، لا يعلمون شيئاً من مفاتيح الدنيا ، ومباهج الحياة ، وبهرج الحضارة ، إلا بقدر لا يفتُّ من سواعدهم الفاتحة ، وطبائعهم السليمة ، فهم أهل جاهلية بما عند متاخمهم — الفرس والروم — من خلاعة طغت على المعارف والحكمة ، وظلم جعل من الناس عجماوات مسخرة لتشبع بطوناً نهمة ، وسيادة كاذبة ، وألوهية ضالة . فالعرب قد لازمتهم الفطرة البريئة ، والبساطة المخففة من أنقال العيش ، وأعباء الحياة ، فصحت أجسامهم ، وصحت معها عقولهم ، ولم يكن لإسرافهم في الجهل والضللال إلا على وزان لإسرافهم في لذائذ العيش ومتع الحياة ، وأنَّى للفقر والإقلال أن يتسعا للأسراف أو يهيئاً للفساد ، فكل ما عندهم تراحم على الكسرة ، وتناكب على القطرة ، وما وراء ذلك فهو على هامش حياتهم ، وليس من صميم وجودهم . لذلك كانت الأمة العربية أولى أمم الأرض بحمل الدعوة ونشرها ، وإقامة الحججة وإنقاذ البشرية من ضلالها .

وأمعن المترفون في الفسوق وأسرفوا في استيفاء الشهوات واللذائذ ، وانصرفوا عن كل خير في الأرض . فأفسدوا ولم يصلحوا وعطلوا ولم ينشئوا واختفت فيهم الفضيلة ، وتبججت منهم الرذيلة ، وتطايير الشرر من مواعدهم مواعد الضلال والفجور ، وحملت الرياح الهوجاء إلى مواضع الطهر والقداسة . ومواطن السذاجة والفطر السليمة ، فتغيرت النفوس الطاهرة ، وتغلب الهوى ، وتحفد الشيطان ، واتخذ العرب من أول بيت وضع للناس للتوحيد والتنزيه ، والمثوبة والأمن ، مكاناً للشركاء والأمداد ، ومبأة للضللال ، ومرتعاً للفساد .

عند ذلك تجلّت رحمة الله بخلقه ، واختار خاتم رسله لخاتم دعوته ، ليجبر ما نصدع وينظم ما انفرط ، ويمسح ما علق بالفطر ، حتى تعود سيرتها الأولى ليرد بهم الناس إلى الحق البين ، والطريق المستقيم ، ولكن الضلال قد صادف قلوباً خالية فتمكن منها ، ووجد الشيطان نفوساً بريئة فنفت فيها الشر ، فوجد الرسول الكريم مشقة وجهداً في تخليص العرب من الأدواء التي أصابتها والأمراض التي نزلت بها فأسر بالدعوة إسراراً نحواً من ثلاث سنين ، ثم دعا جهاراً نحواً من عشرين لما قيل « اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، وهيء الرسول تهيمّة خاصة ، فكان مثال النبيل والخير ، عرف بين آله وقومه بالطهارة والنزاهة ، والصدق والإمانة على الرغم مما كان عليه من قلة في المال ، ونقص في الولد ، لا ينتطح في ذلك عنزان

ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن الشر قد تأصل في نفوس القوم ، فصمت الاذان عن سماع الحق ، وأقفلت القلوب عن قبول الهدى وعميت الابصار عن رؤية آيات الله ، وتنكر للدعوة الإلهية القريب والبعيد والمحب والمبغض لإلّا من عصم الله وقليل ما هم .

وسلك الرسول الكريم في تبليغ خبر ربه طريقاً منطقياً ، فتحدث إلى الاصدقاء والإخوان في خلوات وفترات معلناً أمره موضحاً خبره ، وتحدث إلى الناس في المجالس والأسواق عن الفضيلة والاخلاق ، واخذ يلز من طرف خفي ما عليه القوم من بعد عن الحق ومخافة للمعقول والمقبول ، وجوهر الدعوة سر في نفسه لا يجاهر به حتى تنهيا النفوس لقبوله .

وبدأ بإنذار العشيرة والأقربين ، وهم أولى باتباعه والاستجابة له ، إبقاء على وشيعة القربى ووفاء بحق الرحم فإن الرحم ، يوصل من وصله ، وأى صلة تدانى ديناً يهدى إلى الحق ، وإيماناً يورث الجنة ويبعد من النار ، ثم أعلن إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ، فألح وألحف حرصاً على قومه أن يتعرضوا لسنخ ربه ، فيحل عليهم غضبه أو ينزل عليهم عذابه ، وهو بهم رءوف رحيم .

وكم ضاق صدره من خلاقمهم حتى كاد يهلك نفسه دونهم ، فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، ولا طفهم الرسول وقتل بالذروة منهم والغارب ، وتجاوزهن مسيئهم ، عله يظفر منهم بلفتة إلى الحق أو نظرة إلى ما جاء به من دين تناول الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد ، والبيض والسود ، قوامه التوحيد ، ودعامته الفضيلة ، وفي التوحيد تسفيه للشرك والشركاء والمشركين ، وفي الفضيلة طهارة وصفاء وتثبيت لدعامة الحق وإنصاف للعقل على الهوى وتقرير للعدالة والمساواة وتنديد بالرديلة واحتقار للشر ومحو للباطل .

فكبر على القوم أن يكون من بينهم داعياً ولا خلاصهم مسفهاً ، وفي القريتين من هو أولى بالشرف وأجدر بالسيادة ، وقالوا فيما قالوا ، لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، فكان الرد عليهم ، أنهم يقسمون رحمة ربك ، وبالغوا في إيذائه وأسرفوا في السكيد له ، وقالوا فيه ، ساحر أو مجنون ، بل قالوا شاعر نربص به ريب المنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ، وتلك سنة الله في المرسلين ، ف ، ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، قد مستهم البساء والضراء ، فصبروا حتى جاءهم النصر ، وتحقق وعد الله ، لا غلبن أنا وسلي ، .

الأديب والأديب

لفضيل الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسالوت

المدرس بكلية اللغة العربية

نحب أن نعرض هنا لمشكلة يحار فيها الناشئون ، وقد يختلف فيها العلماء والمتأدبون ، هي مشكلة تختلف فيها قولاً وجدلاً ، لا ينتهى عند حد ، ولا يقف لدى غاية ، تختلف فيها بيننا وبين أنفسنا حين تنازعنا البواعث المختلفة ، والعوامل المتباينة إلى القراءة ، فنقف مترددين حائرين .

هذه المشكلة ماذا نقرأ ؟ أتقرأ للقدمات أم للمحدثين . أم لها معا ؟
وأتقصر قراءتنا على ما تنضح به العربية من ألوان الثقافة وصور المعرفة أم لابد من إحاطة واستيعاب ، أو على الأقل وقوف على نتاج الأفكار ، وثمرات القرائح ، ومطارح الأخيصة في كل لسان ؟

إذا التمسنا حلاً لهذه المشكلة مما نسمعه من أفواه المثقفين ، تنازعتنا تيارات مختلفة وعوامل متباينة ، ففي بعض المجتمعات الأدبية تتردد صيحات وتبعث صرخات تقول : مالنا وللقدمات وآداب القدمات ، وقد عاشوا في بيئات وسعتهم وانطوت عليهم ومنحتهم من المظاهر والأوضاع مالا م حياتهم ووافق أوضاعهم ، ثم لم تعد ألوان تفكيرهم ولا مطارح أخيلتهم ولا مآثر آدابهم تنسق مع ما نفكر فيه أو نتخيله ، ؟ نسي هؤلاء الناعبون أن الحياة إن اختلفت بعض ألوانها وتباينت بعض صورها ، فهي في سماتها العامة ومظاهرها المشتركة لا تختلف في قليل ولا كثير ، هؤلاء الذين ينفرون من القديم ، ويتسكرون للقدمات ، قد خانهم الصبر وخذلهم الجلد ، فلم تعد عقولهم تقبل إلا أخف ألوان الأدب وأبسط مظاهر الثقافة ، ونسوا أن الأساس الذي نبني عليه ، والمصدر الذي نفتبس منه والذخر

الذى نمنح من معينه هو الادب القديم ، فإن أغضينا عنه وأغفلنا شأنه بنينا حياتنا على شفا جرف هار ، وأقننا مجدنا الأدبي على غير أساس .

وهناك أناس يسيئون الظن بكل جديد ، ويتهمونهم أشنع اتهام ، ويصفونه بالضعف والهزال ، ويؤمنون أعمق الإيمان أن هذا الادب الذى تهدر به طبائع المحدثين لا يصلح للبقاء ، ولا يستحق العناية والاهتمام . يستخفون فيه كل فكرة ويستهنون كل أسلوب ، ويلتمسون العيب فى كل صورة ، ويخترعون المساءة لكل ما يخالج به الفكر أو تنبض به القلوب . ولو سألتهم عن حقيقة ما يخترعون من شبه لا عوزهم الدليل واستعصت عليهم الحجة .

لا عيب فى الجديد لأنه جديد ، ولا مزية للقديم لأنه قديم . أنما السمو والايدياع أو التخلف والقصور فى القيم الفنية للأثر من ذات نفسه ، فهو الذى يدل على مكانه من الرفعة أو الانحطاط . والتقدم أو الانتكاس لا قدمه ولا حداته .

وقديما ملك أقواما التعصب ، واستولى عليهم الهوى مع جلال أقدارهم وعظم منازلهم ، وأصالة رأيهم فى دولة الادب ، حتى إن بعض هؤلاء المتعصبين للقديم أملى شعرا لبعض المحدثين على أنه قديم فامتدحه وأطراه وأثنى عليه أجزل ثناء . فلما أنبىء بعد ذلك أنه لمحدث غضب ، ومزق أوراقه وصار يقول خرق خرق .

يقول القاضى الجرجاني فى كتابه الوساطة صفحة ٩٤ : فى هذا الصدد (إن خصم المتنبي فريقان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة ، وينعم أن ساقه الشعراء رؤية وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبى نواس وطبقتهم ، سمى شعرهم ملحا وظرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه بجرى الفكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبى تمام وأضرابه نفى يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين - أن أحدهم يُنشِئ البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض

قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث
والاقرار بالاحسان لمولد .

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيل العدى ويشقى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسرواني : لمن تنشدني ؟ فقلت لإنهما ليلتهما فقال
لا جرم والله إن أثر الصنعة فيهما لظاهر .

ولكن إسحاق هذا جوزى جحوداً بجحود وتكراراً بتكرار ، فقد كان كما يقول
المرزباني ينصر الأوائل في كل أحواله وكان يتعصب على المحدثين ، ومن كان
يتعصب عليهم أبا نواس وكان يقول هو يخطئ . قال يحيى بن علي فكنت أنشده
جيد قوله فلا يحفل به لما في نفسه فأنشدته قوله :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رامها بزليل
إلى قوله .

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل
فسكان على أمره . فقلت والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل
شيء سمعته قط .

وكان من تعصبه على أبي نواس يقول ما ظننت أني أعيش إلى زمان أرى
شعر أبي نواس ينفق فيه هذا النفاق ، وكان ابن الأعرابي يقول (ص ٢٤٦ الموشح
(إنما أشعار هؤلاء المحدثين من مثل أبي نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوماً
ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً) .
وهذا تعبير يحمل في طياته ما كانوا يضمنون من حقد واضطغان على
المحدثين : ويظهر أن المعاصرة غالباً تكون من أقوى أسباب التحاسد وأشد
عوامل التنافر والتحاقد ، حتى إن كلمة الحق في مثل هذه المواطن تجعل الفحول
يشرقون بريقهم ويغصون بها إذا ضيق عليهم الخناق : ومهما أوتى بعض الناس
من قوة الحجة وسعة العقل ودقة الفهم فقد لا يملكون الغلبة على ما وقر في
طباهم من حقد ولا ما استكن في نفوسهم من هوى أو مودة .

يقول أبو عبد الله التميمي : كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعرا لابن نواس أحسن فيه فسكت ، فقال له الرجل أليس هذا من أحسن الشعر . فقال بلى ولكن القديم أحب الى .

وقال أبو الحسن الطوسي : كنا عند ابن الأعرابي فقال : أيما أحسن عندكم قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم لإغراء وداوني بالنى كانت هي الداء
أو الذي أخذ منه وهو يقول الأعشى :
وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
فسكتنا فقال ! السابق أجود :

ولإن هذا لما يدعو إلى الغرابة والعجب ، فإن عصبية الرجل وحقده وغصته بقمول الحق لما يثير الدهشة حقاً . مع أن أبا النواس فيما أرى فاقه بالاختصار وعذوبة الشعر وسلامته مما ينفر منه الطبع ويستكرهه السمع والنص الصريح على أن الخمر داء ودواء ، أما الأعشى فإنه يجهد السامع في تعرف مواطن الضمائر المتتابعة ويجعل صدره ضيقاً بها أشد الضيق .

قال ابن قتيبة (وكان الناس يستجيدون قول الأعشى الى أن قال أبو نواس بيته ، فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، فللأعشى فضل سبق عليه ، ولأبي نواس فضل الزيادة عليه) .

وكان الأخفش ينقد بشارا لأنه محدث ويطعن على شعره ، فلما بلغ ذلك بشارا تهدده بالهجوم ، فبكى الأخفش وقال وقعت في لسان الأعشى ثم أخذ بعد ذلك يحتاج في كتبه بشعره ليبلغه ذلك ، فكيف عنه .

فهذا عالم جليل وإمام كبير نقصد الشاعر عصبية وأنفة ، ثم استرضاه فرقا ورهبا ، فلم يتجر قولة الحق ولا منهج الصواب .

وهذا ابن قتيبة الأديب الكبير يدلنا على ما كان يشيع من خلائق بعض العلماء وتحيز بعض الدارسين في عصره من تفضيل السابقين والعصبية على المحذنين ويعلن أنه لا يسير على سنتهم ولا يرضى بطريقتهم إذ يقول في مقدمة

كتابه : الشعر والشعراء : ما يأتي ، ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه مواضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم . بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادي ، وجعل كل قديم منهم حديثا في عصره . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

ولقد أطلت في عرض كثير من الصور التي تدل على تحكم الهوى في كثير من النفوس . ولكن لادل على أن الناس في كل عصر هم الناس والعقول هي العقول والقياس هو القياس وإن اختلفت المظاهر وتباينت السمات .

وكما يختلف الناس في هذا الزمن في تفضيل القديم على المحدث أو المحدث على القديم كذلك كان الناس فيما مضى يختلفون ويتأرون .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لما نطالعه أو نحتاجه من ثمرات القرائح ونتاج العقول في الآداب الأجنبية . فكثير من الناس يدعون بسلوكهم وسمتهم إلى العزلة ويزعمون أن هذه الآداب تفسد الأذواق وتحيل الأخيلة وتشكك الناس في قيمة آدابهم .

وبعض الأدباء يتعامون عن تراثنا ويفضون عن نتاجنا ويرون أنه ليس هناك أدب إلا ما جاء عن العرب ونطق به أدباء الغرب .

وأولئك وهؤلاء غالون فيما يرون من رأى ويلتزمون من عقيدة . فأن الاديب الفطن والمفكر النابه لا ينبغي أن يلتفت إلى هذه الترهات والسفاسف بل يجب أن يلتهم ما يسنح له من ألوان المعارف وصور البيان مهما كان الزمن الذي تمخض عنها ومهما كان اللسان الذي جاءت فيه .

ولا يفوتني وأنا أعالج هذه الناحية أن أعرض هنا صورتين تكادان تتقاربان

في الموضوع : إحداهما لشاعر قديم والآخرى لشاعر محدث . وسنجد في كل منهما من روعة البيان وخلابة المنطق ، وتحليق الخيال ما يبعث على الإعجاب والإكبار ، فلم يعق المحدث حديثه من الإجادة والإحسان ومساماة المتقدم على بعد عصره وتراعى زمنه .

قال ابن الرومي في وصف مغنيات :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنيتها حوانى
مطغلات وما حمان جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالهن ثديا	ناهيات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات	وهى صفر من درة الالبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغنى عن الترجمان

وقال في هذا المعنى أو ما يشبهه ، فأيدع أيما إبداع وأجاد أروع لإجادة الأستاذ الشاعر المرحوم الشيخ أحمد الزين :

لامست في النفس أوتار هواها	غادة بالسحر تغزو من غزاها
كلها مست يداها وترا	حسد الآخر ما مست يداها
تمنح الاوتار كفا رخصة	أشجت الاوتار من قبل شجها
ويكاد العود يدعى كفها	قبلا لو أن للعود شفاها
لحنها يبعث في ميت المني	نضرة العهد ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لها	هى أناث فؤادى أو صداها
وحنين كاد من رفته	أن يذيب اللحن في العود مياها
وشجون طالما أخفيها	نفد العود إليها خجها

إلى أن قال :

كل هذا نطق العود به وتناجى هو والنفس شفاها
فلننظر في شعر المحدثين إلى هذه الدقة العميقة ، وهذا الاستقصاء البارع
وذلك الخيال البديع الطريف وتلك المعانى التى أنسايت من قريب ومن بعيد في
ألفة عجيبة حتى ليحسب المرء أن له بها عهداً وما هى في الواقع مما تختصم للفكر
وتفقد للخيال ، إلا بعد كد ومطاوله وشدة احتيال ؟

دراسات في التصوف

العقل والنقل والذوق

لمؤستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

— ٢ —

وإن قال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ^(١) ، فقد كان يؤمن دون شك بأنه وراء الكتاب ووراء السنة أمر آخر ، هو الله ، هو المقصد الأخير ، والغاية التي ليست بعدها غاية ، فالمتصوف لا يعمل لدنياء ، ولا يسعى لآخرته ، وإنما هو محب يرجو حبيبه في إلحاح ، لا يريد عنه بدلا ، ولا يسبغ به غيره ، ليكن في الأرض ما بها من خيرات ، وليتكن في الجحيم نيران متأججات ، وفي النعيم أنهر من الجين ، ولكنه لا يريد هذا ، ولا يرغب في ذلك ، لا بل هو راغب عن ذلك جميعه ، راغب في الله ، والله وحده . راغب في الاتحاد بالله الذي هو أعلى مقامات النفس وأسمى مراتبها ، يحس معه الواصل كأنه والبارى شيء واحد ، يرى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويشعر بغبطة وسرور لا نظير لهما . ويخترق الحجب ، ويصعد إلى عالم النور والملائكة ، فتتكشف له المغيبات والأمور الخفية ، فيخيل جلوسه أنه حاضر والواقع أنه غائب ، وأنه قريب والحقيقة أنه بعيد : قد انصرف عن كل شئون الدنيا وفي في الله . وأول من نادى بهذا الفكر هو البسطامي ^(٢) ، ولعله قد

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) هو أبو يزيد البسطامي عاش في بسطام قرب شاهرود في خراسان من أعمال فارس في القرن الثالث الهجري ، وهو من أئمة التصوف .

استمدتها من تعاليم هندية كانت سائدة في بلاد الفرس مسقط رأسه . وحاول الصوفية تدعيم نظريتهم إن نثرا وإن شعرا ، وبحثوا لها عن آيات وأحاديث تؤيدها ، فوجدوا في هذا الحديث القدسي : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبني وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، فبي يبصر وبني يسمع » أقول وجد الصوفية في هذا الحديث القدسي بعض ما يؤيد ما يذهبون إليه .

تلك هي أهم أفكار الصوفية التي عارضهم فيها الفقهاء ، ولكن ثمت فكرة أخرى زادت الهوة بين الفريقين اتساعاً ، ألا وهي قول الصوفية بتوحيد الأديان ؛ إن الدين عند الله الإسلام ، قول لاشك فيه ولا ريب ، صريح في دلالة ، صريح في عبارته ، ليس له باطن أو ظاهر ، ولكن جاء قوم ونادوا بأن الكل إنما يعبد الله ، وأن الإسلام والنصرانية وغير هذه أو تلك من الأديان إنما هي وسيلة لعبادة الله ، التعصب الديني ممقوت عندهم مكروه : لا تكن مسلماً ولا نصرانياً ، ولا تكن صائباً ولا وثنياً ، ولكن كن من شئت ، على أي دين أردت (١) ، ولكن اعبد الله : اعبد الله إن على صورة الوثن الحجري ، أو متجلياً لك في الشمس أو في القمر ، واعبد الله إن متجرداً عن كل شيء ، أو متحداً بأشياء . لترمز لإلهك بأى رمز تريد ، فما دمت مخلصاً في نيتك ، موفياً لعبادتك ، كان ما تفعل حقاً : « فالأديان كلها لله ، شغل كل طائفة منهم بدن ، اختيار اعليهم ، لا اختياراً منهم ، أخذ بهذه الفكرة الخلاج وابن عربي وابن الفارض والجيلي والرومي وغيرهم كثيرين ، ونادوا بها جميعاً إن نظماً وإن نثراً ، ولعل من أجل ما قيل فيها أبيات ابن عربي إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لاوثنان ، وكعبة طائف ،	وألواح تورا ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

(١) اتخذت البابية البهائية - فيما بعد - هذه الفكرة ، فكانت أهم دعاة لدعاياتهم .

أو قوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه
أو قول بعضهم :

إن خيراً للأحجار في البيد عاكف
وإن عبد النار المجوس^١ وما انطفت
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم
سواي ، وإن لم يظهروا عقد نيتي

* * *

ويقول السعد النفتازاني^(١) معارضاً الآراء الصوفية ومتحدثاً عن مذهب وحدة الوجود : الحلول والاتحاد مستحيلان على الله ، والمخالفون في هذا منهم نصارى ومنهم منتهمون إلى الإسلام ، ومنهم بعض المتصوفة القائلون بأن السالك إذا أمعن في السلوك ، وخاض لجة الوصول ، فربما يحل الله تعالى فيه ، كالنار في الفحم بحيث لا يتمايز به ، ويتحد بحيث لا اثنية ولا تغاير ، وصح أن يقول هو أنا وأنا هو ، وحينئذ يرتفع الأمر والنهي .

ومن هنا نادى الصوفية أن مسألة الإلهام ليس بحجة كما يقول ابن السبكي ، فجعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النص ، وقالوا : إذا ما تعارض الأمر والذوق ، قدمنا الذوق على الأمر ، ويقول بعضهم :

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني والوجد أصدق نهاء وأمر
فإن أطلعك وأعصى الوجد رحت عم عن اليقين إلى أوهام أخبار

ومن هنا أيضاً قالوا بأن الصوفي يتلقى من السماء أحكامه ، التي قد تخالف أحكام الشريعة ، فالصوفية أباحت لهم أشياء هي محظورة على غيرهم .

(١) سعد الدين النفتازاني من كبار العلماء الأحناف له كتب كثيرة مشهورة ، كان يعيش في عصر تيمورلنك ، وروى لي الأستاذ أحمد ترجاني أنه قرأ أن شرف الدين الدرجزيني المتصوف سأله مرة : هل جاء ذكر المتصوفة في القرآن ؟ ، قال نعم ، جاء ذكرهم بعد العلماء ، قال في أي آية ، فأجابه في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، يريد وصف المتصوفة « بالذين لا يعلمون » .

وإن كان لهذه الآراء أثر ، فإنما كان عند الفقهاء ، الذين ، ولا شك ، حكموا بكفر هذا ، لأن دليلهم وطريقهم إنما هما الكتاب والسنة ، وهل بعد الكتاب والسنة دليل ؟ ، ومن خالف الكتاب والسنة فقد كفر ، فما بالك بهؤلاء القوم ، زعموا أن أحكامهم من السماء ، بل وزاد البعض منهم ، فادعى أنه وقد اتحد بالله ، وبلغ منزلة عليا ، فقد سقطت عنه التكاليف ، وزعم أن التكليف خاص بالدوام ، ساقط عن الخواص فإنه :

يطالب بالاوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وهذه ولا شك دعوى باطلة ، اصطنعها قوم لرغبة في نفوسهم وغاية لهم ، وإما لنرى الفقهاء محققين في هذه الناحية في تقدمهم لهذا الفريق من الصوفية . بل ومحققين في تجريحهم لهم ، فقد يقبل المفكر أن يناقش فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول ، ولكن لا أتصور أبداً مسألة سقوط التكليف . إن زعم هؤلاء أنه وحى من الله ، فلعل الأرجح أنه وحى من الشيطان .

وتمت مسألة أخيرة أثبت بين الفريقين الفقهاء والصوفية ، هي مسألة السماع . نادى الفقهاء بأن لا ضير في السماع ، سماع الجيد الصالح من الأقوال فإن النبي (ص) كان يستمع ويدعو إلى السمع ، ويحدثنا أبو حامد الخليلي أنه قال لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ، القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء فيها ؟ فقال : مثل أي شيء ؟ قلت :

يقولون .

إذا ما قال لي ربّي أما استحييت تعصيني

وتخفى الذنب من خافي وبالعصيان تأتيني

فقال أعد ، فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته ، ورد الباب ، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يردد البيتين . وليس في مثل هذه الاناشيد من بأس ، فقد يكون فيها تذكير لبعض النفوس الغافلة ؛ وإنما تدخل في قبيل اللهو إذا كانت توضع في ألحان الغناء ، حتى تكون اللذة في طيب انغماسها لا فيما إحتوته من حكمة وموعظة .

هذه هي وجهة نظر الفقهاء كما يوضحها أحدهم ، ولكننا نرى الصوفية قد اتخذوا مجالس الأذكار ، يرددون فيها اسم الله آلاف المرات ، حتى إذا ما أخذتهم الجلالة - كما يقولون - خروا مغشيا عليهم ، إن تعباً أو خشية من الله . ونرى الغزالي يقول في الإحياء : متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغتروا بالزى والمنطق والهيئة من السماع والرقص ، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة .

ولكننا نجد الصوفية يغنون قصائدهم التي يتغنون فيها بحب الله وبالإعراض عن الدنيا ، إنهم فيها لا يتشبهون بغادة حسناء ، ولا يتغزلون بكاعب ناهد لعب ، ولكنهم يحدثون الله ، يبينون عن عشقهم لذاته ، ويظهرون حبه لهم ، تلك القصائد التي نجدها في ديوان ابن الفارض وفي شعر ابن عربي والسهروردي المقتول :

أبدأ تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريجانها والراح

* * *

هذه خلاصة للصلة بين النقل والتصوف تظهر لنا انضال الطويل بين الصوفية والفقهاء ، وهو فضال دافع فيه الصوفية عن عقائدهم ، دافعوا بالروح وبالبدن ، وكلقتهم آراؤهم ثمناً فادحاً ، فقد قتل منهم الخلاج والسهروردي ، ونكل بغير هذين .

ومن الحق أن نقول إن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداً هم السبب في هذا الاضطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائماً في كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتتعمدهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ودعاة التقدم أعداء الجود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهاداً ويقاسون عسفاً ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكراهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

الاساطير عند مختلف الشعوب

الأستاذ صمزه محمد الشيخ

ليسانسيه في الآدب الانجليزي

لا نستطيع أن نلحق الاساطير Mythology بفروع المعرفة النافعة التي تزداد بها مقدرة الإنسان ، وتربو ثروته ، ويرتفع ذكره ، ويذيع صيته في المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه . ولكنها مع ذلك من المعارف التي لا غناء لنا عنها إذا جعلنا السعادة النفسية والمتعة الروحية هدفاً لنا نتعمدها في حياتنا ، فالاساطير مصدر لكثير من الثقافات الشعبية والعقائد الدينية التي إذا أجدنا فهم أسرارها وتوصلنا إلى المعين الذي صدرت عنه جداولها الاصلية ، أمكننا أن نحى حياة هادئة مستنيرة راسخة ، نعرف ماضيها ونستمد من بين رماده ومعضات وهاجة تصلها بحاضرها ، وتبرق على أضوائها أحلام المستقبل .

وقد كان العربي قليل الحظ من الاساطير ، ومن ثم نشأت دياناته الأولى نافهة سطحية . لا يمكن أن تجرى مجرى الديانات الهندية أو الإغريقية أو الرومانية ذوات الفلسفات العميقة ، والآلهة العديدة الجبارة ، فهي نتاج أساطير رائعة استلهمتها تلك الشعوب من بيئاتها الزاخرة بشتى الكائنات الحافلة بكثير من الأعاجيب . بل إن العرب قد عزفوا عن آداب الأمم الأخرى وولوا عنها مدبرين ، حين لمسوا فيها ما يهدد عقيدتهم الدينية ويعدو على شعائرهم التي عكفوا عليها طويلاً ، وأمعنوا في الحذر والخوف فتجافوا عن كثير من الفنون الجميلة كالتمثيل والنحت حين جاء الإسلام وقضى على عبادة الأصنام .

ولا جدال في أن الأقليم تأثيراً قوياً في النازلين به ، وفي مدى انفساح خيالهم وعمقه ، بل إن الإقليم هو المرجع الأول الذي نعزو إليه وفرة الاساطير وتعددتها في أمة من الأمم أو ندرتها وتفرقها ، ولذلك رأينا العربي في صحرائه الجرداء يعيش عيشة بدوية ، لا مأوى له غير مساكن متقلبة يصطنعها من شعر

عنزته أو وبر ناقته ، ولا تسكتنفها غير رمال شاسعة لا يحدها البصر فاصطبغ خياله بتلك المسحة السطحية المنبسطة ، وعجزت ملسكة الابتكار فيه عن اختراع الموضوعات ، وخلق الشخصيات .

فأما ديانات الاغريق والرومان القدماء فقد انطلقت شعلتها منذ زمان طويل ، ولم نعد نرى لها بين الاحياء فرداً واحداً يتخذها عقيدة لنفسه ، فقد أصبحت لا تمت إلى العقائد الروحية بصلة ، بينما أضحت وثيقة الارتباط بفرعين من فروع المعرفة الإنسانية هما الآداب والفنون ، حيث مازالت تلقى ظلالها في صفوة النتاج الأدبي والفني قديمه وحديثه ، حتى أننا يندر اليوم ألا نجد إشارة اليها في قصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء . فلا بد لمن يبغي تذوق آداب عصره واتهاها من الينايع التي أمدتها بالجمال الأسر والسحر الخلال الاخاذ ، أن يسبح بخياله في أجواء مفعمة بالاساطير الاغريقية والرومانية التي جادت بها ملسكة الابتكار عند شعوب نشأت في بيئات نابضة بالحياة نائرة بالحركة والنشاط .

ولا بد لنا لكي ندرك مغزى أساطير الاغريق أن نعرف شيئاً عن مدى ما وصل إليه علمهم بتركيب العلم جميعاً ، فقد تناقل الرومان وغيرهم من الشعوب عن الاغريق تلك المعرفة ، كما اقتبسوا منهم كثيراً من العلوم والدين .

وكان الاغريق يعتقدون أن الارض منبسطة دائرية وأن بلادهم تشغل جزءها الاوسط حيث يحتل جبل أولمبس Mount Olympus ، مهيبط الآلهة ، المنطقة المركزية منها . وبدا ذلك القرص الدائري لأعينهم تحترقه من الغرب إلى الشرق مياه البحر الابيض التي تشطره شطرين متساويين ، وتحف به مياه المحيط التي تجري من الجنوب إلى الشمال في الجانب الغربي وفي اتجاه عكس ذلك في الجانب الشرقي ؛ تلك المياه التي يفيض تيارها ثابتاً هادئاً لا تهيج عاصفة أو تعبث به ريح .

واعتقدوا لذلك أن الجانب الشمالي من الارض يسكنه قوم تغمرهم السعادة ويحوطهم النعيم الدائم ، لا يعانون مرضاً ولا يشكون عوزاً ولا يجهدون كدأ ولا يفنون حرباً . أما في الجانب الجنوبي فيعيش قوم يدعون الاثيوبيين Æthiopians تحبهم الآلهة عطفها وتسبغ عليهم كرمها . وفي الشريط الغربي يقيم

أناس في سهل الفردوس Elgsian Plain لا تمتد إليهم يد الموت العاتية ، فهم في متعة أبدية وفي رخاء مقيم .

وهكذا نرى قدماء الاغريق يكادون يجهلون أمر الشعوب الاخرى جميعاً فينض خيالهم حينئذ يعمر مجاهل الارض — كما تخيلوها — بأشباح ووحوش وسحرة ، أو بأقوام تؤازرهم الآلهة وتسبغ عليهم ودها وفيضها .

أما الشمس والقمر فقد حسبوهما يطلعان ويغيبان من المحيط ، وتخيّلوا لإله الشمس زورقا يجنحاً يذرع به الارض جيئةً وذهباً ، لينقله من غربها عبر مياه المحيط إلى مشارق الارض ، حيث يطلع بنوره على الآلهة والناس . بل إن خيالهم مدّ لهم كثيراً في تصوراتهم ، فزعموا أن الآلهة تتقابل جميعاً في ردهة فسيحة بأحد القصور الملكية ، لتتناول طعامها وشرابها الذي توزعه عليها آلهة مفرطة الجمال تدعى « هيب » Hebe . وهناك يتناولون أمور السماء والارض بالعرض والنقد حيث تصل إلى أسماعهم الموسيقى العذبة مناسبة من أوتار آلة يحملها إله الموسيقى .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء أن أول من حكم الارض هم الآلهة ، ثم انحدر منهم ملوكهم الاول الذين يرجعون إلى أصل سماوى ، وكانت تلك الآلهة — ككل الآلهة الوثنية — تتصف بكافة صفات البشر من التحاسد والتباغض ، والتآزر والتنافر ، فمن الاساطير المصرية الذائعة حول حكم الآلهة قصة أوزيريس وما جرى له مع منافسة أخيه « ست » ، وما انتهى إليه الامر من قتل أوزيريس ، ثم عودته للحياة مرة أخرى ، واتخاذ المصريين بعد ذلك لهذين الإلهين رمزاً للبعث بعد الموت .

وصفوة القول في الاسطورة أنها ليست سوى قصة خرافية صاغها الإنسان البدائي وأنتجها خياله ، واتخذ لها مسرحاً الافق الذى تمتد إليه ناظر تاه ، فإن ضاق به ، فإلى ميدان أرحب وأفسح يكون فيه أقدر على التحليق وافترض الفروض ، يفسر بها ما حير ذهنه وأعجز عقله بالغازه وأحاجيه . وبالرغم مما حوته تلك القصص من عقائد قد تبدو لنا اليوم سخيفة عابثة ، فهي صورة العهود التى كتبت فيها ، ومرآة تنعكس عليها عقليات الشعوب المختلفة في بداية نشأتها وما كانت تموج به نفسيات تلك الامم من آمال وآلام .

عجالات في الأدب العربي :

جرائم في التعليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمي

مدرس الأدب بالازهر

فيما ألقى إلينا التراث الأدبي العربي بقايا كثيرة غزيرة جديرة بالتقصي والدرس ، ومنها مخلفات الطعنات القاسية من القلم واللسان ، والرميات المدمية من الصرامة والبيان . وقد إما جفّت الصحراء العربية من المروّحات ، إلا في جوانب قليلة ، فسيطرت عليها عواصف العصية وأخذتها نشوة الصرعات القبلية ، فسخرت الشاعرية في مسالك الهجو والتفاخر ، وأرسلت عنان القول في الجروح العادي والقول المصمى ، وفي حق الهجاء ، ونظم الشعراء الجاهليين مياهم طائشة ومواسم سوداء قائمة ، حتى إذا أشرقت دعوة الإسلام ، وإذا طلع الرسول على العالم بأدب القول والإحسان في الخصومة ، توارت نار العداوة القاسية في الصورة الفنية البيانية شيئاً ولم تخرج على الناس في ثوبها البشع .

ولما اتسعت وطنيات الإسلام ، وتوزعت الأقليّة الادبية ، وقامت الدولات وتداخلت العناصر العربية وغير العربية ، وتلونت القرائح ، ومصرّت الأمصار وتباعدت الأقطار ، وغلت مراحل الخصومات السياسية ، وتناطحت الآراء واختلفت المذاهب ، وعرفت الأقلام طريقها في مزق الرقاق ووجوه الصحف وأطواء السكتب وأجنحة القراطيس : انتفضت الأقلام وتمردت ، وانغمست في محابر من الدماء ، وولغت في مسایل أُجبرتها ببياناً قاسياً ، وفنّشا قاتلاً كاد يغطي على ما جاء في شعر الهجاء ، وما روى من نقائص الشعراء .

وساعد على هذا اللون صراع الدولة الاموية مع دعاة العباسية ، ثم قوى هذا الفن ما جدد في ضخوة الدولة العباسية من سطوة الموالي وتمسكهم من قُنَّة الحكم والحجاية والسبق في ميادين العلوم والفنون . وإلى جانب هذا ما نشأت الحضارة من عبقریات نستشهد فيها بابن المقفع ، والجاحظ ، والصابي ، والحريري ، وابن أبي الحديدى ، والقاضى الفاضل ، وكتاب مدرسته العنماع والمتصنعين .

* * *

ولست من الذين يضيقون بالثرات الذى خلفته المعارك البيانية ، لانى أجد فيه قوة - إن سودها الغضب - فقد يشفع لها عندى متانة الاداء ، وصرامة الجلال وأصابة الهدف ، وتسديد الضربة ، وصدق القول أحيانا ، ومن وراء ذلك رسم معالم لنفس المتخاصمين والمتطاحنين قد لا نجده عند المداحين والمطربين بالحق والباطل . فالفقارى فى رسائل المدح والشكر ، يحد مع البيان ملقا يزداد ثم يزداد حتى ليكاد يصرفك عن التمزق بمتعة الإجادة الفنية ، ولكن الجاحظ مثلا حين يصور البخل ، والصابي حين يصف من يغدر بعد وفاء ، والحريري حين يرصع فى الاشياء تلمس من وراء حرارة الصدق ما مُنِيَتْ به الإنسانية - ولا تزال - فى نفوس تعرفها بسيماها من شر قابع فى طواياها ، وغدر نابت فى حناياها .

ولولا شِكِيَّةُ الادباء ، وَشَكَاةُ أقلامهم . ولولا صحائفهم المصورة لتلك الطباع لضاعت معالم نجد لها فى حياتنا المحدثه أشباها وأمثالا حية تجرى بيننا ولا توصف إلا بسحر البيان الماضى . فى مثله ، وفى قصته ، وفى جملته البليغة ، وسجته الموفقة ، ولذعته الساخرة ، وتعريضته المفصحة ، ووصيته السارية ، وملحته التالدة ودعائه الشاقة .

ولئنك أيها القارىء لو اجد فى كتب الرسائل والمحاضرات ، ومفردات النقد وبجاميع المحاسن والمساوىء والمسكافات والمقامات ، حيوات كاشفة عن الاتجاه الذى نذهب إليه وترتضيه من الادباء الذين عاشوا فى حرب قلبية ، وأنفوا أعمارهم فى ميادين الصراع السياسى والادبى ، وصدقونا ما وجدوا من متاعب ومصاعب وصارحونا حين لم يسكتهم سلطان الحاكم عن أناس تحكمت فيهم شهوة الطغيان وأطربهم سخاؤُ الانانية ، وأعماهم بريق المال ، وتحكم فيهم مارد البخل ، وشيطان

الشَّحْجُ ، والذي يتمتع في هذا الفن البياني ما صورت الأقلام في كتب الرحلات وما وصفت في طبائع بعض البلدان ، وما كشفت من خصائص الأقاليم ، وما قارنت به بين العواصم ، وما فاخرت به على السنة المدن كبغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة . وأمتع ما يتمتع ما جاء في كتب الاندلسيين من مفارحات بين مدائنهم . وقد تعرض فن القلم في هذا الميدان للأفراد والجماعات وتعدى الطبيعة إلى الحيوانات فضلاً عن الدويلات وخلافها ، والمالك وساستها . وإلى لذا كر مثلاً موجزها ، ونتفا تشير إلى الخصائص والطرائف ويكفي منها الإنسان . روت كتب الأدب فيما أجمع الناس عليه من بخل أهل (مرو) : إن تمامة ابن أمرس . قال :

« ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج وينثر الحب إليها ويلطف بها ، إلا في (مرو) فإنني رأيته يأكل وحده ، فعلت أن لؤمهم في المأكول . . . ومن رسالة « للبديع الهمداني ، يذم والياً فاشلاً في عمله : « إنما جره الحبل ليصفع كما صفع من قبل ، وستعود تلك الحالة لحالة ، وتقلب تلك الحبل حباله ، إلى أن يقول : (ماذا ؟ أليس ما سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أولى وما عدم أوفر مما غنم) ، وما كتبه (بشر البلوى) في تصوير بعض الناس :

« أما بعد ، فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من خش طلبه ، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته ، ومنهم من إفراط لؤمته أحسن من قدر مدحته ، وإن الله خالق (فلانا) ليغم الدنيا ويقدر به أهلها . . . فاسأل الذي فتن الأرض بحياته ، وغم أهلها ببقائه ، أن يديل بطنها من ظهرها . . .

* * *

ولا أريد أن أطيل في الاستشهاد ، فإن للشعراء والبلغاء في الذم والهجم نظماً ونثراً ما تضيق به الصحائف ، ولكننا لانشك في أن في الناس من يستحق الإهراق بالوسمات الأدبية القاسية ، ومن هؤلاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الاراذل والاندال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطامه وديناره .

ومن أوجز ما قاله أديب أعرابي في وصف أقوام « هم أقل الناس ذنباً

الى أعدائهم ، وأكثرهم تجرما على أصدقائهم ، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء . .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب في بنى سعيد بن مسلم بن فتيبة : « محاسنهم مساوية السفلى ، ومساوئهم فضائح الأمم ، والسفهم معقودة بالعى ، وأيديهم معقولة بالبخل ، وأعراضهم أعراض الذم ، فهم كما قيل .

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازيهم وإن بادوا ، وقد لا يكون الكاتب صادقا في حملته ، ولكنه فيما يصور لا يعدم أن تكون ضرباته قيما توجه واجدة من تنزل عليهم صادقة واصفة مفصحة .

وانى لمنه الاستشهاد بصنيع الجاحظ في بخلائه حين وصف صد يقاله فقال . ولا تقولوا الآن : « قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المذهب .

هذا والله الشيع ، والتبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم ألتبس بهذه الأحاديث عنه الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبة ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكينا من كئانه وذلك أن أحب الأصحاب اليه أبلغهم قولا في آياس الناس بما قبله ، وأجودهم حسما لأسباب الطمع في ماله... الى أن يقول : لأن شهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الأقليم قد أغنته عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيف وهو يرى أن سهل بن هرون واسماعيل بن غزوان كانا من المسرفين ، وأن الثورى والسكندى يستوجبان الحجر ؛ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم النفقة ، ولا بقول العيال : هات ، لعرفتم حالتهم ومنزلتهم) .

ومهما يكن ، فإن الادب الذى حمل أثر تلك الجراحات القلبية يستحق الدراسة النفسية ، والصيرفة البلاغية ، والمقارنات التاريخية ، والاستقصاءات لا العجالات المسرعة ، والخطرات الطائرة ، والنغبات الخاطفة

وإنها لجراحات لا ينضب لها معين :

جراحات السنان لها التمام ولا يلتام ما جرح اللسان

آراء في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم هفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف في إعجاز القرآن الكريم . ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى عام ٣٠٦ هـ ؛ وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه المعتضد وشرحا آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرماني م ٣٨٣ هـ ، وكذلك للإمام الخطابي م ٣٨٨ هـ ، وكذلك للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني م ٤٠٣ هـ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .

٧ — كما ألف في الإعجاز نضر الدين الرازي م ٦٠٦ هـ ، وابن أبي الاصبع م ٦٥٤ هـ ، والزملكاني م ٧٢٧ هـ ، والرافعي المتوفى عام ١٩٣٦ م

- ٢ -

كان الجعد بن درهم في عصر بنى أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة ^(١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلى المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويُروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنبياء الغيب الماضية والمستقبلية .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ؛ فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد مُتحدوا به فلم يقدرُوا ، ومُتجمل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز الذى دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، وأرجعه إلى خصائص النظم العربى ودقائقه ، وما د تجدد ^(٢) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمسكان وكما يقول عبد القاهر أيضاً : « ^(٣) أعجزتهم مزايًا ظهرت لهم في نظمهم ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، وبجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرم أنهم تأملوه

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأى بالبحث والنقد وإقامة الأدلة على بطلانه .

(٢) ص ٦ المدخل الى دلائل الاعجاز من الطبعة الثانية .

(٣) ص ٣٢ دلائل الاعجاز .

سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة يذنبو مكانها بل وجدوا أنساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، .

أما القاضى الباقلانى فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن فى ثلاثة : ما فى القرآن من الأخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ؛ وما فيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الظاهرة ؛ ونظم القرآن الكريم وعجيب تأليفه ، وتباهيه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . وقد شرح الباقلانى وجوه الإعجاز فى نظم القرآن الكريم : وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، فى كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذى قال فيه ابن العربى : لم يصنف كتاب مثله :

وتحدث القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم وأرجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتأم كله ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ^(١) .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن إئتلاف أنواعها والتأمام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره . ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعانى الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدايع الرائقة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم فى كل سورة وفى مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه «الإتقان» ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه ^(١) .

وأرجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . وأرجعه الإمام الزملي إلى تأليفه الخاص به .

وقال ابن حازم في «منهاج البلغاء» : «وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاء في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، لا يقدر عليه أحد من البشر» .

وقال الإمام الخطابي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ثم قال : حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ، والترقي إلى أعلى درجاته .

إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ، ثم تلاقت في موجة ، في بحر لجي زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم في سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ؛ وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بباطل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلمي . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أي حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

ونحن نعود بالقارئ إلى فطرته الأدبية وحدها ، فنطالها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز .

(١) ص ١١٨ ج ٢ الإتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالاته ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الاجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان . ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سورته . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعد ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض : فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة : ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

— ٤ —

وبعد . فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلي :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ؛ ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ؛ ثم هي للآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكشائياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإعجازه ومجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجودته ، وأخذه بالافتدة والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية في سلبها وحربها ، ولهوها وجدها ، وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا في الحياة المهدبة الكريمة التي يعمل لها الإنسان وتسير لشاغلها الأمين الإنسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسليية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع . وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجددنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم . وفي حياتهم ، وفي حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والامكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعدوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعته مراميه ومناحيه ، وعبقورية غاياته ورسائله ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق والعدالة ، والحرية والمساواة بين الناس ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً ،

ولنا هودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله ، وما توفيق إلا بالله ؟

الشَّعْرُ

للمؤستاذ ابراهيم عمار

مراقب بالآزهر

من يوم أن اختفى عن الوجود صوت حافظ وشوقي ، والشعرُ العربي يُعاني أزمة عاتبة ، قد بُج لها صوته ، وخبا ضوءه ، ولم يعد يُسمع إلا كأثمة المصدر .

وقد كان العهدُ به أنه الصوت المدوي الذي يسجل الأحداث ، ويسبق الزمن في رسم الخطط ، وتحديد الاهداف ، ويحفز الامة إلى نيل حقها المنصوب وينير لها طريق الخلود ، ويذهبها إلى حياة أخلاقها وعاداتها ونهضاتها بسياج من الخلق والطموح والدين . كل ذلك وغيره في أدب تهفو له النفس ، وأسلوب تصبو إليه القلوب والعقول .

ومن عجب أن يكون هذا في وقت لم يتم للامة نُضجها . ولم يتكامل وعيها ، ولم ينتشر التعليم في بنيتها ، ولم تعم ثقافة الغرب ولم تتعدد البعثات ، ولم ترج الصحف ، ولم ترق وسائل المدينية ولم يرتبط العالم برباط المؤسسات ، وعقد المؤتمرات .

أجل ولم تكن الفتاة إلا كما مهملا ، لم تدخل مدرسة ، ولم تقرأ كتابا ، ولم تغش النوادي ، وكان دون دخولها الجامعة خرط القتاد . . . ولم تُسد في الناس حالة الشك في كل شيء ولاى شيء : شك في العقائد والعادات ، وشك في الهدوء والاستقرار ، وشك في الأمن وفي السلام ، وشك في أى النظم خير لبنى الإنسان .

فما بالنا اليوم نتفقد الشاعر فلا نجد ؟ وإذا وُجد فلغته متخاذلة ، وخياله ذابل ، وعانيه متداعية من الأعياء والانحطاط .

يقول أولو الرأى الثقاة : إن سبب رقى الأدب بنوعيه « الشعر والنثر » ، ينحصر فى ثلاثة :

- ١ — صلاحية البيئة .
- ٢ — انتشار الثقافة .
- ٣ — الحكم الديمقراطي .

وقد اكتملت لامتنا بفضل الله هذه الخلال ، ومع ذلك فقد هزل الشعر ، أو هو على وشك الزوال .
فهل من سبب لذلك ؟ .

قد يكون سببه أن ناشئتنا لا يجدون فى برامج التعليم المنهل العذب الذى يروى ظمأهم ويحييهم فى الشعر .

فليس هناك درس لانشاده ، ولا جائزة للتفوق فيه ، ولا عقاب ينال من لم يحفظ منه شيئاً ، ولا تقدير لمن يمارسه أو يحاول التبريز فيه .

وقد يكون أن الصحف والمجلات - وما أكثرها - لا تفرد صفحة واحدة لانشاد الشعر والتفنن به ، فكانت نتيجة ذلك أن تبورى فى النثر حتى بلغ الذروة أو قارب ، وطرح الشعر جانباً .

وقد يكون أن الأدباء أرادوا أن يسدوا النقص فى الأدب العربى ، ويدروا عنه ما علق به ، فأقبلوا على « القصة » يتنافسون ويتبارون فيها ، وانتصر لهم أصحاب الصحف والمجلات وصادف ذلك هوى لدى كبار الكتاب ، فعالجوها فى بيان محكم واتقان بديع .

وقد يكون أن المجتمع المصرى لا يُعنى به فى قليل ولا كثير : فلغة المحاضرات

والحوار في المنتديات ، والخطب في المناسبات ، تنثر كلها ، حتى في حفلات الرثاء والتأبين لا تكون نسبة الشعر لما يُلقى فيها إلا كنسبة الواحد للثمات .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، عاملاً قوياً من عوامل نفور المتعلمين من الشعر ، ورغبتهم عنه ، وانصرافهم إلى النشر يؤدونه كأحكم ما يكون الأداء ، ويتقنونه كأحسن ما يكون الاتقان .

وهكذا خلا مكان الشعر أو كاد ، وأصبحنا نعيش على الماضي وذكره ، اللهم إلا من نفر يدعونه ويصطنعونه .

أنا لا أنكر أن الشاعرية هبة من عند الله ، ولكنها موهبة تذكو بالعمل ، وتنمو بالتعمد ، وتؤتي ثمارها في ظل الرعاية والتشجيع .

والآن وقد أتاح الله للغة العربية وللأزهر المعهور شيخاً ضليعاً ومصلحاً فذا خبيراً بشؤوننا العلمية والعقلية ومقوماتها فأنا نرتقب علاجه لهذه الحالة في لطفة واطمئنان ، ولا سيما وقد وثق نفسه بعهد أذاهه على رجال الصحف والمجلات ، في أوائل هذا الشهر ، بأنه سيعمل على تهذيب السكتب ، وتنقيح البراج ؛ ويعد بأنه سيمنح جائزة للمتفوقين في اللغة العربية .

فلعل ناشئة الأزهر تقدر هذه الرغبة ، وتقبل على رياض الشعر فتجني أطيب ثماره ، وتستوحيه ألوان القول فتمضي به قدماً إلى أبعد غاياته ، وتسمو به إلى أرفع درجاته ، مضمنة إياه معاني تغذى العقول وتؤثر في النفوس .

ولعل معالي وزير المعارف وهو عميد الأدب وزعيم المتأدبين يهب تدهور الشعر قبساً من تفكيره العميق الدقيق ، وخبرته الطويلة واقداره على التنفيذ فإذا المتروك مألوف ، وإذا المسكروه محبوب ، وإذا شباب الامة مقبلون على الشعر يتذوقونه ، وعلى قوله يجيدونه .

لغة من لفتاتك يا معالي الوزير الجريئة الخيرة تعيد للشعر مكانه ، وتزيل عن الادب عابه ، وترفع اللغة رأسها ، والامة صوتها ، وتجعلك في عداد المجتدين الخالدين .

الأفضل بن بدير الجمالي

المؤلف: عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

رأينا في مقالنا السابق ، كيف استطاع الأفضل ، أن يرفع المستعلى ، إلى عرش الخلافة ، بعد أن قضى على نزار وحركته ، وقد كانت فرقة النزارية ، إحدى النتائج التي تمخضت عنها هذه الحركة . وسأعرض لهذه الفرقة في إيجاز .

قدم مصر عام ٤٧٩ هـ حسن بن الصباح ، رئيس الاسماعيلية ، واجتمع بالخليفة ، المستنصر الفاطمي ، ، وتسكفل بنشر الدعوة له في خراسان ، فأمدّه الخليفة بالمال ، وسأله ابن الصباح ، عن الخليفة من بعده فقال : ولدي نزار . وأقام ابن الصباح ، بمصر ثمانية عشر شهراً ، رحل بعدها إلى بلاد العجم ، حيث جد في نشر دعوته ، وبث تعاليمه ، حتى كثر أشياعه ، وأخذ يجمع السلاح سرّاً ، ولما قويت شوكته ، استولى على قلعة الموت Castle of almut ، من ملوك الديلم ، وجعلها مركزاً لبث دعوته الاسماعيلية ، ثم استولى بعد ذلك ، على قلعتي الدروخان ، ومن قلعة الموت أرسل دعاته ورسله إلى مختلف الجهات ، وأخذ يلقى على العلماء مسائل ، منها : لم كانت الايام سبعة ؟ والبروج اثني عشر ؟ ، وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وكثر اغتياله للملوك والرؤساء ، وجاء الامام أبو حامد الغزالي ، إلى نيسابور ، حيث ناظر أتباع ابن الصباح ، وألف كتابه ، المستظهرى ، وأجاب عن مسائلهم . وسميت فرقة ابن الصباح هذه ، باديء الامر ، بالاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، جد الفاطميين الأكبر ، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الاسماعيلية الفاطميين خارج مصر ، ودعوا لإلهم . وبعد مقتل نزار على النحو الذي أشرنا إليه ، سميت هذه الطائفة باسم النزارية ، نسبة إلى نزار ، الذي نص الامام المستنصر على خلافته ، من بعده ، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الأرض مرة

أخرى وتحت هذه التسمية ، خدم النزاريون حزبهم ، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر ، بل وعملوا على مناوئتهم على نحو ما ذكرناه . وسميت هذه الطائفة أخيراً بالحشاشين ، ، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش *consommateurs de hachich* ، أو لأنهم كانوا يقومون بأعمال لا يأتونها إلا الحشاشون ، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوزاً ، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الاسماعيلية عامة ، ولكنها تختلف عنها في التفاصيل . وهكذا كان نشوء فرقة النزارية ، من الظواهر العامة التي يتميز بها عهد الأفضل .

قضى المستعلي في ١٦ صفر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، وتولى الأفضل أخذ البيعة الآمرية ، وخلف المستعلي ثلاثة أولاد هم : أبو علي ، ونعت بالآمر ، وجعفر وعبد الصمد ، وكان عمر الأمر يوم تولى الخلافة ، خمس سنوات وشهراً وأربعة أيام ، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك ، فأجلسه الأفضل أمامه ، على فرسه ، وطاف به القاهرة على هذه الحال .

وللقارىء أن يتصور مدى السلطة التي كانت للأفضل أيام هذا الخليفة ، فلما كبر ، واشتد ساعده ، أحس بشغل يد الأفضل عليه ، ففكر في التخلص منه ، وفعلاً تم له ما أراد على نحو ما سذكروه .

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة ، فقد بنى دار الوزارة الكبرى ، ، التي يقول ابن عبد الظاهر ، إنها من بناء أبيه بدر ، ولكن كتب ابتاعيات الأملاك القديمة التي بتلك الحطة تدل على أنها من عمارة الأفضل ، وكانت هذه الدار طوال العهد الفاطمي ، مقر الوزراء ، ثم أصبحت بعد ذلك مقر الملوك ، وصار يطلق عليها دار السلطانية . كذلك بنى الأفضل دمرصداً ، بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام ، كما أمر ببناء خليج تسميه العامة دبحر أبي المنجا ، نسبة إلى أبي المنجا بن شعيا ، اليهودي الذي قام بحفره . كما بنى في عهده كثير من الجوامع والمساجد ، منها جامع القبلة والمسجد الجيوشي ، وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص ، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضاً ، وبنى جامع الجيزة كذلك . وجدد الأفضل عام ٥٠١ هـ ديواناً أسماه ديوان التحقيق ، أقام عليه دأبا البركات بن الليث النصراني .

وأنشأ الأفضل كثيراً من البساتين والحدائق . وكان من أهم التنظيمات التي أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه Squires of the chamber .

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالفرق القدائية . ويقص هلينا الأستاذ Hanotaux في كتابه *Egyptienme Histoire de la Nation* ، جزء ٤ ص ٢٦٧ طائفة أخرى من إصلاحات الأفضل . فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمي ، ابتدأت سلسلة متصلة من الإصلاحات المالية ، فقد غير من قيمة القطع النقدية ، كما وضع نظاماً لتولى الخلافة في حالة عدم وجود وريث ، كما أنشأ مجلساً للعددين ، ونتج عن إصلاحات الأفضل ، رخاء شامل ، وأضحى ناتج الضرائب ضعيف ما كان عليه أيام أبيه ، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه ، وإنما بسبب الإصلاح الذي عم مرافق البلاد جميعاً . كذلك يجب أن نقرر أن ازدهار البلاط الفاطمي لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً إلى وزراءهم الأكفاء الأقوياء الأثرياء .

أما عن سياسة الأفضل الخارجية ، فتتلخص في استرداد الممتلكات الفاطمية التي التهمتها دولة الأرتقيين ، وهي بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا ، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقي من سوريا . كما كانت هذه القوى التي تنتظم الشرق الأدنى على شيء كثير من التفكك والانحلال ، مما مهد السبيل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة . ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التي شنها على « سكان » الأرتقي سنة ٤٩٠ هـ ، وانتزع بها بيت المقدس من يديه ، كانت في الواقع خطوة خطاها في صالح الصليبيين ، إذ بها أزال عقبة كؤودا من سيلهم ، ولقد تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى ، فذهبت امبراطوريتهم مع الريح ، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين ، لما شاع بين دوله من التفكك والانحلال . ولقد عقد الأفضل مع الصليبيين معاهدة ذهبت المصادر في تعليلها مذاهب شتى ، فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى مخالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ، ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة . أما الأستاذ ستانلي ل. بول Stanley L. Poole ، فينقل عن كتاب *Cp. Aist. Occ. der Croisades Iv. 48,78* تعليلاً ،

لا أراه من العقل فى شىء ، إذ يقول : إن الافضل ربما يكون قد اقتوى التحول إلى المسيحية ، وذلك ينتهزه ما نعرف عن عقيدة الافضل ، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الغنائم التى اقترفها الصليبيون قد خوفت الوزير المصرى .

غير أن هذه المعاهدة الوهمية ، لم توقف الصليبيين عند حد ، إذ لم تمس الدافع الذى حرك الفرنجة من بلادهم ، وهو التعصب الدينى الاعمى . والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى ، وأشبعوا أهله تقتيلاً ، ودياره نهباً وتخريباً ، وكانت السياسة الدفاعية هى المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية ، ويميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الافضل الخارجية من هذه الناحية .

ويحسن فى ختام حديثنا عن الافضل ، أن نلم بشىء من أخلاقه وصفاته ، كان الافضل مكرماً لأهل العلم والادب ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً ، وخلف مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد ، وصارت مصر مقصد الطامعين فى جوده من الشعراء والادباء . وكان شديد الغيرة على نسائه .

وكان الافضل يميل ميل السنيين ، فألغى الاحتفال بالموالد الأربعة : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة رضى الله عنها ، ومولد سيدنا على رضى الله عنه ، ومولد الامام الخليفة القائم بالامر ، وكان ذلك فى الواقع كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمى ، كما كان ذلك أيضاً سبباً فى كراهية النزاريين له ، وقد يكون ميله السنى أحد العوامل التى أطاحت بحياته . كان الافضل ثابت العقيدة راسخ الايمان ، عادلاً ، حسن السيرة : حكى أنه لما قتل ، وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة من الناس ، واستغاثوا بالخليفة ، ولعنوا الافضل ، فسألهم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، فغادرنا بلادنا وأوطاننا ، وقصدنا بلده لعدله وأصابنا بعده هذا الظلم ، فهو كان السبب فى ظلمنا ، فأحسن الخليفة إليهم . وكان الافضل كذلك فخل رأى حسن التدبير ، معترفاً بنفسه .

وقد ترك الافضل ثروة ، أفاضت المصادر فى عدها وحصرها ، حتى بالغت إلى حد كبير ، ولكنها تنبئنا على أى حال ، بما كان لذلك الوزير ، من سلطة مطلقة لاتحد . قضى الافضل مقتولاً : قيل بتدبير من الطائفة البديعية التى ضيق عليها الافضل فى حياته ، وقيل - وهو الأرجح - بتدبير من الخليفة الأمر ، لتضييقه عليه ، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة .

الخليفة العباسي في القاهرة

د. سنان هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي فكر في اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد أن نزلت بها كارثة المغول ببغداد ، والمعروف أيضاً أن نجاحه في ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عثرتها ، غير أنه من الحق أن يعلم أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر الإسلامية ، وإنما هو الذي تولى تحقيقه بنجاح ، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر كما أنما أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوباً شرعياً أو أنه كان يفكر في وسيلة ينتقم بها من الموفق ، فجاءت هذه الوسيلة خبط عشواء في إقامة الخلافة بمصر .

ولقد فكر محمد بن الإخشيد في ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٩٩٤ ميلادية لإغاثة الخليفة المنقذ .

ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية أن السلطة أصبحت في أيديهم بعد قتل المعظم توران شاه رأوا أن يوطدوا أركان دولتهم بموافقة الخليفة العباسي .

ولقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطة شجرة الدر ، وأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك السلطان ثم خلعوا السلطانة الماهرة تحت تأثير ما وصلهم من عدم رضا الخليفة .

ثم إن المعز أيبك لجأ للخلافة العباسية في الشهور الأولى من سلطنته ، ثم حدث أن تمزقت الخلافة العباسية بسقوط بغداد في يد هولاكو وقتل الخليفة وولده وأكابر بغداد .

ومن المحتمل أن معظم أبناء البيت العباسي قد قتلوا أثناء تلك الكارثة ، وقد فر من أبناء البيت العباسي ومن رجاله كل من استطاع إلى الفرار سبيلا

وربما كان معظم أولئك الذين استطاعوا الفرار من الأبعدين في البيت العباسي وليسوا من القريبين في سلسلة الخلفاء .

ومهما يكن ، فقد غيرت هذه الحادثة من سياسة المماليك نحو الخلافة ، فعملوا بعد سقوط بغداد على اجتذاب الفارين من أبناء البيت العباسي وغيرهم إلى القاهرة .

والراجح أن السلطان قطز كان يفكر في أكثر من هذا ، وهو إما إعادة الخلافة إلى بغداد ، والدليل على ذلك أنه استدعى إلى دمشق بعد نصرته العظيم في واقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية أحد أبناء البيت العباسي بالشام ، واسمه أبو العباس أحمد ، وبايعه بالخلافة وزوده بالجند ، ورجع هذا الخليفة من عند قطز إلى العراق وانتصر فيها على شرذمة من التتر وافتتح الأنبار وغيرها - ثم حدث أن اغتيل قطز فأرسل السلطان الجديد وهو بيبرس إلى أبي العباس أحمد يستدعيه إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ تلك المرة إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم كان قد سبقه إلى بيبرس - ولابد أنه أعلن أولويته وجدارته لمنصب الخلافة .

لزام هذا السباق بين هذين العباسيين فضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش ، وكان خارجاً عن طاعة بيبرس ، وقد بايع الخليفة أيضاً كثير من زعماء حلب - ثم أخذ أبو العباس يعد مشروع العودة إلى العراق وقصد بما اجتمع إليه من أمداد زوده بها أمير حلب إلى مناوشة التتر مرة أخرى ، وأقام هناك .

أما أبو القاسم فقد وصل إلى القاهرة ، وتلقاه بيبرس وأنزله بقلعة الجبل ، وبالغ في إكرامه وأحضر العربان للتعرف عليه وإعلان تسلسله من العباسيين وعقد مجلس عام أعلن فيه أن الأمير أبو القاسم ابن الخليفة الظاهر العباسي وبويع أبو القاسم بالخلافة ، كما بايع أبو القاسم السلطان بيبرس ، بأن يكون سلطاناً على البلاد الإسلامية وما يضاف إليها . ثم كتب بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب في سائر الممالك ، بأن يأخذوا البيعة على أنفسهم وعلى من قبلهم للخليفة

الجديد ، وأن يدعى للسلطان بعد الخليفة ، وأن تقمض النقود باسمهما - وأخذ
بيبرس يحجز الخليفة بالجيوش لاسترجاع الخلافة إليه .

ويقال إن ما أنفقه بيبرس لا يقل عن مائون دينار . وخرج السلطان مع
الخليفة إلى دمشق ، وفي عزمه أن يكون عدد الجيش الخلفي ١٠ آلاف فارس
من عنده - غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان بدمشق أن الخليفة إذا
استقر ببغداد نازع دولة الماليك وأخرجهم من مصر ، فأوجس بيبرس خيفة
ولم يحجز الخليفة بأكثر من ٣٠٠ فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد إلى العراق
حيث انضم إليه ٤٠٠ فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم في أول
أمره ، كما لحق به أعداد من حماة والموصل ، وتقدم الخليفة بهذا العدد القليل
إلى مشهد على بأطراف العراق حيث وجد منافسه أبا العباس أحمد في ٧٠٠ فارس
من التركان ، فاتفقا على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، وتقدما معاً شطر
بغداد يريدان محاربة التتر ، وبالقرب من بلدة هيت إنلقى التتر بالعباسيين ، وكان
أمراً مقضياً إذ غلب ذلك الجيش ، وفقى معظمه ، ولم يفلت سوى أبي العباس ،
أما الخليفة المنكود فلم يعرف عنه خبر .

وسواء أُرسل الظاهر بيبرس يستدعى أبا العباس إلى القاهرة أم لم يرسل ،
فإن المعروف أن هذا الأمير العباسي وصل إلى دمشق بعد واقعة هيت بشهر
فقط ، وخرج منها إلى مصر ، واحتفل به بيبرس وأنزله في قلعة الجبل ، كما فعل
مع الخليفة أبي القاسم .

على أن السلطان بدأ يفكر في إقامة الخلافة العباسية في مصر وأنه ترك فكرة
إقامتها ببغداد — ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبي العباس بالخلافة كما فعل مع
منافسه السابق ، فقرىء نسب أبي العباس على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة
ولقب بالحاكم بأمر الله وبايعه السلطان بذلك ، ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده
أمور البلاد الإسلامية وخطب للخليفة الثاني على منابر القاهرة ودمشق
ومكة والمدينة .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، وأراد بيبرس هذه
المرّة أن يكون الخليفة تحت عينه بالقاهرة — ولم يرد بيبرس بذلك أن يخلق

في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته ، بل أراد أن يكون الخليفة سلطة نافعة فحسب يستمد منها ما يحتاج إليه من الحماية الروحية والمركز الشرعى ، وبدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة أن يكتب اسم الخليفة على السكة وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة الذى عرف فيما بعد ببرج الخليفة — ولم يترك له غير الدعاء فى الخطبة .

على ذلك لم تكسب الخلافة العباسية إلا كسباً زائفاً ، إذ كان سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت يفرضون لأنفسهم — حتى الفتح العثمانى — مركزاً ممتازاً بحجة أنهم حماة الخلافة ، وصارت القاهرة مركز العالم الإسلامى وذلك فوق مركزها التجارى .

واستمرت الخلافة العباسية فى دولة المماليك قانعة بذلك القسط الطفيف من السلطان والنفوذ ، ولم يفكر أحد من الخلفاء فى توسيع نفوذه ، بل قنعوا بالتضييقات التى أحدثها قلاوون حين حُوِّلت الخلافة إلى قلعة ثانوية بعيدة عن القلعة وهى قلعة الكيش بالبغالة الحالية ، غير أن الخلافة العباسية بدأت تتحرك فعلاً للانتقام من بيت قلاوون فى أيام الناصر محمد ، حينما مالت إلى أحد السلاطين الذين تخللت عهودهم أيام هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعزقت الخلافة فى شخص القائم بها بعد عودة الناصر إلى السلطة مرة ثانية فى أوائل القرن ١٤ م .

وبقيت الخلافة على هذا الضعف تحت رقابة دائمة حتى انتهى عصر الناصر محمد فى أواسط القرن ١٤ م ، وتولى الدولة المملوكية سلسلة أبناء البيت ، والقلاوونى وعملت الخلافة العباسية جهدها للانتقام من أبناء هذا البيت ، وكان آخرها ما استطاعته من خلع آخر أبناء ذلك البيت من السلطة المملوكية فى أواخر القرن ١٤ م مما أدى إلى انتهاء دولة المماليك الأولى سنة ١٣٨٢ م وقيام الدولة الثانية (المماليك البرجية) .

وحاولت الخلافة فى عهد الدولة الثانية أن تجمع بين السلطة والخلافة معا لكنها فشلت فى ذلك ، وبقيت هكذا على حالها من الضيق حتى حدثت لها النقلة الثانية من القاهرة إلى اسطنبول بعد فتح الأتراك العثمانيين لمصر وإزالة الدولة المملوكية بها .

أسلوب الجدل في القرآن

للمؤلف: الشيخ عز الدين اسماعيل

يلاحظ كل من قرأ القرآن الكريم وتدبره ، وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ، أن قواعد الإيمان وأصوله التي هي لباب الدين الخفيف وجوهر الدعوة ، لم تعرض في القرآن بشكل تعقيدى جامد ، يأخذ الناس بالشدة ، ويقسروهم على قبول تلك المبادئ أو الأصول قسراً دون ما إجمالة للفكر ، وإعمال للذهن ، بل على العكس من ذلك تماماً ، إذ هو ينزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأخذ والرد ، أو قل إلى منزلة الجدل والمناقشة .

فوجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، والحياة الآخرة ، والبعث ، وما شاكل ذلك من تلك الأصول ، نجدوها جميعاً تعرض لا بصورة إلزامية وحسب ، ولكنها تعرض في صورة جدلية وأسلوب حجاج لا نقرر جديداً إذا قلنا إنه مفهم ومقنع وبالتالي يكون ملزماً ؛ ولكن الإلزام هنا عن بيّنة وبعد أفتناع واقتناع .

ولا نقرر من صفات القرآن جديداً إذا قلنا إن هذا الجدل يعرض على ذهن كل إنسان - مهما اختلف الناس في ثقافتهم بين السداجة والعمق - فيجد فيه مقنعاً أى مقنع ؛ بل أكثر من هذا ، فظنى أن هذا الجدل لم يكن في صورته المختلفة ليحدث في العقول الاقتناع لحسب ، بل كان يصحبه - وما زال - لون من الإيمان عميق ، نتيجة رضى وارتياح نفسى تحدثهما الحجّة وأسلوب الحجّة جميعاً . وما وقع لجبير بن مطعم من أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور . فقال : لما بلغ الرسول هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض ، بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك ، أم هم المصيطرون .. » ، قال : كاد قلبي أن يطير ؛ وذلك أول ما وقر الإسلام

في قلبي ^(١) - فهذا مثل ملبوس لما كان يتركه هذا الأسلوب الجدلي في النفوس من أثر، وما كان يحدثه، من تعميق الإيمان في القلوب . وإذا كنا لا نستطيع أن نقرر أن عقلية العرب إبان الدعوة كانت آخذة بأسباب الفلسفة والكلام مثلما صارت إليه في العصر العباسي مثلاً، فإن صور الجدل التي نزل بها القرآن هي الصور التي كانت توائم عقلية العرب التي لم توغل بعد في الفلسفة أو الكلام وإن صلحت فيما بعد لأن تكون مادة طيبة عندما تفلسفت العقول وأخذت بأسباب الكلام . وهنا لا يملك الإنسان إلا أن يشهد ويسجل لوناً من ألوان الإعجاز من رب القوى والقدر . والسيوطي لا يبعد عن هذا حينما يذكر لنزول الجدل بهذه الصورة هذين السببين :

أولاً : بسبب ما قاله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

ثانياً : إن المسائل إلى دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن مَنْ استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الاغرض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملفزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أنبائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء .

والآيات الجدلية في القرآن معنية بجوانب ثلاثة هامة وبارزة، أولها وجود الله ومعرفته، وثانيها وحدانيته، وثالثها الخلق أو الإنشاء والإعادة أو البعث وهذه الجوانب — كما سبقت الإشارة — أصول جوهرية في العقيدة نعرض لها فيما يلي .

أولاً . فيما يختص بمعرفة الله اثبات وجوده تصادفنا تلك الصورة الرمزية الرائعة المتمثلة في قصة إبراهيم عليه السلام . وإذا قال إبراهيم لآبيه آذر أنتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما

أفل قال لئن لم يهتدي ربي لا كون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهى للذى فطر السماوات والأرض خفيفاً وما أنا من المشركين ، فهذه الطريقة يرتقى العقل إلى معرفة الله الحق ؛ فلا هو الكوكب ، ولا هو القمر ولا هو الشمس الأكبر ، ولكنه هو الذى فطرهن جميعاً وفطر السماوات والأرض . وفى ذلك تصوير دقيق لاستنباط العقل وجوده الثابت الدائم من المتغير ، الحائل ، وإتنا لنقرأ هذه الآيات « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » فنقرأ فيها الأدلة المسادية والبراهين الملبوسة على وجود الخالق المبدع ، وهذا من باب معرفة العلة بطريق المعلول ، « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض .

ويهمنا أن هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح فى التدليل قد انطوى على مادة فلسفية أشبعت عقلية كعقلية ابن رشد بعد ذلك ببضعة قرون ، فاستنبط منها ما سماه دليل الاختراع والخلق ، أى إبداع الأشياء ، ودليل العناية Providence أى خدمة هذه المخلوقات لتحقيق غاية . وعلى هذا الأساس تدبر قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شئ... » الآية ، وقوله . « راجع سر ٣١ آية ٢٠ ، ٢١ .

ثانياً : وبالمبدأ العلى البسيط يعرف كل إنسان أن لكل موجود موجد ، ولكن لم لا يشترك أكثر من موحد فى إيجاد الشئ ؟

الجواب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، لأنه لو كان للعالم صانعان لسكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ، ولسكان العجز يلحقهما أو أحدهما . وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق ، أو لا متناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، وإلا لاله لا يكون

عاجزا^(١) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض . »

ثالثا : ثم لننظر أخيرا كيف قدم الحجج الباهرة لمن أنكر البعث كالدهر بين القائلين « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، س ٢٣ آية ٣٧ . لقد دلل سبحانه وتعالى على إعادتهم وبعثهم من جديد بأن الذى يبدأ الخلق فى قدرته أن يعيده ، فهنا تقاس الاعادة على الابتداء كما صور ذلك تعالى فى أول سورة الحجج « يأياها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، فى هذه الآيات دليلان ، الأول نجده فى أنفسنا حيث كنا ترابا ثم نصير إلى الموت ، والثانى فى تلك الأرض الهامدة الميتة حتى إذا نزل عليها الماء دبث فيها الحياة وأنبتت نباتا حسنا . وهكذا فى الأرض أدلة وآيات ، وفى أنفسنا أدلة وآيات لا تترك مسرعا للشك ، ولا مجالا للمكابرة . وانظر إلى هذه المقدمات فى سورة ق : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، ، فهل يخالج نفسك شك فى هذا ؟ فإذا آمنت — وإنك لا تملك إلا أن تؤمن — بهذا ، فكذلك يكون البعث ، أو « كذلك الخروج ، وعلى هذا النحر تستطيع أن تندبر فى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ... الخ ، الآيات ، آخر يس . »

هذه هى النواحي الثلاث البارزة فى الجدل القرآنى . ولا أحسبك وقد أمررت عليها ذنك ، ولبثت معها قليلا ، إلا قد أدركت مغزى قول جبير بن مطعم « كاد قلبى أن يطير ، . وأى رفيق بالعقول ذلك الذى طالعه فى قوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ، ! لقد أخذ بهذه البساطة في الحجة وقوتها مع ذلك ونصاعتها . ولو استطاع الإنسان أن يقرب ذلك بصورة من الصور لتمثلت له صورة مرب كبير يأخذ الاطفال باللين والرفق ، وإذا اختلفوا معه قال : « يا أبنائي الاعزاء رويدكم ! وهيا نتفاهم ، - وجل الله تعالى عن المثل : وألست تحس بتلك الشفافية في قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ليمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » يقول ابن الاثير « متعباً ، ألا ما أحسن مأخذ هذا الكلام والطفه ، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبته يعود عليه ولا يتعبده ، أو يكون صادقا يصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له . هذا وفي الكلام من حسن الادب والإنصاف (١) ، وأين إذن يكون حسن الادب في المجادلة ، والإنصاف في الحكم ، إن لم يكن في كتاب الله الكريم ؟

ولنتبين مع ابن الاثير قوله تعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذا قال لآبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . » يقول ابن الاثير : هذا كلام يهز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ؛ وهو أنه لما أراد ابراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل ، رتب الكلام منعه في أحسن نظام ، مع استعمال المجاملة واللفظ والادب الحميد والخلق الحسن مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطيئته منبه على تماديهِ موقظ من غفلته ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب والعقاب ، وأنه بعض الخلق يُستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق

كالملائكة والنبين ، فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ؛ ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترقفاً به فلم يسم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن مى لطائفه من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بهدابة الطريق دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل . ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك ، وهو عدوك وعدو أبىك آدم ، هو الذى ورطك فى هذه الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة . ثم ربح ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولكنه قال إنى (أخاف) أن يمسك (عذاب) فنكر العذاب ملاطفة لآييه . وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله . يا أبت توسلا إليه واستعظافاً (٢) .

وأخيراً ، فعلمه لم يعد خافياً أنه من أراد أن يتعلم أسلوب المجادلة وآدابها وطرقها المنطقية والفنية ، فعليه أن يقرأ القرآن ، ويتدبر ، ويدىم النظر ، ليستخلص العبر وليجد غذاءه القلى والنفسى موفورين .

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام زجل :

يسكنى قليل كلامه وكثيره تبت اذا طبال النضال مصيب

وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً :

طيب	بداء	فنون	الكلام	فلم	يعى	يوما	ولم	يهذر
فان	هو	أطنب	فى	خطبة	قضى	للمطيل	على	المنذر
وان	هو	أوجز	فى	خطبة	قضى	للمقل	على	المسكر

فِعَالُ الْمُؤَلِّفَاتِ ابْنِ سَيْنَا

مؤلفات ابن سينا

ابن سينا من أشهر فلاسفة الإسلام إن لم يكن أشهرهم جميعاً . فقد وعى كل ما يمكن أن يعنيه حب للعلوم من المعارف التي كانت رائجة في زمنه ، وألف فيها كتاباً أو أكثر ، وهو معدود واحداً من الأفراد القلائل الذين جمعوا الثروة العلمية للعالم الإسلامي ، وتركوها أثراً قيماً لمن بعدهم . فلا غرو بعد هذا أن يبقى اسمه حياً في أفواه المتعلمين ، وقد يتعداهم إلى الاميين أيضاً ؛ فإنه كما ألفت في الأفلاك وحركات النجوم والكواكب ، ألفت في الفلسفة والطب والعلاج ، وتناقل الناس ما كتبه ، وعنوا به عناية خاصة لما كان عليه من الشهرة والتفوق . وقد لقبه العلماء بالشيخ الرئيس لفضله ووزارة علمه . كان تركي الأصل ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى ومنها أخذ ينتقل في المدن طلباً للعلوم ، وتصيداً للمعارف . وقد عد له المحصون نحو مائة مؤلف في جميع العلوم . وقد اهتم العالم بتلك الكتب وتناسخوها لما حوت من نفائس المعارف ، وقد شغل العارفون بذلك في جميع مراكز العلم بعد وفاته إلى يومنا هذا . وقد نسب إليه بعض مروجي الكتب مؤلفات ليست له لتروج بين الناس ، وتنبه العلماء لهذا التدليس فتبعوه في كل زمان وفي كل بلد بعد وفاته ، لتخليص مؤلفاته من الدخيل ، وقد وفقوا إلى ذلك بما بذلوه من جهد ومثابرة . وقل من أتعب عشاق العلم بعد وفاته ، كما أتعبهم ابن سينا ، ولكن ذلك يرجع إلى سمو مؤلفاته ، واستحقاقها لتجربتها مما ليس منها إبقاء على الثقة بها ، والتعويل عليها .

فلما أزف وقت إقامة مهرجان لابن سينا في هذا العام أو ربيع الذي يليه ، انتهزت الإدارة الثقافية من جامعة الدول العربية هذه الفرصة لاجل أن تجمع أكثر ما تستطيع جمعه من مظانه في أقطار الأرض ؛ فبعثت بعثاً إلى تركيا وإيران وأسمانيا ليمكنوا مندوبيها من أخذ صور ما عساه أن يكون لديها من مؤلفات هذا الفيلسوف الإسلامي الفذ ، وقد ألفت في مصر لجنة لجمع المؤلفات التي تطبعها الأمم المتحدة بذلك لابن سينا ، وترتيب البحوث والخطب التي تلقى في المهرجان المنوى لإقامته احتفالاً بذكرى ابن سينا في ذلك المهرجان . فكان أول ما يجب على لجنة المهرجان عمله هو أن تحصى مؤلفات ابن سينا وتدل على أماكن وجودها ، وقد وكلت عمل هذا الإحصاء إلى الأستاذ المستشرق الضليع الأب جورج شحاتة قناتي ، وكلفته حصر هذه الكتب في جميع المكتبات المشهورة ، وخاصة مكاتب استانبول التي جمعت من مؤلفات ابن سينا أكثر مما جمع غيرها ، وكلفته فوق هذا أن يصف هذه الكتب ويقسمها إلى موضوعاتها ، وأن يرتبها بحسب تواريخ ظهورها . وهذا تكليف تنوء به الجماعة فما بالك بفرد . ولكنك رغماً عن المشاق التي تعترض سبيله ، والمتاعب التي يجب تحملها للوصول إلى غرضه ، فانه قد وفى بما عهد إليه . وإنى أدعه يحدد مدى عمله بقلمه فقد كتب في كتابه الذي بين يدي يقول :

« إنى لم أتوخ بعملى هذا أن أصل إلى موسوعة جامعة تحوى كل ما يخص ابن سينا ، ولا أدعى أن ما أقوله هنا هو الكلمة القاطعة في المشا كل العديدة التي تواجه الباحث المهتم بإنتاج ابن سينا . فعلى أكثر تواضعا من هذا وذاك . إنى أريد فقط أن أضع بين يدي الباحثين بعض الوثائق الخاصة بإنتاج ابن سينا ليستطيعوا على ضوءها أن يتابعوا أبحاثهم . وبمعنى أدق أن أحصر جميع مؤلفات ابن سينا ، مطبوعها ومخطوطها ، وأن أشير إلى محتوياتها ومظانها ، وإلى المواضع التي بها هذه المخطوطات ، مع وصفها على قدر ما تتسع له طاقتي .

« وما يجعل هذا العمل ذا أهمية إنى رجعت فيه إلى مخطوطات الآستانة التي أتبع لى أن أراها في زيارتي إلى تركيا سنة ١٩٤٩ . ففي الآستانة من مؤلفات ابن سينا القسط الأوفر ، إذ هناك ما يربو على الآلاف والخمسمائة مخطوط لابن سينا ولا يخفى أن الإطلاع عليها أمر أساسى لعمل كهذا ، . ولقد كان شعورى منذ

البدء أن يكون محور مجهودى مخطوطات الاستانة ، ولقد قلت هذا فى لجنة ابن سينا فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، فرحبت اللجنة بهذه الفكرة ، وكلفتنى أن أقوم بمحصر مخطوطات الاستانة حين إقامتى مع البعثة العلمية للمخطوطات التى أرسلت إلى هناك .

ثم أخذ يبين ما مهد سبيل البحث له وأفاض فى ذلك ، والمطاع على العمل الذى قام به ، والتدقيقات التى استخدمها لضبط أرقامها ، وتعيين موضوعاتها ، يدرك لأول وهلة المشقات التى كابدها ، والمجهودات التى بذلها ، ويجد نفسه مدفوعا إلى شكره عليها ، والثناء عليه من أجلها . فهى والحق يقال خدمة للعلم والحكمة قل من يكابد مثلها فى سبيل خدمة العلم والحكمة فى زماننا الراهن . فارجو الله أن يثيبه عليها ثواب العاملين المخلصين ، وأن ينفع بها طلاب المعرفة ، وهو الغرض الذى توخاه من القيام بحقها ، والجزء الذى يرجوه عليها .

تاريخ داريا

هو مؤلف تاريخى نفيس للقاضى عبد الجبار الخولانى رحمه الله ، عني بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق بعناية الاستاذ اللغوى النابه سعيد الافغانى .

أما داريا فهى أكبر قرى الغوطة الجنوبية لدمشق تبعد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوبا إلى غرب ، ويبلغ عدد اهلها خمسة عشر الفا وقد كانت فى أكثر العصور حاضرة العلم والادب . لذلك عني بأفراد كتاب لتاريخها القاضى عبد الجبار الخولانى فى نحو سنة (٣٦٥) وترجم فيه لسبعة وأربعين من أهل الحديث فى داريا ، وهو عدد قليل لم يستوف ، فأين هو مما كتبه عنها ابن عساكر وهو يقع فى ستة اجزاء ؟ وهو كتاب يحتوى على فوائد مركزة ومزايا علمية لا توجد فى غيره ولذلك رأى المجمع العلمى العربى ان يأمر بطبعه فكان ما اراد وله الشكر . ولا يجوز أن ننسى فضل الذى عني به وهو الاستاذ الجليل سعيد الافغانى فقد انفق من الجهود المشكورة ما يجعل كل قارىء يعجب بما خدمه به من التحقيقات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِجَلٍّ

الكهانة أيضا

نعود اليوم لمناقشة ما كتبه حضرة الاستاذ خالد محمد في كتابه (من هنا نبداً) فنقول :

قال حضرته : « والآن .. نقدم بهذه الاسئلة : « ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟ ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟ ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعي يريده المجتمع ، ويتضرع شوقاً إليه ؟ » .

نقول : لم نر نحن ولم نسمع ولم ير غيرنا ولم يسمع أن واحداً من العلماء تصدى يوماً من الايام لدعوة الناس إلى الفقر ، أفلم يكن من الحكمة في مثل هذا المقام الخطير أن ينقل عنه بعض ما قال حتى لا يتهم بأنه يكيل التهم جزافاً ، ليرد عليها ، توسلاً لقول ما يريد أن ينشره من المبادئ ، كما يفعل القصاصون . إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه ، كره الفقر واستعاذ منه في حديث مشهور ، نقله أئمة الحديث ، فهل يجرؤ عالم إسلامي أن يمدحه ويتخذ ذلك مذهباً له ينشره بين الناس ، وفي عهدنا هذا ؟

وأى عالم ديني يسخر نفسه للدفاع عن مصالح الكبار ، وفي أى مجلة أو جريدة أو كتاب نشر هذا الدفاع ؟

وما هو التحول الاجتماعي ... الذي يريده المجتمع ويحول رجال الدين دونه ؟ كل هذا كان يجب بيانه للناس ليكون لكلامه وقع في نفوسهم وتأثير في عقولهم . أما ما نقله عن (ولز) وحاول الاستاذ أن يجعله مثلاً للأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، فطلب بعيد المنال ؛ فإن الفرق بين ما عليه المسلمون ، حتى عامتهم ، من العقائد الدينية ، ونظمهم الحكومية ، وروابطهم الاجتماعية ،

ووجهاتهم الأدبية ، وخاصة في هذا العصر ، لا يمكن أن يقارن بما ذكره (ولز) عن سلطان السكمان قبل آلاف السنين !
يقول الأستاذ خالد مستهزئاً :

« ليس من الإنصاف أن نظلم السكمان فننعتها بالجمود المطلق ، فإن لها مرونة خارقة تمدّها دائماً بإمكانيات التفاعل مع التطور ، وتلبّي بها حاجات المجتمع . ماذا يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى السكمان اشتراكية جاهزة ، وهم مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا في ظلّها أعزة شاخنين كرماء ! تلك هي اشتراكية الصدقات ! فالصدقة في نظر السكمان نظام اقتصادي وافي الخ . الخ ، يقول الأستاذ : يريد الناس اشتراكية وعدالة ، ونحن نقول : أما العدالة فلنسا نتكلم فيها فهي الغاية السامية لجميع الخلق ، ونحن هنا كغيرنا نعظم شأنها ونطلبها ؛ ولكن الناس عندنا لا يطلبون الاشتراكية . نعم لدينا حزب اشتراكي وله جريدة تنشر مبادئه ، ولكن لم ينتخب من أعضائه أحد للبرلمان ، وقد رشع حضرة زعيمه نفسه لمجلس النواب مرات ، فلم يحصل على الأصوات الكافية ، لا نقول هذا تحقيراً له فهو محام فاضل ، ولا للمبادئ التي يدعو إليها ، ولكننا نقوله تدليلاً على أن هذه الأمة لا تروج فيها الدعوة إلى الاشتراكية . وليس في مجلسي البرلمان عضو واحد يمت إلى الاشتراكية بسبب ، فكيف بعد هذا يستطيع أن يقول الأستاذ خالد : إن الأمة تريد الاشتراكية ؟ بل ليس في العالم المتمدن كله غير روسيا والأمم الواقعة في دائرة نفوذها هي التي يسود فيها هذا المذهب ، ولكن بقية العالم المتمدن ليس للاشتراكية فيها شأن خاص ، فهي هنالك تعتبر حزباً من الأحزاب عدد أعضاء نوابه في مجالسها النيابية أقل من ربيع مجموعهم . فإذا كان هذا شأن أوروبا في تقدير الاشتراكية ، فهل يتصور أن تكون البلاد الإسلامية أكثر تقدراً لها منها ؟

أما قول الأستاذ خالد مستهزئاً : « فالصدقة في نظر السكمان نظام اقتصادي وافي ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر ، وإسعاد الشعب ، ومطاردة متاعبه وشقائه ، وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان في كل مناسبة حتى تمكاد تشك هل أنت في مجتمع أو ملجأ ! » . ونحن نذكر المقصود من كلفة الصدقة هنا ونبين وجه اعتماد المصلحين الاجتماعيين من المسلمين عليها فنقول :

المقصود بكلمة الصدقة هنا (الزكاة) المفروضة على الاغنياء لتنفق في حفظ اتزان الطبقات الاجتماعية ودرء عللها ؛ وأشد هذه العلل وقوع طائفة كبيرة منها في إقلال لا يمكنها من توفية حاجات حياتها ، ولا حماية وجودها من شرورها ؛ فيكون حقاً على الموسرين من إخوانهم أن ينزلوا عن جزء من أموالهم لتلك الطبقات لتتفادى غوائلها ، فهو حق طبيعي لهم باعتبار أنهم جزء من الهيئة الاجتماعية ، التي لا يتأتى لها أن تقوم برسالتها إلا بتضامن طوائفها ، وتكافل جماعاتها .

وقد فطن الأوروبيون لهذا الأمر الجلل في القرنين الأخيرين ، فعملوا جاهدين على القيام به ، فبدأوا بزيادة أجور العمال ، لحماية أسرهم من الغوائل الطبيعية ؛ وما زالوا يترقون فيه تحت حافز من مطالبات الطبقات الدنيا بالانصاف ، حتى بلغوا فيها شأوا بعيدا ، من أظهر آثاره ما قرروه من الإتاوات على رؤس الأموال وسموه بضريبة الضمان الاجتماعي ، وحقوق أخرى فرضوها على أصحاب الإيرادات الضخمة بلغت في بعض الأمم نحو تسعين في المائة من تلك الإيرادات . ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن ، ولاندلعت السنة نيرانها من ناحية الطبقات المحرومة من المال .

ومن يتأمل بعلم يجد أن ما استخدمه الأوروبيون من هذه الوسائل القيمة من الضرائب المختلفة ، سبقهم إليها الاسلام بتكليفه الاغنياء بدفع (الزكاة) عن أموالهم . وقد سماها بالصدقات تحببها لأدائها إلى نفوسهم ، ومما يدل على أنها ليست من نوع الصدقات التي تمنح للفقراء والمعوزين أنها إجبارية ، والصدقة اختيارية ، وأنها لا تجب كما تجب الزكاة بواسطة عمال الدولة ، فهذه ضريبة حكومية واجبة التحصيل ، ولو أدى تحصيلها إلى ارافقة الدماء . حتى إنه لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخلافة ، أضربت بعض القبائل عن دفع الزكاة . فعزم أبو بكر على أن يجبرهم على دفعها ، وأخذ في إعداد العدة لذلك . فيكلمه عمر بن الخطاب في الأمر ، ورجاه أن يتمد في تنفيذ ما أجمع عليه خشية أن تثور القبائل وتصبأ عن الإسلام وهي قريبة عهد به ، فقال له خليفة رسول الله . والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ؛ وما عثم حتى أرسل إليهم بالجنود تترى ، وقاتلهم وأراق دماهم في سبيل تحصيل الزكاة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الزكاة ركناً من أركان إقامة الدولة . مثلها كمثل الضرائب التي تقاضاها الدول عن الأراضي الزراعية وعوائد الأملاك الخ .

وعلى هذا فيكون الإسلام قد سبق العالم أجمع إلى وضع ضرائب على الاثرياء
تجبي منهم لسد مفارق الاجتماع ، ورأب صدوعه ، بتفاوت الناس في درجات
الكسب . والحكمة في ذلك هي أن الاموال تجر الاموال ، فلو ترك الاغنياء
وشأنهم ، امتصوا بقوة وسائلهم معين الثروة الاجتماعية ، ولم يتركوا للفقراء
إلا الأوشال ، ففسدوا حالهم ويتأخرون عن شأو غيرهم من الموسرين ؛ ولا يزال
يتسع الفرق بين الغريقين حتى يصبح الفقراء مستعبدين للأغنياء ، ففسدوا حالهم ،
وكثيرا ما يحملهم الإملاق على الثورات ، فيختل نظام الجماعة ، ويعتل وجود
الامة ؛ ثم ما هي إلا بضعة مصادمات يتخللها ضروب شتى من النهب والسلب ،
حتى يعم الجميع الخراب .

من هنا ترى أن (الزكاة) نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات
الجماعة ، كان الإسلام أول واضع له ، وهو من أقوى الأدلة على أن الشرع الإسلامى
وحى إلهي ، وضع لكل موطن من مواطن الضعف في الجماعات الآخذة به علاجا
يتقى به شرور الانحلال والتلاشي ، فإنا نحن بصدد من أمر الصدقات وهي الزكاة
يجب أن يعتبر آية موجبة لإكباره ، وباعثة على تأييده وإجلاله .

ولو عملت الحكومات الإسلامية بما شرعه الإسلام من تحصيل ضريبة
الزكاة ، لبلغ إيرادها منه ملايين كثيرة من الجنيئات تسد خلة الفاقة في الطبقات
الدنيا من الجماعات ، وتؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت إليها في العهد الأخير
الحكومات الأوروبية لانتفاء شرور الإقلال ، الذي تتعرض له الطبقات المحرومة
من المال في الجماعات ، ولأمكن بواسطته أحداث التعادل بينها على نسبة لاندع
للفقراء عذرا في زعزعة أركان الاجتماع ، والتألب على قلب نظمه التقليدية ،
وتفكيك عرى وحدته العمرانية .

ومن العجب العاجب أن الأستاذ مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) يتجاهل
هذا كله ، ويمضى كأنه يعتبر أن الزكاة التي عبر عنها الشارع في بعض المواطن
بالصدقات ، من النوع الذي يرضخ به الأغنياء للفقراء ، وهو يعلم أنه ليس كذلك
أصلا ولا موضوعا ؛ فإن هذا مما يتفضل به المحسنون على المستجدين طوعية بغير
إجبار ، وقد يمتنعون عنه بتاتا فلا يطالبهم به أحد ؛ أما ما نحن بصدد فـهو

(حق معلوم) يجبي بواسطة عمال الحكومة ، ويعاقب الممتنعون عنه . فإن دافعوا عن أنفسهم أجبروا عليه وأخذ منهم قسراً ؛ وله مصارف يوجه إليها ، وقاية للمجتمع من غوائل عدم التوازن بين الطبقات ، فأين هذا من ذاك ؟ ذاك شائع بين جميع الشعوب ، فإن في جميعها محسنين يعطفون على المعوزين ؛ ولكن هذا من موارد الحكومة الإسلامية ، تجنيه بواسطة عمالها ، وتنفقه في صيانة الاتزان بين طبقات الهيئة الاجتماعية ، حتى لا تميل كفة الميزان بواحدة منها فيختل نظامها ، وتصبح حرباً على الموسرين .

ولكن الأستاذ المؤلف يستغل هذه المغالطة إلى أقصى حد فيقول :

« معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي ، لم تكن الصدقة (ولا يقول الزكاة) في حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب .. بل هي شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرق ، ولكنها لا تعالج مستوى الهبوط المعيشي للأمم والجماعات . »

تشدد الأستاذ صاحب (من هنا نبدأ) تشدداً كبيراً في تحقير الصدقة ، وأطال في تحقيرها حتى قال متابعاً طريقته : « إنها أوساخ الناس ، إنها غسالة ذنوب الناس . فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسلات والأوساخ ؟ إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات . »

وبعد هذه الثورة الشعواء التي لا موجب لها على الصدقة ، ولم يقل أحد بأنها مصدر كسب شريف ، أو وسيلة أريستوقراطية للمعيشة ، بل هي محتقرة حتى لدى الفقراء أنفسهم ، تدارك موقفه فقال :

« وكانت الصدقة في عصر الرسول ، وفي لغة القرآن ، تعني (ضريبة مفروضة) هي ضريبة الزكاة ، التي نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، » وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات ، فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات . » ثم قال : « إن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل

الاختلاف لانها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان .

بعد ما اعترف الاستاذ خالد أخيرا بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) وأنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف ، عاد فقال :

« فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والاوزاخ ؟ »

فهل من المنطق السليم أن الاستاذ بعد ما يفرق بين الصدقة والزكاة ، ويعترف بأن مراد القرآن منها في موضوع الزكاة أنها (ضريبة مفروضة) ، وبعد ما يصرح المصلحون المعاصرون أنهم إنما يقصدون بما يكتبون هذه الضريبة المفروضة ، يعود فيقول : « فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة بهذه الغسالات والاوزاخ ؟ » إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها وشيوع العدالة فيها هي الصدقات ، ثم يمتضى فيملا نحو صفحتين من كتابه في تحقير الصدقات وفي أنها أوساخ وأقذار !! .

ألا يعلم الاستاذ أن واحدا من الذين كتبوا في موضوع رفع مستوى الحياة في هذه الأمة وخاصة في العهد الأخير لم يقصد بذلك الاعتماد على الصدقات ، بل على تلك الضريبة المفروضة وهي الزكاة ؟ وإذا كان يعلم ذلك فهل عثر على قول لأحد العلماء أو طلبة العلم أو الشحاذين أنفسهم ، يعتبر التصديق بالقرش والقرشين وسيلة لإصلاح المجتمعات ؟

إذا كان يقول لا ، فما حكمة إسهابه في هذا الموضوع ، ونقل كل ما ورد في تحقيره عن الرسول والأئمة وخاصة المسلمين وعامتهم حتى ملأ به صحفا من كتابه ؟ وإذا كان يعترف بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) على المسلمين ، فهل تعتمد الدول الأوروبية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها على غير (الضرائب) التي تفرضها على الناس لوقاية الاجتماع من شرور الثورات والانقلابات ، ولتحسين حال أهل الإقلال في الجماعات ؟

محمد فريد وهبى

القرآن وقواعد النحو

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

قرأت في جريدة البلاغ كلمة في مقال للدكتور زكي مبارك، يذكر فيها أن القرآن الكريم ربما تخطى قواعد النحو لغرض موسيقى، ودل لذلك بقوله تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول رب لولا آخرتي إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ». والشاهد في قوله : « وأكن ، بالجزم مع أنه معطوف على منصوب هو قوله : « فأصدق ، كما مثل بقوله تعالى « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، حيث كان القياس أن تكون « والليل إذا يسرى ، بإثبات الياء .

وهذا الموضوع : موضوع الزعم بأن القرآن قد تخطى القواعد النحوية ليس بالجديد ، فكثيراً ما نجد بعض المفسرين يخوض فيه مقررراً ما يراه إثباتاً أو نفيّاً ، وقد مر بي قريباً الاشتغال بذلك حينما كنت مكلفاً بالنظر في كتاب « الفرقان ، الذي صودر ، وقد جاء صاحبه بكثير من الآيات التي زعم أن فيها مخالفة للقواعد في معرض الإزراء بالقراءات ، أو التهجين لما فعله الأصحاب في رسم المصحف ، والحمد لله الذي وفق لإظهار شأن هذا الكتاب ، وضعف ما جاء به ، حتى حكم مجلس الدولة برفض طلب التعويض ، وإلغاء المصادرة ، بعد دفاع طويل ومذكرات مختلفة . وقد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل فلا أعود إليه . وإنما أريد أن أقول : إن مَثَل من يقرر أن القرآن قد تخطى قواعد النحو كمَثَل من يقرر أنه تخطى قواعد الأصول ، وكلاهما مخطىء ، لأن الأصول حين يقرر قاعدة ، فإنما يقررها بعد تتبع ما يدل عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، وما يقضى به الفهم فيها ، فإذا أن يكون تتبعه صحيحاً كاملاً فلا نجد خلافاً بين القاعدة التي قررها ، وآية ما من الكتاب الكريم ، وإذا أن يكون تتبعه ناقصاً

فنجد خلافاً بين القاعدة وبعض ما جاء في القرآن ، وحينئذ لا يقال إن القرآن خرج على قواعد الأصول ، ولكن يقال إن هذه القواعد قصرت في التبع أو قصر أصحابها ، وكان عليهم أن يكونوا أدق في وضع القاعدة .

وربما كان الأمر بالنسبة للقواعد النحوية أوضح ، فإن النحو هو القواعد المستنبطة من كلام العرب للأحوال الإعرابية والبنائية التي يكون عليها الكلام ، ولا شك أن القرآن الكريم هو أول حجة في جواز شيء أو عدم جوازه ، وإذا كان بعض القواعد النحوية ليس له شاهد إلا كلمة أو بيت من الشعر نطق به أعرابي ، فما بالك بشيء يحكى به القرآن الكريم .

وأذكر على سبيل الاستطراف ما قرأته قديماً في بعض كتب الأدب من أن الفرزدق كان يمزح مع عبد الله بن إسحق النحوى - فيما أظن - فقال له :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : لقد أخطأت فأصلح خطأك . إنما هي مولى موال ، لا مولى مواليا ، فأجابه الفرزدق على الفور : إن على أن أقول ، وإن عليك أن تضع القاعدة .

يشير بذلك إلى أن الشاعر المحتج بقوله يقول ما شاء على فطرته وسجيته ، ولا يعد قوله خطأ ولا لحناً ، ولو خالف قاعدة مشهورة عند النحاة .

ولذلك يقتصد بعض المتحدثين في هذا فيقولون : جاء كذا على الكثير ، وخالف كذا القاعدة المشهورة ، إلى غير ذلك من العبارات التي لا يفهم منها التخطئة من قريب أو من بعيد .

* * *

بعد هذا ننظر في الآيتين اللتين استشهد بهما الدكتور زكي مبارك لنعلم هل خالفنا القواعد حقاً ؟

قال الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، وهو بصدد الكلام عن قوله تعالى « فأصدق وأكن من الصالحين » : قرأ أبو عمرو : وأكون ، بالنصب ، والباقون : وأكن ، بالجزم . . والحجة — أى حجة القراءتين — أن من قرأ وأكن عطفه

على موضع قوله فأصدق ، لأنه في موضع فعل مجزوم ، ألا ترى أنك إذا قلت :
أخرني أصدق ، كان جزماً بأنه جواب الجزاء ، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط ،
والتقدير : أخرني فإنك أن تؤخرني أصدق ، فلما كان الفعل المنتصب بعد الفاء
في موضع فعل مجزوم بأنه جواب الشرط ، حمل قوله « وأكن ، عليه ، ومثل
ذلك قوله تعالى « ومن يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم ، لما كان فلا هادي له
في موضع فعل مجزوم ، حمل « ويذرهم ، عليه . . ومثل ذلك قول الشاعر :

أَيَّا سَلَكَتَ فَإِنِّي لَكَ كَاشِحٌ وَعَلَى انْتِقَاصِكَ فِي الْحَيَاةِ وَأَزْدَدُ

حمل « وأزدد ، على موضع الفاء وما بعدها ، وأما قول أبي عمرو « وأكون ،
فإنما حمله على اللفظ دون الموضع ، وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره
في اللفظ وقربه .

فمن هذا الذي ذكره الطبرسي في توجيه قراءة الجزم يتبين أن لا خطأ ولا تخطئ
وأزيد ما ذكره إيضاحاً في ناحية ما يشير إليه بقوله إن « أكن ، في موضع الجزم
فأقول : إن إيراد ما قبل هذه الجملة يعين على فهم المراد ، فالله تعالى يقول
في سورة المنافقين :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فهذه الآيات تتحدث عن شأن الإنفاق والتصدق وما يجب على المؤمنين
فيه ، مقابلة بذلك ما جاء قبلها في قوله تعالى عن المنافقين : « هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من هند رسول الله حتى ينفضوا ، والله خزائن السموات والأرض
ولكن المنافقين لا يفقهون ، فهي تبني الصلاح وعدمه في هذا المقام على التصديق
والبذل ، والضمن والبخل ، فمن تصدق وبذل فهو الصالح ، ومن بخل وأبى فهو
المنافق الخادع ، فإذا قال امرؤ حين يأتيه الموت « رب لولا أخرتني إلى أجل
قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، كان المعنى الذي يوحى به السياق ، والذي
يأتي في ذهن قائل هذا الكلام : وإن أصدق وأكن من الصالحين ، وتقدير

الكلام بحسب ترتيب المعنى المفهوم من جو الآيات : أخرنى فإنك إن أخرتني سأصدق ، وإن أتصدق أكن من الصالحين ، فالمراد الربط بين الصدقة والكون من الصالحين ، وليس المراد حصول الصدقة والكون من الصالحين بعد التأخير ، وإنما يقال ذلك في قراءة « وأكون » .

أما قوله تعالى « والليل إذا يسر » فيقول فيه الطبرسي أيضا : « قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي « والليل إذا يسر » بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف ، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف ، والباقون بالحذف فيهما .

ثم وجه هذه القراءات ، فذكر أن قراءة حذف الياء ترجع إلى قاعدة ذكرها سيبويه من أن ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف نحو القاضى بالالف واللام ؛ يحذف إذا كان في قافية أو فاصلة ، قال سيبويه : والفاصلة نحو « والليل إذا يسر » و « يوم التناد » و « الكبير المتعال » فإذا كان شئ من ذلك في كلام تام شبه بالفاصلة ، لحسن حذفها ، نحو قوله تعالى « ذلك ما كنا نبغ » .

بهذا يتبين أن القاعدة لا تضيق عن حذف الياء كما زعم من زعم ، والله المستعان على ما يصفون ؟

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه ، فسمعت أمه هند فقالت : تكلمته إذا لم يسد غير قومه .

ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دمامة شديدة ، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

فقال ضمرة : أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ، وإن قاتل قاتل بجهنان .

قال النعمان : صدقت ، وبحق سوءك قودك .

نزول القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت :
« جاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ
مني الجهد ، ثم أرسلني ، وكرّر ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الأخيرة قال له :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

النزول في الاصل . انحطاط من علو ، يقال : نزل عن دابته : إذا حطَّ
عنها ، ونزل بكذا وأنزله بمعنى ، وإنزال الله تعالى نعمه ونعمه على الخلق :
إعطائهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه ، كما ينزل القرآن ، وإما بإنزال
أسبابه ، والهداية إليه ، كما ينزل الحديد واللباس ، ونحو ذلك ، والفرق بين الإنزال
والتنزيل في وصف القرآن ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه لإنزاله مفرقا ،
والإنزال عام ، وأما التنزيل ، فهو كالنزل به ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزل ،
ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزل .

ويطلق النزول أيضاً ويراد به الحلول في المكان ، يقال : نزل في مكان كذا :
إذا حل فيه ، وأوى إليه .

غير أن النزول بمعنى انحدار الشيء من علو إلى سفلى ، وبمعنى الحلول
في المكان ، والأوى به ، لا تليق إرادته في نزول القرآن من الله تعالى ،

ولا في إنزاله إياه ، لما يلزم هذين المعنيين من صفات الحدوث ، فلا بدّ إذن من استعمال النزول في معنى مجازي ، وقال البعض : إن المراد بإنزال القرآن إظهاره في مكان عال ، ثم إنزال الملك به من ذلك المكان ، وقال آخرون : إن المراد بإنزاله إعلام الملك به ، وإفهامه إياه ، ثم إنزاله بما فهمه ، وقيل غير ذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الأولى والأحسن جعل المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته .

ولما كان نزول القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بالوحي ، لمجيئه من طريقه ، ووصوله في بريده ، كان من الضروري أن نشير إشارة عابرة إلى معنى الوحي وأقسامه وكيفياته وصوره ، حتى يتسنى لنا أن نعرف حقيقة النزول في وضعها الصحيح الأكمل

فالوحي عند أهل اللغة يطلق على الإعلام في خفاء ، وعلى الكتابة والمكتوب والبعث ، والتصويت شيئاً بعد شيء ، وقد يجيء بمعنى الأمر نحو : « وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي » ، وبمعنى التسخير نحو : « وأوحى ربك إلى النحل ، أن سخرها لهذا الفعل ، وهو اتخاذها من الجبال بيوتا الخ » ، وقد يعبر عن ذلك بالإلهام ، لكن المراد به هدايتها لذلك ، والافلا إلهام حقيقة إنما يكون لعقل ، نحو : « وأوحينا إلى أم موسى ، وقد يجيء الوحي بمعنى الإشارة نحو : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ، وقيل : أصل الوحي التفهيم ، فكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة أو إيماء فهو وحي .

والوحي في اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام ، وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : « إن هو إلا وحي يوحى » .

وأما صور الوحي في كيفية نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكروا له سبعة أحوال : أحدها : أن يكون ذلك في المنام ، كما في حديث عائشة : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة . ثانياً :

أن ينفتح الكلام في روعه نفثا ، كما في حديث : إن روح القدس ينفتح في روعي .
ثالثها : أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، كما في حديث : كيف يأتيك الوحي ؟
رابعها : أن يتمثل له الملك في صورة رجل ، كما في حديث كيفية الوحي أيضاً .
خامسها : أن يترامى له الملك في الصورة التي خلقه الله عليها ، سادسها : أن يكلمه الله من وراء حجاب ، إما في اليقظة ، كما كلمه في ليلة الإسراء ، وإما في المنام ،
كما في حديث الترمذي : « أتاني ربي في أحسن صورة ، الحديث . سابعها : وحي إسرافيل ، فقد ثبت بالطرق الصحاح كما في مسند أحمد : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشئ . ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشراً بمكة ، وعشراً بالمدينة ، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة . »

وذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً ، وغالبها من صفات حامل الوحي ، ومجموعها يدخل فيما ذكر من الصور السابقة .

ووحى القرآن كله ، كان بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي تواترت الأخبار من لدن النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا أنه الملك الذي كان يحمل الوحي ، وينزل بالقرآن على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأغلب ما كان يأتيه به على ضربين : أحدهما أنه كان يأتيه به ، فيلقيه عليه كما يلقي الرجل على الرجل ، والثاني أنه كان يأتيه به في مثل صوت الجرس ؛ فأما وحي إسرافيل ، فإنه لم ينزل عليه فيه شيء من القرآن ، والإلقاء في الروع راجع إلى الصلصلة ؛ والتسليم ليلة الإسراء ، كان بلا واسطة ؛ ورؤيته له في صورته التي خلق عليها لم تقع إلا مرتين : مرة عند ما طلب منه ذلك ، والآخرى عند المعراج .

وأما في النوم ، فإن القرآن كله قد نزل في اليقظة ، ولم ينزل منه في النوم شيء ، وذهب بعضهم إلى أن فيه ما نزل في النوم ، واستدل على ذلك بما روى مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا

في المسجد ، إذ أغفى لإغفائه ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، فقال : أنزلت على أنفا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك السكوتر ، فصل لربك وانحر ، إن شائئك هو الأبر ، ، وقد رد على ذلك الرافعي في أماليه ، فقال : هم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفائه ، وقالوا : من الوحي ما يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحي ، قال : وهذا صحيح ، ولكن الاشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة السكوتر المنزلة في اليقظة ، أو عرض عليه السكوتر الذي وردت فيه السورة ، أو تكون تلك الإغفائه ليست لإغفائه نوم ، بل الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ، وتسمى برحاء الوحي ، قال السيوطي : الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه ، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه .

فمن هذا كله تدبين الحالة التي كان ينزل فيها جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه يعلم أنها تمكاد تنحصر في كيفيتين : في الإتيان له في مثل صلصلة الجرس ، وهذه يدخل فيها دوى النحل وغيره مما يقاربه من الكيفيات ، وفي التمثل له بصورة رجل كدحية بن خليفة الكلبي ، والأعرابي وغيرهما .

وهذا كله في نزول جبريل بالقرآن على النبي عليه السلام ، وأما نزول القرآن على جبريل ، وتلقيه له ، فهذا من أنباء الغيب التي لم ترد فيها نصوص ، ولم تعرف لها كيفية ، وكل ما هنالك أقوال للعلماء والباحثين يصح الاستئناس بها ، والاسترشاد بما فيها .

قال الطيبي : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقَّه تلقَّفا روحانيا ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيلقيه إليه . »

وقال البيهقي في معنى قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » : يريد - والله أعلم - إنا أسمعنا الملك ، وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع .

وقال الغزالي : « وسماع الملك وغيره الوحي من الله تعالى بغير واسطة ، يستحيل أن يكون بحرف أو صوت ، لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما

ضروريا بثلاثة أمور : بالمتكلم ، وبأن ما سمعه كلامه ، وبمراده من كلامه ، والقدرة الازلية لا تقصر عن اضطرار الملك وغيره إلى العلم بذلك ، وكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر ، فسماعه الذى يخلقه لعبده ، ليس من جنس سماع الأصوات .

وحكى القرافى خلافاً للعلماء فى ابتداء الوحي ، وهل كان جبريل ينقل له ملك عن الله عز وجل ، أو يخلق له علم ضرورى بأن الله تعالى طلب منه أن يأتي محمداً أو غيره من الانبياء بسورة كذا ، أو خلق له علماً ضرورياً بأن يأتي اللوح المحفوظ ، فينقل منه كذا .

وللقرآن نزول آخر غير هذا ، وهو نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ونزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ؛ فأما الاول ، فيشير إليه قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، ولكن طريقة نزوله إلى اللوح ، وكيفية وجوده فيه ، ووقته ، كل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأما الثانى ، فقد اختلف فيه على أقوال كثيرة ، أشهرها وأصحها أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ، أو فى خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ، ويشير إلى هذا القول قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » ، وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وتؤيده الاخبار الصحيحة الواردة فى ذلك ، والمنقولة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « فصل القرآن فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر » ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى إثر بعض » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا » ، ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم ، إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة ، والأخبار الصحيحة .

وقيل : إنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، أو في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة ، أو في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة في كل ليلة ما يقدر الله تعالى إنزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجما في جميع السنة .

وقيل : إنه ابتدئ نزوله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الاوقات .

والذى يدل عليه استقرار الأحاديث أن القرآن كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا بحسب الحاجة ، وأنه كان ينزل بعض آية ، وآية ، وآيتين ، وثلاثا وأربعا ، وخمسا ، وعشرا ، وأكثر من ذلك . والسرى نزوله منجما تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه بكثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به ، أو تيسير حفظه عليه ، لأنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق نزوله عليه ، ليسهل حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا قارئين وكاتبين ، فيسهل عليهم حفظ الجميع إذا نزل عليهم جملة ، أو لأن القرآن منه الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، وكل هذا يقتضى أن ينزل مفرقا لا جملة .

واختلف في حقيقة المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه اللفظ والمعنى جميعا ، وأن جبريل وهى القرآن من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبي صلى الله عليه وسلم .

وزعم بعض الناس أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن الله تعالى أوحى إلى جبريل بالمعنى فقط ، وأنه هو قد صاغه بلغة العرب في تلك الالفاظ المخصوصة ، ثم نزل به كذلك بعد ذلك . والظاهر أن هذين الزعمين بعيدان عن الحقيقة ، لأنهما يفتحان باب النقول على القرآن الكريم ، ويسهلان إثارة الشكوك حوله ، وينافيان إعجازه الذى يقوم على اتحاد اللفظ والمعنى في نزولهما معا من عند الله تعالى .

وقد قسم العلامة الجويني كلام الله المنزل إلى قسمين : قسم يمحور أداؤه بالمعنى ، وقسم لا يمحور أن يغير منه كلمة ولا حرف ، وقال السيوطي تعليقا على تقسيم الجويني : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جازت رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تمحور رواية القرآن بالمعنى ، لأن جبريل أداها باللفظ ، ولم يبح له أداؤه بالمعنى ، والسرف في ذلك راجع إلى أن المقصود منه التمسك بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه — إلى أن قال : وقد رأيت من السلف ما يعضد كلام الجويني .

ولا خلاف في أن الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن هي ليلة القدر ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وفي أن هذه الليلة كانت في شهر رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وهو الشهر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف فيه بغار حراء ويصومه ، حيث جاءه جبريل وعرض عليه أن يقرأ ، فقال له : ما أنا بقارئ ، فأخذه وضمه إليه ضمما شديدا ، حتى كان له غطيظ يشبه صوته صوت الخنثق ، فلما بلغ ذلك منه غاية التعب والمشفقة أطلقه ثم فعل ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الثالثة قال له : « اقرأ باسم ربك ، الآيات . »

وأما تعيين الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن ، فقد وقع فيها اختلاف كثير ، والجمهور من العلماء على أنها في أوتار العشر الاخير من رمضان ، وروى ابن سعد وغيره أن نزول الملك عليه بحراء ، كان يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ويميل إلى هذا الاخير بعض أصحاب السير والمؤرخين .

كلمتان

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أخلاق

صدق الشاعر إذ يقول : « وإنما الأمم الأخلاق... » ، فإنه مما لا يجوز أن يشك فيه أن قوام الأمم الأخلاق ، فإن تخلصت عنها أصبحت ولا عاصم لها من الضياع والتهدم . وهل أدل على هذا مما وقع ويقع تحت أسماعنا وأبصارنا من أمم تنهار ، وأخرى لا يزيدها الزمن وما يجيء به من بلاء إلا قوة ، ولا الشدائد التي يطير لها قلب الشجعان إلا استمساكا ومنعة ! ومرجع هذا ضياع الأخلاق في الأولى ، وتأصلها وقوتها في الأخرى . هذا حق لا يحتاج لدليل فوق دليل الواقع ، وهو يصدق على الأفراد والجماعات الصغيرة ، كما يصدق على الجماعات الكبيرة والأمم ، وكما يصدق كذلك على دور العلم وما إليها من المعاهد والمؤسسات المختلفة . إن نقيصة خلقية واحدة قد تكون سبباً قوياً في فساد الأمر وشقاء كثير من الناس .

ولنتل ذلك بالكذب ، وبالكذب يقترفه كبير ممن يحب عليهم بحكم عملهم وتربيتهم وثقافتهم أن يتزهوا عنه ، ويصدر عنه بسهولة ويُسر كما يصدر الصدق عن الصادق ، بل ربما وجد ذلك سائغاً لذبا !

تجتمع وبعض الإخوان والزملاء لأمر من الأمور العامة ، ويكون الغرض من هذا الاجتماع الصالح العام ، ويتحدث بعض المجتمعين في إخلاص وصدق مبينين هذا الصالح ومشيرين للوسائل الطيبة التي توصل إليه ، ثم ينتهي الاجتماع والكل مستبشر بما تم وواقع من نجاح القصد . وما هو إلا قليل حتى يتبين

للقائمين بهذا الاجتماع أن ما كان فيه قد تبرع بعض الإخوان بنقله محرراً مبدلاً تقرباً منه إلى الرؤساء ، دون أن يدري كبر ما تولى وإثم ما اقترف ! ودون أن يعلم أن ما نقل كاذباً سيّبين سريعاً كذبه ، وأن العاقبة ستكون حتماً سيئة له وللصالح العام الذي كان يقصده الجميع !

ومثال آخر : يكون لك عند هذا الموظف الكبير أمر هو من عمله بحكم منصبه ، فتذهب إليه معتقداً أن الأمر سهل لا عسر فيه ، وأنت بين أمرين في كل منهما رضى : إما « نعم » ، ثمرة ، وإما « لا » ، مريحة . يتلقاك هذا الرجل بأهلاً وسهلاً ، ويعبدك ويسرف في الوعد بإجابة ما ترجو ، حتى تخرج معتقداً أن ما ترجو صار على طرف الثمام أو حبل الذراع كما يقولون ، وتتم الأيام وأنت دائب السعى وهو دائب التوكيد لما وعد ، ملتصقا كل مرة تَعَلَّة من الإنجاز تقبليها وأنت راضٍ معتقداً أنه صادق كما يكون الرجال . حتى إذا جدد الجدد ، وحان آخر أجل ضربه لقضاء ما ألحفت فيه من أمر ، فرَّ منك وأنكر ما وعد ؛ فإذا بما كنت تعتقد من أمر مقضى صار معضلاً ، وإذا بمصالح تضيق عليك كان من الواجب ألا تضيق !

أيها الكاذب ، أيها الإنسان صورة لاحقيقة ! ليس الكذب إلا جرأة على الله وخوفاً من العبد . إنما يكذب المجرم خوف العقوبة ، ويكذب الخادم خوف السيد ، وقد يكون لهُذين وأمثالهما من الجهل عذر في الجرأة على الله مالك الأمر كله ، والخوف من العبد الذى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً . ولكن ما عذرُك أنت في نقل ما لم يكن ، وفي تحريف الكلم عن مواضعه ، وفي استسهال الكذب واستعذابه ! أقوم أمة وأمثال هذا الرجل ، تجوزا ، كثيرون فيها ، بل ومن يسمع لهم !

رحم الله ابن السماك إذ كان يرى أن الكذب بما لا يتفق مع الأنفة والمروءة حتى لينحشى ألا يؤجر على تركه . ولعمري لقد صدق ابن السماك ؛ فالكذب يجب أن يترك أنفة لأنه لا يلائم القطرة إلى لم يلحقها لؤم ولا دنس ، ولذلك حرّمته الأديان كلها ، بل حرّمه الحكماء وإن كانوا وثنيين لم يأتهم نبى أو رسول .

من الرجولة :

الرجولة وأعنى بها احترام المرء لنفسه وتقدير ما منحه الله له من نعمة الحرية في الإرادة ، فلا يسخر نفسه لغيره تسخيراً يذهب بالكرامة والخلق ويحجب المروءة ، ولا يجعل نفسه عبداً لهذا ، وظلاً لذلك يزول بزواله ، حتى كأنه لا يعرف لنفسه وجوداً مستقلاً كإنسان ورجل ! الرجولة بهذا الفهم أمر يسير كل اليسر تارة ، وعسير كل العسر تارة أخرى . يسير على من يرى أن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً فلا يصح ولا يحمل أن يعودوا عبيداً ، ومن يعتد أن الله مالك الأمر كله ، فهو يعطى ويمنع متى شاء وحده دون أن يكون لأحد من خلقه أمر من الأمور معه . وهى أمر عسير إلى أقصى حدود العسر على من عدت ثقته بالله أو ضعفت ، فهو يرى أن الرزق والنعمة أمور يملكها ذوو الجاه وأصحاب السلطان وحدهم ، يتصرفون فيها كما يريدون بالبسط والإمساك فهو لهذا يبحث عن سيد يملكه نفسه ويتنازل له عن رجولته في سبيل ما ينال منه .

والامة لا تعظم بالملايين التى تضمها من الناس الذين يغدون ويروحون ، بل بما تضم من الرجال وإن كانوا قلة من الناحية العددية .

ليس برجل من لا يستطيع أن يقول : لا ، إذا سيم خطة خسف ! ليس برجل من إذا ضمه مجلس لكبير من الناس قعد منه مزجر الكلب وجعل نفسه بوقاً له يردد ما يقول ويؤمن بما يحدث ويتابع ما يرى ! ليس برجل من يكون مصداق الشاعر الذى يقول :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى

ليس برجل من يقبل عليك مع الدنيا حين تقبل ويدبر عنك معها حين تدبر ، ويناوئك لأن الرئيس تحدى عليك غضباناً !

إنما الرجل من آمن بالله وأنه الضار والنافع ، وخالط هذا الإيمان قلبه وروحه ، فهو يصدع بالحق وإن هدد بالويل والشبور . إنما الرجل من عرف حقاً أن الدنيا عرض زائل فاحتفظ برجولته وكرامته ، ولم يرض لنفسه أن تثلم هذه

السكرامة ولو كان البذل الدنيا بأسرها . إنما الرجل من ينصح لأمته وأولى الأمر فيها إن تلاق لهم أشباه الرجال الذين يدورون مع الريح ويعيرون ما سبق أن اعتقدوا من آراء كما يغير المرء قميصه وجلبابه إن غدا لا يتفق مع البدع !

مثل الرجولة كثيرة يزخر بها التاريخ أيام هز الإسلام ومجده . ومن فضول القول أن نذكر من هذه المثل ما كان من عمر الفاروق وقد أزمع الهجرة بدينه من مكة ، ومراجعته للرسول الذي لا ينطق عن الهوى في أمور نزل القرآن في بعضها مؤيداً لرأيه ، ونحو هذا مما حفظ التاريخ لكثير من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولكني أكتفي من ذلك بمثال واحد فيه رجولة مكتملة .

هذا المثال تراه في محاولة الهادي الخليفة العباسي خلع هارون الرشيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر ، لقد جلس الهادي ، لما صحت منه العزيمة على هذه الفعلة للناس ، وشرع في أخذ البيعة لابنه جعفر وخلع الرشيد ، فبايع مشيخة العرب والقواد ، ثم جيء بالقائد هرثة بن أعين ليبايع فأبى وقال : « إن يميني مشغولة ببيعة أمير المؤمنين ، وشمالى مشغولة ببيعة هارون ، فأبايع بماذا ؟ » فأجاب الهادي بقوله : « تخلع هارون وتبايع جعفرأ » ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل أدين بنصيحتك ونصيحة الأئمة منكم أهل البيت ، وبالله لو تخوفت أن تحرقنى على صدقى إياك بالنار لما حجزنى ذلك عن صدقك ! إن البيعة يا أمير المؤمنين إنما هى إيمان ، وقد حلفت لهارون بمثل ما تستحلفنى به لجعفر ، وإن خلعت اليوم هارون خلعت جعفرأ غداً ! »

هنا استشاط الهادي غضباً ، وأمر بوجيء عنق هرثة ، ثم تاب لرشده واكتفى بإسقاطه من قيادته وإخراجه ملوماً مدحوراً . وأخيراً ، وجم الهادي ساعة لا يأمر ولا ينهى ، ثم رفع رأسه وأمر برده وقال له : « يا حائك ! يبايع أهل بيت أمير المؤمنين وفيهم عم جده وعم أبيه وعمومته وإخوته وسائر لحته ، ويبايع وجوه العرب والموالى والقواد ، وتمسك أنت عن البيعة ! » فقال هرثة : « يا أمير المؤمنين ! وما حاجتك إلى بيعة الحائك بعد بيعة من ذكرت من أعيان

الناس ! ألا إن الأمر على ما بايعت لك ، إنه لا يخلع اليوم أحد هارون ويقي في غد لجعفر ! .

قال الخيخوري راوى هذا الحديث : فالتفت الهادى إلى من حضر مجلسه ، وقال لهم : « شامت الوجوه ! صدق والله هرثمة ، ورو وغدرتم ! ، ثم أمر هرثمة بخمسين ألف درهم وأقطعه أرضاً واسعة .

أرأيت هذه الرجولة السكاملة واعتزاز هرثمة ! يرفض في عزم ثابت لإرادة الخليفة وهو الحاكم المطلق حين ذاك في أمر أجمع هاليه كبار الدولة ، ويحاج في قوة عن رأيه رغم تهديده بالقتل ، ويصمم على ما يرى حتى يظفر بالغلبة والنصر ويعرف الخليفة له سداد الرأى وصدق الرجولة وكامل الوفاء ، فلا يخرج من حضرته إلا عزيزاً كريماً منصوراً مثاباً ! .

أين هذا بما عليه كثير من كبرائنا وسادتنا بحكم مناصبهم ومراكزهم الذين فتنوا الناس في أخلاقهم ودينهم وأصلوهم السبيل ، إذ قلدوهم في شعارهم وهو الميل مع الرياح حيث تميل !

مثل هذا الموقف العظيم لا يقفه إلا رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويؤمن برجولته نعمة من الله يحب رعايتها ، ويؤمن بأن الخلق جميعاً لا يستطيعون أن ينفعوا أو يضرروا أحداً بما لم يرده الله وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً . وبهذا الخلق وأمثاله تعتز الأمة ويشيع الخير فيها ، بتقليد الصغير للكبير والعامه للسادة .

أما نحن فوا أسفاه ، لا يحتاج الرئيس بله الحاكم ، لإعداد بعض من تحت رياسته أو تهديده ليطيع فيما يريد ، بل يكفي أن يستشف بعض هؤلاء الذين لهم صور الرجال دون حقائقها رغبة الرئيس ، فيسارع إلى تحقيق ما يريد ، لا يرفع في ذلك إلا ولا ذمة ولا كرامة !

وبعد ، فإننا نتوجه إلى الله الذى لا حد لقدرته أن يغير ما بأنفسنا ، وأن يجعلنا رجالاً تعتز بهم الأمة العربية والإسلام ؟

ذكرى المولد الشريف

موشحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يا خجلنا من بياض شدي شوه وجهي لدى الغواقي ؛
فلا دموعي ، ولا نسبي ولا ولوعي ، ولا هواني

* * *

أف لهذا المشيب يمحو أجمل ما خطه الشبابُ
يغني الفتي غفوة ويصحو إذا زمانُ الصبا سراب
روضُ زها نبتُه ، وصبح يعقبه الجذب والضياب

* * *

يا لك من طارق غريب عن الهوى والصفاء لواني
أحيابه عيشة الحريب بلا خيال ، ولا أمان

* * *

يا لهف نفسي على شباب من المنى والحياة أحلى
الظرف ، والقصف ، والتصابي يوم تولى الشباب ولي
عوجوا على ربعه ركابي أخط من ذى الهموم ثقلًا

* * *

أُسْبِجْ في أفقه الرحيب وأنشَقْ الشُّرْبَ في المغاني
وأملأ الجو بالنعيب أسي وحزنا على زمان

* * *

من لي بأن استردّ عهداً شربته في الكؤوس خمرأ ؟
مضى ، وأهدى إلى وجدأ حسبته في الفؤاد جمرأ
كان زمان الشباب سعدا فعاد بعد المشيب ذكرى !

* * *

يانفس ، قدآن أن تؤوبى عجلي ، إلى شاطئه الامان
وفي حتى المصطفى الحبيب تلقين ماشئت من ضمان

* * *

ميلاده الباهر المجيد نال به الكون ما تمنى
بنوره أشرق الوجود وهز أعطافه ، فغنى !
أقر عين العلاء وليد قر به الكون واطمأنا !

* * *

تهفو بحاليه بالقلوب كما هفت بالنهى المشاق
تضم ذكراه في وجيب وفي جلال ، وفي حنان

* * *

يا قوم ، من شام مثل طه قد أنبت العلم في الصحارى ؟
أمية عيش في هداها وشرعة أنقذت حيارى
لاقى بها خصمه وجاها خمار في أمره ومارى

* * *

من أين للكفر والصليب بواهر الوحي والقرآن ؟
أولاك يروون عن غيوب وذا يلقاه عن عيان

* * *

دعا ، فأحيا القلوب غلفاً وسار والسعد في الركاب

وأوسع العالمين عطفاً في الحكم والسلم والغلاب
لم يملأ الخافقين خوفاً فتلك في شرعة الذئاب

* * *

من كل خيانة مريب يختص بالعطف كل جان
أو غادر فاجر لعوب يكسب بالعرض كالزواني !

* * *

قولوا لصهيون : ما لموسى يروع الآنسات قتلاً ؟ !
والصليبي : ما لعيسى يملأ هذا الوجود ختلاً ؟ !
تعباً لأعلامكم ، ونكساً أما نبيكاً ، فجلاً
لم يدعوا في الورى لحوب ولا لغدر ، ولا اختيان
ولا أغارا على الشعوب بكل مسترزق جبان

* * *

سنعمر الكون من جديد بدین خير الامام طه
بالجنـد ، خفاقة البنود تدك أعلام من رماها
البدء في المشرق السعيد ينبع ، والغرب منتهاها

* * *

ونحن في أمسنا القريب سرنا على هامة الزمان
في الهدى ، في السلم ، في الحروب في الحكم ، في العلم ، في البيان

* * *

مجدد مضي في الزمان حراً وعز في ظله الانام
عهد ، لياليه كن غراً قد ساد من بعده الظلام
ياسيد المصلحين طراً - عليك من ربك السلام -

* * *

اعطف على بائس أديب مُروّع في الحياة عاب
قل لي - إذا خفت من ذنوبي - : لا تبتئس ، أنت في ضماني !

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

زرتك أمس الأول ، وقدم محمد أول أمس
يتردد مثل هذا كثيراً ، ويعنى بأمس الأول وأول أمس اليوم الذي قبل
أمس ، وهو اليوم الذي قبل يومك . فتقول : حدث هذا الأمر أمس الأول
أو أول أمس إذا حدث ليومين خلوا من اليوم الذي تتحدث فيه . وفي صحيفة
المصري الصادرة في يوم ٢٧/١١/١٩٥٠ : « وكنا قد أشرنا أول أمس إلى عزم
الولايات المتحدة على التوسط لتسوية الخلاف القائم بينهما » .

والاستعمال العربي الفصيح في هذا أن يقال : زرتك أول من أمس ، أى في يوم
أسبق من أمس ، وهو اليوم الذي يسبق اليوم الذي قبل يومك ، وفي مثال صحيفة
المصري السابق ، وكنا قد أشرنا أول من أمس ، وهكذا . فهذا الذي ينبغي أن
يجرى عليه الناس وفقاً لما أثر عن العرب . فقد جاء في اللسان في (أمس) :
« ابن السكيت : تقول : ما رأيته منذ أمس ؛ فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلت :
ما رأيته منذ أول من أمس » .

وإذا رأيت محمداً لثلاثة أيام خلون قلت : رأيت محمداً منذ أول من أول من
أمس ، ولا تتجاوز العرب في أمس ذلك ؛ قال في اللسان في (وأل) : « تقول :
ما رأيته منذ أمس ؛ فإن لم تره يوماً قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أمس ؛
فإن لم تره مذ يومين قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ، ولم
تجاوز ذلك » .

وفي فصيح ثعلب (باب حروف منفردة) : « وتقول : ما رأيته منذ أول
من أمس ؛ فإن أردت يومين قبل ذلك قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ،
ولا تتجاوز ذلك ، وقال شارحه الهروي : « أى لا يقال إلا ليومين قبل أمس .
وأمس هو اسم لليوم الذي قبل يومك » .

ولم أر عبارة "أمس الاول"، فيها وقفت عليه، فأما "أول أمس"، فقد جاءت في سينية البحترى، ويبنى به بدء أمس وبكرته. قال البحترى:

وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخس
وكان القيان وسط المقاص ير يرجعن بين حو ولعس
وكان اللقاء أول من أم س ووشك الفراق أول أمس

فهو يقول: كأن اللقاء كان في اليوم السابق أمس، وتراه قال فيه: أول من أمس لا أمس الاول، ويقول: كأن الفراق كان بعد يوم اللقاء فكان أمس فما أسرع الفراق بعد التلاق، وقد جعل الفراق في غدوة أمس ليسكون أقرب إلى يوم التلاق إذ لم يكن في آخر أمس. وحسبك بكلام البحترى هذا مقنعا في أن تعدل عن استعمال "أول أمس"، حيث يجب أن يوضع "أول من أمس".

الماجريات

تجرى هذه اللفظة "الماجريات"، كثيراً؛ ويراد بها الحوادث الجارية، وهي من الالفاظ المولدة التي دخلت في عداد ما يتكلم به الناس، وجاوزت لغة العامة إلى لغة الخاصة. ففي صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥١ العنوان الآتي: "الباب السادس ما يكتب في الحوادث والماجريات"، وأصل تأليف هذه الكلمة هو الموصول وصلته "ماجرى"، أي الذي جرى وحدث، فتوهم أن ذلك كلمة مقررة فعولت معاملة الكلمات المفردة، وأدخلت عليها أداة التعريفات وجمعت ففعلت: الماجريات، ومثلها في هذا مثل الماصدقات في اصطلاح المناطق، ومعنى الماصدقات الجزئيات والأفراد التي يصدق عليها الكلى ويتحقق فيها، فاصدقات الإنسان زيد وعمرو وخالد ومن جرى هذا المجرى في تحقق حد الإنسان فيه، وقد قال العصبان في حواشيه على شرح الملوى للسلم في المنطق في مبحث الذاتى والعرضى (فصل في مباحث دلالة الالفاظ). "ما صدق الشيء: أفراد التي يصدق هو عليها أى يحمل، وهو اسم مركب من ما الموصولة وصلتها.

وترى من هذا أن واحد الماجريات هو "ماجرى"، على حد ما قيل في واحد الماصدقات، وإن كادوا لا ينطقون بواحد الماجريات.

دلى أن صاحب صبح الأعشى يجعل واحد الماـجريات « مـاجرية » ، فقد قال تحت الترجمة السابقة : « ويختلف الخال فيها باختلاف الوقائع » ، فإذا وقعت للأديب مـاجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه حكى له تلك المـاجرية فى كلامه : مع تنميق الكلام فى ذلك إما ابتداء ، وإما جواباً .

وقد رأيت أن هذا لا يتفق مع أصل تأليفها . ولو صح ما قاله صاحب صبح الأعشى فى واحدها وأنه « مـاجرية » ، لما صح تصحيح الياء وإقرارها ؛ إذ أن القانون الصـرفى يوجب قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فكان يجب يقال فيها : « المـاجرة » .

وصاحب صبح الأعشى هو أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، وكان يعيش فى مصر فى القرن الثامن الهجرى ، وتولى ديوان الإنشاء ، وكانت وفاته سنة ٨٢١ كما فى الضوء اللامع للسخاوى . وقد سقت تاريخ وفاته ليعلم أولية الكلمة التى هى موضوع البحث ، وهى « المـاجريات » ، وأنها تضرب بعرق فى القدم .

ومن الجلى بعد هذا أنى لا أريد إقرار الكلمة التى أبحث فيها ولا تصويبها ؛ إذ كانت نائية عن منهاج تأليف الكلمات العربية ، فن الخير تنكبها والعدول عنها . والله الموفق للصواب .

زينب الصباغ — الذرة الشامى

١ — يجرى الأسلوب الأول : « زينب الصباغ » ، فى هذه الأيام : يعملون « الصباغ » ، وما جرى مجراه لقباً للأسرة لا يتغير ويلزم حالة واحدة ، فيقال : خالد البناء ، وفاطمة البناء ، وهكذا دون تفريق فى ذلك بين حالتى التذكير والتأنيث وقد أخبرنى ذو علم باللغات الغربية الحية أن القوم فى اسم الأسرة فريقان : فريق يرى جمود هذا الاسم فلا يختلف فى تذكير ولا تأنيث ؛ وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية (الانكليزية والالمانية) ، والذين يتكلمون اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والأسبانية) . وفريق يرى التفريق فيه بين حالتى التذكير والتأنيث فيباحق اللقب إذا كان جارياً على المأثنت علم التأنيث عندهم ، وهم الذين يتكلمون اللغات السلافية ، ومنهم أمم الروس .

وسنة العرب في ذلك أن الصباغ مثلاً يكون لمن يتعاطى هذه الحرفة ، فإذا شهر بها كان ذلك لقباً له ، وقيل : فلان الصباغ ليميز عن يشاركه في اسمه وليس بصباغ .

فإذا كان له ولد مثلاً وأريد نسبته إليه قيل : خالد الصباغي وفاطمة الصباغية بأداة النسب . وقد كان في الأنصار قطان مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام بنو عدي بن النجار ، فكان يقال لمن ينسب إليهم النجارى النجارية ؛ وفي الروض^(١) الأنف للسبيلي في حديث زواج هاشم بن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر نكاح هاشم سلمى بنت عمرو النجارية .

* فترى أن أهل عصرنا استنوا سنة فريق من الغربيين في لقب الأسرة ، فلا يفرقون فيه بين تذكير وتأنيث ، وتسكبوا سنة العرب .

وقد جاء في صحيفة الرسالة العدد (٦٨٦) مقال عزوردة اليازجية ، جعل الكاتب عنوانه «وردة اليازجي ، واليازجي كلمة تركية معناها الكاتب ، وقد جرت حيناً من الدهر على ألسنة الناس لاسيما في بلاد الشام على عهد الحكم التركي ، وعملت معاملة المفردات العربية ، وصارت لقباً لأسرة اشغل أهلها بالأدب ، وكان لهم عليه فضل عظيم ، منهم ناصيف اليازجي وابراهيم اليازجي . والمتبادر في العبارة السابقة أن يكون «اليازجي ، وصفا لوردة فيكون مما نتحدث فيه ، ويكون هذا من الكاتب جرياً على المألوف في هذه الأيام . وقد يجوز أن يقرأ «وردة اليازجي ، يجر «اليازجي ، بالإضافة ، أى وردة المنسوبة إلى اليازجي فلا يكون مما نحن فيه ، ولكن هذا خلاف المنبار .

٢ - وتجري العبارة الثانية : «الذرة الشامى ، كثيراً على ألسنة الناس ، والذرة فيها علم التأنيث ، فالواجب أن يقال : الذرة الشامية ، واست أدري مآنى هذا الزيغ عن الصواب ولا مرده . وقد يخرج هذا على تأويل الذرة بالتب ، ولكن مثل هذا التخرج يلجأ إليه فيما سمع من العرب ، كما قال بعضهم : إن فلاناً رجل لغوب لأنه كتاني فاحتقرها ، فأنت الكتاب لها ذهب به مذهب الرسالة .

كيف تقارب الشعوب

منهج الاسلام فى ذلك

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرافعى

يحاول الساسة وقادة الفكر فى الأمم التقريب بين الشعوب وإزالة الحواجز السياسية التى أقامتها الأطماع والأهواء، على مدى الأجيال بعد أن تكفلت الحضارة المادية بإزالة الحواجز الطبيعية من بحار وأنهار وجبال وصحارى ووديان، وأعنى بالحواجز السياسية هذه الحدود الوهمية من خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الفروق الاعتبارية من جنسية وقومية وعصية للألوان والثقافات .

وهدف هؤلاء القضاء على أسباب الحروب والتطاحن فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، ثم الوصول بالشعوب إلى حياة ناعمة فى ظلال الأمن والسلام ولا يسع كل محب للسلام إلا أن يبارك هذه الجهود ويبدل من نفسه وماله ما يفضى إلى هذه الغاية، كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر هؤلاء جهودهم فيها .

غير أنه رغم ما يبذل فى هذا السبيل من جهود وما يجمع لها من جموع فإن التقدم لا يزال بطيئاً ولا يزال الهدف بعيداً والطريق وعراً، وأكبر الظن أنهم لن يبلغوا الهدف، وأن جهودهم ستبوء بالفشل .

ذلك أن الدعوة إلى هذه الغاية يعوزها الوسائل الصحيحة والعناصر القوية لانجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف، ومن أهم هذه العناصر الاخلاص لها والتطبيق العملى من القائمين عليها، وإنا نشك كل الشك فى توافر هذين العنصرين فى الدعاة إليها، ودعواتهم فى الواقع ما هى إلا سلسلة من الاغاديح السياسية

تبعث عليها مناسبات خاصة مدهنة للجماعات والأمم الصغيرة تحديراً لوعيها الانساني واحتفاظاً بها أن تسير في الطريق التي رسم لها، وآية ذلك أنه إذا قيل لهؤلاء الدعاة تعالوا إلى تطبيق مبادئكم وأعطوا الشعوب حقوقها السياسية والاجتماعية وامنحوها حرياتها وأشعروها بهذه المساواة، لتسكن نفوسها إلى مائدعونها إليه وتطمئن قلوبها إلى صدق نياتكم فيها، لم تحل منهم بطائل وأجابوك بمعمول من القول لا يغنى عن الواقع شيئاً .

ولو أنهم أخلصوا في القصد وصدقوا في العزم لصدقت أقوالهم أفعالهم وكانت القدوة بأعمالهم أبعد أثراً وأعمق نجاحاً، وشاهدنا التاريخي على ما نقول محمد صلى الله عليه وسلم الداعي الإسلامي الأول والمصلح الانساني الفذ، فلقد كان مثلاً أعلى في صدق عزمته وإخلاص دعوته، فأصاب هدفه وبلغ غايته وربط بين الأمة الإسلامية بروابط جعلها أمة واحدة متماسكة الاجزاء وثيقة البنيان موحدة المقاصد بعد أن كانت أوزاعاً متنافرة من القبائل والشعوب وغدا المؤمن الاسيوى أخاً للمؤمن الأفريقي والأوربي والمؤمن الحبشي أخاً للمؤمن العربي أخوة صادقة عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء، نحنا صلى الله عليه وسلم منجى غريباً ووضع نظاماً رائعاً في جملته وتفصيله ورسن للجماعات والافراد حقوقاً وواجبات على أساس من الشورى والعدل والمساواة والتعاطف والمحبة والتناصح في عمل الخير وتجنب الأذى، وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التنابد بالعصبيات والتباهى بالانساب وأوصى بالمرأة والضعيف، والمسكين واللميف وحرم الشفاعة في حدود الله وحذر من سوء الظن والتجسس وتبعب العورات، وذن وصايا العامة في القرآن :

وأمرهم شورى بينهم « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، « وعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلبسوا أنفسكم ولا تنابزوا

بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ومن الوصايا العامة في السنة : الناس سواسية كأسنان المشط ، ، لا فضل لعربي ولا لعجمي إلا بالتقوى ، ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ، المؤمنون نسكافاً دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم بيد على من سواهم ، ، كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه . لا شفاعة في حد من حذر الله . من نفس من مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا التفصيل الذي تناولت به التعاليم المحمدية ، حياة الإنسان كفرد في سائر أحواله فقد تناولته عزباً وزوجاً ، وقريباً وبعيداً ، وحاكماً ومحكوماً ، وغنياً وفقيراً ، وعاملاً وعاطلاً ، وعالملاً وجاهلاً ، وتناولت شؤنه في مطعمه وملبسه ، وحديثه ومجلسه ، وزيارته وساسته في جميع أحواله ورسمت له طرائق العمل في صور أحكام ذات ألوان ، وفرضت بعضها وسنت بعضها ، وندبت إلى بعض ، وأرشدت إلى أخلاق وآداب هي الغاية فيما وصلت إليه المدنية من خلق وذوق وأدب ، ووضعت بهذا أمتن الأسس في بناء المجتمع الإنساني تجميد عقول الفلاسفة ، وتقف منها في أول الطريق .

وكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى ضرب المثل بنفسه ، فقد استشار بعض أصحابه في حوادث ونزل على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على بعض أصحابه يوماً فقاموا له لإجلاله فقال عليه السلام : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس ، وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاونه المثل الاسمي ، روى أنه كان ذات يوم في سفر فأمر أصحابه بأصلاح شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال ثان على

سليخها ، وقال ثالث على طيخها ، فقال الرسول صلى الله عليه : وعلى جمع الخطب فقالوا يا رسول الله : تكفيك العمل ، فقال تعلمت أنكم تكفوني إياه ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، شفع إليه بعض أصحابه في جريمة فاشتد به الغضب وقال ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقد نهج أصحابه نهجه ، خطب أبو بكر رضى الله عنه أثر مبايعته بالخلافة فقال أيها الناس ، أنى قد وليت عليكم ولست بخبركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدقت فقوموني ، الضعيف فيكم قوى عندى حتى أخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

وكان عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه فيها وجهن عثمان ثلث الجيش من ماله في غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية .

بهذا الأسلوب من التطبيق العملي لمبادئ الدعوة دعا محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الى التقارب بين الشعوب والتضامن بين الأفراد ، فأفلحت دعوته ، وكان نجاحه فيها مثلاً تاريخياً فذا في قوة التأثير وسرعة الاستجابة ، وكان موضع الدهش لدى المؤرخين من العرب والأوربيين ، وما نجحت دعوته إلا بأنها قامت على أساس من الاخلاق والعزم والتطبيق العملي لمبادئها ، فهل سلك الداعون للتقريب بين الشعوب الآن ذلك السبيل ، وهل صدقت أقوالهم أفعالهم أم كانت أقوالهم صيحات تبعثها المناسبات ، وهى مزيج من الدهاء والسخرية وألهيات يامون بها الشعوب كلما حز بهم كرب أو نزلت بهم نازلة ألجأتهم إليها ، يلتمسون لديها تفرج هذه الكروب وتلطيف تلك النوازل ؟

الجواب هو فى واقع أحوال تلك الشعوب وموقفها من هؤلاء الدعاة وشعوبهم وفيما يسود العالم من قلق وفزع وسوء ظن .

سَيِّدِي اِبْرَاهِيمَ الدَّرَوِي

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

فكرت في هذا الموضوع بعد زيارتي لمدينة دسوق منذ العاشر من المحرم هذا العام . فقد جالت بذهني معان نحو التصوف ، وضمنت إليها بعض حقائق عن هذا الشيخ المعتقد فيه كثيراً من المسلمين ، وأرجو ألا تخلو من فوائد توجه الناس وجهة وسطى صالحة ، في نواح كثر الحديث حولها بين غلو وإسراف ، وتحامل وإسفاف ، وبالله التوفيق .

التصوف من العلوم الإسلامية ، وفرع من فروعها ، كالفقه والأصول ، وغيرهما ؛ فإذا كان الفقه يبحث في صحة العمل وفساده ، وحله وحرمة ، لتنظيم أحوال المعاش ، فإن التصوف يبحث فيما هو أساس لإصلاح العمل وجريه على أكمل الوجوه وأتمها ؛ فهو يعالج رياضة النفس وإصلاح القلب ، وحسن رعايته ؛ والقلب هو المهيمن على كل عمل يصدر ، والمحرك للأعضاء على وفق ما يبصر ؛ فإذا استقام استقام اللسان ، واستقامت الجوارح وسلمت الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، وأمثالها ، من آفات الرياء ، وما إليه من كل ما يجعل العمل خالياً من الروح التي قصد إليها الشارع الحكيم .

والقلب هو مصدر لفيوضات العلم الجملة ، وهو المرأة التي تبصر فيها حقائق الكون ، وأسرار الوجود ، وتنطبع فيها المعارف والحكم التي لا حد لها ؛ وهذه المرأة لا تعطيك الصور صادقة سالمة إلا إذا كانت بجولة مشرقة ؛ وفي هذا العلم والعمل به يتعرف الطريق إلى جلاء تلك المرأة ، وتصحيح الإدراك بها للحقائق والمعارف ؛ وكل ما في هذا العلم من مدارك مؤسسة على التقوى فن الشرع الشريف استمدادها ، ومن الكتب والسنة منهاجها ؛ فالدين الإسلامي مهيمن على وضع الأعمال وضعا صالحا يقرب إلى الله ، ويشرح الصدر للإسلام ، وجميع

شعب الخير ، ويوجه إلى أقرب الطرق في سعادة الوجود ؛ فإذا كان في قوله تعالى مثلاً « أقيموا الصلاة » دلالة على فرضيتها كما يقول الفقهاء ، فإن فيه دلالة على ناحية لا تحصل الغاية التي نبه إليها الدين ، وهي النهي عن الفحشاء والمنكر ، بدونها ؛ ذلك أن الإقامة هي التعديل ، من أقام العود إذا عدله ، فكل صلاة ليست على هذا الوجه لا خير فيها ، وهي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، بل لصاحبها الوليل ، كما نطقت به آية أخرى من القرآن الكريم . . .

وهكذا تجد الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة مشتملة على أسس التصوف ، وقواعده السليمة ، مما يجعل لكل عمل روحاً مشمرة ، ويخلق منه أذواقاً ونفوساً قيمة .

ولذلك يكون للمتوفرين على هذه النواحي الصالحة مواجيد وحالات ، وتقع من بعضهم خوارق عادات ، ولا سيما أن سيرهم وسلوكهم مؤسس على تغليب جانب الروح على جانب الجسد ، وإيثارها بالخدمة ، وفي الروح ثروة عظيمة ، ولديها معارف وأسرار كريمية ، ولكن الناس يدسونها بالمادة والانهماك في الملاذ ؛ وفي القرآن الكريم : « قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها » .

وهنا نشير إلى أن بعض صور الكشف التي تصل إليها تلك النفوس قد لا يفهمها العقل ؛ لأن الروح فوق طور العقل ، وقد لا تتفق مع ظاهر الشرع الشريف ؛ لأن الشرع في الأعم الاكثر يخاطب العقول ، ويجارى جميع استعدادات البشر ، وأحياناً يتدخل الشيطان مع بعض السالكين في هذه الطرق ، فيلبس عليهم ، ويزل بهم ؛ وتلك هي أسباب الخلافات التي تقوم كثيراً بين المتصوفة وغيرهم . ومن الحق على الصوفي ألا يظهر شيئاً من إدراكاته التي لا تتفق مع ظاهر الشرع ، وإلا كان عرضة للفتنة وإيقاع الخلاف بين طوائف الأمة ؛ وإذا أظهر شيئاً من ذلك فمن حق القائمين على الشرع إنكاره ، ولا يكلفه الإسلام قبوله مهما كان صاحبه إلا أن يؤول كلامه بما يتفق مع الدين . ومبنى طريق هذه الطائفة على الرياضة ، وتذليل النفس ، ودفع رعونتها ، ومقاومة ما يدفعها إليه الشيطان ، ويحسنه لها من أبواب الشر والفساد ؛ وخير سبيل إلى ذلك الإغراق في ذكر الله بالصور المختلفة ، ومعاشرة الصالحين ، والبعد عن أوساط المفسدين ؛

وبقدر ما ينال المرء من الذكر والطاعة السليمة من الآفات ، يكون حظه من التصرف ؛ ولهذا عرف الصوفية باتخاذ الأوراد التي هي ذكر مرتب في مواعيد معينة بصور وأحوال لا تختلف مع ما جاء به الكتاب والسنة من حث ومن توجيه ، وهي من الورد بمعنى الماء الذي يردّه الظماء ، فيروون ظمأهم .

ولابن خلدون في هذا المقام بحث طويل في مقدمته ، يشير في بعضه إلى أن أصل طريقهم محاسبة النفس على الأفعال والتروك ، والكلام في هذه الآذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ، ثم تستقر للبريد مقاما ، ويترقى منها إلى غيرها ؛ ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ؛ فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ، ومحاسبة النفس ، والكلام في الآذواق ، والمواجد العارضة في طريقها ، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك ؛ ولما كتبت العلوم ودونت ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ، وكتب كثير منهم في عدة نواح ، كالورع والمحاسبة على الأخذ والتروك ؛ وجمع الغزالي معارفهم الشرعية في كتاب الإحياء ، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم ... ثم أشار ابن خلدون إلى أن الطريقة كانت أولا عبادة فقط تناقى أحكامها من صدور الرجال ، ثم صارت علما مدونا يطلق عليه اسم التصوف ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول . وتكلم ابن خلدون في الكشف والإطلاع على عوالم من أمر الله بسبب الخلوة والذكر ، وفصل سبب ذلك ، ثم بين أن الكشف لا يكون صحيحاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة .

وتنقل ابن خلدون في أحكام كثيرة تتصل بالتصوف ، وبما اشتهر من مذهب الحلول والوحدة ، وما إلى ذلك بما لا يعيننا الخوض في تفاصيله الآن ، وقد نعرض للحديث عنه في مقام آخر ؛ إنما الذي يعيننا أن نشير إلى أن هذه الطريقة لأمر ما انتشرت في القرن السابع الهجري ، وظهر رجال حلقوا في

آفاقها ، وربما فتن بهم كثير من الناس ، من أمثال السيد البدوي ، والدسوقي ، والرفاعي ؛ وللناس في طباعهم افتتان بهذه الخوارق التي تسعى كرامات ، وبما يظهر على أيدي بعض الناس من كشف يخبرون فيه عن الغيب الماضي أو المستقبل ؛ ولهذا كان يرجع الناس إلى السكهان فيعظمونهم ويحكمونهم في أمورهم ؛ وفي عوام المسلمين كثرة تغلو في تقدير هؤلاء غلوا تخرج به عن الدين ، وتتورط في كثير من الزيغ الذي قد يفسد عقيدتهم ، ويخرجهم إلى حد الإلحاد أو الشرك ، نعوذ بالله من الضلال .

وليس في شرعة الإسلام أكثر من إنزال الناس منازلهم ، مع الحيطة ، حتى لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يطرى بعضهم بعضاً مهما كان ، كما أطرت النصراني عيسى ابن مريم ، إنما السكل عبد الله وبشر من خلق ، لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ...

والإمام الدسوقي من أولئك العلماء المتصوفة الذين نشئوا بمدينة دسوقي في القرن السابع الهجري الذي أشرنا إلى أنه ظهر فيه التصوف ظهوراً قوياً ، وتغلغل فيه رجاله إلى حدود قد تسمى إلى بعض الناس في بعض عقائدهم بما تسربت عدواه إلى من بعدهم ودرجوا عليه ...

ولد الدسوقي بالمدينة المذكورة سنة ٦٤٣ هـ ، وتوفي بها سنة ٦٨٦ هـ ، فعمره نحو ثلاث وأربعين سنة ، قضى شطراً منها في طلب العلم ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ووضع فيه بعض كتبه ، ثم اقتنى آثار الصوفية ، كما حدث عنه الشعرائي في طبقاته ، فكان من أجلاء مشايخ الفقهاء أصحاب الخرق ، وكان من صدور المقربين صاحب كرامات ظاهرة ، ومقامات فاخرة ، وسرائر طاهرة ، وبصائر باهرة ، وأحوال خارقة ، وأنفاس صادقة ، وهم عالية ، ورقب سفية ، ومناظر بهية ، وإشارات نورانية ، ونفحات روحانية ، وأسرار ملكوتية ، ومحاضرات قدسية ، وما إلى ذلك من عبارات خلعتها عليه الإمام الشعرائي ، قد تاقى ضوؤه على ما نحاول الوصول إليه من تجلية الرجل للقارئ ، شخصية حقيقية عرفها المتحققون من رجال الفن ، ونوهوا بشأنها ، وأعلوا من قدرها ؛ ونحن والقراء الكرام ، نرى فيما ينقلون عن الرجل من عجائب وكرامات يجب أن

تقرأ بغاية التحفظ ، وتؤخذ على أنها أخبار لم يتحرر في نقلها ما يجب أن يراعى في صحة الأسانيد التي تأتي على الأخبار المنقولة ضوء العلم والإيمان الصحيح ، يستوى في ذلك ما ينقل عن الدسوقي وعن غيره ، مهما علت رتبته إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . فهم يذكرون أنه كان يتكلم في المهد ، وأنه صام أول رمضان صادفه في حياته ، وأن ذلك كان بعد ولادته بيوم واحد ؛ ويقولون إنه يخاطب جبريل ، وإنه يقرأ اللوح المحفوظ ؛ ويذكرون عنه قصصاً كثيرة ، فيها كثير من العجائب والغرائب ؛ ففي بعضها أن نقيبه دفع سبعة من القضاة جاءوا يمتحنونه إلى ما خلف جبل قاف ، فمكثوا سنة ، ثم عفا عنهم بعد توبتهم ؛ وفي بعضها أنه أمر التمساح أن يلفظ صبيّاً كان ابتلعه ، فلفظ حياً ، ثم قال للتمساح مت ياذن الله فإت ؛ وكثير وكثير جداً من أمثال تلك الأشياء التي قلنا إنه يجب التحفظ في الإيمان بها ، مع الاعتقاد بأن الله قدير على خرق العادات لا يقف أمام قدرته شيء . على أننا نشير بوجوب المبادرة بتكذيب ما يدل الشرع على عدم وقوعه ، ونمسك القلم عن الخوض في تفصيل ذلك ، لنُدع المجال فيه لحضرات أصحاب الفضيلة أرباب الفتيا ، والمختصين من أهل الصناعة ؛ ثم يشير إلى أنهم نقلوا عن الإمام الدسوقي من النثر والنظم ، ما يدل على أنه كان من المتحققين والصوفية الذين بلغوا شأواً بعيداً في معرفة الله ، والاطلاع على كثير من الأسرار والطوائف ، والامتياز في معرفة دخائل النفوس وأسقامها ، وعلاها وطرق علاجها .

من ذلك : قوله : « من عامل الله بالسرار ، جعله على الاسرة والحظائر ، ومن خلص نظره من الاعتكاس ، سلم من الالتباس ، لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس ، مشفقاً عليهم ، سائراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كاذب ؛ من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف . إن كنت ولدي حقاً ، ومتبعي صدقا ، فأخلص الرق لله تعالى ، واجعل واعظك من قلبك ، وكن عمالاً ، ولا تلتمس من أحد درهما ؛ فإن هذه طريق ، ومن أحبني سلك معي فيها ؛ فإن الفقير الصادق هو الذي يُطعمُ ولا يُطعم ، ويُعطى ولا يُعطى ، ولا يلبس الدنيا ولا شيئاً من عروضها ، فإن الرشا في

الطریق ؛ حرام وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لأحد فلساً ، ولا درهما ، وأطال (رحمه الله) في هذه الوصاة القيمة التي تدل على حال ما يقع فيه مدعو التصوف في أزمنتنا هذه ممن يعملون طريق الله شباكا لجميع الدنيا ، واحتياالا للتكاثر في الأموال ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التي هي أبعد ما يكون عن ساحة هذه الطائفة السكرية .

وقد نقلوا عنه كثيراً من النظم الذي يفيد مقدار منزلته في نواحي التصوف ، ويدل على أنه كان على جانب من البصر باللغة العربية وآدابها . ومن ذلك قوله :

سهم الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بالسنة تهمهم في دعاء بأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ، ثم رمين سهمها فما يغني التحصن بالدروع
ومن نظمه أيضاً :

سقاني محبوبي بكأس المحبة فنهت على العشاق سكرأ بخلق
ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ لضم الجبال الراسيات لدكت
وكننت أنا الساقى لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرة بعد كرة

هذه هي الصورة التي أردت أن أجلبها للقراء . موجهها بها الكثير منهم إلى ميزان الاعتدال بقدر ما وسعه على وإطمأن إليه قلبي ، ولا أحب أن أختم هذه العجالة قبل أن ألفت النظر إلى ما اعتاد الناس للدسوقي وأمثاله من شد الرحال ، ونذر النذور ، وإقامة الموالد في هذه الصور التي نشاهدها جميعاً ، وما إلى ذلك من شئون كثر خوض الناس فيها لهؤلاء الأولياء ؛ وهو أيضاً مما أذع المجال فيه لحضرات السادة الفقهاء من أهل التوجيه والقائمين بالإصلاح والإرشاد ، مع حرص البالغ ووصاتي الصادقة الخالصة أن يساس الناس في التوجيه بلطف ودقة ، ورفق وحكمة ، وتوجيه إلى الحسنى بالحسنى ، والله ولى التوفيق ؟

متاعب الرسول

لفضيلة الشيخ إبراهيم أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الرُّسُلُ صلوات الله وسلامه عليهم صفوته سبحانه وتعالى من خلقه ما في ذلك شك... ولكن حياتهم مليئة بالمتاعب، حافلة بالأذى، مخوفة بالسكدر، محوطة بالشدائد، وقد دلّ التاريخ على أنه لم يخلّ واحد منهم من الهموم والمشاق، والنصب والتنعيس... وإذا صح أن الامتحان مقياس لرضا والقبول، والدرجات والمنازل، فإن هؤلاء وصلوا بما تحملوه، وحصلوا بما صادفوه، على ما لا يتصور أن تناله البشرية كلها من مكانة مرموقة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم... إلا أن نبينا - جزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء - كان أكثرهم تعرضا للعنف، وأوفرهم نصيبا من المكروه، لأن مهمته أخطر، ورسالته أعظم، وقوته أبعد ما يكونون عن اللين والهوادة، والرحمة والرفق... ومنذ أول يوم نزل عليه جبريل وضمّه إلى صدره فبلغ منه الجهد قائلا له: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده، وهو يهمهم بقوله: «والله لقد خشيت على نفسي»، وقال له ورقة بن نوفل ليتنى كنت حيا إذ يخرجك قومك... قرأ عنوان كتابه وعلم أنه يخوض غمار الغيب الغامض، والمستقبل المجهول، وكان كوقع الصاعقة عليه أن يقول له ورقة - على ضوء ما قرأ بالعبرانية في كتب الأديان السالفة - نعم، فإنه لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلا عودى!! ولم يكد بعد ذلك يصعد الصفا والمروة وينادى بطون قريش ليعلمن إليهم أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، حتى قال له أبو لهب تبت يدك، ألهذا جمعتنا، وكان يرجو أن يأخذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، ونزلت فيه السورة المعروفة باسمه، وكان ذلك إشعالا

لنيران عداوته ، وإذكاهم لاتون حقه ، فأخذ يكبد له صلى الله عليه وسلم ، ويفتح له صفحات أخرى من الإيلام والأذى ، والقسوة والعنف ، وقد كان يسكن إلى جواره هو وزوجته حمالة الخطب ، دون مراعات حرمة الجوار ، ولا لزمام القرابة .

أما الجار الثاني : فإنه عقبة بن أبي معيط ، وكان لا يقل في العداوة والبغض والإضرار والأذى عن أبي لهب . .

وقد أغراه أبو جهل ذات يوم أن يلقي الأذى على رأس الرسول وهو ساجد ، وصنع وليمة دعا إليها الوجوه والأعيان ، ودعا صلى الله عليه وسلم فيمن دعى ، فلما حضر الطعام ، قال له : أنا لا أكل طعام مشرك كافر ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما علم بذلك أبي بن خلف تهدده إن لم يرجع إلى دين الأشياخ ، وهو الذى تقصد إليه الآية : « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتنا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً ، وهؤلاء كلهم من المستهزئين الذين كفاه الله شرهم ، وأراه مصارعهم فى بدر وغيرها من الغزوات .

ولو أن تلك المتاعب كانت فى أول عهده بالدعوة ، لقلنا - هكذا - تكون الأمور فى الابتداء شاقة ، لأن المصلح الاجتماعى لا يحتاج إلى الجلد والاحتمال بعد هذه المرحلة ، حيث تكون القلوب قد تفتحت ، والأذهان قد تهيأت ، والطباع قد تحولت ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستقرار والسكون .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل عمره الطويل ، وحياته المديدة ، فى جو ملبد بالغيوم ، متخيم بالرياح والأعاصير .

ونحن إذا استثنينا فقد والديه ، وموت جده عبد المطلب ، وعمه أبى طالب ، ونشأته فى أحضان الفقر والمترية ، وغضون العوز والحاجة ، وجدنا أن أيامه كلها فى سبيل الدعوة لم يهنا له فيها صفو ، ولم يصادفه لذة ولا سرور .

وهاهى ذى عائشة رضى الله عنها تقول له : « هل أتى عليك يوم كان أشد

من أحد؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فأنطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فناداني . فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك . وفد بعث إليك ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال يا محمد . فقال ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . أما أحد الذي تسأل عنه رضى الله عنها في الحديث ، فإنها الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، إذ ترك بعض المسلمين أماكنهم من صفوف الجيش ، حين لاح لهم النصر ، طمعاً في أسلاب العدو ، وكان هذا الخلل سبباً في الهزيمة المنكرة ، التي حملت كثيراً منهم على الفرار ، ولا سيما بعد أن سمعوا منادياً ينادي : إن محمداً قد مات ، ، وفي هذه الغزوة شجعت رأسه وكسرت رباعيته ، واحتمل من صنوف الأذى ، وألوان العذاب . ما لا يحتمله إلا صناديد الرجال ، ولما عاتب هؤلاء الفارين والمتسببين في تلك الهزيمة أجابوه بذلك العذر الواهي ، وهنالك نزلت فيهم الآيات : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ، وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . ونحن نعلم أنه لم تكن تلك الغزوة فقط من الساعات الرهيبة ، واللحظات الحرجة التي لاقى فيها الشدائد ، وتحمل الأهوال ، فقد مرت بالمسلمين : تبوك ، التي سماها القرآن ساعة العسرة ، لأنها صادفت حمارة القيظ ، ووافقت أيام الجذب والجوع ، وكانت محكا للإيمان الصادق ، والجهاد الخالص ، وهتك الله فيها أستارا كانت تغطي على النفاق .

مولد النور

لفضيلة الشيخ علي رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتشر نور الحياة في جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشارق والمغارب ، وأحيا به أمة خيّم على ربوعها الفناء ، وأطبّق على أهلها ظلام الجهل ، فهى والأنعام سواء . ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة فليُنظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجا

وَقَدَّمَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين في هذا الوقت كان مثالا على فدائية القائد الذي يسبق جنوده إلى الهلاك ، ويتقدمهم إلى الموت ، ويبيع قلبهم روحه رخيصةً في سبيل الله ، من غير نظر إلى ما يعرض له من العقبات والصعاب ... وقد عرفنا من حديث غزوة الخندق أنه كان يحفر بنفسه مع أصحابه ، فلما دَمِيَتْ أصبحه لم يَعْنُقه ذلك عن متابعة العمل ، ولم يصدفه عن مواصلة السير فيه ، ولم يزد على قوله : « وفي سبيل الله ما لقيت » ، وكان الذين يعملون معه كلما رأوا منه هذا التواضع ، وأَحْسَسُوا فيه هذا الإيمان ، وشاهدوا استماتته بما يلاقى تأججت عزائمهم ، واشتعلت هممهم ، وضاعفوا جهودهم ...

وربما كان الذي لافاه من خصومه بعضا مما كان يلقاه من بعض أنصاره الذين كانت فيهم جفوة طباع ، وفظاظة قلب ، وخشونة معاملة ، وإذا كان العرب على العموم فساءة الأكباد ، غلاظ العادات ، فقد كان قومه على الخصوص أكثر في ذلك كله من سواهم ... وفي الحديث أن رجلا أعرايبا جاء إليه فقال له بأسلوب العنف والشدّة ، يا محمد ، ثم جذبه من حاشية ردائه جذبة تأثرت بها رقبته ، وطلب منه أن يَأْمُرَ له بشيء من مال الله ، فلم يزد على أن التفت إليه ضاحكا ، وأمر له بالعطاء ، وبهذا الديدن ، وذلك الخيم يسود الرجل ، ويستحق ثناء الله « وإنك لعلی خلق عظیم » .

يضيء وقرأ ينير ، يرى أن القوم كانوا في عماء ليس بعده عماء ، وجهالة ليس بعدها جهالة ، عقول كبلية ، ونفوس مريضة امتطت الشر وركبت الفساد . الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة في أحوالهم غريزة . يرون الشجاعة في السفك والسلب واعتداء الأقوياء على الضعاف . لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم هن فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع في الدنايا خلق . فهم كما قال الله فيهم : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

حرموا نعمة النظر في مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها ، فالدين عندهم هواء . ينحتون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضرر ويقدمون لها القرابين ويخلصون لها التقديس والتعظيم . وليست الأصنام عندهم واحدة بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها . وبلغ من تعلقهم بها أن الرجل منهم كان إذا رغب في السفر حرص على أن يصحب معه صنماً صغيراً يماثل صنم قبيلته يضرع إليه في حاجاته ، ويستمد منه المعونة في تحقيق رغباته وعجب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ إلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ! فعل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير ، وركوب الأهواء وتقليد الآباء « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » .

وكانوا مع ذلك في عقائدهم أصنافاً شتى ، فمنهم من أنكر وجود الخالق وجحد البعث والإعادة ، وقالوا : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم من اعترف بالخالق وابتداء الخلق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقاً أنكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولا وعبدوا الأوثان والأصنام وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى .

وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف . وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية ، وبعضهم كان يعبد الملائكة ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالهم الدينية ، أما حالتهم السياسية فلا تحزن عدوا ولا تسر صديقاً ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتي الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اصططلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبح ، فالحسن ما يحسنه

والقيسح ما يقبحه ، لا يرون جريمة في وأد البنات وقتل الاولاد ، ولا يأنف المرء منهم أن يشكح زوجة أبيه أو يجمع بين أختين على فراشه .

في هذا الظلام الحالك والليل البهيم بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، نأضاء ببعثه القلوب وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاءها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علماً وحكمة ، وذلها عزاً ومجداً .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياهب بما سبقه من إرهابات إيذاناً بعمد جديد تتغير على صفحته تيارات الخلق برسوم من العزة والعظمة ، عصمت بها العقيدة وانتقل بها الفكر من الأحجار إلى بآرئها وارتفع البصر من الأرض إلى السماء يتلقف منها حل قضيته ، لئن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استسر من نواحي عظمته . عظيم في قيادته لشعبه وتغلبه على سيء عاداته . أو عظيم في فلسفته يشق بالناس طريقاً إلى ما وراء المشاهدات ، أو عظيم في شخصيته التي تقهر من بعد وتغلب على العقول والقلوب من قرب . أو عظيم في نشأته وتكوينه ، تحوطه العجائب إلى غير ذلك مما يعنى به النفاد الوازنون للأشخاص والأعمال . فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التي طامسا وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها محدة لعظمتها أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست في حسابهم ، فأرجعتهم القهقري وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما ينددون .

قائد جمع الشتات ورسم الهدف ووضحه لكل ذى بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التي وضعها العالم قبله تحت الأقدام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبدولة بل ناله ببذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله هؤلاء النفر من صناديد الكفر إلى هداة وغزاة في سبيل الله .

تدرج بهم على هدى القرآن في الأدب العالى (فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنتم فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . .) (إنما المؤمنون إخوة)

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمتهم وهم في خشونة الملابس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) فعبدوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فملكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا وتركوا لنا من بعدهم ميراثا يقضى الزمان ولا يقضى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) فمن كمولانا الكريم أصلا ونشأة ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شروور قاصمة . ومن يدانيه في يتم توجه الاتزان وزانه الأدب وعهدنا بالآيتام الإهمال والضياع أو الدلال وفساد الحال . من كيتيم عبس الله رزانه وعقلا حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعير بها أو زلة لسان أو عثرة قدم تنقص مكانته (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسعدوا أفكاركم أيها الكتاتون وأقلامكم ، حين تزجون بها في حياة هذا المولود الذى سعد به العالم . إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالآوهام والاضاليل (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وحرر الطغمام من قيود الاستعباد فى الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرئ حقه فى حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضر غيره (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا -) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ...) حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحدا منهم يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .

لقد كان مولد النور والهدى لمن أراد النور والهدى . ولنرجع قبل ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كي نتقف معه وسط العالم المنخبط لنجعله أستاذاً مرشداً فى ظروف شاه فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانونا بل ودينا . إننا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلا بد واصلون (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) فإن من حمله الرسالة وسلمه القيادة قال (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

أعلام الأزهريين

حمزة فتح الله

المتوفى سنة ١٢٣٦ هـ (١٩١٨ م)

لفضيلة الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ينحدر من سلالة مغربية ، ولسكنه ولد بـبغرا الاسكندرية ، سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها ، حفظ القرآن في إحدى مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعية واللغوية بجامع الشيخ ابراهيم باشا ، ثم ألحق بالأزهر ، فأتم به دراسته ، وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، ودبج الرسائل الادبية ، ونظم الشعر ، ثم عاد إلى الاسكندرية ، ورحل إلى تونس ، فلبث فيها بضع سنين تولى في أثنائها تحرير جريدة « الرائد التونسي » ، فأكسبه ذلك مرانة ودربة على معالجة السكتابة الصحفية والسياسية . ثم عاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة العربية مشبوبة ، فاتصل بالخدوي ، وكان من أعوانه ومناصريه ، فأوحى إليه أن يحرق جريدة « البرهان » ، لمنشئها « معوض فريد » ، وقد كانت أسبوعية تصدر في الاسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو ، وتفاخر بأنها « حلت من أعتابه العليا محل القبول » . كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون في سبيله ، ولكن « الشيخ حمزة » رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافي ما أجمعت عليه الصحف في ذلك الحين ، ولم يقتصر في مناصرته للخديو على تحرير جريدة البرهان ، بل أصدر جريدة « الاعتدال » ، عام الثورة العربية زيادا عن العرش ، وكثيراً ما كان يخطب معضداً هذه السياسة .

وفي سنة ١٨٦٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها في المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد في دينا ، كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها في مؤتمر العلوم الشرقية الذى اجتمع في استكهلم ، سنة ١٨٨٩ م .

ثم رأى أن يزاول التعليم فعين في سنة ١٨٨٨ م مدرسا بمدرسة اللسان ، ثم مدرسا بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المُضَلِّمين^(١) في اللغة والأدب .

وفي سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين ، في سنة ١٩١٢ م ، فعكف على البحث والاطلاع والتقليب في كتب اللغة والأدب ، حتى وافته المنية في ابريل سنة ١٩١٨ م بعد أن كان كف بصره .

أثره في اللغة والأدب :

كان رحمه الله حجة في اللغة ، متمكنا من أصولها وفروعها ، ملها بأسرارها ودقائقها ، غيورا عليها ، شديد الحفظ لها ، يلتزمها في حديثه مع جميع الناس حتى مع خادمه ، ولم ينزل عن غريبها في جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو مراسلة أو تقرير ، حتى كان بعض الأدباء يضع بعض النوارد في أسلوب غريب ، وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوى الذاكرة ، ملها بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم ، وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا ويفيض في تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه ، وصحة عبارته ، وحلاوة محاضراته ، وجمال دعايته ، وما يتدفق منه من بيان وعلم غزيرين .

وكانت له على المدرسين هيئة واسعة ، وإشراف دقيق في أثناء تفتيشه بوزارة المعارف ، فقد كان يحاسبهم حسابا حسيرا على هفواتهم ، ويرشددهم إلى زلاتهم ،

وينبهم إلى مواطن الخطأ والصواب ، حتى اضطروهم إلى مراجعة معاجم اللغة ، والبحث في مجفواتها ، وما طال هجره من الالفاظ ، فأخرج كنوزها ، ورد إليها بهجتها ، ونفى عنها ما يداخلها من الأغلاط ، وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاها من عجمة الاساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الاستاذ عبد العزيز البشري ، رحمه الله عن أثره في اللغة فيقول :
 « وفي أعقاب نهضة « المرصفي ، يقبل العالمان الأدبيان « الشيخ حمزة فتح الله ، و « الشيخ ابراهيم البازجي ، فيكشفان عن مجفو العربية ، ويستظهران من أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الاسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح ^(١) من كلام العرب فيأخذ الكتاب والشعراء أنفسهم بالتحري في التماس الصحيح حذر النقد والتشهير ، وكذلك تصفو اللغة وتشرق ديباجتها ^(٢) .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعسر الحساب أن طبع كثير منهم بطابعه ، فتشددوا تشدده ، ونسجوا على منواله ، ووقفوا عند السماع وعكفوا عليه ، « بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ، فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة في اللغة ، ولو وجدت في شعر غول الأدباء من أهل القرون الأولى ^(٣) ، .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة ، وكان لها أثر طيب في سلامتها ، ولكن الإمعان في التشدد ، وهجر ما سهل من الالفاظ إلى الغريب المتوهر ربما أورت الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ما تطبعه من كتب العربية فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

مؤلفاته :

ترك الشيخ حمزة فتح الله ، آثارا دالة على غزارة علمه ، ودقة بجه ، وتمكنه

(١) نصيح : خالص ، والناصح الخالص (٢) المختار ج ١ ص ٤١

(٣) الوسيط في الأدبي العربي ص ٣٤٠ .

من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هذه المؤلفات بالبحث المنظم ،
والنسج المحكم ، والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :

(المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) التي أحيا بها ما اندثر من آثار
السابقين ، وجرى فيها على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى في أماليهم ،
وهي فنون من اللغة والأدب والعلم ، دالة على سعة اطلاعه ، وطول باعه
في علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وفقه ومنطق وغير ذلك
فهى أخذت من كل فن بطرف ، وجمع لما يوسع المدارك ويشقف الأذهان ، وهو
إذ يعرض خطبة من خطب العرب أو قصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم
يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئاً من خبرهم ، ثم يشرح أثره
الشعرى أو النثرى شرحاً لغوياً دقيقاً ، ويستطرد إلى إعراب الشعر ، ويعرج
بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابلاً بين هذا المعنى وما ذهب
إليه غيره ، وهكذا لا يزال يهتم في الأدب والعلم وينجد ، ويطوف بك بين رياضته
ويهدى إليك من ثماره ، وأنت مفتون بما أهدى إليك ، معجب بطريقته في البحث
ومنحاه في الدراسة ، وحسن تنظيمه وترتيبه . والمواهب ، جزآن حافلان
بالنسكت الأدبية والبحوث المختلفة التي تقوم اللسنة وتمد الأقلام ، وتنفع
الأديب بما لا غنية له عنه ، والكتتاب مطبوع متداول .

ومن مؤلفاته رسالة في المفردات الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم ،
وهي بحث طريف أعان عليه سعة علمه ، وله رسالة أخرى في الوسم سماها « هداية
الفهم إلى بعض أنواع الوسم » تحدث فيها عن وسم الخيل والغنم وغيرهما وأسماء
ذلك عند العرب مما عثر عليه في كتاب المخصص لابن سيده وغيره من كتب
اللغة ، وفي أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء ، والرسالة
محملة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبعت في بولاق سنة ١٣١٣ هـ ، وله رسالة
في التوحيد نهج فيها منهجاً عقلياً في البحث والاستدلال ، وله رسالة « سماها
باكورة السلام ، في حقوق النساء في الإسلام ، وهي مطبوعة أيضاً .

كتابته :

كانت له في الكتابة طريقتان : طريقة وعرة متكلفة ، وأخرى سهلة مرسلة ، فهم- ويلتزم السجع أحيانا ، ويفتن في استعمال الغريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة ، فتجىء كتابته ثقيلة متوعرة غامضة ، تنفر النفس من طول ما بذل فيها من العمل والتكلف .

ولكنه يعمد أحيانا إلى السلاسة والسهولة ، ويتجنب السجع فلا يرد في كلامه إلا عفوا غير مطلوب ، ويتضح معناه ، ويشرق تعبيره .

وهو في كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسيج ، شديد السطوة . ويغلب أن يكون النوع الأول في رسائله ومعاطانه الوصف ، ومجاراته أساليب القدماء ، وأشد ذلك في توقيعاته .

ويغلب أن تكون السهولة والوضوح في كتابته الصحفية وما يتناول به الشؤون الاجتماعية .

شعره :

أما شعره فهو غريب مسدود ، لا يجري مجرى الطبع والارتياح ، بل يتناول على استكراه وتكلف ، ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تنسم منه روح الشعر المطبوع ، ولم نعر على شيء من شعره إلا قليلا .

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده ، وهو من نثره المتكلف الجارى مجرى الصنعة والعمل :

« كما أن شغف ^(١) الجنان ^(٢) ، بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الانظار في محيا ^(٣) السمكال ، ومجئى ^(٤) الجمال ، فترى العين من تلك

(١) الشغف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه . (٤) مجئى : منظره .

الغوة ^(١) ما يملؤها قرة ^(٢) ، فكذلك السماع يستدعي هذا الشغف فيمتأثر الفؤاد بما يشنف ^(٣) الأذن مما تهد به إليه طرائف ^(٤) الأخبار حتى كأن حاسي السمع والبصر في ذلك صنوان ^(٥) ، بل أخوان ، في هيكل هذا الجثمان ^(٦) .

و ألا وإن محاسن السيد الأجل لما سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كل لسان ، ما بين أخلاق أبهى من الروض النضير ^(٧) ، وأعراق ^(٨) أشهى من عذيب النسيم ^(٩) ، قد احتلت من فؤادي لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصبياً ، بل منزلة شماء ^(١٠) ، ودارة ^(١١) علياء ، وأوجاً ^(١٢) بطولها السعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكره كل حين فرقد ^(١٣) ، فلم أنشب ^(١٤) أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللقاء ، علته أن يسمح به الزمان . وتشعر ^(١٥) عنه الليالي والأيام ، ليتاح لي رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : ما وصف لي أحد فرأيتك إلا وجدته دون ما وصف لي سواك ، وإن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة ^(١٦) ، مقتدياً بالإمام محمود جار الله ^(١٧) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجري أول ما لقيه ، وكان قد تحابا بالسماع :

كانت مُساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن رباح أطيّب الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت أذن بأحسن مما قد رأى بصرى ،

(١) الغرة : الوجه .

(٢) قرت العين : جف دعمها وبردت من السرور والاسم منه القرة بضم القاف

(٣) يشنف الأذن : يطربها ، وأصله من لبس الشنف وهو القرط .

(٤) الطرائف : الأحاديث المستملحة . (٥) الصنوان : الأخوان الشقيقان

(٦) النضير : الحسن . (٧) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .

(٨) النير : الكثير من المساء . (٩) شماء : عالية .

(١٠) دارة : دار ، ويراد بها المكانة (١١) الأوج : العلو .

(١٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .

(١٣) لم أنشب : لم ألبث . (١٤) تشعر : تمكشف .

(١٥) يتاح لي : يتهيأ لي . (١٦) الأناة : الوقار والحلم .

ومن كتابته السهلة الواضحة التي لا التواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان
« الشورى ومجلس النواب المصرى » ، فمما قاله :

« نحن وإن كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العظيمة ، والمنافع
الجسيمة ، وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يمنعنا من
إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى
المعروف بالاستبداد ؛ فأما الشورى ، فإنها وإن كانت بمدوحة عقلا وشرعاً بما ورد
فى الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى
أنها واجبة حتماً على أولى الأمر بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ
أحكامهم ، لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمور
التي نذبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق .

« وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك
الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

« ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، لا يجوز الخروج عن طاعتهم ،
ولا البغى عليهم ، ولا تخفّر ذمتهم ولا ننكث بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم فى حال من
الأحوال ، اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل ،^(١) .

نموذج من توقعاته .

وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التي أرسلت إليه ليقرأها ، وكان
قد ضرب على بعضها ، فقال وهو غاية فى الغموض والإغراب :

« لم أرد بذلك الترميج^(٢) إلا الرعوى^(٣) على النشء ، فإن قُلا مع حفظ
المنبئ خير من كثر يطوح^(٤) به فى مواهى^(٥) المنبت^(٦) ،

(١) نشرت بجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) الترميج : إفساد السطور بعد كتابتها .

(٣) الرعوى ويضم النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه .

(٤) يطوِّح به : يرمى به . (٥) المواهى : جمع مومة وهى الصحراء .

(٦) المنبت : المنقطع عن السفر (٧) العود : البعير المسن .

نموذج من شعره .

قال في مؤتمر العلوم باستكلم :

حمد السرى يا أخى العود^(١) والناب^(٢) أنساك وعشاء^(٣) إغباب وإخباب^(٤)
ولو شهدت عبا با خضت لجته على سفين^(٥) بجنح الليل خباب^(٦)
يطفو إذا خفقت فيه بأجنحة من تحتها كل غواص ورساب
تجر في اليم أذيالا مصبغة كالخود^(٧) تحتال في أذيال جلاب^(٨)
ومنها :

طفقت أختلما^(٩) شزرا^(١٠) وقد سفرت عنها اللثام ونضت^(١١) فضل أثواب
تقول ما للنوى بي مولعا دنفا يا ليتما بعدولى فى الهوى ما بي
ومنها :

وهو الذى كان أغرانى بنظرته فاعجب له كيف أغرانى وأغرى بي
فهو الذى إن كتمت الحب باح به وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بي
ومنها فى الحكم :

-
- (١) الناب : الناقة المسنة (٢) الوعاء : المشقة .
(٣) إغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوما وليلتين .
(٤) الإخباب : الإسراع (٥) سفين : جمع سفينة .
(٦) خباب : مضطرب .
(٧) (١) الخود : الحسنات الخلق الشابة أو الناعمة ، ج : خودات وخود .
(٨) الجلاباب كسر داب : القميص ، وثوب واسع للراة دون الملحفة
أو ما تغطى به ثيابها من فوق كالمحفة ، أو هو الخمار .
(٩) أختلما : أخذهما .
(١٠) شزرا : شزره وإليه يشزره نازر منه فى أحد شقيه أو هو نازر فيه
إعراض ، أو نازر الغضبان بمؤخر العين أو النازر عن يمين وشمال (قاوس) .
(١١) نضت : خلعت .

كم جامع بالثريا راضيه ^(١) سفر فوق الثرى بين أكوار ^(٢) وأقتاب ^(٣)
 إن الثواء ثواء ^(٤) والقصور قبو ر العاجزين ولا إبراء ^(٥) للخابي ^(٦)
 ومن بغى نيل بجد وهو في دعة فقد بغى من صفاة ^(٧) در أحلاب ^(٨)
 والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والنبع في غاب
 وقال يمدح الوزير خير الدين باشا بقصيدة مطلعها :

آلاؤك ^(٩) الغرأ وآناؤك ^(١٠) الغرر زهاهما في الزمان الجيد والطرر ^(١١)
 الله ملجؤنا إذ ليس يفجؤنا شر الخطوب وخير الدين لى وزر

(١) راضه : ذلله .

(٢) الاكوار : الرجال أو بأدائها : جمع كور .

(٣) الأقتاب : الأكف التي توضع على نقالة الاحمال ، جمع قتب .

(٤) الثواء : ثوى المسكان وبه يشوى ثواء وثويا نزل ، وأثوى به أطال الإقامة به أو نزل .

(٥) الإبراء : أورى الزند إذا أخرج ناره .

(٦) الخابي : خبت النار سكنت أو طففت .

(٧) الصفاة : الحجر الصلب الضخم لا يثبت .

(٨) أحلاب : الحلب ويحرك استخراج ما في الضرع من اللبن ، والحلب محركة والحليب ، اللبن المحلوب .

(٩) الآلاء : النعم .

(١٠) الآناء : الوهن والساعة من الليل أو ساعة ما منه .

(١١) الطرر : جمع طرة (جانب الثوب الذى لا هذب له وشفير الوادى والنهر وطرق كل شئ وحرفته ، والتأصية) وأن تقطع للجارية في تقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج .

دراسات في التصوف :

السهروردي المقتول

لحاضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[بالسرا إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح]

إذا مر مار بحلب ، فقد يرى غرفة مظلمة باردة لا ينفذ إليها ضوء ، ولا تسرى إليها شمس ، ولا يتخللها هواء ، كأن الضوء والشمس والهواء ، تبخل على القبر الذي بها ، أو كأنها لا تعلم أن بها قبراً يضم رفات عقل حر ، وصوفي لقي من جمود عصره ، وصادف من تعنت قومه ، مالم يصادفه رجل آخر ؛ هو رفات لرجل كان مثلاً للشجاعة ، رجل لم يحفل بالموت واستقبله باسمها هازناً ، كأنما يستقبل نعيماً أو سعادة حققة .

فإن كان سقراط مثل الفيلسوف الحر الذي أثر الموت ، ولم يحفل به ، الذي أعطى الكأس وهي منية شفقتي محب يشتهي التقبيل ، ، فإن هناك لصورة أروع ، ومأساة أروع ، هي صورة هذا الشاب ، ومأساة ذلك المفكر الذي مات ميتة من أذعن الميتات وأعنفها ؛ مات فتنفرق عنه صحبه ، ثم نسي على مر الزمان ؛ وسواء أبكى بالدموع الغزار ، أو رثى بالدر من الأقوال ، فكل هذا قد ذهب ، كما ذهب مفكرنا ومات ، ذهب بعد أن ترك صفحة خطتها له يد الأقدار ، وبعد أن كتب في سجل الخلود اسمه ، وضمن البقاء لذكره .

هذا هو شهاب الدين السهروردي .

ومن عرفوا بهذا الاسم في تاريخ الإسلام كثيرون ، اشتهر كل منهم بالعلم والفضل والآداب ، ولكن من يعيننا من بينهم هو هذا الذي قتل بحلب بعد

أن حرر الفقهاء وثيقة كفره ، وسجلوا زندقته ، واتهموه بالتعطيل وإفساد عقول الشباب .

وليس السهروردى هو أول ضحايا الفكر ، وإن يكون آخرهم ، فكم غيره قد قتل أو سجن ، وكم غيره نفي أو شرد ، ولا ذنب لهذا أو لذاك إلا سعة الأفاق وحرية الرأي ، وهى سعة وحرية تأبى الاتفاق دائماً مع العقلليات العتيقة الرجعية الجامدة .

من هؤلاء فى تاريخ الفكر الإسلامى كثيرون ، منهم البسطامى الذى نفي ، وسهل بن عبد الله التستري الذى أخرج من بلده متهماً بالقيح والكفر .

وكفر الجنيد والشبلى ، ورعى أبو مدين بالزندقة ، وقتل الحلّاج ، وأخرج أبو حسن الشاذلى من مصر بعد أن حكم عليه بالزندقة .

ولكن هؤلاء جميعاً اليوم يعدون من أساطين العلم وصناديد الفكر ، صفحتهم بيضاء نقية ، وسيرتهم عطرة زكية ، كانوا شهداء ، وغدوا مخلصين .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول كثيرة ونبتت ، وسطعت نجوم فى سماء الفكر ، خبا نورها واحتجب ، بفعل الاضطهاد .

اشتغل السهروردى بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ؛ نظم الشعر ، وأملى فى الفلسفة ، ودون فى العلم ، وطوف فى البلدان وهو شاب فى ريعان العمر ، وما لبث أن قذفت به الأقدار إلى حلب ، فاتخذها له مقراً ، ولنشأته العلوى مسرحاً . جادل فيها وناظر ، فأعجب به الشباب فأحبوه ، وخافه الفقهاء فسدوه ، وما زالت فئة منهم تدس له المرة إثر المرة ، حتى ظفروا بهدر دمه . ذلكم الرجل الذى يتغنى الصوفية فى أروقتهم بقصيدته :

أبدا تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريجانها والراح

هو يحيى بن حبش السهروردى ، شهيد من شهداء الفكر ، عالم مفكر ، ذكى حاد الذكاء ، حر النزعة ، فيلسوف متصوف ، شاعر رقيق ، زاهد ازدرى الحياة وزخرفها القانى ، وطمع فى الله والقرب منه ، أراد بالحياة الدنيا حياة خيراً وأبقى ،

فأعرض عن الزائل من ملذات الحياة ، ولم يحاول أن يتقرب للناس أو للبلوك ، فسعى هؤلاء اليه ، مع ما كان عليه من هيئة زرية ، وثياب رثة ، لم يهتم بالشئون العرضية ، ولكنه سعى إلى جواهر الأمور وحقائقها العليا .

ذلك هو السهروردي كما اتفق عليه كل المؤرخين ، يقول عنه ياقوت الرومي : « شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي ، كان ، فقيها : شافعي المذهب ، أصوليا ، أدبيا ، شاعرا ، حكيما ، متفتنا ، نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأخيه ؛ قرأ بالمرافة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلي الفقيه الأصولي المتسكلم ، ولازمه مدة ، ثم تفرقل في البلاد على قدم التجرد ، ولقي بماردين الشيخ نضر الدين المارديني ، وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيراً ، ويقول : لم أرفى زماناً أحدا مثله ، ولكنه أخشى عليه من شدة حدته ، وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها في زمن الظاهر غازي بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ ، ونزل في المدرسة الحلاوية ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم في هذه مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، وظهر عليهم . وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ؛ فحضر مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه في الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء ، وكثر تشنيعهم عليه ، .

أما صاحب النجوم الزاهرة ، فيورد لنا : « أن السهروردي كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرانجات ، فاستمال بذلك خلقاً كثيراً وتبعوه ، وله تصانيف في هذه العلوم ، .

ويراه ابن أبي أصيبعة ، في طبقات الأطباء : « أوحداً أهل زمانه في العلوم الحسكية جامعاً للعلوم الفلسفية ، بارعاً في الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله ، .

وكان « صاحب العسير ، يراه : « أحد أذكى بني آدم ، وأنه كان رأساً في معرفة علوم الأوائل ، بارعاً في علوم الكلام ، مناظراً بحجاجاً ، متزهداً ، مزدرباً للعلماء مستهزئاً ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل « ابن خلدون ، على أن يعد « السهروردي ، « رقيق الدين ، وإن لم يذهب إلى اتهامه بالزندقة .

كان عصر السهروردي وبيئته ، عجيبين حقاً ، فقد كان عصر اضطراب بالغ ، وحروب وحشية ، بلغت من الشدة دبلغاً عظيماً ، كانت حروب يدفعها دافعان ، ولها هدفان : الدين ، والوطن . قام المسلمون يذودون عن بلادهم عادية الصليبيين ، ويدفعون هلاقتهم ؛ ليحموا حتى دينهم ، فكان القوم في هوس وجنون ، في خوف وقلق : في اضطراب . نشأ عن ذلك كله أن طبع العصر بطابع ديني عنيف ، فكان للفقهاء فيه مكان مرموق ومرتبة سامية ، وكان كل ما يشتم منه رائحة الزندقة ، أو يظن فيه الخروج على الدين ، يمس الناس في أرق إحساساتهم وأكثرها تأثراً .

* * *

بالقرب من زنجان من أعمال أذربيجان ، توجد بلدة ليست بالكبيرة الجميلة ، وليست بالصغيرة الخاملة ، وفيها كان يعيش صاحبنا ، لا يشغله إلا التفكير والغوص وراء درر المعاني وجواهر الوجود ، وكأماً ضاق شهاب الدين ببلده ، أو ضاقت به بيئته ، فنزع عنها يجوب بلاد الله إلى أن ألقى عصي ترحاله في حلب ، وكانت آنئذ من أشهر مدن الإسلام ، يحكمها الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الرجل الذي أنهض المشرق فهز المغرب ، والذي دافع ضد غزاة الشرق الآتين من الغرب ، يرجون بحق الإسلام ، ويريدون بيت المقدس .

شدد شهاب الدين ، رحاله إلى سورية ، يحمل في وفاضه الحكمة ، ويطوى في ثنايا عقله العلم والمعرفة ، وما إن وصل حتى ألف حوله العلماء يناقشونه ، وكأماً سبقتهم شهرته إلى تلك البلاد ؛ وكأماً خيل إليه أنه في أرض الحرية والثور ، الأرض التي بزغ في جنباتها المسيح ، والتي إليها سرى نبي الإسلام ، فدخل حلب يحذوه الرجاء ويدفعه الشوق إلى أن ينادى بمذاهب جديدة ، وأن يبنى آراء جديدة ، وأن يكتب ويؤلف ويملي ، وأن يبدأ من جديد حياة جديدة .

ودخل السهروردي ، حلب ، وله من العمر ثلاثون عاماً ، وله من الشهرة حينذاك ما طغى على كل شهرة خاصة ، وإن كان ما زال شاباً . عرف فضله الشيخ ، افتخار الدين ، فقربه منه ونقل إلى السلطان أمره ، فأحب أن يعرفه ، ولكن الخوصوم نقلوا إلى السلطان صورة قبيحة عنه ووصفوه وصفاً تقشعر منه النفوس :

زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له جسماً أو ثوباً أو يداً ، لا يقص ظفراً ولا شعراً ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسمى على ثيابه فيهرب منه كل من يراه .

وهذه صورة بشعة تنفر النفس من صاحبها ، وتحمل الإنسان على البعد عنه ، ولكن إذا عرفنا أن السلطان قد قابله ، وما أن فاض السهروردى فى حديثه ، وتكلم فى أدق الشئون العقلية والدينية ، حتى قرب وأقبل عليه وتخصص به ، ؛ إذا عرفنا هذا ، علمنا مقدار المبالغة فى الصورة التى رسموها للسهروردى . وهكذا ذهبت دسائس الخصوم أدراج الرياح .

تحدث السهروردى مع الملك الظاهر ، فرأى هذا منه : صفاء العقيدة ، وقوة الإيمان ، وحرية الرأى ، ونقاء الطوية ؛ فازداد عليه عطفاً ، وله تقريباً وإحساناً . وبالتالي ازداد خصومه منه حسداً وكهداً ، فإذا بالسهروردى عندهم : زنديق كافر معطل ، والادهى من ذلك والامر أن السلطان قد قرب به ، إذن فعليهم بصلاح الدين .

كان صلاح الدين فى مصر ، وكان الطابع الذى يطبع العصر كما سبق القول هو حدة العاطفة الدينية ، نتيجة للحروب الصليبية .

اجتمعت كلمة بعض الفقهاء على السهروردى ، فتألبت معهم جموع الجهل ، واجتمع شعث الجامدين ، ولم يكن تأمرهم إذ ذاك على السهروردى ، وإنما كان على الفسك وعلى العلم وعلى الحرية .

خطبوا على المنابر فأثاروا ثائرة الجماهير ، إذ استفزوا شعورها الدينية ، وهى أدق ناحية وأكثرها حساسية عند الشعوب .

هى التى ساقى الأوربيين لفتح بيت المقدس ، وهى قبل ذلك التى دفعت بجموع العرب نحو مجدهم الرائع .

قال المتأمرون : إنهم إنما يريدون إنقاذ الدين ، بمحو زنديق كافر متعرد على الدين ، وذهبوا إلى السلطان والشعب من وراءهم ، ولكن السلطان كان يعرف السهروردى معرفة اليقين ، وكان يعرف مقدار ما فى دعاويهم من صدق ، ناهيك بحبه للعلم ، وصلته الوثيقة بالعالم . [يتبع]

صُلَّ عروج الجِسم الى السَّماء

لحضرة الأستاذ أحمد زرجاني

أستاذ الأدب العربي بجامعة تبريز
والأستاذ الوائز بجامعة فؤاد الآن

[أصدر مجلس السكرادلة برئاسة بابا روما قراراً خواه
أن السيدة مريم قد رفعت إلى السماء ، فكتب هذا
المقال على هامش الموضوع]

كم في عصرنا من العجائب والغرائب في كل ناحية من النواحي : في
الاختراعات والاكتشافات ، وفي الأفكار والآراء ، وفي الأقوال والأفعال ،
وفي إبداء الحقائق وقلب موضوعها ، وفي بيان المصالح الاجتماعية البشرية ، ثم
في نقض الغرض منها وتطبيقها على الفوائد الخاصة بأمة أو هيئة أو فرد ، ولو كان
مرتباً على هذا النقض والتطبيق هلاك أمم أو آلاف من النفوس أو خراب
للعالم أجمع .

هذا ما في العالم من رذائل وشرور ومفاسد ومحن ، قد تعد أقل منها شأنًا ،
وإن غدت كالجراثيم تنخر جسم المجتمع ، حتى نجد الناس في هذا العصر أحوج
ما يكونون إلى دعوة تربط بعضهم ببعض ، وتقرب بين عقولهم وأفكارهم
وعقائدهم وآرائهم ، لكي يحصل التفاهم والتعارف بين الشعوب والقبائل والأمم
والأفراد ، فتحفف من آلامهم وأسقامهم الروحية التي منوا بها ، من جراء
التعصبات الواهية القديمة في الازمنة الغابرة ، ثم بما انضم إليها من الأهواء
والاطلاع الحديثة ، والنزوع إلى الاستعمار والاستثمار ، بسبب عبادة المادة وأتباع

الآغراض وإعراض الناس عن الله ، وجعلهم لإلههم هواهم ، فزادهم ذلك ضغنا على إبالة .

نعم فى هذا العصر يقلب الناس وجوههم فى السماء ليجدوا فى الأرض من يخلصهم من هذه الظلمات التى بعضها فوق بعض ، فلا يجدون فى ساستهم وقادتهم الا مصداق قول الشاعر :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فـلاح
أو قول الآخر :

انى لافتح عينى حين أفتحها على كثير . ولكن لا أرى رجلا

وبعد اليأس والقنوط من رجال الدنيا ونسائها لمعالجة هذه المشكلات ، أو التخفيف من أفعال شؤمها التى تنوء بالعصبة أولى القوة [عصبة الأمم وما فى بابها من لجان كبيرة أو صغيرة] ، كنت أود أن يكون فى رسالات الأديان ما يكون شفاء للناس من أمراضهم الروحية ، وكنت أود اتحاد الأديان ، أو تقاربها وتفاهمها على أصول بشرية لإسعاد الأمم والأفراد مادة وروحا ، حتى تخرج ما فى صدورهم من غل ، ويصبحوا بنعمة الله إخوانا .

وكنت ولا أزال أرى أن هذا لا كان ولن يكون ، مادام الناس يرون أن الأديان كالأحزاب والمسالك السياسية قائمة على النقاش والجدال والتعصب والاهواء ، وكنت أود أن يكون من زعماء الأديان ورؤساء المذاهب رجال علماء — ولا أهنى بالعلم العلم الدراسى القابل للغش والتزوير ، أو المتغير بالمظاهر والأزياء ، أو المتأثر بالظروف والبيئات ، بل العلم الذى هو وحى وإلهام ، باعث للخيرات والفضائل ، دافع للشرور والرذائل ، مهذب للنفوس ومطهر لها مما غشيها من لواحق المادة وغواشيها ، ومصقل لمرايا القلوب من صدأ الآوهام ؛ أو العلم الذى هو نور ، ونور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ، والعالم الربانى فى عصرنا هو الطبيب النظامى الذى جس نبض النفوس ، وعرف داءها ودواءها ، وشق القلوب وكشف غطاءها واكتشف ميولها

وأهوامها ، ويسعى لنشر الخير والفضيلة بين الناس ، ويعيذهم بالله من شر الوساوس الخناس ، حتى يتغلب النور على الظلام ، ويسود بينهم الصلح والسلام .

ولا يخفى على من له دربة وقلب سليم ، أنه كلما كثرت مشاركات الخلاف ، كثرت الشقاق والنفاق ، وكلما زادت نعمة في الطنبور ، رقص عليها الراقصون من هواة الجدل في مسارح شهواتهم ، ويزيدون عليها كل ما يوحى إليهم شياطينهم في خلواتهم ، وهكذا كانت الفساد بذرة بذورها في حبات القلوب ، وتلاحقت الاحقاد ، وتوارثها الأبناء عن الآباء ، ونمت وانبتت بأمطار من غمام الاوهام ، حتى صارت اليوم ظلاما في ظلام ، ويحق للحجر أن يرق للبشر .

نوع الإنسان ، على الرغم من انتشار العلوم والمعارف ، واكتشاف شيء كثير من أسرار الطبائع ، أسوأ حالا في هذا العصر منهم في كل زمان ، لأنهم قد تعرفوا عن الفضائل المعنوية ، التي هي نتيجة العلم الحقيقي ، الذي يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وصاروا صدق تعريف يميز الإنسان عن الحيوان ، في طرف الرجحان ، هو : مستوى القامة ، عريض الاظفار ، ماش على القدمين ، وأما من طرف النقصان :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلا فقل

وفي هذا الزمان الذي طوى الفكر الإنساني فيه مراحل ما كان يخطر ببال الإنسان في القرون الأولى ، وكأنما سار على جناح البرق والبخار ، وتغير مجرى الفكر بمسافات بعيدة عما كان في القرون الوسطى وما قبلها ، وصارت عقول الناس لا تقبل إلا ما يقع تحت الحواس ، ولا اهتمام لا كثيرهم بما وراء الطبيعة وحل غوامضها ، وكشف رموزها ، ومفتاح الرمز - وهو الإشراف والتجريد والصفاء - ليس في متناول أيديهم الآن .

فإن الناس اليوم ، في مختلف أصقاع العالم ، لا يقبلون عقيدة جديدة إلا ببرهان كالحس ، أو دليل كالشمس . وأصبح وقتهم كالذهب ، لا يكسب الذهب ،

ولا يصرفونه في المذهب ، ولا سيما في أمثال العقائد الروحية العويصة ، التي إن فرضنا إمكان إثباتها ، فيختص رجال منزهين عن الدنيا وزخارفها ، والمادة وسفاسفها ، الذين قد جردوا أنفسهم للعروج إلى السماء ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ولا يخوض هذه الغمار إلا واحد بعد واحد . أفلا يحسن رجال اللاهوت أن يقللوا من المباحث الفلسفية العميقة المثيرة للشغابات والشبهات ، الموجبة لتشكيك الناس في عقائدهم ، المؤيدة لذنبهم ورجرجتهم ، فيما قبلوه بإقناعات من التوارث والتقليد ، وأن ينفذوا إلى قلوب الناس من طريق العواطف والوجدان ، ليقرّبوهم إلى الله زلفى ، وأن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلوهم بالنى هي أحسن ، وأن يردعوهم عن الغوص في مثار الاختلاف ، ومعتركات العقول والألباب ، وأن ينظروا بعيونهم إلى الامام لا إلى الورا ، فإن العيون إنما خلقت لأجل هذا .

وكم أعجبنى وسرنى ما قاله الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر في بيانه الأخير من لزوم طرد الزوائد والحواشى ، وما يكتنفها من الغواشى ، والرجوع إلى أصول الدين ومبادئه ، والاخذ بشمراته ونتائجه ، وحذف القشور ، والاكتفاء بالألباب ، ليسكون نبراساً يهتدى به أولو الألباب ، ويخلص الناس من ظلمات الوسواس ، حتى يكون فيه خير العالم أجمع ، والحق أحق أن يتبع .

وكم في مشارق الأرض ومغاربها من ابتلاءات عجيبية من ناحية الاخلاق والاعمال نشأت من الخرافات والأوهام ، ومن الاختلاف في المذاهب والاديان ، ومن تفاوت اللغات والاجناس ، إن لم يتداركها زعماء الاديان - والدين أمّن حصن وآخر معقل للإنسانية - بالسعى في تلطيف العواطف البشرية وتوحيد طرق الدعوة إلى الحق ، ومحو آثار الحمية الجاهلية ، ونشر مبادئ الإخاء الإنسانى ، إن لم يتداركوها فعلى الدنيا السلام ، وعلى الدين ألف . . .

والسلام على من اتبع الهدى .

مصر والسودان

وحدة لا انفصام لها

لأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

إن المتتبع للقضية المصرية يروعه أن كان السودان دائماً ، هو الصخرة العاتية التي تتحطم عندها سفينة المحادثات المصرية البريطانية ، ذلك لأن اتحاد شقي الوادي ، أمر حيوي ، لا يمكن للمفاوض المصري ، أن يتجاهله ، ويسقطه من الحساب .

وسأعرض في بحثي هذا إلى العلاقات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والثقافية والقومية والجنسية واللغوية والدينية والسياسية بين الشطرين ، وحينئذ سيوضح أن الوحدة بينهما أمر محتوم ، رضى بذلك المستعمرون أم غضبوا .

العلاقات التاريخية بين مصر والسودان قديمة جداً ، وهي ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة ، كما جاءت بذلك نقوش حجر « بالرمو » أي إلى حوالي ٢٩٠٠ ق.م ، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة امتدت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، وأقيمت القلاع والمعسكرات إلى ما وراء الشلال الرابع ، وأضحت الأراضي السودانية إلى النيل الأزرق ، في عهد الأسرة الثامنة عشرة جزءاً من مصر ، تسود فيه النظم الإدارية والسياسية المصرية ، ودلت الآثار على أن « بلاد الصومال والووات » كانت تدفع الجزية إلى « تحتمس الثالث » كما شيد « أمنحتب الثاني » معبداً في « وادي باع النجا » عند النيل الأزرق ، وشيد « أمنحتب الثالث » كذلك معبداً له في جبهة « صلب » التي تبعد ١٥٠ ميلاً جنوب وادي حلفا . ولقد استتب الأمر للمصريين مدى مائة وخمسين عاماً ، كان السودانيون خلالها يدينون بالدين

المصري القديم ، ويتكلمون أو يتكلم البارزون فيهم اللغة المصرية ، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية .

وظلت العلاقة بين مصر والسودان قائمة طوال عهد الفراعنة ، تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً أخرى ، ولكنها تثبت على أى حال مدى تقدير العقلية المصرية القديمة لفكرة الربط بين الشطرين ، وما وراء هذه الفكرة من خير عميم لكليهما ^(١) . وفي عهد الأسرة العشرين ، ضعفت صلات مصر بالسودان ، وانفصمت عرى الرابطة بينهما فترة من الزمن ، حتى جاء د قمين ، وغزا مصر ثم السودان عام ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع إقامة أية علاقات معه .

وفي عهد البطالسة ، ازدهرت التجارة ، بين د بطليموس الثانى ، ود أركين ، ملك النوبة ، ازدهاراً عظيماً . وقد ولى بطليموس وجهه شطر المرافئ البحرية ، القريبة من جنوب السودان ، ليتخذها قواعد للتجارة مع تلك البلاد ، وهذه المرافئ هى بعينها الملاحقات التى يطالب بها الحزب الوطنى اليوم ، وشيد بطليموس مدينة إبيثيراس Epitheras التى كان موقعها غير بعيد من سواكن ، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه .

وقد نسج جميع حكام البطالسة على هذا النحو من الاهتمام بالسودان وتجارته وخيراته ، ويهمننا أن نعرف أن د أركين ، ملك النوبة ومعاصر د بطليموس الرابع ، وقد لقب نفسه د طنائح آمن رع ، نسبة إلى د آمن رع ، وسمى نفسه د ابن رع وحبيب إيزيس .

وظلت العلاقة قائمة بين مصر والسودان فى عهد الرومان أيضاً منذ أيام د كورنيليوس جاليوس ، أول حكامهم على مصر ، وأخذوا يرسلون الحملات المتعاقبة لتثبيت حقوقهم فى السودان وتأديب القبائل المغيرة على حدود مصر الجنوبية ، وما الآثار والمعازل المنتشرة فى جنوب الوادى إلا دليل هذه العناية بشئون الجنوب .

هذا عرض سريع للاتصال الوثيق بين مصر الفرعونية والبطلمية والرومانية وبلاد النوبة فى الجنوب ، ولقد أطلق عليها فى التاريخ أسماء كثيرة ، فهى فى التوراة

(١) كما جاء وقت كان للنوبيين فيه دولة قوية حكمت مصر والسودان وامتد نفوذها إلى بابل .

« بلاد السكوش ، وكوش هذا ، فيما تقول التوراة ، هو جد النوبيين وأخو
 « مصر ايم ، جد المصريين ، وكلاهما من سلالة « حام بن نوح » ، وتقول بعض
 الروايات ، إن المصريين ، جالية نوبية نزحت إلى الشمال ، وتقول أخرى ،
 إن النوبيين جالية مصرية ، هاجرت إلى الجنوب ، وسواء أكان هذا أم ذاك ،
 فانه مما لا شك فيه ، أنهما من عنصر واحد ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية
 التي أجراها العلامة « إليوت سميث Eliot Smith » في متابر مصر والنوبة أنه
 لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجسمانى ، حتى ليتعذر من هذه الوجهة
 تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر !! وقد وقعت فى بدء الاسرات الماسكية
 فى مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء النجبة لقحت بها الدم المصرى والنوبى .
 ولما جاء الفتح الإسلامى ، تدفقت سيول القبائل العربية الى تلك البلاد
 انتجاعاً للرزق ، وبحثاً وراء مناجم الذهب ، فاختلطت دماء النوبيين والبججه بالدماء
 العربية ، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركى بعنصر آخر حتى
 صار النوبيون خليطاً من عدة عناصر أهمها العربى فالتركى فالبربرى فالنوبى ، ولقد
 أسفر الاتصال التاريخى بين مصر والنوبة عن إيجاد رابطة قوية بينهما ، فإن مملكة
 « نبتة » لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية ، التي أخذت تنمو وتزدهر
 وتضطبع بالصبغة الفرعونية .

وبقيت العلاقات بين مصر والسودان قائمة فى عهد الحكومات العربية
 الإسلامية التي وليت حكم مصر ، والتي ما فتئت ترسل الحملات الى تلك الجهات
 لتأديب المغيرين على حدود مصر الجنوبية وفرض الجزية عليهم . ولقد قال
 المتنبى يمدح كافوراً الأخشيدي :

يصرف الامر من مصر الى عدن الى الحجاز فأرض الزنج فالنوب

وجرد محمد على الكبير ، رأس الاسرة العلوية السكرية ، حملة لفتح السودان
 كان يرمى من ورائها ، إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وقطع خط الرجعة على
 المماليك ، ولما أشار به عليه مستشاروه الفرنسيون ، من أهمية السودان
 الاقتصادية ، ووجود مناجم للذهب به ، ولحاجته إلى الجند . والمهم أن حدود
 مصر السودانية وصلت جنوباً إلى جزيرة « دنكا » أمام غندكروو وإلى كردفان غرباً

وذلك بمقتضى فرمان الذى صدر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، والذى وافقت عليه الدول . وأدخل المصريون بالسودان حينئذ زراعة القمح والخضر، وأنشأوا البساتين وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبرتقال وليون . وأسس محمد على بالسودان عدة مدن منها الخرطوم وكسلا، التى أصبحت عاصمة إقليم «التاكا»، والسودان الشرقى، وكثرت هجرة المصريين إلى السودان، واتخذ كثير منهم مقاما، وتزوجوا بالسودانيات . كذلك أنشأ محمد على مدينة «فامكا»، على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢، وجعلها عاصمة مديرية «فازوغلى»، وأقام على بعد منها قصرًا ومعملا للتقريب عن الذهب مازالت آثارهما باقية إلى اليوم . ونظم محمد على الحكم فى السودان وعين له حاكماً يدعى «حاكم دار السودان»، يتبع ديوان الداخلية بمصر، وجعل الخرطوم عاصمة للسودان، ومقر حاكم داره، الذى خوله سلطات عسكرية ومدنية مطلقة .

وقسم السودان إلى سبع مديريات هى : دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى، وعين لكل منها مديراً، وقسم المديريات إلى أقسام لكل قسم «ناظر»، وللمدير وكيل ومعاونون وكتبة وقاض ومفت، ثم كون «مجلساً أهلياً»، و«ضبطية».. وهكذا كان الحكم فى السودان صورة من النظام الإدارى بمصر.. واستتب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لهذا النظام الدقيق وقال مستر «بورنج»، أحد الساتحين الانجليز فى عهد محمد على : «إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد على، فحيثما بسط نفوذه وحكمه، وطد دعائم الأمن ورعاه، وحيثما ضاع نفوذه ضاع الأمن»، وقال قنصل فرنسا فى مصر «إن الاهالى والاجانب على السواء، يستطيعون السير فى أى بلد من البلاد التى يحكمها محمد على فى وادى النيل إلى أقاصى السودان، وفى سوريا وجزيرة العرب، فقد أقام العدل صارماً فى حزم وفى غير ضعف، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره» .

وبقى السودان فى عهد ابراهيم، كما كان فى عهد أبيه، بمحدوده وإدارته، أما فى عهد عباس الاول فقد عهد السودان منى للمغضوب عليهم . وفى عهد سعيد باشا، أجاز صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، بفرقة سودانية،

أبليت بلاءاً حسناً في الحرب المكسيكية ، ولقد بلغ الشناء والمديح منتهاه على هذه الفرقة ، في كل التقارير التي كتبت عن هذه الحرب .

أما في عهد إسماعيل باشا ، فلم تشهد مصر في تاريخها القديم والحديث مثلما شهدت في عهد إسماعيل من توسع منتظم وطيد في السودان ، فاحتلت الجيوش المصرية فاشودة سنة ١٨٦٥ م ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم خط الاستواء ، وحصل إسماعيل بفرمان سلطاني في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٠ على ضم قائمقامتي « سواكن ، و « مصوع ، إلى حكمه . وفي عهده تم فتح أقليم « خط الاستواء ، و « مملكة أونبوره ، . وبسطت مصر حمايتها على « مملكة أوغنده ، وفتحت « مديرية بحر الغزال ، و « سلطنة دارفور ، ، وعند حدود الحبشة والبحر الأحمر ، امتدت الحدود وضمت « سنهيت ، و « بلاد البوغوص ، حتى « بوغاز باب المنذب ، وضمت كذلك محافظتي « زيلع وبربره ، على خليج عدن ، وفتحت « سلطنة هرر ، في الجنوب الشرقي للحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في ممتلكات مصر السودانية ، إلى « رأس جوردفون ، على المحيط الهندي ثم إلى « رأس خافون ، .

وبهذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصري جنوباً إلى بحيرة البرت وبحيرة فسكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود « ودای ، ، وحصل إسماعيل من السلطان على لقب « خديو مصر والنوبة ودارفور وكردفان وسنار ، ، ومد بالسودان في سنة ١٨٧٧ حوالي ٥٠ ميلاً من السكك الحديدية تبدأ من حلفا ، كلفته حوالي ٤٠٠ ألف جنيه .

هذا عرض سريع للرباط التاريخي بين مصر والسودان منذ عهد الفراعنة إلى عهد إسماعيل ، ومنه يتضح مدى اهتمام كل من ولى مصر بأمر السودان . وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن بقية العلاقات التي تربط بين جزئي الوطن الواحد مصر والسودان .

على هامس الجول والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

ومن أطاع الرسول عاداه أعداؤه ، وأحبه أجبائه ، والباطل أليف الشهوة
وحبيب الشيطان ، والحق يعرفه العقل ويقره الوجدان ، ولكن الهوى متيقظ
والعقل وسنان ، والشيطان متحفز والإنسان غفلاً .

نادى الرسول الكريم قومه فلم يستجب له غير قلة قليلة تحملت معه لأواء
دعوته وخلاف أمته ، وشقاق قومه وعشيرته ، فلما خشيت الفتنة تركت مكة
إلى الحبشة مهاجرة بدينها وفارة بإيمانها ، غير مبالية بمفارقة الأهل والعشيرة
والوطن والمال ؛ وتلك أول هجرة في الإسلام كان فيها عثمان بن عفان وزوجه
وأصحابه ، وقد لقيت من النجاشي إجلالا وكبارا وكراما وتقديرا برغم ما بذله
عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص في تهوين أمرها وتقليل شأنها . وليت
شعري ماذا خشى ابن أبي ربيعة وابن العاص من هجرة المهاجرين وخروج
المضطهدين حتى يلحقا بهم ويعملا على إفساد أمرهم واحباط عملهم ؟ إن القوم
قد فهموا أن الحق في جانب المخرجين ، وعرفوا أنهم أخرجوا من ديارهم بغير
حق ، وأن بذرتهم قوية شديدة إذا صادفتها التربة الخصبة أفرعت وأبذعت وآتت
أكلها وثمرها ، وعند ذلك تخر الآلهة السكاذبة أمام إله واحد ، ويصرع الباطل
من صرخة الحق ، ويتساوى السيد والمسود ، وتختلف بين الناس موازين التقدير ،
فلا قوة ولا مال ولا حسب ولا نسب ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي
على عجمي إلا بالتقوى .

وبني من بقى بمكة يصلى نار العذاب فيكوى بعيدان محمية أو يصغد ويرمى به
في حجارة القيظ ، حتى فتن من فتن ، ولم يبق إلا من استمرأ العذاب في سبيل الحق

والآلم في سبيل الله . وها هي ذى حادثة مروعة تربنا صورة اضطهاد الباطل للحق والكفر للإيمان والجحود للمعرفة ، والنكران للإحسان ؛ أسرة وادعة عاشت في كف قريش عيشة هادئة متواضعة تسمع وتبصر كل ماحولها من آثام وضلال ثم تسمع بعد صرخة الحق تدرى في الأفق ، ودعوة المختار يصدع بها في ربوع مكة ، وكلها خير وإصلاح وعدالة وسماحة ، فتسرع إليها مجيبة مليية موقنة مخلصة ، فيعترض لها السادة المترفون ليصدوها عن دينها ، ويردوها عن إيمانها .

ولكن الحق قد انطبع في قلوبها ، والإيمان قد ملأ نفوسها ، فلم يقدرُوا على محوه أو تحويله عن وجهته ، برغم ما بذلوا من تخويف وتأليف ، وتعذيب وإغراء . وعظم الأمر أمام غطرسة المتعطرسين وكبر المتكبرين ، ففتنوا في إرهابها وأمعنوا في عذابها ، وغالوا في إيلاها ، وهي رابطة الجأش ثابتة الجنان محتسبة صابرة في سبيل عقيدتها وإيمانها ، وليتهم حين عذبوها أحسنوا عذابها . أو قتلوها أحسنوا قتلها . لا بل تجاوزوا مع هؤلاء المستضعفين حدود الإنسانية في أبسط معانيها وأقل مراميها .

هذا أبو جهل عميد الضلال ورأس الكفر وأليف الظلام وعدو النور ، يقتل سمية أم عمار وزوج ياسر بطعنات يصوبها إلى مكان عفتها وموضع طهرها ، فلم يظفر منها إلا بتوحيد يذل شركه ، وإيمان يحقر جموده .

لقد عذبوا فلذة الكبد على مرأى ومسمع من الحب والعطف والرافة والرحمة ، وتجروا على العفة أمام حارسها وحاميها وحافظها وصائنها ، وبالغوا في إذلال الشيخ أمام كرامته وعزته وصاحبته وولده ، وهذا نوع من العذاب له لون ينفرد به وصورة يختص بها ، والأسرة عن بكرة أبيها تستعذب ما يقدم لها من مر الاضطهاد في سبيل طاعة رسولها ومرضاة ربها ، فصبرت على عذاب الناس وخافت من عذاب الله ، إلى أن أسلمت أرواحها الذكية راضية مرضية ، وتركت دنيا العدوان والظلم إلى جنة الخلد والعدل ، وتلك فدائية نستطلع في ثناياها الصراع العنيف بين الضلال والهدى والإيمان والكفر والظلم والعدل ، لقد أسرف أعداء الله في السكيد لأوليائه ليصدوا عن سبيله ومأمهم ببالغي غايتهم ولا مصيبي

هدفهم ، فالنصر العزيز قد كتب للمؤمنين في الدنيا والخلد النعيم قد كتب لهم في الآخرة فهم بين حسنيين ومرجعهما إلى جنتين .

وألح الرسول في دعوته وألح القوم في مطاردته ورد قوله ، وضائق قريش به كما ضاقت بأهله وعشيرته ، فائتمرت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد مناف لا يبايعون ولا يناكحون ، تنفيذا لعهد بغيض كتبه بغيض بن عامر للقوم وعلق على الكعبة تعظيما لشأنه وتوكيدا لأثره ، وحبس محمد وعشيرته في شعب أبي طالب وضيق عليهم فتمنوا الميرة والمادة نحو ثلاث سنين ، حتى ضجعت أطفالهم من الجهد ورق لما أصابهم بعض القرشيين ، ومنهم هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم ابن عدى ، فسعوا في نقض الصحيفة وإبطالها بعد أن أتت عليها القرضة ، ونجحوا في ذلك وخرج رسول الله كما خرج من معه ، وتجهمت له الحياة ورأى من أهل مكة ما كان يراه منهم قبل عزلته .

وزاد في كربيه مفاجأته بموت حاميه ومحاميه أبي طالب ، ثم موت الرقيقة المؤيدة والشريكة المؤازرة خديجة بنت خويلد أم العطرة وزوج الحضرة وأول مؤمنة وخير صاحبة .

هنا اشتد البلاء وقل العون وتجراً على الرسول الكريم سفهاء قومه وكاشفوه بالعداء ، وظهروا له بوجوه طالما قنعوها خشية من أبي طالب ، وصرخوا بالشر وأمعنوا في الإيذاء وضيقوا على الدعوة حتى لا تجد سبيلا إلى الناس وتعطلت أعمال الرسالة ، وتلفت الرسول إلى ما حوله ومن حوله فوجد الطائف أرق نسيما وأطيب هواء وأكثر زرعاً وماء ، ورضى أن يكون من سكانها من رقى طبعه وطابت نفسه وتفتحت مسالك قلبه لقبول الحق .

فقصدها ومعه زيد بن حارثة وهو مؤمل في قبول دعوته حريص على تبليغ رسالته ، ولكن طاش سهمه وخاب رجاءه ، فقد عرض أمره على أشrafهم في عشرة أيام لا يدع أحداً إلا جاءه ، فلم يجن من القوم إلا ما جناه من مكة وأهلها وكان معهم كالمستجير بعمره والمستجير من الرمضاء بالنار ، وكره القوم إقامته فيهم فأمروه بالخروج من بينهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة كفاه لعمله وجزاء هديه ، وياله من بحث مرير وظلم عليل ، نور تطفئوه الظلمة وحق ينهره

الضلال وإيمان يطارده الكفر، لقد أدمت الحجارة قدم الرسول وها هو ذا زيد ابن حارثة يقيه بنفسه ويتوقى عنه بجسمه، فيشج رأسه وفاء وفداء، وانصرف الرسول راضيا من الغنيمة بالإياب وتجمعت نفسه أمامه ونظر الى عظيم ما يحمل وكريم ما يدعو اليه، ثم نظر الى ازدراء الناس له وهواته عليهم فتوجه لسيده المعز واهب القوة ومالك النواصي بكلمات ما كاد يتمها حتى فوض في إهلاكمهم وخبر في عذابهم .
وهيات لمن ملئت نفسه بالخير وبعث رحمة للناس أن يذكر ألمه وغضبه عند ما يرجع القضاء له والفصل إليه والمستقبل كفيف بصد المسرفين ورد المبطلين ؟

احتفال الأمة الإسلامية

بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

احتفلت الأمة الإسلامية في جميع أقطار العالم على اختلاف أجناسها ولغاتها في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهو يوافق الثاني والعشرين من شهر ديسمبر الحالى، بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قامت هذه الأمة بنصيبها من هذا الاحتفال على أكمل وجه ، وأمثلة حال قتلا علماءها سيرته الشريفة ، وتاريخه المجيد في المساجد والمجتمعات ، وأذاع ملخصها بلسان الراديو حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس وزراء مصر ، فدوى صوت رفعتة داخل الدور ، فكان ذلك داعيا لزيادة العناية بسماعها ، كما كان تطوعه لإلقائها بنفسه حافزا للناس إلى تفهمها ، وهى عناية نشكره عليها ، وزجو أن يحذو حذو رفعتة فى هذه الطريقة كبار الرجال فى جميع الشعوب الإسلامية .

ولا يجوز فى هذا المقام أن تغفل ذكر النشاط العظيم الذى قامت به دار الإذاعة المصرية من تخصيص ساعات كثيرة من برنامجها لإحياء يوم ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم وليلته بقراءة القرآن والابتهالات المختلفة . أعاد الله هذه الذكرى الشريفة على الأمة الإسلامية وهى مهيبة الجانب ، مرفوعة الرأس بين الأمم ، ما بقى الزمان ، وتعاقب الملوان .

حول إعجاز القرآن الكريم :

الرسول الأعظم

يتحدى الناس بالقرآن معجزته الخالدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس في كلية اللغة العربية

— ١ —

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والادب والشعر ؛ تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوّه بهما ؛ وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح ، استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأته ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ الكثير الذي كانوا فيه ، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ؛ وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تسكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ،

ويرفعون الخامل الوضيع ؛ فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ؛ وكان النابغة
سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكما بين الشعراء في سوق عكاظ ؛
وكان الأعشى يخبر شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى
وملوك الحيرة وبنى غسان ، ويسافر إلى الحبشة ؛ وكان قس بن ساعدة الأيادي
الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب
للبلغة والبلاء ، والشعر والشعراء . . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ،
ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

- ٢ -

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالاته إلى الناس كافة ،
نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ،
والطهر والخير والحق ؛ وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة ، وأخبار
الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ؛ وفيه كل ما يسعد الناس
في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل ،
وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور
العظيم ؛ فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ،
ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ،
ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاءهم وبلغاؤهم ، فخرؤا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ،
مقرين بأنه تسبيح وحده ، وعلم مفرد في طبقته في البيان . . . بهر الشعراء منهم ،
فخرست ألسنتهم ، وسكنت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب
في الصحراء ؛ وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ماسكاتهم ، وفقدوا
مواهب البلاغة والقول . . وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية
العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين .
فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام . .
فقالوا في القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا
مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحدهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ؛ بهذه المعجزة
الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله
تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ،
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ،
فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »^(١) ، وقال تعالى :
« أم يقولون : افتراه ، قل : أتأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله
وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »^(٢) . وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ،
بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »^(٣) . وقال تعالى :
« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »^(٤) ، فسجل عجز البشر كافة ، وبين أنه لا يستطيع
الإنس والجن - ولو تظاهروا - على الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدر
على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم ؛ لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور
الإنس والجن ، الملك القادر ، والمدير الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته ،
وعظمت حكمته . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن
يكون شاعرا وساحرا ، ومن الافتراء والجننة ، ومن الكذب والخيال ، والنجم
إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحي
يوحى »^(٥) . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بتول شاعر ، قليلا
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ؛ ولو

[٢] هود : آية ١٣ و ١٤ - وهى مكية

[٤] الاسراء : د ٨٨ - وهى مكية

[١] البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهى مدنية

[٣] الطور : د ٢٣ و ٢٤ - وهى مكية

[٥] النجم : د ١ و ٤ - وهى مكية

تقول علينا بعض الأقاويل ، لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإننا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ،^(١) .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافترائهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ؛ وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة .

فعبجروا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور .. واستمر يحزم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبلغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الاجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب ، فلم نر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ؛ ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً ياتي خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ؛ ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفي تاريخ العربية نحول ونحول : كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وكجير والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وشوقي - ولكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكانتها وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرهما في البلاغة الأدبية ؛ أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم ؟ بل أمامك الحديث النبوى الشريف ، وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة ، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟ واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل — فى ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين (١) ،

وأراد مسيلة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما ، غزى وعجز ، وبان عليه العى والحصر ، وباء بالخسران وسوء المنقلب : وأين يقع قوله ، والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت د أسيد ، من رطب ولا يابس د ، وقوله والمبديات زرعاً ، والخاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخابرات خبزاً ، والثارذات ثرداً ، واللاقيات لقماً ، إهالة وسمناً ؛ لقد فضلتكم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من كلامه (٢) ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد (٣) ؟

— ٤ —

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء . ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

[١] ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلانى طبعة ٩٤٨ .

[٢] راجع طرفاً منه فى المرجع نفسه ص ١٢٨ .

[٣] آية ٤٢ سورة فصلت .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والأخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ . وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدمونه ، ويعدونه دستورهم في الحياة ، ويقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ . وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طويلا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ .

وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكتب : وحد لغة وحفظها وأذاعها في العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها ، وأساليها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس بلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيائية وفكرية في لغة العرب ؛ فوق آثاره في حياتهم العميانية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والانسانية كافة ؟



ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ؛ يؤمنون ، إيمانا صادقا ، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ؛ وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين الذي عجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله .

وستمضي الأيام ، وتوالي الأجيال ؛ وهو يضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الالباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني : تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ؛ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، »

الخلافة بعد فتح الأندلس

المؤستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

تكلمنا في العدد الماضي من هذه المجلة عن الخلافة العباسية في القاهرة، ويريد أن نتابع في هذا البحث موضوع الخلافة العباسية، وموقف سلاطين آل عثمان منها بعد فتح سليم لأول لمصر سنة ١٥١٧ م :

لم يهتم العالم الإسلامى بهذه الخلافة اهتماما كبيرا خارج مصر، فالإمارات الإسلامية لم تسع في الحصول على تفويض للحكم من العباسيين بالقاهرة إذا استثنينا من ذلك محمد بن طهلق حاكم دهلئ : وذلك أنه بعد أن حكم مدة ثمانية عشر عاما حكما استبداديا أراد أن يكون حكمه شرعياً، فتمكن من الحصول على تفويض للحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة .

كذلك بلاد الحجاز مع أنها كانت خاضعة لحكم المماليك بمصر، فإنه لم يدع للخلفاء العباسيين في خطبة الجمعة من على منابرهما إلا مرة واحدة زمن الخليفة المستعين بالله أبى الفضل، الذى يربع بالسلطنة والخلافة معا على أثر قتل الناصر فرج .

ولقد اتخذ معظم أمراء المسلمين خارج مصر — بعد أن شعر كل منهم بقوته في بلده — لقب خليفة، مثال ذلك ما حدث في تونس عندما تلقب أميرها أبو عبد الله الحفصى بهذا اللقب — كذلك تلقب تيمورلنك بلقب الخلافة — وكان السلطان محمد الفاتح العثمانى يخاطب سلطان خراسان بلقب خليفة .

إذن يمكن القول بأن هذا اللقب قد اتخذته أكثر من حاكم إسلامى في وقت واحد، كل يحكم قطرا إسلاميا .

على هذا النحو اتخذ سلاطين آل عثمان هذا اللقب قبل فتح مصر سنة ١٥١٧ بمدة قرن ونصف — فاستيلاء السلطان سليم على مصر إذن لم يقدم أو يؤخر في اتخاذ هذا اللقب للسلطان .

أما ما تناوله السكتب التاريخية من تنازل الخليفة المتوكل العباسي رسميا للسلطان سليم الأول عن الخلافة ، فإنه لم يرد في ذلك نص صريح يؤيد هذا التنازل : فمثلا المؤرخ المصري المعاصر بن إياس ، الذي عاصر الفتح العثماني ووصفه بالتفصيل يقول :

« إن المتوكل سلم إليه مخلفات الرسول وهي : البردة التي كان يلبسها الخلفاء العباسيون في بغداد ، وبعض من شعر لحية صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

من هذا يتضح أنه لم يوجد ما يؤيد صراحة التنازل عن الخلافة ، أما الدليل الوحيد الذى يستند إليه المؤرخون الأتراك والأوربيون بخصوص هذا التنازل الرسمى فهو ما ذكره موراجى دوسون Mowrajei D, Hosson سنة ١٧٨٧ فى كتابه « سلسلة عامة لنسب آل عثمان ، وحتى هذا المؤرخ الذى أشار إلى تنازل الخليفة المتوكل العباسي لسليم الأول عن الخلافة رسميا لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه حتى يؤيد هذا الزعم - ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نفلوا عنه الكشف عن حقيقة هذا القول ، ومن ثم انتقلت هذه الفكرة غير المستندة الى سند يؤيدها من كتاب الى آخر من السكتب التاريخية شرقية كانت أو غربية وأصبحت أمرا متفقاً عليه غير منازع فيه من حيث الدعاية الاوربية التى انتشرت فى العالم الإسلامى لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ولو اعتبر السلطان سليم نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل ألقاب الخلافة بالاسلوب القديم ، ومما يؤيد هذا أن سليما بعد فتحه لمصر لم يذكر فى مراسلاته مع ابنه سليمان ، أو حتى مع كبار الموظفين هذا اللقب أو أى لقب آخر يتصل به - أما الألقاب التى وردت فى هذه المراسلات فهى : الخاقان - السلطان خادم الحرمين ، وغيرها من ألقاب العثمانيين .

وعما هو جدير بالذكر أن لقب خادم الحرمين كان يعتز به سليم الأول ويفخر به عن غيره من الألقاب ، ثم توارثه عنه بقية سلاطين الدولة العثمانية — وكان هذا اللقب من ألقاب سلاطين دولة المماليك وليس من ألقاب الخليفة العباسي .

على ذلك يمكن القول بأن سلاطين آل عثمان قبل فتح مصر وحتى بعد الفتح لم يحفلوا باللقاب : الخليفة والإمام وأمير المؤمنين ، حتى إنه لم يرد لها ذكر في المكاتبات الرسمية — وربما كان ذلك راجعاً إلى تأثر العثمانيين بمذهب أبي حنيفة الذى يدينون بمبادئه ، والذى كان يرى أن الخلافة الحققة لم تدم إلا ثلاثين سنة كما أنه لم توجد هذه الألقاب فيما كتبه الفقيه التركى إبراهيم الحلبي في كتابه « ملتيق الابحر » الذى أصبح مرجعاً هاماً فى التاريخ العثمانى ، كذلك ما دونه فريدون بك فى رسائله السياسية التى قدمها إلى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥م لم يعثر فيها على هذه الألقاب .

ولم يتلقب سلاطين آل عثمان بهذا اللقب إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد فى معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شيء من النفوذ الدينى على العالم الإسلامى الذى كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية — ففى معاهدة كيتشك كينارجى Kuchuch Kainarji التى أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكثرين الثانية ملكة روسيا سنة ١٧٧٤م اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة ، وأعطت هذه المعاهدة السلطان العثمانى السلطة الروحية على المسلمين فى شبه جزيرة القرم ، كما منحتة حق تفويض والى هذه البلاد بالحكم ، وتعيين القضاة ورجال الإفتاء — ولقد فطن الروس إلى أن هذه المادة تمهد السبيل لتدخل العثمانيين السياسيين فى هذه البلاد ، فألغوها سنة ١٧٨٣ .

وفى القرن ١٩ أصبح للقب الخلافة المعنى القديم الذى يقصد به السيطرة على كافة المسلمين - وقد ظهر ذلك جلياً فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى دستور مدحت باشا فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، حيث نصت الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، وسوف تقول

إلى أبناء البيت المالِك - وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى .

ومن أهم العوامل التى جعلت الخلافة تظهر بهذا المعنى القديم ضعف العالم الإسلامى ووقوعه تحت سيطرة الدول الأوربية الإستعمارية ، كوقوع الهند تحت الحكم البريطانى - وتقدم روسيا إلى أواسط آسيا فبسطت نفوذها على شعوب إسلامية ، واقتطعت فرنسا جزءاً من أملاك العثمانيين فى شمال أفريقيا - فكل هذه العناصر الإسلامية المشتتة فى أنحاء العالم كانت تطمع فى أن يكون بينها ارتباط بأقوى دولة إسلامية وهى الدولة العثمانية .

ومن هذه العوامل أيضاً : أن السلطان عبد الحميد حكم الدولة العثمانية فى ظروف حرجية ، فالولايات المسيحية الباقية فى البلقان تحت حكم العثمانيين مثل الصرب والجبل الأسود واليونان ... كانت تتفاقم فيها الثورات بقصد الانفصال عن الدولة العثمانية ، أضف إلى ذلك إعلان روسيا الحرب على الدولة وتهديدها للقسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، فذلك كله جعل العالم الإسلامى الذى خضع للنفوذ الأوروبى يتجه شطر الدولة العثمانية ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذت الدولة العثمانية تتجه أيضاً إلى العالم الإسلامى الخارجى لتكسب عطفه الأدبى فى صراعها ضد المسيحيين . .

وقد جد عامل آخر جعل السلطان عبد الحميد يهتم بالخلافة ، وهو مقاومة الحركة الدستورية التى ظهرت فى تركيا بقيادة مدحت باشا ، فقضى عليها وعلى قائدها وحاول أن يحكم بطريقة استبدادية رجعية ، فعنى بإحياء الخلافة بمعناها القديم لى يؤكد الصبغة الدينية ، فتلقب بلقب خليفة الله فى الأرض ، ولقب أمير المؤمنين .

وقد نجح السلطان فى ذلك نجاحاً مؤقتاً حيث ثار عليه رجال حزب الاتحاد والترقى ، وخلعوه لعمله على تأييد حكمه الاستبدادى فى بلاده بإلغاء الدستور ووقوفه فى سبيل الإصلاح .

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، وهزمت فيها ، وفر مصطفى كمال إلى الأناضول ، وتمكن من إيجاد جيش بصعوبة دافع به عن الوطن التركى

وأحبطت المشروعات التي كانت ترمى إلى تقسيم الأناضول - وأعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية ، وأعلنت الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة لم يعد له مبرر ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من أهمها :

أن بقاء الخلافة قد يثير حوله حركات رجعية ودسائس ترمى إلى معارضة الحكم الكمالى ، وقد حدث هذا فعلاً فى داخل تركيا ، وحتى فى الخارج تزعم هذه الحركة أمراء الهند مثل أغاخان وأمير على .

ومن هذه العوامل أيضاً أن فكرة الخلافة ترتبط بحركة الجامعة الإسلامية ، أى جمع المسلمين تحت لواء واحد ، وهذه الفكرة المرتبطة بالخلافة تخالف فكرة الدولة القومية الحديثة التى أخذت بها الجمهورية التركية الجديدة ، إذ أن أغلب سكانها أتراك لا يريدون أن يكون لهم شأن بمشاكل العالم الإسلامى المشتت فى أنحاء مختلفة .

ومن هذه العوامل أيضاً رغبة مصطفى كمال فى أن يجعل الوطن التركى وحدة واحدة متجانسة لا تفريق فيها بين الأفراد أو الرعية بسبب المسائل الدينية . وهناك عامل آخر ، وهو أن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة .

والعامل الأخير ، هو أن وجود الخلافة فى تركيا ، يؤثر فى علاقة تركيا الحديثة بالدول الأوروبية - ولم يشأ مصطفى كمال أن تتزعم تركيا العالم الإسلامى وهى فى حالة من الضعف والتفرقة ضد الدول الأوروبية المنتصرة ، التى استولت على معظم أملاك الدولة العثمانية القديمة - لذلك لم يرغب فى أن يزوج بيلاده ، فى مشكلات لا حل لها ، وفضل إلغاء الخلافة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان لا مانع عنده من أن تقوم فى أى مكان آخر .

وفى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر للخلافة فى القاهرة ، وحضر مندوب عن تركيا وأعلن أن لا مانع من إقامة الخلافة فى أى مكان ، ولكن ظروف العالم الإسلامى لم يهيء له قيام الخلافة منذ ذلك الوقت .

فجعة الشرق في مهاتما الغرب

للمؤستاذ صمزة محمد الشيخ

ليسانسيه في الادب الانجليزى

من جامعة فؤاد الاول

بالامس القريب تجاوزت أسلاك البرق في العالم كله تذيع أن حياة برناردشو قد انتهت ! مات بعد حياة دامت أربعة وتسعين عاماً . فقال صديق له ، وهو يغادر منزله ، هذه نهاية حلقة من حلقات التاريخ ، ، وتلقى أندريه مورو ، الأديب الفرنسى ، النبأ بقوله : إن (شو) استطاع أن يقدم للمسرح الانجليزى طاقده لإبسن للمسرح السكنديناوى ، و وفاة (شو) سيكون لها صداها الكبير فى العالم كله ، ذلك أن (شو) كان أحب المكتاب جميعاً لدى الرأى العام ، لا لما كان يقول ، ولكن للاتجاه الذى يمثل ، ، وقال بيتس ، Yeats ، الشاعر الايرلندى عن (شو) — : إنه أحد أبناء النور الذين نشأوا بين أبناء الدنيا . إنه ينطق بلغتهم ، ويفكر مثلهم ، ولكنه مأخوذ بطبيعة أرفع وأسمى ، ، وقال ماسفيلد الشاعر يحبيه فى عامه التسعين ، من قصيدة شعرية : « أيتها الروس النيرة على هذا السكوكب . كرميه وهو بقاء الحياة ، ولبات ولاية الفن الجليل بعد قرون فليأمرؤا له بالتصعب والتأثيل ، .

أما دشو ، نفسه فكان يقول : إننى لا أحب الحياة لذاتها ، وليست الحياة مصباحاً صغيراً أحمله ، وإنما هى مشعل هائل أمسك به الآن فى يدي ، وأريد أن يشتعل وأن يزداد توهجه قبل أن أسلمه للأجيال المقبلة ، ، ولعل ذلك ما كان يراه من فرق بينه وبين شكسبير ، إذ كان يرى نفسه صاحب رسالة لجيله والأجيال التالية ، وأن شكسبير لم تكن له رسالة يحملها لجيل من الأجيال .

فما هي تلك الرسالة التي أداها «شو» ، والتي جعلت أبناء عصره يحيطونه بفيض من الشهرة والاعجاب كأننا حقاً له ، بل دون حقه بكثير ؟ .

وقبل أن نخوض في جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجلٍ بنشأة الأديب التي كان لها أثر عميق في توجيهه ... فقد نشأ في أيرلندا ، والاييرلنديون قوم أرهقهم الحكم الأجنبي ، وعضهم الفقر ، فرحلوا من وطنهم يطلبون الرزق ويكدحون في سبيله ، ووجدوا في الفسكاهة المستقرة في أعماق نفوسهم خير معين على فقرهم وسلطانهم المسلوب ، ومن هذه البيئة استمد «شو» سخريته وتمرده وإيمانه بجذوى المال في حياة الناس . وورث برنارد شو عن أمه الذوق الموسيقي المرفه ، وحاكها في تمرداها على التقاليد ، كما أخذ عنها الدعوة الصوفية النباتية فأصبح من النباتيين ، حتى إنه كان يدعو نفسه مهتما الغرب ، كما كان - فيما بعد - يقول عن غاندى « إنه من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة في كل ألف سنة » .

وأناحت الإيرلندية لبرنارد شو أن يتجه تفكيره اتجاها عالمياً ، فنزع إلى الثورة على الاستعمار والاستغلال ، وحاول تحطيم الأغلال التي تستعين بها الأمم القوية في تقرير مصير الشعوب المستضعفة . وفي الحق إنه إذا كان العالم بأسره حرياً بأن يذكر ذلك الفكر الحر الطليق ، في وقت طغت فيه ذاتية الشعوب وقادتها على آرائها واتجاهاتها ، فإن مصر خاصة خليفة بأن تعزز بصدقة مفكر هذا شأنه ، وبأر تقوم اليوم بتمجيده وإحياء ذكره .

كان برنارد شو يعطف على مصر ، ويقرأ عنها كثيراً ، ويتقصى أنباءها المتقلبة تقلب الدهر ، بل إنه ساهم بنصيب كبير في عرض قضيتنا الحائرة أمام الرأي العام الإنجليزي ، ودافع عن المصريين أجدد دفاع أيام محنة دنشواي ، فكتب فصلاً طويلاً ، لم يكتب أحد مثله ، في مقدمة روايته « جزيرة جون بول الأخرى » ، يدافع عن المصريين ، وقت أن كان لورد كرومر يعامل المصريين معاملة السيد لعبيده وإمائه ، وفي حقبة حالكة من تاريخ مصر ، عز فيها الصديق الذي ينتصر للحق ، ويقاوم الطغيان أنى كان . وقد لاقى « شو » في سبيل دفاعه عن مصر كثيراً من تهكم بعض الكتّاب الاستعماريين ، الذين اشتقوا من اسمه واسم

دنشواى نسبة واحدة فقالوا ، شاقيان ، Shacrian ، غير أن ، شو ، واصل اهتمامه بالقضية المصرية ، فراح يعرض على قرائه تاريخ المحكمة المخصوصة ، التى أنشأها الإنجليز لمحكمة المصريين ، وأثبت بقلمه الصريح العادل وبسخريته اللاذعة ما لاقاه المصريون من جور وعسف واضطهاد . ولم يقر لسكاتبنا العظيم قرار ولم تحب نيران حملته على مواطنيه ، حتى عفى عن المصريين الذين سجنوا ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ولسنا نستطيع أن نفي الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به ، شو ، اتجاهاً واقعياً ، أخذ أساسه عن هنريك إبسن النرويجى ، الذى استكشف الرجل العادى ، وأزاح الحجب عن حياته وسجل بطولته ، وعلى إبسن العظيم تلمذ ، شو ، العظيم . ومن هنا كانت المشكلات التى يعالجها ، شو ، ليست مشكلات خاصة بأصحابها ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص ، كالزواج وقدسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا) والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجاليون) . ويقوم ذلك المسرح الذى دعمه ، شو ، على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع ، فليس يفصل المشاهد غير الحائط الرابع ، الذى نعرفه بالستار ، لىكى يرى ما يجرى فى بيوت الناس .

أما فلسفة ، شو ، الاجتماعية فهى : الاشتراكية الغايبية ، التى نادى بها الجماعة الغايبية ، منذ تأسست فى سنة ١٨٨٤ ، وهى ليست سوى حركة تهدف إلى إصلاح المجتمع والحكومة بتوفير المال للجميع على اعتباره الوسيلة المجدية لتخليص الناس من الرذائل المادية والمعنوية .

ولا يؤمن ، شو ، بالديمقراطية كذهب سياسى ، بل على عكس ذلك نراه يعجب بالديكتاتورية بمعسكرىها الفاشى والشيوعى . ولعل السبب فى ذلك أن الجماعة الغايبية ، نفسها كانت تنتمى إلى حاكم بأمره قديم ، ثم إننا رأينا ، شو ، يبشر بالسوبرمان فى مسرحيته ، الإنسان والإنسان الأعلى ، فلعله كذلك كان

يرى الدكتاتوربة أقرب السبل التي تؤدي إلى تحقيق الحلم الذي راوده طويلا ، وظل حياته كلها يرنو إليه ويوصي العالم بانتظاره .

هذه المهمة بالأديب الغربي الاشتراكي برناردشو ، الذي له دين في أعناقنا نحن الشرقيين - ثقيل ، فقد امتزجت الثقافة الشيوعية الفنية بكافة الثقافات ، حتى لقد شهد منتصف القرن العشرين نقلة بعيدة في ذلك الميدان ، كان فضل د شو ، فيها لا يدانيه فضل كاتب ولا أديب .

وحسب الراحل الكبير نخرآ ، وكفى فنه تكريماً ، أن انتقل أدبه الانيق الرائع إلى كل لغة حية ، واحتل فيها مكانا مرموقاً . . ود شو ، فنان إيرلندي بموطنه الأصلي ، بيد أن له في كل بلد وطن ، ومدرسة ، وتلاميذ ، وسوف يظل حياً آلاف السنين ، لا بنفسه ، فقد خبت قوتها الملهمة إلى الأبد ، ولا بجسده ، فقد همد منذ بعيد ، ولكن في التاريخ ، وتلك هي الحياة .

عشرة آلاف لبيتين

دخل شاعر من أهل الري يقال له أبو زيد على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده هذين البيتين وهما :

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً من شاد مهرودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هوذة بن علي وابن ذي يزن
فأمر بعشرة آلاف درهم جائزة على هذين البيتين . ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دأها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا من القناة سقاها

فقال لها لا تقولي غلام ولكن قولي همام ، وقال يا غلام أعطها خمسمائة . قالت احسبها إبلا . فرد عليها قائل بقوله : إنما أمر لك الأمير بشاء . قالت الأمير أكرم من ذلك . فاضطر الحجاج أن يوافقها على ظنها فجعلها إبلا على استحياهم وإنما كان أمر لها بشاء .

ظل الرباعية في البيان

لفهيدة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمون

مدرس بالأزهر

إذا صعدت النظر وأمعنت التنخل في منظوم الادب العربي ومشوره ، وجدت
القرائح في نتائجها تتدرج مع البيئة ، وسعة الحضارة ، وفسحة الصناعة الفنية
والاداة البيانية .

وأصدق ما يسعف القارىء - حتى لا يخالف ما نذهب إليه في عجالتنا -
معارض الرياحين وملاعب المورقات وفتنّان الزهر ومياس الغصون وملاح
الورود وظلال الحدائق وجداولها ، مما أثر في أحاسيس الشعراء وأخيلتهم ، ولون
نثر الادباء وبياناتهم .

ذلك لان القرائح العربية ما إن تفتحت لها زهرة المفان وسخت الحضارة
واخضوضرت ، الاقاليم ، وازدانت بالحدائق وتوزعت المواهب بين فراديس
الاندلس ، وشواطئ النيل ، ومسائل الأبلّة ، وسندسيات غوطة
دمشق ، وجمال شعب بوان ، وسحر صغد سمرقند ، حتى لف الشعراء
والكتاب فتون وجنون بالجمال المورد والخلاية الهنداء والطيوب الشذية . ماء
وظل وروح وريحان . و شقائق نعمان .

ومنا طمح الشعراء وأجاد الكتاب وطيروا أوصاف السوسن والأذريون
والشقيق والهار والأخوان والخيري والنسرين والخلاف والثيلوفر .

وأبدعوا في وصفهم للبنفسج والرجس والياسمين والآس والزعفران .

وبعد أن كانت طاقاتهم مقطعات أو أبيات تعبر في خرياتهم أو مدائحهم
أو تشبيهاتهم حملهم الشعور بالجمال على أن يخصصوا الرياحين بقصائد ورسائل
بل زادوا على هذا ونحصر بعض الشعارين والناثرين والكاثرين في حسان
الطبيعة في لدات الحداثق وناشرات الطيب ومضمخات النسيم .

وفوق هذا تفننت القرائح وتناوحت وأمعنت في الإخلاص بعرائس
الروض ، فجعلت منها شعبا وفرقا تشبك الالهواء حوالها وتعلق بمحاسنها ، هذا
ينتصر للورد وذاك بفضل الياسمين والآخر يروج للرجس ويمدح طريقه .

وفي كتب المحاضرات ، عقدت مناظرات ومخاصمات كانت بطولتها
للرياحين ، ومحور الصراع والمفاخرة للآس أو الورد أو الياسمين .

وكأنى بالشعراء والكتاب - حين وجدوا أفنية الملوك والأمراء قد بخلت
على فهم - انصرفوا إلى مملكة الرياحين يتوجون منها ما يحبون وينتضرون لمن
يمجدون في وجفاته وميساته ما يرضى إحساسهم ويريح جوانحهم ويمتدح أبصارهم
ويمسح عنهم غناء الحياة وجهامة الجسد في كسب العيش ولاعجات الضيق
بالحياة والاحياء .

* * *

وزاد شغف الشعراء والكتاب ، واضطرتها لكرمهم في سوق الرياض وظلال
الحداثق ، حتى ليخيل لمن ينقب في نتاجهم ، أن الشعراء والكتاب أقاموا من
الرياحين أحياء يخاطبونهم ويشكون إليهم فتحن ويمدحونها فتخجل ويناجونها
فتسمع ويظربون لها فتضطرب . ويخافون رقيبها ويحذرون عيونها
ويخشعون لطلعتها .

ولقد أسرف الشعراء والكتاب بعد العصر العباسي الأول وبالغوا وصنعوا
وتكلفوا وأرهقوا قرائحهم ، حتى ضيعت الصناعة على بعضهم كثيرا من جمال
الوصف ودقة التعبير والتشبيه والتصوير ، وحظ البيان المشهور من طاقات الرياحين
لا يقل عن البيان المنظوم .

ويكنى أن نذكر (ابن يرد الاصغر) ثم نشير إلى رسالة له أجرى فيها
التفاوض والتحاور ، ثم قدم فيها الورد على الرياحين في مجلس عقده لرؤساء النوار
والأزهار ، منها النرجس الاصفر والبنفسج والبهاء والخيري .

ثم انتهى بأن عقد الرياسة للورد ، بعد أن أجرى على السنة الإبطال وجه
التفضيل ، ويضيق المقام عن نقل رسالة المولى الفاضل تاج الدين الياني المتوفى
سنة ٧٠٦ في المفاخرة بين النرجس والورد .

وكذلك ما جاء في الخريدة للعماد الأصفهاني من رسالة تفضيل الورد .

وإنا لنقبس بعض ما جا . على السنة الشعراء لنذل على صناعة بيانية تأثرت
بمفاتيح الطبيعة الشذية لأبي العلاء صاعد الأندلسي في وردة .

وردتك يا سيدي وردة يذكرك المسك أتعاسها
كعندرام أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
ولأبي طالب الرقي :

وردة في بثان معطار حيث بها في بديع أسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

* * *

ولشاعر :

كأنما الوردة لما بدت في كف من أهوى ويهواني
حمة خديه وفي وسطها صفرة لوني حين يلقاني

* * *

ويقول العسكرى :

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الانجم كالشمس

* * *

ويقول أبو دلف :

أرى ودكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
ومن الأمثلة التي تشهد باستئثار الروض واستيلاء الرياحين على عواطف
الشعراء ما قاله التنوخي .

أما ترى الروض قد وافاك مبتسما ومد نحو الندامى للسلام يدأ
فاخضر ناضر في أبيض يقق واصفر فاقع في أحمر نضداً
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحمر ذا خجلا واصفر ذا كهدا
ومن شعر كشاجم في قصيدة جيدة :

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
كأن غصونه سقيمت رحيقا فماست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه مداهن من لجين للخلق
يذكرني بنفسجيه بقايا صنيع اللطم في الخد الرقيق

* * *

وفي النرجس لصفي الدين الحلي :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلى وللنمائم حولي المسام
أيارب حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمام
وإني حين أوثر في استشهاده ذلك الضرب من الوصافين الصناعات لا أغفل
إعجابي بلفظ العباقرة من أمثال البحري .

أناك الربيع الطلق يخال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وما ضحكة الربيع إلا بسمة والنوار .

ولست بناس عشرات « النواصي » ولا نفحات « ابن الرومي » أو وصفيات
« ابن المعتز » أو طاقات « ابن خفاجة » ويكفي في إعجابي هذه الإشارة ، فليس لدى
من عدة البحث غير المعلق في الذاكرة ، وفراغ الصحيفة يضيق بالمزيد .

كيف ندرس الأدب

للدكتور أحمد محمد صقر

الطالب بكلية اللغة العربية

هذا رأى فى دراسة الادب للكاتب

تلك الآثار من نتاج الادباء هى التى أعنيها من كلمة «الأدب» ، فنحن فى عصر أصبح فيه تحديد منهج البحث لازمة للكتاب والباحثين ، ولم يعد مُساعاً ذلك الشيوع فى الفكرة والاتساع فى دوائر الدلالات والتساع فى إطلاق الاسم على المسمى وما يجاوره ، وما يمت إليه بصلة واهية ، وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ليتمكن الإنتاج وليتهدى التوافر على العمل ويصير الدرس أكثر نفعاً وأقرب متناولاً ؟

وبدهى أن تولد من المادة الواحدة مواد متعددة ، فبعد أن كان التاريخ شاملاً لكل ما يتصل به من سياسة واجتماع وأفكار ومذاهب وعلوم وآداب ، أصبح التاريخ مقيداً بكونه تاريخ سياسة أو تاريخ فرق أو تاريخ علوم أو تاريخ آداب ، فهذه كلها فروع كانوا يطلقون عليها اسم التاريخ . وكفى !

وهذا العمل نفسه قد حدث للأدب ، إذ كان يطلق على كل العلوم العربية بما فيها من نحو وعروض وبلاغة ، وكانوا يقولون عن الأدب : « هو الأخذ من كل فن بطرف » ، ولكن الدقة العلمية جعلت هذه المواد تنفرط من حول الأدب ، فضاقت معنى هذه الكلمة ، وأصبحت تطلق إطلاقاً فنياً على تلك الآثار والنصوص الأدبية فقط ، سواء أكانت شعراً أم نثراً ، رسائل أم خطباً ، أم محاورات .

فدراسة الادب هي دراسة تلك النصوص . . . والقصد من هذه الدراسة تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الادبي والسمو بالعواطف النبيلة بعد فهم هذه النصوص ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيها : ولكن نفس الغيور على الادب تتقطع حسرات عند ما ينظر إلى طرق دراسة الادب في معاهدنا على اختلاف أنواعها . وإن كل ذى حذب هلى تلك الآثار ليتلوى المأ على مصير هذا الفن الرفيع حينما يتخيل الظلام المخيم على هذا الركن من التراث العربى .

وما أحسب الناس إلا قانعين بما هم فيه من خلط لا يرضاه منصف لادب لغة حية راقية . . . وبزيدنى لإشفاقاً أنى أسمع عن محاولات لإصلاح الدراسة فى كل المواد ، ما عدا الادب ، فكأن هذه المادة بلغت حد الكمال ، ولم تعد فى حاجة إلى النظر والتنظيم . . والله يعلم أن تلك هى المسألة فى كل شىء . . بل أستطيع أن أقول : إن الادب لم يدرس ولم يعرف عنه شىء فى دور التعليم . . إذ أن الذى يدرس الآن هو تاريخ الادب ممزوجاً بفقته اللغة . . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل قطعت أوصاله ، ومزق شر ممزق بتقسيمه إلى عصور ومراحل تتبع الانقلابات السياسية وتغييرات الدول . .

هذان هما منبع النقص فى دراسة الادب العربى . . :

أولاً : غلبة التاريخ على مذكرات الادب .

ثانياً : تقسيم الدرس تبعاً للعصور والانقلابات السياسية . .

وبذلك يضع الادب باعتباره مادة مستقلة بين هذه الاخطاء التى ارتكبت ولا تزال ترتكب فى كل كتاب يدرس على أنه فى مادة الادب . . ولا شك أن هناك مدافعين عن ذلك الوضع يقولون : إن التاريخ يبين لنا مراحل الآداب وأطوارها . . ودراسة البيئة تعيننا على دراسة الأدباء وفهم كلامهم . . ومعرفة الحالة السياسية تساعدنا على معرفة الحالة الادبية . . ثم تقسيم الدرس باعتبار الانقلابات والدول يساعدنا على التحليل والتعمق ، إذ أن لكل عصر ميزة وطابعاً . . ولكل دولة تقاليد . . والادب صورة من هذه الميزات والطوايع والتقاليد . . وهذا الدفاع لا يغنى شيئاً ولا يفيد فائدة ، فنحن لا نطلب وضع

حجاب على التاريخ وطمساً لحقائقه .. كلا .. ولا نطلب الاكتفاء بهذا القدر المختصر .. بل نريد التوسع في التاريخ التحليلي ، فهو خير معين على دراسة الادب كما نطلب فصل المعلومات التاريخية عن كتب الادب فصلاً تاماً ، فيدرس تاريخ الادب على أنه مادة مستقلة .

وأما الادب ، فإنه النصوص الأدبية ، وهي الكنز الباقي لنا من مخلفات السابقين ، فحرام أن تضيع درره في أطلال التاريخ ، وتثر جواهره في الطرق والسراريب ، تطوها الأقدام وتمر عليها الاعين مر السكرام - إنك حينما تقلب كتاباً من كتب الادب التي في أيدي الطلاب تأخذك الشفقة ، ويستولى عليك اليأس حينما ترى شجرة القبائل العربية وتاريخ اللهجات .. وأمثلة من العجعة والكسكسة والطمطمانية ، ونشأة اللغة .. والخلاف الطويل بين العلماء في هذا الموضوع .. وهكذا . ثم تجد في ذيل الكتاب نتفاً من الشعر وقطعاً من النثر مقتضبة مجتمعة ، يحفظها الطلاب للاستشهاد بها عند ترجمه الأدباء .. أو يرثونها أمام اللجان في الامتحانات الشفوية .. دون فهم ودون بحث عن ناحية الجمال فيها .

هذه جناية خلط التاريخ بالادب .. وسأعرض عليك الجناية الفنية الأخرى التي تجنبها الدراسة الحالية على تلك الآثار بتقطيع أو صالها ، وتجزئة الأغراض : إلى جاهلية وأموية وعباسية وغير ذلك .

وما أعتقد أن هناك نفعاً ولا فائدة في هذا النوع من الدرس ، لأن عنصر المقارنة والموازنة مفقود .

وسبيل البحث في الأخذ والنقل والسرقة غير ميسرة . فإن المنهج يفرض في كل عام عصراً من العصور بأدابه القليلة وتاريخه الكثير . فتجد المنهج مشحوناً بالمباحث التي لا تمت إلى الادب بقراءة ، والمادة الأدبية نفسها ضئيلة ومقصومة الظهر ، فكأنك تطلع على عضو من جسم ، وذلك تشويه لعرض الادب ، وإفساد لثمرته المرجوة ، وإملال للنظر فيه ، إذ هو مجبور على مطالعة آثار الجاهليين مثلاً فيرى جزءاً من كل غرض ، فإذا انتقل إلى العصر الثاني نسي العصر الأول واطلع على عضو آخر منه هذا الجسم . فما ينتهي من العصور كلها ، إلا وفي ذهنه صورة

شواهه غير متماسكة الاجزاء، ولا متشابهة الاطراف، لانها لم ترسم على الخيلة إلا مبشرة لا تقل لى : إن أدب كل عصر يكون مجموعة تدرس على حده لأن ما رأيت روضا من الرياض يطلب منه أن ينبت نوعا متشابهها من الأزهار، فقد يجمع الزهر المختلف اللون والعبير والحجم والشكل، ومع ذلك يستمد بهجته من هذا الاختلاف وتطمع النفوس فى الانس به لهذا السبب . وهل الآداب إلا إزدهار اللغات تفوح وتنفتح وتسرى وتبهج ؟ نخذ غرضا كالغزل مثلا واجمع كل ما قيل فيه منذ أول العصور إلى عصرنا هذا، وادرسه دراسة وافية ووازن بين المعانى المتقاربة، وأرجع الفرع للأصل، وتأمل كل تعبير، وأكشف اللثام عن مناحى الجمال . وأنقد الفكرة واللفظ والمعنى، وأظهر العيب والنقص . وخبرنى أذلك خير وأجدى، أم دراسة قصيدة من كل غرض . فما أشبه الغرض الواحد بالخيط الممتد، ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط . فيسكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ؛ لأن جماله فى تماسكه وتجانسه وفى جوهره، أما أعراضه فليست حائلا يمنع من تسكلمة الصورة واستقلالها . ! فإذا انتهيت من دراسة هذا الغرض فانتقل إلى غرض آخر لتأخذ عنه فكرة كاملة لا مبهوشة ولا مجزأة، وبذلك يمكننا أن ندرس الادب دراسة فنية تؤدى بنا إلى الغاية المنشودة، إذ أن الأدب هو ثقة القلوب حينما تهز أوتارها الاشجان، وهو صوت الشعور يناجى به الجمال، وغناء الوجدان تحركه أنفاس الفجر ونغمات الزهر، وهو مع ذلك أنة الثاقل ودمعة المحزون، ودم الأعصاب التى عصرها الألم، وشفها العذاب ؛ فهو صورة من النفس البشرية تبين آلامها وآمالها فلا بد من دراسته دراسة نافعة مثمرة مفيدة، وذلك لا يتحقق إلا بتخليصه من هذه الشوائب، ودراسة كل غرض كامل دراسة وافية .

فإذا فعلنا ذلك خرجنا أجيالا أكثر نفعا وأعظم فائدة لا يدورون حول أنفسهم ولا ينتهون حيث بدأوا، بل يتقدمون، ثم يتقدمون ؟

[مجلة الأزهر] نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها .

رسالة الأستاذ الأكبر إلى شعوب العالم الاسلامي

هذه الرسالة خير ما يوجه إلى الشعوب
الإسلامية في العالم أجمع في الحالة الحاضرة جمعاً
لصفوفها ، وصونا لوحدها .

إنني ، وقد توليت منصبى هذا ، أعد نفسي قد حملت أمانة غالية دقيقة لا شك
أنى مسئول عنها أمام ربى ، وأسأله تعالى أن يهينى من لدنه عوناً ييسر صعبها ،
ويذل عتابها ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

لقد عشت طول حياتى معنياً بأمر المسلمين ، مفكراً فيما يصلحهم ، وينقذهم
مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوى فى العلم
والعمل ، فوجدت أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين :

أولهما : أن يؤمنوا إيماناً عن بينة وبصيرة بأنه لا صلاح لهم إلا بهذا الدين
الذى صلح به أولهم ، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون
فى بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء والوان الشقاء .

وثانيهما : أن ينسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورثتهم إياه عوامل
الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض
لها إلا إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، والدفاع عن الحق حيثما وجدت
لذلك سبيلاً .

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول ، استقر فى قلوبهم حب
دينهم ، وحرصوا على أن يسلكوا سبيله فى حياتهم ، وأن يسيروا على خطته

ومنهاجه السديد في كل شئورهم ، فإن الإيمان بشئ ما هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه ، وعلى هذا الأساس انتصر الإسلام في أوله ، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله ، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمتاع ولولا ذلك ما استقام لهم أمر ولا تمكنوا - وهم القلة الضئيلة الهزيلة المستضعفة - من السيطرة على أكبر الأمم في أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة .

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة في قوله جل شأنه : « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبنائكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

فبين بهذا القول الصريح ، أن أساس الإيمان هو إثبات الله ورسوله على كل ما سواهما بالحجة الخالصة الصادقة ، وأن إثبات شئ عليهما فسق وخروج على أمر الله ، لا يهدي الله أصحابه ، بل يجعلهم في موضع المتربص المتوقع للبلاء حتى ينزل به ويأتى عليه .

والمسلمون - مع الأسف الشديد - في هذا الموضع منذ زمن طويل ، فقلما نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شئ من متاعه الفاني ولو كان زهيدا ، ولذلك كانت حالهم هي تلك الحال التي تسر العدو ، وتسوء الصديق .

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال ، أن يتعاون أهل العلم والرأى في كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما نافعا ، وأن يظهروهم على مافى الدين من محاسن ، ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام ، كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر في ذلك أكبر قسط ، فإنه الجامعة الدينية التي تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتي تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أخذت على عاتقها وشرعت - والله المستعان - في توجيه هذه الجامعة الكبرى الى ذلك توجيهها عمليا صالحا ، أرجو أن يكون مبارك الثرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله .

وسوف لا أدخر وسعا في إمداد المسلمين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حيثما حلوا ، وأساة الأرواح والقلوب أينما سلكوا ، حتى نربي أمة جديدة شبيهة بالامة الأولى التي فتح الله بها مشارق الأرض ومغاربها .

وإذا كنت أعلن ما اعترمته وبدأته في ذلك ، وأدعو إليه أبنائي الأزهريين أن يأخذوه بقوة فاني أدعو كذلك سائر أهل العلم في مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية أن يقوموا بما عليهم في ذلك ، وأن يبشوا الدعوة للدين والعلم به في أقطارهم ويحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

أما الأمر الثاني ، وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب ، والغض عن كل ما يثير الاحتاد ، وينسكأ الجروح ، فذلك أمر له فائدته الكبرى في التعجيل بالقضاء على الضعف ، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم .

إن مثل المسلمين ، إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والتقطيعة ، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، فهي تشغل ابناءه . وتستنفد قواهم ، وتضيع جهودهم ، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم أعدائهم ، وتسكون سببا دائما في انقال كواهلهم بما لا يتحملون من الأعباء ، وفي لباسهم لباس الذل والخوف والشقاء .

لقد ألحّت هذه الحروب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون ، فقطعت ذات بينها ، وأفسدت كثيرا من خطط الإصلاح على واضعيها والداعين إليها ، وما علمت حربا كهذه نيرانها حامية ، وأسبابها واهية .

فليتدبر المسلمون موقفهم ، ولا سيما في هذا الوقت العصيب ، الذى فغرت فيه المطاعم أفواها لابتلاعهم ، والذى أصبحت القوة فيه والتسكتل هي لغة التخاطب السائدة ، وأسلوب التفاهم المفيد . ولينسوا ما بينهم من الخلافات التي أوهنتهم ، وثبطت من عزائمهم . وليقفوا صفاً واحداً لإنقاذ أنفسهم ودينهم ، بل لإنقاذ العالم من المطاعم الفاسدة ، والمبادئ الخطرة . فإنهم أهل فكرة ، ووارثو رسالة ، وإن الله سائلهم عما أورشهم .

إنى لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة ، هو التفاهم . وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر . ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلماً ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين . ولا ينبغى أن يكون سبباً فى قطع جبل الأخوة والاتئلاف . وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها . وإن رسالة جماعة التقريب فى ذلك لتلتقى مع رسالة الأزهر ، الذى يرى حقاً عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها ، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والألفة ، وتبادل العلم والمعرفة .

أسأل الله أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والأنواء إنه سميع مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ

« المغفلون النافعون »

شغل الأستاذ خالد محمد مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) عشر صفحات منه تحت عنوان (المغفلون النافعون) وقصد بهم الذين يدعون الأمة إلى طريق قد انحرفوا هم عنه ، أو إلى إصلاح قد خرجوا به عن حقيقته ، وعلل تسميته إياهم بالنافعين بأنهم ينفعون أعداء الأمة ، فقال :

« فالعالم الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية ، وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار . والرجعى الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الشعب ، كالموماء المخطئة ، لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

إلى أن قال : « ولكن شر سبط فى سلالة المغفلين النافعين ، وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها ، أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها ، فلتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التى تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حى على الحياء .. وأود أن يكون مفهوماً ، إننا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفسكهاً ، وإنما هم وباء ، نريد أن نلفت الأنظار إلى مكائده ، وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء ، التى تزعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوقائى ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، المنعمة بالرغد والرفاهية . هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتخضع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعمولهم عاصماً » .

يقول مؤلفنا إن القول بأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، فكرة بلاء فقد « أثبت العلم بتجاربه التى لا ريب فيها ، أن

أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته ، وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ، وليست شيئاً يهبط من السماء ، فيصيب أقواماً ويخطيء آخرين ، وما السلوك البشرى كله : خيره وشره ، صالحه وفاسده ، ألا وليد حالتنا الصحية ، وحالتنا العقلية .

يقول الأستاذ أن من البلاهة القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، وأنها فكرة ساذجة وجدت أنصاراً كثيرين !
نقول نعم وجدت أنصاراً كثيرين في الرعيل الأول منهم الأنبياء والمرسلون ، ويلهم الفلاسفة الأولون ثم الحكماء الإسلاميون ، ثم خلفاؤهم الأوربيون تغص بهم جامعاتهم ، وأنديتهم ووراءهم جميع عقلاء الأمم في جميع أقطار العالم ؛ وأنه يصعب على الإنسان أن يتصور أن جميع هذه العقول تستهويها فكرة بلهاء ، وأولى بالعاقل وخاصة إذا كان قريب عهد بالعلم والفلسفة أن يتهم نفسه بالبله قبل أن يتهم هؤلاء الأساطين به .
وهل مما يفهم قول الأستاذ بأن الروحانية أثر من آثار المادية المنظمة ، المفعمة بالرغد والرفاهية ؟

إن الروحانية عتميدة أولية يصادفها الإنسان عند أحط القبائل المتوحشة التي لا تحصل على غذائها إلا ما تنبت الأرض من أعشاب ، وما تتصيد هـى من بعض الحيوانات ، وما يلقه إليها البحر من جثث الأسماك الكبيرة الميتة ، وهم أشد تمسكاً بالاعتقاد في الروحانية من سكان القصور المشيدة المحاطة بالحدائق الغناء ؛ فأية مادية منظمة ولدت لهم فكرة الروحانية وغرستها في قلوبهم الى الحد الذي هم عليه ؟ وأى رغد من العيش ورفاهية من الحياة لديهم توصلهم الى هذه التخيلات الراقية من العقائد المجردة ؟

وهل من الحكمة أن عتميدة يتخيل أنها خدعت العالم كله وعالمه وجاهله ، متمدنه ومتوحشه ، عشرات لا تحصى من القرون تعامل هذه المعاملة من الاحتقار ، وتمحي من سجل الحقائق بجرة قلم في رسالة كتبت لتؤثر في العقول ، وتفتح طريقاً الى عهد جديد ؟
ثم قال :

« فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذى تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السعiban المصنئ ، فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . إن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التى تحيا بها الشعوب . »

نقول هذا كلام أشبه بالنثر الشعري منه بالتحقيق العلمى ، والمشاهد المحسوس

من حالات الناس غير هذا ، فإن الذى لا يجد ما يكفيه الحاجات الأولية لا يتوسع فى الموبقات إلا بتدرج محدود ، خلافاً « للتمتعين بعافية اقتصادية » ، فانهم يفرقون الى أعناقهم ، ولا يبالون بسبب احتقارهم لمن دونهم أن يكونوا أمثلة سوء لغيرهم . وكل الجماعات التى جاهدت لترقية الأوضاع الحكومية والاجتماعية كانت من طبقة الفقراء تحت زعامة رجال من درجتهم . ناهيك أن الذين بادروا الى قبول هداية الأنبياء ، ووقفوا نفوسهم على نصرتهم كانوا من هذه الطبقة ، على حين أن الذين كانوا يتمتعون « بالعافية الاقتصادية » كانوا يعملون على إبطال هذه الدعايات الإصلاحية بكل الوسائل الإفسادية .

وهل ينسى أحد أن السواد الأعظم من مكتشفى أسرار العلوم ، ومخترعى أنفع الآلات والأدوات ، كانوا ولا يزالون من المحرومين من الأموال الذين يكادون لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة ؟

يقول الأستاذ : « إن الكلمة الأخيرة التى سنقولها للشعب دائماً هى أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحيى فى غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح » .

ويقول : « هكذا نقول ، وبه نؤمن ... ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحى ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ما هو ؟ أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا السياسية وتترق) فهذه أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته ... ثم قال : « إن الروحانية التى ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هى تبدأ من المعدة الممتلئة فاذكروا هذا جيداً ؟ »

نقول : ذكرناه جيداً كما أراد المؤلف ، ولكنه ليس بحق ، فأمامنا جميع صاغة الأمم من رسل وطلاب ملك ، فما قالها منهم واحد ، بل قال خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وهو صانع أعظم أمة ظهرت فى الأرض : « حسب أحدكم من الطعام لقيات يقمن صلبة » .

ويقول الأستاذ خالد : « إن من البله الزعم بأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن العلم قد أثبت أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه ، فليس السلوك البشرى كله إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية » .

ونحن نقول : لو كان الأمر كما يقرره الأستاذ ، لكان كل صحيح الجسم سليم العقل على أكمل ما يكون من سمو الأخلاق ، ولكن قد يكون المشاهد المحسوس غير ذلك ، فكم من صحيح الجسم عبقرى العقل ، وهو على أخس ما يشاهد من انحطاط الأخلاق ؛ وكم من سقيم الجسم محدود العقل ، وهو على أرقى ما تتخيل من سمو الخلال ، وكرم الطباع . وبين ذلك حالات شتى يحار فيها الفكر ، ويعجز عن تعليلها العلم ، ذهب فيها العلماء مذاهب متضاربة .

ذلك لأن الروحانية مستقلة عن الجسم ، لا تمت إليه بسبب ، كيف لا وهى من طبيعة أرقى من طبيعة المادة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذه . وقد لفتت مسألة وجود الروح بعد اكتشاف التنويم المغناطيسى منذ قرن أنظار العلماء فأمنوا بوجودها مستقلة عن الجسم ، وزاد عديدهم فى جميع البلاد المتقدمة ، وألف الباحثون فى ذلك مئات من الكتب ، وأنشئ لمتابعة البحث فيها ، ونشر أدلة وجودها بالأساليب الحسية الجديدة مئات أخرى من المجلات ، ومنها ما مضى عليه قرابة قرن من الزمان . فلا يجوز جهل أو تجاهل كل هذا الانقلاب ، وخاصة للمنتسبين إلى الدين ، وإصلاح النفوس . فإن هذا الإغفال فضلا عن أنه يوهم القارئ بأن المؤلف لم يصل إليه خبر عن هذه النورة العلمية الكبرى ، أو أنه يتجاهلها ترويجا لمبدأ المذهب المادى ، وكلا الأمرين شائنان لمن يتصدى لمفاجأة الجماهير بمثل ما يذهب إليه فى أخص ما يتعلق بالحياة الإنسانية .

ولكن الأستاذ خالد يفهم من كلمة الروحانية شيئا غير العقيدة وهو السلام والإخاء والمحبة التى يفيضها على الإنسان تيسر العيش ، وهدوء النفس ، وما يحيط به من أمن وطمأنينة ، على النحو الذى تسكون عليه الحال فى الجماعات النشطة الحرة ، وهو فهم لم يسبق إليه ، ولن ينازعه أحد فيه ، لا لأنه صادم محله ، ولكن لأن المقام لا يسمح بإضاعة الوقت فى الصغريات اللفظية .

ولكن الذى يهم القارئ أن يدركه هو الغرض الحامل للأستاذ على التوسل بكل هذه المقدمات للوصول إليه ، وقد أحفينا فى البحث عنه فوجدناه مكميا به ، ثاويا فى اطواء قوله : « أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا الاقتصادية وتترك) فهيات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته » .

فتبين أن الأستاذ يرى بعد كل ما ذكره إلى وجوب تغيير (أوضاعنا الاقتصادية) ولم يزد، وبدلاً من أن يسرع بشرح ما أجمل، أخذ يجول بالقارىء، وهو يتلف على معرفة النتيجة، في شئون شتى من مساوئ السكينة في مختلف العصور، وما جتته على الإنسانية من تعطيل تطورها، ومن معاملتها مخالفيها بالعسف والاضطهاد، ومن توسلها بالمسجد والمذبح لتقويض المجتمع. وتوسع في اتهامها بكل ما يصيب الناس من شر، ونمل في ذلك ما أثر من أعمالها في العالم الغربي من تعطيل كل المحاولات التي بذلت لترقية الجماعات، أليس كان يجب عليه بدل كل هذا، وقد استوعب ثلاثة وعشرين صفحة، أن يسرع بالقارىء إلى شرح ما أجمله في عبارة (تغيير الأوضاع الاقتصادية) التي ظهر أنه يقصد بها إبطال الرأسمالية الفردية، أى إبطال أن يكون لأحد رأس مال خاص، وأن يكون مال الأمة كله تحت يد الحكومة يشترك جميع الأفراد في الارتفاع به تحت إشرافها.

وهنا أخطأ الأستاذ خطأ كبيراً حين ظن أن حكومة العمال في إنجلترا ألغت الرأسمالية الفردية فقد قال :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولا بد أن يكون هذا هو الذى حدث، وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال لتشهد بذلك. فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى، وتلبعت أسباب ذلك فوجدتها تكن في (الرأسمالية الفردية) التي تسخر كل امكانيات المجتمع لمطامعها! ولم تفكر حكومة العمال طويلاً، وقررت (فوراً) الانتقال بالمجتمع الانجليزي - لأول مرة في تاريخه - من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل، أى من الرأسمالية السكونود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتساهلة، ولم نعد نسمع صيحات الجوع التي أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعمارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها، لأن النظام الاشتراكي التي طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً، وللمشردين مأوى .

نقول إن حكومة العمال لم تلغ الرأسمالية الفردية، ولو فعلت لاضطربت أسواق العالم كله، وكان له صدى لا يسكن حتى تنظم العلاقات التجارية بين إنجلترا والبلاد التي تعاملها وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو حادث اجتماعي يشعر بأثره جميع الناس حتى البعيدون منهم عن التجارة. فهل أحس أحد بشيء من ذلك هنا ونحن من أخص

المتعاملين معها وخاصة في محصولاتنا القطنية . وكل الذى حدث أن حكومة العمال أمتت بعض الصناعات المعدنية ، أى جعلتها تابعة للحكومة دون الأفراد ، ولو كان مكانهم المحافظون لأموها كما فعلوا لأن المصالح العامة تقتضى ذلك .

أما (الرأسمالية الفردية) فهى لا تزال أساس النظام المالى فى إنجلترا وليس لها من خصوم غير حفنة من الشعب الإنجليزى تمذهبوا بالشيوعية منذ سنين ، كان يمثلهم عضوان سقط أحدهما فى الانتخابات التى جرت منذ نحو خمس سنين ثم سقط الثانى فى الانتخابات التى تلتها ؛ فخلا المجلس من أنصار الشيوعية ، ولم يبق غير حزب العمال ، وهو ليس بشيوعى بل ولا باشتراكي تام الاشتراكية . فهو اشتراكي من ناحية النزاع بين قيمة العمل ورأس المال ، ولكنه كغيره من سائر الأحزاب يقر الوراثة والملكية الفردية .

أما حزب العمال فلم يأت به للحكم الأميل الشعب الإنجليزى لحكومة تمثل الطبقات الفقيرة ، لشعوره بأن الحالة الاقتصادية بعد الحرب تستدعى وجود حكومة تعطف على تلك الطبقات لمسكافة الغلاء من جهة ، وتدارك حاجة العمال بزيادة أجورهم من جهة أخرى . والشعب الإنجليزى شعب حكيم ، ليس كغيره من الشعوب يشوب طبقاته تناكر ، ولكنه شعب متعاطف الطبقات يحس بعضها بحاجات بعض وتعمل على توفيتها ، اعتقادا من الجميع بأن القلق الاجتماعى لا يقتصر على ناحية دون أخرى ، ولكنه يعمها جميعا ؛ وهو لم يصل الى هذه الدرجة من الآداب الاجتماعية عفوا ، ولكن بعد أن ذاق مرارة ذلك القلق الاجتماعى فى أدوار شتى . فالأمر الذى نعجب منه ظن الأستاذ المؤلف أن المبالغة فى تعظيم مبدأ من المبادئ ، وتجاوز الحدود فى بيان آثاره ، يغرى الناس على الأخذ به دون أن تعدم الحوادث لقبوله ؛ وهو خطأ كبير ، لأن الأمم فى سيرها نحو المثل الأعلى من الاجتماع تمر بأدوار شتى لها شئون خاصة لو استبدلت بها أرق منها لم يدفعها التطور الطبيعى اليه ، لم تستفد منه شيئا ، بل قد يفسد عليها ما هى فيه من النظام النسبى . وعليه فإن سوق المبادئ والأصول سوق البضائع ، وعرضها عرض السلع دون أن تدعو إليها ضرورة حيوية ، أو تطور جديد ، فليس من الحكمة فى شيء ؟

دِفَاعٌ عَنِ النَّعْصِبِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

الناس يكرهون التعصب ، ويصفون المتعصبين بضيق الأفق ، ويتيسون تقدم الأمة فكرياً بتمسكهم بالقديم ، فإذا كانت الأمة متعصبة شديدة التمسك بمبدأ أو فكرة معينة في العلم أو العقيدة دل ذلك على أنها لم تزل ذات عقلية « بدائية » وأنها تعيش في طرف من الحياة وحدها منعزلة عن روح التجدد التي طبع الله عليها العالم ، وجعلها سنة الدنيا ، أما إذا كانت الأمة أو الجماعة متساهلة متقبلة للأفكار والآراء دون تشدد أو ترزمت ، فانهم يصفونها بأنها أمة أو جماعة راشدة صالحة للحياة .

وإطلاق التمول على هذا النحو مجافاة للصواب ، وذلك أن التعصب للآراء والمذاهب الفكرية إما أن يكون نتيجة الإيمان العميق بها بعد تأملها وإدراكها إدراكاً صحيحاً ، وإما أن يكون نتيجة تقليد وأخذ دون فهم وإدراك لما انبنى عليه الرأي ، أو نظر إليه التماثل به .

فالأول محمود ، بل هو واجب ، بل هو قضية العقل ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن صاحباً لا يستطيع أن ينفك عنه ، أو يتخلى عن لوازمه ، فإن المعارف التي يصل إليها الإنسان بالنظر والفكر إما أن تكون متعينة في نظره فيكون القول بها واجباً عقلياً لا مناص منه ، وإما أن تكون راجحة وغيرها مرجوح فلا يخلو أمر الناظر فيها إما أن يأخذ بالراجح ويترك المرجوح أو يأخذ بالمرجوح ويترك الراجح ، ولا شك أن العمل يتمضي بالأول دون الثاني .

ولهذا تعتبر الناعدة القائلة « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » قاعدة منصفة عادلة إذا صدرت من مجتهد ذي قوة تفكيرية ، يتحدث عن مذهب وصل إليه بطريق النظر وإعمال الفكر والاستنباط .

منصفة لأن القائل بها أنصف نفسه ، وأنصف غيره ، فأما إنصافه لنفسه فانه لا يسعه وقد رأى ما رأى بعد النظر والتأمل أن ينجاز إلى غيره ، ويناقض نفسه ، فهو متعصب لما رأى عن دليل وبرهان ونظر ، فلا لوم عليه في تعصبه وإنما يلام على تسامحه لو فعل ، لأنه مطالب بتكريم عقله ، وألا ينافق في حكمه . وأما إنصافه لغيره مع تعصبه لنفسه فلأنه احتاط في حكمه فقال : قد أكون مخطئاً برؤيتي غير الحق حقاً ، لقصور في لم أثبتته ، أو لتقصير لم أقصده ، وقد يكون غيري تبين ما غاب عني ، وعرف ما لم أعرف .

وهذا هو المعنى الذي حمل مالك بن أنس على أن يرفض ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من حمل الناس على ما في الموطأ ، فمالك رضى الله عنه معتد بالموطأ ، مطمئن إلى ما فيه ، ولكنه ينصف غيره كما ينصف نفسه ، ويترك الفرصة للآراء والمذاهب فلعل شيئاً قد وصل إليه فيه ضعف لم يتبينه ، ولعل شيئاً قد وصل إلى غيره يبطل حكماً حكم به .

أما الثانى ، وهو التعصب الذى يكون نتيجة ميراث وتقليد فهو مذموم ، لأن صاحبه متجاوز حقه ، خارج عن طوره ، إذ معنى تعصبه أنه يرى كذا هو الحق بعينه ، وأن غيره هو الباطل ، مع أنه لم يتصور الأمر تصوراً يمكنه من الحكم .

ولهذا تعتبر القاعدة التى أسلفناها غير منصفة إذا صدرت من مقلد : لم ينصف فيها نفسه فيقف عند حده ، ويعرف قدره ، ولم ينصف فيها غيره ، بل حكم فى الأمرين بما لم يعرف ، وقضيه الإنصاف أن يكون الأمرين لديه سواء .

ولو أردنا توضيحاً لذلك لمثلنا الأمر برجل أعمى معه ثوب فقال له أحد الناس هذا الثوب أبيض ، وقال له آخر هو أحمر ، وهو غير مستطيع أن يحكم بصحة هذا القول أو ذاك لأنه فاقد وسيلة الحكم وهى البصر .

نعم قد يثق بأحدهما ثقة خاصة ، فيقدر حكمه ، ويرجحه على حكم الآخر ، وهذا هو ما يعتمد عليه المقلدون للمذاهب إذ يتقون بأئمتهم ما لا يتقون بغيرهم ، كما يثق هذا الأعمى بأن فلانا هو الصادق بعينه .

ولكن هناك فارقاً : ذلك أن الأئمة الذين يتردد العامة بينهم كلهم موثوق بهم ، وإلا لما قلدهم المقلد ، وهم مختلفون فى درجة الفهم أو طريقتهم ، والمقلد لا يستطيع

أن يحكم ، هل طريقة هذا في النظر أو درجة فهمه هي المثلّي أو الأقوى ، لأن هذا أيضاً نظر ، وهو غير قادر عليه ، فأقصى ما يزعمه أن يقول سمعت كثيراً من أهل القدرة أو الشهرة بقررون أن فلاناً مبرز في فهمه ، دقيق في نظره ، وهذا تقليد في التقليد .

هذان هما نوعا التعصب ممدوحة ومذمومة ، والمتعصب من النوع الأول يسهل إقناعه وإرجاعه إلى مذهب غيره بالدليل والبرهان ، لأنه لم يتعصب إلا لما أدرك وفهم ، فإذا أدرك ما يحوله ويغير فهمه تقبله ورجع إليه ، لأنه متصف بعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التماهى في الباطل .

أما المتعصب من النوع الثاني فلا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم يعتقد ما اعتق عن دليل فيرجعه الدليل ، وإنما اعتنقه ثقة بمثاله ، فهو لا يكف عنه ما دامت هذه الثقة قائمة في نفسه .



وفقدان التعصب يكون في حالتين :

الحالة الأولى : فقدان حرارة الإيمان بالرأى للانصراف عن موضوعه ، والاشتغال عنه بغيره ظاهراً أو باطناً ، فالاقتصاديون وأهل السياسة وأماهم من المشتغلين بأمور الدنيا ، لا يعينهم أمر الفقه أو الآراء الكلامية مثلاً ، فتراهم لا يكثرثون بهذا الشأن ، ولا يتعصبون لرأى من الآراء فيه ، ولو كانوا من أرق الناس عتولاً ، وأدقهم فهماً وإدراكاً ، وذلك لأنهم لا يجدون في أنفسهم رغبة في دراسة هذه الموضوعات ، فتمد انصرفوا عنها إلى غيرها انصرفاً ظاهراً ، وقد يكون الانصراف باطناً غير ظاهر ، كما نراه في محترفي العلم والتدين ، فظاهر أمرهم أنهم متحمسون للحقيقة في أمثال هذه القضايا ، لهم غيرة عليها ، وعناية بها ، والواقع أنهم عن ذلك مشغولون بأنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فهم لا يقيمون وزناً لما يشتغلون به ظاهراً ، ولا يتحمسون لهذا الرأى أو ذاك مع علمهم بوجهة الحق ، فتراهم يتظاهرون بأنهم تاركون للتعصب ، مترفعون عن التزمّت والتشدد ، والله يعلم أنهم عن الحق لمشغولون .

وهذا أخطر ما تصاب به أمة في علمائها وأصحاب الرأي فيها ، وقد عبرنا عنهم
« بالمحترفين » لأن الظروف قضت عليهم وعلى الناس أن يكون أهل شأن من
الشئون ، بينما هم لا يتصدون إلا غايتهم وما يبتغون من عرض الدنيا ، متخذين
ما هم فيه شعاراً يخفى حقيقتهم .

الحالة الثانية : حالة الجاهلين بشيء فهم لا يعرفون منه قليلا ولا كثيراً ،
وليس لهم قدرة على تتبع أصوله وأسسها التي أقيم عليها ، فهم لذلك لا يتعصبون
له ، ولا يشتركون في نصرة طائفة على طائفة في شأنه ، وقد أنصفوا أنفسهم ؛
وكانوا منطقيين مع قصورهم وعدم استعدادهم ، فسكتوا عما لا يعلمون ، وكفوا
عما لا يحسنون .

* * *

من هذا يتبين أن التعصب ليس كله مذموماً ، وأن التسامح ليس دائماً أماراً
على الرقي الفكري واتساع الأفق العلي . والله المستعان .

من طرف الأدب

قال دعبل في طاهر بن الحسين :

أيا ذا اليمينين والدعوتين	ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثلي فتى أن يتميم	ببائك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات	ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمة بين خمس وست	إذا ضمك المجلس الحافل
وما كنت أرضى بذا من سواك	أيرضى بذا رجل عاقل
وإن ناب شغل فني دون ما	تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإني امرؤ	إذا ضاق بي بلد راحل

أول القرآن نزولاً وآخره

المفضلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج الحاكم في المستدرک ، والبيهقي في الدلائل ، وصحاحه عن عائشة رضی الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن : « اقرأ باسم ربك » الآيات .
وأخرج النسائي وابن أبي حاتم : أن آخر ما نزل من القرآن : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية .

استغرقت المدة التي نزل فيها القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، فتمد بعث عليه السلام ، وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة بعد البعثة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة بلا خلاف عشر سنين ، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة ، كما اتفق على ذلك جمهور المؤرخين من السلف والخلف ، وما جاء في بعض الروايات مخالفاً لهذا ، فإنه مبني على عادة العرب في إلغاء السكسر ، والاكتفاء بذكر العدد الصحيح .

وأثبت الأقوال وأصحها وأشهرها أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو صدر سورة « اقرأ باسم ربك » إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ، ويدل على هذا الحديث الذي معنا ، وحديث الصحيحين في بدء الوحي : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، والحديث ، وحديث الطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى يترئنا فيجلسنا حلتما ، وعليه ثوبان أبيضان ، فاذا تلا هذه السورة : اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثير غير ذلك من الآثار والأخبار .

وأما القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو : « يا أيها المدثر » والاشتغال له بحديث جابر بن عبد الله ، وقد سئل عن أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يا أيها المدثر » فيمكن تأويله بأن سؤال جابر إنما كان عن أول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد فترة الوحي ، فبين أنها سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل من القرآن صدرها ، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين عن جابر نفسه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن فترة الوحي ، ويقول : « فاذا الملك الذي جاءني بحراء » ، فان هذا يدل على أن هذه القصّة متأخرة عن قصّة حراء التي نزل فيها : « اقرأ باسم ربك » ، أو يمكن تأويله بأن جابراً استند في إجابته على اجتهاد منه ، لاعلى نص وارد في ذلك ، فتقدم عليه الروايات السابقة ، لأن النص متقدم على الاجتهاد .

وكذلك القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو سورة الفاتحة ، والاحتجاج له بما أخرجه البيهقي في الدلائل من أن الملك ناداه : يا محمد ، قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين » — يمكن رده بأن هذا الحديث مرسل ستمط منه الصحابي ، فلا يتولى على معارضة الحديث المرفوع ، كحديث عائشة في بدء الوحي وغيره ، ويحتمل أن يكون حديث البيهقي المذكور خبراً عن نزول الفاتحة بعد نزول اقرأ والمدثر ، وبعد مجيئه إلى ورقة بن نوفل ، وتحديثه له بما سمعه غير مرة من نداء خلفه ، وبمشورة ورقة عليه أن يثبت عند ذلك النداء حتى يعي ما يليق إليه .

وأما القول بأن البسملة هي أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، فذلك قول لا يصلح أن يكون مستقلاً برأسه ، لأن البسملة ، كانت تنزل في أول كل سورة ، فهي قد نزلت مع صدر سورة اقرأ ، ومع غيرها من السور ، فلا يستقيم انفرادها بالأولية في النزول ، بل يشاركها في ذلك صدر سورة اقرأ .

وقد أراد البعض أن يجمع بين هذه الأقوال فقال : إن أول ما نزل من الآيات : « اقرأ باسم ربك » ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ : « يا أيها المدثر » وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة .

وهناك بعض أوائل مخصوصة ، نذكر لك طرفاً منها :

فأول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : النجم ، وحكى البعض الاتفاق على أن أول سورة نزلت بالمدينة : البقرة ، وقيل : سورة المطففين ، وقيل : سورة القدر ، وأول ما نزل في الأطعمة بمكة آية الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً » ، وبالمدينة آية البقرة : « إنما حرم عليكم الميتة » ، وأول سورة نزلت فيها سجدة النجم ، وأول آية نزلت في الخمر : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس » ، وأول آية نزلت في القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وقيل آية : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وقيل آية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » .

كثر الاختلاف حول آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وتعددت الأقوال في ذلك ، ولم يرد أثر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون هو الفيل في هذا الشأن ، والأمر في الواقع لا يعدو أن يكون إلا كما صورّه القاضى أبو بكر حيث يتول في الانتصار : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ قال بضربٍ من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذى مات فيه ، أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو » .

ولكن الذى تدل عليه الشواهد الكثيرة ، والروايات المتعددة والتراثر المختلفة أن آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً هو قوله تعالى في سورة البقرة : « واتوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ، فقد تكاثرت الآثار في ذلك ، واشتمل بعضها على ما يؤكد ويتوهم كقول ابن أبي حاتم عتب روايته السابقة : وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول ، فهذا يؤيد أن هذه الآية كانت آخر قرآن نزل ، فضلاً عما تضمنته الآية نفسها من الدلالة على قرب الرجوع

إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل في الدار الآخرة ، ومن الإشارة بذلك إلى انتهاء مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وبلوغ الغاية من رسالته .

وأما ما قيل غير هذا في آيات أخرى من أنها آخر ما نزل من القرآن ، فانه يصح حملها على أن المراد أنها أواخر مخصوصة متمدة بما نزلت فيه من وقائع ومناسبات ، لا أنها آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً .

فآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » ، وآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدانتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » — إذا صح نزولها مع آية : « واتقوا يوماً » دفعة واحدة ، كترتيبهما في المصحف ، فانهما يشاركانها في الآخرة ، ويكون كل ما وقع من الرواية أنه أخبر كل راو عن بعض ما نزل من هذه الآيات الثلاث بأنه آخر ما نزل ، وهذا صحيح في ذاته إذا نظرنا إلى ذلك .

وآية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » مقيدة بأنها آخر الآيات التي نزلت في النساء ، فهي آخر مقيد ، لا آخر مطلق .

وآية : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم » مقيدة بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل إطلاقاً .

وآية : « يستفتونك ، قل : الله يفتيكم في الكلالة » يمكن حملها على أنها آخر ما نزل في المواريث ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

والقول بأن سورة المائدة هي آخر ما نزل من القرآن ، محجوج بأن المراد به أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فهي آخر مقيد ، لا آخر مطلق .

وكذلك القول بأخرية خاتمة سورة براءة محمول على أنه آخر ما نزل من هذه السورة لا أنه آخر ما نزل مطلقاً ، وأيضاً آخر آية من سورة الكهف قالوا فيها : إنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فهي آخر مقيد لا مطلق .

وسورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » محمولة على أنها آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً كما قال ابن عباس ، أو على أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال حين نزلت « نعتت إلى نفسي ، وأن عمر بكى حين سمعها وقال : « الكمال دليل الزوال » .

وأما آية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، فإنها وإن كانت قد نزلت في حجة الوداع ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعيش بعد نزولها أكثر من إحدى وثمانين ليلة ، إلا أنه قد علم أن هناك قرآناً نزل بعدها بأكثر من شهرين ، وأن آية : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » قد نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال فقط ، فتسكون آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » آخر ما نزل من القرآن خاصاً بكامل الدين وإنجازه ، وإظهاره على الدين كله ، وإقراره في البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، فهي آخر مقيد لا مطلق ، ويشير إلى ذلك قول ابن جرير في تفسير هذه الآية : « الأولى أن يتناول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون .

ويؤيده أيضاً قول ابن عباس : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت براءة نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركون في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة - وأتممت عليكم نعمتي . وإذا كنا قد عرفنا من هذا آخر آية نزلت بالمدينة فآخر سورة نزلت بها ، هي سورة براءة ، وآخر سورة نزلت بمكة هي المؤمنون ، ويقال : العنكبوت ، وقد عرف فيما سبق أول ما نزل بهما من القرآن الكريم .

من الحكم

أنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها	إذا لم تزن حسن الجسوم عتول
فكائن رأينا من فرع طويلة	تموت إذا لم تحين أصول
فإن لا يكن جسيماً طويلاً فإنتى	له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه	خلو وأما وجهه فجميل

تاج الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

يطيب لى أن أوفى بما وعدت فى مقالتي السابقة فأتابع الترجمة لهذه الأسرة المباركة من شيوخنا السبكيين الذين أسلفت لك الحديث عن أول أئمتهم ، وأصل دوحهم تقي الدين السبكي . واليوم أترجم لابنه الفقيه العليم والإمام العظيم تاج الدين السبكي وهو من كبار قضاة المسلمين ونوابغ علماءهم تعدده مصر فى مفاخرها اللامعة ويذكره الشرق كله بين كواكبه الساطعة بما نشر من العلم وأكثر من التأليف وهو عبد الوهاب بن على بن عيد السكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى ابن تمام السبكي الشافعى الملقب بقماضى القضاة تاج الدين المسكنى بأبي نصر الفقيه الشافعى الأصولى المؤرخ ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧ هجرية وتلقى دراسته الأولى عن أبيه لأنه كان من أفاضل العلماء ثم تلبذ لغيره من علماء مصر فسكنه استعداد الفطرى الممتاز من أن يحصل فى قليل الزمن من العلم ما يعسر على سواه تحصيله فى الزمن الطويل والسنين الكثيرة وقد أراد الله سبحانه للنأشئ النابغة أن يزداد تقدما فى العلم وسبقا الى الفضل فرحل مع والده الى الشام فتهيأت له الفرصة الطيبة للأخذ عن علماءها والتخرج فى مجالس شيوخها ، ومن الشيوخ الذين أسعده الحظ بالتلقى عنهم والانتفاع بعلمهم الحافظ المزي والذهبي وشمس الدين بن النقيب وقد أجازوه بالتدريس والفتيا فأفتى ولم يتجاوز عمره ثمان عشرة سنة وأصبح نابغة فى الفقه والأصول وما زال يتألق فى سماء الشام نجمه ويذيع فى أرجائها صيته حتى ولى القضاء فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ٧٥٦ هـ وتلك سن مبكرة شاهدة له بالفضل والتبريز فى العلم مما رشحه لمنصب القضاء الذى كان لا يتولاه إلا الشيوخ المتمردون والعلماء المسنون .

والمقدكان في منصبه آية عصره يملأ الأبصار والاسماع غزارة علم واستقامة رأى وصحة استنباط يزين ذلك كله قوة حجة وطلاقة لسان وثبات جنان وما يجتمع لرجل تلك الجوانب المتعددة من الفضل والصفات النادرة في الحفظ والتحصيل والفقه والإحاطة إلا أوغرت عليه الصدور وأكثرت له الخصوم ولذلك تألب على الإمام السبكي المتألبون وكاد له المبطلون فافتروا عليه في دينه واتهموه في عتميدته وشككوا في استقامته فعزل من منصبه وجرى به إلى مصر مغلولاً ممتيداً فصر الإمام العليم في محنته وأدى زكاة نعمته بما احتمل من آلام وقاسى من اضطهاد وفى ذلك يقول ابن كثير « لقد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله وحصل له من المتاعب ما لم يحصل لسواه » وقد أعتبه الصبر الجليل ما وعد الله الصابرين من حسن عاقبة الدنيا وأجر الآخرة فبدله الله من الشدة فرجاً ومن الآلام سلاماً فبرىء من التهمة وخرج من هذه المكيدة عزيزاً كريماً وعاد سيرته الأولى فى التمساء بين الناس ونشر العلم بين المسلمين والظاهرة المحبوبة المشكورة فى سيرة إمامنا السبكي إنه لم يشغله منصبه وواجباته عن التأليف والتصنيف فكانت حياته قصيرة الزمن إذ توفى سنة ٧٧١ هجرية وهو فى الرابعة والأربعين من عمره كما هو معروف فى حياة التابعين ينبغون مبكرين ويموتون مبكرين ولكنها حياة مباركة طيبة عظيمة النفع جليلة الأثر حالية الأثر بما ترك من مؤلفات لا يزال بها إلى اليوم حياً ولا يدرى إلى الله كم تطول من أجلها حياته العلية ويمتد به البقاء ولكى نظهر ك على نواحي نبوغه وصنوف العلوم التى حصلها وأتمها وصنف فيها نسوق هنا ما قاله الحافظ شهاب الدين بن ح تبنى فى ذلك .

حصل تاج الدين فنوناً من العلم من فقه وأصول وكان ماهراً فيه وفى الحديث والأدب وبرع وشارك فى العربية وكانت له اليد الطولى فى النظم والنثر جسد البديهة صنف تصانيف عدة فى فنون كثيرة على صغر سنه قرئت عليه وانتشرت فى حياته وبعد موته وإليه انتهت رئاسة التمساء والمناصب بالشام ومن المدارس التى درس فيها فى مصر والشام الشيوخونية والجامع الطولونى والعززية والعادلية الكبرى والغزالية والعدراوية والشاميتين والناصرية والأميزية ومشخة دار الحديث الأشرفية . ومن هذا تبين أن شيخنا السبكي قد قضى أيامه كلها عاملاً مجاهداً فى

إقامة العدل بين الناس وإذاعة العلم فيهم لم يشغله عن ذلك نعمة ولا محنة ولا إقبال دنيا ولا إدبارها وكذلك العلماء إذا شغفهم العلم حباً فاستأثر بهم وشغلهم عن مباحج الدنيا وشواغلها حتى يكون هو في النعمة هناءهم وفي المحنة عزاءهم فتراهم قد أخلصوا وفنوا فيه وقد ترك لنا عمله الموصول وتأليفه المستمر مصنفات قيمة نبينها هنا تسجيلاً لفضله وتنوياً بجليل قدره وهي شرح مختصر ابن الحاجب في مجلدين سماه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب) وشرح منهاج البیضاوی فی الأصول الذی أتمه بعد والده كما بینا فی مآلنا السابق والتواعد المشتملة علی الاشباه والنظائر وطبقات الفقهاء السکبری فی ستة أجزاء والوسطی فی مجلد ضخیم والصغری فی مجلد صغیر والترشیح فی اختیارات والده وجمع الجوامع فی أصول الفقه وشرحه بشرح سماه (منع الموانع) .

تلك مصنفات كثيرة العدد غزيرة العلم عظيمة النفع ، غير أنه يجدر بنا أن نشير من بينها إلى مصنف جمع الجوامع في الأصول الذي يعرفه الأزهر معرفة أعلت ذكره وأجلت قدره وجعلته عمدة الدارسين لفن الأصول مدى عدة قرون من الزمان ، وجلة شيوخنا المحققين قد مارسوا هذا الكتاب وتخرجوا عليه واستنبطوا أسرارهم واستخرجوا لبابه . ولقد كانت المقدرة على تفهم هذا الكتاب وإدراك مراميها مقياس البراعة وآية التحقيق في فن الأصول إلى عهد قريب بين الأزهريين . رحم الله شيخنا السبكي وأمثاله من أئمتنا المحققين ، وعلمائنا النابغين ورزقنا الأسوة بهم والافتداء على آثارهم ، حتى يصل الأزهر في مجده طارفاً بتليد ويظل عزيزاً بحاضره وقابله كما يعتز بماضيه المجيد ؟

حماسة

قال قيس بن عاصم المنقري وكان مشهوراً بالسيادة والحلم :

أنى امرؤ لا بطيء	حسبي	دنس بهجنه	ولا أفن
من منمر في بيت	مكرمة	والغنن ينبت	حواله الغنن
خطباء حين يقول	قائلهم	بيض الوجوه	أعفة لُسُنُ
لا يفظنون	لعيب	جارهم	وهم لحفظ جواره

كَلِمَات

للمضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

١ — العلم والعمل :

ما أكثر العلماء فينا وما أقل العاملين ! نعرف النجو دقيقه وجليله ، ولكننا لانعرف أن نقيم ألسنتنا إذا تحدثنا ؛ ونعرف المنطق قديمه وحديثه ، وكيف يتركب الدليل من مدمات تكون عنها نتائجها ، ولا نعرف مع هذا أن نكون منطقيين عملياً في تفكيرنا ؛ ونحذق علوم البلاغة ، وأن لسكل متمام متملا ، وأن الكلام يكون بليغاً إذا توفر فيه كذا وكذا ، فإذا أخذنا في الكلام جاء ما ننطق به سقيماً عليلاً ؛ وعرفنا الأخلاق وأصولها ، والفضائل وطرقها ، والغرائز والأمرجة والعواطف وعلاجها ، ولكن عجزنا عن تكوين الضمائر الحية المستقيمة في نفوس طلابنا وقرأتنا ؛ والفقه وعلم الحلال والحرام حفظنا الكثير من متونه ، وقتلنا بجنا الكثير من شروحه ، ولكننا في سيرتنا ومعاملاتنا لا نتفق وما عرفنا من الشريعة ؛ ونعرف كيف تدار المعاهد والمدارس ، وكيف ينشأ التلميذ على الطاعة والنظام ، وكيف يجب أن تكون العلاقة بين المدرس والتلميذ والرئيس والمرءوس ، ولكن لم يتبع منا كثير يعتبرون بحق إداريين حازمين محبوبين ممن تحت أيديهم ؛ ونعرف أن صحراء مصر وتربتها غنية بالمعادن المختلفة ، ولكننا لا نقب في جد عنها ؛ وخزان أسوان نعلم علم اليقين ، منذ زمان وأزمان ، أنه يمكن الاستفادة منه في توليد الكهرباء ، فيكون مصدر رغد وسعادة وقوة للأمة ، ولكننا حتى الآن لم يتم لنا شيء في هذا السبيل أو نحتفل كل عام بعيدى الهجرة والمولد ، ونذكر جاهدين في هاتين المناسبتين العظيمتين كثيراً من مزايا الإسلام وأمجاده ، ولكن لا يستطيع أن يزعم الكثير منا أنه يحتمق في نفسه بعض هذه المزايا ويحاول أن يفيد حتماً من هذه الأيجاد ؛ ومنا الطيب وهو بحكم عمله رسول رحمة ، وقد كان يسمى قديماً

باسم الحكيم وهو اسم من أسماء الله عز وجل ، والفيلسوف أو مدس الفلسفة التي تقوم على البحث عن الحكمة والتوفر عليها وطلب الحقيقة وحبا ، ولكن أصبح الكثير من الأطباء ودعاة الفلسفة بعيدين عن الرحمة والحكمة والحقيقة !

علام تدل كل هذه المثل ، التي انتزعناها من واقع الحياة الفردية والاجتماعية ، وسواها كثير ؟ إنها تدل على أننا أمة تتمول ولا تفعل ، وكثير ذلك ممثلا عند الله ما أكثر من يتكلم منا حتى الآن عن خطورة اختلاط البنات والبنين ، وبناته يملأن دور اللهو البريء وغير البريء ويجلسن مع الشبان جنبا لجنب في المعاهد الأجنبية والجامعة ! ومن يتكلم في الراديو حاثا على البر بالفقراء ومساعدة المسكرويين بلهجة تلين الأفتدة الجامدة ، ولكنه يأتى أن ينزل عن بعض ما يأخذ من أجر على ما يذيع للغاية التي يدعو إليها !

يا قوم ! ليس بمثل هذا تتقدم الأمة ويسعد الشعب ! نحن في حاجة الى من يؤمن بما يتمول إيمانا يدفعه الى العمل به ، وإلا فليوفر على نفسه وعلينا عناء التمول ! نحن في حاجة الى علماء وخطباء ودعاة إصلاح مؤمنين بعلمهم ، ويكونون بأعمالهم قدى صالحة لغيرهم ، فينفعون وينفع الله بهم . نحن في حاجة الى نفوس شريفة تعرف للعلم قيمته ، فتطهر به ، ثم تصدر عنه في كل ما تعمل .

وقع نظرى منذ أيام على كتاب « فى أخلاق العلماء » للمغفور له الشيخ محمد سليمان ، فأعجبني ما صدره به من كلمة يتقدمها لابنه ، كلمة تتصل بموضوع ما نتحدث به الآن . لهذا أتأمل بعضها ، ففيها عظة وتذكرة لمن يريد أن يتذكر ، وجمال وخير لمن يحب أن يرى ويسمع .

يقول رحمة الله له ورضوانه عليه : « واعلم يا بنى أن نور العلم أن تستقبله نفس مستعدة له ، فهى التى تستنير به ، وتشعه على الناس . إنه يصفىها فتصنى ، وتكون به نورانية من ومض الله نور السموات والأرض ، كالمنار يهذى الضال ، وينير الدج فيسلخ الظلام ، وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفوس كالبوتمة تصهر الذهب ، فيذهب ماله من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس ، وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض فى الدنيا . أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلدة

المظلمة ، فهو الذى لا يضر ولا ينفع ، ومثله يا بنى مثل ما ترى من لعب الصياد بالمرآة إذا عكسوها على الشمس ، ألا ترى الشعاع المنعكس منها يعشى ويحرق ؟ ذلك أن وجه المرآة صلد لا ينفذ منه النور ، وقلبها أسود لا يتقبله ، فارتد بذلك على الآخرين ناراً ونقمة ، ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب ، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير ، وأن تكون بعلمك قدوة الخير لتمامك ، الندوة التى تؤثر فى الناس بالتأسى . فكن كما تحب أن يعرف عنك ، بالحقيقة الواقعة ، لا بالتقول الموضوع ولا بالعمل المصنوع ، بل بالإخلاص فى صفاء النفس وتربية الضمير .

وهذا كلام جليل من رجل مجرب عرف الدنيا وعرفته ، وخالط الكثير من جميع طبقات الناس حاكمين ومحكومين ، فهو يحل عن التعليق ، بل لعل التعليق عليه - إن حاولناه - أن يفسده ، وعسى أن ينفع الله به بعض قارئيه .

٢ — الصلة بين العلم والعمل :

والكلام على العلم والعمل على النحو الذى قدمنا ، يجر إلى الحديث عما بينهما من علاقة وصلة ؛ أى صلة المعلول بعلة ، فكما وجدت هذه وجد ذاك ؛ أى كلما كان العلم بأن كذا خير ، حصل العمل وفق هذا العلم ، وذلك كما يرى سقراط مؤسس علم الأخلاق ؟ أم أن الأمر ليس كذلك ، كما يرى أرسطو المعلم الأول وأنصاره ؛ فقد يعلم الإنسان ولا يعمل ، وقد يعمل على ضد ما يعلم .

إن كان كلام سقراط هو الحق ، فلا تفسير لوقوعنا فى الإثم أخلاقياً ، أى لتقصيرنا فى العمل ، إلا أننا لا نؤمن بما نعلمه إيماناً يتيذاً . وإن كان الحق فى جانب المعلم الأول ، وأن الخطأ الأخلاقى ليس مرجعه إلا إلى قوة الهوى وأسر الشهوة ، فقد عذب عنا العمل وغلبتنا الشهوات على أمرنا !

وأرى الخير والحيلة لأنفسنا أن نعمل على استكمال علما بالخير حتى يكون علماً لا يلابسه شك ، ويةتياً لا يخاطبه ريب ، فيدفعنا ذلك للعمل على وقته ؛ وأن نأخذ فى ذات الوقت فى العمل على إضعاف الهوى ودواعيه التى تصرفنا عن استلها العقل واتباعه ، وتدفعنا لأسر الشهوات وفتنتها .

ومما يعين على درك الغاية التي نرجو ، إدمان المطالعة في كتب التراجم إن هذه الأسفار عباب علم ، وصفحات مجد ونخار للإسلام وعلائها ، هؤلاء العلماء الذين خالط الإيمان قلوبهم ، فعرفوا الله حق معرفته ، وتجلت لهم الدنيا على حقيقتها قرأوها شيئاً تافهاً لا يوازن بشيء من السكرامة والمروءة. إن هذه الأسفار مليئة بأخبار جلة العلماء ، ومواقفهم مع الأمراء والسلاطين والخلفاء حتى في عصور الاستبداد ، وكيف كانوا لا يراعون إلا الله وحقه والعلم وكرامته ، فعزت وعزت بهم البلاد ، وسعدوا وسعدت بهم الأمة .

إن في كتب سيرة المصطفى وأبطال الإسلام ، وترجمات العلماء الأعلام ، لغذاء النفوس ، ومتعة للقلوب ، وحافزاً للاعتزاز بالإسلام والتشبه برجالاته . وكل يكون جميلاً وخيراً إذا جلونا للناشئة بعض هذه السير ، واتخذنا من أصحابها مثلاً علينا ، وكنا لهم قدوة طيبة عملية !

(٣) يشعر البعض منا بأنه غريب عن الناس ، حين عليهم ؛ فإذا ضمه مجلس بآخرين ليسوا على لونه في الثقافة رأيتهم يلم ثيابه ، ويتداخل في نفسه ، ويرى السلامة منهم غنيمة ، والانصراف من المجلس نجاة وراحة ، لماذا هذا الإحساس ؟ وما عوامله ؟

لعل أهم عوامل هذا الإحساس لدى من يحسه ، هو شعوره بأنه يعيش في دنيا غير دنيا الناس ، فهو في واد وهم في واد آخر ، وهو لهذا ثقيل عليهم برم بهم ، إذ يعلمون ما لا يعلم من المعارف المتعددة الألوان ، وربما أنكروا عليه أن ما يعلمه ذو غناء في هذه الحياة .

ونعتقد أن في هذه النظرة الثقيلة غير قليل من التجني والمغالاة ، كما أنها كانت تصدق في الماضي أكثر من الزمن الحاضر ، الذي صار فيه الأزهرى يشارك مشاركة طيبة في درس ألوان المعارف التي لا بد منها للثقافة العامة ، فضلاً عن دراسة ما تخصص فيه من علوم .

على أن هذا لا يمنع من أن نقول إننا لا زلنا ملومين من بعض النواحي ، إذ نبذل كثيراً من مجهودنا العتلي وزمننا الدراسي في تعلم وتعليم ما لا يجدي ، سواء من ناحية المسادة نفسها موضوع التعليم ، أو من ناحية طريقة تعليمها .

ولترك الآن أحد أعلام الأزهر وأفذاذه ، وهو المغفور له العلامة الشيخ حسين والى ، يضرب المثل لذلك من عناية الأزهريين بعلم الكلام عناية أعتوا أنفسهم بها ، وأضاعوا بسببها كثيراً من الوقت والجهد كان من الخير أن ينقما في العلم الناجع المفيد . يتولى السيد الأستاذ في الجزء الأول من كتاب التوحيد :

« علم الكلام حادث في الأمة الإسلامية ، ومشى فيه الناس صوراً بعد صور ، وكل منهم يترر صحة العتائد ويستنهض الحجج والأدلة ، وما فعلوا ذلك إلا لوجود خصوم من المبتدعة وغيرهم فكانوا معذورين فيما كتبوا . أما الآن فتد ذهب تلك الخصوم وجاءت خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذهاب حاضراً وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله إذا بيَّنه الراد وكان له عمل ! أما تلك الكتب ، فان فيها حجاباً كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتماد صحيح ثابت .

أمن العقل والحزم أن يتوجه الإنسان إلى مباراة خصم موهوم ، ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك وأوشك أن يميته موتاً ؟ إن هذا هو البلاء المبين ! أمن الحزم الرد على فرقة من فرق المسلمين ليس لها إسم أو وجود إلا فى الكتب ، وترك الرد على طاعن موجود الآن ؟ أمن الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة وإن كانوا ناجين لأنهم غير كافرين ؟ أمن الحزم أن يبحث الإنسان فى الجوهر والعرض ، ولا يبحث فى الكتاب والسنة ليستفيد علماً خيراً من هذا نافعاً فى كل وقت ؟ ... إن الجوهر والعرض أصبحا فى نسيان بجانب الكهرباء وغيرها مما عرف اليوم ، فهل أخذوا فى معرفة ذلك حتى يفيدهم فى الكلام ما أفادهم ذاك ؟ حاش لله أن يأخذوا !

إن كانت معرفة ذلك نافعة فى علم الكلام ولها دخل فى منازع الاعتقاد ، ولا إخال ذلك صحيحاً ، فليصرف الحاكم أو جماعة المسلمين طائفة من الناس لدراسته ليقوموا بهذا العبء ، ولا يتركوا طلاب العلم فى شتاء وبلاء ، ولا فائدة لهم تعود إلا استنزاء الناس بهم والخط من شأنهم . »

وبعد ! فهذا كلام لا يحسن كثير من الناس أن يقولوا مثله ، وهذا رأى يعز على الكثيرين فى سداده وصراحته ، فلنجعله خاتمة الحديث اليوم .

شِعْرَاءُ الْأَزْهَرِ

محمد الأسمر - شاعر الأزهر

لفضير الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٥ —

قطعت هذه السلسلة ، التي كنت أوافي بها مجلة الأزهر ، منذ حين ، لأننى إنسان فى طبيعته العزوف عن الزحام ، ولو أنه على الحياة ؛ وما أشد الزحام على مجلة الأزهر ! ولو أخذ برأى ، لاقتزحت أن يكون التحرير فيها هوى ، لا كسبا ؛ إذن ، لحيئت ، وازدهرت ، ونفضت أكلافها ، التي يُعنى أولياء الأمور فى الأزهر الطبُّ لها ، على غير جدوى ، مهما أخلص الأساة ، واجتهد المعالجون .

بيد أن كثيراً ممن يتلقون كتابتى بشيء من التبول ، أطالوا ملامى على هذا الانتطاع ، وزينوا لى مراجعة الكتابة فى المجلة ، وفى هذه السلسلة ؛ ثم ألزمنى ذلك إلزاماً لا فكاك منه ؛ رغبة الأستاذ العلامة مدير المجلة ، فى مواصلة ؛ ورغبته أمر وتشريف وتكريم ، ولا يابى الكرامة إلا لثيم .
رجع ما انتطع .

كما يغرد البلبل خلانة وطبعاً ، وكما تسجع الحمامة خلانة وطبعاً ، وكما تآرج الزهرة خلانة وطبعاً ؛ يشعر محمد الأسمر خلانة وطبعاً ؛ فهو شاعر مطبوع ، موهوب ، قوى الموهبة الشعرية قوة طاغية ؛ يعترف بذلك من يبغض الأسمر ، كما يعترف به من يحبه ، ممن تمرسوا بالشعر ، وتذوقوه ، وعالجوه ، إنشاءً وتقدماً ؛ وليس فى هذه

الشهادة إسراف ؛ فان الموهبة شيء غير الشعر ، وإن كانت معينة له وفيماضه ،
فللتماد أن يذهبوا في الحكم على شعر الأسمر ، كل مذهب ؛ كما لهم أن يذهبوا في الحكم
على كل شاعر غير الأسمر كل مذهب ، ولكن ليس لناقد أن ينكر أن الأسمر شاعر
موهوب ، إلا إذا أدخل التكلف على نفسه ، واصطنعه اصطناعا .

وقد أقام الأسمر على ذلك ، البرهان الذي لا يخامر ريب ؛ بإحرازه التفوق
في المباريات الأدبية غير مرة ، على حين أسف فحول الشعراء ؛ وبإجازة ديوانه
من لجنة الخالدين ، رجال يجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على حين بهرجت دواوين
شعراء تحتك أنوفهم بالسماء تعالياً وزهواً وادعاء ؛ هذا مع أن الأسمر — كما عرفه
الناس — رجل ملول ، فنان ؛ لا يطبق السكد ولا الجدد في طلب العلم ؛ ولا يصبر
على معاناة الدرس والبحث ، ولا يحتمل السهر إلا في بيت يبنيه ، أو قصيد ينشئ ؛
فهو شاعر شيطاني ، تسعة أعشار شعره من وحى الشياطين ؛ وهل يأتي هذا إلا من
قوة الطبع ، وغزارة الموهبة ؟

لى صديق من رجالات وزارة المعارف ، كان يتتبع متطوعات الأسمر
في الأهرام ، ثم يقول لى بعد أن يفرغ من قراءتها : يا أخى ، شعر أسمر كم هذا ،
يؤكل أكلا ! سبحان الوهاب !

ولفت نظرى مرة كلمة فى جريدة « الإخوان المسلمون » نصها : « هما اثنان
فى الأزهر . . . فأما أحدهما فإيتاك ولسان حاله ينشر قول بشار :

إن فى بردىّ جسما ناعلا لو توكت عليه لانهدم

وأما الأسمر ، فانه ياتاك كأنه قصيدة رائعة تمشى على الأرض ! » ولئن أخطأ
صحّة « المتارنة » لهد أصاب تشبيه الأسمر ؛ فان جميع مظاهره ومخايله شعر فى شعر
اللهم إلا إنشاده ؛ فان أضعف نواحي الأسمر إنشاده ، وبخاصة حين يحتفل ، ويبز
صدره وكرشه ، وتنتفخ أوداجه ، ويخرج الكلام من أسفل بطنه ؛ وهو إذا
أرسل نفسه على سجيّتها — وقلما يفعل — يعجب ويضطرب .

وقد رشح الأسمر لأمانة الشعر ، خالد الذكر ، شاعر التمرين ، خليل
مطران ، وناهيك بشهادة شاعر القطرين !

وللأسمر شعران : شعر ظاهر ، حواه ديوانه ، ونسب إليه ؛ وشعر خفي ينساب في جداول كثير من دواوين الشعراء والمتشاعرين ؛ في كلمات ، أو أشطار ، أو أبيات ، يعرفها أعضاء « مصطبة الشعراء » قديماً ، ويعرفها كثير ممن يعرفونه حديثاً .

والأسمر بين إخوانه ظريف كل الظريف ؛ وكانت له « قفشات » مع المرحوم أحمد الزين تثير عواصف الضحك تزلزل أركان « النادى » : ينفذ الزين شعرا له جديداً ، فيبادره الأسمر - في خبث - : « أنت بتكح ليه يا زين ؟ » ويلتمفها الزين الباح ! ويدرك أن الأسمر يريد أن يشبه شعر الزين بنفشات المصدور ؛ فيحتاج الزين ، ويصيح في الأسمر : يا جاهل ، يا . . . ، يا غبي ! متى ارتقى ذوقك إلى حد أن يتقدم كلام الزين . . . ويخرج الأسمر بالصمت عن لا ، ونعم ، عدا نبرات ضحك خفيف ، ضحك من ظفر باصاصة شاكلة الرمي ، وفاز بإعجاب السامعين !

وبيت الأسمر العائلي ، بيت علم في الجملة ، فلئن ضربه أبوه على إغرامه بالشعر - على ما روى هو عن نفسه في فاتحة ديوانه - كما ضرب برد ولده بشاراً على الشعر ؛ ودافع الأسمر عن نفسه ، كما دافع بشار عن نفسه ، فدل ذلك على أن والده كان أمياً ؛ لقد روى المغفور له الأستاذ الهراوى : أن الست والدة الأسمر كانت عالمة جليلة ؛ وإن كان الأسمر يتمايل رواية الهراوى ، ببسمة مبهمة ، لا تفيد نفيّاً ولا إثباتاً ؛ ولا تواضعاً ولا إنكاراً .

فأما سنه ، فلا تتجاوز الخامسة والأربعين . . .

وأما حظه في الحياة ، فإنه حظ كان يكفي لإصلاح حاله ، لولا هذا التاج الخيالى ، الذى امتحن أكثر الشعراء ، بأن يضعوه على رؤوسهم ، وإن كانت خاوية قراء .

وفى الأسمر وفاء ، يحمله على أن يكون الاعتراف بالجميل أعذب أحاديثه وأسماره ؛ وفيه إباء ، يجعله يأبى الضيم ، ويذكر السيئة ، ويثور للعدوان ؛ بيد أنه ليس هجاء ، ولا خبيث اللسان ؛ وإنما يلقى خصمه وجهاً ، كما يلقى الشجاع الشجاع ، لا كما يلقى الشاعر الشاعر ؛ وعلى الجملة ؛ فنواحي الفضل فى الأسمر متعددة ، وخلال

الرجولة فيه متوافرة؛ وإن قالوا فيه هنات ، وله خطايا ؛ فمن منا ليس له هنات ،
ومن منا ليس ذا خطايا ؟ !

وإذا كان الحديث عن الأسمر ، لا يكمل إلا بذكر شيء من أشعاره ، شاهدا
على ما أوردنا من أحكام ؛ فاسمعه ، حين يذكر المظاهرات الدامية لطلبة المدارس
وطالباتها ، وانظر عن أية عاطفة شاعرة يصدر :

ملاحم . بالغداة وبالغشى رعاك الله من شعب أبى !
مشى للحق أعزل ، غير صوت يردده ، كزجرجة الآتى
فوا أسفا عليه ، وهو يتمضى شهيدا بالرصاص وبالعضى
رماه الظالمون وما رماهم فويل للضعيف من التوى
سلوه بعد ما ارتشف المنايا أيشعر فى مراقده برى ؟
وليس بظالمى أبدا شهيد سقى الأوطان من دمه الزكى

واقرأ فى قصيدته « عودة المجاهدين » قوله :

تبينت أن الحق إن لم تتح له بواسل يخشى ظلمها فهو باطل
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه هو الحق ، ما قام النبي يتماثل
فلا تحسبن الحق ينهض وحده إذا ملت عنه ، فهو لا شك مائل
من العقل ألا يطلب الحق عاجز فليس على وجه البسيطة عادل
وما « سيشل » عندى التى كنتم بها ولكننا دار الأذلاء « سيشل »

ثم أخبرنى عن أثر هذه الحكم الرائع فى مشاعرك وأحاسيسك !

أولا تحس نفحة من نفحات البهاء زهير ، حينما تقرأ للشاعر الأسمر ، قوله
للمغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، شيخ الأزهر الأسبق :

يا أخا الزهر منظرا وأخا الزهر مخبرا
قلت يوما لصاحبي فى حديث لنا جرى
إنما الشيخ مصطفى وردة نفحها سرى

ذاك رأيي الذي أرى يا صديق فما ترى ؟
قال : بل فوق ما أرى قلت : بل فوق ما ترى !

ولم أحسد الأسمر على قصيدة ، حسدنى له على نبويته الرائعة ، التي لا أعلم أن شاعرا — غير شوقي — وفق إلى مثلها ، في العصر الحديث ، وأى حسن وراء قوله فيها :

إن الرسول محمدا صبح بدا	من راح يعثر في سناه ، فلالعا !
وإني بها بيضاء ، عدل كلها	لا تلفين بها الضعيف مضيجا
دخلت على الجبروت ، وهوم مطب	صافا ، فأبصر وجهها فتفزعنا
دين المساواة الصحيحة دينه	يرعاهم في الله أشفق من رعى
ما جر أثواب الحرير ولا مشى	بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حللة	فضفاضة ، لبس التميص مرقعا
وهو الذي لو شاء نالت كفه	كل الذي فوق البسيطة أجمعا
مسك به اختتم المهيمن رساله	وأبان أمر الدين والدنيا معاً

* * *

أما بعد ، فإن وجوه الجمال الفنى في شعر الأسمر ، تستطيع أن تعدّ منها ، ولن تستطيع أن تعدّها ؛ فلأجتزئ بهذا التلليل المجمل ، وأحيل التراء الكرام ، على « ديوان الأسمر » الذي طبع حديثا ، فإن فيه الكثير الطيب ، والمعجب المطرب ، والبديع الطريف ؛ وجمال المنظر والخبر . وليس هذا إعلانا عن الديوان ، فإنه — صنع الله له ما كان يدعو له به صديقه المرحوم الهراوى — لم يهد إلى نسخة منه ، وإنما رأيته في يد بعض من أهدى إليهم ، ممن يستأثرون بحبه وإيثاره ، ولعله — إذا قرأ هذه الكلمة — يتلوم ، فيتكرم ، ولو تطبعا . . .

أيها الأدباء ، أيها العلماء :

عليكم بديوان الأسمر ، فإنه ديوان الأزهر . . .

المبشرون بالإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ربما راع القارئ الكريم أن أجعل هذه الكلمة عنواناً لمقال تنشره مجلة رسمية تعنى بإصدارها « مشيخة الأزهر » لتكون لسان صدق لها في العالم العربي وغير العربي ممن يشهدون أن الإسلام لم يعد بحاجة إلى من يحمل للناس دعايته ، ويرفع رايته ، ويغزو به نفوساً انغمست في زهرة الدنيا ، فلم تلتفت إلى تشريعاته وأحكامه ، ولم تؤمن بضرورة وجوده كنظام لا بد منه لحياة هادئة هانئة تنشد لها العتول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والطباع الوثابة إلى سعادة صحيحة ، وطمأنينة دائمة ، وبلهنية معقولة .

ونحن نكذب أنفسنا ، ونغالط ضمائرنا ، حين ندعى أن الدين يشق — وحده — الطريق إلى القلوب ، دون تبشير به ، وأذان بصوته ، وإيقاظ لتلك البصائر التي ضلت وجهته ، وتنسكت سبيله ، وراحت تتلصص النور من غير سراج ، وإلا لما صحت كلمة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم إذ يقول عن الحلف العدول من أبناء تلك الأمة ، أنهم يحملونه إلى المسترشدين « ينفون عنه زيغ المبطلين ، وتحريف الجاهلين » . ولما لاقى الرسول وهو بصدد تبليغه هذا الصنف المهرق ، والجهد الشاق ، والإيلام الصارخ ، والإيذاء المضني .

وكان من حق أصحابه من بعده أن يناموا نومة أهل الكهف عن الجهاد له ، والذود عن حرماته ، والغضب للعدوان عليه ، مع أنهم عاشوا وماتوا لدعم أركانه ورفع بنيانه ، وإعلاء كلمته ، والتنويه بشأنه في الأصقاع والبقاع إلى درجة أنهم لم يتركوا أعداءه « حتى يعطوا الجزية عن بدوهم صاغرون » .

وإذا كانت « الإرساليات » الأجنبية وقفت سبجها زمناً طويلاً لمحاربتها ، والغض من قيمته ، والتنديد بأتباعه ، تنديداً ينطوى على السكيد والبغضاء ، فإنها ربما ضاعفت من نشاطها ، وبالغت في عدوانها من جديد ، ولا سيما حينما تتجه الاتجاه الصحيح لطمس معالم الشيوعية وغيرها من المذاهب التي تتنف بينهم وبين ما يهدفون إليه من مطامع ، ويطمحون له من نفوذ وسلطان ، لأنهم يعلمون تمام العلم أن للقرآن سحراً أتحاذأ ، سوف لا يذكر أحد معه شيئاً من تلك الشرائع ، ولا هاتيك المعتقدات ، إلى جانب أن دستوره في العمران والإصلاح ، والسيادة والملك ، قد لا يتلاقى مع هذه كلها في قليل ولا كثير ، لأنه اشتراكية محدودة ، تسكفل الحيازة المعتمولة ، والإنتاج المنظم ، والتعاون العام للفرد والجماعة ، بحيث يكون الشعب جميعه متمتعاً بالحرية وفق التمانون ، مترابطاً في حدود الشعور بالحياة المثالية المنشودة ، والعربي والعجمي ، والأبيض والأسود ، والغنى والفقر ، في كل ذلك سواء .

ولا ينكر عاقل أن المسلمين — جميعاً — يعيشون الآن بعاطفة « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » مع أن تعاليم كتابهم تحتم عليهم ما يتصل بالجماعة أكثر مما يتصل بالواحد ، وتشدد التكبير على المتهاون في حقوق الإنسانية العامة أكثر من أى تهاون آخر .

وأبو بكر رضى الله عنه لما كان يشيع أسامة بن زيد على رأس الجيش المحارب ماشياً على رجليه وأقسم عليه أسامه أن يركب فأبى قائلاً له « وماذا على أن تغبر قدمى ساعة في سبيل الله » كان يعلم مدى ما يستأهله المسلم من رضوان إذا نصب نفسه لإعلاء كلمة رب العالمين جل جلاله .

إلا أن أمراً يجب علينا ألا نغفله ذلك أن تلك الرسالة النبيلة ، رسالة « التبشير بالاسلام » والدعاية له ، لا يمترن التوفيق بالمتحمليين لها دائماً أبداً ، وعلى طول الخط — كما يقولون — لأن أصحابها ورثة الانبياء يجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيلاقون مثل ما لقوا ، في صبر الدارين ، وحلم المؤمنين وصفح المتأدبين ، وعفو التاديرين ، وكياسة العققلين ، واحتيال الماهرين ، الذين نلحظ فيهم الخدق وحسن التأنى للأشياء .

على أننا وقد أصبحنا نرى الكرة الأرضية تموج بالنظريات والفلسفة، والعلوم والفنون، والمذاهب والاتجاهات، نتمول إن العلم بالكتاب والسنة، وفقه معناها لا يكفي في الإقناع، ولا يصح الاقتصار عليه في الوعظ — والمسلبون الذين درسوا المنطق اليوناني، والعلوم الفارسية، في الدولة العباسية، وجعلوا من ذلك كله لقاحاً سائغاً في أدهم وتفكيرهم وتأليفهم، فاستفادوا منهم جم الفوائد، لا يزالون بحاجة إلى أن يجاروا ركب الزمن، وقافلة الأيام، ليعلموا ما تنطوى عليه الآفاق البعيدة، والبادي المحولة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقهم لوطن، ولم يرد منهم أن يموتوا بأرض، ولا أن يعكفوا على بيئة واحدة — وهناك ناحية مهمة يجب أن نهـيـء لها أنفسنا، ونحسب لها الحساب العظيم .. وهذه هي حسن عرضنا للمسائل، ليستطيع الآخذون عنا أن يستسيغوها، وألا يتهمونا بالجهل، ويتهموا ديننا بالعم، ويظنوا بنا ظنون سوء، ولست أتعرض لنماذج من قضايانا المغالمة التي نتملها من الكتب كما هي بدون تصرف وأكتفي بمجرد الإشارة، وأرجو من الله التوفيق .

أمثال سائرة

لابن عبد ربه مؤلف : العمد الفريد ، شعر جيد منه ما جعل في كل بيت منه مثلاً أو مثليين . مثل قوله :

قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم	هل من جديد على كر الجديدين
صل من هويت وإن أبدى معاتبة	فأطيب العيش وصل بين إلفين
فاقطع حبال خل لا تلامه	فربما ضاقت الدنيا باثنين
فكرت فيك أبجر أنت أم قر	فقد تحير فكري بين هذين
إن قلت بجرأ وجدت البحر منحسراً	وبحر جودك تمتد العباين
أو قلت بدرأ رأيت البدر منتقصا	فقلت شتان ما بين اليزيدين

الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

أما أن العلم في ذاته لا يستتبع العمل فذلك أمر مشهود جاء في الشاهد والغائب وهو مما استفاضت به الأخبار ، وطفحت به الآداب والأشعار ، وهو شيء لا ياباه العقل والمنطق السليم ، فإن العلم إنما يرفع ضده وهو الجهل ، ولا يرفع ضللا ولا طغيانا ولا مأثما ، فما أكثر ما آثم العالمين ، ومفاسد الثرائين والمتفهمين ، وإنما كان الشأن في العلم أن يتطلب العمل من قبل أن العاقل من حتمه إذا علم النفع في شيء حرص عليه ، وإذا رأى الضرر في شيء ، فرّ منه تمشيا مع غريزة الحرص على جلب المنافع للنفس بتمدر الطاقة البشرية ، فاذا حقق العالم أو أخطأه التوفيق خلط في سيره وعرض نفسه لكل ما فيه عليه مهال ، نسأل الله السلامة والعصمة .

وفي الحق أن العلم كالماء ، يتلون بلون الإناء ويتبع المتصف به ، والله سبحانه قسم بين الناس العلم كما قسم الرزق ، ولكن عبادته يتفاوتون في تقدير العلم والانتفاع به ، كما يتفاوتون في تقدير المال ووضعه في مواضعه ، ولذلك قرنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي يرويه البخارى .

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وفي حديث البخارى أيضا ، يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلمين أصنافا ، فقد شبه ما بعثه الله من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نضجة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب ، فأكل الناس وشربوا وملئوا أسميتهم وكان منها أرض أمسكت الماء للوارد والمستقى .

وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فأهل العلم منهم النافع والمتنفع

كالأرض الطيبة المنتبته ومنهم النافع غير المنتفع وهو الذى يعلم الخير ولا يعمل به ومنهم من لا ينتفع ولا ينتفع كالتيعان .

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما أنا قاسم والله المعطى فإذا وصل العلم والمعرفة إلى نفسى أفادت منها بقدر عنصرها واستعدادها واتجهت بها مع ظروفها وملابساتها ولهذا يصرف كثير من الناس العلم عن اتجاهه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويؤولون آيات الكتاب بما يوافق أهواءهم يزعمون فى أنفسهم أنهم لا يريدون أن يقطعوا علاقتهم بالعلم ونسبتهم اليه وفى الحق لقد أوجد هؤلاء بينهم وبين العلم أكبر جفوة لأنهم فسروه على عكس اتجاهه والعلم لا يقبل ذلك لأنه نور فضاح يكشف كل من قرب منه وحام حول ضيائه وفى الحق أيضاً أن كل علم لا يوجه وجهته ففيه شائبة الجهل على أى اعتبار وفى أى وضع . قال بعض السلف ما عصى الله إلا جاهل وقرأ الآية الكريمة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وفى حديث شريف لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً بل إن فى بعض الآثار ما يدل على أن بعض المعاصى يرفع الإيمان وقت التلبس به فى الحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ » ولهذا أكثر الناس من سلب الوصف عمن أنصف به إذ الم يحقق ثمرته المقصودة ولذلك عندى وجهان من التأويل .

أحدهما أن المراد نفي الانتفاع فكأن هذا الشيء الموجود فى ذاته مفقود لأنه لم يحقق الغاية .

(الثانى) أنه ناقص من بعض نواحيه لأنه لم يحقق الغاية ولو كان كاملاً لحقق الغاية ولذلك تقسم المعارف فى بعض الاصطلاحات الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولهذا كان العلم مقولاً بالتشكيك عند التحقيق .

ومهما يكن من شيء فإن العلم فى ذاته لا يستلزم العمل ولا يقتضيه ولهذا أيضاً تفاوتت أقدار العلماء فعالم فى السماك وهو الذى يشبه أنبياء بنى إسرائيل يعلم الحكمة ويعلمها ويكون كالأرض الطيبة التى تنبت الطيب وتفيد الطيب النافع المصلح .

وعالم آخر فى الحضيض تلغنه الملائكة والانس والجن ممن قال فيهم الرسول

صلوات الله وسلامه عليه « يؤتى بالعالم يوم القيامة فتتدلق أفتابه في جهنم فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون مالك وقد كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر الحديث » وهؤلاء هم الذين يشتررون الضلالة ولا يبالون ما فعلوا .

ولذلك فانتنا ننبه أهل العلم ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة وخصهم بمزية العلم الذى يرفع المملوك الى مجالس الملوك ويجعل صاحبه فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها ، هذا العالم الكريم ينبغى أن يحفظ علمه وكرامته وأن يحصن دينه وسمعته وأن يعز نفسه باعزازه وأن يكرر النظر فى مثل كلام التماضى الجرجاني الذى يقول فيه .

يقولون لى فيك إنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أأشقى به غرسا وأجنية ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا بحياء بالاطماع حتى تجهما

يريد الوضع الطبيعى من رجل العلم أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة يستفيد الناس من عمله مثل ما يستفيدون من علمه أو ما يغنى عن الاستفادة بعلمه وفى الواقع إنه مسئول بما يصدر منه عن الناس كما أنه مسئول عن نفسه ولهذا قالوا « اذا زل العالم زل العالم » ، « وصنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الامراء والعلماء » .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم نفسه من ثمرة هذا النور الكريم والإشراق السماوى العظيم فما أشد خسارة من يرى الضياء ولا يبصر فيه وما أسوأ حرمان من حرم التوفيق لما هو أقرب شىء إليه ومن أضل ممن ضل على علم وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم الكياسة إلى حد أن يهمل عمل الخير وقد تعلم ما يتنافس الناس فى نيله ليصلوا إلى ذلك الخير . هذا والله حماقة تنادى على صاحبها بالثبور والويل « ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل ألف مرة » . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

إذا كان الناس يعظمون العلماء ويحسدونهم على ما هم فيه من الفضل العظيم وإذا كان الله سبحانه يرفع الذين أوتوا العلم درجات ، فذلك لأنهم يستطيعون أن يفعلوا الخير ويكونوا رحمة للإنسانية ومرهما لجراحها وطباً لأمراضها ، ولأن المفهوم في أمثال العلماء أنهم أمنوا العثار والزلل في القول والعمل ، ومن لم يكن كذلك فقد نزل عن رتبة الفضل والتقدير ، ووقع في حفرة التحقير .

« وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فشه كمثل الكلب . ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » .
« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

العلم في ذاته فضيلة لأنه يزيل رذيلة الجهل . والجهل ظلمة والعلم نور ، والجهل عمي والعلم بصر والجهل موت والعلم حياة « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .

العلم فضيلة جليلة ، ما في ذلك ريب ولا مرية ، ولكن فضل تلك الفضيلة في استغلالها والانتفاع بها ، فعلى قدر نفاستها تكون نفاسة ما تؤدي إليه .
وبمقدار قيمتها كانت خسارة من لم ينتفع بها وآثامه وحسابه العسير .

ومن حق العلم على صاحبه أن يشعر الناس بمنزلة العلم الذي يحمله ، وذلك بتلبية داعيه الكريم ، والعمل بما يقضى به في جميع الشؤون وإلا استهان الناس بذلك العلم وحامله ونسبوه إلى الحمق أو الجنون ، ووضعوا نصحه وتوجيهه موضع ستمط المتاع ومالا وزن له وتأمل فيما يقول الله سبحانه :

« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وبعد فما ظنك بشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها ، وطبيب يداوى وهو سقيم أياً منه الناس على شيء .

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو سقيم

على هامس الجولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

اتجه الرسول الكريم نحو مكة ، وهو يعلم أنها كارهة للقائه وصادقة عنه ومعادية لدعوته ؛ وتجربة الطائف لم تكن مشجعة له على التثقل بين أحياء العرب ولا على التردد بين قبائلها ، فالثقة بقريش لا زالت تملأ نفوس الكثرة العربية وقريش واقفة له بالمرصاد مهونة لشأنه محقرة لأمره ترد قوله وتصد الناس عن متابعته ، وما تقول الناس في رجل عاداه أهله وخذله قومه وعشيرته لقد استضعف من مكان قوته وروع من مكان أمنه وانتقص من مكان كماله فأنى للناس أن يجيبه أو تجاريه أو تهادنه أو تواسيه .

إذن لا بد أن يرد بصره الكليل نحو القرية التي أخرجه والبلد الذي خذلته فإن ماضيه بها يهون على نفسه ظلم سكانها وألم المقام فيها . فأهلها أعلم به وإن كرهوه وأعرف بمكانته وإن أنكروه .

وقصد إلى مكة وهو شائع النفس محزون القلب منهوك القوى يجر رجلين لاثملا نه مصطحبا معه الحق المظلوم والقضية المضطهدة موقنا بالفتح مؤمنا بالنصر وسفهاء الطائف يقفون له سماطين يشيعونه بما يشيع به أهل البغي والعدوان والضلال والفساد ؛ ولو أنصفوه من أنفسهم لاحسنوا إستهباله وأكرموا وفادته وودعوه وداع المحسن لشعبه المنتد لأتمته فمجد جاءهم بالمجد الخالد والسيادة العامة والهدى والإصلاح والنور والعلم رجاء أن يقرب بهم بين الأرض والسماء .

ويتصور الرسول الكريم موقفه من أهل الطائف ويذكر ضعفه وهوانه فيناجي مولاه « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلى إلى بعيد يتجهنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى

غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وفي مرجعه نزل بنخلة وهي محلة تمام بقربها سوق عكاظ ، المعروفة في حياة العرب والأدب العربي ، وقام يصلي من الليل والصلاة قرّة عينه وحيية نفسه ، والليل أنس المحبين وعرس الواصلين ومقام الحامدين وبيننا هو في موقفه صرف الله إليه « نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » .

وكان ذلك عن غير شعور منه ولا ترقب عنده وهل يطمع الرسول الكريم في هداية هذا الجنس النافر المستخفي وقد استعصى عليه تذليل جفنه وتهذيب قومه ؟ ولكن الله قد جعل منه هادياً نافذاً في الطبائع ومؤثراً في الجبلات وجعل في رسالته قوة تخترق الحجب فيستجيب لها كل سميع ويؤمن بها كل حي فهي رسالة تدعو لنفسها وتشع من جوانبها وإذا وصلت إلى القلب أثبت أن تستقل به وتقف على عليه وإنما تخرج به داعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وأظهر الله رسوله على أمر الجن نحوه ، طمأنة قلبه وترضية لنفسه ، والجن خلق آخر استروا وراء لطافتهم واختفوا تبعاً لطبيعتهم كما ظهر الإنسان أثراً لكثافته ، خلقهم الله من نار كما خلق الإنسان من طين ، وفي النار لطافة وحرارة ونور ، وفي الطين كثافة وغلظ وعتامة ، ولكن المبدع الختار يرفع ويضع لا معقب لحكمه فرفع الكثيف على اللطيف وقال اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين « معذراً بأنه من نار وآدم من طين ونسى أنه في حضرة ربه عبد متهور ومخلوق مغلوب ، وجره كبره وغروره إلى الخروج من دار الجبور إلى دار الشرور ، ومن جنة وسعته إلى أرض لفظته .

والجن طرائق منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وفي طبعهم النفور وفي خلقهم الغرور ، وقد استمعوا لدعوة محمد صلوات الله عليه وانصتوا للقرآن فلانت طباعهم للحق وجعلوا من أنفسهم دعاة للهدى وأنصاراً للدعوة ورسلاً على الرسول يدعون الله ويصدقون بكتاب الله وينذرون بالعذاب من لا يجب داعي الله ويبشرون بالجنة من آمن بالله ، وهذا أكرام من كريم وتقدير من حكيم رفقه الله به عن مصطفاه وخفف عن مجتباة فأراه قوة دعوته وقدر رسالته وكيف أنها تذلل من الطباع النافرة وتعود النفوس المارقة وتجذب لرحابها جبلة كان منها من عصى ربه تكبرا على البشرية واحتقاراً للآدمية .

لقد سمعت الجن واستجابت وأذعنت وآمنت ودعت قومها للهدى فكان ذلك تسليية مجزئة وترضية مقنعة بأن خلاها أن حجود الترشين وأهل الطائف بالدين لم يكن لتقصير في التبليغ ولا لو هن في الدعوة ولا لتقصير في الحق وإنما كان عن حسد ملأ النفوس وحسد أكل الصدور ، فسكفروا بعربي بعث من صميمهم وأرسل فيهم وأعزهم وعز عليه عنادهم وأحبهم وكره مخالفتهم ولم يدر أولئك أنه جاء بسعادتهم وسلطانهم .

وأقام بنحلة أياما يشكر ويفكر ويجمع نفسه لمواجهة قريش ويرى زيد بن ما يعاينه الرسول فيشفق على موقفه ويخشى عليه أن يتعرض لخطر يواجهه أو ظلم يستقبله فيقول كيف تدخل على قومك وقد أخرجوك ؟ فيجيبه مطمئنا مبشراً « إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » .

وانتهى إلى مكة ووقف بالحق على أبوابها ودار بخلده ما سيلقاه من قريش بعد أن رفض أهل الطائف متابعتة ، والطائفيون والمسيكون متنافسون في الشرف متعادون في الرياسة لكنهم متفقون على نصرة باطلهم وخذلان حتمه ، ولا مناص له من دخول مكة مهما كلف من عناء وأرهاق فتصريف أمور رسالته يحمله مضطراً على جعلها داراً لإقامته ومركزاً لقيادته إلى أن يهيء الله له داراً تحبه ويحبها يأوى إليها فتؤويه ويستنصر بها فتنصره . والقوم لا يرضون دخوله ولا يمكنونه ولا يمترون إقامته بينهم وهو باق على عهده متمسك بأمره وقد مات أبو طالب فقل به النصير .

واستعرض رجال قريش في لحظة يسيرة إلى أن وقف نظره عند المطعم بن عدى فان له معه لحمه وماضيا يطعمان في نصرته ومؤازرته ، وأرسل إلى مطعم رجلا من خزاعة ليخبره بخبره ، فلما علم مطعم خرج إلى الرسول واستقبله بعد أن دعا بنيه أن يحملوا السلاح ويقفوا عند أركان البيت ، ودخل رسول الله في صحبة مطعم ومعهما زيد بن حارثة حتى وصل المسجد الحرام وانتهى إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم وولده محدقون بالسلاح .

وأصرت قريش على عنادها وأمعنت في إيذائه والكيده ، وعرضت عليه ألوانا متفرقة من العذاب ، قصدا لصدده عن غايته ، فمن أشواك توضع في طريقه إلى فضلات توضع على رأسه الكريم وهو قائم لربه إلى غير ذلك من صنوف الإيلام وضروب الاستخفاف ، وهو محتسب صابر يعتذر لهم عند ربه ويطلب لهم الهداية فيقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » .

وضاقت مكة بالحق وأوصدت أبوابها دون ذلك النور ، واختلطت قلوبها بصخورها فلا سمع ولا استجابة ولا ارتداع ولا اتباع ، بل استجبوا العمى على الهدى ، وطاردوا الحق في كل مكان ، ومدوا أفواههم ليظفئوا مشعل الدين ، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون » وبقى الرسول في مركز قيادته يتردد حول مكة في المجمع والأسواق ، عله يجسد من الوافدين من يصدق بدعوته ويؤمن برسالته ، وكان يتم له قصده لولا مطاردة قريش له بنقمة ما يبرم وإفساد ما يصلح ، وتخرج أمر الرسول في قومه وتلفت فيمن حوله فلم يجسد فيهم رجاء في النصرة ولا أملا في البيعة ، ولولا أن أهل الأوس والخزرج كانوا يعلمون من حلفائهم ييثرب من اليهود أن نبيا من صفته كذا أطل زمانه وجاء أوانه وأن اليهود ستبجعه لتقاتل معه العرب ما أسرعتا في متابعتة والاستماع إليه ، ولكنهم تأملوه فعرفوه ، واتجهوا إليه واستمعوا لحديثه ، ووافى الموسم منهم من آمن بالدعوة وباع على النصرة ورجع إلى قومه داعيا وهاديا ؟

الإسلام يحقق السلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

شهد العالم قبل الإسلام ويلات وويلات ، وسادته ضلالات أفسدت على العقول اتجاهها إلى السمو وطلب الكمال ، وخضع لاستبداد طاغ في توجيه أموره ، وكل مقدراته ، لصوالح حكام في الشرق والغرب ، كل أهداف حكمهم . هي الجلوس في أبراج السيادة ، والإشراف منها على استغلال المحكومين ، وإن شئت قل إن حكام الشرق والغرب قبل الإسلام ، كانوا في صراع على السيادة في أرض الله ، ألقوا فيه إلى الجحيم كتلا من المحكومين الذين أهدرت آدميتهم ، في سبيل شهوات كسرى وقيصر ، ولقد غشى العالم فساد عام شامل ، استشرى في كل ناحية من نواحيه . في الدين ، في السياسة ، في الاجتماع ، في كل شيء .

كذلك شهد العالم قبل الإسلام ألوانا مختلفة من الديانات والتشريعات ، السماوية والوضعية شهد اليهودية والنصرانية ، كما عرف الزرادشتية والمزدكية والمناوية والكشفية ، والبوذية ، ولم يجد العالم في واحدة من هذه الديانات ، ما يهذب النفس ، أو يرقى بالروح معارج الجمال ، ولا ما ينظم مجتمعا سعيدا يقوم على الحب والسلام .

وجرب العالم منذ التمدد تشريعات الفراعنة . وقوانين حمورا بي ، وجملة تشريعات أخرى إغريقية ، ورومانية ، وفارسية ، ولم يسعد العالم أي حكم قام على هذه التشريعات ، إذ لم تنظم مجتمعا ، أو تحقق عدلا ، ولم تجلب رخاء ولا أمنا ، بل لم تحفظ حرمة الإنسانية . لأنها كانت تسير وفق قاعدة عامة تمثل الشرائع قبل الإسلام هي : من غلب على شيء أكله .

عالم عقل أفسدته الوثنية ، وثنية ألزمت الناس بعبادة الحجر ، أو عبادة الشجر ، أو النيران أو البشر ، وديانات عطلت المواهب ، واعتقلت العقول ، وأتجت سعي الحروب بين الشعوب . لا طلباً لكمال إنسانى ، ولا تحميلاً لآخوة أو عدالة . بل لسيادة نوع من صنوف هذه الوثنيات .

وعالم اجتماعى أفسدته الطبعية . فأشراف هم سادة الناس ، وفي أيديهم الجاه والسلطان ، وعندهم ذهب الدنيا الوهاج ، وصنوف من الناس يتقاتون فى العبودية والاستغلال ، ويمتعون بالفقر والحرمان ، ويكدحون لسادتهم فى سبيل الإبقاء على حق الحياة .

وعادات لا تدرى أهى عادات إنسان أو حيوان ، وجاهلية جاهلة ، قضت على التفكير الإنسانى ، فلم يتوجه لخدمة الإنسان ، ولم يسعف البشرية باصلاح ، وهى تلح فى طلب الإصلاح .

وصراع دائم مرير بين الشرق والغرب ، بين الفرس والروم ، على سيادة دنيا الله ، حروب فى إثرها حروب ، وكروب تتبعها كروب ، وغطرسة فى كسرى خربت الشرق ، وكبرياء فى قيصر خرب الغرب ، ومن غطرسة كسرى وكبرياء قيصر ، يتألف عالم سياسى يقوم على الظلم والفجور ، والإنسانية بين هذه العوالم المخربة المدمرة ، تنادى ربها ، وتستغيث بآريها ، يارب تدارك عبادك بوسائل الإصلاح ؛

وأشرقت الأرض بنور ربها ، وانبلج صبح الإصلاح ، وبعث الله محمد بن عبد الله بالإسلام رحمة للعالمين ، ليخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد .

جاء الإسلام ليصحح الأوضاع السيئة ، ويصلح الفساد الذى يعانى العالم من جرائه ويلات الحروب . ويتمم مجتمع الإنسانية على أسس قويمه من العدالة والأخوة والمحبة والسلام .

وانقد بدأ الإسلام باصلاح العقيدة . عتميدة الناس فى رب الناس . فاستهجن الضلالات السائدة . وأنكر أن يكون هناك أدنى تصرف فى أمور الناس . الشئ

من اللات والعزى ومناة . ومثلاتها من أحجار وأصنام . أو لشيء من نيران
الفرس أو حيوان غيرهم . أو لشيء مما يعبد اليهود والنصارى .

وقرر أن الخالق واحد من كل وجه ، هو وحده المتصرف في كل شيء ،
وإليه يرجع الأمر في كل شيء ليس كمثل شيء . من حجر أو شجر ، أو بشر ، كل
الكون في قبضته ، وكل العوالم عبيده ويرجون رحمته ، ودعى الإنسان إلى تحرير
عقله من قيود الوراثة والوثنية ، فاذا حرر عقله فليُنظر فيما يحيط به متأملاً
فيما خلق الله ، وليحكم عقله المتحرر ، في قضية الألوهية . ولينظر « أرباب
متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ « أفن يخلق كمن لا يخلق » ؟ « أيشركون
مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون » ؟ « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن
الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب
شيئاً لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله
لقوى عزيز » . ولا بد أن يصل العقل المتحرر من قيود الوراثة والوثنية في هذه
القضية إلى ما يدعو إليه الإسلام . لا إله إلا الله . فاذا استيقن بها الإنسان .
تفتحت له آفاق وآفاق . واستقام أمره على وجه من الإصلاح والصلاح لم يعهده
من قبل !!!

خالق الكون واحد وهو المتصرف فيه . وهو وحده سيد لما خلق . وكل
خلق الله عباد الله ونسبتهم إلى الله واحدة . فهم أحرار . لأن الله وحده هو خالقهم
وهم عند الله سواسية لأنهم جميعاً عبيده وهم إخوة لأن ربهم واحد وأباهم واحد
وأهمم واحدة خلقوا لغاية واحدة أفضلهم عند الله أحسنهم عملاً وأنفعهم للناس
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم » فلا الأجناس والألوان ولا الأحساب والأنساب
ولا الجاه والسلطان والأموال ولا القوميات ولا العنصريات . لا شيء من ذلك
كله بمقياس ولا ميزان عند تقدير الصلاحية أو وزن القيم . فالإسلام قومية
المسلمين وهو الجنس واللون والحسب والنسب والمسلمون إخوة في الإنسانية
وإخوة في الإسلام ومن واجب الإخوة أن تقوم بينهم المحبة ويسود بينهم السلام

ومن واجب الاخوة أن يتعاونوا على البر والتقوى . لا على الإثم والعدوان
 فاذا تعاونوا على هذا المنهج فلا بد أن يحلوا مشكلة الغنى والفقركا قضوا على
 الطبقة الجائرة بتوحيد الله الذى خلقهم أحراراً متساويين ولم يجعل للشرف مقياساً
 غير حسن العمل ومدى ما يحققه الشخص من خدمات ومنافع للمؤمنين وللإنسانية!
 وإذا كانت نفس الإنسان قد جبلت على الشح فقد أراد الله سبحانه ألا يخضع
 التعاون على البر واثقاء الشرور لهوى النفس الشحيحة بل نظم هذا التعاون فى
 سبيل خير الجميع تنظيماً عجباً كان موضع إطرأ خصوم الإسلام أنفسهم وجعله
 إلزاماً للأمة متضامنة ولكل فرد بوصفه الخاص . فالأمة متضامنة فى كفالة حياة
 الفرد حياة حرة كريمة وكل فرد مكلف برعاية مصالح الأمة . فالفرد والجماعة
 يتبادلان المعونة فى سبيل الخير العام .

للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، ومال الغنى هو مال الله استخلفه فى استثماره
 وتنميته « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » والمؤمن الغنى جواد سمح ، لا يمسك
 مال الله عن الخير لعباد الله ، والمؤمن الفقير قانع عزيز ، يأخذ حتماً جعله الله له
 فى مال أخيه ، غير ذليل ولا مستذل ، والغنى يعطى ما وجب عليه غير مانٍ
 ولا متكبر ، وهذا وذاك يقوم بأمر الدين ، ويستجيب لله رب العالمين ، ولقد
 عين الإسلام مقادير محددة بنسب معينة وبشروط خاصة يدفعها الغنى إلى بيت
 مال المسلمين ، لتنفق فى سبيل الصالح العام للأمة وسمى هذا « زكاة » ثم أوجب
 على الأغنياء بعد ذلك الإنفاق فى سبيل الله ومصالح الأمة ، وترك التعيين والتحديد
 للمؤمن الغنى ، يتقدر ويحدد بنفسه ما يجب عليه ، حسب ما يعلى عليه إيمانه ،
 وحبه لخير المسلمين .

والزكاة . والانفاق الذى يسمى صدقة ، أريد بهما ، مواجهة حاجة الدولة ،
 ومقتضيات عملها على توازن القوى فى المجتمع ، حتى لا تتجمع مالية الأمة فى أيدٍ
 قليلة قد تكون شحيحة ، فتولد الاحتداد فى النفوس ، ويرجع المجتمع إلى نظام
 الطبقة الذى قوضه الإسلام بتعاليمه . ثم عاد إلى المجتمع الإسلامى لما تنسكب
 صراط الإسلام كما أريد بهما . تربية النفوس وتمرينها على البذل عند دواعيه .

ومقاومة خلق الشح في نفس الإنسان الذي يدفعه في كثير من الأحيان إلى هجر الدين والفضائل في سبيل المال . ولتد طبق هذا النظام ونجح نجاحا بعيداً في صدر الإسلام . وقد لفت أنظار الغربيين . فجعلوه أساساً لما ظهر بينهم من نظم تعاونية وجماعية . حتى لتكاد التبرعات عندهم . تنفي بحاجات شعوبهم الاجتماعية . وقد تصاب بعض النفوس بخديعة ثقافية . فيختلط عليها الأمر فترى في هذا النظام استدلالاً للفقير . وإهداراً لحرمة . وقد تصاب بلوثة . فترفض ما لا تفهم مما شرع الله . وهيات أن يستقيم أمر الناس على غير ما شرع الله . ولن تحل مشكلة الفقر حلاً جميلاً . يحقق سلام المجتمع إلا على أساس ما شرعه العليم بالنفوس البشرية . فأقيموا الدين لله خالصاً من شوائب الشهوات . وتجردوا من لوثة النقاات الخادعة الوافدة . تحل مشاكلكم . ويصلح مجتمعكم .

وإذا أقام الإسلام مجتمعاً صالحاً على أساس من توحيد الله والاعتراف له وحده بالسيادة ، وتمتير الحرية والاخوة والمساواة بين الناس ، والتضامن بين الفرد والجماعة في سبيل الصالح العام للجميع . فإنه يتم حكم هذا المجتمع على أساس من الشورى الحرة . ويطلب أن يكون الحكم قيادة رشيدة للمحكومين . تسعى إلى تحقيق أكبر قسط من سعادتهم . وتوفر لهم أسباب الحياة الشريفة . وتقيم بينهم العدالة وتسوى بينهم في توزيع الحقوق والواجبات . ويطلب من الحاكم أن يكون قدوة حسنة لرعيته . في قوة إيمانه والتزامه لمبادئ الدين . ووجه للخير والإيثار . حتى يحمل بسلوكه المحكومين على الاقتداء به . ويتحقق الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وطلب من المحكومين أن يطيعوا الحاكم ما استقام على أمر الله . وأخلص في رعاية مصالح الدولة . فاذا أعوج قومه بالنصح والإرشاد . وإذا أشكل عليه أمر أرشده بالحكمة والموعظة الحسنة إلى وجه الخير فيه . وإذا جار وظلم عالجوه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . « وهو السلطة الكبرى التي جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلام » ، فاذا لم يرفعوا لراجر . ولم يتلع عن الظلم بعد نصحه . فلهم أن يستبدلوا به غيره . وجعل المحكومين مسئولين عن الحاكم وصلاحه . مثل مسؤولية الحاكم نفسه عن مصالح المحكومين . وهكذا يخلق الإسلام دولة قوية يركزها على دعائم

قوية — اجتماعية وسياسية — تضمن لها العزة والكرامة ما سارت على منهجه الواضح المرسوم .

وإذا أقام الإسلام دولته فانه يجعل أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام . فحرم على المسلمين أن يعتدوا على غيرهم . ولم يجعل الاختلاف في الدين مبرراً للعدوان . فإذا جنح غير المسلمين إلى السلم فليسالمهم المسلمون . كما نهى المسلمين عن الهجوم على عدوهم الذى استيقنوا من عداوته . وتوقعوا عدوانه . من دون إنذار يرسلونه إلى العدو . بل حتى يصل الإنذار إلى العدو . ثم أنكر الإسلام الحرب لمجرد التوسع والاستعمار أو لهُوى النفس . ولم ييجها إلا لحماية الدعوة أو دفع عدوان . فمن اختار البتءاء على دينه . وسالم المسلمين . سالمه المسلمون . ومن عاهد المسلمين على الأمان فتمد وجب على المسلمين الوفاء بالعهد . ومن عاقدهم على تجارة وفوا له بالعمد . وهكذا فى الجملة يتمم الإسلام العلاقات بين الدولة الإسلامية . وغيرها . على أساس السلام . ويحب أن يكون السلام دائماً هو رائد العلاقات الدولية . ولا يقر الإسلام البغى والعدوان فى أى مظهر من مظاهر الحياة للفرد أو الجماعة .

الإسلام منهج عام للسلام . للسلام الداخلى فى كل أمة . والسلام الدولى بين الدول . ولهذا المنهج تفصيلات كثيرة ودقيقة . أرجو أن يسعدنى الله بفرصة لتجليتها . وبيانها للناس . منهج للسلام يهدى للتى هى أقوم . فلو أنصفت الإنسانية نفسها بالإسلام لاسعدها الإسلام . ولو شاءت الإنسانية الأمن فى مجتمعاتها الداخلية . فعليها بالإسلام .

ولو أرادت السلام العام بين الدول فإن الإسلام هو منهاج السلام . « سزيرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . » فن أسلم فأولئك تحروا رشدًا » وستنجلي الغمرة بعد غاشية تغشى الإنسانية — قريباً أو غير قريب — وسينظر العالم حائراً . وسيبحث عن مخلص يخلصه من ضلال العلم والإلحاد فى الله وفساد الدين والسياسة والاجتماع . وستكون حيرته هذه كحيرته الأولى عند ما بحث عن منقذ قبل الإسلام . فكان الإسلام وسوف لا يجد العالم ما يخلصه من كربوه وإلحاده وماديته . ويرىحه من ويلات الحروب والخراب والدمار . سوى الإسلام . « ولتعلن نبأه بعد حين » .

فى ميدان علم النفس :

تعريف الحكم

حضرة الدكتور - سيد زابر

من بين المشاكل العديدة التى تتأرجح بين العلوم المختلفة وبين وجهات النظر المتباينة ، مشكلة الحكم . فهى مشكلة يتجاذبها علم النفس وعلم المنطق كل يريد أن يضمها الى حظيرته ، وكل يريد أن يدرسها بمنهجه الخاص ويعتبرها ضمن أبحاثه الخاصة .

ولذلك لا تأخذنا الدهشة عندما يفاجئنا هولنجورث فى مستهل فصله بعنوان جزئى هو « تعتمد المشكلة » يقول فيه إن المحاولات لتعريف طبيعة الحكم وتحديد مكائته فى علم النفس أو المنطق ، قد استنفدت أبحاثا كثيرة ، وقد حددت هذه الأبحاث بدافع الحكم بالنسبة لموضوعات أساسية وأولية فى علم النفس ، ولذلك إذا وصف الحكم بأنه حالة إثبات لعلاقة بين موضوعين أو حدين ، فهذا يتضمن معنى خاصا للأفكار التى تستعمل فى التعريف .

ولكن ما هى حالة الإثبات كحالة مميزة عن بحث مجرد ؟ ما هى طبيعة العلاقة التى يمكن أن توجد فقط فى حضور عضوين أو أكثر ؟ وما هى فى الحقيقة الأعضاء أو الوحدات (المعانى) التى توجد بينها العلاقات ؟ هل تدرك العلاقات بصفة واقعية ؟ هل يمكن تصنيفها بطريقة ما حسب موازين وألوان ونغمات ؟ هل هى أيضا « محتويات الشعور » أم هى فقط « أفعال نسبية » ؟ وهل تتصف بصفات تتعلق بالكيفية والشدة وديمومة الإحساسات ؟ هل هى فى الحقيقة مكتشفة أم هى

مختصرة فحسب ؟ كل هذه الأسئلة يضعها الكاتب في إبتداء الفصل وكلها — كما هو واضح — تنطق بتعقد المشكلة .

ولم يكتف الكاتب بهذا بل أراد أن يزيد في تبيان مقدار التعمد والصعوبة فكتب تحت عنوانه الجزئى الثانى يقول : ويمكن الاعتراض بأن نظرية في الحكم لا تحتاج ضمناً إلى أى مؤيدات أوليه ، وبأن طبيعة الحكم يمكن التأكد منها مباشرة خلال التأمل كى تعطينا فكرة عما وجدته في الوعى أثناء عملية الحكم ، ولكن هناك عدة عوائق هامة من أهمها أنه من المستحيل علينا أن نعطي في أى وقت تمديراً تاماً عما يحدث في الشعور حتى ولو كان في بضع ثوان ، وكل ما يستطيعه التأمل هو أن ينتخب من التجربة الكلية تلك الحوادث التى تبدو له مؤيدة للعملية التى تفيد الجرب فيخبر عنها ويجهل الباقيات ، وإن أفكار الوعى التأملية التى تحدث أثناء التفكير تبدو في هذا المجال كأنها فطرية ونادراً ما تبين اختيار حوادث معينة على ضوء نظريات سابقة ، فهى في الغالب لا تخبر عن الأصوات الخارجية وأصوات التنفس وحركات الحجاب الحاجز والنشاط الجثمانى عديم الغاية والحركات المستمرة للسان وإبهامات الأرجل وأصابع اليد . من ذلك يتضح أن الأحكام لا تكون إلا للحوادث التى تحصل بوضوح في الوعى لا إلى تلك التى تنكشف حيناً وتختفى حيناً آخر ، وللحوادث الجزئية أكثر من الحوادث الكلية .

ولذلك إما أن نخبر الذات تحت تأثير انتباه اختياري معين ؛ أو أن من يكتب التقرير يختار لتمريره تعبيرات توافق العملية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن لمفهوم ما أن يلخص خصائص العملية التى حدثت تحت أى حالة من الحالتين السابقتين وخاصة بالنسبة إلى وظائف الألفاظ الرمزية . وقد يذنباً اعتراض مهم بالنسبة إلى التجارب الفنية وهو وجوب إلزام الذات بأن تحكم لتمرر أو تخبر عن مجرى الوعى ولكن هذا يتطلب معرفتنا الواضحة لماهية الحكم وإلا كيف يمكننا أن نلزمها بالحكم وكيف نتأكد أنها حكمت ؟ وبعبارة أوضح كيف نجزم بأن ما أخبرت عنه هو بالذات عملية الحكم ؟ وكذلك في إحدى دراسات الأستاذ مارب في الحكم المبكر على طريقة التأمل الباطنى يحاول المختبر أن يعرف ما هى التجارب التى يجب أن تتوفر في عملية الوعى حتى نرفعها إلى درجة الحكم أى نضيع الجرب تحت

حالات يمكنه فيها أن يختبر أنواع العمليات العقلية للحكم وحينئذ نسأل أن يبسط لنا التجارب التي حدثت له أثناء تلك العمليات يتضح مما سبق أنه يمكننا — بصفة مؤقتة — أن نعرف الحكم بأنه عملية الشعور الذي يمكن أن يحمل عليه في معنى ما محمولا الصدق أو الكذب .

تعريف مارب :

يبدأ مارب تعريفه بضرب مثال فيقول : إذا كان لدى ثقلان وطلب منى أن أختبر أى الثقلين يبدو أثقل . أفلا يكون إخبارى بتمييزهما ، حكماً ؟ ولكن على أى أساس يقوم حكمى بالموازنة بين الثقلين وعلى أى حقيقة يقوم ؟ وإذا ما تركت الاختبار جانباً وتقدمت قليلاً لا بين مقدار النقل إما بالكلام أو بالإيماء ، أفلا يمكن أن يتمال إن هذا القل يتفق أو لا يتفق مع حدث آخر وهو الأثر الحسى الذى أحدثه النقل بالفعل .

ويستطرد مارب قائلاً : وإذا سألتنى مضيفى مثلاً رأى فى قبة جديدة وأى الألوان أنسب لها ، فانى سأخبرها طبعاً بلون ما . . فعلى أى أساس يقوم هذا الحكم ؟ وبأى مقياس يكون خطأ أو صواباً ؟ إن مضيفى لا يهتمها أن تأخذ رأيى فى اللون الذى أحبه ، بل كل ما يهتمها هو أن ترى هل سيتفق تخمينى أنا مع ماستفعل حقيقته أم لا .

وهناك أحكام لا تتفق مع نظرية مارب ، بالرغم من إشارة Messer وإثبات تشنر Titchener أن النظرية تتفق مع تجارب كثيرة لم تتعود أن نعتبرها حكماً كالاستظهار الحقيقى لمناطع عديمة المعنى فى تجارب الذاكرة . وكاستجابة اللاعب (فى صالة الجينزيم) للترا كيب اللفظية التى يصدرها المدرب .

ويجب أن نلاحظ أن مارب كغيره ممن أتوا بعد سواء بسواء ، لم يكن يبحث عن النموذج الأول الحقيقى الداخلى للأحكام . بل كان يبحث عما يمكن تسميته الظواهر الملازمة أو « التجارب الثانوية » التى يمكن اعتبار وجودها معياراً ثابتاً .

وهذه هى الطريقة التى يتبعها البستاني الذى يفرق بين نوعين من فاكهة معينة باكتشاف نوع الحشرة الضارة التى تعيش باستمرار على كل نوع ... ولكن

لماذا نعتمد على الحشرات للتمييز بين نوعي فاكهة ما ؟ ولم لا نبجث الفاكهة ذاتها ؟ فالذي نريده أولاً وقبل كل شيء بياناً وافياً يعتمد على الظواهر للحوادث أو التجارب أو العمليات التي تدل عليها لفظة حكم . ومثل هذا التعريف يدخل في علم النفس أكثر منه في المنطق وهو ما نريد أن نبجثه هنا .

ولن نحاول هنا أن نزن الآراء التي قيلت بصدد طبيعة الحكم عند مسز . روول . بهلر . وغيرهم والتي تنهج منهج الاستبطان ولكننا سنحاول أن نبين الحجج الرئيسية في عدم كفايتها .

مقاييس الحكم :

من بين المسائل الهامة التي ترتبط بالحكم سنغنى أولاً بما يسمى التعبير عن الحكم . ويقصد به إشارات أو ألفاظ تبين محتوياته وتستخدم لأغراض خاصة أهمها انتقال الأفكار والاتصال بالغير . ومما لا شك فيه أن التعبير عن الحكم قضايا تتكون من موضوع ومحمول ورابطة .

وقد قامت مناقشات حول هذه المسائل اللغوية مراعاة للغة وأنها مرآة للحوادث الفكرية دون نظر إلى العوامل العرضية والعملية التي تحدد تطورها وتطور الكلام . ولكن اختلاف الطرق التي بها نعبر عن أحكامنا جدير بأن يمنع الخلط بين علم النفس وعلم اللغة . فالحكم كما قال مارب يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة كالكلام والإيماء والتوافق العملي وتسلسل الخيال وتغير اتجاه التفكير . ومهما كانت طبيعة التعبير . فليس جزءاً جوهرياً من الحكم إلا ما أدركه على أنه حادثة نهائية ترتفع بالحكم ليصبح عملية إغلاق . وعلى ذلك تصبح القضية لا حكماً فحسب بل نتيجة له .

وإذا أخذنا الفكرة الأخيرة فجدير بنا أن نبين العمليات المتضمنة في المواقف العملية وما يدل عليها يمكن أن نسميها في مضمونها تفكيراً .

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أربعة أضرب هي : « الدالة على » ، « المدلول عليه » ، « المدلل به » ، « الدلالة » ، ويقصد بالاولى ، المنبه أو الرافع

أو الباعث أو الإشارة أو التليح أو ما يقابل في المنطق الموضوع في التمضية .
ويقصد بالثاني ، التجارب الماضية التي يفصلها الباعث السابق الذكر وهو ما يقابل
الحد الأوسط في المنطق . ويقصد بالثالث حقيقة التيام بتنفيذ ما يطلبه العامل ،
كشفه الاستجابة والتوافق والصورة والشعور إلى غير ذلك من الحوادث النفسية
التي تعبر أو تشير إلى اتجاه الوظيفة وهو ما يقابل الرابطة المنطقية أو قانون
التداعي في علم النفس . ويقصد بالآخر ، الحادثة النهائية أو التعبير في ذاته كنتيجة
للباعث على ضوء العلاقات الماضية وتقابل في المنطق ما يسمى بالمحمول .

وواضح أن هذا التفصيل يتفق مع ما قيل عن الحكم في كتب المعاصرين
ولذلك عرض هولنجورث لبعض آرائهم توضيحاً لهذا التطابق ، فالى اللقاء
في العدد القادم إن شاء الله .

حكم نبوية

لعيسى عليه السلام في كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين :
« اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل ، وكلوا بقل البرية ، واشربوا الماء
القراح ، وانجوا من الدنيا سامين » .

وقال عليه السلام : « لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا
في أعمالكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ،
واحمدوا الله على العافية » .

وقال عليه السلام لحواريه : « عجا لکم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير
عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل » .

وقال عليه السلام : « ألا أخبركم بخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال
من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في عملكم منطقه ، ويسوقكم إلى الجنة عمله » .

دراسات في التصوف :

السهروردي المقتول

المؤستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

— ٢ —

ومن هنا رأى المتآمرون أن يتجهوا إلى صلاح الدين نفسه ، فأرسلوا إليه مصورين السهروردي في أقبح صورة ، ناعته بأبشع النعوت ، وأوصموه بكل صفة رديئة ، ثم ضربوا وترأ حساساً عند صلاح الدين ، فقالوا « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » .

وسارع صلاح الدين فأرسل إلى ابنه أن : ابعد عنك الرجل ، ولم ينفذ الظاهر وصية أبيه ، لعله بسر الأمر .

وهنا انقسم الرأى فى حلب قسمين : قسم يؤيد ، وقسم يناوئ : حماس ونقمة ، رأى الأولون فى السهروردي نبياً من أنبياء الفكر ، حكماً قد أوتى كل علم ، ورأى الآخرون فيه ملحد كافرأ ، أقل جزاء له الموت .

ويحدثنا القاضى شداد ، وقد عاصر هذه الحقبة من الزمن ، قال : « أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم » .

لم يرض بعض الفقهاء بمسلك الملك الظاهر ، واجتمع منهم اثنان : زين الدين ومجد الدين ابنا حميد ، وأثارا ثائرة العلماء ، وجمعوا جموعهم ، وتقدموا إلى الظاهر : أن نفذ وصية أبيك ، أن ابعد هذا الزنديق ، وأنقذ الدين من شره وخلص العقائد من خطره . وأخرج الظاهر أمام أبيه وأمام الشعب ، فرأى أن يخرج

من المأزق بحل وسط هو أن يعقد مناظرة لتسوية الخلاف؛ فرضى الفقهاء بهذا الحل كما رضى به صلاح الدين .

كان الظاهر واثقاً من قدرة السهروردى ومن بلاغته وفصاحته تعبيره ، ولكنه نسي أن السهروردى سيكون متهماً في مجلس قضاته هم أعداؤه . واجتمع المجلس ، وناظر السهروردى فيه وظهر عليهم ، وجاء بعض هذه المناظرة في الكتب :

« قالوا : انك قلت في بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً .. وهذا مستحيل .

« قال : وما وجه استحالة ؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شيء . »
ولم يذكر التاريخ هذه المناظرة كاملة ، فتمتد ضاعت مع ما ضاع من تراث المسلمين وأفكارهم وكتبهم .

وحكم المجلس بإدانة السهروردى ، وبعد مداولة قصيرة حكموا بكفره وجردوه من إيمانه . ثم كتبوا وثيقة كفره ، وأذاعوها سراً بين الناس . وهكذا نجحت المؤامرة وحكم على السهروردى بالموت . ولم يجد الظاهر بداً من أن ينفذ الحكم في صديقه ، واختار القوم كيف يموت السهروردى : هل يمزقونه أم يصلبونه أم يقتلونه ، وكفاهم الملك الظاهر مؤونة التفكير فطلب إلى السهروردى أن يختار ميته ، فاختارها .

لقد كان - حتى في موته - زاهداً متصوفاً ، فاختار أن يحبس في مكان ، وأن يمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت جوعاً . كم من الآلام عانى وهو مضطجع يهراً الجوع أحشاه ، لقد أراد امتحان قوة صبره ، فكان له ما أراد . أو لعله كان ساجداً في ملكوت الله ، فانياً في بحار الحق ، متأملاً في إله الخلق ، فلم يشعر بجوع ولم يعرف العطش .

وثبت روايات أخرى عن موته ، فمن قائل إنه خنق ، ومن قائل إنه صلب ، ولكن الالبت أنه في يوم جمعة من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج السهروردى ميتاً من الحبس .

ولم يعلم السهروردى من يدافع عنه ، فترى الشهرزورى صاحب « روضات

الجنات» ينعته «بالشيخ المعظم والفيلسوف المسكرم العالم الرباني والمتأله الروحاني». وهو عنده جامع بين الحكمتين الذوقية والبعثية. «كان في المكاشفات الربانية آية والمشاهدات الروحانية نهاية».

ويستمر السهرزوري: وصاحبنا كان الوحيد الذي تيسرت له الحكمتان، فإننا نرى البعض، بل والغالبية العظمى لما يتيسر لها غير أحد الوجهين، فأبو يزيد، والحلاج ما تيسر لهم غير الكشف دون البحث، والكثيرون من الحكماء تيسر لهم البحث دون الكشف.



مذهب السهروردي:

كنا نود أن نوفي مذهب السهروردي حقه من الكلام، بعد أن أرخنا له، ولكن ضيق المجال يضطرنا إلى أن نتحدث عن الخطوط العريضة لهذا المذهب فحسب، وأن نتناوله تناولاً عاماً فنعطى عنه فكرة عابرة.

خلف السهروردي الذي قتل ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره - على أصح الروايات - كتباً عديدة ورسائل كثيرة، بها حكمة وبها إشراق. ولكننا نجد على العموم ليس صاحب مذهب طريف، بل إنه قد أخذ التليد من مذاهب السابقين، وتأثر بالكثيرين ممن سبقوه وعلى الأخص «ابن سينا»، الذي يحاكي مذهبه في النفس محاكاة يكاد يذهب فيها إلى نفس كلمات الشيخ الرئيس في قصيدته العينية:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع
حاكها بقصيدته التي يبدوها:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم نشوقاً
كان السهروردي متديناً، ولكن اعتقاده لم يكن اعتقاد العوام، بل خاصة الخواص، يقول في آخر المطارحات: «هو ذا قد بلغ سني إلى قريب من ثلاثين سنة، وأكثرت عمري في الأسفار والاستخبار، والتفحص عن مشارك مطلع العلوم، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها».

أما قصيدته المشهورة التي يتغنى بها المتصوفون ، فوصف حالة من حالات تجرده ، وإظهار لجة ولسكره ولشوقه :

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصا لكم ريحانها والراح
وأحسرتا للعاشقين تحملوا ثقل الحجة والهوى فضاح
وهو يخاف أن يبوح بسرهم فإنهم :
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
ولكن :

إذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
إنه حبيب برح به الشوق ، وطوح العشق ، ليس له صبر على البعاد ، يتوسل
يرجو اللقاء :

جودوا على مسكينكم بلتائكم فالصب عند لتائكم يرتاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب في خفض الجناح ، جناح
جودوا بنور الوصل من غسق الدجى فالهجر ليل ، والوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم ، فمضى الغرام ، فباحوا
حضرُوا فغابوا عن شهود ذواتهم وتهتكوا لما رأوه وصاحوا
قم يانديم الى المدام ، وهاتها فبحانها قد دارت الأرواح
هي خمرة الحب القديم ، ومنتهى غرض التديم ، فنعيم ذاك الراح

هذه بعض أبيات من قصيدته ، تدل كل كلمة فيها عن خلجات نفسه ، وتعبر
عن شواهد روحه ، كتبها بقلبه وخطها بذوقه ، لم تملأ عليه أبدا روعة عقله ،
أو يلهمه إياها صفاء بيانه ، وإنما هي حالة من حالات الغيب والغناء أنتجت تلك
الآيات التي نحس معها وكأن نفوسنا تتسامى مع معانيه ، فتسمو بعيدا بعيدا ،
في عالم الملكوت ، في عالم الحضرة الربوبية . أو ليس هو القائل :

لأنوار نور الله في القلب أنوار وللسر في سر المحبين أسرار
ولما حضرنا للسرور بمجلس وحف بنا من عالم الغيب أسرار
ودارت علينا للمعارف قهوة يطوف بها من جوهر العقل خمار^(١)

(١) لاحظ قول ابن سينا : أسقنيها قهوة كدم الطلا .

وهو يشرح لنا سبب ترحاله وكثرة أسفاره :

ذريني أن أسير فلا تنوحى فإن الشهب أشرفها السوارى

ورأيه في الاتحاد يتضح من قوله :

خليلي إن الأنس في فرقة الإنس فسكن أبدأ ما عشت في حضرة القدس
فأنت هو المغنى وفيك وجوده وفيك جميع الخلق والعرش والكرسى

وليس أصرح من هذا قوله في وحدة الوجود ، فإنه يرى أن الإنسان يشمل
في ذاته كل شيء حتى العرش والكرسى ، وما أشبه فكرته بفكرة العلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

أليس ذلك هو المعنى الذى يريده حين يقول : « فأنت هو المغنى وفيك وجوده »

وهو كتصوف ، يعرض عن لذات الدنيا ، يريد بها ما هو خير وأبقى :

لذة القرب من الله :

نزلنا على حى كرام بيوتهم ممتدة ، لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
شفانا ، فحيانا وأحيا نفوسنا وأسكرنا من راح إجلاله التقوى

كان السهروردي يتماهى بمن يرمونه بكل نقيصة ، فيتجاوز عن الإساءة إليه ،
تجاوز القمار ، العالم ، الواصل إلى أسمى الدرجات :

الخلق رضوا بظلمة ذات حزن كم قلت ، وكم أقول ، لكن مع من ؟

يعرف السهروردي الصوفى بأنه هو الذى اجتمعت فيه الملكات الشريفة ،
أما التصوف عنده فهو اصطلاح عن هذه .

ونجد في مذهبه آثاراً مسيحية ، تبدو فيما استعمله من كلمات وما اصططنعه
من أساليب .

ويحمل على المشائين الذين « اختصروا على أمور تشبه مقولة متى والملك ،
فإن هذه الأقاويل لناقصة ، ستنطمس حتماً إذا نادى المنادى الحق بظهور الحقائق ،

وإن بقيت فتبقى في المواقف الجدلية في رياضة المبتدئين ، فإن صاحب الزروة ذات الألق إذا أُنذر صدق ، وإذا وعد حقق .

وقد قرأ كتب أفلاطون ، ودعا إلى التأمل فيها ، وهو ولا شك قد أخذ منها وتأثر بها .

ويدعونا إلى تفهم الدين ، وأن لا نقبله على علاته : « فإن تعبد الله حبا ، خير من أن تعبده خوفا ، فإن التعبد بالتخويف دين اللئام » . وما أسمى رأيه : « إعمل لنفسك ، فلتمد ذل من أحوج إلى الشفيع » . ثقة متناهية بالله ، وإيمان بعدله عميق هذا هو إيمان السادة ، لا إيمان العبيد .

وجدير بمن كان مثله أن يؤمن بالعقل ، ولم لا يؤمن به وقد درس الفلسفة ، والعقل هو آلة الفلاسفة ، اصطنعه السهروردي كما اصطنع الذوق ، والعقل عنده نور الله ، ولا يهدى إلى النور غير النور ، إذ النفس مرآة الله ، ومرآة الله لا تشبهها مرآة الأجسام ، وإذا انحل التركيب رجع الواحد إلى الوحيد .

من هذا نرى أنه يفرق بين النفس وبين البدن ، ويرى في النفس مرآة الله ، ولا تشبه النفس الأجسام ، فهذه غير تلك ، ومذهبه في النفس ، كما سبق هو مذهب ابن سينا ، على الأرجح ، وهو المذهب اليوناني القديم ، ولعله أقرب إلى تعريف أرسطو ، الذي ذكره وأخذ به فلاسفة العرب : إن النفس هي كمال أول لجسم طبيعي آلى ذى وجود بالقوة .

ويدعو السهروردي إلى معرفة الله « بأعاجيب آياته بشواهد هيبة الحضور فإن الفكرة لا تتسلط على إله الأرباب » .

وأكرر هنا ما سبق لنا قوله من أن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداهم السبب في مثل هذا الاضطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائما في كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتتعداهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ، ودعاة التقدم أعداء الجمود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهادا ، ويقاسون عسفا وجورا ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكرهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

ابن سنان و مذهب الصرف

لقضية الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العمري

تحدثت في مقالات سابقة عن نشأة مذهب الصرف ، وفهم العلماء السابقين واللاحقين له ، ثم تحدثت عما يمكن أن نفهمه منه بعد أن استعرضت موقف النظام ، وموقف الجاحظ من الاسلام بعامة ومن القرآن بخاصة ، وخلصت من كل ذلك إلى أن الذي يمكن أن يفهم من كلام الجاحظ أنه لا يقصد الصرف بالمعنى المفهوم عند العلماء ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ، وإنما معنى الصرف عنده أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بأى معارضة للقرآن ، لئلا تشبه القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، ويجدوا من يقول أن هذا كالقرآن في علو الطبقة ، فيثور الجدل حول كتاب الله ، ثم تمضى القرون ونجد عالين كبيرين عاشا في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، أحدهما مشرقى والآخر مغربى ، وكلاهما كان رجل سياسة وعلم ، هما ابن حزم الظاهري صاحب كتاب « الفصل فى المل والنحل » والثانى ابن سنان الخفاجى صاحب « سر الفصاحة » وكلاهما يصرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، لكن الله صرفهم عن ذلك ، وهذا عندهما هو وجه الإعجاز وسره ، ولا شىء غيره ، فرأيت أن أخص كل واحد منهما بحديث مستقل .

ابن سنان هو أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد الخفاجى الشاعر الأديب الشيعى

المتكلم تليذ العالم الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ، ولعل مما يدل على تشييعه وتفضيله علياً على أبي بكر كما يفهم من قوله :

وقالوا قد تغيرت الليالي وضيعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجد الدهر خلقاً ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يرد عن فذك (علي) ويملك أكثر الدنيا (عتيق)

وقد شهر الخفاجي بكتابه سر الفصاحة ، وهو من الكتب المعدودة في البلاغة ، ألفه على طريقة الأدباء ولكن كتابه دون كتب عبد التماهر ، كما شهر بالشعر ، وإن كان شعره في طبقة متوسطة ، وجيده قليل ، تولى بعض الولايات ، ثم غدر به أمير حلب ، فдس إليه من أصدقائه من سمه فتوفي سنة ٤٦٦ هـ^(١) .

ابتدأ في مقدمة كتابه فذكر أن العلماء مختلفون في إعجاز القرآن على مذهبين اثنين ، أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية ، والثاني صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم ، وهو هنا لا يذكر أن الصرف رأيه ، ولا يجادل عنه ، وإنما يمد بذكر المذهبين ليبين مكان الحاجة على كلا المذهبين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ، ولكنه يبادر فينفي شبهة هي أول ما يتوجه إلى مذهب الصرفة ، ذلك أن المعارضة — فيما يرى^(٢) — وقعت فعلا فيرد على ذلك بأن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذي أورده خال من الفصاحة التي وقع التجدي بها في الأسلوب الخصوص ، ويقول أن كتابه سيدين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب .

وعنده أن القرآن في طبقة كلام العرب من حيث تلاؤم حروفه ، وتلاؤم ألفاظه ، قرر ذلك عندما عني بالرد على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ،

[١] ترجم له ترجمتين مستفيضتين الأستاذان الفاضلان الشيخ محمد كامل العقى في مجلة الأزهر ، والشيخ عبد المنعم خفاجى في كتيب خاص .

[٢] كتيبت في مجلة الرسالة بحثاً نفيت فيه أن يكون وقع شىء من هذه المعارضات ، وإنما هي من تفككات الأخباريين .

وأن القرآن كله من النوع الثالث ، ولا يشركه في ذلك غيره ، فيقول في الرد : وهذا الذي ذكره غير صحيح ، والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين متنافر ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام في هذه القضية ، ويصور حجته وجداله ورأيه في الأمور الآتية :

(١) متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه .

(٢) يحمل على قول الرمانى ، ويعتبره دعوى فاسدة ، ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الابعاد الذى ينفر منه كل من علق من الأدب بشيء ، أو عرف من نقد الكلام طرفاً ، وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه ، وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة .

(٣) يصرح هنا برأيه فيقول : وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك .

(٤) وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .

(٥) ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر فى ذلك إلى ادعاء ما ادعاه من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة فى الفصيح من كلام العرب ، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف - فقط - فصيحاً ، وإنما الفصاحة لهذا ولغيره .

(٦) أليس التلاؤم معتبراً فى تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ؟ فلا بد من نعم . فيقال له فما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ

القرآن بانفرادها ، أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة الوسطى ؟ فان قال في الطبقة العليا ، قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ، ولولا ذلك لم يكن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته ، فتمد أقررت - الآن - أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا ، وهو الألفاظ المفردة ، وإن قال في الطبقة الوسطى قيل له ، إن مشاركة التمرآن لطبقة الفاظهم على هذا الوجه لا تزال أيضاً .

(٧) إذن لا مانع أن يقال إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً مثل القرآن في تأليفه ، فان علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر .

(٨) وليس تنازعنا في كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا في الطبقة العليا ، إلا قلنا مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضوعين واحد .

وهكذا يخلص من هذا النقاش في تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان في تلاؤم التأليف ، وكل منهما - في هذا - في الطبقة العليا ، وعلى هذا التعميد يخلص في نهاية المطاف إلى ما أراد من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب ، فعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة ، ومعناها عنده على ما نقلنا آنفا أنهم سلبوا العلوم ، ولكي يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التي فهمها العلماء من هذا المذهب ، على نحو ما في كتاب الطراز لابن حمزة العلوي .

الاحتمال الأول : أن الله سلب دواعي العرب إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والتكليف بالانقياد ، ومخالفة الأهواء .

الاحتمال الثاني : ان الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الاتيان بما يشا كل القرآن ، أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم ، أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها .

الاحتمال الثالث : ان الله منعهم بالالغاء على جهة التمسر من المعارضة مع كونهم

قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك . والثالث هو المشهور ، والثاني مذهب ابن سنان ، ويظهر أنه مذهب القائلين بالصرفة من الشيعة .

وقد رد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت في الفصاحة وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا في الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، ثم يقول :

لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته ، وعنده أن هذا هو المذهب المختار ، وعليه - زعم - أهل هذه الصناعة ، وأرباب هذا العلم ، ثم يقول : وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره ، وكنا نتمنى أن نطلع على هذه الأدلة حتى تناقشها على بينة ، لكنه فيما يظهر أودعها كتابه الذي ألفه في الصرفة ، والذي جاء ذكره في معجم الأدباء في ترجمة أبي العلاء المعري (قرأت بخط عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الحفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، ألا إنهم صرفوا عن ذلك . . قال في تضاعيفه : وقد حمل جماعة من الأدباء قول (بالضم) أصحاب هذا الرأي أنه لا يمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدى ، على أن ينظموا على أسلوب القرآن ، وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه ^(١) الخ . ثم ساق قطعتين من كلام أبي العلاء .

ولسنا نرى في كلام ابن سنان هنا ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعوزها الدليل ، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله أن تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب في تلاؤم الألفاظ ، لأن الكلمات المفردة هي كلماتهم ، فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم ، ولا ندرى كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون في الصياغة ، ألا ترى قطعة الذهب تكون

[١] العبارة في المعجم ج ٣ ص ١٤٠ ، وهي منقولة هناك أثبتناها على هذا الوجه السليم .

في يد أحد الصاغة صورة رائعة جذابة، وفي يد آخر بلدية ساذجة، وهي هي. أما الرد على نفس المذهب، فمؤدنا به حين نفصل ردود العلماء السابقين عليه.

بقي أن نقول أن الحفاجي لم يتأثر بأستاذه في هذا المذهب، لأن أيا العلماء لا يقول به، وبعض العلماء يذكرون أنه عارض القرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفي ذلك الرافعي في إعجاز القرآن، وناشر الكتاب في المقدمة، وقد ذكر ابن سنان — على ما أرجح — قطعتين، وهو تلميذ يتحدث عن أستاذه، فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على نمط القرآن، دون أن يقصد الاتيان بمثله، ففهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا، وكيف يكون ذلك والكتاب كله في تمجيد الله وتمديسه، حتى الفقرات التي ذكروها له، ونقلها الرافعي جاءت ناقصة ومبدلة، ويظهر أن ما حذف منه تعمدا وحذفه، لأنه يبطل دعواهم وهذه الكلمات مما حذف: (شعر النابغة وهذيل، وغناء الطائر على الفيل، شهادة بالعظمة لمقيم الميل^(١)). وإذا كان أبو العلاء قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت، فلا يكون قائلًا بالصرفه، على أن موقف أبي العلاء من ابن الراوندي وكتبه شهادة على عقيدة الرجل في القرآن، تعرض لكتيب ابن الراوندي في رسالة الغفران، وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندي، ولكنه تناول كتبه جملة، ألا كلمة قالها في القرآن، وقد تعرض له ابن الراوندي في بعض كتبه فتقال: إنه يجد في كلام أكرم بن صيفي أحسن من إنا أعطيناك الكوثر، فخصه أبو العلاء بكلمة قوية جاء فيها (وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوه بالأرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا يجمع الكهنة أولى الأرب). والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب، فلسنا نستبعد أن يكون خضع لبعض ذلك في بعض أيامه، أما الذي نجزم به — على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه — أنه لا يقول بمذهب الصرفه، والله الهادي الى سواء الطريق.

على هامش الأخبار

عظة واعتبار، وزجر وانذار

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراقى

مدير المكتبة الأزهرية

نشرت صحيفة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ١٩٥١/١/٥ خبراً ملخصه « أن فرقة الباليه الراقصة كانت تقوم باستعراض راقص بصالة جامعة فؤاد الأول بمشهد من بعض السفراء والعظماء والطلاب ، فأثارت مناظر الفرقة وحركاتها بعض الطلاب ، فتهجموا على العذارى يحاولون تمييزهن ، وقد أغمى على بعضهن » ، ونشرت صحيفة أخرى « أن بعضهم قبل فعلاً واحدة منهن ذكرت اسمها وصورتها ، وأن مدير الجامعة اعتذر إليها وإلى سفير دولتها » .

هذا هو الخبر بمختلف رواياته ، ولا شك أنه وصمة عار في جبين مصر ، وفي جبين الجامعة المصرية ، كما لا شك أن السفراء سيقابلونه بما يستحقه من الاستنكار والاستهجان ، لما سيكون له من أثر في الدوائر المصرية والأجنبية ، العلمية منها وغير العلمية ، وستجنى منه مصر عامة والهيئات الثقافية بوجه خاص أسوأ الثمرات ، وسيصور المصريون من جرائه بصورة البربر المتوحشين الذين لا يتقنون الفن ، ولا يراعون الخلق والتقاليد ، بله الكرامات والأعراض .

والحادث بذاته وبآثاره كارثة فادحة وشر مستطير ، إلا أنه برغم ذلك قد لا يعدم فيه رجل الدين ، والغيور على الحرمات الدينية ناحية من نواحي الخير ، بل قد يبدو له من التفحص فيه أكثر من ناحية من هذه النواحي .

ففي الحادث دلالة بالغة للغافلين والجاهلين على صحة الحكم ، وصواب الحكمة فيما جاء به الدين من تحريم اختلاط الجنسين ، وتحريم عرض مفاتن النساء على الرجال في أية صورة ولأى غرض ، لخطورة ذلك على الفتاة والأسرة والأمة .

وفيه حجة دامغة على تنخف الأحاديث التي طالما سود بها المستهترون وجه الصحف ، وتنزروا فيها من أحكام الدين وحكمه في هذه الناحية ، واتهموها زوراً وضلالاً وجهلاً بأنها من معوقات نهوض الأمة ، لحرمانها بما في الاختلاط من تهذيب للأخلاق . . . وسمو في الوجدان والعواطف ، وما إلى ذلك من نظريات فاسدة وأقوال خاطئة ، ونادوا بوجوب التحلل منها لتنفيذ الأمة مما حرمت منه ، وجعلوا من ذلك قضية لا يملون من معاودة الحديث فيها ، والتغنى بمحاسنها .

أجل في هذا الحادث أوضح دلالة على سمو الحكمة الدينية في موضوع الاختلاط ، فهو الدليل السافر والبرهان القاطع الذي لا يحتمل شكاً أو ممارسة تسوقه الأقدار ، لمظاهرة رجال الدين فيما يتحدثون به ويدعون إليه ، وينفقون الوقت والجهد في طرائق الإقناع به ، وتسوقه الأقدار لتخذل به قوماً لداً حالفوا الشيطان ، واتخذوا من الاستخفاف بالدين وأحكامه وسيلة إلى الشهرة ، وسلباً إلى المطامع الدنيئة ، فضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وفي هذا الحادث دلالة على أن الإنسان مع أنه ناطق مفكر ، فهو بطبيعته حيوان يستجيب لداعى حيوانيته وغريزته لأول فرصة ، سيما في عنفوان الشباب وفوران الغريزة ، وأن ما يدعيه المتحذلقون من أن التهذيب يسمو به عن حيوانيته ويكاد يجره عن طبيعته ويحيل نظرته إلى الوقائع والأمور ، ويلحقه بالملائكة الأطهار والأصفياء الأبرار ، ما هو إلا سفسطة ومغالطة يدحضها الحس والواقع حين تبدو طبيعته سافرة لا تحجبها الظلال والألوان .

وفي هذا الحادث زجر وتأديب لأولئك المسؤولين الذين يسمحون لهذه المهازل أن تمثل باسم العلم والفن ويعرضون سمعة الأمة للتشويه والتشنيع ، ويصورونها

بل ويصورون خاصتها وتعليمها والشبيبة المرجاة لمستقبلها في صورة حمر الفلوات ووحوش الأدغال في وقت كنا نرجى فيه لمصر من وراء الاحتفالات العامة دعاية طيبة وسمعة كريمة ، وتنفق في سبيل ذلك ما لا يتدر من الجهد والمال .

ولعمر الحق ما ينبغي أن يكتفى في تأديب أولئك بهذا الزجر الأدبي وما باعوا به من الخزي والعار ، ولكن وجه الصواب في مؤاخذتهم ، وسبيل الحزم والصرامة معهم ، أن نقدّمهم إلى المحاكمة بتهمة تعريض سمعة الأمة وكرامتها لمثل ما تعرضت له من تشويه وتشنيع واقتضاح .

وفي هذا الحادث أخيراً نذير لأولياء أمور الفتيات والقوامين عليهن ، بأن لا يتخدعهم زخارف القول في استحسان تحرر الفتيات وتحللّهن من أحكام الدين وتقاليد الشرق الكريمة باسم الرقي والتجديد ، وإباحة اختلاطهن بالرجال في المنازل والملاهي .

ولا يخدعهم ما ينبغ به المجددون من أن الحجاب أثر من آثار الاستبداد والأثرة وتحكم الرجل في المرأة وحكم من أحكام الدين القاسية ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فها هو إلا مرحلة من مراحل الدين ، وما هو إلا حكمة سامية في أن تكون الفتيات كما أراد الله لهن من التصون والعفاف والبعد عن أعين الغرباء وقلوبهم ، والسمو بهن عن أحاديث السوء والبهتان ، ليسكن كالجواهر الكريمة يزيدها الاغتراب حباً إلى النفوس وإغراء بالتطلع إليها والمغالاة في المحافظة عليها :

وزاده كلفاً بالحب أن منعت وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

هذه كلمات أوحى إلى هذا الخبر بكتابتها ، وفي النفس أشياء وأشياء ، وعسى أن يكون في تلك الكلمات خير فيصدق ما يقال :

« يأتي الخير أحياناً من طريق الشر » .

مصر والسودان

لمحاضرة الأستاذ عبد المنعم السنج

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

عرضنا في العدد السابق من هذه المجلة ، للرباط التاريخي الجامع بين مصر والسودان . والآن نتابع بسطنا لهذا الموضوع ، موضحين بقية الروابط التي تقوى دعائم الوحدة ، وتشدد من أزر الداعين إليها ، العاملين على تحقيقها ، وتوهن دعوة الباطل ، وتسكت صوت الجور والطغيان .

فن الوجهة الجغرافية ، تعتبر مصر والسودان ، وطناً واحداً ، ويقسم هذا الوطن الواحد ، إلى عدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليماً جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص في نشأة المدنية وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعاً ، يتكون ذلك الوطن الواحد ، مصر والسودان ، الذي يربط نهر النيل بين أجزائه ، بحيث يتم بعضها بعضاً . ويحسن أن نشير في هذا الصدد ، إلى أنواع الحدود الكثيرة : فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التي تشمل المصالح الضرورية ، كذلك التي ترتبط بها حياة مصر ، وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل ، لا سيما السودان والحبشة ، اللتين يأتي عن طريقتهما ماء الفيضان والغرين ، الذي يغذى الأرض ، ويجدد الخصب ، وكذلك الهضبة الاستوائية ، التي تمتد مصر بالمياه في انتظام طول العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشي ، الذي يقتصر على جزء محدد من السنة . وهناك الحدود الثقافية والبشرية العامة ، التي تشمل تلك الأراضي التي تربطها بمصر التاريخية ، روابط قوية من الثقافة المتبادلة ومن مختلف النواحي البشرية العامة ، وهذه تشمل السودان الشمالي ، وبقية شمال أفريقيا وهناك كذلك الحدود العسكرية ، التي ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، وتشمل الصحارى المجاورة ، وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب ، على أننا إذا جمعنا بين الناحيتين الحيوية والبشرية العامة ، فإننا نصل إلى أن حوض

النيل الأوسط والأدنى في شمال السودان ووسطه وفي مصر يكوّن وطناً واحداً متماسك الأجزاء .

أما من الناحية الثقافية ، فإن مصر ترتبط بالسودان ، بروابط ثقافية ، تزيد الألفة بينهما ، ولعل هذه الرابطة حالياً ، وما تتمناه لها من الازدهار والنماء ، تكون من أقوى العوامل ، التي توازر فكرة التوحيد ، وتعمل على إيقاظها ، في جو من نور العرفان ، وتمدير حقائق الأمور .. وسأتى الآن على مختلف الوسائل الثقافية التي تنشرها مصر في السودان ، ولكن في شيء من الإيجاز : فهناك كلية الأقباط بالخرطوم ، وطلبتها خليط من المصريين والسودانيين ، وبها أقسام ثلاث ، روضة وابتدائي وثانوي ، وتعينها وزارة المعارف المصرية ، بما تقدمه لها من مدرسين ومختلف المساعدات ، كما أزمعت وزارة المعارف المصرية ، إنشاء مدرسة ثانوية حكومية بالخرطوم ، ولكن الاعتماد اللازم لها حذف من ميزانية ١٩٣٩/٤٠ بسبب نشوب الحرب .

وتعمل وزارة المعارف المصرية جاهدة على تيسير العلم لأبناء الجنوب ، خفضت لهم أجور السفر ليسهل انتماهم إلى الشمال ، ليعبوا من مناهله العذبة . كما أخذت ترسل إلى السودان بعض الأفلام التثقيفية المصرية ، وعملت كذلك على إنشاء محطة للإذاعة المصرية هناك . ولوزارة الشؤون الاجتماعية لجنة فرعية ضمن لجنة السودان الدائمة ، وذلك لتنظيم الجهود الاجتماعية والخيرية ، لمساعدة إخواننا السودانيين في الملمات . ويحسن أن تعرف أن لنادى الصيد الملكي فرع بالسودان . وهناك وسائل كثيرة لزيادة الربط بين الشقين ، أمرها هين ميسور معروف ، لمن يريد أن يخطو خطوات موفقة في هذا السبيل .

وترتبط مصر بالسودان ، بروابط اقتصادية متينة ، فمن السودان تستورد مصر الأغنام والمواشى وولود الماشية غير المدبوعة ، والسمن والأسماك المملحة ، والذرة العويجة والقول السوداني ، والسمن والفاصولياء ، والحب والبازلاء ، ولب البطيخ والبلح . أما مصر فتصدر إلى السودان السكر والمنسوجات ، وخاصة المنسوجات القطنية المصبوغة بعد النسيج والمنسوجات القطنية المخلوطة بالحرير الصناعي ، ومنسوجات الحرير الطبيعي ، ومنسوجات الحرير الصناعي ، وتصدر مصر كذلك

إلى السودان الدخان والسجائر والتبأك والسيجار ، والأسمنت والصابون ، والفواكه الطازجة ، والحلوى والمربات المحفوظة ، والأرز والأحذية الجلدية ، والمصنوعة من التماس والمطاط .

ولكن يجب أن نقرر أنه ما زالت هنالك بعض العقبات في طريق صادرات مصر إلى السودان ومن ذلك ارتفاع أجور نقل المنتجات المصرية على السكك الحديدية السودانية ، كما انعدمت الدعاية المصرية للمنتجات في أسواق السودان ، ويدخل في ذلك أيضاً شدة المنافسة اليابانية للمنتجات المصرية ، وفساد النظام الجركى في السودان ، ذلك النظام الذى لا يحمى المنتجات المصرية من الواردات الأجنبية ، أضف على ذلك السمعة السيئة ، التى أوجدها الوسطاء بتصرفاتهم غير المشروعة .

وأما عن الرباط القومى والسياسى ، فيبدو أن فكرة التوحيد بين الشطرين ، قد نبتت أولاً في الوطن المصرى المتحضر ، الذى أدرك كنه هذه العلاقة ، فسير الجيوش لضم الشطر الشقيق ، أما فكرة الضم هذه فقد نبتت في أذهان السودانيين لما مستهم الحضارة والمدنية ، وحل بواديههم نور العرفان ، واعتقدوا ، كما اعتقد أشقاؤهم ، في الشمال ، أن لا حياة لمصر بدون السودان ، ولا حياة للسودان بدون مصر ، فتكونت عندهم الأحزاب السياسية التى تدعو إلى ذلك ، وتعمل جاهدة لبلوغ هذه الغاية المحببة .

ولكن لما طغت الموجة الاستعمارية على القارة الإفريقية ، ووقعت مصر والسودان في أرجل الأخطبوط الإنجليزى ، ظهر في الأفق ما يمكن أن نسميه بالمسألة السودانية المصرية ، لأن الذى كانت تستطيع مصر تحقيقه بقوة الجيش والعتاد ، أضحت تلجأ إليه سياسياً عن طريق المفاوضات والمحادثات . وهى إذا كانت مع الإنجليز دهاة السياسة ، وقراصنة الاستعمار ، أضحت الآمال من ورائها سرايا خداعا ، يقتل المغتر فيه !!

وسأتناول في هذه العجالة أبرز مشكلة في تاريخ علاقتنا بالانجليز ، خاصة بالسودان ، وهى اتفاقية ١٨٩٩ ، والحكم النائى في السودان ، وهى الاتفاقية ، التى بح صوتنا في المطالبة بالغائها . وتبتدىء هذه الاتفاقية بعرض حيثياتها ومقتضياتها ، فتقول بما أن بعض الأقاليم السودانية قد خرجت عن طاعة الخديوى ،

وأعيد فتحها بالجهود الحربية والمالية المشتركة بين مصر وانجلترا، فقد أصبح لازماً، أن تشترك الدولتان، بحق الفتح، في وضع النظام الإداري والقانوني للسودان. ولست أبغى هنا سرداً لنصوص هذه الاتفاقية، وإنما أكتفي بتفنيدها دعوى الانجليز في تمسكهم بها بحجة الفتح المشترك، وفي ذلك يقول رجال القانون المصريون، إن الحكومة المصرية قد أكرهت على إخلاء السودان، وإن الخديو بمقتضى الفرائمانات الشاهانية، لا يملك حق النزول عن أرض مصرية أو تابعة لمصر، وفوق ذلك فالفرائمانات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقيات سياسية، وانجلترا لمحدي الدول المعترفة بهذه الفرائمانات، وكذلك لم يقرن الاتفاق بملكية السلطان العثماني للسودان، وهو ملك له، كما أن مصر كانت تابعة للسيادة التركية.

وعليه فاتفاقية عام ١٨٨٩، لا تربط مصر، من الوجهة التامونية الدولية، أضف إلى ذلك؛ أن عبء فتح السودان، وقع أكثره على عاتق مصر، حيث لم تشترك انجلترا فيه، إلا بوضع مئين. ثم إن مساعدة الحماية الانجليزية لمصر في هذا الفتح، يعتبر من باب مساعدة الوصى لمحجوره في رد جزء من أملاكه، فقد بسبب سوء تصرفاته. وسوف لا أعرض لتاريخ النضال بين انجلترا ومصر، من أجل السودان، منذ بدء الحركة الوطنية وقبلها، لأن ذلك يحتاج بحوثاً مستفيضة، يضيق بها الوقت، والمهم هو أن نعلم، أن قادة الشعب المصري، لا يفتأون يتطعون بالمفاوضات، ويتعرضون لوطأة النفي والحرمان، ضناً منهم بالتفريط في قضية، هي الحياة لسكلا الشطرين، ويناصر قادة الشعب المصري في الشمال، قادة الشعب السوداني وزعماءه المستنيرين في الجنوب، ذلك لأنهم يدركون أن الاتحاد، ليس في أى صورة من صوره، استعماراً أو تسلطاً، وإنما هو اتحاد المصالح المشتركة والعواطف المتبادلة.

أما عن الرباط الجنسي واللغوي والديني، فنحن قد علمنا، مما سلف في العدد الفائت، أن سكان السودان ينتمون إلى أصول كثيرة، منها الزنوج، والبنجة، والنوبة والمولدون، والمهاجرون والعرب، وجلهم يقطن إقليم النوبة، ولغتهم هي العربية، ودينهم هو الإسلام، وعلى ذلك نرى أن السودانيين تربطهم بالمصريين، رابطة الدم واللغة والدين.

وختاماً لموضوعنا هذا يحسن أن نورد بعض التصريحات التي أجراها الحق

والعدل على السنة بعض ساسة الإنجليز ، ولكن هذه التصريحات ، لا تكاد تخرج من أفواههم ، حتى تذيبها حرارة جشعهم الاستعماري ، وتلاشى أمام الحقيقة المسيطرة المسيرة لسياسة الدول الاستعمارية ، وهي أن المبادئ الفلسفية ، والتوكيدات والمواثيق النظرية ، التي ينادى بها ، سياسة الدول ، إبان المحن والكروب ، لا يمكن أن تخرج إلى عالم الواقع ، إذا عاد السلام مرة أخرى !! قال اللورد « سالبوري » لسفير فرنسا في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦ « إني متمسك على وجه العموم بهذا الرأي - ذلك أن وادي النيل ، كان وما زال ولن يزال ملكا لمصر ، وإن كل مانع أو انتقاص ألم بحقوق هذه الملكية ، ومن جراء فتح أو احتلال المهدي قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الإنجليزي المصري » . وخطب اللورد « روسبري » في مدينة « ألسون » بتاريخ ١٢ أكتوبر عام ١٨٩٨ فقال « لكي نقرر حقوق مصر على فاشودة ، بطريقة حاسمة ، قد كفانا أن نذكر الحكومة الفرنسية بأقوالها في السنين الأخيرة ، وذلك باستعارة أقوال « المسيو دكريه » و « كوريسل » و « هانوتو » « نحن على وشك أن نرد لمصر ، ما هو من أرضها ، وذلك حسب التصريحات التي فاهت بها الحكومة المصرية » وهذا أمر جلي واضح ، حتى إنه ليشق على أن أصدق ، أنه في الإمكان العثور على شيء ينفيه . وكتب « اللورد كرومر » ، في تقريره عن عام ١٩٠١ « وليس الغرض من عقد اتفاقية عام ١٨٩٩ حرمان مصر من حقوقها في السودان ، بل تزويده بحكومة صالحة ، والتخلص من العقبات التي تلتهاها ، في مسألة الامتيازات » . وكتب اللورد كبرلي في ٤ إبريل عام ١٨٩٥ إلى « اللورد دوفرين » « إذا كانت مصر تسترد السودان ، الذي كانت تحتله في المدة السالفة ، فمن الواجب علينا ، أن نعترف بحقها في امتلاكه » . واعترف « اللورد كرومر » في تقريره عام ١٩٠١ ، بمشروعية الملاحظات ، التي أبدأها في مجلس الشورى ، عند الاقتراح على الميزانية الخاصة بالسودان ، فقد قرر فيها المجلس « أن السودان ، جزء متمم لمصر » .

تلك هي التصريحات والمسكاتبات النظرية ، لكبار الإنجليز في المسألة المصرية السودانية . فأين نحن منها في عالم الواقع ؟! ويمكن أن نلح طابع الدهاء في السياسة الانجليزية ، عندما نعلم ، أنه بعد أن أعيد فتح السودان ، عينت الحكومة

السودانية ، مرتبات لأبناء المهدي وخلفائه وزعماء المهديّة ، وعيّنهم في كثير من الوظائف ، وعملت أبنائهم بالمجان .

أما اهتمام ملوك مصر والزعماء فيها بأمر السودان فشيء غنى عن البيان ، وليست استقالة شريف باشا في أواخر عام ١٨٨٣ ، من أجل السودان ، بالأمر الذى يغيب عن الأذهان ، وليست تغيب عن الأذهان كذلك ، مذكرة رياض باشا إلى السير « إفلن بارنج » في ٩ ديسمبر عام ١٨٨٧ ، وهى بشأن السودان ، وقد جاء فيها « لا يتنازع إنسان في أن النيل ، هو حياة مصر ، وهذا أمر واضح جلي ، لا يختلف فيه إثنان . إذ أن النيل هو السودان ، ولا يرتاب أحد ، في أن العلاقات التى تربطهما لا انفكاك لها ، وهى أشبه شيء بعلاقة الروح بالجسد ، فإذا استولت دولة ما على ضفاف النيل ، فعلى مصر العفاء ، ويعلم من ذلك أن حكومة سمو الخديو لا يمكن أن تتبل بمحض رضاها واختيارها ، وبدون أن تسكره على ذلك تعدياً كهذا على وجودها وحياتها » وليس أدل على بالغ عنايتنا بشئون الجنوب ، من تشكيل محمود سامى باشا البارودى وزارة للسودان . وقد جاء فى مشروع الدستور الذى وصفته لجنة الدستور فى عهد وزارة عبد الخالق ثروت باشا عام ١٩٢٢ بشأن السودان : (مادة ٢٩) الملك ياتمب بملك مصر (مادة ١٤٥) تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان ، فمع أنه جزء متمم لها ، يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص .

ولقد استقالت وزارة ثروت باشا ومن بعدها وزارة نسيم باشا بسبب معارضة الحكومة الإنجليزية لهذين النصين ، وجاءت من بعدهما وزارة يحيى إبراهيم باشا فى ١٥ مارس عام ١٩٢٣ ، فرفعت كلمة السودان ، حتى يقرر أمره نهائياً بواسطة المفاوضات ، ثم عدلت أيضاً فى المادة (١٤٥) بأن قالت « إن حذف كلمة : السودان جزء من مصر ، لا تمس ما لمصر من الحقوق فى السودان . وصدر الدستور على هذا الأساس فى ١٩ إبريل عام ١٩٢٣ .

وعلى هذا نرى أن فكرة إندماج شمال الوادى مع جنوبه ، فكرة مختلطة باللحم والدّم ، وعقيدة راحخة فى قلوب المواطنين جميعاً ، سودانيين ومصريين ، وسوف لا يتحولون عنها ، ولو مزجوا ماء النيل ، بالدماء تتدفق مع تياره الى الشمال ، ويضوع غيرها مع نسائته الى الجنوب !!

ضبط النفس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد النواب

مفتش الوعظ العام بالأزهر

كل بنى الإنسان فى هذه الحياة ، بين تصاريدها المختلفة ، وأوضاعها المتباينة ، متقلبون فى سراء وضراء ، تتقاذفهم منح ومحن ، وتتجاذبهم قوى الخير والشر ، والنعماء والبأساء .

والسكيس الفطن هو الذى يلقى الأحداث على ما فيها من شدة وحدة بأناة ، وصبر ، وضبط للنفس ، واعتصام بالسكينة يهديه إليها عقله المتبصر ، وقلبه المستنير ، ويمسكه بها دينه الذى يبشره فى دنياه وأخراه بالحسيدين ، ويوظفه بفضل الله ، وحمد الناس .

ضبط النفس حين تفرعها سفاهة السفهاء ، ارتفاع بها عن هذا الدرك البغيض ، وسمو لها فى حلق المجد ، وسموات الجلال .

وضبط النفس فى ملاقات أحداث الدهر ، جلادة ننشط العزيمة ، وتموى الشكيمة ، وتلبي عن القمة بالله والرضا بتضاء الله .

وضبط النفس فى تحمل أعباء الحياة ، والقيام على شئونها فى تعامل واختلاط ، وتربية ، أجل أثراً ، وأعظم خطراً ، ففيه الأسوة الطيبة ، والعزة الغالبة ، والترويض الحكيم فى شئون الأسرة ، يلزمنا ضبط النفس ، فإذا اختلف الزوجان فى أمر صغير أو كبير ، وقام ضبط النفس ليسد على هذا الخلاف منفذه إلى الشر المستطير ، مرت العاصفة بسلام وهذا الزوجان إلى حسن التفاهم ، وحكم العقل ، وسداد التفكير .

وإذا اختلف الولد مع أبيه ، أو الأخ مع أخيه ، وأخذت الروية تحيط المختلفين بسكينتها ، وبصيرتها ، واستمع كل مخالف إلى نذير الفُرقة ، وتشيت الأسرة ،

ينعق بين هذا الخلاف ، فأقبل في اشفاق ، وحب ، يتقطع جبل هذا الشقاق ،
ويصل ما كان من مودة ، وطاعة ، وألفة ، إذن : لكان لضبط النفس في الأسرة
سبيل إلى العزة ، والسعادة والائتلاف .

وفي شئون التربية والتعليم يلزمنا ضبط النفس فالأستاذ - لا ريب - يرى
من جموح طلابه - في شبابهم - ومن نزواتهم ، ونزغاتهم ، ما لو برم بها ، ويثس
من علاجها ، لاستفحلت ، واستعظمت ، وهنا في ضبط النفس ، وأخذ الأمور
بالحكمة ، والحنكة وحسن التوجيه ، ما يرجى معه ، في حسن الاستعداد
من الطلاب ، استكمال غايتهم ، وارتقاب ظفرهم ، ودوام الحب ، والتقدير ،
وحسن الرعاية .

وضبط النفس في التعامل بين الناس ، تفويت للقصد السيء من المصء ، وكسر
من حدة الشر للعتدى ، وتضييق من هوة الخلاف ، حتى يرأب الصدع ، ويسكن
النائر ، ويهدأ الخاطر
ذكروا أن رجلاً شتم الشعبي ، فقال الشعبي له : « ان كنت كما قلت فغفر الله
لى وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك » .

وقسم معاوية رضى الله عنه قُطُفًا ، فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة منها ،
فلم تعجبه ، خلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأناه ، فأخبره . . فتال له معاوية :
أوف بنذك وليرفق الشيخ بالشيخ . . .

وما أجمل ما ينطق القرآن الحكيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي
هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا
وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وانقد جاء هذا الدين الحنيف — دين الإسلام — مبيناً شرف الغاية ، وجمال
القصء ، فى ضبط النفس قال عز شأته « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .
كما جاء مبيناً للأثر السيء والخطر الجسمى ، فى ثورة النفس ، وانطلاق شيطانها
يعيث فساداً ، ويتموض وداداً ، ويتمتع الآمن والأمان .

روى الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : اقْتُل غلامان ، غلام من
المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر أو المهاجرون يا للمهاجرين ، ونادى

الأنصارى : يا للأنصار ؟ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا ؟ » دعوى أهل الجاهلية ... قالوا لا يا رسول الله ألا إن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر . قال . فلا بأس ، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينبه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره .

وروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .
وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال ما عادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال ... إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

وقال الشاعر :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب	وإن كثرت منه إلى الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره	واتبع فيه الحق ، والحق لازم .
وأما الذى دونى فأحلم دائماً	أصون به عرضى وإن لام لائمه
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا	تفضلت : إن الفضل بالفخر حاكم

وبعد : فإن نحن أهبنا بالناس جميعاً ، على اختلاف أجناسهم ومراتبهم ، رجالهم ونسائهم ، شبابه وشيوخهم ، صناعاتهم وزراعتهم وتجارهم ، وأصحاب الأعمال ، وأرباب الوظائف ، والرؤساء والمرؤسين والحكام والمحكومين أن اضبطوا أنفسهم ، واكظموا غيظكم . وأيقظوا عاطفة الصفح والحلم والأناة ، فإن القرآن الكريم قد نادى بذلك المبدأ السامى النبيل « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وأن السنة المطهرة قد أبرزته واضحا ناصحا فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ليس الشديد بالصُّرْعَةِ ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الا : ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله الموفق .. والمستعان .

تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ

المؤلف: نواز ابراهيم عمار

المراقب: بالأزهر

هذه نثرات عما في حياتنا من عيوب ، أردت من تصويرها أن أضع العلاج لها رجاء أن نقلع عنها ، إن لم يكن استجابة لنداء الدين ، فإجابة لداعى الوطنية ، وحرصا على النفوس من التدهور والسقوط .

يعتبر الدين الإسلامى الزوجة الدعامة الأولى فى بناء حياة الأسرة والخلية التى يتكون منها جسم الأمة ويقوم عليها صرح الدول ومجد الشعوب .

ويحرص على أن تكون هذه الخلية سليمة منيعة قوية لتنتج نسلا كثيرا منيعا قويا ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ؛ وتتحقق فكرة الإسلام من عمارة الأرض ونماء الثروة ، وازدهار الحضارة ، وتقدم العلوم والفنون ، وأن يكون الناس كلهم إخوانا متساوين يسودهم القانون ، وتخفق على الرؤوس أُلوية الحق والعدالة والحرية والمساواة .

فتراه قد تعهد بها فى جميع مراحلها برعايته وعطفه وأحاطها بسياج من الضمانات القوية ، وطائفة من النظم القويمة ، ومكن لها فى بيتها ، وجعلها حفيظة على ما فيه من مال وبنين .

وحسبى فى التدليل على هذا سلوك النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها : فلم يعرف عنه أنه وقف منها موقفا لا ترضاه ، ولم يحفظ لنا التاريخ « على طول ما حفظ من مراحل حياته دقيقها وجليلها هينها وعظيمها » أنه ألمها أو آذاها أو تركها تبنت ليلة واحدة على غير تمجيده كزوج وكأب يرعى ابناءه ويتعهدهم ويكفل لهم الهناء والإسعاد .

وغاية الإسلام من الزواج بيئة واضحة صريحة كما جاء في القرآن الكريم :
ومن آياته « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » .

فأى تواد ورحمة عند قوم تتعدد في بيوتهم الزوجة ، وكيف يسكن الزوج
لزوجته والزوجة لزوجها وهم يبيتون على عداة ؟
إن البيت الذى يضم بين جدرانها أولاداً ليسوا أشقاء ، هو بيت يُضنيه الحقد
وُيرديه الغل ، وتمضى عليه الأطماع ، وتهلكه المنازعات .

وإن الولد الذى ينشأ فى أحضان هذا البيت ، هو ولدٌ قد قد قلبه من صخر
وحيك ضميره من قسوة ، لا يعرف حبا ولا رحمة ، يُنكر حق الأخوة ، ويجهل
مالها من قداسة ، ولا يكن فى نفسه غير الجشع والطمع ، واستلاب مال أخوته
الباقيين ، قد انطوت نفسه على الحقد ، فلا ينفع فيه نصح ولا إرشاد ، وتربى على
الغل ، فلا يشفى ما بنفسه إلا أن يتلمعهم : حتمهم ومالهم ، وأحيانا حياتهم ، وبذلك
يصبح البيتُ جحima أو كالجحيم .

وإن المجتمع الذى يتكون من مثل هذا النشء ، هو مجتمعٌ عليلٌ هزيل ، قد
أصابه التفكك والانحلال ، ليس له غاية مرسومةٌ ، ولا مثل أعلى يسعى للوصول
إليه ، بل لا هدف له من الحياة سوى أن يغتنى ، بأية طريقة يكون الغنى ، وأن يأكل
كيف يكون الأكل ، لا يعتمد عليه فى حرب أو سلم ، لأنه فقد روحانية الحياة فى
أيامه الأولى ، وليس بعائد إليها إلا بمعجزة ، ومن الأسف أن فات زمن المعجزات .
ومن العجب أن الدين ينادى ولا استماع ، والتاريخ يحدث ويطلق ، ولا وعى
ولا اعتبار ، والعظات تهرع الأسماع كل يوم ، ولا ازدجار !

أما الدينُ ، فهذه غاية من الزواج قد عرفناها ، ولكن خالفناها ، ولم نصنع
إلى قوله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ولا اتموله : « ولن تستطيعوا أن
تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . بل أطلمتنا لنفوسنا وشهواتنا ونزعاتنا العقل ،
وعددنا من الزوجات ، فلم نصل إلى النتيجة التى أرادها الله بقوله : « ومن آياته أن
خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وأما التاريخ فيحدث أن أهم المعاول فى هدم الدولة العباسية ، وزوالها من

الوجود ، هو ذلك الصراعُ العنيفُ ، والحرب الدامية التي نشبت بين الأمين وأخيه المأمون ... ولو أنهما كانا من أم واحدة ، لما كانت الحرب ، ولما انتهت إلى هذه النهاية المفجعة ، ولما وجدت نيرانُ المطامع - بعد ذلك - وقوداً لها تشعله كلما هيئت الفرص ، ومهد السبيل .

ومن الغريب المخجل أن يعلم الناس هذا ، ثم لا يتحاشونه ، بل يقبلون عليه ، ويأخذون بأسبابه ، فأولوا الأمر يعددون من زوجاتهم ، وتعدد أولادهم تبعاً لذلك ، ثم يتهجون نفس الخطة التي أودت بمن سبقتهم .

والناس أيضاً يقلدون ويكثرون من الزواج يعددون ويلدون ، ويملاون البيت عيالا مختلفي الأجناس والألوان ، فينشأون ولا رابطة بينهم بل بالعكس كل منهم عدو لأخيه ، الآخر يتحين الفرص لاستلابه أو لاغتياله ، فيعيش كل منهم على حذر من أخيه لا تهدأ نفسه ، ولا يطمئن باله ، ولا يقر له قرار .. وكل واحد قد رضع من أمه كره أخيه وعدم حب الخير له ، فنفسه متوثبة على اقتراس ماله أو شخصه أحيانا .

إذن فنفسهم غير قارة ولا هادئة ولا مطمئنة : وأى نفس هذه حالها لا تنتج ، وإذا أنتجت فتتاجها مضطرب غير مرتكز على أساس من تفكير ومران واتزان . أعرف أسرا كثيرة منيت بهذا المرض وأعرف في نفس بنينا هذا الخلل والانحلال والانحطاط ؛ ومن الغريب أن هذا مضطرب لم يخطئ مرة .

ومن الناس من يفر من لوثة تعدد الزوجات ويطيع شهواته وهواه ونوازع الشرفيه فيلجأ إلى عش يسمى في عرفهم « جرسونيرا » يزاول فيه إثمه ويهتك أعراض المجتمع .

ولو عرف هؤلاء الناس مقدار تأثير هذا في نفوس زوجاتهم وأبنائهم وضرره على كرامة أوطانهم وسمعة أديانهم ما فعلوه .

نعم أباح الاسلام مبدأ تعدد الزوجات ولكنه لم يبيحه مسaire للشهوات البهيمية ولكن رأبا لصدوع الاجتماع من هذه الناحية ، فكثيراً ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به المصلحة وتحفظ به الكرامة .

فيجب على من يقدم عليه أن يلاحظ هذه الناحية من الشريعة السمحة وأن لا يتخذ من السماح به تسكأة لاشباع شهواته والانقياد لأهوائه .

البريد في الإسلام

التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية

لؤسنان هاشم محمراهم

المدرس بمعهد القاهرة

نظام البريد نظام قديم يرجع إلى زمن الأمويين - بل إن الدولة العربية ورثت هذا النظام عن الدولة البيزنطية والفارسية .

فالبريد إذن ليست كلمة عربية وإنما كلمة لاتينية مأخوذة من Veradus أى الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة ثم استعملت إسماً للنظام كله .

وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب ، فأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى وكان يطلق البريد على الرسول .

والبريد فى الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أما كن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

أما معناه اللغوى : فهو مسافة معلومة ممتددة باثنى عشر ميلاً (الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١) .

ويقال إن أول من وضع البريد فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان الذى أخذه عن الروم أثناء حكمه فى الشام وقد اهتم عبد الملك بن مروان بهذا النظام فأدخل عليه عدة تحسينات فأصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة الأموية ، وقد أثر عن عبد الملك أنه قال لأحد رجاله : ولتيتك ما حضر بابى إلا أربعة : المؤذن ، فإنه

داعى الله تعالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل ، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً
لنام ، والبريد فتي جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة حبسهم
البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس
وبين الدخول (التملقشندى ج ١٤ ص ٣٦٧) كذلك أنشأ عمر بن عبد العزيز
حانات ينام فيها الناس وأحواض للشرب .

وفي عهد العباسيين ازدادت العناية بنظام البريد ، فبلغ هذا النظام غاية كماله
أيام الرشيد والمهدى ، وكانت بغداد — عاصمة العباسيين — تتشعب منها الطرق
في كل الجهات ، وبلغ عدد الطرق التي تخرج من بغداد ٩٣٠ طريقاً مثل الطرق
الرومانية التي كانت قديماً متصلة بروما — فكل الطرق تؤدي إلى روما — وهذا
الوصف أيضاً يصدق على بغداد ، فكانت هناك طرق رئيسية وطرق فرعية أيضاً
فالطريق الرئيسى الأعظم هو الذى يخرج من بغداد إلى خراسان ويسير إلى حدود
الصين ، وهذا الطريق طويل جداً يشق الدولة الفارسية من الشرق والغرب ، ومن
الغريب أن هذا الطريق لا يزال يسلك إيران ، وهناك طرق أخرى من بغداد إلى
الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية : فمن بغداد إلى الحجاز لتسهيل أداء فريضة
الحج عن طريق الكوفة إلى الصحراء العربية إلى مكة والمدينة ، ثم طريق شمالى من
بغداد إلى الموصل ، ثم طريق شمالى غربى من بغداد إلى الأنبار ثم يعبر الشام
والثغور — وطريق آخر من الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ، وهذه الطرق
الرئيسية تتشعب منها طرق صغيرة لا حصر لها .

فنظام البريد إذن رغم أنه كان مشتقاً من البريد البيزنطى والفارسى إلا أنه
عنى به عناية شديدة ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين :

وهما : الحج ومراكب التجارة أو الاتصال البرى بين بغداد وأطراف الدولة
العباسية ، لذلك كان هذا النظام مهماً فى النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية .

ويقال إن ميزانية البريد فى عهد العباسيين بلغت نحو ١٦٠ ألف دينار ، وكان
للبريد ديوان كبير فى بغداد وكان هذا النظام نظاماً رسمياً خاصاً بأعمال الدولة ،
وليس لثقل مراسلات الجمهور ، فكانت الدواب لا يتنفع بها غير العمال خدم
الدولة فقط وكانت البغال والإبل والحمام الزاجل وسائل نقل البريد .

وقد أصبح للبريد أهمية أخرى فيؤثر عن المنصور أنه قال : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فمئيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نتصت واحدة وهى ، أما أحدهم فمقراض لا تأخذه في الله لومة لأثم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والمالك صاحب خراج يستمضى ولا يظلم الرعية ، فإنني عن ظلمها غني ، والرابع ... ثم عرض على أصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة » (الطبرى ج ١ ص ٢٩٧) .

فكأن ولاية البريد إذن عيونا للمنصور ، وبواسطتهم كان يتف على أعمال الولاية بل كان ولاية البريد يوافونه بالأسعار من قمح وجوب وأدم ومأكولات وغيرها - وقد كان عمال البريد يوافونه بذلك مرتين في اليوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح وافوه بما حدث في الليل .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثّر الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالى : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشرينك ! ما هذه العدة التي أعدتها للكتابة في الوحش ؟ إنما استكفينك أمور المسلمين ولم تستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، وألحق بأهلك مذموماً مدحوراً » (الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧) .

وهكذا كان في كل إقليم عامل بريد إذا وجد أمراً هاماً يرسل إلى صاحب البريد في بغداد وهذا يبلغ الخليفة ، فأصبح عمال البريد لهم صفة الجاسوسية على ما يجري في الدولة وإطلاع الخليفة في الحال عما يحدث في الأقاليم ، وكان نظام الجاسوسية موجوداً في الدولة الفارسية القديمة وكان هذا مما ورثه العباسيون عن الفرس ، ودولة واسعة مستبدة الحكم محتاجة إلى هذا النظام من الجاسوسية وعهدنا بالدولة العثمانية قريب حينما انتشرت فيها الجاسوسية ، لذلك لم يكن البريد مجرد نقل رسائل ولكنه تجاوز ذلك إلى الجاسوسية لمراقبة عمال الدولة على وجه خاص .

القصّة بين الذاتية والموضوعية

لخضرة الأستاذ حمزة محمد السنج

ليسانيه في الأدب الانجليزي

من جامعة فواد الأول

يهدف القصصى ، مهما تشعب به الابتكار فى ميدان الفكرة ، إلى تصوير أحداث أو وصف أشياء ، ويمتاز النثر الذى يصور الأحداث بامتلائه بالحركة والسرعة ، وأما النثر الذى يتناول الأشياء بالوصف ، فيمعن صاحبه فى مراقبتها عن كسب ، حتى ينتمل إلى القارئ حتميتها الأصلية ، فى غير تفريط أو إفراط ، ويتسم هذا النوع الأخير بسلبية الطابع وفتور الحركة . وسواء اتجه القصصى فى فنه الاتجاه الأول أو الثانى أو كليهما ، فانه إنما يرمى إلى صوغ ما يسمعه وما يراه ، وما يعتلج فى قلبه من مشاعر ، فى رموز تيسر له تمثيل التأثير الذى خلفته المراتب فى نفسه إلى القارئ... وتلك الرموز ، وهى الألفاظ التى تعين القصصى على تحقيق الوضوح العيني الذى ينشده ، قد يحسن القصصى استخدامها ، فيستطيع تصوير الأحداث فى سرعتها ، ووصف الأشياء فى حقائقها ، تصويراً تسوده الدقة ، ووصفاً لا تنقصه الأمانة ، كما أنه قد يسيء استخدام تلك الألفاظ ، فيتهاقت عليها ، ويسرف فيها بقصد الزينة ، ومن ثم يجد زمام القصة قد أفلت من يده فأصبحت الأحداث تمضى فى ببطء سقيم ، وتراخى مل ، والأشياء شوّهت معالمها ، فأُنحِت أدنى إلى الخيال منها إلى الواقع .

وهذه النزعة نحو التتميق elaboration ، والتوشية decoration فى الوصف القصصى ، إنما تعزى إلى نقص كامن فى النفس البشرية ، يدفعها دفعا نحو مزج الذات بكل أمر موضوعى ، ومن هنا كان تفاوت التخصيصين فى طغيان شخصياتهم أو اعتدالها وتوازنها فى كتاباتهم .

ووجه الشبه كبير بين فنون كالموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، وبين القصة الأدبية ، فالتقصي مدى يصل إليه ، وأفق يحول فيه ، بيد أن ذلك يختلف — إلى حد ما — عن مدى آلة التصوير ، إذ أن القصص يختار من نماذجه ، وينتقى من شخصياته ، ما يشاء مما يقع تحت نظريه من بساط الحياة الفسيح ... أما آلة التصوير ، فلا يملك صاحبها مثل هذه الحرية الإيجابية في الاختيار ، إذ أن جهده الفني ينتهي باختياره للمنظر الذي يروقه ، وتثبيته لآلة التصوير ، التي تأخذ في نقل تفاصيل المنظر ، وإن كانت لا ترتاح إليها عين المصور ؛ ومن ثم كان التقصي أكثر حرية من المصور في الاختيار ، وأقدر على تصفية نماذجه ، وتهذيب شخصياته وإننا لنجد القصصيين يتراوحن حول فن التصوير قريباً وبعداً ، فكلما قرب القصص من المصور كان موضوعي النزعة ، وكلما بعد عن المصور في فنه كان ذاتي النزعة .

وفي الحق إنه ليندر أن نجد قصصياً يعنى بفكرته theme ، ويهتم بها أكثر من عنايته بمشاعره وآرائه الخاصة . ولكننا لو علمنا أن القصة ، في جوهرها ، ليست تعبيراً عن نفس صاحبها ، أو إبرازاً لميولها الذاتية ، وإنما هي مخاطب جمهوراً من القراء ... لو علمنا ذلك ، لبسنا حاجة القصة إلى دقة الوصف والتصوير ، وإلى خلوها من الشرح والتعليق .

ويتوقف جزء كبير من نجاح القصص على انتقاء موضوعه ، وهذا هو الجانب الإيجابي للاختيار ، وكذلك من الأهمية بمكان ترك الموضوعات التي لا تتلاءم مع القصة ، وهذا هو الجانب السلبي للاختيار ، الذي لو عنى به كثير من القصصيين المعاصرين ، لكانوا اليوم في الصف الأول من حماة القصة ، والقائمين عليها ، إذ قلما نرى اليوم قاصاً ، إلا وينفق من وقته وجهده ، الكثير على السطحيات externals ، بينما يهمل إهمالاً مشيناً الجوهريات essentials ، فيصف شخصياته وصفاً سطحيًا ، نعرف منه حياتهم معرفة يسيرة ، فأما أنفسهم وضمايرهم ، وما يضطرب في الأولى من خملجات وآمال ، وما يكمن في الثانية من نجوى وأسرار ، تنعكس على أسارير صاحبها ، فيخفيها في ابتسامة مغتصبة ، أو في ضحكة مريرة - فأما كل ذلك فإننا لا نجد إليه سبيلاً ، أو نعثر منه على النذر اليسير ، الذي لا يشفي غلة ، ولا يسد فراغاً .

وليس حسن الاختيار للموضوع وحده كافياً لكي يستطيع القاص أن ينتج أثراً أدبياً قيماً ، وإنما يكون ذلك نتيجة للتوافق بين الفكرة ومزاج الكاتب ، مما يمهّد له طريق الإبداع في نتاجه الفكري ، مهما بعدت خاتمته ؛ أما تجارب القاص ، فإنها مهما كانت واسعة المدى أو فسيحة المجال ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخائنة ، غير القليل من تلك التجارب ، التي يجد فيها خياله مسرحه الخصب وميدانه الرحيب ، وهذه المسارب الضيقة ، من تجارب القاص ، هي التي تعنيه كفنان ، لأنها قوام أفقه ، فأما ما خلا ذلك من تجارب ، فلا يهمه من أمرها شيء ، إلا ككائن حي تعرض له شتى ألوانها . . . وما ذلك إلا لأن النماص لا يستقبل تجاربه استقبالا سلبياً ، وإنما يعمل فيها عمله اللامع وعينه الفاحصة . . . ومن ثم يمكن القول بأن شخصيات القصة إنما تنشأ عن نواة صغيرة تستقر في تربة خصبة يرويها خيال النماص ويغذيها العمل وتجارب الصبا .

وقد عانى النثر القصصي في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر الشيء الكثير من ذاتية الكتاب الطاغية ، التي ما برحت تبرز واضحة في تعليق القصصي ، أو نظرة جانبية فرعية side-glance أو تأملات فلسفية تعترض سير القصة ، كما وجدنا لورنس ستيرن (١٧١٣ - ٦٨) Sterne في قصته (Tristram Shandy) ينتهز كل أمر جل أو هان لكي يحيد عن محور القصة ، ويقرب منه في هذا المضمار صمويل Butler في قصته (The Way of all Tlesh) . ومثل هذا الاتجاه في كتابة القصة ، وإن كان يزيد أمتاعاً ، نظراً لطرافة موضوعاتها وتنوعها ، بيد أنه يغض من قيمتها الفنية ، إذ أنها تفقد أحداثها وجدتها ، ويخلو أسلوبها من القصد في التعبير ، والاستواء في العبارة .

وقد تطغى الذاتية على نفسية الأديب ، فيحاول أن يستجيب لها في شتى صورها ، وربما بالغ الأديب في ذلك ، فأفرط في استخدام المحسنات البديعية من تورية pun ، وطباق antithesis ، وجناس alliteration حتى تغدو اللوحة الفنية ، التي يجهد نفسه في رسمها ، شوهاء منفرة لما خالطها من صتعة وكلفة mannerism ، وهذه المحسنات البديعية كالنار ، فهي خادم صالح وسيد طالح ، فإن أحسن الفنان استخدامها - كما فعل ولیم شکسپیر ، عاقل الأدب الانجليزى ،

في ممتطوعاته الشعرية القصيرة sonnets ، التي زاوج فيها بين المعنى والمبنى ، وجانس بين ظلال الصورة وإطارها - إن فعل الأديب ذلك ، أصبحت تلك المحسنات عندها إحدى مقومات البناء الفني للنتاج الأدبي التي لا غناء عنها للأديب لكي يعبر بها عن حالات شخصياته النفسية واتجاهاتهم الفكرية .

أما إن أساء الأديب استخدامها ، شأن الكثيرين من الأدباء الناشئين ، فإنه سرعان ما يجد نفسه كالعجوز التي تحاول يائسة ، ستر جمالها الذاوي بشتي أصناف العطور ، وسائر ألوان المساحيق والأصبغ لكي تثير في النفوس الرغبة فيها والعجب بها . . . ولن يلقى الأديب هو الآخر من قرائه رغبة في نتاجه أو إعجابا به ، فقد اصطالح الناس اليوم على بغض الزيف ، والمبالغة ، والصنعة الجارفة التي تجافي الذوق الأدبي السليم ، والتي لا نعثر عليها اليوم إلا في تضاعيف فن الدعاية والإعلان . أما في الأدب الرفيع ، فإن المذهب الذي لن يخبو نوره ، والذي أصدر عنه كبار الفنانين ، مهما اختلف مصدر ثقافتهم أو تباين نوعها ، هو أن قوام الفن ستر بريقه المصنوع ، وإخفاء وهجه الخاطف أو كما يقال في اللغة اللاتينية ars est celare artem .

ولعل أسوء ما تلقاه القصة الأدبية على أيدي الفنان غير المطبوع ، هو استلهامه لذاتيته الطاغية - عن قصد أو غير قصد - حتى يجد نفسه يعلو ويهبط ، ويسير يمينا وشمالا ، حسبما يتجه به تياره الفكري ، لا كما يوجهه موضوع القصة ، والمحور الذي تدور حوله أحداثها ومرئياتها . . . ونحن بعد ذلك كله قد نستطيع أن نغفر للقصصي أن يتراوح بين دفتي القصة ، قرباً من الموضوع ، وبعداً عنه ، لو أن القصة لم تكن شيئاً آخر غير الموضوع . . . أما والتمصصة صورة فنية للحياة حولنا ، فلذلك وجب أن تتوافر فيها عناصر أخرى إلى جانب المشابهة likeness ، كالبراعة في رسم القالب أو الاطار frame ، والأناقة في صوغ التصميم design ، والدقة في إخراج الانشاء الفني composition . . .

وهذه العناصر جميعاً لو توفرت للقصصي ، بعد نجاحه في اختيار موضوعه ، وحرصه على توازن عنصرى الذاتية والموضوعية في قصته ، لاستطاع أن يقدم للقارئ الانشائي creative reader نسيجاً متجانساً مؤتلفاً ، ويعرض أمام ناظره ، موكبا حافلا متصلا ، ما يكاد يفرغ من استعراض صفحاته ، حتى يتمثله في مخيلته صوراً مفعمة بالحياة والانسجام .

حول مقال :

سوف أعود إلى الأرض

لحضرة الأستاذ محمد اسماعيل السليبي

تركت إدارة مجلة الهلال الغراء للقراء رأيهم فيما ذهب إليه حضرة صاحب العزة محمد توفيق دياب بك من عقيدة وآراء بثها عزته في مقالته في هلال ديسمبر الماضي تحت عنوان : (سوف أعود إلى الأرض) .

البحث العلمي والحقيقة الدينية الإسلامية :

من المقرر الثابت أنه سوف يأتي اليوم الذي فيه تكشف الفتوحات العلمية عن حقائق تجعل العقل والقلب معا يقران بما جاء به الإسلام من حقائق . وما جاء به المقال (سوف أعود إلى الأرض) لم يثبت عليها ولم يثبت دينيا .

لم يثبت دينيا إسلاميا :

قال الله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) أي معنى نبيل تركه هذه الآية وترسخه في ساحة النفس المؤمنة ، إن صاحبها إذا ما رسخ هذا المعنى في صدره فسوف يلقى الحياة بأكبر قسط من التفاؤل والأمل الفسيح التغلب للصعاب وفي ذلك سر نجاح الفرد في دنياه ، ودليل سعادته في أخراه ، ولذا يقول على كرم الله وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن . لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب مرة ثانية وإذا عفا لا يعود .

هذه العقيدة السليمة في آلام الحياة وشدائدها ، وهي ذات أثر في الفرد والجماعة والنزود عن حمى الوطن . ولقد علمنا من هذا أن في الشدائد دروسا وعظات ، وبها يظهر السر الدفين وتستيقظ الشعاعة الكمية مرسلتها ضوؤها خارج النفس فتكون الشجاعة ، ويكون الإحسان ، ويكون الإنصاف والعطف ،

وهل تتمدح الفضائل إلا بزمَامِ الحوادث والتجارب ، وهل قويت عزائمنا وامتت
إلا عن طريق المصائب .

قال أهل الرجعة أو التناسخ : اتمد عرفتنا الآية أن المصائب أجزية على الذنوب
فما بال الأطفال تتألم ولم تصبهم المصائب والفجائع ، وهل جنوا ذنبا ؟ لم هذا فتيير
جدا وهذا غنى جدا ؟

أما جواب السادة العلماء الذين تعلم منهم صاحب المآل (سوف أعود إلى
الأرض) فكأنى بهم من شيوخ قرية مترمتين ، إذ كانوا يصيحون في وجهه السائل
بقوله (لا يسأل عما يفعل) . وهو بحق لا يقتنع بما قالوا له . ولذا فتش عن
العدالة الالهية فلم يجدها إلا في الرجعة إلى الأرض ، ولعل المرء إذا كبرت سنه
وقارب أجله ، اتخذ من هذه العقيدة ما يطمئنه بالرجعة إلى الأرض ، ولو علم أن
في العالم الآخر ما هو أبهى وأبهر لقال (والله لا أرجع إليها أبداً) .

نعم لا يسأل الله عما يفعل . لأن فعله بالغ الحكمة وفي منتهى الدقة . ليس
فيه خلل وليس فيه ما يدعو إلى السؤال ، فهو لذلك (لا يسأل عما يفعل) وعلى
العتل مستعينا بالله أن يتفهم هذه العدالة الالهية ، وهو يقررها في آية أخرى ،
فيقول في التفاوت المالى الظاهر بين الناس : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا
في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ويقول في أن الناس طبقات بعضها فوق
بعض ، وما من يد إلا وفوقها يد الله (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير
مما يجمعون) .

وهذه القصة بالغة الحكمة كاملة العدالة . ومثل ذلك يقال في آلام الأطفال
ولم يحنوا ذنبا . فما العدالة الالهية في ذلك . تلك هي الضريبة يؤديها الآباء والأمهات
ومن يتصلون بأولئك الأطفال المتألمين يؤديونها لتكفر ذنوبهم (أى ذنوب الآباء)
لتألمهم لمرض أبنائهم ، أو لحكم يعلمها الله ، وقد جعلها الله ميدانا للعقول ، تتنافس
لفهم أسرارها . وربما صحت الأبدان بالعلل « والله بعباده خبير بصير » .

وإذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه ، فما الذنب إلا من
النظر في النفس ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل أن نقصها نشأ من الذنب

السابق قلنا : إن ذلك يلزم التسلسل وهو مستحيل . ومذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا فرضنا أن عدداً من الأرواح تلبس ملايين الأجنة البشرية ، ومع دوارة صاعدة هابطة ، وهو ما لم يقل به أحد . وإلا فبماذا ترى في الروح الإنساني الكامل الذي يتنكر في عهد المظلمات في شخص كشخص سيدنا نوح عليه السلام أو نبي من الأنبياء — كم جسماً خلعه وكم جسماً لبسه ، وعلى أى جسم يقع العذاب . إن قلنا العذاب للروح فكيف يعذب نبي ، وإن قلنا للجسم فكيف لا تباركه روح نبي ، وإن قلنا لهما معاً فكيف بذلك جميعاً ، أنا لازلت طالب يقين في عقيدة توفيق بك دياب . فما يقين عزته في هذا الإشكال .

أسألك يا سيدي . ماذا تقول في مسؤولية الجزاء وتقرير التبعية الشخصية في قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تتحمل نفس مذنبه ذنب نفس أخرى وقد قلت سيدي ، إن ألوف الملايين من الأرواح تتقمص ألوف الملايين من الأجسام منذ بدء الخليقة البشرية إلى منتهاها ، وذلك يناقض عقيدة الإسلام في البعث والنشور وإلا فكيف يحاسب الناس .

وإذا صح ما تقول سيدي في عقيدة الرجعة . فإن لكل جسم اسماً ينادى به فبأى اسم ينادى به الشخص . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديثه الصحيح (أحسنوا أسماءكم فإن الله يناديكم بها يوم القيامة) .

ما تقول سيدي في قوله تعالى (إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) (لأنهم استكانوا للعبودية ورضخوا لجباية العلم) فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها — أى لتطلبوا حرمانكم وكرامتكم — فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

فهل جهنم هي الأرض إذا عادت إليها الروح مرة أخرى في جسم آخر غير جسم الأول .

الحق يقال أن مذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا هدمنا جانباً كبيراً من أركان الإسلام . فليس بصحيح ما قلته (إن هذه العقيدة لا تناقض الدين الإسلامي الخفيف في شيء . ولا تناقض المسيحية ... الخ .

ثم أيمكن أن يدرك أساطين المؤمنين بعقيدتك هذه مالا تدركه العفيف الحصان مريم ابنة عمران عندما قالت (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) فلو سبق وجودها موت - كما يقول أصحاب عزتك ما تمت . وأنا أسألك ما رأى أخوتنا الأقباط في عقيدة توفيق بك .

ما رأيك سيدى فى الآيه (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهى مودة واحد وحية واحدة نحيها فى الدنيا ، ثم ننقل إلى العالم الآخر يذوق مودة واحدة .

أما عقيدة الرجعة فيقول أحد أساطينها فى مثاله (الجسد ثوب تلبسه الروح زماناً ثم تلقىه) وتعود (أى بعد موده) إلى أفئتها ومصدرها ، ويقول انحدرت إلى الأرض مرة أخرى لتلبس ثوباً جديداً فى شخص جنين من ألوف الأجنة التى تولد فى جنبات الأرض فى الشرق والغرب — وهكذا رجعة بعد رجعة .

فكم رجعة وكم مودة ، آلاف الرجعات وآلاف الموتات ، والآيه تقرر (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) .

مصدر الإنسان ورجعاته ومصدره :

إن الله قد استأثر بعلم مصدر النفوس ومصيرها إذ يقول (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فإذا فى علم الله المنزل فى كتاب الاسلام حتى يطمنن أستاذنا دياب بك .

إليك يا سيدى نبذة موجزة عن العقيدة التى قررها الإسلام عن « مصدر الإنسان ورجعاته ومصيره » .

— ١ —

الإنسان يسمو إلى ربه بعد معارك جبارة عاتية ، قال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقيه) . وهذا الكدح تفسره الآية فى نفس السورة والقرآن يفسر بعضه بعضاً قال تعالى (لتركبن عبثاً عن طبق) بمعنى أنكم يا بنى الإنسان تمرون فى دور بعد دور . وهذه الأدوار يذكرها الله بجملة فى قوله (وقد خلقتكم أطواراً) فما تفصيلها .

(١) قل الروح من أمر ربي .

(٢) هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض .

(٣) وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم .

٤ — والدور الرابع . بعد التسوية في تلك البطون من نقطة إلى علقه - الخ وفيه يقول الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) فكيف يعلم بعض من آمن بالرجعة (مولدهم وميتاتهم الماضية وفي أى بلد من البلدان عاشوا حياة بعد حياة وإلى أى الآباء انتسبوا وأى اللغات تكلموا وأى الصناعات أو الأعمال اتخذوا وهل ذكورا كانوا أو إناثا في كل رجعة من رجعاتهم إلى الدنيا ليستأنفوا فيها الحياة) بالنص من مقال توفيق بك (والله يقول (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) هذا هو التناقض ...

٥ — الدور الخامس هو ما يشير إليه تعالى بعد انتقال الروح (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالأرواح تكون في برازخها أو الصور أو الناقور كما قرر القرآن . حتى إذا قامت القيامة الكبرى تراوحت الأرواح مع أبدانها بعد أن كانت مفردة كما قال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وليس المقال متسع لتفصيل هذه المعاني .

٦ — الدور السادس يشير إلى قوله سبحانه (وجاءت كل نفس معها من قبرها وبرزخها) سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

٧ — الدور الأكبر (فريق في الجنة وفريق في السعير) أما المحسنون في رسالتهم في حياتهم فإن الملائكة تستقبلهم أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . هذه نبذة موجزة عن العقيدة التي أؤمن بها في مصدر الإنسان ومصيره .

إلى الشباب : همسة في آذانهم

قرأنا في كتب التاريخ أن مذهب الرجعة أو التناسخ شاع في المجتمعات المتحللة الأخلاق وأن ضرره أكثر من نفعه فهو مضيع لذاتية الشخص ميسر للعدو دوس أوطاننا .

إن مذهب الرجعة يرمى عن قوس أهل الأهواء والنحل . ونحن أحوج ما نكون في الحاضر لمتاييس علمية صحيحة ومضابط خلتية صادقة لرفع شأن الوطن .

وإذا كان (شوبنهاور) من أساطين المؤمنين بعميدة الرجعة في العصر الحاضر فإن ذلك لا يخذعنا عما يراد بنا . فإن تيارات الغرب المستعمر ، ونظرياته الملمدة امتداد لسياستهم المحيطة لأعمالنا . تلك السياسات وهذه التيارات قد حولت أعناق خناذيد وأفذاذ من كتابنا إليها ولسكن من (أبدى صفحته للحق هلك) .

وإن الباحث المحقق ليعلم حق العلم موقف تلك العتائد الزائفة من آمالنا القومية . فإذا كان المعتقد بالرجعة أى بتناسخ الأرواح فتعد يعود إلى الأرض في ثوب انجليزى أو صهيونى ... وإذا فلا ضرورة لجلاء ولا لزوم لمناداة بتهديم الصهيونية ونخرج من هذا أنه لا بقاء لثمومتنا وذلك كله ناتج من التسليم للعتائد الهدامة لأركان وطنيتنا .

يا شباب العصر :

روح الجهاد فيكم أو جهاد الروح منكم أن تك ونوا أنفسكم على عميدة سليمة ذات أثر فعال . وتحموا وطناً حراً قويا ينمذ العالم من التردى في سقطات الزائفين . وأن تنبعث انسانيتكم السامية واقفة عند أمر ربها (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

يا شباب العصر : إن قيل لكم إنكم ستعودون إلى الأرض (كما زعم فيثاغورس أوسقراط قديماً وشوبنهاور حديثاً) فقولوا أتم : إننا سنعود إلى الله وعندكم دليلان قويان مقنعان ، ممتعان مشبعان ، (الأول) جاء ثوبان الفارسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أين أنا إذا مت . فنزلت الآيتان الكريمتان جواباً عن سؤاله « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً » سورة النساء .

مُشكلاتُ المَدِينَةِ الحَدِيثَةِ

أفضيلة الأستاذ محمد الدين موسى

عدت علينا مدينة الغرب بخيلها ورجلها ، ومركبتها الطائشة ، وسيولها الجوارف ، فأزججتنا نحن الشرقيين من رخاء عيشنا وطيب أحلامنا ، وأذهبت عنا روح الطمأنينة والامتناع ، ونسائم الهدوء والاستقرار ! . وبدلت بخضراء الحياة صحراءها ، فلم نعد نستمرىء طعم الراحة وأمنة النعاس ، ولا نحس روح الطبيعة ولا نستشعر لمسة النعيم ! . وكأننا في ليل كافر لا نهار معه ، أو شتاء دميع لا ابتسام له ! فما السر في هذا جميعه ؟ هل المدنية الأوروبية تتصادم مع مدينة الإسلام فتسير عكس اتجاهها ، وتسعى وإياها على طرفي تميض ؟ ذلك ما نريد أن نبجته وندلل عليه .. إن الدين الإسلامي في الواقع قد جمع كل ما تفرق في المذنيات والديانات الأخرى من محاسن وروائع إن لم يكن قد أربى عليها .. فلم يأمر بالرهبة والانقطاع إلى النسك بكهف أو دير أو رأس جبل ، ولم يحض على ترك الناحية الإيجابية لعارة الدنيا ، واستغلال قوى السكون واستثمار أرحام الأرض ، وطرح المعاش جانباً كما قالت المسيحية ، ولم يفرض على معتقيه أن يتكالبوا على موائد الرزق وحلبة القوت ، وحطام المتاع ، وزخرف الوجود ، كأنهم حيوانات سائمة لا هدف لها في الحياة ولا مرمى إلا الطعام والسفاد والفراش والشراب والمرعى بل جاء وسطاً معتدلاً بين رغائب الروح والجسد ، وغذاء الفكر ومشتهيات المعدة ولسكتنا لو نظرنا نظرة فاحصة جدية إلى المدنية الحديثة اليوم وهي وليدة المعامل الأوروبية لا الأفكار الروحية ولا الموارد السماوية ، لوجدناها تتجه صوب المادية الجسدية المتاعية اتجاهاً ملبوساً في ظواهر الأشياء وسطوحها ، بل تعدت إلى أسوار الباطن منها فخرقتها عن مواضعها ، وزلزلتها عن مستقرها ، وكيفية بميولها وأهوائها ، وصبغتها بألوانها وظلالها .

وإلا فمن أين جاءتنا الأصباغ والمساحيق وأدوات التطرية والنعومة النسائية؟
ومن أين كثرت حوادث انتحار الشباب وتفاقم التفكير فيه؟
لقد نجمت من هنا مشاكل مستعصيات وعمد معقدات في التعليم والسلوك
والأخلاق، والغرائز والنفسيات.

كما حدثت مشاكل أخرى في صميم الحيات والنظريات وأمها المسائل
المعنوية والاقتصادية والعلمانية، كالمذاهب الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية،
وكنظام الدكتاتورية والارستقراطية والديموقراطية الخ. وكنظيم الأسرة ورعاية
الأفراد وكفالة الجماعات، وتنشئة الأطفال وسياسة النساء وتأمين الحقوق،
والحياة الزوجية! وهل غرس في أرضنا بذرة النالوث الأصفر «الجهل والفقر
والمرض» إلا يد هذه المدنية ومحاكاتها دون تمييز النافع والضار منها. حتى قطعت
على الشعراء أخيلتها الناعمة، وعلى الفلاسفة أحلامها السابجة، وعلى العلماء
والباحثين طرائق علمهم ومناهج تفكيرهم، واصطدمت مع بعض الحقائق الكونية
وسدت على الناس منافذ الآفاق الروحية ومناجم السعادة النفسية. . ألم يكن في
الديانة الإسلامية غنية وكفاية لحل هذه المشكلات التي خلفها لئاركب المدنية
المعاصر بعامل الالتصاق والمجاورة؟ ألم يكن فيها من الأنظمة القويمة والبلاسم
الناجعة ما هو كفييل بسعادة المجتمع البشرى ورفاهة العالم جميعاً؟ لقد كان سلفنا
في ثروة روحية عظمى باتباعهم خطوات هذا الدين العالمى الخالد «الإسلام»
ولم يكن في عصورهم من هو أسعد منهم حالاً كما لم يكونوا فقراء من المدنية
والحضارة مثلها يحسب الجاهلون، بل كانوا أغنى منا حظاً وأهدى بصيرة وبصراً.
وهل لمتفلسف متشكك أن يجادلنا في مساوىء المدنية القائمة ومخازيها أو يجادل
عنها؟! حتماً لقد ربطت المشارق بالمغرب.

ولتمحت الأفكار وغزت مناطق الشعور في الإنسان، وفتحت باب العلم
المدنى والصراع الجدلى، والنظر المحلق على مصراعية حتى كانت المدهشات
الغرائب من الكشوف والابتكارات، والاختراع والتجديد في كل مضمار
وميدان، ولم نعد في قرن السلحفاة أو الناقة والجل، بل في عصر الذرة والطائرة
واللاسلكى والكهرباء، وحنماً إنها سخرت كل طاقة صغيرة وكبيرة عل سطح

الكرة أو في ساريات الجو أو أجواف البحار فانتعشت الحضارة وانتفعت البشرية - وتغلغلت بمنظارها المكبر إلى خبيثات النفوس وأعماق السرائر فتعددت الفنون وأطردت الصناعات واستبحر العمران وتقدمت الأذهان .

ولكن أليس ذلك كله عن طريق المادة ودولابها الحديدي وعجلاتها الطاحنة وآلاتها الجوامد الصماء ؟ وهل كان ذلك إلا ابتغاء إطفاء سعار الجوع وإسكات صراخ الأمعاء وإشعال وقود الأوطار الترابية الأرضية ؟ فهل انطفأت الحرفة أو سكت الصراخ أو أقلت من طغيانها وبغيها الأنانية والنفعية ؟ كلا بل لمسنا في سبيل هذه المدنية الآلية كبكة وقلقاً ، واضطراباً وعمتاً نفسانية ، ومشكلات قامت وقعدت ، وبسائط عميت وعمدت . . . فهذا شبح الطماعية البغيض ، وتيار الحسد والشحناء يحض على الجريمة النكراء ويغري بالمنكر والفحشاء .

ويجب الى المرء روح التذمر والثورة والتمرد والسخط على كل نظام . فكان بيننا البغاء والربا والخمر واليانصيب والميسر ، وكان الظلام المطبق والحيرة التامة المهلكة ، ونشأت شركات التأمين على الحياة والنفس لأن الإنسان لم يعد إنساناً بمدلوله الشرعي واللغوي ، بل وحشا من بنات الغاب فكيف يؤمن على الأموال والأعراض والأنساب ؟ ووضعت المحاكم والسجون والقضايا والمرافعات من جراء القتل والسرقات والخيانات والانتهاكات ! وكسدت سوق الزواج وذاع الطلاق وفشت الإباحية الإلحادية ، والحرية الهوجاء المتحللة من قانون العرف والخلق والفضيلة ! . ومن ثم نشأت الحروب واندلعت السنة الفتنة ، وهبت الثورات والأحقاد كالعواصف الجامحة ، تزلزل غربال الأرض ، وتطفئ مصباح السلم ، . وتهصر غصن الزيتون ، وتميت بساتين الربيع ، وتلفع الشمس بعباءتها الدكناء ؟ ! ولماذا عبث الاحتلال بالحرقات والكرامات فأكلت الأمم النوية المستعبدة الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها لعمري وعمر أبيك ما خلق هذه الأدواء جميعاً ، وأضعاف أضعافها إلا هذه المدنية الزائفة . . المادية الخليعة . . وبقدر ما سعينا نحوها مأخوذين بلعة سراها ، وسحر بريتها ، بقدر ما خلت أفئدتنا من العقيدة الصحيحة والإيمان بقوى السماء وقدرة الصانع البديع ، والبحث عن كنوز التوحيد والمعرفة الإلهية والرحمة والحكمة والإيثار والتقوى .

وانصرفنا بكليتنا عن الروحانية الصافية العميقة والعبادة المشرقة الطليقة ،
وما عدنا نقيم الشعائر والمناسك إلا في كسل وفطور وارتخاء أعصاب ! . وهي
في مجتمعنا اليوم عبارة عن ظلال ميتة وأشباح هزلى لا روح فيها ولا ذماء تؤديها
كمراسيم دولية أو شكليات عرفية ! . . . ومن ذا الذى يفرغ من الجلبة والضوضاء
آنات معدودة من سواد الليل أو بياض النهار للمناجاة والتفكير والصلاة
والاعتصام بجبل السماء ؟ . ومن منا أمسى يفكر في بر أو مرحلة أو تزكية وإحسان ؟ .
يخجلنى ويخجل التلم في يدى أن أقول : إننا أصبحنا تحت تأثير هذه المدينيات الغربية
الحقنى نعد من مظاهر التأخر والرجعية والتخلف والجمود أن ننادى بتمتين الشريعة
وعودة حدودها إلى الأرض بعد طول غربتها ، وكيف ونحن في حمى التمانون
الفرنسى نتطلق أحرار الفكر والرأى والعقيدة بلا حسيب أو رقيب ! ؟ .

وهكذا أحسنا في هذا العصر بلهيب الحرمان ومجاعة الوجدان ودافع الحاجة
ومرارة اللوعة والخزيان . . نعم أحسنا الحاجة إلى الرجوع لمعين الإسلام
وطرق مصراع السماء والتطلع إلى أعلى ! . ذلك لأن المدنية الحديثة قد ألهبت
ظهورنا بسياط نارية إلى غير إشراق أو متاع أو استقرار إلى حيث الهاوية
والتطاحن والازمات المبيدات ! . . فظمئت أنفسنا من المعرفة الوجدانية ، وقحلت
أرواحنا إلى النبع السماوى الدافق الفيض ، يبدل غُلَّتْهَا رِيًا ، ويأسو جراحها
ويمسح آلامها ويقيم على أطلال خوفها واضطرابها صرح هناءتها وأمنها وسلامها ! .
أما هذه الحركة الدائبة المتعقعة ، والتسرع المجنون الأحمق الذى جعلنا نتندر ونسخر
بالمثنأى المتمهل قائلين : نحن في عصر السرعة . . . والذى صرفنا عن دين محمد
وروحانية الشرق وتراث العروبة ، وميراث الحق وكتاب الخلود إلى الإسراف
في الشهوات والآمال والمطامع والربا فما لا يتره حفيف ولا يرتضيه
أريب !! فهل من عودة يا أمناء الإسلام . . ؟ وهل من بعث للشرق الميت
من جديد ! ؟ ؟

جماعة التبشير الاسلامى والاصلاح

بأم درمان « السودان »

عبد الله روفى الأسر

كاتم السر

بقى جنوب السودان منذ آمد سحيقة فى عزلة عن العالم ، لم تعرف الحضارة إليه سبيلا بعلومها ونورها ، وظل أهله على فطرتهم الأولى حفاة عراة ، دينهم الوثنية ، وعلهم الجهل ، وصلتهم بالعالم الخارجى مقطوعة ، وبشمال السودان مبتورة ألا ما يتسرب إليهم من رسالات التبشير المسيحية .

وما كانت حالتهم تلك ، لا لترضى إخوانهم ومواطنيهم فى شمال السودان ، فوطنوا العزم على الاتصال بهم ، والقيام نحوهم بما يمليه الدين ، وتفرضه الوطنية ، فأهل شمال السودان وجنوبه ، مواطنون تجمعهم صلة الوطن التى لا انفصام لها . ولهم على بعضهم البعض حقوق وواجبات . ومن حق أهل الجنوب على أهل الشمال أن يأخذوا بأيديهم ، ويعملوا على إسعادهم عملا يفرضه الدين وتمليه الوطنية .

لهذا حتمت كلمة جماعة من كرام السودانيين ، ممن لهم مكانة مرموقة بين مواطنيهم ، ومن عرفوا بالتقوى والصلاح على تأسيس جمعية أسموها « جماعة التبشير الإسلامى والاصلاح » مقرها مدينة أم درمان ، وغرضها : القيام بنشر الإسلام وتعاليمه فى جنوب السودان ، وفى كافة أرجائه التى لم يصلها نور الدين الخفيف ، وقد اختارت لها لجنة تنفيذية مكونة من خمسة عشر عضواً .

وعهدت برئاستها إلى صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين القرشى التماضى الشرعى سابقاً ، وأمانة سرها إلى حضرة الأستاذ عبد الله شوقى الأسد .

وتقدمت الهيئة بعد تكوينها إلى إدارة السودان طالبة التصريح لها بالقيام بمهمتها فصرحت لها بذلك ، وليس للهيئة أى غرض آخر غير هدفها الإسلامى الخالص ، تستوحى أعمالها بهدى القرآن ، وسنة السلف الصالح فى إعلاء كلمة الدين الخفيف متذرة فى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، بإذلة أقصى جهدها إلى نشر الوية الإسلام فى الجنوب .

بيد أن الوصول إلى الغايات الدينية الخالصة التى ترمع التيام بها ، ليست بالهيئة الميسورة ، فأمام الهيئة عتبات تستوجب التدليل ، ووسائل يجب أن تتوفر ، وليس العمل فيها قاصراً على مسابى السودان وحدهم ، ولكنه فرض عين على إخوانهم مسابى شمال الوادى أيضاً ، بل والمسلمين فى كافة بقاع الأرض .

لهذا تتقدم الهيئة ، إلى كافة الهيئات والجماعات والأفراد فى وادى النيل طالبة التعاون معها ، وشد أزرها ، والمساهمة الشاملة فى نشر كلمة الله ، بما أمر الله وسار عليه رسوله الكريم .

والهيئة تستمد فى هذا العمل قوتها من عون الله ، ومن صدق نية العالمين فى سبيل الله ولله وحده ، وهى واثقة من أن عملها سيكلل بالنجاح ما خلصت النيات وصدقت الرغبات ، وهى مطمئنة إلى عون المسلمين فى وادى النيل عوناً خالصاً مستمراً ، حتى تتحقق الغايات ويتم الله نوره ، ويخلص جنوب السودان من ظلمات الوثنية والجهل ، ويتذوق أهله حلاوة الإسلام وطعم الإيمان بإذن الله إنه سميع مجيب ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكي

مضرة صائب الفضيحة الأستاذ الأكبر بحبيبه بخطبة

احتفلت البلاد المصرية يوم الإثنين الثاني عشر من شهر فبراير ، بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة المعظم « فاروق الأول » ، فلبست جميعها حلة فاخرة من الزينات والأنوار ، وأذاع الراديو خطبة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء في تعداد مناقب جلالته ، وسرد فضائله ؛ واثنت جميع البلاد المصرية بعاصمتها فكانت البلاد في عيد وطني تبادل أهلها فيه التهاني والمسررات .

واحتفل الأزهر المعمور به ، فاجتمع فيه ألوف من عليّة الطبقات في مقدمتهم سعادة أحمد يوسف بك السكرتير المساعد الخاص موفداً من جلالة الملك ، فنهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وألقى كلمة بليغة جامعة ، سرد فيها صفات جلالته ومواهبه وفضائله ، متمنياً لجلالته طول البقاء وأن يجعله الله ذخراً للبلاد ، وملاذاً لأهلها مدى الأيام .
وهذه خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

اللهم إنا نحمدك حمد المؤمنين بك ، الخاضعين لعظمتك ، الشاكرين لنعمتك ، الراجين لرحمتك ، اللهم إنا نرغب إليك أن تصلي وتسلم على عبدك ورسولك ، وأمينك على وحيك وخيرتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين ، ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وجاهدوا في الله حق جهاده فاستخلفهم في الأرض ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعفهم قوة وعزا وسلطاناً .

اللهم وفقنا إلى اتباعهم بإحسان ، واحي فينا سنتهم واجعلها يارب زادنا ونورنا في معاشنا ومعادنا عليها نحيا وعليها نموت .

حضرة صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم :
أيها الإخوان : تحتفل الأمة المصرية الكريمة اليوم بعيد من أعز أعيادها
القومية ، وهو عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول
أطال الله في عمره وأيده بتوفيقه ونصره .

وقد أراد الله جلّت نعمته أن يضاعف للأمة في هذا اليوم السعيد سرورها ،
ويزيد في غبطتها واستبشارها ، فوق جلالته الملك المعظم — أعزه الله — إلى هذه
الخطبة السعيدة المباركة ، فكان العيد بذلك عيدين وكانت الغبطة غبطتين .
وحق للأمة المصرية الكريمة أن تحتفل بأعياد الفاروق العظيم ، وأن تشاركه
الفرح بما آتاه الله من نعمه ، وأن تحمد الله تعالى وتشكر له على أن ربط عزها
ومجدها بجلالة الملك السعيد الموفق .

إن أسعد الملوك من سعدت به رعيته ، وقد أسعد الله هذه الأمة بجلالة ملكها
الفاروق ، حيث اقترنت بميلاده الميمون نهضتها وتدرجت مع تدرجه في عمره
المبارك أسباب مجدها وعزتها .

وجدت النهضة المصرية القوية قبيل مولده الميمون ، وقد كانت مصر من قبل
أمة تتنازعها عوامل الضعف والفساد من داخلها ، وعوامل الطمع والجشع من
خارجها ، فلما أذن الله لنهضتها الكبرى أن تنجح ، كان ذلك مقترنا بمطلع الفاروق
أعزه الله ، فرأى العالم يومئذ أمة فتية أبيّة مصممة على أن تنال حقها في الحياة
العزيزة الكريمة ، مجمعة على الجهاد في سبيل ذلك بكل ما منحها الله من حول وقوة
لا فرق بين شبابه وشيوخها ، ولا بين فتراتها وأغنيائها ، ولا بين حكامها
ومحكوميها . روح من الله سرى فيها فأحياها وقواها وأيدها بالنصر المبين ،
وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

ولم تكن هذه النهضة في الناحية السياسية فحسب ، ولكنها نهضة قامت على
أساس وطيّد من الشعور بالعز والحرص على الكرامة والتمتع بما تتمتع به الأمم
الحية من الاستقلال والحرية ، يؤازر ذلك برنامج صالح شامل في شتى نواحي
الإصلاح والتجديد في التربية والتعليم ، في المال والتجارة ، في الزراعة والصناعة
في الاتصال بالعالم الخارجي لتبادل المنافع والمصالح ، في الانتفاع بكل ما جدد
من اختراعات ووسائل إلى غير ذلك مما تحيا عليه الأمم ويقوم به مجدها وعظمتها .

صاحبت هذه النهضة الإصلاحية مولانا الملك فاروقاً أعزه الله منذ كان في المهد صبياً فاحتضنها المغفور له والده العظيم (طيب الله ثراه) كما احتضنه — فلقياً في كنفه الرعاية كل الرعاية والحفاظ أعظم الحفاظ حتى أسداهما إلى الأمة المصرية الكريمة بل إلى الشرق كله هديتين كريمتين، هما أعز ما يهديه ملك كريم إلى شعب كريم . وها هو ذا الفاروق العظيم يتلقى تلك النهضة من أبيه باليمن فيرعاها ويواصل سعيه الحميد في تنميتها وتقويتها ويقف في شأنها موقف القائد الحكيم يوجه العاملين ويكافئ المخلصين ويثير الهمم .

ويحيي العزائم وأنه لواصل بها إن شاء الله تعالى إلى ما يبتغيه لأمته من المجد والقوة والعظمة والنصر المبين .
أيها الاخوان :

هذا هو يمن الفاروق على مصر وتلك هي رعايته لنهضتها وأسباب مجدها وعظمتها وقد فاز الأزهر الشريف بما ذكرنا بأفضل حظ وأوفر نصيب واستطاع أن يسجل في صفحات مجده تاريخاً حديثاً مجيداً .

كان من يمن الفاروق على الأزهر أن وجه الله قلب والده العظيم إلى إصلاحه وتمكينه من أداء رسالته على خير الوجوه وأفضلها فأصدر طيب الله ثراه قوانينه الإصلاحية وعدل مناهجه وزاد معاهده وأنشأ كلياته وأمر ببناء مدينة جامعية حديثة تليق به ورعى أهله أفضل رعاية وأكرمها وحرص على تقوية نزعة الدين والعلم فيهم وعلى بث روحها في الأمة حتى تقوم نهضتها على أساس متين من الخلق والفضيلة والاعتزاز بالدين فاستجاب بذلك — جزاه الله أحسن الجزاء — لآمال طالما ساورت نفوس المصلحين وسعى في سبيله سعيه المحمود فأسدى إلى الدين والعلم صنيعاً مشكوراً أرجو أن يجعله الله له نوراً يوم يأتى المؤمنون يسعون نورهم بين أيديهم وبأيامهم .

وكان من رعاية الفاروق للأزهر أن سار على سنة والده العظيم في العناية به والحدب على أهله والاهتمام بكل ما يعلى شأنه ويرفع قدره ويمكنه من تحقيق رسالته السامية في خدمة الإسلام والمسلمين بل في خدمة الناس أجمعين

أيمن جلالة مولانا الملك المعظم حفظه الله أن تزكية النفوس بالدين وتثقيفها بتعاليمه القوية ومبادئه القويمية هما أساس يقوم عليه الإصلاح والعزة والكرامة

وخير عصمة من المبادئ الضارة والمذاهب الهدامة، فحرص منذ تولى عرش آبائه الأكرمين على أن يكون الأزهر الشريف منبع الهداية الإسلامية، ومصدر التعليم الدينية الصحيحة لا في مصر وحدها بل في العالم كله .

ومن مظاهر ذلك في مصر أنه أمر بأن تبث المعاهد الدينية في الأقاليم فأنشئ منها في عهده المبارك خمسة نظامية وأضيف إلى بعض المعاهد الابتدائية أقسام ثانوية وشجعت المعاهد الحرة فجعل لها في ميزانية الأزهر مبلغ كبير أعانها على أداء رسالتها في التهذيب والتعليم وبذلك زاد عدد المعاهد الدينية في البلاد حتى أربت على العشرين .

ومن مظاهر ذلك في خارج مصر أن جلالته حفظه الله أمر بإيفاد كثير من البعثات التعليمية إلى البلاد الإسلامية تثقيفاً لبنائها ونشراً لدين الله فيها، كما أمر باستقدام بعوث كثيرة من البلاد المختلفة لتلقى العلم في معاهده وكتباته إلى جانب إخوانهم المصريين، وهام أولاء قد أوفت عدتهم على ثلاثة آلاف من مختلف الأجناس يجدون في كنف الفاروق من الرعاية والتكريم والتهذيب والتعليم ما يلهج أسنتهم بصداق الشكر وخالص الدعاء لملك المحبوب، كما أمر حفظه الله بأن توفد وفود من علماء الأزهر إلى جامعات أوروبا ليحيطوا علماً بما عند أهلها من علوم نافعة ويعرفوا لغاتهم ويدرسوا أحوالهم وينشروا بينهم محاسن الإسلام وينفعوا قومهم إذا رجعوا إليهم. وقد أنشئ بتوجيه جلالة الملك المعظم مركز ثقافي إسلامي في إنجلترا، وسينشأ مثله إن شاء الله تعالى في أمريكا، ونرجو أن يتمكن الأزهر من تحقيق رغبة جلالته في الإكثار من هذه المراكز .

ومولانا الفاروق أعزه الله لا يألو جهداً في العمل على تقوية الأزهر، وتوطيد دعائمه، وتوفير أسباب الطمأنينة لأهله من علماء وطلاب حتى يتفرغوا للعلم ويعكفوا على خدمة دين الله القويم .

وإني لأعلم من حذبه على الأزهر وعطفه على الأزهرين ما يجعلني مستبشراً بالخير، واثقاً من أن هذه الجامعة الكبرى سترقى في عهده السعيد إن شاء الله تعالى إلى ذروة مجدها وتحقق آمال جلالته وآمال سائر المسلمين فيها .

وقد تلقيت من توجيهاته السامية في شتى نواحي الإصلاح ما جعلته برنامجي وعهدي، وأسأل الله تعالى المعونة عليه والتوفيق إلى تحقيقه .

أيها الأزهريون :

إني لأعلم أن قلوبكم مفعمة بالولاء والحب والإخلاص لجلالة مولانا الملك المعظم ، وأعلم أنكم قادرون فضله عليكم وبره بكم حق قدرهما ، فإحراكم بشكر هذا الفضل والاعتزاز بهذا البر ، وإنما يكون ذلك بقيامكم بواجبكم علماء وطلاباً حتى تحققوا آمال المليك فيكم ، وتؤكدوا للعالم ما عرف عنكم من أنكم جنود الله وحفظة دينه ، وحمله كتابه ، وتبعثوا في الأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها وأجناسها روحاً من التوبة والصلاح تستعيد به مجدها وسالف عزها وكرامتها .

إنه لا صلاح لهذه الأمة إلا بكم ، ولا قيام لها إلا على أساس دعوتكم ، فإنها دعوة الحق فانهضوا بأعبائكم كراماً أولى قوة وابتغوا وجهه الله تعالى فيما تعملون يصلح الله أموركم ، ويصلح بكم ، واعلموا أنكم جنود الله فجاهدوا في الله حق جهاده واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

اللهم إنا نسألك ونبتل إليك أن تكلاً بعين رعايتك التي لا تنام جلالة مولانا الملك المحبوب فاروق الأول .

اللهم امنحه من لدنك نصراً مميّناً ، وارزقه دوام العافية ، وتمم النعمة وحسن المزيد .

اللهم يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك أن تجعل هذه الخطبة السعيدة فاتحة لخير عظيم تقرر به عين جلالة الملك ، وتسعد به أمته وتحقق به آماله ، إنك يا رب أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين وذو الفضل العظيم .

اللهم أعز به الاسلام وأرفع به راية القرآن ، واجعل عهده حافلاً بالخير واليمن والاقبال وقوى به شوكة الإصلاح والمصلحين من عبادك الصادقين المخلصين .

اللهم أصلح في عهده الميمون جميع شئوننا ، ويسر أمورنا ، واجمع ، شملنا وألف بين قلوبنا ، ونسألك اللهم أن توفق رجال حكومة جلالة مولانا الملك إلى ما فيه الخير العميم وأن تسهل لهم كل صعب وتيسر لهم أسباب رفعة شأن الأمة وسمو مكانتها إنك يا رب ولينا وكفى بك نصيراً وأنت يا رب مولانا ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ليس هيناً نبهلاً

تبين لنا من متابعة اطلاعنا على كتاب (من هنا نبداً) أن المؤلف يروج للإشتركية ، وهذا تطوع لا شية فيه ، فقد يكون مقتنعا بأن الأمة التي لا تأخذ بالاشتركية لا تقوم لها قائمة ، فلا يؤاخذ على أن ينصب من نفسه داعية لها في أمة دسنورية ؛ ولكن الذى يؤاخذ عليه تصوير الدورة الاقتصادية للأمم تصويراً خاطئاً ، ورفع الاشتراكية العامة إلى مصاف العوامل الأولية في ترقية الشعوب ، واعتبار الأشكال الأخرى من الاجتماع ، صوراً وقتية آيلة إلى الاشتراكية لا محالة سواء أسرع في تطوراتها أم أبطأت ؛ فأسرف لأجل ذلك في المرغبات فيها ، وارتكب في سبيل المبالغات ما لا يسمح به في كتاب علمي من أخطاء ، وفاته أمر خطير وهو أن للتطورات الاجتماعية أدواراً لا بد للجماعات من الدخول فيها ، واستيفاء آمادها حتى تستعد الجماعة لقبول ما يليها ، وربما نشأت حوادث دفعها للوراء درجات كثيرة بعد أن كانت على مقربة من آخر أطوارها .

قلنا إن المؤلف ارتكب في سبيل تحضيضه مواطنيه على الدخول في الاشتراكية ما لا يسمح به في كتاب علمي ، ونحن تناقشه الحساب في بعضها لأن في تركها على حالها في مؤلف كتب له الانتشار تضليلاً للكثير من القراء . فلتابع ملاحظتنا عليها فنقول :

قال في صفحة ٩٢ : « إن أخش غلظة نفترفها خلال سعيها للسلام هي التماسنا له في الخارج ، فنظن أن المعاهدات ودوراننا في فلك دول أكبر سيملاّن بلادنا سلاماً وأماناً ، ولعل الدروس التي تعلمناها من معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن كفيّلة بأن تلهمنا رشدنا » .

نقول : الواقع أن أحداً في بلادنا لا يرغب في عقد معاهدات مع أية دولة من الدول ، ولكننا نرغم على عقدها ارغاما . فأنجلترا لم تنجل عن القاهرة والألكندرية إلا بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولو كنا أئينا عقدها لما انجلت عنهما . ونحن الآن نريد أن تجلو عن قناة السويس فتأبى إلا بعد أن نعقد معها معاهدة تسمح لها باحتلالها إذا شئت حرب أوروبية . فنحن كما ترى لا نتطلع للمعاهدات ، ولا نصبو اليها ، ولكننا نتوسل بها لنكتسب خطوة جديدة نحو استملائنا التام .

يريد المؤلف أن يثبت لتمرأئه أن وقوع طائفة من الأمة في الفاقة المدقعة ، وتمتع أخرى بالرغد والسعة ، هو سبب كل بلاء يصيب الاجتماع ، ويدفع إلى الحروب . ونحن نوافقه على خطر هذا الوضع في حدوده المعقولة ؛ ولكن خطر الإدقاع في الفقر قد زال بسبب ما جد من نظم العمل ، وتحديد الأجور ، وقيام النقابات ، ومعونة الحكومات للعمال ، وبقي أشد عوامل الحروب خطراً ، وهي تسابق الدول على التحكم في بعض الطرق البحرية ، أو احتلال بعض البقاع الأرضية لضمان تصريف محصولاتها ومصنوعاتها .

أما القول بأن الحروب تزول إذا وجد الناس الخبز والزبد ، فهو بعيد عن التحقيق ، لأن العوامل التي تدفع إلى الحروب من نزاحم الأمم على الاستعمار ، وعلى بسط السلطان الأدبي على الجماعات المستضعفة ، لا تزال موجودة ، بل أخذت شكلاً مهدداً لحق البشرية ، وخاصة بعد اكتشاف صنع القنابل الذرية ، وهل يفوت الأستاذ انقسام الأمم إلى معسكرين : أحدهما يؤيد الرأسمالية الفردية ، والآخر يعتبرها شر الشرور البشرية ، وما يبدو من كليهما من التحفز ، والتأهب لمجزرة عالمية ؟ فهلا حسب الأستاذ حساباً لهذا التطور الجهنمي الفظيع للعوامل المولدة للحروب ، فاكنتي بذكر أسبابها البدائية التي لم يبق لها وجود في أية أمة متمدنة . إن مشكلة أجور العمال قد حلت نهائياً في أعظم الأمم الصناعية ، وهي أمريكا وإنجلترا وفرنسا وجميع الممالك الأوروبية ما عدا إيطاليا ، وهي هنالك أيضاً في طريق الحل ، فلم نعد نسمع عن تلك الاعتصابات الدموية ، ولذلك لم نجد للاشتركية صوتاً يسمع فيها ، ويمكن أن يكون هذا الهدوء بدء حياة طيبة يجد فيها كل عامل حقه موفوراً ، والعناية به وبأسرته بعد وفاته أصلاً مرعياً .

أما ما نقله عن بعض الكتاب وأدعى أنه يحرض على الشيوعية من أن مجموع الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية تبلغ ٤٧٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه الأراضي وتنظيم ريها تبلغ ٦٢٠٠٠٠٠٠ ، أى أن مصر تبترع سنويا للسلادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه ، فهو ليس بشيء لأن الحكومة بإقامتها مصلحة للري لا ترمى الى مصلحة طائفة من الطوائف ، ولسكنها ترمى لإيجاد نظام للري في أمة لا تقوم بدونه .

ثم قال : « ونظرة أخرى الى الميزانية ترينا أن قيمة عوائد الأملاك المبينة تبلغ ٩١٢٠٠٠ جنيه في حين أن نفقات مصلحة التنظيم تبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . فكل رقم تقع عينك عليه يصرخ في وجهك بأن الثورة على النظام الإقتصادي حق ويؤكد لك أننا نعيش في بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمي والجهل الحكومي » .

أما نحن فنقول ، وقبل أن نقول نسأل : ما هو ذلك النظام الاقتصادي الذي يلعنونه ؟ هل من مقرراته أنه يسمح لبعض طوائف الأمة أن تجدد وتعمل وتكسب المال وتدخر ما يزيد عن حاجتها منه وتشتري به ضياعا ودورا ، وتحرم طوائف أخرى من ذلك وتحد أمامها مجال الارتزاق ، وتحصره في وجوه محدودة ؟

إن كانت على هذه الشاكلة فهي مقررات جائرة ، ويجب ليس لعنها فحسب بل والعمل على محققها ، والتسوية بين جميع طوائف الأمة في الانتفاع بمواهبهم وجهودهم في رفع مستوى حالتهم الاقتصادية . فإذا كانت الأرض تضيق عن سد مطامعهم فبجال التجارة يسعهم ، فإن ضاق عنهم ففي الصناعات ميادين لا تحسد ، ووراء كل ذلك العلم الذي ليس له حد يقف عنده ، ولا لإمكانياته نهاية يتعذر تجاوزها .

ولكن يظهر أن أصحابنا يريدون أن يخولوا الحكومة فوق ما لها من حق حفظ النظام ، والسهر على الأمن العام ، والفصل في الأحكام ، حقوقا جديدة تبلغ بها إلى حد التحكم في توزيع الثروة العمومية للأمة ؛ فلا تدعها تدور مع الأمة حرة في أدوار رقيها المدني والتعالمى ، بل أن تقيد وتوكل إلى إرادة الحكومة تتصرف فيها كما تريد . والحكومة كما تعرف أفراد من الناس لا من الملائكة .

وهذا نظام ينافي ما عليه الأمم المتمدنة من جهة ، ويعطل حركة التجارة من جهة أخرى .

نعم الغرض منه أن لا يحرم الفقراء وهم السواد الأعظم في الأمم من مقومات الحياة ، ولا يتعرضون معه للفاقة والإعواز ، وأن لا تتضخم ثروة الأغنياء فتبتلع ثروة الأمة وتحتكرها لعدد محصور من الأفراد . ولكن أطباء الاجتماع قبل أن يعمدوا في علاج هذا المرض إلى البتر، عمدوا إلى الحد من تضخم الثروات بفرض الضرائب ، وهذا مجال يمكن التوسع فيه إلى حد بعيد يصل إلى أقصى ما تستدعيه الحال . وهو أفضل من الحل الأول ، لأنه يتماشى مع النظم الدستورية ، ولا يعتبر شذوذاً عن المألوف في الجماعات ، ولا يفضى إلى تحكيم عدد يعد على الأصابع من الرجال في أمة يبلغ عدد أفرادها عشرات الملايين .

يعطى الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) عن المجتمعات العربية صورة مزعجة قائمة ، وهو لم يبالغ فيما كتبه عنها ، ولكنه عزا ما هي فيه إلى النظام المالي الذي هي عليه ، وفاته أنها مصابة بضروب من الأمراض الاجتماعية والأدبية تحول دون تطورها في أدوار التقدم والارتقاء ، بحيث أنه لو طبق عليها أرقى نظام مالى لما غير من سوء حالتها التي هي عليها فيد أنملة ، بل ربما أسرع بها إلى الهاوية .

وإذا كان هذا النظام المالي أو كما يسميه بالرأسمالية الفردية ، وبالرجعية الاقتصادية ، هو علة كل بلاء يصيب الجماعات ، فما بال الدول الأوربية الكبرى لا تزال مبقية عليه ، ومحتفظة به ؟ نعم إن لدى كل منها حزبا يدعو إلى الاشتراكية ولكنه لا يبلغ عند واحدة منهن أكثر من خمس أعضاء مجالسها النيابية ، وهي قلة لا تؤثر في وجهة سياستها العامة ، فكيف يسمح كاتب لنفسه أن يزعم أن الأمم لا يستقيم لها حال إلا إذا أخذت بالاشتراكية . وبأى سلطان يستسيغ كاتب أن يكتب مثل العبارة الآتية فيقول :

« هذه الرجعية هي التي توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتمزقها وتحرقها ..

ويقول :

« هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟ وهل نرغب في تجنبها

ويلات الفتن والاضطرابات ؟ إذن فلنكافح (الجريمة) . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التي تيسر نشوء (الجريمة) . فالوقاية كما يقولون خير من العلاج . وإتنا حين نتبع سير الانتفاضات العنيفة التي وقعت في التاريخ لا نكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد وحكومة تأبى « الخ .

نقرأ هذه العبارات ونعجب ولا ندرى كيف تكتب ، ولمن تكتب ؟ فاما لدينا فالأمة إن طلبت من حكومتها شيئاً فلا تستطيع أية سلطة أن تأباه عليها ، لأنها أمة ذات نظام دستورى تستطيع أن توجد لنفسها كل ما ترجوه من النظم والتمايد .

وأوروبا على أرقى مما نحن عليه من النظام الدستورى ، وهى أعرق منا فيه ، فلا يوجد فيها حكومة واحدة تحدث نفسها أن تأبى على شعبها شيئاً يريد ، وكيف تتجارأ على شئ من ذلك ، أو تحدث نفسها به ، وهى وليدة إرادة الشعب ؟ فإن طلب الشعب إليها شيئاً فإما أن تنفذه وإما أن تستقيل ؛ فإن استقالت قامت غيرها مكانها ونفذت رغبة الشعب ، لأنه المسئول وحده عن شئونه كلها .

وقد خولت الشعوب حكوماتها بعض السلطات حين ترى أن الحالة تستدعى استفتاء الجماعة فى مبلغ ثقتها بنوابها الحاليين أمام ما هى بصدد من الشئون ، فحولتها الحق فى أن تطلب من الملك أو من رئيس الجمهورية أن يستقى الشعب فى الأمر الذى يثير الخلاف بين نوابها والحكومة ، فيحل المجلس ويدعو الشعب لانتخاب غيره . فإذا انتخب الشعب نوابه الجدد ، وأخذ رأيهم وجاء مؤيد لرغبة نوابه السابقين ، قامت الوزارة بتنفيذ ما يرغبون ، لا تجرؤ سلطة فى الأرض أن تردّها أو تعطل من سيرها .

هذا مؤدى النظام الدستورى الذى تقوم عليه جميع حكومات العالم المتمدن فهل يمكن لمن يلم به أن يفهم المراد من قول الأستاذ المؤلف : (أمة تريد وحكومة تأبى) ؟ فهذه الحكومة لا توجد فى عهدنا الذى نعيش فيه إلا لدى الشعوب التى لا تزال فى عهد السذاجة الاجتماعية ، ولسنا وليست أمم أوروبا قاطبة منهم .

فإذا بدا لأهل رأى من علماء الاجتماع أن تأخذ الأمة بمبدأ جديد ثبت نفعه ، فالطريقة الوحيدة للدعوة إليه أن يفضوا به إليها على صفحات الجرائد والمجلات ،

وأن يصدروا به كتباً ونشرات رجاء أن يذيع العلم به بين الناس ، فيصل من هذا الطريق إلى نواب الأمة ، فإذا اقتنع به عدد كاف منهم أسرعوا إلى جعله موضوع مناقشة برلمانية ، فيشتد التماس فيه ، وتتجلى جميع خوافيه . فإذا كان موضوعه ماليا تصدى له أعضاء مجلس الشيوخ وهم أقوى أنصار الرأسماليين ، فيشتدوا في نقده ، وإظهار جهات ضعفه ، ونواحي خطره ، وقد يعملون على رفضه . فإن اقتنع أعضاء مجلس النواب بأدلتهم وافقوهم على دفعه ، وإلا أصروا على تأييده ، وتأخذ الإجراءات النيابية طريقتها في تقرير مصيره .

هذا هو الطريق الدستوري في بث التعاليم والمذاهب في الجماعات الدستورية ، لا أن تطالب من الحكومة مباشرة .

وقد قصد واضعو الدساتير هذا النظام في بحث المطلوبات الجديدة لتمكين الأمة من دراستها دراسة عميقة ، بتقليها على كل وجه ، وإطلاق الحرية لكل مماليء لها أو معترض عليها رجاء أن يجدوا الوقت الكافي والحرية المطلقة للاحتفاء في دراستها ، ولإبداء آرائهم فيه غير متأثرين بشيء غير المصلحة العامة .

محمد فريد وجدي

إيمان

قال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت في بذل المال . فأجابهما : بأبي وأمي أتما إن الله قد عودني أن يتفضل عليّ وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني .

وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى : أنت متلاف ، فأجابه : منع الجود سوء الظن بالمعبود . يقول الله عز وجل وما أنفتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقا . وقال صلى الله عليه وسلم : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله أنفعمهم لعِيالِهِ

في سبيل الله والأزهر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد بوفوف موسى

أما بعد :

فتمد أردت نفسي جاهداً على أن تكون كلمة هذا العدد في باب من الأبواب التي أكتب فيها المتصلة بالفلسفة والفكر عامة ، فابت لباء شديداً ، وحتمت على أن تكون هذه الكلمة عن الأزهر خاصة ، ولا عجب ! فلئن كان الأزهر في كل أدوار تاريخه الطويل الحافل ملء الزمان ، فهو هذه الأيام ملء الزمان والاسماع ، حتى استرعى انتباه البلد كله ، وأفردت له الصحافة الكريمة مكاناً كبيراً ، فنحن لا نعيش هذه الأيام إلا له ولا نفكر إلا فيه .

يتساءل كثير من الناس ممن لم يتبطنوا الأمر ، ولم ينمقوها ما يراد بالأزهر ، عن السر في ثورة الأزهريين جميعاً ، طلاباً ومدرسين وأساتذة ، هذه الثورة الهادئة الجادة الحازمة ، وكيف أصبحوا يطلبون مطالب مادية كما يطلب الغير ، وقد عهدوهم زهاداً في الدنيا حين يتكالب غيرهم عليها ؟ ول هؤلاء المتسائلين على هذا النحو أتوجه بهذه الكلمة :

ما كان الأزهر في يوم ما طالب دنيا ، ولكنه صاحب رسالة يحرص على أدائها ، ويرجو أن يعان عليها ، بل ألا يحال بينه وبينها . وهذه الرسالة هي حفظ كتاب الله وحراسة شريعته ، وإذاعة التعاليم الإسلامية في مصر وغير مصر من أقطار الأمة الإسلامية ، والعمل على أن يكون هذا الكتاب الكريم ، وتلك الشريعة السمحاء هما الفيصل في البلاد الإسلامية في نواحي التشريع والأخلاق والتقاليد .

وهذه الرسالة ، على خطرها وجلالها وثقل ما تقتضيه من تبعات ، قام بها الأزهر فيما مضى من تاريخه الطويل ، وعرفت له الأمة الإسلامية عظم الدور الذي يقوم به ، فأحلت له المحل اللائق ، ورفعته مكاناً علياً . أما اليوم فقد وضح ، حتى لمن كان أعشى أو لمن لا يحب أن يتعمق الأمور ويرد النتائج إلى مقدماتها وأسبابها الأولى ، أن القائلين على شئون مصر في هذه السنوات لا يريدون أن يقوم الأزهر برسائله من حراسة الدين وأخذ الأمة به ، حتى يتم لهم ما عملوا له زمناً طويلاً من فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً ، ومن أن يكون مجتمعنا مجتمعاً لا يمت في مجموع مظاهره وتقاليده للشريعة بسبب قوى أو صلة متينة . ومن ثم راحوا يتحيفون حتموق الأزهر وأهله في عنت ، ويتحدونه وأبناءه في جبروت ، ويحاولون صرف الناس عنه بطرق وأساليب شتى ، ويجدون مما بين أيديهم من الحكم وأسبابه العون في كل ما يريدون ، بل ويجدون لهم أنصاراً ممن لا يريدون — فيما يزعمون — أن تتخلف مصر عن ركب الحضارة ، كأن الإسلام الذي أوجد أكبر حضارة عرفها الإنسان ، أصبح حجر عثرة في سبيلها هذه الأيام !

هذا ، وإننا نعتقد أن الحالة أو المحنة التي يمر بها الأزهر الآن ، وسيخرج منها بفضل الله ، وقد نفى عن نفسه الخبث ، وذاد عن عيبه النوم التثميل البغيض ، هي نتيجة لسياسة ، وضع أسسها المستعمر منذ قرابة قرن من الزمان ، ولا تحمل الحكومة الحاضرة وحدها تبعاتها .

إن الاستعمار على ضروب مختلفة لكل منها وسائله ، ولكن مهما يختلف المستعمرون في طريقتهم وأساليبهم ، فإنهم يتفقون على وجوب القضاء على قومية البلد المستعمر ، وهذه القومية تقوم على الدين واللغة والتقاليد . وهذه الغاية قد يسير إليها المستعمر في عجلة وعنفوان ، كما فعلت فرنسا في الجزائر ، أو في هون وتؤدة ، كما حاولت إنجلترا في مصر ونجحت فيه نجاحاً غير قليل .

لقد بدأ الأمر عندنا منذ طويل بالتهوين من شأن الدين واللغة ، أو تحيف حقوق التوائمين بهما ، وجعلهم لدى الأمة في منزلة أدنى من نظرائهم في الثقافة ، والعمل والخدمات العامة للأمة . ومن ثم ، كان خريجو دار العلوم دون خريجي

مدرسة المعلمين العليا منزلة وراتباً ، مع اشتراكهما في العمل في المدرسة الواحدة ؛ وكان التفضاء الشرعيون - ولا يزالون - دون القضاة الأهليين في المرتبة المادية والأدبية ، مع الاستواء في الحكم بين الناس ، وما لذلك من تبعات جسام ؛ وكان خريجو الأزهر في منزلة أدنى من هؤلاء جميعاً .

ثم انقضى الاستعمار بحمد الله ، ولكن بقي - لا أقول أذنباً وصنائع - من يخدمون بعض ما كان له من غايات ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، فاحتطبوا في جعله زمناً طويلاً ، حتى انتهى بنا الأمر إلى كثير مما كان يريد .

ها هو ذا أحد المسلمين ، وله مكانة ملحوظة في البلد ، يقول في كلمة نشرتها له أوائل عام ١٩٤٩ صحيفة إسلامية واسعة الانتشار : ولا يخفى أننا في مصر نجرى ، في حكمة واعتدال ، على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة .

وها هو ذا آخر درس القانون ، وصار من المحامين ، يقول في عريضة دعوى الأنسة المحامية أمينة مصطفى خليل التي دفعتها أمام محكمة القضاء الإداري تشكو وزير العدل إن لم يعينها وكالة نيابة أو محامية بقلم قضايا الحكومة بعد أن استشار في الأمر رجال الدين ، يقول كما جاء بمجلة أخبار اليوم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

« وقد أخطأت وزارة العدل السبيل حين توجهت إلى رجال الدين تستفتيهم في مسألة اجتماعية لا تتعلق بالدين — كما لو كانت مسألة ولاية المرأة القضاء أو شيئاً منه — أمر ألا يتعلق بالدين والشريعة الإسلامية — في كثير أو قليل . فكان حتماً عليها ، حتى لا تتخلف عن السير في ركب الحضارة ، أن تسائل نفسها : هل تقوم في مصر حكومة دينية ؟ وهل الحكومة القائمة تطبق المبادئ الشرعية حتماً وصدقاً ؟ أو هل يعيش المصريون في مجتمع شرعي تطبق فيه أحكام الدين الخفيف ؟ فإذا كانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالسلب ، حق على وزارة العدل أن تتورع عن الزج بالدين في الأمور الاجتماعية البحتة » ، إلى آخر ما قال ! ونحن نعتقد مع محامي المدعية أن الإجابة عن هذه الأسئلة كلها هي بالسلب ، وهذا ما يكشف لنا عما وصل إليه من النجاح أنصار إقصاء الدين عن الدولة والمجتمع نفسه . وهم مع هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، متجاهلين قوله تعالى في سورة المائدة : « أحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ! مع أن الحافظ بن كثير

وهو من أجل علما والإسلام ، يقول في أثناء تفسيره لهذه الآية : « فن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله » .

وأخيراً ، من باب التمثيل ، لا من باب الاستقصاء ، نرى الأزهر يذاد عن القوامة على الشريعة فيما يفرض على البلد من قوانين ترجع إلى كثير من المصادر ما عدا شريعة الله ورسوله ! كما لا يسمع له فيما يجري في مصر من منكرات ومظالم وآثام ، وفيما يشيع فيه من تماثيل تبعد عن أمر الله والخلق الطيب بعد المشرق عن المغرب ! .

أرأينا إذأ أن التهوين من الأزهر وأبنائه وعلماؤه ورجاله عامة ، وانتقاص حقوقهم جميعا في غير ورع أو حياء ، أمر يجري على سنن مرسوم وسياسة وضع المستعمر أسسها ووسائلها منذ زمن طويل ! وأنه من عدم فهم الأمر على حقيقته ، ومن تجاهل العلل الأولى لهذه المحنة التي نمرّ بها ، أن يقال إن الأزهريين يشورون طلباً للبادة كما يفعل الأغيار ! .

ألا إن الأمر أخطر من هذا كله كما رأينا ؛ ألا وإن من يؤمن بالله ودينه ، والرسول وشريعته ، والأزهر ورسالته ، طلاباً وأساتذة ورؤساء ، ليس له أن يتزحزح خطوة واحدة عن هذا الموقف الذي تتفهمه الآن جميعاً في سبيل الله والأزهر ، وإلا كان فاراً من الزحف ، وباء بسخط من الله ورسوله والمسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها .

إن الأمر أيها الناس ، لا يعدو إحدى اثنتين : إما ألا تكون مصر والعالم الإسلامي كله في غير حاجة للأزهر ، أو أن تكون في حاجة ماسة له . فإن كانت الأولى فليغلق الأزهر ، ولينفق ما يرصد له في الميزانية على غيره من مرافق البلد ، وليريحونا من هذه الحياة التي لا يرضاها حرٌّ أبى كريم .

وإن كانت الأخرى ، وهذا ما نعتنقه صحيحاً ، فعلى الدولة أن تعرف للأزهر وأبنائه منزلتهم ، وأن توفر لهم الحياة الكريمة كفاء ما يتممون به من رسالة وما عليهم من تبعات ، وعلى الأمة الإسلامية كلها أن تطالب الدولة بذلك كله في جدٍّ وإلحاح من يعرف أنه يطالب بحقه . وأقول : « على الأمة الإسلامية » ، لأن الأزهر وإن كان في مصر ، ليس لمصر وحدها ، واسكنه لأمة الإسلام جميعاً ،

والأمر في هذا ثابت واضح لا يحتاج إلى دليل أو توضيح . وليس لأحد من بيدهم الأمر أن يتعلل لمحدثيه بإمكان الميزانية العامة للدولة أو عدم إمكانها ؛ وإلا فكيف تتسع هذه الميزانية للإغراق على جميع الطوائف ، بل وللإغراق على فرق التمثيل والرقص نستقدمها من أوربة للترفيه عن الأغنياء المترفين !

هذا ، ونقول أخيراً ما قاله فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسين مخلوف عضو « جماعة كبار العلماء » ، لدى فضيلة أستاذنا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، إن المسألة ليست اليوم مسألة مطالب عادلة فحسب ، وإنما هي مع ذلك مسألة كرامة وعزة . ويجب أن يكون للأزهر قيمته ومنزلته التي عرفها التاريخ وعرفها العالم الإسلامي ، فيعترف له بحقوقه ، ويتمدّر أهله وما يؤدون للبلاد من خدمات التقدير اللائق وإننا ، ثقة بلفقات جلالة المليك التي شملت الأزهر في كل شئونه بمزيد من العطف والرعاية ، نرجو أن يكشف الله بها هذه الغمة ، ويزيل بها هذه المحنة .

ونقول أيضاً : أحبب بهذه محنة جعلت الأزهريين ، طلاباً ورؤساء ومرؤوسين ، جسماً واحداً ورجلاً واحداً في سبيل الله ودينه ، ورسوله وشريعته ، والأزهر ورسالته ، والله المستعان ؟

عتاب

دخل أبو دُلُف أحد قواد جيوش الدولة العباسية على أمير المؤمنين المأمون ، وقد كان عتب عليه ثم أقاله ، فقال له وقد خلا مجلسه : قل أبا دلف وما عسيت أن تتمول وقد رضى عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت ؟ فقال أبو دلف : يا أمير المؤمنين :

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسى ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها فى سالف الدهر تنظر

فقال المأمون : لك بها رجوعك إلى مناصحتك ، وإقبالك على طاعتك ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

شرك العقيدة وشرك العمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المرنى

لا أظن أنه بقي على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، ولكن هناك نوعاً من الشرك ما يزال باقياً ، وهو أشد خطورة من الناحية العلمية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار .

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان :

شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل .

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل ، التى كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتهما ولعناتهما ، فترعد فرائضهم منها خوفاً وفزعاً ، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان فى التخيُّط والعماية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً فى التاريخ يعتقد بها إلا ذوو الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائماً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وأذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن تصور رجلا يعيش فى مجتمع مفكر — ولا سيما فى عصرنا الحاضر —

وهو يؤمن في قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويراً رائعاً يمثل جميع معاني الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد في هذه الحياة .

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل ، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحى بالإيمان بالله إيماناً صحيحاً لا يخالجه شك ، ولا يفسده شرك ، فإن الإنسان مفكر ، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجد إلا بمؤثر ، ولا يجد شيئاً أمامه يمكن أن يسند إليه هذا التأثير ، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجداً بعد عدم مثله تماماً ، فيذعن في قرارة نفسه لهذه القوة الغيبية التي تأتي الرسل وتنزل الأديان فتسميها الإله الذى خلق الخلق ، وتفكيره يهديه أيضاً إلى قضية أخرى هي قضية الوحداية ، فيؤمن بها إيماناً عقلياً عن طريق النظر في أدلتها المعروفة ، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته ، وعن حكم عقله وتفكيره في هذا الشأن الذى يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجدته ، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل .

وأما كون هذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التياث العقل ، واعوجاج الفكر ، وباعث على سوء التصرف ، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيئ التصرف عيشة سعيدة صالحة بين قوم عقلاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون .

أما شرك العمل فهو إثارة ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فانه لا يكفي أن تؤمن النفس إيماناً سليماً داخلها بأن الله هو مالك النواصي والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل ، بل يظهر في الأعمال والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ، ولا حياة به ، إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات واقتراف الآثام .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن » ويقول في حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » ، قالوا من هو يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربط الإيمان الحق الذي يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وقد وصف القرآن الكريم المسائلين إلى الأهواء ، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنته أخلد إلى الأرض واتبع هواه » ، « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » ، « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » ، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهتدي من أضل الله » .

ووصفت السنة أيضاً هؤلاء بمثل ذلك فقد جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة « تعس عبد الدينار والدرهم ، تعس عبد الخميصة » .

فهؤلاء مشركون ، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن ، والمعتقد في الحجر ، لأن عابد الوثن يضر نفسه ، ويفسد حياته ، أما هؤلاء فانهم يثبون الفساد والوهن في صفوف المجتمع ، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة .

أقول هذا بمناسبة ما سرى في مجتمعنا المصرى من فساد وأخلاق سيئة ، عمت الصغير والكبير ، وأصبح أمرها من التسليم والقبول في المجتمع كأمر العقائد الثابتة ، ومن حاول التنفير عنها ، أو النصح بالتخلص منها ، عُد في قومه كالنافخ في الرماد ، أو الضارب في الحديد البارد ، ووجد من الناس من يلومه ، ويهجن فعله ، ويرميه بالتجاوز والاغترار .

وقد أصبحت مهمة العلماء ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان ، وإلا فمن ذا الذى يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه ، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله ، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية ، أو عن أخلاق الفجور التى منى بها الشباب ، وغض عنها الآباء والأمهات ، أو عن الفساد المتصل بالحاكمين فى الرشوة والمحسوبية ، والإهمال والتضييع ؟

إن الذى يريد أن يصلح شيئاً من ذلك ، أو يحاول خلع الناس منه ؛ يُنظر إليه نظرة تعجب ، ويتهم بأنه يعيش فى زمان غير زمانه ، ويفكر بعقل غير عقول أهله ، وهكذا انقلب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، واتبع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة ، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله ، فليس ينفعهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله رباً واحداً ، كما أنهم مؤمنون به خالقاً وموجداً .

إنى لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله ، وإلا فقل لى بربك أيها القارئ : ما الذى يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة ، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق ، حين همَّ بعض الفتيان فى حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المُجْتَلِسَات للرقص من أوربا ؟

أتغرينا المدنية والرقى الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد ، ثم متمسك بأخطائنا فى شأنهما تمسك المرء بعقيدته ، ونؤثرهما على الدين ؟ هذا هو الشرك بالله فى أخطر صوره ، فإياه فحاربوا أيها المؤمنون .

القرآن كما تتحدث عنه السنة :

العلم بأسباب نزول القرآن

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ فكري بسّ

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

من القرآن ما نزل ابتداء للأغراض العامة التي جاء من أجلها ، كإلهادية إلى الدين الحق ، والعقيدة الصحيحة ، والإرشاد إلى المعاملات المشروعة ، والأخلاق الفاضلة ، وما إلى ذلك من القواعد الأساسية الكبرى التي يقوم عليها النظام السكلى العام .

ومنه ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، كنزوله عقب حادثة معينة أو سؤال معلوم ، وذلك كآيات التي نزلت عقب الخلاف الذي وقع بين جماعة من الأوس والخزرج بدسيسة من اليهود ، حتى تنادوا : السلاح السلاح ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » إلى آيات أخرى بعدها ، وكآيات التي نزلت عقب السؤال عن ذى القرنين ، وعن الروح ، وعن الساعة .

وهذا النوع الثانى هو ما يعرف عند العلماء بسبب النزول ، وهو عبارة عن نزول الآية أو الآيات مبينة لحكم الحادثة التي وقعت ، أو لجواب السؤال الذى

رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا طريق لمعرفة ذلك النوع إلا النقل الصحيح ، كما جاء في الحديث الذي معنا ، فالقول في أسباب النزول لا يحل إلا من طريق الرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحشوا عنها ، ولا يصح التعويل على غير ذلك من الأحاديث المرسلة إلا إذا صحت واعتضدت بمرسل آخر ، وإلا إذا كان الراوى من المعروفين بالتبريز في التفسير ، ومن المشهود لهم بالتفوق فيه ، ومن الآخذين عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد غنى العلماء بهذا المبحث عناية فائقة ، وأفردوه بالتأليف والتصنيف ، لأنه خير طريق لفهم معاني القرآن ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وإزالة الإشكالات عنه ، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة التي لها أهمية في تفسير القرآن ، والتي تعين على فهم المقصود من آياته .

وقد تناول الأصوليون كثيرا من مباحث هذا النوع ومسائله وجزئياته بالدرس والتحليل ، والشرح والتفصيل ، وأشبعوه قولاً وبحثاً ، وأطالوا في ذلك إطالة ليس وراءها زيادة لمستزيد .

ومن أدق ما استدلل به الأصوليون على ضرورة معرفة أسباب نزول القرآن ، ولزومها لمن أراد فهم القرآن أمران :

الأول : إن الذي يعرف به إعجاز القرآن ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس المخاطب أو المخاطب ، أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، فهو لفظ واحد ، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغيرها ، وكالامر ، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهاها ، ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمادهما مقتضيات الأحوال ، وليس كل حال ينقل ، ولا كل قرينة تقتن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شيء منه ، ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا النمط .

الأمر الثاني : إن الجهل بأسباب النزول موقع في الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وجود النزاع ،

ويوضح ذلك ما روى أن عمر سأل ابن عباس : كيف تختلف هذه الأمة ، ونبينا واحد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه ، وعلينا فيم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا وروى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا : كيف كان رأى ابن عمر في الحرورية ؟ فقال : يراهم شرار خلق الله ، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار ، فجعلوها على المؤمنين .

وقد وقع من الحوادث بين الصحابة أنفسهم ما يدل على أن عدم معرفة بعضهم لأسباب النزول ، كان له أثر كبير عند بعضهم في فهم الآيات على غير حقيقتها ، وتفسير القرآن على غير وجهه .

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » ، فقال لئن كان كل امرئ فرح بما أتى ، وأحب أن يحمدا بما لم يفعل معذبا ، لنعذبن أجمعون ، وظل على فهمه هذا حتى بين له ابن عباس سبب نزول هذه الآية ، وأنها نزلت في جماعة من أهل الكتاب سألو النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا إليه بذلك ، فلما بين ذلك ابن عباس لمروان ، زال عنه الإشكال ، وفهم المراد من الآية فهما صحيحا .

وروى أن عمر بن الخطاب استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر ، وأخبره أن الجارود شرب فسكر ، فطلب عمر البيئة فأقيمت ، فقال عمر لقدامة : إني جالدك ، فقال : والله ، لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني ، فقال عمر : ولم ؟ فقال قدامة : لأن الله يقول : « ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » ، فأنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ ، وأحدأ ، والخنديق ، والمشاهد : فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس :

إن هذه الآيات أنزلن عذراً للماضين ، وحجة على الباقين ، فعذر الماضين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، الآيتين ، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر . قال عمر : صدقت ، ونزل قدامة على رأى القوم عند ما تبين له سبب نزول الآية ، وعرف حقيقة المراد منها .

وجاء رجل إلى ابن مسعود ، وقال له : تركت رجلاً في المسجد ، يفسر القرآن برأيه ، إذ يفسر قوله تعالى : « فارتب يوم تأتى السماء بدخان مبين » ، بأن الناس يوم القيامة يأتهم دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : من علم علماً ، فليقل به ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية ، ويبين أصل معناها ، فقال : إنما كان ذلك ، لأن قريشاً ، استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

وفى القرآن كثير من هذا النوع ، فليتبعه من أراد ، وفى هذا القدر كفاية .

تحاسد الأقارب

قالت العرب : أزهد الناس فى عالم أهله .

ووقف أمية بن أبى الأشكر على ابن عم له فقال :

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من لوى بن غالب

فإنك قد جربتني فوجدتني أعينك فى الجلى وأكفيك جانبي

وإن دب من قوم إليك عداوة عقاربهم دبت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت ، فما بال مبرك لا يزال إلى دسيسا ؟ قال لا أعود . قال

قد رضيت وعفا الله عما سلف .

وقال يحيى بن سعيد : من أراد أن يبين عمله ويظهر علمه فليجلس فى غير مجلس رهطه .

كيف ندرس الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

بهذا العنوان ، نشرت مجلة الأزهر « عدد شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ » ، مقالا لأحد طلاب كلية اللغة العربية ؛ قدمت له بقولها : « هذا رأى فى دراسة الأدب للكاتب » . وأعقبته بقولها : « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل ، لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها » ولما كنت أتشرف بأنى من أقدم مدرسى الأدب فى الكلية التى منها حضرة الكاتب الفاضل ، فإنه يحتم على الكلام ، واجب العمل الذى آكل به خبزي ، وواجب الطالب ، الذى يعد شره فى مثالنا ، وخيره فى مناقبنا .



أما بعد ، فأيها الطالب الكريم ، الذى لم أتشرف بمعرفته بعد ؛ والذى أرجو له مستقبلا يضاهى طامحه ، ويواثم ثقته بنفسه واعتداده برأيه ؛ وأخيراً ، يشبع غروره ، إشباعاً يرده إلى تواضع العالم ، واتزان الناقد ، وهدوء الأديب ، إن شاء الله تعالى — إن أول شرط فى « هجائية » النقد الأدبى الذى حُبِّرت فيه مقالك ، سلامة الأسلوب وقوته ؛ ولا أكتمك أنه قد جرح شعورى « المعهدى » ما يشيع فى أسلوبك من تخاذل وتفكك واضطراب ، كان ينبغى أن تعنى بإصلاحه قبل أن تسمو إلى النقد الأدبى وتغرق نفسك فى آزيه المتلاطم ؛ والناس يقولون : « الأساس ، فالبناء » .

فالناقد الأديب - يا بنى - لا يقول : مُساغا ، كما قلت ، وإنما يتهدى بالأسلوب القرآنى : وما يستوى البحرين ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ؛ وإنما يقولها تاجر « التجزئة » .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت تطلق إطلاقاً فيها الخ ، وإنما يقول : إطلاقاً إصطلاحياً أو عرفياً وكذلك لا يصف الجنائية بالفنية كما وصفها ، إلا أن يكون ذلك تجديداً في « الجنائيات » ! .

والناقد الأديب ، لا يقول كما قلت : والسموّ بالعواطف النبيلة ، فالعواطف النبيلة ليست في حاجة إلى ما يسمو بها .

والناقد الأديب ، لا يحيل « يفسد » كما أحلت ، إذ تقول : « ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط ، فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ، لأن جماله في تماسكه وتجانسه وفي جوهره ، أما أعراضه فليست حائلاً يمنع من تكلمة الصورة واستقلالها » ؛ فهذا كلام يبصق بعضه في وجه بعض ؛ واغفر لي هذا التعبير فإنه كلام ...

إلى غير ذلك مما يخرجنا استقصاؤه إلى الإملال ؛ وبما هو من عمل معلم الإنشاء ، لا من عمل مدرس الأدب .

* * *

ثم أما بعد ، فإن الأدب الذي يدرس في جميع المؤسسات الثقافية ، على اختلاف نظمها وطبقاتها ، نوعان :

١ — أدب وصفي ويسمى : النقد الأدبي ، كما يسمى : علم الأدب ؛ وموضوعه ، معرفة ما في النصوص الأدبية نثراً ونظماً ، من نواحي الجمال والقبح الفنيين . وفائدته ، فهم الأسرار البلاغية للقرآن الكريم للوصول إلى أصل من أصول الإعجاز ، لا ما قلت من أن : « القصد من هذه الدراسة ، تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبي ، والسموّ بالعواطف النبيلة ، بعد فهم هذه النصوص ، ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيها » ، فكل أولئك فوائد دنيا ، بالنسبة إلى الغاية العليا من النقد الأدبي ، يابني .

والأدب الوصفي هذا ، هو الذى استأثر بعناية العلماء والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستبد بأفاق الدراسة الأدبية فى جميع العصور والمناهج ، مباشراً ، كما فى الوساطة والموازنة والعمدة ، وغيرها ، وغير مباشر كما فى كتب البلاغة . وما زال يدرس فى المعاهد العالية والعليا تحت عنوان النقد والنصوص ، وفى المدارس الثانوية تحت اسم : المحفوظات مرة ، والنصوص الأدبية مرة أخرى . وذلك أمر متعلم مشهور ؛ وليس كما قلت : « ان الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء فى دور التعليم » . ولا داعى أبداً أبداً ، لهذه العواطف التى يطفح بها قولك : « ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حسرات عندما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وإن كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى ألساً على مصير هذا الفن الرفيع ، حينما يتخيل الظلام الخيم « كذا كذا » على هذا الركن من التراث العربى » . وسليمت نفسك للأدب — يا بنى — وصحتك بالدنيا !

* * *

٢ - تاريخ أدب : وموضوعه معرفة الأطوار التى تقلب فيها الأدب ، وخصائص كل طور ، منذ ظهور الأدب الفنى « الأدب الإنشائى الذى هو قسيم الأدب الوصفى » إلى اليوم . والتاريخ مقدمة له ووسيلة إليه لا شطر من موضوعه . ولقد ظلت الدراسات الأدبية منذ ظهورها ، مقصورة على النوع الأول « الأدب الوصفى » ، حتى سنة ١٨٩٢ ، حينما عاد المغفوء له المرحوم حسن توفيق العبدل ، من بعثة إلى ألمانيا ، يحمل - فيما يحمل - مبادئ علم « تاريخ الأدب » ، وأخذ يدرسه فى مدرسة « المعلمين العليا » وجعل ذلك العلم ، يدرج فى مدارج الاكتمال والنضج ، وتشيع دراسته فى المعاهد الشرقية ، حتى وصل إلى التأصل والمقام الكريم الذى يتبوؤه اليوم من دراسة علم الأدب .

وقد تجلى تجلياً يقطع كل جدال ، أثر تاريخ الأدب ، فى فهم النصوص الأدبية ، متنورها ومنظومها ، فهما يحلّ جمالها الفنى مسفراً وضاحاً ؛ فى أكمل مظهر ، وأجمل رواء ، لا يكاد يخفى ، إلا على أكمة لا يعرف القمر !
يقول الدكتور طه حسين فى « الأدب الجاهلى » :

« فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبي نواس : دع عنك لومى فإن اللوم لغراء... دون أن تعرف النّظام خاصة ، والمعتزلة عامة ، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبي نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء
إذا لم تعرف أنه يريد النّظام ؟ فإذا عرفت أنه يريد النّظام ، فأنت في حاجة إلى أن تعرف : من النّظام ، ولم عرض به أبو نواس ؟ فسترى أن النّظام كان من المعتزلة الذين يقولون إن صاحب الكبيرة مخلد في النار ؛ وإذ كان شرب الخمر كبيرة فصاحبها مخلد في النار ؛ وإذن فأنت في فلسفة النّظام ، وأنت متعمق في فلسفة المعتزلة ، وأنت مضطر إلى ذلك اضطراراً ، مضطر إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه ، لتفهم خمرية من خمريات أبي نواس . اهـ .
وهل كان التمدد والعلماء ، منذ قال ابن هانيء الأندلسي في أواسط القرن الرابع يمدح المعز الفاطمي :

ما شئت ، لا ما شاءت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار
يرون في ذلك غير أنه غلو غير مقبول ؟

ولسكنك إذا عرفت ، أن المعز من الشيعة الإسماعيليين ، وأن من عقائد هذه الفرقة : أن الإمام قائم مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، لجميع صفات الباري واقعة عليه ؛ وأن الباري تعالى عندهم ، منزّه عن جميع التعوت والصفات ، كالقادر والصانع ، ولا يطلقون عليه شيئاً منها ؛ فإن إطلاقها عليه يوجب السكثرة في ذاته تعالى ؛ فالصانع مثلاً ، يمتضى صنعة ومضوعاً ، وهكذا حال جميع الصفات ، تجد الواحد منها ثلاثاً .

أقول إذا عرفت ذلك ، عرفت أن إطلاق «الواحد القهار» على المعز لدين الله ، موافق لأصول عقائدهم . وليس في ذلك الاطلاق شيء من الإسراف ولا من الغلو ؛ وأن رأى النقاد غلظة مزمنة ، لم يصححها إلا تاريخ الأدب .

على أن من المقررات المتعلّمة المشهورة . أن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ؛ فكيف يفهم هذا الظل على وجهه ، مقطوعاً عن دراسة هذه الحياة ؟!

وكان تاريخ الأدب لأول عهده بالظهور ، يدرس رأسياً : الخطابة في جميع

العصور؛ ثم الكتابة في جميع العصور؛ ثم الشعر بأغراضه المختلفة في جميع العصور؛ وعلى هذا الوجه، ألف المغفور له محمد أفندي دياب، كتابه «تاريخ الأدب» الذي كان يدرس في المعاهد العليا في عهد «نظارة المعارف» ويعتبر الكتاب الرسمي؛ ثم جاء المتأخرون من أدباء العصر الحاضر؛ فدرسوه وألفوا فيه أفقياً؛ ولسكل وجهة؛ والخطب في ذلك — في مذهبي أنا — أيسر من أن يخرق خرقاً في الأدب، أو يشرح شرحاً في صرحه، أو يهدم طوبة من بنائه. وحاجة كلنا الدراستين إلى معرفة أطوار الأدب، وخصائص كل طور، لا تتغير، وليس فيها — كما قلت: «خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية» لأنه منهج طبقته جميع الأمم الحية، ذوات اللغات الحية، وعملت به، وعنهما نقتلناه!

وأما بعد للمرة الثالثة، فأني أشكر لمجلة الأزهر، تلطفها في معاملتك، وسخاءها في مجاملتك، واحترامها لرأيك، «لما رأيت فيه من وجوه تقدر قدرها كما قالت». وعرضها له لتشتجر حوله الأفلام، ثم وقوفها بأزاء ذلك على الحياد. ثم أشكر لك أن أتحت لي فرصة مكنتني من أن أضع الأمور في نصابها، وأن أقدم لك ولأمثالك من أبنائنا الأعزة، وضخا من النور، أرجو أن يصرفكم عن ضلال القصد إلى سواء السبيل.

بيد أني أعتب عليك — يا ولدي الأستاذ أحمد محمد صقر — عتياً رقيقاً أبوياً، لأنك تحطيت أساتذتك مدرسي الأدب في كليتك الكريمة؛ وإنما شفاؤك من البلبلة الفكرية التي جناها عليك ضعف دراساتك الأدبية، على طريقتهم؛ لا على طريق مجلة الأزهر، التي يشرف كل أزهري ألا ينشر فيها إلا كل نافع مشرف، وإن كان يخفف من خطئك هذا شدة الرغبة، في الشهرة وأن لك نظراء بين كتابها؛ فسكثير من مقالاتها يحسن أن يتوجه به إلى مجلات «الوعظ والإشاد» لا إلى مجلة علمية بحثية ينبغي أن تقتصد على البحوث المركزة، في المشكلات العويصة وليس ذلك عيب المجلة، ولسكتة فضيحة للناشرين.

وفتح الله عليك — يا ولدي — وسامحك، إكراماً لطموحك وغرورك؛ فلقد أصبحت لا أحسد إلا المغرورين! والسلا عليكم ورحمة الله وبركاته. «أبوك وصديقك»

عَهْدُ الْمَدِينَةِ

لحضرة صاحب السيادة « السيد »

حَيِّ أَهْلًا بِالْهَدَى أَوْ حَيِّنِي
مَنْ لَعْدٍ يَتَلَطَّى فِطْنَةً
تَقْفُونَا ثُمَّ قَالُوا ضَلَّةً
غَنَ بِالْجَهْلِ إِنَّ الْجَهْلَ أَزْدَهَى
سُنَّةُ الْعِلْمِ طِمَاحٌ وَهُوَى

ذُمَّتِ الْآدَابُ إِنْ لَمْ تَقْفَيْنِ
وَدَّ لِلرَّيَّةِ إِنْ لَمْ يَفْطِنِ
أَنْتُمْ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ!!!
فَابْتَنَى لِلْعِلْمِ مَا لَمْ يَبْنِ!!!
فَتَكُ تَجْنِي وَكَفُ تَجْنِي

عَصْرُ يَا عَصْرُ الْجَحَالِ مَرَّ حَبًّا
خَلَنِي بِالْعِلْمِ رَفَافَ الْخَلِي
مُجَنَّةُ الْعِلْمِ دَوَاهِي مُلْحَدٍ
رَأَيْدُ الْعِلْمِ نَكْتَالُ الْمَهِي
نَحْنُ لِلْفِتْنَةِ نَهْبٌ شَدَّ مَا
الْوَغَى وَالْحَسَنُ فَتَانُ الْهُوَى
الْحَيَاةُ الطَّعْنُ حَتَّى حُسْنُهَا

بِالْعُلُومِ الْغَيْدُ إِنْ لَمْ تَحْسِنِ
يَقْتَنِي عَلَيْهِ أَوْ خَلَنِي
ثَمَرُ الْكَيْدِ وَنَجْوَى مَوْمِنٍ
يَشْتَكِي نَقْدُ الْمَنَى فِي الثَّمَنِ
قَسَمَتْنَا فِي الْوَغَى وَالْأَعْيُنِ
أَوْ قَدْ أَمْذَنَّا مِنْ مَعْدِنِ
طَاعِنٌ مِنْ كُلِّ قَدٍّ يَنْتَنِي

قِيلَ : حَرْبٌ وَجَلَادٌ وَالْهَدَى
إِنْ فِي رَأْسِ التَّحْدِي فَتَكُ
صَاحَ فِي الْأَفْلَاكِ مَلَقَى ذَرَّةً
قَاتِلِي فِي حَرْبِهِ أَوْ حُسْنِهِ

لَيْسَ يَحْيَى وَالْهُوَى فِي مَوْطِنِ
سَوْفَ تَوْهَى السُّكُونُ إِنْ لَمْ تَطْحَنِ
يَا عُجَلَاتِ التَّقَى لَا تَأْمَنِي
لَسْتُ بِالرَّحْمَنِ إِنْ لَمْ تَحْيِيْنِي

رُوِّعَتْ حُرِيَّةُ السَّرْبِ وَمَا
سَلَّ بِحُكْمِ طَيْفٍ تَشْهَدُ سَيِّدًا
قَاتِلُ الشُّورَى دَهْتَهُ وَثَنَسَا
بُورِكُ الدُّسْتُورِ فِي أَنْصَارِهِ

قِيَمَةُ الْأَصْلَاحِ إِنْ لَمْ يَأْمَنِ
يَقْتَنِي الْقَانُونُ فَمَا يَقْتَنِي
يُتَقَى أَوْ سَاجِدًا لِلْوَشَنِ
جُنَّةُ الْحَسَنِ وَجُنْدُ الْحَسَنِ

لغويات

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد علي النجار

كتبت إليك لا لألومك . حضرت إليك لا لألومك بل لأشكرك . ما قرأت لا فقها ولا نحواً . هذه أساليب تجرى على السنة الناس ، وفي كتاباتهم ، وقد عنى أن أبحث أمرها من وجهة النحو والعربية .

١ — فالأسلوب الأول — كتبت إليك لا لألومك — يميزه النحاة ويسوغونه ، ولا يضيقون بتخريجه ، ويجعلون هذا من حذف المعطوف عليه ، والتقدير في هذا المثال : كتبت إليك لأشكرك لا لألومك ، فلا عاطفة كما ترى والمعطوف عليه المحذوف هو المقابل للمذكور المضاد له ، ومن ثم جاءت لا غير مكررة .

وأقدم من عرض لهذا الأسلوب وتخريجه من النحاة — فيما علمت — الإمام أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ ، فقد قال في الارتشاف في مبحث العطف بلا : « وقد يجوز حذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم ، أى لتعدل لا لتظلم » ، وتبعه في هذا تلميذه الحسن بن قاسم المرادى المعروف بابن أم قاسم شرحه للألفية فقال في مبحث العطف : « قد يحذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل » ، وقد جرى على سنن المرادى — وكانت وفاته سنة ٧٤٩ — أبو الحسن الأشموني في شرحه للألفية ، وقد أثر عن الأشموني أنه يتقيل المرادى في شرحه ، حتى إن تلميذاته ونظامها أخذها عن المرادى ، وتنقل الرواية عنه أنه قال : لولا المرادى ما بلغت مرادى . أقول إن الأشموني ذكر هذا الحكم الذى أورده المرادى ومن عرض له بعد أبى حيان السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فقال في السهم^(١) : « وقد يحذف متبوعها ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل لا لتظلم » .

[١] الورقة ٣٠٨ ب من مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٦ نحو . [٢] من ١٣٧ ج ٢ .

ولا أعلم سند أبي حيان في هذا الحكم . فهل له فية إمام متبوع نقله عنه ؟ وقد كان أبو حيان واسع الاطلاع جداً ، اجتمع لديه من آراء النحاة ما لم يجتمع لغيره أم وقف في هذا على شاهد اتخذه حجة وسلطاناً ! وأيا ما كان الأمر فأبو حيان ثقة في النحو وإمام ، وهو فيه الفجل لا يقرع أنفه ، وبحسبنا هذا في تصحيح الأسلوب الأول .

٢ - والأسلوب الثاني - كتبت إليك لا لالومك بل لأشكر - أشهر وأفشى في الاستعمال من الأول ، وتراه كثيراً في عبارات المؤلفين ، حتى من يتحرى منهم الصحة ، ومن يأخذ من الفصاحة بسبب وثيق . فهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ - وهو من هو بلاغة وفصاحة دياجة - يقول في أسرار^(١) البلاغة : « وإذ قد عرفت هذا فالحمل في الآية من هذا التبيل أيضاً ؛ لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين : أحدهما تعديده إلى الأسفار ... » فقوله لا لأمر ... يتعلق بقوله ، « يتضمن الشبه من اليهود » وترى أنه من الأسلوب الذي نتحدث عنه .

والتأريء يرى أن هذا الأسلوب يزيد على الأسلوب الأول الذي قررت صحته الإضراب (بل لأشكر) وقد يؤتى بدله بالاستدراك فيقال : ولكن لأشكر فهل هذه الزيادة تضر به ، وتقلبه مردوداً . منكرأ ؟

وإذا تأمل المرء بعض تأمل رأى أن ما في حيز الإضراب أو الاستدراك كان هو المعطوف عليه في الأسلوب الأول ، وهنا يدرك لأول وهلة ما في هذا الأسلوب من حرج وعسر في التخريج .

فكيف تقدر المعطوف عليه في هذا الأسلوب وقد ذكرته في عجزه ! كان تقدير الكلام والنية به : جئتك لأشكر لا لالومك ، فهل تقول : جئتك لأشكر لا لالومك بل لأشكر ولكن لأشكر ، وهل هذا إلا هراء من القول ولغو أشبه بهزيان المحموم .

إن الذي يبدو بعد هذا نبذ الأسلوب وأطراحه وهجره هجراً طويلاً .

على أن الباحث قد يبدو له في تخريجه ما يجعل له نصيباً من الصحة وقسطاً من القبول .

فقد تستطيع أن تقدر المعطوف عليه أمراً عاماً غير مافي حيز الاضراب أو الاستدراك . فتقول مثلاً في قولك : كتبت إليك لآلؤمك بل لأشكرك : كتبت إليك لأمر تحمده لآلؤمك بل لأشكرك . وقوله : بل لأشكرك إبانة عن هذا الأمر المحمود وإيضاح له .

وتستطيع أن تقدر المتبوع هو « لأشكرك » الذي هو في حيز الإضراب ، على نسق ما قدر في الأسلوب الأول . وهذا المتبوع إنما ينوي في النفس ولا ينطق به ، حتى لا يكون في النظم ضعف وتهافت . ورب شيء يقدر ولا يخرج في اللفظ ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » فكتاب معمول لمحدوف ، وتقدير الكلام : كتب الله . فهذا تقدير العامل ، ولو قلت : كتب الله كتاب الله لوقعت في تخفيف من الكلام ومهلل من النسج ، وإنما هذا تقدير توجهه الصناعة النحوية ولا يتكلم به .

وبما أسلفت من تخريج هذا الأسلوب — على ما فيه من الإبعاد والتكلف — ترى أن لا بأس بهذا الأسلوب ، مع الوصية بأن يتجنب ويهجر .

وترانى التزمت في هذين التخريجين أن تكون لا عاطفة . وذلك أنها لو لم تكن عاطفة لوجب تكرارها . ولا يجوز مخالفة ذلك إلا في ضرورة الشعر كما في قول الشاعر :

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ولكن بأنواع الخدائع والمكر
وثم مانع آخر ، وهو أن لاغير العاطفة وغير العاملة لا تدخل إلا على نعت أو خبر أو حال أو معرفة . وسيأتى مزيد بحث لهذا في الحديث عن الأسلوب الثالث .
٣ — والأسلوب الثالث — ما قرأت فقها ولا نحواً . ومثله : فلان لا ينفع لا في حقير ولا في جليل — أسلوب غير مرضى ولا مستساغ . وإنما الفصحح أن يقال : ما قرأت فقها ولا نحواً ، وفلان لا ينفع في حقير ولا في جليل . وذلك أن لا هذه إنما هي لتأكيد النفي ، ولا حاجة للتأكيد لقرب العهد بما النافية . وإنما تدخل لا هذه المؤكدة للنفي على المعطوف إذ كان في حكم جملة ثانية ، على أن لا تزداد

في العطف لمعنى زائد على التوكيد، وهو النص على أن النفي تناول كلا من المتعاطفين ولم ينصب على اجتماعهما، فإذا قلت: ما أكلت لحما وسمكا جاز أن يكون قصدك إلى أنك لم تجمع بين هذين وإن أكلت أحدهما، فأما إذا قلت: ما أكلت لحما ولا سمكا فقد نفيت أن تكون عرضت بالأكل لواحد منهما.

ولا هذه لا يصلح أن تكون عاطفة؛ فإن لا العاطفة لا تدخل في النفي، وتدخل في مواطن أخرى ذكرها ابن مالك في قوله:

... .. ولا نداء أو أمرا أو إثباتا تلا

وإذا ثبت لديك ووقر في صدرك ما ذكرته، فإن لا هذه هي التي يجب تكرارها.

وينص النحويون على أنها تدخل في غير التعريف على ثلاثة: الخبر والنعته والحال. ويقول ابن مالك في الكافية:

ولازم في سعة تكرير لا إذا بذى التعريف محضا وصلا
كذا إذا يتلوه نعت أو خبر أو حال إلا في اضطرار من شعَر

وقال في شرحها^(١): «ومثال لزوم التكرار لكون المتصل بلا خبراً ونعتاً وحالا: لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، ويوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، وجاء زيد لا خائفاً ولا أسفاً».

وترى أنه حصر ما تدخل عليه، لا غير العاطفة وغير العاملة في الخبر والنعته والحال والمعرفة. وقد يرد على هذا الحصر ما أنشده أبو زيد في نوادره^(٢) من قول الراجز: فقام لأوان ولا رث القُوى.

وقد يدفع هذا بأن مافي الرجز على تقدير حذف الموصوف، أي فقام رجل لأوان ولا رث القوى، فهو مما دخل فيه لا على النعت.

وروى الجهشيارى في كتاب^(٣) الوزراء لابن المقفع:

إذا ما مات مثل مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

فكيف نقدر الموصوف هنا ؟ هل يقال : ليس يدرى الإنسان ؟ إن المتبادر في مثل هذا أن يقال : لا يدرى أحد ، وحينئذ لا يكون « الصغير والكبير » ، وصفين له لاختلافهما بالتعريف والتنكير . والأقرب أن يحمل هذا على الخطأ ، وابن المقفع قد يقع في الخطأ ، وليس هو ممن يحتج به .

وأعود إلى ما كنت بصده . وهو : ما قرأت لا فتمها ولا نحواً ، فتمد رأيت أن لا التي يحبب تكريرها ، دخلت على ما لم يذكر النجاة دخولها عليه ، فليس منها المفعول والظرف . فالوجه الحكم فيه بالخطأ وإنكاره .

وقد وقع في هذا الأسلوب ابن الرومي إذ يقول ^(١) في معلم صبيان مغن :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان

فتراه أدخل لا غير العاطفة وغير العاملة على غير الأنواع الأربعة . وعندى أن ابن الرومي أخطأ في هذا ، وهو متأخر عن عصر الاحتجاج الذي ينتهى بشار كما قيل . وإنى في هذا أخالف الأستاذ العقاد في الحكم على ابن الرومي فهو يجعله بمفازة من الخطأ ، ويقول ^(٢) : « أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما في القرآن ، . ويقول : « فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوى ؛ وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى ، مع إطالته وكثارة وجرأته على تذليل النحو لمن أرادته . ولا يعجبني في هذا المقام استدلال الأستاذ العقاد على سلامة ابن الرومي من اللحن بأنه جرى على منع « أشياء » الصرف كما وردت في الكتاب الكريم ، ولم يتبع في ذلك التماسيين من النحاة الذين يرون أن وزنها أفعال فهي مصروفة عندهم . وذلك أن أشياء لا يقول نحوى - فيما علمت - بصرفها ، وليسوا كلهم على أن وزنها أفعال : فجمهور البصريين أوزنها لفعاء . فجرى فيها القلب ، ومن يقول : إن وزنها أفعال يقول إنها منعت الصرف على توهم أن أشياء كحمراء في الوزن ، والوهم يعمل كثيراً في اللسان كما قيل : تمندل وتمدرع ، وكما جمع مسيل على أمسلة على توهم إصالة الميم .

[١] أنظر كتاب « ابن الرومي » للأستاذ العقاد ص ١٣٠ .

[٢] أنظر كتابه عن ابن الرومي ص ٣٢٢ وما بعدها .

أسباب العزة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ بالأزهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

في تعاليم هذا الكتاب العزيز ، وفي قوة بيانه ، وبالغ حجته ، وسلامة منطقته ، تبين آيات من الهدى ، وتفتح جنبات من الخير ، وتُدَوَّى هوائفُ بالحق ، معلنةً إشراقه ، مُجَلِّسَةً آفاقه ، ناطمةً بالحكمة وفصل الخطاب .

ينادى هذا القرآن العزيز طلاب العزة ، فيبصرهم بأسبابها ، ويسايرهم في نواحيها ، ويضع على منافذ عقولهم وقلوبهم مناوور الهدى والرشاد .

من كان يريد العزة في الدنيا ، ومن كان يريد العزة في الآخرة ، ومن كان يريد العزة في الدنيا والآخرة جميعا ، فليطلبها عند الله ، فهو — وحده — صاحبها ، ومالكها ، وواهبها :

فأما عزة الدنيا ، من نباهة ذكر ، ووجاهة شأن ، ورجاحة رأى ، واجتماع الكلمة على حبه وحمده ، فنشأ كل ذلك ومرده ، جمال الصلة بالله ، وجلال الطاعة في تقواه .

فالعبادات كلها ، سرها وجهرها ، بدنية ، أو مالية ، أو بدنية ومالية ، أسباب تتوكد وتوثق ، لتمسك للعابد ، وتمسك للطبيع ، في عزة يتسع أفقها ، وتسمو غايتها .

فقيم الصلاة عزيز : لأنه يطرح وراء ظهره عوامل الافتتان ومظاهر الاغراء ويستقبل بوجهه روحانية عالية ، يوجه إليها شعوره ووجدانه ، فما يكاد ينطق

لسانه : الله أكبر ، حتى يدخل في هذه الخطيرة القدسية إلى كنف هذا العلي الكبير ، ويحتمى في جلال هذا القوي العزيز ، وينعم بالتقرب من هذه العزة الغالبة التي تغشاة وتتولاه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى صلاته فإنما يناجى ربه فليُنظر بـم يناجيه » ؟ ويقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، فما يكاد العبد يفرغ من صلاته حتى يكسب عزة من عزة الله ، وحتى يبلغ جلالة من جلال الله . أما المنفق في سبيل الله — زكاة أو صدقة — فإنه لسذلك عزيز ، لأنه يقوم عن الله خليفة في طعمة المحروم ، ووصلة المقتطوع ، وغوثة الملهوف ، والله عز شأنه يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وعزيز لأنه يقرض الله قرضاً حسناً . فهو يتعامل مع ربه ، ومعاملة العزيز عزة . وعزيز لأن يده العليا قد أعزها الله بالغنى ، ولأن إجماع الناس على حبه وحمده والدعاء له اعزاز له من أجل فضل الله الذي واثم به ، فهو عزيز في نفسه ، وعزيز في قومه ، وعزيز عند ربه .

يد المعروف غم حيث كانت تحملها ، كفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

والصائم عزيز في ترفعه عن الاستجابة لحاجة نفسه من طعام وشراب ، وعن الخضوع لما آثم الهوى ومآرب الشهوات ، فهو قد كف نفسه عن كل ما يفسد صومه ، وهو قد تسامى إلى مصاف الملائكة الذين لا يطعمون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

كذلك من يحج بيت الله ، ويغد ضيفاً على رسول الله ، ويبر حجه وزيارته بإخلاص التلبية ، وطهرة التزكية ، فيطوف بالبيت منياً تائباً ، ويشهد المناسك في غير تأثم ولا عصيان . . فهو العزيز بضيافة الله وتكريم الله ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأما عزة الآخرة فهو ما ينتظر هؤلاء الاعزة الأكرمين ، يوم يقوم الأشهاد :
فإن إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ،

سمو ونغار يديه به عملهم وأملهم : هاؤم اقرأوا كتابية ، إني ظننت أنى ملاق حسابية ، سبق إلى متعة النعيم الخالد فى دار أعدھا الله لهم ، وتلقاھم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون . ثم تحييهم أطيب تحية بالأمان والسلام ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ثم ماذا لهؤلاء الأعزة الأكرمين ؟ ثم نداء الله لهم يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أضط عليكم بعده أبداً . . . يا لله ؟ أى عزة أسمى ، وأى كرامة أوفى ، وأى جلال أعظم من هذه السعادات المتعاقبات المتناسكات ؟ ؟

ألا تكون العزة لمن يطلبها من الله بعزة النفس المترفعة عن الدنس والنقص ، وبعزة العمل الصالح الخالص مما يشييه ويشينه ، ألا يكون طلب العزة هذا قريب الاستجابة كريم المنال ؟ ؟

أى والله ، إن العزة لله جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وأى كلم أطيب من كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، تتعطر بها الألسنة ، وتصدقها القلوب ، وتذعن لها الجوارح ؟

وأى عمل أصلاح من عبادة يسمو بها الناس ، وخلق يسعد به الناس .

يا معشر المسلمين . .

يهتف بكم كتاب الله : أن اطلبوا العزة من العزيز ، بصدق العقيدة ، وصالح العمل ، ويناديكم حديث رسول الله « إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز » .

وصدق الله العظيم من قائل « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وبعد : فالمستعان هو الله ، أن يكتب للمسلمين العزة ، وأن يمكن لهم فى دينهم ، وفى ديارهم وأن يجمع كلمتهم على الخلق الكامل ، والعمل المبرور إنه أكرم مسئول

البناب وكلف نعه

لفضيله الاسنان السنج ابر الوفا المراعى

مدير المكتبة الازهرية

شباب اليوم رجال الغد وقادة الامة وأولو الرأى فيها ويدهم مقاليد سياستها وبمقدار توفيق الامة فى اعداد شبابها يكون مستقبلها ودرجة النهوض فيها .

وقد مضى زمن كان من وسائل اعداد الشباب أنه يحسن القراءة والكتابة بل كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة ، أما فى هذا العصر فقد تشعبت الوسائل تبعا لتنوع فروع العلم والمعرفة وتقدمها ، وأصبحت مراحل التعليم بأنواعها والشهادات بأنواعها لا تفى بتكوين الشباب تكوينا يعدده لحل رسالته بل لا بد له مع ذلك من دراسات شخصية عميقة يعتمد فيها على نفسه لا على مدرسه ومدرسته ولا بد له من اختبارات عملية للحوادث وللأشخاص ليستطيع أن يزاحم فى الحياة على بصيرة بأحوالها وخبرة بشؤونها :

حياة الورى حرب وأنت تريدها سلا ما وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطا حنا وكدحا ولو أن البقاء يسير

ولا بد للشباب مع ذلك الاعداد العلى من تسليح دينى وخلقى يقيه السوء فى عقيدته ونفسه ويصونه من مصارع الهوى ومواطن الغواية ويجعله ذا شخصية متماسكة قادرة على تحمل الشدائد وتذليل الصعاب وعلى قول الحق والجهر به ووزن ما يعرض عليه من مذاهب وآراء ليعرف وجه الخير فيها لنفسه وأمة فيقبلها أو يرفضها عن معرفة واقتناع .

لا بد للشباب من ذلك كله ليكون ركنا قويا فى كيان أمة وقودة يقتدى به لا إمعة يستجيب لكل ناعق وتتجاذبه التيارات هنا وهناك .

فمسئولية الشباب في هذا العصر ثقيلة مرهقة لا ينجح في حملها والاضطلاع بها إلا من وهب لها نفسه وجهده ووقته ، وأن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشاب هو الدين ، فالدين وأساسه الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والاعتماد في الشدائد عليه ، يجعل منه رجلاً مطمئن القلب ساكن النفس ، يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه بعد إعداد الوسائل على معونة الله وتوفيقه ويرضى بنتيجته على أى حال ، والدين بعد ذلك يغرس فيه كثيراً من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطناً صالحاً يساهم في بناء أمته وانهاضها ويدفع بها إلى منازل العز بن الأمم ، ويغرس في نفسه فضيلة الشجاعة والصدق والإخلاص والبر بالضعيف وإغاثة اللهياف ، والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز ، كما يغرس في نفسه احترام حقوق الغير وأموالهم وأعراضهم .

وعلى حكمة الشيوخ وجهود الشباب تنهض الأمم وتنجح الدعوات ، ولقد لعب الشباب الإسلامى فتياه وفتياته ، دوراً هاماً في نجاح الدعوة الإسلامية ، وقاد كثير منهم الجيوش ، وفتحوا المدائن وساسوها بالعدل والإحسان ، فاجتمعت عليهم القلوب ورضيت عنهم الشعوب ، والمتصفح للتاريخ الإسلامى يتقف على أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانهم بفكرتهم ، واستعدادهم الأمل في سبيل نجاحها .

وحسبنا أن نورد في هذا الصدد مثلين ليسكون فيهما لشبابنا ذكرى وقوة ؛

١ — لما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه انفتحت على قتله ليلة الهجرة فأمر علياً رضى الله عنه أنه ينام في فراشه بدلاً منه ليخادع قريشا عنه فقبل على وهو يعلم أن القتل قاب قوسين منه ، ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة فنجح النبي صلى الله عليه وسلم ونجحت الدعوة .

٢ — اسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر رضى الله عنهما وهى دون العشرين ، وكانت تسكن إسلامها منه لشدة فلبا علم بذلك دخل عليها ، وقال : بلغنى عنك أنك صبأت « خرجت عن دينك » ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكى وقالت له : أتضربنى يا عدو الله على أن أوحده الله لقد

أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلاً فافعل وفكر عمر فيما فعل
وندم عليه وما زال به تفكيره حتى قاده إلى الإسلام وكان إسلامه عزاً للإسلام
وكان عمر كما روى عنه التاريخ .

هذان مثالان مما رواه التاريخ في جهود الشباب ونضاله وهما حسنا
في هذا السبيل .

تلك هي بعض العوامل في تكوين الشباب أوصيهم بها ولا يفوتني أن أتبهم
إلى ضرورة الأخذ ببعض النشاط الرياضي فهو من خير الوسائل في إعدادهم عقلياً
وخلقياً وجسمياً كما أنه ذو أهمية كبرى في حياتهم لأنه يشغل فراغهم ويصرفهم
عن مواطن اللهو ومواقف الخلاعة التي تسبب لهم كثيراً من العلل النفسية
والجسمية وتضع لهم العقبات في سبيل الحياة الكريمة .

أخو السوء

قال أيوب بن سليمان عن ابن القاسم قال : بيننا سليمان بن داود عليهما السلام
تحمله الريح إذ مر بنسر واقع على قصر ، فقال له كم لك منذ وقعت هنا ؟ قال
سبعائة سنة . قال فمن بنى هذا القصر ؟ قال النسر لا أدري هكذا وجدته . ثم نظر سليمان
فإذا فيه كتاب منثور بأبيات من الشعر وهي :

خرجنا من قرى اصطخر	إلى القصر فقلناه
فن يسأل عن القصر	فبنيًا وجدناه
فلا تصحب أخا السوء	وليك وليلاه
فكم من جاهل أردى	حكيمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس	مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للعي	ن أن تنطق أفواه

خداع الحياة

لمضيفة الاستاذ الشيخ ابراهيم على ابراهيم الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ليس في استطاعة البليغ الماهر، والمصور المبدع، والأديب الأملحى، والكاتب الصنع، مهما أوتي من قدرة على الإجابة، ودقة في التعبير، أن يحيط بوصف الحياة في خداعها الكاذب، وغرورها الخلاب، وسراها البراق، ونفاقها المكشوف، وتلونها المفصوح، بأحسن من قول القرآن فيها «كأن أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح».. ونحن قد قرأنا للشعراء في هذا المعنى روائع السكلم وجوامعها، ومررنا بأماهم فيها، وتشبيهاهم لها، مرور الذي يسببه السحر، ويأخذه البهر، ويملك عليه حسنه الجمال الفاتن، ورددنا ذلك كله ترديد الإكبار والإعجاب، ولكن لم يبلغ مبلغ الآية في طنطنتها ودوئها، وجلجلتها وهول تصويرها، فإنها لا تكفى بذكر الماء يخالط الأرض فيوقظ فيها النبات إلى النماء والخضرة والازدهار والترعرع والإثمار والقطاف والحصاد دون أن تجعل ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم ينتهون إلى إسدال الستار على نهاية لازمة، ومصير محتوم... وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا، وتعبث بأفئدتنا، وتصرف خيالننا — الواهم — كما تشاء. بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل ودليل على أنها وشيكة الزوال، سريعة الانتهاء، مطلية بالغرور، محفوفة بالباطل، مملوءة بالحنن، موسومة بالدنيا، لانزال كلها أمكنتنا الفرصة من الترامى على أعتابها، والتهافت على أبوابها، والتعلق بأذيالها، والتكالب عليها، والتفانى في حطامها الفانى ونرتسكب في سبيل الوصول إلى أهدافنا أشنع الأساليب، حتى إذا ما أخلدنا

الى خلوتنا ، وانقطعنا الى رويتنا ، ونغمنا بيننا وبين خلجات نفوسنا « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا » لم يلبث ذلك الاتعاض أن يتبخر في الهواء ثم يتصاعد من رؤوسنا الى طبقات أخرى من السماء .

ومن الغريب أن هذا المقدار من الإيمان يستوى فيه المؤمنون والجاحدون ، ويدعن بصدقه العالم والجاهل ، ولا يشك في حقيقته كبير ولا صغير ، وإذا كانت وسائل الإيمان تختلف ، فإننا جميعنا ننتهى إلى نهاية من المعرفة كان من شأنها أن تجعلنا لا ننظر إليها إلا بالمنظار « الأسود » فلا نطلبها إلا على قدر ما تمس إليه الحاجة القصوى ، وتقتضيه الضرورة الملحة .

وليس هنالك من ينكر أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا من الطباع والغرائز ما يحملنا على تنازع البقاء ، وحب التملك والسلطان ، والسيطرة والسيادة ، ولكن هذه كلها إنما تدفع إلى نشدان « المنزل الأعلى » بحيث لا يذل الفرد للفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه الإنسان خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية التي هي لله وحده لا شريك له .

وفي الكتاب الكريم ما يدل على أن الله سخر الكون لبني آدم يستخدمونه لمصلحتهم ، ويصرفونه في منافعهم ، ورسالة الواحد منا في هذا الصخب لا تتجاوز الإصلاح الذي يعود عليه وعلى الناس في حدود العمران والنهوض ، والتقدم والرقى ، ونرى الدين الإسلامى - ولعل الأديان الأخرى كانت هكذا - يكبح ما عساه أن يكون من طغيان الغرائز ، وطيش المطامع ، وثورة الشهوات ، فيأمرنا بالتقوى والورع ، والقناعة والزهد ، والإحسان والإيثار ، والتآلف والمحبة ، لتتطهى فينا تلك الحدة التي تدفعنا إلى الاقتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتاع الخادع ، والظلال السريعة الانتقال ، فنكف عن الشرور والآثام ، والتكالب والطمع ، بما تثيره الأفراد والجماعات ، من خصومات ظلمة ، وحروب غاشمة ، جعلت هذه « الحياة » مسرحاً من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ، ومناظر الدمار ، وأشباح الخراب والهلاك ، وصارهم القوى أن تتنافس في جعلها « جهنم الحراء » لا أكثر ولا أقل .

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها مجالا
ولم تقتل براحتها بنينا ولكن ساقوا الموت اقتالا

وربما قال قائل هذه سنة الله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » والدول في تصارعها ، ووقوفها على هذه الشاكلة ، لصد التيار ، وكبح الظلم ، ورد المطامع ، هو الذى يحفظ التوازن ، ونحن مع تسليمنا بأن الآية تهدف إلى سنة من سنن الكون ، وأسلوب من أساليب العمران ، لا نعتقد أن الحال القائمة الآن يدفع إليها الرغبة فى الإصلاح ، والميل إلى العمران ، والحب فى الخير ، والجنوح للسلم ، بل هى حال أشبه بمصارعة النيران ، ومهارشة الديكة ، وسعار الكلاب ، وكنا نظن أن الأمم الكبرى مدفوعة إلى ذلك كله بياعث التوسع فى السلطان ، والاستزادة من السيادة ، والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية . ولو صدق ذلك لقلنا ما يتولى المثل العربى : « حر انتصف لنفسه » واتمسنا العذر لقوم تحملهم غرائز الأحياء أن يطلبوا حياة مثالية ، وينشدوا عيشاً رغيداً .

أما والدنيا تموج بتلك الشرور ، والعالم يعجُ بهذا القلق ، كأن الميادين لا تزال تقذف بالنار ، يخر فيها ألوف الموتى ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقول إن الحلوم قد طاشت ، والطباع قد فسدت ، والغرائز قد انتكست ، والنهية قد آذنت بزوال ، وأن الرواية موشكة أن تتم فصولها ... ونحن الذين ورثنا الكتاب والسنة ، ودرسنا الآيات والسور ، قد يبدو لنا فى بعض الأحيان أن نقول عن أصحاب هذا « الصراع » ، إنهم لم يجدوا من الوازع الدينى ما يستلهمونه الهداية ، ويرجون منه الصراط المستقيم ، وليس بعد الكفر إلا الضلال ، فما الذى نقوله لأنفسنا فى تفكك جماعتنا ، وتفرق كلمتنا ، وتوزع وحدتنا ، ووهى قوتنا . . وفى الوقت الذى يأمرنا ديننا أن نعلو إرادتنا ، ويسود سلطانتنا ، ويعز جانبنا ، وتكون المقادة بأيدينا ، تفرقنا أيادى سبأ ، ثم لم نكتف بأننا سوقة تنصّف - كما يقول الشاعر - حتى أصبحنا لا يلوى الفرد منا على غير هواه يتموده ، وطمعه يتولى زمامه ، وشهوته تدفعه ، ثم لا ينظر فى ذلك إلا لإشباع نهمه ، دون نظر إلى حلال وحرام ، وشرف وخسه ، وسمو وإسفاف . . وما كان هذا كله إلا لأنها فتنة العيش ،

وسراب الدنيا ، وخداع الحياة ، وزائف المجد ، وباطل الآمال ، وكاذب الأمانى . وفى كل يوم يسوق الموت لنا من الأنباء والنذر ما يصح معه أن تتعظ أو نفيق ، ونعتبر أو نصحو ، ويدهمنا القطار ، أو تصدمنا السيارة ، ولا يكون بيننا وبين أن نلفظ النفس الأخير ، إلا أن تدركنا رحمة اللطيف الخبير ، وهنالك وفى تلك اللحظات الحافظة تتصور قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ، غير أننا لا نلبث أن نعود أشبه بالخمرور الذى يقول « وداونى بالتى كانت هى الداء » وصدق الله العظيم : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى مسه » . . . فاللهم ألهمنا الرشـد ، وارزقنا الإفاقة ، ولا تكلنا إلى سيئات أعمالنا ، وشرور أنفسنا ، واجعلنا لا ننظر إلى الحياة إلا لمنظارها .

الصديق

قال حكيم : الإخاء جوهرة رقيقة وهى ما لم ترقبها وتحرسها معرضة للآفات ، فررض الأبي بالخداء له حتى تصل إلى قربـه ، وبالسكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل ، ولا من أخيك بالتقصير .

قال عبد الصمد بن المعدل :

من لم يردك ولم ترده	لم يستفدك ولم تفده
قرب صديقك ما نأى	ورد التقارب واسترده
وإذا وهت أركانه	ومن أخى ثقة فسده

وقال أبى حازم :

إن ساءنى صاحبي احتملت وإن	سر فإنى أخوه شاكره
أصغح عن ذنبه وإن طلب العذ	ر فإنى عليه عاذره

مجدنا في ديننا

لفضيد السبع محمد محمد

المدرس في كلية اللغة العربية

التدين فطرى فى الإنسان ، والفطر السليمة تدعو العبد إلى الإخبات لمن تولى خلقه وتعهد بقاءه ، وما انحرفت تلك العقيدة عن وضعها إلا نتيجة صداً أصاب الفطر وعتامة رنت على القلوب فجعلت الأبصار قاصرة والبصائر حائرة وتغلب إلف المرء لحسه فاتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وقد أقام الله الحجة على العباد فأرسل فيهم رسوله ليتم الإلزام ، وتمتع الأعذار فلها نصبت الإنسانية بعد عمليات عنيفة فى تطهيرها وتثريبها ختم الله الرسالة بمحمد بن عبد الله ، وجعل دينه خالداً بما أودعه من تعاليم تكفل سعادة البشرية وتسمو بالحياة إلى ذروة ما يصبو له المصلحون .

لقد جاء الاسلام بمبادئ الإصلاح العام والأخوة الصادقة فدعا الناس جميعاً إلى الاجتماع بفنائهم والانضواء تحت لوائه والوقوف عند حدوده والرمى بما وراء ذلك تحقيقاً لتوحيد الأمة فى كيانه وتوحيدها فى عقيدتها .

فإن ما جنته الإنسانية من صنوف العسف والغنى ألوانا كان نتيجة تفرق الكلمة ، وشق العصا وانقسام العرى وانقسام الجماعات .

وليس بدعاً أن نرى هذا الاختلاف بين الأمم المتباعدة فى العقائد والمتباينة فى الأهداف ، ولكن العجب العاجب أن تختلف أمة التوحيد بعد أن ربط الاسلام بين قلوبها ووحد بين شعوبها وأقام بها دولة الدنيا والآخرة فى ظل كتاب « لا يأتى الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

لقد شمع نور هذا الدين فاستقرت به النظم واستقامت عليه الطريقة ، ووضع به ميزان العدالة في الأرض ، وكان عجباً في كل نواحيه وهدياً في كل مراميه . فما من شاردة ولا واردة إلا ولها فيه حكم معلوم وطريق مرسوم .

تناول الأفراد والجماعات والأحرار والعبيد والرجال والنساء والأحر والأسود والعقيدة والسياسية والبيت والمدرسة والطريق والنادي فهو رابطة عامة بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وخالفه ، وهو رابطة تهدف إلى السكال في اسمي معانيه وأرفع مقاصده .

فما من غاية إصلاحية ولا فضيلة بشرية إلا ومصدرها منه ومرجعها إليه فهو رمز للوطن ورمز للعلم ورمز للسياسة ورمز للديمقراطية ورمز لغير ذلك من معان ابتكرها من فقهها وأشبث بها من سلبها ، وإذا كان من الأمم من أعوزته المبادئ السامية والنظم القويمة والأخلاق الفاضلة فأخذ يرنو ببصره إليها حتى أصاب منها ، وجعلها أساساً لحضارته ودعامة لمجده فإن من العجب أن تتخلي الأمة الإسلامية ذات المبادئ الرشيدة والأخلاق الفاضلة عن مقوماتها ومدعماتها حتى أصبحت مهدداً للغاصبين وغرضاً للغرضين .

لم يبن الإسلام حضارته على مادة محضة كما فعل الأوروبيون الحديثون ولا على روحانية محضة كما فعل الأقدمون ، وإنما جعل أساس دولته يرتكز على الأمرين ، ويعتمد على السببين فكانت نهضته مادية روحية ، وكانت سيطرته إصلاحية دينية فهو دين ودولة وعلم وعمل ودينياً وآخره ، ولن يجد المسلم غناء في غيره مهما زينت له وسأوسه وصورت له أو هامة .

وأمة اختصها الله بهذا الدين جدير بها أن تتخذ تعاليمه نبراساً تهتدى به في ظلمات الوجود وتسير عليه في شعاب الحياة ، فلا أضل ممن أطفأ مشعله في ليل بهيم وهو يفتش عن ضالة منشودة ورغبة متمصودة ، إن مروق كثير من الشبان ووقوعهم في غياهب الجهالة وظلمات الحيرة إنما هو نتيجة حتمية لهذا الانحلال الذي أصاب الدولة الإسلامية في صميمها وهو لا بد سائر بهم إلى التحلل من العقيدة الصحيحة وواصل بهم إلى الزيغ والإلحاد .

وليس هناك ما يدفع هذا البلاء ويرد هذا الطغيان إلا أن يتغلب سلطان الدين

على النفوس ولا سبيل إلى هذا التغلب إلا أن تتغلغل تعاليم الإسلام الصحيحة وتنشر مبادئه بين الأفراد والجماعات فترى الفرد مسلماً والتاجر مسلماً والبيت مسلماً والمدرسة مسلمة والعامل مسلماً والأمة مسلمة والحكومة مسلمة .

عند ذلك يتبوأ الإسلام مكانته ويأخذ وضعه ويعيش المسلم عيشة الأحياء الناطقة لا البهائم الهائمة .

إن كل نهضة إصلاحية لا تبنى على أساس من الدين والأخلاق لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها وجود ، فيجب أن نعتمد في نهضتنا على ديننا وهو دين سلم وحرب وإيمان وعمل وصناعة وزراعة وحياة وموت وجنة ونار .

إن البيت المسلم يجب أن تظهر في جوانبه تعاليم الدين الحنيف فترى الأبناء صورة الإسلام ممثلة في آباءهم وأمهاتهم وذوئهم وأن المدرسة الإسلامية يجب أن تدعم مناهجها بدراسة الدين فهو أجدر العلوم بالاعتناء وأولاهها بالرعاية ، فته تكون الأخلاق ومن الأخلاق تكون الأمم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الفرد المسلم أيا كان طريقته في مسالك العيش ونظام الحياة يجب أن تظهر عليه دلائل الدين وعلامات الإيمان فترى من الزارع المسلم أن يكون مسلماً ومن الصانع المسلم أن يكون مسلماً ومن الخضم المسلم أن يكون مسلماً ومن القاضي أن يكون مسلماً فإن الاسلام جماع الفضائل وأساس العمران وهو وحده كفيل ببث الطمأنينة في النفوس وتهذيب القلوب ونشر ألوية السلام في ربوع الأرض فقد عم القلق وشاع الفساد وكثرت المطامع واتسع الظلم وتبرم الحق .

وإن الحكومة الإسلامية يجب أن تبرهن للناس على صدق إيمانها فترى منهم من نفسها مثلاً من أمثلة المسلمين الصادقين الذين ينشر الله بهم الدين ويرد بهم كيد الخائنين « وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ويرد بالسيف ما لا ترده العبرة .

وإن الأمل ليملاً جوانبي ثقة بأن أمراء المسلمين وقادتهم قد اقتنعوا بضرورة رد الأمة إلى دينها حتى تملأ به القلوب ، فلا تتفتح لقبول الأفكار الهدامة ، والمبادئ الفسادية من كل ما عكس صفو الوجود وكدر الحياة في نظر العاملين .

ولقد خطت بعض الدول خطوات مباركة لتشجيع التعليم الديني وإحياء المدرسة الإسلامية من جديد ، وها هو ذا الأزهر العتيق ، ثمرة القرون ومعهد المسلمين ، ومعتمد آماهم ، يرسل بعوثة إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويفتح أبوابه لمن يفد إليه من أبناء المسلمين تحميقاً لهذه الغاية النبيلة ، ورغبة في بث تعاليم الدين الخنيف مكن الله له حتى يؤدي رسالته ، ويبلغ دعوته ، فإن في عنقه الآن الدعوة إلى الله ونشر كتاب الله .

وإني أتمثل بالآثر الخالد متضرعاً متوجهاً لمن يملك النواصي فأقول :

اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض .

وفق الله ولادة أمور المسلمين أن يشدوا أزره ، ويردوا عليه هيبته ويقوموا بنصره وتأيينه .

كرم

مدح ربيعة الراقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والى مصر ، فاستبطنه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أراني ولا كفران لله راجعاً
بجنى حنين من نوال ابن حاتم
فبلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدي ، فأرسل في طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت التماثل : (أراني ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فتماثل له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجعن بجنى حنين مملوءة مالا . فأمر بخلع نعليه وملأته مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم التميمي ، فتماثل ربيعة من أبيات :

فشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهم الفتى الأزدي إنفاق ماله وهم الفتى التميمي جمع الدراهم

أعلام الأزهريين

الشيخ حسن قويدر الخليلي

المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٥ م

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو « حسن » بن « علي قويدر » . كان مولده « بمصر » سنة ١٢٠٤ هـ ، وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين ، واشتهرت ذريته بالمغاربة ، ثم نزع منها إلى « مصر » والده « علي » في تجارة وأقام بها ووهب المترجم ، فلما بلغ أشده ألحقه بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجلة أساتذته من أمثال الشاعر الناثر العالم « الشيخ حسن العطار » و « الشيخ إبراهيم الباجوري » فتخرج عليهم في اللغة وعلومها والآداب وفنونه ، ولا سيما الأول الذي كان من ابنه الأزهريين في الأدب شأنًا ، وأبعدهم في فنونه صيتًا ، وكان « لقويدر » رغبة فطرية في الأدب وهوى للغة وعلومها ، ومعرفة خفاياها ، واكتناه دقائقها ، فبرع في ذلك وجود ، وأنشأ الفصول ، ونظم الشعر وحرر الرسائل ، ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات ، وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأفادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن قويدرا شغل منصبًا ، أو زاول عملاً حكومياً ، ويظهر أنه كان عزوفاً عن الوظائف وقيودها فلم يسع لها ، وربما وافته دون عناء لو انصرف لها ،

ولسكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ، ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظاً وافراً ، وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب ، وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جواداً سخياً يبذل كثيراً مما يفد إليه من ربح تجارته الوارفة الظلال ، كما كان عفيفاً أميناً يرعى الود ، ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤذي الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فإن له إذ ذاك لشأناً كما فعل مع « عاقل أفندي » في رسالة « الأغلال والسلاسل » .

وقد كانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٢٦٢ هـ فرثاه الشعراء ، وبكاه الأدباء ومنهم تلميذه الشاعر المشهور « محمود صفوت الساعاتي » الذي زعموا أنه رأى « قويدر » في منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتاً فانتبه قائلاً : رحمه الله على حسن

١١٨ ١١٠ ٦٦ ٦٤٨

قويدر . فحسب مجملها فكان تاريخاً لسنة وفاته (١) .

٣٢٠

والساعاتي هو الذي رثاه بقوله :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأقلام باكية على القراطيس لما ناحت الخطب

ويقول فيه أيضاً :

قالوا قضي حسن المناقب فارثه فأجبتهم ومدامعي تتحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه أضحي لسانى فى فى يتعثر

نثره :

نثر الشيخ حسن قويدر ، يجرى مجرى الصنعة ، ويبدو عليه أثر العمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بعجيب أن يكون أدبه كذلك ، وأن يكون

طابعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر ، وطريقته الملتزمة ، على أنه تلميذ «لشيوخ حسن العطار» ، وثمره من ثماره ، وكان «العطار» أستاذه ممن يلتزمون السجع في رسائلهم ، ويولعون بالصنعة في كتاباتهم ، وكتاب «إنشاء العطار» على ذلك شهيد .

ولكن «قويدر» رغم متابعتة للعصر ، ومسايرته لأستاذه ، غير معن في التعقيد ولا مفرط في الاستغلاق ، بل إن نثره أقرب — على قيوده وتكلفه — إلى الوضوح والرصانة .

نموذج من نثره :

ومن نثره ما قاله في خطبة شرحه لكتاب

«ومن شغنى بتلك العرائس الخواطر ، حملتنى بواعث الخواطر ، على أن أكتب عليها شرحاً وأبني على دعائهما صرحاً ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحاً ، فوقفت على أقدامى ، متردداً فى تأخرى وإقدامى ... وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، وبسطت فى حومة هذا الميدان باعى وانى لأرى التوفيق يتوم أمامى ، والعناية تقود زمامى » .

شعره :

شعر «قويدر» يميل إلى الزخرف والطلاء ، ولكنه يتفاوت قوة وضعفاً ، حسب إغراقه فى التكلف ، أو لطفه فى تناوله ، وكلما كان أكثر تعميلاً كان أكثر تعقيداً ، وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجاً واحداً .

فمن شعره الذى يميل إلى السهولة ولا يفرق فى المحسن والصنعة ما قاله ناصحاً :

يا طالب النصح خذ منى بحبرة	تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغط ومن غلط	كل البلاء بهذا العضو مرصود

واحذر من الناس لا تركز إلى أحد فالخل في مثل هذا العصر مفقود
واطن الناس في ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تتلبد
هذا زمان لقد سادت أراذله قلنا لهم هذه أيامكم (سودوا)
ويقول في شرحه على منظومة «العطار» :

منظومة الفاضل العطار قد عبت منها القلوب برّيانسكة عطره
لوم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفكر منها هذه الثمره
في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أرانا وجهه قره
قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب بحر البلاغة قد أهدى لنا درره
فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعية أكسبت شعره طلاوة ، ولم ينفر
الذوق منه ، أو تنصرف النفس عنه .

ومما قاله وأسرف في الجناس فيه قوله :

فشمّر الغصن عن الساق وقد جرد سيفاً لرقابهم وقد
وقال جمرى بكلامكم وقد انا الذي أشبه أعطافاً وقد
أحلكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) في هذه الأشطر خمس مرات بالواو وبغيرها ،
فكانت حرفاً مقروناً بالواو في الشطر الأول ، أما قوله «وقد» في الشطر الثاني
فيحتمل أن يكون إسماً بمعنى النار واقعاً صفة «لسيفاً» أى سيفاً هو النار لرقابهم
وأن يكون فعلاً بمعنى اتقد أى سيفاً اتقصد ، وقوله بكلامكم «وقد» محتمل أيضاً
المعنيين أى جمرى نار ، أو اتقد وقوله في الشطر الرابع أشبه أعطافاً وقد ، جاءت
فيه هذه الكلمة على معناها الحرفي مع الاقتران بالواو ، «وقد» الأخيرة ، جزء
من قدر المضاف إلى ياء المتكلم .

فقد أرهق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التي وضعها خمس مرات في خمسة
أشطر وضعاً مختلفاً فيه : تهافت عبث بالمعنى وعقده ، وتكلف ذهب بجمال
الشعر وأفسده .

ولقويدر مزدوجات أفنتن في صياغتها ، وبرع في نظمها ، إلا أنها محتملة
كثيراً من التكلف ، موسومة بالنزعة العلمية في غير موضع ومنها قوله :

رأيت بدراناً فوق غضن مائس يخطر في خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يجري

خاطرت لما أن رأيت خطره وحار ففكرى في بهاذك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندي بالتمياس يدرى

وكلمة التيماس هنا من مصطلح علم المنطق الذى تأثر الشاعر به :
فلفظه العذب لقلبي قوت كأنه الدر أو الياقوت
وسحره إلى النهى (مثبت) يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

الحسن شيء ما له مائل وكل وجه حازه جميل
والنفس دائماً له تميل وصاحب العز له ذليل
في قيد أسر نبيه والأمر

والنهي والأمر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع
في ديوان .

آثاره العلمية والأدبية :

للشيخ « حسن قويد » آثار لغوية قيمة ، ومؤلفات أدبية جليلة ، غير أن
كثيراً من هذه الثروة التيمية لا يزال مخطوطاً لم يطبع ، وكثيراً منها عبثت به الأيام
فحرمت الانتفاع به الأفهام والأفلام .

ومن أهم هذه المؤلفات :

« نيل الأرب في مثلثات العرب »

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف ما يثلك من الألفاظ العربية بالحركات ،
نظمه في أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم ، يقول في مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من من بالعد لا تدخل تحت الحصر

وهي سهلة الحفظ واضحة غير معقدة ، وبها مشها فوائد قيمة ، فيها غنية لكل
أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وفي صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ محمد فني
(وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم « فيتو » المستعرب وطبعت الترجمة
في بيروت)^(١) ويقول في مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتي تكون في الشكل مثلثات
أبدأ المفتوح ثم آتى بالضم لكن بعد ذكر الكسر
ثم يقول :

رتبتها كمعجم على الولا معتبراً للسباب حرفاً أولاً
بذا أتت غريبة في الوضع يعشقها كل رقيق الطبع
وعدد أبياتها ٢٢١ بيتاً .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار : وهي منظومة نظمها في النحو أستاذه
الشيخ « حسن العطار » ، وشرحها هو شرحاً دقيقاً قيماً ، والمنظومة مشهورة
يتداولها أبناء الأزهري .

وله كتاب يسمى « زهر النبات في الإنشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضاً ، ويقال إنه كان واقعاً في
مائة ونيف كراسة ذهبت به الأيام^(٢) .

هذا عدا شعره المتفرق ، ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية زيدان ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) أعيان البيان للسندوني ص ١٨٠ .

الفقه السياسي عند المسلمين

لنصير السبع محمود فباض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين

من المسلمات العامة . أن الإسلام جاء غير مماثل لما سبقه من الأديان السماوية التى فصلت بين أمور العقيدة والعبادة ، ومسائل الحكم وتدير المصالح الدنيوية لبنى الإنسان .

وإنما جاء الإسلام منظماً للسلوك العام للإنسانية فى شتى نواحي نشاطها الحيوى ، فأصلاحه للعقيدة فى خالق الكون ، واختياره لنمط خاص فى عبادة الله ، ورسمه لمنهج الخلق الحسن ، وتنظيمه للمعاملات الإنسانية العامة ، وسياسة الدنيا ، ومنهج الحكم ومبادئ العدل ، ومواجهة حاجات الاجتماع الإنسانى ، وغير ذلك مما عرض له الإسلام بالإنشاء أو التهذيب ، أخرونياً كان أو دنيوياً مادياً أو معنوياً ، كل هذه المقررات يتألف منها الإسلام ، وبعبارة أخرى . كل ما قرره الإسلام من مبادئ وتشريعات تتعلق بالعقيدة والعبادة . أو تتعلق بالخلق ومنهج التربية . أو تتعلق بالمعاملات العامة . أو تتعلق بالحكم وسياسة الدنيا ، أو تتعلق بما يلزم حياة المسلمين الاجتماعية أو (المدنية) . كل ما قرره الإسلام فى ذلك كله (من مبادئ وتشريعات) فهو دين لازم ، ليس للإنسان بضدده حق الاختيار فى الفعل أو الترك . لأنه دين يجب أن يؤدى كما أراده المشرع سبحانه .

ولا تستطيع أن تفرق — فى الإسلام — بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو سياسة فقط حتى يمكن الفصل بينهما ، ولهذا تجد علماء العقيدة (المتكلمين) يتحدثون عن الإله وصفاته ، كما يتحدثون على الخلافة والرياسة ، وقواعد الحكم ، وما يجب ، وما لا يجب ، أن يكون عليه الحكم . والحاكم ، والمحكوم ، وكذلك تجد

علماء الأصول يتحدثون عن مصادر الشريعة ، وأصول الأحكام ، ويتحدثون عن « الخلافة » والحكم ، وهل هى من الأصول أو من الفروع ، وإذا جئت إلى الفقهاء وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، أو البيوع والرهن والإجارة ، وإلى جانب ذلك تجد حديثهم أيضاً عن الحكم والقضاء والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ، ثم يجرونك إلى الحديث عن تطبيق الأحكام على المسلمين وغيرهم ، ويفيضون الكلام عن العلاقات بين المسلمين أفراداً ودولة ، وغير ذلك من وهل الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، السلم أو الحرب ، وغير ذلك من مسائل العلاقات الدولية (مما يعرف اليوم بالقانون الدولى بقسمية) ، وإنك لواجد فى هذه البحوث القيمة من الجدة والطرافة والانسجام مع مقتضيات السلم والحرب ، ما لا تجده فى أبحاث المعاصرين من علماء السياسة والدستور .

وهكذا يستطيع كل راغب فى البحث التعرف إلى بحوث علماء المسلمين السياسية والدستورية فى غير كبير عسر ولا مشقة ، فسيجد آراء فقهاء الإسلام الدستوريين واضحة جليلة ، إذا توجه إلى البحث عنها فى كتب الفقه أو الأصول ، أو الكلام ، وكثيراً جداً ما تجد كل هذه الآراء ملخصة عند مظانها فى كتب التفسير والحديث .

بعد هذا الذى قدمت ، قد يدهش القارئ الكريم إذا قلت له : إن كثيراً من المستشرقين المغرضين يقولون : إن الإسلام جاء خلواً من المبادئ السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم ، فى كل أمة متمدنة ، بدليل أن علماء الإسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسى وليست لهم فيه مؤلفات سياسية ؛ ويجارى هؤلاء بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، وهذه المقالة تطوى أمرين : الأول : أن علماء المسلمين لم يشتغلوا بالبحث الدستورى والسياسى . والثانى أن الإسلام ليست له مبادئ سياسية ودستورية ، وسنفرد هذه الكلمة للأمر الأول .

لو لم يكن لدينا — نحن المسلمين — سوى بحوث المتكلمين والفقهاء فى السياسة وهم شراح الإسلام ، لكان ذلك وحده كافياً فى الجزم بظلم هذه المقالة الظالم أهلها ، ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة عن بحوث المتكلمين والأصوليين والفقهاء ، لدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها وخطورتها فى توجيه

السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم ، وإلى التمارىء قائمة بهذه المؤلفات .

١ — مقدمة العلامة ابن خلدون . التى كتبها بين يدى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى التاريخ ، وهو باعتراف المنصفين من علماء الشرق والغرب أول باحث اجتماعى وضع أصول علم الاجتماع ، وأفاض فى بيان سياسة الإسلام العامة ، وقد أشار فيها إلى أن علماء المسلمين فى العصر العباسى قد عرفوا كتاب « السياسة » لأفلاطون وأرسطو ، ومن النابت أن حنين بن اسحاق قد ترجم السياسة لأفلاطون إلى العربية ، ونقل من هذه الترجمة أحمد بن يوسف فصولا نشرها فى العصر الحديث رفيق بك العظم ، وسواء تأثر البحث السياسى لعلماء الإسلام ، أو لم يتأثر بهذه الترجمات ، فهذا دليل اشتغالهم بالبحث السياسى ، وقد تابعت مؤلفاتهم فيه بعد ذلك ، فظهر كتاب « السياسة » لشمسطين لوقا بالعربية ، وقد تأثر فيه بفلاسفة الإغريق ، وألف الصابى كتاباً سماه « المتوج فى العدل والسياسة » .

٢ — ألف الفيلسوف الكبير « الكندى » اثنى عشر كتاباً فى السياسة . منها : الرسالة الكبرى ، وسياسة العامة ، والكندى مغروف غير مجهول وآثاره معلومة للباحثين ، وإن كان بعضها قد ضاع .

٣ — ألف أحمد بن الطيب تلميذ الكندى كتابين « السياسة الكبير » و « السياسة الصغير » .

٤ — ألف فيلسوف الإسلام الفارابى فى علم السياسة ثمانية كتب ، منها : كتاب « السياسة المدنية » وموضوعه أشبه بما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسى ، وكتاب « المدنية الفاضلة » وهو مطبوع مشهور ، وقد نشر الأب شيخو فى مجلة المشرق سنة ١٩١١ م رسالة أخرى فى السياسة للفارابى غير هذين الاثرين .

٥ — ألف ابن أبى الربيع كتاباً سماه « سياسة المالك فى تدبير الممالك »

٦ — ألف أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « سراج الملوك » .

- ٧ — ألف أبو المكارم أسعد بن الخطير كتابه « قوانين الدواوين فى نظام حكومة مصر وقوانينها » وينقل عنه كثير آصبح الأعشى .
- ٨ — ألف الإمام الماوردى الشافعى كتابه « الأحكام السلطانية » وهو مطبوع متداول .
- ٩ — ألف الإمام أبو يعلى الفراء الحنبلى كتاباً سماه أيضاً « الأحكام السلطانية » وقد أخرجه الشيخ حامد الفقى من أعوام .
- ١٠ — ألف الإمام بدر الدين بن جماعة كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » وقد نشرته سنة ١٩٣٤ مجلة ألمانية ثم نشرته مجلة انجليزية Islamica « فى نفس السنة .
- ١١ — ثلاثة كتب بالفارسية هى كتاب « سياسة نامه » لنظام الدين ، وكتاب « حكمة الإشراق » للسهروردى ويظهر أنه قد تأثر فيه بأفلاطون وكتاب « أخلاق ناصرى » للطوسى .
- ١٢ — كتاب « الأخلاق الجلالية » لجلال الدين الدوانى .
- ١٣ — التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، وقد نشرته من مدة دار السكتب الملكية المصرية .
- ١٤ — « السياسة الشرعية لإصلاح الراعى والرعية » اسم كتاب ألفه أستاذ النهضة الإسلامية الإمام المحدث الناقد ابن تيمية ، وهو من الذبوع والانتشار بحيث لا يمكن أن يجهل .
- ١٥ — « الطرق الحكيمية فى السياسة الشرعية » للإمام مجدد الشريعة ابن قيم الجوزية . وهو كتاب خطير مطبوع معروف لأهل العلم فى كل مكان كسابقه تماماً
- ١٦ — كتاب ألفه إمام الحرمين اسمه « غياث الأمم »
- ١٧ — وللصانى كتاب آخر غير المتوج اسمه « تحفة الأمراء » طبع فى بيروت سنة ١٩٠٤ .

١٨ - كتب الخراج التي ألفها أئمة أعلام ، وهي مطبوعة مشهورة عند العلماء ، وهي من أهم المراجع الدستورية الإسلامية . وهي :

كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر .

١٩ - « كتاب الوزراء والكتاب » لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

٢٠ - « كتاب الولاة والقضاة » للسكندى وهي مشهور يرجع إليه العلماء دائماً

٢١ - « كتاب الأموال » ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام .

٢٢ - « كتاب الفخرى فى الأحكام السلطانية » لابن الطقطقى محمد بن على ابن طباطبا .

٢٣ - « مقالات الإسلاميين » للإمام أبى الحسن الأشعرى نشره ريتز الألمانى باسلامبول سنة ١٩٢٩ .

٢٤ - مراجع التاريخ الكبرى ، وهي تقص علينا عند المناسبات كثيراً من آراء الأولين عند اختلافهم على أمر من أمور الحكم وسياسة الدنيا ، وما يستند إليه كل رأى من حجج تقوم على توخى المصلحة .

٢٥ - هناك مخطوطات كثيرة اغتصبها المستعمرون عندما انتهوا بلاد المسلمين ، وهي مسجونة فى مكاتب برلين ، ولندن ، وباريس ، واسبانيا ، وليدن وفينا وغيرها ، وطالما تحدث عنها أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان ، ولم يتح لنا الاطلاع عليها .

فإذا نحن أضفنا هذا التراث القيم الذى قدمنا ، وهو خاص بالبحوث السياسية ، إلى ذلكم التراث السياسى الضخم فى كتب التوحيد ، والأصول والفقه فى جميع المذاهب الإسلامية السنية والشيعية ، وجدنا أنفسنا ملزمين بالحكم على مقالة هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم المستغربين ، بأنها مقالة خاطئة ظالمة .

بقى أن يقول قائل : إن بعض هذه الكتب التى قدمتها ، كانت تعالج السياسة الواقعية لاسياسة الإسلام نفسه ، لأنها كتبت مثلاً للخلفاء والسلاطين ، بقصد تبرير أوضاع خاصة قائمة ! ونحن نقول : هذا . وإن كان حقاً فإن أبحاثهم كانت تعتمد على مقررات الإسلام العامة ، وإن يكن بعضهم قد تعسف مثلاً فى تأويل بعض النصوص ، فإن هذا لا ينفي أن هذا الفريق قد اشتغل بالبحث السياسى ، والاشتغال بالبحث السياسى شئ ، وتقدير هذه البحوث - وبيان مدى عمقها ، ومبلغ قربها أو بعدها عن الإسلام ، ومقدار صلاحيتها للناس أو عدم صلاحيتها - شئ آخر سنجعله بإذن الله موضوع كلماتنا المقبلة ، والمهم الآن أن نعلن أن المسلمين القدامى ، لهم بحوث ومؤلفات كثيرة فى علم السياسة .

ولا يفوتنى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى عظم المبادئ السياسية التى عرض لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم ، كما أن السيد رشيد له كتاب عن « الخلافة » يعتبر ثمرة طيبة لغرس الإمام عبده ، ولا يقلل من قيمته تعسف السيد رشيد فى توجيه بعض النصوص ضد شرعية الخلافة العثمانية ، كما أن لأستاذنا الشيخ محمود شلتوت رسائل كثيرة لو جمعت كونت كتاباً قيماً عن « السياسة فى الإسلام » أذكر من هذه الرسائل القيمة : ١ - أسس الدولة فى نظر الإسلام ٢ - الإسلام والسلام ٣ - المعاهدات فى الإسلام ٤ - تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام ٥ - القرآن والقتال ، وله غير هذه الرسائل بحث دستورى تمتع عنوانه « المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية » وما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الأعلام قد اعتمدوا على سلفهم الصالح وما أنتجه السلف فى البحث السياسى ، فهذه سلسلة متصلة الحلقات ، والله نسأل أن يوفقنا إلى متابعة الكلام عن مبادئ الإسلام السياسية ، والله يهدى لنوره من يشاء ، وعليه قصد السبيل .

« يتبع »

إلى أى طريق نحن مسوقون

لقضية الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

لقد اضطرب نظام الخلق فعمت الفوضى وشكا الجميع من تحلل خلقى أصاب الأمة ، وانهار نفسى أدركها حتى فسدت معايير الرجال ، وأصبح الوعظ ثقيلا على النفوس لجوحها ، ومرد ذلك كله ذلك التيار المادى الذى ملك زمام الأمة كلها ، وصار الفرد يعمل على أن يكون مالياً ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكل خلق كريم ، ونفس أبية ، ونسى الجميع أن الدين الإسلامى لم يقتصر تعاليمه على الروحانيات البحتة ، بل دعا إلى كل ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة ، والعزة والكرامة ، فى الدين والدنيا فى قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ولقد كان سيدنا عثمان وعبد الرحمن بن عوف من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة فضلا عن أنهم كانوا من ثروة الأمة الإسلامية ، بل لقد بلغت ثروة عبد الرحمن بن عوف قرابة الأربعة ملايين ديناراً ومع ذلك حين رغب إليه مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن كل ماله للمسلمين لم يتوان عن التنفيذ حتى أرجعه المصطفى .

ونظرة واحدة إلى ما نحن عليه الآن تعطينا صورة صادقة على فساد تفكيرنا ، وعدم تفهمنا لحقيقة الدين ، وما يرمى إليه من مكارم لو اتبعناها لسدنا الأهم غنى وخلقاً ، وجاهاً وسياسة .

ولسكننا شغلنا عن ذلك بالتقليد ، وباليته تقليد يعود على الأمة بالنفع والخير ،

بل تقليد مؤذ للخلق ، مذهب للكرامة مضيق للعزة ، ونظرة واحدة إلى عواقب حادث الجامعة تكفي لأن نقرر أننا نسبح في عماية من تقليد مغبته وخيمه وعواقبه مشينة .

فالدين الإسلامى يأمر النساء بعدم التبذل والخروج إلى الطرقات ، بل تلك الملابس التى تكشف عن كل المفاتن الجسمية فى وسط شباب قد ملأ الغرور نفسه ، أنه وصل إلى حد عدم المؤاخذه على تصرفاته ، لأن الحرية المزعومة تكفل عدم توجيه أى تمد أو لوم عليه .

فما بال قائمين على شؤون الجامعة ، وقد لمسوا بأنفسهم ورأوا بأعينهم ، أن شبابنا لم يعن بالخلق قدر عنايته بالمظهر الخارجى ، ولم يفكر فى الروح الجامعية قدر تفكيره بالعبث الصياني فى داخل الجامعة وخارجها ، يفكرون فى استحضار فرقة راقصات البالية ، لتحية علماء الغرب ، ومفكره ليروا منظراً رغم إنكاره يذيب النفس خجلاً ، ويملاً القلب حسرة ولوعة ، ولو فسر هؤلاء فى تعاليم الإسلام الصحيحة ، ونفذوا تعاليمه على الوجه الأكمل لرفع من شأن الأمة ، وأعلى من قدرها ، ولعلم الغربيون علماء وغيرهم أن حضارة الإسلام هى الحضارة الحقبة التى يجب على العالم إذا أراد أن يستقر السلام فى ربوعه ، وأن ينتشر الأمن والاستقرار ، وأن تزول حالة التوتر التى عليها الأمم الآن ، وخوفهم من الحرب والاستعداد له ، وأن تعاليمه هى التعاليم الصحيحة . فإلى المسئولين أتوجه بقلب مخلص أن يعمل كل من ناحيته على أن يبرز محاسن الإسلام لنفسه وأهله وعشيرته ، وبين أفراد أسرته ، وأن يعتنقها عن يقين حتى يعود للأمة مجدها وعزها ، فلا عز لغير الإسلام ، ولا نصره حقيقة لغير المسلمين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكفانا جوحاً وإسفافاً ، فالحالة تتطلب علاجاً حاسماً وسريعاً ، ولا علاج بغير تعاليم الإسلام ، وإن الله القوى القاهر ، ينصر من انتصر لدينه ، ويعزه بإعزازه .

دراسات في التصوف

فلسفة التصوف

لماضرة الاسناد عمر طلعت زهران

استاذ في الأدب

[الزاهدين المتصوفة والفلاسفة ، الكرامات
وتفسيرها الفلسفي ، العلم بين المتصوفة والفلاسفة ،
المعرفة — الله]

صلة التصوف بالفلسفة ، إنما تروى قصة من أروع القصص ، وتبين عن نضال
من أعنف ما عرف العقل البشري . فالصوفية — كما نعرف — إنما يتبعون منهاجا
خاصا فريدا ، هو منهاج الروح والإلهام ، إن أتاها العلم فإنما يأتيهم عن طريق الله ،
والله وحده . ليسوا بمستدلين عن طريق العقل ، أو آخذين عن الكتب ، إنما
العلم في صدورهم ، جاءهم بنور من الله ، أفاضه عليهم من كرمه ، وأشرق به على
قلوبهم من فيضه . أما الفلسفة فأداتها العقل ، والعقل وحده ، به يعرفون كل أمر ،
وبه يحيطون بكل شيء ، يدلمهم — فيما يرون — على وجود أنفسهم ، وعلى وجود الله ،
وعلى وجود العالم .

وأروع صورة لهذا النضال — بين العقل والذوق — نجدها عند الغزالي ، ذلك
الذي أحاط بعلم الفلاسفة ، ونهج سبيلهم حينما من الدهر ، حتى إذا ما عرف ذلك
الذي يدعون ، قلب لهم ظهر المجن ، ولبت بناجزهم ، وينقض أدلتهم ، ويثبت :

ضعف العمل ، وقوة الروح . فإذا به في « إحياء علوم الدين » يوقفنا على أروع صراع بين العقل والذوق .

وسنعرض في هذه الكلمة لأهم المسائل التي احتدم فيها القول بين الفريقين ، فتكلم عن الزهد لديهما ، ثم الكرامات وتفسيرها لدى الفريقين ، ثم تناول نظرية المعرفة عندهما ، وأخيرا تتكلم عن « الله » جل جلاله ، كما يراه الصوفي ، وكما يراه الفيلسوف .



أما الزهد ، فقد أخذ الصوفية أنفسهم به ، وراضوها عليه ، وهم إنما فعلوا ذلك حتى تخلص أرواحهم من شوائب المادة ، وأدران البدن ؛ اتخذ الصوفية الزهد وسيلة للوصول لجنان الحق ، وطريقا لكشف الحجب عن أنفسهم ، حتى يحتلوا بطلمعة الله ، ويصلوا الى حضرة الربوبية ، أما الفلاسفة فنراهم في هذا فريقين : إما آخذين بالزهد كمبدأ وغاية ، لا كوسيلة أو طريق ، وإما تاركين الزهد ، عازفين عنه ، آخذين باللذة المادية الغزائية ، مبالغين فيها مسرفين . وقد نجد بينهم فريقا ثالثا وسطا بين الإثنين فما راض نفسه على الزهد ، ولا أخذها بالإسراف في اللذة ، وإنما اعتدل بين هذا وذاك ، وسار على طريق مستقيم ، لا إفراط فيه ولا تفريط . ومن هنا نعرف الفرق بين الصوفية والفلاسفة : فبينما الأولون يرون في الزهد وسيلة وطريقا ، إذا بالفلاسفة يرون فيه غاية ومتمصدا . ولعلنا نرى في الأبيقورية والرواقية خير مثلين على ما ذهبنا إليه .



ولما كان السبيل إلى الله هو رياضة ومجاهدة ، يصل بعدها السالك هذا الطريق ، إلى منزلة العرفان ، وهو مقام سام ، بل وقد يصل فيه السالك إلى أن يتحد بالله أو أن يحل فيه الله — حسبما تقول بعض المذاهب الصوفية ، وفيه تسامح كبير ، فإن كان ذلك كذلك ، رأينا له كرامات : كأن يظهر في أماكن متعددة في وقت واحد ، أو أن يأتي بفأكة في غير أوانها ، أو أن يطعن نفسه بمدية ،

أو أن يقبض على الحديد المحمى دون أن يصيبه مكروه ، وبالجملة أن يأتي بخوارق الأمور مما هو فوق طاقه البشر ، وبما لا قدرة للرجل العادى على فعل مثله .

يوضح الصوفية ذلك بقولهم إن الروح فى حال « السكر والغيبة » تصعد فتفارق الجسم وتتحد بالله ؛ أو إن الله نفسه يحل بالبدن ، فإن فعل العبد شيئاً ، لم يكن هو الذى فعل ، وإنما الله هو الفاعل ، وفى كلتا الحالتين يستطيع الإنسان أن يقوم بالحوارق ، وأن يأتي بالكرامات .

أما الفلاسفة فيفسرون ذلك تفسيراً آخر : فالمعجزات عندهم تثبت فى ثلاثة أمور : أولها القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم يستغرقها الحس والاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الكائنات الكائنة فى المستقبل ، وذلك فى اليقظة للأنبياء ، ولسائر الناس فى النوم .

وثانيها هى القوة العقلية النظرية ، ترجع إلى قوة الحدس ، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم ، والناس فى هذا منقسمون : فمنهم من يتنبه لنفسه أو بأدنى تنبيه ، ومنهم من يتنبه مع التعب الكثير ، ورب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها فى جميع المعقولات وفى أسرع الأوقات ، والمثال على ذلك الأنبياء .

ثالثها القوة النفسية العملية ، وقد تذهب إلى حد تتأثر بها الطبيعيات وتتسخر ، ومثله أن النفس إذا توهمت شيئاً خدمته الأعضاء والقوى التى فيها ، فحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة . ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزء بدنه ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزء بدنه لم يمتنع أن يطيعه غيره ، فتطلع نفسه إلى هبوب الريح أو نزول المطر أو هبوب عاصفة ، أو نزول صاعقة أو زلزال الأرض لتخسف بقوم .

من هذا نرى مبلغ الفرق بين تفسير الفلاسفة للكرامات والمعجزات ، وبين تفسير المتصوفة لها ، الذين يرجعون الكرامة إلى الاتحاد بالله ، فإذا استولت لاهوتيته على الناسوت ، أصبح هذا قادراً على فعل أى شيء .

والعلم لدى الصوفية — كما أبنا — إما استبصار وطريقه العقل والكتب والتعلم وإما إلهام وله طريقتان : الإشراق وباعثه الله ، وأهله هم أصحاب النفوس الصافية والقلوب العامرة بالإيمان وحب الله ، والوحى عن طريق الملك من لدن الله ، وأصحابه هم الأنبياء . أما لدى الفلاسفة فالأمر جد مختلف ، فسبيل العلم هو العقل ، والعقل وحده ، هو الذى يدلنا على النفس وعلى الله ، وهو الذى يقودنا إلى الحقيقة فى كل شيء . وينظر الصوفية إلى هذا العلم — العلم عن طريق العقل — على أنه أدنى درجة من علمهم ، وأنه قريب من علم العوام .

ولكن الصوفية والفلاسفة يختلفون فى فهمهم لـ « العقل » وفيما يعنون بهذا اللفظ . فهو عند الفلاسفة ما نعرف من أنه أداة للاستدلال والنظر والفهم والمعرفة بينا هو عند الصوفية . النفس الناطقة ، أو هو محل المعقولات . فالعلم لدى الصوفية إذن هو كما يقول عليه السلام : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيشرح به الصدر ، أما علامته فهي « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » .

والنفس ، إما نفس مطمئنة ، إذا سكنت للأمر ، وحفظت التوازن بين شهوات الجسم ؛ وإما نفس لوامة ، إذا لم يتحقق سكونها فاضطربت مع شهوات البدن ؛ وإما النفس الأمارة بالسوء إذا استسلمت للشهوات ، واسلست لها التماس ، وأفسحت المجال للشيطان . وما أشبه « الغزالي » فى تقسيمه هذا بـ « أفلاطون » الذى يقسم النفس إلى عاقلة وغضبية وشهوية . فالأولى تقابل النفس المطمئنة ، والثانية تقابل اللوامة ، والثالثة تقابل الأمارة بالسوء ، وذلك على الرغم من اختلاف أساس التقسيم عندهما .

وأهم من هذا وذاك هو الله ، وفرق شاسع بين معرفة الله عند الصوفية ، ومعرفته عند الفلاسفة . سئل « ذو النون المصري » : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب : « عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي » ، فطريق معرفة الله هو الله نفسه « وسئل « النوري » : ما الدليل على الله ؟ فأجاب : « هو الله » ، قيل له : وما العقل ؟ قال : « العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » فلا العقل يؤدي بنا إلى الله ومعرفته ، ولا الاستدلال العلمي بكاف لكي نعرف الله ولكن « الله » ، إن كان ثمت طريق لمعرفته ، فهو عن طريقه « هو » . الله يشرق بنوره على قلب عبده ، ويحتلي بذاته ، ويظهر بجلاله . لا شك إذن في تلك المعرفة عن الله ، التي تأتينا عن طريق الله نفسه . أما أن نعرف الله عن طريق العقل فذلك أمر كله شك وكله ريب ، وما أدل على ذلك من أنه إذا اصطنع فيلسوف براهين على وجود الله ، إذا بفيلسوف آخر يهدم له براهينه ، ويقول بأخرى ^(١) ، إذن فهذه وتلك محل شك ، وما دام فيها ظل من الشك ، فهي غير يقيمية ، أى أنها لا تؤدي إلى يقين ، وهذا « الله » الذي لا يقين فيه ، ليس إلهاً ، ولسنا إذن نعرفه كما ينبغي أن نعرف الله .

فنحن إذا عرفنا النفس ، ثم أثبتنا عن طريق النفس معرفة الله ، ونحن إن دالنا على الله بمختلف الأدلة : سواء في أنفسنا أو في غيرها ، فإن هذه المعرفة لا تبلغ أبداً يمين المعرفة التي يتمدّد الله بها في قلوب عباده المصطفين . ويدلنا الأثر التامثل : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » يدلنا على أننا لا نعرف الله إلا إذا عرفنا أنفسنا ، ولن نعرف أنفسنا إلا إذا تجردت عما يشوبها من مادة ، وما يتعلق بها من أوشاب .

وبعبارة أخرى ، لن نعرف الله ، إلا من عرف نفسه ، ومن سلك طريق المعرفة الصحيح ، طريق الذوق والوجد .

(١) يلاحظ أن الفلاسفة رغم اختلافهم يتفقون جميعاً على براهين معينة ، ومن هنا كان في هذا الدليل مغالطة منطقية .

أسباب الفتنة في عهد عثمان

للماضرة الأستاذ عبد المصم السبح

مارس أول الآداب بالمعاهد الدينية

للفتنة فى عهد عثمان أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، وهى من هذه الوجهة أشبه الثورة الفرنسية ، كما تتشابهان كذلك فى أن حدوث كل منهما فى صفحة التاريخ كان أمراً لا مفر منه ، وهذا لأنهما يرجعان لعوامل غير مباشرة ، لم تكن من خلق الزمن الذى حدثنا فيه . غير أننا نستطيع أن نقرر أنه كان من الممكن أن تحدثا فى تاريخ آخر لاحق ، لو لم توجد العوامل المباشرة التى أدت بهما إلى الحدوث زمن عثمان رضى الله عنه وزمن لويس السادس عشر .

ويمكن حصر الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة فى التطور الاجتماعى الجديد الذى طرأ على حياة المجتمع الإسلامى نتيجة الفتوحات الواسعة التى تمت زمنى أبى بكر وعمر ، كما يدخل فى ذلك أيضاً ، العصبية التى تميز بها العربى ، وتلك الروح العربية الثورية الجارحة أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع اسم « روح الجنس » .

هذا عن الأسباب غير المباشرة للفتنة ، أما أسبابها المباشرة فيمكن ربطها بضعف سياسة الخليفة ، وسنعرض فى شىء من البسط والتحليل لسكلا النوعين من أسباب هذه الفتنة الشنيعة . التى ذهب ضحيتها خليفة المسلمين الثالث عثمان رضى الله عنه .

يقول علماء الاجتماع إن الثورة دائماً خليفة التطور ، سواء أكان هذا التطور دينياً ، أم فكرياً ، أم مادياً ، أم سياسياً . ثورة تطيح بالتقديم التمايم من نظم الحكم أو الديانة المرعية أو الأفكار والمعتقدات السائدة أو نظم التجارة المتبعة أو أصول الفن المعروفة ، ثورة تطيح بكل ذلك ، وتفسح المجال لنظم جديدة ومعتقدات جديدة وقيم جديدة . فكلنا يعرف مدى فزع دولة الأوثان عند ما انبثق نور

الهداية الاسلامية يكتسح ظلمة شبه الجزيرة العربية ، فجفلت دولة الباطل بمويقاتها وعلا صرح الحق كالطود لا يريم ، وكلنا يعرف كذلك مدى ما أزكت به آراء « فولتير » و « جان جاك روسو » و « منتسكيو » نيران الثورة الفرنسية ، التي راحت تلتهم القديم الجائر ، وتمهد لحياة أخرى أكرم ببنى الإنسان ، وما فزع أباطرة روما ، ذات التاريخ الوثني العتيـد ، يوم طرقت المسيحية أسوارها ، وجنوحهم إلى « بيزنطة » ، إلا دليل على هذا التطور الجديد .

ونحن لا يخفى علينا ، أن المجتمع الإسلامي ، أواخر عهد عمر ، كان قد تهيأ لاستقبال طور جديد ، من أطوار حياته ، وأنه بما تم له من الانتصار المؤزر على أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وبما غمره من الغنائم والأموال والسبي ، وقد بدأ يودع طور البداوة وعيشها الناضب ، ويستقبل حياة التحضر ، وعيشها الخصب ، غير أن العبقريّة العمريّة ، لم تفتح هذه الظاهرة الجديدة في حياة المسلمين ومدى ما قد تحدّثه من نكسات لو أرخى لها العنان ، فراح يضرب للناس من سيرته العادلة الزاهدة المقتصدة أروع الأمثال ، فبهروهم بذلك ، وحملهم على الطريق السوى ، كما دفعهم إلى الاقتداء والتشبه بسيرته .

وأهم مظاهر التطور الاجتماعي لذلك العهد ، تضخم الثروات ، بما آل إلى المسلمين ، من خيرات الأمم المغلوبة . ولتد عددت المصادر الشيء الكثير من هذا الثراء العريض الذي استجد على الصحابة والمسلمين ، ومن هذه المصادر ، تاريخ الطبري ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للسعودي ، وتاريخ ابن عساكر ، والكامل لابن الأثير . ومن هؤلاء الذين أفاضت المصادر في عد ثروتهم ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام ، وطلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يقال له ، طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، ومن الأغنياء الذين ورد ذكرهم أيضاً ، خبّاب بن الارت ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وغيرهم . والشيء الذي يسترعى الانتباه ، أنه قد وجدت طبقة جديدة أصابت من الثراء ما تشرد عند وصفه الألباب ، وقد جر هذا طبعاً ، إلى حياة البذخ والترف في عهد عثمان ، الذي ترك لتقرّيش وسواهم الحبل على الغارب ، يتأثّلون التمرى والضياح ، ويشيدون الدور والأبنية الفخمة ، وبذا بدا التطور

واضحاً جلياً ، حيث طرحت حياة البداوة الساذجة جانباً ، ومال الناس إلى التكاثر بالأموال ، وبجانب هؤلاء ، وجدت طائفة أخرى ، خاب مسعاها في الحياة ، فنظروا إلى طبقة الأغنياء ، نظرة حقد وحسد ، ودب في نفوسهم ديب اليأس والتمرد ، ومثل هؤلاء ، هم الذين يهدون للثورات ، وينفخون في أبواقها . ولقد أدرك عمر ذلك قبل موته ، وقال مشفقاً على المسلمين ، لما رأى أسلاب فارس وما فيها من ياقوت وزبرجد وجوهر ، « بالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا — إلا ألقى الله بأسهم بينهم » . ولقد كان عهد عثمان ، كما سلف ، دور انتقال من حياة العداوة الجافة إلى حياة التحضر المترفة ، فكثر لديه الأموال كثرة هائلة ، اتخذ لها الخزائن ، فانتشر القيل والتمال ، وأصبح الأغنياء ، بل والخليفة نفسه ، محل طعن ومؤاخذه ، لما كان يخص به أقاربه من جاه ومال ، فدبت في البلاد روح السخط والتذمر ، وحب الشغب ، وكرامية قريش ، ولعل ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولقد صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك من الأسباب الممهدة للفتنة « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » .

وليس من شك في أن اندلاع لهيب الفتنة في عهد عثمان ، مرده إلى مجارة الخليفة نفسه للتطور الاجتماعى ، وهو ما لم يفعله عمر ، فقد أصبح لعثمان من الثروة ما لم يكن لأحد من سلفيه ، وإلى جانب ذلك ، مد الخليفة للصحابة والتابعين والأقربين في هذا المضمار مداً ، وتلك حالة جديدة لم يشهدها عهد السلفين الكبارين أبى بكر وعمر ، فخر ذلك في نفوس الناس ، ووجدوا من ضعف الخليفة وليته ، ما شجعهم على القيام بفتنتهم المشتومة .

وإلى جانب تضخم الثروات كظهر من مظاهر التطور الاجتماعى في ذلك الحين برز مظهر آخر من مظاهر هذا التطور ، وهو اختلاط الأجناس والعناصر المختلفة فقد أصبح المجتمع الإسلامى ، بعد حوادث الفتوح ، محيطاً زاهر العباب ، يموج بكثير من مختلف الأجناس والأديان ، وكان منهم الموتورون بسيوف المسلمين ، دخلوا الإسلام غير مخلصين ، يتحينون الفرص للإضرار بالمسلمين ، ومن هؤلاء « الهرمزان » و « جفينة » و « كعب الأحبار » و « عبد الله سبأ اليهودى » ، عماد

الفتنة الأكبر، وداعيتها الأول . وفوق ذلك كان للسبي والاسترقاق والخلط بين العناصر، أثر بعيد الفور، في إعداد المجتمع الإسلامي، لهذه الفتنة، وقد كان أبناء السبايا من شر ما منى به المجتمع العربي، وقد قال عثمان رضى الله عنه: « إن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن » .

وهناك مظهر ثالث من مظاهر التطور الاجتماعى، وهو التمازج العامة لهذا العهد، فتمتد كانت الثقافة زمن النبي الكريم، ثقافة بسيطة موحدة، إذ كانوا يتمفون عند ما جاء به الله، وما علمهم رسوله الأمين، لا تكلف ولا ابتداع ولا أمت ولا عوج، وكانوا لا يعرفون التأويل بما يوافق أهواءهم، ولا اللعب بالنصوص لحساب منافعهم، فلما كانت الفتوح وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى، راح أهل الأقطار المختلفة يقرأون القرآن، كل بالطريقة التي يراها، وبالنعمة التي تعنيه، ففرع لذلك « حذيفة بن اليمان » ووجد المصحف . وبالإضافة الى ذلك، راح القوم، وقد استنارت عتمولهم في المجتمعات والأندية والمؤتمرات، ينظرون الى سياسية الخليفة، نظرة الناقد، ويتطلعون الى أعماله تطلع المدقق المحاسب وأحياناً كانوا ينظرون الى هذه السياسة نظرة السخرية والإزدراء، ومن ثم كان هذا المظهر الثقافى الجديد ذا أثر فى التمهيد للفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة الشنعاء، ما تميز به العربى من روح التعصب، فلما جاء الإسلام، حارب هذه النزعة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذا اختفت هذه النزعة زمن النبي، ثم برزت أيام الردة، ثم اختفت بفضل أبي بكر، إذ شغل المسلمين بأمر الفتوح، وكان عمر يسعى جهده للتضاء على هذه النزعة، وكانت قريش محل حسد وحتد القبائل العربية الأخرى، لما لها من المسكانة والصدارة، ثم كان هناك التعصب أيضاً بين بيوت قريش وبطونها، وأمر ذلك واضح فى الخلاف الذى شجر بينهم عندبيعة عثمان، وقد كان لروح التعصب هذه، أثرها البعيد المدى فى تعكير الجو حول الخليفة، وفى إشعال نيران الفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة أيضاً، الطبيعة العربية، أو ما يطلق

عليه علماء الاجتماع «روح الجنس» ، وقد تميزت الروح العربية بالجنوح والعناد ، ولقد قال عمر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة «إنما العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده ، أما أنا ، فارب الكعبة لأحملنكم على الطريق» ولقد استطاع عمر أن يحملهم على الطريق حقاً ، فلما آل الأمر لعثمان ، ولم تكن له عبقرية عمر ولا حمزه ، انفلتت من يده ، مقادة هذه الأمة بالجنوح الأنوف ، وانفجر بركان الفتنة ليوذى بالخليفة الطيب الورع عثمان .

بق من أمر هذه الفتنة أن نورد أسبابها المباشرة ، وتلخص فيما أجمع عليه المؤرخون ، من ضعف سياسة الخليفة ، ولو وضعت الخلافة آئذ في يد قوية ، كيد على بن أبى طالب ، لكان من المرجح أن تتأخر هذه الفتنة إلى وقت لاحق ، وقد كان عثمان أقل من أن يقود أمر أمة كالأمة العربية ، وخاصة في هذا الطور الذى بلغت فيه درجة الغليان . وأول مظاهر هذا الضعف ، حياؤه ولينه ، وليس أدل على ذلك من رفضه تفتيش «كميل بن زياد» ، وخضوعه للمفتونين الثائرين من أهل الكوفة والبصرة ، والسير وفق أهوائهم الجامحة ، فكلما طلبوا منه عزل عامل وتولية آخر ، إستجاب لهم ، راجياً بذلك ، أن تسلس مقادتهم له ، ولكنه بتلك السياسة ، هون من شأن ولاته ، وأطمع أولئك الطغمان الحاقدين فيهم .

ثم كان كبر سن الخليفة ، من العوامل المهيئة لهذه الفتنة ، إذ من طبائع النفس البشرية ، هيبة التموى ، والطمع فى الضعيف ، وعلى قدر ما كانت قوة عمر ونشاطه وتوثبه ، كان ضعف عثمان وانكساره وعجزه وتردده ، فسهل على بطائنه قطع الأمور دونه ، والعمل وفق مآربهم ، وبذلك تهيأت الأقطار الأخرى للثورة ورفع راية العصيان .

روى الطبرى أنه لما حوصر عثمان قال : «ومن كانت لى عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ، وسيندمون على قتلى ، والله لو تركونى ، لظننت أنى لا أحب الحياة ، ولقد تغيرت حالى ، وسقطت أسنانى ، ورق عظمى» ، ومن ذلك يتضح مدى فعل السنون بالخليفة عثمان ، حتى صيرته شيخاً فانياً عاجزاً ليس له من رهبة عمر شيئاً .

ومن تمط الضعف فى سياسة عثمان : إشاره الأقارب ، فى مجتمع عنيد أنوف ، موج بالفتنة ، ويتطايرون منه شرر الحقد والحسد ، فكم من لوم ، وكم من عتاب ،

وكم من شكوى وجهت إلى عثمان وعماله ، وكان قد اصطفاهم من ذوى قرباه . والمؤرخون ينقسمون تجاه هذه السياسة قسمين : قسم يحذ ما ذهب إليه الخليفة من اصطفاء الأقارب ، بحجة أنهم كانوا أكفاء ، برهنوا على أنهم أهل للنقطة التى وضعت فيهم ، ومن هؤلاء : معاوية بن أبى سفيان ، ونضيف فى هذا الصدد أن روح التمرد ، التى طبعت هذا العهد ، أخافت الخليفة ، فلم يعد يثق بغير أقاربه ، وقسم آخر ، يخطئ الخليفة فى هذه السياسة ، ويقول بأنه كان الأجدر به أن يضرب التمرد من نفسه ، وأن يحذوا حذو عمر فيما اتخذه من سياسة تجاه أقاربه .

ومما تقدم ترى أن سياسة عثمان هذه ، وقد مهدت لإشعال نيران الفتنة ، وقد كان عثمان فى حاجة إلى مثل عبقرية عمر ، إذ كان حاكماً مثالياً ؛ بأدق معانى هذه الكلمة ، فما كان يمنع أن يربط على كتف بدافع العطف من أن يتناولها بالدرة بدافع العدل ، قبل أن يقرم صاحبها من مجلسه ، أما عثمان فتعد كان ينبوع رحمة ، ونسيم رقة ، له صفات من يعطى ولا يأخذ ، بسط للناس صدر خلافته ، حتى استطابوا المرعى ، فلما هم بزجرهم حزنوا وتمردوا ، ولم يستطع للفتنة قعاً ، فأكلته نيرانها .

ويجب أن نقرر فى ختام هذا البحث ، أن نظام الحكم ، ذلك النظام الذى لم يحدد سلطة الخليفة ، وموقفه من الأمة ، وموقف الأمة منه ، ولم ينص على طريق محددة للحكم ، كان من العوامل التى أفسحت مجال الفتنة ، فإن روح الشورى ، التى تشجع بها المسلمون زمن عمر وأبى بكر ، جعلتهم يتطلعون إلى التدخل فى كل شئ ، وكان مظهر الخلافة مظهر رعاية أبوية بعيدة عن العسف والقهر ، غير أن هذا التسامح قد جر الفوضى ، والافتيات على الحقوق ، والاختلاف على ما كان يقع من الأحداث ويحد من الوقائع ، فلم يكن القول لهيئة خاصة ، ولا لطائفة معينة ، وقد كان عمر يرمى من وراء ذلك إلى تدريب كل مسلم على معرفة نصيبه من الواجب العام والمصلحة المشتركة ، غير أن ذلك انتلب فى عهد عثمان إلى جرأة وتناول عليه ، مما مهد الأمور للفتنة .

هذه هى الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى انتهت بالفتنة الشنعاء حيث كان ضحيتها خليفة المسلمين الثالث « عثمان رضى الله عنه » .

إمام المفسرين ابن جرير الطبري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

لعل في ترداد النظر في تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله . ما يحفز نفوسا كريمة أو يرفع هما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أ كفاء . ولا فضل للإنسان إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أو آثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبنى دائماً أن أطلع القراء الكرام ، بسير هؤلاء الأئمة الأعلام .

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير المشهور والتاريخ المعروف ، في القرن الثالث الهجري ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة في التأليف والتدوين وهي نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسي وتبتدىء به . وكان المنصور العباسي قد شجع العلماء ، وأغرى بالتأليف الأئمة والفقهاء وأمره في موطأ الإمام مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبي للغة العربية وآدابها ومعارف الدين والدنيا .

ولد الطبري سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، فبهي خمس وثمانون سنة تقريبا قضاهما في جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبت سبله . وعذبت مناهله . مع ذكاء نادر وحفظ عجيب . وتفريغ وزهادة . وتوفر على العبادة . فطوف بالآفاق يرتاد المعارف ما بين الرى . وبغداد . ومصر ، والشام ، والبصرة ، والسكوفة . وقد طال مقامه ببغداد بدءا وعودا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت بغداد كعبة القصاد ، وموئل الرواد ، ونجعة العالم والأديب وجمع كل حسن وطيب - وهي التي يقول فيها ابن هانئ :

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

بدأ يطلب الحديث بالرى وما جاورها ، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد بن حميد الرازي والمثنى بن ابراهيم الأيلي . وغيرهما . وحدث عن نفسه في قصة يذكرها بعض المتصلين به . أنه دخل عليه هو وابنه فقال له في حديث جرى . كم لهذا سنة ؟ قال تسع سنين . قال لم لم تسمعه مني ، قال كرهت صغره وقلة أدبه فقال لي : حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين (١) وكتبت الحديث ، وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لي أبى في النوم أنى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر إنه إن كبر نصح في دينه ، وذبح عن شريعته . فحرص أبى على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير .

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام ، فأقام بها وكتب عن شيوخها فأكثر . ثم صار إلى الكوفة فكتب فيها عن محمد بن العلاء الهمداني وإسماعيل ابن موسى وغيرهما . ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة . ونفقه بها وأخذ في علوم القرآن ، ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط سنة ٢٥٣ . وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتبة من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم .

وهكذا ظل يتنقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمة ، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد ، وأفاض على الناس من علمه في شتى الفنون ، وكتب مؤلفاته ، وما زال بها سراجاً منيراً ، وشمساً مشرقة ، حتى قضى سنة ٣١٠ هـ . هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم في جمعه من جميع منتجاته ، والاستنتاج والإنتاج ، وإذا فنزلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادي إذ يقول :

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام

[١] من مذهبا « الحنفى ، أن البلوغ شرط في صحة الامامة .

القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، ناصحها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام وسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم.

وانتد أعجب به العلماء والمؤرخون. وجميع أصحاب الفنون في فنونهم، وذكر الرواة عنه كثيراً من العجائب، فقالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة. وقالوا إن قوماً من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاة فصار منها كل يوم أربع عشرة ورقة. وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عن أكثرها التصنيف، كأبي الفرج الجوزي، وجلال الدين السيوطي. ولعل في أحوال بعض المعاصرين. من أمثال الدكتور طه حسين باشا، والأستاذ العقاد وغيرهما ما يترب هذه الروايات، فقد كان السابقون أفرغ بالاً، وأبعد عن شواغل المدنية. وأقل منا أخذاً في حظوظ الدنيا ومتعها.

ولعل ميزة للطبري لم يشارك فيها هي أنه يزاحم رجال الاختصاص في اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم. بل لتمد سبق كثيراً منهم ولا سيما في تفسيره الوحيد الذي جمع بين مسالك السلف في الرواية. والخلف في دقة الفهم والدراية.

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الإمامة في التفسير، وفتح الناس بكتابته الذي انتشر منذ عهد، وأكب الناس على قراءته، يسرحون الطرف في فسيح رياضته، ويملاون العمول غداء وكرعاً من حياضه، وهو تفسير خالد يتحدى كل عالم ومفسر حتى اليوم. وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائيني فقال في شأنه «لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً».

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال.

«إن أبا جعفر قال لأصحابه: أتتشطون للتفسير، قالوا كم يكون قدره، قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال هل تشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا، قالوا كم يكون قدره فذكر نحواً مما قال في تفسيره، ثم قال: إنا لله، ماتت الهمم.

وهذا إن صح أكبر دلالة على همة ونشاط تفضل الأذهان في إدراكهما، وقد

قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠.

ولعل لنا نظرة في تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها كما وصفه الخطيب . وقد ذكروا في تاريخه أنه كتب عن أبي كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث . وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعي .

ولهذا فهو فقيه مستقل ، وإمام مجتهد يذكر في طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا في صباه يوم ابتدأ الفقه بمدينة السلام على مذهب الشافعي ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز .

وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذي جمع تاريخ الدين في كتابه مع تحرر في الرواية وقوة في الأسلوب .

ثم هو في علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته في التفسير وشهد له به أئمة العربية : كأبي العباس ثعلب الذي يقول فيه إنه من حذاق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لا حد بالحذق .

وسأحملك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يحمله أحد عرفه لجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد من هذه الأمة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركاً لها يرفع نفسه عن التماسها . وكان كالفارسي الذي لا يعرف غير القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالنجوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب . وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم وإذا جمعت بين كتيه وغيرها وجدت لكتبه فضلاً على غيرها .. إنتهى .

وقبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير إلى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق في الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلفان لا أرضى طريقتيهما بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكبر بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر
رحمك الله يا ابن جرير . وجعل منك في أمتنا أسوة صالحة كريمة ؟

وسائل النصر

لفضيلة الشيخ المنساوي عبود الخولي

المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر حكمته تعالى أن أبدع خلق الإنسان وسوى نفسه وجعلها زاخرة بالآمال العذبة حافلة بالآمال الباسمة تواقه إلى أن ترى تلك الآمال حقيقة سافرة . وواقعا مشرقا ، وهي لذلك قد تسلك من الأسباب والوسائل ما تتخلف عنه النتائج فتفجع بالخيبة والحرمان ، والهزيمة والاندحار وهي أشد ما تكون حاجة إلى النصر وشوقا إليه ولهفة عليه فكان من مزيد عنايته تعالى بعباده أن بين لهم أن النصر تابع لقانون محكم دقيق وسنة كونية خالدة فن تنكب عنها تردى في هاوية الذل والهوان ومن استوى على صراطها حاله العون والإمداد والعز والإسعاد فقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أقدر منه على تنفيذ مراده فهو قيوم الأرض والسموات والمهيمن على شئون عباده ، والقابض على ناصيتهم . فما من مخلوق إلا واقع في قبضته وجل من سطوته . شملته إرادته ونفذت فيه قدرته وأحاط به قهره وسلطانه ، ولا يتم من أموره إلا ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته . بيده ملكوت كل شيء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) .

والنصر الذي طلبه تعالى من عباده يكون برعاية دينه ولذلك دعائم ثلاث — الأولى عتيقة قوية — الثانية عبادة خالصة لله وحده — الثالثة إحسان في معاملة خلقه : فسلامة العقيدة أن تخالط القلوب بشاشة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وأنة سبحانه صاحب العلم المحيط والسلطان القاهر ، فلا يعلم الغيب سواه ولا

شركة معه لنبي ولا لولي ، ولا ينازعه منازع في السيطرة على شئون خلقه فهو العظيم بحده ، الغالب جنده ، النافذ قضاؤه . السابغ عطاؤه (له متاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويمدر إنه بكل شيء عليم) فليس من الإيمان في شيء أن يتوكل الشخص على غير ربه ، أو يلتزم النذر لسواه ، أو يعتقد الضر والنفع في مخلوق من مخلوقاته (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) : ومن الكفر الصريح ما يفعله ضعاف العقول والسفهاء من اللجوء إلى هؤلاء الدجالين الفجار الذين يدعون علم الغيب وكشف المستقبل ، ويزعمون أن لهم قدرة على جمع القلوب وتفرقتها وتيسير الزواج وإنجاز الحمل ، وإطالة أعمار الأولاد ، وأن لكتاباتهم وأحجبتهم تأثيراً في الحفظ والإسعاد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) . وما تلك الأساليب إلا شباك يصطادون بها الأموال من البله والمغفلين . ولو صح أن لهم طاقة على تحقيق ما يدعون ، لكان الأولى أن يسعدوا أنفسهم ولا يكذبوا في جلب درهمات يسيرة يحتالون لسلها ممن وقع في شركهم . ولا ريب أن المسلم الذي يثق بهؤلاء قد انطفأ مصباح الإيمان في قلبه وأحاطت به ظلمات من الكفر بعضها فوق بعض (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وإذا أراد هذا المسلم أن يدرك حكم الرسول الكريم عليه فليستمع إلى ذلك بعد أن يزيل أكنة قلبه ووقر أذنه ، فتمتد قضي صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا الشخص قضاء مبرماً ، فقال (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن ما أنزل عليه هو قوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) فإذا كان الرسول وهو أكرم الخلق على الله لا يملك النفع والضر لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره وتبرأ من علم الغيب ، أفيملك النفع والضر ويعلم الغيب هؤلاء الأرجاس الملوثون ؟ ولكن صدق الله حيث يقول (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الأمر الثاني : إخلاص العبادة له وحده بأن تملأ قلبك بجلاله وعظمته . عابداً له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ملتزماً بالمنهاج الذي ارتضاه لتقديسه وتمجيده مسارعاً إلى إقامة العبادات مستوفية لشروطها وأركانها قريرة

بها عينك مبهجة بها نفسك ، حريصاً على أن يظهر أثرها في السلوك والحياة العملية معتقداً أن ثمرة ذلك ترجع إليك وحدك ، فهي تزكية لروحك ، وتطهير لقلبك ، وتسكريم لشخصك وسمو بإنسانيتك ، وتشريف لها بمناجاة الله تعالى والاتصال به والحصول على عظيم امداده ووافر جزائه (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين) فما عبد الله من حج رياء وسمعة ، أو قام إلى الصلاة مثاقلاً متباطئاً غافل القلب في أدائها ، حتى أضحت صوراً وأشكالاً لاحقيقة لها ، وجسماً ميتاً لاحياة فيه . وحقيق بمثل هذا ألا يكون عابداً لله ، وألا يصح انتسابه لرسول الله فقد روى أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه رأى رجلاً يسرع في صلاته فقال له : ما صليت ولو مت على ما أنت عليه مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدًا .

الأمر الثالث : الإحسان في المعاملة بمراقبة الله تعالى في عباده بأن يشعر كل إنسان أنه لبنة في بناء المجتمع فعليه أن يركز جهوده في إسعاد بني جنسه وتوفير هئاءتهم ويتبادل معهم المودة والإخاء والآنس والصفاء وذلك قوام كل مجتمع صالح يتوثب أفراداه للنهوض وبلوغ أوج العزة والكمال . وإلا فإقامة مجتمع لا يرحم فيه الضعفاء ولا تسمح عبرات الاشتياء ولا يعطى السائل والمحروم حقه في مال الأغنياء ولا يؤخذ على يد الظالم ولا ينتصف للمظلوم . وتهدر الكرامات . وتنهك الحرمات عندئذ تكون الحياة جحيماً مستعراً وعذاباً وبليلاً .

ومن الإحسان في المعاملة إصلاح ذات البين وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمحاربة العدو الغاشم والتسلح له بالسلاح الذي يخافه ليظل جانبنا عنده مهيباً وسلطاننا مرهوباً . ولنتظر نظرة عابرة إلى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنه سميت حكمته لم يحدد نوع القوة التي نعدّها لتفسر في كل زمان بما يرهّب أعداء الإسلام : - والاستعداد على هذا النحو هو السلم المسلح الذي يمنع عدوان القوى على الضعيف ويفيض الأمن في ربوع البلاد فيعيش العالم في سلام دائم وصفاء شامل :

هذا هو هدى الله في نشر الأمن بين الناس لا ما ترعّمه تلك الدول العاتية من حماية السلام وأقامت لذلك مجلساً يسمى مجلس الأمن . وأحاطته بسياج براق من الدعاية الزائفة . وما هي إلا أساليب ماكرة خادعة تضمّر وراءها خبيل الثعالب وروغانها وشراسة الذئاب وغدرها واغتيال الأمم المستضعفة والتهام الشعوب المغلوب على أمرها . نخفدوا حذرهم منه أيها المسلمون فمثل هذا الصنيع

الاثم صدر عن شخص تراحم عناصر الشر في نفسه ولم يعدم طلاء خذاعاً فنزل فيه قول العليم الحكيم (أسس بذيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) .

أما : إذا أردتم أن يكون النصر حليفكم في قضاياكم العامة والخاصة ، فلا يكفي لذلك وضوح القضية ، بحيث لا يرتاب أحد في عدالتها ، أو إقامة الحجج التي ترفع شأن حقكم ، وتدفع باطل عدوكم . بل لا بد مع هذا كله من سلوك الأسباب التي هداكم الله إليها ، وأن تصلحوا ما بينكم وبينه ، وتستمسكوا بهديه ، وتجمعوا على طاعته . والاعتصام بحبل مودته ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حاول أمراً بطاعة الله كان أقرب مما رجا وأبعد مما اتقى ، ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى » . وفي هذه المدرسة القدسية تلقى تلك التعاليم الحكيمة أبطال الإسلام الذين نصرُوا بالرَّعب ودانت لهم أعناق الجبابرة ، وكانوا رحمة مهداة إلى الإنسانية ، رفعوا عنها إصرها ، وأقالوها من عثرتها ، وأسدوا إليها الحياة المساجدة ، والمدنية الفاضلة . وما ظفروا بهذا التوفيق البارِع ، إلا لأنهم اتخذوا طاعة ربهم معراجاً لكسب ولايته ، وجميل رعايته « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد ابن أبي وقاص وقد أمّره على حرب العراق .

(أما بعد فإنى أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المسكيدة في الحرب . وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نفعلهم بقوتنا)

أيها المسلمون : هذا شعار أسلافكم فترسموا خطاهم واحملوا مشعل هدايتهم وجدوا السير في طريقهم وعندئذ لا تكون يد عليكم إلا يد الله وهى معكم بالعون والإمداد أينما تتجهون . ولا تهولنكم قوة عدوكم فهى منهارة أمام تأييد الله لكم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

حرف بمانند الف

افضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

لله در أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ^(١) حين قال في فاتحة كتابه « فقه اللغة » :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التي نزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همهته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداة للعلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالينبوع للساء ، والزند للنار ، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر في جلائلها ودقائقها ، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة ، التي هي عمدة الإيمان ، لسكفي بهما فضلا يحسن فيهما أثره ، ويطيب في الدارين ثمره ؛ فكيف وأيسر

[١] ولد في نيسابور سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفي سنة تسع وعشرين أو ثلاثين وأربعمائة ،

وكتبه كثيرة ، وتاريخه مبسوط .

ما خصها الله عز وجل به من ضروب المباح ، يُكل أعلام الكتبة ، ويتعب أنامل الحسبة ؟ ^(١) .

نعم فالعربية لغة آرها الحق منذ القدم بتمجيده ، وهياها لتكون لسان وحيه ، وصوت عبادته ومناجاته ، فكان من صغره سبحانه لها أن برع أهلها في طرائقها وفنونها ، ومهروا في تشقيتها وتصريفها ، وأبدعوا في تضمينها الكثير من أسرارها ورموزها . ثم جاء قوم منهم في ركاب الإسلام الساطع فتعبوا في ضبط شواردها ووضع قواعدها وتنظيم أبوابها ، وحرصوا على تعلمها وتعليمها ؛ وانفقت كلمة هؤلاء وأولئك على وسم المهمل لها المخالف لأحكامها الجاهل لقواعدها بسمة الشين والغيب ، حتى كانت سبة « اللحن » من أقوى العوامل في إسقاط مكانة الرجل والإزاء عليه !

ومن عجب أمر هذه اللغة الشريفة العريضة أن لها من الدقائق والخفايا ما يستثير شغف اللبيب ، ويستحوذ على جهد القادر ، ولا تزال هذه الدقائق تبتدى من أضوائها وتطوى حتى تبعث العجب والإعجاب ، وكمن دفائن وكنوز اشتملت عليها كتب العربية من قديم !

ومن بين أسرارها أن الكلمة الواحدة من كلماتها تدخل عليها الحركة الواحدة فتقال حرفاً واحداً من حروفها فتكسب الكلمة بهذه الحركة معنى خاصاً فإذا ارتفعت هذه الحركة عن هذا الحرف من تلك الكلمة وجاءته حركة أخرى زال المعنى الأول ، وجد للكلمة معنى آخر ، وهكذا لا تزال المعاني تتكاثر وتختلف بتتابع هذه الحركات واختلافها ، وكل هذا مما يحتاج أشد الاحتياج إلى الألباء من الرقباء الدارسين يعكفون باحثين وملاحظين ، ثم مقيدون وحافظين ، ثم ناشرين ومعلمين ، وبهمم هؤلاء تظل العربية مرفوعة اللواء زاهية الرواء .

خذ على سبيل المثال كلمة « السداد » . . . وهي كلمة واحدة من جملة كلمات تشملها مادة السين والبدال المشددة . . . إن هذه « السين » من كلمة « السداد » تلك تكون مفتوحة تارة فيكون معناها التمسك والتقويم والتوفيق والصواب ؛ جاء

في النهاية لابن الأثير ما ملخصه : « قاربوا وسددوا : أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد في الأمر والعدل فيه ؛ وقال الرسول العلي : سل الله السداد واذكر بالسداد تسديدك السهم ، أى إصابة القصد ، وسئل عن الإزار فقال : سدد وقارب ، أى اعمل شيئاً لا تعاب على فعله ، فلا تفرط في إرساله ولا تشميره ، وفي صفة متعلم القرآن : يغفر لأبويه إذا كانا مسدين (بكسر الدال وفتحها) أى لازمى الطريقة المستقيمة ... وكان له قوس تسمى السداد ، سميت به تفاؤلاً بما يرمى عنها » .

وفي أساس البلاغة للزمخشري : « وهو على سداد من أمره وسدد ، وقلت له سداداً من القول وسدداً ، واللهم سددي : وفقني ... وأتتنا الريح من سداد أرضهم : من قصدها . قال :

إذا الريح جاءت من سداد بلادها أتانا بها مسك ذكي وعنبر

وفي القاموس المحيط : « سده تسديداً قومه ووقفه للسداد ، أى الصواب من القول والعمل ، وسد يسد صار سديداً ؛ وأسد أصاب السداد » .

وتارة تكون السين مكسورة ، فيتغير معنى الكلمة دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص في حروفها أو بقية حركاتها ... إن معناها حين الكسر يكون شيئاً آخر غير معناها عند الفتح :

في النهاية لابن الأثير : « حتى يصيب سداداً من عيش أى يكفي حاجته . والسداد بالكسر ، كل شيء سددت به خللاً ، وسمى به سداد الثغر والقارورة والحاجة » . وفي الأساس : « سد الثلمة فانسدت واستدت وهذا سدادها .. ومن المجاز : فيه سداد من عوز بكسر السين . يقال : ما به سداد أى عيب يسد فاه فلا يتكلم » . وفي التماموس : « وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش ما يسد به الخلة ^(١) ، ويفتح ، أو لحن .. » . وفي فقه اللغة للثعالبي : « كل شيء سددت به شيئاً فهو سداد ، وذلك مثل سداد القارورة وسداد الثغر وسداد الخلة » ^(٢) .

فإذا ضمت هذه السين كان للكلمة معنى ثالث بعيد عن المعنيين السابقين ،
لأنه يصبح داءً غير مستطاب ، جاء في القاموس المحيط : « والسَّدَاد (بضم السين)
داء في الأنف » ^(١) . ومثل كلمة « السداد » في ألفاظ اللغة مئات ومئات من
المشيلات والشبهات ! ..

ومن لطيف ما يروى عن كلمة « السداد » تلك كشاهد من شواهد عناية
السابقين بالعربية ، وحرصهم على حفظها وتنقيتها ، وكلف القادرين من رجالاتها
بإثابة حراسها وإجزال العطاء لهم ، وعيهم من لحن فيها أو أخطأ ؛ ما ذكره
التاريخ عن النضر بن شميل ^(٢) الإمام الثقة في العربية والحديث ، فقد كان من عادته
أن يدخل على الخليفة المأمون في سمره ^(٣) ، فدخل عليه ليلة وقد لبس قميصا
مرقوعا ، فعجب منه المأمون وقال له : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على
أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب ؟ فأجاب النضر : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف
وحر « مرو » ^(٤) شديد ، فأبرد بهذه الخلقان ^(٥) . قال المأمون : لا ولكنك
متقشف .. ثم جرى الحديث بين الجمع ، والحديث ذو شجون ، فأجرى المأمون
ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لديها وجماها كان فيه
سداد من عوز » ونطق كلمة « سداد » بفتح السين منها . فقال النضر :

[١] نحن نتكلم عن اختلاف المعنى باختلاف الحركة دون تعرض لتفصيل العلاقات المجازية التي
قد تكون هناك بين أحد المعاني وبقيتها .

(٢) ولد سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وتوفي سنة أربع ومائتين . [٢] قال أبو سليمان الخطابي
في حديثه عن إعجاز القرآن مشيرا الى دخول النضر على المأمون : « وأما قول القائل لصاحبه : اقعده
واجلس ، فقد حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فثل بين يديه وسلم ،
فقال له المأمون : اجلس . فقال : يا أمير المؤمنين است بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ .
قال : قل اقعده . فأمر له بجائزة . قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنا يصح إذا اعتبرت إحدى
الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول القيام والقعود ، كما تقول الحركة والسكون ، ولا نسميهم يقولون
القيام والجوس ، وإنا يقال : قعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة أو استلقا ، ه .

[٤] مرو : بلد بفارس [القاموس] - [٥] الخلقان : بضم فسكون الثياب التي لبست حتى
بليت عن الأسان] .

« صدق (!) يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز » . ونطق كلمة « سداد » بكسر السين كما يجب .

وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : يا نضر ، كيف قلت سداد ؟ . قال : لأن السداد هنا لحن . فقال : وتلحنى ؟ . فأجاب النضر : إنما لحن هشيم وكان لحانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه . قال المأمون : فما الفرق بينهما ؟ . أجاب النضر : السداد بالفتح القصد فى الدين والسييل ، والسداد بالكسر البلغة ^(١) وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال المأمون : وتعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعونى ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ، ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأل النضر عن أخلب بيت للعرب وأنصفه وأفنعه ، فأنشده أبياتاً جزلة فيما سأل ، فقال له : أحسنت يا نضر . وسأله عن ماله وحاجته ، ثم كتب المأمون إلى الفضل بن سهل ليعطى النضر خمسين ألف درهم ، فمضى النضر إلى الفضل ، فلما قرأ الفضل التوقيع وفيه تلخيص القصة ضحك وقال : يا نضر ، أنت الملحن لأمر المؤمنين ؟ . قال : لا بل لهشيم . قال الفضل : فذاك إذاً . وأعطى النضر الخمسين ألفاً التى أمر بها المأمون ، ثم أعطاه فوقها ثلاثين ألف درهم من عنده ، فتمت للنضر ثمانون ألف درهم ثواباً لتصحيح حركة حرف فى كلمة ^(٢) !! .

وهذا البيت الأخير الذى استشهد به النضر ، وجاءت فيه كلمة « سداد » كان إنشاده سبباً فى رد الحرية على منشده السجين ، فعن عبد الله بن رجاء الغداني قال :

[١] البلغة بعهم فسكون : كل ما يتبلغ به من العيش . [٢] ذكرت القصة فى « تهذيب الأسماء واللغات » للنووى فى ترجمة النضر بن شميل ، كما ذكرت فى الأغاني ، وعنه نقلها صاحب كتاب « من أخلاق العلماء » .

كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف^(١) يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنه^(٢) الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب^(٣) الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسدداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته ، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس . فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير ، قال الأمير : إيدنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ؛ وقال : ما حاجتك ؟ قال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه . فقال : يا فتى ، أضعناك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان !^(٤)

وهكذا شهدت العربية فى عصورها الزاهرة ميادين بحث يستفيض حولها فيجدد إهابها ويحفظ شبابها ، وكانت هذه الميادين عامرة بالفرسان الذين يذودون عنها ويحمون ذمارها ، وبالتفاد الذين يمجدون أولئك الذائدين ويجزونهم خير الجزاء ؛ والمأمول أن يقيض الله لهذه العربية المجيدة التليدة من أشبالها ورجالها من يصل سلسلة العكوف عليها والهيام بها والذب عنها ، حتى تظل لغة الكتاب والخطاب !!

اللهم لا تجعل فى طرقتنا إلى الخير « سدأدا » ؛ وهب لنا من لدنك فى ديننا ودينانا « سدأدا » ...

[١] فى فقه اللغة : كل صانع عند العرب فهو إسكاف . [٢] جنه : ستره ، واستجن

بجنة ة استجر بها : وجن عليه لليل ، وواراه جنان الليل أى ظلمته . « الأساس » ،

[٣] دب الشراب فى العروق : أى أثر وثار .

[٤] انظر كتاب « من أخلاق العلماء » ، ص ١٨٥ وقد نقل القصة عن تاريخ بغداد .

الشعر المسرحي

المؤستاذ محمد حمزة الشبوح

ليسانسيه في الآداب

يتردد في الميدان المسرحي بين آن وآخر سؤال ، لا يكاد يحظى بجواب شاف ، من التأمين على المسرح وشئونه ، أو من الأدباء الذين يحفلون بالنقد المسرحي ، ويعالجونه بأقلامهم بين الحين والحين ...

والسؤال الحائر يريد أن يستكشف المحور الذي يدور حوله الشعر في المسرحيات ، والافق الذي يمتد إليه بالبحث والدرس ، والدور الذي يقوم به في التمثيلات . وهو سؤال ، وإن بدا للناظر العابر ، ذا صبغة فنية خالصة ، إلا أن ذلك لا يمثل في الواقع ، غير جانب واحد من السؤال الذي نستطيع أن نصوغه صياغة أشمل وأعم لمعناه ومرماه ، فنتول : ما هي علاقة الفن بالظواهر التي تبدو لأعيننا ، أو بتجاربنا الحسية والعقلية والخيالية ؟

وفي الحق إن الرواية الثرية ، نظراً لبساطتها ، استطاعت اليوم أن تنتزع الغلبة من الرواية المنظومة ، حتى لقد أصبح النظم وسيلة تعبيرية شاقة ، لا يستجيب لها غير النذر اليسير من الأدباء ، الذين يدركون أن التمثيلات الثرية ، في جوهرها ، لا تخلو من الغرابة والشذوذ ، عما ألفه المسرح التمثيلي في أزهر أيامه ، وأحفلها بالتأج الفني الرفيع ؛ بل إنهم ليرون المسرحيات الثرية جهداً ضائعاً ، وكفاحاً لا يثمر ، في سبيل ابتناء قصور فوق الرمال .

ونحن إذا نظرنا إلى شخصيات المسرحيات المنظومة ، وجدنا الشعر هو البوق الوحيد الذي لا تستطيع أن تنطق إلا من خلاله ، لأن الشعر يعتبر قوامها ، الذي لا فكاك لها عنه ، ونسجها الذي لا يمكنها الظهور إلا من بين ثنياه ؛ بل إننا لنحكم على تلك الشخصيات حكماً جائراً كل الجور إذا أردنا لها غير الشعر وسيلة من وسائل التعبير . فمثل هذه الشخصيات تفترق عن تلك التي تصادفنا في حياتنا

اليومية ، لأنها قد انصهرت في بوتقة التشذيب والتبسيط Simplification . ثم تعرضت بعد ذلك لتركيز ألوانها ، والمبالغة في أصباغها ، حتى غدت الدوافع الأولية ، التي تحملها على أقوالها وأعمالها ، أكثر وضوحاً وجلاء ، عنها في الحياة الواقعية التي اضطرب في موكبها ، وتختلط علينا ظواهرها ، وتشابك أوضاعها ، وتداخل ظلالها . وهذه العملية التي تنهض على التشذيب ، وتقوم على التبسيط للقوى التي تتألف منها دوافع الحياة اليومية ، لا بد أن تسير في ركابها عملية أخرى ، يستحيل بها ما تواضعنا عليه في الحياة اليومية من أدوات تعبيرية سقيمة ، إلى صور بيانية رائعة كالاستعارة Metaphor والتشبيه Simile وغيرهما .

وإلى جانب ذلك فالشخصيات التي نستعرضها فوق المسرح ، تكون أقوى سحراً ، وأشد تأثيراً من الشخصيات التي نتأملها في الحياة اليومية . . . ويعزى ذلك لما تمتاز به الشخصيات المسرحية من طابع منتظم ، ومظهر رتيب exaggerates shapeliness ، يعزز ما تموج به الحياة الواقعية من شخصيات يسودها اختلاط الطبع ، وغموض الطابع ، ومثل هذه الشخصيات ، بما تمتاز به من نظام وانتظام ، لا بد أن تفرغ حديثها في أسلوب تمتاز به هو الآخر ، ويسير جنباً إلى جنب مع مظهرها وطابعها . ومن ثم تنطلق في حديثها ، فإذا هو حديث يجري طبعياً ، كما تجري الدماء في الشرايين ، فيتوالى في أوزان مضبوطة ، كما تتوالى الدماء في ضربات منتظمة ، ولسكنا نجد للنظم ، فوق ذلك كله ، وظائف أخرى في التمثيلات الشعرية . وسواء اتفق النقاد الأدبيون أم لم يتفقوا على أن انتظام الطابع في الشخصيات المسرحية ، وتركيز ظلالها ، يستتبعان استنطاقها شعراً ، فإننا على أي حال ، لن نجد بينهم من ينكر إمكان صياغة الرواية الناجمة بأسرها ، في قالب شعري خالص ، يخلو من الصنعة ، التي تجافي الذوق الأدبي السليم ، وتتفق مع تيار الحياة نفسها ، ومن ثم تزداد مقاومة الشخصيات لذلك التيار ، كما يزداد توهجها ، وتزدهي ألوانها ولذلك فإن كل لفظة في التمثيلية المنظومة ، لا بد أن يحقق غرضين إثنين فيزيد الشخصية إيضاحاً ، ويقلل الأحداث خطوات إلى الأمام .

أما الهدف الذي ترمى إليه التمثيلية ، فهو وصف أدواء الحياة ، والبحث في وسائل علاجها . . . وهي تجسم هذه المشاكل ، وترسمها في قالب واضح ، عميق الأثر . وهكذا تصبح التمثيلية وسيلة عجيبة النفع في تصوير الحياة ونقدها .

وليس التعبير الشعري في التمثيلية ، بالنسبة للتجارب التي تصورها ، إلا كالخروج بالنسبة للكرم . ولذا نستطيع أن ننظر الى استخدام الشعر في التمثيلات كطريقة لتحقيق طبيعتها الأصلية التي تكمن وراء المفكرة Conception ، والتعبير expression .

والتعبير الشعري ، لا يهيء للمفكرة الشعرية مجالا فسيحا فحسب ، بل إنه يتيح لها ، الى جانب ذلك ، أن تصل من نفوسنا الى أغوار لا يصل إليها النثر ، مهما كان حظه من البلاغة موفورا .

ولعل السر الغامض الدقيق في ذلك ، هو بعد ما بين الشعر والمظهر الخارجى للحياة ، وقرب ما بينه وبين الرغبات الروحية التي تعتمل بين جوانحنا ، والتي لا نستطيع أن نجد لها صدى حقيقياً في الحياة الواقعية .

ونحن نستطيع بعد ما تقدم ، أن نحمل الهدف الذى يتجه الشعر التمثيلي نحو تحقيقه . . ذلك الشعر الذى يسرى في أجسادنا ، وأرواحنا ، وعمولنا ، فيوقظ منا الحواس ، والعواطف ، والقوى المفكرة ، ويربط بينها جميعاً في انسجام عجيب ، قوامه الشعور بالذات الذى يستحيل معه ذلك المصير الغامض ، الذى ينساق إليه الإنسان في حياته ، إلى ضوء شامل غامر ، يستمد بريقه وبهاؤه من ذواتنا ، بل من رغباتنا العميقة التي تستقر في أغوار نفوسنا .

فالتمثيلية الشعرية ، إنما ترمى إلى الكشف لسامعيها ، عن مواطن السرور في الحياة ، وعن التموى الكامنة في النفوس البشرية ، التي تيسر لها الحياة الرغيدة الصافية ، بل إنها لتجعل تلك القوى حتمية واقعة ، ماثلة أمام أبصارنا ، يتردد صداها في آذاننا كلما خلونا إلى أنفسنا بين الحين والحين . . وجماع ذلك كله أن الشخصيات التي نشاهدها فوق المسرح ، وهي تفرغ حديثها في أشعار طبيعية ، لا صنعة فيها ولا اصطناع ، إنما هي شخصيات تحفل شتى جنباتها بالحياة العميقة المفعمة بالقوة والصدق في أوجهها ، ومن ثم فإننا لا نعجب حين نراها تواجه المصير ، الذى يختاره لها الشاعر ، في عزة وشتم وإباء نمجدها جميعاً ، وتتمنى أن يكون لنا منها قدر يسير حتى نحكيها حين تتلاطم أمامنا أمواج الحياة ، حتى لنكاد نضل في مسارها المتشابكة ، وشعابها الفسيحة المتفرقة .

عجالات في الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمون

مدرس : معهد القاهرة

كلما خلوت إلى كتاب من تراثنا الخالد وأدبنا الذي تعمق في القدم وجرى على أسلة الأقلام الفذة ، وتمخضت عنه التراخي التي يعتز بها تاريخ الأدب العربي وانتاج الإسلامى . أجدنى أمام مخلفات حية ولفترات مشرقة تزيد على مر الأجيال صدقا ، وكأننا ألهم صاحبها أو كأن الغيب طوى له . فعبّر في أسلوب أو شرح خالجة أو صرف فكرة ، أو ألقى تجربة ، أو رسم معلما فيه هداية اليراعات التي تزيد النسيج في معترك المجتمعات السادرة ، والسارية في مهاب الحياة والأحياء وفي بيئات مترامية كما شاءت الازمنة والامكنة .

والأقلام القديمة المفتحة كان في أكثرها ظلال الاستطراد وشاهدنا دقلم الجاحظ ، وصناعته في (كتاب الحيوان) أكبر دليل ... وحتى الأوائل من مؤرخى الحياة الاسلامية والعريضة نجد عند كثير منهم مزج الطرفة بالفكرة بالخط الذي يهدف إليه المؤرخ ، وعندما تطالع صفحات من (مروج الذهب) يداخلك العجب والدهش ما دمت في صحبة (المسعودى) .

ولن أطيل ولن أرهق القارئ بنقل نصوص يضيق بها فراغ (الصحيفة) . غير أنى بصدد التحدث عن (حوار) يلقانى وألقاه في كتب الأدب القديم ويعجبني ويحلولى أن ينتفع كل مصاحب للقدامى من كتابنا به فإذا تدبرنا فن الحوار ووقفنا عنده طويلا وقارنا بينه وبين آثار من (يعاصرنا) من ضياع الحوار الذين نعدمهم في الطليعة المحدثه المجددة نجد ، بل نشهد ، بل نصفق إعجابا للسبق الموفق والاستعداد القوى والموهبة عند (صاحب الأغاني) مثلا .

فأنت أيها القارئ الكريم إذا صحبته حين يتقص أخبار عمر بن أبى ربيعة في الجزء الأول ، وإذا خضت في مؤلفه وما جمعه عن امرئ القيس أو الفرزدق

ثم طويت الكتاب وعدت ثانية إلى قطع متجاوزة أو متباعدة من (الصياغة) القلمية وجدت أبا الفرج الاصفهاني يكاد يبلغ القمة في علاج الحادثة وإن صغرت والفكرة وإن بلغت من القصر والايجاز مبلغا قد يلفت بعض القراء ، فتمد يبلغ بها مبلغ السحر والإعجاز من فرط اليسر والاتقان والامعان في التصوير الفني البياني وهو الذي لا يبارى في سبك الحوار وإلباس الفكرة ما يمتلك في خفه ويزفك في إطراب ويحملك على جناح النشوة ، وهو نسيح وحده حين يتص موقف أمير الشعر الجاهلي مع الفتيات اللاهيات في « دائرة جلجل » .

ولا يعنيني هنا مبلغ ما فيها من مطابقة ما وقع لامرئ التمس ، ولكن الذي لا مرية فيه ، أن صاحب الأغاني ابتكر علاجاً جذاباً وإخراجاً محاوراً صادقا للحياة اللاهية اللاعبة حين ينبغي أو تبغى الفتيان والفتيات الإقبال على الاستمتاع باللهو في مفاتن المساء بصحراء العرب .

حتى إذا جدت الحياة الإسلامية ولعب الفرزدق وأمثاله أدوارهم في حمل راية الشعر في عواصم النهضة الإسلامية ، ووجدوا سابقات لامرئ التمس وأضرابه فسولت لهم حياة الشعر والشعراء أن يظفروا بما لأمثالهم من السابقين فقلدوا أو كانوا على إصالة من وحى حياتهم .

ورأينا الفرزدق أو رأينا التاريخ يروى له كما روى لامرئ التمس .

ووجدنا صاحب الأغاني يتص قصته ويتص ما تعرض له الفرزدق من قسوة الحسان .

ولكن الذي أريد الإشارة إليه هو التحايل والتحاوور في إخراج القصة إخراجاً جميلاً موفقاً متمتعاً حتماً وخالداً حتماً .

وكأنني بصاحب الأغاني قد راعى التناسق حين أراد أن يكتب (أخبار) فتى قريش وشاعرها (عمر بن أبي ربيعة) الذي طعم شعره بالحوار الشعري .

كأنني به راعى التناسب فطعم أغلب ما كتبه عن ذلك الشاعر بتعابير حوارية كلما قص أقصوصة أو روى خبراً عن خروج الشاعر إلى الطائف أو قفوله إلى مكة في مصيفه أو مشتاه في ملاعبه بين جواريه أو غادات السراة من قريش وأعتد أن تقلب (الشواهد هنا) لا مكان له لأن كتاب الأغاني في متناول كل قارئ أدب أو دارس فن يؤرخ حياة الشعراء والأدباء .

وقد لا يروق القارئ الملم بالمسكبة العربية ، أن أعتمد عجالتى السارية المخفة التى أجعلها كنغمة الطائر العجلان .

قد لا يروقه أن أقف عند صاحب الأغاني ، ولذلك أبادر فأشير إلى قصص الأيام - وإن كان حوار من عاجلها إذ بعض ما جاء فيها من حوار لا يرتفع إلى صناعة « الأغاني » -

أشير إلى ملاحم العرب وإلى القصص الذى جاء فى تلبس منبت المثل ومانسميه مضربه ثم مورده وشاهدى كتاب الأمثال للميداني وغيره من مجاميع الأمثال للمؤلفين التمدى .

والذى لا خلاف عليه أن القرار أعلن بالقاص وأقرب إلى راوى الحادثة ، وإن كان لا يلزم فى السرد .

والذى شاع وذاع أن الأدب العربى القديم يخلو من القصة ولكن هنا أشير إلى أن أدبنا سبق بل هو سباق إلى وسيلة من وسائل التعبير الفنى . وفى ذلك دفاع نلقى به فى وجه من يرمى أقلامنا القديمة بالعمى . ولو انفتح باب القصة عند التمدى الأوائل لوجدنا الإجادة الكاملة عندهم غير متنازع عليها .

ولا نريد هنا أن نستدل بما جد فى أواخر الدولة العباسية أو بما زاوله الأندلسيون أخيراً من قصص ، فذلك ليس من همنا فى هذه العجالة . وفن المقامة رغب الناس عنه لأنه خرج فى ثوب « لغوى » لا يروق إلا من تريد حصيلة من الألفاظ اللغوية .

وليس ذلك فحسب ، وإنما أغفل وفرة حظ المرأة فى صميم الحياة هنالك . ولهذا فإنى أعذر من يشيح عن المقامة ، إذا أراد أن يجد فيها صدق ما يجده عند صاحب الأغاني وأمثاله من كل مؤرخ أو راصد لأحداث جدد فى معترك الحياة السياسية أو الأدبية أو الاجتماعية .

وهناك فى المسكبة العربية كتب طريفة تعرضت لحياة الظرف والظرفاء ، وإلى مفارقات لازمت « الحمقى والمغفلين » ، ومضحكات من (البخلاء) و (المتماجنين) وغير ذلك من مضطربات الجوازي وكبار المفتتين من المغنين ، ولعلى أجد فسحة من الوقت فأعود إلى تفصيل واستشهاد فى عجالتى التالية .

القتال عند المسلمين

للمستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

كانت أسلحة القتال عند المسلمين على نوعين : السلاح البرى والسلاح البحرى وكانت العناية موجهة الى النوع الأول بصفة خاصة وإن لم يحرم النوع الثانى خلال معظم العهود من العناية الكاملة وكان السلاحان يسيران سنة التقدم والتطور ويخضعان لتقدم العلم والحضارة .

كان الخلفاء يستخون فى إمداد الجند وإعدادهم بالعتاد الحربى والمؤن الوفيرة - وكان الجيش البرى يتألف من الفرسان والمشاة وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والرماح والدروع - أما المشاة فكان عتادهم الحراب والأقواس والسهام والدروع . وكانت هذه الأسلحة هى المستعملة عند العرب قبل الإسلام وعند غيرهم أيضاً من معظم شعوب العالم .

وقد استعمل المسلمون المنجنىقات وكان أول من رمى بها فى الإسلام الرسول عليه السلام عند ما طارد فلول ثقيف إلى الطائف حيث اعتصموا بالحصون ، ورموا المسلمين بالنبال من فوقها (والمنجنىق : أداة ترمى بها الحجارة إلى مسافات بعيدة وارتفاع كبير) .

كذلك سير الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ويدفعونها إلى الحصن ، فيثقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من أسلحة العدو - كذلك استعمل الرسول الضَّبَّور وهى مثل الدبابة تقريباً ، تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكمن فيها المهاجمون ويقرّبونها للحصن لقتال أهله وهم فيها وهى تشبه إلى حد كبير السيارات المدرعة اليوم .

وقد لعبت هذه الآلات دوراً عظيماً فى الفتوحات الإسلامية ، وكان الرماة أهم فرق الجيش البرى - فقد كانوا فى المقدمة لصدهم هجمات الفرسان بالرمح ،

وكانوا يرتدون أقبية قصيرة متدلّية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالاً ومن خلفهم يقف المشاة في صفوف متراسة ، وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بربيش النسور .

وقد أثر اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم في تحسين نوع الأسلحة وفي تنظيم الجيوش الإسلامية ، ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم إلى الأسلحة التي استعملوها فحسب بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والصبر على تحمل الشدائد والحماس الديني وبذل النفس .

وقد أورد المسعودي في كتابه مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ بعضاً من الأسلحة الحربية التي استعملها جند المأمون العباسي عند حصارهم بغداد ، ومن هذا الوصف تبين أن الجند كانوا يحاربون وفي أوساطهم التباين (والتبّان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة) والمئازر (الإزار : كل ما يستر الجسم) ويغضون رؤوسهم بالخوذ ، واتخذوا الدرق من الخوص (الدرق : هي ترس من الجلد ليس به خشب) واتخذوا البوارى (البورى أو البورية : الحصار المنسوج من القصب وهو فارسى معرب) وقد طليت بالتمار وحشيت بالرمل والحصى .. على كل عشرة من المقاتلين عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل مرتبته .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية بخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالجيش اهتماماً كبيراً وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، ولما ولى المتوكل الخلافة العباسية أمر الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعونها في مناطق حول وسطهم .

ولم تدم أنشأ العباسيون الحصون على تخوم الدولة الإسلامية وهي الثغور وهذا نوع من أنواع الشؤون الحربية التي تدل على نشاط المسلمين ، وقد كانت حدود سوريا المتاخمة لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة للعباسيين من جيرانهم الروم لذلك أقيمت هذه الثغور وهي طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الثغور يتناولها العباسيون أحياناً والروم أحياناً أخرى أثناء الحرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِ بَدَأَ

نعود إلى نقد ما تصدينا له من كتاب الأستاذ خالد محمد (ليس من هنا نبدأ) فنقول بعد الاطلاع على ما كتبه في الاشتراكية وفي تفصيل ما يجنيه الأجانب من ثرواتها .

اطلع الأستاذ كما اطلع غيره على أعمال الأوربيين وتفانيهم في الذهاب بعلومهم ومدنيهم إلى الغايات البعيدة ، وإلى ما يحملهم ذلك على الاحتكاك بالشرق للاستفادة من ثرواته التي أهملها أهلها ، بل التي يجهلونها ، ودرس بعض أساليبهم في الاستيلاء عليها ، رأى ذلك كله فأثر في صميم قلبه ، كما يؤثر في صميم قلب كل وطني يحب لبلده ، وفي لقومه ؛ فشرع يهيب بهم إلى الاستفادة من خيرات بلادهم ، وكف يد الأجانب عنها ، ولم يدع وجهاً من وجوه التأثير في إيقاظ العزمات إلا أتى عليه في عبارات بليغة ، وصراحة جريئة .

ونحن نحیی في هذه النزعة الشرقية ، ولكننا نرى أن ما كتبه يضر أكثر مما ينفع ، فإن الأمم لا تنهض من سباتها بالكتابة ، ولكن بالعمل ، ولا تسير إلى أغراضها طفوراً ، ولكن تدرجاً ، وفي أزمان مناسبة ، لا في عشية وضحاها ؛ فهل يشب الطفل إن ذكرت له مزايا الشيبية ، أو يُبيل العليل إن سردت عليه مُتَعِ الصحة ؟ .

ان الأوربيين وصلوا من العلم إلى آفاق بعيدة ، واستحدثوا من الآلات ما يمد أمامهم كل العقبات التي تصادفهم ، فيستطيعون أن يحفروا منجماً يسع عشرات العمال لاستخراج معادنه الثمينة بواسطة آلاتهم الحديدية القوية ، قبل أن يستطيع غيرهم أن يحفروا ساقية صغيرة . أضف إلى ذلك أنهم درسوا أنواع المعادن الممكنة

في باطن الأرض ، وعرفوا كيفية استخراجها واستخلاصها مما علق بها ، وعلّموا مزايها وفوائدها ، وطرق استخدامها ، واشتدت حاجتهم إليها ، وتحققوا أنها توجد في بلاد غير بلادهم . فأى طريق يسلكونها غير استئذان الأمم التي تملك الأراضي التي توجد في باطنها ، في أن يتولوا استخراجها والانتفاع بها إزاء دفع قدر من المال يتفقون عليه بينهما ؟

في هذه الحالة لا يسع الشعوب المستضعفة إلا قبول ما يعرض عليهم لشعورهم بعجزهم عن القيام بالاستفادة منها ، فيرون أن الانتفاع بمقابل استغلالها خير من تعطيلها . فإذا كان من حق أهل العلم من أبنائها التأثير من انتفاع الغير بها دون قومهم ، فمن واجبه أيضاً أن يعرفوا أن الضن بها يعرض استقلالهم للخطر ، فإن الأمم القوية لا تعدم وسيلة لإخضاعهم لإرادتها ، وفي هذا ما فيه من العدوان على وجودها . فينحصر الواجب والحالة هذه على هؤلاء الغيورين أن ينصحوا أقوامهم بإتفاق ما يستفيدونه من إيجارها في إنهاض أممهم من كبواتها بنشر التعليم في جميع طبقاتها ، وإرسال النباء منهم إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم والتهر في الصناعات المختلفة ، حتى إذا آبوا إلى بلادهم نزعوا لتطبيق علومهم وصناعاتهم على العمل ، وعاونوا حكومتهم على الانتفاع بخيرات بلادهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية .

ولكن مؤلفنا الأستاذ خالد محمد لم يسلك هذه الطريقة ، وعمد إلى النعى على تلك الأمم الى تسمح للأجانب باستثمار خيرات بلادها ، وتقف هي مكتوفة الأيدي إزاءها . فهل كان يمكنها أن تقف هذا الموقف وهي تعرف الوسيلة لاستغلالها ؟ إن الأستاذ خالد أكثر في كتابه من مثل قوله :

« نحن نعيش في عصر ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التي تعترضها ، وتصدها عن غايتها المقدسة .

« أما عندنا فن الخير أن نعرف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم ننس بعد ، الصراع الشاق الذي دار بين حكومة النقراشي باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

« هؤلاء المواطنون ، وإننا لندرجو أن يقدرُوا جلال هذا القلب ، ويحتمقوا لأنفسهم معناه - يلعبون بالنار ، ويتحملون مسؤولية مباشرة في كل جريمة ترتكب ضد سلام المجتمع وسلامته ، وأن الشريعة الإسلامية التي يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء أصليين في الجريمة » ونحن نقول :

ماذا نفيد هذه العبارات في إصلاح عوج قائم على أسباب قوية ، وهي الجهالة المنتشرة ، والوطنية الضعيفة ، والعلل الاجتماعية التي لا تصادف علاجاً شافياً ؟

الأولى من كل هذا أن يتولى الأستاذ الناس بالعطف ، وأن يدلهم على طريق الخير ، وأن يثبت لهم أن الطفرة محال ، وأن التدرج في سبيل العمل لا بد منه . ذلك لأنه حيال جماهير ولدت في بيئات خالية من جميع عوامل التربية الشعبية . نعم ، كغيرهم من الأمم التي تراحهم ، ولكن هؤلاء لم يبلوا بما يلي الشرقيون من الجماعات المستعمرة ذات الوسائل السحرية في تدويخ الشعوب ، وتعريضها من جميع مرافق الحياة .

فالوسيلة الوحيدة لحفظ حياة هذه الشعوب هي أن تعتمد إلى تثقيف أبنائها ، وتحليتهم بجميع ضروب المعارف لتكوين روح شعبية قوية . ومتى وجدت هذه الروح اندفعت للعمل على إيجاد مطالبها ، فتدخل والمطامع الاستعمارية الخارجية في تطاحن مستمر بجميع وسائله المعروفة . ويكون لها الفوز في النهاية ، إن لم يكن بكل ما تريد ، فبأكثره ، ثم تكرر كرة أخيرة فتحصل على الباقي منه خالصاً غير مشوب . هذه هي الطريقة العملية لاسترداد الشعوب الضعيفة لاستقلالها ، ولإقصاء الشبهات الاستعمارية التي تراحها في وجودها عنها .

فإذا ألقينا الآن نظرة فاحصة على الشعوب الضعيفة التي يستغل المستعمرون أراضيها ومعادنها ، وجدناها تنفق ما تحصله من إيراداتها - وقد تكون ضخمة - على شهوات قادتها ورؤسائها ، مهمة في سبيل ذلك كل ما يتعلق بتثقيف أبنائها تثقيفاً عالياً يدفعهم للعمل بعلومهم ، فإن لم يوجد ، فإن ثقافتهم تدفعهم للعمل على إيجاده ، ولا تستطيع أن تقف في وجوههم قوة . نعم إنهم قد يصادفون عقبات جمة ، ولكنهم لا يزالون بها حتى يجتازوها ، ويحصلوا على خيرات بلادهم كاملة غير منقوصة .

الاشتراكية : أرى أن مؤلفنا خالد أفندى محمد قد أولع بالاشتراكية ، فروى عن أبي ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : عجبت لمن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه . ونحن نستبعد أن يكون أبو ذر الغفارى هو قائل هذا البيت ، لأنه من أبعد الأقوال عن التعاليم الإسلامية ، ومن أقربها إلى صميم الجاهلية ، وقد عقب خالد أفندى على هذا القول بقوله :

« إننى رغم إعجابى الشديد بأبى ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذى تمناه ، وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم ، وهو أن لا يوجد بيننا جوع ولا جيع ، وإنا على ذلك لقادرون إذا انتهجنا منهجاً اشتراكياً صحيحاً شاملاً . قرأنا هذا وعجبنا كيف يطالب قوما بأن يتمذهبوا فى شؤونهم المالية بمذهب لم تتأد إليه معضلاتهم التعاملية ، ولم تقتضه مشكلاتهم التعاوضية ، وهل هو يرى أن تقوم الحكومة بفرض الاشتراكية على الناس كما تفرض عليهم القوانين وتحملهم على العمل بها وتجازى من يشذ عنها منهم ؟

إن النظم الاشتراكية لم يفكر فيها التأمنون بها إلا بعد أن اصطدمت أعمالهم المالية فى عقبات كأداء ، لا تحل إلا بأحداث انقلابات أساسية فى موضوع توزيع الثروة العامة ، وهذا عرض لا يحدث إلا بعد أن تكون الشؤون المالية قد تعقدت بحيث لا يحلها إلا أن تدخل فى نظام جديد مبتكر ، فهى علاج لاشكالات طرأت لا ترقية لأساليب قدمت ووهنت .

ومن الغريب أن الأستاذ يقول بذلك فى بلد لم يرد على بال المشتغلين فيه بالأمور المالية أنه سيأتى يوم يكون فيه التبادل من أعقد المسائل ، ويحتاج إلى حلول من أعقد ما فكر فيه المفكرون فى الشؤون الاجتماعية .

وهل يرى الأستاذ أن من الحكمة أن يحول نظامنا التعاملى إلى اشتراكى دون أن نشعرنا بالأحوال الطارئة بوجوب التفكير فى إصلاحه ؟ وهل يصح أن تتوسل بالإهابة بالناس إليه ، ووجوب تعويلهم عليه ، وسوادهم الأعظم لا يعرف عنه شيئاً ؟

هذا ومن العجيب أن الأستاذ المؤلف يقول :

« والآن ، وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانحيار

وتزمر إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصة وحرمان ، فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا ، فأين هذا الطريق . . ؟

« لا شىء سوى الاشتراكية » .

ثم يقول :

« لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله ، على أن النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله ، ولكنّه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة ، وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قيم الاشتراكية العليا دون أن تتهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى تملك منها رصيذاً ضخماً » .

نعم من العجيب أن يقول كاتب مسئول مثل هذا القول ، وكل الناس يعلمون أن أساس الاشتراكية أبطال الملكية الفردية والوراثة ، ولا يوجد شىء من ذلك فى أية أمة من الأمم الأوروبية غير التى وقعت بعد الحرب داخل السور الحديدى وهى بولونيا ونحو نصف المانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والباينا ، وهذه الأمم اضطرت الى ذلك بما جرت إليه الحرب العامة الأخيرة من أحداث . أما الدول الكبرى الأخرى فليس بينها وبين الاشتراكية أية صلة ، وكل ما حدث فيها من أحداث فهو اعتمادها على طريقة الضمان الاجتماعى فى ضرب الضرائب الكبيرة على ثروات المثريين ، وتدارك حاجات العمال والمحتاجين مما تحصله منها . فنجحت هذه الوسيلة نجاحاً عظيماً ولم تلق الدعوة إلى الاشتراكية فيها نجاحاً يذكر ، إذ لم تصل نسبة عدد نوابهم فى المجالس النيابية إلى أكثر من الخمس ، وهى نسبة لا تقربهم من الحكم ولا تطمئعهم فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، وهو ظاهر مكشوف ، فلا يصح أن يبالغ مؤلفنا فى نجاح الاشتراكية إلى الحد الذى وصل إليه فى كتابه الذى بين أيدينا ؟

محمد فريز ومبدي

النفس

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المنعم أحمد النمر

المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » .
« ١٠٥ » سورة النساء

أستعين بالله الذى أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأستمد منه التوفيق فيما عازمت عليه من موافاة هذه المجلة بما يتيسر لى من الكشف عن بعض معانى وأغراض القرآن الكريم ، متنقلا بين آياته مختاراً منها ما يكون أوفر اتصالاً بحياتنا وأكثر مساساً بمشاكلنا ، معنياً بالمعنى والغرض العام للآية ، أكثر من عنايتى بمباحثها اللفظية ، ومكتفياً فى ذلك بما يفتح لنا الطريق إلى المعنى ، تاركاً التفصيلات والأوجه البلاغية والتجوية وغيرها إلى كتب التفسير التى وجهت إليها جل عنايتنا ، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

المفردات :

« بالحق » متلبساً بالحق مشتملاً عليه ، فهو نازل من عند الله حقيقة وليس سحراً ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، كما أنه مشتمل على الحق من حيث المبادئ والأحكام والقصص ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير « متشابهها مثانى » لم تزد الأيام ومكتشفات العقول إلا عظمة وروعة ، ولعل بما

يكشف لنا عن هاتين الناحيتين في تفسيرنا « بالحق » قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« بما أراك الله » بما عرفك الله إياه مما أوحى به إليك ووجهك إليه من نظر جار على سنن الوحي ، وليس منه الميل مع الهوى والعصية .

« ولا تكن للخائنين خصيما » مخاصما ومجادلا ومدافعا عنهم .

نتناول هذه الآية من النواحي الآتية :

(١) صلتها بما قبلها . (٢) سبب نزولها . (٣) القرآن والحكم . (٤) الرسول والعمل بالرأى ، وهل يجوز عليه أن يخطئ . (٥) الدفاع عن الجنة وموقف القرآن منه .

(١) ساق الله قبل هذه الآية ، آيات كثيرة تحض المؤمنين على قتال الكفار وترسم لهم الطريق إلى المحافظة على العقيدة بقوة الاستعداد ، وتوضح لهم ما ينتظر المؤمن المجاهد من ثواب الدنيا والآخرة ، ولقد كثر الحديث عن هذا كثرة ربما تدفع المؤمنين إلى الاستهانة بالحق إن كان في جانب المخالفين ، وتجعلهم يفرطون في إقامة العدل إن خرج نطاقه عن المسلمين ، وجاءت حادثة كشفت عن نفوس تدعو إلى عصية إسلامية تطمس الحق وتجرف العدل وتظن أن اتفاقها في الدين مع الحاكم - وهو الرسول - يخليها من إثمها ويحمل الرسول على التعصب لها ضد الآخرين الذين ليسوا على دينهم ، ولو كان في جانبهم الحق ، فكان من المناسب إذن - بعد آيات الجهاد والقتال والضرب على يد الأعداء المخالفين - أن يذكر الله هذه الآية التي تجعل الحق والعدل هو الأساس الذي يبنى عليه كل حاكم حكمه ومملكه ، حتى يضرب صفحا عن باقي الاعتبارات ، نعم ! ليس الحق هو المعبود الذي تتجه إليه القلوب ! وهل يمكن أن تقوم الدولة إلا على قوة السواعد وقوة النفوس ؟ !

وأما الحادثة التي كانت السبب في نزول هذه الآية ، فقد ذكر المفسرون روايات

إن اختلفت في بعض أشخاصها ، فإنها لم تخرج كلها عن موضوع متقارب : رجل من المسلمين سرق درعا من مسلم آخر ، ولما وجد أن أمره سيفتضح ، عمل على التخلص من جنائته ، وحاول أن يلصقها بغيره ، وهذا الغير على أكثر الروايات يهودي ، وتجمع المسلمون من أسرة السارق يحاولون نفي التهمة عنه عند رسول الله ، وإلصاقها بهذا اليهودي ، مستغلين في ذلك العصبية الدينية ، فهم مسلمون يشهدون ببراءة صاحبهم وإدانة اليهودي الذي لا يدين بطاعة الله ولا لرسوله ! بل إن بعض الروايات تقرر أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، وأنهم صارحوا الرسول بفتيتهم ، وكشفوا له عن عصبيتهم مع شهادتهم ، أي أنهم استعانوا على إخفاء الجاني بشهادتهم له ، وإثارة العصبية الدينية ضد اليهودي الذي ألصقوا به التهمة ، ولا نفى أن الرسول بشر له الظاهر ، وأنه يميل بطبعه للمسلمين أتباعه وأنصاره ، ويفترض فيهم الصدق ، ويجب أن يكونوا بعيدين عن هذه الخيانة ، فربما تجمع ذلك كله أمامه ، ومال به إلى إصدار الحكم على اليهودي ، فأنزل الله هذه الآية الحكيمة التي تقرر مبدأ من أسس المبادئ التي يقوم عليها صلاح الحاكم والمحكوم ، وهيبة الحكم وسلامة الدولة : العدل والحق يجب ألا يحجبهما غبار الأرض ، ولا يشوه من جماها شهوة أو عصبية « كونوا قوامين بالتمسك شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ما أسعد المجتمع حين يأخذ بهذا المبدأ ، ويرجع الحاكم إلى الكتاب ليحكم به بين الناس !! .



نعم ، فالقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعبد هو والمسلمون بتلاوته فقط ، ولم ينزل ليثبت في نفوسهم الصبر والسكينة والموعظة فقط حين يتحص أخبار الماضين ، ولم ينزل ليأخذ المسلمين ببعض العبادات والفضائل فقط ، بل نزل بهذا كله ، وتنظيم الحياة ووضعها على أسس فاضلة لخلق مجتمع سعيد ، ورسم خطوطاً عامة ، بل وخاصة لهذا المجتمع ، وجابه طبائع النفوس بما يصلحها ويقوّمها ، ووجه الرسول صلوات الله عليه والمسلمين توجيهات مفصلة ، استطاعوا على ضوئها أن يقيموا دولة الإسلام العادلة فوق أنقاض امبراطوريات شاخت ، وسرى فيها الفساد .

وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً؟ سؤال تردد كثيراً وزاد ترداده في هذه الأيام التي اشرأبت إليها أعناق كرام المسلمين يوجهون قافلتهم إلى النور الذي يشع من كتابهم ليعيشوا تحت ضوئه وفي رحابه .

لقد رأينا بعض العلماء يقولون - لهوى في نفوسهم نعرفه - : ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً ، ولئن باشر الحكم ، لقد كان ذلك من ضرورات المجتمع الذي وجد فيه . أى كما تحكم الضرورة على شيخ القبيلة أن يحكم بين أفراد قبيلته ، ولقد نسى هؤلاء أو تناسوا كثيراً من آيات القرآن الصريحة التي تلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم بما أنزله الله عليه ، وتنبه المسلمين في شدة إلى النزول عند حكمه والتسليم لأمره ، ولا أدري كيف غفلوا أو جاز لهم أن يتغافلوا عن هذه الآية التي معنا ، وعن آيات كثيرة نذكر بعضها هنا :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ^(١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ^(٢) وهذه الآيات التي نزلت تبين حكم السارق والزاني والقاتل وقاطع الطريق ، وتعرض لشئون القتال من إعلان الحرب وتنظيمها ، والاستعداد لها ، وإعلان الهدنة ، ونتمضها ، والتصرف في المال ، وغير ذلك من شئون الحياة التفصيلية . هل تعرض لها القرآن وشغل بها الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم عبثاً ، ولتلوها وتغنى بها ؟ ! أو أنه أتى بها للتنفيذ والتطبيق ، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعلاً بتنفيذها وتطبيقها ؟ !!

لقد باشر عليه الصلاة والسلام شئون الحكم في الحرب والسلم ، في الداخل وفي الخارج حينما راسل الملوك ، وكل هذا كان بتكليف من الله سبحانه وتعالى لاختضوعاً للضرورة ، كما يقول بعض الأدعياء !!

إن أية حكومة تحترم نفسها لا ترضى أن تسن قانوناً وتضع نظاماً ولا تنفذه

ولا تطلب من الناس تنفيذه ، وهل يعقل أن تصدر حكومة رشيدة أو مستبدة أوامر لا تحب تنفيذها وطاعتها ؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الأوامر وهذه النظم إلا على يد حكام يرعونها ؛ وهل يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ؟ إن من العبث بل والعته ، أن نقرأ هذه الأوامر القرآنية تنتظم شئون الحياة العملية في كل ناحية ثم نقول : ما للقرآن والحياة ، والتحكم في توجيهها ، وما للدين والسياسة ؟ ! فكرة خلقتها ورعاها حكام سفهاء ظالمون ، كرهوا أن يعيشوا بمقاييس الإسلام الفاضلة ، وأن يأخذوا أنفسهم بها أمام رعييتهم ، وأحبوا أن يحبوا كما يريدون ، وكما تملى عليهم شهواتهم ، فعملوا على أن يقتلوا في رعييتهم روح المراقبة الإسلامية الفاضلة التي تضع الحاكم والمحكوم تحت سلطانها ، فشطروا الدين شطرين : جعلوا لأنفسهم شطراً هو السياسة ، وللناس شطراً سموه الدين ، فللناس « دينهم » من عبادات وتهجدات في المحاريب ، وللحكام شطرهم الذي لا يتدخل فيه أحد غيرهم ، ولا يخضع طبعاً - حسب منطقهم - لمراقبة الإسلام ! وما للإسلام والسياسة ؟ ! ولقد استطاع أرباب الهوى والسلطان أن يركزوا هذه الفكرة في نفوس الناس على مر الأزمان ، حتى أصبح رجل الشارع المؤمن بكتاب الله إيمان العوام يقول ما للدين والسياسة ؟ ولقد قوى هذه الفكرة في البلاد الإسلامية أخيراً أن المباشرين لأمرها ، والمسييرين لأعمالها تربوا تربية غربية ، وثقفوا ثقافة أوربية تقوم هناك على فصل الدين عن الدولة ، وهم بالطبع متشبعون بهذه الفكرة ، كما تشبعوا بغيرها من الأفكار الغربية الاستعمارية ، وساعدتهم على هذا بعدهم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة .

إن شعوب المسلمين وحكامهم في حاجة إلى أن يفهموا أن السياسة التي رسمها القرآن للحياة هي أفضل وأسمى سياسة ، وأن نهضتهم مرهونة بإحياء روح المراقبة الإسلامية في نفوسهم التي جعلت واحداً من رعية عمر رضى الله عنه يقول له في ملأ من المسلمين : لو أخطأت يا عمر لقوئناك بحد سيفونا .

ولم يغضب عمر ، بل حمد الله على هذه الروح الإسلامية العالية التي جعلت في رعيته من يقول له هذا الكلام .

فهم في آية

الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يذكر المفسرون في معنى قوله تعالى في سورة الفرقان : « قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتهم فسوف يكون لزاما » عدة آراء ، بعضها فى معنى « ما » وهل هى استفهامية على معنى أى اعتداد يعتد بكم لولا دعاؤكم ، أو نافية على معنى لا يعبا الله بكم لولا دعاؤكم ، وبعضها فى معنى « دعاؤكم » وهل المراد به العبادة أو الالتجاء إلى الله والطلب منه ، أو الشكر له ، أو الدعوة إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، وبعضها فى المراد بقوله « فسوف يكون لزاما » ؟ .

وأحسن ما تحمل عليه الآية فى رأى أن « ما » نافية ، و « دعاؤكم » بمعنى دعوتكم إلى دين الحق ، والمعنى : أن الله لا يعبا بكم وليس لكم أى شأن معه ، ولا أى تدبير فى ملكه ، ولكنه إنما يضرب لكم الأمثال ، ويبين لكم الآيات والبراهين من أجل دعاؤكم إلى الحق ، ويبانه لكم ، لتم عليكم الحجة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وهاتم أولاء قد كذبتهم فسوف يكون أثر تكذيبكم لزاماً عليكم يوم القيامة ، فلا تستطيعون منه تخلصاً ، ولا تزعمون أنكم كنتم عما أنذرتهم به غافلين .

إن من يشتغل بالقرآن الكريم ، ويتدبر معانيه الشريفة ، وأساليبه الحكيمة وأهدافه التى يرمى إليها ، يرى أنه شديد العناية ببيان الحق ، واجتذاب القلوب والعقول إليه ، وأنه يسلك إلى ذلك كل سبيل من شأنه أن يلفت الأنظار ، وينبه الغافلين ، فتارة يضرب الأمثال بما خلق الله من الكائنات ، وبما أودعها من قوى وبما سخرها للإنسان ، وتارة يذكر ما أمد الله به الناس من نعم ، وما أفاضه عليهم من فيوض الرحمة والإمداد ، وتارة يخوفهم من عذابه ، ويحذرهم من شديد حسابه وتارة يرغبهم فيما عنده من متاع دائم لا يزول ولا يحول ، إلى غير ذلك

من المعاني التي ينتقل القرآن بين معانيها ، ويفتن في تصويرها ، واجتذاب الناس إليها .

قد يفهم من ذلك بعض ذوى العقول الضعيفة من أهل الكفران والعصيان ، أن الإنسان شيء له قيمة بجانب الألوهية ، وأن الله - جل وعلا - ما حفل به إلى هذا الحد ، فأفاض في الحديث إليه ، وضرب الأمثال له ، إلا لأنه مفتقر إلى عبادته ، حريص على أن يطوِّعه له لغرض يعود إليه ، فالله سبحانه وتعالى يبين هؤلاء الذين لا تخلو البشرية من نظرتهم الخاطئة ، التي توسوس بها إليهم شياطينهم ، أنه إنما يحفل بهم ، ويعتد بشأنهم ، لمنفعتهم هم لا لمنفعته ، فإن حاجة الإنسان إلى هدى الله وبيانه وأخذه بيده إلى الصراط السوى في المعرفة والعمل ؛ ليست أقل من حاجته إلى الطعام الذي يقيمه ، والشراب الذي يحييه ، والهواء الذي يتنسمه ، ولو أن الله سبحانه وتعالى ترك الإنسان ونفسه ، فلم يرسل إليه الرسل ، ولم ينزل له الكتب لاضطرب في هذه الحياة أمره ، واختل ميزانه ، حتى ينتهى به هذا الاختلال وذلك الاضطراب إلى الفناء العاجل .

إن العقول تتفاوت ، والآراء تختلف ، وما يراه قوم من الناس حسناً قد يراه آخرون قبيحاً ، لاختلاف البيئات وما يحيط بالناس من أسباب ظاهرة أو خفية تؤثر في آرائهم ، وتلعب بعقولهم ، بل إن الرجل الواحد قد يرى في وقت ما رأياً ثم يرى في وقت آخر خلافاً ، فتتغير نظرتة ، تبعاً لتغير الأسباب التي يعملها أو لا يعملها ، فإذا لم يكن للناس موازين وضوابط ينتهون إليها ، وينزلون على أحكامها فإن الخلاف بينهم يشتد ، والآراء تكثر ، وتكثر تبعاً لها عوامل النفرة والقطيعة .

ولو أردنا أن نتصور حال البشر دون أن تنزل عليهم هداية الله ، فانتا نمثل ذلك بحال قوم نشأوا في بادية منقطعة عن العالم لا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد ، وليس لديهم من أسباب العلم والحضارة شيء ، أليس هؤلاء يعيشون ما عاشوا هم لا يفقهون شيئاً ، ولا يدركون إلا ما يلبسونه بأيديهم ، ويرونه بأعينهم ، فإذا فرضنا أن الأمد طال بهم على هذا النحو فانهم لا ينتقلون في أطوار المعرفة والادراك الصحيح إلا انتقالاً بطيئاً لا يكاد يدرك ، فالبشرية - لولا الهداية

الربانية - مثلها كمثل هؤلاء القوم ، تمر عليها الدهور والأزمان دون أن تتقدم في مدارج الرقي والكمال ، ولو تقدمت لكان تقدمها بطيئاً بطيئاً ، ولعلنا نلح هذا المعنى في قوله تعالى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى الأطوار التي مر بها الإنسان ، فالطور الأول هو الدهر الطويل الذي عاشت فيه الإنسانية عيشة الحيوان في الغاب ، لا تعلم من أمرها شيئاً في حاضرها أو ماضيها أو مستقبلها ، وذلك قبل انفتاح العقل البشري بسبب الهداية الإلهية عن الحقائق واستضاءته بنور المعارف ، والطور الأخير هو طور المعرفة والعلم الذي يصل ببعض الناس إلى الإيمان والشكر ، وبعضهم إلى الجحود والكفر ، ذلك بأنه لا يتصور شكر الشاكر ولا كفر الكافر إلا إذا صدر أحدهما عن عالم ذي تفكير ، فالحالة التي وصل فيها الإنسان إلى أن يكون منه شاكر ومنه كافر ، هي أحسن حالاته من الناحية العقلية التفكيرية ، ومن قبل كان الإنسان ساذجاً لا يعقل أن يشكر أو يكفر ، ويدل على هذا المعنى التعبير في هذه الآية بقوله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ، حيث كان التفصيل بالشكران والكفران بياناً لإجمال يجمعهما في المعنى وهو هداية السبيل ، التي يراد بها دخول الفكر الإنساني - بالهداية الربانية - في مرحلة النظر والتفكير .

وقد ذكر الله بين هذين الطورين الأول والأخير أمر الخلق والتكليف وإعداد الإنسان بالسمع والبصر ليكون عالماً مفكراً ، وذلك هو قوله عز وجل « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .

ولهذا الأسلوب دلالة ، فإن الله سبحانه وتعالى يشير به إلى أن نعمة الخالق على الإنسان بالخلق والإيجاد ، ونعمة الهادي بالتعليم والإرشاد ، كلتاهما نعمة كبرى بها يكون قوام الإنسان في حياته ، وصلاحيته لعمارة هذا الكون ، والخلافة عن الله فيه .

ولعلنا نجد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فإن هذه الآيات - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - تجمع بين الحديث عن الخلق ، والحديث عن العلم ، وفي ذلك إشارة وانحطة إلى أن نعمة الله على الإنسان بتعليمه وإخراجه من الظلمات إلى النور ، لا تقل خطراً عن نعمته عليه بخلقه وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، بل الآيات الكريمة تشعر بأن نعمة العلم أعظم ، حيث جاء ذكره بعد قوله : « اقرأ وربك الأكرم ، والله أعلم ؟ »

سحر الحكم

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر عالماً جليلاً ، وخطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، كتب إلى بعض إخوانه :

أما بعد ؛ فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ؛ وذلك أنك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء من غير جريرة ، فأطمعني أولئك في أخائك ، وأياسني آخرك عن وفائك ، فلا أنا في غير الرجاء بجمع لك أطراحاً ولا أنا في عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء لاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف .

السنة

بركة المسلم حياً وميتاً

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ فوقع
الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة — قال عبد الله فاستحييت —
فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة .
قال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من
أن يكون لى كذا وكذا . رواه الشيخان .

فى مجلس من مجالس النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حفل بصفوة من أصحابه ،
أراد أن يحدثهم عن المسلم الحق الذى يصلح أن يكون عضواً حياً فى الجامعة
الإسلامية ، ولبنة قوية فى بنائها ، ومن أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بهذا
الحديث ، وهو أول المسلمين بشهادة الله سبحانه ؟ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

والذى أثار الحديث عن المسلم مناسبة لطيفة . اتخذ منها إمام المربين صلوات
الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه فى أسلوب مشوق لما يلقى عليهم من
العلم والحكمة ، والتشويق فن من فنون التربية ، عنى به المربون وعلباء النفس
كثيراً ، وأوسعوه بحثاً ودرساً لما له من عظيم الأثر فى تنبيه الفكر وجمع القوى .
أهدى إليه صلى الله عليه وسلم جمّار فأكل منه ، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن
الشجرة التى لا يتساقط ورقها على غير المعهود فى الشجر ، والتى مثلها كمثل المسلم
فى النفع والخير والبركة . . . فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البوادي ذاهلين

عن الشجرة التي أكلوا من جَمَّارها ، وكان في الجمار تنبيه على الإجابة ، بيد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة من قبل هذا المجلس ، لسكن عبد الله رضى الله عنه تنبيه وألقى الله في رُوعه أنها النخلة ، وللجمار الأثر الأول في هذا التنبيه ، ولقد هم عبد الله أن يجيب ، ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ، ورأى الشيخين : أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فسكت عن الإجابة حياءً وأدبا .

فلما عجز القوم وأعيوا ، سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم بأنها النخلة . ولما انصرف المجلس حدث عبد الله أباه بما وقع في نفسه ، فقال له لو قلتها يا بني لكان ذلك أحب إلي من حمر النعم ، كما ثبت عند ابن حبان في صحيحه ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، ومن ذلك حديث الصحيحين : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ، والإبل الحمراء أعز أموال العرب وأنفسها .

* * *

ما أجمل تشبيه المسلم بالنخلة ، أو النخلة بالمسلم ، كما فعل صلى الله عليه وسلم . إنها خفيفة المؤنة ، قليلة الكلفة : تنفع ولا تضر ، وتحسن ولا تسيء ، وتعطى كثيراً ولا تأخذ - إن أخذت - إلا قليلاً ، وكذلك المسلم الحق ، يتعفف ولا يلحف ، ويتلطف ولا يتكلف ، مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس ويعفو عن إساءتهم ، ويعطيهم مخلصاً ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكوراً .

وفي النخلة صلابة واستقامة ، وقوة ومثانة ، لا تحركها الرياح ولا تنال منها العواصف ، وكذلك المسلم الحق : قوى في دينه ، ثابت في يقينه ، في الزلازل وقور ، وفي المسكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .

* * *

التخيل وارفة الظلال ، طيبة التمار ، ممدودة الخير ، موصولة النفع منذ أن تغرس ، إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل في مصالح الناس ومرافقهم . وإن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملاً أبداً . ويدرك بركة التخيل وخبرها في حياتها وبعد مماتها ، من يعلم أن كثيراً من الناس كانوا - ولا يزالون - يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون

على التمر عمراً ، كما تعيش إبلهم على النوى دهرأ . وفي السيرة النبوية عن عائشة رضى الله عنها : إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد ناراً إن هما إلا الأسودان : التمر والماء . وكذلك المسلم الحق ، كله خير وبركة ، حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته ، وأمه ووطنه ، والعالم أجمع :

أما في حياته : فيما يعلمهم ويرشدهم ، ويؤدى حقوقهم ، ويسعى جاهداً فى مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فيما يترك فيهم من علم نافع ، أو هدى صالح ، أو أثر مبارك أو سنة حسنة له أجراها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء . وكل هذه الشعب الخيرة المتنوعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تتألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متماسكة متآزرة « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » أمة صالحة لوراثة الأرض وعمارتها ، جديرة بما وعد الله عباده : من النصر فى قوله تعالى : « وكان حتماً علينا نصر المؤمنين » والعز فى قوله سبحانه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والتمكين فى الأرض من بعد الاستخلاف فيها كما قال جل سلطانه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يكدن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » . فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها !!

إنهم حفالة كحفالة الشعير أو التمر : أو غشاء كغشاء السيل ! لا تستطيع أن تحصيهم عدداً ، ولكن قلما ترى مع الأسى والأسف أحداً !

إنه لن يعود للمسلمين مجدهم الأول إلا إذا تخلقوا بأخلاق الرعيل الأول « أشداء على الكفار رحماء بينهم » تراهم فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو تراهم كالبلبيان يشد بعضه بعضاً .

وَأَجِبْ مُصْرَنَحْوَالِقِرْآنِ الْكِرِّمِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ برر المنولى عبر الباسط

المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » وروى البخارى بسنده إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

منذ أسلمت مصر ، وملاً الإيمان قلوب بنيتها أقبلت على كتاب الله تعالى تستظهر آياته ، وتستنبط معانيه وتطبق تعاليمه على ما يجد لها من أحداث ، فانتشر فى ربوعها ، حواضرها وقراها ، مكاتب جعلت تحفيظ القرآن الكريم غايتها ، وفى كل مدينة من مدنها مدارس ، جعلت من علوم القرآن مواد دراستها ، فكان التعليم فى مصر يدور كله حول كتاب الله وفهم أسراره ، وتذوق مافيه من بلاغة وأدب ، وفهم ما بين دفتيه من علوم كونية ، والتخلق بما فيه من أخلاق كريمة .

ولقد كانت مصر تتسابق مع البلدان الإسلامية الأخرى فى هذا المضمار الشريف ؛ ونالت قصب السبق فى أكثر الأحيان ، وأخرجت إلى العالم الإسلامى علماء رفعوا شأنها بمناختهم عن دين الله . ولقد ساهم فى هذا الميدان جميع طبقاتها : فأمراءها ساهموا بجاههم وبما أفاء الله عليهم من نعم المال ، وأغنياؤها رصدوا العمار فى سبيل حفظ كتاب الله ، وفقراءها أقبلوا على كتاب الله يحفظونه ويتدارسونه ، وكان لهم به جاه أى جاه ومكانة أى مكانة . وهانحن لا نزال نرى آثار هذه المكاتب التى أنشأها الأمراء والأثرياء .

ولما ركدت ريح العلم فى البلاد الإسلامية ، كانت مصر وفية لكتاب الله حريصة على أن يكون من أبنائها من يحسن تلاوته ويستظهره عن ظهر قلب ،

وأن يتلقاه الخلف عن السلف ، وأن يورثه الآباء للأبناء . حرص على ذلك حكماء ، وتنافس في هذا المضمار جميع طبقاتها كما كانت الحال أيام نهضة العلوم الإسلامية ، وقوة الدولة المحمدية ، لم تقصر مصر في هذا الواجب فترة من تاريخها الإسلامي ، بل سارت في هذا الطريق قدماً لا يثنى عنها معوق مهما كان شديداً .

ولما هبت مصر تأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، غنى البيت العلوي الكريم بكتاب الله تعالى ، فحرص حكماء من هذه الدوحة المباركة على أن يكون تعليم القرآن الكريم في الصدارة من برامج الثقافة ، فكثرت السكتات التي تحفظ الأطفال كتاب الله ، وزاد عدد الحفاظ وحظوا بامتيازات شتى جعلت كثيراً من الطبقات تقبل على أن تعلم أبناءها كتاب الله ؛ وتثقفهم بثقافته ؛ حتى حق لكل مصرى أن يعتز بأن بلاده هي أحفظ بلاد الله لكتاب الله ؛ وأن مصر قد اصطفاه الله فأورثها هذا التراث العظيم ، وإذا كانت تفتخر الآن بأزهرها وجامعاتها ، فهي كذلك تفتخر بحملة كتاب الله من أبنائها ، ولها أن تباهى بأن تيار العلوم الدينية يسير جنباً إلى جنب مع تيار العلوم الدنيوية ، وما ذلك إلا لحرصها على تعاليم القرآن وتعلمه .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، كان أعظم أثر تركه - وما أكثر ماثره - أن أعاد طبع المصحف الشريف بشكل جميل وضبط دقيق .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، رعى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم التي انتشرت في عهده في المدن والقرى وأظلمها بجناح رعايته وعطفه حتى أثمرت أطيب الثمار .

ولا ينسى هذا الجيل أن شبلة فاروق الأول - حفظه الله - استن سنة أبيه ونهج نهجه وسار على منواله في رعاية كتاب الله والعمل على نشر حفظه ونشر تعاليمه .

واليوم ، وقد تقرر مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وتيسرت سبل العلم في الجامعات المدنية ، رأينا بعض الغيورين على الكتاب المجيد يتوجسون خيفة من انصراف الأمة عن تعليم القرآن الكريم وتعلمه بعد أن زالت أكبر ميزة كان يتمتع بها حملة كتاب الله أو الراغبين في حفظه ؛ ولا سيما أن المستقبل

أمام المتعلمين تعليماً مدنياً أكثر ابتسماً منه أمام الذين يسلكون طريق التعليم الديني الذي أساسه حفظ القرآن الكريم ، والتاريخ قديمه وحديثه شاهد على أن العلم يعيش ويتزعم في ظلال رعاية أولى الأمر ، لا فرق في ذلك بين العلوم الدينية والدنيوية .

يخشى الغيورون أن ينصرف الناس عن حفظ القرآن الكريم تحت عوامل الاغراء الكثيرة التي يتمتع بها طلاب التعليم المدني بعد أن كانت إلى جانب التعليم الديني أكثر وأعظم .

يخشى الغيورون أن تصبح مصر ولا يحسن فيها أحد تلاوة كتاب الله إلا من المصاحف كما وقع - مع الأسف الممض - لأكثر البلاد الإسلامية ، والقرآن ما بقي سليماً من التحريف والتبديل إلا لأنه محفوظ في الصدور لا في السطور وفي القلوب لا في الألواح والصحف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

فاذا قال قائل هؤلاء الغيورين لا تجزعوا ولا تيأسوا فإن الله وعد - ووعدده الحق - أن يحفظ هذا الكتاب حتى يأتي أمر الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » إذا قال لهم قائل ذلك أجابوه نعم ، ولكن نخشى أن يفتقر هذا الفضل والسبق من مصر إلى غيرها من بلاد الإسلام ؛ إنا نريد أن ينتشر حفظ القرآن الكريم في جميع الأقطار الإسلامية على أن يبقى لمصر فضل السبق والحرص على هذا التراث الجليل الذي اصطفاها الله لحفظه وورثها إياه ، وأقر لها بهذا الفضل جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وبايعوها بهذه الزعامة راضين مطمئنين .

يتألم الغيورون من أن يروا العناية الفائقة بعلوم وفنون ليست الأمة في حاجة إليها لصالح دينها أو دنياها ، كالموسيقى والرقص ، والرسم للأجسام الحية العارية إلى آخر ما هنالك مما يسمونه بالفنون الجميلة ، ويقولون آسفين : لو رصد في ميزانية وزارة المعارف لحفظ كتاب الله ما رصد لهذه الفنون التي لا تحتاج إليها الأمة

لرفع شأنها أو تثميف عقولها لآمننا على هذا التراث الضخم من الضياع ولاطمأنت قلوبنا على زعامة مصر في هذا المضمار .

ونحن نقول لهؤلاء الغيورين شكر الله لكم غيرتكم وأثابكم على حسن نيتكم ولكن لا تنسوا أن على رأس مصر ملكا يحرص على دينه حرصه على أعز شيء عنده ، وأنه لا يرى أقدس من كتاب الله وأولى برعايته السامية من المحافظة عليه . والأمل في الله كبير أن يكون عهده كعهد أبيه ، فينتشر حفظ القرآن الكريم في ربوع البلاد مدنها وقراها .

ونقول لهؤلاء الغيورين إن على رأس حكومة جلالته رجلا رأس ماله دينه ، وملاك أمره عقيدته ،

وعلى رأس الأزهر رجلا لا يحابي أحداً في دين الله ، ولا يتساهل في حق الله . وعلى رأس وزارة المعارف رجلا عرف القرآن ومكاته من الثقافة ومنزلته من التربية العلمية والخلقية ، وإذا وكلت أمانة القرآن في أعناق هؤلاء ، فلا تخشوا بأساً ولا تظنوا سوءاً ، بل ادعوا الله مخلصين أن يرزقهم التوفيق إلى خير الوجوه ، وأنجع السبل لتحقيق هذا الأمل المنشود ؟

من محاسن الحكم

قال شاعر حكيم :

ما استقامت قناةُ رأييَ إلا بعد أن عوّج المشيبُ قناتي
وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه :

« إنما أنا رجل منكم ، ليس لي فضل عليكم ، لكنني أبسط لكم وجهي ، وأبذل لكم مالي ، وأقضي حتوكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلي ، فهو مثلي ، ومن زاد علىّ فهو خير مني » .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ١ —

لكل زمن مشاكله التي تتنوع وتتعدد بحسب البلدان والأمم المختلفة ، وبحسب الأزمان أيضاً ، وهذه المشاكل أصناف وضروب ؛ فمنها ما يتعلق بالناحية السياسية لبيان أى النظم أصلح للحكم ؛ ومنها ما يتعلق بالناحية الاجتماعية وما تثيره من مسائل الضمير والمقاييس الخلقية والعادات والتقاليد ونحوها ؛ ومنها ما يرجع إلى غير هذه أو تلك من النواحي ، ولكل دولة أو أمة من الناس طرائقها في حل مشاكلها الخاصة بها ، وقد تستوحى في الحلول التي تراها غيرها من الأمم ، إذ لا تستغنى أمة عن الإفادة من تجارب غيرها ؛ سواء في مسائل العلم والفكر ، أو المسائل الأخرى التي تزخر بها الحياة .

إلا أنه ، هناك طائفة أخرى من المشاكل لها طابع خاص يجعلها تعلو على الزمان والمكان ، فهي مشاكل لا تخص أمة دون أخرى ، ولا عصرًا دون عصر ؛ هي مشاكل أحسها الناس جميعاً في كل زمن على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ودياناتهم ؛ ومن ثم ، نجد التاريخ قد عنى عناية خاصة بتدوين ما كان من حلول لهذا الضرب من المشاكل المختلفة ، وذلك عسى أن يفيد الحاضر من جهود الغابر ، ومفكرو اليوم من تفكير رجال الأمس ، ومن هذه المشاكل التي لها هذا الطابع ، أى المشاكل العالمية ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل وما لها من حقوق وواجبات .

لهذا لم يكن عجيباً أن يتناول المفكرون ، وبخاصة رجال الفلسفة والاجتماع ، في كل زمن وفي كل أمة ، هذه النواحي وما تثيره من مسائل ومشاكل تتطلب الحل الذي يكون أدنى للحق وإلى طبائع الأشياء وحقائق الأمور ؛ الحل الذي يقوم به العالم وتصلح الحياة إن كان إلى ذلك من سبيل .

وابن سينا فيلسوف خالد من فلاسفة المسلمين ، ولم تمنعه الفلسفة من أن يكون رجل سياسة ورجل دولة ؛ فكان له من هذا ما يكون لأمثاله من حظوة وامتعة ونعيم أحيانا ، كما كان له حظه أحيانا أخرى من المتاعب والاضطهاد . ذلك بأنه لم ير لنفسه أن يعيش في عزلة عن الحياة العامة كما فعل سلفه العظيم الفارابي ، بل كان رجلا واقعيا يأخذ من الحياة ويعطي ، ولهذا نجده أسهم في الحياة العامة بنصيب كبير .

وهذه النزعة العملية جعلته لا يهتم في تفكيره بمذهب خاص من مذاهب من سبقوه في القديم والحديث ، بل - بعد أن وعى واستوعب ما سبقه من فلسفات - فسكر لنفسه ، وأخذ يختار من آراء سابقيه ما يوافق ميوله وتفكيره ، لا يبالي أين يجد ذلك أو رأى الناس فيه . ومن أجل هذا ، نجد في تأليفه سمات وخصائص من المذاهب المختلفة التي عرفها تاريخ الفكر والفلسفة ، وإن كانت عبقريته وقوة فكره قد غطيا هذه السمات حتى لا يكاد القارئ غير المتخصص يحس بها ، ومن ثم يعتمد بأن كل تفكير فيلسوفنا طريف لم يلمس منه شيئا لدى غيره من أسلافه المسلمين وغير المسلمين في الشرق أو الغرب .

وقد ساعد على هذا ، ما يلبسه القارئ في كتابات الشيخ الرئيس من قوة الشخصية والنزعة إلى الاستقلال في الرأي والتفكير ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول : حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء ، فقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا .

وابن سينا ، بعد هذا ، شغل الباحثين من بعده ؛ هؤلاء الباحثون الذين عكفوا على كتاباته يحصونها ، وعلى آرائه يدرسونها ويصدرون الأحكام لها أو عليها ، بعد مقارنتها بآراء غيره من سابقيه ومعاصريه واللاحقين به ، وكانوا في هذا التقدير والوزن لآرائه ، والحكم لها أو عليها ، بين المتمصر في حقه والغالي في تقديره .

على أن هذه الدراسات ، أو على الأقل الجانب الأكبر منها ، توجهت إليه وإلى تراثه الفكري كطبيب خلا ذكره في عالم الطب بتمانونه ، وكفيلسوف منطقي وطبيعي وإلهي له في كل هذه النواحي آراء لها قدرها وخطرها . ومن الذين درسوه في عمق وإطالة في هذه النواحي الأخيرة ، ولكن في تجن أحيانا ، حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي . وليس من همنا الآن الحديث عن هذه الدراسة التموية

التي نجدها في كتاب [تهافت الفلاسفة] ، والتي نجد التعقيب القادر عليها في كتاب [تهافت التهافت] لفيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوليد بن راشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ .
والذي نريد أن نشير إليه الآن هنا ، هو أن جمهرة الباحثين أغفلوا تماماً أو كادوا ، دراسة الشيخ الرئيس كفيلسوف اجتماعي له في هذه الناحية آراء لم تخلق جدتها مع تتابع القرون ، ومن ثم تضعه بحق في مصاف المفكرين الاجتماعيين المحدثين في أكثر من ناحية من النواحي الاجتماعية ، هذه النواحي التي تجعل موضوع دراساتها الفرد والمجتمع من مختلف الزوايا .

هذه الآراء رأيتها جديرة بالحديث عنها ونشرها ، لعل بعض الذين يعنون بالمشاكل الاجتماعية يفيدون منها ، ولعلها تلفتتنا إلى وجوب دراسة مفكرينا والاعتزاز بهم والإفادة منهم ، بدلا من إهمال ماضينا وتراثنا الفكري والتهافت على أوروبا وما عند أوروبا تهافتاً ينال من كرامتنا ، ويظهرنا عالة على غيرنا ؛ كأننا أمة لا ماضى لها تعز به ، ولا تماثيل تفخر بها ! إنه يجب أن نفتتح بهذا التراث المجيد في بناء حاضرنا ومستقبلنا ؛ فلتد كتنا نألم أشد الألم عند ما كان إخواننا الطلاب الفرنسيون بباريس يلاحظون علينا ، معشر الشرقيين ، أننا نصطنع الحياة الغربية في جميع مناحي الحياة العامة تهرباً ثم تضيق صدورنا بأن يكون لصانعي هذه الحضارة وسدنتها سيادة أو نفوذ في الشرق !

لماذا لا نستلهم هذا التراث الإسلامي المجيد ، الذي أفاد الغربيون أنفسهم كثيراً منه ، في التشريع المدني والجنائي والتجاري ؟ ولماذا لا نستلهمه أيضاً في السياسة الاقتصادية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك في ناحية سياسة الحكم ونظمه ؟ وهذا مع الإفادة من الحضارة الغربية والتفكير الغربي فيما نجد من الخير أخذه عنهما . لعل بعض السبب في هذا يرجع إلى « نوية التعليم » عندنا والنظم التي يقوم عليها ، والتي كان منها أن صيغت عقول أبناء الأمة على طرائق مختلفة . وكان من ذلك أن التأمين على هذا التراث الإسلامي ليس إليهم من أمور الحكم شيء ، وأن الذين إليهم الحكم لا يعرفون شيئاً ذا غناء من هذا التراث ! ولعل الله يرزق مصر بمصلح قوى قادر ، لا تنقصه الإرادة الطيبة الحازمة ولا الكفاية والشجاعة ، فيغير من هذا الحال ؛ وبذلك نصل جميعاً إلى معرفة هذا التراث التيم

وتقديره حق قدره والإفادة منه ؛ وتكون النتيجة الطبيعية أن تنهض مصر ومعها سائر البلاد الإسلامية على أسس من روح الإسلام وعبقريته ومبادئه وأصوله .

هذا وأرجو ألا يثقل هذا الحديث الذي نحن بصدد التقديم له ، وألا يظن أنه حديث فلسفي ممل ، ما دام محوره أحد الفلاسفة الكبار ! فقد تعودنا في هذا الشرق أن نعد الفلسفة أمراً ثقيلاً ، وأن نرى فيها تفكيراً يجافى الدين ، وكان ذلك ميراثاً ثقيلاً عن الماضي : على أن الحال الآن ، بحمد الله ، غير الحال في ذلك الزمن ، فتمدأ أصبحنا نحاول أن نجد في الفلسفة عوناً على حل ما يعترينا من مشاكل ومعضلات ، ولا عجب في هذا ، وكلا الفلسفة والدين يعملان على فهم العالم ومبدئه ومصيره ، ويعنيان بتبصر الفرد والمجتمع بما فيه خير وسعادته ، في حاضره ومستقبله في دنياه وآخرته ، وإن كان لكل من الفلسفة والدين طريقه الخاصة التي قد تتقارب حيناً ، وتتباعد حيناً آخر .

على أن للقارئ أن يطمئن من ناحية أخرى ، فإنني لن أعرض من آراء الشيخ الرئيس إلا للقليل الذي يتعرض بصفة خاصة لبعض مشكلات العصر الحاضر ؛ وأعني بذلك مشكلة العمل والبطالة ، أو بعبارة أخرى مشكلة الضمان الاجتماعي ؛ ثم مشكلة المرأة من ناحية مساواتها أو عدم مساواتها للرجل في الطبيعة والحقوق والواجبات ، وناحية الزواج والطلاق وكيف يكون ولأن يكون .



يمهد ابن سينا لحديثه عن هاتين المشكلتين ، ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات ، بأنه لا يمكن أن يحيا حياة طيبة لو انفرد وحده بالمعيشة . ذلك ، بأنه لا بد من أن يكون المرء مكفياً بآخر من نوعه الإنساني ، كل منهم يساعد الآخر ويخدمه في ناحية من نواحي الحياة . ومن أجل هذا كان الإنسان مضطراً إلى بناء المدن وإنشاء المجتمعات ، حتى يكون البعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً ، ويشارك ابن سينا في هذه الملاحظة كل الباحثين الاجتماعيين في قديم الزمن وحديثه .

ويخلص من هذا ، بأن يستنتج أنه لا بد إذاً في وجود الإنسان وبقائه وحياته حياة طيبة من مشاركة في الحياة ، ومعاملة الناس بعضهم مع بعض ، والمعاملة تقتضى أساساً قوياً من شريعة صحيحة وعدالة حتمية ، وهذه الشريعة لا بد لها من شارع يحىء

بها ، كما لا بد للعدالة من عادل يقوم بها ويجريها كما يجب . وهذا كله يستلزم أن يرسل الله لخلقه رسلا منهم يبلغون عنه شريعته ، ويتممون بين الناس بالعدالة .

وهذا النبي والرسول عليه أن يبذل غاية وسعه لتأكيد سعادة الناس دنيا وأخرى ، وذلك بإرشادهم الى ما من شأنه تنزيه النفس عن الخيث من الطباع والسيء من القول ، والردىء من العمل ، وهذا كله لا يحصل إلا بأخلاق تحصل ، وملسكات تكتسب بأفعال طيبة من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ونزواته وهواه ، وتديم تذكرها للمعدن الطيب الشريف الذى لها ، ويجب أن تحن له دائما .

وبعد هذا التمهيد العام ، يأخذ شيخ الفلاسفة فى الكلام على أولى المشاكل التى أراد الكلام عليها ؟
« الحديث موصول »

من كلام ابن عباس رضى الله عنه

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : —

كتب إلى علي بن أبي طالب كرم وجهه : —

أما بعد - فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من أمر دينك فلا تسكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت .

أبرهه ساجد بهاء الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغي

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

بعد أن ترجمنا في المقالتين السابقتين للامام تقي الدين السبكي ، ثم لابنه الشيخ الجليل تاج الدين ، وتحدثنا بما كان لهما من فضل وما خلّفا في أيدي العلماء والدارسين من مؤلفات لم تزل منهل الواردين ، ومتمصد المحصلين ، مما كتب لهما على وجه الأيام الخلود ، وسجل باقي ذكرهما في العالمين ، وجعل لهما لسان صدق في الآخرين ، اليوم نترجم لثالث الأعلام المبرزين ممن نبغ من هذه الدوحة المباركة ، وتألّق نجمه من أسرة السبكيين ، وهو أحمد بن علي بن عبد السكافي بن علي بن تمام السبكي ، المسكن بأبي حامد الملقب بهاء الدين ، فهو ابن تقي الدين السبكي وأخو تاج الدين .

يختلف أصحاب التراجم في سنة مولده اختلافاً يسيراً ، فمنهم من يورخ مولده بسنة تسع عشرة وسبعمائة هجرية ، ومنهم من يجعل تاريخ مولده سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وهم متفقون على تاريخ وفاته بسنة ثلاث وسبعين وسبعمائة هجرية ، وينفرد كتاب شذرات الذهب بالنص على أن سنه حين وفاته كانت ست وخمسين سنة ، فلعل هذا النص يبيح لنا أن نرجح ، مع ملاحظة الاتفاق على تاريخ وفاته ، أن ميلاده كان سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وتوّه كتب التراجم بنبوغه وتبريزه في العلم وهو صغير ، ونحن نرى ذلك معقولا وسائغاً مقبولا ، إذ هو قد نشأ في كنف أبيه العالم الجليل ، فلا شك أنه قد وجد في بيته البيئة العلمية الساهرة على تقويم صباه وتسديد خطاه في سبيل التربية والتثقيف ، وكان له في أبيه الأستاذ الأول وحسبك به مربيّاً حانياً وأستاذاً عليماً ، فلها اشتد ساعد أبي حامد وغشى حلقات الدرس أضاف إلى ما تلقاه عن أبيه ما يتبسبه من علماء عصره ، ويتأثّر عن أئمة زمانه فأخذ عن الأصهباني وابن التماسح وأبي حيان ، ويظهر أن صحبته لشيخه أبي حيان قد طالت وحسنت ، ويدلّك على ذلك ما نظم في مدح شيخه من شعر ، منه هذان البيتان :

فداكم فؤاد حان للبعد فتمسده وصب قضى وجداً وما حال عهده

وقلب جريح بالغرام مقيم وطرف قريح طال في الليل سمسده
وقد كان شيخه يبادلُه المودة والتقدير لسكريم خلاه والرضا عن سعيه في
الطلب ودأبه على تحصيل العلم . ومن أبيات قالها فيه شيخه تدبين أنه كان يراه فذا
في أقرانه نابغة بين إخوانه ، وهي :

أبو حامد حتم على الناس حمده لما حاز من علم به بان رشده
غذى علوما لم يزل منذ نشئه يلوح على أفق المعارف سعده
ذكي كأن قد جاحم النار ذهنه ذكاء ومن شمس الظهيرة وقده
ومن حاز في سن البلوغ فضائلا زمان اغتنى بالعى والجهل ضده
وأنت ترى أن شيخه يسجل هنا ما قد بلغ تليذه من فضل وتقدم وما جاوز
سن البلوغ . وكما أخذ اللسان العربي عن أبي حيان كذلك قرأ القرآن على الشيخ
التقى الصايغ ، وبذلك توفرت له الأسباب التي مكنته من إتقان علومه وإحكام
ثقافته ، فلم يبلغ العشرين إلا وهو عالم يشار إليه بالبنان ، وأستاذ معدود في المحققين
حتى ذكر في ترجمته أنه أفتى ودرس وله عشرون سنة وولى وظائف أبيه بالقاهرة
وله إحدى وعشرون سنة لما تحول والده إلى قضاء الشام . وفي نبوغه وفضله
يقول ابن حبيب : إمام علم زاخر اليم مقرون بالوفاء الجم ، وفضله مبذول لمن قصد
وأم . وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . ولا يحدثك مثل أبيه عن
تفوقه وسعة علمه وهو في شهادته له شاهد عدل وحكم فصل ، لأنه يفضل على نفسه ،
فالحجابه إذا مستبعدة والحيث مأمون . ذكروا أن أباه قد حضر درسه فحمده وقال فيه :
دروس أحمد خير من دروس علي وذاك عند علي غاية الأمل
وعلي هو أبوه شيخ الإسلام الجليل .

وقد شهد له أبوه بالبراعة والسبق كرة أخرى لعلها أثبت وأقوى : ذكروا أنه
أرسل من مصر بحثاً يتعلق بالعربية إلى والده حين كان بالشام فأجابه عنه ، فرد
جواب أبيه بكراسة ، فلما وقف أبوه عليها كتب إليه كتاباً صدره بقوله : وقفت
على جوابك أيها الولد الذي هو أعظم من الوالد ، ومما يؤيد ثناء أبيه عليه وتقرظه
له كثرة المناصب العلمية العالية التي تولاه وتقلب فيها ، فقد نهض فوق ولايته
لوظائف أبيه المذكورة آنفاً بتدريس مذهب الشافعي بالمشهد الشافعي وبجامع
الحاكم والشيخونية أول ما بنيت ، كما ولى قضاء الشام سنة نيابة عن أخيه ليحفظها له

ثم عهد إليه بقضاء مدينة العسكر والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الطولوني . وقد عرف شيخنا أبو حامد أن العلم أحد شئتين يتألف منهما السلوك الكامل ، وأنه لا بد للعلم أن يستم وجوده ويستكمل جماله بالخلق الفاضل ، لذلك جمل هذا الإمام الكريم عليه بالتقوى والورع والدين . قال مترجموه : كان كثير التراءة والعبادة ، معروفًا ، بالتقوى وزان نبوغه بالورع والوفاء الجم ، كثير الحج والمجاورة لبیت الله . ومما يشهد بقوة خلقه مارووا عنه حين ولى الخطابة بالجامع الطولوني ، أنه كان شديداً في وعظه حتى غضب من شدته بعض الأمراء ، فأمر أن يستنبد عنه من يخطب بحضوره ، فكان لا يخطب إلا إذا غاب ذلك الأمير .

أما ما بقى لنا من غزير علمه وبارع أدبه وفائق تأليفه فيتمثل في كتابين قيمين أحدهما شرح مطول على مختصر ابن الحاجب يعنى به الأصوليون ويتدارسه العالمون ، والآخر «عروس الأفراح» كتاب البلاغة النفيس الذى ما برح علماء البلاغة منذ تأليفه اليه يرجعون وعليه يعلقون ومنه يتمسسون . ولعلك تذكر هنا ما أسلفنا عليك فى صدر هذه الترجمة من صحبة أبى حامد لشيخه أبى حيان وتوثق العلاقة بينهما حتى نظم الشعر فى مدح أستاذه ونظم شيخه الشعر فى الثناء عليه والاعجاب به فقد كان لهذه الصحبة أثرها القوي المثمر فى إيمان شيخنا أبى حامد للغة العربية وعلومها ونبوغه فى ذلك .

وقد تحدث المترجمون فذكروا أنه كان فائق النظم فى الشعر رائق العبارة فى التأليف والمحاضرة ، وقد عرفت أن أباه حين قرأ بحثه المتعلق بالعربية كتب اليه معترفاً بتفوقه عليه وسبقه له فى ذلك ، فمن حتمنا إذ أن نقرر أن العلوم التى كان أبو حامد أشد تبرزاً فيها وأبعد صيتاً هى اللغة العربية وعلومها ، وبذلك يشهد عروس الأفراح وهو شرح متمتع لتلخيص المفتاح دل به على سعة اطلاعه وغوصه فى العلوم العربية ، ولولا ما فيه من استطراد مل وحشوه بمسائل خارجة من الفن لكان خير شروح التلخيص لنصاعة عبارته وسهولة أساليبه وذوقه الأدبى . وحسبه هذا الكتاب أثراً باقياً ونفعاً جارياً يضاعف حسناته ويستمطر على مشواه رضوان الله ورحماته ويذكر الدارسين بفضلله ويدعوهم إلى اقتفاء أثره فى نفع المسلمين وخدمة العلم والمتعلمين .

الفقه السياسي عند المسلمين

لقضيد الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

— ٢ —

تحدثت في الكلمة السالفة عن بعض إنتاج المسلمين في الفقه السياسي ، ورأينا التراث الضخم الذي خلفوه في البحوث السياسية المستقلة عن علوم الفقه والأصول والكلام ، والآن نتحدث عن اتجاه هذه البحوث على وجه عام .

في عصر العباسيين قامت حركة التأليف والترجمة والتدوين على قدم وساق ، وجميع ما خلفه المسلمون الأول ، يرجع تقريباً إلى هذا العصر ، أو إلى أصول وضعت في هذا العصر ، وكان العباسيون يهتمون قبل كل شيء بتركيز دعائم ملكهم ، لهذا كانت حرية الرأي - على مبلغ احترامها وعظم مكانتها في الإسلام - مستظلة إلى حد ما بلواء العباسيين ، وقد كان للعباسيين خصوم من العرب يمثلهم بنو أمية الذين استطاعوا ابتناء ملك واسع ومجد عريض في الأندلس ، يمثلهم - إن لم يبق - ملك بنو عباس ومجدهم في الشرق ، وخصوم من غير العرب يتزعمهم ويثيرهم أبناء عمومهم العلويون ، وفي ظلال الحكم العباسي تذهبت القوميات الغافية ، وتحركت الاطماع في نفوس كثيرين من أبناء الأجداد الأول التي غلبها الإسلام ، ولهذا رأى العباسيون من حتمهم أن يشرفوا على توجيه البحوث ومراقبة الإنتاج ، الفكرى في ملكهم ، ولعل هذا هو السر في اتجاه البحوث السياسية في كتب الأحكام السلطانية الاتجاه الواقعي ، بدليل أنها كانت استجابة لرغبة حاكم أو هدية إلى حاكم ، وبعبارة أخرى : إن كتب الأحكام السلطانية ، قصد بها تقرير الأوضاع التي تعورفت سياسياً بين المسلمين وتنزيلها على مبادئ الإسلام ، أو تنزيل مبادئ الإسلام عليها بتأويلها أو تلوينها بحيث لا تختلف مع العرف السياسي - تقريراً يتمشى مع وجهة نظر العباسيين وظروفهم الخاصة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره أيضاً .

فعلباء الإسلام الأول وجدوا أنفسهم في أمة حية تعيش في دولة قائمة لها

دستورها وأحكامها وتعاليمها ، فى شتى نواحي الحياة : فى الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة ، فى كل شىء ، فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية ، عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين ، لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن والدعوة إلى مبادئه ، التى تجعل من الحاكم خادماً لا سيداً - وإن كانت له سيادة فعلية معترف بها - وعلى هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة ، وهل هو « زعامة العائلة » اعتماداً على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو « الزعامة الدينية » التى قام عليها ملك بنى إسرائيل القديم ، لأن ملوكهم فى نظرهم خلفاء لأنبيائهم ، أو هو « حق ملكى مقدس » بمعنى أن الله اختار شخصاً وملكه على بقعة من أرضه ، وسلبه السلطة مباشرة فهو مسئول أمام الله وحده مباشرة لا أمام الشعب ، أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريقه شخص أو عائلة إلى السيادة فى بقعة ما من الأرض ، أو هو نتيجة الخطيئة آدم الكبرى أوجدها الله لتكسح جماع الأفراد ، وتحد من حرياتهم عقاباً لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول ؛ أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم نتيجة لتصادم حريات الأفراد الأحرار المتساويين من كل وجه ؟ واتفاقهم على الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة جديدة يتنازل فيها كل منهم عن شىء من حقوقه وحرياته فكانت الدولة ، وهل هذا التعاقد يقيم ملكية مطلقة مستبدة ، أو ملكية دستورية مقيدة ، أو يعطى للشعب السيادة المطلقة على حكامه ؟ كل هذا لم يشغل المسلمون أنفسهم به فى العصر الأول لتدوين الفكر الإسلامى ، لأن البحث عن حالة ما قبل الدولة يقوم على أسس خيالية يفترضها الباحثون لتبرير نظرية خاصة ، وليس بحثاً يقوم على حقائق علمية معترف بها عند العلماء ، وهذا النوع من البحث الفرضى ، إن جاز فى بيئة علمية لا يحكمها دستور قائم ، فإنه لا محل له ، أو هو مضیعة للوقت فى بيئة علمية يحكمها دستور قائم « القرآن والسنة » تناول كل شئون الحياة الإنسانية ، وحدد للأفراد وللحكام الحقوق والواجبات ، بما لا يدع مجالاً لطغيان هؤلاء أو أولئك - عند العقلاء - وما كان لهم أن يفترضوا فروضاً ، وعندهم حقائق مقررّة تصرفهم عن مثل هذه الفروض ، ومن هذه الحقائق الثابتة عندهم : الملك لله الواحد القهار ، الحكم لله أحكم الحاكمين ،

والأرض لله خالقها وخالق الكون ، والله هو المشرع وعلى هدى تشريعه قامت دولة المسلمين . وإذن فليتجه البحث إلى التشريع الذى أقام الدولة ، لا إلى حالة فطرية سبقت تحضّر الإنسان ، وهو لا يعلم بالضبط متى تحضّر !!

ولكن لا بد لنا من الحديث عن أصل الدولة فى نظر الإسلام ، ولدينا من النصوص الصحيحة ما يساعدنا على تجلية وجهة نظر الإسلام فى أصل الدولة ، ونحن نحاول قدر طاقتنا بيان ذلك فيما يلى :

أولاً — الإسلام (القرآن) دستور عام خالد لا يتبدل ولا يتغير ، وهو هداية ربانية إلى أمثل منهج يحقق للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة ، فى شؤون الدين والعبادة ، وفى تدبير مصالحه الدنيوية « ان هذا القرآن يهدى للذى هو أقوم » فهو يهدى الإنسان إلى المنهج الذى اختاره الخالق سبحانه لعبادته ، ويهديه إلى خير الوسائل التى تضمن له الحصول على ما قرره الله له من حقوق ، والقيام بما ألزمه به من تكاليف ، ومقررات القرآن الكريم ، وتوضيحات السنة الصحيحة لمبادئه ، مقررات ثابتة لا يجوز العدول عنها لهوى النفس ، وتبدل الأوضاع .

ثانياً — حرض الإسلام العتمل على التحرر من قيود الجلود التى فرضتها الوراثة عن الجلود ، وكان تحريضه بالغاً عند ما فرض له تعدد الآلهة ، ورتب ما رتب على التعدد من فساد ، فحرر العقل وتوصل مقتنعا إلى ما دعا الإسلام إليه من وحدانية الخالق وتفرد حده بالخلق والإيجاد ، فاستبان للناس — أن الخالق واحد وهو المالك لكل ما خلق ، فالكون ملك لله ، والناس عبيد لله ، سواء فى ذلك آحاد الآدميين وخاصة الرسل والأنبياء ، وبهذا المبدأ السامى ألغى الشرك فى العبادة (الشرك الدينى) وألغيت الفروق بين الناس (الشرك الاجتماعى) ، فكما أنه ليس من العتمل عبادة غير الله مما خلق ، فليس كذلك من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساويين فى الخلق والعبودية للخالق ، بدافع من جنس أو لون ، أو بدافع من حسب ونسب ، أو غنى وفقر ، فكل هذه الفروق لا اعتبار لها عند وزن التيمم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ويقول الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، الناس لآدم وآدم من تراب)

وقد جعل الإسلام مقياس الفضل والكرامة ، هو حسن العمل ومقدار النفع الذى يقدمه الشخص للإسلام والمسلمين « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأفضل الناس أبعدهم عن الشرك وأنفعهم للناس ، وأشق الناس من شتى به الناس ، « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة » حرية تامة ، ومساواة مطلقة ، لا يقيدهما إلا صالح الإسلام والمسلمين ، والناس فى ذلك سواء ، ليس لأحد أن يبتغى عزة أو سيادة على أخيه ، فإنه من كان يريد العزة ، فله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ومن ابتغى وراء ذلك فهم العادون . فالله سبحانه هو السيد وخالقه هم عبيده ونسبتهم إليه واحدة ، يعيشون فى ملكه الذى خلقه لهم ، وسخر لهم ما فيه .

ثالثاً — المجتمع المسلم . هو مجتمع يقوم على مبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته ، وتوجهه إلى الهدف المنشود . يرتبط بين أفراداه اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ما صنع ، وترتبط بينهم أخوة إنسانية عامة : لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وترتبط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام ، عقدها الله بينهم لتكون منهاجاً لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة فى محيطها الواسع ، إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام ، وترتبط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام ، للبلوغ بالإنسانية كلها ، إلى الكمال والسعادة والسلام ، وترتبط بينهم وحدة التكليف لبلوغ الهدف ، فلا اختيار ولا امتياز لأحد فى التكليف الربانية ، يستوى فى ذلك المسلم الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصغر المسلمين شأنًا ، ويرتبط بينهم . مسئولية عامة مشتركة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة .

رابعاً — هذا المجتمع الذى يقوم نتيجة لمبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بهذه الروابط ، هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، ومجموعة أفراداه (الأمة) مخاطبة رأساً بتكليف الله (يا أيها الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا) ، (افعلوا الخير) ، (واعبدوا الله ولا تشركوا) ، وخطاب الله للأمة شمل جميع التكليف الفردية كالصلاة والزكاة والصوم ، والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل وتنفيذ الحدود « وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة .. الخ . وهذه المجموعة قد استخلفها الله فى أرضه لعبادتها وإقامة أحكامه المكلفة بها ، فكل

ما تملكه فهو ملك لله ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وكلوا من رزقه » ، وهذه الأمة المخاطبة المكلفة المسؤولة ، هي الأمة الإسلامية ، فإن عاشت كلها تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمتمدرات واحدة ، في الأرض المحدودة التي تعيش فيها شعوبها ، والتي لا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها - كما كان الحال في عصور الخلافة الإسلامية مثلاً - إن كانت كذلك قامت الدولة الإسلامية . التي تظل الأمة الإسلامية ، وإن عاشت شعوبها مستقلة كل شعب في أرضه ، يحكمه حاكم خاص ، غير حكام بقية شعوبها ، قامت في أرض كل شعب دولة مسلمة - كما هو الحال اليوم - تتميز بكل مميزات الدولة ، ولكن هذا الاستقلال والامتياز يجب ألا يخرجها عن أن تكون حلقة قوية في سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى « كالبغيان يشد بعضه بعضاً »

خامساً - كل دولة لها سيادة عامة على بنيتها وأرضها وكل مقدراتها لا تخضع لسيادة دولة أخرى في شيء من ذلك . والدولة الإسلامية ، لها شخصية معنوية ، هي مناط التكليف والمسؤولية . وهي التي رد الله إليها العزة والسيادة في أرضه التي تعيش فيها ، بعد الله ، والرسول الذي أبلغ إليها شرع الله ، ووكل الله إليه تنفيذ أوامره والإشراف على مقتضيات سيادته ، إماماً ، وقاضياً ، وقائداً ، وحاكماً عاماً للمؤمنين ، « والله العزة والرسول وللمؤمنين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً » . فالأمة لها على نفسها - بعد الله والرسول - السيادة المطلقة نيابة عن الله ، لا ينازعها فيها منازع . لها كلها كمجموعة - لا لفرد من أفرادها ، ومن حق هذه الأمة المكلفة المسؤولة ، أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها - فرداً أو جماعة - لأنها مجتمعة لا تستطيع مباشرة تكاليفها ، وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا ، وتوخي المصلحة العامة ، لا بقر ولا جبر ، ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ، وليس له شيء من السيادة عليها ، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل في سائر العقود ، من رقابة الأصيل الذي يحدد له تصرفاته ، ومن هنا جاء الشبه بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، فهناك حقيقة تعاقد بين الأمة ، ومن تختاره لقيادتها يتمثل في البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو بالعمل على ذلك ، ولكن شتان بين التعاقد في نظريات غير المسلمين ، والتعاقد عند

المسلمين ، فالأول تعاقد يقوم على تنازل الأفراد عن شيء من حقوقهم لمن يختارونه وسلطانهم عليه بعد ذلك منعدم أو محدود ، أما تعاقد المسلمين ، فهو مجرد توكيل للحاكم يباشر بمقتضاه . وفق شروط خاصة ، سلطات الأمة . ويخضع في جميع أموره لسلطان الأمة ورقابتها ، وليس له عليها سوى حق الطاعة إذا التزم الشروط التى تعاقدوا عليها معه ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بشيء من التفصيل .

سادساً : الدولة التى تقوم وفق ما ذكرنا من القواعد السابقة هى : دولة الله !! بمعنى أن الله هو خالقها ومالكها والمشرع لها ، وصاحب السيادة المطلقة عليها ، لا ينازعه فى ذلك منازع مما خلق ، وأن الأصل فيها ، هو تكليف الله للأمة ، ومسئوليتها عن صالح الدين والأفراد أمامه سبحانه ، وإجابة الله للأمة عنه سبحانه ، فى مباشرة السيادة عليها ومقتضيات هذه السيادة ؛ ونحب أن نشير هنا إلى أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، قد حرص تمام الحرص على أن يجلى هذا المعنى لاتباعه وخصومه على السواء ، حتى فى أيام المحنة الكبرى ، عند ما ثار كثير من القبائل على سلطانه ودينه ، وتنبأ كثير من الناس بدافع العصية والحسد للرسول ولعريش فقد كتب مسيلة الكذاب إلى الرسول الصادق عليه السلام - يقول : إن الله قد أشركنى معك ، فلنا نصف الأرض ولعريش نصفها . ولكن قريشاً قوم لا يعدلون يريد مسيلة - وقد ظن الرسالة ملكاً أو تهدى إلى الملك - أن يقسم الملك والسلطان مع الرسول الترشى فى وقت تألبت عليه فيه قبائل كثيرة فى اليمن وفى نجد وفى اليمامة وفى بنى حنيفة وغيرهم ، وقدر أن الرسول فى محتته هذه ، لا بد أن يجيبه ، ولو أن شيئاً من ذلك كان جائزاً فى نظر الرسول عليه السلام لأجابه وحل الأزمة ، وأراح الإسلام والمسلمين من شرور كثيرة متوقعة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رد عليه يقول : بعد الحمد لله والثناء عليه وإظهار كذب مسيلة : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وقد قال عليه السلام لواحد من أتباعه قد تلجلج أمامه فى الكلام « هون عليك فلست بملك فأستعبدكم ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى للرسول : « لست عليهم بمسيطر » .

وفى الكلمة التالية إن شاء الله تناقش نظرية الإسلام معارضة بنظريات غير المسلمين ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا سواء السبيل .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس بكلية اللغة العربية

دخل المدينة أول نفر قبلوا الدعوة ، وأذعنوا للحق ، وبايعوا على النصر
والحماية والمتابعة ، وكانوا ستة من الخزرج هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف
ابن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعتبة بن عامر ، وجابر بن
عبد الله « رضى الله عنهم أجمعين » بعد أن سبقتهم إليها أخبار تطايرت من مكة ،
وأوصاف تناقلها الوافدون ، وحكاها المعجبون ، أمثال « إياس بن معاذ »
وأضرابه ممن صدوا عن قبولها وانتهروا في سبيلها .

واستقبل السابقون الأولون من الأنصار بالفرح والقبول ، واتسع لهم من
نفوس القوم ما جعلهم يحجرون بالدعوة وينادون بالإيمان ، ففشا الإسلام في
ربوع المدينة ، ودخل الإيمان إلى بيوتها ، حتى لم تبق دار إلا عمرت بالتوحيد ،
وآمنت برسول الله .

واتجهت الأنظار نحو مكة ، واشتاق كثرة من الأنصار لمشاهدة الداعي ،
ومبايعة التائم على أمر الله ، وطلبوا لقاءه ليروا بأبصارهم ما أعجبهم الحديث فيه ،
والسمع عنه .

وترقبوا الموسم القابل إلى أن حان حينه ، وحل أوانه فتنبأ للرحلة منهم عدد
شاركت النساء فيه الرجال ، وشدوا الرحال إلى مكة ، يطلبون الهدى والإيمان ،
وما إن وصلوا حتى تلقوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعوزهم طلبه ، ولم يشقهم
نشأته ، وبعثوا عرفاءهم يتوسمون وجهه الكريم ، ويتعرفون عليه ، فالتقوا به
جالساً بجوار عمه العباس في بيت الله المحجوج ينظر إلى الكعبة رمز التوحيد ،
وقبله الموحدين ، فلما وقعت أبصارهم عليه ، سارعوا إليه ، فأخبروه خبرهم ،
وأعلموه أن وراءهم من جاء راغباً في دينه ، محباً في لقائه ، فوعدهم العتبة ليلاً .

وفرّح الرسول صلوات الله عليه بهم فرحاً شديداً ، فقد أصاب قوماً يبحثون عن الحق ، ويرحلون في طلب الهدى ، بعد أن أعياه التعب ، وأكده النصب في عرض الحق على من تنكروا له ، ورفضوا الاعتراف به ،

ويروى أبو الزبير عن جابر وهو يصور صنيع الناس مع الرسول ، وصنيع الأنصار خاصة معه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ يقول : « من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربّي فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يأويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذي رحمة فيأتيه قومه فيقولون له « احذر غلام قريش لا يفتك » ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه فائتمروا واجتمعوا ، وقلنا « حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحلتنا حتى قدمنا عليه وواعدنا العقبة » .

والتفت العباس إلى النبي وقال له يا ابن أخي : ما هؤلاء التوم الذين جاءوك إني ذو معرفة بأهل يثرب ، وهؤلاء أحداث لا أعرفهم ؟ فأعلمه خبرهم . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العقبة ، وتسلسل إليه ثلاثة وسبعون رجلاً وامراتان خفية من قومهم ومن كفار مكة ، واجتمعوا عليه من رجل ورجلين وصحب الرسول إذ ذاك عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب - على ما يقوله بعض الرواة - وتقدم إليه الوافدون . وقالوا يا رسول الله « علام نبايعك » ؟ قال : « على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة » . فقام القوم يبائعونه ، وأخذ بيده أصغر السبعين

«أسعد بن زرارة» فقال : «يويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك نفذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله » فقاتلوا يا سعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً مبايعين ، وقامت المرأتان وهما « نسيبة بنت كعب بن عمرو » و « أسماء بنت عمرو بن عدى » فبايعهما الرسول صلى الله عليه وسلم من غير مصالحة - جرياً على عادته من التجافى عن مصالحة النساء .

وصرخ الشيطان على العقبة ، وانفض القوم إلى رحالهم ، وتطير الخبر إلى قريش . فقدمت جلّة من أشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقاتلوا : « يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تباعوه على حربنا ، وأيم الله ما حى من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم ، فانبعث إليهم من المشركين ما نفى الخبر وكبر الخطب ، وعظم على نفسه أن يكون من الأنصار ذلك دون أن يأمره أو يشاوره ، وعد ذلك افتياتاً من قومه لو أنهم فعلوه .

* * *

ورجعت قريش وهي تعلم أن إيمان الأنصار حقيقة واقعة ، وأنه لا بد من تعويقتهم وصدّهم حتى لا يكون لرسول الله في الجزيرة أرض تُعزّزه ولا نفوس تؤمن به يشع منها نور الله على أرجاء الأرض .

وتلاحق المسلمون ، وجدوا في الرحيل عن مكة وتبعهم قريش ، وأدركوا منهم سعد بن عباد فربطوا يديه إلى عنقه وضربوه وجروه إلى مكة ولولا « المطعم ابن عدى » و « الحارث بن حرب » - وهما أهل النجدة والإنتماذ - ما برح مكة ولا لحق بأصحابه ، وأرسل الرسول معهم « ابن أم مكتوم » و « مصعب بن عمير » ليعلمان من أسلم القرآن ، وجمع بهم مصعب أول جمعة في الإسلام .

عند ذلك شعر صلى الله عليه وسلم أن الدعوة الإسلامية التي ظلت طويلاً تبحث عن وطن تأمنه وشعب تركز إليه قد أصابت طلبتها ووقعت على غرضها ، وأن المدينة أصبحت أولى بلاد العرب باحتضان الدعوة ، وحماية الدين .

وإذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه المضطهدين أن يخرجوا إليها بدينهم ويفروا لها بإيمانهم فتجهزوا وحملوا الزراري والأطفال والأموال إلى المدينة ، وأزعج ذلك قريشاً ، فإن الأوس والخزرج أهل شوكة وبأس ، ودارهم دار منعة وقوة .

وضجت قريش لهذا النبأ الجديد فطالما قدروا فيما بينهم أن أمر محمد هين ، وأن استخفافهم به كاف في رده عن قصده ، ودفعه عن غايته .

وها لهم أن يجد بجانبه من ينصر دعوته ، وينشر دينه ، ويأوى إليه ويؤازره . ثم هو قد أزمع على الرحيل ، وبدأ بترحيل أصحابه ، وهو إن لحق بهم قامت دولته وانتشر دينه ، وفوت على أصحاب الرياسات الكاذبة أغراضهم وآمالهم . واجتمعوا في ناديتهم اجتماعاً حضره أهل الرأي والحجاء ، وعرضوا قضية محمد عرضاً جديداً . وبحشوا أمره على ضوء ما جد من حوادث ، وأدلى كل برأيه ، وصرفهم الشيطان عن كل رأى يبق أنفاس محمد على الأرض . لذلك أعجبهم وأعجب شيطانهم رأى أبي جهل بقتله ، واشترك القبائل في ذلك اشتراكاً يوزع دمه حتى تنوء عبد مناف بنأره وترضى بدينه ، وخرجوا من ناديتهم ، وقد أحكموا المؤامرة وعقدوا النية على التنفيذ .

وأعلم الله رسوله بما بيت القوم ، كما أعلمه بما يتخذة حيال ضيعتهم ، فأمره أن يفر بدينه إلى المدينة . فإن مكة لم تتهياً بعد لتقبل الدعوة ، وقد أعذر محمد لقومه وعشيرته ، فقد لبث فيهم ثلاث عشرة سنة من عمر نبوته يدعوهم فيها إلى الحق والنور والسيادة والعزة والدنيا والآخرة ، ولكن صادفته قلوب عليها أقفالها ، ونفوس أوصدت عن قبول الحق ، وانصرفت عن الهدى إلى متابعة الشيطان ، وأى شيء يلزمه بالبقاء فيهم ، وفي الأرض سعة لتقبل الهدى ونشر الدين .

وما كان محمد صلوات الله عليه ليفر من مكة ناجياً بنفسه مما أصابه ولا متخلصاً من آلام جسمية أو معنوية تعرض لها ، فكل ذلك هين أمام عزيمة أولى العزم ، ولكن الباعث الذي دفعه إلى ترك أحب البلاد إليه هو حرصه على تبليغ رسالة ربه ، بعد أن ضاقت مكة ذرعاً بالحق ، وأوشكت الدعوى أن يتمضى عليها في مهدها ، ولم يبق من عمر الرسالة سوى مدة قصيرة لا تكفى لنشر دين الله وبث تعاليمه وإصلاحاته . فكان لا بد من الالتجاء إلى مكان تدوى فيه كلمة الحق ، وتعر فيه الدعوة ، وقد كانت « طيبة » أرجى أرض الله لنشر كلمة الله ونصرة دينه .

أبو العيْناء، الضَّرير

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

هذه شخصية طريفة عظيمة ، قد أوتيت من سعة الذرع في الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير ، فأبو العيْناء يشبه من هذه الناحية ابن جرير الطبري ، إلا أنه قد غلبت عليه نواحي الأدب ورواية أخبار العرب ، وهو غير متحفظ من الهزل ولا المجون ، ولا متعبد بقيود التزمّت الديني ، كابن جرير الطبري .

ولا بد للقارئ أن ينتقل بين الجد والهزل ، وأن يستجم نفسه بشيء من اللهو ليستعين به على الحق ، وأن يسوسها بطرائف الأدب ، لينأى بها عن العطب :
لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التثقل من حال إلى حال

وأبو العيْناء من هاته النواحي أقرب شهاً لصديقه الجاحظ ، فكل منهما من ظرفاء العالم وأحدّهم ذكاء ، وأبرعهم نكتة ، وأغزرهم ثقافة ، وأجولهم في شعاب الأدب العربي ، وأكثرهم رواية للأخبار ، وأبلغهم أسلوباً ، إلا أن الجاحظ كان من المؤلفين ، وكان له في التأليف آثاره الطيبة الخالدة في شتى العلوم والمعارف على اختلاف ضروبها .

ولعل هذا الضرير لو استدّام له بصره ، لاستطاع أن يتنافس الجاحظ في ناحية التأليف أيضاً ، ولسكنه عَمَى في سن الأربعين تقريباً ، على أنه كتب قبل نك السّن ، وجمع كثيراً من الأخبار والآثار ، ثم لم يطرد له ذلك ، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن زمن كل من الجاحظ وهذا الأديب يسبق زمن الطبري بقليل ، والجاحظ أسبق الثلاثة في الولادة وفي الوفاة ^(١) .

[١] ولد الجاحظ سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٥٥ هـ . وولد أبو العيْناء سنة ١٧١ وتوفي سنة ٢٨٣ هـ ، وولد الطبري سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ هـ كما في تاريخ ابن خلكان .

كانت ولادة أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر ، الذي نريد الحديث عنه ، في سنة ١٧١ هـ ووفاته في سنة ٢٨٣ هـ بالأهواز ، وتذكر بعض الروايات أن ولادته كانت سنة ١٩١ هـ ، مع الاتفاق على سنة وفاته ، فقد شهد العهد الذهبي العباسي ، وعاصر ثلاثة عشر من الخلفاء العباسيين ، أولهم هرون الرشيد ، وآخرهم المستنق بالله ، واتصل بالخليفة المتوكل اتصالاً ظاهراً ذا أثر بين في حياته ، وله معه أخبار يمر بك بعضها إن شاء الله .

كان إذًا في عصر يشجع العلم ، ويرفع شأن رجاله ، وهو من الذكاء على ما أشرت لك سابقاً . ونشأ في البصرة وهي لا تزال بمجمع الفقهاء والرواة والمحدثين وأئمة اللغة والأدب ، فكرع من حياض العلم بها ، وكتب عن خيرة رجالها من أئمة الحديث والأدب ، وله روايات لبعض أحاديث يذكرها الرواة ، على أنه لم يكن بالحجة ولا الموثق ، ومن سمع منهم وأخذ عنهم الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عاصم النبيل وغيرهم من عمد الأدب وأخبار العرب ومن ملأوا الدنيا معرفة ، وسطرت أخبارهم في كتب الأدب واللغة ، خالدة مثمرة فياضة ، فما ظنك بمن يأخذ عنهم شفاهها ويروى عن عدد منهم ، وهو في مثل ذكاء أبي العيناء وحرصه ، وقد ارتحل من بلده لذلك الغرض ، وقد كف بصره كما قلت لك بعد أن بلغ الأربعين . ثم ارتحل إلى بغداد معلماً يزكي ما أخذ ، ويلتقن ما جمع ، ويملي على الناس الأخبار ، والأدب والشعر ، وعاد إلى البصرة في آخر حياته فتوفي بها .



أما أصله فن بن حنيفة ، من سبي اليمامة في أيام الخليفة المنصور ، فلما صار ياسر في قيد المنصور أعتقه . وأما ما أصابه من العمى فيذكر الناس له حديثاً طريفاً يفيد أنه وراثي ، ويقول صاحب معجم الأدباء ، وصاحب زهر الآداب : إن ذلك كان بدعوة من علي بن أبي طالب علي جده الأكبر الذي كان يلقى علياً ، فأساء مخاطبته ، فدعا عليه بالعمى ، فهم يتوارثونه فنكل أعشى فيهم صحيح النسب ، ويقول الخطيب : إن الدعوة كانت من عبد الله بن حسن العلوي على جده الأدنى (خلاد) .

ويروى ذلك عن أبي العيناء نفسه ، فخلاد كان جاسوساً من قبل المنصور على مناوئة عبد الله بن حسن ، في صورة المشايخ له ، وقد زوده المنصور بالأموال

يبنلها لعبد الله بن حسن ويتعاون معه فى الظاهر ، ولكنه يكتب إلى المنصور بأنفاسه ، وأحوال أبنائه وشيعته ، وكان عبد الله بن حسن راضياً عنه معجباً به ، فلما اتصلت به حتمية خبره ، دعا بالعمى عليه وعلى نسله ، فهم يتوارثون ذلك . أما نحن فسواء عندنا أصح الخبر الأول أم الثانى ، أم لم يصح واحد منهما ، مادامنا قد علمنا أنه عمى بعد الأربعين ، وأن ذلك العمى كان له أثره فى بعض ما كان له من صفات تبدو فى أخباره ، وتمثل فى آثاره الحسن منها والسيئ . فقد أفاد منها كثيراً فى إلهاب جذوة النشاط الفكرى ، وقوة الحافظة والذاكرة ، وصرفته عن بعض نواحي اللهو التى لا مآرب فيها لأمثاله إذ ذاك ؛ على أنه قد أساء إليه فيما كان يعلم به من بعض الضغن والحسد على خلق الله ، مما يتجلى فى السب والطعن الذى ترامت أخباره إلى الخليفة المتوكل ، وقد حاول أن يحوله عنه فكان يحتج له ويدافع عنه فيقول فى بعض دفاعه :

« يا أمير المؤمنين قد مدح الله وذم ، فتمال (نعم العبد إنه أواب) ، وقال (هماز مشاء بنميم)

وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً ولم أشتم النكس اللئيم المذمماً
فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفها
وقد رفع عنه شيئاً من برقع الحياء ، فكان يواجه بالمكروه ما يبالي شيئاً .

روى صاحب زهر الآداب عنه قال : « كان عيسى بن فرخان يتيه على فى ولايته الوزارة ، فلما صرف عنها رهبنى ، فلقينى فسلم على فأحبنى فقلت لغلامى : من هذا ؟ قال : أبو موسى ، فدنوت منه وقلت :

« أعزك الله ، والله لقد كنت أقنع بإيمانك دون بيانك . وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، لقد أصابت فيك النقمة . ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لتمد أبدت محاسنها بالإدبار عنك ، والله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهننا عن قول الزور فيك ، فتمد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم » .

فهذه مواجهة من أسوأ المواجهات ، ومهاجمة من أنزل المهاجمات ، لا ينتصب لها إلا مثله وكفى بها دلالة على مقدار ما صنعت به علته ، على أن لها دلالتها على بلاغة الرجل وطول نفسه في البيان .

وقد سأله القاضي العظيم ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ فقال له : أمران ، يبدؤني قوم بالسلام وكنت أحب أن أبدأهم ، وأني ربما حدثت المعرض عني وكنت أحب أن أعرف ذلك فأقطع عنه حديثي . فآسأه القاضي بقوله : أما من ابتدأك بالسلام فتمدك كفافته بحسن النية ، وأما من أعرض عنك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه .

وفي أخباره ما يدل على أنه كان قبل العمى أحول . روى الخطيب بسنده إليه ، قال مدحني أبو العاليه بقوله :

كتبت لابن قاسم مآثرات فهو للمجد صاحب وقرين
أحول العين والمودة زين لا أحوال بها ولا تلوين
ليس للبر شائناً حول العي ن ، إذا كان فعله لا يشين

فلما سمع محمد بن المرزبانى الآيات قال : يا أبا عبد الله وكنت قبل أن يذهب بصرك أحول ! من حول إلى عمى ، من سقم إلى بلا وانظر ما أجابه به أبو العيناء لتعلم ما أوتيه من السلاطة وما منى به من قلة التحفظ ، وما أكسبته تلك العاهة من غيظ . قال أبو العيناء لابن المرزبانى : هذا أظرف خبر تصعد به الملائكة إلى السماء اليوم . أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلاء ، أم حال العجوز أصلحها الله من الزنا إلى التيادة . لقد رمى أم صاحبه بأخفش ما ترمى به النساء . وسترى أن ذلك العمى قد فوت عليه فرصة منادمة المتوكل ، وأوجب له عقدة نفسية واضطراباً .

فأما كنيته (أبو العيناء) ، فإنها ترجع إلى عهد اتصاله بأستاذه في العربية أبي زيد بن أوس الأنصارى قبل أن يكف بصره وهو يطلب العلم بالبصرة ، ولعله كان أعين واسع العين إذ ذاك . فقد عاد إلى البصرة من بغداد في آخر حياته ، وكان محبو العلم والأدب يصيرون إليه في داره يسمعون كلامه ، ويكتبون عنه ، فسأله

سائل : يا أبا عبد الله كيف كنت أبا العينا : قال : قلت لأبي زيد كيف تصغر عينا ، قال عينا ، يا أبا العينا .

كانت البصرة كما رأيت مستراد أبي عبد الله ومذهبه ، ومسعا في جمع العلم وتحصيله ، وأنا أستظهر أنه تعلم ببلدته الأولى (الأهواز) ، شيئاً من مبادئ العلم كما هو الشأن في بدء تعليم العلماء حين يقوم آباؤهم بشؤونهم . وإن ما يذكر الأدباء والأخباريون حوله ، يدل على أنه التمس بالبصرة الحديث والأخبار ، وكان همه أن يجمع الشعر والأدب والرواية ، ويقول الخطيب في بعض أخباره : أنه أتى أبا عبد الله الخريبي من علماء السنة بالبصرة فخرى بينهما ذلك الحديث :

الخريبي — ما جاء بك ؟ أبو العينا — الحديث .

الخريبي — اذهب فاحفظ القرآن . أبو العينا — قد حفظت القرآن .

الخريبي — اقرأ وأتل عليهم نبأ نوح . قال أبو العينا : فقرأ العشر حتى أنفدته .

الخريبي — اذهب الآن فتعلم الفرائض . أبو العينا — قد تعلمتها .

الخريبي — أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟

أبو العينا — ابن أخى الخريبي — ولم ؟

أبو العينا — لأن أخى من أبى وعمى من جدى .

الخريبي — إذ ذهب الآن فتعلم العربية . أبو العينا — قد تعلمتها .

الخريبي — لم قال عمر بن الخطاب يال الله يال المسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟

أبو العينا — فتح تلك اللام على الدعاء ، وكسر هذه على الاستغاث والاستنصار .

الخريبي — لو حدثت أحداً حدثك .

وأقام أبو عبد الله بالبصرة حتى عظم شأنه ، فأفاد العلم والمال والجاه والمنزلة .

وفى كلام بعض الشعراء ما يدل على أنه أفاد بالعمى بعض المادة والثراء

قال أبو على البصير :

قد كنت خفت يد الزمان عليك إذ عمى البصر

لم أدر أنك بالعمى تغنى ، ويفتقر البشر

وفى البصرة جرى عليه ما وصله بالقاضى ابن أبى دؤاد رحمه الله ، فازداد رفعة

ونباهة ، بعد محنة كادت تعصف به ولكن الفضل يعرفه ذووه .

روى الخطيب بسنده إلى أبي العيناء قال : كنت في أيام الواثق مقبياً بالبصرة ، فكنت يوماً في سوق الوراقين بها ، إذ رأيت منادياً ينادى على مصحف مخلق الأداة ، فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه ، وأنا أعني به أداته ، فأقبل المنادى ينادى بالبراءة مما في المصحف ، فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادى ، وقالوا يا عدو الله تنادى على المصحف بالبراءة مما فيه وأوقعوا به . فقال لهم ذلك الرجل أمرني فتركوه وأقبلوا إلى ، وتجمعوا عليّ ، ورفعوني إلى الوالي ، وعملوا لي محضراً ، وكتبوا إلى السلطان ، فحول أمرى إلى التماضي ابن أبي دؤاد فتكفل بالفحص عنه .

وتابعت الكتابة في شأني فتملت لابن أبي دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الهمج على وهم كثير ، فقال - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فتملت : قد بالغوا في التشنيع عليّ ، فقال : لا يحق المسكر السيئ إلا بأهله .

فتملت : إني على غاية الخوف من شرهم ، ولن يخرج أمرى من يدك .

فقال : لا تحزن إن الله معنا - فتملت : التماضي أعزه الله كما قال الصموت الكلاني .

لله درك أي جنّة خائف ومتاع دنيا أنت للحدثان
متخبط يظأ الرجال بنعله وطء العتيق دوارج الفردان (١)
ويكبهم حتى كأن رؤوسهم مأمومة تنحط للغربان
 ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بابان
فقال القاضي - يا غلام : الدواة والتمرطاس - أ كتب الأبيات .

ولم يزل يتلطف في أمره حتى أخرجه . . . وقد طال بنا القول فحال دون أن نتمتع القارئ بتقصته الطريفة مع الغلام الذي أخرجه من البصرة ، ولا أن نتحفه بشيء من أدبه في النثر والشعر ، غير ما مضت مناسبته ولا بشيء من نكته وملحه . وأجوبته المسكتة ، فإلى العدد التامد إن شاء الله .

(١) البيت كناية عن سلوته حتى إنه لا يبالي بالرجال كما لا يبالي الفحل إذ وطئ الفردان

الإيمان بالله

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي إبراهيم الخشب

المدرس بكلية الشريعة

القرآن الكريم ، حينما يلفت أنظارنا إلى ملكوت السماوات والأرض ، ويدعونا إلى النظر فيه ، والتأمل في صنع ، الله الذي خلق كل شيء ، لا يقصد بذلك كله أن نمسح الخاطر بدقة نظامه ، وبديع هندسته ، ورائع تصديقه ، وغريب تسخير ، الذي أذهل العقول ، وأدهش الأفكار ، وحير الأفتدة ، وهال البصائر ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن قصده سبحانه ، لأنه غنى عن العالمين .

ولكنه لما خلق الإنسان في أحسن تقويم ، كرّمه عن الذلة ، ورفعته عن المهانة ، وسما به عن الصنعة ، وباعد بينه وبين الإسفاف ، فجعل له العزة دون المخلوقات ، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح ، ما لم يعمر قلبه بالإيمان بالله الذي خلق الماء والهواء ، وتحكم في الوجود والفناء ، وقضى بالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، ووزع الحظوظ والأرزاق ، ومن الغريب أن العبد إذا ما خضع للعبد ، ذهب ماء وجهه ، وضاع الكثير من آدميته ، وفقد مهابته واحترامه ، وصار أشبه بالدابة الذلول ، التي يستخدمها المستخدمون في قطع المسافات ، ونقل المتاع ، وجرّ العرب ، وشق الأرض ، وسقى الزرع .

وعلى العكس من ذلك ، إذا ما تراءى على عتبات سيد الوجود ، وتفاانى في ذات المعبود ، وبالغ في الزلنى من رب الأرباب ، ومسبّب الأسباب . والسر في ذلك أنه جل جلاله لا يُعَيِّر عبده بهذا الخضوع ، ولا يزيده ذلك جبروتا ولا عظمة ، فقد تنهى مجده ، وامتد سلطانه ، وانبسط في الملكوت كله جاهه ، فلم يعد بحاجة إلى طاعة الطائعين ؛ على أن ذلة المكلفين له ، أو نزولهم على إرادته ، وانقيادهم لأمره ، هو أصل الفطرة ، واستجابة الغريزة ، وتجاوب الطبع ، وحكم العادة . ولذلك يستشعر المسلم منه الكرامة والإباء ، والترفع والتعالى ، والتطاول والكبرياء والزهو والخيلاء . وكلما أحس بدنوه من الله ، كلما أحس بأنه يخلق في الدنيا ، ويشرف على البسيطة من علياء لا يتطلع إليها النظر ، ولا يصل إلى آفاقها الوهم ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن المرء حينما يدرك هذا الشأ ، وينتهى إلى تلك الغاية ، يحتقر الحياة والأحياء ،

ويزهد فيما يحتويه ذلك السكون الخادع الخلاب . وهذا هو العسلة في أن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، لأن الإشراك يتنافى مع الإيمان بالإله الحق ، والخالق المبدع ، والفرد الصمد . وإلى هنا نستطيع أن نفهم ثورة أسلافنا العلماء على المسّاطين من أرباب الحكم والجاه ، والبطش والظلم ، والعسف والطغيان ، ونعلم تأويل قول « الجبائي » : ما في الجبة إلا الله ...

ولقد كان هذا هو الهدف الذي وقف النبي صلى الله عليه وسلم له سبحانه في بادئ الأمر بمكة زهاء عشر سنوات ، يحتمل من قومه من الأذى ، ويلاقي من الهوان ، ويتكبد من الشدائد ، ما لا يصبر عليه إلا الصناديد ، ولا يصمد له إلا الأبطال . وجاء في الكتاب العزيز الأمر به في مواضع متنوعة ، ومواطن متعددة ، وأجمع العلماء على أنه الدعامة التي عليها تستند العميدة ، أو يتركز الإسلام . وعلى الرغم من أن الدين المعاملة - كما يتولون - وإن الناس إنما يهتمون بما يتبادلونه من منافع ، وما يتناوبونه من معونة ، وما يبذلونه من بر ومعروف ، فإن الله لا يقيم لذلك وزناً ، إلا إذا كان قائماً على الإيمان به « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » ؛ والكفار مهما كان سلوكهم الطيب ، وخلقه الحميد ، ويدهم على الإنسانية ، وأثرهم على الإصلاح والعمران ، لا يتقبل منهم صنعا ، ولا يجزيهم على المعروف معروفاً ، ولا يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار » . ولأن هذا الإيمان محل القلب ، فقد طلب منا أن نظهره بالصوم ، ونقويه بالصبر ، وكانت من سننه تعالى المحن يبتلي بها الأخيار من عباده ، لا ليعلم منهم ما لم يكن يعلم من الجلد للتوازل ، والرضا بما يقضى عليهم ، ولكن ليراقبوا ضمائرهم ، ويهيمنوا على هواجسهم ، ويتحكموا في دخائل نفوسهم ، ويتصرفوا في شئوهم بالعدل لا بالهوى ، وبالتفكير والرأى ، لا بالنزق والطيش ، ونحن معرضون دائماً أبدأ للسهو والغفلة والترك والنسيان .

وجاء الحديث الشريف في أكثر من مناسبة ينوّه بشأن القلب ومكانته بين الجوارح : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهي القلب » . « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وكان من السنة وضع اليدين على القلب في الصلاة إيقاظاً له فلا يغفل ،

وحرصا عليه من أن ينصرف عن هذا الاتجاه الذى يتجه إليه المصلى بهذا الموقف الذى يتفه. !! ويرى بعض الباحثين أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه من الاعتباريات التى لا وجود لها حتى يتوجه إليها النقصان والزيادة ، وليس يدخل فى مفهومه ، الذى هو إذعان القلب وانقياده ، زيادة أو نقص .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى أبى بكر رضى الله عنه : إنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ، فإنه يؤول بما يصرف اللفظ عن الظاهر ، على أن الزيادة والنقصان من الأمور المعنوية التى يدركها الإنسان بآثارها ، ويعرفها بمقدار بواعثها « فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » .

والإيمان بالله هو الذى حمل الصدر الأول أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن يبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيله ، عن طيب خاطر ، وهدوء بال ، واطمئنان ضمير ، وكانت لهم العزة والمهابة ، والمجد والجاه ، والبأس والسلطان .

والإيمان بالله - إلى جانب كونه يربط المرء بربه - يباعد بين صاحبه وبين بعض الصفات الخلقية المردولة ، كالنفاق والملق ، والتواضع الممتوت ، والكذب البغيض ، ومن هذه يدب الفساد ، وتشيع الفوضى ، وتتأصل فى المجتمع جرائم من الشرور لا عداد لها ، ولا تخلص منها ، اللهم إلا الإقلاع عن هذا الصغار من السلوك ، وهذا التدلى فى الأدب ، وهذا الخلط فى المعاملة .

والذى يدرس البيئات المنحطة فى طباعها ، الواهية فى عاداتها ، المريضة فى أخلاقها ، لا يجد إلا أنها متحللة من صفة « الإيمان بالله » ، متفككة من هذا الرباط المقدس ، وعلى قدر ما تكون الأفراد أو الجماعات آخذة به ، عامرة قلوبها منه ، تكون قوتها المسادية والمعنوية ، وقصة الرجل صاحب الدين على بعض العرب من قریش ، الذى حضر من البادية لیتماضاه ، وكان يتلس إنساناً ذا جاه يستعين بجأه على قضائه من المدين ، وقد دلوه على النبي صلى الله عليه وسلم - استهزاء به ، وسخرية منه - فلم يسعه إلا أن يذهب معه إلى المدين يطالبه ، صورة من هذا الإيمان فإن الرجل الماثل لم يكدرى وجهه المشرق ، وجيئته المضىء ، وطلعتة الراهبة ، حتى اضطرب ، وأخذته رعدة من الخوف ، وبادر إلى المال يسلبه لصاحبه شاكرآ له الصنيع الطيب ، والفعال الكريم .

فاللهم ارزقنا هذا الخلق فلا نؤمن إلا بك ، ولا نذل إلا لك ، ولا نرجو سواك ، ولا نخاف غيرك ، إنك أنت الخالق الرازق ، الضار النافع ، وأتأس كلهم عيال عليك !

سهل أهداف الاستغفار في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

هناك جانب من تعاليم الدين الخفيف لا يسهل على الفرد العادي أن يعرف حكمته بالنظر العاجل أو أهوى المسائل ، بل لابد من التأني والتحرى ، ومعرفة مداخل العلل والأسباب ، ودراسة منابع الحكم والثرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه هذه التعاليم من أسرار وثمار ؛ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

يمر بالخاطر مثلاً موضوع الاستغفار في الإسلام ، فنرى عجباً ، ويبدو ما يستوجب النظر ويشير الفكر ، إن آيات الاستغفار ، وأحاديث الحظ على التوبة ، كثيرة كثيرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم ، وهو هدى العلى الحكيم ، لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به ويحرض عليه فيقول : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ، ويأتى بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، فيستفيض في توسيع الباب قائلاً : لو لم تذنبا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم ! .. ويعود القرآن المجيد فيذكر العباد : بأن الله هو البر الرحيم ، والروؤوف الكريم ، الذى يجب أن تقصده لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، وأن نلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت شدائد ، فيقول : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ؟ .. ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ثم يعمم المغفرة والتببول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » .. ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم ، حتى تملا خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم لغفر الله لكم » .. إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران ! .

قد يضل ضال في فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح له بترحيب وبلا نظام ، مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، وليست المسألة مسألة كلمات ترددها الشفاه ، بلا ندم على ماسبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة ، وبلا إصلاح لما يمكن إصلاحه من فتوق ، فإن رب المغفرة والمتاب ، هو أيضاً رب المعاقبة والحساب ، والذي وسعت رحمته كل شيء هو نفسه الذي يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويقول : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ والله الذي قال لنبيه : « نبيء عبادى ، أنى أنا الغفور الرحيم » هو نفسه الذي قال عقيب ذلك مباشرة : « وأن عذابي هو العذاب الأليم » .

لعل اللاهى الضال سيعود إلى الاعتراض قائلاً : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فيقال لذلك الغافل : إن التناقض ليس موجوداً إلا في ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك في أمر جامع عام ، وضعه رب العالمين للعالم وفيهم أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل في القرآن عن الاستغفار والحض عليه ، إلا أسلوب الحكيم العليم في تربية الخلق ، وإحياء الضمير ، وإماتة السيئة ، والاستكثار من الحسنة ، فهو ينهض على كثير من الأسس القوية العالية . إن الإسلام الخفيف بأسلوبه هذا في التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان خطأ ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، لإظهار الفرق بين المخلوق والخالق ، ولإيجاد ميدان المجاهدة والتنافس فى القربى ، فلو سد الإسلام فى وجهه باب الندم والتوبة والتخفف من أوزار الماضى للنهوض بطيبات الحاضر وحسنات المستقبل ، لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ؛ وإذن فلنلتمس الإسلام للخطأ عذرا ، وليسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكار والاستحضار المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيى موات الضمير فى الإنسان ، وينقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ويعده عند الإخلاص والصدق مغفرة ورضوانا ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، حينما كان

يحرص صحابته على الاستغفار ، ويخبرهم أنه يستغفر في اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيئون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب ، فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ! .

ومن أهداف الاستغفار والمتاب في الإسلام أيضاً ، إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الخياري الضعفاء ، فهو الذي برأهم ، وهو الذي أنعم عليهم ، وهو الذي حلم معهم ، وهو أيضاً الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فيألفها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذي يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سيلاً ، فإنه كما يقول القرآن : « لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ويهيء لهم دائماً فرصة للارتداد والاسترجاع ، والله أفرح بعبده التائب من الذي فقد شيئاً نفساً لديه ثم عثر عليه ، فيكون ذلك إشعاراً بعد إشعار بفضل الله الواسع ، ومنته الكبري وآلانه العظمى ، فإن لم يخضع العبد عن طريق الرهبة والتخويف ، استجاب عن طريق التكريم والإنعام ؛ وها هو ذا سبحانه يضاعف لطفه فيجعل فرصة التطهر والتخلص بمزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر ، فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الإثم ، وإتيان الحسنه محواً للسيئة ، وفي ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات ؛ فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن أهداف الاستغفار الذي جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والتجمل في نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فُغفر له ، ثم عاد فأخطأ فاستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه - إن لم تكن قد ماتت - بأن هذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذي ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحي من تكرار خطئه ، فيستشعر في صدره قوة عزم على المقاومة للهوى والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذي أراده على رضي الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلاً : رجل أذنب

فماذا يفعل ؟ . قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد . قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . قال علي : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزي الشيطان ! .

ولو فرضنا هنا ما لا يليق بالمرء ، وهو أن يستمر في غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة ، بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم .

ولعل الإكثار من الحديث عن الاستغفار في الإسلام ، فيه إشعار للهداة وتذكير للمصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يحمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولا يأسوا الرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة في الناس ، لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .

ولا ننسى أيضاً ما في الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة إلى رحاب المناجاة ، وانقطاع عن هواتف التراب واتصال بالملا الأعلى ، وفي ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوي الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم مخرجاً ، ومن كل ضيق فرجاً ، وورقه من حيث لا يحتسب » ! .

أما بعد ، فإن الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، وأن نتجنب السوء ما قدرنا ، ولا يضيرنا أن نعثر مرة ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحليين ، فلنرفع رؤوسنا من جديد ، ولنطو صفحات الماضي بما فيه ، ولنستغفر الله منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! .

شعاع من فجر الإسلام

المفتي الدكتور الشيخ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

إنه شعاع الإيمان المتألى ، انبثق في ظلمات الحياة ، فتمشع دياجيرها ، ومحا جاهليتها ، وشتت حمقها وضلالاتها .

شعاع الإيمان الذى سكبته الله فى قلب محمد عليه السلام ، فغمر جانيبه هدى ونورا ، وجعل من نفسه البشرية ، نفساً ملائكية تفسر على ضوء إيمانها أسرار هذا الوجود . الإيمان الذى شيد من نفس محمد عليه السلام أمة ، وبني من أمة محمد عليه السلام قوة لا تثبت أمامها قوة .

الإيمان الذى خلق من حفاة الصحراء قادة ، ملوكهم إيمانهم نواصى الحياة ، وأذرى بالشدائد .

الإيمان الذى انبعث من ذلك القلب فزعزع بطش الجبارين ، وزلزل صلف المتألهين ، وحطم غدر المتذئبين .

الإيمان الذى خلق من القلوب الصحراوية رحمة ، ومن جشعها قناعة ، ومن غلظتها وداعة ، حيث تحمد الوداعة ، وعفواً حيث تكون القدرة .

الإيمان الذى جعل من المرأة قوة تفتك بعنت العتاة ، وخلق من فاطمة بنت الخطاب سلاحاً يخضع جبروت عمر حين تصيح فيه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » ، فيستسلم عمر الجبار إلى ذلك الإيمان الدافق تتفجر ينابيعه من قلب المرأة الضعيفة . ذلك الإيمان الذى جعل من المسلم الأول أمة يعيش للأمة ، ويعنى بالمجتمع ، لا فرداً تسيطر عليه الفردية ، وتتحكم فيه النفعية الشخصية ، ويعنى بالأسرة الصغيرة ، فيشيد لها ويدخر .

فأبو بكر ، رضوان الله عليه ، يدفعه إيمانه إلى الجود بكل ماله لله ولرسول الله ، ولنصرة دين الله ، ثم هو لا يترك لأولاده قوتاً ثقة منه بالله ، أنه بهذا البذل يبني الأمة قبل الأسرة ، ويؤسس للدولة قبل الولد ، بهذا الإيمان من أبي بكر ، وبمثله من غير أبي بكر ، ساد العرب وعز الإسلام .

ذلك الإيمان هو الذى جعل للعرب الغلبة والسيادة ، فانطلقوا تحت رايته يدعون إلى المبادئ السامية ، مبادئ الإخاء والمساواة ، مبادئ الإنسانية ، فتفتحت الدول أمام دعوتهم قبل أن تفتح بسببهم ، وتطلعت الشعوب المظلومة إلى تلك المبادئ التى جاء بها الإسلام لتتقدها من ظلم القيصرية وجور الاستعمارية ، ذلك هو الإيمان الذى جعل بلالا وأمثال بلال يستمرئون مر العذاب فى سبيل إيمانهم ، فخر الرضاء الذى يشوى الجسوم لم ينهه إيمان الأرواح ، ولم يززع ثقة النفوس ، لأن إيمانها أعظم من أن يخضعه جبروت أو يذله غت ، والإيمان وحده هو الذى نصر ثلاثمائة من المسلمين على ألف من المشركين فى بدر ، سلاح المؤمنين الإيمان وحده ، وللمشركين سلاح من عددهم ، وسلاح من مالههم ، وسلاح من خيلهم ، ولكن كل هذه الأسلحة لم تغن أمام الإيمان شيئاً .

لقد حمل المسلم الأول إيمانه بين جنبيه ، وألقى عزمه بين عينيه ، واندفع عاصفاً يقطع أعناق الجبال الآسيوية ، ويمرق فى وديانها ، حتى انتهى إلى إفريقيا ، فأنار رمالها ، ومر على خصبها وجذبها ، ثم قطع البحر إلى أوروبا ، وهو يحمل حيث سار ، ويؤذن حيث أقام :

الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ هتف الأذان ، ونادى الإيمان ، فصمتت الصوامع والبيع ، وأخرست النواقيس وراح الحق ينادى فى الناس : حى على الصلاة ، حى على الفلاح . فتجاوبت الأرواح فى أوروبا وإفريقيا وآسيا : ليك ليك .

وهكذا جرى الإيمان نوراً يهفو إلى القلوب فتفتتح له كما يتفتح الزهر لبسات الصباح ، وتنتعش به النفوس كما تنتعش الورود ببسات الربيع .

لند أخى الإيمان بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها منذ بدا فجره ، فلا يئن مسلم فى اليمن ، حتى تسمع أُناته فى المدينة ودمشق وبغداد ومصر

وقرطبة، ولا يستغيث عربي في خيامه الضاربة في حضن الجزيرة العربية، حتى تجاوبه الأصوات في مصر وقرطبة وبغداد ودمشق: ليك ليك، وهكذا كانت أخوة الإيمان، يجمع المسلمين إحساس واحد وإن اختلفت أقطارهم وتناعت بلدانهم. فأين نحن الآن من هذا الإيمان؟

الأمة العربية مضطربة، والشعوب الإسلامية مفسكة، بل الأسرة الصغيرة متنافرة متناحرة.

يا رحمة السماء، عودى فابعثي على هذا العالم الحائر شعاع الإيمان، لعله يحو ظلام المادية من النفوس ويوقظ سمو المبادئ التي جاء بها الإسلام. يا رحمة السماء، مدى إلى قلوبنا من فجر الإسلام ذلك الشعاع الذي بنى مدينة الإسلام، فالإيمان وحده هو الذي يعيد للمسلمين مجدهم.

يا سلاح الإيمان، في مصنعك أنت وجدت المعجزة الأولى التي فتح بها العرب العالم، فهلا فزعت الأمة العربية إلى مصنعك تأخذ منه قوتها فتعود إليها المعجزة.

ان كتاب الله هو مصنع الإيمان الذي تستمد منه القوى وتوجد المعجزات، فتي يهرع المسلمون إليه ليفتحوا عهداً جديداً وليعبثوا جيلاً جديداً وليخلقوا العالم خلقاً جديداً ينادى في الوجود: إلى كتاب الله، إلى كتاب الله، فهو سلاح من لا سلاح له.

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابي :

ينافسُ هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
يحيط السموات أولى بنا فماذا التزاحمُ في المركز

أى مجتمع نعيش فيه

لفضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يهدف المجتمع فى هذه الحقبة من الزمن إلى الجرى وراء المادة، لا يثنيه عنها ثان من تعاليم دينية أو مقاميس خلقية أو اعتبارات اجتماعية، وكل ما وقف فى طريقه فى نظره إنما هى رجعية بغضه إلى نفسه، وقوانين جائرة ليس لها من مبرر، حتى التوى الطريق على الكل وضاعت معايير الأشياء، وانتهكت تعاليم الدين وابتذلت الكرامة وتحللت الأخلاق، وصار المجتمع يجرى وراء هذه المادية العاتية التى ستودى به إلى كوارث لا قبل له باحتمال عواقبها.

ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً، ونظرنا إلى ما كان عليه المجتمع قبل عصر النبوة لتساوى العهدان. فالتوى اليوم هو الأمثل لدى الناس جميعاً، يرهبون جانبه، ويقضون حوائجه، ويحسبون له ألف حساب وحساب، من تقدير وتقديس، لأن بيده عصب الحياة، وإكسير الوجود، والجالب للسعادة وهو المال.

أما الأخلاق، أما الكرامة. فهى ألفاظ وضعها اللغويون لغير هذا العصر، أو هى من التراث العتيق البالى، والذى يعد المتمسك به من الجامدين. فالإباحية المطلقة هى حضارة العصر وقوام الوجود، وهى المدنية الحقة التى يسعى لها الكل ويهدف إليها الجميع، ونظرة واحدة إلى حفلات السادة الكبار ترينا مبلغ ما وصل إليه المجتمع فى زيه ولبسه وتصرفه وابتكاراته، فعمود الزهر يفخر بلبسها السيد السند وفى فمه زمارة وعلى رأسه طرطور وبجواره حواء تكشف عن مفاتها يتقارعان كؤوس الطلا، ثم يقومون إلى حلق الرقص، كأن بهم مس من الجن من بكور الليل إلى انبثاق الصبح، يهيمون فى خيالهم ويسبحون فى مجونهم، وهذا هو مجتمعهم عليه يلتقون وعنه ينصرفون، لا وازغ من ضمير ولا دافع من خلق، والويل كل الويل لمن ينقد أعمالهم أو يبدى ملاحظة على سيرهم وسلوكهم، والأدهى من ذلك

أن تنشر صورهم وهم على هذا الوضع المزرى بالأخلاق ، فأى مجتمع هذا الذى نعيش فيه ، وأى خلق يكون مقياساً لهذا العصر ؟
والله إنها للفوضى التى تدرك الأمم فى أخريات وجودها ، وعصر تحللها ، وانقراضها كما يحدثنا التاريخ .

وبدهى أن تلك الحروب الطاحنة التى تشنها الدول على بعضها ، وتلك الاعتمادات الضخمة التى ترصدها ، لها أثر من آثار هذه الأنانية المادية ، ومن الغريب أن هذه كلها لو وجهت إلى التعمير والإصلاح لنال العالم كله منها الخير العميم .
ولكن أين التفكير السليم ، بل أين المجتمع المستقيم حتى يعمل الكل لما فيه إسعاد البشرية .

أيها المصلحون : إن الطريق السوى هو التدين الصحيح ، ولن يصلح هذا المجتمع إلا بما صلح به أوله .

تقوى واستقامة يعمل لها الجميع ، ويسعى لها الناس عن يقين ثابت وإيمان قوى وفكر متين . إن هذه الحياة التى نحياها مجون ما وراءه مجون ، نهايتها الجنون ، وغضب يصيب الأفراد ، وينصب على المجموع « واثقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة » .

فإلى القادة والزعماء ، إلى السادة والرؤساء : أوجه حديثي : عليكم وزر ما وصلت إليه الحالة العامة من انهيار ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأفيقوا من سباتكم واصحوا من غفلتكم واثقوا الله فى دينكم وفى قدسيته ، فقد طمت البلوى وعمت الفوضى ، وهذا التحلل الخلقى ستكونون فى النهاية أول ضحاياها .

واعلموا أنه لا عز لكم فى سيادة مشبوبة بدم الأبرياء ، ولا غنى لكم عن تعاليم السماء لسكبج جماع المبادئ الهدامة التى نخشى أن تحتاج كل الحصون الخلقية ، والتعاليم السماوية .

أما المال : فهو ظل زائل لا يغنى إذا حزب الأمر واشتد الهول ، فخصنوا أنفسكم بالأخلاق ، وحاربوها بالبذل والإنفاق « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .
والله أكرم مسئول أن يوفق الجميع لما يعود على المجتمع بالنفع العميم والخير الكثير إنه ولى الهداية والتوفيق .

سه نوادر المحررات

شرح ابن بطلال على البخارى

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرافى

مدير المكتبة الأزهرية

من كتب الشريعة الإسلامية التي حظيت بالقبول ، ونالت من عناية العلماء واهتمامهم ، كتاب « الجامع الصحيح » للإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، فقد أقبل العلماء عليه بالدراسة والبحث ، والاستفادة والشرح والتعليق ، حتى بلغت المؤلفات فيه من نواحيه المختلفة بضع عشرات ، وشرح شروحات موجزة ومطولة يبلغ بعضها نيفاً وعشرين مجلداً ، ومن أطول شروحه شرح العلامة العيني .

ولم يحظ « الجامع الصحيح » للبخارى بذلك لجلال موضوعه « وهو الأحاديث النبوية الصحيحة » فحسب ، ولكنه نال ذلك لثقة جامعته وأمانته ، وحسن ضبطه ، وشدة تحريره ، وتحرجه ، حتى أصبح في مكان القداسة من نفوس المسلمين ، بعد كتاب الله تعالى .

وقد شرح جامع البخارى شروحاً كثيرة ، بعضها مشهور متداول ، وبعضها عفى عليه الزمن فيما عفى ، ومن أشهر شروحه وأقدمها ، شرح ابن بطلال عليه ، وربما كان هذا الشرح أساس شروحه ، فكنيزاً ما يعتمد عليه الشارحون وينقلون عنه .

وكان علماء الحديث مشوقين إلى معرفته والاطلاع عليه ، والوقوف على طريقة تأليفه ، ومنهاج البحث فيه ، وكان الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث الاسلامى ، ولكن الحظ السعيد قد أظفر به المكتبة الأزهرية ، فأهدى إليها أخيراً ضمن مكتبة المغفور له الشيخ محمد الأمير غفر الله له وأجزل مثوبته ، إلا أن سرورنا به لم يتم ، فقد تبين أنه ينقصه أواخر الجزء الأول والجزء الثانى .

وابن بطلال هذا هو أبو الحسن على بن خلف بن عبد الملك بن بطلال الترمطى يعرف بالجلّام ، الامام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن أبى صفرة والشافعى والقاضى يونس وغيرهم ، وأخذ عنه جماعة ، ألف شرحه المعروف على البخارى والاعتصام فى الحديث وتوفى سنة ٤٤٤ هـ أو سنة ٤٤٩ هـ .

وشرحه هذا يقع في أربعة مجلدات بالمسكبة ، منها ثلاثة فقط ، الأول وبآخره نقص ، والمجلدان الثالث والرابع وهما يتلم معتاد وبخط واحد ، هو خط على ابن عمر عبد الله الامام ، فرغ منهما سنة ٧٨٠ هـ لجامع الخطبة .

وعدد أوراق المجلد الأول ٣٥٣ ورقة ، والثالث ٣٨٧ ، والرابع ٣٧٨ ، ومسطرتها كلها ٢٥ سطراً ، وعدد كلمات كل سطر تتراوح بين ١٥ ، ١٨ كلمة ، ومقاسها ٢٧ × ٢٠ ، وعنوان كل جزء بأوله بالممداد الأزرق في حلية ذهبية أنيقة ، وعناوين الكتب والأبواب في الكتاب جميعه بالممداد الأحمر ، والكتاب بحالة حسنة تمكن من الانتفاع به ، وما به من هنات لا تمس موضوعه .

ويتبدى الجزء الأول بأول الشرح وينتهى في إنشاء باب زيارة القبور ويتبدى الثالث بكتاب الأضاحى ، وينتهى بباب الطلاق ، ويتبدى الرابع بباب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون وينتهى بآخر الشرح .

وشرح ابن بطال هذا هو شرح موجز عن فيه صاحبه بالتنبيه أولاً على الصحابي راوى الحديث ، وباستنباط الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، قال صاحب كشف الظنون : « وشرحه البخارى » الإمام أبو الحسن ... وغالبه في فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب .

وأول الشرح : « باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله عز وجل « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » فيه عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) قال المؤلف قال لى أبو القاسم المهلب بن أبي صفرة رحمه الله معنى هذه الآية : « إن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وحي رسالة لا وحي إلهام الخ .

وآخر الشرح : « وقول البخارى ويقال القسط مصدر المقسط فانما أراد المصدر المحذوف الزوائد كالتقدير مصدر قدرت إذا حذف زوائده ، قال الشاعر :

وإن يهلك فدى لك كان قدرى

بمعنى تقديرى محذوف زوائده ورده إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما نحذف العرب زوائد المصدر لترد الكلام إلى أصله ويدل عليه ، ومصدر القسط الجارى على فعله الأقساط اه .

عجالات في الأدب العربي

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمان

المدرس بالأزهر

جرى القلم في عجالاتي السابقة عن ملاح الحوار في صناعة الأقلام العربية الخالدة .
والحوار في الأدب الحديث ، عدة لها خطرهما لمن يجيدونها ، إذا قدموا الزاد
الفنى ، وراحوا من ورائه يرقبون مدى خطواته نحو أعتاب الخلود .

والندامى من العرب نسجوا حوارهم عفو الخاطر ، وجرياً وراء فطرم ،
ولم تكن وراءهم مقياس الصناعة ، ولا دوافع من (مسرح) ولا مقتضيات
(الزمان والمكان) .

وإذا تركنا (الحوار) ، وتلمسنا بذور القصة وقتشنا في طوايا المؤلفات ، وخبايا
المراجع القديمة ، وجدنا العجب العجيب ، ووجدناه عند الأقلام المؤرخة أو الدراسة
أو المستعرضة المتعرضة لحيوات الناس ، سواء منهم الشاعر والأديب ، والحاكم
من خليفة أو سلطان أو وال ، لا فرق بين الرجل والمرأة .

ووجدنا كتب السيرة ، وكتب التراجم ، وكتب الأدب ، وكتب الأخبار ،
تحفل بعلاج البوادر القصصية ، وتجنح إلى جانب الأقصوصة ، يقارب الكاتب
من التوفيق ، إذا زحمته الوقائع والحقائق .

وفي أكثر الكتب إصابة عين التوفيق والاجادة بما ينال رضا من يلتمسون
تطبيق منطق القاص المحدث ، وقواعد واضع الأقصوصة في عصرنا الحاضر .

وظاهرة لا يفوتنى أن أقف عندها ، وهى الإمعان وراء المصارحة الخالصة
والصدق الواقع ، والتحليل النفسى للأشخاص والجماعات ، وحتى التعابير الموجزة
والتشبيهة المستنزة ، تطوف كالقوارير المحشودة العامة بالنفحات النفسية ، والعواطف
النابضة بالحوية المعبرة دون أن تنقص شيئاً ، إذا تأمل القارئ وأنعم التأمل .

وكثير من الناس يعيرون على بعض التدايمي كثرة استطرادهم ، وعندى أن الاستطراد يعد ذخراً أدبياً ، لأن المؤرخ حين يتعرض لحياة خليفة مثلاً ، ثم يتوقف فجأة عن السرد التاريخي ، ويبدأ في طرفة أو رواية حديث أدبي ، ثم ينقل نصاً أدبياً منظوماً أو منشوراً ، وبعد ذلك يعود إلى مزجه التاريخي أو العلي - حين يصنع هذا لا يبعد بالمؤرخ إلا بمقدار ما يتمتع الأديب ، ولا يتمتع الأديب إلا على أساس رسم المنائر الموضحة ، والمعالن الشارحة مما يُستخلصُ منه روائع الأحداث السارة أو الضارة ، والمنايع التي روت الترائع ، وهزت العواطف فأثمرت العصارات التي حملت النينا في بوتقات صهرت موادها ، فتماسكت سبائكها ، وراقت قلائدها ، وازَّين بها جيد الأدب .

ومهما قيل في استطراد المؤلف القديم ، فإن الذين تخصصوا وخلصوا فنون الأدب إلى مناهج متآخدة ، ووشائج متآخية ، لم يجدوا من المراجع . أوفى من الأقلام المستطردة ، وأخيراً أشهد أن في بعض الإطنابات من التعميم التي تعد مستقلة في التمهة أو الأقصوصة .

والضائقون بالسكتب (المستطردة) لا أجدهم الآن على صواب ، لأن لذة التنقل لا تعوض عند من يريد أن يلون زاده وغذاء عقله وعاطفته .

ولعل الدليل المتقنع : كتاب (الأغاني) إذا وضعناه بجانب مذهب الأغاني .

نعم ونعم ، إذا قضيت ساعة مع أبي الفرج ، ورحلت تملب عينيك بين أقاصيصه وطره ودعاباته ومقطوعاته ، ثم أخذ بيدك إلى مجلس شاعر أو مجلس خليفة ، ثم عدا بك إلى قصيد أو مقطوعة ، وكشف لك عن صوت يتعلق بأصدائه ، ويخلق مع شاعر آخر أو جارية أدبية أخرى ، رأيت معه نفسك وقد هزتها النشوة . فإن أردت أن توجز الوقت والتمست مذهب الأغاني ، طالعك الجهامة ، وبدهك الجفاف ، وفقدت الطرافة ، وعدت تقلب ناظريك بين عصف مجموع ، لا تلبث إلا ريثما تعود إلى متاع الأغاني ، كما صنع الأصفهاني .



ولا يشك قارئ في أنني أعني الاستطراد عند الترائع الخالدة قبل القرن الرابع الهجري ، وسيدهم غير مدافع (الجاحظ) .

وبعد أن ظفرت المكتبة العربية (بألف ليلة)، ثم بالقصص الشعبي في العصور المتأخرة، أجدني أمام فن قصصي مستقل له خصائصه المتفرده، وله ظلاله وآثاره في الأقلام والقراء.

وحظي في هذه العجالة، أن أعود بالقارئ إلى أن مكتبتنا العربية بدأت تجمع على عواتقها مصنفات لأقلام زاوالت وعالجت الأقصوصة، ومنها من شقت بأسلاتها طريق القصة، بل وضعت مستقلة أسسها على هدى من الفطرة والطبيعة العربية الخالصة.

وسوف أعود في عجالة أخرى، إلى المعالم الأولى، والمدارج التي اهتزت فيها الباسقات، وربت في ربوعها وارفات الأقصوصة ثم القصة.

النحو يرثي

كان ابن مالك إمام النحو في عصره، والنفـيـته تعتبر صندوق النحو إلى اليوم. ولد سنة (٦٠٠) وتوفي سنة (٦٧٢) هـ فرثاه شرف الدين أحد المستفيدين منه بقصيدة طريفة ألفاظها مستمدة من قواعد النحو، وهي:

يا شتات الأسماء والأفعال	بعد موت ابن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط	منه في الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم بإذن الله	من غير شبهة أو محال
عدم النعت والتعطف والتو	كيد مستبدلاً من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه	حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكنة لهما قضاء	ورثت طول مدة الانفصال
رفعوه في نعشه وانتصبنا	نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه بأعظم ما فعلوه	وهو عدل معرف بالجمال

إلى آخرها، وكلها على هذا النمط من استخدام ألفاظ علم النحو، في رثاء إمام النحو.

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ محمد عبد المنعم ففاجي
المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ؛ ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارئ كل ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز ؛ معرفة تامة لا لبس فيها ولا خفاء .

رأى الوليد بن المغيرة :

١ — روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ؛ فكأنه رقى له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأناه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ؛ لئلا تأتى محمداً ، لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا ؛ قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له ؛ قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ؛ ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ؛ قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ^(١) .

٢ — وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم :

[١] ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للفاضل عياض ، و ١١٧ / ٢ الاتقان للسيوطي ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للرافعي

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ ما يقول هذا بشر ^(١) .

٣ — وجاء في رواية أخرى أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صباً والله الوليد ، والله لتصبأ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ؛ فتمعد إليه حزيناً ، وكلبه بما أحماه ، فتمام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمدًا مجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتسكن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؛ وما الذي يقوله إلا سحر يآثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ^(٢) .

٤ — ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - رأياً لا يكذب بعضهم بعضاً ؛ فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سحبه ؛ قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ولا بخنثته ولا وسوسته ؛ قالوا : فنتمول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ؛ قالوا : فنتمول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نقشه ولا عتمده ؛ قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ؛ وإن أقرب التمول إنه ساحر ، وإنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس ^(٣) فأنزل الله تعالى فيه : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، الآيات ^(٤) .

٥ — وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة في القرآن ما قال ، حين جاء إلى

[١] ص ٢٢٠ / ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ . [٢] ص ١٥٨ / ٤ الكشف للزخشرى .

[٣] ١/٢٢٣ الشفاء ، ٣٥٧ و ٣٥٨ إيجاز القرآن للرافعي [٤] آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول ، وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا في الانتقاد ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، حمّ تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته » إلى آخر السورة ؛ فقال : إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة^(١) رأى عتبة بن ربيعة :

١ — وروى أن أبا جهل قال في ملأ من قریش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمسنا تم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلّمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لتمد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ ؛ فأناؤه ، فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما بلغ قوله : « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قریش . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؛ فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلّته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسكت بفیه ، وناشدته بالرحم . وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، خفت أن ينزل بكم العذاب^(٢) .

٢ — وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمت أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لتمد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ؛ ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة^(٣) ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

الجن تشهد ببلاغة القرآن :

وفي القرآن الكريم : « قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » إلى آخر سورة الجن . وقولهم « عجبا » يفسرها المفسرون ببليغ بديع معجز .

كلام لم ينزل إلا من السماء :

وروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلة وما كان يدعيه قرآنا ؛ فقصّوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أي عن ربوبية - فأين كان يذهب بكم^(٤) ؟

[١] ٣/٢١٨ الطراز في علوم البلاغة [٢] ٣/٣٨٧ الكشف ، ٢٣١ و ٢/٢٣٢ الشفاء .
[٣] ٥/٢٢٣ الشفاء [٤] البافلاني وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعي . وكلام مسيلة تجده في
إعجاز القرآن للبافلاني ، ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلة (٣/١٧٣)

زعم وافتراء :

ويقول السيوطي في الاتقان : وكانوا مرة بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمي ، وليس بحضرته من يملئ أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز ^(١) حسان يتحدث في شعره عن القرآن :

ويقول حسان بن ثابت في شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعزّ نبّيه وكتابه وأعزّنا بالضرب والإقدام
ينتابنا جبريل في آياتنا بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محمداً قسماً لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام ^(٢)
العرب تجل بلاغة القرآن عن الشعر :

١ — ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على السكبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن ، إلا معلقة امرئ القيس ؛ فإن أخته أبت ذلك عنادا : فلما نزلت آية : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » قامت إلى السكبة فأنزلت معلقة أخيها ^(٣) ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء .

٢ — وفي حديث إسلام أبي ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاءني بخبر النبي ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، ساحر ؛ كاهن ، لقد سمعت قول السكينة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ؛ وإنه لصادق . ولهم لسكاذبون ^(٤) .

يسلمون حين سمعوا القرآن :

ويقول السيوطي في كتاب الاتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن :

[١] ٢/١٢١ الاتقان طبعة ١٩٣٥ [٢] ٣١٨ الديوان [٣] هامش ٢٣٧ و ٢٣٨ الرافعي .

[٤] ١/٢٠٤ الشفاء .

كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يترأ في المغرب بالطور ، قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » إلى قوله « المصيطرون » ^(١) ، كاد قلبي أن يطير ، قالى : وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي ^(٢) .

أعرابي يسجد لفصاحة القرآن :

وروى أن أعرابا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ^(٣) .

ومما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابياً سمع آخر يقرأ : « فلما استنأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

أهل الكتاب يشهدون للقرآن :

١ — وروى أن عمر كان نائماً في المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية ؛ فأسلم وقال : سمعت رجلاً من أسرى المسلمين يترأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه » الآية ^(٤) .

٢ — وروى عن نصراني أنه مر بقارىء ، فوقف يبكي ، فقيل له مم بكيت ؟ قال : للشجاء والنظم ^(٥) .

٣ — وعن كعب ، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة ^(٦) .

أعرابية تسحرها فصاحة القرآن :

وهي وإن كانت لم تشاهد عصر النبوة إلا أن ذوقها هو الذوق العربي المفطور وكفى ؛ روى عن الأصمعي أنه سمع كلام جارية ، فتعال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو يُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ^(٧) .

[١] آية ٣٥ - ٣٧ سورة الطور . [٢] ٢/١٢٣ الاتقان ، وراجعته في ٢٣١ / ١ الشفاء .

[٣] ١/٢١٠ الشفاء . [٤] ١/٢٢١ الشفاء . [٥] ١/٢٣١ المرجع .

[٦] ١/٢٢٥ المجع . [٧] ١/٢٢١ المرجع .

أَيُّهَا الْبُرْدَةُ

قصيدة كعب بن زهير أم « قصيدة البوصيري »

للفقيه الأستاذ منصور علي رجب

أستاذ في كلية أصول الدين

كعب بن زهير والبوصيري هما اثنان ، قد بلغا بقصيدتيهما الخالدتين في مدح الرسول صلوات الله عليه من الحال والمنزلة في الأدب العربي غاية ليس وراءها مُتجاوِز لآمل ، ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه .

ولكل منهما في قصيدته قصة مستفيضة ، تجعل له ما هو أجمل في الأحداث وأطيب في النشر . أما كعب فما إن بلغ صوت النصر أذنيه يوم أن فتحت مكة حتى خرج هو وأخوه بجير هارباً مع من هرب من العرب ، خرج خائفاً يترقب جزاءه من أشياخ الحق وأنصار دين الله ، لما فرط منه من هجاء لهذا النبي العربي المنتصر ، فأخذوا يعلوان أطمأ وهضاباً ، ويقطعان فيافي وقفاراً ، حتى ركنوا إلى رملة لبني سعد بالحجاز ، أو إلى ماء لبني أسد بين مكة والمدينة ، فأوياً إلى ظله ، وألقى كل منهما مراسيه ، وبجير يقول لأخيه كعب : اثبت في الغنم حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه ، واعرف ما عنده ، هل هو مما يستملح ، ويلوح صدقه فأتبعه ، أم لا فأتركه ؟ فيقيم كعب ، ويمضي بجير ، ثم يتساقط الخبر إلى كعب بإسلام بجير ، فيشق الأمر على كعب فيكتب إليه هذه الآيات :

ألا بلغا عني بجيرا رسالة	فهل لك فيما قلت ويحك هل لك ^(١)
سقاك بها المأمون ^(٢) كأساً روية	فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارقت أسباب الهدى وتبعته	على أي شيء ويب ^(٣) غيرك دلكا

[١] أي هل لك إرادة فيما قلته من كلمة الشهادة .

[٢] المراد بالمأمون النبي فقد كانت قريش تسميه المأمون والأمين فهو كما قيل :

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

[٣] ويب غيرك أي هلكك هلك غيرك فالويب الهلاك وهو بالنصب على أظهار الفعل .

على مذهب لم تلف أمّا ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخاً لك
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف ولا قائل إما عثرت لعا لك^(١)

يتنف بحير على هذه الآيات ، وفي استطاعته أن يخفيها عن النبي حتى لا يوقع
كعباً في حرج فوق ما فيه من حرج ، ولكن الرجل بعد أن أسلم أصبح لا يعرف
إلا الحق ، أما عاطفته نحو أخيه فبات لا يعرفها أمام الحق وفي سبيل الحق ،
فيذهب بحير بها إلى النبي ، فلما سمع قوله : سقاك بها المأمون : قال : مأمون والله
ثم قال : من لقي كعباً فليقتله ، ولكن على بحير أن ينصح أخاه « والدين النصيحة »
فيكتب إليه : إن النبي قد أهدر دمك ، وأنه قتل رجلاً ممن كانوا يهجونه ويؤذونه
فإن كان لك في نفسك حاجة فطر إليه ، فإنه لا يرد أحداً جاءه تائباً ، ولا يطالب
بما تقدم قبل الإسلام ، ثم يكتب إليه هذه الآيات :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا فهو أحزم
إلى الله لا العزى^(٢) ولا اللات^(٣) وحده فتنجو إذا كانت النجاة فقسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا دين دينه ودين أبي سلى على محرم

[١] لما لك أى لا أدعو لك بالسلامة من العثرة لغضبي عليك ، فإن لما لك كلمة دعاء للعائر
بالسلامة من عثرته .

[٢] كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها
بالذبايح ، وكانت العرب وقريش تسمى بها فتقول : « عبد العزى » ، وكانت قريش تطوف بالكعبة ،
وتقول : « واللات والعزى » . وهذا الثالثة الأخرى . فأثنى الفرائق للعلا
وإن شفاعتهن لترجي

وكان الذي اتخذها ظالم بن أسعد ، ومكانها بواد يقال له : حراض ، بأزاء النعمير عن يمين
المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال فبنى عليها بيتاً ، وسدقتها
كانت بنى مره ، فلما كان عام الفتح دعا النبي صلوات الله عليه خالدين الوليد ، فقال له : « انطلق
إلى شجرة بيتان تحلة فاعصدها . فأناها فمضدها .

[٣] كانت صخرة مربعة ، كان سدتها من ثيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت
قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى « زيد اللات » ، وتيم اللات ، ويقول ابن الكلبي
في كتاب الأصنام : « كانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم » .

ويبلغه الكتاب، فيأتي إلى قبيلة مزينة لتجيره من رسول الله فتأبى عليه ذلك، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويشفق على نفسه، فيقول قصيدة يمدح بها رسول الله صلوات الله عليه، ثم يخرج حتى يصل المدينة فينزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فيأتي به إلى المسجد، ثم يشير إلى رسول الله، فيقول له ها هو ذا المأمون فقم إليه واستأمنه، ورسول الله بين أصحابه مكان المائدة من القوم حلقة دون حلقة، يقبل إلى هؤلاء مرة فيحدثهم، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم، فيتخطى كعب هذه الحلقات حتى يجلس بين يدي رسول الله، ورسول الله لا يعرفه، وأما هو فيعرفه بالصفة التي وصفه له بها صاحبه، فيضع يده في يده قائلاً: يا رسول الله. إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً. فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك؟ فيقول الأمين: نعم. فيقول أنا كعب بن زهير. فيثب عليه رجل من الأنصار وهو يقول: دعني يا رسول الله وعدو الله أضرب عنقه، فيمنعه الرسول قائلاً: دعه عنك، فتمد جاءنا تائباً نازعاً. ثم يأخذ كعب ينشد قصيدته بين يدي رسول الله وهو يسمع فيقول:

بانت سعاد فتبلى اليوم متبول متم إثرها لم يفسد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
وما إن وصل كعب إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

حتى قال رسول الله: من سيوف الله، وألقى عليه برده الشريفة التي كانت عليه، ويقول الباجوري في حاشيته على هذه القصيدة: قال أهل العلم: هذه القصيدة هي التي حتمها أن تسمى بالبردة، لأن المصطفى صلوات الله عليه أعطى كعباً برده الشريفة، وأما قصيدة البوصيري فحتمها أن تسمى بالبردة، لأنه قد أصابه داء الفالج فأبطل نصفه وأعي الأطباء، فلما نظمها رأى المصطفى فمسح بيده عليه فبرئ لوقته.

وهذا من باب التصحيف، والتصحيف في لغة العرب كثير. قال المعري: أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب. وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: ومن يعرى من الخطأ والتصحيف!!!

قال ابن دريد : صحف الخليل بن أحمد فتمال : يوم بغاث بالغين المعجمة
ولنا هو بالمهملة .

وإذا كانت قصيدة البوصيري قد اشتهرت بالبردة واسمها البرءة ، فإن البوصيري
نفسه قد اشتهر بغير نسبته ، فنسبته « الدلاصيري » ذلك أن أباه من دلاص ، وأمه
من بوصيري قرية بقرب دلاص بمديرية بنى سويف فركبت له نسبة منهما وقيل :
الدلاصيري . ولكنه اشتهر بالبوصيري . والبوصيري هذا كان مديراً للشرقية
يوم كانت قصبتها بلبليس ، وله قصيدة طويلة مشهورة في مباشرة الشرقية منها :

تتمدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيكم رجلا أمينا
فتمد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعا فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الاندرينا
إلى أن قال :

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
وللبوصيري في مدائح النبي قصائد طنانة ، منها الهمزية وأولها :
« كيف ترقى رقيق الأنبياء » . وقصيدة على وزن « بانت سعاد » وأولها :
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
وهذا عدا البرءة التي أولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
ويطيب لى أن أختم هذه الكلمة بقوله في هذه القصيدة :
يا أكرم الخلق مالى من ألؤذبه سواك عند حلول الحادث العمم

مراجع البحث :

- | | |
|---|--------------------------------------|
| ١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير | ٤ - فوات الوفيات لابن شاكر |
| ٢ - الأصنام لابن الكلبي | ٥ - حاشية الباجوري على متن بانت سعاد |
| ٣ - الخطط التوقفية لعلى مبارك باشا | ٦ - المزهري للسيوطي |

في ميدان علم النفس

تعريف الحكم

لمحاضرة الأستاذ الدكتور سعيد زاهد

ويلخص العلامة « بينه » الحكم في ثلاث صور تتبع كل واحدة منها الأخرى ، تنبه أولاً النانية بالتشابه وتوحي ثانيها إلى النانة بالتجاور ، فالصورة عنده تقابل الحادثة ، أو هي الحادثة ذاتها في تعريف العلامة « مارب » ، وعلى ذلك فالحادثة الأولى هي الباعث ، والنانية هي التجارب الماضية ، والثالثة هي الحلقة النهائية . وهذا يقابل في رأى « هو لنجورث » ، الدالة على ، والمدلول عليه ، والدلالة .

وعلى هذا النمط ، راح المؤلف يوفق بين النظرية الصحيحة - في رأيه - وبين نظريات كل من « وارن وهوفدنج وتشنر وكالكنز » .

وثمة شيء مهم في هذا المضمار هو بيان الصلة بين الإدراك الحسى والحكم ، والاستدلال والاعتماد ... ينبغي التمييز بين ملكة الإدراك الحسى والحكم ، فهما يمتان بصلة إلى عملية أخرى هي الاستدلال ، ويتلخص التمييز في عمدة مقارنة بينهما ، فالحكم كما رأينا قد عُرف بأنه إثبات علاقة ، ولكن هذا التعريف ليس نوعياً بل عام ، والعمومية في علم النفس ليس لها مقام كبير كالنوعية ، فتقوانين التداعي والتشابه والتجاور والتضاد مثلاً ليس لها مجال في علم النفس ، بل ينبغي النزول إلى اختبار الأفراد .

ويجب أن نعرف أن العلاقات موجودة فعلاً في العالم ، وليست من صنع إدراكنا الحسى ، فلهذا وجوب موضوعى ، ويمكن اكتشافها بأكثر من طريقة واحدة ، وأبسط الطرق تلك التى تتمضى منا أن نقابل بينها مباشرة لنعرف وظيفتها . وأول ما يجب أن نفهم هو العلاقة بين الأشياء التى ننظر إليها ، فإننا نستطيع أن نصل إلى العلاقة بمقابلة شيئين ، فأحد الطرفين يبدو كأنه تغيراً حدث فيه ، وإن لم نستطع تمييز موضوعات العلاقة . وب نفس الطريقة نعرف لأول وهلة أن هناك تشابهاً فى اللون أو تساوياً فى الكمية أو تناسباً فى الجمال بين موضوع ما

وموضوع آخر . ففي كل هذه الحالات توضح العلاقة وتتميز وتتأكد إلى حد كبير ويمكن التعبير عنها بوضوح .

وهناك عملية ثنائية لإدراك العلاقات وتقريرها ، وهي عملية لها خصائص تمتاز بها ، وهذه العملية تسمى بالإدراك الحسى الوسيط ، فإنه من الممكن بمقارنة حركتين ، أن نعرف إذا كانت إحداها أطول من الأخرى أم لا ، ولا يتأتى ذلك بإدراكنا مباشرة علاقات المكانية ، بل بملاحظتنا الوقت الذى استغرقته كل منهما ، كما يمكننا أن نعرف هل سماء اليوم أصفى من سماء الأمس من مشاهدتنا للظل الذى يقع على الأرض ، ومقدار وضوحه وجلائه ، ويمكننا كذلك أن نقدر قيمة ثوب ما ونوع القماش الذى صنع منه وما إذا كان أجود من غيره ، لا بمقارنة النسيج مباشرة ، ولكن بمقارنة سعريهما أو اسمى منتجهما . هذه العلاقات التى نستطيع أن نؤكددها بطريق غير مباشر فروق فى الدرجة ، كلاهما ثابت وكلاهما مضمون ، ولكن قيمتهما تختلف فى الدرجة .

وكذلك العلاقة المكانية يمكننا أن نتأكد منها عن طريق العلاقة الزمنية ، فبالنسبة لمسافتين مثلاً يمكن التأكد من إدراكها بالزمن الذى تستغرقه فيهما سيارة ما تسير بسرعة ثابتة ، هذا النوع غير المباشر من إدراك العلاقات يمكن أن نسميه حكماً ، وحياتنا اليومية مملوءة بما يحقق هذه النظرية ، فالشاهد الذى أدرك جريمة ما إدراكاً مباشراً ، لا تعتمد المحكمة — رغم ذلك — على شهادته كل الاعتماد ، بل تقوم بدراسة مقارنة لعدة شهادات أخرى لتعرف الحقيقة .

وفى كل حالات الحكم تحدث مقارنة حقيقية بين الأشياء - وإن لم يحدث حكم على هذه الأشياء فى ذاتها - يتميز - باختلافها - الحكم عن الإدراك الحسى . وقيام المقارنة هو الذى يميز الحكم عن عملية أخرى يمكن تسميتها بالاستدلال ، فى الاستدلال تدرك العلاقة كذلك بعمليات غير مباشرة ، لاختلاف مقارنته ، فنحن نؤكد مثلاً أن وزناً ما أثقل من الآخر لأننا عند رفعنا إياه شعرنا بخفته ، أو لأن إحدى كفتى الميزان رجحت عن الأخرى ، ونستدل أيضاً أن وقتاً ما أطول من الآخر لأنى كنت فيه أكثر تضائماً ، وتستنتج كذلك أن الشتاء الماضى كان أشد برداً لأن حركة المرور تعطلت فيه عدة أسابيع ، والمقارنات هنا غير مباشرة ، وتقوم على معرفة إضافية يمكن أن تؤخذ بكل بساطة ، كرمز لحالة علاقية معينة ، لأشياء أولية فى الفكر .

وتمت طريقة رابعة لتقرير العلاقات وإدراكها تضاف إلى الطرق الثلاث السابقة

تلك هي العملية التي نأخذ بها العلاقات عن آخرين ، فإذا أخبرني مدرس مثلاً ، بأن المطبوعات تقرأ بوضوح أكثر في اللون الأحمر منه في اللون الأزرق ، أو بأن من يحكم نفسه أعظم من يحكم مدينة ، أو أن الاستجابات السمعية أقصر من البصرية ، فإنني أومن بهذه العلاقات جميعها لثقتي في المدرس .

وربما يقال إن الإيمان ليس إدراكاً بالضبط ، ولكن هذه العمليات الأربعة تكون ، بشكل ما ، صيغ إدراكنا في حالة غياب الأفكار الفطرية والحقائق الموحى بها . وتعريف الاستدلال والحكم والإدراك الحسى ، توازى الفروق التي عتدناها سابقاً بين الإدراك الحسى والحكم والإيمان ، فالاستدلال عادة أقل ثقة من الحكم ، والحكم أقل كدأ من الإدراك الحسى . وبمعنى آخر يكون الإدراك الحسى أكثرها ثقة ، ويليه الحكم ثم الإيمان .

والخلاصة أن الإدراك الحسى يقوم على تأثير الأشياء نفسها فينا ، ففستجيب نحن بالإحسان ، في حين أن الحكم يقوم على إدراك علاقة بين الأشياء نفسها ، وليس لهذه الأشياء دخل فيه ، أما الاستدلال فإنه يقوم على إدراك العلاقة ، ولكن للأشياء دخل في إدراك العلاقة ، بمعنى أننا نلاحظ الجزئيات ثم نرقى منها إلى معرفة العلاقة ، فلكأن الحكم دائماً يعتمد على ناحية غير مباشرة .

ولكن ، كيف نستطيع أن نعرف ، بالنسبة لأي حالة من الحالات ، ما إذا كان تقرير العلاقة مباشراً (إدراكاً حسيّاً) أو غير مباشر (حكماً) أو مشتقاً (استدلالياً) . يبدو أن هناك - على الأقل - طريقتان للمعرفة :

إحدهما تكون خلال الملاحظة المباشرة لأنفسنا أو خلال شهادة غير المتعلقة بملاحظة أنفسهم .

والأخرى تكون بالاستدلال بناء على قاعدة مفروضة للعملية التي نحاول التعرف بها ما إذا كان الاستدلال سيتخطى عملية المعرفة ، أم هو عبارة عن القضية في حالة صحتها وبقائها .

وثمة طريقة ثالثة ، هي معرفة ما إذا كانت الفتاوى أو القضايا تصبح أكثر اتفاقاً بالعلاقات الصادقة بين الأشياء المحكوم عليها ، أو أكثر اتفاقاً بعلاقات العمليات التي نتق فيها بطريق غير مباشر .

والخلاصة ، أنه يمكن القول بأن كل طريقة من هذه الطرق خاصة بنوع معين من اليقين ، وربما اقتضى يقين ما أن نجمع بينها جميعاً .

الإسلام في مدغشقر

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

[رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر أن يوفد بعوثاً لبحث حال المسلمين
في مختلف البلدان الإسلامية . ونحن نهدي هذا المقال
إلى البعثة التي ستطوف في هذه الأرجاء]

مدغشقر جزيرة كبيرة تبعد عن ساحل أفريقيا الشرق بنحو ١٤٠ ميلا ،
وتبلغ نحو ٩٨٠ ميلا طولا ، ٣٥٠ ميلا عرضا ، دخلت هي وجزائر كومورو
(وتقع شمالها) تحت الحكم الفرنسي الاستعماري سنة ١٨٩٦ م ، أما سكانها
فيفيدون عن الأربعة ملايين من الأنفس .

وسكانها الأصليون ، ينقسمون إلى عدة قبائل ، تختلف عاداتها وتباين ،
جاء معظمهم من أندونيسيا والملايو ، في سفن ساقطها إلى شواطئ الجزيرة التيارات
والرياح الاستوائية . وفي القرن التاسع الميلادي دخل فيهم العنصر العربي ، وتولوا
أمور الجزيرة ، وغدوا حكامها ، وإن كان هذا العنصر الجديد قد انصهر في بوتقة
الشعب ، فجرت في عروقهم جميعا دماء واحدة .

عرف العرب هذه الأنحاء باسمين : أما الأول فهو بلاد « واق الواق »
وهو اسم نقرؤه كثيرا في كتب الرحلات الإسلامية والمؤرخين وألف ليلة .
فيذكر القزويني وابن الوردي أن جزائر واق الواق تحكمها امرأة تجلس على عرشها
عارية وعلى رأسها تاج من الذهب ، تحف بها أربعة آلاف جارية . ولكن
الإدريسي يرى هذه الملكة تلبس ثوبا عُزل من خيوط الذهب ، وفي قدمها نعلان
صنعا من الذهب أيضا . ويروي الدمشقي أن أهل واق الواق مخلوقات تشبه

الكائنات الإنسانية ، ولكنهم ثمار أشجار عظيمة يتدلون منها من شعورهم ، وهم دائماً الصياح : واق واق ^(١) .

ونحن ان تركنا هذه الخرافات جانبا ، رأينا أن الاسم الثاني الذي عرّف به العرب هذه البلاد وهو « جزائر النمر » لا يزال باقيا يطلق على عدة جزائر تقع شمال مدغشقر هي « جزائر كومورو » والتحريف عن لفظنا العربي واضح . وقد أشار الجغرافيون العرب إلى هذه البلاد ومنهم الخوارزمي المتوفى سنة ٨٣٥ م ، كما أشار إليها غيره من الرحالة الأجانب ، فذكر ماركو بولو مثلا : أنها بلاد يعيش فيها المسلمون الذين « يعبدون » محمداً .

وينقسم سكان الجزيرة إلى أقسام ثلاثة ، وهم جميعا من المسلمين :-
يشمل التسم الأول جزائر القمر [كومورو] وسكان الساحل الشمالى الغربى من مدغشقر وهم « التاناكارانيون » و « التسميتيون » . أما القسم الثانى فهم « الصقالافيون » فى وسط الجزيرة وغربها . ويقسم التسم الثالث فى الجنوب الشرقى وهم « التايوريون » و « الطامباهوكا » و « الطيفسيون » و « الطيسكيون »



جاء العرب - فيما يروى « جبريل فيرّان » ^(٢) - على أربع موجات ، كانت الأولى بين القرنين السادس والتاسع الميلادى ، وحولوا بعض السكان - الوثنيين - إلى الإسلام . ويرجح أنهم قدموا من خليج فارس ، وأنهم كانوا من أهل السنة . أما الموجة الإسلامية الثانية ، فقد جاءت من جزيرة سومطرة فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وهم الذين أطلقوا على الجزيرة اسم واق الواق . وجاءت الموجة الثالثة من فارس ، أما الرابعة فكانت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

(١) « تسمى كلمة واق واق باللغة الوطنية للجزيرة : الشعب أو الرعايا أو الوطن أو القبيلة ، ومن هنا يمكن القول إن مدغشقر هي واق الواق التى ذكرها اليعقوبى . أما فيما يختص بالثمار المتدلية من شموورها ، فإنه توجد فى الجزيرة أشجار ضخمة ، لها ثمار تمت بسبب إلى ما ذكره الدهشقى ، [عن دائرة المعارف الإسلامية] ويمكننا أن نذكر أن « الرخ » قد يكون أحد طيور هذه الجزيرة ، وقد افترض الآن ، وإن كان يذكر أن بيضه فى حجم كرة القدم .

(٢) Gabriel Ferrand كان الحاكم الفرنسى لجزيرة مدغشقر لسنتين طويلة ، وكان عالما ترك عدة مقالات وكتب عن الجزيرة أهمها : Les Musulmans à Madagascar - Paris 1891 ومقالا فى دائرة المعارف الإسلامية بعنوان Madagascars and Wak - Wak .

والدليل على هذه الهجرات الإسلامية إلى الجزيرة يوجد في مجموعة من المخطوطات وجدت بالجزيرة ، ومحفوطة الآن في مكتبة باريس الأهلية .

وترك العرب والإسلام آثاراً واضحة في حياة القوم ولغتهم وتماثيلهم ، وأول هذه الآثار هو الدين الحنيف الذي يعتنقه السكان ، ونجد بجانب استعمال الحروف الأبجدية العربية ، أو العربية السواحلية ، وعدداً من الكلمات خاصة فيما يدل على أسماء الأيام والشهور ، واصطلاحات علم الفلك ، وألفاظ التحية وأسماء الملابس والنقود والآلات الموسيقية والكتابة ، وغيرها كثير . كما أنه - وإلى وقت قريب - كانت تصدر صحيفة إسلامية باللغتين العربية والملمقية [اللغة الوطنية] في تاناناريف عاصمة الجزيرة ، تلكم هي صحيفة « قمر الدين » . ولا يزال المسلمون يحتفظون بنسخ من القرآن الكريم ، ومن الكتب العربية الدينية ، وهي كتب يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ويعدونها - كما يجب أن تكون - كتباً مقدسة لا يفرطون فيها ^(١) .

ومما يؤسف له أن الجهل والبدع يتفشيان بين أهل هذه البلاد فنجدهم شديدي الإيمان بالزار ، والسحر ، وعلم الرمل ، ومعرفة الطالع عن طريق يوم الميلاد وبروج الشمس والكواكب . كما تسود بين السكان خرافة هي عدم إكمال أي عمل يقوم به الإنسان ، ويقوم اعتقادهم هذا على سوء فهم معنى أن الله وحده هو « الكامل » ^(٢) .



وينتمي المسلمون في مدغشقر إلى المذهب الشافعي ، ولغتهم الرئيسية هي اللغة السواحلية . وتتكون الجزيرة من أربعة سلطنات تحت الإشراف الفرنسي ، أولاها هي سلطنة « أنجازيشا » ومقرها مدينة « موروني » وبها جماعة شاذلية . والسلطنة الثانية هي سلطنة « أنجوان » وترجع إلى مدينة شيراز في فارس ، جاء أهلها مدغشقر حوالي عام ١٥٠٦م ، ولهم مسجد كبير في ممرهم « موسامودو » ، وانشقت عنهم السلطنة الثالثة ،

[١] لزيادة الإيضاح انظر : Henri Rusillon : un Petit Continent - Paris 1933.

وكذلك كتب فيران السابقة

[٢] انظر : Robert Griffith : Madagascar - London 1919.

Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar - 1932.

والمصادر السابقة .

فيرجع ملوكها إلى أحد أبناء سلاطنة « أنجوان » . أما السلطنة الرابعة والأخيرة فهي سلطنة « موهللي » وهم شيرازيون أيضا ويرجع تاريخهم إلى عام ٨٣٠ م . ويعتبر المسلمون الصقلافيون ، أقل مسلمي الجزيرة تمسكا بشعائر دينهم فهم مثلا يحتفلون برمضان ، وإن كانوا لا يصومونه ، كما أنهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير .

أما مسلمو الجنوب ، فهم حسب أساطيرهم قد قدموا من مكة المكرمة ، وما زالوا يحتفظون بالحروف الأبجدية العربية ، والعربية لغتهم المقدسة ، ولديهم مصاحفهم ، وكتبهم العربية في الطب والفلك يتوارثونها جيلا عن جيل .

وحوالى سنة ١٩٢٤ رأى بعض الهنود ، وعلى الأخص « الأحمدية » منهم ، في هذه البلاد أرضاً بكرأ ، فأخذوا ينشرون تعاليمهم فيها بنجاح كبير ، وأخذ المسلمون من زنجبار وبلاد العرب يجوبون أنحاء الجزيرة يفقهون المسلمين أمور دينهم ، فإذا بالقوم يفقهون من سبات طويل ، وإذا بالإسلام يبدأ من جديد يدخل القلوب الغافلة عن ذكر الله ، وأهم مركز إسلامي في الجزيرة يوجد الآن في مدينة ماجمجا Majemga .



هذه خطوط رسمنا بها حال الإسلام والمسلمين بالجزيرة ، وبقي أن نبين أن هذه الأرض ، التي سكنها المسلمون ، وآمنوا فيها بالدين الخفيف ، كانت أبدا هدفا لحملات المبشرين المسيحيين ، يحاولون ثني الناس عن دينهم ودين آبائهم القويم ، ويغرونهم بشتى الطرق والوسائل لترك الإسلام واعتناق النصرانية . وإن أمام البعثة الأزهرية التي ستجوب هذه البلاد ، لمشاكل جمّة شائكة ، وإنني لأشفق عليها من الآن .

كتب « روبرت جريفيث » في كتابه « مدغشقر » ^(١) . يقول : « علينا أن نعلم أن الإسلام ليس خطوة نحو المسيحية ، وإنما هو منافسها الأكبر والعقبة الكؤود في سبيل انتشارها ، ولكنني أضيف أن الإسلام في هذه الأنحاء دين شكلي فهو خليط من « المحمدية » والخرافات الوثنية » .

[١] انظر Robert Griffith : Madagasdar - London 1919.

Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar- 1932

والمصادر السابقة

وجاء في تقرير إحدى البعثات المسيحية سنة ١٩١٣ . « إننا نجد أن معظم القرى يتكون نصفها من مسلمين والنصف الآخر من مسيحيين ، وإن نحن تذكرنا تجاربنا السابقة . لعرفنا أنه من الصعب أن ندخل المسيح في قلوب هؤلاء القوم بعد أن سيطر عليهم الإسلام ، ولكن كان من حسن طالعنا ، أن قوات مسيحية تحتل هذه البلاد » ^(١) .

وتبذل هذه البعثات التبشيرية ما يسعها وبشتى الطرق لنشر النصرانية وإطفاء نور الله ، ولكن المسلمين هنالك « يغلقون مساجدهم عليهم ، ويحافظون على لغتهم ولهم مدارسهم الخاصة ، ويعملون ما في استطاعتهم ليتجنبوا الاتصال بالمسيحيين » . وهذا القول يكتبه هنرى روسيون سنة ١٩٢٢ ^(٢) . في حيرة ومرارة ، ولكن هذه الحيرة وهذه المرارة ، بل لنقول هذه الحيرة التي مني بها المبشرون المسيحيون هي التي يجب أن تدفعنا إلى الإسراع لإنقاذ هذا الشعب الإسلامي ، فإنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فالمستعمر يعمل على وأد لغتهم ونشر لغته ، وعلى غلق مدارسهم وفتح مدارس ، وعلى هدم مساجدهم وإنشاء كنائسه ، ويتبع معهم كل سبيل لينسبهم ماضيهم المجيد ، ويحيلهم إلى أمة من العبيد لا ترى إلا بعين المستعمر ولا تسمع إلا بأذنه ، ولا تتصرف إلا بتفكيره .

* * *

والكلمة الأخيرة نقولها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فهو المسئول عن رسالة الأزهر ، وليست رسالته معهدا في مصر يفتح ، ولا إشرافا على الدين في مصر ، لا ، إنما رسالة الأزهر الحقيقية هي رعاية المسلمين في خارج البلدان الإسلامية في غرب أفريقيا وشرقها وجنوبها ، وفي جميع البلاد التي لا تتكلم العربية ، فإن الجهل بلغة القرآن مكن للمستعمر — المتعصب لدينه دائماً — أن يحول القوم عن عقيدتهم ، وأن ينشر فيهم الانحلال الخلقي والديني ، حتى إذا تم له ما أراد ، سهل عليه نقلهم من دين إلى دين ، وأن يقيمهم تحت سلطانه إلى ما شاء الله .

[١] Report of Deputation to Madagascar - London Missionary Society - 1913.

[٢] هنرى روسيون في مجلة العالم الاسلامي سنة ١٩٢٢

وَأَقْعَتُ الْجَمَلُ

لمحضرة الأستاذ عبد المنعم محمد السبيخ

مدرس أول الآداب بالمواهد الدينية

تعتبر هذه الواقعة ، استمراراً للثوران البركاني ، الذي أودى بحياة عثمان رضى الله عنه ، والذي يعتبر شيئاً جديداً فى صفحة التاريخ الإسلامى ، من حيث اضطراع التوم ، حول الخلافة والمناصب . فهذه الواقعة ثمرة فجأة من ثمار هذه الفتنة الطائشة ، وهى بدورها ، ذات أثر بعيد فيما تمثل من الأحداث بعد ذلك ، على مسرح التاريخ الإسلامى .

برمت السيدة عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، ساعة أن اشتد الحصار على الخليفة عثمان ، فتركتها تغلى مراجلها ، لتسكون بمنأى عن أحداث الفتنة ومحتملاتها البغيضة وقصدت إلى مكة ، وبينما هى راجعة بعد ذلك إلى المدينة ، إذ بعبيد الله بن أبى سلمة ، وهو من أخوالها ، يخبرها بأن عثمان قد قتل ، وأن الناس قد بايعوا علياً ، فهاها الخبر ، وقالت : « ما أظن ذلك تاماً ، ردونى ، وانصرفت عائدة إلى مكة وهى تقول « قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه ، فقال لها « عبيد الله « ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لانت ، ولقد كنت تقولين ، اقتلوا نعثلاً فتمد كفر ، قالت « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أبى سلمة :

منك البداء ، ومنك الغير منك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : أنه قد كفر
فهبنا أطعنك فى قلبه وقاتله عندنا من أمر الخ

دخات السيدة عائشة رضى الله عنها مكة ، وهناك أخذت تستنفر الهمم للأخذ بثأر عثمان ، واجتمع حولها خلق كثير ، منهم « عبد الله بن عامر الحضرمى ، أمير مكة من قبل عثمان و « سعيد بن العاص ، و « الوليد بن عقبة ، و « عبد الله بن عامر ، و « يعلى بن أمية ، و « طلحة ، و « الزبير ، . استقر رأى هذه الجماعة على المسير

إلى البصرة ، وأعدوا عدتهم لملاقاة جند علي ، وأرادت حفصة متابعة عائشة ، فثناها عن ذلك أخوها « عبد الله بن عمر » .

ويجمل بنا في هذا المقام ، أن نورد رسالة من « أم سلمة » زوجة النبي عليه السلام ، إلى السيدة عائشة تثنيها عن عزمها ، وذلك لقيمة هذه الرسالة من الناحية البلاغية ، قالت أم سلمة « من أم سلمة زوج النبي إلى عائشة أم المؤمنين ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فتمد هتكت سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمة ، قد جمع القرآن ذيلك فلا تسحبها ، وسكر خفارتك فلا تبتذليها ، والله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة في الدين ، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذيل ، وقصر المواده ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل ، وغداً تردن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم لو قيل لي : يا أم سلمة أدخلي الجنة ، لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكة حجاباً ضربه على ، فاجعلته سترك ، وقاعة البيت حصنك فانك أنصح ما تسكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصحتهم ، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنهشت نهش الرقشاء المطرقة والسلام » .

مضت السيدة عائشة إلى غايتها ، ولم تثنها هذه الرسالة عن عزمها ، وأعطى « يعلى بن أمية » عائشة الجمل المسمى « عسكر » ومضى القوم من ورائها قاصدين البصرة ، ومروا في طريقهم بمكان يسمى « الحوآب » فنبحتهم كلابه ، فقالت عائشة : أي ماء ؟ فقيل : هذا الماء الحوآب ، فصرخت عائشة وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نسأوه « ليت شعري ينبجكن كلاب الحوآب » ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت : ردوني ، أنا والله صاحبة ماء الحوآب ، غير أن القوم ما زالوا بها حتى مضت معهم إلى الغاية المقدورة ، ولما أشرف القوم على البصرة ، أرسلت رضى الله عنها تستميل بعض وجوها ، ولما علم « عثمان بن حنيف » عامل البصرة من قبل علي بمقدم القوم ، أرسل إليهم « أبا الأسود الدؤلى » و « عمران بن حصين » يسألانهم

فما قدموا؟ فسألا عائشة رضى الله عنها فأجابت أنها قادمة في الطلب بدم عثمان ،
والتأثر من قاتليه ، الذين استحلوا حرمة البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فسفكوا
الدم الحرام ، واستباحوا المال الحرام . وكذلك سألا طلحة : ألم تبائع علياً ؟
فقال : بايعت واللبج على عنقي ، وسألا الزبير فتمال كما قال طلحة ، ورجع الرسولان
إلى « عثمان بن حنيف » وابتدره « أبو الأسود الدؤلى » قائلاً :

يا ابن حنيف قد أتيت فأنفر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلثماً ، وشمراً

ودار قتال مبدئى بين الطرفين ، راح ضحيته « عثمان بن حنيف » و « حكيم بن
جبله » . ونزل « على » « بذى قار » فى طريقه إلى البصرة ، وأرسل من يندب له أهل
الكووفة ، فكانت الجنود توافيه بذى قار ، على أهبة الاستعداد للسير إلى البصرة ،
وبلغ ما اجتمع له من الجند ١٢٠٠٠ ، فجعلهم أسباعاً ، على كل سبع رئيس .

وأشفق على من هول ما قد يتمنخض عنه لقاء الفريقين من مصائب وأهوال ،
فأحب أن يبتدىء الأمر بالتفاهم مع الفريق الآخر ، لعل ذلك يحسم الخلاف ويحتمن الدماء ،
فلما انتظم عقد رجاله بذى قار ، دعا على إليه « التمتع بن عمرو » وكلفه بالذهاب إلى
البصرة فى هذه المهمة ، فسار إليها ، وحذر القوم عاقبة الخلاف ، وأنه مطوح بالامة
إلى المهالك ، وقال لهم فيما قال : لقد قتلتم بشأر عثمان ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب
لهم ستة آلاف من قومهم ، فإذا أنتم صانعون غداً إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم ؟
إن الخير كل الخير فى أن تقنعوا بما أخذتم من ثأر عثمان ، وترجعوا إلى الجماعة ،
وتبائعوا علياً ، فانه أصلح للأمر . رضى القوم بالصلح وكاد الخلاف أن ينحسم ، وكان
أشباع طلحة والزبير بالفرضة من البصرة ، وكان أشباع على بالزاوية منها ، بعد أن
رحلوا عن ذى قار ، أى أن الفريقين أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الالتحام ؛ وخرج
على ، كما خرج الزبير وطلحة ، كل يبغى لقاء صاحبه ، والتقوا عند مكان يقال له
« الحريرة » ، ولما قيل لعل أن ذاك هو الزبير قال : أما أنه أحرى الرجلين أن ذكر
بالله أن يذكر ، وسألها على بأى حق يستحلان دمه وقتاله وهم جميعاً أخوة فى الإسلام ،
فاتهمه طلحة بالتأليب على عثمان فتمال على : لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال للزبير ،
أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى غانم فقال لك :

« ولتقاتلنه وأنت له ظالم » فقال الزبير : اللهم نعم ، لو ذكرته ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . غير أن « عبد الله بن الزبير » استطاع أن يحمل أباه على مقاتلة علي .

ولما كان علي رضي الله عنه حريصاً كل الحرص ، على بذل أكبر جهوده لتجنب القتال ، وانهاء الأمر بالحسنى ، فقد انتدب من لدنه « عبد الله بن عباس » كما انتدب طلحة والزبير من لدهما « محمد بن طلحة » . وأخيراً قر قرار المندوبين على حسم الخلاف ، وانهاء الأمر بين الفريقين بالحسنى ، وطرب لذلك كل حريص على خير المسلمين ، ما عدا أولئك الذين سعوا في قتل عثمان رضي الله عنه ، فتمدخافوا مما عساه يحل بهم إذا ما هدأت الفتنة ، ولقد استطاع هؤلاء أن يوغروا صدر الفريقين على السواء ، فبات كل فريق يتربص بصاحبه ، ويتحفز للقائه .

توافق الجلعان للقتال ، وخرجت عائشة رضي الله عنها ، في هودج جمل بالحديد ، وثار المعسكران يفتتلان ، وحمى وطيس القتال ، ورحى الحرب تدور مرة على الكوفيين وأخرى على البصريين ، ولقد قيل إنه قد قتل يوم الجمل سبعون قرشياً ممن أخذوا بالخطام ، كما يروى أن « مروان بن الحسك » قد قطع في دفاعه عن الجمل أكثر من عشرين يداً من أهل الكوفة ، وكان من بين ضحايا الجمل « محمد بن طلحة » من خير أبناء الصحابة ورعاً وتقوى وزهداً وعبادة ، كما كان « أبو طلحة بن عبيد الله » رضي الله عنه أحد ضحايا الخطام . ولما تزايد عدد الضحايا من الفريقين ، أشار على بعقر الجمل فتقدم إليه « بجير بن دلجة الضبي » واجتث ساقه ، فهوى ، وحمل أتباع علي هودج عائشة ، إلى إحدى دور البصرة ، تحت رعاية علي وأصحابه ، وانتهت المعركة بهزيمة أهل البصرة . ولقد عاجل « عمرو بن جرموز » الزبير بن العوام فقتله بوادى السباع وهو عائد بعد انتهاء القتال ، ولقد بشر على عمرأ بالنار ساعة علم بمقتل الزبير على يديه .

ولقد نكب الإسلام ، في هذه الواقعة ، نكبة كبرى إذ قتل فيها عدد كبير من أفاضل الصحابة والتابعين . وغداة الموقعة جاء علي إلى عائشة وقال لها « غفر الله لك » فقالت « ولك » ، ما أردت إلا الإصلاح » وظلت عائشة بالبصرة حتى موسم الحج ، فجهزها على إلى المدينة في ٢٠ أو ٤٠ امرأة من ذوات الشرف ، وجهز معها أخاها محمداً ، وشيعها هو وأولاده رضي الله عنهم أجمعين .

بقى من أمر هذه الواقعة ، أن نعلق عليها تعليقاً تاريخياً : فالمطالبة بدم عثمان تكون من حق الإمام لا من حق الأفراد ، فكان الأخرى بفريق عائشة أن يترث حتى يرتضى المسلمون خليفة عليهم ، يقيم الحدود ويأخذ برقاب المجرمين ، وكان لوجود نفر ممن اشتركوا في دم عثمان كابن سبأ في جيش على ، أبلغ أثر في استطارة الشر ، وعدم الانصياع لصوت الضمير والعقل ، وتعتبر هذه الواقعة فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب السياسية ، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاضل الداء ، إذ انقسم المسلمون فيها على أنفسهم : عرب البادية والكوفة ينصرون علياً ، وعرب الحجاز والبصرة ينصرون عائشة ، ولذا تعتبر الواقعة انتصاراً للفريق الأول على الفريق الثاني .

وإذا كانت نهاية الموقعة إنتصاراً حريباً لعل ، فهى من الوجهة السياسية ليست كذلك ، فقد شغلته هذه الواقعة عن خصمه الأكبر « معاوية بن أبي سفيان » الذى انفرد بالشام وراح يحكمه بأمره ، ويدبره على أحكم وجه ، استعداداً للصراع المقبل بينه وبين على . ثم كان من نتائج هذه الواقعة أن سخط كثير من العرب على قريش ورجالها لأنهم أوردوا أبناءهم موارد التهلكة . هذا وإنى أعتقد أن التبعة الكبرى فى هذه المعركة الدامية ، التى ذهب ضحيتها نفر من جلة الصحابة والتابعين . تقع على عاتق عائشة ، فانى أقطع بأنه لولا وجود عائشة فى موقعة الجمل ، ما اجتمع لأعداء على شمل ولا قامت لهم قائمة ، إذ ألهبت النفوس بخطبها ، وحركت المشاعر بوجودها ، حتى بلغ القتال أشده ، وأنتج ما أنتج من المصائب والأهوال ، وكان الأولى بأى المؤمنين أن تقف من الفريقين موقف الناصح المرشد ، حتى تزيل ما فى النفوس من تحفز وتحمس للقتال ، وتسعى جهداً لتأليف القلوب حول الوحدة الإسلامية بالطرق السلمية ، لآبارقة الدماء ، والوقوف موقف المناصر لحزب والمناهض لآخر . والنظر لتطور الحوادث يرى أن هذه الواقعة قد قوت من حجة القائلين بالأخذ بأمر عثمان ، لأن علياً قد آوى قتلته فى جنده ، فأضعف بذلك مركزه ، وقوى بالتالى مركز معاوية ، ثم أن عاصمة الاسلام قد جافت من بعد هذه الواقعة « المدينة » مطالماً إلى غيرها من المدن ، وبالإضافة إلى كل ما سبق ، قد أتاحت هذه الواقعة للمنافقين جواً مناسباً لبذر الخلاف بين المسلمين .

القتال عند المسلمين

لمضرة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

— ٢ —

تكلمنا فى العدد الماضى عن بعض أسلحة المسلمين البرية المباشرة وسنحاول هنا الإشارة إلى بعض أسلحة أخرى غير مباشرة لا تقل فتكا وتدميراً عن الأسلحة الأخرى ، بل تمتاز عنها بسهولة الاستعمال وقلة ضخايا الجنود التى تستعملها ، ولو أن بعض هذه الأسلحة كان معروفاً ، إلا أن المسلمين أدخلوا عليها من التحسينات ما جعل لها قيمة فى حروب العصور الوسطى لا يستهان بها :

فمثلاً استعمل المسلمون القذائف الملتببة التى كانت تسمى النار الاغريقية وهى عبارة عن مخلوط كيمائى به ملح البارود الذى يشتعل عند اصطدام القذيفة بأجسام صلبة ، وقد اخترع هذا السلاح مهندس سورى ، ثم باعه للدولة البيزنطية التى كافأته بسخاء ، وعندما هاجمت البحرية الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لم ينقذها من السقوط فى يد العرب إلا النار الاغريقية التى مزقت الأساطيل الإسلامية ، فكان ذلك درساً قاسياً وسلاحاً نافعاً أخذته العرب عن البيزنطيين ضمن أسلحة أخرى .

ومن الطريف أن نصف بعض الأسلحة الغير المباشرة التى ابتدعها المماليك بمصر خاصة أيام الظاهر بيبرس فى حربه مع المغول والصليبيين ، وقد كانت هذه الأسلحة الحربية الاقتصادية فتاكة ولا تحتاج إلى تضحيات جنود كثيرين ، وكان الغرض منها هو إحداث كل ما يمكن من تخريب ، وإشعال الحرائق فى أطراف بلاد الأعداء ، والثابت فى تاريخ دولة المماليك أنه كان بالجيش فئة من فئات المماليك تسمى بالمرقات ، ويظهر أنها كانت هيئة منظمة كتنظيم البريد ، وربما كانت فرعا من البريد ، وكانت طريقة هذه الفئة أن تربط بذيول الثعالب خرقة مبللة بمواد ملتببة ثم يشعلون تلك الخرق ويتركون الثعالب تنطلق نحو بلاد العدو ، وللدولة

الممالك أيضاً اختراعات أخرى كثيرة منها مثلاً : اختراع خنق التلاع المحصورة بأنواع من الغازات ، وفكرة إحداث ثقب بجوائط المدن الحصينة المستعصية الفتح ثم حشو هذه الثغوب بمواد ملتهبة ، وبهذه الوسائل وغيرها انتصر المسلمون على المغول كما انتصروا على الصليبيين في عدة مواقع حاسمة ، وقد استخدم السلطان بيبرس وغيره من سلاطين الممالك في حروبه الدبابات ذات العجل والزحافات والأبراج المتحركة والتطاطيع التي كانت تهدم بها أسوار القلاع .

أما أسلحة القتال البحرية عند المسلمين : قبل الإسلام وفي صدره ، فلم تكن موضع عناية . وقد علل ابن خلدون في مقدمته [ص ٢٢٠] سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر « أنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والأفرنجية لممارستهم أحواله ... ، مرتنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم أنشأوا السفن والشوانى وشحنوا الأساطيل بالرجال . . »

ويرجع الفضل في إنشاء الأسطول الإسلامي الأول إلى عثمان بن عفان ، عندما ألح عليه معاوية ، واليه بالشام ، بضرورة غزو بلاد الروم بحراً ، فجهز أول أسطول للمسلمين ، وقاده عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وإلى مصر من قبل عثمان ، وحارب به أمبراطور الروم قسطنطين في عرض البحر الأبيض وانتصر عليه في واقعة « ذات السوارى » ، مع أن عدد سفن المسلمين كان يترب من المائتي سفينة وقفت أمام ألف سفينة للعدو .

وعنى معاوية مؤسس الدولة الأموية بإنشاء السفن الحربية ، فأعد لغزو الدولة البيزنطية - التي كثيراً ما أغارت على البلاد الإسلامية - ما يسمى بالشوانى والصوائف ، وقد بلغ عدد سفنه ألفاً وسبعائة سفينة .

ولما كانت مصر من البلاد التي تعرضت للغزو البيزنطى ، فقد اهتم أمراؤها ببناء السفن ، وأنشئت دار لبنائها في جزيرة الروضة (الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٩٠) واستمرت البحرية الإسلامية في عظمتها طوال العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى الأسطول البحرى لصدد غارات

البيزنطيين على الشام ، ومن ثم أنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد على رأسهم رئيس يسمى أمير الجيوش ، واشتهرت الروضة والإسكندرية بصناعة السفن الحربية .

ولما انتقل الحكم فى مصر إلى صلاح الدين الأيوبي ، اهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدّهم عن الموانى الإسلامية ، وقد أنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم « ديوان الأسطول » ، وكان القائد يسمى أمير الماء أو أمير البحر . وازدادت العناية بالأساطيل البحرية أيام المماليك ، خاصة فى عهد السلطان بيبرس ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولاً قوياً مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وكانت هذه السفن متقسمة إلى أنواع منها الشوانى وهى المراكب المعدة للجهاد فى البحر ، والحراريق وهى سفن فيها قاذفات نيران يرمى بها العدو فى البحر ، والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة ، وهى الألفاظ المستعملة اليوم للمدمرات والطرادات والبوارج .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب نبغوا وأصبحوا سادة البحار بفضل شجاعتهم ، وقوة احتمالهم للشدائد والأهوال ، فأصبحوا أساتذة أوربا ، والدليل على ذلك أن بعض الألفاظ البحرية العربية لا تزال مستعملة فى الاصطلاحات البحرية الأوربية فمثلاً :

كلمة Arsenal [وبالإيطالية Darsonal] أخذت عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية .

وكلمة Admiral أخذت عن لفظ « أمير البحر » بالعربية ، وكلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » .

ويجب أن لا ننسى أن العرب اهتموا بنظام الجاسوسية فى الحروب ، خاصة أيام الدولة العباسية ، فقد استخدمت النساء والرجال على السواء ، لمعرفة أحوال الأعداء وقواتهم وأسلحتهم ، وكان هؤلاء يرحلون إلى البلاد المعادية ، متنكرين فى أزياء الأطباء والتجار وغيرهم لجمع الأخبار ، وكانت الجاسوسية العباسية على الأخص نشطة إلى حد كبير فى الدولة البيزنطية التى نافست الدولة العربية ، والتى كان الفن الحربى يخرج منها فى الماضى .

كَيْفَ نَقْرَأُ الشَّعْرَ

بقلم الأستاذ حمزة محمد السبيح

لإيسائه في الأدب الانجليزي

ما زال تعريف الشعر بأنه « حديث الذكريات » - لما فيه من إمعان في البساطة ، وإغراق في الوضوح - أبرز التعريفات جميعاً ، رغم تعددها وكثرتها . ويرمى ذلك التعريف إلى جعل العاطفة واستثارتها ، والفكر وشحنه ، مدار الشعر ، ومجال الشعراء ؛ إذ أن الإنسان قلما يذكر شيئاً لم يستثر شعوره ، أو ينبه خياله ، أو يستنهض عقله . والكلمة الشعرية لا بد أن تصل إلى أغوار الشعور ، لما لها من جرس وتفاعيل Cadence ، ولما يحيط بها دائماً ، من قدرة إيحائية واسعة ، تفتح أمام الفكر آفاقاً فسيحة من المعاني ، ولما تنسم به من جمال فريد وسحر أخاذ .

وفي الحق إن الجهد الفكري ، الذي نحتاج إليه عند قراءة الشعر ، يناقض تماماً الجهد ، الذي يلزمنا لكي نصل إلى معاني التعبيرات الصوتية الأخرى ، التي لا يتسع مجالها الإيحائي Aura of Suggestion إلا لمعنى واحد ، من بين معاني القاموس اللغوي ، بينما تشغل اللفظة الشعرية مجالاً أوسع وأرحب ، تشع فيه معانيها الإيحائية العديدة ، كما تشع الذرة خطوط القوى ، فتحمل الزمان والمكان حوالها . ولعلنا بذلك نستطيع أن نجلو السر الغامض ، الذي يجعل الأسلوب العلوي ، أقرب إلى الفهم والإدراك ، عند القراءة ، أكثر منه عند السماع ، كما يصبح الشعر هو الآخر - حين يسلس قياده ، وتواتى قوافيه - لغة الإنشاد ، التي تعتمد على الأذن إلى حد بعيد . وفي خلال ذلك يحتاج الشاعر في تعبيره - كما يحتاج الناثر - إلى التوجاهات الموسيقية التي لا مفر من تعاقبها ، كلما تعاقبت مراحل الجهد والراحة ، واحدة إثر أخرى ، أو كلما دفعت المناسبة الشاعر إلى زيادة التأكيد لبعض المعاني ، التي تروقه وتهمه أكثر من سواها . ونحن نجد ، في أنواع الشعر جميعاً ، رابطة قوية ، بين التوقيع الموسيقي ، الذي يخضع لهوى الشاعر في تقدير

الأشياء ، وبين الأوزان الشعرية ، بتفاعيلها المختلفة ، التي استمدت أصولها من تقاليد لغوية قديمة ، خضع لها النظم خلال أزمان طويلة ، ونهج الشعراء على منوالها في أشعارهم .

أما العلاقة بين الشعر والنثر مهما تباينت ألوانه ، فهي تشبه ، إلى حد كبير ، العلاقة بين علمي الجبر والحساب ... فالشاعر إنما يعبر عن تجاربه الشخصية أو الخيالية ، بيد أن هذه التجارب لا تستكمل قيمتها وأهميتها ، ما لم تتمثل في مخيلة القارئ صوراً مفعمة بالحركة والنشاط ، وما لم تلق بأضوائها فوق تجارب القارئ نفسه ، ومعنى ذلك كله ، أن نجاح الشاعر أو فشله إنما يقاس بكثرة المناسبات التي نذكره ونذكر شعره فيها .

وما دمنّا قد اصطَلَحنا على أن الشعر إنما هو « حديث الذكريات » فن الطبيعي أن نجد سائلاً يسأل : وعلام تدور تلك الذكريات ؟ أعلى الحياة تدور ، أم على الموت ؟ أم تعتمد على التعبير عن أغوار الكراهية والخوف ؟ أم تمتد بالوصف لتلك الرغبات العميقة ، التي تراود الناس في يقظتهم ، وتهفو إليها نفوسهم في أحلامهم فيتحقق بعضها طوراً ، ويصبح مصدر ابتهاج وإيناس ، ويفشل بعضها طوراً آخر ، فيظل ماثلاً للعين ، رمزاً للبؤس والحُرمان ؟ أم تصور الحق ، وقد استطال بعنقه في يأس حارق ، وفي حرقة يائسة ؟ أم تصف الباطل ، ، وقد عم البسيطة في جرأة طاغية ، وفي طغيان جارف ؟ أم تنتزع حديثها من الأطوار التي تعرض لنا جميعاً ، فتكشف عن الطفولة وبساطتها ، وعن الشباب وثورته ، وعن الكهولة واتزانها ؟

أجل إن « حديث الذكريات » يتناول ذلك كله ، بيد أنه لا يقتصر عليه ، وإنما يتعداه إلى غيره مما نذكره من الأشياء ، بين القيمة والفينة ، مهما كان تافهاً بسيطاً .. وفي الحق أننا نسيء إلى الشعر كثيراً ، ونعوقه عن السريان في جداوله الأصلية ، إذا نحن أردنا أن نحبس على تجاربنا العميقة وحدها ، بحيث لا يتناول غيرها بالوصف والتصوير .. بل إن من أرادوا بالشعر ، من هذه السبيل ، أن يجدوه ، ويحفظوا له مكانته السامية ، لم ينجحوا إلا في صد الناس عن الشعر والشعراء ، الذين ملتهم آذانهم ، ومجتهم أسماعهم .. إذ ليس الشعر سوى صورة

ناطقة للطبيعة البشرية ، تعكسها بشرها وخيرها ، وتنقلها إلينا بعمقها وضخالتها ،
وتعبر لنا عما فيها من ألوان البساطة الخالصة ، والصنعة الجارفة ، وعما يعرض أمام
أعيننا من ضروب الذكاء والغباء ، وعما نشهد من صفوف الدنس والعفاف .

وثمة أمر آخر يجعل الشعر ذا مجال فسيح في أغراضه ومراميه ، وينأى به عن
الضيق والتضييق ، الذى يريده له بعض النقاد . . ذلك أنه بالرغم من انتشار التعليم
اليوم ، وازدهار الطباعة وذيوها ، وظهور وسائل التثقيف الجماعية الأخرى ،
كالإذاعة اللاسلكية ، والشاشة البيضاء ، والمسرح ، إلا أن الهوة بين الذوق الأدبي
الرفيع النابه Highbrow taste ، والذوق الأدبي الخفيض المنقاد Lowbrow taste
ما زالت بعيدة ، بل أبعد مما كانت حتى اليوم .

ثم جاء بعد ذلك دور الانقلاب الصناعى ، الذى كان لسائر بلاد العالم فى العصر
الحاضر منه نصيب ، ففضى على كثير من الجماعات الزراعية ، بما لها من ثقافات
محلية تمليدية ، وأضحى الناس قسمين : فهناك العامل وصاحب العمل من ناحية ،
وهناك المساهمون من ناحية أخرى . ولم يجد الأولون فسحة من الوقت ، أو متسعاً
من الفراغ ، بعد أن وسعهم العمل ، وشغلهم السعى ، أما الفئة القليلة الأخرى ،
فقد اتسع أمامها الفراغ تزجيه أنى شاءت . وجرى الأدب بطبعه كذلك فى شعبتين
اثنتين ، تمت إحداهما الفئة الأولى بوسيلة تهرب بها من صخب الحياة ، وضجيج
المصنع ، وتمت الأخرى الفئة الثانية ، بوسيلة تملأ بها فجاج الروح ، أو تنسى بها عالمها ،
لتعيش فى عالم من نسج خيالها ، تعمده أشباح هائمة ، وتسوده أجواء مفعمة بجمال
الخرافة وسحر الأسطورة .

والنتاج الفنى الرائع قد يكون من صنع أفراد ، وقلة الإقبال عليه لا يعنى
بالضرورة أن ذلك النتاج تنقصه الروعة ، ويعوزة الإتقان . . أما النتاج الفنى العام
universal art فلن يتحقق إلا فى المجتمع الذى تتحد مشاعره ، وتتفق معايير
الأشياء عنده ، وتنسجم آماله وأهدافه . . وبعد كل البعد أن يستطيع الأديب صوغ
خير نتاجه وآتمه إلا فى مثل ذلك المجتمع .

في النقد الأدبي

للدكتور الشيخ أحمد محمد صفر

كلية اللغة العربية

يفهمون النقد في عصرنا على أنه تناول الأمر بالعب والبعث عن التفاضل فقط... ولكن الحقيقة أن النقد يشمل الكشف عن المساوى وتجلية المحاسن... والنقد الأدبي - بهذا المعنى - هو الفهم الصحيح والتحليل الدقيق للآثار الأدبية... وإظهار القيمة الفنية للأثر الأدبي. ارتفعت هذه القيمة أم انحطت... فإذا تناول الكاتب موضوعاً بالنقد فإنما يريد أن يوضحه ويكشف عن حقيقة كما ينقد «الصيرفي» الدراما ليميز جيدها من زائفها!!

فما عدة هذا النقد... وما وسائله؟

أهي القواعد أم السليقة؟

أهي المعايير والقوانين البلاغية أم الذوق السليم والحس المرهف؟ وبعبارة أوضح: أهي الصناعة بقواعدها المعقدة... أم الطبيعة بأسلوبها السهل اليسير...؟

أسئلة تندفق على أذهان المشتغلين بالأدب العربي في هذا العصر... وتحتل حيزاً كبيراً من أفكارهم... ويختلفون في الجواب فقريق يقول: إن الأدب فن... والفن يرجع إلى الذوق... فالحكم في القضايا الأدبية مستمد من السليقة معتمد على الفطرة... وكذلك كان العرب القدماء ينقدون الأدب... يتذوقون معناه... ويهتزون لموسيقا الألفاظ هزة الشعور بالجمال والإحساس بالحسن. حتى إن الحذاق من النقد زيفوا قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت والخنساء في سوق عكاظ لأنهم وجدوا عليها مسحة الصنعة، وهي قصة معروفة تتلخص في أن الخنساء أنشدت النابغة - وهو قاضي الشعر في عكاظ - قولها في رثاء صخر أخيها.

قذني بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فلما قالت :

وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشئوا لنحار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار . . .
قال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى سبقك لقلت : إنك أشعر من
في السوق . . ؟ فغضب حسان لذلك وقال : بل أنا أشعر منها ومنك ، قال النابغة :
حين تقول ماذا ؟ قال : حين أقول :

لنا الجففات الغر يلبعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابنا
فقال النابغة : قلت جفانك . . . وقلت « يلبعن » ولو قلت « يبرقن » لكان
أجود . . . وقلت في الضحى « ولو قلت « في الدجى » لكان أقرب لأن الدجى منزل
الضيفان وقلت « يقطرن » وكان « يحجرين » أبلغ . . . وافترخت بمن ولدت ولم
تفخر بمن ولدك !!

وقد زيف النقاد هذه القصص وشكوا في ثبوتها على هذه الصورة لأنهم وجدوا
النابغة يعلل لنقده بما يشبه كلام النحاة وأرباب الصنعة مع أنه العربي الصريح
الذى كان يذوق الكلام ولا يعرف شيئاً من الاصطلاحات التي وجدت بعد
ذلك ، وكان الناقد العربي قديماً يستحسن الكلام أو يستقبحه دون أن يقول لماذا
حسنه . . . أو هجنه ؟

ويرى فريق آخر أن الذوق لا يقوم بالنقد ولا يكفي في احتمال اعبائه ولا بد
من الاستئناس بالقواعد العامة في الكشف عن مزايا الأدب أو نقائصه . . . إذ
لا يصح أن يترك موضوع خطير كالتنقد لتلاعب به الأذواق وتباين فيه المشاعر
فيدمغ أثر جليل بحكم هزيل ورأى خطير . . !!

كما كان يحدث في الجاهلية وصدر الإسلام إذ يسمع الرجل بيتاً من الشعر
فيقسم على الفور بأن قائله أشعر الناس . . . وحين يسأل الرجل عن أشعر الناس
يقول : أشعر الناس من يقول كذا . . . ويروى بيتاً أو بيتين فإذا سئل بعد ذلك
ذكر شاعراً آخر . . وهكذا لو اتقصيت مقالاتهم لخرجت ، وليس في الناس شاعر
« ليس أشعر الناس !! »

ونحن إذا نظرنا حولنا اليوم لنقرر « أى الرايين السابقين أصلح ؟ » لوجدنا قومنا فتمدوا السليقة فلم يعودوا يفهمون الكلام إلا بواسطة المعاجم ولا يقيمون الالفاظ إلا بعد طول النظر فى كتب النحو... ولا يعرفون قيمة التعبيرات إلا بعد أن يستشيروا « السكاكى » وحواشيه فى فوائد « التقديم والتأخير » ، وتعريف « المجاز والحقيقة » . والتشبيه والاستعارة . !! فنأين تأتينا السليقة والصناعة تسكتنفنا من الجهات الأربع كما يقولون... وتحيط بنا فى كل مكان .

وحسبك أن « البلاغة » وهى المادة التى صار إليها النقد الأدبى فى شكله الممسوخ — تتنافر كتبها مع اسمها ويناقض أسلوبها وطرق البحث فيها المقصود من تأليفها . ومع ذلك يلقى حبل المتأدبين على الغارب يحوسون خلال كتب البلاغة الجافة الملتوية ليخرجوا منها بعشرات القواعد يحكمونها فى الآثار الأدبية ويدورون معها فى المجال الذى رسمه السابقون . فيكرهون الأثر الأدبى الرائع على الانحناء لقواعدهم الملتوية ، وهيهات أن يخضع الوجدان للقاعدة وأن يلبس الشعور ثوب النمىاس ، فإذا ضاقت الحيلة واستعصى الكلام على الدخول فى حظيرة القوانين المرسومة ارتكبوا فيه التأويلات البعيدة ليصححوا أخطاء مسلكهم وليحافظوا على قدسية « بلاغتهم » كأنها نظريات فلسفية تحتاج الى التحيص والتحليل وليتهم يعلمون أن الأدب لا يتحمل كل هذا التقليل !!

هذه حال المثقفين فى عصرنا عامة... وهذه طريقة كتب النقد الأدبى أو « البلاغة » كما يسمونها ! طريقة عليية تتخذ الحصر والتعداد وسيلتها وهى طريقة لا تتفق مع المقصود منها لأنها بهذا الوضع لا تخرج نقادا ..

لذلك لم يكن غريبا أن نرى المقصورين على هذه الكتب وحدها قصار المرمى فى ميدان النقد الأدبى فهى تخرج علماء . لا أدباء ، فالذوق الأدبى الصالح غير موجود اليوم . والكتب « النقدية » الملائمة مفقودة فى المحيط المدرسى . فهل نتنع من الغنيمة بالإياب ، ونسكتفى بهذا القدر الذى يبلغه قراء الكتب الحالية ، ونترك البحث عن سلائق طال على فقدائها الأمد ، واختلطت بها العجمة ، وغطتها رمال الزمن وتسلمها التاريخ فأصبحت من ودائعہ... لا هذا . ولا ذاك لأن كتب النقد الأدبى التى ألفت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين تتفوق على الكتب المتأخرة فى جمال

الأسلوب وتنمية الذوق وتبتعد عن التعقيد الفلسفى الذى منيت به كتب البلاغة المتأخرة ، فلو استطعنا أن نختار أصلحها وأجمعها لموضوعات النقد لسددنا ثغرة فى بناء الفكر الحديث .

ويا حبذا لو جمعنا أجوبة الأحرار من النقاد الأقدمين وتعليقهم على بعض الآثار الأدبية فى كتب يقرأها المتأدبون خالية من القواعد مليئة بالفوائد . وأما ما يتعلق بتربية الأذواق الأدبية والاتجاه نحو خلق جيل تنبئه عنده السليقة فذلك أمر ميسور ممكن ، وبانتشار الثقافة بين طبقات الشعوب تنقرض العامية وتدنو الأمة من السليقة ، ويساعد على ذلك تعهد الذين ينبغون فى الميدان الأدبى بما ينمى ذلك الروح فى نفوسهم ، وإحاطتهم بما يسهل عليهم طول الطريق وبعد الغاية... ولا شك أن التوجيه مع الاستعداد أنجح من حشو الأذهان دون رغبة أو نتيجة مرضية . فإذا سار التوجيه مع الميل الفطرى كان ذلك خيرا للنقد الأدبى ، أما إذا كان كل همتا أن ندير رءوس الشباب فى الخلافات السكائية فما أضيع الوقت وأقرب الهدف . بقيت كلمة صغيرة لأدبائنا الكبار الذين لا يريدون أن يتركوا وراءهم سوى كتبهم ، ونحن نريد منهم أن يتركوا توجيهاتهم وتجربتهم فى حياتهم الأدبية فإن من حق الأدب عليهم أن يساهموا فى خلق نهضة أدبية مبزية على أفسكار ناضجة حتى لا يخلو الميدان مرة واحدة بعدهم . وبذلك يقضون واجبا نحو بلادهم ولغتهم ؟

تصحيح أخطاء

عمره المرمية

وقع تحريف طباعى فى بيتين من القصيدة المنشورة فى العدد السابق ، صحته فيما يأتى :

البيت الأول :

رائدُ العلم نكتُـالُ المـهـمـى يشـتـكى فـقـدَ المـنى فى الثـن

البيت الثانى :

سـلـ بحـكم الحـيـف تشـهد سـيـدأ يـقـنـى القـانـونَ فـيـما يـقـنـى

وفاة عالم

توفى الى رحمة الله فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فسكرى يس أحد علماء الأزهر
الاجلاء ، والمدرس بكلية الشريعة ، وصاحب المقالات الممتعة في مجلة الأزهر .
كان رحمه الله هينا لينا مهذب النفس ، بعيدا عن اللغو واللغو ، وكانت همته
مصروفة الى زيادة مادته العلمية ، بمعالجة المسائل الاجتماعية الكبرى بالتحليل الدقيق
تحت ضوء الدين والعلم ، فكان في كل ما يكتبه مفيدا لقارئه بشيء جديد . وهذه
ميزة علمية نادرة الوجود .

فنعزى الأزهر والأزهريين بوفاة هذا الأملعي الجليل ، ونعزى أيضا أنفسنا
راجين له الدرجات العلا في حياته الروحية التي آل إليها بعد طول جهاد في هذا
العالم المادى ، ونرجو الله أن يثيبه على ما قدم ثواب الصالحين ، ويجزيه بما جاهد
وناضل عن الدين جزاء المجاهدين الصادقين .

ديوان الأسمر

في نحو منتصف شهر فبراير ، وافتنى منه نسخة مهداة إلى من فضيلة الأستاذ
الأملى ، والشاعر المشهور ، الشيخ محمد الأسمر . فتناولته باهتمام ، واستقلت به
في وسط أعمالى فترة من الزمن ، ولم أدعه إلا لتزاحمها على . ولا عجب في ذلك ، فإن
لشعر الأسمر في قلوبنا مكانا ممتازا ، ووقعا عظيما ، وكنت أعود إليه كلما سنحت
لى فرصة ، فعدت إليه وعدت إليه ، وكلما عدت ازددت به كلفا ، وتملأت به إعجابا .

إن ديوان الأسمر ذخيرة أدبية تعطيك إلى جانب سمو الخيال وجمال الأداء ،
إبداعا في التفكير ، وتنويعا في التصوير ، يرتقى بك إلى درجة نشوة أدبية ، تحس
معها كأنك في بستان تحف بك فيه الأزاهير البديعة الأشكال ، المنسقة الطاقات ،
ومن التوفيق أن هذا الإبداع الموضوعى يتقابل به إبداع شكلى من جمال الطبع وحسن

التنسيق ، وجودة التسميم ، فأنت معه من إبداع الى إبداع ، حتى تقنع طلبا للاستجمام مع نزوع الى العودة في أقرب فرصة . ولقد صدق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، حيث كتب لشاعرنا ، وقد نشره في أول صفحة من ديوانه :

« لشعرك تأثير في نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل ، فيسرى فى الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

أول ما يطالعك فى ديوان الأستاذ الأسمر ، قصيدة عصماء له فى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء منها :

شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا	فجر أطل على الوجود فأطلعا
من بعده شبا لمكة مطالعا	ظلت مطالع كل شمس لا ترى
لألاؤه فوق البسيطة موضعا	قبس من الرحمن لاح فلم يدع
إلا الربيع نضارة وتضوعا	ما كان ميلاد الرسول المصطفى
يوم كأن الدهر فيه تجمعا	يوم أغر كفاك منه أنه
يثنى إليه جيده متطلعا	ويكاد غابر كل يوم قبله
وثبا على هام السنين ليرجعا	فلو استطاع لسكر من أحقابه
ينسل من خلف الزمان ليسرعا	ويكاد مقبل كل يوم بعده
وانساب يخترق السنين وأتلعا	فلو استطاع لجاء قبل أوانه
مألا الوجود فلم يغادر أصبعا	تتنافس الأيام فى الشرف الذى
أنى جرى ترك الجنب الممرعا	خير أفاض الله منه على الورى
من بعد ما كانت خرابا بلقعا	وسنا جللاه لتعمر الدنيا به
فانجذب عن جنباتها وتتشعا	وافى ولسل الجاهلية مطبق
واستكبروا شرع الرماح فأسمعا	نادى الى الحسنى فلما أعرضوا
مستلما لاقى الطغاة فروعا	والحق أعزل لا يروع فإن بدا
وتراه أوضح ما يكون مدرعا	والحق أخفى ما يكون مجردا
عرف الطريق ولم يضل المهيعا	بعض الأنام إذا رأى نور الهدى
عن غيه حتى يخاف ويفزعا	ومن البرية معشر لا يثنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْهُمْ نَبَأٌ

اعتاد كتاب العربية الذين يعالجون إصلاح الشؤون الاجتماعية ، أن يعظموا من مظاهر الحياة الأوربية ، ويذهبوا في تفخيم شأنها كل مذهب ، حتى التي يشكو منها أهلها أنفسهم من الشكوى ؛ وإنا لنشاهد ذلك ونعجب منه ، ولكن لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى وقف تياره . كل هذا لأنهم يشاهدون تبريزهم في كل مجال ، ونجاحهم فيما يحاولونه من الأعمال ، فيتخيلون أن الذين يكونون على هذه الشاكلة تكون جميع مدركاتهم قد قامت على أحكم النظم العلمية ، لا يأتيها الخلل من أية ناحية من نواحيها ؛ والباعث الذي يضطرهم إلى كثرة التنويه بالأوروبيين أن يأخذ إخوانهم إخذهم في شئونهم فينهضون مثل نهضتهم ، ويصلون إلى مثل ما وصلوا إليه من مدنياتهم .

هذه النظرية تقوم على خطأ كبير ، لأنها تخفي الحوافز الحقيقية للنهوض ، وتظهر آثارها بمظهر عللها الأولية ، وهي ليست بها ، فتزداد خفاء على العقول ، ويزداد الجهل بها تغلغلا في النفوس ، فتحق على الأمم الواقعة تحت آثارها صفة العجز فتبقى فيما هي فيه .

ولست أستطيع أن أفهم القارئ كنهه الأسلوب الذي استخدمه الأستاذ خالد في التأثير في عقول قرائه ، إلا بنقل شيء منه على سبيل المثال ، مع الإشارة إلى ما ارتكبه فيه من الشطط والمبالغة ، ومن الخطأ أن يستخدم ذلك أحيانا في سبيل بث حجة الاشتراكية في النفوس ، وهي وسيلة ، إن أفادت مرتكبيها لأول وهلة ، فقد عادت بأشد المضار عليهم وعلى مبادئهم بعد هدوء العاصفة ، والرجوع إلى الثبوت والتحقيق فلننقل قطعة من ذلك الكتاب ليرى القارئ ما نقوله له بعينه ، بل ويلبسه بيديه إن شاء ذلك . قال تحت عنوان : (هذه عوائقنا) : التفاوت البعيد :

« في طليعة العوامل التي تحرم بجمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذي يشطره شطرين غير متكافئين .

« ولقد أصبحت هذه الفروق بين شطري المجتمع من الموضوعات التي يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح ، والادراك السليم

« واتخذها الساخطون وقوداً يسعون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد ونريد الآن قبل تنفيذ مضار هذا التفاوت ؛ أن نفهمه على وجهه الصحيح فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لزالة كل حاجز وفارق بين الناس ، فذلك أمر مستحيل وإنما نجد في أمريكا وروسيا وإنجلترا من يملك رصيذاً ضخماً من المال ، ومن لا يملك شيئاً بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما يضاربه ، وكما نرزح تحت كاهله .. وضراوته .. ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضرورتها ، وفي منتصف المسافة أو أكثر ، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية ... والمجتمع هناك غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره ، وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يثير التفاوت بغضائه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ، ولكل فرد من أفراد الحق في كافة الفرص التي يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً . فهو لذلك لا يجد من الوقت ما ينفقه في الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص المترعة ، بكل مقدرات النجاح والفوز يهتبلها وينتزهها .

« ثم ان التفاوت هناك نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذي عندنا ! من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيماناً يخلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه السيدة الأمريكية التي وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة سوف تلقون في نهايتها أباً كم ! ، وكان أبوهم قد قتل في إحدى المعارك .

« والمرأة الروسية التي صمدت أمام جنود الألمان ، وقاتلتهم في مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهي تقول : « لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبداً .

« وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوعى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أنساهم رهبة الموت وقسوة المصير؟

« إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية - ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب ، المجتمع الذى منحهم كل إمكانياته وفرصه ، فنحوه كل ولائهم وقلوبهم ، وبادلوه وفاء بوفاء ، وتقديرآ بتقدير .

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أدناهما الآخر ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمرآ له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فبأكون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقف من آلامها وحرمانها ولغوها . . . !!

« ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتمدتهم نعمه وطيباته فعند ما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا أبناء الفقراء والرعاع ، ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم ، وإن وراء هذا التصرف الخجل لإيماننا عريقاً بالارسطوقراطية ، وحرصا شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نائية لا تقرأ أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا .

توهم هذه القطعة التى آثرنا نشرها من كتاب الأستاذ خالد ، أنه أحاط بكل ما أشار إليه فيها من الموضوعات علماً ، وأنه يقرها عن معرفة بتفصيلاتها ودقائقها ، وعن فقه عميق بآثارها ونتائجها ، ويسوءنا أن ندلل على أن مناقشة سطحية لها ترى قارئها أنها تقارير ألفت من غير تمحيص ، وكثير منها يخالف الواقع مخالفة صارخة .

فهو يقول فيها: إن الفروق أصبحت شاسعة لدينا بين طبقتي المجتمع ، وأن الساخطين جعلوها وقوداً يزيدون بها سخطهم تأججاً ، إلى آخر ما قاله . والحقيقة أن هذا التفاوت طبعى وموجود فى كل أمة ، وما دام فى الأمة فريق يرتبى ويعلم حتى يبلغ آخر مراحل العلم ، وفريق يهمل أمره ويستبقى فى أمة القرون الأولى ، فلا بد من وجود هذه الفروق الهائلة فى الأمة ، وليس فى هذا الأمر ما يوجب الحيرة ، فهو أمر طبعى وعلاجه تعميم التعليم ، ولا علاقة له بأرصدة فى البنوك ، ولا بعزل اجتماعية تجب معالجتها .

ويقول : وأنا لنجد فى أمريكا وروسيا وإنجلترا من يملك رصيذاً ضخماً من المال ومن لا يملك شيئاً ، والواقع أنه لا يوجد روسى واحد يملك رصيذاً فى بنك بعد أخذهم بما هم عليه من البلشفية .

وبعد هذه المقدمة الخاطئة التى أثبتت فيها وجود حزازات نفسية بين طبقتا الاجتماعية ، عاد للتوسع فى استغلال هذا التحاقد الشنيع بين طبقتا ، فقال : « ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين ، يحقر أحدهما الأدنى ، ويمقت أذناها الأعلى - إلى أن قال - : لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فبأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ... ويجلسون فوق أهرام من الذهب ، بينما بقية المجتمع تقف من آلامها وحرمانها ولغوها . الخ الخ » .

نقول إن الأمة المصرية ، وأية أمة إسلامية فى العالم كله لم تنقسم على نفسها إلى معسكرين متباغضين بسبب الشؤون المالية ، فإن روح الوحدة سائدة فيها ، وكل ما تقتضيه هذه الوحدة من تحاب وتواصل موجود بينها إلى درجة محسوسة ، فقد يتفق وجود أسرة سرية تسكن داراً واسعة الرحاب تحيط بها حديقة غناء ، ولسكنها فى بيئة متواضعة تسكنها أسر فقيرة ؛ فنشاهد عطفاً عظيماً واحتراماً كبيراً من هذه الأسر لأهل تلك الدار الشماء ، فتحيط بها بحبها ورعايتها ، ويتسابق آحاديها رجالاً ونساء إلى خدمتها غير منتظرين من أهلها غير شرف التعارف وكرامة الجوار . جرى الحال فى جميع أدوار تاريخنا على هذه الحال ، ولا يزال يجرى عليه ، حتى إننا لنعلم أن اتفاق لبعض تلك الأسر أن تنتقل إلى المواطن الراقية التى أعدت لأمثالها ببعض الضواحي ،

أن الأفراد الذين كانوا يبادلونها الود من سكان تلك الحارات الضيقة ، لا يزالون يوالونها ذلك الود ، لا يمنعهم منه مانع من بعد الديار . فالتعاضد الذي يذكره الأستاذ لا يوجد له أثر بين الطبقات في بلاد المسلمين . وحاشانا أن نتهم الأستاذ بأنه يذكره لينبه إليه النفوس ، ولسكننا نقول إنه يذكره ليهد الطريق للدعوة إلى الاشتراكية . ونحن نؤكد للأستاذ أن الاشتراكية ما دام من مقوماتها حذف الملكية ، وإبطال حقوق الوراثة ، فإنها يبعد أن تسود العالم عن طوعية ، وهو في عقلية وعواطفه التي هو عليها إلى هذا العهد .

نعم يجوز أن يحدث له تطور اجتماعي يرى معه أن حق التملك يجب أن يلغى وأن عادة توريث الأبناء والأقارب أملاك الشخص بعد موته يتحتم أن تبطل ، بسبب ما يكون قد جد من عادات وتقاليده تضمن حياة الناس دون الالتجاء إلى الوسائل المعهودة ، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد ، وقد لا يكون قط ، فالاشتراكية والحالة هذه إن لم تكن سابقة وقتها بضعة قرون أو بضعة آلاف من السنين ، فهي من المطالب التي لا تقرها الطبيعة البشرية لأول وهلة . والدليل المحسوس على ما نقول عدم إجماع العمال على الأخذ بها ، بل ليس يقول بها منهم إلا قلة قد تبلغ الخمس ؛ ولكن الأستاذ خالد يكتب عنهم كأنهم مجمعون عليها ، وفي بعض تعبيرات له كأن العالم كله قد آل إليها . كل هذه المحاولات منه تمهيد السبيل لشهرها ، ولا ندري أي شيء يحفزها إليها وليس هو من طائفة العمال ، ولا هو بمن عاش في عالم اشتراكي فذاق من حلاوته ما يدفعه لأن يكون داعية إليه . هذه مسألة لا يعنينا حلها ، ولكننا أزاء نظرية اقتصادية اجتماعية من أشد المسائل العالمية تعقدا ، وأعصاها قيادا ، فإذا كنا نضطر لخوض غمراتها حيننا بعد حين فلأن مهمتنا تقتضينا ذلك . أما هي في ذاتها فليست من المسائل الوشبكة الحل ، ولو قلت إن بينها وبين الفصل فيها قرونا طويلة فلا تكون مبعدا فيما تقول .

والمسلمون فوق هذا لا يهمهم حل المسألة الاشتراكية ، لأن دينهم قد أدمج مسألة الثروة في أمور الدين من ناحية الزكاة التي هي إحدى أصول الإسلام الخمس فأصبحت الناحية الاقتصادية متصلة بأمور الدين الأولية .

نعم إن المسلمين لا يعملون بدينهم الآن ، وقد أهملوا أمر الزكاة إهمالا يؤخذون عليه ، لأن في إهماله إهمالا لحقوق السواد الأعظم من الأمة وهم الفقراء ،

ولا بد من أن تثار هذه المسئلة في يوم من الايام وتحاسب الأمة نفسها على إغفالها حساباً عسيراً ، واذ ذاك يفصل في أمرها بنسبة ما تكون عليه حيال دينها . فإن كانت مستهدية بهديه أو عاملة على ذلك جهد طاقتها ، فإن مسألة الزكاة تحل حلاً يحفظ حقوق الطبقة الفقيرة من الضياع ؛ وإن كانت منتسبة إلى الدين دون العمل به كما هو شأنها اليوم ، فإنها قد تخضع للظروف وتحل المسألة الاقتصادية على الوجه الذي حلتها به الأمم الغربية .

أما قوله إن التفاوت بين الأغنياء والفقراء جعل منهما معسكرين متباغضين يترصد كل منهما بالآخر السوء ، لأن المشكلة لا تتمثل فقط في حرمان الفقراء من متع الأغنياء في أكلهم ومقداره ونوعه ، وفي لبسهم ورغدهم وثرائهم ، بل وفي هذا الترف المسعور الذي يعيشون فيه ، الخ ، فهو استنتاج خاطئ ، لأن الإسلام نفسه قرر أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق ، فتمضى بالغنى لطائفة وبالفقر على أخرى لمصلحة كل منهما ، وجعل مجال التسابق مباحاً للكافة في كل زمان . لذلك لم تنقسم الأمة الإسلامية في أى عهد من عهودها إلى شطرين : شطر الموسع له ، وشرط المضيق عليه الحكمة تقتضيها حاجة الاجتماع ، ولم يسد طريق الوصول إلى الثروة بالأسباب المشروعة في وجه أى طالب من أية طبقة من الأمة .

هذه الحكمة الجليلة حمت المسلمين في جميع عهودهم من تألب الطوائف بعضها على بعض كما حدث في الغرب ، فجعلت ممالك مسرحة للقتل والمؤامرات في القرون الأخيرة ، ولا تزال على أشد ما يكون في عهدنا هذا ، وقد تولدت منها مذاهب مختلفة تستخدم جميع ضروب التخريب للوصول إلى أغراضها ، ومنها الاشتراكية التي يدعو إليها الأستاذ ؛ فهل يريد حضرة الانتهااء بنا إلى هذه المسألة ؟

وعلى أية حال فتجن سائرون إلى الغاية التي انتهى إليها الغرب وهي ضرب الضرائب على أموال الموسرين وإسعاد المقلين بحاجاتهم منها ، وهو على أى حال شيء من الزكاة المفروضة على المسلمين وإن لم يكن بها من كل وجه . فليس علينا معشر المسلمين إلا الانتظار مع التنويه بالنظام الاقتصادي الإسلامى حتى لا يدر في الأذهان ، فهو أكمل وأوفى من النظام الأوروبي كما سنبينه هنا في فرصة قد تنهياً له في بعض البحوث .

النفس

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » [سورة النساء : ١٠٥]

شرحنا في العدد الماضي مفردات هذه الآية الكريمة وبيننا مناسبتها لما قبلها وسبب نزولها ، كما بينا موقف القرآن والإسلام من قضايا المسلمين وأحوالهم ووجوب الاحتكام إليه في كل أمورهم ، واتخاذهم أساساً لحياتهم في جميع صورها ، وبقي في هذه الآية بحثان : أحدهما يتعلق بقوله تعالى « بما أراك الله » وثانيهما بقوله « ولا تكن للخائنين خصيما » .

والحق أن البحث الذي يشار حول النقطة الأولى بحث أثاره المفسرون الأصوليون ، وإن كان الفهم للآية قد يستغنى عنه ، ولكن لم يعد لنا بد من التعرض لهذا البحث ، لا سيما والآية التي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى « واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما » تستدعي البحث عن دواعي الاستغفار : هل يستغفر الرسول من صغيرة ، أو من خلاف الأولى ، أو يستغفر لأمته ؟

إن الله سبحانه وجد أن رسوله صلى الله عليه وسلم قد هم - حسب طبعه البشرى وعلمه الظاهرى وحبه للمسلمين واعتقاده الصدق فيهم - بالحكم على اليهودى البرىء ، فأرسل الله له الوحي بهذه الآية الكريمة ليوجهه إلى غير ما هم به ، ويبين له أن الله أنزل عليه القرآن ليحمى الحق ، ويصونه من الأهواء والعصبيات ، ويحكم به بين الناس ، ويترسم طريقه فيما يقول ويفعل ، وليس بما أنزل الله من قواعد الحق أنه يتبع الهوى والعصية ، ويميل مع الغرض ، فإن الله سبحانه قد أحاط الحق والعدل في قرآنه بسياج قوى من الوصايا والأوامر تحميه من الاعتداء عليه أو المساس به ولو من بعيد لحب نفس أو قريب أو مال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا
ولإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً^(١) .

« ولا يجر منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا^(٢) » ،
وكرر الله الأوامر في القرآن للحكم بالحق وعدم اتباع الهوى . وهنا في هذه الآية
يوجه الله نظر الرسول إلى هذه التواعد والأوامر ، ليحول بينه وبين الميل الطبيعي
والنفسى مع قوم أظهروا إسلامهم وتواطئوا على الشهادة لمصلحة قريتهم المسلم ،
فالآية لا تزيد عن توجيه الرسول إلى الحق والحكم به « ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين » .

ومع هذا ، فإن الباحثين اختلفوا حول قوله تعالى : « بما أراك الله » هل هو
بمعنى أعلمك علماً يقنيا كالرؤية في القوة ، ولا يكون ذلك إلا بالوحي الذي يحدد
المراد على وجه قطعى . وعلى هذا فتوجه الرسول هنا إلى الحكم بالوحي فقط
ولا يتعداه إلا إلى قياس يرجع إلى الحكم بالنص . وحيث لا يكون في الآية دليل
على جواز اجتهاد الرسول ، ولسكنها مع ذلك لا تدل على منع الاجتهاد ، لأن الآية
نزلت في موضوع خاص .

ويحتمل أن يكون معنى « بما أراك الله » مما نزل به الوحي ، أو بما أدركته
بواسطة نظرك واجتهادك في أحكام الكتاب وأدلته ، فاتباع النص حين وجوده ،
والاجتهاد حين لا يوجد النص ، والمراد على كل حال منع الرسول من
الخضوع لأقوال الشاهدين وعصيتهم ، ومن الميل للمسلمين على اليهودى وحجزة
عن الوقوع في خطأ ينتج عن ذلك .

جاء في تفسير المنار للأستاذ الإمام « ومن مباحث الأصول في هذه الآية
مسألة حكمه صلى الله عليه وسلم بالوحي فقط ، أو بالوحي تارة وبالاجتهاد أخرى ،
ثم نقل في موضع آخر عن كتاب « الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية »
للإمام سايان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى قوله : « لتحكم بين الناس بما أراك الله »
يحتمل أن المراد بما نصه لك في الكتاب ، ويحتمل أن المراد بما أراكه بواسطة
نظرك واجتهادك في أحكام الكتاب وأدلته . وفيه على هذا دليل على أنه

عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لا نص عنده فيه من الحوادث ، وهي مسألة خلاف في أصول الفقه . وفي موضع آخر قال : « ثم على القول الأول - وهو أن الاجتهاد جائز له - هل يقع منه الخطأ فيه أم لا ؟ قولان للأصوليين أحدهما : لا ؛ لعصمته ، والثاني : نعم ، بشرط ألا يقر عليه استدلالاً بنحو « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ونحو ذلك . اهـ ^(١) .

فترى من هذا أن الأصوليين مختلفون في الموضوع الذي أثاروه : فمنهم من أجاز للرسول أن يجتهد لأنه منصب كمال ، ولا ينبغي أن يفوته عليه السلام . وأن فيماروى عنه ما يدل على وقوعه منه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « لو قلت نعم لوجب » وقوله : « لو سمعت شعره قبل قتله لم أقتله » وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » وأيضاً عتاب الله لرسوله في الآيتين المتقدمتين يدل على أن الرأي الذي ذهب إليه كان باجتهاد منه لا بتوجيه الوحي له ، وإلا لما كان هناك محل للعتاب مطلقاً .

أما الذين ذهبوا إلى عدم جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فقد احتجوا بقوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، وبأنه قادر على يقين الوحي ، والاجتهاد لا يفيد اليقين .

وقد جاء في تفسير المنار أن قوله تعالى « ما ينطق عن الهوى » لا يدل على منع الاجتهاد « لأن هذا في القرآن خاصة ، وإلا كان كل كلامه عليه الصلاة والسلام وحياً ، وقد ورد أن الوحي كان ينقطع أياً ما متعددة ، وأنه كان يسأل عن الشيء فينتظر الوحي ، كما كان يسأل أحياناً فيجيب من غير انتظار للوحي » وليس بمعقول أن كل ما كان ينطق به عليه السلام في كل الأمور كان بوحي . وأما قولهم : إنه كان قادراً على يقين الوحي فغير مسلم لهم على إطلاقه ، فشأن ذلك لله سبحانه .

والذي أميل إليه من خلال هذه الأدلة أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم مجال له أن يجتهد فيه ، وكان هذا المجال بعيداً عما كلفه الوحي بتبليغه ، إذ أن ذلك لا محل فيه للرأي مطلقاً ، وكان الله سبحانه يوجه الرسول في بعض الحالات إلى

غير ما أداه إليه اجتهاده ورأيه ويعاتبه ، والقرآن شاهد بذلك في غير موضع .. وسواء كان العتاب على ترك الأولى أو على خطأ في الرأي ، فإنه كان على كل حال دليل على أن الرسول ذهب إلى هذا الرأي باجتهاده لا بتوجيه الوحي ، ولا يغض هذا من مكانة الرسول . إذ أن ذلك من مقتضيات البشرية ، فليس معنى اختيار الله له لتبليغ رسالته أنه ارتفع فوق الطبيعة البشرية ، أو أنه صار مسيراً بالوحي في كل ما يأتي وما يدع من أمور الدين والدنيا ، على أنه « لا يبعد أن يقال : أن في جواز الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فسر البشر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ بخلاف الوحي »^(١) . ثم إن الحادثة التي نزلت الآية من أجلها تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يحكم على البريء برأيه طبعاً ، ولكن الله حرسه بالوحي « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك » . « وكان فضل الله عليك عظيماً » . ولو أن رأى الرسول وافق الصواب في اتجاهه لما كان هناك حاجة لوحي .. ولكن - علم الله وله الأمر والتدبير - ما كنا نظفر في القرآن بهذه الآيات البينات ذات المبادئ العظمى ، وأعتقد أن البحث حول هذه النقطة ، قد استوفى حقه . فلننتقل إلى النقطة الأخيرة وهي قوله تعالى « ولا تكن للخائنين خصيماً » .

ذكر الله هذا النهي في آخر الآية بعد توجيهها للرسول في أولها ، ونلاحظ أن الله لشدة غيبه على الحق كرر تحذير الرسول من البعد عنه ، واحتضان الباطل والمبطلين « ولا تكن للخائنين خصيماً » ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » والخائنون هم الذين سرقوا وأرادوا أن يبرئوا أنفسهم ويلصقوا التهمة بغيرهم ، وتجمعوا متعصبين لقريتهم السارق ، شاهدين ببراءته وإدانة اليهودي أمام الرسول حتى كاد يتأثر بالظاهر من أمرهم ، مع ميله الطبعي وحبه النفسى لاتباعه المسلمين ، - ولو أن هذه المؤامرة دلت على بعدهم عن الإسلام - فاتجه الرسول إلى الأخذ بالظاهر والحكم على اليهودي البريء ، فقال له الله « ولا تكن للخائنين خصيماً » وبذلك عرف الرسول أمر هؤلاء المتأمرين ، وعرف أنهم الجناة الخائنون الذين ارتكبوا وزرين : وزر السرقة ، وزر اتهام البريء . وحينما انكشف للرسول أمرهم تنحى عن الدفاع عنهم والاتصار لهم ، ولم يستطع الجاني إلا الهروب خوف الحكم عليه .

ما أعظم الحق !؛ يحرسه ذو الجلال ويغار عليه ، ويكره أن يضام رجل يرى - ولو كان يهودياً مخالفاً لله ورسوله - ويؤخذ بجريرة غيره ، وينزل في ذلك قرآناً يتلى إلى أن تقوم الساعة يحمى الحق من المتآمرين عليه ، وينير طريقه للرسول حتى لا يتأثر بدسائسهم ، قد يحدث مثل هذا في كل يوم وفي كل بلد ، وينتصر الباطل على الحق ، ويقع البريء تحت سياط العذاب ويفلت الجاني الأثيم ، ولكن ذلك لا يكون ، والوحي ينزل على الرسول يثبت به الحقيقة التي يحيط بها علام الغيوب ، فكانت هذه الآيات التي تقرر مبدأ من أهم المبادئ وأسمائها ، وهو عدم الانتصار للجناة والدفاع عنهم ، هو الانجاء إلى الحق والعدل أينما كانا ، لا يفرق في ذلك بين الناس لأنفسهم أو دينهم أو جاههم وسلطانهم ، فالكل أمام الحق سواء « ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ^(١) .

ما أحرانا بتدبر هذا والعمل به !! ؛ فكثيراً ما نرى أناساً منا يحتضنون المجرمين ويحمونهم بجاههم وسلطانهم ، وهم يعلمون مقدار جرمهم ، وكثيراً ما رأينا الحق تميد جوانبه تحت ضربات العصبية ، وتطمس معاملته بغبار الأهواء الشخصية كم رأينا عظيماً يفلت من سلطان الحق والقانون ؛ لأنه عظيم ، ولو كان عظيماً في جرمه ! وكم رأينا صحفاً تسخر قواها للدفاع عن المجرمين وإخفاء معالم الحقيقة ساخرة من الحق ومن عقول قرائها الحاجة في نفسها !! وكم رأينا هيآت تتألب على الحق وتهوى عليه بقوة سلطانها !!

وكم رأينا محامين يدافعون عن الجناة الأثمين في حق الله والوطن ، وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يقلبون الحقائق ويسخرون ما آتاهم الله من مواهب ليتصرفوا بباطلهم على الحق ، ويتزعموا المجرم من يد التماس : ابتغاء المال الكثير والجاه الوفير ! ونسى هؤلاء وأولئك مقدار الجرم الذي يرتكبونه في حق الله والوطن ، نسوا جميعاً قول الحق الأعلى سبحانه « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » ^(٢) ، نعم « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » ^(٣) .

فاللهم : لطفاً بعبادك وهداية ... !!

الفرق وعقيدة البعث

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، فقلها نجد سورة من سوره - إذا استثنينا بعض قصار المفصل - ألا تذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ، ما بين تذكير وبيان وضرب للأمثال ونفي للشبه وغير ذلك .

ولنمّا عنى القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح فى العالم ، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين :

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حباً فى الخير والصلاح ، كما يترك الشر والفساد كراهية فى الشر والفساد ، فهو لا يلتبس جزاء ولا شكورا حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعزف عن الفساد ، ولنمّا يترك هذا ويفعل ذاك مجازاة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا .

(٢) وصنف يعمل الخير ، ويترك الشر ، ناظراً إلى الجزاء مقدراً أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التى تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد ، أما الصنف الثانى فإنه الكثرة الغالبة والشأن فى الناس ، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية ، كل منهم يريد أن يكون متمتعاً بالخيرات والحسنات ، بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذى يرجو من وراء الاستقامة رضا الله ، أو رضا الناس ، دون نظر إلى نفع مادي اكتفاء بحسن الاحدوثة ، وطيب الذكر .

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار داراً ، يرى فيها المرء جزاء

عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق ، لينظروا إليها ، ويقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها . فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها إيماناً لا يخالجه شك ، لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتحلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريه الشك في البعث ودار الجزاء ، ويستنم إلى الحاضر والواقع الذي يعيش فيه ، ولا يلبس سواه ، فلا يصدق أنه سيبعث بعد الموت ، وأنه سيعرض للحساب .

* * *

وإنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور .
 (١) إما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتاً بعث من رمسه ، وعادت إليه الحياة كرة أخرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .
 (٢) وإما استبعاده واستعظام أمره ، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتحلل وتفسد وتفتى في الأرض وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عتموهم تسلم في سهولة ويسر أمر عودتها وتركبها وصيرورتها جسماً حياً يسعى ويدرك .
 (٣) وإما كونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس ، وليس وراءه مصلحة ترجى .
 (٤) وإما العناد في أمره ، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان .

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله ، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم .
 (١) فقال للذين حسبوه مخالفاً للسنن المألوفة : إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامة ، فينزل الله عليها الماء ، فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات ، وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » .

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول مبعثه إذ يقول « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما يستيقظون » ، وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالإنبات إلى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة ، « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذاكم الله فأنى تؤفكون » .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت إلى نظائر البعث والنشأة فى ألف الناس .
(٢) وقال للذين يستبعدون ذلك ، ويستعظمون أمره : إن الله لا يعجزه شئ ، وليس شئ عليه بمستبعد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق ، وأنشأه من العدم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » ، « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ، « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ، « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق ، وترد عليهم فى استبعادهم الأمر ، واستعظامهم إياه فى مثل قولهم « أيعدكم أنكم إذا متم

وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة ، ولا تقتضى به حكمة « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله المؤمنين . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » « أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر حكمة البعث ، ورجوع الناس إلى الله ، فى يوم مشهود ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً .

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابههم بالدعوى ويكررها عليهم ، ويقسم عليها فى مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله ، كما لو كانوا يشاهدونه لإشعارهم بأنهم يكابرون فيما يعملون ، وأن الله لا يعول على مكابرتهم ، بل يسوق لهم الكلام فى هذا الشأن حسب الواقع الذى يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « زعم الذين كفروا أن لن يعشوا قل بل وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم » ، « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق . قالوا بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ، « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفي خلق جديد ، بل هم بقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ، ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » . إلى غير ذلك من الآيات التى تصور أحوال القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعترافهم بعد رؤية العذاب .

* * *

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرر على كل مؤمن عتيدة من عقائد الحق التى لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلاً ولا شقاقاً ، ويستقصى كل ما يدل عليه ، ويثبتته فى القلوب ، ويزيل عنه الشبهات .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

للمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

بعد الكلمة الأولى التي رأينا التمهيد بها للحديث عن رأى الشيخ الرئيس فى بعض مشاكل العصر الحاضر الذى نعيش فيه ؛ هذه المشاكل التى يأخذ بعضها مِنّا بالحنّاق ، ونذهب نتلمس لها حلولاً من هنا أو هناك ، متناسين ما للإسلام من فكر وفقه فيهما غناء أى غناء فى كثير من مشاكلنا وأمورنا العامة ! نقول بعد هذه الكلمة ، نتكلم اليوم عن رأيه فى مشكلة العمل والبطالة ، أو مشكلة الضمان الاجتماعى . وسنرى هنا أنه أتى ، وهو بسبيل علاج هذه المشكلة ، بأراء لم تسدّ تُعرف إلا فى هذا العصر الحديث ، ومع هذا يحسبها العامة وأشباه العامة فى تاريخ الفكر من مخترعات فلاسفة أوروبا ومفكرىها .

وهو يبدأ الحديث فى هذه الناحية ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يمكن أن يعيش عيشة طيبة لو انفرد وحده ولم يشارك غيره من بنى جنسه فى حياتهم ومجتمعاتهم . ذلك بأنه لا بد من أن يكون الإنسان مكفياً فى كثير من حاجاته وأموره بآخرين من نوعه ، كل منهم يخدم الآخر فى ناحية من نواحي الحياة المادية أو المعنوية . ومن أجل هذا ، كان الإنسان - من قديم الزمن حتى الآن - مضطراً إلى عقد المدن وتأسيس المجتمعات ، حتى يكون البعض لبعض وإن لم يشعروا خدم^(١) .

[١] هذه الفكرة نجدها قبل ابن سينا لدى الفلاسفة والمفكرين الذين نظروا فى الاجتماع . فأفلاطون ، فى المقالة الثانية من الجمهورية ، يرى أن الاجتماع ظاهرة طبيعية سببها عجز الفرد عن القيام وحده بكل ما يحتاجه . وأرسطو ، فى المقالة الأولى من كتاب السياسة ، يقرر أن الذى لا يحتاج لغيره إما بهيمة أو إله . ويرى مسكويه فى كتابه الفوز الأصغر أن الإنسان لم يخلق لخلق من يعيش وحده ، ويتم نه البقاء بنفسه . والغارابى يؤكد هذه الفكرة فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة على ما هو معروف .

ويخلص من ذلك بتقرير أنه لا بد لإدأ في وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ، وأنه لا تتم هذه المشاركة إلا بمعاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا بد في المعاملة من أن تكون على أساس من سنة وعدل ، ولا بد للسنة من شارع يجيء بها من لدن الله جل وعلا ، وهذا لا بد أن يكون إنساناً ؛ والنتيجة لهذا كله بيان أنه من الضروري أن يوجد نبي يرسله الله للناس بهذه السنة والشرعة ، وأن يكون هذا النبي إنساناً من الناس لا ملكاً من الملائكة .

وعلى هذا النبي ، بعد ما يأتي به من شرائع للناس في العقائد والعبادات والمعاملات ، أن ينظر في ترتيب المدينة (يريد بها الدولة) فيقيمها على دعائم ثلاث : المديرين والحفظة والصناع ومن إليهم ، وهنا نلح في وضوح رأى أفلاطون في هذه الناحية ^(١) ثم يذكر أن كل طبقة من هذه الطبقات يكون عليها رئيس ، وهذا الرئيس يكون تحت أمره رؤساء دونه مرتبة ، وهكذا حتى نصل إلى إقناء الناس ، وحينئذ يكون لكل فرد عمل معروف ومقام محدود ، وإذا فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل .

على أن الشيخ الرئيس لم يكن بالفيلسوف النظري الذي يضع القواعد ولا يفكر في الوسائل والتطبيق لما رأى ، نعم ، لم يكن بالمفكر الذي يتعمى عما حوله ، ويتجاهل واقع الحياة وأحداثها ، إنه برغم ما جعله لكل فرد من أبناء الأمة من عمل محدود معروف حتى لا يتعطل أحد عن العمل الذي به يكسب عيشه ، رأى أن هناك متعطلين بالفعل لهذا السبب أو ذاك من الأسباب التي تختلف من آن لآن .

[١] حقيقة لقد استلهم ابن سينا أفلاطون في هذه الفكرة في كتابه الجمهورية المقالة الثانية . وظاهر أن كليهما نظر في هذا إلى الإنسان وقواه الثلاث ، وإلى الترتيب الطبيعي الواقع في أي مدينة من المدن .

إلا أن الشيخ الرئيس خالف أفلاطون فيما رآه من الشيوعية في المال والنساء بالنسبة للحكام والجند ، ونعتقد أن ابن سينا وقد اتبع في رأيه الشريعة الإسلامية ، تأثر بأفلاطون نفسه حين رجع عن هذه الشيوعية في كتاب القوانين المقالة الخامسة ، وبأرسطو حين نقد رأى أستاذه مبنياً ما يكون من ضرر شديد في التضحية بالملكية الخاصة والأسرة في سبيل الدولة ، انظر في هذا كله كتاب السياسة المقالة الثانية . إن المعلم الأول يرى بحق أن الشيوعية في النساء وما ستنتج من الشيوعية في الأولاد تضر ضرراً كبيراً بهؤلاء وأولئك ، وكذلك الشيوعية في المال تجلب هذا الضرر العام .

ولهذه نجده يقول إنه إن وجد فعلاً جماعة متعطلون عن العمل ، وتمادى بهم الزمن ولو بعض الوقت على هذا الحال ، يجب أن ننظر في أمرهم ، فإن كانوا قادرين على العمل ، وكان العمل موفوراً لمن يريد ، وكان الطريق إليه ميسوراً ، وإنما الامتناع عن العمل يرجع إلى الكسل ، كان من الضروري على الدولة ردع هؤلاء الكسالى وتأديبهم وسجنهم إن لم ينفع فيهم الردع والتأديب ؛ ومن هنا ، نرى في وضوح أن صاحب كتاب الشفاء كان يحرم التسول تحريماً باتاً ؛ التسول الذى صار داء من أدوائنا الاجتماعية ، بل صار مهنة تدر على من يمارسها أضعاف ما يدره العمل الشريف ، وبخاصة وجمهرة المتسولين قادرين على العمل ، ولكنهم لا يريدون ما دامت الحكومة غير جادة فى أخذهم بالحزم .

وإن كان السبب فى البطالة لا يرجع إلى الكسل ، بأن كان العمل غير ميسر لكل من يريد ، أو كان السبب فى البطالة المرض أو الشيخوخة أو ما إلى ذلك بسبيل ، كان الخالى من العمل معذوراً ، وكانت الدولة ملزمة بتوفير الحياة المناسبة له ؛ وسبيل هذا كما يرى الفيلسوف العملى ، أن يجمع هؤلاء الذى لا يستطيعون العمل فى مكان خاص ، وهو الملجأ بلغة العصر ، وأن يجعل عليهم قيم ينظر فى أمورهم ويدبر أحوالهم .

ولا بد فى هذه الحالة من مال يتفق عليهم منه ، وبه تصلح أمورهم ؛ هذا المال يجب ، فى رأى ابن سينا ، أن يجمع من ضرائب تفرض على الأرباح الطبيعية والمكتسبة ، يدفعها الأغنياء والقادرون على العمل ، والذين يرغبون مما يعملون شكراً لله على ما جباهم به من نعمة وفضل ، كما يجمع هذا المال من عقوبات تفرض على الذين يخالفون أمر الله وشريعته ، ومن شئ من بيت المال العام . وهنا أذكر أننى لست بالذى يسرف فى تمجيد الماضى ، لأن الزمن قد أكسبه جلالة وقداسة ، ولا بالذى يبخس التفكير الحاضر لأنه لم ينل بعد من الزمن بعض الجلال ، ولكنى اعتدت أن أنظر للقول لا للقاتل ، ثم يكون بعد هذا الحكم والتقدير .

وعلى هذا الأساس نجد تفكير ابن سينا منذ أكثر من ألف عام أو يزيد لا يكاد ينقصه شئ مما وصل إليه المفكرون المحدثون المعاصرون فى هذه الناحية . فقد لاحظ أن الله - جلت حكمته - لم يُسوِّ بين الناس فى حظوظ المال والثروة ،

كالم يسو بينهم في حظوظ العقل والمسلكات والقدرة على العمل ؛ ومن ذلك كان لا بد أن يكون كل مجتمع على طبقات مختلفة . وهذا ليحس كل فرد من أفراد المجتمع الحاجة لأخيه ، ويعين بعضهم بعضا ، فيقوم المجتمع وتصلح الحياة . ومن ثم ، نرى فيلسوفنا يقرر أن لكل من أفراد المدينة عملا يناط به أدائه ، ومنزلة يضع نفسه فيها ، وتكون النتيجة أن يعمل الجميع ويحيا الجميع حياة طيبة .

ولكن ، وهنا الناحية الواقعية في هذا الجانب من فلسفة ابن سينا ، نراه يلاحظ أن أى مجتمع قد لا يخلو من أناس يضطرون للبطالة ، وأن هؤلاء الناس إخواننا في الوطن والإنسانية ، وإذا يجب عونهم وتوفير الحياة المناسبة الشريفة لهم في مكان يعيشون فيه ، وتتولى الدولة الإنفاق عليهم على ما عرفنا .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن فيلسوفنا كان رجلا عمليا حقا ، بجانب كونه فيلسوفا نظريا ممتازا ؛ إذ فكر في المشكلة وفي حلها أيضاً . وفي سبيل هذا الحل الموفق غاية التوفيق ، نراه يتحرر من بعض ما كان يسود أيامه من آراء بعض الفقهاء . إنه لم يقل معهم بأن المرء متى دفع ما عليه من زكاة خلص من جميع ما عليه من حقوق مالية لوطنه وإخوانه ؛ بل إن عليه بعد هذه الزكاة المفروضة أن يسهم بنصيب من أرباحه للمعوزين ، ليقوم التضامن الاجتماعي بين أبناء الوطن الواحد . ولم يقل أيضا مع هؤلاء الفقهاء بأن معصية الله لها عقابها في الدار الآخرة فقط ^(١) ؛ بل رأى ، بجانب ما سيكون من هذا العقاب الأخرى ، فرض نوع من العقوبات المالية للإنفاق منها على من تقطعت بينهم وبين العمل الأسباب وكانوا معوزين .

ذلك بأن هذا الفيلسوف كان يعرف من الواقع والتجربة أن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، وأن هناك من لا يتذوقون أول الأمر حلاوة الطاعة لأمر الله ونهيه ، ومن ثم يكون الخير أحيانا في فرض عقوبات — بعضها مالى — على من لا يتقف عندما أمر الله ونهى ، فليس — كما يتوول — كل إنسان بنزجر لما يخشاه في الآخرة ؟
(الحديث موصول)

(١) من المعروف أن بعض المامضى لها جزاؤها الذي هو المعروف في كتب الفقه بجانب الجزاء الأخرى . ولكن هنا أريد الإشارة لطرافة رأى ابن سينا في فرض عقوبات مالية مع هذا كله .

الفران الكريمو واللغة

وأيهما يؤيد الآخر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يلتقي الباحثون في القرآن الكريم ، بمن يؤمنون به ، ومن غيرهم ، في أنه نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر الذي يقطع كل ريب في اتصال سنده ، وصحة متنه ، حتى ما كان من قبيل الأداء ، كالمسند وغيره من مقومات ترتيله وتلاوته .

ويفترقون ، في أن الأولين ، يؤمنون - مع ذلك - بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ، للتعبد بتلاوته ، وللتحدى بأقصر سورة منه ؛ وأنه نزل بلغة قريش ولغات بعض القبائل الأخرى من مضر ، وهى : كنانة ، وأسد وهذيل ، وضبة ، وبنو سعد ، وثقيف ؛ ولاختلاف لهجات هذه القبائل ، اختلفت صور أداء القرآن الكريم ، ونشأت القراءات ، التى هى اختلاف ألفاظ الوحي المذكور فى الحروف أو كيفيتها ، من تخفيف وتشديد ، وترقيق وتفخيم ، وإبدال ، وإمالة ، وغير ذلك ، ولما أمر عثمان رضى الله عنه : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ بكتابة المصحف الامام ، قال للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شئ من القرآن ، فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

ويرى الآخرون ، وهم المستشرقون ، ومن أولع بمذاهبهم فى البحوث والدراسات : أن التمرآن الكريم كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأن تواتره المقطوع به ، يجعله أصدق نص عربى يمثل اللغة العربية الفصحى ، فى العصر الذى تلى فيه ؛ ولما كانت ألفاظ اللغة ، التى دونت فى معاجمها المختلفة فى العصر العباسى وما بعده ، إنما رويت آحادا ، وفى نصوص قوى الشك فى أنها منحولة ؛ فأن النص القرآنى يجب أن يكون « الحكم » فى متن اللغة ، لا أن تكون اللغة « حكما » فى نصوص القرآن .

ونحن - وان كنا لا نزعم أن الفاظ اللغة قد رويت بالتواتر - نعلم أن حرص المسلمين في العصر الأول ، على فهم القرآن الكريم ، كان أقوى من حرصهم على الحياة ، وأن سييلهم إلى هذا الفهم ، ملكاتهم وتبعهم للألفاظ الواردة في كلام القبائل التي نزل القرآن بلغاتها ؛ ومضى الأمر على ذلك ، عصر بني أمية ، وصدر من عصر بني العباس ؛ حتى إذا اشتد الاختلاط ، وفشا اضطراب الملكات ؛ وأراد علماء البصرة والكوفة - رثا الاسلام ، ومبائه - تدوين اللغة ؛ عمدوا إلى أخلص العرب لسانا ، وأنآهم عن العجمة دارا ، فأخذوا عنهم : أخذوا أكثر اللغة من قيس وتميم وأسد ، واتكلوا عليهم في الغريب والإعراب والتصريف ؛ ثم من هذيل وبعض كنانة ، وبعض طي^{*} ؛ ولم يأخذوا من لخم وجذام ، لمجاورتهم أهل مصر القبط ؛ ولا من قضاة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ؛ ولا من تغلب والنمر ، لأنهم كانوا بجزيرة - قور - بين دجلة والفرات ، مجاورين لليونان ؛ ولا من بكر ، لمجاورتهم النبط والفرس^(١) ؛ ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ؛ ولا عن أهل اليمن ، لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة ، صادفهم قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

وكان الرواة وعلماء اللغة ، يرحلون في طلبها إلى البادية ، ليأخذوها عن مصادرها مشافهة وسماعا ؛ وأقدم من فعل ذلك ، يونس بن حبيب الضبي ، المتوفى سنة ١٨٣ ، وخلف الأحمر ، المتوفى سنة ١٨٠ ، والخليل بن احمد ، المتوفى سنة ١٧٤ ، وأبو زيد الأنصاري ، المتوفى سنة ٢١٥ . وكانوا يطلبون جفاة الأعراب ، وأهل الطبائع المتوقفة ، ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرتها وكان الأعراب كذلك ، يطردون على الحضر من البادية ، فيتلقى الرواة ، وعلماء اللغة عنهم نواذر اللغة وغريبها ، ويحكمونهم فيما اختلفوا فيه ؛ وينزلون على أحكامهم ؛

[١] نبط ، بفتح نين = جيل ينزلون البطائح بين العرافين ، والواحد نبطى ، سموا نبطا ، لأنهم استقبطوا ما يخرج من الأرض ، ولغتهم المربانية .

ذلك لأن الاعرابي القح ، لا ينطق بغير لحن قومه ، وإن كان أفصح منه ، إلا إذا داخله الضعف ؛ والروايات في ذلك متعائلة مشهورة .

وكانت الحرب الجدلية اللغوية بين السكوفة والبصرة دائمة الاستمرار ، يزيد بها اشتعالا ، أن أهل السكوفة شيعة ، وأهل البصرة نواصب ؛ وأجمع العلماء على أنه لا معول في رواية اللغة على أهل السكوفة ، لتعلمتهم بالشواذ ، ولوضعهم الأشعار ، من صنع حماد الراوية ، ومعه أبو البلاد ؛ أما أهل البصرة ، فقالوا : إن منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة ، وهم : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعي ؛ وذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا بحفظها ، فقالوا : إن الأصمعي يحفظ ثلث اللغة ، والخليل بن أحمد يحفظ نصف اللغة ، وأبو فسيّد السدوسي ، تلميذ الخليل ، يحفظ الثلثين ، وأبو مالك بن كركرة الاعرابي يحفظ اللغة كلها ، وكان يحفظ الغريب والنوادر ، وهو المراد من اللغة .

أقول : إن هذا التحرى البالغ في تدوين اللغة ، والتدقيق في تحملها ونقلها ؛ وهذه اليقظة التي لا تنام ولا تغفل عن حياطتها وتنقيتها من الدخيل والمدسوس ، والموضوع إلى الملسكات الطبيعية ، أو القرينة من الطبيعة ، التي كان يمتاز بها رواتها ؛ تعطى اللغة من القوة والصحة ، ما يقرب مما يعطيه التواتر ؛ والقرآن هو الذي طرأ على اللغة ، فكانت الحاجة إلى التواتر في نقله ألزم ؛ ثم هو مع ذلك دين أو معجزة مقررّة للدين ، بخلاف اللغة ، فإنها - وإن كانت وسيلة له ، واجبة بوجوبه - ثابتة مقررّة ، لأنها لسان المتحدى والمتحدى ؛ على أن في تواتر القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، تواترا ضمينا للغة ، يقطع كل جدل ، وكل شك في صحتها ، ونهوض حجيتها .

فليشك المستشرقون وغير المستشرقين في بعض الأشعار أو في أكثر الأشعار وليتهموا بعض الرواة أو أكثر الرواة ؛ فإنهم جميعاً لن يأتونا بجديد لم يتنبه له رجال اللغة وعلمائها ، وينهبوا غيرهم عليه ، ويقرروا بإزائه من ضروب الوقاية ، ما يصده وينفيه .

— ونحن معاصر الأزهرين — قد تواردنا على تقديم القرآن الكريم على

كل نص سواء تشريفاً وتكريماً ؛ ومن هذا الذى يقدم كلام المخلوق على كلام الخالق ؟ ! بيد أنى لا أتكلم الآن فى الكرامة والشرف ، وإنما أعرض للقرآن واللغة من ناحية دلالتهما على المنهج العربى ؛ أو بعبارة مشهورة : من ناحية الاستشهاد على قواعد النحو ، وهل النصوص العريضة أقوى فى تأييدها ، أو النصوص القرآنية ؟ !

يقول المستشرقون : النصوص القرآنية أقوى ، لروايتها بالتواتر ، ورواية اللغة أحاداً ، ولأن المسلمين فى العصر الإسلامى وما بعده ، قد منعوا رواية كل ما ناهض الدين من معارضة وغير معارضة ، وأنا أرد الجزء الأخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر .

هلا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى المباح
ونهى عن رواية قصيدة الأعشى فى مدح عامر بن الطفيل :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر ؟
ومع ذلك رويت القصيدتان على وجهيهما .

بل لقد روى فى صحيح البخارى بيتاً عبد الله بن الزبيرى فى قتلى بدر .

وماذا بالقلب ، قلب بدر من الخيرات ، والنعم الجسام ؟ !
وماذا بالقلب ، قلب بدر من الشيزى تكمل بالسنام ؟ !

ويقول الأزهريون : النصوص القرآنية أقوى ، لشرف القرآن وجلاله ؛ ثم لوروده على أفصح اللغات العربية ؛ فهم يوافقون المستشرقين فى الحكم ، ويسخرون من مقدماته عندهم ، لما أسلفنا قريباً ، من أن النصوص العربية ليست مدخولة كلها ، وأشعارهم ليست منجولة كلها ؛ لأن تحرى الرواة ودقتهم ، وضعت لكل عقرب حجرها ، ورفعت لكل آية عليها ، ونصبت لكل درب صواه ، مما أقام منار الحق ، وهدى إلى قصد السبيل .

فأما الضعيف الذى هو أنا ، فإنى - مع استعدادى للرجوع إلى الحق - أرى أن النصوص اللغوية الصحيحة ، أقوى فى الاستشهاد على قواعد النحو ؛ والدليل على ذلك واضح ميسور ؛ فإن القرآن الكريم ، معجزة الرسول الكريم ، رسول

الإسلام : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرهانه الذي قام ويقوم على صدق رسالته ، بتحديه للعرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، مما قالوه ، ومما تزهلهم نحائزهم ، لأن يقولوه ، من منشور ومنظوم ؛ وهذا يوجب طبعاً ، أن يكون لهم كلام عرف وعرفت أسرارده وخصائصه البلاغية ، وأساليبه في الإفصاح والبيان ؛ حتى تكون الحجة أقوى ، والعجز أمامها أبلغ ؛ ولا يضيرنا فتمدان بعض ذلك الكلام ، قل أو كثير ؛ ما دام الخصم لا يستطيع أن يدعى أن جميع كلام العرب قد فقد ، ولم يبق إلا القرآن ؛ هذا القليل أو الكثير الذي بقي من كلام العرب ، لا نزاع في أنه الأصل الذي يقاس به القرآن ، حتى تصح الموازنة التي أوجبهما التحدى ؛ وما كان أصلاً ، يجب أن يكون الدليل المقدم .

ومما أستأنس به لذلك ، أن العلماء قد اتفقوا على أن القرآن في أعلا درجات البلاغة ؛ ثم اختلفوا : أختلفوا مراتبه في البلاغة ، أم لا تتفاوت ؟

قال القاضي عياض : لا تتفاوت ، وكل كلمة فيه موصوفة بأنها في الذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحس إحساساً من بعض .

وقال القشيري وغيره : تتفاوت ، ولا ندعى أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة .

وقال الجزري : لو جاء القرآن كله بالأفصح . لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب ، من الجمع بين الأفصح والفصيح ؛ فلا تتم الحجة في الإعجاز ، إذ يقال - مثلاً - إنه قد جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ؛ كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظري ، لأن الأعمى يقول له : إنما تم لك الغلبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري ، أما إذا فقد أصل النظر ، فكيف تصح مني المعارضة ؟



وإن المستشرقين ومن شايعهم - وإن طعنوا في صحة ما روى عن العرب من الخطب ؛ ومن أشعار الين وربيعه - يقبلون شعر مضر ، ويعرفونه بخصائص ومميزات لا تشبهه ، ولا تخفى على تمام الأدب ورواته في الجاهلية والإسلام ؛

الخير باق في الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ بالمعالي

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من أكل طيباً ، وعمل في سنة وأمن الناس بوائقه ، دخل الجنة ، قالوا :
يا رسول الله ، إن هذا في أمتك اليوم كثير ، قال : وسيكون في قوم بعدى » .
رواه الحاكم .

ولا يضيره أن تأخر تدوينه ؛ فإن النقل بطريق الرواية أصح وأفضل عند علماء
الإخباريات ، من النقل بطريق الكتابة ، لضعفها وإشكالها ، بخلوها من الأبحام
والشكل ، وغلبة الأمية على أهل البداوة بوجه أخص ؛ بل إن علماء اللغة كانوا
إذا ارتابوا بفصاحة أعرابي ، ممن يطردون على الحضر ، وظنوا أن جلده قد لان ،
وذهب جفاؤه الذي يعدونه مادة الفصاحة ، وضعوا له قياساً غير صحيح ، فإن نطق به
طرحوه ، وإذا وجدوا من أولئك الأعراب من يفهم اللحن وعلل الإعراب ،
بهرجوه وزيفوا طبعه ، وطرحوا لغته ، كما يفعلون بمن لم يخلص منطقة . ذكروا
أن أبا عمرو بن العلاء ، استضعف يوماً فصاحة أبي خيرة العدوي الأعرابي ،
فسأله : كيف تقول : حفرت الإران ؟ فتمال حفرت إراناً . فتمال له أبو عمرو :
ألان جلدك - يا أبا خيرة - حين تحضرت ؟ !^(١)

وأخيراً ، رحم الله أبا حفص الفاروق المحدث . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
ورضى الله عنه ، إذ يقول ما معناه :

عليكم بأشعار العرب ، ففيها تفسير كتابكم ، لأنه إنما نزل بلسانهم .

[١] أخطأ أبو خيرة ، لأن الحفرة التي يخبز فيها ، يقال لها : إرة وتجمع على إرين . كعرة
وعزين . . وأما الإران فغضب التعش . وانظر الجزء الأول من الخصائص ، لأبي الفتح بن جني .

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا بشيراً بالخير ، ويا دليلاً على الهدى ، ويا داعياً إلى اعتناق الفضائل والمكرمات .

صغت سعادة الدنيا والآخرة فى كلمات ، وجمعت جمال النفس ، وجلال البر ، وخالص العمل ، وحسن الأحذوثة ، فى حديثك العذب المذاق ، فوجهت أمتك إلى شمائل الفضل ، محكمات ، منسقات ، تزدان متماسكة متجاذبة ، وتزدان متناثرة متألفة ، فهى كعقود السكواكب المزدهرة فى زرقاء السماء الصافية ، فى تجمعها جمال ، وفى تألقها جلال ، وفى نثارها بريق يزهر به المشرق ، ويعتز به المغرب ، ويتجاوب لمعانه ودورانه بين الجنوب والشمال .

تلكم هى الحكمة فى أسلوبها ، وهى العظمة من ينبوعها ، وذلكم هو المجد فى توجيه الرسول الحكيم .

من أكل طيباً حللاً ، من عمل يده ، أو مما ورثه ، فى غير حد يتجاوزه ، أو غش يخدع به ، أو غبن يدفع إليه ، فهو الأبى المترفع ، وهو الرحيم المتعفف بأبى أن يطعم بما لا يحل له ، ويرتفع عن أن يسف إلى دنية يتبلغ بها ، ويشفق أن ينتزع اللقمة من فم المجهود حتى لا يبيت طالوياً ، ويعف عن كل شبهة تشوب الرزق الحلال حتى يصفو من كل كدورة تتغشاها ، فهو يقنع بالقليل ، متمثلاً بقول الشاعر :

إن القناعة والعفا ف ليغنيان عن الغنى

فإذا صبرت عن المني فاصبر فتمسد نلت المني

فأما الآثم الظالم ، وأما الشره الطامع ، وأما المتكالب المغرور ، فذلك إلى قسوة عنته ، له سعي من بغض من حوله ، وعليه وزر يئوه به من سوقه ، وبين يديه غضبة من الله تزلزل من ذات نفسه ، وتذك من حائق جبروته ، وتطوى ما جمع من مال ، فتضيقه عليه فى حسرة ، وفى نكال .

أيها الغاشون : الله ورسوله يبرآن منكم ، والظالمون : ويد الله فوق أيديكم ، ويا أيها الوالغون فى دماء الفقراء تمتصونها وتعتصرونها . أيها الراجحون فى السوق السوداء ، المتجرون فيما احتكرتم ، لتملأوا خزائنكم ، وتذهبوا بالكثير

والقليل ، رويداً ، فما أنتم بأشد قوة ، ولا أكثر جمعاً ، ممن نكس الله عتوهم ، وخسف بهم ، فاعتبروا ، وازدجروا ، وإلا حلت عليكم كلمة العذاب . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به » . رواه الترمذى وابن حبان في صحيحه ، وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغنى بالحرام فأنى يستجاب له » ؟؟

أما من عمل في سنة ، فهو ذلك المهتدى بهدى رسول الله ، الآخذ عنه سمته وتقواه .

من شأنه : مراقبة في العبادة ، وإحسان في المعاملة ، وزهد عما في أيدي الناس وثقة بالله ، واصطبار على الأحداث والنازلات ، وقناعة تسلم النفس إلى الطمأنينة والأمان ، وترفع عن الدنيا ، وبعد عن الريب ، وحلم لا يضيع حقاً ولا يغري بمفسدة ، وحزم يضع الأمور في موازينها ، ليقضى لها أو عليها ، وعزيمة لا تفتقر ولا تهين حتى تبلغ هدفها ؛ كل ذلك في حسن القدوة ، وجمال الأسوة ، « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وأما من أمن الناس بوائقه « شره » فهو الأمين في الغيب والشهادة ، الكريم صحبة ، والسليم طوية ، والكاف عن الأذى لسانه ويده ، وغمزه ولمزته ، الذي لا يقع في عرض ، ولا يتمرغ في كذب ، ولا يستمرىء الطعن والسكيد في خفاء ، وفي نذالة ، وفي تبذل ... شأن اللص الجبان الرعيد ، لا يكاد يواجهه النور ، ولا يسرق إلا من وراء ستار .

من أمن الناس بوائقه فاز بحبهم ، وزكا بحمدهم ، وظفر بتأييدهم ، وحب الناس آية حب الله ، وحب الله غاية كل مؤمن .

من أمن الناس بوائقه أمن هو في سربه ، وأفسح لنفسه في مكان العزة عند الله - الذى يعز المؤمنين - وبين الأعزة الأكرمين .

فن تحلى بالخير ، وتجمل بالمكرمات ، وصبر ، وصابر ، كان من نفسه فى سمو وقوة ، وفى جمال وجلال .

قال الشاعر :

هى النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجليل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

وبعد :

فهذه أوصاف ثلاثة ، من تحلى بها دخل الجنة ، مصداقا لهذا الحديث النبوى الكريم الذى لا ينطق عن الهوى .

طيب الطعمة ، وعمل بالسنة ، وكف عن الأذى .

ولقد كانت بشارة هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ، أن مد الخير فى الناس ، فلم يقصر الاتصاف بتلك السمائل على من كان فى عهده وبين صحابته - رضوان الله عليهم - حين قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : « وسيكون فى قوم بعدى » .

سيكون الخير فى الناس ، ويكون البر ، وتكون القناعة ، ويكون الاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكون الطعمة حلالا ، والكسب حلالا ، والقناعة موفورة ، والذمة مكفولة ، والناس فى أمن وأمان .

وليك يا رسول الله ، ثم ليك ؟

المسلمون والتصوير

لمحاضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مقدمة :

إن موضوع التصوير في المراجع العربية ، وأقصد بالذات كتب الفقه الإسلامي من الموضوعات غير الوافية . والمستعرض لتلك المراجع يتنقل من كتاب الى آخر دون أن يجد فرقا محسوسا أو تباينا ملموسا بين كتاب وكتاب . فالمتقدم أخذ عنه المتأخر وهذا الأخير لم يزد على ما نقل شيئا حتمته ظروف الحال ، ولا تغير الزمان والمكان . والمسألة تنحصر في بعض تفسيرات بسيطة سطحية ، أو تأويلات نقلها الخلف عن السلف ، لذلك لا يجد الباحث في موضوع التصوير شيئا له قيمته في تلك الكتب القديمة ، كما لا يجد رأيا يمكن اعتباره فيصلا في المشكلة .

على أنى لا أنشد استكمال هذا البحث في تلك الكتب من الناحية الفنية وإنما أقصد الوصول الى رأى الفقهاء في مسألة التصوير من ناحية تحليله أو تحريره . وأقول رأى الفقهاء لأنى أعتقد أن الإسلام ترك هذا الموضوع لعدم أهميته ، وكل ما هنالك بعض أحاديث تناولها فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق فحرموا أو كرهوا أو أجازوا عمل التصوير أو اقتناءها أو النظر إليها .

لذلك أعتقد أنى أقرب الى الصواب إذا قلت : رأى الفقهاء في التصوير ، أكثر من قولى : رأى الإسلام في التصوير ، لأنى لا أجد في القرآن ولا في الحديث نصاً صريحاً يحرم التصوير ولا تفسيراً صحيحاً يشرح الفرق بين التصوير والتثيل (عمل التماثيل) ولا علة مقبولة لتحريم ما اتفق المسلمون على تسميته بالصور أو التصوير .

القرآن والتصوير :

يهم الباحث في موضوع التصوير أن يعرف ما ورد في القرآن الكريم من

آيات تحرمه أو تحلله ، وسأعرض لتلك الآيات لأصل في النهاية الى مشكلة التحريم أو الإباحة وهل وردت في القرآن أم لم ترد .

لعل أغلب القائلين بتحريم التصوير من المستشرقين يجمعون على أن القرآن قد نص على ذلك في سورة المائدة عند قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تفلاحون » . وقد فسر هؤلاء كلمة « الأنصاب » بالتصاوير ووصفوها بأنها رجس . وقال النسفي : « إن الأنصاب هي الأصنام ، وكونها رجس لأنها تنصب فتعبد » . وإذن يمكن أن نقول إن وصفها بأنها رجس وأمر المؤمنين باجتنابها راجع الى كونها تعبد من دون الله ، فإذا لم تعبد فإنها كما اعتقد لا تكون رجسا ويجوز للمسلمين أن يزاولوها . وقال النسفي أيضا في تفسير قوله تعالى : « وما ذبح على النصب » . أن كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون إليها » . ولعل في ذلك ما يشير الى أن هذه الأنصاب كانت أحجارا ولم تكن صورا ولا تماثيل ، ويؤيد ذلك قول الزمخشري في أساس البلاغة مادة « نصب » : (ونصب حول الحوض نصائب وهي حجارة تجعل عضائد له . وكانوا يعبدون الأنصاب وهي حجارة تصب عليها دماء الذبائح فتعبد) .

وجاء في تفسير القرطبي لتلك الآية ما يأتي : (وقيل « على » بمعنى اللام ، أى لأجلها . قال قطرب قال ابن زيد : ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله شيء واحد) . من هذا يمكن أن نقول إن الآية لا تعرض للنصب بتحريم أو تحليل وإنما تعنى بالذات ما ذبح على تلك النصب وتحرمه لأنه قد أهل به لغير الله سبحانه وتعالى . وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر .. الآية .. » إن المقصود بالأنصاب : الأصنام . وقيل هي النرد والشطرنج . على أن القرطبي مع شهرته بالعناية بتفسير آيات الأحكام ، لم يتعرض لموضوع الأنصاب في هذه الآية وإنما أخذ بالرأى الذى يفسرها بأنها النرد والشطرنج ، وأوضح ذلك في تفسير قوله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » [سورة يونس] .

وتتصل سورة سبأ بهذا الموضوع من ناحية أن التماثيل كانت في شريعة سليمان عليه السلام ، مباحة لا حرمة فيها . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

قال النيسابورى فى شرح كلمة « تماثيل » : « والتماثيل صور الملائكة والنبين ، كان يأمر بأن تعمل فى المساجد من نحاس وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . وقال الألوسى : « وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات محذوفة الرؤوس مما جوز فى شرعنا ، ولا يحتاج إلى التزام هذا لأن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن فى ذلك الشرع . ثم قال : وحكى مكى فى الهداية أن قوماً أجازوا التصوير واحتجوا بهذه الآية » .

هذه خلاصة آراء المفسرين للآيات التى تمس عن قرب أو عن بعد موضوع التصوير ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن قد نص صراحة أو ضمناً على تحريم التصوير . ولا يمكننا أن نقبل فى تساهل تأويلات المفسرين ، لأن التأويل « وجهة نظر » ووجهة النظر تختلف باختلاف الأفراد والأحوال . ولو أن لمشكلة التصوير ما لغيرها من الأهمية كمشكلة الخمر ومشاكل الزواج أو الطلاق أو الميراث ، لنص عليها القرآن صراحة كما نص على غيرها من مشاكل المعاملات والعبادات .

الحديث والتصوير :

أما فى كتب الحديث فإننا نجد بعض الأحاديث التى قد يشتم منها للنظرة الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم التصوير ونهى عنه . على أن فى هذه الأحاديث تعارضاً وفى بعضها ما يفيد أن النبى قد أقر التصوير ولم ينكره .

والذى يمكن أن يخرج به من يمعن النظر فى هذه الأحاديث - على فرض صحتها - أن النبى كان يخشى أن يرجع الناس إلى الوثنية الأولى لو صرح أمامهم بإباحة الصور والتماثيل . بيد أنه حين وثق من ثبات العقيدة فى نفوسهم لم يأبه لتلك الصور بل أقرها . غير أن الشراح قد أخذوا بفكرة التحريم وبالغوا فيها وتناقلوها بعضهم عن بعض . وسأعرض فى اختصار هذه الأحاديث وتعليق الشراح عليها وما يمكن أن يرد به على هؤلاء الشراح .

الحديث الأول : ... عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه . وفى رواية إلا قضبه .

قال الشوكانى فى شرح كلمة « تصاليب » أى صورة صليب من نقش ثوب أو غيره ، ثم قال : « والحديث يدل على عدم جواز اتخاذ الثياب والستور والبسط

وغيرها التي فيها تصاوير ، وعلى جواز تغيير المنكر باليد من غير إذن مالكة ، زوجة كانت أو غيرها . وهذا التفسير الذي ذهب إليه الشوكاني بعيد عن روح الحديث ونصه ، فالتصاليب ليس المقصود منها التصاوير وإنما ما كان على شكل صليب لأن ذلك قد يؤكد ، عند ضعاف العقول ، الرأي القائل بصلب عيسى عليه السلام ، فنقض التصليب لا لسكونه صورة وإنما للفكرة التي يحملها الصليب .

ثم ذهب الشوكاني إلى جواز تغيير هذا المنكر عملاً بالحديث مع أن الحديث لا ينص على هذا ولا يشير إليه . وعلى فرض أن الحديث فيه لفت نظر إلى ازالة المنكر فإنه لا يدل على ما قاله الشوكاني من جواز تغيير المنكر باليد ولو بغير إذن مالكة : زوجة كانت أو غيرها .

والذي أراه أن الشوكاني قد تشدد في شرح الحديث وأغرب في فهمه فحمله أكثر مما يحتمل .

الحديث الثاني : ... عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب .

قال النووي في شرح هذا الحديث (وهو شافعي المذهب) « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث . وسواء صنعه لما يمتن أو لغيره فصنعتة حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار وفلس وإناء وحائط وغيرها . أما تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نقش التصوير . وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان ، فإن كان معاناً على حائط أو ثوب أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتناً فهو حرام ، وإن كان في بساط يداس ووسادة ونحوها مما يمتن فليس بحرام . ولا فرق في ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا في المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم . وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس

بالصور التي ليس لها ظل . وهذا مذهب باطل ، فإن السر الذي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل .
ويظهر في جلاء ان النووي تشدد إلى أبعد حد وانه ذهب مذهب الشوكاني في الإغراب في شرح تلك الأحاديث وفهما . ويمكن في اختصار أن نرد على مقالة النووي بما يأتي :

لقد حرم النووي تصوير صورة الحيوان على الإطلاق لأن في ذلك مضاهاة لخلق الله تعالى ، وإباح تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وهو يعلم أن هذا أيضاً من خلق الله ، بل ان الله سبحانه وتعالى حينما تحدى الضالين من عباده ، طلب اليهم أن يخلقوا حبة أو ذرة أو شعيرة . فلو أن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى لوجب على النووي أن يقول بتحريم كل ما كان من خلق الله تعالى حتى الشجر وجبال الأرض لأن ذلك صورة مما خلق الله . ولأن العيني يقول في شرح « ومن أظلم ممن ذهب يخلق تخلقى » قالها النبي حكاية عن الله سبحانه وتعالى) ، ان التشبيه في كلمة « تخلقى » لا عموم له ، يعنى تخلقى في فعل الصورة لا من كل الوجوه .

وإذن فالنوى بين أحد أمرين : اما أنه لم يصل تماماً إلى معرفة علة تحريم التصوير (لو أن ذلك التحريم كان موجوداً) حين قال إنها مضاهاة خلق الله تعالى ، وإما أنه تساهل وتهاون حين أباح تصوير الشجر وغيره من النبات وجبال الأرض والظاهر ان علة التحريم هي ما لم يذهب اليه النووي أصلاً إذ ليس في مضاهاة الخالق سبحانه وتعالى والتشبه به في محاولة الاتقان والرغبة في الكمال ما يوجب الكفر أو الحرمان ...

وظاهر أيضاً أن النووي لم يفرض ولم يتهاون حين رأى إباحة تصوير صورة الشجر وغيره لأن ذلك مما لا يعقل تحريمه وإنما التحريم منصب على ما يعبد من دون الله . [يتبع]

(مجلة الأزهر) في هذا المقال دراسة أصولية للبحث عن حل أو حرمة التصوير في الإسلام . ولسكنها مع قوتها تحتل التخصيص ، فترجو من غنى من علمائنا المبرزين بمسألة التصوير ، أن يوافقنا برأيه في هذه المسألة .

النفاق الاجتماعي

لفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم علي أبو الحسب

المدرس بكلية الشريعة

النفاق في اللغة الموت ، والمنافق هو الرجل يظهر خلاف ما يبطن ، وقد اشتهر على السنة المحققين من العلماء أن نفاق المنافق ملاحظ في اشتقاقه « نافقاء اليربوع » وهو جحر تحفره في داخل جحرها المعتاد تختفي فيه حين يراد طلبها ، أو السطو عليها ، وله باب سرى تغشيه طبقة رقيقة من التراب أو الحجارة تضربه برأسها لتخرج منه . والجحر العادي يسمى « القاصعاء » وعلى ذلك يقولون في تحديد معنى المنافق ، يظهر غير الذي يبطن . . ونراهم تركوا في ملاحظتهم - الأخذ أو الاشتقاق - المعنى الأول « الموت » مع أنه أولى بالملاحظة ، وأجدر بالرعاية ، لأن المنافق ميت وإن كان حيا ، وحقيق وإن حاول نباهة الشأن ، وسمو المنزلة ، ولا ينسکر ذلك جاحد ، ولا يكذبه مكابر ، وقديما قالوا « مهما تبطن تظهره الأيام » والتاريخ يحدثنا أن المنافقين لم تنطل على الناس حيلهم ، ولم ترج مفترياتهم ، بل كشف الله سترهم ، وأعمى بصائرهم ، وأحبط مكرهم ، وفضح ألعيبهم ، وفي القرآن الكريم تعرض لشؤونهم ، وتفصيل لأخبارهم ، وسرد لما كان يدر منهم من خزي ظاهر ، ونقص مزر ، وتخبط واضح ، وفشل ذريع « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . والتلون شيء آخر يخالف النفاق لأن صاحبه أشبه بالممثل أو « البهلوان » الذي يحذق لعب الأدوار ، وعرض الروايات ، فلا يعدم

أن يلاقى كل إنسان بوجهه ، وأن يحدثه بنغم ، وأن يضرب له على الوتر الذي يرضيه صوته ، ويشجيه إيقاعه ، وهو ضرب من الملق ، ونوع من الرياء ، قلما يكون في غير المنافقين . وواضح جد الوضوح جعل الله سبحانه المنافقين « في الدرك الأسفل من النار » وتشديد العقوبة عليهم الى هذا الحد ، لأنهم غامضون في سيرهم ملتون في سلوكهم ، لا تعلن وجوههم عن دخالهم ، ولا تكشف ظواهرهم عن سرائرهم ، بخلاف الكافر فإنه واضح القصد ، بين الغاية ، معروف الاتجاه ، يقول بلسان حاله ، ما يقوله بلسان مقاله . . .

وإذا كان الدين الإسلامي ينعى على الفرد أن يكون منافقا ، ويرى أن وجوده أشبه بوجود الجرائم التي تضر بالجسم السليم ، وتفتك بالعضو الصالح ، وتودى بما يعتز به من صحة ، أو يباهى به من قوة ، فإنه ينعى على الجماعة أكثر وأكثر ، ويرى أن الوزر الذي تحمله متضامة متضامنة أشد وأنكى مما يحمله الواحد الدائر ، والإنسان المتكرر ، وكان من السنن الكونية القديمة ، إحلال السخط ، ونزول الصواعق . وقلب المدن ، ومسح الأجيال ، وإشاعة الجذب ، واحتباس المطر ، « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبأس ما كانوا يفعلون » ثم قطع عنا ذلك كله تكريماً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، واكتفى بتشديد النكير ، والتوعد بالعذاب يوم القيامة ، إذ يقول « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وذلك لأن الجماعة متى تسرب إليها هذا الوهن ، ودب فيها هذا التخاذل أصبحت غير مرجوة الصلاح ، أو مأمولة النفع ، أو ميمونة النهوض ، وكيف يكون فيها شيء من ذلك والمرض قد استفحل في أوصالها ، وتمشى في مفاصلها . . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبتلى الأفراد بالشر والخير فتنة ، فإن أشد ما يبتلى به الرجل في خلقه أن يكون منافقا ، له ظاهر طلي ، وباطن غير رضى ، يعيش بينهما مذنباً ، ويقضى عمره فيهما مضطرباً ، لا يثق أحد به ، ولا يأمن جانبه ، ولا يطمئن إلى معاشرته ، ولا يستريح لقربه منه ، ولسكنه يطارده مطاردة الحشرات ، ويقاومه مقاومة الحيات . . . ولو صح ما يقول علماء الأخلاق من أن كل انحذار

ينحدره الإنسان مظهر لمرض يكمن فيه ، وعلّة تعثره ، وضعف يسيطر على نفسه ، وخلل يتحكم في حسه ، هيهات أن ينفع فيه علاج ، أو يجدى معه طب ، فإن هذا المرض من الأمراض الخبيثة الملعونة ، لأنها لا تقف بصاحبها إلى حد أن تجلب له مصلحة ، وتدفع عنه مفسدة ، بل يسترسل بها « الميكروب » إلى درجة أوسع ، ومدى أبعد ، وتظل تعمل عملها ، وتؤدى رسالتها في محيط لا نهاية له من الضرر والهلاك .

وقد يكون من الممكن أن يتلافى المجتمع ذلك الإيذاء الذى يناله من فرد شاذ أو أفراد شاذين ، كما نطالع فى المجلات والصحف عن بعض الشعوب المتمدينة ، والأمم الراقية من عزلهم المصابين وحرمانهم من الزواج والنسل ، وبهذا تتخلص من كيدهم وتنجو من خطرهم . . أما الجماعات نفسها فلا يمكن حين يعثرها هذا الفساد التخلص منها ، والقضاء عليها ، اللهم إلا إذا تداركتها عناية الله بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وما أظن أن يكون شئ من ذلك . . لهذا فإن ما تعانيه البشرية الآن من جهل ومرض ، وفقر وخلاف لا يفتى ، ونزاع لا ينقطع ، واضطراب شامل ، وقلق دائم ، وعدوان متكرر ، ليس إلا بعض سيئات النفاق الاجتماعى . ومع أن هذا النوع من النفاق مئوس من علاجه ، فى نظر علماء التربية ، فإن الدين يرى أن الولد باعتباره أمانة فى يد أبيه مطلوب منه أن يحفظها ويرعاها ، ويتعهدا بالتهذيب والأدب ، كما يتعهد الفلاح حقله بالرى والتسميد ، إذا صان خلقه من الانحدار ، ورعى طباعه من الفساد ، وأحاط سلوكه من الالتواء ، خلق منه رجلا كاملا ، وإنساناً فاضلا ، وبهذا يصبح فى البيئات المختلفة جماعات مثالية مرموقة ، يعتمد عليها الوطن ، ويحملها المسؤولية ، ويلقى إليها بالزام . . وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن الوصولية حين طغت على الناس ، والعيش حين ألحّت مطالبه على الأفراد ، جعلتهم يتذبذبون بين الواجب والمصلحة ، والهوى والضمير ، والعقل والطيش ، ورضى الخالق وسخط الخلق ، وداعى الإيمان ، وهواتف الشيطان ، فاللهم حقر الدنيا فى أعيننا ، وبغضها إلى نفوسنا ، ولا تجعلنا عبيدها ، ولا تفتننا بها ، وارزقنا فيها القناعة والزهد ، واجعلها تطلبنا دون أن نطلبها وترغبنا دون أن نرغبها . . فإننا شهدنا لها ضحايا منكورة مرذولة ، واستعدنا بك وحدك ، إنك أنت المولى وأنت النصير .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

نزل أمين الوحي ، وبلغ الصادق الأمين ما بيته التوم له ، وأمره أن لا ينالم في مضجعه ، وأن ينقل مركز قيادته إلى طيبة التي قرر لها أن تكون ردة الدعوة وسند الحق وقصبة الدولة الجديدة ، ومبعث الهدى والعرفان ، ومصدر النصر والعزة ومدينة النور والإسلام .

بعد أن فرطت مكة في مكاتها وتهاونت في مجدها وشرفها وضمت بسيادتها ، وباعت مستقبلها باسم المنير بماضيها الخلب الخادع ، وأسرفت وأفرطت وحضنت الضلال ووكزت الحق واستحبت العمى على الهدى ، حتى نفر منها المخلصون وفر عنها المصلحون وقصد إلى غيرها أحباب الله وأعداء الشيطان ، ولم يتم منهم بها سوى من ضيق عليه الخناق طلباً لفتنته ، وطمعاً في صرفه عن عقيدته ، أو من بقي مع محمد صلى الله عليه وسلم رجاء الصحبة أو انتظاراً لأمر الله ، وبقي أبو بكر رضى الله عنه مع الباقيين وكم ألح في الهجرة وألح عليه الرسول في البقاء ، على أن يحظى بالمرافقة ويفوز بالمصاحبة ، فلما جاء الإذن وقيل للرسول : « وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » قال الجبريل : من يهاجر معي ؟ قال : أبو بكر الصديق . فذهب إليه متقنعاً في منتصف النهار في ساعة لم يعتد الذهاب فيها ، وأخبره أنه قد أذن له في الخروج ، فسأله أبو بكر الصحبة ، فأجابته بأنها قد وجبت . فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي خذ إحدى راحلتى هاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على أن تأخذ ثمنها . وهكذا نلح جدية المعاملة ، وصدق الصحبة ، وإخلاص القلوب ، فلا تضليل ولا طمع ولا خدعة ولا رياء ، ولا ظلم ولا تورط .

وحقق الله أمنية أبي بكر وأمنية الرسول له ، ثم رجع الرسول إلى منزله

واصطحب معه من هو أولى بنصره ، وأحق بالدفاع عنه ، اصطحب علياً بن أبي طالب الرضى الوفى ، أخاه وابن عمه ودخل الحجرة الشريفة .
وما كانت حجرته عليه الصلاة والسلام حصناً يرد طالباً ، ولا قلعة محكمة البنيان ثابتة الأركان ، ولكنها حجرة متواضعة لا تعز على مقتحمها ولا تعجز متسلقيها .

* * *

لقد انبعث أشقياء قريش فى عتمة من الليل إلى بيت الرسول ليقتلوه ، وكان فيهم أبو جهل ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وطعمة بن عدى ، وأبو لهب ، إلى غير هؤلاء ممن رأى بعض الرواة أنهم كانوا مائة عدا . يا عجبا كل العجب ! كثرة من فتيان قريش تسكون كتيبة حربية تقف على أبواب الرسول وتحيط بمنزله مدججة بالسلاح ، مؤيدة من قريش ؟ ماذا وقع فى خلدها ، وبماذا صورت محمداً فى هذا الوقت ، وبماذا صورت حجرته ؟ أظنها قد تصورته ليثاً هصوراً أو عدواً غفيراً ، وتصورت حجرته مدينة محصنة ، لذا واجهته بهذه الجموع بعد تشاور وتحالف ، وهكذا كان رسول الله مرهوب الجانب عظيم القدر معجزة فى كل شيء .

* * *

وتطلع أشقى العصابة من ثقب الباب ليرصده ويكشف أمره ، وأمر الرسول علياً أن يرقد فى فراشه ، ويتشح بردائه الحضرمى ، وهم بالخروج على القوم الذين انطفأت أبصارهم كما انطفأت بصائرهم حينما طلعت عليهم شمس الوجود ، ونور الحق وخرج محمد وهو يحثو التراب على رؤوسهم يقرأ قرآنه : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وبقى القوم يترقبون النبى مطمئنين بأنهم سيفصلون فى قضيتهم فصلاً يؤمنهم على ماضيهم ويبقى على آلهتهم وضلالهم .

وكم كانت دهشتهم عند ما نفّض على من فراشه وعلّموا أنهم أقاموا الليلة حراساً لعل لا متربصين بمحمد ، وفسدت المؤامرة وسقط التدبير ، وعلّموا أن الزمام

قد أفلت من أيديهم ، وأنه لا أمل لهم بعد إلا إذا أدركوه فخبسوه أو قتلوه .
وإذا ؟ !! لا بد من عيون تشر ، وقصاص يتعقبون الأثر ، وجعل يذل بسخاء
لمن يرشد إليه ويدل عليه ، وحى الله رسوله ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم قریشاً
وحده ، وأذل المشركين وأخزاهم بخروجه من بينهم وهم لا يشعرون .

وهنا أقف وقفة قصيرة أمام رجلين آخى الله بينهما فى الأرض كما آخى بين
ملائكته فى السماء ؛ محمد وعلى علما بمؤامرة قریش وما يبتوه من شر بأعلام الله
« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله
والله خير الماكرين » .

ثم هذا على يصحب محمداً ويلزمه إلى بيته وهو يعلم أن الغدر محقق وأن محمداً
مرمى السهام ، وهدف السيوف ، ثم يأبى على إلا أن يقدم نفسه فداء لأخيه ، وهذا
وفاء تمتضيه الأخوة ، ويفعله المخلصون ، ولكن محمداً صلوات الله عليه يأمره أن
يرقد فى مكانه وهو الهدف للرايين ، ثم يتلطف ويخرج ليبدأ رحلته إلى دار نصرته
وعزته ، فيا ترى ماذا دار بخلد الرسول فى ذلك الوقت بالنسبة لأخيه ؟ لقد قال
لعلى قبل : لا يخلص إليك شئ تكرهه منهم ، والحق أن محمداً كان مؤمناً بنصر
حقه ، وأن سهام المبطلين لا تصل إلى صميمه ولما تحمله قدماه ، وعلى رضى الله
عنه جنة الحق . ونخيف الباطل ، ومذل الشرك ، ومواقفه فى الله لا زالت تنتظره
والله لا يخزى النبي ولا يخذه ، فقد وعده نصره وتأيبه ، ثم إن رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعلم أنه المقصود المتبوع دون على ، وأن القوم يريدون قتله على
مشهد من بنى هاشم ، لتعلم أن قبائل قریش جميعها قد اشتركت فى دمه ، إذن لن
يقتلوه غيلة ، لأن ذلك مفوت لقصدهم مبعده عن غرضهم ، فلا بد من انتظار
يقتضيه ، وعند ذلك يتبينوه ، ومتى تبينوه عرفوه ، ومتى عرفوه تركوه .

وما أشبه طاعة على والسيوف مصلته ، بطاعة اسماعيل والمدينة معدة ، ففى
كل وفاء وابتلاء ، وفى على تضحية وفداء ؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من داره بعد أن جهزا أخف الجهاز ، قالت عائشة رضى الله عنها : « وجهزناهما أحث الجهاز ووضعتنا لهما سفرة في جراب فتمطعت أسماء بذت أبي قطعة من نطاقيها فأوكت به الجراب وقطعت الأخرى قصيرتها عصاما لفم الثربة » . ولتبت لذلك بذات النطافين ، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي هاديا للطريق ومرشدا في السفر ، وهو على دين قومه وأمناء على ذلك وسلمنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

واتبعه الرسول إلى غار ثور ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له الرسول فسأله ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال : يا أبا بكر ، لو شيء أحببت أن يكون بك دوني ، قال نعم . والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر لرسول الله مكانك حتى استبرئ لك ، ويستبرئ ويرجع فيذكر أنه لم يستبرئ الحجره فيسرع لاستبرأئها ، ثم يدعو رسول الله للدخول فدخلا ، وجدت قريش في طلبه ومعها القافة ووقفوا على الغار حتى قال أبو بكر لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا ، فقال الرسول « ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا » .

ويجتمع القوم ويتفرقون ويتناقشون ويتجادلون ، ومحمد وصاحبه يسمعان حديثهم ، ويدركان نعمة الله عليهما في أن عمَّ أمرهما على المشركين وصرف عن صفيه وصفى صفيه كيد الخائنين ، وكان عامر بن فهير يرعى عليهما غنما لأبي بكر ويستمتع ما يدور بمكة بشأنيهما ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس ، ومكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت نار الطلب ، وجاءهما ابن أريقط على مياعده فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهير ، وسار الدليل أمامهما ، وعين الله تكلماهما وتأيدته يصحبهما وأسعاده يرحلهما ويسعدهما ؟

(يتبع)

دَعَائِمُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ

أفضيلة الأستاذ الشيخ مامد عوني

المدرس في كلية اللغة العربية

لا يزال الناس بخير ما ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر : ذلك أن الأمر بالمعروف والنسأء بالحق هما قطب الرحى للسعادة البشرية ، بل هما النخاع الشوكى لحياة الأمم ، ورائد الفلاح لكل شعب ، وإن المنكر داء وييل فى البشر ، وسد منيع دون السعادة ، ما باض طائرته فى أمة إلا أفرخ شرا ، ولا امتدت جنوره فى أرض إلا تفرعت بلاء وضرا .

وقديما علمنا أن الهداة الى الخير فى كل أمة هم قلبها النابض ، وروحها الخافق ما أقيم عليهما حارس من العظة والاعتبار ، حتى إذا ما أخذتهم سنة ، أو قعد بهم العجز عن أداء ما حملوا من أمانة لم تلبث الأمة أن تصاب بسكتة القلب ، وتفقد عنصر الحياة ، وبذلك نستطيع أن ندرك ما لأولئك الهداة من خطورة الموقف ، وفداحة العبء ، وما لهديهم - إن صدق - من عظيم الأثر فى حياة الأمم والأفراد . وأخلق بالهداية أن تنفذ الى حبات القلوب نفاذ السهم فى الرمية ، وأن تقع من النفوس موقع الرحيق الحلال من ذى الغلة الصادى ، لو أنها وليدة أبى عذرهما ، وناسج بردها ، فساكل فرس جواد ، ولا كل عارض ما طر .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل ؟

وخليق بمن يؤمل لغراس هديه أطيب الثمر ، أن يكون هاديا بزيه وهندامه قبل أن يكون هاديا بجواهر لفظه وسحر بيانه ، ولست أريد أن يكون رث الهيئة زرى الطلعة يرتدى الأسمال البالية ، فتصدف عنه القلوب جموحا من حيث يريد اقتيادها ، بل أن يتخذ طريقا قصدا ، فلا هو خليع البزة يعثر فى فضل رياشه ، ولا هو بذ الهيئة يتعثر فى أسماله . . . « كلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

ولا يعزب عن أذهانتنا أن الداعى الى الحق بعرض أن يصطدم بقلوب غلف وآذان موقورة، فإن لم يكن ذا لسان مشحوذ الغرار ثلثت مضاربه دون نفاذ، فما أشد حاجته إذا بمقول سخبان وبديهة عمسرو ليكتسح ما عسى أن يستهدف له من حوائل، قرب لسان أقطع من حسام، وكلمة أنفذ من سهام.

ولن يكون المرء فى هديه كاملا حتى يكون بمختلف العلوم حافلا، وبخاصة ذلك التنزيل المحكم، وسنة من خص بجوامع السكلم، وروائع الحكم، فهما لعمري البحر الخضم منه الصدر وإليه الورود، وحتى يكون له سهم معرفة فى كل ماله مساس بالخلق والدين من مستحدثات الحضارة، وللائد الترف، فيكون أقدر على ضرب الأمثال، وأعرف بإيراد الشواهد، فيقع المعنى من النفس موقعه من لمس يديه وأبصر بعينه، وإلا فإذا تجدى من اللسان ذرابته، ومن الذهن تفتقه إذا تفه الغذاء وقلت البضاعة؟

وإن يك أساة الأجسام قد تعوزهم الدربة والفراهة أن يأسوا قرحة هي يمرأى العين وفى تناول اللبس، فما ظنك بأساة قوم هم بصدد أن يجتثوا أصول أدواء قد امتزجت بنفوس سقيمة، فاستحالت فيها الى سلائق، وتحولت الى طباع، أنهم لعمري أشد ما يكون حاجة الى حذق ومهارة يتلاءمان مع خطورة الداء، وتعهده بناجع الدواء ولكن أنى لآسى النفوس أن يضع الهناء مواضع النقب إذا لم يك دارسا عناصر الداء، مطلعا على خبيثة أمره، ومداخل طبعه، وهل يعرف بواطن الأدواء غير أساة الحى، ويحسن نزع السهام غير براة القسى؟؟ أجل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

لهذا كان واجبا أن يكون ناصح القوم من سلالة البيئة التى نشأ منها وبعث فيها، هنالك يقوى على اجتثاث جرائم الفساد من مغارسها، وعلى نزع بذور الشر من منابتها، ومن هنا تتجلى حكمته جل شأنه فى جعل رسالته إلى الأمم على لسان رسل منهم، ذلك أن وسائل الهداية، ومناهج الرشاد أبقي ما تكون أثرأ فى نفسك إذا جاءتك عن طريق إنسك وابن إنسك، فإن النفس بابن بيئتها آنس، وإلى نشء قبيلتها أميل، وهذا هو سر توفيق الرسل عليهم السلام فى مهمتهم على خطورتها، ونهوضهم بالعبء على فداحته، وهالك ترجمة زياد ابن أبيه، تنبأ كيف كانت البصرة

جرة مشتعلة وجذوة متقدة ، تعاقب عليها دهاة الولاة فما كانت تهدأ لها نائرة إلا ريثما تعجم عود واليها . ثم لا تلبث أن تتوهج نارها ، ويندلع لهيبها رغم ما كان عليه الولاة من دهاء ، ذلك أنهم لم يهتدوا إلى بيت الداء ، ومضوا يعالجون عن غير خبرة :

وإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد
حتى قدمها داهية دهاة العرب ، وباقعة بواقعهم ، زياد ابن أبيه فسل أحقادها ،
وداوى أدواءها ، وألان قناة طغاتها ، وقع نوازي أهوائهم حتى هدأت نائرتها ،
واستقامت الجماعات على لاحب السنن .

فهل تدري رعاك الله ما السر في توفيق زياد إلى ما لم يوفق إليه غيره ؟ إنه كان من قطان البصرة منذ الحداثة ، ومن السابقين الأولين إلى استيطانها ، فكان أهدي سبيلا إلى مواطن الداء ، وأصدق خبرة بتاجع الدواء .

وإذا علمنا أن لسلطان الهوى هيمنة على النفوس من قديم ، وأنها بطبعها أسلس ما تكون قيادا لجناة الغواية وغواتها ، وأشد ما تكون نفورا من دعاة الفضيلة وحماها ، كان لابد لسكبح جماحها من خبط القتاد ، أو ازدراد الحسك ، وليس للداعي إلى الحق حصن ترتد دونه سهام غضب الطبيعة البشرية غير درعى الصبر والحلم ، فهما لعمرى القوة الكاسحة ، والحسام القاصم ، بهما تدرع الرسل عليهم السلام ، فكسحوا جيوش الجهالة ، وقصموا ظهور الصعاب ، حتى أشرفوا على الغاية وبخاصة نبي هذه الأمة ، لقد ذاق في بث دعوته الأمرين ، واحتسى في نشرها عصير الغضا ، وما كان يزيد غنت القوم وعنادهم إلا صبرا وحلما ، كعود زاده الإحراق طيباً ، وما ظنك بمن كان يتعقبه قساة القلوب ، وجفافة الطباع من مشركى العرب بأنواع الأذى ، ويتعاورونه بضروب العذاب ، غير وائين ولا متهاونين فما كان يزيد على أن يدعو لهم بالهداية والتوفيق قائلا : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ، ولم يثنه كل ذلك قيد أنملة عن المضاء في عزمه حتى تم له الأمر ، وأونس الرشد من الملة ، وهكذا من سار على الدرب وصل .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
وخليق بمن نصب نفسه لهداية الناس أن يكون سهل الخليفة لين العريكة رحب

الصدر ، لا تستفزه رعونة الجاهل ، ولا تستخفه عوراء البذئ ، يأخذ الناس باللين ، ويجادلهم بالحسنى ، فذلك أعون على إحقاق الحق ، والبلوغ به إلى أعماق النفوس ، وما عهدنا في عالم الجدل أن العنف طريق من طرق المحاجة ، ولا وسيلة من وسائل الإقناع ، كيف ولن أراك تستطيع كبح جماح دابتك حتى تحرك لها حوارها ، ولا أن تسلس قيادها حتى تنزع لها قرارها ، وعلى هذه السنة جرى النبي صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته ، فسكان يتحرج جهده أن تأخذه سورة الغضب في محاجه خصومه ، فيتشعب الصدع من حيث يريد رأبه ، حتى في أخرج المواقف يوم زعموه ضالاً لم يأذن للغضب أن يفك له حبوة ، ولا أن تمس له أناة ، وأبى عليه حمله إلا أن يخاطبهم بقوله : « وإنا أو إياكم على هدى أو في ضلال مبين » ، لم يشأ عليه السلام أن يعزوهم إلى الضلال فيثير حفاظهم ، وهو أحرص ما يكون على استمالتهم وتأليفهم سيما وأن الإسلام كان في نشأته الأولى أحوج ما يكون إلى تسكير سواده ، وبهذه الملاينة وأخذ الأمور بالرفق استطاع هذا النبي الكريم أن يثد الخصومة في مهدها ، وأن يقيمهم على السنن القويم ، ويسلك بهم جادة الطريق ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .

وهكذا ينال باللين والرفق ما لا ينال بالعنف والقسر ، فما كان زياد ليقمع فتنة البصرة ، ويضبط أمر العراق بحمد السيف ، وقوة الكتائب ولكن بأن قتل لها ما بين الذروة والغارب ، وعلى هذا المنوال نسج معاوية رضى الله عنه ، فعد أحد دهاة العرب . وهاك سياسته : إنى لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت .

وها هي ذى الدولة البريطانية على جبروتها ، جل اعتمادها في بسط نفوذها على قوة اللين والهواة ، ولهذا سمي ساستها دهاة العالم ، فأحر باللين من حسام هو في طراوته أمضى شباتاً من تلك الصمصامة في يد الزبيدى ، أو القوس في كف باربها .

وما كان غراس الدعوة إلى الله ليثمر في تربة كائنة ما كانت ، حتى يكون في البذر خاصية الإثمار ، فعلى مسدى النصيحة أن يبدأ بنفسه ، فيقوم من أودها ، ويصقل ما صدأ من خلاها . هناك يثمر غرسه ، ويفيد درسه وإلا فن العبث أن تنسج

لغيرك حلل النصح وأنت عارى السوء ، وتنظم له قلائد الوعظ وأنت عاطل الجيد
ومن البلية أن .

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كسيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلتطبع الأسجاع بطوايع وعظك ما شئت ، ولتقرع الأسماع بجواهر لفظك
ما أردت ، ولتأت بالمعجزات من لفظك المختار ، وأساليبك المصطفاة ، فلن تجد
إلا وقرأ فى الآذان ، وإلا قلوباً فى أكنة مما تدعو اليه ، ومن بينها وبينك حجاب
ما لم تكن بفعا لك أوعظ منك بمقالك .

أرايتك لو انتظمتك حفل من الناس قام يخطبهم واعظ نخلبك سحر بيانه ،
وأثملتك خمرة إحسانه ، ثم تتبعته فاذا هو عبد شهوته ، يسخره أبو مرة أنى شاء ،
وحيثما أراد ، ثم رأيتيه وقد عاد يصوغ الفرائد وعظا ، وينظم القلائد نصحا ،
أكنت تعير للفظه أذنا ، وتقيم لموعظته وزنا ؟ إنهم لشر أداة شر على المجتمع ، أولئك
الذين يدعون إلى مكارم الأخلاق ولا خلاق لهم ، ويأمرون الناس بالمعروف
وينسون أنفسهم ، وقانا الله شر ذلك السم فى الدسم ، والطلاء على الورم .

وأحر بالداعى إلى الله ألا يكون هدفا لسهام الأغراض . تكىأة لعوامل
الاهواء ، فما دخل الغرض أمراً إلا أفسده ، ولا عبث الهوى بشيء إلا أفقده ،
وليكن له من العفاف ما يصون له عرض كرامته ، ويحفظ عليه حرمة نصحه وإرشاده
فما انتهك لكرامة عرض تولى العفاف حراسته ، وما هتك لنصيحة ستر تذود عنه
الكرامة ، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه فجذبها مصارع الفضول ، ونأى بها
عن مظان الصغار .

وعلى الجملة إن من أوقى لسانا قادراً ، وبيانا ساحراً ، وذليلاً نقياً ، وقلباً نقياً
لا يخاف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى فى الله صولة ظالم ، لا تميله الرغبة عن الجادة
ولا تقصيه الرهبة عن سنن الحق ، وكان حليف حزم وعزم ، خدين حلم وعلم ، فقد وفق
أن يكون من الهداة المصلحين .

أبو العيْناء والضَّرير

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المقش بالأزهر

وأبو العيْناء هو ذلك الأديب الممتع الذي قدمت للقارئ الكريم صورة عن نشأته وبعض أخباره . والآن أسوق طرفاً من أخباره آخر فيه أدب وفيه فكاكة ، ثم أعرض لصورة من ملاحه وأجوبة ومهاراته ، وصورة أخرى عن بلاغته وما كان له من يد طولى فى كل من النثر والنظم .

وأبدأ بذكر قصة خروجه من البصرة ، وهى قصة تستضحكك وتحملك على روايتها والتحدث بها - حدث جماعة من المؤرخين عن أبى العيْناء ، وحدث عن نفسه وسبب خروجه من البصرة بما ملخصه أن أباً العيْناء مر بسوق النخاسين (بائعى العبيد) يوماً ، فرأى غلاماً ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوى ثلثمائة ، فاشتراه وكان يبنى داراً فدفع إليه عشرين ديناراً ليوزعها على الصناع فوزع عشرة منها واشترى بالباقي ثوباً ، فجرى بينهما ذلك الحديث :

أبو العيْناء — من أمرك بهذا ؟

الغلام — يا مولاي لا تعجل فان أهل المروءات والأقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلاً يعود بالدين على موالهم .

قال أبو العيْناء فقلت فى نفسى قد اشتريت الأصمعى ، ولم أعلم قال وكانت فى نفسى امرأة أردت أن أتزوجها سرّاً من ابنة عمى فقلت له يوماً : أفيك خير ؟

فقال لى لعمرى ، فأطلعته على الخبر ، فقال أنا نعم العون لك فتزوجت المرأة ودفعت إليه ديناراً ليشتري أشياء فيها سمك هازبى ^(١) فاشتري سمكاً (مارماهى) فقلت أليس قد أمرتك بشراء الهازبى ؟ قال : بلى ولكننى رأيت بقراط يقول إن الهازبى يولد الصفراء والمارماهى أقل غائلة . فقلت له : يا ابن الفاعلة . أنا لم أعلم أنى

[١] نوع من السمك والمارماهى نوع آخر .

اشترت جالينوس ، وضربته عشر مقارع ، فلما فرغت أخذني وضربني سبع مقارع وقال : يا مولاي . الأدب ثلاث والسبع فضل وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفا عليك من التقصاص يوم القيامة . فغاضني جداً فرميته فشججته فضني من وقته إلى ابنة عمي وقال لها : يا مولاتي . الدين النصيحة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ، وأنا أعلمك يا مولاتي أن مولاي قد تزوج واستكتمني ، فلما قلت له لا بد من تعريف مولاتي ضربني بالمقارع وشجني . فتمتني من دخول الدار والانتفاع بشيء مما فيها ووقعنا في تخليط ، حتى طلقت امرأتى الثانية وصلاح أمرى مع ابنة عمي وسمت الغلام الناصح . فلم يكن يتهيأ لي أن أكله ، فقلت أعتقه واستريح فلعله أن يمضي من عندي إلى النار . فلما أعتقته لزمني ، وقال الآن وجب حقه علي . ثم أراد الحج فجهزته وزودته فغاب عني عشرين يوماً ورجع فقلت : لم رجعت قال : قطع الطريق وفكرت فإذا الله يقول (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) فسكنت غير مستطيع وفكرت فإذا حقه أوجب فرجعت . ثم أراد الغزو فجهزته أيضاً لذلك وشخص ، فلما غاب عني بعث كل ما أملكه بالبصرة من عتار وغيره وخرجت منها خوفاً أن يرجع . حكاية طريفة تصور لك ما كان من أمر غلام يساوي ثلثائة فباعه أصحابه بثلاثين لأنه مختل التفكير ، كثير الخلاف على غزارة مادته وقوة حجته ، ولطف مأخذه ، وتصور لك ما يكون من أمر المرأة في مختلف الأزمان وتحكمها في أمر الرجال وسيطرتها إلى ذلك الحد الذي جعلها تخرج الرجل من بيته فلا يملك إلا أن ينزل على طاعتها ، وتصور لك ضعف أبي العيناء أمام قوة ذلك الغلام الذي أخرجه من مستقره بعد أن أعبته الحيل في أمره .

وانتقل أبو العيناء إلى بغداد ، فأخذ ينمي معارفه ويوسع مجال ثقافته . ويجمع الناس من حوله فيحدثهم بما فتح الله عليه من رواية بعيدة المدى وأدب جم وفير وكان ذلك بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد تم نضجه وبلغ أشده واستوى ، ويظهر أنه مكث بها مدة لا تقل عن مدته بالبصرة ، وخرج منها في آخر حياته ليموت بالبصرة ، وقد ذكر أنه كان في سفينة تحمل ثمانين نفساً وأنها غرقت فاسلم غيره على عمي بصره وقلة حيلته ، فلما صار إلى البصرة مات . فسبحان مصرف الكائنات .

ولعل القارئ الكريم في شوق أن يرى بعض ما اشتهر به ذلك الرجل

من ملح ونوادر وأجوبة مسكته ، وفي كتب الأدب من ذلك الشيء الكثير بعضه في معجم الأدباء وبعضه في زهر الآداب وبعضه في تاريخ بغداد وفي تاريخ ابن خلكان وغيرها .

وفي بعض ذلك الطريف المقبول وفي بعضه الماخن وفي بعضه الفاحش الممسوخ وسأحاول أن أصور للقارئ وضع هذا الرجل بما لا أخرج به عن حد الكمال .
وتستطيع أن ترد هذا المعنى إلى جهات ثلاث : محادثاته مع المتوكل الخليفة ، الذي كان يحبه ويؤثره ، ومحادثاته مع الولاة والوزراء ، ومحادثاته مع غيرهم من الدهماء أو من أصحابه .

فأما محاوراته مع المتوكل فنذكر منها ما يأتي :

قال له المتوكل يوماً هل رأيت طالبياً (من آل علي) حسن الوجه قط فقال متخلصاً من الورطة يا أمير المؤمنين . رأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا .

المتوكل — لم تسكن ضريراً فيما تقدم وإنما سألتك فيما سلف .

أبو العيناء — نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتي ما رأيت أجمل منه .

المتوكل — تجده كان مؤجراً وتجدك كنت قواداً عليه .

أبو العيناء — وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين أتراني أدع موالى على كثيرتهم وأقوم على الغرباء .

المتوكل — أسكت يا مابون — أبو العيناء — مولى القوم منهم .

قال المتوكل : أردت أن أشتى منهم به فاشتقى لهم منى .

وهذه محادثة تدل على مبلغ استهتار المتوكل وتنزله ، وعلى غلوه في التحامل على العترة السكرية .

وقال له المتوكل يوماً : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال على البديهة « إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

وقال له في حديث جرى : إن إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وقال له إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لثامها

وقال له أكان أبوك في البلاغة مثلك فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عبداً له لا يرضاني عبداً له .

وكان في عهده رجل اسمه نجاح بن سلبة ، وشرب نجاح هذا مع موسى بن عبد الملك فاغتاله موسى .

فلما اجتمع أبو العيناء بالمتوكل قال له المتوكل ما تتمول في نجاح بن سلبة ، قال ما قال الله تعالى : « فوكزه موسى فتمضى عليه » . فعاتب بعض الوزراء أبا العيناء على ذلك الإغراء .

فقال له أبو العيناء والله ما استعذبت الواقعة فيه حتى ذمت سريره لك فأمسك عنه خوف لسانه .

قال له المتوكل من أثنى من رأيت ؟ قال ابن أبي دؤاد فقال المتوكل : تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى الكرم ، فانظر كيف تدارك الموقف على نفسه . وكيف دافع عن قوله قال : يا أمير المؤمنين إن الصدق لا يكون في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك . وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد . وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون وجود ابن أبي دؤاد منسوب إلى المعتصم . فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذلك سخاؤك . قال صدقت فمن أبخل من رأيت . قال موسى بن عبد الملك قال : وما رأيت من بخله قال : رأيت يخدم القريب كما يخدم البعيد . ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة ! قال قد وقعت فيه عندى مرتين ، فالفقه واعتذر إليه من غير أن يعلم أنني وجهتك . فصار إلى موسى واعتذر كل منهما إلى صاحبه ثم لقيه موسى فقال قد اصطالحنا فما لك لا تأتيينا . قال « أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » (يريد نجاحا السابق) فقال موسى ما أرانا إلا كما كنا .

ولما قيل له إن المتوكل قال لولا أنه ضرير لنادمناه . قال إن أعفاني من رؤية الأهله وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للندامة .

وأما أحاديثه وأجوبته مع الوزراء والكبراء فكثيرة ، نذكر منها أيضاً ما لم يشتد خروجه . قال له عبيد الله بن سليمان الوزير في مرة : أعذرتني فأني مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتاج إليك . وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فإنما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال : يا سيدى قد عذرتك فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك .
 ودخل عليه يوماً فشكا إليه حاله . فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن
 المدبر . قال : كتبت إلى رجل قصّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة
 محن الدهر . قال : أأنت أخذته . قال : وما علىّ أعز الله الوزير في ذلك قد اختار
 موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رشيد . واختار النبي صلى الله عليه وسلم
 ابن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً . واختار على بن أبي طالب أبا موسى
 حاكماً لحكم عليه .

ولما استوزر صاعد عتب لإسلامه صار إليه أبو العيناء فتميل له يصلى فعاد
 فتميل يصلى فتمال معذور لكل جديد لذة .

ووعده ابن المدبر ببغلة ، ثم لقيه في الطريق وقال له كيف أصبحت ؟ قال :
 أصبحت بلا بغلة ، فضحك وبعث بها إليه - وسئل يوماً عن مالك بن طوق فقال :
 لو كان في زمن بنى إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره ، قيل فأخوه عمر فقال :
 كسراب بقميعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً - ومن ملحه مع سائر
 الناس أن رجلاً زحمة بالجسر على حمارة فضرب بيده على أذن الحمار وقال يا هذا
 قل للحمار الذى فوقك يتول : الطريق .

ومر يوماً على دار عدو له فتمال : ما حال أبى محمد ، قيل على ما تحب قال :
 فما لى لا أسمع الرنة والصياح . وقيل له : لى متى تهجو الناس وتمدحهم فقال ما دام
 المحسن يحسن والمسيء يسيء وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسب النبي والآمى .
 وقالت له قينة ، هب لى خاتمك وأذكرك به فقال أذكرى أنك طلبته منى ومنعتك
 وكان له صاحب يلتب بابن مكرم وله معه مهترات كثيرة يحسن بالتقارء أن يرجع
 إليها فى كتب الأدب فقد كدت أخرج إلى حد الإملال على أن فيها ما لا يليق .

وأما بلاغته فتتجلى لك فى بعض ما مر بك من محادثاته وله كتب طريفة
 أدبية تزيدك إيماناً بمبلغ فضله فى هاته الناحية ، قال صاحبه محمد بن مكرم الكاتب :
 من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع
 فقد ظلم . كتب إلى عبد الله بن سليمان يطلب غلاماً اسمه كافور . قد علت
 أصلحك الله أن الكريم المنكوب أجرى على الأحرار من اللئيم الموفور ، لأن

اللّيم يزيد مع النعمة لئوماً ، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرمًا . هذا متكل على رازقه ، وهذا يسيء الظن بخالقه ، وعبدك إلى ملك كافور فقير ، وثمنه على ما اتصل بي يسير ، لأنه بخدمته السلطان يعرفى الرؤساء والإخوان فإن سمحت به فتلك عادتك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فما لك مادتي أدام الله دولتك ، واستقبل بالنعمة نكبتك . فأمر له به .

وجدير لعمري بمثل هذا الأسلوب أن يعطف النفوس الكريمة . وبين يدي الآن عدة من رسائله أخفها وأمتعها ، وأعذبها وأظرفها ، وأدلهها على ما كان فيه من عبث ورقة ما كتب به إلى صديق له ولي ولاية يقول فيه : أما بعد ، فإنني لا أعظك بموعظة الله ، لأنك عنها غنى ، ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به مني ولكني أقول كما قال الأول :

أحار بن عمرو قد وليت ولاية فسكن حذرا فيها تخون وتسرق
وكاثر تميما بالغنى إن للغنى لسانا به المرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الخيانة فطنة والأمانة حرفة ، والجمع كيس . والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية . فاذا ذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً . فإن من الدور إلى الدور وأيام الولاية رقدته ، فتنبه قبل أن تنبه ، وأخو السلطان أعمى . عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التي وصى بها يعقوب بنويه ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل وترك الآجل .

وأما شعره فقد ذكر صاحب زهر الآداب (ج ١٨ ص ٣٠٢ فما بعدها) طائفة صالحة دلت على أدب جم ، وذوق لطيف في أسلوب مكتمل ليس فيه فضل عن معناه ، متماسك قوى ولا سبيل إلى الاستيعاب ، فقد ضاق المجال ، ولكني أتعجل للتماريء الكريم بعض ما اختار منه . قال يهجو أسد به جوهر .

تعس الزمان فقد أتى بعجاب ومحار سوم الفضل والآداب
وإني بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب
جيل من الانعام إلا أنهم من بينها خلطوا بلا أذئاب
إلى أن قال :

ثكلتك أمك هبك من بقر الفلا ما كنت تلفظ مرة بصواب

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

حكم الله في المسلم يقاتل المسلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء

تضافر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على حرمة دماء المسلمين . وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم (جمع بشرة ؛ وهي ظاهر جلد الإنسان) عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ » .

وروى البخارى في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، وفى رواية مسلم « من سل علينا السلاح فليس منا » . وفى رواية أحمد « من رمانا بالنبل فليس منا » . والمقصود من ذلك أن من حمل من المسلمين سلاحاً أو نبلاً أو أى أداة للقتال يريد به قتال أخيه المسلم بغير حق مشروع فليس من الإسلام ولا من أهله فى شىء . ففيه دلالة - كما قال الحافظ ابن حجر فى الفتح وغيره - على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه ، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقا تل دونه لا أن يربعه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله ، فضلاً عن قتله . وهذه الحرمة وهذا الإثم العظيم والوعيد الشديد فيمن لا يستحل ذلك ، فأما من يستحله مكابراً للشارع فإنه يكفر باستحلال الحرام وفى البخارى من رواية أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يُشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده (يغريه حتى يحمله على قتل أخيه) فيقع فى حفرة من النار ، فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة بالسلاح إلى الأخ المسلم خشية أن يضله الشيطان فيصيب أخاه فيقع فى النار وفى رواية عنه « الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة » .

وقال أبو بكر بن العربى : إذا استحق الذى يشير بالحديدة هذا اللعن

فكيف بالذى يصيب بها ؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً ، سواء أ كان جاداً أم هازلاً .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . ولا يخفى ما فيه من المبالغة في الزجر . والتحذير من الإقدام على قتال المسلم .

وفي حديث ابن عمر « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فسمى الرسول من يفعل ذلك كافراً مبالغاً في التحريم والتحذير .

وأعظم من هذا إثماً وأشد تحريماً في دين الله وشرعة الإسلام من يقدم على قتال أخيه المسلم في صفوف أعداء الإسلام الذين يحاربون الشعوب الإسلامية لاستلاب حرياتهما ، والاستيلاء على أوطانها ، ويتمتحمون بالحديد والنار منازل الأهلين الآمنين لاستعمار البلاد واستعباد العباد ، ويكيدون للإسلام وأهله بمختلف الوسائل الشريرة ، فإن موالاتهم ، وإسداء المعونة لهم في هذه الحروب - ولو مع غير المسلمين - بأية صورة من الصور ، فضلاً عن القتال في صفوفهم من أشد المحرمات وأكبر الكبائر ، وقد يكون كفراً بواحاً إذا اعتقد المسلم حله . وذلك لما فيه من القوة لهم ، ومن تمكينهم من أعناق المسلمين ، ورقاب الأرضين ، وإذلال الموحدين ، والقضاء على دين رب العالمين .

هؤلاء الأعداء ، حرب على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ، فتحرم موالاتهم والثقة بهم ، وتحرم إعانتهم ونصرتهم في السلم والحرب ، وخاصة إذا أرادوا المسلم على أن يقاتل أخاه المسلم ، أو يكيد له أو يضعف من شأنه ويخرب في دياره ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقال تعالى : (إن يثقفوك يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا) . وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) .

أما غير المسلمين الذين ليسوا حرباً علينا فيجوز مخالفتهم وعقد المعاهدات معهم ما دام في ذلك خير لنا ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، فإذا انقلب حرباً بعد ذلك فلا عهد ولا مخالفة بل حرب ومناجزة .

واعلموا أن مع الصبر الظفر ، ومع الحذر السلامة ، وبالجهد في سبيل الله تنالون إحدى الحسنيين لا محالة .

وإن الذين يؤيدونكم وينصرونكم في جهادكم من القبائل هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولاً وفعلًا ، الذين صلحت قلوبهم وسلمت ضمائرهم من فتنة الخيانة وموالاته الأعداء والخائنين .

أما أولئك الذين آزروا العدو وأيدوه وشهروا السلاح في وجوه إخوانهم المسلمين فإن استحلوا ذلك كانوا مرتدين عن الإسلام ، خارجين عن حظيرته ، وأدنى حالهم الإثم العظيم ، والعذاب الشديد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

على المسلم أن يحمل السلاح للدفاع عن دينه وماله وعرضه ووطنه ، فإن مات دون ذلك فهو شهيد ، سواء أكان المعتدى عليه مسلماً أم غير مسلم ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

أعلام الأهرس

السيد على أبو النصر المنفلوطي

(المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م)

مفتي الأستانة الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأزهر لطلب العلم فيه . وقد شب مفطوراً على حب الأدب ، والتزود من فنونه ، فبرع في قرض الشعر يافعاً ، ونظم الأزجال حدثاً ، ولم يلبث أن ذاع صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكهة والمجالسة ، لطيف المسامرة والمؤانسة . حاضر ذهن قوى الجدل ، لا يغلب في حوار ، ولا ينهزم في مناظرة ، وكانت له مطايبات حافلة بالنسك الأدبية مع الحشمة ، والحذر مما تأباه النفوس الآلية ^(١) . فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه ، يحلون قدره ، ويلبسون شفاعته ، اتصل بالبيت العلوي من عهد محمد علي باشا إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية رحلتين أولاهما في عهد محمد علي باشا سنة ١٢٦٢ هـ حيث احتفل السلطان عبد المجيد بإعذار ^(٢) أنجاله ، وطلب من محمد علي باشا أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء ، فكان الشاعر في طليعة الذين أوفدهم محمد علي باشا إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادها إذ قدمها إليه ، وبكى متأثراً ببعض أبياتها ، ثم سأله هل قلت في التسطنطينية شيئاً؟ فأجابته بأن له بيتين يستحي أن يعرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال تسمعهما إن شئت ، فقال :

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ونحسبها دون البلاد هي العليا
فلما رأت دار الخلافة عيئنا علمنا يقيناً أنها هي الدنيا

[١] مقدمة الديوان للرحوم أحمد باشا خيرى

[٢] أعذر الغلام ختته كمنذره يمدده . وللقوم عمل طعام الخناق .

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : إن البيتين جيدان من جهة الأدب ، ولكنك في مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها ، لأنك جعلت مصر هي العليا ، والقسطنطينية هي الدنيا ، وفي علمك أن الدنيا تأنيث الأدون ، فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فتمال الشاعر مجيباً « حب الوطن من الإيمان » .

وأما رحلته الثانية إليها ، فكانت في عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ حيث استصحبه إليها في خلافة السلطان عبد العزيز ، وكان متقدماً إلى القسطنطينية متفقاً مع الاحتفال بعيد الجلوس ، فأنشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ التطر ففاح شذاها في الحدائق كالعطر

وكان مصراع تاريخها (جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

ومما ائسم به أنه كان راجح العقل ، نافذ الرأي ، عالماً بالأحوال السياسية ، خبيراً بشئون الأمم ، محباً لتربية الأمة ، داعياً لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتياً غير مجموع ، حتى قبض له المغفور لهما محمد باشا سلطان وحسين بك حسنى ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك ، فجمعا أشتاته ، وضما متفرقه ، وعهد إلى المرحوم محمد أفندى الحسينى رئيس مصححى المطبعة بجمعه فى ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبتريمة للشاعر بقلم المرحوم أحمد باشا خيرى ناظر المعارف العمومية فى ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والموايل والازجال وغير ذلك ، مما عبث به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره ، فأراه شبيهاً به ، موافقاً له ، يتجه متجهه ، وينزع نزعته ، وهو يميل إلى الجناس لسنن فى غير استسكراه ، ويطلبه لسنن فى غير تكلف شديد ، ويورى غير أنه لا يلحف فى رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة فى شعره غير مفتون بها ، وإن تهيأت له فغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى . فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له فى الجمهرة العظمى من شعره ، فن تجنيسه قوله :

فى الحان قد جس معسول اللمى وترا فانفض لتسمع ألحان الصبا وترى

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر ، و (الحان) الصبا جمع لحن ، كما أوقعه بين الوتر الذي هو شرعة القوس ومعلقها الواقع مفعولاً ، والفعل المضارع (ترى) مقرونا بواو العطف ، ويبدو لك تكلفه الجناسين ، إلا أنهما أقرب إلى القبول ، ومن تجنيسه أيضاً قوله :

أبداً تقلب فكرتي أيدي الأسي طوعاً لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الأسي بمعنى الحزن ، والفعل الماضي (أساء) محذوف الهمزة ليم الجناس بحذفها ، والجناس هنا مقصود للشاعر ، إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه . ومن تجنيسه أيضاً قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظاات وفي ظني وجود سميع بالعهود وفي

فالجناس بين حرف الجر (في) مقرونا بالواو ولفظ (وفي) الصفة المحذوف لإحدى يائيه ، وهو أقل ثقلاً من صاحبه الماضي ، ومن جناسه المقبول قوله :
رياض المجد أهدت نفح طيب فقلت مهتاً يا نفس طيبي
ويغلب أن يلتزم الجناس في مطالع قصائده ، وهو في هذا الموضع أكثر طلباً له ، واستشرافاً إليه .

ومن التورية التي يستعملها في شعره قوله :

على مضض صبرت وكم أداري بتاريخ الغرام وأنت دارى
يجاذبني الهوى فأذوب وجدا ويسلبنى النوى ثوب اصطبارى
وعذالى دروا ما بي فلاموا كأن هوى الأحبة باختيارى
وإن سألو عن اللامى ودمعى أقول كلاهما لا شك جارى

فقد ورى بقوله (جارى) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال ، والاسم الذي هو بمعنى مجاور مضافاً لياء المتكلم .

ويتمول في رجل يدعى العلم يسمى (النخلى) :

بروض الفضل أغصان خلت عن حلية الفضل
سألناها أجابتنا دهتنا غلطة (النخلى)

فيحتمل أن يراد « الشجر » أو اسم الرجل ، وبما يورى به قوله :

حروف دمعى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمعته الشبيهة بالحروف وسائل تترضى الحبيب ، فقد جالس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (وسائل) الثانية التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونًا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخي قوله :

يا من بطالعه الأسمى حوى شرفا يزين بدر علاه قبة الفلك
أنت الذى بحلى الأخلاق زدت علا لا زلت ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إذ لاحت بشاره أرخت أوليت بكباشى وأنت زكى

ولا شك أن هذا التاريخ أضعف الشعر وحال دون روعته وجماله ، ولكنها سنة العصر الذى أغرق فيه وغالى ، وله فى تاريخ الحية :

لما اذهى روض المحاسن والها وبدا به الريحان وهو شريف
خط العذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجمال نظيف

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، وبما لا أسيغه ، وصف الريحان بالشرف ولست أدرى متى يكون الريحان شريفاً أو غير شريف ، فلعلة يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعائم الخضر التى هى سمة الأشراف .

وقد يولع بالتاريخ ، فيجعل فى كل شطر تاريخاً كما قال :

بشير هنا لاحت يمين قدومه بدور بها نور البشائر قد صفا
وشعره أنذاك لا روعة فيه ، ولا تنسم منه روح الشعر بحال .

غير أنه يتناول كثيراً من الأغراض فى شعره ، ويتسع أفقه لألوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهنيء ، ويرثى ويعتب ، ويشكو ويشكر ، ويتغزل ويصف وينصح ، وتجذ فى شعره الحكم والمدائح النبوية ، والقصائد الوطنية ، والخرجات بغير اغراق ، كما تجذ فيه الوداعة والحماسة ، ويتناول الإلغاز بل يكثُر منها فيجىء شعره بها معمى مستغلقاً ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى تبلغ مائة بيت

إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره وسط بين الإجادة والغثاء ، والضعف والقوة .

فما قاله متغزلا :

إلى الأوطان يجذبني الهام	ولى قلب يقلبه الغرام
وفى دمعى غرقت ونار وجدى	بتذكار الديار لها ضرام
ولى فى كل منزله حديث	إذا كررته ناح الحمام
وما عندى من الأشواق خاف	ولو أبديته لبيكى الغمام
ويوم وداعهم كانت حياتى	مكابرة وللدمع انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبي	وفى نومي وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا	وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهواه باك	عليك ولو أضربك الهيام ؟
فقلت لها فديتك إن نومي	على لبعدهم أبدا حرام
وهل يجدى أذا الوجد المعنى	إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعيني فالنصيحة لو أفادت	لضاع الحب وانقطع الملام
كلفت بحبهم فألفت سهدى	ولم يخطر على جفنى المنام
أهمهم هم ولى فيهم شجون	إذا ظعنوا بقلبي أو أقاموا
أخلائى احفظوا عنى حديثاً	يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحيه التمدانى	وينعشه التواصل لا المدام
فان مر النسيم بكم سلوه	فأخبار الهوى منه ترام
وساعات الوصال كلبح طرف	لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات ساقها الشاعر متغزلا ، فجاءت من أجود ما قال رقة معنى ، وخفة روح ، ووضوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو محسن من المحسنات البديعية ، ولم يمس طرفا من ذلك إلا الجناس الذى شكه شكا وتناوله برفق فى عجز البيت الأول بين قلب ويقلبه .

ومما قاله فى شكوى الزمان :

بشكوى الليالى كيف لا أتعلل وديمة دمعى دائماً تنهل

رمانى زمانى فى مكاييد مكره وفى وهمه أنى له أنذل
أكابد ما لا يستطاع من الأسى وأحمل منه فوق ما يتحمل
وجربت أبناء الزمان بأسرهم فلم أر منهم من عليه يعول
وسالمت إخوانا بدالى أنهم على نقض بغيان الصداقة عولوا
فيادهر ماذا تبتغى من مجرب وقد شاع فى الآفاق أنك تجمل
تقدم من لا يستحق وتزدرى بمن هو أولى بالجميل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى وهم دولة الإسعاد إن كنت تعمل
وقربت أرباب الجهالة للعلا كأنك لاستظهارهم تتجمل

فهذه الآيات من أجود ما قيل فى شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة
عبث الزمان به وتجهمه له ، وما يكابده من أساه الذى لا يستطاع ، وما يحمله
مما يشق حمله ، وما لقيه من إخوان جربهم فلم يرفيهم من عليه المعول ، وإخوان
سالمهم لما بداله من تعويلهم على نقض الصداقة ونكث العهد ، وكان جميلا من
الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزيادة بمن هو أولى
بالجميل ، وبراءة الزمان من أهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان
يحقل ذلك ، وتغريب أرباب الجهالة وإيثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ،
فهى آيات صادقة فى شكوى اللبلى وصدق التجربة ، وغدر الإخوان ، وعبث
الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ، ورصف رصين لم يتهالك على
محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا هتفت بمدحك الموالى وأنشد شعره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثاً وصاغ من الثنا ما يستطيع
فما بلغوا اليسير ولو أطالوا وكيف وأنت فى الأخرى شفيع ؟
إليك شكائى من كل ذنب وحصن حماك لى حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالأمانى ومن قصد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا وجاهك سيدى جاه رفيع
فمن للمذنبين سواك يرجى إذا ما استعظم الهول الفظيع ؟

وهو شعر سهل رصين تتمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذي يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرزاً منيعاً ، وشفيعاً يغفر به كل ذنب ، وإن كان في نفسى شيء من اللفظ الأخير (الفظيع) . وقال يعاتب بعض أصحابه :

لعمرك ما البواتر كالعصى ولا السطرف المذل كالعصى^(١)
ولا فلق الصباح إذا تبدى لذى بصر يقابل بالعشى
أراك رفعت أدنى الناس قدراً وآثرت الدنى على على
شقت عصا الوفاق وبعثت غبنا صواب الرأى بالخطأ الجلى
وبدلت الأعزة من قریش وأبناء الأماجد بالدنى^(٢)
ستعرف ما جهلت إذا التمتينا وبان لك الجبان من السكى^(٣)

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه ، وأحفلها بالتشبهات المحكمة ، وفيها جباس متمول بين حرف الجر (على) و (على) وتورية لطيفة في لفظ « على » الذى يحتمل أن يكون وصفاً مقابلاً (للدنى) وأن يكون مشيراً الى اسم الشاعر (السيد على) . ومن رثائه قوله :

أنظرى أعينى الدوامى دواما إن غيث الكرام يأتى ركاما^(٤)
واستمدى من حبة القلب دمعا فلعل الدموع تروى أواما^(٥)
ومن السهد للجفون اكتحالاً ودعى عنك فى الدياجى المناما
واسكبي الدمع خفية وجهارا واستحلى من البكاء الحراما
واقترنى فى صحيفة الدهر سطرًا نمتقه يد القضاء فاستقاما
واكتبى ما جنته أيدى المنايا حيث لم تبق للأنام إماما

فهذه من أصدق المراثيات وأرقها ، وأخصبها معنى ، وأحفلها تصويراً للجزع والأسى ، ولم يكن الشاعر منصرفاً فيها الى الطلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده ، فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ، ولسكنه لم يستنفد جمال الأبيات ، ولم يذهب بروعتها ؟

(١) البواتر السوف القاطمة ، الطرف الكريم من الخيل - المذل السهل المنقاد .

(٢) الدنى : كرضى الرجل الفاحش . (٣) السكى : كغنى الشجاع أو لابس السلاح .

(٤) الركام السحاب المنراكم . (٥) الأوام كغراب ، العطش أو حره .

تسمية الأسماء بغير أسمائها

لفضيلة الأستاذ الشيخ برر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنهما قال : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللبينة على الصدقة ، فلما قدم ، قال هذا لكم وهذا أهدي لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل بما ولانى الله ، فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت لى ؛ أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتبه هدية إن كان صادقا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه ، إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبحر ، ثم رفع يديه حتى رثى بياض ابطينه ، فقال اللهم هل بلغت . »

شرح المفردات : الرغاء . صوت الإبل . الخوار صوت البقر . تبحر تصيح والعيار صوت الغنم .

هناك جم غفير من الناس يطيب لهم أن يضحكوا على الناس أو يضحكوا على أنفسهم ، فتراهم يسمون كثيراً من الأشياء بغير أسمائها ، فهم يسمون الذل تواضعا والكبر ترفعا ، والإسراف جودا ، والبخل اقتصادا ، والكذب سياسة ، والغش حصافة وهؤلاء ، إن كانوا يؤمنون بما يقولون ، فقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، ولبس عليهم أمرهم من حيث لا يشعرون ، وأما إن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم يموهون على الناس فهؤلاء قوم منافقون ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، وهؤلاء جراء على الله ، وهذا الضرب من الناس بصنفيه عرفهم الإنسان قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء رجل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية الصدقة ، فاستغل نفوذ ، ومكانته ، وتقبل الرشوة بمن ولى أمرهم . وسماها لرسول

الله صلى الله عليه وسلم هدية، ولسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفرق بين الهدية التي لا تصدر إلا عن حب خالص وود قديم، ولا يراد بها إلا توثيق العلاقات بين المتهادين، وبين الرشوة التي هي أكل لأموال الناس بالباطل، ولا دفاع لها إلا الرغبة في جاه المرتشى أو الرهبة من بطشه وجبروته، وجعل الفرق بين الرشوة والهدية فرقاً واضحاً جلياً، فكل ما يقدم إلى من يتولى عملاً عاماً إن كان يقدم إليه قبل أن يتولى هذا العمل، فهو هدية حتماً، لم يرد بها صاحبها جلب مغنم أو دفع مغرم، وأما أولئك الذين لا تساق إليهم الهدايا إلا إذا أسندت إليهم الوظائف العامة فإنما تساق إليهم الرشوى مسماة باسم الهدية، وإن استطاعوا في الحياة أن يفلتوا من قبضة القانون، فلن يستطيعوا النجاة من الله سبحانه يوم القيامة، فسيعرضهم الله على ملا من الأولين والآخرين، وقد صور النبي صلوات الله عليه فضيحتهم بقوله « فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله تعالى يحمل بعيراً له رغاء، أو بتمرة لها خوار، أو شاة تبعر » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الرشوة بأسلوب النقي (لا أعرفن) مع التأكيد وفيه من المبالغة ما فيه. كأن هذا الأمر لا ينبغي أن يقع، لمنافاته لما يجب أن يكون عليه المسلم الصادق، وتصوير النبي الأكرم لهذه الفضيحة الشذية هذا التصوير البليغ مما يبعث الخشية في قلوب هؤلاء المتساهلين وليس هناك ما يمنع عملاً أو نقلاً من أن هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بحقيقة ما يلتهم هؤلاء المرتشون يوم القيامة. ولما كانت الرشوة من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع، فتمقوض أركانه، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء، ثم قال تلك التولية المشهورة التي لا يتو لها - كما يعلم المتابعون للسنة - إلا في الأمور الهامة: « اللهم هل بلغت ».

وكيف لا تكون الرشوة من أخطر الأدواء التي تهدكيان المجتمع، وهي متى انتشرت في أمة فقد استحتمت سخط الله ومقته، وكتبت بيدها كتاب شقائها، فهي تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وترفع قوماً حقهم أن يخفضوا، وتخفض قوماً حقهم أن يرتفعوا، وعندئذ يوسد الأمر إلى غير أهله، ومتى وسد الأمر إلى غير أهله في أمة فقد حانت ساعتهما وذهبت ريحها، ولما كانت الرشوة في أية صورة من صورها وبأى اسم من أسمائها، خطراً على المجتمع الإسلامي ووبالاً على الأمة الحمدية جميعها فقد لعن الله الراشي والمرتشى، وطردهما من رحمته، ووكلهما إلى نفسهما، فقد روى

أبو داود والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشئ والمرئشئ » .

أما الراشئ ، فإن لم يكن صاحب حق فقد جمع الى جريمة الظلم جريمة التعاون على الإثم والعدوان ، وإن كان صاحب حق ولا يصل الى حقه إلا بالرشوة فقد أعان هذا الظالم وهو المرئشئ ، وأفسد خلقه وجعله يستمرى* الرشوة من كل من له عليهم نفوذ أو سلطان ، وفى هذا من الفساد ما فيه . وأما المرئشئ فإنه يأكل أموال الناس سحتاً وينشر بين المجتمع فساداً ويعطل مصالح العامة ، هذا ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لكل موظف من موظفى الدولة ، وما لا يحل من الأموال فى كلية جامعة ، فتمال فيما رواه عنه عبد الله بن برمدة عن أبيه رضى الله عنهما : « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » والغلول الخيانة فى الأموال العامة ، وقد شدد الله فى أمر الغلول كثيراً ، فتمال تعالى « وما كان لنبى ن يغفل ومن يغفل يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وفى الله هذه الأمانة داء الرشوة وزكى نفوس بنينا وطهر أخلاقهم حتى يكونوا أهلاً لما هياهم الله له من خلافة فى الأرض .

خفى حنين

كان يزيد بن حاتم الأزدي والى مصر مدحه ربيعة بن الرائق ، واستبطأ عطائه فقال : أرانى ولا كفران لله راجعاً بخفى حنين من نوال بن حاتم فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأمر بإحضاره اليه ، فلما دخل على الأمير سأله هل قال غير هذا البيت ؟ فأقسم له بأنه لم يزد عليه شيئاً . فقال له الأمير : لترجعن بخفى حنين ملئتا مالا ، وعمل بما وعد . فقال فيه ربيعة الرائق :

بكى أهل مصر بالدموع السواحيم غداة غدا منها الأغر بن حاتم
ومنها :

وشتان ما بين اليزيدى فى النسي يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهم الفقى الأزدي لإنفاق ماله وهم الفقى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب التتسام أنى هجوته ولسكنى فضلت أهل المكارم

كيف ينهض المسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد

النهضة كلمة رائعة تحمل كل عناصر الحياة . والنو . والخلود . ومن عناصرها الحية الخالدة يكتب تاريخ الأمم التي تنتظم نفسها في أمم التاريخ ! . فما هو إذن زعيب المسلمين من النهضة ، وإلى أى مدى بلغت بهم همهم فيها ، وما هو حكم التاريخ العادل إذا أراد أن يقول فيهم كلمته .

أعتقد أن الإسلام إنما جاء ليحكم ويسود لأنه دين مشحون ببارود القوة الحافزة الملتهبة ، والتي تدفع أتباعه - دائماً - إلى الأمام . هذه هي الحقيقة الكبرى التي ضلت بين ركام الأحداث الجسام في عصور المسلمين المظلمة ، وكادت تغيب في جماجم الموتى الأولين ! . وإذا كان التاريخ شاهد عدل لا يزيغ رأيه ، ولا يضل حكمه ، فلنسأل التاريخ إذن كيف نهض المسلمون ليحيينا التاريخ في غير حذر ولا مواربة ولا مداجاة ، وليفتح أعيننا على القوة الكامنة في طبيعة الإسلام حتى نعرف في بساطة ويسر كيف ينهض المسلمون .

يقول التاريخ : أن أول باب يدخل منه الداخل إلى ساحات الإسلام الفساح هو التوحيد .. مبدأ ، وعميدة ، وخلق . أما أنه مبدأ فذلك ما يشهد به واقع حياة المسلمين الأولين ، ويشهد له القرآن الكريم « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » وهو سر النواة التي أخرجت هذه الدوحة الكريمة المتشابكة لتتفيا الدنيا ظلها الوارفة ، وتتدفق في جوها المعطر الشميم ، وناهيك بدين يقدر معنى وحدة المبدأ بين أتباعه ، فيعلن في سمو بالغ أن الوحدة إيمان ، والفرقة كفر « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » أى بعد جماعتكم ووحدتكم متفرقين . « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

نعم إنه مبدأ كريم أشربته قلوب المؤمنين بهذا الدين ، حتى صرخ في عروقهم النابضة بالقوة والحياة أن حطموا هذه الفرقة الطاغية المبددة . ثم انفذوا باسم الله إلى أقطار هذه الأرض الباغية ، لتصفوا أقدام الناس على الطريق المستقيم ، فإذا الكلمة واحدة ، والسبيل قاصدة ، والشمل جميع .

وأما أنه عقيدة فهذا هو السمو الذى ساد به المسلمون ، ليس فى الأرض آلهة ولا جبابرة ، وليس فى الناس سادة وعبيد .. وإنما هو إله واحد تعنوا له الجباه وتخت له القلوب ، وتخضع له الرقاب « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » والناس - بعد - فى عبوديتهم له سواء . فأى دين يغرس فى عتمول أتباعه ، وقلوبهم هذه البذرة المباركة النامية ويوجههم إلى (توحيد) عقيدتهم هذا التوجيه السديد ، إنه الإسلام الذى يضع لأتباعه أعظم ما عرفت الأرض من قواعد النهضة .

وأما أنه خلق فذلك لأنه يرسم للسلوك الإنسانى طريقه المعبد بين عتبات المجد الكاذب ، وشعابه الماتوية ، ليرسم المسلمون وحدهم مناهج العزة والكرامة والرجولة التى لا يستعبد بها بشر لبشر مثله (الناس سواسية كأسنان المشط) ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلا تسأل كيف نهض المسلمون . ولكن سل عن سر هذا النهوض .

يجب أن نواجه الحقائق لنكون - على الأقل - منطقيين مع أنفسنا ! إن هذه الغشاوات المعتمة التى تحجب عن العيون ضوء الإسلام الحنيف ، هى التى هوت بالمسلمين إلى الخضم ، وكادت تعنى على آثار نهضاتهم التى وقف التاريخ فى محرابها خاشعاً يرتل ألحان العظمة والجلال . وأن هذه الحفائر العميقة التى ملئت بالقدر العفن من واردات الغرب ، ثم غطيت بالقمش الرخيص لتسكبوا فيها الأقدام ، هى علة ما يشكو منه المسلمون .

والإسلام دين يؤمن بالقوة ، ويحشد أجناده - دائماً - على الشغور « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

ويقدس أسبابها ووسائلها ، ويصورها فى معارضها الحافلة ، الحاشدة ، ويضفي عليها من المهابة ثوباً فضفاضاً نغم الحواشى « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نفعاً فوسطن به جمعا » .

والإسلام يدعو إلى الحرية ، ويحطم في عنف وقسوة قيود الذلة والعبودية والاستخذاء ، ويوجه نظر المسلمين دائماً جهة السماء « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » .

والإسلام يهتف بالحقوق أبداً ، ويصوغ أغنيته العذبة من لحنه الأخاذ « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » . « ذلك بأن الله هو الحق وإنما يدعون من دونه الباطل » .

الحق ، القوة ، الحرية . هي تغاريد الحناجر المؤمنة بالعشى والأبكار .
وهي أنشودة الكتائب المجاهدة التي غيرت مجرى التاريخ .
وهي ألحان الفطرة النقية التي لم تعبث بها أيدي الشياطين .
وهي دعائم النهضة الزاكية التي لفتت أنظار الدنيا ، وهزت أرجاء العالم الكبير .
لقد كانت تعاليم الإسلام الخالد هي مبعث نهضة المسلمين بالأمس ، ولن يكون غيرها أبداً مبعث نهضتهم اليوم .. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

رسالة

قدم جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : مالى وللشعر يا جرير لى لى
شغل عنه . فأجابه : يا أمير المؤمنين إنها رسالة من أهل الحجاز . قال : فهاها
إذن ، فقال :

كم من ضرير أمير المؤمنين لى	أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابته السنة الشهباء ما ملكت	يمينه فخنس الجهد والكبر
ومن قطع الحشا عاشت مخبأة	ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة	قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

الفقه السياسي عند المسلمين

لفضيل الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

يرى الإسلام أن الأرض لله ، والخلق لله ، فالدولة لذلك هي دولة الله ! فهو وحده سبحانه السيد المالك ، وليس لغيره أن يستعبد الناس ، أو يتعبد لهم بشيء ما ، وقد جعل الله لنفسه العزة والسيادة على كل شعب في أى بقعة من أرضه ثم جعل هذه السيادة للشعب نفسه بعد الله ورسوله ، فالشعب في كل دولة هو خليفة الله ونائبه في عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، وهو المسئول عن تصريف أمور الدولة نيابة عن مالكيها سبحانه وتعالى ، ولما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به ، فقد أيسح له أن يختار من يحمل عنه التبعة والمسئولية ، في التيام بالتكاليف ، وتدير أمر الجماعة ، وهذا المختار من الشعب هو حاكم الشعب ، ويراد منه ، قيادة المجموعة قيادة خيرة رشيدة تحقق الخير للجميع ، وتكفل لكل فرد أكبر قسط ممكن من حياة حرة كريمة سعيدة .

والحاكم الذى يختاره الشعب لهذه القيادة الرشيدة ، وكيل عن الأمة التى اختارته ، وتختاره الأمة بالبيعة ، وهى تعاقد بين طرفين هما : الأمة والحاكم ، أو بعبارة أدق بين كل فرد مبايع وبين الحاكم . وهذا التعاقد يلزم الحاكم والمبايع بالتزامات محددة ، معروفة ، مفهومة من الطرفين ، يتعهد الحاكم بمقتضاه بالسير فى حكمه على القواعد التى رسمها (القرآن والسنة) وهما دستور المتعاقدين المتفق على احترامه والالتزام العمل به ، وهو دستور عام خالد ، ثابت دائم ، ليس لأحد المتعاقدين تصرف فيه بزيادة أو انتقاص ، لأن مشرعه هو السيد المالك العليم الخبير ، بما يصلح دولته ، وما لا يصلح لها ، وتتعهد الأمة (أو المبايع) للحاكم بالطاعة فى كل ما يصدره وفقاً لمبادئ هذا الدستور المحترم من الطرفين ، غير مستبد برأيه . بل عن ملاء وشورى بين المسلمين ، ولما كان كل فرد فى الأمة مسئولاً عن الأمة وحكمها ، فإنه يتقدم للبايعة ويقول : « أبايعك على كتاب الله وسنة

رسوله وصالح المؤمنين » وليس لذلك معنى غير أنه يوكله عن نفسه فى القيام بتدبير أمر الدولة الذى هو حق لكل فرد مسئول فيها ، وليس على الموكل « المبايع » سوى الطاعة فى حدود الدستور المتفق عليه ، وإذن فالبيعة هى عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب ، من أفرادها المسئولين عنها ، وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا ، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل فى حدود ما رسمه للوكيل ، وأذنه بالتصرف فيه ، ثم هو عقد مؤقت مشروط . فهو خاضع لرقابة الأصيل ، فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد فى صالحه ، أبقى الوكيل إن شاء ، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة ، عزله إن شاء إذا لم يتعزل من نفسه ، كذلك لا ينطوى عقد الوكالة على تنازل من الأصيل عن شىء من حرياته أو سلطانه أو حقوقه كلها أو بعضها ، وإلا كان العقد عقد تمليك ، ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه ، ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهى السلطة الكبرى التى جعلها الله لأذى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده ^(١) .

وفى هذا يقول الإمام الكاسانى رحمه الله : « وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء ، لا يختلفان إلا فى شىء واحد ، وهو أن الموكل إذا مات . أو خلع ، يتعزل الوكيل ، والخليفة إذا مات أو خلع ، لا تتعزل قضاته وولاته ، ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل ، وفى خالص حقه ، وقد بطلت أهلية الولاية (يعنى بموت الموكل أو خلفه) فيتعزل الوكيل ، والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى « خالص ! » حقه ، بل بولاية المسلمين ، وفى حقوقهم وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود والوكيل فى النكاح ، وإذا كان رسولا كان فعله (أى فعل الخليفة) بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولاتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضى على ولايته ، وهذا

بخلاف العزل . فإن الخليفة إذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ، ولا ينعزل بموته ، لأنه لا ينعزل بعزل الخليفة أيضاً فى الحقيقة بل بعزل العامة ، لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامة ، والعامة ولوه الاستبدال دلالة لتعلق مصلحتهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضاً ^(١) .

ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء ، اعتبروه واحداً من أفراد الأمة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمثاله وجنایاته ، فهو يؤخذ بالتقصص إذا قتل عامداً ظالماً ، ويلزم بالأموال التى تلتفها ، وتقطع يده إذا سرق ، ويجلد أو يرحم إذا زنى ، والأمة هى التى تحاسبه وتعاقبه ، يقول الإمام القفال من الشافعية : « إن الخليفة إذا زنى يقيم عليه الحد ، من ولى الحكم عنه . وهو الأمة » ^(٢) .

ولدينا نصوص كثيرة فى هذا المعنى الجليل ، الذى جاء به الإسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية والتى تشير إليه عبارة « الأمة مصدر السلطات » التى يجب أن تعدل هكذا « الأمة قيمة على الحكم ، ومصدر سلطات الحاكم » .

مما تقدم يرى التارىء أن عبارة « السلطان ظل الله فى أرضه » عبارة لا تستقيم فى ظاهرها مع روح الإسلام ونصوص العلماء ، كما فهم ذلك بعض الناس ، وجعلوا بمقتضاها للحاكم - فى نظر الإسلام ظالماً - حقاً مقدساً . وقالوا لهذا : إن نظرية الحكم فى الإسلام تشبه نظريات الحق الملكى المقدس عند الفراعنة والفرس والروم ، مع تعديل يسير اقتضاه تقدم البشرية ، وتطور الزمن .

وفى اعتقادى أن هذه العبارة التى جاءت لأول مرة فى بعض كتب المنصور العباسى ، قد انتقلت إلى العباسيين عن التفسير الفارسى الذى كان يقدر الأكايسة قديماً ، أو عن الحكام الرومانيين فى العصر المسيحى الميروفنجى ، وهى فى الحقيقة تشير إلى النظرية الكنسية التى تزعم أن الله قال للقديس بطرس « إن ما حللته فى الأرض فأنا أحله فى السماء ، وما ربطته فى الأرض فأنا أربطه فى السماء » بمعنى

[١] البدائع لأبى بكر الكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ - ٧ ص ١٦ .

[٢] معنى المحتاج على المنهاج للخطيب - ٤ ص ١٤٠ وتحفة المحتاج للبيهقى - ٩ ص ١١٥ .

أن البابا هو ظل الله فى أرضه ، وكل أوامره مقدسة لأنها وحى السماء ، وقد قامت الكنيسة بمساعدة شارلمان على إعلان الدولة الرومانية المقدسة ، بتوجيه ملكا للرومانيين سنة ٨٠٠ م ، وأرادت من هذا التوجيه أن يكون لها سلطان على الأباطور المقدس الذى توجه البابا المقدس الذى له سلطة الحل والربط فى الأرض وفى السماء ، ولا نظن المنصور العباسى على كبر عقله ، وسعة علمه ، وقربه من مصدر النور الهادى . كان يقصد شيئا مما تعنيه نظريات الحق المقدس ، لأن ذلك يناقض مبادئ الإسلام ويخافى النصوص الصحيحة ، فالرسول عليه السلام يعلن أنه : « ليس ملكا ولا جباراً فى الأرض » وإنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، وعمر بن الخطاب يخطب فى الناس قائلاً : أيها الناس لست ملكاً فاستعبدكم بملك أو جبرية ، إنما أنا واحد من الناس ، وإنما مثلى منكم ومن أموالكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله » يعنى حسن الرعاية والارشاد إلى الخير ، لا سيادة له عليهم كما أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ولا يملك شيئاً من ماله ، فإن احتاج أكل بالمعروف من مال اليتيم وكان ذلك كأجر على حسن الرعاية ، وغاية ما هنالك أن الحاكم وكيل عن الأمة النائبة عن الله فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، فهو يأمر وينهى بسلطان الأمة الذى هو سلطان الله . وهو مع ذلك خاضع لرقابة الأمة فى كل تصرفاته ، وعلى هذا فلا صلة إطلاقاً - بين نظرية الإسلام فى الحكم ، ونظريات الحق المقدس القديمة ولا نظريات الكنيسة المسيحية ، وإذا ثبت أن المنصور العباسى كان يعنى ما يشير إليه ظاهر العبارة ، فالمنصور فرد مسلم غير معصوم ، وليس حجة على الإسلام .

بقى أن نتحدث عما اعتبره الكتاب المحدثون شبهة بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، هذه النظريات سواء منها الأغريق القديم ، أو المسيحي الحديث تقوم على أساس تنازل من الأفراد الذين يؤلفون دولة فى أى مكان . عن بعض سلطاتهم وحررياتهم الحاكم . ليكون له من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة تأمر فتطاع ، وقد رأى الفيلسوف الانجليزى « هوبز » أن هذا التنازل من الأفراد ، تنازل نهائى فى غير مقابل ، وليس لهم حق الرجعة فيه ، فالشخص الذى يملكونه هذه السلطة الممتازة ، هو حاكم دائم مالك لهذه السلطة ، وليس للشعب أن يسأله

عن تصرفاته ، وقد استخدم هوبز هذه النظرية لتأييد الملكية المطلقة المستبدة السائدة في عصره ، وجاء بعده الفيلسوف الانجليزي « لوك » فقال : ان تنازل الأفراد عن بعض حرياتهم وسلطاتهم تنازل حتمي ، يقتضى أن يكون الحاكم مالكا للسلطة الممتازة ، ولكنهم إنما تنازلوا في مقابل رعاية الحاكم لمصالحهم ، ومنع تصادم حريات الأفراد ، واستخدم هذه النظرية لتأييد فكرة الملكية الدستورية المستنيرة السائدة في إنجلترا إذ ذاك .

وفي القرن التاسع عشر الميلادي جاء الفيلسوف الفرنسي « روسو » فنجى بهذه النظرية نحواً جديداً ، فقال : إن تنازل الأفراد ليس تنازلاً نهائياً ، وإنما هو تنازل مشروط بأن يكون الحكم لصالحهم ، ولهذا لهم حق الرجعة في هذا التنازل ، إذا لم يحقق الحكم مصلحة الجماعة ، ومعنى هذا أن الحاكم خاضع لرقابتهم ، فاذا انحرف بالحكم عن صالح المحكومين ، فن حقهم أن يخلعوه .

وقد استخدم روسو . هذه النظرية لتأييد سيطرة الشعوب على الحكومات ، في الوقت الذي كان الشعب الفرنسي يتجه فيه للثورة على الملكية المطلقة ، على أن فكرة حق الأمة في عزل الحاكم المعوج لم تأت صريحة في نظريات التعاقد كما جاء بها الإسلام . هذا وأنت ترى أن فلاسفة التعاقد قد اتفقوا على أن الأفراد قد تنازلوا عن بعض حرياتهم وسلطاتهم ، في مقابل أو في غير مقابل ، تنازلاً نهائياً أو غير نهائى ، والذين جنحوا منهم إلى تأييد سلطة الشعب على حكامه اضطروا إلى النص على توقيت مدة الرئيس المنتخب للجمهورية . حتى لا يرى نفسه ملكاً ، أو يراه الناس ملكاً ، فقرروا انتخاب الرئيس كلما انتهت مدة الرئاسة ، وفي هذا ما فيه من إشاعة الاضطراب والقلق ، كلما تجدد انتخاب الرئيس . وكثيراً ما تسود الاحن والضغائن وتنقسم الأمة إلى شيع متحاربة . من جراء تنافس المرشحين للرئاسة .

وأما نظرية الإسلام ، فليس فيها أفراد تنازلوا عن شيء من حرياتهم وسلطاتهم وإنما لدينا أمة مكلفة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صواحبها ، وليس في الوكالة تمليك ولا مظنة تمليك ، والبيعة عقد يقيد الحاكم بدستور خاص ، ويحدد له حدود مهمته ، فإذا التزم شروط العقد فله حق الطاعة على المحكومين ، فإذا جاوز ما عين

له وخرج على الشرط ، انعزل من الوكالة وخرج ، من العهدة بنفسه أو بعزل الشعب الذى ولاه ، وفى هذا يقول الصديق رضى الله عنه للناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عايكم » وأساس هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولا شك أن عدم رعاية مصالح الدين وصوالح الدولة ، أكبر معصية لرب الدولة سبحانه وتعالى ، وبهذه النظرية يتحقق الاستقرار فى الدولة ، ويمكن الحاكم الصالح المصلح من خدمة شعبه ، وتحقيق منهج إصلاحه ، ويضع الحاكم فى مكان الخادم للأمة ، والأمة له بالمرصاد ، تراقبه وتحاسبه ، وتسكب جموحه إن جمع ، وترشده إلى الحق إن مال أو التبس عليه أمره وتعزله إن ظهر غشمه وظلم وفجر ولم يرعو لناصح أو زاجر .

بعد هذا يا أخى التارىء لا أظنك تقول : إن الحكم فى نظر الإسلام كالحكم فى نظريات التعاقد !! فإن كان لنا فى « التعاقد » هوى ، فالتعاقد فى الإسلام تعاقد خاص بالإسلام ، وهو أسى وأجل من نظريات التعاقد التى عرفتها .

وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الإسلام هو أول من احترم الأمة ، وجعل لها « شخصية معنوية » وألزمها بالتكاليف العامة ، ووكل إليها القوامة على أمورها ، واعلم أيضاً أن المسلمين هم أول من عرف أن الأمة هى مصدر جميع السلطات ، وأن الحاكم خادم وقائد ورائد ، لا سيد مستبد والناس عبيده ، ولعلك يا قارئى تطلب منى البيان ! وأعدك به فى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

(يتبع)

الحكمة

مر عيسى عليه السلام يقوم فقالوا له شراً ، فقال هو خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وتمول لهم خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق مما عنده . وقال الشاعر :

وذى رحم قلبت أظفار جهله	بحلى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القراة سامنى	قطيعتها تلك السفاهة والإثم
فداووته بالحلم والمرء قادر	على سهمه ما كان فى كفه السهم

الحياة الأخرى

عن سيد أمير على *

لهـ سـنـا ز عمر طلعت زهرا

أستاذ في الآداب

[يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]

[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي]

نظرية الحياة الأخرى — بعد افتراق عنصر الحياة عن الجزء الفاني — نظرية تنقسمها جماعات الناس عموماً ، وإن كانت تتميز عندهم الواحدة عن الأخرى ، حتى إنها لتنتهي بنا إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تكون من الأوليات في مقومات وجودنا . ولو بحثنا الحقائق التي تتصل بطفولة الأجناس والقبائل بحثاً وافياً ، لعرفنا أن فكرة « الحياة الأخرى » هي نتيجة طبيعية لتقدم العقل البشري .

وليس للإنسان البدائي أية فكرة عن حياة منفصلة ، ومختلفة عن حياته تلك التي يحياها على الأرض ؛ فالموت عنده نهاية الوجود . ثم يجتاز الإنسان هذه المرحلة ، إلى مرحلة ثانية تكون له فيها آمال ورغبات ، لم تعد تنبئ بعد على الموت الأرضي ، بل إنه ليتوقع « وجوداً آخر » بعد أن ينتهي وجوده الحاضر . ولكنه في هذه المرحلة لا يتعدى فهمه الخلود ، مجرى الحياة اليومية . فالحياة بعد الموت ، إنما هي مجرد استمرار للحياة على الأرض . ويبدو أن هذه الفكرة عن استمرار الحياة فيما وراء القبر ، قد نتجت عن شوق لا شعوري للروح الإنساني ، يرغب في أن ينتهي الفراق بين الأصدقاء - وهو فراق مر للإنسان البدائي والمتمدن على السواء - إلى لقاء .

ويقتل الإنسان - بسرعة - إلى مرحلة ثالثة ، فيعتقد أن السعادة الحالية

والشقاء الموجود ، ليسا ، ولا يمكن أن يكونا هما كل الوجود ، أو كل النهاية لوجوده ، بل إنه ستوجد حياة أخرى ، أو أنه توجد حياة أخرى بعد الموت ، يكون فيها سعيداً أو شقيماً ، بالنظر إلى ما يستحقه .
ونجد أنفسنا هنا أمام : مبدأ وقانون

ولم يتقدم العقل الإنسانى فى بحثه فى نظرية الحياة الأخرى ، ولم يستكشف فيلسوف الشك المطلق شيئاً ، أو يحقق وضعاً جديداً ، بل إنه سار الهويناً متأثراً خطى سلفه البدائى ، الذى كان مجال تفكيره متأثراً بحياته فحسب .

ومن الحقائق الثابتة أننا إذا نظرنا إلى كل هذه النظريات التى تمثل المراحل المختلفة من وجهة نظر موضوعية ، لرأيناها قد وجدت متعاصرة ، لا عند الأمم المختلفة فقط ، وإنما عند الأمة الواحدة ، على صور مختلفة ، تبعاً للتقدم الفردى .

* * *

ويقال : إن المصريين كانوا أول من عرف نظرية الحياة الثانية ، أو أنهم هم - على الأقل - أول من بنى مبادئ السلوك الإنسانى على مثل هذه النظرية . فقد ربطوا نظرية التناسخ بفكرة الثواب والعقاب المستقبلية : ينزل الإنسان إلى القبر ليقوم ثانية ، وبعد بعثه يدخل حياة جديدة ، فى صحبة الشمس ، عنصر الوجود ، العلة الموجودة بذاتها لكل شيء . واعتبر روح الإنسان خالداً مثل الشمس يقوم بنفس انتقالاتها Pilgrimages . نزلت كل الأرواح إلى العالم الأدنى ، ولكنها ليست جميعاً مؤكدة البعث . وكان « أوزيريس » ومستشاروه الإثنان والأربعون يحاكمون الموتى ، والحرمان [من البعث] نصيب من يدان . أما من خفت موازينه فكان ينق من آثام الحياة ، ويدخل « السعادة الكاملة » ، ويطعم - كرفاق « أوزيريس » - بأشهى طعام .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن إقامة الإسرائيليين الطويلة فى مصر قد أوجدت بينهم فهماً لفكرة الحياة الثانية وما يتبعها من ثواب أو عقاب . ولكن « الموسوية » الخالصة [أو التعاليم التى تحمل هذا الاسم] لا تعترف بحالة وجود تختلف عن حالة الوجود الحاضرة . والمحور الذى يدور حوله كل نظام التشريع الموسوى يقوم على أساس ثواب وعقاب أرضى محسوس . أما نظرية البعث ، وما نبع عنها

من أفكار ظهرت فيما بعد في اليهودية - خاصة في كتابات «دانيال وحزقيال»^(١) - فتمت كانت ثمرة لغرس أجنبي مستمد من أصول «زردشتية» حتى إن وصف الإقامة العامة للكائنات الراحلة ، سواء العادلة منها والظالمة ، التي تظهر في الكتابات المتقدمة بعض الشيء ، لا يبدو أنها من أصل عبري صحيح . فلا يستطيع الإنسان فيها أن يحمده ربه أو أن يذكر حبه ورحمته . إنها مملكة ظلال ، محاولة يهودية لمعارضة العالم الوثني غير المرئي ؛ والموتى [في هذه المملكة] لا يعلمون شيئاً عما كانوا أحبابهم على الأرض ، فلا ينوحون إلا على أحوالهم .

ولم تلبث اليهودية ، حتى ملئت - فيما بعد - بإيمان قوى بالحياة الأخرى ، فتمت غنيت آثارها بوصف منازل المؤمنين ، أو ما يلتمه المشركون من عذاب . وأثرت الزردشتية على الجنس العبري تأثيراً مزدوجاً ، فلم تكن تزيد عنها فهماً أكثر نقاء وروحانية فحسب ، ولسكننا نجد أن المجوسية الزردشتية فيما بعد ، - وهي ثمرة كالدانية - قد صبغت العقائد الربانية^(٢) بآراء مادية عن الثواب والعقاب في الحياة الأخرى . وعلى أية حال فإن شعوب الشرق الآرية هي التي عرفت نظرية الحياة الأخرى بعد الموت . ففي الفرع الأول من العائلة الآرية اتخذت النظرية إما شكل التناسخ الأبدي ، دائرة لا تنتهي من الميلاد والموت ، أو شكل فناء كلي بعد فترة اختبار طويلة في اللانهاية المطلقة ، أو شكل لانهاية في زمن لا قياس له ، أو لا شيء^(٣) واتخذت النظرية عند الفرع الآخر من العائلة الآرية شكل سلم متدرج للثواب والعقاب ، بالمعنى الذي يفهم به الآن المسلم أو المسيحي قيمة الإنسانية . هل كان المجوس الزردشتيون يعتقدون من البدء في البعث الجسماني ؟ هذه مسألة اختلف فيها العلماء ، فيرى دولنجر Dollinger وبيرنوف Burnouf أن هذه النظرية لم تكن زردشتية حقيقة ، وأنها ظهرت متأخرة ، إن لم تكن مستمدة من العبريين^(٤) ومهما كان الأمر في هذه المسألة ، فإن الفرس ، في زمن النبي

[١] نبيان من أنبياء بني إسرائيل الأربعة العظام ، عاشا في القرنين السابع والسادس ق . م .

[٢] الربانيون هم كهنة اليهود وعلماؤهم .

[٣] صيغ البراهمة عذاب النار ومسرات النعيم صبغة خيالية حية . وعلى الباحث العربي أن يرجع إلى النظريات البوذية عند الشهرستاني .

[٤] يرى آلجر Alger أن الزردشتيين الأولين كانوا يؤمنون بالبعث الجسماني .

العربي صلى الله عليه وسلم كانت لديهم نظرية قوية متقدمة عن الحياة الأخرى .
وتبين بقايا الزند أفسا التي وصلت إلينا ، بوضوح ، الاعتقاد بثواب وعقاب
مستقبلين . وترى زردشتية فنديداد وبوندهيش Vendidad & Bundehesh
- زيادة على اعتقادات الأفسا - أنه بعد موت الإنسان تملك الشياطين جسده ،
ولكنه في اليوم الثالث ، يرجع إليه الشعور . ولا تستطيع الأرواح التي استسلمت
- في الحياة - لاغراء الشيطان ، أن تمر على قنطرة شينفاد Chinevad الخفيفة ،
وهي القنطرة التي يجب أن تمر عليها في اليوم التالي ليلة الوفاة الثالثة . أما الأرواح
الطيبة فتتجح في المرور ، يسد خطاها « يا زاتاس Yazatas » [وهو في الفارسية
الحديثة « إزاد Izad »] ، ثم تدخل جنات النعيم حيث تصحب « أورمزد »
وصحبه من « الأمشاسباند Amshaspand » في مقرهم حيث يجلسون على عروش
من ذهب ، ينعمون برفقة جنيات حسان Hoorân-i-Behisht ، وبجميع أنواع
المسرات . وتسقط الأرواح الشريرة من فوق القنطرة ، أو تجر إلى خليج « دوزاخ »
حيث يعذبها « دايفاس Daevsa » ويحدد « أورمزد » مدة العقوبة ، كما أن بعض
الأرواح قد يخلصها صلاة ودعاء أصدقائها . ويظهر قبيل نهاية العالم ، نبى يخلص
العالم من الجور والشر ، ويستمر حكمه السعيد ألف عام وهي مملكة « أورمزد »
السموية ^(١) . وبعد هذا يبعث العالم أجمع ، ويتقابل الأهل والأصدقاء ، وبعد
أن ينتهى سرور التعارف ، ينفصل الطيبون عن الأشرار ، ويكون عذاب غير
الطيبين عظيما . ويذرع « أهريمان » قنطرة « شينفاد » جيئة وذهابا ، وهو يقاسى
العذاب الأكبر ، ثم يهوى على الأرض مذنب ملتهب يحرقها ، فتتصهر الجبال
وتنساق كالمعادن الذائبة فتغمر الجنس البشرى كله - طيبه وخبيثه - ليخرج الناس
بعدئذ جميعا من هذا الطوفان مطهرين . وبهذا يمحي الشر ، ويعيش الناس جميعا
في سرور ولذة لا يعادلها سرور ولذة .

هذه هي خلاصة دين قد أثر على المعتقدات السامية إلى درجة كبيرة .



وكان اليهود قد قعدوا استقلالهم إلى الأبد ، واحتل عرش داود مدع بائس ،

[١] يسمى الشهرستانى هذا النبى « أوشيزريكا » [ط كيورتن ص ١٨٨] ونرى علماء الغرب
أن اسمه « سوسيش Sosiesch » يسبقه بيان آخران هما ، « أوشيدر باى Oscheder Bami » ،
وأوشيدر ماه ، ويسمى « دوساس » ، هذا النبى « باشوتان Pashoutan » .

وتمكننت قوة أعظم من قوة السلوقيين ^(١) أن تذكى فيهم روح الإذعان ، ومن هنا نشأ بين اليهود - مثلهم مثل أى أمة يتمسكها حب عنيف للوطن والعقيدة والفردية - أمل قوى بأن يسترد « مبعوث سماوى » - مثل جيدون أو مكابوس ^(٢) - مجدهم الأول ، ويمكنهم من وضع أقدامهم فوق أعناق مضطهدهم الكثيرين ^(٣) ، واتخذ ظهور « المسيح » عند الوطنيين منهم صورة حية ، وتركزت أناشيد اليهود وأغانيمهم حول أمل واحد عظيم ، هو : استرجاع مملكة اسرائيل ، ولكن الإيمان بظهور « المسيح » كان إيماناً خافئاً غير متميز ، أو كان مجرد صدى لإيمان العوام بينهم ، وذلك بسبب الآثار الجوية الزردشتية والكالدانية فى الشرق ، ومدارس الفلسفة الإغريقية فى الغرب .

أما يهود فلسطين ، فقد استخلصوا من عدة عناصر صورة ثغمة ، وإن كانت مضطربة ، لظهور المسيح ، فتعود الأشياء جميعاً ، ويبحث الموتى ، ويحكم المسيح الأرض ، وهذه جميعاً حوادث إما أن تحدث معاً ، أو تترادف بسرعة ، الواحدة إثر الأخرى ، ويأتى المسيح من نسل داود ، فيجمع شمل القبائل المتفرقة شيعاً ، ويطرد ويهلك أعداءهم ، ثم يبعث الموتى ، ولكن هذا كله يحدث لمصلحة الجنس اليهودى حسب ^(٤) .

ووسط كل هذا الحماس ، وهذه « الرؤى » الغامضة ، كانت الآمال فى الحياة الباقية ، والجنة المقبلة مختلطة متداخلة ، وكان اليأس والانتظار ، وهما حدان متطرفان ، يعملان دائماً على تهيئة عقول الشعب ، فأخذ قسم منه ينتظر مملكة غير أرضية ، يسود فيها الأمن والقانون تحت سلطان من لدن الله ، وهى محاولة للهرب من قسوة حكم الأعداء ؛ أما القسم الآخر فأخذ يتمنى نفس المملكة الإلهية ، وإنما على دماء الأعداء والكفرة !

هذه فكرة الحياة الأخرى عند طائفة من الشعوب ، وبقي أن نتحدث عنها عند المسيحيين ثم المسلمين ، فى العدد القادم . [يتبع]

[١] أمرة حاكمة ، أسسها سلوقس الأول فى سوريا ، حكمت بين ٦٤٥ و ٦٣٢ ق . م .

[٢] مكابوس : اسم لسبعة إخوة استشهدوا وأهم تحت حكم أنتيوكوش أبيغان سنة ١٦٨ ق . م .

[٣] يرى آجر أنه ليس ضروريا أن يعتقد اليهود بالتناسخ لأنهم يفرطون فى ظهور « المسيح » أو غيره من أنبيائهم ، وأن ذلك لا يتعدى الامانى الوطنية .

[٤] الشبه قوى بين اعتقاد اليهود والزردشتيين فى ظهور مخلص ، ونرى أن ذلك جاء نتيجة للاضطهاد الذى صادفه كل من الشعبين تحت حكم أجنبي .

فِي مَجْلِسِ الْفَرَّانِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

تعود كثير من المستمعين إلى آى الذكر الحكيم فى حفلات المآتم والذكرى وبعض المناسبات - أن يجلس كل منهم إلى زميله يتحدث معه جهره ، أو بين السر والجهر ، فى شئون متنوعة ، وقد يتطرق بهما الحديث إلى تناول آخرين بالتدح وتعداد المثالب ، وقد يبلغ بهما التعمق فى أمور أقل ما يقال فى الحديث عنها إن إثارتهما عمل يحافى الذوق ، ولا يساقط الطبع ، ولا يتفق وما لمجلس القرآن من مهابة وكرامة ، وتوقير وتبجيل ، ورفعة وسمو .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى المساجد ، إذ نرى فريقا كبيراً من المصلين ، إذا ما سمعوا قارئاً ، يحزمون أمرهم باتفاق ، أو على سبيل المصادفة على أن يوجهوا إليه تحية ، ليست طيبة ولا مباركة عند كل وقف أو قبله بأصوات صاخبة مدوية ، مدفوعين إلى ذلك بدافع التشجيع له ، أو التعصب لفننه ، لما بينهم من روابط وصلات ، على أن من القراء من يتخذ له بطانة تلازمه فى حاله وترحاله ، تشيد بذكره ، وتترزع الإعجاب والاستحسان من سامعيه ، حتى يعلو ذكره ، ويظير صيته ، وينبه شأنه .

وتلك حالة ، كيفما كان الباعث عليها - تدعو إلى الأسى والالام ، ولا تتفق مع ما يجب لهذه المجالس من قدسية وجلال ، ليتوفر للجالس فيها ما يطلب منه ، من تفكير واعتبار ، وتدبر وإمعان فى أسلوب القرآن ، للوقوف على ما فيه من روعة وجزالة وقوة ورصانة ، وما يفصح عنه ، من حكمة وعظمة ، وترغيب وترهيب ، ووعد ووعد ، ودعوة حازمة إلى الطريق القويم ، وتوجيه حكيم إلى الصراط المستقيم .

وإن ما تقع عليه نواظرنا الآن فى المساجد وغيرها ، وتنقله إلينا الاذاعة ، ويسمعه العالم الإسلامى والعربى أيام الجمع من تهويش يثقل على السمع ، وتبرم

به الذاكرة التي تود أن تعي ، وتضيق له النفس التي تبغى التدبر والتأمل ، هو حرام يأثم مقترفه ، والداعى إليه ، والمحذله ، لأنه فضلا عما فيه من مجافاة للذوق ، فيه مخالفة للنص الصريح ، في قوله تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وللعلماء في المراد من هذه الآية الكريمة أقوال أحسنها قول الحسن وأهل الظاهر .

أن خوى هذه الآية على العموم في أى وقت وفي أى موضع ومن أى قارىء قرىء القرآن ، يجب على كل أحد الاستماع والسكوت ، لأن قوله فاستمعوا وأنصتوا أمر ، وظاهر الأمر الوجوب ، ففقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين ، والمراد من الاستماع الإصغاء ، والمقصود من الإنصات السكوت للاستماع ، بحيث يحيط السامع بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

وفد ذهب بعض العلماء إلى عدم الاكتفاء من سماع القرآن بالسكوت والإصغاء ، بل طلب منه الإجابة والقبول كما قال الزجاج ، ورأى أن هذا أوفق لتأليف النظم الكريم سابقا ولاحقا ، وأجمع للمعانى والأقوال ، فإنه تعالى لما ذكر قوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » تعريضا بأن المشركين إنما استهزءوا بالقرآن ونبذوه وراءهم ظهريا ، لأنهم فتمدوا البصائر وعدموا الهداية والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين ، لهذا ، أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد السماع ، وهو قبوله ، والعمل بما فيه والتمسك به بالألا يجاوزوه ، فيما يأتون وما يدعون ، وفي ذلك يقول تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال « أفلا يتدبرون القرآن » ، وصفة ذلك أن يشغل المؤمن قلبه بالتفكير والنظر إلى الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى ، اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة ، استبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوذ ، أو دعاء تضرع وطلب .

على أن رفع الصوت في المساجد بالعلم والذكر وفي غير حضرة القرآن كرهه مالك وجماعة من العلماء فكيف بهذه الأصوات ترتفع قوية مجلجلة بغير العلم

والذكر وفى حضرة القرآن . إنه - لا شك - ذنب عظيم وإثم كبير . يعيد الى الذاكرة ما كان يقترفه أولئك الذين استهانوا بجرمة البيت حينما تقربوا إليه بالمسكء والتصدية . وفى ذلك يقول تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، أى صغيرا وتصفيقا .

وفى كنف هذه الآداب حجب الدين الحنيف للسامع أن يطلب ذا الصوت الندى الجميل . الذى يرسل الى الآذان لحنا عذبا جميلا . يلبس الإحساس فيملا النفس نشوة وارتياحا ، والقلب إيمانا ويقينا ، وقد أخرج البزار وغيره « حسن الصوت زينة القرآن » وأيضا حمد من القارئ إن لم يكن حسن الصوت أن يحسنه ما استطاع الى ذلك سبيلا بحيث لا يخرج الى حد التمليط الذى يتولد منه عن الفتحة ألف والضممة واو . والكسرة ياء . أو يدغم فى غير مواضع الإدغام . فإن وصل به التحسين الى هذا الحد ، كانت القراءة حراما ، يفسق بها القارئ ، ويأثم المستمع لأنه عدل بالقرآن عن نهجه القويم — كما رغب إليه أن يضع نصب عينيه ، الحفاظ الشديد ، والعناية التامة بالكتاب العزيز ، فيحافظ على سلامة لفظه ويرعى ترتيب آيه ، وأن يجلس إليه خاشعا ، يزينه الوقار ، ويحوطه الحياء ، متطهرا متجملا ، وأن يحذر قطع القراءة بمكلمة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وقد كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، وأن يأخذ نفسه على ترك الضحك والعبث والنظر الى ما يلهى .

هذه بعض الآداب التى يجب أن تتوفر لمجالس القرآن ، دستور الله القويم ، ومعجزة رسوله الخالدة ، ونهجه المشرق الواضح ، لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفق الله المسلمين الى رعاية قدره ، وهداهم الى الخير ، وجنبهم مواطن الزلل .

إنه سميع مجيب ؟

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم صفاهي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

قدمنا طرفاً من آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول الأعظم ، في القرآن الكريم ، وبلاغته ، وقضية إعجازه ، وعجزهم عن الوقوف أمام تحديه ، وإقرارهم بالعجز على أنفسهم .

وتابع اليوم بقية هذا البحث الموجز الدقيق :

كان مسيلة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفاً منها الباقلا في كتابه « إعجاز القرآن » . وهي معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن في سموه وجلال إعجازه بأي حال ؛ وقد أصيب مسيلة بالخزي والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : وروى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » ، فرجع ، فحجى ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ؛ وكان من أفصح أهل وقته ... وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمنه ، فحكى أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ، ليحذو على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة ^(١) .

ويتهمون المتنبئ والمعري وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه في كفة واحدة مع القرآن الكريم .

ويقول الدكتور طه حسين باشا : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدا ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد في بابيه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه ^(١) .

وسنعود إلى حديث المعارضة في بحث مستقل إن شاء الله .

أمية بن أبي الصلت يعارض القرآن :

ويقولون إن أمية قد وقعت منه في شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاشا لله أن يوزن شعر أمية الديني الذي نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم .

ولقد نظم أمية قصصا دينية كثيرة ، كقصص مريم ، وقصة موسى ، وقصة إبراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز ، وذلك السحر القرآني العظيم ؟ والكونيات في شعر أمية ، والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

وفي شعر أمية يبدو تأثيره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده في هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأتيا
يوم تأتيه مثل ما قال فرداً	لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعید سعادة أنا أرجو	أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد لنا	ر كتابا حتمته مقتضيا

الشعراء تبهرهم بلاغة القرآن فلا ينطقون :

وأتم تعلمون أن الشعراء في أول عهد النبوة كانوا طوائف ثلاثا : فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن

[١] ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه .

الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وهؤلاء جميعاً أسلموا بعد حين وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش في نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحي . ومن هؤلاء : الخطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهلياً حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأنتم تعلمون قوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام ، انبهاراً بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية واستخذه في الإسلام ، عجزاً أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب ويروون أن لبيدا لم يقل شعراً في الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً
وقال له عمر : أنشدني من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة ، فزاد عمر في عطائه^(١) .
ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا ؟ فقد سألت هيناً موجودا
وقال لبيد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه^(٢) .
بلغاء العرب يتأثرون ببلاغة القرآن :

[١] ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

[٢] طبقات الشعراء لابن سلام .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلاء في عصر الرسول وبعده ؛ ويقول ابن خلدون في مقدمته في بيان السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، ومنثورهم ومنظومهم : السبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، والذين عجز البشر عن الإتيان بهما ، لسكونها ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ؛ فهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم ، أحسن دياجة ، وأصنى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً ؛ بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة ^(١).

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحاً جلياً في كل عصر ؛ من عهد النبوة حتى اليوم .

فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز ، وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواههم عن معارضته ؟ اللهم لا .

وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وواجراً ، وسنة خالية ، ومثلاً مضروباً . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقض عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين » .

وفي الحديث : قال الله تعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : إني منزل عليك توراة حديثة ؛ تفتح بها أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب ؟

الإسلام الحق

بقلم الأستاذ الشيخ عبد الحلیم محمود عبد الرزاق

من علماء الأزهر

الإسلام دين يسمو بالروح المتمسكة به إلى مدارج السمو والارتقاء . ثم هو يعالج كل مشكلات الحياة أنجع العلاج ، فإن لم تكن هناك مشكلات فهو يرسم للإنسانية أسلم خطة تسعدها في الدنيا والآخرة ، بل وينتظم كل سبب يعطف بالناس نحو حياتهم أو مماتهم . . . هكذا جاء محمد صلوات الله عليه بالإسلام من عند ربه .

فماذا يا ترى كان شأن الإسلام بين أهله بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ذلك ما نرى إليه من كتمان هذه .

سوف نتحدث عن إسلام جديد إذن ، ولا نغنى به إسلاما غير ما جاء به محمد صلوات الله عليه ، ولكن نغنى أن كثيراً من المسلمين في مختلف العصور قد خلعوا على الإسلام نعوتا وأوصافاً من عند أنفسهم ، وزادوا عليه أو انتقصوا منه بالقدر الذي يرضى أهواءهم . فمن بدا لهم أن حدود الإسلام كما رسموا ، وأن حقائقه كما فهموا . ساعدتهم على ذلك مرونة الإسلام وسعته ، ومجاراته لحاجات الحياة جميعها - على أنه للحكمة السامية كان في الإسلام ذلك - لا للشطط والتأويل .

ولهذا اختلف المسلمون في معنى الإسلام أكبر اختلاف ، وانطبعت في نفوس الناس للإسلام صور غاية في التباين والتمايز ، كلها إما قريب من تعاليمه أو بعيد عنها . وبعضها منطبق على الإسلام الحق الذي جاء به محمد صلوات الله عليه وذلك فيما نرى أقل من القليل .

رأت جماعة من المسلمين أن الإسلام ليس شيئاً إلا أن يكون عبادة ظاهرة ، لا لهم لهذه الجماعة إلا أن ترى هذه العبادة مؤداة ليكون المسلم قد قام بواجبه نحو الناس ، ويكون الناس بهذا قد وصلوا إلى لب الإسلام وحبه فؤاده . ولعل هذا رأى عامة المسلمين اليوم .

وجماعة أخرى رأت أن الإسلام ما هو إلا خلق فاضل ، وفيضان من الروحانية

وغذاء دسم من الفلسفة للعقل ، ومانع قاهر جبار ينأى بالروح عن طغيان المادة وظلمها وجبروتها ومجافاتها لحقائق الأشياء .

وجماعة ثالثة ترى الإسلام ديناً ينبغي أن نعجب به ونشيد بذكره ونسبح بحمده كلما ذكر شيء عن الإصلاح وطرقه لأن الإسلام فيه عند هذه الجماعة من المعاني الحيوية العملية ما يسعد المجتمع ويسمو به حتى لا مطمع في مزيد وأكثر هذه الجماعة يقف عند ذلك فقط لا يتجاوزه إلى ما طلب الإسلام وأكد في طلبه من مراعاة حقوق الله وحقوق العباد .

وجماعة ترى الإسلام نوعاً من الديانات التي خلفها الآباء للأبناء فكانت في عداد ما ورثوا وضمن ما يجب عليهم أن يقلدوا فيه آباءهم وأجدادهم ، فلا غناء في الإسلام عند هؤلاء ، ولا نهضة للمجتمع عن طريقته . فهذه الجماعة متبرمة بالإسلام أشد ما يكون التبرم ، ترى في التمسك به حباً لا متينة تربطها بالرجعية والجمود . وهذه الطائفة جلها ممن تثقفوا ثقافة أجنبية بعدت بهم عن الفهم الصحيح للإسلام فكأنهم لم يعرفوا عنه شيئاً أصلاً أو عرفوا عنه ما غمره المسخ والتشويه والبهتان . تلك صور متعددة لشيء واحد ، وأفهام مختلفة لمفهوم واحد . أما السبب في ذلك الاختلاف والتباين ، فهو ما ألمعنا إليه من جرى الناس وراء شهواتهم ومن سوء استغلالهم لمرونة الإسلام الخفيف . بل من عدم إمعانهم في تعرف أسرارهِ والبحث عن كوامنه .

وبعد : فإسلام اليوم الجديد الذي يجب أن نتمسك به حتى النهاية هو ما جاء به محمد صلوات الله عليه من عند ربه ولم يحرفه المحرفون ولم يتأول فيه المتأولون هو الكتاب الكريم : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » والسنة المطهرة : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » .

فالإسلام إذن في حقيقته التي تؤلم الكثيرين من عباد الشهوات هو عقيدة وعبادة وقومية ووطن ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، حتى إن القرآن الكريم ليعتبر هذا من لب الإسلام وصميمه حين يوصي بالإحسان فيه فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » ، والأدلة بعد ذلك والبراهين لا تدع مجالاً لمحرف أو تعطى ساحةً لمتاوّل فالآيات الآتية ناطقة أفصح ما يكون النطق ودالة أصدق ما يكون التدليل على حقيقة الإسلام التي قدما : ففي العبادة والعقيدة يقول تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ، وفي السياسة والقضاء والحكم بين الناس يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وفي المعاملات يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسنت عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينهم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم . »

وفي الحرب يقول : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم فيميلون عليكم ميالة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . »

إلى كثير من الآيات التي تتناول كل مقومات الحياة قاصيها ودانيها .

هكذا يجب أن نفهم أن الإسلام دين ينظم شئون الحياة جميعها لكل عصر ولكل جنس ، وإن لم نفهم فإن العاقبة جد وخيمة ، وإنها لتسير بنا إلى حيث نهلك ونذل ونخزي أكثر مما نحن فيه ، ونكون حينئذ والعياذ بالله كما قال تعالى : « أفئذ يؤمنون ببعض الكتاب وتسكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ، ونعوذ بالله من أن يحل بنا عذابه أو خزيه ونعوذ به من أن نظل هكذا نتخبط لا ندري من أمرنا أين رشده . »

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زاهد

مقدمة :

الاشتراكية مذهب اقتصادي حديث ينبغي المساواة بين الناس في الناحيتين المادية والأدبية، وكأى مذهب حديث يظهر في الغرب انبرى له المسلمون بالدراسة والتحليل، لمعرفة مدى اتفاهه مع دينهم أو اختلافه معه، ولقد ظهر — مع الفخر — أن الإسلام قد طبق نظماً لا يصح لنا أن نسميها اشتراكية إلا بالتجاوز، فهي تفوق الاشتراكية في عدلها ومساواتها ومراعاتها للناحية الإسلامية.

ولقد عثرنا يوم أن كنا مهتمين بدراسة هذا الموضوع على كتاب وضعه أستاذ هندي^(١) باللغة الإنجليزية بعنوان « الإسلام والاشتراكية » قدم له بمقدمة طويلة، فصل فيها منهج الإسلام في السياسة والدولة. ولقد رأينا أن نقل لقراء العربية تلك المقدمة الى لغة الضاد، عليها تلفت الأنظار الى ما في الإسلام من إحاطة بدقائق النفس البشرية ومعاملة أفراد البشر معاملة كريمة تليق بأدميتهم.

قال الأستاذ مشير: اعتذر الى قرأني عن عرض هذا الموضوع الذي يبرز كل يوم عرضاً سريعاً، وبالرغم من أن التأليف الأوربي في موضوع الاشتراكية ليس قليلاً بأي حال، فإن القارئ العادي لا يألفه، ولا أعلم بوجود كتاب قد بحث هذا الموضوع في لغة شرقية^(٢) كما أني لا أعتمد كثيراً على التأليف الغربي القيم في هذا الصدد نظراً لأن آرائي حول الاشتراكية تختلف الى حد كبير عن آراء الكتاب الأوربيين. ولسوء الحظ ليس من اليسير القيام ببحث على في الهند نظراً لقلة المكتبات القيمة وندرتها، اللهم إلا كتب قليلة مثل التي أعارني إياها صديقاي

(١) الأستاذ مشير حسين كيدوي

S. Mushir Hosein Kidwai : Islam and Socialism.

(٢) يجب أن نلاحظ أن المؤلف وضع كتابه سنة ١٩١٢ م

مولوى نظام الدين صاحب ، والمستر ر . س . هوبرت وتلك المساعدة التى أسداها الى صديقى الحميم قوار مهرجا ، وأخى الفاضل الشيخ مقبول حسين صاحب ، وإذن فكان على أن أعود الى المصادر الضئيلة التى بين يدى ، ذلك هو السبب الرئيسى فى أن هذا الكتاب الصغير ليس كاملا على النحو الذى أردت .

وبعد أن بين المؤلف الصعوبات التى اعترضته فى تأليف الكتاب ونشره ، أشار الى المصادر الإسلامية التى استمد منها البحث ، وأولها القرآن الكريم نفسه ، قال : لأتى على يمين من مدى جهل أوروبا بفضائل الإسلام ، ورأيت أنى باستعراض أصول الإسلام ربما أنجح فى إقناع قرائى بأن فكرة الاشتراكية فى الإسلام ليس عمرها أقل من ثلاثة عشر قرناً ، وأنها لا يمكن أن تعزى الى التأثير الأوروبى ، فلست أقصد بهذا الى القول بأن الدعاية الاشتراكية المنظمة كما تعرف اليوم ، كانت توجد حينئذ بل أريد أنؤكد أن مبادئ الاشتراكية لم تكن مجهولة فى المجتمع الإسلامى فى عهد محمد نفسه . وأن هذه المبادئ طبقت فى كثير من الأحيان أكثر مما طبقت بأوروبا فى أى وقت مضى بعد ذلك التاريخ . ولعل هناك بعض القراء الذين لا يودون أن يتأملوا كثيراً من النصوص التى كثيراً ما يبدو أنها تقطع سلسلة الأفكار ، ولهذا فلن أعرض فى هذا الكتاب إلا للنقط الأساسية .

للإشتراكية من وجهة النظر الحديثة مظهران :

الأول : اشتراكية الدولة وهى إما أن تكون مركزية أو ممثلة فى المجالس البلدية .

الثانى : الاشتراكية الصناعية .

والنوع الأول هو المظهر الأهم ، ذلك لأنه إن كانت الدولة اشتراكية فستصطبغ الصناعة بالاشتراكية إلى حد كبير ، والأرض نفسها هى منبع الإنتاج ومجال للصناعة العظمى ، وإذن فينبغى أن نغير اشتراكية الأراضي واشتراكية الدولة أعظم اهتمام ثم إن الإسلام قد قصر نفسه على هذا النوع من الاشتراكية فبمجرد أن أصبحت الدولة فى يدى الرسول صلى الله عليه وسلم اصطبغ دستورهما بالصيغة الاشتراكية وأصبحت الأراضي ملكاً للدولة ، وقد طبقت هذه السياسة عند ما بسط الإسلام رواقه على البلاد الأجنبية وحتى المغول فى الهند نهجوا هذه السياسة الاشتراكية فيما يختص بالأراضي ، كما أن خلفاءهم ظلوا ينسجون على منوالهم إلى يومنا هذا

على نحو مسرف لدرجة أنه لا ترد جميع المناجم إلى الدولة فحسب ، بل إذا اكتشف شخص منجماً فعليه أن يرده إلى الدولة التي تعد المالك الحقيقي للأراضي ، وكل ما يوجد تحتها ، وقد كانت الأراضي إبان الحكم الإسلامي تؤجرها الدولة للشعب ، وبذلك كانت تعتمد مالياً على الدخل الذي يأتيها من الأرض التي لا تزال حتى الآن المصدر الرئيسي لموارد الدولة ، ويقضى قانون الميراث في الشريعة الإسلامية بأن تقسم ثروة المورث إلى حصص ضئيلة ، وبذلك تتناول ملكية الدولة عدداً كبيراً من الأفراد جيلاً بعد جيل ، ولا شك أن هذا القانون يسدد ضربة قاضية إلى الدوقيات الواسعة ، فالمالك الحقيقي للأرض هو الدولة ، ونظراً إلى أن الدولة اشتراكية فإن أهم وسائل الإنتاج ستكون خاضعة للملكية للشعب .

على أن هذا النوع من اشتراكية الدولة ليس هو النظام الوحيد الذي سجل محمد فيه نظاماً تقدماً ، لأن نظام الدولة نفسها كان قائماً على أسس اشتراكية صرفة . وما يجدر ذكره أن الاشتراكيين في هذا العصر ينادون بالاشتراكية الديمقراطية فهم يريدون أن تقوم الحكومة على أساس تطبيق نظام إيفاد مندوبين إلى المجالس أو الهيئات التمثيلية ، بيد أن الحكومة القائمة على النظام النيابي أو التمثيلي ديمقراطية وليست اشتراكية بالمعنى الحقيقي ، فالنظام الاشتراكي يقضى بأن يكون للشعب نفسه صوت مباشر في الدولة ، وقد بلغت الدولة على عهد الإسلام ذروة الاشتراكية في هذا الصدد . فقد كان الناس يعلمون أن التشريع ليس في يد وزارة أو برلمان ، وأنه لا يخضع قط لمصالح أية طبقة أو جنس أو دائرة انتخابية . فجميع قوانين الإسلام مقدسة ، صدرت عن مشرع لا يحابي أحداً ، فهي ليست من صنع الإنسان وليست من صنع أية هيئة تمثل فريقاً من أصحاب الامتيازات ؛ بل إن للإنسانية - كوحدة - امتيازاً مشتركاً ، وليس في وسع شخص أو جماعة متجنين أو مختارين تغيير تلك القوانين من أجل طائفة خاصة أو حزب أو طبقة . والجمعيات التشريعية اليوم كلها تعد هيئات نيابية ، والحكومات التي تقوم على أساس هذا النظام تتيح الفرصة لتمثيل الأحزاب ، ومن شأن الأحزاب أن تخلق روحاً غير اجتماعية ، والتشريع الذي يرجع فيه إلى الشعب أقرب إلى الاشتراكية من التشريع القائم على النظام النيابي ، ولكن يجب أن يكون

المرجع هو الشعب كله دون إقصاء طائفة أو حزب ، ومن ناحية تفسير القانون المقدس (القرآن) للمسلمين فقد أعطى الإسلام امتياز هذا التفسير للرجل والمرأة على السواء وقد يكون التفسير الذى تذهب إليه امرأة عجوز فقيرة خيراً من تفسير الخليفة الذى يجب عليه فى هذه الحال أن يتبع رأى الصائب .

ويقضى هذا التمانون بأن تكون الحكومة فى أيدي الأفراد بحسب مقدرتهم واستحقاقهم عن طريق المندوبين . وكأن رؤساء الحكومة أدوات يقومون بحاجات ورغبات الشعب حتى يسود التمانون الإلهى وفقاً للتفسير الذى يذهب إليه الشعب .

هذا وتعد البيروقراطية فى الحكومة من أخطر النظم ، ولهذا فإن المسلمين كانوا يأخذون حذرهم منها ، ولم تكن حكومتهم بيروقراطية بأى معنى ، ولم تكن هناك أقسام حكومية أو وزارات ، إذ لم يكن رؤساء الحكومة مستقلين عن رأى العالم كما هو الشأن فى الوزارات القائمة فى حكومات العصر الحاضر الديموقراطية ، وكان على زعماء المسلمين أن يحترموا إرادة الشعب فى كل شأن من شؤون الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية ، ولم يكن فى وسعهم أن يغفلوا مطالب الشعب فى شأن ، ويحتموا وراء الأغلبية البرلمانية فى شأن آخر كما يفعل اليوم الوزراء الديموقراطيون .

وتعرض السكاتب بعد هذا للصحافة الأوربية حين نددت بتصرف الطليان فى طرابلس ، قائلاً إن هذا التنديد إنما يقع على الشعب نفسه ، بيد أن الوزراء الأوربيين أجمعوا على إهمال رأى العام ، وأصموا أذانهم عن كتابات الصحف . وحتى أول البرلمانات ^(١) (الترجمة الحرفية أم البرلمانات The mother of Parliments) ليس ديموقراطيا ، إذ ظل إلى العام الماضى خاضعا للصوت الجائر الذى ينطلق من هيئة ليست ديموقراطية ولا مثثلة . أما الديموقراطية الصحيحة فيجب أن تضع الإدارة والتشريع فى يد الشعب ، وبصرف النظر عن النظام الاشتراكى فإن الغربيين لم يستطيعوا إنتاج نظام ديموقراطى كامل لدولهم ، فلا يزال الجيش فى كثير من دول أوروبا أجيراً فى حين أن الإدارة المدنية فضلاً عن الجيش كانت خاضعة للنظام

(١) لعله يقصد البرلمان الانجليزى .

الإسلامى القديم الذى يقتضى بأن يكون القائمون عليها أبناء الأمة ، هذا وقد كان يوجد بحكم النظام الإسلامى جيش من المواطنين يخوض غمرات القتال دفاعاً عن شرفه وبلاده كما هو الشأن مع أبطال الجيش الذى دافع عن طرابلس ، ولم يكن الجنود المسلمون ، والمدنيون المسلمون يقبضون رواتب على شكل أجور ، وكانت الدولة تتكفل بأبنائهم وأسرههم ، كما هو الشأن مع طلاب الكليات أو مع المسنين والأطفال الذين ليس فى وسعهم أن يستقلوا بالعمل لكسب قوتهم ، وكان الشجعان من الجنود والقواد يقبضون مكافأة جزاء لخدماتهم الوطنية ، وكانوا إذا تركوا أراهم أو يتامى تكفلت الدولة بمن تركوا ، وأما الذين يستطيعون أن يقوموا بنفقات طعامهم وحاجاتهم فلا تصرف لهم أية مساعدة مادية فى وقت الحرب ، بل عليهم أن يتولوا أمر أنفسهم كسائر الرعايا . ومن الأمثلة الحية لهذا الصنف ، المجاهدون العرب من أهل طرابلس .

وجمل القول : أن التنظيم العسكرى والمدنى للدول الإسلامية كان اشتراكياً يكاد يبلغ حد التام ، ولكن لا يمكن القول بأن هذا النظام كان مطبقاً على الناحية الأخرى من الاشتراكية ، وهى الاشتراكية الصناعية . إذ لم يكن من الميسور إحداث تطور عظيم فى الاشتراكية الصناعية نظراً إلى أن الصناعة كانت حينئذ لا تزال فى طفولتها .
(يتبع)

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع لليتامى وعصمة إذا المحل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

مِنْ مَآسِي الْحَيَاةِ

لحضرة الأستاذ ابراهيم عماد

مراقب بالأزهر

نشأت في مصر . لا تعرف عن أهلها ولا بلدها شيئاً . فقد غادرت الريف في سن مبكرة . لتخدم عند أسرة تقيم في المدن .

وكان أبوها قد مات ، ولم يترك شيئاً يورث ، فالتوت سبل الحياة بأمها المعدمة ، واعتاصت عليها طرائق العيش الشريف ، ولم تجد في حياة الناس متسعاً لها ، ولا في مالهم باباً تستجديه .

فلجأت إلى الزوج ، ورماها الزمن بزوج فقير لا يكاد يجد ما يقبته ، ورضيت هي به لتتقى السنة الناس ، وتدفع غائلة العوز الشديد ولكن حاجته الملحة ، وحالته الضيقة ضاقا بابنتها ، فاحتال للتخلص منها . فأخذ يزين لها حياة المدن ، ويحببها في عيشها الرغيد ، ويرغبها في دفع بنتها إليه وما زال بها يلاطفها حيناً ، ويقسو عليها حيناً ، حتى لانت آخر الأمر وكان هذا آخر عهدها بابنتها ما بقي لها من حياة .

* * *

سافرت إلى مصر ، وزاولت مهنتها التي ساقتها إليها المقادير ، كما اعتادت مثيلاتها من الخدمة في بيوت التمارين . فلقيت عنتاً ، وأصابها مكروه ، فهامت على وجهها تبحث عن بيت تجد فيه الرحمة والأمن ، وتصيب فيه الخير والدعة ، وتشعر بالهدوء والاطمئنان ، ولكن حظها العاثر قد آلى أن لا يهدأ لها بال ، أو يقر لها مضجع ، أو تسكن منها نفس . فرماها في بيت لم يكن خيراً من سابقه ، وبأناس لم يعرفوا الإحسان ولم يقروه .

فظلت تجرب حظها ، وصارت يلفظها بيت فيتلقفها آخر بالشر والسكر ، حتى ضاقت بالحياة ، وثبت في نفسها أن « السادة » كلهم سواء ، وأن قلوبهم جميعاً قد

تجردت من الخير ، فلم تدن منه ، وأن نفوسهم قد خلت من الإيمان فلم يراقبوا الله ، ولم يخشوه ، وكأنهم آمنوا مكر الله ، وغدر الزمن ، ومداولة الأيام ، فلم تهدم عظة ، ولم يهد من سورتهم خوف من قانون ، أو جزاء من عقاب ، أو صوت — ولو خافت — من تقريع النفس وتأنيب الضمير .

وأى ضمير عند هؤلاء ، وقد أبطرتهم نعاء الحياة ولينها ، فأنسكروا مرارة العيش وقسوة الأيام ، ولم يبالوا بطبقة « الخدم » ونسوا أنهم مثلهم كلهم من آدم وآدم من تراب !!؟

* * *

ولما آدها الاحتمال ، وعيل الصبر ، أنكرت ماضيها وأقبلت على حياة جديدة فيها اللهو والإغراء ، وفيها الطهر والعفاف ، وتزوجت أخيراً من « عامل » فرضيت به ، وهدأت نفسها وقرت ، ووهبت بيتها وزوجها كل ما أوتيت من قوة وهمة ، فكانت تَمْضِي نهارها في إعداد البيت وتهيته ، وتسعى ليلها في إسعاد زوجها والتخفيف عنه ، لا تبالي بما تبذل من وقت وجهد ، لا تمتنع من شئ ولا تضيق بشئ... سواء لديها أصابت طعاماً شهياً رغداً ، أم أصابت قديداً بغيضاً... وما زالت تلك خطتها حتى من الله عليها بمولود « ذكر » .

فرحت بوليدها كثيراً - واغتفرت للزمن - من أجله إساءته ، وطوت صفحة الماضي ، وفتحت صفحة جديدة أخذت تملؤها بالتفاني في تربيته وتلشيشه ، بقدر ما يتسع لها عيشها المحدود .

ورفعت عن زوجها فساهمت - بنصيب محمود - في جلب القوت وتخفيض الرزق : فكانت تبيع أوراق « اليانصيب » حيناً ، وتتجر في البضاعة التي تعرضها الفقيرات على أفواه الأزقة والحارات أكثر الأحيان ، ووضعت أملها كله في وليدها ، وجعلت حياتها من حياته ، وسعادتها من سعادته . بل جعلت حياتها وسعادتها وقفاً عليه : لا تفكر إلا فيه ، ولا تعمل إلا له ، ولا تأتى أمراً أو تدع شيئاً إلا من أجله ، وفي ظل هذا الحذب ، وتحت تلك الرعاية والعناية ترعرع الولد ، وتدرج في طفولته إلى أن اكتمل نموه فدفعته به إلى المدرسة .

وقد أوتى « محسن » ذكاء نادرا ، وعقلا حصيفاً ، وقوة وافرة ، وظهرت بوادر ذلك عند ما أتم تعليمه في المدرسة الأولية ، فالمدرسة الابتدائية ، إذ بذ أقرانه ، وكان الأول ، وظفر بمجانية التعليم الثانوى لتفوقه ، وظل محافظاً على « الأولية » حتى نال « التوجيهية » .

وعندئذ رغبت أمه في أن ترتاح من السكدح وراء العيش ، فطلبت إليه أن يسعى لدى الحكومة أو لدى شركة ، عله يجد وظيفة ، وفي مرتبها الضئيل ما يسعها ويسعه . أليست قد نشأت على الحرمان ! أو ليس هو قد ربى على الكفاف ؟ لذلك كان كل هناءتها وسعادتها في أن يوظف لتباهى به لداتها وكثير عليهما الثانية جنهيات . ولكن « محسناً » قد تذوق لذة الظفر على الأقران ، وعرف « فيما عرف » حلاوة العلم وكرامة العلماء . فأبى ألا أن يتم تعليمه في الجامعة ولو كلف أمه النصب والعناء .

وأخيرا رضخت أمه لرغبته ، ودخل كلية الطب ، وكان كعهدنا به مبرزاً ظافراً ، وانتهى من دراسته كأكرم ما يكون طالب انتهى من دراسته . وفي فترة انتظار النتيجة كانت أمه تعد للساعات والثوانى ، وتعلق عليها الآمال الطوال العراض .

وفي اليوم الذى ظهرت فيه نتيجة النجاح كان الموت قد اختطفه من يديها ، ففرغت وشدهت وفغرت فاها ولا زال فاغرا حتى الآن ؟ ...

هذا من أقسى ما يعانیه النوع البشرى في حياته الدنيا ، وهو ليس بالشاذ النادر ، فإن لم يكن البتلى بمثله رء من دين كان الموت عنده أفضل من الحياة ، وكثيراً ما قضى على حياته بيده !

نعم إن في الدين لسلوى ، سلوى تشفى الصدور وتملؤها نورا . فلا تضق ذرعا بمآسى الحياة ، ولكن اركن في شذائلك إلى الدين تجده ينجذك ، ويوصلك إلى مأمنك من حيث لا تحتسب ولا تتخيل ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

زواج حضرة صاحب الجلالة الملك

مهرجانات نفوس الوصف

تم في أسعد الأوقات وأبركها عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » ملك مصر والسودان ، وحضرة سليمة المجد والشرف العالى صاحبة الجلالة الملكة « ناريمان » في يوم الأحد الثلاثين من شهر رجب لسنة ١٣٧٠ هـ ، الموافق لليوم السادس من شهر مايو لسنة ١٩٥١ ، في سراى عابدين العاصمة ، في حفل جمع أصحاب السمو أمراء وأميرات البيت العلوى الكريم ، وكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين ، وجهوداً كبيراً من السراة والنزلاء المحترمين . فكان يوماً مشهوداً لم يسبق له مثيل ، إذ اتفق وعيد جلوس جلالته الملك حيث يؤم السراى الملكية الأتوف من الوجهاء وكبار الموظفين وسفراء الدول وقناصلها وأعيانها المبجلين تهنئة جلالته « الفاروق » بعيد جلوسه السعيد ؛ كل هذا جعل ذلك اليوم من أحفل ما شهدته القاهرة من الأعياد الملكية .

وقد زاد في رونق هذا اليوم ، وعظم من شأنه ، أنه اجتمع فيه أمران عظيمان : زواج جلالة الملك ، وذكرى جلوسه السعيد ؛ وكلاهما يهتم له الشعب ويفرح به ، فلا غرو إذا بالغ في إظهاره شعور الغبطة فيه إلى الحد الذي رأيناه ، مما يسجل في تاريخ هذه البلاد ، ويبقى ذكره أبد الدهر .

ومجلة الأزهر : التي تمثل أرقى وأعرق جامعة في الشرق بأسره ، يسرها أن تنشر هذه الكلمة عنه في أولى صفحاتها ، وتذيعها في الخافقين ، راجية للأمة المصرية الكرامة والجلال ، و لجلالة مليكها المعظم العمر المديد ، والعز والتأييد ؟

محمد فريد ومبرى

خطبة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الأزهر

في إحياء ذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول

وتوزيع الجوائز على الناجحين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - حضرات السادة
نحتفل اليوم بذكرى ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول ، أحسن الله
مثواه . وتمر السنون وتتعاقب الأيام وذكره يعمر القلوب ويملا الأفتدة ويلهج
الأسنة بالدعاء إلى الله أن يطر جدته شأيب الرحمة والرضوان ، جزاء ما أدى لأمته
من الخير وجليل الأعمال .

كرس الملك فؤاد حياته كلها في مصر وخارج مصر ، لخدمة بلاده التي فطر
على حبها منذ حداثة ، وكان هدفه في جميع أعماله خير الأمة وتحقيق النفع العام
لجميع أبنائها ، ولقد أثر عنه أحسن الله مثوبته قوله « ليس أمراً أن تكون أميراً
ولكن الأمر كل الأمر أن تكون نافعا » .

كان من أول ما اهتم به الملك فؤاد العناية بشيية البلاد وتنشئتهم تنشئة
صالحة ، لأنه كان يرى أنهم عماد الوطن وعدته في المستقبل ، وفي صلاحهم صلاح
الوطن ، ولهذا حرص على أن يهيئ لهم تقدما عليا ، ويوفر لهم ثقافة ممتازة متعددة
النواحي ، تقوم على تمجيد ماضيهم العريق ، وتفتح أمامهم طريق البحوث العلمية
الحديثة التي سبق إليها العالم لتكون لمصر ثروة علمية نافعة تنبؤ بها مكانتها
المجيدة بين الأمم .

وكان أول مظهر لهذا الاهتمام إنشاء الجامعة المصرية بعد أن كانت أمنية وطنية
وفكرة قومية ، تظهر حيناً ثم تخبو ، لما تلاقي من الصعوبات ، فقد عمل رحمه الله

على أن تكون حقيقة واقعة ، ثم وجه عنايته إلى النهوض بها والتكئين لها لتكون أداة فعالة في إذكاء الروح العلمية بين الشباب ، وعاملا قويا في بعث حركة البحث والتأليف على أحدث نظم الجامعات العالمية العريقة .

وقد بذل لها في هذا المضمار من قوة نفسه ما قوى دعائمها ، ووسع مجالها وأعانها على النهوض حتى بلغت في عهده الميمون الذروة ، وحققت ما عتمد عليها من آمال - وها هي اليوم تحمل اسم فؤاد العظيم تياهة فخورة ، تسمى أعظم الجامعات جلالات ومجداً .

لم يفت فؤاد العظيم ما للأزهر الشريف من أثر بارز في الحياة المصرية ، وتمويم الشباب وتنشئتهم على الفضائل الإسلامية والأخلاق القويمة ، ولا ماله من مكانة سامية في البلاد الإسلامية ، فحرص على أن يبلغ من التقدم ما يحجي به أجداده السالفة ويهيء له في المجتمع الإسلامي مكانه المرموق ، فأحاطه بعين رعايته حيث أشار رحمه الله بتعديل قوانينه وإصلاح مناهجه ، ليساير حركة النهضة العلمية التي انبعثت في البلاد بفضل جهوده ، فكان أن صدرت عدة قوانين تدرج بها الأزهر في حرسته العلمية إلى أن توجت بقانون سنة ١٩٣٠ ، وهو النانون الشامل للإصلاح ، حيث أنشئت به الكليات ونظم به الأزهر تنظيمًا جامعيًا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية والشرقية وهو تنظيم سائر فيه الأزهر روح العصر مع الاحتفاظ بالتراث الفسكرى الإسلامي والعناية بفهم ما فيه من كنوز و ذخائر

وبتوجيه الكريم ، أرسلت بعثة فؤاد الأول من أبناء الأزهر إلى الخارج ليتزودوا من العلم والمعرفة ، وليدرسوا أحسن النظم الجامعية في البحث والتأليف . وأرسلت بعثتان من رجاله إلى الصين والحبشة لنشر الثقافة الإسلامية في أرجاء هذه البلاد . فكانت هذه البعوث نواة لحركة التوسع العلمى التى نمت واتسع نطاقها في عهد شبلة العظيم ، الملك فاروق الأول أعزه الله

وقد عمل أحسن الله مثواه ، على تشجيع الطلاب على النبوغ والتفقه في العلم فأرصد مكافآت سخية للتابعين والأوائل منهم في الكليات ، وما هذه الجوائز التى تقدم اليوم لأوائل الناجحين في امتحان الشهادات العالية للكليات إلا عارفة من عوارفه ، ويد من أياديه الغر الميامين على الأزهر وأبنائه .

وجملة القول أنه في عهد الملك فؤاد العظيم قد انبعثت في الأزهر كله نهضة علمية واسعة ، فانتشرت معاهده في الأقاليم ، ونشطت حركة البحث والتأليف بين رجاله وأخرج أبناء الأزهر مئات البحوث القيمة في شتى نواحي العلوم ، وتبوأ الأزهر بفضل رعايته مكانة ملحوظة في الحياة العامة في مصر وخارجها ، وهو في عهد الملك فاروق ، أعزه الله ، قد خطا في هذا السبيل خطوات موفقة ، وهو يسير قدما في نشر الدين والتسامف الإسلامية في مصر وخارج مصر بما نرجو أن يحققه الله به الخير العام للإنسانية .

لم يقف فضل الملك فؤاد في النهوض بشيبة البلاد عند حد العناية بالأزهر والجامعة ، بل امتد إلى التعليم العام فشمع جميع مراحل ، من ابتدائية وثانوية وفنية حيث أشار بإصلاح نظم التعليم ومناهجه في المراحل المختلفة بما يتفق ومصلحة الأمة . وبحسن توجيهه انتشرت مدارس التعليم الإلزامي في القرى والبلاد ، وأنشئت مدارس ليلية لتعليم العمال وغيرهم ، وكان هدفه في كل ذلك النهوض بأبناء الأمة ومحو الأمية من صفوفهم ؛ لتسامي مصر أمم العالم حضارة ومجداً .

كما وجه عنايته إلى رعاية البحوث العلمية التي تعود على الإنسانية بالخير ، فشجع الجمعيات العلمية وأمدّها بروحه ، وأظلمها برعايته ، حتى استطاعت أن تؤدى رسالتها وأن ترفع اسم مصر ومكانتها ، وفي مصر الآن كثير من الجمعيات ومعاهد العلم النافعة كلها من غرس يديه ؛ كالجمعية الجغرافية ومعهد الأحياء المائية وجمعية الاقتصاد السياسى وجمعية فلاحية البساتين وجمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الإسعاف وغيرها .

واهتم جلالته باشتراك مصر في المؤتمرات الدولية ، لما في ذلك من عظيم الفائدة من ناحية الدعوة إلى مصر بين أمم الأرض ، ومن ناحية الاستفادة من تبادل البحوث فيما بينهم مصر الاطلاع عليه من التقدم في أساليب الزراعة والصناعة والاقتصاد وغير ذلك . وبفضله دعت مصر إلى عدة مؤتمرات كان لها أحسن الأثر في العناية لمصر الحديثة التي أنشأها هذا الملك العظيم .

وكان جلالته شديد العناية بالأدب والفن ، حريصاً على أن يوفر للشباب ذخيرة قومية من السكتب التي تعد مراجع في الأدب واللغة ، حيث أشار - أحسن الله ذكراً - بطبع أمهات السكتب الدينية والعربية التي تعد من ذخائر التراث الاسلامى .

وأمر فطبع المصحف الكريم طبعا متقنا تحت إشراف لجنة علمية ، ثم وزع على المعاهد والمدارس وكثير من البلاد الإسلامية ، وهو معد لكل من يطلبه من المسلمين في جميع أقطار الأرض .

هذه لمحة من جهود الراحل العظيم في النواحي الثقافية والعلمية ، أما جهوده في النواحي الاجتماعية والعمرانية والسياسية فهي أعظم من أن ألم بها في مثل هذه العجالة ، ويكفي أن أقول إن له في كل بقعة من الوادى أثرا من آثار نهضته يحس به كل مصرى . ونظامنا الدستورى الحديث وهيئاتنا النيابية والتمثيلية فى الخارج ، كلها لبنات قوية وضعها طيب الله ثراه ، وبنت عليها مصر الحسنة مجدها وعظمتها . ولقد أتم الله نعمته عليه فشهد بنفسه الغرس الذى تعهده ، وأحس عظمة المجد الذى شاده .

وانتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ودوى صوت القدر فى أرجاء الكون « مات فؤاد العظيم وليحى الملك فاروق » . رحم الله فؤاداً ، وجعله فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في احتفال جمعية المحافظة ، على القرآن الكريم

بتوزيع الجوائز على المتفوقين

بمحضور ، مندوب من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأسمى الكريم ، الذي أنزل
عليه القرآن ، هدى ورحمة ، وذكرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ، حفظوا كتاب الله
واهتدوا بهدى الله ، ففازوا بالسعادة في الدارين ..

دعوة الحق

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة الملك

حضرات السادة :

إذا كانت جماعات البر والخير جديرة بالتشجيع والتقدير ، فإن واحدة من هذه
الجماعات ، لا يمكن أن تقارن بجمعية المحافظة على القرآن ، في سمو الغاية ، ونبل
المسعى ، إذ ليست هناك غاية أسمى من حراسة القرآن ونشره ، لأنه الأساس
الذي نحفظ به حياتنا ، ونصون به شرفنا ، ونحمي به في هذه الحياة الدنيا كرامتنا
السياسية والاجتماعية .

القرآن الذى ينفر من الذلة وينفر منها ، ويمكن للعزة فى نفوس أبنائه .

القرآن الذى أدرك بعض غلاة الاستعمار أنه سبب نهوض المسلمين فى الماضى ، وأنهم إذا عادوا إلى التمسك به عادوا من جديد إلى التماس المجد ، والتخلص من مظالم المستعمرين واستبدادهم ، فصاح فى قومه قائلا « إنه لا بقاء لنا فى الشرق إلا إذا انتزع هذا الكتاب من أيدي المسلمين » . ولقد صدق ، فإن عزة المؤمنين التى قررها القرآن لا يمكن أن تجتمع مع ذلة المستعبدين . . إن هذا الكتاب نبع فياض بأنبال المثل وأزكاها ، ولو أننا روينا ظمأنا الروحى والمادى منه ، لما شعرنا بهذه الذلة فى اتباع الغرب ، وارتقاب الغيث من سرايه الخادع .

مهرية الرأى والعدالة والمساواة فى القرآن

يا حضرات السادة :

إن التجارب التى عانتها الإنسانية من حربين كبيرتين ، تهاهب بعدها لحرب أخرى ، أثبتت أن الأمم لا تنهض إلا على أسس الحرية والعدالة والمساواة فى الحقوق والفرص ، والمساواة فى الشدائد والحن . والضمان الذى يرد عليها هذه المطالب إن عدا عليها جبار عنيد ، أو افقت عليها شعب مستكبر طامح ، وللأمم جميعاً أن تسعى إلى هذه الأهداف ، وأن تبذل فى سبيلها أحرّ دماؤها ، وأغلى أموالها ، فإن الحياة بدونها لا تساوى فتىلاً ، ولو فقه المسلمون القرآن العظيم ، وأبصروا ما رسم للعالم من غايات ، وخط له من مناهج واضحات ، لعلموا أن ما يطمحون إليه فى تناول أيديهم ، ليس عليه غبار من شهوة ، أو ظل من ارتياب .

إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علّم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تألّه كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا » . ولقد كان

صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أكبر معلم لحرية الفكر . يوم نادى في عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى في سبيلها ، وتحمل العنت لإبلاغها ، وإزاحة العوائق من طريقها . وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التي صحبت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الإنسانية العالية ؟ هو حق كل امرئ أن يعتنق ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، ويعيش في ظله ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . والفتنة معناها استخدام القوة في مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادئ السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حتمه في ظلها القوي والضعيف ، ولقد شرحت في موقف سابق من هذا المنبر ، كيف كان عامة الناس يتقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء ، ولا يترددون في تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة في القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مآلهم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين ، وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعاً في ساحة القضاء فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة ، ولو كان في ذلك خذلان للمسلم الحاكم وانتصار للكتابي الضعيف . . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين

الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله في الخلق ،
فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أكرم من لون .

وفي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ،
وسلمان الفارسي ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » .

نعم . علم الإسلام أبنائه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة
بينهم على سواء ، وأن السوق والعطاء أمام تعاليم الدين ، وموازن الحساب ، وفي
ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم ، فأين
ذلك مما يحدث في العالم اليوم تحت إشراف السياسة العالمية ، وبوحها ، ورضاها
من تقسيم خلق الله الى سادة وعبيد ، ومن تحويل المستعمرات الى حقول استغلال ،
يمرح فيها البيض ، مفتاتين على جهود السكادحين ؟!

الحقوق التي قررها القرآن للمعموزين في المال لا نظير لها في النظم الحديثة

ومن أروع ما حفل به القرآن الكريم ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً
للتضامن الاجتماعي الذي يشد بناء الأمة شداً محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث
فيه ثغرة .

فالغنى في نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه
فيه ، وتناط به حقوق يجب أن يؤديها ، ويجب على الدولة أن تسأله عنها ، وقد
فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتزكهم بها ، وهناك حقوق لا تقل في خطرها عن الزكاة ، أوجبها الإسلام كما
أوجب الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن في المال حقاً سوى
الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبيناً حقيقة البر ، وعناصر التقوى ،
ودلائل صدق الإيمان فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ،

والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب . وأردف هذا بقوله « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين حق على من صادفهم في أزمته ، ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمسانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إكرام الضعيف المنتمطع عن أهله وماله ، حق على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل في المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرفهة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ، ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك ما لا نظير له في شرائع البشر — وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق في الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . (إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية ، فهم منى وأنا منهم) ، حدثنى إذا بعد هذا الذى سمعته ، ماهى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة ومرحمة ، وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست في نظر الإسلام نافلة هينة ، ولكنها نظام مفروض ، يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال ، مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قرره عليه الصلاة والسلام ؟ !

هذا أيها السادة هو القرآن الذى أخذت هذه الجمعية نفسها بتحفيظه للناشئة ، بعد أن حورب في بلاده بكافة الوسائل وشتى الدسائس والحيل التى أحكمها الماكرون فإذا يمكن أن نبلغ من القول في فضل هذه الجمعية ؟ إنا ندع شكرها لله الذى يجزى المحسنين .

وفقمنا الله وإياكم للاهتمام بهدى القرآن ، والتأديب بآدابه في ظل صاحب الجلالة الملك العظيم ، ملك وادى النيل ، فاروق الأول حفظه الله ؟

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

السيد محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في الاحتفال بذكرى المجاهد العربي

السيد عبد القادر الحسيني « بدار جمعية الشبان المسلمين ،

أيها السادة :

إن احتفالنا اليوم بتلك الذكرى المجيدة ، ذكرى أحد أبطال الجهاد المغفور له السيد عبد القادر الحسيني ، يبرز لنا أعظم ناحية من نواحي الجهاد لأشرف غاية من غاياته ، في هذا المثل الحى الخالد ، رمز التضحية (عبد القادر) الذى جاهد فبذل أعز ما يملكه المجاهد ، وهو نفسه ودمه ، وجاهد فى أنبل هدف يهدف اليه الأبطال ، وهو حماية الدين ، والعقيدة ، والوطن ، فاستشهد عبد القادر بعد أن ضرب أروع الأمثال ، ولا غرو ، فإنه نبت طيب نما فى أرض خصبة طيبة فلا بد أن يكون لذكراه هذا الخلود .

إن جميع من عرفت من أسرة الحسيني ، كان له شرف اضطهاد الظالمين المعتدين بلون من ألوان الاضطهاد . وكبير هذه الأسرة مثل مضروب فى قوة الإيمان ، والثبات على العقيدة ، وتحمل جميع المكاره ، فى حكمة ، وعمل ، وثبات نفس ، وقوة جنان ، ونشاط متمتع النظير ، واحتقار لأكاذيب الأعداء ، أو المأجورين ، أو بعض البسطاء الخدوعين .

لم يكن غريباً عندي إذأ أن يقوم عظيم من عظماء هذه الأسرة بذلك الجهاد المبرور ، الجهاد الحاسم ، القاهرة ، فإما أن يحسم بقهر الأعداء ، أو يحسم بالاستشهاد .

فالجهاد في نظر المؤمن طريق معبد إلى نصر محقق ، ان لم يكن في دار الفناء ، ففي دار الخلد والبقاء . (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) .

ليست ذكريات الجهاد والاستشهاد كلاماً يردد ، أو خطباً تعاد ، فذلك من مواطن الضعف بين العرب والمسلمين في عهودهم الأخيرة ، حينما ألهبوا الأكف بالتصفيق ، وأتعبوا الحناجر بالهتاف ، وراحوا يعددون مناقب السلف وتخاذل الخلف ، وكيف فاز الأولون بالغلب ، وقنع الآخرون بالبكاء .

لا . أيها السادة . ذكريات الشهداء اقتناع بالحق وشعور بوجوب التضحية في سبيله ، وتدافع إلى استعادته بالعمل لا بالتمول . . . ذكريات الشهداء قوة في النضال ، وعزيمة في الجلال ، وتسابق واعداد ، حتى يعلم الناس أن العرب والمسلمين أفاقوا من سباتهم ، وصمموا تصميماً لا ينحل على استرداد مجدهم .

أعداؤنا أيها السادة هم أعداؤنا الأولون ، هم الصليبيون . هم الذين شنوا الغارة على المسلمين في مدى مائتي عام ، فعمدوا إلى إذلال العباد ، وإفساد البلاد ، وهم ليسوا في ثوبهم الجديد من الحضارة المسكذوبة ، والمدنية المدعاة والزعيم المردود بأن الحروب الآن سياسية لنصرة المظلوم ، والأخذ بيد الضعفاء ، وتوزيع العدالة في الأرض . ليسوا في هذه الحروب بالنسبة للمسلمين الأصليين يفرقون كلمتهم ويناهضون حقوقهم ، ويطمسون معالم حضارتهم وثقافتهم . . فإذا كان هؤلاء الأعداء لا يزالون صليبيين فليكن المسلمون جميعاً أيوبيين ، وليكن كل ملك من ملوكهم وكل أمير من أمرائهم وكل زعيم من زعمائهم ، ليسكن كل واحد من هؤلاء صلاح الدين الأيوبي في قوة إيمانه وشكيمته ، ورباطة جأشه ، وسلامة رأيه ، وبعد نظره ، وليكن جهادنا في أنفسنا بالرجوع إلى الدين ، واستجلاء نظمته ، والحفاظ على تعاليمه السامية ، التي ترسم للعالم كله طريق المجد والعظمة والإباء .

ثم يأتي بعد ذلك جهادنا في أعدائنا الذين لا ينمتطعون عن السكيد لنا ، وتمزيق صفوفنا ، وتفريق وحدتنا .

هذا سجل التاريخ ، شهادة ناطقة بما كان في عهد الأيوبيين في نفس الميدان الذي قضى فيه عبد القادر الحسيني ، من مقاومة صادقة ، وجهاد رائع ، ابتداء من عهد مؤسسها صلاح الدين ، إلى عهد توران شاه .

كلت حياة هذين البطلين بالانتصار الباهر في معارك معروفة ، وكان بينهما ملوك لم يتصروا عنهما في رد غارات الأعداء ، فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوروبا على المسلمين ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة .

ولولا وقوف هذه الدولة في وجه أوروبا المتعصبة لا نقرض الإسلام من الشام ، والجزيرة ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، كما انترض من الأندلس . والفضل في ذلك للواقعيتين الحاسمتين واقعة (حطين) وبطلها صلاح الدين ، وواقعة (المنصورة) وبطلها توران شاه .

ونحن الآن بصدد انتظار معركة جديدة يقودها بطل من طراز هذين الرجلين العظمين لطرد الأوربيين من بلاد الإسلام ، وطرد أذنانهم من فلسطين ، قلب العالم الإسلامي .

ولإني الآن أيها السادة أسجل في طمأنينة وثقة ، وقوة أمل ، أن المرحلة التالية ستنتهي إن شاء الله بانتصار العرب والمسلمين متى قيض الله هذا البطل الذي يقود المؤمنين إلى النصر الموعود ، والظفر المرجو ، ذلك وعد الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

كما إني واثق من أن مصر ستظل كعادتها في مقدمة الصفوف ، لدفع الأعداء وحمل اللواء ، وفق الله مصر والعرب ، وحفظ الله الملك .

ليس هيباً نبجل

الملكيات الزراعية الكبرى

لحضرة صاحب العزة مدير المجد

قال حضرة مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) تحت رقم ٢ من باب (هذه عوائقنا) بعنوان (الملكيات الزراعية الكبرى) :

« وثاني العوائق التي تحول بين المجتمع ونموه وسعادته - هذه الملكيات الزراعية الواسعة .. وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكاً لمائة أسرة أو مائتين ؛ فماذا يبقى للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ ، هذه ظاهرة محزنة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد في مواجهتها مثل ما تنفقه في مكافحة الضائمين بها ، لافدنا كثيراً . »

ثم أتى حضرة المؤلف بإحصاء يبين أن في مصر (١٦٨٩٤٠٨٣) من المواطنين لا يملكون شيئاً من أرض بلادهم ، أي إن الذين يملكون أجزاء منها لا يزيدون عن أربعة ملايين إلا قليلاً .

وعقب حضرة المؤلف على هذا الإحصاء بقوله :

« ترى : هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها على هذه المحنة الطاغية ؟ ! فإنك لتجد الحياة كلها ضرباً متمائلاً من الشذوذ والفوضى ... ومثل ذلك في سوريا ولبنان واليمن ... وفي الحجاز حيث تنقطع أنفاس الحجازيين عدواً ووثباً وراء الحجاج وهم يصيحون : هله يا حج .. هله يا حاج !! بينما حفنة من المترفين تحصى على الأصابع ... تسبح في بحيرات من اللذة والشراب ... والذهب المذاب . »
« يا حسرة على العرب ... وعلى الشعوب التي أوهنها الحرمان الآليم ! »

نقول : هذه اللهجة المقذعة التي يستخدمها المؤلف في إيراد الموضوع الذي هو بصدده ، يوهم بأن عوامل من الاستبداد في تصريف الشؤون الاقتصادية تعمل على

لميجاده واستمرار وجوده ، وكان الأولى معالجة الموضوع الخطير معالجة علمية لتعلم الشعوب الممنونة بهذا الضرب من الحرمان كنهه العوامل العاملة على وجوده وعلى استمراره ، وتتأدى من ذلك إلى طرق الخلاص من آثاره .

والحقيقة العلمية هي أن الشعوب كلها على عهد الحكومات المطلقة السابقة على العهد الدستوري ، كانت على هذه الشاكلة ، فلم يكن لأحد من الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمان وغيرهم شبر من الأرض لأحد منهم حق التصرف فيها استغلالاً أو بيعاً وشراء ، بل كان الحق كله على الأراضى ومن عليها للبلوك وبطاناتهم وكان الشرق كله على تلك الشاكلة .

فلما تولى مصر محمد على الكبير مؤسس الأسرة المصرية المالكة عمل على تنشيط الفلاحين على الزراعة واستصلاح الأراضين ، فكان يفرض عليهم استغلال قطع من الأراضى فرضاً ، وكانوا هم تقصرون همهم ، وتقصر ذات يدهم يعجزون عن زراعتها ، ويلجأون إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة . فكانوا يهربون إلى سورية و يقيمون فيها طول حياتهم هرباً من هذه التكاليف .

في هذا العهد ، عمد كثير من كبار رجال الدولة إلى احتياز ألوف من الفدادين واستصلاحها والانفاق عليها ، واستخدام الفلاحين فيها بأقل الأجور ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا مساحات واسعة للزراعة الأصولية ، واعتبار ما يحتازونه على هذا الوجه ملكاً لهم . فلما هل عهد تحديد الملكيات الزراعية أقرت الحكومة ملكيتهم لتلك الأراضى ، وبقي معظم الفلاحين أجراء عندهم ، ليس لهم مما تعبوا في استصلاحه غير حظ ضئيل .

على هذا الوجه أصبحت معظم الأراضى الزراعية لكبار رجال الدولة ، ثم لمن دونهم من الموظفين .

وقد فطنت الحكومات السابقة إلى أن حرمان الفلاحين من ملكية الأراضى يجرى إلى مشكلات اقتصادية خطيرة ، فعملت على تسهيل حصولهم على ما يستطيعون الحصول عليه منها ببيع الأطنان البائرة إليهم بأثمان زهيدة ، وباعفاء بعض تلك الأطنان المملوكة من الضرائب . فأصبح لهم بهذه الوسائل بعض الأراضى ، وهى لا تزال تعمل على شاكلتها في هذه الوجهة . وستضطر إلى تقوية هذه الوسائل حتى تبلغ حدها المعقول .

على هذه الشاكلة جرت الأمم الأوروبية في تمليك الفلاحين الأراضي التي يعيشون عليها ، وقد كان نشاطها أشد من نشاطنا في هذه السبيل ، ولا نظن أنه يمر قرن حتى تصبح حصة الفلاحين من ملكية أراضيهم أكبر الحصص ، فتتزن الشؤون الاقتصادية من هذه الناحية ، وتبلغ الحاجة الاجتماعية حدها الطبيعي ، ولا نظن أن ذلك يكون إلا بعد تحديد ملكية الأراضي .

أما في أوروبا فقد بلغت أممها أقصى مرحلة من مراحل توزيع الأراضي على الفلاحين ، وحددت فيها الملكيات تحديداً دقيقاً ، فأصبح للذين يشتغلون بالزراعة حق يمتاز في هذا المجال الحيوى .

ونريد أن نقول إن لإحكام وضع قواعد ثابتة لتوزيع الأراضي على المشتغلين بزراعتها أمر بعيد التحقق ، ولكن السير إلى تحقيقه على مر الأيام أمر منتظر بعد أمد ليس بطويل .

فكان المنتظر من الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) أن يلطف من شدته في معالجة هذه المسألة الاقتصادية وهي تسير سيرها الطبيعي ، وأن لا يجعلها موضوع انقلاب تقدمه النذر والصيحات ، وتلام عليه الجماعات والحكومات ، فهي ككل الأوضاع الاجتماعية لا تتولد إلا بتولد عواملها ومقتضياتها ، والدليل على ذلك أن أية حكومة لو أرادت إحداث مثل هذا التطور قبل استكمال مقتضياته ، وتوافر دواعيه ، لما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لعدم استعداد الشؤون الاقتصادية لموانئه ولا الأيدي العاملة للقيام بحقه . والأستاذ المؤلف يعرف هذا جيداً ، ولكنه يرمى من وراء الدعوة إليه إلى الدعوة للاشتراكية المتطرفة في وسط شعوب لم يتمذهبوا بعد بالاشتراكية المعتدلة . فهي دعوة تذهب مع الريح ككل دعوة ليس لها بواعث من الهيئة الاجتماعية ، ولا من حزب قوى الجاه متغلغل في عدد وفير من المجتمع ، يرى أن لا حياة له إلا بإحداث ذلك الانقلاب الاقتصادي ، اعتقاداً راسخاً منه أنه أمثل المناهج لتحقيق اجتماع أفضل مما نحن عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الاشتراكية المتطرفة التي يدعو إليها الأستاذ لما يمحض عليها مدى من الزمان أثبتت فيه أنها أولى من جميع النظم الاقتصادية لحياة الشعوب حياة طيبة . فهي لا تزال وليدة جماعات مفكرة في بيئات

لم تستكمل وجودها الاقتصادي، دفعها إليه عوامل سياسية واجتماعية ليس لسائر الشعوب مثلها، ولا احتوشتها من عوامل الانقلاب مثل التي احتوشتها. ومثل هذه الجماعات لا تندفع إلى تلك الانقلابات، ولو أعطيت الاختيار لقبولها. ودليلنا على ذلك، الشعوب الأوروبية، فإنها بما أوتيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيم على السبيل الاقتصادي الأصح لوجودها، ولكن أكثريتها تحجم عنه ولا تريده، وتمضى قدما فيما هي فيه، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليه من الطريق الدستوري المقرر، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادي القائم.

وبعد، فلا يجوز أن يفوتنا أن المبالغة في طلب التسوية في مجال الحياة الاقتصادية لا يجوز أن توجد، فليس ذلك في قدرة أى مصلح. ولا يمكن أن يؤدي إليه أى نظام في العالم. فإن الناس يتفاوتون في المقدرة العلمية والخلقية، وإذا أمكن أن يحصل رجل بجده واجتهاده على مقدار من الثروة في مدة محدودة، لا يمكن لغيره أن يصل إلى مثلها لوجود الموانع دون ذلك من ناحية قدرته العلمية والعملية، وأخلاقه وقوة احتماله، وسائر الصفات المؤهلة للإنتاج والاقتصاد، ولو أوتى الأفراد بحصصهم من الثروة العامة كاملة، فلا يستطيع الكثيرون منهم أن يحافظوا عليها، فالتفاوت بين الناس أمر طبيعي لا بد منه ما دامت النفوس متفاوتة، وما دامت الشهوات تدفع بأصحابها إلى تجاوز الحدود في المتاع، وإلى الانتهاء إلى الحرمان المطلق، وبناء على هذه الأصول المقررة لا يمكن أن تصدق أحلام الاشتراكية الكاملة إلا إذا ساد المجتمع نظام استبدادي يجبر الأفراد على توحيد مطالبهم، والاكتفاء بما لا يضر الحصول عليه بقية أفراد المجتمع. وهذا الاجبار يتنافى وأقدس عنصر يجب ترك المجال الاجتماعي مفتوحا أمامه، ألا وهو الحرية.

نعم يمكن بتقييد حرية الناس تأليف مجتمع تتساوى فيه الأنصبة من مقدمات الحياة، فيعيش الناس سواسية لا يزيد بعضهم على الآخرين ولا يقلون عنهم، ولكن مثل هذا يصبح جحima لكثير من النفوس يشورون عليها، ويفضلون الموت على العيش فيها؟

النفس

سور التسبيح في القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

— ١ —

أقصد بسور التسبيح تلك السور التي نزلت مبدوءة بلفظ «سَبَّحَ» أو «يَسْبَحُ» ،
أو «سبح» أو «سبحان» وهي سور سبع ، منها اثنتان مكيتان هما الإسراء والأعلى ،
وخمس مدنيات هن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن .
وسننظر أولاً في هذه الخمس المدنيات .

* * *

تبدأ هذه السور كلها بتقرير الحقيقة الواقعة في شأن الإله جل جلاله وما خلق ،
فتبين أن جميع الكائنات من سماوية وأرضية هي دلائل ناطقات ، وآيات بينات ،
تدل على عظمة خالقها ومكوتنها ، وتنزهه عن كل صفة من صفات السوء والنقص ،
وقد عبر عن هذا تارة بلفظ الماضي : «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» ،
وتارة بلفظ المضارع : «يسبح لله ما في السموات وما في الأرض» ، إشعاراً بأن
هذه الحقيقة ثابتة من لدن وجدت الكائنات ، باقية ما بقيت .

وتشارك هذه السور - بعد اتفاقها في هذا الافتتاح - في معنى واحد يبدو أنه
غايتها ومقصدها وهدفها الذي ترمى إليه ، كما تشارك كلها - بوجه إجمالي - في الوسيلة
التي تتوصل بها إلى هذه الغاية .

فأما المعنى الذي تشارك في تقريره وإبرازه فهو غرس خلق التضحية في قلوب
المؤمنين ، وحشهم في قوة وصرامة على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله .

وأما الوسيلة التي اتخذتها لذلك فهي بيان أن كل شيء في هذا الوجود إنما هو لله تعالى ملكا وتصريفا وتدييرا ، فليس يسوغ للملوك أن يتمرّدوا على أمر مالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم ، ولا أن يخلوا بشيء مما أفاضه عليهم سواء أكان هذا الشيء نفسا أم مالا أم متاعا .

على أن الأسلوب في بيان هذه الوسيلة قد اختلف ، فكان لكل سورة طابعها الخاص ، وروحها المتميز .

ونرجو أن تتمكن من إبراز ذلك عند ما نعرض للكلام عليه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - سورة الحديد :

بدأت أول سورة من سور التيسيح المدنيات ، وهي سورة الحديد بقوله تعالى « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ثم أوردت بعد ذلك أوصافا لله جل جلاله ترجع إلى ذاته وأفعاله وتصريفه ، فبينت أن ملك السموات والأرض إنما هو الله ، وأنه تعالى يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، ثم ذكرت خلقه السموات والأرض في ستة أيام واستواءه تعالى على العرش وإحاطة علمه بكل شيء ، ورجوع كل شيء إليه ، فتم لها بذلك التمهيد للبقصد ، وإعداد النفوس للبطلوب ، ومن ذا الذي يسمع هذا الوصف الذي يصف به الإله المالك الخالق القادر المتصرف نفسه ثم لا يكون متهيئا بروحه وقلبه لتلقى أمر مولاه ومالك ناصيته ؟

هكذا تخلصت السورة إلى القلوب بهذا الوصف القوي الرهيب ، وهذا الحديث الجامع عن عظمة الله ، ثم جاءت بعد ذلك بالأمرا المراد فقالت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فجمعت بين طلب الإيمان بالله ورسوله - الذي هو الفريضة الأولى على الإنسان - وطلب الإنفاق ، وعبرت عن المال الذي أمرت بالبذل منه بعبارة تتفق وما مهدت به من أن كل ما في الوجود مملوك لله تعالى حيث قالت « مما جعلكم مستخلفين فيه » لتفيدهم أن مركزهم بالنسبة

المال هو مركز الخليفة عن الله ، كما أنهم خلفاء عنه في الأرض ذاتها «إني جاعل في الأرض خليفة» .

ويفهم من التعبير بلفظ «الاستخلاف» أن الإنسان قد «خوّل المال» ، وفوض له أن يتصرف فيه تصرف المالك الذي يفعل في ملكه ما يشاء ، ولكن في دائرة ما استخلف فيه ، وهو قد استخلف على أن يكون ما جعله الله في يده قسماً له وقسماً في سبيل الله وفي سد حاجة المحتاجين ، فليس له أن يحتجز ما غيره فيدخل به عن مواضعه ، وإلا كان خارجاً على دستور خلافته ، منحرفاً عن شروط توليته وتخويله .

وفي التعبير بلفظ «الاستخلاف» أيضاً إشارة إلى معنى آخر ، وهو أن المال قد وصل إلى الحاضرين بعد أن كان في أيدي السابقين ، وأنه سيصل إلى الآتين بعد أن يخرج من أيدي الحاضرين ، فإن الخلافة معناها أن يتتابع على الأمر خلفٌ بعد خلف ، فإذا نظرنا إلى المال هذه النظرة علمنا أنه غير باق لنا كما لم يبق لمن قبلنا ، وحرصنا على أن نستوفي منه حظنا قبل أن يصير لغيرنا .

ثم ذكرت السورة بعد هذا الأمر الجازم بالإيمان والإنفاق أن جزاء الذين استجابوا لربهم فآمنوا وأنفقوا جزاء كريم ، وأجرهم أجر كبير ، ثم ناقشت معنى التباطؤ عن الإيمان ، والتباطؤ عن الإنفاق مناقشة منطقية ، فاستنكرت الأول بقولها : «وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول» يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم .

فهي تقول لهم : إن الرسول قائم بينكم يدعوكم دائماً إلى الإيمان بالله ، وقد أخذت عليكم المواثيق من قبل : لتؤمنن بالله بربكم ، مواثيق الفطرة والعقل والدلائل يوم «أست بربكم» ، ووضح لكم أن الله هو الذي أرسل هذا الرسول وأنزل عليه الآيات البينات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة رافة بكم ، ورحمة لكم ، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان ؟

واستنكرت الثاني بقولها : «وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميرات السموات والأرض» أي أن كل شيء في هذه الدنيا صائر إلى الله ، ولا مناص من خروج

الإنسان عما يملك ، إما بالموت وإما بالإنفاق ، فإذا خرج عنه بالموت مع حرصه على اكتنازه وبخله به وعصيان الله فيه ، فقد خرج عنه بطريقة مذمومة يلحقه فيها العيب ، ويدركه اللوم والعقاب ، وإذا خرج عنه بطريق البذل والإنفاق والنزول على أمر الله فيه ، ومعرفة حتمه ، كان في هذا الخروج كريماً نبيلاً ، ولا شك أن العاقل يختار الثانية على الأولى .

وهكذا عاجلت السورة أمر التباطؤ عن الإيمان والإنفاق بإثبات الدواعي ونفي الموانع كما يقول أهل البحث والمناظرة .

ثم وازنت السورة بين فريقين من الباذلين المضحين ، فريق الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا وقاتلوا قبل الفتح ، وقبل أن تبدو مظاهر النصر للدين ، وفريق الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح حين ظهر الإسلام ، وقويت شوكته ، وقد أثبت الله الحسنى لكل من الفريقين ولسكنه جعل للأولين درجة على الآخرين .

وفي هذا عدل وإنصاف حيث لم يحرم أحداً جزاء فعله ، ولم يسو بين من كان إحسانه مستوفياً عناصر الثقة بالله دون تلبث ولا تردد ، ومن كان إحسانه بعد لاي وإن كان من الصادقين .

ثم جاءت السورة الكريمة بعد هذا بصورة رائعة من صور الحث على فعل الخير : صورة مقترض يناشد من يقرضه قرضاً حسناً ، ويعدده على هذا القرض وعداً صادقاً أن يضاعفه له ، وأن يزيد فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً في يوم يكون للمؤمنين فيه شأن ، وللمنافقين شأن ، والمقترض الداعي في هذه الصورة هو الله جل جلاله ، والمدعوون إلى هذا القرض هم المؤمنون والمؤمنات الذين وثقوا بربههم ، ولم يفتنوا ولم يتربصوا ولم يرتابوا ولم تغرهم الأمانى « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولسكنكم

فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فالיום لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير .

ثم تمضى السورة بعد هذه الدعوة القوية إلى البذل والإنفاق ، فتلبس منهم القلوب وعواطف الإيمان والرحمة ، وتحذروهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد ففتست قلوبهم ، كما تحذروهم أن يفتنوا ويأسوا من أنفسهم فإن الله يحيي الأرض بعد موتها ، وتعود مسرعة مرة أخرى إلى حديث الإنفاق والصدقات فتقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » . وتمضى فى هذا الحديث مبينة شأن المؤمنين بالله ورسوله ، وأجرهم عند ربهم ، وشأن الكافرين المكذبين وجزاءهم فى نار الجحيم ، وتضرب مثلاً للحياة الدنيا فى لعبها وهوها وزينتها وتكاثر الناس فيها وتفآخروهم بالأموال والأولاد « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا لمتاع الغرور ، ثم تدعو المؤمنين إلى مسابقة جائزتها المغفرة من ربهم والجنة العريضة التى أعدها الله لمن آمن به ورسله ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم تنفى عن المؤمنين عاملاً من عوامل الضعف النفسى حين يشغلون أنفسهم بالندم على ما فاتهم ، والفرح بما أوتوا ، وتعلمهم أن كل شئ يصيبهم إنما هو فى كتاب قد قدره الله وسبق به علمه فلا مناص منه ، ولا مفر من حصوله ، وإذن فليس الحرص على المال بنافع إذا أراد الله بالمرء فقراً ، وليس البذل بمانع من الغنى إذا أراد الله بالعبد غنى ، وإن الله ليسكره هؤلاء المختالين الفخورين ، الذين يظنون أنهم قد اطلعوا بحصافتهم أو علمهم أو فراستهم على الغيب ، فيبخلون خوفاً من الفقر : ويأمرون الناس بالبخل تخويفاً لهم منه ، ويتولون عن دعوة الله كأن لم يسمعوها ، والله هو الغنى الحميد .

ثم تتحدث عن شأن الله في إرسال الرسل بالبينات ، وإنزاله الكتب للهداية والتعليم ، وربطه الكون على سنن ثابتة وموازن متناسبة ليقوم الناس بالقسط ، وإنزاله الحديد ليكون زجرا لمن لا تنفع فيه الموعظة ، ولا تجدى معه أساليب الدعوة ، وتذكر رسالة نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من ذريتهما ، وتذكر عيسى ابن مريم ومتبعيه ، ثم تتجه في ختامها إلى المؤمنين بهذا النداء القوي فتقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

والكفلان اللذان وعدت بهما هذه الآية من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم هما الجزاءان اللذان ادخرهما الله للذين جمعوا بين الإيمان بالرسل السابقين والإيمان بخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى من سورة القصص « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ يُخَالِفُونَ بِهَا أَلْسِنَتَهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ عِذْرٌ فَاذْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْجَوْنَ » .

* * *

من هذا العرض السريع لسورة الحديد يتبين ما قلناه من أن المقصود الأول أو الأوحد لها ، هو غرس خلق البذل والتضحية في نفوس المؤمنين ، وحثهم على محاربة الشح والظن بالمال ، وأنها التمسست لهذا الغرض وسيلة معينة هي إفهام الناس أن الله جل جلاله هو مالك الملك ، وهو صاحب الخلق ، وكل شيء في هذه الحياة فهو منه وإليه ، وكل ما وقع أو سيقع فيأذنه وعلمه ، فليس لأحد أن ينكص عن أمره ، أو يتباطأ في تلبية دعوته .

وسنعرض في مقالاتنا المقبلة — إن شاء الله — لما جاءت به سور التيسيح الأخرى ، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه السور الكريمة ، والله المستعان .

التفسير

بقية التفسير الوارد في العدد الماضي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً » ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »
سورة النساء

« واستغفر الله » الغفر : السّر والتغطية وغفر : غطى وستر . واستغفره لذنبه ومن ذنبه واستغفره إياه طلب منه غفره وستره بمعنى عدم ترتب العقوبة عليه . ولم يذكر المستغفر منه هنا وتركه عاماً كما تركه في قوله . فسبح بحمد ربك واستغفره ، وذكره في آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين ... » . وهذا الأمر من الله لنبيه يستدعي البحث عن الذي يستغفر منه الرسول هنا وفي الآيات الأخرى ... أما هنا ففهوم من المقام ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مال بطبعه وحسب الأدلة التي تجمعت لديه إلى مناصرة المسلمين السارقين دون علم بحالهم طبعاً وهم أن يقضى على اليهودى البرى ، لولا أن الله نبهه إلى الحق الذي خفى عليه . فيكون الاستغفار بسبب هذا الهم وهذا الميل المعذور فيه . وهذا وإن كان لاشيء فيه بالنسبة لعامة الناس إلا أن مقام الرسول وعلو مرتبته وشدة قربه من الله ومراقبته يجعل ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالتطهر منه . ولكل إنسان مقام وتصرف يتناسب مع مقامه فما يعد مقبولا من الجاهل أو الخادم قد يلام بسببه العالم أو السيد « وحسنات الأبرار سيئات المقربين » كما قال الجنيد . وهذا هو الذى يمكن فهمه سبباً للاستغفار هنا يعيننا عليه سبب نزول هذه الآيات ، وأيضا هذه النواهي التي يشتم منها اتجاه الرسول إلى ما نهى عنه . فمجموع هذا يجعلنا نفهم أن المستغفر منه هنا إنما هو الميل والهم بالحكم فقط إذ لم يتعد الأمر غير هذا ولم تقع من الرسول في هذا المقام مخالفة عملية ،

وكذلك يمكن أن نفهم قوله : « فسيح بحمد ربك واستغفره » ، فسبب الاستغفار هنا كما يفهم من كلام الإمام الشيخ محمد عبده راجع إلى ما كان يساور الرسول من القلق والحزن لتأخر النصر والفتح . وهذه هو اجس للنفس لا سبيل إلى التغلب عليها لا سيما في الشدائد ، فأمر الرسول بالاستغفار بما لا قدرة له على دفعه تطهيراً لمقام النبوة لأن ذلك هو المناسب لها .

أما آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فقد صرح فيها بالمستغفر منه وهو الذنب . وهذا يستدعي منا أن نبحث هل وقع من الرسول ذنوب حتى يؤمر بالاستغفار منها وحتى يقول الله في آية الفتح له : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

هذه النقطة كانت مثار جدل قديم بين العلماء تفرعت عنه تأويلات شتى لهاتين الآيتين وما ماثلهما في القرآن مثل : « فعصى آدم ربه فغوى » وقوله على لسان سيدنا إبراهيم « ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » وقوله تعالى عن سيدنا داود « فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب .. فغفرنا له ذلك » ..

ولا أحب أن أثقل عليك كثيراً برد هذه الخلافات ، ولهذا سأذكر هنا الرأي الذي أميل إليه مطمئناً إلى دلائله وإلى من قال به من الأئمة الأعلام .

لا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يقصدون في أعمالهم إلى مخالفة الله في سرهم أو جهرهم ، وهم لا يسرون في كل أمورهم بوحى بل يتركون في كثير منها لفهمهم واجتهادهم في الوصول إلى الخير وتطبيق ما عرفوه عن الله على الحوادث الجارية أمامهم متوخين رضا الله سبحانه ، ولكنهم قد لا يوافقون في اجتهادهم وفهمهم مراد الله ، وهنا تحوطهم العناية الإلهية ويردهم الله إلى ما يريد من الصواب . وهذا هو الفرق بين الرسل وبين المجتهدين من العلماء .

قد يكون الرد إلى الصواب بعد تنفيذ الرأى وربما يصحبه عتاب كلامي كما حصل مع نبينا في قصة الأسارى^(١) والمستأذنين^(٢) وفي قصة زينب^(٣) وابن

(١) ما كان لنبى أن يكون له أمرى . الآيات ٦٧ وما بعدها سورة الأنفال .

(٢) « عفا الله عنك لم أذنت لهم .. » آية ٤٣ من التوبة .

(٣) « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنتمت عليه . » آية ٢٧ من الأحزاب .

أم مكتوم^(١) وقد يكون قبل التنفيذ كما معنا في هذه الآية إذ أن الرسول لم يحكم بالفعل بل هم ومال فنبه الله بالوحى إلى خلاف همه وميله وأمره بالاستغفار من أجله .

هذا الذى يحصل من الرسل من عدم موافقة فهمهم واجتهادهم لمراد الله مع إخلاصهم بالطبع فى قصدهم للخير هو ما يمكن أن يقال عنه إنه ذنوب كما عبر القرآن . وهى قطعاً ليست ذنوباً من جنس ذنوبنا بل لأنها تشبه خطأنا - الذى تناب عليه - فى الاجتهاد . على أن بعض العلماء يسميها أخطاء وبعضهم يسميها خلاف الأولى .

والذى يسميها ذنوباً أو أخطاء يجد سنده فى تسمية القرآن لها بهذه التسمية . والذى يطلق عليها خلاف الأولى يقول إن الله الذى أرسل الرسل هو الذى له أن يصف بعض أعمالهم بأنها خطأ وأنها ذنب . أما نحن الاتباع - وكلنا أقل مرتبة من الرسل - فلا يليق بنا أن نقول عن هذه الأعمال إلا أنها خلاف الأولى تأدياً مع مقامهم عليهم الصلاة والسلام .

والرسل فى هذه الحالات التى خالفوا فيها مراد الله معذورون . . ولكنهم ليسوا كالناس بل هم من المصطفين الأخيار لا يتناسب مع مقامهم إلا أن يتطهروا بالندم على عدم التوفيق فى فهم مراد الله - وإن كانوا معذورين - ولذلك وجههم ربهم - الذى أدبهم ورباهم إلى التطهر وطلب العفو والمغفرة فكانت أوامر الاستغفار الصادرة من الله إلى الرسل التى معنا منها هذه الآية وكانت رغبة الرسل فى التطهر شديدة كذلك ، وكان إحساسهم بسمو مقامهم وشدة قربهم من الله يدفعهم إلى الاكثار من الاستغفار والدعاء والعبادة . . يدعون الله لهم أولاً لأنهم فى حاجة إلى عفوهم ورضاه ، ويدعون لأنهم ، ويعلمونها كيف تستغفر وتدعو . .

وإذا وافقتنى على هذا رأى الذى اخترته كنت معى فى أن هؤلاء الذين قالوا فى « واستغفر الله » أى لبعض أمته الذين تواطؤوا مع السارق وشهدوا معه ،

(١) « عيسى ونولى أن جاءه الأعمى . . الآيات » من سورة عيسى .

وقالوا في « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » المراد ذنب أمته . كما قالوا في « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أى من ذنب أمتك . كنت معي في أن هذا التأويل غلو لا معنى له ولا داعى اليه لا سيما وفهم الرسول والصحابة لآية « ليغفر لك الله ... » وما دار بينهم وبين الرسول حولها حين نزلت كان على أساس أن المغفرة للرسول لا لهم ؛ فقد قالوا له حينما نزلت وقد عبد الله حتى تورمت قدماه : « لم هذا وقد غفر لك ؟ » فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ، وقالوا له هنيئاً مريئاً يابى الله .. بين الله ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ - وكان ذلك عقب نزول « ليغفر لك الله .. » فنزلت « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار الآية » .

« إن الله كان غفوراً رحيماً » كان تقتضى ثبوت الخبر للخبر عنه في زمن مضى وانقطع . وهذا المعنى لا يستقيم في هذه الآية ولا فيما يشبهها ؛ إذ أن الله قديم وباق بذاته وصفاته فلا بد أن نحملها على الدوام في هذا التركيب وأمثاله ومعناه لم يزل ولا يزال موصوفاً بذلك الوصف .

وغفور ورحيم جاما على صيغتي المبالغة فاعول وفعليل ومعناها كثير الستر والتغطية للذنوب المستغفر منها ، بمعنى أنه كثير التجاوز عن العقاب عليها كما أنه كثير الرحمة لعباده والإنعام عليهم بنعمه التي لا تحصى ، والرحمة فيه من مقتضى ألوهيته وربوبيته .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل فرد من أمته عن الدقاع عن الخونة الآثمين . والجدل : اللدد في الخصومة والقدرة عليها . وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ، والمجادلة المخاصمة . من جمدله وجمدله فأنجدل صرعه على الجدالة ، وهى الأرض كأن كلا من الخصمين يريد أن يفوز على خصمه ويلقيه على الأرض . والمعنى لا تقتصر لقوم خائنين ، وتدافع عنهم حتى تجعلهم يفوزون بباطلهم وينتصرون على غيرهم من الأبرياء .

« ويختانون أنفسهم » يخونونها إذ الاختيان والخيانة بمعنى . يقال خانه واختانه وإن كانت الأخيرة فيها معنى التكلف والتعمل كأنه يحمل نفسه ويقسرها قسراً

على الخروج عن الفطرة بالخيانة . والمراد بهم : السارق وقومه الذين آزره ونصروه بالباطل .

وخيانتهم أنفسهم : جاءت من أن ضرر خيانة الغير يعود على النفس ، ولا شك أن إضرار النفس خيانة لها ، إذ أنه بالمعصية عرضها للعقاب وحرمانها من الثواب . وقد اختار الله سبحانه هذا التركيب هنا وفي آيات كثيرة مثل قوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »^(١) « ولا تلبسوا أنفسكم »^(٢) « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »^(٣) . إشعاراً للنفوس بأن الاعتداء على الغير في أية صورة كانت اعتداء على النفس ، وتربية لها على الإحساس الجماعي حتى يجب المرء لآخيه ما يجب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وحتى يفهم معنى الترابط والتآخي العام ، ويحس بفداحة ما يقدم عليه من الاعتداء على الغير حتى ينفر منه .

« إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ورد في القرآن ، « إن الله لا يحب المعتدين »^(٤) « لا يحب الله الجهر بالسوء »^(٥) « والله لا يحب كل مختال فخور »^(٦) وعدم المحبة في هذه الآيات كناية عن السخط والغضب من الله . إذ المحبة التي هي انفعال نفساني يترتب عليه آثاره مستحيلة على الله ، وكذلك عدم المحبة ، ثم إن نفي المحبة في حد ذاته لا يستدعي الغضب والكراهة والسخط ، لأنه يوجد معنى وسط بين المحبة وعدم المحبة ، فيقال أنا لا أحبه ولا أكرهه ، ولكن هذا لا يكون بحانب الله ، فهو سبحانه إما راض أو ساخط ، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، على أن محبة الله لما كانت منفية عن الخوان الإثم ، والمختال الفخور ، والجاهر بالسوء والمعتدى ، كان لا بد من تأويل ذلك بالسخط والغضب ، فغنى لا يحب أى يسخط ويعاقب .

« من كان خواناً أثيماً » جاء على صيغتي المبالغة فعال وفعليل وانضم إلى ذلك ما تشعره كان في مثل هذا التركيب من معنى المداومة ، ومعنى ذلك كثير الإثم كثير الخيانة ، مداوم عليهما حتى صاراً ديدنه . ولكن هل معنى هذا أن غضب الله وسخطه لا يكون إلا على المتأصلين في الخيانة والإثم ؛ لا . إن الله لا يرضى أبداً

(١) ٢٩ سورة النساء (٢) ١١ الحجرات (٣) ٨٤ البقرة (٤) ١٩٠ البقرة .

(٥) ٩٤٨ سورة النساء (٦) ٢٣ الحديد .

عن الخائن الآثم ، ولا عن الخوان الآثم ، فكلاهما مستحق للعقاب وإن تفاوتتا . وإنما جاء هذا التركيب معبراً عن الواقع من أمر السارق وقومه ؛ فقد كان وغلا في الخيانة والإجرام ، وكانت نفسه بطبيعتها لا تنفك عن ارتكاب الجرائم ، حتى إنه لما فضحه الله بهذه الآيات كفر وهرب إلى مكة ، واستمر في جرمه حتى مات . هذا فوق أنه سارق ومتهم غيره ومحاول إضلال الرسول وانتزاع حكم منه لصالحه بغير الحق ، وقد اشترك قومه معه وعاونوه وآزروه ، فاستحقوا جميعاً هذا الوصف : الخوان الآثم .

وهذا الواقع الذي سجلته الآية في صيغتي المبالغة هو الذي روعي أيضاً في الجمع بين الخوان والآثم . فقد خان حين سرق ، وآثم في اتهام البريء . ويمكن أن يقال إن الخيانة حالة نفسية خبيثة ، تترتب عليها آثام عملية ، فجمع الله بين الطبيعة الشريرة ، والآثم الصادر عنها مما وافق حالة السارق وقومه . بخلاف ما يصدر من الإثم بحسن نية .

وبعد . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أمامه حادثة من الحوادث وتكون الأدلة لديه لاتخاذ رأى معين فيها ، ولكن لم يحكم به لأن الله حرسه من ألعايب المنافقين ودسائسهم ، ونبهه إلى ما يجدر عمله حتى يوضع الحق في نصابه ، ولم يكن في هذا الميل الذي أداه إليه اجتهاده من شيء عليه ، وإنما يحكم بالظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يرض لرسوله حتى هذا الميل وهذا الهم بالحكم ، ووجد أن ذلك شيء لا يتفق مع صفاء النبوة ولا سمو الرسالة ، فوجهه إلى استرضائه وطلب المغفرة منه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والدعاء وهو الذي يقول عليه السلام « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة ^(١) » ويقول ابن عمر رضی الله عنهما : « إنا كنا لننعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة ، ولا غرابة في هذا ورسول الله أقرب المقربين إلى الله ، فانتا نعرف أن حرص

[١] أخرجه النسائي وابن ماجه عن أبي موسى .

الحب على رضا حبيبه يجعله دائماً يحاسب نفسه على هواجسها ويؤاخذها ويجتهد في بذل كل ما يقربه أو يزيد قرباً . والذين يعاشرون الملوك يخشون هفوات نفوسهم ، وتعد عليهم أنفاسهم ونظراتهم ويبادرون دائماً بتصحيح كل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وإزالته حتى لا يطردها من ساحة مليكهم ، أو يوصفوا بعدم الارتياح إليهم ، ويجتهدون أن يكونوا عند مليكهم تماثيل من الاخلاص تشع وفاء وولاء ، فما بالك بهؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين اختارهم ملك الملوك واجتباهم وهذبهم وهداهم ، أفلا يكونون أحرص خلق الله على رضا ، وأشدهم إحساساً وتقديراً لفضله ، وأسرعهم إلى إزالة كل ما يشتم منه رائحة مخالفة ولو صورية لربهم ! ثم ألسنا نحن أتباع الرسل نلوم أنفسنا كثيراً على هواجسها السيئة أو نستغفر الله ونندم من سيطرتها علينا فترة من الوقت ؟!

فهل يمكن لإنسان بعد هذا أن يقول : إن هؤلاء المقربين أصبحوا في غنى عن فضل الله وعفوه ورضاه ، أو أن مقامهم يحل عن ذلك حتى يجعل كل استغفار لهم استغفاراً لآمتهم لا لهم ، بحجة أنهم ليسوا في حاجة إلى استغفار ؟! لقد استغفروا لأنفسهم لأنهم في حاجة إلى العفو والمغفرة ، واستغفروا لآمتهم لأنها في حاجة إلى دعائهم واستغفارهم وشفاعتهم عند ربهم ، وعللوا الناس بذلك كيف يستغفرون ويتطهرون وهم أشد حاجة إلى الاستغفار والتطهر ، و« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »

ما أجدرنا أن نتأمل قليلاً في توجيه الله لرسوله أن يسترضيه ويستغفره !! إنه العطف الكامل والرعاية الشاملة التي تؤذن بقبول الاستغفار وشمول العفو والمغفرة . ثم ما أجدرنا بعد هذا أن نتأمل موقفنا من احتضان الباطل والمبطلين ومناصرة الظلم والظالمين بالتمسك إلى موقف الرسول الذي كان يقصد الحق حين اجتهد فأمره الله أن يستغفر مما وقع فيه من الهم والميل . كم نحن في حاجة إذن إلى الاستغفار !!

إن في هذا لفتاً شديداً لأنظارنا حتى نحفظ للحق كرامته ونصون أنفسنا من الخوض في الباطل أو مناصرة الظالم ، كما أن فيه تحريضاً قويا على السعي إلى التطهر مما يتدنس به الإنسان من عمل لا يتفق والحق . والاستغفار ليس

إلا توبة خالصة، فيها ندم ورجوع إلى الحق وعزم على الإخلاص . والله سبحانه كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن كمال ربوبيته رحمته التي وسعت كل شيء . « لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم » ^(١) . « والذي نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم » ^(٢) . فلا محل لإذن لليأس من رحمة الله . « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ^(٣) . فمن الواجب أن يبادر المؤمن بالتطهر وهو موقن أن الذى يرجوه يحب رجاءه ويفرح بتوسله . « أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل يمشى أقبلت إليه أهول » ^(٤) .

وبعد أن أمر الله رسوله بالتطهر عاد إلى مخاطبته حيث ينهاء للبرة الثانية عن الوقوف فى صف الباطل والمبطلين ، فقد سبق قبل هذا بآية أن قال له : « ولا تسكن للخائنين خصيماً ، فعوده هذا يحق لنا أن نتفقد عنده طويلاً فإن خطاب الرسول هنا خطاب لآئمه معه ، ونحن أشد حاجة إلى أن يقرع سمعنا هذا النهى مرة بعد أخرى حتى يستقيم أمرنا ، ويقرر الحق بيننا ، وحتى لا يجد المفسدون فى الأرض من يحميهم من سطوة القانون وإن ختام الآية ليحمل إنذاراً شديداً للخائنين الذين يعيشون فى الأرض الفساد ، وهل هناك ما هو أشد على الإنسان من الطرد من رحمة الله حيث ينزل عليه غضبه ، وتحل عليه نقمته ؟ !

إن صاحب الأمر ومالك الملك يتوعد الخائنين وينذرهم غضبه فى يوم يجعل الولدان شيباً ، وبأس ربك شديد وعذابه أليم مهين ، وإن كان غفوراً رحيماً « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » .

ولقد جمعت الآيتان بين الترغيب والترهيب ، أطمعت الأولى عباد الله المقصرين فى عفوه ورحمته ليبادر إلى ساحتها كل تواب أبواب ، أما السادرون فى آثامهم وضلالهم فتد كسفت الثانية عن مصيرهم ومآلهم : غضب وطرده من رحمة الله « ومن يهن الله فما له من مكرم : إن الله يفعل ما يشاء » . يتبع

السنة

عيد الدستور

لفضيلة الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرعونها ، لو علينا نزلت - معشرَ اليهود - لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه ، والمكان الذي نزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفاتٍ في يومِ الجمعة . رواه الشيخان .

تحتفل الأمم والحكومات الدستورية باليوم الذي ظفرت فيه بدُستورها الوضعي ، ويفخرون بأن لهم عيداً دستورياً مقدساً هو رمز جهاد طويل ، وعنوان حياة سعيدة ! .

فأحببتنا أن ندلهم على عيد أعظم وأجل ، وهو عيد الدستور السماوي الذي احتفل فيه الإسلام احتفالاً مدوياً جامعاً بإكمال الدين وإتمام النعمة وإعلان الإنسانية بأنه دين الله الذي لا يُبتغى غيره ولا يقبل من أحد سواه « ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه في مدة رسالته ، وهي ثلاث وعشرون سنة ؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشراً بالمدينة . وفي السنة العاشرة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع ، ولم يحج

بعد الهجرة غيرها^(١) . ووقف معه بعرفة مائة ألف أو يزيدون ، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامى الرائع الجامع الذى لا يشهد التاريخ مثله أبداً ، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعى خير يوم طلعت عليه الشمس بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وبعد عصر هذا اليوم الذى جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين : عيد الجمعة وعيد عرفة - وإن شئت فقل عيد الأضحى - نزلت هذه الآية الكريمة تبشر المسلمين ببشائر ثلاث ، هن جماع المجد والعز والخير كله : بلوغ دينهم مبلغ الكمال فى حدوده ومعامله ، وفرائضه وأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنصر والعزة والتمكين فى الأرض ، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين ؛ واختيار الإسلام من بين سائر الأديان ديناً لهم ، رضيه الله وأحبه وأظهره على الدين كله ، وجعل السعادة كل السعادة فى الاهتداء بهديه ، والشقاوة كل الشقاوة فى المخالفة عن أمره .

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أحد وثمانون يوماً نزل فيها عليه آية الكلاله^(٢) آخر سورة النساء ؛ وسورة النصر ، وآيات الربا . وقد قيل فى كل من هذه الآية وما نزل بعدها إنه آخر ما نزل من القرآن ، وهذا على حسب علم القائل وفهمه . والحق أن آخر ما نزل باطلاق ولم ينزل بعده شئ من القرآن ألبتة ، قوله تعالى « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » فقد توفى صلى الله عليه وسلم على إثر ليال بعدها ! .

وأياً ما كان الأمر ، فلن يعارض نزول هذه الآى من بشارة إكمال الدين شيئاً ؛ فإن ما قارب الشئ يعطى حكمه ، ولا سيما إذا كان التمام موثقاً به ، لا يحوم حوله شك ولا ريبه ، وذلك كما يقول الملك وهو على طرف التمام من الغلبة والنصر : تم لى ما أردت ، وكما يقول المعنى بالصلاة لأول وقتها ولما يدخل : دخل الوقت .

[١] وأما قبل الهجرة فمكان يحج كل عام ، قبل الرسالة وبعدها .

[٢] الكلاله من مات ولم يترك أصلاً ولا فرعاً

بهرت اليهود هذه البشائر ، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للإسلام والمسلمين فأرادوا أن يعتنقهم بما ظنوا أن لاجواب عنه ! ويغيطهم بما حسبوا أن لا شفاء منه ! وغاب عنهم أن الله خاذلهم على يد الفاروق من أعز به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ؛ قدموا أحدهم وهو كعب الأحبار ^(١) ولم يكن أسلم بعد ، فوجه لأمير المؤمنين مقاتله في لهجة المتعنت أو الفرع أو الشاخ ! فما كان من الفاروق إلا أن أخمعه بجواب لا يقال إنه مسكت فحسب ، بل يقال - ولا مبالغة - إنه قاصم الظهر ، يبهت منه الذى كفر ! .

أجابه أمير المؤمنين بأن منزل القرآن - وقد أحاط بكل شيء علماً - أنزل هذه الآية الكريمة في عيدين عظيمين لا في عيد واحد ، وفي أكرم مكان وأعظم حفل شهده التاريخ . فنحن لا نتخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا ، ولا نبتدع في دين الله ما ليس منه كما تصنعون ؛ ولكننا نتخذ يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم ، الذى هدانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

* * *

هذا هو عيد الدستور السماوى الذى ورثه الله المصطفين من عباده ، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم ويستعملون عقولهم ولا يدنسون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولكن ما الحيلة فى أقوام ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم ، وعموا أو تعاموا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم ، فراحوا يطلبون حقوقهم فى دستور أَرْضَى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً !!؟ .

إن الدستور الوضعى - كما يقول واضعوه - هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر ، وطرق توزيع السلطة واستعمالها ، وكل هذا تسكفل به الدستور السماوى وبينه أتم بيان وأحسنه وقام بتطبيقه المسلمون الأولون ، رعاة ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا

(١) لأنه أعلمهم بالشرائع وأدراهم بالتوراة ، ولما رضوا به نسب إليهم القول فيما جاء من الروايات . قالت اليهود لعمر ، الخ وأسلم كعب فى عهد عمر رضى الله عنه ، وفى إسلامه مقال نفوض فيه الأمر إلى الله عز وجل .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لماضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ٣ —

تحدثنا في الكلمة الماضية عن رأى ابن سينا فى مشكلة العمل والبطالة ،
أو - بلغة أيامنا هذه - مشكلة الضمان الاجتماعى . وكان فى النية أن نسوق الحديث
بعد هذا الى رأيه فى مسألة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع بصفة عامة . إلا أننا

ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت شعوب أوربا خاضعة لملوك وأمراء
يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك
السمع والطاعة ، وليس على الملوك لهم حق ولا واجب ! .
ولاند ناضلت هذه الشعوب نضالاً عنيفاً جرت فيه الدماء وأزهقت فيه
الأرواح ، حتى نالت حقوقها المسلوبة ، وحريتها المغصوبة ، بعد ثورات عواصف
حطمت فيها الشعوب معازل الظلم والاستعباد ، ودكت صروح العسف والاضطهاد ! ..
وكان آخر مغنم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطالحوا
عليها . . ثم قدسوها تقديساً لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوى لعاشوا فى رغد
من العيش لن ينالوه فى ظل تلك الدساتير أبداً !!!

* * *

أما بعد ، فإذا كانت الأمم الغربية قد ناضلت وقاتلت فى سبيل دستورها
الوضعى حتى كتبته بدماء الثورة . فقد منحنا الله دستوراً أجلى وأعظم نغم به مغانم
الخير والعز والظفر ، دون أن نخسر شيئاً . وإذا كانت الأمم الغربية تبهج بدستورها
وتفرح ، فان المسلم الحق بدستوره الحق أعظم ابتهاجاً وأشد فرحاً .

« يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور . وهدى
ورحمة للؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

رأينا من الخير أن نعتمد على البحث الماضى بوضع مقارنات وتعليقات فى كلمات محدودة موجزة .

١ - الشيخ الرئيس كان مسلما قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد فهم الإسلام حق الفهم ، وعرف الغايات التى جاء من أجلها والوسائل التى رأى اتخاذها لبلوغ هذه الغايات ، فكان لا بد إذا من أن يتأثر فى تفكيره وعلاجه للمشكلات الاجتماعية والسياسية والفلسفية بهذا الدين الذى نشأ عليه ، وهذا التأثير نجده واضحا فى كل كتاباته فى هذه النواحي وغيرها ؛ كما نجده قد تأثر فى ذلك بلا ريب بما درس من الفلسفات ، وكان له بعد هذا وذاك رأيه الخاص بعد التفكير والموازنة والتحصيص .

ولسنا نحاول أن ندخل فى الإسلام كل تفكير نراه طيبا ، وكل علاج نراه عادلا لبعض ما نحسه من مشكلات ، كأن نقول مع القائلين بأن الإسلام دين اشتراكى وديموقراطى وما الى ذلك ، إن الإسلام أسمى من ذلك كله ، إنه دين أصيل له أسسه الخاصة وطابعه الخاص ، وإن غايته إسعاد الفرد والمجتمع والإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، وذلك بتعميم العدل وإشاعة الرحمة والتعاطف بين الناس جميعا ، لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس .

هذا عمر بن الخطاب يتردد فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . لقد رأى ذات يوم يهوديا يستجدى ، وعلم أنه ألجئ الى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه ؛ وفى سفره الى دمشق أمر بمثل لهذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجرام فلم يجدوا الى العمل سبيلا . وكان من هذه السياسة العادلة ، التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين ، أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج . وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان يفرض عمر لهم أيضا من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولى كل طفل رزقا يعينه على تنشئته وتربيته .

وكذلك كان الأمر في عهد الفاروق الثاني ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حتى ليقول يحيى بن سعيد فيما يرويه الأستاذ سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » : « بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز [أى بعد له] الناس ، فاشترت بها رقابا فأعتقتهم » .

هذه الروح النبيلة ، من العدل والرحمة والتعاطف العام ، التي هي من لباب الإسلام ، قد فهمها ابن سينا وأمثاله ، فتأثروا بها دون ريب في تفكيرهم الاجتماعي والسياسي ، وكان من الشيخ الرئيس رأيه الذي عرفنا فيما سبق عن مشكلة العمل والبطالة . ومن نافذة القول أن نلاحظ هنا أن أوروبا لم تفكر في شيء من هذا الضمان الاجتماعي إلا في هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا بعد ظهور الإسلام .

٢ — يقول ابن سينا : « ومن الناس من رأى قتل الميئوس من صلاحه منهم [أى من الذين حيل بينهم وبين الكسب بأمراض وزمانات] ، وذلك قبيح ، فإن قوتهم لا يحجف بالمدينة » . على أنه ، مع هذا ، يرى إلزام القادر من قرابات هؤلاء الذين لا يرجى صلاحهم ببعض نفقتهم في غير إجحاف ولا إلحاح .

هؤلاء الذين رأوا هذا الرأي القاسي العنيف ، نرى منهم بعض مفكرى « اسبارطة » ، كما نرى منهم أفلاطون وأرسطو ، إن أفلاطون يرى في المقالة الخامسة من الجمهورية ، قتل الطفل ناقص التركيب ، والضعيف عديم النفع ، والمريض لا يرجى له شفاء ؛ وكذلك يذهب إلى مثل هذا أرسطو في كتابه (السياسة) . لكن الشيخ الرئيس رأى - بحق - أن في ذلك انتهاكا لحرمة النفس الإنسانية بلا ذنب جناه هذا المريض ، أو ناقص التركيب ونحوهما ، وبخاصة - كما يقول بحق أيضا - وتكاليف حياتهم لا تعتبر عبئا على الدولة بحال ما . ثم من يدرى بأن هذا النحو من الناس ضعاف الأجسام ، لا يكون من أحدهم خير كثير من الناحية العقلية ! والتاريخ مصداق هذا الذي نقول في كثير من الحالات .

هذا فيما يتعلق بابن سينا وفلاسفة العصر القديم ؛ وفي هذا العصر الحديث نجد كذلك المجال واسعا للمقارنات بين تفكير الشيخ الرئيس وتفكير بعض

فلاسفة أوروبا في هذه المسألة ، نغنى مسألة العمل والعمال والعاجزين عن العمل وما يكون لهم على الدولة من حق توفير العيش الطيب لهم .

« عندنا مثلاً ، «آدم سميث» الفيلسوف الاسكتلندي المتوفى عام ١٧٩٠م إنه يعتبر العمل هو مصدر الثروة؛ وأن قيمة الشيء لا ترجع إلى صفات ذاتية فيه ، بل إلى العرض والطلب . كما كان يرى أن الإنسان ينجح في إفادة المجتمع وهو يعمل لصالح نفسه ، أكثر مما لو قصد تخصيص مجوده لصالح المجتمع ، وفي هذا يقول : « لم أعرف أن خيراً كثيراً تم على أيدي أولئك الذين يتخذون من الصالح العام تجارة لهم ، »^(١) .

هذا الفيلسوف كان لا يرى فرض ضريبة على الأرباح ، لأنه من العسير تقدير قيمة رأس المال تقديراً حقيقياً صادقاً ، وذلك بعكس الأراضى ، كما أنه من السهل الفرار برأس المال إلى نواح أخرى عند ما يحس صاحبه ثقل عبء الضريبة عليه^(٢) . ومن الواضح أن في هذا الرأي خسارة على الدولة ، وتضييع جانب كبير من الضرائب التي يجب جبايتها لتنفق في صالح الفقير والمحتاج من المواطنين ولهذا لا يذهب إلى هذا الرأي الاقتصاديون في الوقت الحاضر .

وعلى كل ، فابن سينا كان أبعد نظراً ، وأرفق بالفقراء والمحتاجين لعون الدولة حين رأى - كما قدمنا من قبل - فرض ضريبة على الأرباح الطبيعية والأرباح المكتسبة لتصرف في خير المعوزين . ولعل الضريبة على المال تدخل فيما يسميه الأرباح المكتسبة .

٤ - قدمنا في الكلمة الماضية أن ابن سينا كان يرى أنه يجب أن يكون لكل فرد من الأمة ، من أية طبقة اجتماعية يكون ، مقام محدود وعمل معروف وإذا فالبطالة والتعطيل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل ، كما لا يصح ألا توفر الدولة لكل قادر على العمل عملاً يكسب منه عيشه في كرامة .

[١] ص ٧٧ من كتاب النظام الاشتراكي للدكتور أحمد نظمي عبد الحميد والدكتور راشد البراوي ، نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م

[٢] النظام الاشتراكي السابق ذكره ص ١٩٥

حق كل مواطن في أن يعمل ، هذا الحق أو الواجب الذي يقرره ابن سينا في هدوء ، ولا يجد حاجة في تقريره إلى الثورة على شيء من النظم القائمة ؛ وكذلك حق العاجز عن العمل ، لأنه لا يجده أو لأنه عاجز عن القيام به ، وواجب الدولة في ضمان العيش المقبول الكريم لكل فرد من المواطنين - نقول ، هذا الحق وذلكهما اللذان لم يجد ابن سينا أى عناء في تقريرهما ، نرى أنهما لم يتقررا في أوربا إلا بعد ثورات اجتماعية ، ثورات أريقت الدماء في بعضها ، على أنهما مع هذا من الحقوق الطبيعية للإنسان باعتباره إنسانا عضواً في مجتمع أو مواطناً في دولة .

ها هو ذا الفيلسوف الألماني نخته "Fichte" (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) ، يرى أنه على الدولة أن تكفل لكل فرد من أهلها عملاً ، وهذا ما يسمى بمبدأ حق العمل الذي نادى به هذا الفيلسوف ^(١) .

ومن بعد « نخته » ، نجد « كارل ماركس » المتوفى عام ١٨٨٣ م ، يذكر في البيان الذي ضمنه مطالب الحزب الشيوعي في ألمانيا « أنه يجب أن تضمن الدولة المعيشة لجميع العمال ، وأن تتولى أمر العاجزين عن العمل » ^(٢) . يذكر هذا المبدأ ويعمل على تقريره وتنفيذه فعلاً ، بعد أحداث وخطوب جسام ، ومع هذا لم يسعد برؤيته نافذاً في أوربا كما كان يتمنى .

* * *

وبعد ، من هذه التعليقات والممارنات التي قدمنا ، نعلم كيف كان تفكير ابن سينا سليماً وأصيلاً في هذه المشكلة ، مشكلة العمل والبطالة ، وأن أوروبا بصفة عامة ، لم تفكر في أن تصل الى مثل ما قرره الإسلام في هذه الناحية إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من ظهور الإسلام .

والآن ، إلى المشكلة الثانية ، نعى مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، في العدد الآتي إن شاء الله تعالى ؟
الحديث موصول

[١] النظام الاشتراكي ، ص ١٧

[٢] نفس المرجع ، ص ٦١ - ٦٢

شِعْرَاءُ الْإَزْهَرِ

٦ - الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

شيخ الأزهر الأسبق

لفظيد الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

ترجع معرفتي لآل عبد الرازق الكرام ، اقريب من أول عهدي بالأزهر الشريف ؛ فقد حضرت القطر والشذور وابن عتميل والاشموني ، في جامع محمد بك أبي الذهب ، على المغفور له العلامة الثبت الحجة ، الشيخ محمد عليان ، طيب الله ثراه ! وكان أبرز الدرس - على كثرة البارزين فيه - شخصان نشيطان ، يلفتان النظر بخصائصهما المميزة ، وبمشاركتهما للشيخ في مشكلات المسائل ، مشاركة تنبئ عن تعمق في البحث ، وعن ذكاء ممتاز ؛ فأما أحدهما ، فهو أسن الطلاب ، وأجسمهم ، وأعلمهم ، المرحوم الشيخ حسين البيومي عضو جماعة كبار العلماء ؛ وقد نال شهادة العالمية ونحن في مقدمة الأشموني ، فكان انتقاله من صفوف الطلبة ، إلى صفوف العلماء سريعاً مبكراً سهلاً ، بقى موضع عجبنا وإعجابنا زمناً طويلاً . وأما الآخر ، فهو صاحب المعالي على عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق ، ذو الطربوش الفريد في الأزهر يتزوج زياً عربياً ثميناً أنيقاً كل الأنيق ، كاملاً كل الكامل ؛ وهو « سكرتير » شيخنا العظيم ؛ يكلفه - أبداً - بالكشف عما يعرض من الألفاظ الغامضة في المعاجم اللغوية فيؤدى رسالته على خير الوجه .

وصلتنا بالسادة القايائية ، صلة ورثناها عن الآباء والأجداد ؛ لأنهم الشيوخ الروحانيون لمصر الوسطى ؛ وكان لشباب هؤلاء ، وشباب آل عبد الرازق ، وشباب آل أبي العيون ، مصاطب ، وإن شئت فقل : صالونات : يجتمعون فيها على شراب الشاي البديع ، يتنقلون عليه بالأدب الرفيع رواية وإنشاء ، في الأرياف لقرب بلادهم بعضها من بعض ؛ وفي القاهرة ، لأن الأزهر يجمعهم ؛ ولتقاربهم في الأسنان وفي الدراسات .

وكان يختلف الى مجتمعاتهم كثيرون من الشباب المثقف من مختلف الاقاليم المصرية ، والاطوان العربية ؛ فيتباحثون ، ويتساجلون ، ويتناشدون . وعن طريق مشايخنا القايائية تصل إلينا طرائف مما يدور في مجالسهم ، فنتلقفها ، ونحرص على حفظها وروايتها ، كما نحرص على روائع النصوص الأدبية .

ومما بقى عالماً بذهنى من تلك الطرائف ، أن الشيخ مصطفى عبد الرازق - وكان يعتبر رئيس الشلة - طرح البيتين المنسوبين لولادة بنت المستكفي بالله الأموى ، الخليفة بالأندلس :

أنا - والله - أصلح للبعالى وأمشى مشيتى ، وأتبه تبهى
أجر على الورى ذيل التصابى وأعطى قبلتى من يشتهىها !
للتشيطير ، وجعل جائزة المتفوق ، بيتين من شعر الرئيس ؛ وكان المتفوق
المغفور له الشيخ إبراهيم القايائى ؛ فتمال الشيخ مصطفى عبد الرازق :
لله إبراهيم من شاعر ذى فطنة فى الشعر وقاده
ولد فى التشيطير من لطفه مالم تضعه قبل ولاده !
والتورية فى : تضعه قبل ولاده غنية بروعتها وجمالها عن أن يشار إليها .
والذنب فى إغفال ذلك التشيطير ، على خيانة الذاكرة ، لا على حساب الوفاء .
ومن تلك الطرائف فى « الشاى » وتروى للزعيم القايائى المغفور له الشيخ
عبد العظيم ، طيب الله ثراه :

وعسجد الشاى يجلى فى قالب من لجين
هذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

وفى « شروط » حانة « الشاى » وفيه مجانة :

إذا ما جاوز الندمان خمساً مع السلطان والساقى الأديب
فـ أم فتى دعانا و أم فتى مجيب
إلى غير ذلك ، مما ذهبت به - مع الشباب - الأيام .

* * *

والشيخ مصطفى عبد الرازق ، أحد ثلاثة صرفتهم الكتابة عن الشعر ، بعد

أن كان وكدهم في أول حيواتهم : السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ؛ والمنفلوطى أشعرهم ، والبشرى أضعفهم ؛ وقد عاود هذا ، الحنين إلى الشعر ، في عهده الأخير ، ففشر قصيدة له ، في السياسة قدم لها بمقدمة قال فيها : إن له سبعة وعشرين عاما لم ينظم شعراً ؛ وكأنه يباهى بقصيدته ، التى كان الضعف والتكلف يشيعان فى أطرافها ؛ فكتب إليه أحد عشاق كتابته - كما أسر بذلك إلى - « قصيدتك المذشورة فى السياسة ، ردتك إلى الخلف سبعة وعشرين عاما ! » وفهم البشرى « النكتة » وهو سيد من يفهم . ! فلم يعد إلى الشعر أبداً ! .

وما زال المنفلوطى يقول الشعر فى الفينة بعد الفينة - على حد تعبيره - حتى لقي الله .

فأما الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد انصرف عنه انصرافاً تاماً منذ عهد بعيد ، لعله بعد أن نال شهادة العالمية . يقول المغفور له الشيخ رشيد رضا فى تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده : « ومن تخرج عليه فى الكتابين « أسرار البلاغة » ودلائل الإعجاز » فكان كاتباً مجيداً ، وشاعراً بليغاً ، المرحوم السيد لطفى المنفلوطى ، وله قصائد فى مدحه ؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ؛ وكان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر ، وقد مدح الأستاذ الإمام بشعره ، والظاهر أنه تركه بعد ذلك « اه بنصه (١) .

* * *

وانصراف هذا الثالوث عن الشعر إلى الكتابة ، كان توفيقاً من الله عظيماً ؛ فإننا لم نخسر كثيراً إذ لم نظفر من شعرهم بالكثير ؛ وكنا نخسر الكثير الذى لا يعترض بمثله لو خبرناهم كتاباً ؛ فقد انفرد كل واحد منهم بمذهب كتابى لا يشبهه ، ولا يشارك فيه .

فأما البشرى ، فقد أعاد الطريقة « الجاحظية » جذعة : ألفاظ بكر ، جذلة نغمة ، تحمل مشابهة البداوة ؛ وأسلوب خل قوى يظهر فيه الحسن المجلوب ، حسناً غير مجلوب ؛ ومعنى شريف فى منطق دامغ عميق ؛ وسخرية بارعة لاذعة ؛ واستقصاء لا يدع فيما يعرض له من المعانى لغيره فضلاً . وعلى الجملة : طريقة البشرى ،

هى طريقة الجاحظ مجددة مجلوة فى مطرف قشيب ؛ تحس ذلك فى يسر ، إذا قرأت للبشرى ، ثم قرأت الجاحظ فى غير « البيان والتبيين » فإن الجمع يغلب على هذا الكتاب ، وإنما يلتمس أسلوب الجاحظ فى مثل « الحيوان » وغيره من رسائله وكتبه .

وأما المنفلوطى ، فهو لإمام « السهل الممتنع » فى العصر الحديث غير مدافع ؛ والنقاد يعرفون السهل الممتنع ، بأنه الأسلوب الذى يقرؤه القارئ ، فىرى أنه يستطيع مثله ، ولو خدش أنفه بظفر كلب ما استطاعه . وكأنهم يريدون أن قلب الحقائق أيسر منه منالا ، فعاود قراءة المنفلوطى فى أى كتبه شئت ؛ ثم قل لى : ماذا ترى ؟!

وأما أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فذلك الطراز المنمنم ، الذى تقطر الرقة من أعطافه ؛ ويترقق الحسن فى أطرافه ؛ ويجمع لك بين نفحات الزهر ونشوات الخمر . ونفثات السحر ؛ وهل رأيت الشيخ مصطفى عبد الرزاق فى ذوقه العام : فى سمته ، فى لباسه ، فى حديثه . فى نقاشه ، فى خطابه ؟ ذلك هو مصطفى عبد الرزاق فى كتابته : خيوط عربية متخيرة سدى ولحمة ، نسجتها بغداد ، وفصلتها باريس تفصيلا هندسيا محكم الضبط ، رائع الانسجام ؛ تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائحات المعانى .

ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذا كمالا

* * *

أولئك رجال ، أسأل الله شططا ، لو سألته تعالى أن يعوضنا فيهم خيرا !
فرحمة الله عليهم . !

وأختم هذا البحث ، بما أمكننى الوصول إليه من أشعار المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا . قال المغفور له الشيخ رشيد رضا فى « تاريخ الإمام » :
لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته فى هذا العام سنة ١٩٠١ فى أوربة وتونس والجزائر هناك بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء فى الأزهر . . . ونذكر هذه الأبيات للشاب الذى زاحم فى بدايته أهل النهاية ، تنشيطا له على العناية بالأدب وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرزاق . قال :

أقبل ، عليك تحية وسلام يا ساهرا والمسلمون نيام
تطوى البلاد ، وحيث جئت لأمة نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدور ، أنى سار يشرق نوره والحق ، أنى حل فهو إمام
إن يتدروا فى الغرب عليك قدره فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما يلهى الصغار ، وجدت الأيام
لا زلت غيظا للضلال وأهله والله يرضى عنك والإسلام

* * *

ورثاه بقوله :

رزى العلم فيك والإسلام يا فقيد الهدى ، عليك السلام !
كنت طودا إذا الخطوب ادلهمت لم تنل همك الخطوب الجسام
رجل كان حين يسلك فجأ تتحامى طريقه الأيام
يا دفين القلوب ، قد هابك الدهر ، فكيف اعتدى عليك الحما
إن فى قبرك الساحة والفضل ، وفيه الثبات والإقدام
كان مغناك للعفاة رحيما ثبتت فى رحابه الأيتام
لم تكن تحمل الضغينة والحقــد وإن نال من أذاك اللئام
طيب القلب لم تهـم بشـر طاهر الذيل لم يمسك ذام
كنت حى الفؤاد تصدع بالحق فتسلوى عنانها الأوهام
كنت سلم الطباع ، والدهر حرب ساهر العزم ، والقلوب نيام
كنت ترمى فى كل علم بسهم لا تباريه فى السداد سهام
أنت خلت فى الحياة ثناء تتغنى بذكره الأقيلام
جئت هذى الحياة والدهر كهـل وتوليت والزمان غلام
إن قلبا أصفاك بالود حيا صدعته بموتك الآلام
كان فى هذه الحياة رجاء فدفناه يوم مات الإمام
رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس السكرام

ولا ريب أن معانى هذا الشعر وقوافيه على قوتها الواضحة ، كانت فى حاجة
إلى التركيز والتسكين ، وعذره أنه كان فى طور المراتنة ، لا فى إبان النضج .

رحمة الله عليه ؟

لغويات

مئة — مائة

لفظ السيد الشيخ محمد علي النجار

مدرس بكلية اللغة العربية

هذان وجهان يجريان في استعمال اسم العدد « مائة » .

فلاستعمال الأول « مئة » يجرى على السنة العامة . وهو — كما لا يخفى — انحراف عن الصواب في المنطق وتنكب للجادة . وهمى هنا أن أخرج هذا الوجه من الاستعمال وأبين مأناه ومبعثه في السنة العامة . وسترى أنه ليس بعيدا عن النهج العربي .

فأصل ذلك تخفيف همزة « مئة » وإبدالها ياء ، وهو قانون تخفيف الهمزة المفتوحة المكسور ما قبلها ؛ إذ كان السكسر قبلها يجتذب الياء . وتخفيف الهمز سنة الحجازيين ومن صاحبهم وجاورهم . وذلك أنهم يرونها ثقيلة في النطق فيفرون منها بتخفيفها وحذفها تارة ، وإبدالها حرفا آخر من حروف اللين تارة أخرى ، على منهج مدروس في كتب العربية . ويبقى التميميون على الهمزة فلا يخففونها ، ويسميه علماء العربية أهل التحقيق ، أى أنهم يحققون الهمز ، ولا يفعلون به كما يفعل الحجازيون ، ونرى العامة يجرون في ألسنتهم في الهمز على منهج الحجازيين في التخفيف ، فيقولون : الرأس في الرأس ، والبئر في البئر ، والمرة في المرأة .

وتخفيف همزة « مئة » بإبدالها ياء قرأ به القراء في القرآن الكريم ، وذلك قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة المتوفى سنة ١٣٠ . وفي النشر^(١) : « الهمزة المفتوحة قبلها كسرة ، يبدلها أبو جعفر ياء . ومن ذلك « مئة » و « فنة » ، وتثنيتهما ، وجاء هذا أيضا في المسأثور عن العرب ، وما ينسب إلى زرقاء اليمامة في قصة لها :

ليت الحمام ليـه إلى حمامتيـه
ونصفه قديـه تم الحمام ميـه

فترى أن النطق بالياء في « مئة » بدل الهمزة عربي صحيح . وإنما زاد العامة تشديد الياء في هذا اللفظ فتمالوا : مية ، وهذا ما لم يعرف عن العرب . ولسكنه مع ذلك منهج مألوف لهم جروا عليه في بعض ما حذفت لاه ، تعويضاً عن المحذوف . فقد جاء عنهم الفم في الفم ؛ قال العجاج .

ياليتهما قد خرجت من فمه حتى يعود الملك في أسطمة^(١)

وحكى اللحياني أنه يقال فم وأفام ، قال ابن مالك في شرح التسهيل عقب سوق هذه الحكاية : « فعلم أن التشديد لغة صحيحة ؛ لثبوت الجمع على وفقها . فليس بمصيب من رعم أن التشديد لم يستعمل في غير ضرورة ، وما شددوه من هذا الضرب الدم ، قالوا فيه : الدم ؛ قال^(٢) أبو خراش الهذلي يرثي خالد بن زهير :

أرقت لهم ضافني بعد هجعة على خالد فالعين دائمة السجم
إذا ذكرته العين أغرقها البكى وتشرق من تهما لها العين بالدم

وأنشد ابن مالك في شرح التسهيل قول الشاعر :

أهان دممك فرغاً بعد عزته يا عمرو بغيك لإصرارا على الحسد
فقد شقيت شقاء لا انتضاء له وسعد مرديك موفور على الأبد

وقول آخر : والدم يجرى بينهم كالجدول .

وأنكر الكسائي تشديد ميم الدم ، فهو^(٣) يقول : « لا أعرف أحداً يثقل الدم » ، وقد مر بك من الشواهد ما يدفع حكمة هذا . وجاء تشديد الآب والآخر ، حكى ذلك الأزهري ، وأنه يتمل : استتب أبا أي اتخذ لك أبا ، وقد جعل التشديد في أب تعويضاً عن المحذوف كما قالوا قن للعبد المملوك وأصله قن من القنينة . ويجرنا ذكر تشديد الآب إلى سوق قصة أوردها الشيخ يس في حاشيته^(٤) على التصريح ، وذلك أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصي : أنت عندنا مثل الآب ، وشدد الباء ، فقال الشهاب : لا جرم أنكم تأكلونني^(٥) ! يريد الشهاب

[١] أسطم الشيء : وسطه ومعظمه ، والضمير في « خرجت » كأنه يريد به كلمة يتكلم بها في

شأن من يتحدث عنه . [٢] أنظر ديوان الهذليين طبع دار الكتب ١٥١/٢ .

[٣] اللسان [دى] . [٤] في مبحث المغرب والمبني [أعراب الأسماء الخمسة] .

[٥] في حاشية الشيخ يس : تأكلون ، والوجه ما أثبتته .

أن الأب مشددا متعارف في العشب الذي تأكله البهائم ، وكأن الشهاب يرمى بذلك إلى أن هذا الرئيس لا يعرف له حقه ويتهمه ، فهو يأكل كما يأق الذئب فريسته ، وبذلك ترى أن مادة الأكل هنا لها لطف وماء ، ويقول الشيخ يس : « ولو قال القوصى : لا جرم أنكم ترعوننى كان أطف كما لا يخفى على أهل الذوق » وقد عرفت ما فى هذا . ويزعم الشيخ يس أن لا وجه لإنكار القوصى التشديد هنا ، والقوصى — فيما يبدو — كان عاتبا على الرئيس فأظهر عتابه فى هذا الرد وقد بناء على المتعارف فى اللغة كما رأيت . ويقول الشيخ يس أيضا : « ولا وجه لقول بعضهم : من يشدد الباء من الأب الذى هو الوالد ما يكون إلا دابة » .

والاستعمال الآخر « مائة » نسمعه كثيرا من المثقفين . وسبب هذا الخطأ رسم مائة بالألف ، وقد كان هذا الرسم مبعث دفع التباس « مائة » لو كتبت على وجهها « مئة » بعبارة « منه » مع ملاحظة أن الكتابة فى التقديم كانت تخلو فى الأكثر من النقط اعتمادا على الفهم من القرائن والسياق .

وقد استرعى نظرى أن وجدت هذا الخطأ فى النطق من دهر غير . فتمد نبه عليه نحوى أندلسى زار مصر فى سنة ٨٢٥ من الهجرة . وأوطنها حتى مات بها سنة ٨٥٣ ، وصلى عليه بالأزهر . ذلك هو^(١) محمد بن محمد الراعى صاحب التصانيف الكثيرة فى النحو . فله شرح الآجرومية وإعراب الألفية . وله الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية . وهذا الكتاب الأخير هو الذى وقفت عليه من كتبه ، وقد عنيت به عناية خاصة ، لأنه يسجل بعض ما كان فاشيا فى عصره من الأخطاء اللغوية فى مصر . وسأنتقل عنه فى هذا المقام بعض ما أراه صالحا للنشر فى « لغويات » .

وكتاب « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية » من مخطوطات دار الكتب المصرية (٣٣٥ نحو) . وإنى أؤثر أن أنقل لفظه من كتابه . قال : « سأل بعض الطلبة عن قراءة العامة المتممين إلى الخاصة — وهم أكثر القضاة وأتباعهم من الموقعين والشهود ونحوهم — لفظ مائة فى تاريخ المسكايب ونحوها بفتح الميم ومد الألف ، على صورة كتابتها فى صناعة الرسم ، فيقولون : مائة .

[١] انظر ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى ، وبغية الوعاة للسيوطى :

« فأجبت أن ذاك خطأ فاحش ولحن قبيح . وكأنهم لم يقرءوا كتاب الله عز وجل . قال الله - عز وجل - ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين ، فأجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فأماته الله مائة عام ، إلى غير ذلك من الآيات . والصواب أن يقرأ لفظ « مائة » بميم مكسورة بعدها همزة مفتوحة وتاء مربوطة هي محل الإعراب ولا يجوز مد الألف بوجه من الوجوه ، ويجوز تسهيلها بقلبها ياء ؛ قال ابن مالك : وياء اقلب ألفا كسرا تلا ، ومنه قول زرقاء اليمامة :

ليت الحمام إليه إلى حماميه
ونصفه قديه تم الحمام ميه

« فإن قلت : فإذا كانت ألفها لا تمد فلم كتبت في الخط بالألف بعد الكسرة ؛ وما الحاجة لكتب هذه الألف ؟

قلت : قال أهل العلم : إنما كتبوها بالألف ليفرقوا بين « مائة » و « منه » ؛ لأنك إذا قلت في التاريخ مثلا :

وخمس مائة ، وكتبت « مئة » بغير ألف كانت تشبه لفظ « منه » فكان يلتبس في الخط قولك :

وخمس مئة بقولك : وخمس منه ؛ لأن صورة « مئة » و « منه » بغير الألف في الخط واحدة ، ففرقوا بينهما بالألف ؛ كما فرقوا بين عمرو وعمر بالواو .

وفي بعض كلام الراعي مجال للتعقب . فقد استدل على تسهيل الهمزة بقلبها ياء في نحو مئة بقول ابن مالك :

وياء اقلب ألفا كسرا تلا

وكلام ابن مالك في الألف اللينة التي يعبر عنها بالألف اليابسة . وابن مالك يتكلم في هذا على قاعدة إبدال الألف ياء في مثل مصابيح ، والإبدال في هذا واجب لا محيد عنه ، والإبدال في مئة وفئة استحسانى غير واجب كما لا يخفى ، وإنما يذهب إليه بعض العرب وهم الحجازيون كما سلف لك .

هذا أمر خاص بفلان . النبيل خاص بذى الخلق الحسن

يكثر هذا التعبير . وقد جرى بحث في هذا إذ ورد في كلام الشيخ عبد القاهر

فى أسرار البلاغة حيث يقول : « فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شىء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص » وقد كان من رأى من تحدث معى فى هذا الأمر أن الصواب أن يقال : « حكم مخصوص به » . ذلك أنه يقال : خص أن عليا بالنبل ، فالتنبل مخصوص به على ، ولا يسوغ ذلك أن يقال : النبل خاص بعلى ؛ فإن الخاص فى هذا الأسلوب هو الفاعل ، وهو الله سبحانه فى هذا المثال . وذكر لى محدثى أنه لا يقال - على حسب ما جاء فى المعاجم اللغوية - خص الشىء بكذا ، أى إن المعاجم خلت من إيراد هذه المادة لازمة غير واقعة . ووجدت ما قاله صحيحاً فى بادى رأى . فى القاموس : « خصه بالشىء ، خصا ، وخصوصاً ، وخصوصية - ويفتح - وخصيصى - ويمد - وخصيه ، وتخصه : فضله ، وخصه بالود كذلك » . وفى اللسان : « خصه بالشىء ، يخصه ، خصا ، وخصوصا ، وخصوصية ، وخصوصية - والفتح أفصح - ، وخصيصى ؛ وخصصه واختصه : أفرد به دون غيره ، فترى أن ما يقع به التفضيل أو الإفراد سبيله فى هذه المادة أن يوصل بياء الجر ، والوصف منه « مخصوص به » ، فأما الخاص فهو المفضل والمُفَضَّلُ -رد ، وأن « خص » لا يأتى لازماً . وفى اللسان أن « اختص » يأتى لازماً كما يأتى متعدياً فيقال : اختص فلان بالأمير .

ولكنى رأيت فى اللسان النص الآتى : « ويقال : فلان مُخص بفلان أى خاص به » وفيه أيضاً : « ويقال : خاص بين الخصوصية والاستشهاد بالنص الثانى ؛ إذ كان معزوا إلى العرب ومن قولهم ، فأما النص الأول فهو تفسير لغوى ، فى الأخذ به مجال للقول والطعن . وأعود إلى هذا النص فأقول : إنه يفيد استعمال « خاص » لازماً ، فيقال : النبل خاص بفلان ، وهو ما فى عبارة عبيد القاهر ، وبهذا يكون هذا الإمام بمنجاة من اللوم والتقريع .

وبقى بعد هذا مسألة تبدو للباحث هكذا : هل يأتى الفعل لازماً فيقال : خص النبل بفلان ؟ والجواب عن هذا أن من الأصول اللغوية أنه إذا ورد الوصف فى العربية سوغ ذلك إيراد الفعل على وفق الوصف . ذلك أن ورود الوصف دليل على استعمال الوصف ، وإن لم تنقف عليه ولم يبلغنا . ويقول ابن جنى :

الفقه السياسي عند المسلمين

التكاليف - المسؤولية - الحريات - سيادة الأمة

المؤلف: الأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

رأينا فيما سلف أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهي للأمة ، وأن الأمة بهذا التكليف هي صاحبة السلطان المطلق على جميع أمورها ، وأنه لهذا التكليف الجماعي أضحت الأمة مسئولة مسؤولية حقيقية عن صالح الدين وصالح المسلمين ، أمام سيدها ومالكها سبحانه ، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الخطاب العام الموجه إلى الأمة في القرآن الكريم ، في جميع الأمور . إيجابية وسلبية ، فمثلاً تجد الخالق سبحانه ينادي الأمة بـ « يا أيها الناس ... » و « يا أيها الذين آمنوا ... » كما تجد الأوامر والنواهي موجهة إلى الأمة أيضاً « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » و « افعلوا الخير » « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم

« (١) قال لي أبو علي بالشام : إذا صحت الصفة فالفعل في الكف » ، وقال (٢) أيضاً : « وحكى أبو زيد : رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه : درهم . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل في الكف » .

وقد ظفرت بنص صريح في هذا يكفيننا مئونة القياس والاستنباط . فقد جاء في كتاب (٣) الأفعال لابن القوطية : « وخص الشيء ، خصوصاً : ضد عم » .

وأنبه هنا إلى عبرة نأخذها من هذا البحث . وهو أن المعاجم التي بأيدينا قد تخلو من بعض اللغة الواردة ، فعلى أن نثريث في إنكار ما ليس فيها ، فقد يكون في غير ما هو مألوف لدينا . وعلى أن نعد هذا أن نعني بإخراج الأصول اللغوية بقدر ما يتيسر لنا حتى تتسع ثروتنا اللغوية ، ويكون حكمتنا في اللغة أقرب إلى السداد . والله الموفق للصواب .

بين الناس أن تحكموا بالعدل » والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما « الزانية والزاني فاجلدوا » وهكذا يتجه الخطاب إلى الأمة بالتكليف في شتى النواحي ، في أمور العبادة ، وفي المعاملات ، وفي الشئون العامة كالحكم والقضاء أو تنفيذ أحكام الشرع ، وبذلك يقرر الإسلام أن للأمة الإسلامية كياناً خاصاً وشخصية معنوية جعلها مناط التكليف فأمرها ونهاها ، وألزمها تبعة التكليف ومقتضياتها ، وحملها المسؤولية عن صالح دينها ، وصالح أفرادها ، وصالحها في الجملة « صالح الدين والدولة » .

والتكاليف الجماعية أضمن تحققا ، وأشد إلزاما للفرد من التكليف الفردي ، لأن الفرد في الواقع في التكليف الجماعي يكون مكلفا باعتبارين ، باعتباره وحدة من وحدات الأمة المخاطبة بالتكليف . وباعتباره فرداً مخاطباً بشخصه ضمن الخطاب العام للأمة ، وبعبارة أخرى ، هو مخاطب بوصفه الجماعي باعتباره لبنة قوية في بناء المجموعة يطلب إليه العمل على خيرها ، وبوصفه الفردي باعتباره إنسانا يجب أن يقوم بالتزاماته نحو سيده ونحو إخوانه ، ومن هنا نشأ ما نسميه التضامن الجماعي الفرد والجماعة ، وتقررت بهذا التضامن مسؤولية الجماعة عن صالح الفرد الذي يعتبر مقوماً من مقوماتها ، ومسؤولية الفرد عن صالحه ، وصالح كل فرد من إخوانه ، وصالح الجماعة بصفة عامة ، بوصف الفرد مطالباً بالعمل على سلامة البناء والحفاظ على قوته وكرامته ، ولهذا جعل الإسلام لكل مسلم حق الإشراف العام على شئون الدولة ، ومراقبة تصرف الحكام ، ولفت نظرهم إلى الأخطاء التي يرتكبونها ، وتصحيح هذه الأخطاء ، بإرشادهم إلى الحق ، ونصحهم بالمعروف ومجاہتہم بما یجترحون من مظالم ، وحمل الإسلام كل فرد يغضى أو (يتستر) على جرائم الحكام وظلمهم ، مثل ما يحتمله المجرم أو الحاكم الظالم ، وفي هذا يقول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره ... » ويقول : « إذا كان في أمي من يهاب أن يقول للظالم : يا ظالم ! فتمد تودع منهم » ويقول : « إذا وجدت مني ظملاً فليغيره من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ليوشكن الله أن يعذبهم بعذاب ، والنصوص في ذلك كثيرة وهي تدور حول قوله سبحانه وتعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؛ وهذه هي الرقابة الشعبية بلغة هذا

العصر ، التى جعلها المشرع سبحانه سيفاً مصلتاً على رقاب المخالفين ، حكماً كانوا أو محكومين ، وهذه الرقابة هى المعبر عنها فى لسان فقهائ الإسلام ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى سلطة كبيرة وضعها الله فى يد كل مسلم وطلب إليه أن يحسن استعمالها ، وعنها يقول الإمام محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية) « وهى السلطة الوحيدة فى الإسلام ، التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم . »

وهذا أسمى ما أعطى للأفراد - فى كل التشريعات - من ضمان لحرية الرأى ، والتعبير عنه ، والدعوة إليه ، ولم تستطع أحداث الدساتير ديموقراطية ، أن تضمن للفرد بعض ما يمنحه له الإسلام فى هذا الشأن .

وهذا النمط من التكليف الجماعية ينفرد به الإسلام عن غيره ، وإنك لن تجد هذه المعانى التى حدثت لك عنها فى مثل هذا التكليف القائل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » و « اعط ما لله الله ، وما لقيصر لقيصر !! » فأى تضامن جماعى ، أو مسئولية مشتركة يوحى بها مثل هذا التكليف ؟ وزد على هذا أن قيصرًا هذا لم يعد له فى الإسلام شئ أكثر مما لغيره من أفراد المسلمين ، بل إن عليه تبعه أعظم من تبعاتهم ، لأنه خادم للأمة صاحبة السيادة عليه ، ويعبر عن هذا عمر بن الخطاب بقوله للأشعرى أمير السكوفة : « يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً » ثم يقول : « إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده . »

ونظراً لعظم التكليف وثقل المسئولية عنها ، فقد قرر الإسلام : أن كل مكلف يجب أن يعطى من الوسائل كل ما يمكنه من القيام بتكليفه ، وإلا كان هذا التكليف ظلمًا وتعسفًا « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » و « لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها » فأنت إذا ألتمت شخصاً فى اليم وقلت له إياك أن تبطل بالماء ، وأنت لم تعطه وسائل الوقاية من الماء فأنت ظالم متعنت يجب أن تخالف ! ولهذا يقرر الإسلام فى كل نصوصه ، وفى كل مناسبة ، أن كل مكلف يجب أن يكون فى يده وسائل تنفيذ ما كلف به ، وأن التكليف يتوقف ويتعطل ، إذا فتمدت أو تعطلت وسائل تنفيذه فالمرضى الذى لا يستطيع القيام بعمل ما مما كلف به ؛ والأسير فى يد عدو الإسلام

الذى عطل حرياته ، وأصبح لا يملك وسائل تنفيذ تكليفه ، والمجنون الذى لا يعقل أمرا ولا نهيا ، وكل شخص - ذكرا كان أو أنثى - أصبح فى حالة تنعدم فيها لديه وسائل تنفيذ التكاليف . هؤلاء جميعا تتوقف تكاليفهم وتعطل ، ولا تلحقهم مسؤولية حتى يسترد المريض صحته ، وحتى يسترد الأسير حريته ، وحتى يعقل المجنون ، وحتى تذهب الموانع كيفما كانت ، ويصبح الشخص فى حالة يمكنه فيها تأدية واجباته . وأهم هذه الوسائل التى يجب ضمانها للفرد ليقوم بتكاليفه . إقداره على التمتع بحقوقه الفطرية التى وهبها الله له ، وهى : الحرية الشخصية ، حرية العبادة ، حرية التفكير أو حرية الرأى والتعبير عنه والدعوة إليه ، وتحقيق مساواته بإخوانه الأحرار المتساوين من كل وجه ، فى كل المنح والفرص الاجتماعية ، وعلى الأمة (الدولة) أن تمكنه من كل ذلك حتى يقوم بتكاليفه - على الأقل نحوها - فإذا هى حرمت من التمتع بحقوقه كلها أو بعضها ، فقد أهدرت أهليته ، وأبطلت تكليفه ، وهو حينئذ يصبح غير ملزم بطاعتها وتنفيذ أوامرها ، ولا يحق لها مطالبة بشيء ما دامت هى التى عطلت تكليفه ، ويتضح من ذلك أن تمكين الأمة (الدولة) الأفراد من التمتع بحرياتهم ، بعيدا عن الطغيان والعدوان . إنما هو أمر فى صالح الدولة نفسها قبل أن يكون من صالح الأفراد ؛ وما دام خالق الدولة هو رب الأفراد وهو واحد ، ثم هم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتكاليفهم واحدة ، ونسبتهم إلى الله وإلى الدولة واحدة ، فهم أحرار متساوون من جميع الوجوه ، ليس بينهم فروق ولا امتيازات ، ومن الظلم أن تقيد الدولة حرياتهم ، أو تعطل تكاليفهم ، أو تمنعهم حقوقهم ، أو تقيم بينهم فروقا لم يأذن بها رب الدولة المشرع لها سبحانه «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وإذا كان الإسلام قد أطلق للإنسان جميع حرياته ، فإنه فى نفس الوقت ، وضع شروطا يجب على الفرد التزامها عند مباشرته لحرياته ، حتى لا تصطدم الحريات ، ولا يطغى بعض الأحرار على بعض ، وجعل مراعاة هذه الشروط تكليفاً من التكاليف الواجب تنفيذها دون هوادة ، فليستعمل الفرد حرياته غير باغ ولا عاد ، فى حدود العدل والإحسان «لا تظلمون ولا تظلمون» ، ولا ضرر ولا ضرار «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. »

وهكذا أعطاك الإسلام حق التمتع بحرياتك للقيام بتكاليفك ، بشرط ألا تعتدى على حريات الآخرين ، وأباح لك الحصول على حقوقك بشرط ألا تعطل حقاً لأحد ، أو تغتصب حقاً لأحد ، وألزمك أن ترعى في جميع أعمالك الصالح العام للدين والدولة ، وهذا هو معنى « ابتغاء وجه ربك الأعلى » ، وابتغاء مرضاة الله ، ومصلحة الجماعة (مصلحة الدين والدولة) تأتي في المرتبة الأولى من الاعتبار في نظر الإسلام ، ويجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند التعارض ، وعلى الفرد أن يتوخى في عمله وتمتعه بحرياته مصلحة الجماعة ، وأن يقدمها - بنفسه - على مصلحته الخاصة ، فإذا تعنت وآثر نفسه على الجماعة ، وجب على الجماعة أن تكبح جموحه ، وتؤخر مصلحته عن مصلحتها ، لأنه من المسلم به أن كل صالح للجماعة صالح للفرد ، ومن هذا ترى أن حريات الأفراد لا يقيدوها إلا صالح الدين والدولة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون فيما بينهم ، ويتدرونه بالتشاور مع ذوى رأى منهم ، أو بالشورى بين علمائهم وحكامهم ، والمسلمون عدول فيما بينهم . تأمل قوله عليه السلام : « إن قوما ركبوا في سفينة . فصار لكل منهم موضع فجاء رجل فنقر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن هم أخذوا على يده نجوا ونجا . وإن هم تركوه هلكوا وهلك » .

وليس من شك في أن الأمة هى المكلفة برعاية ذلك وتنفيذه ، ولهذا يجب أن يكون سلطانها مطلماً وسيادتها على بنيتها عامة غير مفيدة ولا محدودة إلا بما قيدها الله به وحده لها .

كذلك نجد الإسلام يقرر قواعد الحكم الصالح ، ومبادئ العدالة المطلقة ، ويضع دستوراً يمشى على هديه الأحكام والقضاة والعلماء وأهل الرأى والنظر ، وهذا هو ألزم شيء لتحقيق العدل والسلام في أمة تنشدهما ، ثم هو مع هذا يترك شكل الحكم ونوع الحكومة لا يقرر فيهما شيئاً ، فهل هى مثلاً حكومة ملكية أو جمهورية ؟ لم يعن الإسلام بهذا لأنه من المظاهر المتغيرة بتغير الفكر والبيئة ، فى الأزمنة والأمكنة المختلفة ، فتركه للأمة تقدره هى حسب مصلحتها ، وتختار بنفسها شكل الحكم الذى يلائمها ويتفق مع صالحها ؛ غير أنه يوجب أن يكون الحكم

- كيفما كان شكله الذى اختارته الأمة - حكما شوريا بين الأمة بوساطة علمائها وذوى الخبرة والرأى فيها ، وبين حكمائها تحت رقابة الأمة كلها ؛ ولم يشأ أن يعين شكل الشورى . وهل هى مطلقة أم مقيدة بطبقة خاصة لأن شكل الشورى أيضاً متغير ، يتطور بتطور الناس وتغير ظروفهم وثقافتهم ، فتركه أيضاً للأمة ، تعينه حسب مصلحتها ، وبهذا كان التشريع السياسى للإسلام فى أسنى درجات الكمال ، لم يجبر الأمة على أمر يخضع للتغير بتطور الفكر ، ويختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ، وكان نظام الإسلام لهذا صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والإسلام بهذا يقرر لأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة هى صاحبة السلطان الأكبر ، وهى التى تختار شكل الحكم ونوع الحكومة ، وهى بالتالى صاحبة السلطة فى تعيين حكمائها ، ومدهم بما يحتاجونه من سلطان لضبط أمورها ، وتصريف أحوالها ، فإذا مال الحاكم أو اعوج قومه بالنصح والارشاد ، فإن ظلم وجفأ ألزمته جادة الحق ، فان استكبر وطغى عزلته ، أو تخلصت من شره بما تراه فى مصلحتها ، وفى هذا يقول العضد فى كتابه المواقف : « وللأمة خلع الإمام ، وعزله بسبب يوجبه ، وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » وعلق على ذلك شارحه السيد الجرجاني بقوله : « مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم تعيينه وإقامته لانتظامها وإعلامها ^(١) » ويقول إمام الحرمين : « إن الإمام إذا جار وظهر غشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صديعة فلاهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه ولو بشهر السلاح ونصب الحروب ^(٢) » وهذا الذى قرره العلماء حق مسلم به للأمة فى الإسلام منذ أول أيامه ، وهو الذى سار عليه السلف الصالح حتى التوى بالمسلمين القصد وحكمهم غيرهم ، وحكموا هم بغير ما أنزل الله ، فهذا هو الصديق أبو بكر يقول للناس عندما وجد نفوراً من على وبنى هاشم : « أيها الناس . إنى أستقبلكم بيعتكم .. إن رأيتم أن تقبلوني بيعتكم فذلكم لكم ... » ثم يقول : « إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم »

(١) الواقف ح ٨ الأمانة الكبرى .

(٢) شرح المقاصد ج ٢ ص ٢٧٢ .

يشير بذلك إلى قوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وهذا هو عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ عمر أن النعمة أبطرت كثيرآ من الناس : « وددت أنى فى سفينة ، وأنتم فى سفينة ، تذهب هذه شرقا وهذه غربا ، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة : يا أمير المؤمنين . هلا قلت إن تعوج عزلوه ! قال عمر : لا ، ألتقتل أتكلم لمن بعده ! » وجاء عمر بن عبد العزيز الأموى الذى ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه ، فقرر من جديد للأمة حقها بعد طول اغتصابه منها ، فخطب الناس أول جمعة تأمر على المسلمين فقال : « أيها الناس . إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى . فاختاروا لأنفسكم ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين . قد اخترناك ، ورضيناك ، قل أمر المسلمين باليمن والبركة ، وهكذا رد عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين إليهم ، بعد أن اغتصبه من الأمة سابقوه وورثوه أبناءهم ، وهو بذلك يقرر . أن الحكم هو حق الأمة وحدها لا حق أفراد منها ، وأن حق الأمة لا يورث . لأن الأمة حية قائمة عليه لا تموت حتى تقوم الساعة ، ولعله سأل نفسه . بأى حق ورثته الأمويون حكم الأمة ؟ ومتى تنازلت الأمة مختارة عن شخصيتها وحقوقها ، وجعلت نفسها متاعا يورثه الأمويون أبناءهم ؟ فلما لم يجد جوابا . ولا وثيقة تؤيد ورائته هذه . رد إلى الأمة حقها المختص ، وعاد الأمر كما قال الصديق أبو بكر لرجل سأل ، ألم يترك الرسول نصا ولا وصية لأحد ؟ فأجابه : إن النبى صلى الله عليه وسلم . خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين لا مختلفين ، ونخلص مما تقدم إلى أن الإسلام قرر لأول مرة المبادئ السامية الآتية :

- ١ — للأمة شخصية معنوية هى مناط التكليف والمسئولية .
- ٢ — الأمة توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها سلطانهم وقوتهم .
- ٣ — الأمة سيادة نفسها ، وهى صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعآ ولا سيادة عليها لغير الله .

المسلمون والتصوير

لحاضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

انتهينا في المقال الأول من هذا الموضوع عند الكلام على الحديث والتصوير ، وناقشنا رأى الشراح في حديث : « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » ، وحديث « إن الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب » . ونستمر في مناقشة رأى الشراح في الأحاديث الأخرى التي تناولت موضوع التصوير ، وهي :

الحديث الثالث : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

قال الطبري في شرح هذا الحديث : إن المراد هنا ما يعبد من دون الله ، وهو عارف بذلك ، فإنه يكفر . وقال الخطابي : إن عقوبة المصورين إنما عظمت لأن

٤ — على الأمة أن ترعى صالح الفرد وتقدره على أداء تكاليفه ، بتمكينه من التمتع بحرياته .

٥ — الحاكم خادم مطاع ، تعطيه الأمة من السلطان ما يتناسب مع التكاليف التي كلفته بها ، وطاعته مشروطة بمدى التزامه للشرع الذي كلف بتنفيذه ، ولا زالت الدساتير البشرية حتى يومنا هذا تتعثر في طريق الوصول إلى الدرجة الدنيا من سلم هذه المبادئ السامية التي حكمت قرونا طويلة فحققت الحرية والاخوة ، والمساواة ، كما حققت الأمن والعدالة ، والرخاء والسلام .

وإلى العدد التادم نحدثكم عن مركز الحاكم ونسبته إلى الأمة ، والله ولي التوفيق

الصور كانت تعبد من دون الله تعالى ، ولأن النظر إليها يفتن ، وبعض النفوس إليها تميل .

وإذن فلا سبيل إلى القول بأن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى ، وإنما هي الخوف فقط من الرجوع إلى الوثنية التي كان العرب قريبي عهد بها .

الحديث الرابع : عن أبي طلحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » ، قال : ثم اشتكى زيد فعدهناه (وزيد هو الذي روى عنه طلحة هذا الحديث) ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يخبرنا زيد عن الصورة يوم الأول ؟ فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رقاً في ثوب ! .

وتعليق العيني على هذا الحديث وجيه ومقبول وهذا نصه : قال : « وإنما نهى الشارع أولاً عن الصور كلها ، وإن كانت رقاً في ثوب ، لأنهم كانوا حديثي عهد بعبادة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه ، عندئذ أباح ما كان رقماً في ثوب » .

ونقول إننا إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح الرقم على الثوب حين أمن زيغ العميدة ونكسة الجاهلية والشرك بالله ، فلا ضرر - فيما يبدو - إذا اتخذنا الصور والتماثيل ، ما دمنا على بينة من ديننا ، وما دامت هذه الصور والتماثيل بعيدة عن فكرة التقديس والعبادة . على أني أعتقد أن القول بتحريم التصوير دائماً ، ولهذا السبب ، معناه الشك في إخلاص المعتنقين للدين ، وأنه لم يتمكن بعد من نفوسهم وهذا ما لا يرضاه المسلمون ولا يرضى عنه الفقهاء بالطبع .

وتكملة للرد على كلام النووي ، أورد ما ذكره العيني خاصاً بشرح حديث : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير » ، فقد قال إن المقصود بالملائكة ملائكة الوحي مثل جبريل وإسرافيل ، وهؤلاء لا صلة لهم بسائر الناس طبعاً . على أن العيني قد رد على امتناع دخول الملائكة البيت الذي فيه كلب لنجاسته ، أن ذلك غير مقبول لأن الخنزير وهو أشد نجاسة ، والسنور وهو أكثر أكلاً للنجاسات لم يرد بشأنهما امتناع دخول الملائكة لبيت وجداً فيه . ونقول إنه ليس

من المعقول أن تدخل الملائكة بيتاً فيه خنزير بينما لا تدخل بيتاً فيه صورة مع الفارق الكبير بين الصورة والخنزير .

ويعجبني قول ابن حبان الذي أورده ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخارى وهو « إن هذا الحكم (أى امتناع دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة) إنما هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام » . ولا غرابة في هذا ، فإن للنبي خصوصيات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حاجة إلى كلب يحرس داره أو تمثال يزين جداره . وإذن فالمسألة هى كما قال العيني : خاصة بالنبي وبملائكة الوحي الذين يحملون إليه رسالات ربه .

وذهب بعض العلماء مذهب النووي فى تحريم ما له ظل وما لا ظل له ، معتمدين فى ذلك على حديث للنبي عليه الصلاة والسلام روته السيدة عائشة قالت : « قدم النبي من سفر وقد سترت بقرام لى على سهوة لى فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فجعلناه وسادة أو وسادتين » . ثم يستشهد القائلون بالتحريم أيضاً بحديث : « وعد النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، فراث عليه حتى اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج النبي فلقمه فشكا إليه ما وجد ، فتال له جبريل إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب » . وفى رواية أخرى أن جبريل خاطب النبي فتال : « أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل وكان بالبيت قرام ستر فيه تماثيل وكان فى البيت كلب . فبرأس التمثال الذى فى البيت يقطع فيصير كهية الشجرة ، ومر بالكلب فليخرج ، ففعل النبي ذلك » .

وإذن فدليل التماثيل بتحريم ما لا ظل له ، أمر النبي بهتك الستر وتمطيعه وعمل وسادتين منه . ونحن فى حاجة إلى جواب من هؤلاء على سؤال هو : إن عمل وسادتين من الستر معناه أن الصورة لا زالت باقية فى بيت النبي كما صرحت بذلك رواية ابن حنبل ، فهل امتنع الملائكة بعد ذلك من دخول البيت ؟ وهل اشترط الملائكة ألا يدخلوا بيتاً فيه صورة إلا إذا كانت ممتنة ؟ وهل وسادة ينام عليها النبي صلى الله عليه وسلم تعد ممتنة فى نظر الملائكة ولا تمنعهم من دخول بيته ؟ .

تلك أسئلة أعتقد أن الاجابة عليها في صالح إباحة التصوير ، ولعلمها بالتالى تخفف من حدة الفقهاء وتشددهم عند الكلام عن هذا الموضوع .

على أن حديث « جبريل » بحاجة إلى إمعان نظر وإعمال فسكر ، ذلك إلى أعتقد أن جبريل عليه السلام إنما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات الله وأصول التشريع والديانة ، ولم ينزل ليوحى إليه أن يقطع الستائر وأن يعمل من « الهلاهيل » وسائد ومرافق . ويمكن أن نرد على حديث « جبريل » بحديث آخر رواه البخارى عن أنس أنه قال : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » .

وفيدنا هذا الحديث من ناحيتين :

أولا : أنه يرد على حديث هتك الستر الذى تمسك به القائلون بالتحريم ، وعلى رأسهم النووى .

ثانيا : أن النبي قد أقر الستر ولم يقطعه ، وإنما نحاه فقط حتى لا يشغل به فى صلاته على الرغم من وجود تصاوير به .

من ذلك نرى أن شراح الأحاديث قد اختلفوا فى فهمها وشرحها ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى . ولسكنا وجدنا من بينهم أمثال ابن حبان الذى يقول : إن امتناع دخول الملائكة لبيت فيه صورة ، إنما هو خاص بالنبي لا بعامة المؤمنين . كذلك رأينا الطبرى يقول : إن المراد بالمصورين من يصورون ما يعبد من دون الله ...

بعد هذا ، يخيّل إلينا أنه قد امتنع الدليل المنقول أو المعقول على من يقول بتحريم التصوير ، له ظل أولا ظل له ، امتن أولم يمتن ، ثم سواء أكان لحيوان أم غير حيوان .

سبب التمول بالتحريم :

قد يرجع سبب قول الفقهاء بتحريم التصوير إلى تأثير الافكار اليهودية التى

اختلفت بالدين الإسلامى عن طريق اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولا سيما أن منهم من كان من رجال الحديث أمثال كعب الأحبار ، الذى أخذ عنه ابن عباس ، وكذا وهب بن منبه وغيرهما .

ولا يستطيع باحث أن ينكر تسرب كثير من الاسرائيليات إلى المعتقدات الإسلامية ، فإن القول مثلاً بكونية المحراب المحفور (الغائر أو المجوف) قد يرجع إلى ما ورد فى التوراة خاصة بالمذبح حيث يقول الرب : « وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة فلا تبنيه منها منحوتة » . كذلك قد يرجع القول بكونية المنبر فى أول الأمر إلى ما ورد فى التوراة فى نفس الإصحاح حيث يقول الرب :

« ولا تصعد بدرجة إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه » .

ويخيل إلى بعد هذا ، أن القائلين بتحريم التصوير من فقهاء المسلمين قد تأثروا — إلى حد ما — بالآراء اليهودية . على أن بعض المستشرقين يتهمون الأمم السامية عامة بخوف متأصل من الصور والتماثيل ، وأنهم ينسبون إليها قوى سحرية . وقال هؤلاء المستشرقون إن مظهر ذلك الخوف هو القول بتحريم التصوير . ومن طريف ما يروى فى باب الاستشهاد للتدليل على صحة ذلك الزعم الذى يذهب إليه المستشرقون ، أن أبا جعفر المنصور حين بنى قصره . وسط مدينته الجديدة « بغداد » ، جعل على قبة القصر فارساً ممسكاً رمحاً لمعرفة اتجاه الرياح — كما يقول المستشرق توماس آرنولد — ولكن سادت بين الناس خرافة مؤداها أن الفارس إذا اتجه برمحه إلى جهة ما ، فإن شراً منتظراً سيحدث بتلك الجهة . ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير الخرافى يجعل الناس يتقبلون فى سهولة قول القائلين بتحريم التصوير .

اليهودية والتصوير :

أما تحريم التصوير فى الديانة الموسوية فإنه يعتمد على ما ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهذا نصه : « ثم تكلم الرب بهذه الكلمات قائلاً : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ، من أرض العبودية . لا تكن لك

آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تماثلاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهم ولا تعبدن . . . ونقرأ في موضع آخر من سفر الخروج قول الرب : « لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب » .

وهذا التحريم الذي نصت عليه الديانة الموسوية في سفر الخروج من التوراة له ما يبرره إذا حاولنا أن نفهمه في ضوء الظروف والملابسات التي أحاطت بتلك الديانة وقت ظهورها . فمن المعلوم أن مصر التي عرفها بنو إسرائيل حق المعرفة — كما عرفوا غيرها من البلاد المجاورة التي تعبد الأوثان — كانت حينذاك زاخرة بأرباب تعبد من دون الله ، وكانت تماثيل آلهتها الآدمية والحيوانية العديدة تحتل كل مكان . . . وما نسكسة بنى إسرائيل ورجوعهم عن الوحداية السامية إلى عبادة العجل إلا لضعف إيمانهم بالدين الجديد ، وشدة تأثرهم بالأفكار القديمة التي وجدوا عليها آباءهم .

وأذن فمن الضروري أن تلجأ الديانة الموسوية إلى النص على تحريم التصوير وعمل التماثيل ، حتى لا يفتن الناس بها فتنتهم بالعجل ، وحتى لا تمهد لوسيلة تفسد عقول معتمقيها في وجود إله واحد لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

أما الإسلام الذي مهدت له الديانة اليهودية والديانة المسيحية بإعداد عقليّة الناس لقبول عقيدة سماوية واعتقاد في وجود إله واحد منزه ، فليس هناك ما يدعو فتمها على الصحيح — إلى القول بتحريم التصوير خوفاً من الرجوع إلى الشرك بالله أو امتناعاً عن مضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى .

وإذا سلمنا أن ذلك المنع كان له ما يبرره عند ظهور الإسلام لتقرب عهد الناس بعبادة الأوثان ، فلا ينبغي أن نسلم به اليوم ، ولا أن نظل على القول بالتحريم ، مع ما يرى من شدة الحاجة إلى التماثيل والتصاوير والتماثيل في حياتنا اليومية وشؤوننا الاجتماعية ، والشريعة — كما نؤمن — صالحة لكل زمان ومكان .

سوق السعاة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل عجمي

المدرس بالأزهر

في مجتمعنا أسواق نافقة ، تعج بالتجار الكبار والصغار ، يمسون ويصبحون ولاهم لهم إلا السعي ، وبين أشداقهم طحن معسول ، وفئات بغيض ، وبين جوانحهم حسائك نماها الحسد ، ورواها الحقد ، وأرضعت عصارات مرة من صدى الوراثة أو إسفاف البيئة ، أو تدنى التربية وانحطاط التلميد .

يمرون بالآمنين بحر الأضالع ، ويندسون بين الأصدقاء ، ويطوفون على الجماعات ويتمسحون بالرؤساء ، ويتعلقون بالأذنان .

لا تكل أقدامهم ، ولا تراجع خطواتهم المشاة ، ولا تسحبهم المنسل ، كأنما قد تقصصهم للعورات ، وتتبعهم للزلات ، من جبل لا تنفذ أحجاره ، ولا تنتهى دفتات حممه ، ولا هبات عثيره .

وما رأيت كالسعاة ، يحملون أوزار أهوائهم ، ويمشون بها في الأسواق ، يصبون في كل مشرب صاف ما يكدره ، وفي كل منبت تام ما يصوحه وفي كل مجمع سار ما ينغص على آله ، حتى يفرق ما التأم ، ويشئت ما تماسك وترابط وتساند .

نعم ما رأيت كالسعاة ، يضربون بالمعول في غفلة ، ويغمزون بالإبرة في صخرة ويدفعون بالمهماز في ثورة ، فإذا النار موقدة ، وإذا البغضاء تقوم بالناس وتقع ، وإذا النمام قرير النفس ، يلبس حر النار فيكون برداً على كبده ، وماء ينزل فوق صخرة فؤاده الكليل ، وضميره البليد ، وطواياه المظلمة ، وحناء التي باض فيها النفاق . وتلك الأسواق المتفشية ، وتجارها المتكاثرون ، وسماستها الذين لا يهدأون وبضاعتها التي تنقل على محفات الرواج ، لا نجد للخلاص منها طريقاً ، ولا نلوذ منها بعاصم حتى ليس لها من دون الله كاشفة . .

ولو أنصفنا مجتمعنا ، وأردنا لأنفسنا الوقاية من شرها ، لأقنا الأموال ورصدنا الجهود لمحاربتها ومطاردة المدمنين ، والعاكفين على استثمارها ، والجري وراء النفع الموقوت الذى لا يدوم ، وإن دام لا يخرج إلا نكدأ من الغاية ، وخبثاً فى النهاية من لى بمقاومة الاسواق التى تبث القطيعة ، وتمحق الترابط ، وتربى الشحناء ، وتوهن أسباب الصداقة ، وعرى الأصدقاء ، فإذا المودة ضائعة ، وإذا القطيعة سائدة ، وإذا الحياة جهمة عليها القتام ، لقد حذر القرآن ، وخوفت السنة ، وجاهد السلف ، وضح النثر ، وصرخ الشعر بالويل والثبور على المشائين النمامين .

ومع هذا فالسوق هى هى ، وقد تكاثرت ، مروجوا هذه البضاعة هم هم ، وقد نفشوا وأصبحوا أولى قوة تخطف أبصار الناس ، وتخيل إليهم من سحر نفاقهم أنها على ركانة ، وإن كانت أوهن من نسج العنكبوت ، وخاط الهباء ، وبني الريح ، وأسس الهشيم المأكول ، وما أزعم أننى على بيته من علاج تلك الاسواق ، غير أنى أضع أمام القارئ زفرات صادقات ، ورميات قاصمات ، قابل بها العتلاء والادباء والكبراء من يحتطبون على موائد هذه الاسواق .

ولعلنا نجد فيما صرح به القدامى من المجريين ، والمتحفظين والمتوقين علالات وصبايات ، إذا تمزناها وتأملناها واعتبرنا بها ، حالت بيننا وبين التسمم ، وباعدت بيننا وبين العدوى ، فإن السعاية داء دوى ، وخطر لا يأتى على شيء إلا جعله جذاذا ثم هشيما ثم هباء .

* * *

وفى الاولين لنا بساتر ...

لما ولى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دمشق ولم يكن فى بنى أمية ألب منه مع حدائنه سنة قال أهل دمشق : هذا غلام شاب ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا ، فقام إليه أحدهم فقال : أصلح الله الأمير ، عندى نصيحة فقال له : ياليت شعرى . ما هذه النصيحة التى ابتدأتى بها من غير يد سبقت منى إليك ؟ فقال : جارى لى عاص متخلف عن ثغره ، فقال له : ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك ، ولا حفظت جوارك ، إن شئت نظرنا فيما تقول ، فإن كنت صادقا لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذبا عاقبك ، وإن شئت أقلناك .

قال : أقلنى .

قال : اذهب حيث شئت ، لا صحبتك الله .

ثم قال : يا أهل دة شق: أما أعظمتُم ما جاء به الفاسق : إن السعاية أحسب منه سجية ، ولولا أنه لا ينبغي للوالى أن يعاقب قبل أن يعاتب ، كان لى فيه رأى ، فلا يأتى أحد منكم بسعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات .

ومن هذه المواجهات القاسية الرادة ما روى عن عمر بن عبد العزيز من أن رجلا سعى برجل عنده فقال : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ . . » وإن كنت صادقا فأنت من هذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك .

قال : العفو يا أمير المؤمنين .

قال : على ألا تعود .

ومن خلال العقلاء كره السعاة وما ينبغي لهم إلا أن يقولوا فى وجهه : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبتناك ، وإن استقلتنا أقلناك .

ومن أمثلة الرجال قتيبة بن مسلم ، روى عنه أن رجلا اغتاب آخر عنده فقال له قتيبة : « أمسك عليك أيها الرجل ، والله لقد تلبظت بمضغة طالما لفظتها الكرام . وإنى لأنهى عجالتى هربا من كرائه هذه السوق التى حرمت على صاحبها روائح الجنة من كل سماع ونقال للكذب بما جاء فى كتب المحاضرات الأولى عن السلف من أن رجلا قال للآخر إن (فلانا) لم يزل يذكر ك ويقول : الضال ، فقال السامع العاقل المتوق : يا هذا . والله ما راعيت حق مجالسته حين نقلت إلينا حديثه ولا راعيت حتى حين أبلغتني عن أخى ما أكرهه ، اعلم أن الموت يعمنا والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ؟

في صحب المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

هؤلاء قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار، فخل بينهم وبين نور الحياة وضياء الكون، وصاروا سجناء الظلام الدامس، وآثروا في الغالب زوايا البيوت، أو منعطفات المعازل، فأصبحوا رهناء محبس آخر.. ولو اقتصرت بليتهم على ذلك لاحتملوها راضين أو صابرين، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم، وهضموا حقوقهم، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم، وأهملوا شؤونهم ولو كانوا جديرين بالعناية والاهتمام، وصدوهم عن احتلال أماكنهم العالية في المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع؛ بل وتطاول السفهاء ولا يزالون يتطاولون - على المكفوفين، فسخروا منهم وتندروا بهم، واتخذوهم مسلاة وتلبية؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التي دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التي تأتي عن طريق البحث والعرض؛ بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن تبدل الحال، فيأخذ المكفوف مكانته الطبيعية في الحياة، يتعلم ويتقوم، ويعمل فيحترم، ويجاهد فيحصل، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد.

والكفيف هو الشخص الذي ذهب بصره، ويقال له أيضاً أعمى والعمى كما تحدثنا اللغة هو ذهاب البصر وعدم الرؤية، ويقال: عمى عليه الأمر أي التبس وتعمى الرجل تظاهر بأنه أعمى، ورجل عمى القلب أي جاهل، والأعميان الليل والجلج الهائج، وقيل: هما السيل والجلج الهائج؛ والعماء السحاب، وقيل هو الذي يشبه الدخان ويركب رءوس الجبال، وفي المثل: ربما أصاب الأعمى رشده. ويقال للأعمى أيضاً ضرير، ويقال له أكمه، وذلك إذا ولد أعمى. والعمش قريب من العمى، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها، كأن المرئيات تستتر عنها بستور الدمع.

وبلادنا - مع أشد الأسف - أكثر بلاد الأرض عمياناً؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه الكثرة في المكفوفين بيننا عدة عوامل، كل منها غول مخيف، وشيطان رجيم، فهناك الفقر الذى يمنع من النظافة ومن العلاج، فينشأ من وراء ذلك العمى وهناك الجهل الذى يدفع بالجاهل إلى ارتكاب السيئات الكبائر فى صحته وفى عيذه على الأخص فيؤدى ذلك إلى العمى، وهناك المرض المتمثل فى الرمد الشائع الذائع وهذا الرمد له ضحايا من المكفوفين أكثر من ضحايا سواه، وهناك القدرة التى ابتليت بها بلادنا، فلم يصدق فى الحملة عليها فرد، ولم تتعاون فى محاربتها جماعة، وهذه القدرة تتناول متجارية على البصر، فتصيبه ثم تمضى عليه؛ وهناك الغبار الذى يثور فى أغلب الأوقات فيحمل جراثيم العمش والعمى فى عجلة وإسراع؛ ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها - إن لم يكن جميعها - تتحمل إصره وتبعته الجماعة والدولة أكثر مما يتحملها الفرد الضعيف وذلك لأنها أسباب عامة طامة؛ ولا طاقة للفرد بالوقوف فى وجهها، وإنما ينهض بذلك المجموع، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك فى سهولة عظم المسؤولية التى تتحملها الجماعة فى كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة !.

وعلى الرغم من أننا أكثر بلدان الأرض عمياناً، فإننا أشد الناس إهمالاً لشئون المكفوفين، وأكثر الناس تفريطاً فى حقوقهم، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس، فإدما قد كثرت فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها فى الأقطار الأخرى، فقد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لنواجه هذه الكثرة بما ينبغى لها أو يجب من رعاية واهتمام، ولكن هكذا كان الوضع، والله الأمر من قبل ومن بعد، ولا زلنا بلاد العجائب والغرائب وإن كثرت منا الدعاوات ..

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم فى ميداننا هذا لوجدت المكفوفين فى الأمم الناهضة الوائبة أناساً عاملين مؤثرين، متساوين مع الآخرين فى الحقوق وأغلب الواجبات، فالمكفوفين هناك إلتناجهم ونشاطهم، ومدارسهم ومعاهدهم، وصحافتهم وكتبهم، وآثارهم الصناعية والفكرية؛ ولكنهم بيننا كالمنبوذين، يعيشون على هامش الحياة وفى أبعد زاوية من زوايا المجتمع، وبذلك تضيع عبقریات، وتختفى كنوز رائعة بإهمال أولئك الناس ! ..

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على النبذ والإهمال ، إذن لحف الأمر وهان ؛ وفي الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالأعمى ، وألفنا اتخاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذىء بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، وكأنما الساخر من صاحب العاهة ، أو الهازىء بمن نالته آفة ، يريد أن يبدو في صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، فيكون محطاً لنقمة العزيز الجبار ، مستحقاً للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذى يؤنب رجلاً مكفوف البصر على خطأ ارتكبه وسمعناه يقول ثائراً وساخراً : « لا لوم عليك فإنك أعمى ، ... وكأنما جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة فخطمته ، وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين : « حتماً إن كل ذى عاهة جبار ، إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء ! »

إن هذا أولاً سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابق القضاء وحكيم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله ، وجرى بحكمته وهداه محاربة له . ومن يفعل ذلك فتمدباً بسخط من الله وعذاب شديد . . . وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والافتباس من نوره الذى أشرقت له الظلمات ^(١) ؛ ولقد روى عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمته (أى عيذه) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى . . . قال أنس : فلتمد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم : « وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود » . وفى رواية : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة :

وحق لو فتمد الكفيف بصره فى معصية لكان مستحقاً للرحمة والرثاء ، بدل التناول والاستهزاء ، قرب معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت

[١] ذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف أن الأعمى يرى ملائكة ربه عند قبض روحه .

عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجر ويستقيم ،
وأما سخريتك منه فتحريض له على العناد والإبعاد في مهاوى الفساد ؛ ولقد شرب
رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فضربه حداً وتأديباً ، فقال له
بعض الصحابة : أخزأك الله ! . فغضب من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ،
لا تعينوا عليه ! .

وكثيراً ما يكون الكفيف البصر المزدري في أعين الناس كريماً عند الله ،
رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ؛ فها هو ذا الصحابي الجليل
عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد
من قریش^(٢) ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد به هذا
الكفيف السامع ، فيمهله قليلاً ، فينزل الله سورة في كتابه ، يعاتب فيها نبيه ،
ويقول عز من قائل معرضاً وموارياً : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتنتفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك
أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛
كلا إنها تذكرة » ! ...

ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » في هراحة
وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذي قوبل صاحبه بالإهمال
أو الإهمال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله
وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك
كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربي ،
هل لك حاجة ؟ ... وجعله خليفة وراه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ،
لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول ...

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها
مدينة خربت غارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان في وسط
القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل في كل بيت قدم

[٢] من أمثال عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي جهل وأممية بن خلف والوليد بن المغيرة .

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطري عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة (ضرير) في البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ! ... فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق سرى بين الجميع !

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الغيور ، وبقاءه في الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من الخمازي ، ومشاهدة عديد من المسآسى ، فهذا زمان تترامى صورته وحوادثه أفذاذ في عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التطلع إليه والاعتماد عليه . فهتف :

ما أكل كثير الناس ، لا بل ما أكلهم الله يعلم أنى لم أقل فسدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

فليت شعري ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا حتى أدرك زمانا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن تمنى أن نفقدها لنستريح من خزي ما نرى ونشاهد ! ؟ .
الإن سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع الرفيع الثليل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه » . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمانة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء والاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعلقة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالأجسام والأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ...

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث في صحبة المكفوفين سنرى أن كف البصر ليس عاهة تقبل الهزء والسخرية ، وليس تنمنا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقب المجد وذرا الرفعة ؛ وسنجد من شواهد التاريخ وسواند الحوادث ومنطق العمل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة في القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة في الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! ...

الاسلام أصل حضارة العالم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يقولون إن المدنية الحديثة أساسها الحرية والإخاء والمساواة، وإن هذه الأشياء لم تعرف أول ما عرفت إلا في عهد الثورة الفرنسية التي قامت في آخر التمرن الثامن عشر، وإن أعظم أسس تلك الثورة كتاب العقد الاجتماعي الذي نشره جان جاك روسو، والذي أوله (ولد الانسان حراً).

ولم يدر هؤلاء المغالون الجهلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال من قبل ذلك بما يزيد عن اثني عشر قرناً (إن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى) وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بأقوال تكاد تكون أقوال جان جاك روسو، حكاية لها، حيث نصح أحد عماله بتموله (كيف تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

وبعد، فلا أظن شمس الحرية أضاءت كما أشعلها الاسلام، إذ أضاءت العالم من مشرقه إلى مغربه كلها انتشرت تعاليمه — أما أوربا صاحبة المدنية الحالية التي أثبتت الأيام أنها مدنية الحجارة والحديد والتشاحن على المادة والعرض وإزهاق النفوس لملء البطون وإشباع نهم الفجور والفسق والفتنة في السلم، هذه المدنية لم تعرف اسم الحرية إلا بعد أن احتكت بمدنية الإسلام، وبعد أن أضاء قبس من نوره من العراق والأندلس ومصر والقسطنطينية.

حتى في بلاد العرب لم تسكن الحرية ذات معنى حقيقي قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أظن خافياً على أحد ما الذي كان يفعله المنتطعون من قريش والتمتتون فيها حين كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه بأشد أنواع الأذى، ويذيقونهم أمر أصناف التنكيل مع أنهم لم يراحموهم على عرض ولم ينافسوهم على جاه ولم يطالبوا بسلطة ولا بحكم، وإنما كانوا يدعون لدينهم بالتمول اللين والكلم الطيب وحده إلى نبذ عبادة الأصنام، والتفكير في المخلوقات ليعلموا أنها من صنع الله الواحد القهار.

ومع ذلك فقد أخذتهم حمية الجاهلية وطوحت برؤوسهم إلى الغت والسخف حتى اضطروا الرسول صلوات الله عليه للهجرة هو وأصحابه ، واضطروهم إلى أن يشقوا بأسيا فيهم الطريق إلى الحرية ، حتى أفاضت بنورها وحتى انكفأت أطباق الظلم ، وإذا بالمسلمين يحملون شعلتها المقدسة وفي أولها هذه الحرية ، يدعون إلى الله ويدعون إلى المساواة ، إلى أن تكسرت أمام أسيا فيهم وتحت أقدام خيولهم ما عهدته ممالك فارس والروم والمغرب وأوربا من نظام الطبقات ، ومن استعباد الناس بعضهم لبعض ، مما كانوا يسمونه نظام الإقطاع ، وحق السيد أو الشريف على عبيده ، وحق السكينة ورجال السكنائس على عموم الناس .

لم يعرف العالم إلغاء هذه النظم العجيبة قبل الإسلام ، ولو قام إنسان في أوربا في القرون الوسطى ، ودعا إلى المساواة بين الفلاح وصاحب الحقل ، أو دعا رجال السكنائس أو المعابد إلى التنازل عما كانوا يدعون من حقوق لما كان له من جزاء أقل من التعذيب والتقتيل والتخريب .

ولتعد ضلّت المدنية الأوروبية طريقها وحادت عن أصلها الأول في الإسلام وجسموها نظريات فاسدة واتخذوا لها طرقاً لا تمت إلى الحق بسبب ، فكانت النتيجة أن انتقلت الأعراض الزائفة ، والصور الباطلة ، نقمة عليهم وإذا هم يطغى بعضهم على بعض يتكالبون على ما يشبع النهم أو يطغى ظمأ الشهوة ، وما هم ببالغين من ذلك إلا دق الأعناق ، ولا تراجعين إلا عن طريق روح الإسلام - عند ذلك يتذوقون المساواة الحقّة والإخاء الصحيح .

جاء الوحي من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول ، وكان أول بدئ قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

أول الدعوة وأول الرسالة طالب المولى حبيبه بالعلم ، يا لها من حضارة تبهّر العقول وتستهوى الألباب وتشرح الصدور . يطالب جل شأنه بالعلم ، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحية الحق وروحه الحضارة في أجلى صورها وأبهى معانيها ؟ العلم بأوسع صورته وأدق معانيه ، وإلا فيما نفسير انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلة المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة ؟ استنصر الله

بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف لها الكافة بالزعامة في ذلك قروناً طويلة كانوا فيها يؤمنون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصناعات والفنون ، ولا يزال المؤرخون من جميع الملل والنحل يرددون هذه الحقيقة - أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقي فرضاً ولا يسمح به سماحاً .

تحدث القرآن عن ذلك بمنتهى القوة حيث يقول الله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ويقول : (وقل رب زدني علماً) ويقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول المصطفى صفوة خلقه (خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء

كل هذه الآيات وتلك الأحاديث فرضت على المسلمين العلم ودفعت بهم إلى مباحثه دفعا ، والعلم يؤدي إلى الترقى لا محالة بل هو طريقته الوحيد في كل أدوار البشر . وأى علم هو ؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه وبكل ما يؤدي إليه في الحياة . فإن الدين الذى يفرض على ذويه النظر في السموات والأرض والذى يقول إنه يضرب الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم في حقه ، والذى يقول رسوله الأمين (فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد) ويقول (ففكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب العلم ، وطلبه يدفع بهم إلى أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها .

وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور ، يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ليعمل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر . يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك .

ومن ذلك الذى كان يتصور أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة النصيرة ويبدد ذلك القبس من العلم يعيش إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض يأخذون عنه ما جعله الله أميناً عليه دون خلقه - من ذا الذى يستطيع أن يتخيل

هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لقاموس الترقى إيجاباً ، لا أنه قد أباحه لهم تخييراً .

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العلم فحسب ، ولكنه تغلغل في نظام الاجتماع ووضع من القواعد ما يعتبر المنار الوهاج لهداية الناس إلى ما يسمو بهم فرادى وجماعات ، وإلى ما يقر حالهم من حيث معاشهم ومعادهم ، فكان النظام الاقتصادي أبدع من النظم الاقتصادية التي عرفت من قبله والتي ولدت من بعده ، هذا النظام هو نظام توزيع الثروات توزيعاً عادلاً مشبعاً بروح المودة والرحمة والاحترام بين الطبقات ، وذلك النظام هو نظام الزكاة وحسبنا لو طبق هذا النظام على وجهه الشرعى الصحيح أن تهرب الأشباح الخفيفة التي تطنخى على العالم الآن باسم الشيوعية والنازية والفاشية والرأسمالية ، وما إلى ذلك مما يسير فيه العالم متخططاً بين ظمأ الجشع وواجب الرحمة .

ثم كان تنظيمه للأسرة وعلاقة الرجل مع زوجته وأولاده وأقاربه في حياته وبعد مماته نظام عجيب منشؤه التواصل والتراحل والتعاطف ، وإن برم به الغريون وغيرهم من في قلوبهم مرض ، وعابوا عليه بعض الشيء . فهم ولا بد راجعون إليه بطبيعتهم مندفعون إليه بغرائزهم ، هذا من ناحية وهناك ناحية أخرى اجتماعية لها دقتها ومكانتها وقد وقف منها الدين الإسلامى موقفاً عظيماً يدل على منتهى السمو والعظمة إلا وهو الطلاق وإباحته مع بغضه وتقييده بتلك القيود البالغة منتهى الدقة حيث يقول جل شأنه (فعظوهن واجهروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سديلاً) ثم بعد ذلك يقول (الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان) :

أين حضارة الغرب هنا ؟ بل أين مدنيته ؟ ها نحن نراهم يرجعون إلى ديننا في هذه المسائل كلها ، وما ذلك إلا لصلاحيتها واستقامتها وتمشيها مع روح العصر وها هم يقتربون منا كل يوم .

ولو نظرنا قليلاً في تقاليد المجتمع وما يسميه الغريون بنظام (الإتيكيت) والآداب الاجتماعية ، ونظرنا إلى نظام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لنرى أيهما أقوى دعامة وأرقى مدنية وحضارة .

يقول الله تعالى في آداب دخول البيوت والاستئذان لرجال ربوا على البداوة وعاشوا في أحضان الطبيعة ، يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسلبوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذنى لكم ، ويتمول في آداب الجلوس « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » وغير ذلك من الآيات :

بل نظم العلاقة بين الأفراد والعائلة بالنسبة لبعضهم البعض داخل بيوتهم حتى يلزمهم حسن الادب محافظة على الكرامة فقال (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضهم على بعض)

تعليم إلهي وأدب سماوي وأخلاق قدسية تدل على الحضارة الحقة الكاملة ، حضارة لم تغير معالمها تلك الحضارة الزائفة التي وجدت في هذا القرن والتي كان منهاها هذا الدمار الذي نشاهده وتلك الحرب الضروس التي نراها اليوم والتي أطاحت بدول وأذهبت ممالك وثلت عروشاً كانت تفخر بأنها بلغت الذروة في الحضارة حتى إن رئيس إحدى هاتيك الدول قد اعترف والقلب منه دام ، بأن الخلاعة والمجون كانا السبب المباشر في انهيار دولته العظيمة والتي كانت تباهى الأمم كلها بحضارتها وتفخر عليهم بها

إن حضارة الإسلام مبناها النظام الروحي والإخاء الإنساني الحق ، لذلك بقيت تعاليمه صحيحة لم تغير معالمها الأيام ، ولم تقوض صروحها السنون ، بل إنها تزداد على مر الأيام قوة وتمسكاً

وها نحن ننتظر أن يثوب العالم إلى رشده ويرجع إلى عقله فينشد الأمن والسلام في دين الإسلام ويفتش عن الحضارة في هذا الدين ليعتتمها الجميع وعند ذاك تنقطع الثورات وتهدأ الحروب ويتركز العالم على سياسة واحدة حقة ، وهي سياسة الله العلي التدير . والله الموفق لأقوم طريق .

دعوة الاسلام الى المساواة

نفسيد الاستاذ الشيخ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله أياد بيضاء على المجتمع ما أجلها . وفضائل
شما اختص بها العلي القدير ذلك الذي توافرت فيه أكرم الصفات . فجعلت منه
عقبيا فذا . وقائدا موقما . وداعيا إلى الله بإذنه يشوب إلى هديه الحائر ، ويستضيء
بنوره الضال ، ويؤمن بدعوته المنصف . ويخشى هيئته المتبدي . ويتضاءل لعظمته
المتكبر . حتى خلق من عرب الجزيرة على تنافرهم . وتباغضهم . وتأصل أسباب
الفرقة بينهم . أمة قوية الدعائم . شاحخة البناء . تربط بينها أواصر الدين . وتؤلف
بين قلوب أبنائها تعاليم الله . وتغرس في نفوسهم رفيع السجيا . وجميل الخلال
التي جعلت من العربي . الجاف الطبع . الغليظ اللفظ . الثائر المندفع . الشره الحاقد .
إنسانا مرهف الحس . لين العريكة . مهذب القول . يكفيه من متاع الحياة ما يسد
رتمته . ويقيم أوده ويحفظ عليه حياته . بل تسامت به القناعة ونكران الذات إلى
أن يؤثر أخاه على نفسه . ويخرج له عن جل ماله . من طارف وتليد . وتلك
مساواة إسلامية . يعبر عنها المحدثون بما يشاءون . دان بها السلف وأخلصوا في
تنفيذها حتى أصبحت خلقا لهم . ودستورا نافذا بينهم . يحبه إليهم ما تمتلىء به
قلوبهم . من حب لله ورسوله . وإخلاص للدعوة الرشيدة . دعوة الإخاء والتراحم
والتواد والتعاطف . ونبد الفوارق التي تدعو إلى التخاصم والتناحر . والتفاخر
بالأحساب . والتباهي بالأنساب . وتناسى ما وقر في أذهانهم من عصبية جاهلية .
جعلتهم ينسكرون على الرسول الأمين في مبدأ الدعوة . مجالسة الفقراء وأحاطة لهم
بمزيد من رعايته وتسميره ، وقر رأيهم على أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بدين
يسوى بين الأشراف ذوى الجاه ، وبين الفقراء المنبوذين إذ ذاك ، حينما بصروا
عند رسول الله بصيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم ممن ليسوا من ذوى العصبية .

وأبناء الأسر ، رغبوا إليه أن يبعدهم عن مجلسه . فلما أبى ضنا بهم . وإيثاراً لهم ، قال : (ما أنا بطارد المؤمنين) قالوا اجعل لنا مجلساً ليس لهم أن يحضروه . فإذا فرغنا مما قصدنا إليه هرعوا إليك كما أرادوا ، فقال نعم طمعاً في إيمانهم . وكان ذلك بحضرة عمر رضى الله عنه . ولكن الله آثر القضاء على الفوارق داء المجتمع العياء . على إيمانهم . فنزل قوله جل شأنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ثم شدد سبحانه النكير على دعاة التفرقة ، والتفريق لهم بأسلوب لا يدع مجالاً للثقة فيهم ، والركون إليهم . والاطمئنان لهم ، ما داموا يتمسكون بهذه الطائفة المردولة التي تدفعهم إلى أن يقولوا نحن سادات مضر وأشرافها إن أسلنا تسلم الناس ، وإن وفود العرب تستحي أن ترانا قعوداً مع هؤلاء الأعباء ، فقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) إلى أن يقول : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) .

وبذلك تقرر هذا المبدأ التوحيدي : مبدأ المساواة بصورة عملية قاطعة . سدت كل المنافذ أمام أولئك النفر من عظماء قريش ، الذين أملوا أن يبقى لهم في ظل هذا الدين نظامهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم . وكان من أجل مظاهره . غطرسة وكبرياء . وعنصرية تدفعهم إلى حب الظلم . والتعلق بالاستبداد . فلما خاب ظنهم . وكذب حدسهم . حاربوا الدين . وخاصمو أتباعه . وأنزلوا بهم أنواعاً من القسوة . وصنوفاً من الاضطهاد . وألواناً من العذاب . اضطرب معه المؤمنون أن يفروا حرصاً على دينهم . وصونا لعقيدتهم . ويصمموا وجههم شطر المدينة . فلما بلغوها . وجدوا أن الدعوة الجديدة التي تهدف إلى أنه لا فرق بين أبيض . وأسود . وقرشي وغيره إلا بالتقوى وأن المسلمين مهما تباعدت ديارهم . واختلفت ألوانهم . وتباينت ألسنتهم . هم في الدين أخوة ويسعى بذمتهم أدناهم . وجدوها قد نمت . وأنيعت في مهجرهم . وليس أدل على ذلك مما قابلهم به الانصار . من حفاوة بالغة . واستقبال عظيم . ورضى سابق . عبروا عنه بقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم

مدفوعين بأخوة صادقة للقادمين عليهم . وحب أكيد لهم (أموالنا بينهم قطائع) حينما قال لهم (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) والقرآن الكريم يذكر هذه المعاملة الطيبة في قوله تعالى [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وقد سادت بينهم جميعا صلوات قوية على أسس من التعاون والمودة . في ظل سلم يصونه ما يتذرعون به من غنى نفس . وإيمان صادق . يحفزهم إلى القضاء على الفتنة في مهدها . قبل أن يبرز قرنهما . ويندلع لهيبها . وهم أعرف الناس بآثارها لأنهم قد طحتهم حروب العصبية . ولفحت جباههم نيران العداوة والبغضاء . أيام جاهليتهم . وقد حرص الرسول أشد الحرص على أن تكون الوحدة في كنف التسامح والمساواة حتمية واقعة . تنتظم الانتصار والمهاجرين . ومن يجاورهم من اليهود . سيما وقد وضحت لهم محاولة المنافقين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين . وبين الانتصار والمهاجرين . يؤيد هذا ما روى عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الانتصار . فانتزها ابن أبيّ فرصة مواتية . لأن ينفخ في بوق الفتنة ويثيرها حربا شعواء . تبعث العصبية من جديد إذ قال في رهط من قومه . قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا وهذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتهم بلادكم . وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فحشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغه من غزوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فتمال يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله فقال رسول الله . فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وإذا ترعد له أنف كثيرة بيثرب . وقال لمن تدفعه الغيرة إلى أن يدلّ دلوّه في الفتنة . دعوها فإنها منتنة .

لذلك كتب كتابا بين الانتصار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم . واشترط عليهم . وهذا الكتاب يعتبر بحق وثيقة إسلامية . تفيض تسامحا لا يعرف العصبية . الظالمة ومساواة باعدت بينهم وبين

القبيلة الغاشمة . وعدلا لا يصدر إلا عن نفس نقيّة طاهرة تجردت عن الغرض والهوى . ولم يتحكم فيها مأرب . أو تستخفها شهوة . تدعو إلى نسكث العهود . ونقض الموائيق . بدافع من الأثرة وحب الذات . وابتغاء منفعة عاجلة . وانتهاز فرصة مواتية . كما نرى الآن ممن ينطقون بالألفاظ الجوفاء . والعبارات المعسولة التي تنادى بالحرية والنصفة . وإقامة نظام سلبى دائم . يحفظ للأمة الضعيفة كرامتها واستقلالها . ويهيب بالأمم القوية . أن تتبادل معها علاقات الحب والتعاون على قدم الإخلاص والوفاء . ومع ما يتصايحون به ويتسابقون فى سبيله من عقد المحالفات بأسمائها المتنوعة . تحس منهم الأمم خلاف ما يظهرون . إذ يشيع بينهم حقد تغلى مراجله . ونهم لا تخفى مظاهره . وإسفاف فى الخصومة بلغوا به الغاية . وإمعان فى العدوان بدّد الثقة فيهم . والركون إليهم . وتبلبلت الأفكار وأشعبت بينهم الآراء تتبع الأهواء .

أين هذا من قول الرسول فى عهده الذى لم يحد عنه قيد أنملة (إن من اتبعنا من يهود . فإن له النصر والأسوة . غير مظلومين . ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . إلى أن يقول . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة . من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس . مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع للبر المحض من أهل هذه الصحيفة) وقد واصل الرسول بذل الجهد لمحاربة الفوارق والعنصرية أينما وجدت وكيفما كانت . ولذلك عنى أشد العناية بمحاربة هذه النغمة البغيضة يوم الفتح حين أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام . وعتاب ابن أسير وقالوا هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزل قوله تعالى يظهر الرسول . ويعينه على المضى فى دعوته . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم رب اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له - لو أقسم على الله لأبره .

هذه الدعوة الإنسانية القويمة دعا الإسلام ، وقد استجاب لها المسلمون الأوائل ، وأخلصوا في تنفيذها حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصراني واليهودي ، ينعمون فيه جميعاً بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار في جو من الثقة وحسن التفاهم ، وقد سارت تقفو أثره . ولا تنفك عن متابعته في سرعة انتشاره . حتى أصبحت من متمات العقيدة . يدين بها المسلمون في الحواضر والأمصار . في الجزيرة وغيرها من بلدان المشرق والمغرب .

وحسب الباحث المنصف أن يرنو ببصره إلى بلاد الحضارة الآن التي قامت على أنقاض مجد الإسلام بعد أن حارب أهلها تعاليمه . وجعلوا معتقته شيعاً وأحزاباً . فهان أمرهم ، وضاعت هيبته . وأسلموا تراثهم . ورضوا بالمظاهر المصطنعة . مما تخجل له نفس الآبي الحر . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . حسبه أن يلقى نظرة فاحصة ، ليتبين كيف غلبت المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، والانانية التي دفعت بها العنصرية إلى أن تظهر شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت لها الغلبة والسلطان . طمست معالم التسامح والمساواة وغدا التفاضل بين الأجناس شرعة ومنهاجا . ليس من حرج على أحد أن يعمل له . ويحجر بالدعوة إليه ، وها هي ذى بلاد الدنيا الجديدة ، البيض فيها يفرون من الحر . فرار السليم من الأجرب . يظلمونهم . ويحترونهم ، ويقيدون حريتهم ، ويضربون حولهم نفاقاً من المهانة والإذلال ، ولا يسمحون لهم بالسكنى في أحيائهم أو الدنو منها ، وويل لمن تسول له نفسه هذا العمل . سيلقى حتفه . ويهدر دمه . وليس لأحدهم أن يغشى لهم مجتمعاً . أو أن يلج لهم نادياً من نواديهم ، فضلاً عن أن تجمع بينهم وشائج المصاهرة . وقد قامت دنياهم وقعدت عند ما اقترنت ببيضاء بزنجي . أليس ذلك وغيره أقوى دليل على أن الإسلام دين المساواة الحققة ، والحرية الوارفة ، وهو ملاذ الإنسانية . يتمها من العنت والتحكم ، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية التي هي دعوة الحاضر ، وهيئات أن يتحقق منها بين مختلف الأمم والشعوب ما تحقق في الماضي بفضل تعاليم الإسلام . وما سيتحقق في المستقبل لو رجعوا إلى دستور الله التويم .

صفحة من المجد

أفضى الأستاذ محمد فليفة

المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الاسود الداكن الذى منحه الليل جناحه ، ونسج هو من جبينه
الصفحات الليلية أجنحة ؟ ولدته الأحداث ، وارتضع من أهوال الليالى فتدفقت
الأهوال فى دمه فهو وليد الأحداث وهو رضيع الأهوال وهو الذى يعيش لها ،
يحسبه الرأى أنه ليس من طينة هذا البشر ولسكنه من طينة أخرى صهرتها عزيمة
أمضى من عزائم الجن فكانت ذلك المخلوق الفدائى الذى عرفه تاريخ الإسلام جلدأ
رائخاً كالطود والأجسام تتساقط حوالبه ، والرؤوس تتطاير ، والقلوب تتمزق ،
والأشلاء تتناثر والدماء تتفجر ، وهو هو الساخر من الموت البسام لعواصف الردى .
لقد ركب البحر المائج وبين جنبيه قلب يموج ويهدر ، وفى رأسه أفكار تصطبغ
وترعد ، وخواطير ترغى وتربد ، وفى نفسه آمال تجيش وتثب وليست الذهب
أو الغيد أو العيش بين الزهر والكأس : لا : لأنها الآمال السكار ، إنها الفتح
والنصر ، لقد عاش فى الصحراء يحمل قلبه من صخرها قوة وصلابة ، ويحمل
من اتساعها أملا كاتساعها ، ومن آسأها عزائم أسأها ، وقد انطبع صفاء الصحراء
فى نفسه فكانت أصفى من الصفاء فى مواطن الصفاء كما كان صورة لروعة الصحراء
وربهة الصحراء فى مواطن الدماء .

وجاءته شرعة الإسلام فرآها شريعة الحق فوهب نفسه ودمه للحق يناضل
له ويموت فى سبيله .

إنه طارق بن زياد ، إنه البطولة ، إنه أول فدائى مست أقدامه تراب أوروبا
واستهان بالموت فى سبيل تركيز راية الإسلام فوق صخور المضيق تخفق

فتنخلع في خفقاتها قلوب المساكين الذين استعبدوا الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

لقد مخزت السفن في ذلك البحر الزاخر وفي طليعتها طارق يزخر قلبه بشكول من الآمال وألوان من الأفكار .

تطلع طارق إلى ذلك الصخر الداكن الذي تبدى من بعيد ، فرأى فيه صورة لوجهه ، ورأى في أخاديه وأغواره صورة لأعماق نفسه .

ورأى في ثباته وتوطد جوانبه أمام ثورة البحر الطاغية ، وأمواجه العاتية ، صورة لموقفه الذي يجب أن يكون أمام المستقبل الذي يرتقبه ، وما يحمل بين أيامه ولياليه مما يشبه طغيان البحر وعتو الأمواج

وما كادت السفن تقارب الشاطئ حتى وثب إلى الشاطئ ، ليثبت للدنيا أن الحياة وثبات ، وأن الذي يتحسس موطئ قدميه خوفاً من أشواك الحياة أو رهبة من أغوارها وأعماقها خليك به أن يتدثر بخمار غانية لا أن يلبس لامة الحرب ويدرع للأهوال وبين جنبيه قلب العذراء

لقد توائب في أثره الجند وكلهم كطارق في سخريته من الموت واستهانتها بما تعبئه الأندلس من عدة أو عتاد

وهنا تطلع طارق إلى تلك السفن الرابضة إلى جانب الشاطئ فرأى فيها باب الحياة لأولئك الذين قد يطلبون الحياة إذا عجزوا عن لقاء الموت ، فأشعل النار فيها وهو يبتسم ، والجند في حيرة من هذا القائد يتساءلون عن السر ، فلا يجدون جوابا غير ألسنة النيران تصاعد إلى السماء ، حتى إذا صارت السفن حطاما تتقاذفه الأمواج ورأى أنه قد خلص جنده من عبودية الجبن الذي قد يكون حين تبدو نواجذ الموت وقف على الصخرة يصرخ في جنوده ، فتفسيم صيحاته كل شيء إلا الحق الذي يكافون له والمجد الذي يجب أن يستشهدوا في سبيله حتى تقوم صروحه من أشلائهم لقد وقف يقول :

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد

استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت

ونظر طارق وراء الأفق البعيد فاذا الأندلس تلتقي إليه بخيلها ورجلها أمواجا من البشرية تندفق وأعلاما تسد الأفق تخفق وتضطرب.

ما هذا؟ إنه لذريق ملك الأندلس يزحف في جيشه الجرار ليقذف بأولئك الحفاة الى البحر طعاما شهيا للأسماك والحيتان

انه لذريق يسير في مائه ألف مقاتل يركب مركبه التي لم يحلم بها ملك من قبل ولا من بعد، يحيط به من حرسه الخاص عشرة آلاف من الرجال الأشداء

انه لذريق أعجبه جنوده فانفجر ضاحكا يسخر من أولئك الجياع الذين جاءوا يطلبون عرشا عز على القياصر طلبه

وزحف طارق لا يريد الميمنة ولا يبغى الميسرة، ولكنه يريد الخطر يريد القلب وحده فإذا أن يناله فيسكون النصر ولما أن يهلك قبله فتظل العاصفة جاثمة ويكون قد شق الطريق لها إلى القلب لتعصف به وتأتى عليه وفيه لذريق وعندئذ يكون النصر.

ان أسبانيا وما عبأت أسبانيا لن تثنى طارقا أو ترده، أنه يريد أن يضع قدمه على قمة جبال البرانس ويؤذن في الوجود: الله أكبر الله أكبر.

ووثب طارق وثبته وانطلق كالرياح بل أسرع من نكب الرياح يززع الحراب والقنا ويحصد السيوف والرماح فزاغت أبصار الأسبان وبلغت قلوبهم الحناجر ولووا وجوههم يترقبون مخرجا من لقاء الموت فإذا العاصفة تزلزل الأرض

من تحتهم وإذا التكبير والتهليل يفجر رؤوسهم . لا . لا ليس هؤلاء المسلمون من طينة البشر وما من قوة في الأرض تتف أمام قوة السماء .

إن هؤلاء خلقوا في مصنع المعجزات السماوية فلا طاقة لأحد بهم .

وأدار الأسبان ظهورهم وأطلقوا للرياح سوقهم .

وأدار لذريق بصره فلم يجد حرسه الخاص الذي يبلغ عدده عدد جيش المسلمين .

ولم يسمع غير أصوات المنايا تقترب منه فقفز من مركبته وفر مع الفارين بل كان أسبق الفارين .

ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنا

فأين لذريق ؟ وأين ضحكات السخرية التي كان يملأ بها شذقيه ؟ وأين نظرات الازدراء التي صعدتها وحدرها في أولئك المسلمين الذين لفظتهم الصحراء على معقل لذريق الشاوخ ؟ إن التاريخ أثر بعد تلك الموقعة في لذريق فغير أثوابه الملكية وتاجه العظيم على شاطئ النهر ولعل النهر أبى ألا أن يكون بين قاعه قبر الطاغية .

وسار طارق يمد جناحيه على شرق الأندلس وغربها حتى وافاه سيده موسى ابن نصير فتقدما وزحفا حتى بلغا جبال البرانس ووقف طارق على قممها الشاهقة يحقق حلما من أحلامه الجميلة . وأمنية من أمانيه العذاب .

أنه أطلق صوته فوق هذه الجبال يؤذن في الوجود : الله أكبر الله أكبر .

وخر ساجداً لله شكرا وحمل الصدى روعة الأذان يجلجل بها في أوروبا فوضع الفرنسيون أيديهم على صدورهم يتحسسون موضع قلوبهم يخشون أن تكون قد فرت من جنوبهم فلم يحسوا بفرارها .

اتمد أذهلهم الرعب عن كل شيء حين رأوا موسى بن نصير وقد وقف على قمة البرانس وأرسل طرفه إلى الشرق البعيد ثم صاح : سأخذ طريقى إلى الشرق عن

طريق شمالى (بحر الروم) البحر الأبيض ولا بد أن أجعل منه بحيرة عربية ، حلم جميل ليته تتحقق وقد كان فى قدرة المسلمين الذين أخضعوا الأكاكسة وأذلوا القياصرة أن يجعلوا أوروبا كلها مسلمة ولكن لم يرد الله الخير لشعوبها :

يا شباب الشرق : إن طارقا بنى للإسلام دولة وشاد للمسلمين مجداً فى بلاد الأندلس فهل عجز الشرق أن ينجب مثل طارق

يا شباب الشرق إن مصنع المعجزات الذى صنع طارقا هو كتاب الله وهو حى خالد فهل عجز الشرق أن يصنع فى مصنع المعجزات فى ألف طارق :

يا شباب الشرق لقد داس طارق وجند طارق بأرجلهم الذهب وما هو أعلى من الذهب فلم يشغلهم بريق المال ولم يذهل المال والجمال رجل الصحراء عن رسالته التى حملها وجاء من أجلها وهى الجهاد فى سبيل الله حتى يتم الله نوره .

يا شباب الشرق : إن المغاربة الذين فتحوا بالأمس الأندلس وروعوا فرنسا هيض جناح أحفادهم اليوم فتحكم فى الأحفاد عبيد الأجداد فهل يعيد التاريخ نفسه فيقوض حفات الصحراء بأيمانهم وأخلاقهم عروش الجبارين :

يا شباب مصر : أنظروا إلى أولئك الحفاة الجياع من جند طارق وقد عزت نفوسهم فى ميدان الجهاد فلم تعزهم الدنيا ولا زخارف الدنيا وهى بين أيديهم وتحت أرجلهم ثم انظروا إلينا اليوم ونحن متخمون وتأبى نفوسنا الضعيفة إلا أن نقدم حياة جنودنا ثمناً رخيصاً لقصور نبتيها أو ضيعة نملكها فنهدم مجد أمة لنترك للأولاد والأحفاد ثروة ينعمون فى ظلالها :

أيها الشباب :

لا تكونوا عالة على التاريخ ولا تعيشوا على موائد الماضى بين ألوان الذكري بل شيدوا لكم حاضراً تذكركم به الأجيال المقبلة واطلبوا الموت توهب لكم الحياة :

لمحات فى النظم التعبدية :

الرهبانية والديرية والتصوف

لمحاضرة الأستاذ عبد المنعم الشبى

مدرس بالأزهر

تعشق النفس دواماً ، أن تحيا مع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للخالق ، وحبسوها على طاعته ، ابتغاء مرضاته ، وتقرباً لذاته العلية ، وطمعاً فى فيض نوره الذى يهدى الأرواح الخائرة ، وسط حياة مفعمة بالظلمة والآثام . . . أحببت أن أحييا مع هؤلاء ساعات من زمان عمرى ، فى قراء هذه المجلة أهدى هذه الساعات !

سأعرض فى بحثى هذا ، للرهبانية والديرية والتصوف ، مع عقد المقارنة بينهما ، كلما لاح لى وجه ملائم لهذه المقارنة . اشتقت كلمة « الرهبانية أو الديرية monasticism » من كلمة يونانية ، معناها الوحدة والانفراد ، ومن هذه الكلمة تولدت جميع المشتقات ، التى تعطى هذا المعنى . فلكلمة « monk » معناها الرجل الراهب ، أو الرجل الديرى ، وكلمة « monastery » معناها الدير ، وهو المكان الذى تنظم فيه جماعة العباد التى آثرت هذا النوع من الحياة . وهذه العزلة ، ليست فى عرف جميع قديسى هذه الحياة الانفرادية ، الانقطاع السكى المطلق ، عن الحياة النابضة المتطورة فى الخارج ، وتجشيم النفس ما فوق طاقتها من المتاعب والمصاعب . وإلى هذا الانقطاع السكى المطلق ، وإذلال النفس ، وحرمانها أنعم الله ، ومتع الحياة ، أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله « لا رهبانية فى الاسلام » ، ويحسن أن نثبت فى مستهل هذا البحث ، أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية ، ليستا من أنظمة المسيحية الخاصة ، فإنه لم يتح لهما من النماء والتطور قدر ما أتيح لهما فى ظل المسيحية . أما عن أصل اشتقاق « صوفى وصوفية ومتصوف ومتصوفة وتصوف » فقد ورد فى ذلك كلام كثير ، ويعيننا من كل ما قيل ، ما رسخ لدى العلماء اليوم ، وهو أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اختصوا بلبسه ، تمييزاً لأنفسهم

عن الطبقات التي درجت على البذخ وانغمست في الترف . ونظرة لسكلا الاشتقاقيين في الرهبانية والديرية والنصوف ، ترينا أن القوم في كل ، نظروا الى الحياة نظرة زهد ، وعزفوا عن مباحجها وملازمها ، وذلك يتفق مع ما نعرف من أن هذه الأنظمة التعبدية ، قد نشأت كلها عن الزهد .

وسأتناول الآن ماهية كل من هذه الأنظمة ، لنقف على ما بينها من أوجه اشتراك وأوجه افتراق : عرفت الوثنية الرهبانية والديرية ، ولكن المسيحية لم تعرفها قبل القرن الثالث الميلادي ، ولم تعم هذه الحياة الشرق وتنتشر فيه قبل القرن الرابع ، كما أن القرن الخامس شهدا متناثرة في غربى أوروبا ، ولم تعم وتنتشر هناك إلا في القرن السادس . ولقد نبتت أولى بذور هذه الحياة في الشرق ، وفي ذلك برهان قوى على التأثير الشرقى في المسيحية . والأصل في الرهبانية والديرية ، هو الانفراد والابتعاد عن المجتمع الغارق في المنكرات ، السادر في الموبيتات والفرار بعيداً عن صليل المادة المسكر ، هذا مع التمشف في العيش ، والاكتفاء بما يقيم الأود ، بالقدر الذى يهيء للعبادة والتأمل فتمط . وهناك فرق بين الانعزالية الرهبانية والانعزالية الديرية ، فالأولى هي حياة فرد من الأفراد ، ضاق ذرعاً بالحياة المضلة من حوله ، فراح يلتمس سعادة نفسه وهدوءها في رحاب الله ، بالابتعاد عن الخلائق والتفرد للخالق .

أما الانعزالية الديرية ، فهي عيشة اجتماعية في دير من الأديرة ، خارج نطاق الحياة البشرية العامة ، وهي عيشة منظمة ككالية ، ليس فيها قسوة الرهبانية وشدها إذ هي حياة تعاونية ، في ظلال التعبد والتقرب من الله . هذه هي الرهبانية ، وتلك هي الديرية ، أما التصوف فتبدو ماهيته من التعاريف الآتية :

قال رويم بن أحمد البغدادي « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقيق بالبذل وترك الغرض والاختيار ، وقال السكرخى : (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق) وقال الجنيد : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) وقال ابن خلدون في مقدمته : (الصوفية

من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة . وقد كان ذلك فاشيا في الصحابة والسلف . ولما عم الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المتبلمون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة) يتضح لنا من العرض السالف لماهية هذه النظم التعبدية ، أن بينها أوجه العلاقة الآتية:

١ — أنها جميعا تنفق في هجر المجتمع القائم المليء بالشرور والآثام ، إلى مكان منعزل تمارس فيه طقوسها الدينية خالصة لوجه الله وحده ، وسرى فيما بعد أن قيام هذه النظم كان ردأ على موجات الفساد التي اجتاحت المجتمعات حينذاك .

٢ — هذه النظم جميعا يطبعها التقشف والزهد في الحياة ، وهو طابع يضاد ما في حياة المجتمعات حينذاك من إغراق في البذخ والترف وإقبال على الدنيا ونسيان للخالق . ولذلك فكثير ممن انضموا تحت لواء هذه النظم آثروا لانهم فشلوا في مواجهة أحداث الحياة .

٣ — أن الإسلام قد رفض الرهبانية كنظام تعبدى من أنظمتها ، وذلك لأن الإسلام دين اجتماعى يكره الانحلال الاجتماعى ، ويكرم النفس البشرية فلا يحملها فوق طاقتها ، ونحن إذا علمنا أن من بين جماعة الرهبان من يعيش في أعماق الصحراء ، ومنهم من يعيش في صومعات تتصل بالخارج بواسطة فتحات صغيرة ، ومنهم من يعيش فوق الأشجار ، ومنهم من يحمل نفسه السلاسل والأغلال ويترك لحية وشعره يتدلى في غير نظام ، ومنهم من يقضى حياته تضوراً . إذا علمنا ذلك أدركنا حكمة الإسلام في قول النبي (لا رهبانية في الإسلام) ونحن نعرف المثل التامثل : (إن إنكار الجمال هو في الحقيقة نغمة ضدية لمن يتشددون بالقداسة) فنرى هؤلاء القوم وقد أعرضوا عن النظافة والراحة واللذة وفضلوا الفقر والذل الحيوى ، وكل هذا بما يباه ديننا الحنيف ، وهناك وجه شبه بين الديرية والتصوف ، فللعباد في الأولى ديرهم ولهم في الثانية خلوتهم وتكيتهم .

وسأتناول الآن الظروف التي قامت فيها هذه الأنظمة ، وسنرى أنها جميعاً نشأت في ظروف تكاد تكون متشابهة : لقد ثارت النفوس ضد الامبراطورية الرومانية التي لاحت وئذيتها محتملة الوقوع في القرن الرابع الميلادي ، والواقع أن الخلاعة والفجور والإفراط في المجون ، قد أثر في الأرواح الحساسة الشاعرة . فراحات تلتبس في العزلة منجاة لها من خداع الحياة البراق ، ولتصل عن طريق هذه العزلة إلى راحة العقل والقلب ، فنبذ هؤلاء القوم أملاكهم وأحببتهم وأصدقاءهم ، وجنحوا إلى حياة العزلة ، ولذا كان هذا النوع من الحياة عنواناً للتضحية وشرف الفقر ، كما كان من أسباب قيام هذه الحياة أيضاً ، تلك العبارات التي حث بها المسيح أتباعه على الانقطاع للعبادة ، وترك مظاهر الحياة الخداعة ، وكان لما لجأ إليه أباطرة الدولة الرومانية من الاضطهادات أثر في نشوء هذه الحياة ، ويكفي للتدليل على ذلك ، تمشى حركة الرهبانية مع حوادث الاضطهاد المعروفة في مصر ، منذ عهد الإمبراطور (دسيوس Decius) إلى عهد الإمبراطور (دقلديانوس) [٢٤٩ — ٣٠٥ م] ولقد وجدت بالأسكندرية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين مدرسة ، كانت تعلم نوعاً من إنكار الذات والتضحية ، وكان لوجود هذه المدرسة أثر في نشوء الرهبانية .

هذا عن الرهبانية والديرية . أما عن التصوف ، فقد نشأ في ظروف تشابه هذه الظروف : نشأ التصوف عن الزهد كما أشرنا سلفاً ، ولقد نما هذا الزهد إثر الحروب الأهلية ، ومقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، إذ أثر ذلك تأثيراً بالغاً في قلوب المتدينين ، كما كان للتطاحن الحزبي ، وفوضى الفرق في عهد بني أمية ، أثره في فزع القلوب الحساسة الشاعرة التي راحت تترقب الخلاص من هذه الحياة في ظهور (المهدي) وحملت فكرة ظهور المهدي كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود إليها صفاؤها وطهارتها ؛ أثرت هذه العوامل ، كما أثرت نظائرها في زهاد النصاري من قبل ، فاتجهوا إلى القوة الإلهية ، وأيقنوا أن البذخ والترف بدعة ، وتحققوا أن الدائم الذي لا يفنى ، والحقيقة التي لا تبلى ، هي الاتصال بالله .

الواقعية الحديثة

والادب المصرى المعاصر

للدكتور أستاذ محمد عباس صالح

المذهب الواقعى (Realism) عرف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظل سائداً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد جاء خلفاً للمذهب الطبيعى (Waturalism) الذى دعا له الكاتب الفرنسى « أميل زولا »^(١) وأصحابه . وقد بشر بهذا المذهب (فلوير)^(٢) ثم (موباسان)^(٣) فى فرنسا ، ولم يلبث أن شاع فى جميع الأقطار وأصبح الطابع الغالب على الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

على أنه بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى النتيجة الطبيعية لانتشار المصانع الضخمة وتعميم (الآلة) وسيطرتها على المجتمعات الغربية ، ظهر كتاب ما زالوا حتى الآن مسيطرين على الأدب الغربى ينفرون من (الآلة) ويرجعون إليها سبب التدهور الخلقى والاجتماعى الذى ساد القارة الأوروبية ، متوهمين أن الانتاج الجماعى وتقسيم العمل قتل روح الاستقلال لدى الإنسان وجعله تابعاً للآلة . وأنه نتيجة لهذا صار المجتمع مادياً آلياً تحتضر فيه القيم الروحية التى ظلت سائدة مذ كان العمل اليدوى والنظام الاقطاعى مسيطرين على العالم .

والواقع أن النظر السطحي إلى ما أدى اليه الانتاج بالجملة من نتائج يجعلنا

(١) أميل زولا - كاتب فرنسى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن الانسان مدفوع إلى تصرفاته بغرائزه الثابتة والمتأصلة فيه ولذلك قد سمي مذهبه الفنى (بالطبيعة) نسبة إلى الغرائز الطبيعية فى الانسان .

(٢) جوستاف فلوير - من أتباع أميل زولا وعاش بعده بقليل ، صاحب القصة الشهيرة « مدام بوفارى » ، وفيها أخذ عن الواقع مباشرة ويعتبر أول من بشر بالمدرسة الواقعية .

(٣) جردى موباسان - من أتباع أميل زولا وعاش بعده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد امجه إلى تثبيت أركان المذهب الواقعى .

نتجى باللوم على التقدم الآلى الذى وصلنا اليه ؛ فإن البطالة والمنافسة والاحتكار واختفاء المحلات التجارية الصغيرة والكوارث التى حدثت قبل وخلال أزمة سنة ١٩٣٠ زعزعت الفكر الأوروبى وأطلقت أقلام كتّابهم تضرب خبط عشواء فى مهاجمة ما توهموه عدوهم الألد - وهو الانتاج الجماعى .

على أن الإنتاج الوفير لا يمكن أن يكون ضاراً بالمجتمع الإنسانى ، ذلك أن المحاولات التاريخية التى بذلها الإنسان لتوفير حاجياته منذ العصر الحجرى حتى الآن لم تتوقف ؛ كما أن حاجتنا الأولية لم تتحقق بعد . ولقد أرجع الاقتصاديون الناهيون هذه الأخطاء إلى الزيادة فى العلاقات بين المنتجين وبعضهم ثم بينهم وبين المستهلكين . ولكن هذه النظرة العلمية ، والحلول الاقتصادية التى قدمت حينذاك ، لم تصادف مستقراً فى نفوس الكتّاب والفنانين الذين روعتهم تلك الكوارث التى حدثت من بداية القرن حتى الأزمة الكبرى فجعلوا يصبون جام غضبهم وثورتهم على ما يسمى بواقع الحياة إذ كان شائعاً أن واقع الحياة هو التجرد من كل العواطف والأخلاق النبيلة واعتناق فكرة البقاء للأصلح ، وكان رجل الأعمال شخصاً صلباً بارداً كالخزانة التى يضع فيها أمواله !

وتتقدم هذه الحملة من الكتّاب ذوى الشهرة (د . ش . لورانس)^(١) و (ت . س . اليوت)^(٢) و (ألدوس هكسلى)^(٣) وغيرهم ، وقد أطلق النقاد عليهم اسم كتّاب الأزمة والانحلال ، ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبشوا الأمل فى النفوس أو أن يدعوا إلى بناء اجتماعى جسيم ، بل كانوا كالغربان ينعبون على أطلال حضارة ميتة .

١، د . ش . لورانس - كاتب انجليزى توفى قبل الحرب العالمية الثانية يرجع اختلال المجتمع إلى عدم التوازن بين الرجل المتحضر والمرأة .

٢، ت . س . اليوت - شاعر وكاتب انجليزى معاصر يرجع اختلال المجتمع إلى سيطرة الآلة ، والانتاج بالجملة وينادى ببندوها .

٣، ألدوس هكسلى - كاتب انجليزى معاصر ينحدر من أسرة عريقة فى العلم يرى أن التقدم العلمى سيؤدي بمسئلة الإنسان ويحيله فى النهاية إلى شيء جامد متشابه كالسلع التى ينتجها .

هؤلاء الكتاب استحدثوا مذهباً جديداً في الفن بل مذاهب اتخذت جميعاً — هروباً من الواقع — منطقة اللاوعي في الإنسان وعكفت على الجانب النفسي فيه بعد أن انتشر مذهب « فرويد » واشتهر التحليل النفسي وعرف (اللاوعي) .

وفي الاستطاعة القول بأن معظم المدارس الفنية الحديثة تصدر عن هذا النبع ، ففي إنجلترا عرفت « فرجينيا وولف » ، و « جيمس جويس » ، وفي أمريكا « ميلر » ، و « جمنجداي » وغيرهما وأصبح من المؤلف ظهور أدب غير مفهوم بحاجة أنه يبحث في أعماق النفس البشرية وبعث المذهب الرمزي الذي انتهجه « بو » ،^(١) الأمريكي وورثة « بودلير » ،^(٢) وآل إلى « بول فاليري » ،^(٣) الفرنسي .

وأصبح مألوفاً أن هذا الأدب يعيش في عزلة عن معترك الحياة اليومية وتقلبات المجتمع وآلامه . ومن هنا ابتدأ النزاع القديم بين التزام الفنان واعتزاله يعود إلى الميدان . أيجب على الفنان أن يشارك في نقد مجتمعه ؟ أيجب أن يشير إلى الاتجاهات السليمة ويحذرها ؟ أيجب أن ينقد الأوضاع الخاطئة ؟ أم يجب أن يعتزل ويعكف على فنه يحدده ويحسنه ؟ وأعيد من جديد النقاش حول مسألة الفن من أجل الفن أو الفن من أجل المجتمع ، وانقسم الفنانون - تبعاً لهذا - قسمين . الأول منهما يرى الاعتزال والآخر يرى الخوض في المعارك السياسية والاجتماعية ومناقشة واقع الحياة .

ومهما يكن من أمر هذين الفريقين فمن المرجح أن عصرنا هذا عصر قلق يقف عند مفترق الطرق . وأصبح من المعتقد أن النظام القائم في أوروبا لا يفي

١، أوجار آلان بو - كاتب أمريكي عاش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر وكان ينحو منحى رمزيا في كتاباته .

٢، شارل بودلير - شاعر فرنس عاش في القرن التاسع عشر وكان فاجراً تدور كتاباته حول العريضة الحبشية ونحو في كتاباته منحى رمزيا .

٣، بول فاليري - كاتب فرنسي توفي أثناء الحرب العالمية الأخيرة بفرنسا وكان يعتمد في تأدية الفكرة على الموسيقى اللفظية .

بأغراض الإنسان في الاستقرار والهدوء الروحي ، ولذلك فقد حاول كل من تصدى لنتقده أن يقدم حلولاً . فنأى (لورانس) بالرجوع إلى الفطرة و حياة أشبه بحياة القبائل فى أفريقيا وأستراليا ولكننه لم يلبث أن تراجع عن هذه الدعوة فى أخريات أيامه ولم يقدم جديداً ، أما (البيوت) فنأى بمذهب يوشك أن يكون كالتصوف حيث يطبع المجتمع كله بطابع كنسى مترهب . إذ أصبح فى اعتقاده أن الاستقرار فى ظل وسائل المعيشة العصرية خرافة .

على أن الاتجاه لى بعض كتاب الغرب لم يكن قاصراً على إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا ، بل ظهر فلاسفة فى العشرين سنة الماضية فى ألمانيا (كشنجر) يبشرون أو يندرون بانهاى الحضارة الغربية ووشوك قيام حضارة عظيمة لى الشرق لا لىء إلا لأن القيم الروحية والأخلاقية والفطرية لم تزل باقية فى بلدان هذا الشرق وفى نفس الوقت يقول إنه يجب على المجتمع (الأبيض) أن يهىء نفسه لفاضلة هذا المارد (الملون) الذى ينبعث من الشرق ، والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى الكراهية . وعلى هذه الفلسفة المقيمة يقع جزء كبير من التبعة فى سقوط ألمانيا وإيطاليا السقطعة المعروفة .

وفى ظل هذه الأفكار المتشائمة والمريضة قام فريق من الكتاب الجدد ينفضون عنهم آثار المتاعب والكوارث التى صبغت نصف القرن لىؤسسوا لأنفسهم مذهباً جديداً على المذهب القديم المعروف بالمذهب الواقعى ، هذا هو الواقعية الحديثة .

ولقد كانت — حقا — أشبه بإفاقة الجريح بعد المعركة ؛ يجب أن يعاد النظر من جديد إلى الحياة بمنظار موضوعى سليم ، ما هى الأخطاء التى ارتكبت وأدت إلى هذه الحروب المدمرة وأشاعت القلق والخوف فى النفوس ؟

وعلى ذلك فكان أول أساس تتخذه هذه المدرسة هو الإيمان بالإنسانية أو بوجود العنصر الصالح فى الإنسان لمواصلة الحياة وبناء حضارة أعظم ، ومن هنا يظهر الجانب الإشرافى لهذا التفكير . وعكف أعلام هذه المدرسة — التى يمثلها

الآن « سيلوني »^(١) ، الإيطالي و « ريتشارد رايت »^(٢) ، الأمريكي وغيرهما — على دراسة الحياة كما هي وأصبح الفن لا يتخذ مداره حول الخرافة أو المبالغة بل الحقيقة البسيطة التي تحدث كل يوم في النفوس والبيوت والمصانع ودراسها دراسة دقيقة .

وحيث أصبح مجتمعنا — في جميع بقاع الأرض — يقوم على العلم وحده ، وحيث اتخذ العلم صفته المحتومة القاهرة وهي الحقيقة الموضوعية المبنية على أساس تجريبي ، صار المذهب الواقعي أيضا لا يعنى إلا بالتجربة . ومن هنا يفترق تماما عن سائر المذاهب الفنية الأخرى حيث يكون المجال كبيرا للتخيل والتوليف ، ولم تعد للفن صفته الرخيصة وهي التسلية أو المتعة ، بل أصبح ركنا ضخما للمشاركة في بناء الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بعد أن شاع أنه لا يمكن التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة .

ولمذ كان مجال هذا الفن هو دراسة (المجتمع) كما هو في الواقع فقد اتخذ مادته من القوم الذين يمثلون غالبية المجتمع وجعل يستكشف فيهم مواطن القوة والضعف . ولكن المذهب الواقعي أيضا لا يقتصر في تناوله الفن على فئة دون أخرى في المجتمع بل على كل الفئات باعتبارها جميعا مكونة له .

وعلى ذلك فقد أعلن في صراحة أنه لا يفهم معنى لهذا الفن الذي لا ينتسب إلى واقع الحياة بحجة أنه يؤدي لوجهه الفن وحده . وتراجعت تلك الشذمة التي ظهرت من خلعاء فرنسا في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن واحتضنها أوسكار وايلد الإنجليزي وظلت ممتدة حتى وقتنا هذا ، وأصبح من المعترف به — على الرغم من صرخات واهنة تطلق هنا وهناك — أن الفن لا بد من اتصاله بواقع الحياة ومشاكلها .

ولكن هذا المذهب وجسد من يحاربه في أوروبا وأمريكا بل وفي كل مكان

[١] اينازيو سيلوني - كاتب إيطالي معاصر فر من إيطاليا أيام حكم مو-وليني وظل يتنقل بين فرنسا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا إلى أن رجع أخيرا إلى إيطاليا .

[٢] ريتشارد رايت - كاتب أمريكي زنجي معاصر يأخذ من الواقع مباشرة ويعالج مشكلة الزواج في أمريكا في كتاباته .

الآن ، إذ ظهر في فرنسا اتجاه جديد : مثله (جان بول سارتر ^(١)) (وألبير كامو ^(٢)) وغيرهما يروجون للعودة إلى رومانتيكية جديدة تختلف عن الرومانتيكية القديمة بأنها بشعة سوداء متشائمة ، وهب سارتر يدافع عن الأسلوب الرومانتي حيث العاطفة العنيفة والمبالغة هما أساس العمل الفني . ومع أنه إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الدفاع عن الرومانتيكية يبدو شيئاً مضحكاً باعثاً على السخرية فقد وجد سارتر في ضجيج القلق النفسى الذى يحدث في فرنسا الآن مجالاً كبيراً لصراخه الرومانتي.

ولإذا نظرنا إلى أدبنا المصرى المعاصر على ضوء هذا الكلام لوجدنا أننا لم ننخرط في سلك مدرسة أدبية بعينها من هذه المدارس وإن كان الطابع الغالب علينا هو رومانتيكية هادئة كما يبدو في أدب توفيق الحكيم القديم وبعض أعمال طه حسين والمازنى . ولكن حجتنا في ذلك هي أننا في بداية تشكيل فنى جديد نقيمه على تراثنا العربى الضخم ومتكئين على ما وصل إليه الغرب ، ونتيجة لهذا ظهر أدب القصة والمسرحية عندنا وأخذ الشعر العربى يتشكل أشكالا جديدة ولم يصبح التزام قافية واحدة في القصيدة قدراً محتوما على الشاعر .

وفي ظل هذه المدرسة الواقعية يستطيع الأدب المصرى المعاصر أن يكون وثيق الصلة بمجموعة مبتعداً عن الرخاوة الشائعة في مجلاتنا المصورة وغير المصورة وتلك المخازى التى توضع لجذب جمهور خال من الثقافة والتقدير السليم . وليس شك أن القصص التى تنشر في هذه المجلات والصحف لا تمت إلى الفن الحقيقى بصلة . ولا يشك أحد أيضاً في أن دراسة المذاهب الأدبية المختلفة من خلال النصوص ذاتها عمل ضرورى واجب تقوم عليه النهضة الأدبية الحالية سواء في الجامعة الأزهرية أو الجامعات الأخرى .

[١] جان بول سارتر - كاتب فرنسى معاصر ومؤسس المذهب الوجودى الشائع في فرنسا الآن

[٢] ألبير كامو - كاتب فرنسى معاصر من الجزائر ينحى منحى المذهب الوجودى في آثاره الفنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلمة التي ألقاها

مضرة صائب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن مهن

وكيل الجامع الأزهر وإمام شرف صاحب الجلالة الملك

في ليلة « نصف شعبان المبارك » من سنة ١٣٧٠ هجرية

في مسجد « محمد علي » بالقلعة

نحمدك اللهم حمداً يديم علينا شكرك ، ويفتح لنا أبواب رحمتك ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . وصل اللهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك الذي أرسلته للناس هدى ورحمة ومرشداً وداعياً إلى صراطك المستقيم . أما بعد : فهذه ليلة من الليالي المباركة ، التي يتجلى الله فيها على عباده المخلصين ، فيعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء بيده الخير ، والله ذو الفضل العظيم . وقد ورد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أحيا هذه الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار للمؤمنين والشهداء ، وبأنها ليلة مباركة ، ينبغي للمؤمن أن يلتجئ فيها إلى الله تعالى عسى أن ينال من النفحات الإلهية ما لا يشقى بعده أبداً ، فقد روى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامي فتجرك ، فرجعت فسمعتة يقول في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ولما فرغ من صلاته قال لها : هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم .

وقالت: إنه خرج في هذه الليلة - أى ليلة النصف من شعبان - إلى بقيق الغرقد ، فأدركته فوجده يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء .

وقد ورد في فضل هذه الليلة عدة أحاديث رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم خَرَّجَهَا من المحدثين الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والطبرانى والبيهقى عن جمع من الصحابة منهم : عائشة وأبو بكر ومعاذ وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عمرو وعثمان بن أبي العاص وأبو ثعلبة الخشنى وهى فى مجموعها تدل على أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده فى هذه الليلة المباركة ، ويتولاهم بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء ^(١) .

ولكن ناساً ذكروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصافهم وبتين أنهم ليسوا أهلاً للمغفرة وأنهم مبعدون من رحمة الله فى هذه الليلة إلا إذا طهروا نفوسهم من الآثام وكبائر الذنوب التى وصفهم بها .

فمن هؤلاء أهل الشحناء ، وقد ورد ذكرهم فى رواية أبى بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شيء إلا لرجل مشرك أو رجل فى قلبه شحناء ، والشحناء هى العداوة والخصومة ، والمشاكسة وهى وصف لوفد بين أفراد الأسرة لانتحلت عصبيتها ، ولو سرى بين الجماعات فى أمة لانتحل كيانهما وتفرق شملها ، ولو وفد بين أمتين فقد يفتنى بينهما إلى الحرب ؛ فأهل الشحناء ليسوا أهلاً لأن يتولاهم برحمته ومغفرته . ومنهم الحاقدون وهم الذين انطوت نفوسهم على الغل والعداوة والبغضاء للفرد أو للجماعة ، وقد ورد ذكر الحاقدين فى رواية عائشة - السابقة - رضى الله عنها أن الله يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم .

[١] راجع فيما ذكر باب الترغيب فى صوم شعبان ٨٠ ٨١ من الجزء الثانى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى والمجلد الثانى فى نصف شعبان من كتاب لطائف المعارف لابن رجب ص ١٤٢ وللجزء السادس من كتاب زاد المسلم ص ٥٦٨ و ٥٧١ ورسالة هداية الرحمن .

والحاقق وإن لم يظهر بمظهر المشاكس إلا أن ما انطوت عليه نفسه يحمله على الكيد وخلق الخصومات للمحقود عليه والسعاية بينه وبين الناس بالعداوة والبغضاء ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبتمونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » .

فالحقد صفة تحريمُ العبد مغفرة مولاه في مواسم الرحمة والاستغفار .

ومنهم قاتلوا النفس التي حرّمها الله ، وقد ورد ذكرهم في رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين : مشاحن ، وقاتل نفس . ويكفى في وصف قاتل النفس بغير حق ما توعدده الله في الكتاب العزيز من العذاب واللعة والغضب ، ففي سورة النساء : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » ، وفي سورة الفرقان : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

هذه بعض أمثلة مما جاء في أحاديث فضائل هذه الليلة ، وأنه مانع من المغفرة وقبول الدعاء .

والأحاديث لم تستوعب كل الذنوب التي تبعد بين العبد وبين الله تعالى في هذه الليلة ، وإنما أتت بأمثلة ألقصد منها التنبيه إلى أن كل من كان متلبساً بالمعصية وكبائر الذنوب ، فهو مبعد ومطرود من رحمة الله ومغفرته ، فقتطاع الطرق الذين يهددون الأمن والنظام ، والذين يسعون في الأرض فساداً ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، والغشاشون والخائثون وأرباب الأهواء والمنافقون وشاهدوا

الزور وأرباب الفتن ، كل أولئك وغيرهم من أصحاب الذنوب والمعاصي الذين ورد ذكرهم في الكتاب أو في السنة ليسوا أهلاً لأن يشملهم الله برحمته ومغفرته حتى يتوبوا ويقلعوا عن الذنوب ويطهروا أنفسهم من الآثام ، وإلا فلا فائدة في الدعاء والاستغفار ، وكما يقول ابن الجوزي : الشوب غير التنظيف أولى به الصابون من البخور والتعطير .

فينبغي للمؤمنين أن يسارعوا بالتوبة وتطهير النفوس من الآثام والأوزار ، وأن يتفرغوا في هذه الليلة لذكر الله والاتجاه إليه لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب ، فإن لله فيها نفحات عسى أن تصيبهم نفحة منها ، يسعدون بها في هذه الدنيا ويأمنون بعدها شر العذاب في الآخرة ، فقد^(١) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . وعن^(٢) محمد بن مسلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا » .

كان الناس ولا يزالون منذ عصر التابعين^(٣) يحيون هذه الليلة بالذكر والدعاء والاستغفار جماعة في المساجد ، وكان التابعون من علماء الشام كخالد بن معدان الحمصي ، ومكحول الدمشقي ، ونعمان بن عامر الحمصي ، وغيرهم من أعلام العلماء لا يرون مانعا من إحياء هذه الليلة وتعظيمها جماعة ، ولهذا كانوا يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم ويجهرون فيها

[١] خرجه ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما مرفوعا — لطائف المعارف ص ٦ .

[٢] خرجه الطبراني ص ٧ لطائف .

[٣] خالف في جواز إحيائها أكثر علماء الحجاز ص ١٤٤ لطائف المعارف ، والصحيح ما ذكرناه .

بالدعاء والاستغفار ، ووافقهم على إحيائها إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه ، وهو من أشهر أئمة الحديث في القرن الثالث ، قال عنه الإمام أحمد : إنه من أئمة المسلمين عندنا ، ولا أعلم له نظيراً .

وقال الأوزاعي إمام أهل الشام : إنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، وإنما يصلي الإنسان فيها مفرداً خاصة نفسه .

وروى ^(١) عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة : عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إفراغاً ؛ أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحي .

وقال الشافعي رضي الله عنه : بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال : ليلة الجمعة ، والعيدن ، وأول رجب ، ونصف شعبان ، قال : واستحب كل ما حكيت في هذه الليالي .

والذي يترجح في هذه المسألة جواز اجتماع الناس للدعاء والاستغفار في هذه الليلة كما هو حاصل ، ولا كراهة في ذلك . ففي صحيح مسلم ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وظاهر أن الدعاء والاستغفار نوع من الذكر ، أما الصلاة فتكون بلا جماعة لأنها صلاة نافلة ^(٣) ولم يثبت في السنة أنها صليت بجماعة .

[١] يعضده في الجملة ما روى عن معاذ وعباد بن الصامت ص ١٠٠ ، ١٠١ جزء ٢ الترغيب والترهيب .

[٢] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جزء ١٧ صحيح مسلم بشرح النووي .

[٣] صلاة النافلة جماعة جائز كما في كتاب الصلاة من صحيح مسلم ، ولكن في خصوص إحياء هذه الليلة كرهتها العلماء والتي أحيائها مفرداً ولم يثبت أنه صلاها جماعة .

أما ما ذكره الغزالي في الإحياء من أن السلف كانوا يجتمعون في هذه الليلة ويصلون جماعة أو فرادى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة الفاتحة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، ويسمون بها صلاة الخير ، فلم يثبت في السنة ، وكل ما روى فيها من الأحاديث رده العلماء .

ومما جرى عليه العمل في مصر أن الناس عقب الصلاة يدعون بالدعاء المشهور وفيه : « إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروما مقترا على رزقي ، فاحرمانى ويسر رزقى وأثبتنى عندك سعيدا موقفا للخير فإنك قلت في كتابك الذى أنزلت : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

هذا الدعاء ^(١) مروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لا في خصوص هذه الليلة ، وقال : مادعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله له في معيشته ، وابن مسعود لا يقول هذا إلا إذا كان قد تلقاه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو دعاء مأثور يصح الدعاء به في هذه الليلة وفي غيرها .

وقد اشتمل هذا الدعاء على أمر كان موضع نقاش بين العلماء ، وهو أن ما كتب على الإنسان من الشقاوة أو السعادة والآجل والرزق وغير ذلك يبق بدون تغيير أو أن الله تعالى يحو منه ما يشاء فيطيل العمر وييسر الرزق ، ويحو الشقاوة ويثبت السعادة .

فريق يرى أن ما كتب على الإنسان لا يتغير ، وفريق آخر يرى أن الله يحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله يحو أمور عباده ويثبت ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا يحو فيها .

[١] راجع زاد المسلم وهداية الرحمن من المحل السابق ذكره .

والذى يظهر من أحكام الشريعة فى مجموعها أن ما كتب على الإنسان من خير أو شر وأجل أو غير ذلك يبقى بدون تغيير، إلا إذا غيره الله سبحانه وتعالى، فى الكتاب العزيز «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطول العمر وكثرة الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة.

أخرج ^(١) البخارى فى الأدب المفرد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرة المال والولد وطول العمر فاستجاب الله دعاءه، وقال أنس: فوالله إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم، وقد أطال الله حياته، فقد كان فى الهجرة ابن تسع سنين ومات سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وقد كان الصحابة والتابعون يدعون بالسعادة ومحو الشقاوة وتيسير الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة.

والأهم التى تعنى بالتربية الرياضية وتتقى الأمراض والأوبئة بالطرق العلمية السليمة، وتعيش فى هناءة من العيش، تطول حياتها وحياة أفرادها، ويبارك الله لهم فى آجالهم. والأهم الجاهلة التى ترزح تحت أثقال المرض والأوبئة والجوع والفقر تموت بسرعة وتقصر آجال أفرادها.

هذه سنة الله فى خلقه، والسعيد من وفقه الله.

هذا ولما نرجو الله سبحانه وتعالى العلى القدير أن يطيل فى حياة حضرة صاحب الجلالة الملك، وأن يجعلها حياة طيبة مباركة يعمل فيها لخير مصر وخير العرب والإسلام، وأن يحفه الله بعنايته وتوفيقه ورشده وهديه، كما نرجوه تعالى أن يوفق حكومة جلالته إلى خير العمل، وما يرجى لمصر من عز وسؤدد.

والسلام عليكم ورحمة الله

[١] أول باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لمخادمه بطول العمر ج ١١ من فتح البارى.

أثر الصيام

في تقويم الشخصية الانسانية

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشؤون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكند يفتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر في كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجثمانية ، فقد علموا أنه 'عد من عهد 'ابقراط' ، عاملا قويا من العوامل المنقية للجسم من سموم الاغذية .

نعم سموم الاغذية ، فإن المواد الحيوانية التي نتناولها بشراهة ، تحتوي على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر ، لا تطبق البنية البشرية أن تحتزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها ، وهذه الحاجة الضئيلة منها يمكن الحصول عليها من النباتات أنقى وأصح مما يمكن الحصول عليها من المواد الحيوانية .

ولا يوجد من ينكر أن البوذيين في الهند والصين ، وهم يعدون بمئات الملايين لا يأكلون لحوم الحيوانات تدنيا ، وهم على أكمل حال من الصحة ، بل يوجد غيرهم في أوروبا ممن لا يؤمنون بالشرائع الدينية لا يأكلون المواد الحيوانية بتاتا .

لسنا هنا بصدد تفضيل الاغذية النباتية على الاغذية الحيوانية ، ولكننا بسبيل إثبات أن الصوم عمل ضروري طبييا ، لإيجاد الاتزان الطبيعي بين مواد الاغذية البشرية ، إذا حدث ما أخل بذلك الاتزان ، أو اقتضت الدورة الحيوية للإنسان إحداث عمل مباشر لإعادة نظام التغذية ، تفاديا مما يحدث بسبب اختلالها من اختلال الوظائف الهضمية ، واختلال هذه الوظائف في العالم الإنساني آثار بعيدة الأثر على حياته المدنية .

هذا التأثير الغذائي خاص بالنوع البشري ، لأنه الكائن الوحيد المطلق الحرية في شئون تغذيته دون سائر الكائنات ، فإن لكل منها نوعاً من الاغذية صيغت على موجه أعضاؤها الهضمية ، فكل نوع منها خصت به أنواع خاصة من المواد

لا يتعداها في تغذيته ؛ وأطلقت الحرية للإنسان فهو يتناول منها كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضية تكون في أول أمرها وبالأعلى عليه ، ثم يعتادها فتصير مألوفة له مع بقاء أضرارها حادثة به من ضروب شتى ، حتى يتنبه إليها ويحاول التخلص منها ، وقد تمر الأجيال فلا يستطيع أن يتحول عنها . فهو من هذه الناحية معرض لانحرافات بعيدة . وقد كشف العلم هذه الانحرافات كلها ، وبحسبها بحثاً عميقاً حتى لم يبق محل للزبد .

كل ذلك لم يثن الإنسان عن المضي فيما هو عليه ، متجاهلاً أحكام العلم ، شأنه في جميع محاولاته المادية والأدبية ، حتى إنه ليجمع الذين يعلمون والذين لا يعلمون على مائدة واحدة ، فلا تستطيع أن تفرق بين الفريقين ، لتساويهما في عدم المبالاة بالصنوف التي يتناولونها ، وهذا شأن الإنسان ، وأشد أدوائه تأثيراً عليه .

نعم ، إن العلم في اقتباسه الصوم من الدين لم يتقيد بمواعيده ، ولا بمدته ، ولا بأسلوبه ، فلم يأخذ منه إلا المبدأ : وهو أنه لكل ما يلقي في المعدة من المواد تأثيراً على الجسم والعقل والشعور معا ، ومن هنا يصح أن يكون ذا تأثير بالغ في تخفيف الأعراض التي تنتاب الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وتحويل محمود في حالة المريض يتأذى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات .

وحصة الروح من هذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، فإنه يخلى الطريق أمامها لإيصال النفس الانسانية إلى مستوى من الشعور أرفع من مستواها وهي متورطة فيما هي فيه من الشؤون الحيوية .

وقد استفاد الطب من هذه الناحية ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، فجعل مناط علاجه للأمراض تخير المواد الغذائية التي يجب أن يعول عليها المريض في التغذية . وقد أنشئت في عواصم أوروبا مصحات هي عبارة عن قصور ضخمة في وسط حدائق غناء ، ومياه جارية ، يقصدها المرضى من أرجاء الأرض ، ويمكنون بها أياماً أو أسابيع يخرجون بعدها وقد تملأوا صحة وقوة ، لا يشكون شيئاً مما كان يلزمهم ويؤلمهم ، ولم يتعاطوا في مكافحته عتاراً ، ولم يشعروا بأنهم تحت سلطان

نظام صحى دقيق ، فلا يمر عليهم أكثر من أسبوعين حتى يروا أنهم قد انتقلوا من حال إلى حال لم يكونوا يحملون بها من قبل . كل هذا ببركة اختيار الأطعمة ، والاقتصار على غير الضار منها .

وقد شرع الله الإسلام خاتماً للأديان ، لأنه جمع كل ما كان لخير الإنسانية منها وجعل الصيام ركناً من أركانه ، وجعل عدة أيامه ما يتفق أن يكون عليه رمضان بين ٢٩ و ٣٠ يوماً ، مختاراً له نظام الامتناع عن تناول شئ من الطعام أو الشراب ما بين أذان الفجر الى أذان المغرب ، وهى مدة تتراوح بين تسعة وعشرين وبين ثلاثين يوماً . وقد آثر الله أن يجعله انقطاعاً عن التغذية نصف ساعات اليوم دون أن يقصر ما يؤكل على صنوف من الأطعمة دون صنوف . وهذا فيما يظهر خير نوعيه ، لأن ما يحرم منه الصائم بالصوم يعوضه أضعافاً مضاعفة في شهور الإفطار فيضرب نفسه ضرراً بليغاً . لذلك تركه الإسلام يختار لنفسه القدر الذى يكفيه من الأطعمة مع النصح له بالتخفف من الأغذية هرباً من سوء مغبة الإفراط منها على الصحة .

ونزيد على ذلك ، أن خللاء المعدة من العمل ساعات متوالية فى حالة راحة تامة ، تأثيراً فى إعادة قواها إليها لا يمكن الحصول عليه بأية وسيلة أخرى . مثلها فى ذلك مثل العامل المتعب الضعيف ، يستحيل أن تعود إليه قواه وهو مستمر فى العمل مهما كان ما يعمل به هيناً ؛ ولكن بالانقطاع عن العمل بتاتا يعود إليه كل ما فقدته من قواه ، فإذا عاد للعمل عاد إليه وهو حاصل على قواه كاملة ؛ وفرق بعيد بين الحالتين فى حفظ هذا الجثمان بعيداً عن الوهن أطول مدة ممكنة .

فالصيام فى الإسلام إذن يكون له أثر بعيد جداً فى حفظ صحة أهله ، وسلامة جسامهم من العاهات ، ولكن أكثرهم لا يأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حساباً للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدوداً ، فيعيشون كما يجيء لا كما يجب ؟

محمد فريد وهبى

النفسي

سورة فاتحة الكتاب

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ همام مجيب

عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى :

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ولأنما سميت بذلك الاسم . لأنها قد افتتح بها كتاب الله المجيد ، وافتتحت الفاتحة بالحمد لله رب العالمين ، لأنه تعالى أول كل شيء وآخر كل شيء ، هو وحده الحقيق بالحمد ، ولقد كان مقتضى الواقع أن يجاء بصيغة الأمر فيقال : احمدا الله . إذ أن العباد هم المنعم عليهم فهم المطالبون بالحمد . وهو تعالى مفيض النعم ومسبغها فله تعالى الحمد . ولكن الآية قد سقت بصيغة الخبر ، إذ أن الأمر مقتضاه تكليف ، وللنفوس عند مبادأة بالتكليف جمحة ونفرة ، وإن عاودها بعدها الانقياد والطاعة ، ولكنه تعالى - سمت حكمته - وهو يبادئهم بشرعة جديدة ، وتكاليف لم يعدوها ، قد أراد أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم بالترفق في الخطاب ، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم ، ولأنما بدأ كتابه العزيز بتلك الجملة ليكون في ذلك تعليم لنا أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه تعالى ، حتى نبدأ ونحن في صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيها ، وتجلو عن القلوب أصداءها ، مما يلعب به للمفكر وجه الحق ، ويتبدى له وجه الصواب ، وهو من ناحية ثانية تنبيه لنا إلى ما يجب علينا لله تعالى ، وهو سبحانه المتعهد لنا في جميع تطوراتنا منذ تسكوينا من الطين حتى استوينا عقلاء مفكرين ، تحفنا في كل تلك المراحل رحمته ، وتظللنا عنايته . وإلى ذلك فهو تصوير لتطورات الفطر السليمة ، إذ تتعرف ربها ، وإذ تقتل من مرتبة

إلى مرتبة ، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان فتدوم المراقبة ويقوى الاتصال ، وإن أول تلك المراحل هو حمد الله حين نلتفت إلى وافر نعمته ، ومحيط رحمته ، وملكه لأولى العبد وآخرته ، ثم تنتقل إلى مرحلة العبادة والتقديس ، تفرد به ، وتختصه دون سواه ، ثم تنتقل إلى أسمى العبادات وهو الدعاء وسؤاله تعالى ما أطمعها فيه قربها من ربها ، وأن ييسر لها سلوك سبيل المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لتتال جزاءهم ونحظى بمرافقتهم .

ولما كان الشكر هو ثناء من المنعم عليه على المنعم ، يعلن به عن انفعال نفسه وتأثرها بالنعمة الواصلة إليه بالفعل . ولما كان المدح ثناء على الممدوح ، وتقديرا لما قام به من جميل خلق أو خلق مما لا يصل منه أثر للمادح ، بكمال في وجهه أو كشجاعة في قلبه ، أو مما يصل أثره إلى غير المادح ، كالمرودة والكرم . لما كان ذلك هو الشكر ، وذاك هو المدح ، وكان الحمد في مقابلهما هو ثناء يعلن به الحامد عن تقديره لذات المحمود ، لسكونها مرد كل خير ، ومصدر كل نعمة ، من كبيرها وصغيرها ، من أصولها وفروعها ، من عامها وخاصها ، من واصل إلى الحامد بالفعل أو غير الواصل إليه ، لما كان هذا هو الحمد ، وذاك هو المدح ، وذلك هو الشكر ، فقد أصبح واضحا لك ما بينها في الاستعمال من فروق .

فالشكر لما كان في مقابل ما يصل إلى الشاكر من نعمة بالفعل . رأيهم يتجهون به إلى الخالق ، ويتجهون به إلى المخلوق ، فتقول لذى جميل عليك : أشكرك : وتقول أشكر ربى على ما أولانى من نعمة ، والمدح لما كان على ما يقوم بالممدوح نفسه من جمال خلقى ليس له أثر يتعدى ، أو خلقى يتعدى أثره أو لم يتعد ، رأيهم لا يتجهون به إلا إلى المخلوق ، وأما الحمد فلما كان إنما يكون لذات هى مصدر كل خير ، ومبدأ كل نعم ، ماجل منها وما دق ، ما ظهر منها وما بطن ، ما وقع وما لم يقع ، وما من ذات فى الوجود ذلك هو شأنها إلا الذات الأقدس ذات الله جلّت ذاته ، وتقدست صفاته ، لما كان كذلك ، رأيهم لا يتجهون بالحمد إلا إلى الله تعالى .

وإذا كان ذلك هو معنى الحمد ، كان أنسب المعانى التى تحمل عليها (أل) فى قوله : الحمد لله ، هو كونها للحقيقة ، فيكون المعنى : إن حقيقة الحمد مستحقة لله وحده ، فليس هناك موجود مهما سما فى معنويته ، أو مهما علا فى ماديته ، أن يكون فيه من الصفات ما يستحق بها أن يتجه له أحد من الناس بالحمد فهو وحده المحمود كما أنه وحده المعبود .

ثم إنك ترى أنه قد أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين (الحمد لله رب العالمين) أى مربيهم ومتعهدهم بالتنمية ، ومتوليهم بحفظه ورعايته ، منذ كانوا تراباً إلى أن بلغوا أشدهم في أبدع صورة وأحسن تقويم ، وإنما أجرى ذلك الوصف على الذات بعد ما ناطها باستحقاق الحمد لحكم بالغة ومعان سامية .

أما أولاً — فلأن طلب الحمد الذى سبق فى صورة الخبر ترفقاً منه تعالى بعباده بإعفائهم من المبادأة بالأمر التكليفى الذى قد ارتكز فى النفوس البشرية استئتماله كما أشرنا لذلك سابقاً أقول :

فلأن طلب الحمد ككل طلب متى كان موجهاً ، كانت القلوب به أشد اقتناعاً فتكون النفوس له أسرع استجابة وأدوم طاعة . فإجراء وصف الربوبية على لفظ الجلالة توجيه لما طلبه تعالى من عباده من أن يحمدوه .

وأما ثانياً — فلأن تذكيرهم بنعمه وبعجيب التطور المحوط برعايته وحفظه إثارة لنفوسهم نحو المسارعة إلى الاستجابة والمبادرة فى قوة وإخلاص إلى الطاعة . وأما ثالثاً — فلأن إجراء الوصف على ذلك الوجه جعله كالاستدلال على استحقاقه تعالى وحده للحمد ، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم . إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم ، وحدّة في استعبادهم ، وعلى العكس إذا كان الأمر موجهاً وكالمستدل عليه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم وفى تلك الرعاية تقدير وتكريم ، ولا شك أن هذه نعمة معنوية كبرى من شأنها أن تبعثهم فى قوة إلى الاستكثار من حمده تعالى .

ثم إنك تجد لفظ (رب) قد أضيف إلى صيغة الملحق بجمع المذكر السالم ، ذلك لأن صيغة جمع المذكر السالم من الصيغ الدالة على القلة وأقل الجمع ثلاثة . ذلك ليشير إلى أن المراد بالعالمين ، إنما هى الأجناس الثلاثة التى ينتفع بها الإنسان فى شئون حياته ، والتى هى ذات مدخلية كبرى فى نمائه وتربيته ، كما أن لها مدخلية قوية فى تفيّبه إلى نعم ربه ، ولقت نظره إلى موجبات حمده ، تلك الأجناس الثلاثة هى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ، ألا ترى أن له من الحيوان لحومه وألبانه وله منه أصوافه وأوباره ، وله منه أن يحمله ومتاعه إلى بلد لا يستطيع بلوغه بدونه أو يستطيع بالمشقة المعنتة .

وله من النبات حبه وعصفه ، وخشب الأشجار وثمارها ، وله من الجماد أنهار وبحار وجبال ، ولكل نفع هو فى حاجة أو قل فى ضرورة إليه .

فن الجبال يبنى بيوتاً وفي البحار يجرى سفناً ، ويستخرج لحماً وحلياً ، ومن الأنهار يروى زرعه وحيوانه . وهكذا من كل ما هو من عوامل تربيته ووسائل نمائه وممدات حياته (الحمد لله رب العالمين)

ثم تراه قد أتبع هذا الوصف وصفاً آخر وهو « الرحمن الرحيم » ، وإنما أتبع الوصف السابق (رب العالمين) هذا الوصف (الرحمن الرحيم) لحكمة سامية ذلك أن المربي قد يكون خشناً جباراً معتتاً ، وذلك مما يخذش من جميل التربية وينقص فضل التعهد ، ويغير إشراق النفوس الحاصل عن الشعور بفضل التعهد والتربية فأتبع كونه مريباً كونه الرحمن الرحيم لينقى بذلك هذا الاحتمال ، فتبقى للقلوب طمأننتها ، وللنفوس بهجتها ، ويبقى الشعور بفضل الله على عباده غير مخدوش ولا ممسوس وتقدير النعمة كاملاً غير منقوص ، مما يعيهم في قوة إلى حمد الله .

وقد جمع بين الوصفين (الرحمن الرحيم) مع كونهما معاً من مادة الرحمة ذلك لاختلاف معنيهما ، إذ أن كل صيغة تفيد غير ما تفيده الأخرى ، ففادصيغة (الرحمن) الإنعام بالفعل ، والإحسان الواقع المتكرر ، وأما صيغة (الرحيم) فإنها تفيد ثبوت الرحمة للموصوف ثبوتاً على سبيل اللزوم والدوام ، فلما كان الاقتصار على الأولى قد تمر معه في النفس خواطر انقطاع الإنعام ، وهو اجس منع الإحسان ، ضم إليه الوصف الثاني ليفيد أن إحسانه الفعلي وإنعامه الحاصل الواقع مصدرهما وصف ذاتي دائم الثبوت لذاته تعالى ، فنسج الإحسان الفعلي ومصدر الإنعام الواقع دائم الثبوت له تعالى ، فلن ينقطع عن عباده إنعام ، ولن يفترقه عنهم إحسان وفي ذلك دوام تعلق النفوس بربها ، واستمرار رجائها فيه مما هو باعها على حمده ودافعها إلى تقديسه (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) .

ولما بين لهم موجبات حمده ، وأنه الحقيقي وحده بالحمد . بأنه المربي الرحيم والمنعم الكريم ، أتبع ذلك ببيان أن هيمنته فوقهم ، وولايته عليهم ، وسيطرته على شئونهم ليست مما ينتهي بانتهاء تلك الدار ، وينقضي بانقضاء هذه الحياة ، بل هو إلى ذلك ملك اليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء العادل . يوم لا تظلم نفس فيه شيئاً (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفي ذلك الإتيان استئصال لذلك الخيال الضال ، واجتثاث لتلك القضية الباطلة التي كثيراً ما اتخذ منها الشيطان حبالاً لصيد الإنسان وصدده عن سبيل الله ،

وكثيراً ما أثارت بها النفوس غبار الشكوك والريب في أفق الحق والإيمان لتحديد عن سواء السبيل إلى مهاوى الغواية والضلال : تلك قولهم (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) وإذن فله الأولى والآخر ولا مفر منه إلا إليه، وفي هذا دفع لوساوس الشيطان ، وطرده لأحاديث النفس وأمانها بما يحمل النفوس على الرجوع إلى الله وابتغاء مرضاته واتقاء عذابه بالإخلاص في حمده والمداومة على ذكره والمحافظة على طاعته فيما نهى وأمر .

الآية قد قرئت (ملك ليوم الدين - ومالك يوم الدين) وعلى القراءة الأولى يكون اليوم ملكاً لله بضم الميم وعلى الثانية يكون اليوم ملكاً لله بكسر الميم فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ، أن له تعالى على اليوم هيمنة الملوك فكل شأن يجري فيه برسمه ، وكل تصرف فيه يتفد باسمه ، ليس لغيره أمر ولا نهى ، ولا لسواه منع ولا منح ، ولا تصرف في أى شأن صغر أو كبر ، بل كل ما فيه صاغر أمام عزته خاضع لجلال عظمته .

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى : أن كل ما في اليوم ملك له تعالى ينظم جزئياته علماً وتقديراً ، شأن المالك الفرد في جزئيات ملكه المحدود الذى لا يغيب عنه منه شيء جملة ولا تفضيلاً ، حتى إن ما يجتمع في ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، من الإنس والجن ، من الملائكة وغيرهم ، مذنبهم وطائعهم ، من الناطق والاعجم مما يعيى العادين ، ويعجز الحاصرين ، كل ذلك قد أحاط به علماً جزءاً جزءاً وفرداً فرداً ، وكل ذلك محصور وزنا وعداً (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فيعلم أن ما يحتويه اليوم وإن جل وعظم فهو إلى عظمة ملكه حقير ، وإلى جلاله قليل ، فكان سبحانه بإحاطة علمه بكل ما في اليوم على وجه التفصيل مالكا ، وكان بشموله لما في اليوم سيطرة واستيلاء ملكاً ، وإذن فهو الملك وهو المالك : ولقد أضاف ملك ومالك على القراءتين إلى يوم الدين . لأنه ليس هناك عبارة تفيد إحاطة ملكه بما في اليوم إلا أن يملك اليوم ، إذ أن اليوم ظرف فلا يعقل أن شيئاً له وجود وليس فيه بل كل ماله وجود فهو بالطبيعة حاصل فيه فإذا كان اليوم مملوكاً لله كان كل ما فيه ملكاً لله وذلك هو السر في أن يسلك في التعبير مسلك السكناية لا الحقيقة .

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتبع .

النقد الفني

لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله

تقــرير

مرفوع إلى إدارة الجامع الأزهر

بقلم

فضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

تلبية لأمر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، تصفحت الرسالة المعنونة : « رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله » بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل) ، فوجدت الكاتب يدعو فيها المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها ، ابتداء بسورة العلق ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر .

ويقول الكاتب في توجيه هذا الاقتراح : إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار ، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول ، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة ؛ لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة ، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه ، وصار كالذي ينتقل من درس نحو ، إلى درس في الحروف الأبجدية ، إلى درس في البلاغة . الخ . الخ .

أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدي إلى نتيجة غير التي يدعوا إليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يعاد النظر في ترتيب السور فحسب ، بل أن تنثر نجوم القرآن كلها ، وترتب ترتيباً جديداً على وفق نزولها : المكي منها قبل المدني ، والمتقدم في كل منهما على المتأخر منه ، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن .

فهل عسى أن يكون الكاتب رأى في الدعوة إلى تعديل ترتيب الآى جراءة خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامى ، فأراد أن يمهدها بخطوة أقل خطراً في نظره ، فدعا مؤقتاً إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها ، دون مساس بنظم الآى في سورها . . . حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التي تأتلف مع مقدماته ؟ .

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة ؛ فالله أعلم بما في نفسه . ولكن الذى يعنيننا هو أن نسجل هاهنا السبب الذى بنى عليه تورعه عن تغيير نظام الآى ، فقد قال في بيان المانع من ذلك : إن الرسول كان ينزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت ، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسور مكية .

هذا تقرير صحيح ، وهو يتضمن اعترافين اثنين ، كل منهما يؤخذ حجة عليه .
 الأول — اعترافه بأن ترتيب الآى قد روعى فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخي في النزول . فإذا كان حضرته قد استساع في السورة الواحدة أن تشمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية ، فكيف لا يستسيغ أن تكون سورتان متجاورتان إحداها مكية والأخرى مدنية ؛ مع أن الأمر في السور أهون ؛ لأن كل سورة وحدة مستقلة ، ولا شك أن تجاور جسمين غريبين أخف من دخول أعضاء غريبة في جسم واحد ، على أن تجاور المكي والمدني لا مفر منه على اقتراحه هو أيضاً ؛ لأنه سيضطر آخر الأمر إلى الانتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ؛ فكيف يفسر الفجوة التي ستحدث بالانتقال من آخر السور المكية إلى أول السور المدنية مع بعد ما بين اللونين في نظره ؟ .

الاعتراف انانى — فى قوله ، إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها فى سورها كان بتوقيف نبوى (بل نقول بتوقيف آلهى) ولم يكن بمجرد اجتهاد من الصحابة ، وإنه لذلك يجب أن تراعى لهذا الترتيب قدسيته ، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل . ومقتضى هذا التعليل أن المؤلف لو علم أن ترتيب السور فى مواضعها كما هى الآن ترتيب توقيفى أيضا لحافظ عليه ، ولم يجرؤ على طلب تغييره . ألا فليعلم حضرته - إن لم يكن يعلم - أن الأمر كذلك فى السور ، وأن الأمة لم تختلف فى شأنها اختلافا يعتد به إلا فى موضع واحد ، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الأنفال بغير بسملة ، فتمال بعض العلماء إنه كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، حيث لم يصل إليه فى شأنه تعليم نبوى : أهما سورتان أم سورة واحدة ؟ فوضعهما متجاورتين من غير بسملة احتياطا . ولكن جمهور العلماء على أنه توقيفى كسائر السور ، هذا هو الموضع الوحيد الذى يمكن أن يكون للبحث فيه مجال . على أنه سواء أكان الترتيب فى هذا الموضع توقيفيا أم توفيقيا ، فإنه لم يخالف سنى ولا شيعى فى التزام هذا الوضع الذى كان عليه المصحف من أول يوم .

وخلاصة القول فى هذه الملاحظة الإجمالية أن احترام قدسية الوضع المأثور يقضى بالمحافظة على النسق القائم الآن فى الآيات والسور جميعا ؛ وأن فكرة ترتيب المصحف على حسب النزول كانت تقضى بتغيير الوضع فى السور والآيات جميعا ؛ بل هى فى الآيات كانت أشد اقتضاء ، ومع ذلك قد خولفت وخضع المؤلف لهذه المخالفة فى أقوى مظاهرها . وكان مقتضى المنطق أن يقبل هذه المخالفة فى الأخفض والأهون .

* * *

ونجىء الآن إلى فكرة ترتيب السور على وفق نزولها ، لنناقش الوجوه التى حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل .

— ١ —

يتول حضرته : إن الانتقال من السورة المسكية إلى السورة المدنية يصدم القارئ صدمة عنيفة ، ويدخله طفرة فى جو غريب منقطع عن السياق .

نقول : إن كلمات « الصدمة العنيفة » و « الجو الغريب » ونحوها من العبارات المألوفة والقوالب الجارية على أقلام الكتاب لا تنفع طالب الحق ما دامت تحلق في سماء هذا العموم المطلق الذي لا يطبق على مثال معين ؛ لأنها ما دامت كذلك يخشى أن تكون مجرد ألفاظ لا مدلول لها في الخارج ولا في ذهن الكاتب .

ولقد شعر المؤلف بحاجة القارئ إلى هذا التطبيق ، فضرب لنا مثلاً بوضع سورة محمد بعد سور الحواميم ، وكنا ننتظر منه أن يضع يدنا على موضع المفارقة وبين لنا وجه الانقطاع ، بين سورة محمد والسورة التي قبلها ؛ ولسكنه لم يفعل ، واكتفى بإعادة هذه الألتاب العامة قائلاً : إن القائل يشعر بها ...

ونحن نقول : إن الذي يشعر به القارئ هو على عكس ذلك : كمال الانسجام ، وتماس الالتحام ، بين هاتين السورتين . وهانحن أولاء نضع يد المؤلف على حقيقة ما نقول :

فليقرأ حضرته أول سورة محمد : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » وليقرأ صدر السورة التي قبلها إلى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم التمامة » وليقل لنا : أين المفارقة بين هذين الحديين ؟ - ثم ليعتبر في ختام سورة الأحقاف قوله تعالى : « بلاغ ! فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » وفي ختام سورة محمد قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . ثم لينظر هل يرى أحسن من هذا تقابلاً بين البدايتين ، وتوازيًا بين النهايتين ؛ وهل يرى في إحكام هذا النسق إلا صورة أخرى من صنع الله الذي أتقن كل شيء ؟ لقد صدق الله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »

فإن ظن حضرته أن مجرد ذكر القتال في سورة محمد وعدم ذكره في سورة الأحقاف يباعد بين السورتين قلنا له : ألم تتركب كيف وضعت في آخر الأحقاف قنطرة لطيفة العبور منها إلى هذا المعنى الجديد ؟ فلنمدك الآنذار بإهلاك الفاسقين في آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الإهلاك في السورة التي تليها .

أما إن كان لا يسوغ في ذوقه بوجه عام أن السور المسكية بما فيها من أصول العقائد ، وأصول مكارم الأخلاق ، والترغيب والترهيب ، توضع في ثنايا السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية ، والقواعد الحربية ، وشعائر العبادة ، وسائر الشرائع التفصيلية ، فيقال له : كيف استسغت إذاً أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعظ أو غيرها من المقاصد المسكية ؟ وإذا رضيت بهذا الإدراج في السورة الواحدة فلماذا لا ترضى به بين سورة وسورة ؟

فإن كان هذا الجواب الإلزامي لا يشفي غلته فإليه الجواب الشافي :

إن هذا المنهج القرآني في تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية : تشويقاً إلى الحديث : وتطرية للنشاط ، وترويحاً للنفس من عناء العلائق البشرية ، وصعوداً بها بين الفينة والفينة إلى الملأ الأعلى وإلى الحياة الباقية ؛ بل هو كذلك من أحكم وسائل التربية العملية ؛ لأن رد الفروع إلى أصولها ، وبناء القواعد العملية على دعائمها الأولى العقلية والوجدانية : من شأنه أن يمكن العقول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها ، وأن يحوّل النفوس إلى قوى محرّكة تمد الإرادات بأقوى بواعثها .

وليس الانتقال من أحد النوعين إلى الآخر كما ظن المؤلف انتقالاً إلى مقصد جديد أو إلى جو غريب ؛ فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المسكية والمدنية واحدة : وضي إصلاح العقائد ، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات ؛ وإنما يفترق المسكى عن المدني بالإجمال والتفصيل ، وكما لا غنى للقواعد السكية عن رسم طرقها العملية ، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد إلى قواعد السكية ، والاستمداد من ينابيعها النفسية العميقة . ولذلك بنى نظم القرآن في آياته وفي سورته على وجه من التداخل والتعاقب بين الاعتقادات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظاهر بعضها بعضاً على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها في النفوس ، ومن هنا كان القرآن « أحسن الحديث » كما وصفه الله « كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

- ٢ -

أما قول المؤلف إن الوضع الحالي للسور محل بحكمة التدرج في التشريع : فهو انتقال نظر يدل على غفلة عظيمة و خلط بين مقامين مختلفين : مقام التنزيل والتعليم ، ومقام التدوين والترتيل . وهما مقامان قد وضعا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين ، فكان أولهما يعتمد حاجات التشريع ، وثانيها يرتبط بحاجات الوضع البياني . وإن مراعاة إحدى الحاجتين في موضع الأخرى ليس من الحكمة في شيء بل هو وضع للأمور في غير موضعها .

ولما كان حضرته يميل الى الأسلوب التصويرى ، ويجب ضرب الأمثال ، وقد ضرب لنا مثلاً بالابجدية والنحو والبلاغة ، حق علينا أن نضرب له المثل الحق الذى هو أحسن تفسيراً في هذه القضية :

رجل يريد أن يبنى بيتاً لسكنائه ، فجعل يجتلب تباعاً كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته ، غير مبال بأن يشتري أجزاء العرش والأُسُف قبل الأسس والجدران ، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء ؛ متبعاً في كل ذلك فرصة توفر الثمن لديه ، ووجود المواد في السوق ، وسهولة وسائل النقل ، الى غير ذلك من ظروف احتياجه . وضروب إمكانه ؛ فهل من الحكمة أن يضع البناء هذه الأجزاء في البنيان على حسب تواريخ ورودها ؟ أم الواجب أن يضع كل جزء منها في مكانه اللائق به ، وفقاً لرسم هندسى معلوم ، مهما خالف ترتيبه الزمانى ؟

كذلك كان نزول القرآن منجماً على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم ، وروعت في ذلك حكمة التدرج والترقى في التشريع على أحسن الوجوه وأكملها . ولكن هذه النجوم في الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منعزلاً بعضها عن بعض ، بل أريد لها أن تكون فصولاً من أبواب أسماها السور ، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديوان اسمه القرآن ، فكان لا بد أن يراعى في مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزمانى ، بحيث يأتلف من كل مجموعة منها باب ، ويأتلف من جملة الأبواب كتاب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا ألفت على وجه هندسى منطوق بليغ ، تبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالاً وإحكاماً عنها في وضعها الافرادى التعليمى .

وكانت الآية الكبرى في أمر هذا التأليف القرآني أنه كان يتم في كل نجم فور نزوله ، فكان يوضع هذا النجم توأ في سورة ما ، وفي مكان ما من تلك السورة ؛ وكذلك كان يفعل بسائر النجوم فتفرق فور نزولها على السور ، مما يدل قطعاً على أنه كانت هناك خطة مرسومة ، ونظام سابق محدود ، لا لكل سورة وحدها ، بل لمجموعة السور كلها . وهذا وحده - لو تأملناه - من أعظم الأدلة البرهانية على أن القرآن ليس من صنع هذا البشر الذي لا يدري ما يكون في الغد ، فضلاً عن أن يعلم ما ستأتي به الحوادث في مجرى حياته كلها ، فضلاً عن أن يعرف النظام الذي سيجيء عليه البيان في شأن هذه الحوادث ليهيئه له مكانه قبل مجيئه ، فضلاً عن أن يعلم أنه سيعيش حتى تأخذ كل سورة وضعها الكامل ، ويأخذ القرآن نظامه الشامل ، وحتى يكون انتقاله إلى الرفيق الأعلى عقب اعلانه بأن مهمته قد انتهت . . . هكذا يدل كل شيء على أن عناية الله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كانت هي التي تهيمن على تنزيل هذه النجوم القرآنية ، وعلى ترتيبها حتى بلغت تمامها ، وأن هذا الترتيب المكاني المستقل عن ترتيبها الزماني قد كان مقصوداً لحكمة ألبتة ؛ عرف هذه الحكمة من عرفها ، وجهلها من جهلها .

ولقد اعترف المؤلف بأنه من أهل القسم الثاني ، حيث قال في صدر رسالته : « ما الحكمة في ترتيب السور على هذا النحو ؟ » ثم أجاب بقوله : « لست أدري ، فكان ذلك منه انصافاً محموداً ؛ وكان الوضع السليم الذي يقضى به منطق هذا الاعتراف أن يسلك إحدى خطتين : فإما أن يتوقف عن البحث في حكمة هذا الترتيب ، ويتمول كما يقول الراستخون في العلم : « آمنا به كل من عند ربنا » ، وإما أن يلتمس من أهل الذكر بيانا يكشف عنه بعض هذه الغمة . . . ولكنه لم يصنع هذا ولا ذاك ، بل أسرع فاستنبط من الجهل علماً ، ومن الشك يقيناً ، ودعا إلى التغيير قبل أن تثبت من صواب قصده ، فكان كالذين قال الله فيهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

وهنا لا يسعنا إلا أن نوجه لحضرته نصيحة رشيدة ، نهد لها بمقدمة صغيرة .
أما المقدمة فهي : أن التفقه في القرآن ينبغي أن يكون على ثلاث مراحل

متصاعدة لا تستقدم واحدة منها عن موضعها ولا تستأخر . (المرحلة الاولى) فهم مسائل القرآن مسألة مسألة ، والتفقه في أمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ، ومواعظها وعبرها ، ثم التحلى بآدابها ، والوقوف عند حدودها . (المرحلة الثانية) النظر في جملة مسائل السورة على أنها أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض في نظام واحد ، ويأخذ كل منها في هذه الوحدة وضعاً معيناً يناسبه . (المرحلة الثالثة) النظر في مجموع سور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد قصد إلى ترتيبها فيه على هذا النحو .

مثل ذلك مثل الناظر في علم التشريح : لا يبحث في العلاقة بين جهاز وجهاز حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدته ، ولا يبحث في الأربطة والوشائج التي بين هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلاياه .

فكما أن الذى يسأل عن حكمة وضع العينين في مقدم الوجه . ووضع الاذنين في جانبيه ، قبل أن يعرف تشريح العين والاذن ، يعد مشتغلاً بنوع من الترف العتلى قبل أن يحصل على جواهر العلم ولبابه ، كذلك الذى يسأل عن حكمة تقديم سورة وتأخير أخرى يقال له : اذهب فأقتن فهم الآية والسورة أولاً ، ثم تعال فانظر في حكمة ترتيب السور ؛ فهذا من زينة العلم وحليته ، وذلك من مبادئه وأوليائه . وإن مخالفة المنهج في هذه الدراسة يعد من عكس الوضع السليم ؛ كالجائع الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، يضع وقتاً في البحث عن الأزهار والرياحين ؛ أو كالمدين المستغرق الذى ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدي حق الغرماء .

إذا تمهد هذا فليُنظر صاحب هذه الدعوة الجديدة في أى مرحلة هو من هذه المراحل ، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس .

فإن كان لا يزال بعد في إحدى المرحلتين الاوليين ، وجب عليه أن يترى في السير إلى المرحلة الأخيرة ، وأن يكتب في فيها مؤقتاً بأن يعلم إجمالاً أن الرسول صلوات الله عليه كان يرتل القرآن في الصلوات ، وفي العرض في رمضان وغيره ، على هذا الترتيب ، وأنه جعل « الحمد لله رب العالمين » أول القرآن ، وسماها فاتحة الكتاب في الاحاديث الصحيحة الثابتة ، مع أنها ليست أول ما أنزل ، وأنه كان يبين

لأصحابه موضع السورة من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة . فهو إذا وضع مقصود لمعزى يعليه واضعه ، ولا يضر أحداً الجهل به . ومن بداله أن يجوز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العينين في مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداهما في الوجه والأخرى في القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء . فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عملياً عاكس الطباع ، وأفسد الأوضاع . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . ألا وإن الشأن في التنزيل كالشأن في التكوين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، كذلك لا تبديل لكلماته « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » .

— ٤ —

أما إن كان قد حذق مسائل القرآن مسألة مسألة ، ووقف على سر نظم الآيات في سورها آية آية ، واشتهى بعد ذلك أن يعرف الوجه في ترتيب السور ، فليعلم أن للناس في ذلك مسالك من النظر بعضها أعمق وأدق من بعض .

ولعل أدنى هذه المسالك وأيسرها قول بعض المستشرقين : إنه روعي في هذا الترتيب في الجملة البدء بأطول السور ، ثم بأوسطها . ثم بأقصرها . فهذا وجه من النظر لا يخلو من الصواب ؛ لأن شأن المبتدئ في التلاوة أن يكون أجمل نشاطاً ، وأوفر رغبة ، وأتم استعداداً لقراءة المقالات الإضافية ، ثم تأخذ قوته في التناقص تدريجاً ، بسبب ما يعتري الطبع الإنساني من الفتور والتراخي ، فقدرت السور على حسب الطاقة والنشاط : من المثين ، إلى العشرات ، إلى الآحاد . ولكن هذا التوجيه - كما ترى - سطحي يفتيس السور بعدد كلماتها وجملها ، لا بالقراءة بين معانيها وأساليبها .

ولو أننا جاوزنا هذه القشرة السطحية ونفذنا منها إلى المعاني والأساليب لوجدنا ضروباً أخرى من التسلسل التعليمي والبياني تلتحم فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها في أحسن وضع وأحكمه .

ولقد رأينا آنفا كيف أن سورتي الاحقاف ومحمد قد تجاوزت مطالعتهما ،
وتطابقت مقاطعهما ، مع أنهما من فصيلتين مختلفتين في تواريخ النزول .

هذا ضرب من الاقتران على وجه التوازي والمحاذاة .

وضرب آخر من الانسجام يصح أن نسميه نظام السلايم ، أو أسلوب الحال^١
المرتحل . وهو أن يكون المعنى الذى انتهت اليه سورة من السور هو نفسه المعنى
الذى يفتتح السورة التى تليها . انظر مثلاً إلى سورة الواقعة المسكية كيف ختمت بقوله
تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » وكيف حسن بحىء سورة الحديد المدنية بعدها
حيث تفتتح بقوله : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . وهكذا كان قوله :
« وإدبار النجوم » جسراً إلى قوله : « والنجم إذا هوى » ؛ وقوله : « أزفت الآزفة »
سلباً إلى قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ؛ وقوله : « فى مقعد صدق عند
ملك مقدر » سلباً ممدوداً إلى قوله : « الرحمن ... »

وهناك وجوه آخر من التسلسل أعمق وأدق يهتدى إليها من جعل همه تدبر
آيات الله .

وبحسبنا فى هذه العجالة أن نعالج الشبهة التى علقنا بصدر المؤلف حين لم يفهم
الحكمة فى وضع الفاتحة فى أول القرآن ووضع بعض السور القصار فى آخره ،
وأن نلفت نظره إلى أن كلا من البدء والختام قد وقع موقعه الرصين ، ووضع
فى قراره المسكين ، وأن المؤلفين حتى يومنا هذا ما زالوا يترسمون فى مطالع كتبهم
ومقاطعها هذا المنهج المثلث القرآنى .

فوقع سورة الفاتحة من القرآن كله موقع الفهرس الذى يعرض بإيجاز محتويات
الكتاب قبل الدخول فى تفاصيله ؛ فكل شئ فى القرآن من الإلهيات ، والتبوات ،
والمعاد ، والأعمال ، والأخلاق ، وعبر التاريخ ، قد وضعت مفاتيحه فى هذه
الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرد ، وإنما هو ماء الحياة
ينساب فى جداوله غذاء للعقول والأرواح ، فلا يمل ولا يخلق على كثرة الترداد .
ثم إن لهذه السورة - وراء موقعها من جملة القرآن - موقعا خاصا من السورة التى
بعدها ، هو موقع الديباجة التى تبين وجه الحاجة إلى التعليم الذى يليها . ذلك أنها

صورت المؤمنين باسطة أيديهم ملتصقين الهداية من واهبها : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فكان حتماً على المسؤول القريب الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، أن يتلقى هذا الدعاء بالقبول ؟ وهكذا جاءت سورة البقرة معلنة في بدايتها أنها ستسد هذه الحاجة وستحقق هذا الملمس : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أرأيت لو أننا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها كما يريد المؤلف بين سورتي المدثر وأبي لهب ، كيف كان ينبو بها موضعها ، وتقطع صلتها بما قبلها وما بعدها ؛ وكيف كانت تفوت هذه المجاورة الروحية بين الداعي والمدعو ؛ وكيف كان يصبح القرآن كتاباً بغير فهرس ، بل جسماً بلا رأس ؟

أما السور السبع القصار ، فإنها كلها تحمل طابع الختم والانتهاء ، وإن النفس الذي يجري فيها لينادى بأنها كلها أشبه شيء بوصية المودع . فانظر إلى سورة (الكوثر) حين قضى الوحي مفصلاً كيف التفتت إليه في نظرة جامعة لتعرف الرسول بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم : « إنا أعطيناك الكوثر » ، فكان ذلك أحسن فذلكمة يختم بها كتاب وينوء بشأنه . ولما كان تعريف الرسول بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتناناً عليه فحسب ، بل هو تحريض خفي له على الحرص على تلك الهدية ، لاجرم جاءت السورة التي تليها مقفية على هذا التقريظ بالأمر المؤكد بالاستمسك بهذا الدين ، وعدم التحول عنه مهما لج المعاندون : « قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ... » ؛ وكان طبعياً بعد هذا الأمر والنهي ، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين في شأن الدين ، أن تقرر عاقبة كل منهما ؛ فأشارت إحدى السورتين التاليتين إلى عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم : « إذا جاء نصر الله والفتح » وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشائنيهم : « تبث يدا أبي لهب وتب » ، ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كلية مهدت له آنفاً في قوله تعالى : « إن شئت لك هو الأبر » . ثم كان مسك الختام أن يورك هذا الكتاب وحصن التحصين السماوي المنيع ؛ وذلك بطلب الالتجاء إلى الإله الأحد الصمد في أن يحفظ للعالم هذه الهداية العظمى ، برغم حسد الحاسدين ، ووسوسة الموسوسين ، الذين يلقون الشبهات في صدور الناس ليصدوهم عن سبيل الله .

هذا نموذج من نسق السور كما رتبها الله : طاب بدءاً وختاماً ، وحسن مرتجلاً ومقاماً . ولا غرو فهو تنزيل الحكيم الخبير ، ومن أحسن من الله حديثاً .

- ٥ -

ونعود الآن نفترض جدلاً أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف إلهى ، ولا بتوقيف نبوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ، ألا يكفيننا فى حرمة وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم ؟

إن اليهود والنصارى - وقد أصاب كتبهم ما أصابها من تعدد النسخ واختلافها - يحسدون المسلمين على أن لهم كتاباً موحداً لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يختلف فيه وضع سورة فى نسخة عن وضعها فى أخرى ، بل إن علماءهم يغبطوننا على وجود بعض ألفات أو لامات زائدة فى رسم المصحف ، وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل ، واتصال كلمات شأنها أن تفصل ، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر فى كتب النحو والصرف ؛ ويستدلون ببناء هذا كله فى المصاحف الإسلامية - برغم اختلاف العصور وتطور العلوم - على مبلغ القدسية التى أحاط المسلمون بها كتبهم من أول يوم ، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم بقى كما هو لم تنله يد قط بأدنى تغيير أو تبديل ، مع وجود الحاجة إلى بعض هذه التعديلات تسهيلاً على المبتدئين . أفنجدى نحن اليوم - بغير ضرورة ولا فائدة ، بل إفساداً واتباعاً للهوى - ففضيع بأيدينا هذه الحجة القائمة ، ونفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة ، فيقول قائل منهم : « إنه لم يبق لنا ثمة بأن هذا الكتاب بقى فى كل العصور بعيداً عن كل تبديل ؛ لأنه فى العصر الفلانى قد غيرت أوضاع السور فيه ، فلعله قد أصابته قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها ، ؟

وجملة القول أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل ؛ لأنها قبل كل شئ دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرف بها الكلام عن مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق ، وتشويه جماله ، ونقض بذيانه المحكم الوثيق ، ثم لأنها فتح باب للشبهة فى حفظ الذكر الذى ضمن الله حفظه ، فهى إذاً دعوة لا يستجاب لها ، ولا يجوز أن يمكن أحد من تحقيقها .

- ٦ -

بقى أن نقول رأينا فيما ينبغي أن يتبع في شأن المؤلف وتأليفه .

إننا لسنا من أنصار سياسة السكت وتكليم الأفواه والأقلام ، والتسرع بمصادرة السكت والآراء المنحرفة في الدين ؛ لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها ، ولأنها بدل أن تطفىء نار الفتنة تشعل أوارها ، وتغرى أهل الفضول بتلبس هذه المؤلفات كما تلبس المهربات ؛ ولأن ضعيف الحجة هو الذى يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف ، وليس الضعف من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وأخيراً لأن هذه السياسة ليست سياسة قرآنية ؛ فإن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن ، ثم إنه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائفة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها فى كتابه ، وقفى عليها بما يدحض باطلها . فكذاك ينبغي فيما نرى أن تقرع كتب المبطلين بالحق الذى يدمغها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

ونرى فى موضوعنا بوجه خاص أن ترسل صورة من هذا البيان إلى المؤلف ، وأن نترك له الفرصة السكافية لقراءته وتدبر ما فيه :

فأما إن كان من طلاب الإصلاح بنصفه وحسن نية ، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له ، وأول من يحافظ على ترتيب القرآن كما رتبته الله . وإن بقيت فى نفسه بعض شبهة فسيسعى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها .

وأما إن أصر على رأيه لحاجة وهوى فى نفسه ، فلنترك دعوته تموت بعدم الإصغاء إليها . فإن نشط لنشرها وترويجها ، وتضليل السذج بمغالطاتها ، بعثنا عليه جنوداً من حجج الحق تتعقب بها فلول باطله ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة .

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شىء فى كتاب الله ، والله غالب على أمره ، والسلام على من اتبع الهدى ؟

الرباءاء البشرية الويل

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباط

المدرس بكلية الشريعة

إن التشريع الجدير بالاحترام هو الذى يحارب الشر بين الافراد والجماعات ،
 فيبيح كل ما رجح فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما رجح فيه جانب
 الشر على جانب الخير ، ولا يقيم وزناً لخير مرجوح إن كان يقابله شر راجح ،
 ولا وزناً لشر موهوم إن كان يقابله خير مؤكد ، وإن الإنسان لا ينظر إلى الأمور
 إلا من ناحية هواه ؛ وكثيراً ما يتقلب الهوى على العقل ، فيفسد تفكيره ، ويريه
 الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً وقديماً قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يعدم حب الزنا أن يجد له مندوحة فى زعمه ، وحب الخمر يبرأ لها
 فى وهمه ؛ فقد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الترهات . لهذا كان التشريع الإنسانى
 - فى كل العصور - مجالا للخطأ المقصود وغير المقصود ؛ ولم يترك الله الناس إلى
 عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ،
 وشرع لهم الشرائع ، وكان تشريعه أو فى الشرائع بحاجة البشر ، فإنه - سبحانه -
 أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض تعالى الله عن
 ذلك علواً كبيراً .

وانقد راعى الشارع الحكيم فى تشريع المعاملات بث روح التعاون بين الافراد
 والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير فى القلوب ؛ فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق
 هذا المبدأ النبيل ؛ وحرم كل ما من شأنه أن يقطع أواصر الألفة ؛ ويبذر بذور
 العداوة والبغضاء ، ومما حرمه الله ، سبحانه - الربا ، وشد فى أمره ، وبالع فى التكثير
 على المتعاملين به ، وجعل المصممين على التعامل به من الخالدين فى النار ، وسلكهم
 فى سلك واحد مع الكفار الآثمين ؛ ثم تواعد المرابين بحرب منه إن لم يتوبوا

ويردوا الأموال إلى أربابها .

استمع إليه سبحانه إذ يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ؛ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . ثم استمع إليه سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وقد سد الشارع الحكيم هذا الباب لما فيه من شر مستطير وفساد كبير فجعل شبهة الربا محرمة كالربا فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل قرض جر نفعا فهو ربا » ، وهذه سنة من سنته تعالى إذا عظم شر أمر من الأمور حرمه وحرم مبادئه وكل ما يتصل به من قرب أو بعد كما حرم مبادئ الزنا من نظر وخلوة ومس ، وكما حرم قليل الخمر وكثيرها وحرم بيعها كما حرم تعاطيها . حتى يقطع النفوس عن أهوائها ؛ ويردها عما يهلكها .

والنفس كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينقطع وتطبيقاً لهذا المبدأ القويم جعل الرسول الكريم المتعاملين به وشهوده وكتاب صكوكه شركاء في الإثم ، ولعنهم فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

وعده الرسول الأكرم من الموبقات المهلكات في الدنيا والآخرة وجعله في مرتبة تلى القتل في الإثم فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أن قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن : قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وكيف لا يكون قرين القتل وقد خرب البيوت العامرة ، وشتت الأسر الكريمية وأورث القلوب غلا وحقدآ وحسدآ ، وماذا وراء ذلك إلا سفك الدماء ولزهاق الأرواح ؟

ومهما عدد الاقتصاديون للربا من مزايا ، ونسبوا إليه من فوائد فهل يستطيعون أن ينكروا أن الربا يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة مادية بحتة : لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيها للأخلاق السكرية ؟ والشرع قد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى ، وهل ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يجعل هناك طبقة من الناس تعيش على جهود الغير ، وتستنزف عرق جيبتهم ، وتسعد بشقايتهم ، وتشقى بسعادتهم شأن كل الطفيليات التي تمتص دماء الإنسان والحيوان ، ولا تقوى إلا في ظلال الجهل ، ولا تنشر إلا المرض والفقر ؟ ولا ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يغري أرباب الأموال أن لا يستغلوا أموالهم إلا في هذا الباب لأنه في زعمهم أضمن فائدة وأبعد عن مظان الخسارة وحينئذ تموت المشاريع العمرانية والصناعية التي يعود خيرها على جميع الطبقات . فإن الله جل شأنه ، لم يجعل التمدد سلعة مقصودة لذاتها في التجارة ؛ وإنما جعله الله وسيلة للبيع والشراء . والربا يصيره متمصداً لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتعطل مصالح العباد وتولد الثورات وتنفضى النزعات الهدامة .

ولعل البشرية لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من علوم ومعارف - ولسكنها - مع ذلك - لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من اضطراب الأحوال وتبليبل البال وسلب الطمأنينة عن النفوس لا فرق في ذلك بين الأفراد والجماعات والأمم ؛ فلا تكاد البشرية تقوم من هوة حتى تتردى في هوة أعمق منها ؛ ولا تحل مشكلة من المشاكل حتى تواجه بمشكلة أعتمد منها مع كبرة الخبراء في كل ناحية من نواحي الحياة .

أليست هذه نذر من الله - سبحانه - لعباده بتلك الحرب التي آذنتهم بها لانتهاهم حرمانه وخروجهم على تعاليم دينه ، وجعلهم الربا أساساً من أسس معاملاتهم ؟!! وويل للبشرية ، ثم ويل لها يوم أن تصبح في حالة حرب مع الله الواحد القهار ، قل هو المتأدر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض .

ربما كان من المحتمل أن يقع في جريمة الربا فرد أو أفراد وإن كل عصر من العصور لا يخلو من العصاة والمذنبين والخارجين على الشرائع والتوانين ولسكنه ليس من المحتمل في مجتمع يدين بالإسلام أن يصبح الربا فيه أساساً

من أسس المعاملات ؛ تبيحه القوانين ، وتقع فيه الأفراد والحكومات ويشيع بين الناس حتى كأنه ليس جريمة من الجرائم . وكأن الله - سبحانه - لم ينزل فيه قرآنا ، ولم يبين فيه حكما ، وكأننا نؤمن بآراء من نسميهم اقتصاديين أكثر مما نؤمن بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل .

وكان هؤلاء المرابين لا يكشفهم زاجراً وواعظاً ما يرونه من عواقب من سلف من أشياعهم وكيف أصبحت ديارهم خراباً وأبنائهم فقراء مساكين يتكففون الناس « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله »

ثم إن هؤلاء المقرضين بالربا لا يشفع لهم عند الله تلك الأعذار الواهية التى يتعللون بها فجلمهم إن لم يكن كلهم لم يقترضوا بالربا ليسدوا جوعة أو يستروا عورة بل اقترضوا ليعيشوا عيشة المترفين أو ليزيدوا إلى ملكهم ملكاً جديداً ؛ ولو أنهم دبروا أمورهم فى حدود طاقتهم المالية ما فتحو على أنفسهم وذريتهم باباً من الشر لن يستطيعوا له إغلاقاً ولما وضعوا فى أعناقهم وأعناق أبنائهم غلا من الدين لن يستطيعوا منه فكاً .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الموضوع وهى أن بعض من ينتقص أطراف الدين باسم الدين يتعللون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » فيتمسكون بمفهوم هذا اللفظ ويقولون بحله إن لم يكن كذلك . ونحن نقول لهؤلاء : لقد فهمتم فى كتاب الله ما لم يفهمه محمد بن عبد الله وصحابته الأكرام وما لم يفهمه أحد من الأئمة المجتهدين ؛ ولو كان ما تقولون مراداً لله لجاز أن يكون الربا ٩٩ ٪ أو دون ذلك ، لأن هذا ليس ضعفاً ولا ضعف الضعف ؛ إن هذا الوصف لا مفهوم له بل هو بيان للواقع ، فإن من شأن الربا أن يضاعف الدين حتى يتعذر على المدين السداد ؛ والواقع والمشاهد شاهد على هذا الفهم . فالحق الذى لا مرية فيه أن الربا قليله وكثيره ظاهره وخفيه محرم عند الله ورسوله والمسلمين أجمعين ؛ فمن أحل منه صورة من صورة فإنما إثمه على نفسه وعلى الذين يتولونه . فإن الحلال بين وإن الحرام بين . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا .

جعل الله للمسلمين من أمرهم رشداً ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، إنه على ما يشاء قدير .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

٤ - مشكلة المرأة

لماضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

بعد أن تكلم الشيخ الرئيس عما يجب على الدولة من توفير عمل لكل فرد من أفراد الأمة ، ومن ضمان المعيشة المعقولة للعاجزين عن العمل أو المتعطلين الذين لا يجدون إليه سبيلاً ، أخذ في الحديث عن المرأة من ناحية الزواج والطلاق ومنزلتها من الرجل وما يناسب أن يكون لها من عمل . كل هذا ، قد تناوله بالبحث وإن كان موجزاً ، وأدلى فيه بالرأى الذى يرى حتى تقوم المدينة الفاضلة أو الدولة الصالحة على الأسس التى تجعل حظها وافرأ من الاستقرار والسلام والسعادة .

وسنعلم من رأى ابن سينا فى هذه المشكلة من نواحيها المختلفة ، أن المغالين من أنصار المرأة يظلمون الحق والطبيعة وأنفسهم والمرأة نفسها حين يذهبون إلى مساواتها التامة بالرجل ، وحين يصفون خصومهم بالاستبداد والجنود على ما أورثهم الدين والتقاليد من أفكار . ذلك بأنهم سيرون فيما يلى أن الفلسفة ، لا الدين وحده ، بل وأن أرسطو المعلم الأول نفسه ، لا يريان ما يرون ، وأنهما يذهبان أحياناً إلى ضد ما يرون .

* * *

يشدد ابن سينا فى الزواج وضرورته ، لأن به كما يقول بقاء النوع الإنسانى الذى بقاءؤه دليل وجود الله تعالى . ثم يذكر أن الزواج يجب أن يقع ظاهراً ، حتى لا يقع خلل فى نسب الأولاد وانتقال المواريث التى هى أصول الأموال ، وهو فى هذا كله على اتفاق مع الشريعة الإسلامية وآراء المفكرين الاجتماعيين .

ويرى بعد هذا ، على خلاف ما هو موجود فى المسيحية ، أنه يجب أن يكون هناك سبيل للفرقة بين الزوجين ، وألا يُسد هذا من كل وجه ، لأن فى منع الفرقة

أصلاً بين الزوجين وجوها مختلفة من الضرر الشديد . ومن الأسباب التي يتعين معها الفرقة بين الزوجين ، فيما يرى ، اختلاف الطبائع إلى حد عدم الألفة ، وسوء الخلق في العشرة ، مما يؤدي إلى شقاء الحياة بالمعيشة معا . ثم فيما يقول أيضاً : ربما الزوجان لا يتعاونان على النسل ، وهذا مطلوب حتماً من الزواج ، فإذا حصل الطلاق وبدلاً بزوجين آخرين رزقهما الله ما شاء من النسل الصالح والأولاد النجباء والذي يراه الشيخ الرئيس هنا من ضرورة إباحة الطلاق للأسباب المتقدمة ونحوها ، نراه في كتب الفقه الإسلامي . ففي هذه الكتب ترى أن من الأسباب التي يكون معها الطلاق خيراً للزوجين معاً تباين الأخلاق ، وحدوث البغضاء بين الزوجين التي تجعل العشرة الطيبة بينهما متعذرة أو فيها عسر شديد ، وكذلك من هذه الأسباب ، حدوث الريبة والشكوك بين الزوجين ، أو أن تكون المرأة مؤذية للزوج أو غيره ، أو أن يكون في عدم الطلاق فوات ما يوجبه القرآن من الإمساك بمعروف .

وهذا الطلاق يجب في رأى فيلسوفنا ألا يكون بيد المرأة بحال ما ، مع أن الشريعة الإسلامية تجيز أن يكون الطلاق بيدها أحياناً . إن المرأة - في رأيه - في الحقيقة واهية العقل ، مبادرة إلى طاعة الهوى والغضب ، وهنا يمس الشيخ الرئيس مسألة هامة لها خطرهما في كل آن . وتثور من أجلها هذه الأيام المناقشات العنيفة من وقت لآخر ، بل قد بلغ الأمر أن الخلاف من أجلها وصل إلى أعلى هيئة قضائية في البلد وهي مجلس الدولة ؛ ونعني بهذه المسألة مشكلة مساواة المرأة للرجل أو أنها أدنى مرتبة منه لهذا السبب أو ذاك .

ولست هنا بالذي يتعرض لهذه المشكلة من الناحية الموضوعية ، ولكني أحب فقط أن أشير إلى أن ابن سينا يتشدد في أمر الطلاق أكثر من الشريعة الإسلامية إن الشريعة - على ما هو معروف - أباحت أن يكون الطلاق بيد المرأة أيضاً إن شرط لها هذا الحق في عقد الزواج ، كما جعلت للقاضي أن يوقعه ويفرق بين الزوجين بشروط وفي حالات خاصة معروفة في كتب الفقه الإسلامي ، وإذا ، فليس المرأة وأنصارها أن يتهموا الشريعة بالقسوة أو تجاهل وجودها وحقوقها وبخاصة وقد أباحت أيضاً - على بعض المذاهب - أن تلي المرأة بعض الشؤون

العامة ، وإن كنت لا أقول بأن هذا هو الحق أو الرأي الراجح في المسألة ، وحسبي فقط أن أشير كما قلت ، إلى سماحة الشريعة وعرفانها لكل من الرجل والمرأة منزلته وحقوقه وواجباته التي يصلح المجتمع برعايتها ، وأنها في هذا كانت أشد سماحا من كثير من أساطين المفكرين والفلاسفة .

ها هو ذا أرسطو الفيلسوف الإغريقي الأشهر ، والمعلم الأول بحق ، يرى في الكتاب الأول من كتابه « السياسة » أن المرأة أقل عقلا من الرجل ، وأقل لذلك بصراً بالأمور وإدراكاً لطبيعة الأشياء ، ومن ثم يرى أن أمور المدينة - يريد الدولة - يجب أن تكون خالصة للرجل وحده ، وللرأة أمور المنزل والأولاد تحت عناية الرجل وإشرافه ، إنه في هذا يقول : « فالرجل ، ما عدا استثناءات مضادة للطبع ، هو الذي يأمر دون المرأة ، كما أن الكائن الأكبر هو الذي يتأمر على الأصغر والانقص » ؛ كما يقول في موضع آخر : « والمرأة لها إرادة لكن في درجة أدنى » .

ومن هذا ترى أن مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، مشكلة عريقة في القدم عراقة وجود الإنسان بنوعيه ، وأن للمفكرين في كل العصور آراءهم فيها وفي الحلول التي يرونها لها ، وأن للطبيعة أيضا فيها رأيها الخاص الذي يتفق وطبائع الأشياء ، وإن من الخطأ ، وعدم فهم الواقع ودراسة تاريخ الفكر ، الزعم بأن الشريعة الإسلامية تقف في هذه المشكلة موقف العداء للمرأة . وإنه من الخير للرجل والمرأة على السواء أن يعرف كل منزلته التي أرادها له الله وطبيعة الأمور ثم أن يحسن القيام بالواجب الذي نيط به ، وبالدور الذي جعلت له الحياة القيام به ذلك أدنى إلى الحق بلا ريب ، وفيه تحقيق للصالح العام .



ذلك ، وكل حديث له خاتمته ونتيجته ، وأحب أن أشير في هذه الخاتمة أو النتيجة إلى أنه قد وضع لنا أن هذه المشاكل التي نحس بها إحساسا شديدا هذه الأيام ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها في المجتمع ، قد أحسها الناس جميعا منذ وجود العالم واشتد التنافس في الحياة . وقد حاول

المفكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، منذ زمن سحيق ، وضع حلول لهذه المشاكل حلول تقرب كثيراً أو قليلاً من عقليات الأزمان والبيئات التي كانوا يعيشون فيها ولم يكن المفكرون المسلمون بدعاً في هذه الناحية ، فقد تناولها كثير منهم بالبحث والدرس ، محاولين حلها على نحو به يصلح المجتمع والحياة ، ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف الإسلامي الأشهر الذي يستعد العالم الإسلامي هذه الأيام للاحتفال بعيدة الألفي .

ولعل هذا مما يجعل البعض يحسن الظن بالفلسفة ، فيرى أنها لا تطلب إلا الحق والخير العام ، وقد تصيب من هذا كثيراً أو قليلاً .

كما نرجو أن يكون هذا من شأنه أيضاً أن يجعلنا نثق بحضارتنا وقوميتنا وتفكيرنا الإسلامي ، فلا نجرى دائماً وراء الغرب نستجديه في كل شئونا ، تاركين وراءنا ثروة كبيرة كلها بدائع وكنوز ، وقد أفاد منها الغربيون أنفسهم كثيراً ؟

يسرع ليصل

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأذن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع الثاني في مشيته حتى تقدم الأحنف ، ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنته . فالتفت إلى الأحنف وقال له :

« والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإننا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم ، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا النقص يجده من نفسه » .

وفي الأمثال من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وقال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان ، فقال له : مثلك يرضى بهذا ؟ فقال :

أهين لهم نفسى لا كرمهم بها ومن يكرم النفس التى لا يهينها

الفقه السياسي عند المسلمين

الحق الدائم للمرأة ، أولياء الأمر ، مركز الحاكم

لحضرة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

عرفت أيها القارئ الكريم ، أن أمتنا أمة مكلفة مسئولة ، وأن لها السيادة المطلقة على أرضها ، وأبنائها ، ومتمدراتها ، وليس لأمة غيرها ، ولا لفرد منها . أي سلطان عليها ، لأن تنفيذ التكاليف منوط بها ، فهي المهيمنة على وسائل الحفاظ على الشرع وتنفيذ أحكامه ، ومراقبة منفذيه ، فهي بذلك تملك سلطة التشريع فيما تركه التشريع لها من أمور تجد ، أو أمور تتغير وتختلف حسب الزمان والمكان والظروف والملايسات ، ثم هي تملك هذه السلطة بحكم نياتها عن المشرع سبحانه ، وكل ما يعرفه علماء الأصول باسم التشريع الحاجي ، أو الضروري ، هو موضع السلطة التشريعية للأمة ، تقدر الظروف وتشرع لها بوساطة علمائها بما لا يختلف مع القواعد الكلية للإسلام ، وللأمة حق التوكيل والإبابة عنها من ترقيته لتنفيذ تكاليفها ، ولها حق الرقابة عليه : تعين حاكمها ، وتمنحه الطاعة والسلطان ، وتنفذ أوامره ، ما اعترف بحقها والترم الحدود المرسومة له ، وتمنعه الطاعة ، وتحرمه السلطان ، وتسلب أوامره القوة ، إذا تنكر لها ، أو خرج عما عين له ، ولها أن تنصحه إذا مال مع الهوى ، وتقومه إذا اعوج ، وتعزله إذا لج في عتوه ونفوره من سلطاتها . وهي التي تقدر مصالحها في التولية والعزل ؛ ثم هي أمة حية قائمة ، وحقوقها ثابتة لها دائمة ، ما بقي تشريعها وما بقي فرد من أفرادها ، لا يرث عنها حقوقها إلا سيدها ومالكها يوم يرث الأرض ومن عليها ، وليس من حقها أن تتنازل عن سيادتها وسلطانها وحقوقها ، لأن سيدها الذي استخلفها لم يأذن بالتنازل عما يملكه هو وحده ، وليس لاحد أن يدعى وراثتها ، إلا مدل بباطل ، أو مغتصب لا يرعى حدود الله . هذا ، وتعلم أيها القارئ الكريم ، أن الإسلام هو دين الفطرة ، وهو نهاية الشوط في التشريع السماوي لصالح البشرية ، وأنه جاء وقد اكتمل العقل البشري ،

وارتقت الإنسانية إلى أرفع مما كانت عليه قبله في الإدراك والتعقل ، وأنه جاء مصلحاً منظماً . فعرض لشتى نواحي المجتمع البشرى ، وراعى كل احتياجاته ، واستعرض العادات والتقاليد ، وأشبه النظم التي وجدها ، فعدل منها ما عدله ، وهذب ما هذبه ، وألغى ما لا يتفق مع روحه وسمو مبادئه ، وابشكر ما ابتكره من نظم وتشريعات غير معهودة من قبله ، وكثيراً ما تسكون الأمور التي هذبها ، أو ، شذبها ، الإسلام ، أو سلمها بحالها ، من الأمور الضرورية التي لا تستغنى عنها الإنسانية بحال من الأحوال في أى زمان أو مكان .

ولقد وجد الإسلام قبائل العرب - كغيرها من شعوب الله - تخضع كل منها لزعيم من بينها له صفات خاصة ، تنفذ أمره ، وتتبع رأيه في السلم والحرب ، وتعترف برياسته عليها وتعطيه حق تدبير أمرها مع جماعة من كبارها يشثرون معه ، ويتعاونون معه على ما فيه خير النسيلة ، وهذا تقليد إنسانى مرت به جميع الشعوب البشرية ، ولقد احترم الإسلام هذا التقليد الذى صاحب البشرية فى تطورها فى العصور المختلفة ، فجعل كبار القوم - وهم عادة أهل العلم والرأى والخبرة والشرف - جعلهم موضع احترام الجميع ، وجعل لهم حق الطاعة على الجميع ، كما وضعهم فى مقدمة الأمة فى تحمل المسؤولية ، انظر معى إلى أى أسرة ، أو جماعة أو أمة !! فأننا لا نجد فى مكان صدارتها ، إلا بطل أو عالم أو خير بالحياة شديد الرأى ، أو ثرى قدّمه ماله وعصيته . هؤلاء هم كبار القوم الذين يسمع لهم ، ويعمل الناس بارشادهم ، وهم الذين ساهم القرآن الكريم أولياء الأمر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، ثم فى قوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وحول هاتين الآيتين الكريميتين ، اضطرب كلام الشراح سيما فى عصر الجلود ، والعصر الحديث ، فى تفسير أولى الأمر ، تبعاً لشدة أو ضعف ضغط السياسة التى لم تدع شيئاً إلا أفسدته ، حتى تطاولت إلى أقدم المقدسات وهو الدين ..! فقال قوم : هم الحكام . وقال قوم آخرون : هم العلماء ، وقال غيرهم : هم أهل المكانة والصدارة من الزعماء والعلماء وأهل الرأى والخبرة ، ويخلصنا من هذا الاضطراب الذى أملتته ظروف خاصة . إذا نحن علمنا أن العنصر الأخلاقى عنصر أساسى فى الشريعة الإسلامية التى تأخذ

المسلمين بأفانين من التربية والتأديب لتخرج منهم أمة وسطا . وخير أمة أخرجت للناس ، ولتصنع منهم نمطا إنسانيا عاليا تعز به البشرية ، وهذا العنصر هو أهم ما تميزت به شريعة الإسلام عن مختلف الشرائع السماوية والوضعية ، والإسلام يسمح بتقبل التقاليد الإنسانية التى لا تتنافى مع مبادئه ، وقد علمت أن طاعة كبار القوم من أهل المكانة والعلم والرأى والتجربة تقليد إنسانى ، وهو لا يتنافى مقررات الإسلام ، وهؤلاء هم أهل الذكر ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وهم أولياء أمر قومهم ، ورواد مصالح أهلهم ، والإسلام يريد أن يربى الأمة على طاعة كبرائها المجربين فى غير معصية الله ، وكل فرد إذا وجد فى نفسه القوة والكفافية أن يكون من هؤلاء ، حاكما كان أو محكوما ، وإذا كانت الآية الأولى عامة قررت قاعدة كلية ، وحمل أولوا الأمر فيها على الحكم ، فان الآية الأخرى تحدث عن « أولى أمر » إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم قدرة على الاستبطاء ، واستتباع الناس ، ومعروف أنه لم يكن مع الرسول حاكم أو حكام يشاركونه فى حكم المسلمين ! فواضح إذا أن هؤلاء لم يكونوا غير كبار المسلمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وزعماء القبائل ، وأهل البصر والتجربة ، ممن يتبعهم الناس ، ويسمعون لهم ، وينقادون لرأيهم عادة أو عصبية .
وأولوا الأمر - هؤلاء - هم المعبر عنهم عند علماء الإسلام بـ (أهل الحل والعقد) وهم من ذكرنا صفاتهم .

وقد ذهب الى هذا الرأى جماعة من خيار السلف والخلف منهم الإمام الرازى ، والإمام التفتازانى (السعد) والإمام النووى والإمام الرملى والإمام الشيخ محمد عبده والاستاذ رشيد رضا والاستاذ شلتوت (١) .

ولما كان هؤلاء (أهل الحل والعقد) هم رؤوس قومهم ، وطلاب صلاحهم ، وأهل رأيهم وخبرتهم ، ووجودهم ضرورى فى كل جماعة تبحث عن خيرها ، ولا غنى للجماعة عنهم وقد صقلهم الأيمان ، وجب الإسلام إليهم التفانى والرغبة

(١) راجع تفسير الرازى لسورة النساء فى الآيتين ، ورأى السعد فى المقاصد ٢ ص ١٧٢ ، وشرح المنهاج للرملى ٧ ص ١٢٠ ، وتفسير المنار ٥ ص ١٨٠ — ٢٤٢ ، وفقه القرآن والمنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

في صالح الإسلام والمسلمين ، وأصبح ذلك هدفهم الأول ، فإن الله قد أوجب طاعتهم على أفراد الأمة في كل ما لا يضر الدين والدولة ، وما داموا أهلاً لثقة المؤمنين .

وقد كانت هذه الطبقة من المسلمين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تكون ما يشبه المجلس الشورى للرسول عليه السلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فيما تستلزمه دنياهم ومصالحهم مما لا شرع فيه يلزمهم باتجاه معين ، وكثيراً ما رأينا القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر بعض هؤلاء المستشارين في غير مسألة ، استشارهم عليه السلام يوم الحديبية ، ويوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفي الحجاب ، وأمور الحرب والمعاهدات ، وأوضح مثل تقدمه لذلك استشارة الرسول لهم فيما يجب عمله مع أسرى بدر من المشركين ، وما نزل في ذلك من قرآن كريم ، ونخلص مما قدمته الى أن كبار النعم من زعماء وعلماء وأهل خبرة في نواحي الحياة المختلفة . هم أولياء الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وهم لسان الأمة الناطق برغباتها والمعلن لسخطها أو رضاها ، أو هم وكلاء الأمة الدائمون ، يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ، ويوجه سياستها في السلم والحرب . ويراقب حكامها ، ويرشح من يراه أهلاً لقيادة المسلمين ورياستهم ، ويقدمه للأمة لتوكله بالبيعة ليصرف شئونها ، وهؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وهم الذين أوجب الله على رسوله الكريم مشاورتهم « وشاورهم في الأمر » وأول واجب عليهم هو ترشيح الحاكم وتزكيته ، وتقديمه للبيعة ، فإن رآته الأمة أهلاً لثقتها منحتة رضاها ، وبايعته ، وإذا ظهر في المرشح عيب خفي عن الكبار يطعن في أهليته ، فمن حق الأمة أن ترده إن شاءت ، والمسلمون جميعاً أهل للاختيار بشرط الكفاية والصلاح والقدرة على استتباع الناس ، لا يختص الحكم الإسلامي بيت خاص ، أو قبيلة خاصة أو شعب خاص ، فالمسلمون سواسية كأسيان المشط ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ومن لم يتقدم به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ولو جاءت الأعاجم بالعمل وجاء العرب بغير عمل . لسكان العجم أحق بمحمد يوم القيامة كما يقول عمر فكل من توفرت فيه الكفاية أهل للحكم إذا ارتضته الأمة لقيادتها ، وله عليها حق الطاعة ما دام ملتزماً لدستورها ، فإن تحلل منه ، فهي في حل من طاعته .

ومن الملاحظ دائماً أن الحاكم الذى تختاره الأمة يكون عادة واحداً من أهل الحل والعقد، وأيضاً فإن أهل الحل والعقد يرشحون دائماً فرداً منهم، وإذن فهناك احتمال الاتفاق بين هؤلاء الكبار على استغلال الأمة! ولهذا يحتاط الإسلام لما عساه يحدث من تأمرهم مع الحاكم، وهو متهم على الأمة واستغلال نفوذهم ومكانتهم لمصالحهم الخاصة، هم بشر غير معصومين، وليس لدى الإسلام ما يضمن له أن يظل هؤلاء الكبار. كما كانوا فى عهد الرسالة. يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والقلوب تتقلب، والنفوس تتغير، ونظرتها إلى الحياة تتطور، وروح الدين قد يضعف أو يتلاشى. وعندئذ لا يزع الشخص قرآن ولا سلطان، فهل توضع الأمة فى مثل هذا الظرف تحت رحمة هؤلاء الكبار؟ لا. ما كان للإسلام أن يكبل الأمة بهذه القيود ويخضعها لفئة منها هم خدامها، لأن الإسلام قد أحترم الأمة، وخلق لها بالتكليف شخصية معنوية دائمة. ومنحها السيادة على نفسها ومقدراتها، ووكّل إليها اختيار خدام مصالحها، ولهذا يضع الإسلام الأمة فى أعلى القمة على رأس الحاكم ومجلس شوراه (أهل الحل والعقد) فهم جميعاً تحت رقابة الأمة، وكل فرد من الأمة مسلط عليهم، ومن حقه مراقبتهم، بسلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا تستعبد الأمة وتذل لفرد أو أفراد من أبنائها، وحتى لا يكون هناك مجال لتسخيرها لمصالح الحاكمين، إذا فسدت الضمائر وتواطئوا على استغلالها لمصالحهم الخاصة، ولهذا وضع الحاكم ومستشارو تحت سيف مصلحت على رقابهم هو سيف الرقابة الشعبية، وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن غيره من النظم البشرية قديمها وحديثها.

إذن فركز الحاكم مركز دقيق محفوف بالاشواك والأخطار، هو خادم مسئول عن سيده أمام سيده وأمام خالقه مسئولية دينوية وأخروية، وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب للناس: «إن الله ابتلانى بكم وابتلاكم بى» «إذا كنت فى منزلة تسعنى. وتعجز عن الناس. فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة الناس، «إنى والله لست بملك فأستعبدكم. ولسكنى عبد الله عرض على الأمانة، فإن أنا أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا. سعدت بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتم إلى بيتى شقيت بكم» ولما أقسم عامل الرمادة ألا يذوق سمننا

ولا لحما ولا عسلا ولا لبنا ، وأراد بعض الناس صرفه عن قسمه قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني مامسهم ؟ بثس الوالى أنا إذا شبعتم وجاع الناس ! » ولما قال له الأحنف بن قيس : اتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قبيلا ولا قال ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئا ، قال رجل : كيف تقول لأمير المؤمنين اتق الله . غضب عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم ، !!

ويقول عن أموال المسلمين : « والله ما من أحد إلا وله في هذا المال حق ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله . . » وكان يرى ان ظلم الحاكم مسقط لولايته ، وكان ينادى في كل موسم حج « من ظلمه أمير فلا لمرة عليه دوني ، وبهذه الروح قال لعمر بن العاص : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذا المنهج وتلك المبادئ هما في الواقع صدى لقوله تعالى لرسوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » فهمة الحاكم حسن الارشاد وتحقيق العدالة وقيادة المجتمع قيادة رشيدة إلى الخير والجمال ، والسلام والكمال ، وإذا كان من حتمه أن يكون عام السلطان لمسئوليته عن كل شيء ، فليس له أن يسيطر ويستعبد الناس ، لأنه واحد منهم . وهم الذين قدموه ، وله ما لهم وعليه حمل أنقل من أحلامهم ، ومنزلته منهم كمنزلة ولى اليتيم منه ومن ماله ، فليس لهذا على اليتيم سيادة ، وليس له أن يأكل من ماله إلا إذا كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، لقاء حسن إرشاده وحسن رعايته ، وهكذا أحكم الإسلام وحدة الأمة ، وحقق بهذا التنظيم والتعاون والتضامن ، الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو سر حيوية الإسلام السياسية ، وسر قوة الحكم الإسلامى في العصور الأولى . وسر صلاحية السياسة الإسلامية للتطبيق في كل زمان ومكان ، وقدرتها على حل مشاكل العصر الحاضر .

وللكلام بقية ، فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم .

دراسات في القرآن

موسى الكليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

القصص في القرآن باب واسع ، يحتل مكانا فسيحا ، وينال قسطا كبيرا ، ذلك أنه غرض جليل الفائدة ، غزير المادة ، عظيم الخطر ، بالغ الأثر ، سائغ العرض ، محبب إلى كل نفس من الغلام الناشئ ، إلى الشيخ الفاني ، كل يجد فيه السلوى ، ويتخذ منه العظة العظمى . وفي قصص هذا الكتاب السماوى دقة تخير لما ينفع ، وأعظم تحرر لما وقع ، فهو أصدق الحديث ، وأحسن القصص ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

ولو لم يكن فى هذا القصص إلا دلالة الحق على صدق هذا النبي الأسمى الذى نشأ يتيمًا فى مكة يحول بين شعابها الجاهلة ويدير فى ربوعها الغافلة ، حيث لا معلم ولا موجه . ثم هو بعد يتحدى أهل الكتب السماوية ، ويحاج ذوى المعارف والثقافة فى مختلف النواحي فيهمهم ويصرعهم ، فمن أين كان لذلك اليتيم ناشئ مكة أن يعرف أن الله كتب فى التوراة أن النفس بالنفس ، والعين بالعين إلى آخر القصص ؛ أو يعرف أن الرجم فى التوراة ، ويتحدى أحبارهم لإثبات ذلك مثلا ؛ بل من أين هذا القصص الثابت الصادق الذى تحدى به أمم الأرض ورواتها ، ولا سيما أرباب الكتب المقدسة ، فما حاول أحد أن يكذبه ، وهم الأعداء الأشداء الذين أعيتهم الحيل فى صراع محمد والقضاء عليه ؟؟؟ أليس فى ذلك دلالة على صدقه فى دعوى الرسالة وأن هذا العلم من لدن الله ؛ وفى الكتاب الكريم : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ، إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » وفيه أيضا : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتناول عليهم العمر ، وما كنت

ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولسكننا كئنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك .

ردد الله سبحانه في القرآن الكريم كثيراً من شؤون بني إسرائيل في ماضيهم وحاضرهم ، وأنبأهم بدخائل نفوسهم ، وكشف لهم طائفة من عيوبهم ، وساق عدة من أخبار نبيه الكريم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، يرددها في ألوان مختلفة في لغة الواثق المتثبت ، وجرأة العليم المتحقق ، وقد أحصيت لها خمسة وعشرين موضعاً في الكتاب الكريم ، بعض معانيها يتكرر مع بعض آخر ، وهو الأكثر الأغلب وبعضه ينفرد به موضع واحد ، كقصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة : وقتل النفس التي تدافعوا فيها أيضاً ، وكقصة قتال الجبارين في المائدة ، وكقصة قارون في القصص ، وكقصة الخضر وموسى في الكهف وهذا التكرار في الكتاب من مزاياه الخطيرة . ودلائل إعجازه المشرقة المنيرة . فيا ليت شعري أي كتاب سوى القرآن سلك هذا المسلك فلم يسخف ، وتطاول إلى ذلك الرقي فلم يهن ولم يضعف لقد كان جديراً أن يختلف أسلوبه ، أو تفتقر بعض عباراته ، أو تجف خصوبته أو تخف بلاغته ، أو تمر حلاوته ، أو تملح عدوبته ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

على أن فيه من التشويق والاستطراف ما لا يخفى ، فهو يكمل في بعض المناسبات ما لم يتم في مناسبة أخرى .

ولعمر أبيهم لو كان الأمر كما يزعمون لسبق به خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من أهل اللسان ، وأصحاب الذوق ، وهم الذين كانوا يلتمسون عثرة جده بكل حيلة وبخاصة أنه تحداهم بالقرآن وألح في التحدي حتى أصمهم وأعمى أبصارهم .

ذكر الله سبحانه موسى الكريم في خمسة وعشرين موضعاً من كتابه الكريم في هذه السور : البقرة ، المائدة ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ، الكهف ، طه ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، السجدة ، الأحزاب ، الصافات ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الاحقاف ، الذاريات ، القمر ، الصف ، النازعات .

أما سورة البقرة فقد تناولت الآيات الكريمة (٤٧ - ٩٣) توجيه الخطاب إلى بني إسرائيل الذين كانوا يسلكون مع نبيه صلى الله عليه وسلم مسلك الجحود

ويعاملونه معاملة لا يصدر مثلها من مثلهم ، فذكرتهم نعم الله سبحانه وفصلت نواحي من ذلك الإلزام ، من ذلك تنبيه القوم بما كان لبعض أسلافهم من ماضٍ سيء فيه مثلات وعظات ، تأتي على العاقل الموفق أن يتورط بعدها في خروج على رسول عظيم ، أرسله الله يعلمهم ، وقامت عليه الدلائل في كتبهم ، ثم هي تحمل موجب الإيمان به والتقدير له من قبل أن ذلك التاريخ التفصيلي البعيد مداه ، المندثرة آثاره من أقوى الدلائل على أنه وهو هذا الأمل المعروف رسول من عند الله . على أن بين الآيات الكريمة استطرادا ، فالآية ٤٤ تذكرهم بنعمة الله عليهم إذ أنقذهم من السكرب العظيم من فرعون وآله ، وكانوا يذيقونهم سوء العذاب ، يذبحون الذكور من أبنائهم ويستبغون الإناث ، ذلك أن الشعب الإسرائيلي كان في مصر عنصرا أجنبيا بين التمثيط ، بدأ حياته في مصر من عهد يوسف وإخوته ثم أخذ ينمو ويتزايد ، وهو شعب جبار عارم شديد الأثرة والاعتداد فأخذ التمثيط يستذلونهم بالأعمال الشاقة ، ولم يكن ذلك ليقل من شوكتهم ، فلما كان عهد فرعون ذلك المذكور في القرآن أشار عليه القبط بأن يأمر القوابل بتقطع دابر الذكور منهم بأن يذبحهم وقت الولادة ، وهو بلاء عظيم حتما ، والمعنى مرو في سور كثيرة مع بعض التفصيل في أوائل سورة القصص آية (٤ ، ٥) وفي الآية ٥٠ تفصيل لبعض نواحي النتيجة من آل فرعون مع طي ما كان من ولادة موسى وما جرى عليه إلى عهد الرسالة مما تكفلت به سورة القصص وطه والنمل كما ستراه إن شاء الله ، فالآية تنص على أن الله فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون برأى منهم ، والمعنى مفصل في الآيات (٩٠ - ٩٣) من يونس والآيات (٧٧ - ٧٩) طه ، والآيات (٥٢ - ٦٦) الشعراء ، والآيات (٢٢ - ٣١) الدخان ، وفي شرح بعض القرآن ببعض متعه ومنفعة وإيمان .

وتعود آية ٥١ من سورة البقرة فتشير إلى مواعدة الله سبحانه عبده موسى بإيتاء التوراة بعد حادث النجاة فقد خلصوا من شواغل تلك المزعجات من فرعون وقومه وما كانوا ينالونهم به قبل موسى وبعده ، واستعدوا لتشريع من الله يسرون على نهجه . فأمر الله سبحانه موسى أن يجيء إلى الجبل بعد أربعين ليلة ليأخذ التوراة فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون .

، الحديث متصل ،

عدى بن الرقاع

بين الوليد بن عبد الملك وبين هرون الرشيد

لفهيدة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

عدى بن الرقاع العاملي ، أحد شعراء الإسلام ؛ وكان شاعرا مقدما عند بني أمية ، مداحا لهم ، خاصا بالوليد بن عبد الملك ؛ أثيرا عنده ؛ وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد ، ثم لم تتم بينهما مهاجاة ؛ وكانت مكاتته عند الوليد ، مثار حسده له ، وغيره منه ، عند غيره من الشعراء ، كجرير ، والفرزدق ، وكثير وغيرهم . دخل جرير على الوليد مرة وعنده عدى ، فقال الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فمن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال : من عاملة . قال : أمن التي قال الله تعالى فيها : « عاملة ناصبة ، تصلي نارا حامية » ؟ فقال الوليد : والله ليركبئك ! الشاعرنا ومادحنا والرائي لأمواتنا تقول هذه المقالة ! يا غلام ، على ياكاف ولجام . فقام إليه عمر بن الوليد ، فسأله أن يعفيه فأعفاه ؛ وقال : والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجاء عدى ، ولكننه عرض به تعريضا ، في قصيدته التي مطلعها :

حي الهدملة من ذات المواعيس ؛ إذ يقول فيها :

إني إذا الشاعر المغرور حربني	جار لقبر علي مران مرموس ^(١)
قد كان أشوس آباء فورثنا	شغبا على الناس في أبنائه الشوس ^(٢)
أقصر ، فإن نزارا لن يفاضلها	فرع لئيم ، وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا مالز في قرن	لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك	غلب الأسود ، فهابال الضغاييس ^(٣)

(١) حربني : أغضبني . (٢) الشوس [بالتحريك] : التكبر والنظر بمؤخر العين .

(٣) الغلب جمع أغلب : وهو الغليظ الرغبة ، والضغاييس جمع ضغبوس : الضعيف .

وذكر كثير، وعدى، فى مجلس بعض خلفاء بنى أمية؛ فامتروا فيهما أيهما أشعر، وفى المجلس جرير؛ فقال جرير: لقد قال كثير بيتاً، هو أشهر وأعرف فى الناس من عدى بن الرقاع نفسه! ثم أنشد قول كثير:

أأن زُم أجمال، وفارق جيرة وصاح غراب البين، أنت حزين؟
خلف الخليفة: لئن كان عدى بن الرقاع أعرف فى الناس من بيت كثير،
ليسر جن جريرا، وليجمعنه، وليركب عدى بن الرقاع على ظهره! فكتب إلى واليه بالمدينة: إذا فرغت من خطبتك فسل الناس: من الذى يقول:

أأن زم أجمال، وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين
وعن نسب ابن الرقاع. فلما فرغ الوالى من خطبته، قال: إن أمير المؤمنين
كتب إلى أن أسألكم من الذى يقول:

أأن زم أجمال الخ. قال: فابتدروا من كل وجه يقولون: كثير، كثير.
ثم قال: وأمرنى أن أسأل عن نسب ابن الرقاع؛ فقالوا: لا ندرى! حتى قام
أعرابى من مؤخر المسجد فتمال: هو من عاملة!

ومن أعجب العجب، أن يقول نوح بن جرير لأبيه: يا أبت، من أنسب
الشعراء؟ فيقول له: أتعنى ما قلت؟ فيقول: لا، لى لست أريد من شعرك،
لنما أريد من شعر غيرك. فيقول جرير: أنسب الشعراء ابن الرقاع فى قوله:

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا فيه المشيب لزرت أم التماسم
وكأنها وسط النساء أعارها عيفيه، أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنمت فى عيئه سنة، وليس بنائم
ما كان يبالى أن لم يعل بعدها شيئاً!!

وأن يقول جرير: سمعت عدى بن الرقاع ينشد:

ترجى أغن كأن لبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه فقلت: بأى شىء يشبهه ترى! فلما قال: قلم أصاب
من الدواة مدادها.

رحمت نفسى منه!

وأنشد عدى بن الرقاع الوليد بن عبد الملك قصيدته ، التي منها البيت السابق ،
والتي أولها :

عرف الديار توها فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها
إلا رواكد كلهن قد اصطلى حمراء أشعل أهلها إيقادها
كانت رواحل للقدور ، فعريت منهن ، وامتلب الزمان رمادها

وعنده كثير ، وكان يبلغه عن عدى ، أنه يطعن على شعره ، ويقول :
هذا شعر حجازى مقررور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك . فلما انتهى عدى
إلى قوله فيها :

وقصيدة قدبت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
قال كثير : لو كنت مطبوعا أو فصيحاً أو عالماً ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ،
فتحتاج إلى أن تتمومها . ولما قال :

نظر المشقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها
قال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون
مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعنت ، حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لى ازدادها
فقال كثير : كذبت ، ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك
عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ؛ وما كنت قط أحق منك الآن
حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر ، وقطع بعدى بن الرقاع
حتى ما نطق .

وروى ابن عبد ربه - فى نسق رائع ، وخبر طويل - عن الأصمعى قال :
تصرفت بنى الأسباب إلى باب الرشيد مؤملاً للظفر ، وطاولتنى الغايات بما كدت
به أن أصير إلى قلالة ؛ فلم نشعر أن خرج علينا خادم فى ليلة نثرت السعادة والتوفيق
فيها الأرق بين أجفان الرشيد . فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت :
الله أكبر ! رب قيد مضيقه قد فكك التيسير للأنعام ! أنا صاحبك . فأخذ

بيدى ، فواجهت الرشيد فى البهو جالسا ، كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بنى الخادم حيث يسمع تسليمى ، ثم قال ؛ سلم ، فسلمت ، فرد ، ثم قال ؛ تنحّ ليسكن قليلا إن وجد لروعته حسا ، فتمعدت حتى سكن جأشى قليلا ، ثم أقدمت فقلت ؛ يا أمير المؤمنين ، إضاعة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليهما من اعتراض أذية له . تسألنى فأجيب ، أم أبتدىء فأصيب ، يمين أمير المؤمنين وفضله ؟ قال ؛ فتبسم الفضل ، ثم قال ؛ والله يا أمير المؤمنين لقد أقدم مبرزا محسنا فى استشهاده على براءته من الخيرة ، وأرجو أن يكون محسنا ؛ قال ؛ أرجو . أدن ، فدنوت ، فقال ؛ أشاعر أم راوية ؟ فقلت ؛ راوية يا أمير المؤمنين ؛ قال ؛ لمن ؟ قلت ؛ لذى جد وهزل ، بعد أن يكون محسنا . قال ؛ والله ما رأيت أدعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان فتنقه الأذهان منك ! ولئن صدرت حامدا أثرك ، لتعرفن الأفضال متوجها إليك سريعا . قلت ؛ أنا على الميدان يا أمير المؤمنين .

وبعد اختبار دقيق وحوار ممتع لا يتطلبهما صميم الموضوع ، قال ؛ أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك ؛ عرف الديار توها فاعتادها . فقال الفضل ؛ يا أمير المؤمنين ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه ، لاستماع الكذب ؛ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ؟ قال ؛ ويحك ! إنه أدب ، وقبلما يعتاض مثله ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللمتمدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية ، قال الفضل ؛ قد - والله - يا أمير المؤمنين ، شاركتك فى الشوق ، وأعتك على السوق ؛ ثم التفت إلى الفضل وقال ؛ هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى إليك ، فر - ويحك - فى عنان الانشاد ، فهى ليلة دهرك ، لا تنصرف إلا غانما . قال الرشيد ؛ أما إذ قطعت على ، فأحلف لتشركنى فى الجزاء ، فما كان لى فى هذا شىء لم تقاسمنيه . قال الفضل ؛ قد - والله - يا أمير المؤمنين ، وطنت نفسى على ذلك متقدما ، فلا تجعله وعيدا ؛ قال الرشيد ؛ لا أجعله وعيدا . قال الأصمعى الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتناظران فى المواهب لى ، فمررت فى سنن الانشاد ، حتى بلغت إلى قوله ؛

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
 فاستوى جالساً ، ثم قال : أتخفظ في هذا شيئاً ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ،
 كان الفرزدق — لما قال عدى : تزجى أغن كأن إبرة روقه — قال لجرير : أى
 شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً ؟ فقال جرير : قلم أصاب من الدواة مدادها ؛ فارجع
 الجواب ، حتى قال عدى : قلم أصاب من الدواة مدادها ، فقال لجرير : ويحك
 لسكان سمعك مخبوء في فؤاده ! فقال جرير أسكت شغلنى سبك عن جيد الكلام^(١) .
 ثم قال الرشيد : مر في إنشادك ، فضيت حتى بلغت قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها

قال الفضل : كذب وما بر ؛ قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا ؟ قالت :
 ذكرت الرواة — يا أمير المؤمنين — أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! قال :
 مر في إنشادك ؛ فضيت حتى بلغت إلى قوله :

لم تأت الأسلاب إلا عنوة غصبا ، ويجمع للحروب عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بعزم وحزم ، لا يعرض بينهما وكل ولا استدلال ؛
 قال : فماذا صنع ؟ قلت — يا أمير المؤمنين — ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله
 الله ؛ قال : أحسبك وهمان . قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردنى
 أمير المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكننى أعلم أن الرجل م يكن يخطئ
 في مثل هذا . قال الأصمعي : وهو — والله — الصواب . ثم قال : مر في إنشادك
 فضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعليت ، حتى ما أسائل عالما عن حرف واحدة لى أزدادها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أن جريراً لما أنشد عدى
 هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين . . .

[١] رويت في هذا رواية أخرى آتفا عن الأغاني ، وهى عندى أرجح مما هنا ، وإن صححوها
 بأن الممدوح شغل عن الشاعر بعد أن أنشد الشطر الأول فترة تسع سؤال الفرزدق وجواب جرير .
 والله أعلم .

قال الرشيد : والله إنه لنقى الكلام فى مدحه وفى تشبيهه ؛ قال الفضل :
يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا
قال الرشيد : بلى ، قد أحسن . ثم التفت إلى فتال : ما حفظت له فى هذا
الشعر شيئا حين قال :

أطفأت نيران الحروب ، وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادهما
قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين ، أنه حك يمينا بشمال متدحا بذلك ،
ثم قال : الحمد لله على نعمة الإسلام .

وبعد أن استنشده لذى الرمة ، وللشماخ ، قال : أمسك . ثم قال : استغفر الله
(ثلاثا) آخر قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً فى أدبك ،
معبراً عن سرائر حفظك ؛ ثم التفت إلى الفضل فقال : لكلام هؤلاء ديباج
الكلام الحسن ، وإنه يزيدك على التقدم جدة وحسناً ؛ فإذا جاء الكلام المزين
بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الاسماع ، لذى القلوب له
رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! ثم قال : يعجبني مثل قول مسلم فى أبيك
وأخيك ، مخاطبا حليته ، مفتخراً عليها بطول السرى فى اكتساب المغانم :

أجدك ، هل تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك يفسر
صبرت لها ، حتى تجلت بغيرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرايت ! ما ألطف ما جعلهما معدنا لكمال الصفات ومحاسنها ، ثم التفت إلى
وقال : أجد ملالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا
هذه ، فأقم عنده ، مسامراً له ... ثم قال : يا غلام ، على بصالح الخادم ؛ فقال :
يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم فى ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس
أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين .
فدعا له بتسعة وعشرين ألفاً يقبضها من غده . قال الأصمعى : فما صليت الظهر ،
إلا وفى بيتى تسعة وخمسون ألف درهم !

أما بعد ، فتمت هذا الحديث الذى ليس لى فيه إلا الجمع ، لا أقصد من ورائه أن أترجم لعدى ، فما أكثر تراجم الرجال فى السوق ! ، وإنما قصدت إلى نشر ما حواه ، من رائع الأدب ، وبارع النقد ، وعناية خلفاء المسلمين بهما ؛ وانفاقهم فى ذلك على اختلاف مذاهبهم فى الدين والسياسة والاجتماع والثقافة ؛ وحذقهم للنقد دراية ورواية ؛ وبصرهم بسمات الجمال الفنى فى قديم الشعر وحديثه ، بصر الباحث الخبير الذواق .

فهذا الوليد بن عبد الملك ، أوسع بنى مروان رقعة ملك ، وأوفاهم حظاً من الشعراء ، لا يصرفه تعريض جرير بابن الرقاع . ولا نقد كثير له فى مجلسه وانقطاع عدى وهزيمته ، عن إدنائه ، والدفاع عنه ، والاختصاص به ، لما يلبسه من قوة فنه ، فى مدحهم ، وثناء موتاهم ، كما قال .

وهذا الرشيد ، خصم الوليد وقريعه ، وجبار بنى العباس ، لا تصرفه العداوة الطبيعية بين أمية وهاشم فى القديم والحديث ، ولا يصرفه وزيره الفضل بن يحيى بلومه الذى لا يخلو من عنف ، عن سماع قصيدة عدى فى مدح خصمه الوليد ، ولا عن روايته هو نفسه ، لتلك الكلم النواذب ، التى أرسلها الوليد عقب سماعه لكل بيت نادر ، وللحوادث التى اتصلت ببعض أبيات القصيدة ؛

يقول الرشيد للأصمعى : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توها فاعتادها . فيقول الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟ ! لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ! فيقول الرشيد : ويحك ! إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ، ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللممتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية !

ثم يعلل الرشيد مبلغ عنايته بالشعر القديم ، بهذا الحكم العادل القاطع : « لكلام هؤلاء » التمدامى ، ديباج الكلام الحسن ، وأنه يزيدك على القدم جدة . ثم يقول عن شعر الحديثين : « فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك التحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الأسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! » .

أنظر إلى هذه الدقة ، وهذا النفاذ ، ثم أخبرنى : أليس كلام الملوك ، ملوك الكلام ؟ !

في صحب المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

حينما نستنيء التاريخ نجد أنه قد ضم في صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز؛ ويستوى في ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب، فنحن نجد في الأنبياء مكفوفين مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام. نعم قد وقع خلاف في جواز العمى على الأنبياء، فمنعه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك، ولأنه لم يرد نص قطعي الدلالة بعمى إسحق وشعيب، ويقول البعض الآخر: فكيف يقول الله عن يعقوب: «وابيضت عيناه من الحزن»، وقوله عنه: «فارتد بصيرا»؟. إن هذا يفيد سبق العمى، ولا ينفع التأويل بأن قوله «ابيضت عيناه» كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع.

ومن أشراف العرب وعظماهم قبل الإسلام مكفوفون منهم عبد المطلب ابن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وقلاب بن مرة ومطعم بن عدى، وغير هؤلاء.

ومن كبار الصحابة في الإسلام مكفوفون، نذكر منهم أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وكعب بن مالك الأنصاري وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة ومخرمة ابن نوفل وعبد الله بن عباس؛ وتراجم هؤلاء مبسوبة في مختلف المصادر القديمة والحديثة، وهي تفيض بالمآثر والمفاخر.

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبي رباح وأبي هلال الراسبي وقتادة بن دعامة وأبي عبد الرحمن السلي، وهؤلاء معارف في تاريخ الإسلام وليسوا بنكرات!...

ومن كبار الأئمة والفقهاء وللعلماء مكفوفون، وحسبك أن تتذكر هنا هذه

الاسماء الخالدة : الشاطبي ، الترمذى ، النيسابورى ، العكبرى ، الشنترى ، أبو زكريا البغدادي .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون حسبنا منهم هنا علما لا يخفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعرى وبشار بن برد .

وفي التاريخ القريب نجد كثيرا من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإبيارى ومحمد المعداوى ومحمد حسنين البولاقى (والد المرحوم أحمد حسنين باشا) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابغين نجد مكفوفين ، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذى لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولا عن الإنتاج الأدبى الهائل ، ولا عن مركز الوزارة نفسه . . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين ، فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع فى دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات ، وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلائى ، كان زميلا لنا فى الدراسة الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى إنجلترا يتلقى العلم فى معاهدها ، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة فى سبيل الحصول على درجاته العلمية الفائقة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الاسماء بعد أن نظمناها ، وقد كانت ماثلة متفرقة فى شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جميعاً ولدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم ولد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يعدون فى ثبت المكفوفين .

* * *

وكف البصر كما نريد أن نؤكد فى الأذهان ليس إلا نقصاً حسيماً فى ناحية من نواحي 'الجسم' ، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلاً أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف

لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه في حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللس ، والسمع والنطق والفهم ، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة يلبسها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ، ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والتجوى الخفية ، ومن حدة نطقه أنه يكون جهير الصوت يسمع الجم الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، ويتمتع الأسباع بنبراته ، ومن هنا قال إبراهيم بن هانيء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت ، ، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأعجل في التحصيل وأدق في التمييز العقلي من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون في الخياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تبياناه في مستقبل الكلام .

واقعد قال صلاح الدين بن أيوب الصفدي : « قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكي (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال :) والسبب الذي أراه في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفي المثل : أحفظ من العميان ؛ أوردته الميداني في أمثاله .

ولا يحسن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلم أسبق من سواهم في الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سلبت أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنني منعت النظر إلى ما يلهي . وعوضت الفكرة فيما يجدي . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عيني نورها ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي ، وعتملى غير ذى دخل وفي فمى صارم كالسيف مأمور
وقال الحريري الضرير :

فإن عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ، ولكننا أرى نور عيني لقلبي سعى

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته فكان ذلك من الله خير تعويض ! . . . وقال أبو على الأعمى :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب
وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يذهب الله من عيني نورهما فإن قلبي بصير ما به ضرر
أرى بقلبي دنياى وآخرتى والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

وما يركى هذه البصيرة فى الأعمى ما جاء على لسان النبوة فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، وهى فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فتمال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قد قدرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ؛ فأعطى ناقة عشرام . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فتمال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذى قد قدرنى الناس . قال : فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ؛ فأعطى شاة والدأ ، فأنج هذا وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بنى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بغيراً أتبلغ عليه فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال (الملك) له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس

فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كإبراهيم عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيبته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله لى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبك !...

أرأيت كيف أجدى المعروف فى المكفوف ، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قريفيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخرون ؟ ... أليس فى ذلك إيماء من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟...

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع لى النكاح ، ويكتب ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويجتهد فى الأوقات والأوانى ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره ، ويصح أن يكون وصياً ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائداً ، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً .

واختلف القدماء فى رؤية الأعمى للنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذى يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبصار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمة بمناعة من أن يحلم أحلاماً سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

الإسلام والاستراكية

لمحاضرة الأستاذ سعيد زابير

قد تقدمت الصناعة في ظل الحضارة الغربية المادية ، غير أن العبقريّة المحمدية التي لا نظير لها لم تغفل مسائل العمل والصناعة ورأس المال ، وقد حرم الإسلام الربا وبهذا هاجم بعنف الرأسمالية . كما أنه فرض بمقتضى قانون الزكاة ضريبة على الأغنياء يؤدونها لمصلحة الفقراء . وقد كانت الأرض على عهد محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مورد للعمال ، وكانت الأرض في ظل الإسلام — كما تبين — ملكاً للأمة . وأما الصناعة القليلة التي كانت قائمة قبل بداية عصر العلم فقد كان يتولى أمرها إما الفقراء بأنفسهم وإما العبيد خدمة لسادتهم الأوتوقراطيين الطغاة . وكان الذين يتولون أى شأن من شؤون التجارة أو الصناعة — قبل مجيء الإسلام — ينظر إليهم نظرة احتقار من قبل الأرسقراطيين ، وأما العبيد الذين كانوا يمثلون حينئذ الطبقة العاملة فقد كان سادتهم الرأسماليون يعاملونهم معاملة العبيد ، وقد مارس النبي بنفسه التجارة قبل البعث بالرغم من أنه سليل أنبل أسرة عرفتها العرب ، وكان محمد باعتباره النبي الصادق المعترف به ، سيد الجزيرة العربية والعالم الإسلامى قاطبة ومع ذلك فقد كان يخطط ثوبه ويخفف نعله ، وأجرأ خطوة اتخذها نحو الاشتراكية الصناعية تتمثل فى أنه رفع منزلة العبيد إلى مستوى الأحرار ، وجعل الرقيق أنصاره ورفاقه ، وأمرهم على الجيوش وغيرها وصاروا فى كثير من الأحيان أعضاء فى الأسرة التي كانت تعاملهم قبل الإسلام معاملة الأنعام ، كما أضخى العبيد شركاء لسادتهم فيما يملكون . والواقع أن الخطوات التي اتخذها محمد لتحسين أحوال العمال على عهده لم يتجاوزها أحد فى التاريخ الاقتصادى للعالم ، فعمال التمرن العشرين الذين يعدون العمود الفقرى للتقدم والرخاء الذى تتمتع به أوروبا الماركسيه ... وعمال المستعمرات البريطانية وعمال التعدين والمناجم فى الترنسفال ... يعاملون أسوأ مما كان يعامل أولئك الذين كانوا يعرفون بالرقائق فى ظل الفترة الاشتراكية من الحضارة الإسلامية . والحق أن نظرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الاشتراكية كانت أسمى وأنبل ، وأن الأسلوب الذى اتخذته ليثبتها فى النفوس لتكون عملية أيسر

من الأسلوب الذى لجأ إليه زعماء الاشتراكية فى الوقت الحاضر . على أن مفتاح الاشتراكية المحمدية هو التقدم الروحى والأدبى للشعب ، فاشتراكيته كانت أخلاقية فى حين أن الاشتراكية الحديثة مادية . والاشتراكيون يطالبون اليوم بأن تنقل ملكية الأراضى ورءوس الأموال إلى الدولة فوراً معتقدين وقد تملكهم الحماس أنه من الميسور تحقيق هدفهم ، وأنهم عندما ينتجون فسيبتج عن ذلك تحسين مستوى حياة الشعب ، والواقع أنهم مخطئون فى زعمهم فهم لا يدركون أن خصومهم تؤيدهم قوة عسكرية أشد كما تبين من مسلك الحكومة المسماة بحكومة الأحرار لإزاء عمال السكك الحديدية المضربين ، وحتى إذا نجح الاشتراكيون عن طريق اللجوء إلى العنف وإثارة العواطف كما فعلوا فى فرنسا منذ حين فلن يكون فى وسعهم تحسين حال الشعب أو السير قدماً بقضية الاشتراكية طالما لم يسم رجال الدولة من الناحية الختامية ، فالتم تألف الدولة من رجال يحترمون حقوق سيادة الأفراد وما لم تكن عواطف الانسجام المتبادل والأخوة بين الأفراد هى الأساس للاشتراكية الحققة فلن يتحقق قسط حلم الاشتراكيين المحدثين . ولذا حول زمام السلطة على الأراضى ورءوس الأموال إلى المجتمع أو الدولة المؤلفة من أفراد يعتقدون فى الحقوق والمزايا الخاصة والذين ليس فى وسعهم القضاء على أفكار العنصر والطبقة فستصير أحوال الشعب حينئذ أشد سوءاً مما هى عليه فى الوقت الحاضر . ولذا ففكرة تحويل الأرصدة ورأس المال إلى الدولة لا تكفل وحدها صلب إدارة الدولة بالصيغة الاشتراكية ، أو ليست جميع الأراضى فى الهند ملكاً لحكومة الهند ؟ أو ليست أسلاك البرق والمسرة وبعض خطوط السكك الحديدية ملكاً للدولة ؟ أو ليست دولة الهند تستخدم عدداً كبيراً من العمال فى أعمال الرى ومصانعه حيث يجرى ذلك على أسس تجاريه ؟ أو لم تكن معظم الصناعة ورأس المال فى يد الدولة إبان نظام الحكم التركى العتيق ؟ بيد أن ملكية الأرض والملكية الصناعية وملكىة الرأسمالية فى تركيا لم تجد شيئاً فى خلق نوع من الدولة الاشتراكية وحتى لم تخف حدة أشد النظم الأوتوقراطية فى هذه الدولات . ذلك لأن الاشتراكية الحققة ولأن الضرورى فى الاشتراكية ليس تأميم Nationalisation الأراضى والأموال لحسب بل تأميم الدولة ذاتها أيضاً . غير أن ذلك يتطلب

عبقرية نبي بحيث تكون مرنة وقوية كعبقرية محمد عليه الصلاة والسلام حتى يتسنى لها أن تطبق المثل العليا تطبيقاً عملياً . وهناك كثير من المصلحين الذين يظنون يعظون الناس طول حياتهم إلا أنهم يعجزون عن إغراء فرد واحد في العمل وفقاً لما يقولون . ولقد سمعنا في جيلنا هذا عظات وخطباً ألقاها ملوك وأشخاص باركوا السلام وتغنوا باستمراره ومع ذلك لازلنا نرى الدم الإنسانى يراق كأنه المساء على أيدي محبي السلام ودعائه . وقد دأبت الأمم على أن تغلق أعينها عن مسارح المذابح التي يقوم على قربانها الضعفاء من الأطفال والنساء ، ثم تظن أنها أتمتت شرفها بما أبدته من عدم اكتراث يدل على الجبن ، ويرى فريق من هذه الأمم أفراداً عاجزين قد سلبوا في رابعة النهار بأيدي قراصنة أشداء قساة ، ومع ذلك يدير هذا الفريق من الناس وجوههم معللين أنفسهم بأنه لم يكن لهم يد في هذا الاثم .

وأوروبا اليوم مليئة بالأمم التي إما ترتكب بنفسها الجريمة أو تشارك غيرها فيها . ومثل هذه الأمم التي لا تحترم حقوق الآخرين ولا تحترم التزاماتها ووعودها لا يمكن أن ينتظر منها العمل على تقدم المثل العليا النبيلة كإقرار السلام العالمى أو دعم الاشتراكية التي تنشر المساواة في العالم ، وأنا على يقين من أن حديث الاشتراكية الذي يردده أهل أوروبا ليس إلا أسطورة لا جدوى من ورائها كأسطورة السلام . فالميلول المادية التي تموج في العصر الحاضر تروج في أذهانهم الأهواء التي تعد مناقضة لفكرة الاشتراكية على نحو ما تناقض السلام ، وأوروبا التي تسعى إلى الترف وتميل إلى عدم الاعتراف بالالوهية لن يكون في وسعها نشر السلام والاشتراكية ، إذ أن كلا منهما يتطلب أساساً وقوة روحية ، وهما عما تفقر إليه أوروبا ، وما معظم الصحائف الذهبية لتاريخ هذا العالم إلا أسفار للنصر الأدبى الذى ظفرت به آسيا ، أما أوروبا فقد اخترعت أدوات حديثة عبقرية غايتها هلاك الإنسان ، في حين أن آسيا أنجبت تلك الأرواح الخالدة التي أنقذت الجنس الإنسانى بأسره . وقد كان الغزو الأوروبى لآسيا قائماً على أسنة الرماح ، أما سلطان آسيا على أوروبا فقد تم بفضل تلك العقول الكبيرة التي أحدثت ثورة في الأخلاق Ethice ورفعت مستوى المثل الإنسانية حتى بلغت مرتبة الكمال (يتبع)

العظمة والخلود

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

حب العظمة نزوع إنسانى قديم ، جبل عليه ابن آدم منذ أحس بحاجته إلى نضال العيش ، وسجال الكسب . وعراك المادة ، والميل إلى الغلب ، والرغبة فى السيطرة ، والطموح للتملك والافتناء . . . وقد صحب هذا كله إعجاب المعجبين بالتفوق ، وتصفيقهم للسابق ، وإكبارهم للبرز ، وتعظيمهم للمتقدم . . . وما زال هذا المعنى يتدرج مع الزمن ، وينمو على الأيام ، حتى ازداد الإقبال عليه ، والطمع فيه ، وود الناس أن يكون تطلع الأنظار إليهم دائماً ، وحديث الأفواه عنهم غير منقطع . . . وهنالك فسكروا فى أن تقترن العظمة بالخلود ، فرغبوا فى امتداد جبل الحياة ، وتراخى أجل الموت الذى يدر كونه من غير شك ، ويشاهدونه متكرراً متجدداً . . . وقد نشأت عن ذلك خرافات كثيرة ، وترهات متنوعة ، لا يتسع المجال لسردها ، ولا لطول الحديث عنها ، إلا أن عتميدة البعث التى جاء بها الإسلام كانت قضاء على ذلك كله ، وتهذيباً للخيال المحلق فيها ، وإرضاء للنهم فى البقاء وصار المسلم يطمئن الاطمئنان الصحيح إلى الموت ، لأنه يعلم أنه حياة من طراز آخر ، وخلود على مثال لم تألفه البشرية ، وأكثر القرآن الكريم من حديث البعث والنواب والعقاب ، والمجازاة على الأعمال ، وتركز الإيمان فى النفوس على أساس أنه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وجاء فى وصف الآخرة ما يفيد أنها دار البقاء والقرار . وأن الدنيا دار الفناء والفرار ، وأكثر الشعراء من جريان ذلك على ألسنتهم ، ودورانه فى نيايا قصائدهم . . إلا أن العتول قد تضاربت فى حتمية العظمة ، واختلفت فى بيان معناها ، ويظهر أن تنوع البيئة والزمان والمكان ، كان من عوامل تباين وجهات النظر فى ذلك . . حتى كان فى اللصوصية عظمة ، وفى الكبرياء عظمة ، وفى العدوان على الضعفاء ، واغتيال الأبرياء ، والتطاؤل على الشرفاء عظمة ، كإن الألباب صدئت ، والحجاضل

وميزان الأشياء أصابه خلل ، لأن الرذيلة لا تكون فضيلة ، والنور لا يكون ظلمة ، إلا حين تنعكس القلوب ، وتلتوى الأفئدة . وتتحول الأحوال ... وحين أطل فجر الإسلام على المسلمين وكانت رؤوسهم لا تزال - على جاهليتها - متأثرة ببعض دواعي « العظمة الكاذبة » ، مما كانوا يزعمونه من أسبابها ، ويظنونه يجعلهم من أربابها جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخذاً بتلايبب آخر يشكوه إليه ، لأنه يكثره بماله ، ويفاخره بنفسه ، ويتطاول عليه بماضيه في الكفر ، وسوابقه في الجاهلية ، وقد ظن أنه حين يرفع أمره للرسول الكريم ، سيقضى له ، وينصره عليه ، ولم يدر بخلده أن الدين الذي سوى بين الناس في التقدير ، ووفق بينهم في الاعتبار ، لم يجعل لعربي فضلاً على عجمي إلا بالتقوى ، ولم يجعل خيارهم في الجاهلية خياراً في الإسلام إذ لم يضموا إلى أحسابهم الأولى ، وميزاتهم السالفة « الفقه في الدين » . وهو بالطبع لا يقصد أن يكون الإنسان عالماً وكفى .. ولكنه يقصد أن يكون العلم سبيلاً إلى العمل ، ووسيلة إلى التنافس في الخير ، والتسابق إلى المجد ، وفهم الذين اعتنقوا شريعته صلى الله عليه وسلم أن العظمة في الطاعة ، والفخر في الامتثال « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » . وكلها أحسوا من أنفسهم أنهم يلتزمون الجادة ، ويسرون على صراط ربهم المستقيم ، ازدادوا زهواً وخيلاء ، وتناسوا ما في الدنيا من زخرف ، وما في أهلها من مظاهر ، وما يحيط بها من فتنة وقالوا ما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا هم إن العيش عيش الآخرة » .

وفكرة خلود الخلق في الدنيا بما قدموه من أعمال ، وما قاموا به من جهود ، وما بذلوه من معروف ، وما ادخروه عنده سبحانه من طاعة .. ففكرة لم ينكرها الدين ، لأن يوم القيامة وإن كان ظرفاً للجزاء ، وبجلاً للثواب .. إلا أن تردد اسم الموت ، وخطوره بالبال ، وجريانه على اللسان ، إلى جانب كونه نوعاً من الجزاء العاجل ، يغرى بالخير ، ويدفع إلى العمل الصالح ، ويوجب في صرف الجوارح لله الذي خلق السموات والأرض .

وكما تكون العظمة في العمل للآخرة تكون كذلك في العمل للدنيا ، غير أن عمل الدنيا العظمة فيه زائلة ، والحديث عنه ينتهي بنهايتها ، ويزول بزوالها ، ولذلك يرشدنا جل جلاله ، إلى العمل الذي ينفع ، والذخر الذي يدوم ، والشرف الذي

يبقى ، إذ يقول « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » . وربما مر بالخاطر أن ثواب الأعمال على قدر ما يحصل منها من فائدة في الدنيا . أما أعمال الآخرة فأمر تعود على العامل وحده ، وأجدر بها ألا تكون من العظمة في شيء . والصحيح أن العمل الصالح في ذاته يعظم به الأجر ، ويزيد به القدر ، ويكثر به الذخر ، وأفضل الأعمال في باب الطاعة ، ما كان أكثر عائدة على الناس ، لأن الأصل في التسكليف أن يتهذب بها المسكلف ليكون إلى الملائكة أقرب ، وإلى الخير أشد ميلا .

وبعض الجاهلين يروق له الخلود مطلقا بصرف النظر عن نوعه من الخير أو الشر ، ولا يعنيه من العظمة ، إلا أن يكون حديثا معادا ، وذكرى منقولة ، متناسيا أن خلود الشر شر الخلود ، وترداد الذكر بالسوء من أخبث أنواع السوء ، فاللهم وفقهم لفهم الأشياء ، وارشدهم إلى الصراط السوى ، وبصرهم بالحقائق ، وجنهم من الق الشيطان ، واهدهم فإنهم لا يعلمون ؟

من الشعر حكمة

قدم العلاء بن الحضرمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تروى من الشعر شيئا ؟

قال : نعم !

قال : فأنشده :

تحب ذوى الاضغان تسب نفوسهم	تحبك القربى فقد ترقع النعل
وإن حسدوا بالكفر فاعف تسكرا	وإن غيوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه	وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

عجالات مع النفس :

انى صائم .. !

لفضيرة الأستاذ طامل محمد عجمونه

المدرس بالأزهر

هذا هو المضطرب الصاحب ، وذاك هو التكالب المريح ، والتطاحن الدائب ،
فانزل إليه وساهم فيه ، وألق دلوك في الدلاء ، وخذ في العلائق ، وتعلق بالأسباب :
أسباب التشايق الذى خدع الناس ؛ واصطنعه بعضهم ، وعاش منه وعليه وله ...
هكذا هجست وتلظت النفس ... غير أنى وقفت وهى تراودنى وتطارحنى
الهمهمة ، وكادت قناتى تلين حين أشارت إلى أناس يعدهم الناس من الأختيار ،
ويحسبهم الغي من الاتقياء .

وكادت قناتى مرة أخرى تن ...

ثم عدت إلى النفس أسمع حسيسها ولا أجيب ، وتغلى أهواؤها ولا تفور
وجعلت أتصنع الوعى عنها والفهم ... وجعلت تؤزنى أزا وتهزنى هزا ، وأخيرا
قلت لها بعد أن قالت لى :

أيتها النفس : أجملى شغفاً ، وهونى عليك . أيتها النفس : « إنى صائم ،

— نعم ... أنت صائم ...

أعرف هذا من حرمانى . تمسك عن الطعام والشراب ؟

وضحكك من نفسى وأثخنيتها باللوم ، وأرهقتها من سخرياتى ، ودميت جوانبها ،
كأنما أحارب عدوا يشهر سلاحه فى وجهى .

— أيتها النفس ، صومك عن الطعام والشراب بعض ما فى الصوم من تكليف

أيتها النفس : لا حاجة لله فى هذا اللون من الحرمان ، أن جريت فى ميدان
تخب فيه غيرك ووضع .

أيتها النفس : لا تذكرى الأهواء وأنت صائمة ، ولا تجرى وراء الخدع وأنت صائمة ، ولا تخوضى فى حديث اللاهين وأنت صائمة ، ولا تمدى عيناً وأنت صائمة ، ولا تجهرى أو تخافى بضغينة وأنت صائمة ... ولا ولا ...
وهنا شذعت النفس قائلة : قدك قدك :

— كنت أحسب الصوم ؟ ...

ولم أدعها تهجس بما عندها من باق وما فى قراراتها من قول ... بل رحت فى نشوة المقتصر أغرقها فى خضم من معانى الروح وصفاء القلب ، وأسوق إليها طرائف وطرف من طيب بالغ فى العظة والتذكير حتى إذا اطمانت. وأخذها صحو الاعتبار كسرت من شوكتها وألقت إلى السمع .

— أيتها النفس : نهارى نهار الناس وليلي ليلهم ، ولكن وراء الليل والنهار صوم تمرن عليه فى شهر لتذكره فى كل شهر ولتعمل به آناء الليل وأطراف النهار .
ذاك هو الصبر على المسكاره والترفع والإبقاء على نعمة العقل وحسن الرضى وصحة الرأى ، وتوثيق العقيدة ، والتعلق بحب الله ورسوله ، وإفساح الصدر ، حتى يطرد منه ضيق الجاهلية ، ودعوة الحق ، وغرور المدعين ، وصخب المبطلين .

— أيتها النفس أنى صائم .. وأنت ..؟

— إني صائمة ..

— تصومين أيتها النفس ؟

— نعم أصوم النهار وأقوم الليل !

— يا عجبا ..!

— ولم العجب ..؟

— أعرف النفس أماره بالمطامع ، هماسة مشاءة إلى كل ما يردى ..

— تعبر فُني ولكن ؟

— ولكن ماذا ..؟

— إنه الصوم ، وإنما فطرة طيبة ، إذا فُتحت أبوابها غُلقَت منافذ الشيطان وقطعت دابر الفتنة ، واطمانت الروح من غاشيات قاسية قاصمة .

وصامت النفس أبد الحياة ، وحـرّمت على صاحبها مسالك الطغيان والجور
وفي زحمة الانتصار على النفس ، تنفست وتلفت فإذا الحياة جميلة ، وإذا طوب
الصوم تلتفى ، ولا أجد في حرمانه غير طلاوة الهدوء ، وسكينة الاطمئنان ، وراحة
الآمل ، وبشرى السلامة من عقاب الله ، وفي ظل اللياذ بعفوه ورجاء مشوبته ،
والطمع في رحمته التي وسعت كل شيء .

أيتها النفس : « أنى صائم » .

أيها القلب : وأنت طول الدهر صائم ، فألى مائدة الروح . إليها . إليها ..
وأما حاجات النفس ، فألى أطواء الحرمان ، حتى تلقى الله الذى يتولى السرائر ،
ويضع الموازين فى ملتقى لا ينفع فيه إلا سلامة القلب ، وصوم الدهر عن زیوف
زُخرفتها أنامل الخدع ، ورقشتها ريشة لَوْن فى طلائها ، فتانُ الأبالسة ،
وُمُفتن الشياطين .

أيتها النفس .. هل تلاقينا .. ؟

أكبر الظن بل عين اليقين أنى وإياك لـمـتـلـفـان ..

أيتها النفس هذا حذاء الصائم فى بیداء الحياة ، ولعلك تذكرين غنوة الصحراوى
الذى صحب ناقته إلى هدف يحبه ، وسمع حنين الناقة إلى ما خلفته ، فراح يشكو
وهى تشكو ... وراح يحن وهى تحن ، وكل يغنى على ليله ..

هوى ناقتي خلنى وقداى الهوى وإنى وإياها لـمـتـلـفـان

أيتها النفس هنيئاً لى ولك صوم شهر ومران دهر ...

هنيئاً مريئاً غير هاجسات مخامرة أيتها النفس « إنى صائم » ؟

لغويات

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

أما بعد ، وأما بعد ، وبعد .

تورد (أما بعد) في معرض الانتقال من موضوع إلى موضوع . قال الزجاج ^(١) : « إذا كان الرجل في حديث فأراد أن يأتي بغيره قال : أما بعد . ويذكرها علماء ^(٢) البديع في الكلام على الاقتضاب ، وهو الانتقال من حديث إلى حديث لا يلائمه . والاقتضاب مذهب الجاهليين ومن يليهم : لا يتأفقون في الحديث ، ولا يتكلفون مراعاة التناسب فيه . ويذكر البديعيون : أن الاقتضاب في (أما بعد) يدنو من مقام التخلص ، في أنه يشوبه شيء من المناسبة . واشتهر إيرادها في الخطب بعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - ، وكذا في صدور المصنفات والرسائل . قال ابن حجر : « ولا ^(٣) تختص » (أما بعد) بالخطب ، بل تقال أيضاً في صدور الرسائل والمصنفات .

وقد وردت (أما بعد) في خطب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ورسائله . وعقد البخاري في أبواب الجمعة من صحيحه باباً أورد فيه ستة أحاديث فيها أما بعد . وفي فتح الباري : أن هذا اللفظ ورد في أحاديث أخر ، وأن الحافظ عبد القادر الرهاوي تتبع طرق الأحاديث التي وقع فيها (أما بعد) . ومن هذه الأحاديث ما روى عن المسور بن مخرمة : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب خطبة قال : أما بعد . قال ابن حجر : « وظاهره المواظبة على ذلك » وقال ابن ^(٤)

(١) أنظر فتح الباري ، في أبواب الجمعة

(٣) فتح الباري في أبواب الجمعة

(٢) أنظر التلخيص وشروحه في آخر البديع

(٤) أنظر طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٨

السبكي في الطبقات : « ولو ذهبت أسند ما وقع من الأحاديث والآثار في (أما بعد) لطلال الفصل وخرج إلى الملل ، ودخل به السامع في الكلال » .

وقد أخذ العلماء من هذا استحباب (أما بعد) في الخطب والرسائل . قال الزين بن المنير : « ينبغي للخطباء أن يستعملوها تأسيماً واتباعاً » ، وقال النووي في شرح مسلم في أبواب الجمعة في الكتابة على حديث فيه هذا اللفظ : « فيه استحباب (أما بعد) في خطب الوعظ والجمعة والعيد وغيرها ، وكذا في خطب الكتب المصنفة . وقد عقد البخاري باباً في استحبابه ، وذكر فيه جملة من الأحاديث ، وإذا كان التامر لا يخالجه شك بعد هذا الحديث في رفع (أما بعد) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد يدور بخله هذا السؤال : هل قيلت قبله ، وهل يحيط العلم بأول من قالها ؟

ولا يكاد الباحث يرى من يسند أوليتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأن مما لا ريب فيه أنها قيلت قبله ، ولم أقف على نص وردت فيه قبل العهد الإسلامي .

وللعلماء جولات واسعة في أول من قالها ، حتى ليسندوها بعضهم^(١) إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ففي بعض الحديث : لما جاء ملك الموت إلى يعقوب - عليه الصلاة والسلام - قال يعقوب في جملة كلامه : أما بعد ، فإننا أهل بيت موكل بنا بالبلاء . وظاهر أن هذه الحكاية إن صحت ، حكاية لما قاله يعقوب وترجمة لمعناه بالأسلوب العربي ، ولا يلزم أن يكون في لغته ما يقابل (أما بعد) . وقد قيل إن (أما بعد) هو فصل الخطاب الذي أوتيته داود عليه الصلاة والسلام ، وإنه أول من نطق بها . قال ذلك بعض المفسرين أو كثير منهم ، قال النووي : « وقال المحققون : فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل ، وابن الأثير في المثل السائر لا يرى ما يراه النووي ، فهو يقول : ^(٢) « والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه - يريد فصل الخطاب - أما بعد ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر

(١) العيني في شرح البخاري في أبواب الجمعة .

(٢) أنظر النوع الثالث والعشرين .

ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله : (أما بعد) ، وقد يكون ابن الأثير لا يعنى فصل الخطاب الذى أوتيهِ داود عليه الصلاة والسلام .

ويرى بعضهم أن أول من قالها يعرب بن قحطان ، وبعضهم أنه 'قَس ابن ساعدة . وبعضهم أنه سحبان وائل ويوردون له :

لقد علم الحسى اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وسحبان هذا من وائل القبيلة التيمسيّة ، وقد أورده ابن حجر فى الإصابة ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق غير مذكور اسم أبيه . ونسبه صاحب بلوغ الأرب فقال : هو سحبان بن زُفر بن إياس الوائلى وائل باهلة . وأيا ما كان الأمر فلم أر أحداً جعل أباه وائلا ، وإنما يضاف إلى وائل ، فيقال سحبان وائل لا سحبان بن وائل ، ومن ذلك البيتان المشهوران :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العى لما أن تكلم باقل

وقد أردت بهذا أن يتنبه لخطأ توارد عليه الكتّاب فى (أما بعد) ، فهم يقولون : سحبان بن وائل . ترى هذا فى طبقات الشافعيّة وفتح البارى وشرح العيني للبخارى وغيرها . وفى الإصابة أن المعروف من أمر سحبان أنه جاهلى ، ونقل عن ابن عساكر أنه عمّر حتى وفد على معاوية رضى الله عنه ، فإذا صح هذا وصح أنه قال البيت السابق قبل الإسلام برّد فى يدنا نصّ بها قبل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن فى عزو هذا البيت إلى سحبان بعض الشيء ، فإن سحبان مضرى ؛ إذ ينتسب إلى قيس عيلان بن مضر ، فما باله يفخر بالخطبة فى الحسى اليمانيين ، والخطيب إنما يفخر فى العادة بالخطبة فى نادى قومه .

ووردت صيغة أخرى حيث تورد (أما بعد) هى : « وأما بعد ، بزيادة الواو . ومن هذا قول ^(١) الشاعر :

(١) أنظر البيان للجاحظ ١٠٥/٣ مطبعة مطبعة الفتوح الأدبية

وإن جئت الأمير فقل : سلام عليك ، ورحمة الله الرحيم
وأما بعد ذلك فلي غريم من الأعراب ، قبّح من غريم !
وقول صاحب المفتاح : « وأما بعد فإن خلاصة الأصلين ، .

واشتهرت بعد صيغة أخرى أضحت هي المتداولة في الخطب والرسائل
والقصص ، وهي (وبعد) . وقد صارت هذه الصيغة أجرى على الألسنة
وألوط بالأفئدة .

وقد جرى في شأن هذه الصيغة الأخيرة حديث بين الباحثين ، وأنكرها
بعض الفضلاء .

وفي الحق أن هذه الصيغة لم ترد في المأثور من الكلام القديم . وأقدم ما وقفت
عليه في ذلك قول ^(١) الجاحظ : « وبعد فهل قتل ذؤاب الأسد عتية بن الحارث
ابن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبعوهم فلدقوهم ، . وما ينبغي أن يتنبه
عليه في هذا الموطن أن الجاحظ أتى بهذه الصيغة في معرض الفذلكة للكلام السابق
وإجمال ما أسلف من تفصيل . فقد كان يتحدث قبل عن قتال العرب بالليل ، ويرد
فرية من زعم أن العرب لا تعرف هذا الضرب من القتال ، ثم أورد هذا الحديث .
وكذلك ورد هذا اللفظ أيضاً في كلام ابن جنى . ففي ^(٢) الخصائص : « وبعد فقد
صحّح ووضح أن الشريعة إنما جاءت من عند الله تعالى ، وفيها أيضاً ^(٣) : « وبعد
فإذا عرف التوكيد لم وقع في الكلام ، نحو نفسه وعينه وأجمع وكله وكلهم وكلهما
وما أشبه ذلك عرفت سعة المجاز في هذا الكلام ، ويقول ^(٤) أيضاً فيها : « وبعد
فهذا مذهب الشعراء : أن يظهروا في هذا ونحوه شكاً وتخالجاً ليروا قوة الشبه
واستحكام الشبهة ، والقارئ لكلام ابن جنى يرى أنه استعملها أيضاً في الفذلكة

(١) البيان ٩/٣

(٢) ١٥١/١ وهو الجزء المطبوع

(٣) الجزء الثاني (لم يطبع بعد) في « باب المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة ،

(٤) الجزء الثاني « باب لإقرار الألفاظ على أوضاعها الأول ،

كما استعملها الجاحظ . وقد يرى الباحث أن هذا ليس يبعد من الغرض الأصلي للصيغة الأصلية (أما بعد) وهو الانتقال من موضوع إلى آخر ، ففي الفذلكة الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ، وبينهما بعض التغير والاختلاف ، فكأن المتنقل من أحدهما إلى الآخر متنقل من موضوع إلى موضوع ومن حديث إلى حديث .

ويبدو أن العلماء كانوا يرون في هذه الصيغة الحادثة أنها صورة للأصل : «أما بعد» وهم لهذا كانوا لا ينكرونها . ويقول ابن حجر في الكلام على (أما بعد) «وقد كثر استعمال المصنفين لها بلفظ (وبعد)» بل يرى بعضهم أن لها حكم (أما بعد) في الاستحباب ؛ إذ كانت فرعاً عنها ، ويثبت للفرع حكم الأصل . وقد ألف الشيخ أحمد بن موسى العدوي المالكي ^(١) رسالة لطيفة سماها : «عائدة الورد» فيما يتعلق بالكلام على (وبعد) ، رتبها على سبع مقالات ، وجعل المقالة الخامسة في حكم الإتيان بها ، ويقول في هذا المبحث : «فيندب الإتيان بها : قياساً على أصلها الذي كان يأتي به عليه الصلاة والسلام في خطبه وكتبه وهو (أما بعد) ؛ كما هو الثابت في صحيح الخبر عن الأئمة والأثر ؛ لأن ما ثبت للأصل ثبت لفرعه» . وقد يناقش هذا القياس ؛ فالاستحباب إنما عماده التأسي بالرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لا يتحقق إلا باتباعه في اللفظ الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بعينه ونصه ، فإذا جرى بلفظ آخر كان حراً ألا يكون هذا اتباعاً ، وإن كان بسبب مما جاء به ، وليس هناك ما يدعو إلى تجنب اللفظ الذي أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الرغبة في الاستخفاف .

والناظر في الصيغة من جهة العربية يرى بعدها الفاء حيث لا موجب لها . وهنا تشعبت آراء العلماء ، فيرى فريق أن هذا المقام لما ألف فيه (أما بعد) أضحت (أما) فيه عالقة بالنفس وإن سقطت في الكلام ، فـ (أما) وإن لم توجد حساً فهي موجودة وهما ، وعلى ذلك جاءت الفاء ، والوهم يترتب عليه آثار لسانية كثيرة ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

(١) هذه الرسالة في مجموعة في دار الكتب الأزهرية . انظرها في فهرس النحو .

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائئاً

حيث جر (سابق) على توهم الباء فى (مدرك). ومن ذلك جمعهم مسيلاً من السيل - على مسلان ، توهموا مسيلاً فعيلاً ككثيب ورغيف ، فجمعوه على فعالن ، وإنما مسيل مفعّل . وقالوا : تمسكن وتمندل وتمدرع على توهم إصالة الميم ، وهى - لا محالة - زائدة ، ما كان لها أن تثبت فى بناء الفعل . على أن هذا الرأى قد لقي نقداً وإنكاراً ، ويقول ابن عابدين^(١) : « وأما توهم أمّا فلم يعتبره أحد من النحويين ، وكان ذلك لأن التوهم المذهب فيه السماع ، ولا يتوسع فيه ، ويقتصر به على ما ورد عن العرب .

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير أمّا فى الكلام . ويشترط الرضى لتقدير أمّا فى الكلام بعد الواو أن يكون ما بعد الفاء أمراً أو نهياً ، وما قبلها منصوباً به أو بمفسر به ، كما فى قوله تعالى : وربك فكبر . ويتكلف بعضهم تخريج ما هنا على مذهب الرضى فيتمدر فى الكلام محذوفاً .

ويرى بعضهم أن الواو نائبة عن أمّا ، ومن ثم جاءت الفاء . وبها ألغز بعضهم فقال :

وما واو لها شرط يليه جواب قرنه بالفاء حتما ؟

فأجابه^(٢) بعضهم بقوله :

هى الواو التى قرنت ببعده وأما أصلها ، والأصل مهما

وأيا ما كان الأمر فقد يخرج القارىء من هذا البحث بصحة « وبعد » عربية وأنه ليس من الخطأ استعمالها . والمصنفين سلف فى الجاحظ وابن جنى ، وهما من هما فى التحرى للعربية والعلم بها .

(١) الرسائل ٦٩/١ .

(٢) أنظر حاشية السجاعي على القطر فى الخطبة .

سنة نوادر المخطوطات

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

لفضيلة الاستاذ الشيخ أبو الوفا المرافى

مدبر مكتبة الأزهر

من مفاخر علماء المسلمين السابقين إبان نهضتهم الفكرية أمانتهم العلمية التي يدهش لها المنصفون من علماء العصر ويقدرونها قدرها بين الفضائل العلمية ، وقد كانت هذه الأمانة تغلب في نفوسهم كل عاطفة مهما اشتدت ، إذ كان الأب يتهم في سبيلها ابنه إذا رأى منه ما لا يتفق وتلك الأمانة ، وقد جاء عن بعض علماء الحديث أنه كان يقول عن ابنه : « لا تثقوا بروايته » ، ومما يعد من مفاخرهم أيضاً وفاءهم لشييوخهم وإجلالهم واعترافهم بالفضل عليهم . ومن مآثر الحكم : من علمنى حرفاً صرت له عبداً .

وقد دفعت تلك الأمانة العلمية بعض العلماء - وبخاصة علماء الحديث - أنه يسجل أسماء شيوخه وما رواه عنهم في أسفار خاصة تعرف بمعاجم الشيوخ ، يحدوهم إلى ذلك عاملان ، عامل الاعتراف بالفضل لشييوخهم ، وعامل الثمة فيما يروونه ، وكأنهم بذلك يقدمون البيانات على دعاواهم العلمية .

وفي تاريخ العلوم الإسلامية شيء من هذه المعاجم أو الفهارس ، ومن أحسن ما عثرنا عليه في ذلك : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس للعلامة ابن حجر ، وهو مجلد ضخم دَوَّن فيه أسماء شيوخه الذين روى عنهم الحديث . وموضوعات هذه المرويات أو أجزاءها ويقع في ١٦٠ ورقة عدا ورقتين ملحقتين بآخره ، وعدا بعض طيارات في وسطه (ورقات صغيرة ملحقة ببعض ورقاته) وقد ذكر أسماء شيوخه مرتبة على حروف المعجم وقسمهم على طبقات أشار إليها في خطبته كما يأتي :

وهو بخط ابن حجر نفسه والمسودة الأولى له ، لذلك تكثر فيه الكتابة على الهامش تكملة أو تصحيحاً أو تهذيباً لما في الصلب وهو عسر القراءة لعدم جودة

الخط وندرة النقط والإيجام في أكثر كلماته كمنهاج عصره في الخط ، وقد ابتدأ في وضعه سنة ٨٠٦ هـ وفرغ منه سنة ٨٢٩ هـ .

وابن حجر هذا من أشهر علماء الحديث رواية ودراية في عصره ، وله طائفة كبيرة من الكتب في علوم الحديث ، وله الشرح المشهور على صحيح البخاري . . فتح الباري ، وقد أجمعت التراجم على غزارة علمه وجلال قدره ، كما أجمعت على صلاحه وتقواه قال العلامة السخاوي في ترجمته في التبر المسبوك : « هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد الكناني العسقلاني الأصل المصري الشافعي ، حافظ العصر . علامة الدهر ، شيخ مشايخ الإسلام ، حامل لواء سنة خير الأنام ، قاضي القضاة ، أدق الحفاظ والرواة ، باشر القضاء بالديار المصرية استقلالاً مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر تحللها ولاية جماعة . والتدريس بعدة أماكن في التفسير والحديث والفقه والوعظ وخطب بجامعي عمرو والأزهر وغيرهما ، وأمل ما يذيف على ألف مجلس من حفظه ، وزادت تصانيفه على مائة وخمسين ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وارتحل له الأئمة وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء في كل مذهب وبكل قطر من تلامذته ، وانتشرت جملة من تصانيفه في حياته وتهادتها الملوك والأكابر ، كل ذلك مع تواضعه وحلمه وظرفه وصيامه وورعه ومزید أدبه مع المتقدمين والمتأخرين ومحبة أهل الفضل والتنويه بذكرهم وعدم اطراء نفسه وركونه إلى هضمها وبذله وكرمه وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة وسعة العلم في فنون شتى وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحاب الحديث .

ولد في شعبان سنة ٧٧٣ هـ بمصر وتوفي سنة ٨٥٢ هـ بمصر أيضاً ودفن بالقرافة الصغرى في مشهد لم ير مثله .

ومن خطبة المجمع المؤسس بعد الديباجة : أما بعد : فإنه كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامي شيوخهم وتدوين أخبار كبارهم وتغايرت مقاصدهم في السير فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم لأتذكر عهدهم ، وأجدد لهم الرحمة بعدهم تجمعت أسامي شيوخهم على المعجم مرتباً وقسمتهم على قسمين مذهباً فالأول من حملت عنه على طريق الرواية ، والثاني من قرأت عنه شيئاً على طريق الدراية

وأضفت إلى الثاني من أخذت عنه شيئاً في المذاكرة من الأقران ونحوهم وقد قسمتهم من حيث العلو إلى خمس مراتب الأولى من حدثنا عن مثل التقي سليمان وأبي الحسن الموالى وأبي الغوث الدبوسى وعيسى المطعم والقاسم بن عساكر وأبي العباس ابن الشحنة ونحوهم وعلامتنا ط ، إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى . الثانية من حدثنا عن أصحاب ابن عبد الدايم والنجيب وابن علان ونحوهم وعلامتهم طس ، إشارة إلى أنهم من الطبقة الوسطى . الرابعة من حدثنا عن أصحاب الفخر بن البخارى وابن القواس والأبرقوهى ونحوهم ممن كان يمكننا الأخذ عنهم . الخامسة من أشرت إليه من أخذت عنه في المذاكرة أو شيئاً ما لغرض أو نوعاً من العلم أو انشاء أو فائدة ومن ليس عندي عنه إلا الإجازة أو الشيء اليسير باسماع من أهل الطبقة الخامسة من غير استيعاب لهم وترك العلامة لهم علامة الخ .

وبآخر الكتاب :

.. آخر الجمع المؤسس للبعجم المفهرس علقه أحمد بن على بن حجر الشافعى عفى الله عنه واتفق الفراغ منه في يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك وكان الابتداء في كتابة مسودته سنة ست وثمانمائة . ثم جمعت الفهرست منه وزدت فيه أسانيد كتب كثيرة بالإجازة لتكمل الفائدة وكان في شعبان سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة والله الحمد على ما من وأفضل .

تكلف

لى صديق يرى حقوقى عليه نافلات ، وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولاً إليه ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير واشتهى أن يزيد فى العرض عرضا
وقال صالح بن عبد القدوس فى صديق السوء :

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجسد عنه حيصا ، فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله يجده وراء البحر ، أو فى قراره
ولله فى عرض السموات جنسة ولكنها محفوفة بالمكاره

رمضان بين الماضي والحاضر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد غلبه

المدرس بالأزهر

شهد ماضى رمضان نهراً عامراً بالإيمان والإحسان ، وليلاً زاخراً بالذكر والقرآن .

ويشهد حاضره نهراً مفتوناً بشهوة البطون ، وليلاً صاخباً بالخلاعة والمجون
شهد ماضيه عبّاداً فى الأسفار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لرهبهم فى المحاريب خاشعين متضرعين يكون من خشية الله ، ويرجون أن يتقبل الله ، حتى إذا صلوا الفجر راحوا يشهدون رزق ربهم ويجاهدون فى سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة .

ويشهد حاضره فى مصر الإسلامية ألواناً متنافرة : عبّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد ، بل تشهد أسماره سكارى عجت بهم بحال السمر العاثر بين الغيد والكاس ، لا يصيخون لمؤذن الصباح بل لمؤذن الصبح ، ولا يرعشهم قرآن بل ترقصهم الألحان ، حتى إذا امتدت فى الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذوا المخادع ، واطمأنوا فى المضاجع حتى الأصيل ، ليستقبلوا ليلة أخرى حمراء وهكذا ينقضى شهر العبادات والطيبات وهم فى لهو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق .

لم يشهد ماضيه فى الضحى مطاعم ولا مقاهى مفتحة الأبواب ، يختلف إليها أولئك الذين فتمدوا الحياء وقد راحوا يلتمسون الطعام ويستعذبون الشراب .

أما حاضره فيشهد فى كل شبر صوراً مختلفة الأشكال من التمازى فى مصر الإسلامية ، فالمطاعم والمقاهى فى ضحى رمضان غاصة بالطاعمين الشاربين الذين لا يستحون من الله ولا من الناس .

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحي يشهد فيها رمضان أفواجا من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون .
والمنازل يشهد فيها رمضان أوانس وسيدات خفن أن يضعضع الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهم فأفطرن صونا للجمال أن يذبل .

ويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادى الله ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .

شهد ماضيه فى الاصائل قصور الاغنياء ودور العطاء يهرع اليها المحتاجون والارامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شعت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان ، وامتدت إليهم الأيدي بالطعام فأنستهم مرارة الجوع وانطلقت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء .

ويشهد حاضره فى الاصائل قصور الاغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن ، ولا دعوة بئس ، ولا تمتد يد محبة من وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم ، أو تحقق أمنية حالم ، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعائه ، وتسيل جفاف لعابه ، ليعود إلى بنيه الجياع ، أو زوجته المنطوية على نفسها ، بالدمع بين جفنيه ، والحسرة والحرمان بين جنبيه .

لم يشهد رمضان فى الماضى المرأة المسلمة إلا راعية فى بيتها تقوم على شئونها وترعى حقوق زوجها وبنيها ، وتضجى براحتها فى سبيل هناءة أسرتها

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلمة وقد تنكرت لبيتها ، وأنكرت زوجها وأبناءها ، وافتتحت بزيئها عن غيرها ، وجرها شيطان الهوى إلى التسكر لكل ماله صلة بالدين والأخلاق ، وليتها نسيت أنوثتها وعواطفها ، وخافت وعيد ربها ، وذكرت قول محمد صلوات الله عليه : « نظرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء » فما ينجيها يومئذ من عذاب الله جمال ولا مال ولا جاه .

لقد شهد رمضان فى الماضى نفوسا هذبها الإسلام وربطت بينها أخلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فهى قلوب

لا تعرف الشحنة ولا تثيرها البغضاء في رمضان لغير شيء ، ويشهد رمضان الآن منذ الصباح الباكر في مصر صورا من المعارك لا تنقطع بين الصائمين ، ومشاحنات لا ينطفئ لها أوار حتى كأن الصوم قد كهرب الناس فأجسامهم لا تطيق المساس ، فكم نرى في الأسواق بائعا يثور ومشترى يفور وفي الوزارات كم نرى رئيسا يرغى ويزبد ومرؤوسا يحرق ويعربد فلم صام هؤلاء وأولئك ، وليس لله حاجة في أن يدعوا الطعام والشراب ؟ إن الصوم الذي لم يهذب النفوس يعذب المجتمع ، فليفطر هؤلاء ولا يرحموا المجتمع إذا ضعفوا عن جهاد أنفسهم .

ولكم شهد رمضان في الماضي ساعة الإفطار مساجد تموج بالأغنياء والفقراء جلسوا جنبا الى جنب ينتظرون الإفطار ليعلموا أنهم سواء في طاعة الله ، سواء أمام أوامر الله ، سواء في الوقوف بين يدي الله ، أمسكوا معا وأفطروا معا وسيصلون معا ثم ينصرف كل الى ما يسر الله له من طعام راضيا شاكرا ، ويشهد رمضان الآن مساجد الله ساعة الإفطار وقد خلت إلا من فقير أو غريب ، أما صوام الأغنياء فإنهم يستقبلون الموائد عند دوى المدافع ليتخموا بطونهم بلذائذ الطعام ثم يأخذهم الدوار العنيف لكثرة ما قذفوا في معداتهم من أطعمة يشور تفاعلها حتى ينهك المعدة فتكسل ويمتد كسلها الى الجسم فلا ينهض الى صلاة إلا بعد ساعات طوال .

وأما عن ليالى رمضان في الماضي فكم كانت تزدهر فيها قصور العظام بالأضواء وتفتح أبوابها لكل وافد يسمع آيات الله يرتلها الفقهاء ، وكم كانت تعج القاهرة بالآفواج المتلاحقة من الطرق الصوفية يرددون ذكر الله وهم في طريقهم الى بيت من بيوت الله تفيض قلوبهم بحب الله وتدوى أصداؤه أصواتهم فتحز قلوب الناس إنهم كانوا يعتقدون أن ليالى رمضان أعياد لأنها تجمعهم في عبادة الله .

ويشهد حاضره قصور العظام تضج بالحفلات، العابثة فهي ليست بالقصور وإنما هي مذايح تنحدر فيها الفضائل وتسفك فيها الأخلاق وتذبح فيها النخوة وتموت الكرامة وقد يجر كل ذلك الى فقدان الشرف وهو أعز ما يملك الإنسان .

إن ماضى رمضان قد شهد ألوانا من العبادة والبر ، وإن حاضره ليشهد صورا من الفجور والشر ، فهل أوشكت القارعة يوم يكون الناس كالفراس المبهوث وتكون الجبال كالعين المنفوش .

أيها الصائمون . أذكروا أن محمدا صلوات الله عليه كان يصوم في جو الصحراء اللافح ، فلا تتأثر أحاسيسه بحرارة جوها فيثور ويغضب بشيء أو بغير شيء ، وأنه كان يفطر على تمرات لا تتم صلبا ولكن القناعة كانت تشبعه ، فهل لكم في رسول الله أسوة حسنة تأتسون بها .

إن مصر التي تفخر بماضيها وتذكر مجدها خليق بها . أن تنزع الى الدين وتعود لتجدد ما يلي من أخلاق ، فإن المجد المنشود لن نصل إليه إلا إذا أضأنا سبيله بأخلاقنا ، وإن نفوسنا المظلمة وأخلاقنا المظلمة لن نصل بهما الى عزة نريدها أو آمال نبتغيها .

إن آلاف المحرومين تغلى صدورهم ، وتتصاعد زفراتهم الى السماء تشكو الى الله بخلكم ، فاتموا شكاياتهم فليس بينها وبين الله حجاب .

لكأنى بالساعة وقد قامت ونصبت الموازين فرحمتم تنقبون بين أعمالكم عن صومكم فلم تجدوه ، لأن ربكم لم يتقبل عمل المتبرم الساخط ، أفهل حسبتم أن ربكم في حاجة الى عبادتكم ؟ إن الإنس والجن لو صاموا الدهر كله ما زاد ذلك من جلال الله شيئا ، وأن الإنس والجن لو كفروا بالله وبرسالات الرسل جميعاً واتخذوا آلاف الأرباب ما نقص ذلك من عزة الله شيئا .
حساب الله عسير فانقوا الله .

ذكاء

قال الشيباني خرج أبو العباس أمير المؤمنين بالانياز فأمعن في نزته وانتب من أصحابه ، فوافى خباء لأعرابي فقال له الأعرابي : بمن الرجل ؟ قال من كنانة ؛ قال من أى كنانة ؟ قال من أبغض كنانته إلى كنانته .

قال : فأنت إذن من قريش . — قال : نعم .

قال : فمن أى قريش ؟ — قال : من أبغض قريش إلى قريش .

قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب — قال : نعم .

قال : فمن أى ولد عبد المطلب أنت ؟

قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب

قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة .

الحياة الأخرى

عن سيد أمير علي *

المؤلف: عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

[يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]
[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي .]

تحدثنا في المقال السابق عن فكرة الوجود الثاني عند قدماء المصريين واليهود
والزردشتيين ، ثم عن عقيدة اليهود في المسيح المنتظر . و نتحدث اليوم عن عقيدة
الحياة الأخرى في المسيحية والإسلام .

اجتازت أقوال المسيح عدة أطوار من التغير والتبديل ، حتى إنه ليصعب
علينا اليوم - كل الصعوبة - أن نميز صحيحها من غثها . ولكننا إن أخذناها كما هي ،
وبحسبنا كما بحثنا غيرها من الوثائق الدينية [دون أن نتجاهل روحها الحقة ،
ودون أن نحاول إيجاد معان مستترة كما يفعل المتعصبون] رأينا فيها نظرية عن
نظام جديد ، هي « مملكة السماء » ، تبدو واضحة خلال هذه الأقوال ، وضوحاً
يجعلها متميزة عن غيرها من النظريات : ظهر المسيح ، وصارت مملكة الله
قاب قوسين أو أدنى ، وهي مملكة ستحل محل المجتمع والحكومة غير الكاملين ،
بل والمليئين بالشروع . وكانت كلماته أحياناً ، تجعل تلاميذه يرون أن « المعلم »
الجديد سيولد ليقود الجائع والفقير إلى المجد والسعادة ، وأن الفقراء والجوعى
فحسب ، سيكونون هم السعداء ، وأن العذاب سيحل بالأغنياء والمتخمين . وكانت
مملكة الله تفهم في بعض الأحيان على أنها تعنى تحقيق الرؤى أو الأحلام الوحيية^(١)

. The Spirit of Islam : Sayed Ameer Aly (٥)

(١) خاصة ما أرحى للقديس يوحنا في جزيرة باطوس .

فيما يختص بظهور المسيح . وقد تكون مملكة الله - في فهم ثالث - هي حكم الأرواح ويكون الخلاص المقرب ، مجرد خلاص روحي من أغلال هذا الوجود الأرضي . وحالت قسوة الفئة الحاكمة . وحالتها العقلية ، وقوة الرومان ، دون إحداث تغيير اجتماعي ، فتلاشت جميع الآمال في تحسين « الحالة الراهنة » ، وتمسكت القلوب آمال ورغبات في مستقبل أكثر سعادة . واعتقد القوم أن « بعث » الإنسانية أصبح قريباً^(١) : فيظهر المسيح نفسه من بين ثنایا السحاب ، يأتز برداء آلهي ، ويجلس على عرش تحف به الملائكة ويحيطه أتباعه المخلصون . وإذ ذاك ينشر الموتى من التبور ، ويجلس المسيح في مجلس القضاء ، ينفذ الملائكة أحكامه . أما الأبرار ففي جنات أعدت لهم منذ بدء الخليقة ؛ وأما الأشرار فإلى نار خالدة معدة للشيطان وأتباعه^(٢) ، حيث يعلو النواح ويشتد اصطكاك الأسنان . و « المختارون » ، وهم قليلون^(٣) . يقيمون في دار ساطعة الضياء ، تمد لهم ولائم حافلة ، يرأسها أب الجنس الاسرائيلي ، ويحضرها البطارقة والأنبياء^(٤) ، بل ويوجد فيها المسيح ذاته^(٥) .

ويتضح من كلمات السيد [المسيح] أن « النظام » الجديد وعودة يسوع الثانية ، والذشور ، إنما هي أمور قريبة الحدوث ، فطالما أكد لسامعيه اقتراب مملكة الله ، وعبث الاهتمام بحاجات هذه الحياة وشواغلها .

وكانت كلمات المسيح تمس شغاف قلوب المريدين ، فإذا بهم جميعاً ينظرون إلى المستقبل في شوق بالغ ، لم ير التاريخ قط ما يفوقه ، متظنين أن تحقق [تحققاً حقيقياً] هذه النبوءات .

« وإذا كان الجيل الأول من المسيحيين ذوى عقيدة قوية ثابتة ، فذلك لأنهم ظنوا العالم يمتد من نهايته ، وأن « رؤى » المسيح العظيمة ، قريبة الحدوث^(٦) . ثم صارت الكنيسة المسيحية منظمة ، وانتشر أتباعها يذيعون آراءها ، آخذين

(١) ليس ثمت شك في أن المسيح نفسه كان يؤمن بالبعث الجسدي وفي الثواب والعقاب البدنيين في الحياة الأخرى ، فطالما تحدث عن المبرورين في مملكته ، يأكلون ويشربون على مائدته .

(٢) متى ٤١/٢٥ . (٣) لوقا ١٣/٢٣ . (٤) متى ٢/٨ : لوقا ٢٨/١٣ ، ٢٢/٣٠ .

(٥) متى ٢٩/٢٦ (٦) رينان : حياة المسيح ص ٢٨٧ .

بالنظام الإغريق أو الرومان ، حاملين لواء دينهم إلى آفاق كانت مجهولة ، حيث يعيش البرابرة ، الذين تركوا - بالكاد - غاباتهم ، ورأوا في المسيح ومريم صورة أخرى لآلهتهم التي كانوا يعبدونها .

ظل العالم المسيحي يهزه الشوق ، وتحرقه الرغبة ، كلما ناء بحدثان الزمان - إلى ظهور [المسيح] ، وأخذت فكرة « حكم الله » بمرور الزمان وتطور التفكير إما صورة روحية ، أو عفت آثارها من بعض العقول ، أو ركبها الزيادات ، فأخذت تستقي صفات جديدة من يثبات المؤمنين الجدد ، فوجدت في المسيحية أثار كلدانية ومجوسية زردشتية وأفلوطينية ، غيرت جميعها من المعتقدات القديمة وصبغتها صبغة جديدة .



كانت ثمت فكرة في المسيحية ، شجع رجال الدين على انتشارها ، وهي أن محمداً صلى الله عليه وسلم ينكر وجود أرواح للنساء ، ولكن هذه الفكرة اندثرت ، وإنما لفكرة خبيثة ابتدعت لخلق روح الكراهية ضد الإسلام . ولا زال المسيحيون يؤمنون بأن النبي العربي وعد أتباعه المؤمنين بجنة حسية بها الحور ، وبها ملذات متفاوت درجاتها ، ولكن هذا الفهم إنما تأتى عن الجهل والمغالطة .

ولكن من الضروري - نظرا للبيئة التي نزل فيها القرآن - استعمال أساليب تتفق وعقل سكان الصحراء ، فكان هذا الوصف الذي يسترعى انتباههم ، ولكنه كان صورة جانبية ، يتلوها الجوهر ، وهو عبادة الله في خشوع وحب ولنا نستطيع أن نقول إن الأوصاف الواردة للجنة والنار كانت حسية ، ولنا نستطيع القول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أو أحداً من أتباعه - حتى أبعدهم في فهم القرآن فهما حرفياً - كان يقول إنها مبنية على الحواس ، لا العقل أو الروح .

والنظرية الرئيسية السائدة في الإسلام - فيما يختص بالحياة الثانية - إنما تنبئ على اعتقاد أنه على كل كائن بشري - في حالة الوجود الآخر - أن يقدم حساباً عن أعماله في الأرض ، وأن سعادة الفرد أو شقاءه ، آنذاك ، إنما تترتب على الطريقة التي أدى بها هذا الفرد حقوق خالقه .

أما رحمته ونعمته [تعالى] فليس لها حدود ، يضفيهما على خلقه . هذا هو المحور الذى تدور حوله نظرية الحياة الثانية فى الإسلام ، بل وهذه هى النقطة العقيدية الوحيدة التى على المسلم أن يؤمن بها ويقبلها ، أما ما عدا ذلك من عناصر أضيفت إليها وأخذت من تقاليد الأجناس والشعوب فسا هى إلا مجرد زيادات ، وإن نحن تركنا جانباً مسألة الموضوعية الموجودة فى جميع النظريات عن الثواب والعقاب المستقبليين ، أو بقول أدق نظريات حياة ما بعد الموت ، فعلينا أن نذكر جيداً أن هذه النظريات أمدت « معلى ، العالم الأخلاقيين بأقوى سلاح يؤثرون به فى سلوك الأفراد والشعوب : فالفضيلة - لذاتها - يمكن أن تقبلها عقول النخبة الممتازة ، أما المتوسطون وغير المتعلمين فلا بد من أن نقرن الفضيلة لهم بالثواب والعقاب .

ولنر الآن طبيعة هذا الثواب والعقاب ، على أن نتذكر أنه يندر أن تتمكن من أن تنقل فكرة عن لذة روحية أو ألم روحى إلى أفهام غالبية البشر دون أن نلبس تعابيرنا رداء حسياً ، أو أن نقدم فى وصف هذه اللذة أو ذلك الألم موضوعات حسية . وطالما استعملت الفلسفة التعبيرات المجردة ، دون أى رداء محسوس ، وقد كان لهذه التعبيرات والأفهام [الفلسفية] يوم ازدهرت فيه ، ثم ماتت دون أن يشعر بها أحد خارج دائرة العلماء الحالمين الذين كانوا يعيشون ، فى غموض غير محدود ، داخل أفكارهم .

أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان ينقل الدين ، لا للعقول الراجحة الممتازة من المفكرين المثاليين الذين تصادف وجودهم ، لحسب ، وإنما للعالم المتسع حوله ، المؤثرز بالمادية بكافة أنواعها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . فالعربى الجائع ، ماذا عنده أجمل وأحلى ، أو أكثر توافقاً مع تفكيره عن الجنة ، أكثر من أنهار تجرى فيها المياه ويجرى اللبن والعسل ، وهل يود أن يرى إلا الفاكهة والخضرة الدائمة والخصب المثمر ؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس .

هذا هو رأى جماعة من المسلمين يرى - كما يرى السنائى والغزالى - أنه وراء السعادة المادية ، المصورة فى محسوسات كالاشجار والأنهار والدور الجميلة والخور

العين ، يوجد معنى أعمق ، وأن لذة اللذات إنما توجد في رؤى النفس المبرورة في حضرة الحق حين يرفع الحجاب بين الرب والعبد ، وتجلي الذات على العقل بعد أن يتخلص من شوائب الجسد وأدران الدنيا . وهم في هذا يتمثلون بكلمات القرآن والحديث ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه - إن أحب الناس إلى الله هو من يرى وجهه تعالى صباح مساء ، فيشعر بسعادة تفوق كل مسرات البدن ، كما تفوق مياه المحيط نقطة العرق . وحدث أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن ربه : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال اقرأوا إن شئتم . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، ^(١) . وثمت حديث آخر صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أن الإرادة الطيبة تتمتع بقراب الله ، وهي التي عناها القرآن بقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ، ^(٢) .

أما التعبيرات الصريحة في القرآن ، فإن هذه الجماعة من المفكرين تفسرها على ضوء الآية الكريمة من الكتاب الحكيم : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات [وانسخات للفهم] ، هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات » ، ^(٣) .

وتوجد فرقة تنظر إلى مسرات الآخرة وعذابها نظرة موضوعية إطلاقاً ، فهي ترى أنه لما كان الألم العقلي [المعنوي] الشديد أكثر عذاباً من الألم الجسدي ، فكذلك يكون السرور العقلي [المعنوي] ذا طبيعة أعلى ودرجة أسمى من أي لذة جدية . ومن هنا « ترجع » [إذا استعملنا اللفظ القرآني] الروح الفردية بعد الموت البدني إلى الروح الكلية ، فإن جميع المسرات والآلام التي صورها النبي [الموحى إليه] في صور حية مثيرة ، يتمكن العوام من فهم حقيقتها ، لن تكون إلا عقلية وموضوعية . وتتضمن هذه الفرقة بعض كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين .

وفرقة أخرى ، وربما كانت الأكثر عدداً ، تعتقد في حرفية الالفاظ القرآنية .

(١) السجدة ٢٢ / ٧١ .

(٢) سورة آل عمران ٣ / ٧ .

(٣) سورة يونس ١٠ / ٢٥ - ٦ .

تدرج القرآن بالإنسان من المعاني الحسية إلى المعاني الروحية ، مسائراً قدرة معتققي الدين الجدد على التخلص من حياتهم المادية ، وبالتالي قدرتهم على فهم الحياة الروحية . إن سعادة الأبرار إنما تكون في السلام الدائم والإرادة الخيرة في حضرة الحق : « إن المتقين في جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ^(١) » .

إنما أردنا هنا أن ندلل على فساد النظرية التي تقول بأن صور القرآن عن الحياة الأخرى كانت كلها حسية ، وحسبنا دليلاً هذه الآية من القرآن الكريم ، لئلا نرى عمق الروحية في الإسلام ، ونقاء الآمال وطهر الاتجاهات التي تفنن عليها قوانين الحياة .

« يا أيها النفس المطمئنة . إرجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ^(٢) » .

الموصلى

كان محمد بن دانيال بن يوسف الطبيب صاحب نثر رقيق وشعر طريف وكان يعتمد على النكات في شعره فيجئ مروحاً للنفوس . من شعره :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى	ما في يدي من فاقة الأيدي
في منزل لم يحو غيرى قاعدا	فاذا رقدت رقدت غير ممد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة	ومخدة كانت لأم المهتدى
ملقى على طراحة في حشوها	قل كمثل السمسم المتبدد
والفأر يركض كالخيول أسابقت	من كل جرداء الأديم وأجرد

موقف الإسلام من الفقراء

لفضيلة الأستاذ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

دعا الإسلام الى المبادئ الإنسانية القوية التي تهدف الى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسمي المبادئ الخلقية التي تتمثل فيما تفيض به نفوسهم ، من محبة خالصة ، وود صادق ، وتعاون حق ، وأخوة أكيدة ، حتى غدا المجتمع الإسلامي الأول ، مجتمعاً مثالياً ليس فيه نائر آلمه الجوع ، وأمضه الحرمان ، أو مظلوم أحزنه الإغضاء ، وكاد يودى به النسيان ، أو ظالم أمن في سربه ، وقد أدمت سياطه الظهور ، وغلت أوزاره الأعناق ، أو غنى طغى ، وبغى لأنه وجد من يمالئه طمعاً في ماله ، وركونا الى جاهه ، ورهبة من سلطانه وذلك لأن الدستور الإسلامي سوى بينهم ، وكفل لهم حقوقهم في حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ورسم لأفراد مجتمعه ، السبيل الواضح الى الحياة الكريمة ، حياة العاملين المناضلين ، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة ، وندد بمن يستمرثون الكسل ، ويستطيون المسألة ، ويستسيغون الاستجداء ، ورعاية لهذه الأغراض النبيلة ، لم يفرض للفقراء حقوقاً على القادرين وأرباب الثروات ، إلا بعد أن دعاهم الى الجد والمثابرة على السعى ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الاجتماعية ، للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم .

وقد دعا الرسول في قوة وحزم ، الى الدأب على العمل في صدق وإخلاص ، فعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته يقول « من يصبر ، يصبره الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، قلت فما أنا بسائلك اليوم ، وفيما رواه الزبير ابن العوام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ أحدكم حبلأ فذهب

فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة » .

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التي رسمها الدين ، وأخلصوا في تنفيذها ، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال . والقناعة عملا بتوجيه الرسول وامتنالا لإرشاده . وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم ، يدينون بها ، ويؤمنون بالإخلاص لها ، ولذلك غدا كل منهم خارجا عن سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، يدل على صدق ما تقول صنيع عبادة بن الصامت حينما أهديت له هدية ، وإن في الدار إثني عشر رجلا من أهل بيته . فقال عبادة اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج بها منا . فقال الوليد بن عبادة . فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهو أحوج منا إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وحينما يعجز الفقراء عن السعي والجد لكسب قوتهم ، لم يتركهم دستور الدساتير هملا يتضورون جوعا ، ويعيشون في الأرض فساداً ، بل وضع لهم نظاما قويمًا دعمه بأقوى الأسس وأثبتها ، إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقا تنفي بحاجاتهم ومطالب وجودهم ، وتفسح لهم في مجتمعهم مكانا لا يحسون فيه فوارق تتشكى لها النفس . ويتبرم بها الحس .

ولقد عنى بهذه الحقوق أكمل عناية ، وفي غير نص من نصوصه ، ولم يفرق بين المسلم وغيره تمديسا للتسامح الذي ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور . ورصد للوفاء بشئون الفقراء ، مستوى منهم من عجز عن العمل ، ومن عدت عليهم عوادي الأيام ، وحلت بهم صروف الزمن ، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنساني الذي يليق بهم . رصد لهم بابا موفور الدخل ، هو باب المساعدات الاجتماعية . ولما طبعت نفوس السلف على الخير ، وحب البذل ، والسبق إلى السخاء ، استوى عندهم أن تمتد أيديهم بما أوجبه الدين . وجعله لازما عليهم . يطالبون بأدائه . وما يفعلونه تطوعا يبتغون به إلى الله التقرب والزلفى . مدفوعين إليه بضمير يتقظ وحس مرهف .

وقد حذروا بمسارعهم للبذل أن يحقق بهم ما حاق بثعلبة بن حاطب ، وقد وعد أن يتصدق ، ثم نكص على عقبه بعد أن غلبه الشح ، وتمسك منه الضن ، نحاس بعهد قطعه على نفسه أمام رسول الله قال فيه : « فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالا لأعطين كل ذي حق حقه » . ولما تاب إلى رشده ، بكى ندما وحنًا التراب على رأسه ، وفيه يقول تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . ولنكونن من الصالحين . من فضله بخلو به وتولو وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

وكان قينا بالمسلمين أن يستجيبوا في صدق إلى هذا النداء الإلهي الحكيم . إذ أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملمم ، محمد بن عبد الله ، عملا يسبق القول ، ودعوة إلى البر ، تقفو جودا كالريح المرسلة . يصدر عن قلب رحيم ، أحب الفقراء . ونهض بهم ، وجباهم بفضل من عطفه ، ولفت الانظار إلى احترامهم . ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه ، وأدناهم منه ، وبالغ في صلتهم ، وسوى بينهم ، وبين من اعتقد أنه عريق الأصل . طيب الأرومة .

رى أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنائير خاف أن يقبضه الله وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته ، وإطراد المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم لأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سألهم ما فعلوا بها ، فأجابته عائشة أنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ، ووضعها في كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه ، ثم تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وكذلك كان المسلمون يقتدون بالرسول في حياته وبعد مماته . يدل لذلك ما روى أنه كان في المدينة في زمن النبي شاب يتمال له مالك بن ثعلبة الأنصاري ، ولم يكن في المدينة شاب أغنى منه ، فربالنبي ، والنبي يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم . فتسكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

فغشى على الشاب ، فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة ، فقال له النبي نعم يا مالك ، قال والذي بعثك بالحق ليسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهما ، فتصدق بما له ، وفعل عمر يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ، إذ رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى ، قال له ما ألك إلى ما أرى قال : أسأل الجزية ، والحاجة ، والسن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ، ثم نخذله عند الهرم .

هذا هو موقف الاسلام من الفقراء ، السواد الغالب فى الأمم والشعوب ، لم يتركهم نهياً لذوى الأغراض وأرباب الشهوات . بل حفظ لهم حقوقهم الانسانية كاملة . أما الآن — وقد تبدل الحال غير الحال ، وغدت الانانية والاثرة شرعة الأقوياء ، وسمة ذوى السلطان — فقد استشرى الفساد ، وشاعت أسباب الفرقة والاختلاف ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من تباعد بين الطبقات ، أفقد الأغنياء ثقة الفقراء لأنهم تخلوا عما يوجب دينهم من التعاون والترحم ، وعاشوا فى أبراج عاجية ، يحون حياة أبطال الأقاصيص ، من ترف وبذخ ، ومجون وسرف ، يثرون الذهب على موائد الميسر ، وفى ميادين السباق وأماكن اللهو .

أما مواسم البر ، ودواعى الخير ، فليس لهم إليها من سبيل مما جعل الفقراء ينقمون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتربصون الفرصة المواتية لأن ينتزعوا منهم حقهم فى الحياة ، ويتطلعون إلى المبادئ الهدامة ، عليهم يحصلون فى حماها على حقهم المعتصب ، ونصيبهم المسلوب ، وكرامتهم المهذرة ، وإنسانيتهم الممتثلة ، بعد أن أياستهم الوعود الخلابية ، والأساليب المعسولة ، وعبارات الكذب والملق . ولا علاج لهذه الحالة ، إلا إذا أحس الأغنياء ، وأرباب الثراء ، أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وأن عيوننا تنبعث منها نظرات متقدة ، كأنها شواظ من نار ، ترنو إلى ما فى أيديهم من أموال داخرة ، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب فى عناية بالغة مصادرها ، كيف جمعت وإلى أين ذهبت ، وقد تيقظ الوعى القومى ، فأصبحت الشعوب لا ترضى بغير التناسب والتناسق بين الطبقات ، والتعاطف والتعاون ، ليجد الجائع الطعام ، والعارى الكساء ، والمريض الدواء ، والجاهل العرفان ، وإذ ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام ؟

مَذْهَبُ الصَّرْفَةِ

ابن حزم

لفضيلة الاستاذ الشيخ علي محمد حسن العماري

مبعوث الأزهر في السودان

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي ، أصله من فارس
جده الثامن أول من أسلم من أسرته ، وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان ، ولذلك
كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ، ويتشيع لهم .

عاش ابن حزم بين سنتي ٣٨٤ ، ٤٥٦ هـ ، ونشأ في قرطبة ، في بيت رياسة ،
وقد لابس جزءاً من هذه الرياسة حقبة من دهره ، ثم انصرف في وقت مبكر
إلى الدراسة والتحصيل ، ودفعته همة عالية ، وذكاء متقد إلى التحقق في كثير
من العلوم ، فكان ثانياً اثنين - في الدولة الإسلامية - بلغا الذروة في التأليف ،
ثانيهما ابن جرير الطبري .

ووجد ابن حزم عداً شديداً من أهل الأندلس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ،
أحدها ما عبر عنه بقوله :

هنالك تدرى أن للعبد غصة وأن فساد العلم آفته القرب

فزامر الحى لا يطرب ، والفاضل - في كل مكان - مبغض إلى أهل بلده ،
وابن حزم يقول :

تقر لى العراق ومن يليها وأهل الارض إلا أهل دارى

وثانيها : أن ابن حزم كان معتداً بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد ، فدفعه
ذلك إلى مازقين خطرين ، فقد كان ينال من الأئمة المتقدمين ، لم يتلم من لسانه
أحد ، ويصور ذلك قول ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج
توأمين ، كما كان يقول ما يجيء على لسانه دون رفق أو التواء ، لا يعرف التعريض
ولا التلطف في الخطاب ، بل يصك معارضه صك الجنادل - كما يقول ياقوت -

كل ذلك إلى تشييعه لبني أمية ، وانحرافه عن عداهم ، بغض فيه رؤسائه ، وكثر أعداءه ، وأساء إلى سمعته .

ولابن حزم تأليف كثيرة - كما أسلفنا - ولعل أهمها كتابه (الفصل في الملل والنحل) وهو كتاب لا ينكر فضله إلا جاحد أو مكابر ، وفيه تكلم عن إعجاز القرآن ، وعليه معتمدنا في هذا البحث .

آراؤه في القرآن :

القرآن المعجز هو المكتوب المتلو ، وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه ، وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير - وحده - معجزاً - كما روى عن بعضهم ، وبرهان ذلك قول الله تعالى ، فأتوا بسورة من مثله ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ، ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب . وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله .

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة في كل الآيات ، فهو يرى أن من أبهر الآيات وأعظمها قول النبي لليهود الذين كانوا معه في وقته ولعلمهم كانوا الوفا أن يتمنوا الموت ان كانوا صادقين في تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن تمنى الموت ، وحيل بينهم وبين النطق بذلك . وهذه قصة منصوصة في سورة الجمعة ، وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا ، وهم يسمعونونه يقول (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) .

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى ، وعارض القرآن معارضة صحيحة ، ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط . قال ابن خرم وقد تعاطى بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فان الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، والله لأن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبك الله هذه النعمة ، وليجعلك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فتمال لى : صدقت والله ، واطهر الندم .

رده على مذهب البيانيين :

يقول أكثر أهل العريسة - ومنهم الجاحظ - بالإعجاز البياني في القرآن ،

ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة ، ويعتبر القول بالصرقة رأى طوائف ، وقد عني أولاً بالرد على القائلين بأن القرآن في أعلى درج البلاغة فقال : وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة ، وهذا خطأ شديد ، ولو كان كذلك - وقد أبي الله عز وجل أن يكون - لما كان حينئذ معجزة ، لأن هذه صفة كل باسق في طبقة ، والشئ الذي هو كذلك ، وإن كان سبق في وقت ما فلا يؤمن أن يأتي في غد ما يقاربه بل ما يفوقه .

وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنه في أعلى درجة البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وشعر امرئ القيس ، ومعاذ الله من هذا ، لأن كل ما يسبق في طبقة لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضرورة ، فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى منع من معارضته فقط .

الاعتراض على الصرقة والإجابة عنه :

يسوق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرقة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة أبلغ ، ثم يرد قائلاً : فهذا هو الكلام الغث حقاً لوجوه :

(أحدها) أنه قول بلا برهان ؛ لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون في كل ما كان في أعلى طبقة ، وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود .

(ثانيها) أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجرت بهذا النظم دون غيره ، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ولم قلبت عصا موسى حية دون أن قلبها أسداً ؟ وكل هذا حق ممن جاء به لم يوجبه قط عقل ، وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط .

(ثالثها) أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا هلا كان هذا الإعجاز في كلام بجميع اللغات ، فيستوى في معرفة إعجازه العرب والعجم ؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب فقط .

القرآن وكلام البشر :

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان ذلك :

١ — أن إنساناً لو أدخل في رسالة له أو خطبة ، أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، كما أن الأقسام التي في أوائل السور لا عهد بها ، وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة .

٢ — نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ، ليس بينهما كقوله تعالى : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ، وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ، ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً ، . وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير .

٣ — ما روى عن أنيس أخى أبي ذر الغفارى رضى الله عنهما حين سمع القرآن فتمال : لقد وضعت هذا الكلام على السنة البلغاء والسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك ، أو كلاماً هذا معناه .

ويتعرض ابن حزم - هنا - لأمور تتصل بالاعجاز ويطول فيها ، وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه ، فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ، ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ، ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه في أعلى درج البلاغة ، فالأشعرية يقولون : إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو إنا أعطيناك الكوثر فصاعداً ، فيرد ابن حزم بقول الله تعالى : على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا يختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز ، وهذا هو الحق الذي عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوهاً ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ، ولأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ، ولا يتمال حينئذ إنها معجزة ، فلما صارت

مِنْ أَدَبِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

قدمت أسماء بنت زيد الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله : إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأمنّا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدورات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوا علينا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، ورينا لهم أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه . قالوا بلى يا رسول الله - فقال أنصرفي يا أسماء واعلمي بأنك من النساء ، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال .

من كلام الله أصبحت معجزة ، وأن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت منها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المحيى بمثلها أبداً ، وأنها متى ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً فهي غير معجزة .

حرصت في هذا البحث على أن أخلص آراء ابن حزم بكل دقة ، ولم أتعرض للرد عليها ، بل تركت ذلك إلى أوانه حين أفصل ردود السلف على الثقاتين بهذا المذهب ، على أني أطلت النظر في كلام ابن حزم لأرى هل تعرض لشبهة قديمة يذكرها العلماء في الرد على مذهب الصرفة ، وهي أنه لو كان الأمر كذلك لكان تعجب العرب - حين عجزوا - من عجزهم لا من بلاغة القرآن ، فلم أهتد إلى شيء في كتابه يصرح أو يلمح إلى هذه الشبهة .

وكنا نلاحظ أن ابن حزم وإن جعل القرآن نوعاً على حدة ، وليس من نوع كلام المخلوقين - إلا أنه يفهم من ضربه المثل بالماشي في الطريق - أن القرآن كان مقدوراً للعرب ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يجيئوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين المعارضة ، وبهذا - عنده - يكون الإعجاز .

هذه القصة ترينا الصورة الحقيقية التي يهدف إليها الإسلام في تربية المرأة وتقويم خلقها ، وتهذيب نفسها ، ومدى صلاحيتها لبناء مجدها ، وتربية أمة قوية في أخلاقها وفي تكوينها والاشراف على أولادها ، لتخرج للمجتمع رجالا صالحين لأن يبنوا مملكة ، ويعلموا شأن أمهم .

جيلا سداه الخلق ، ولحمته النظام ، واحترام حقوق الغير ، والعمل لخير المجموع . هذا هو الدستور الصحيح الذي لم تمسكت به المرأة وسارت على محمديه وانتظمت في سلكه ، وعملت بقواعده ، رقت وسمت ، ونالت المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة وحق لامتها أن تفخر بين الأمم بما تقدم هذه الام لأبنائها من مثل عليا ، وما تبعه في نفوس أبنائها من عزة وكرامة ، وسمو واعتزاز ، فالمرأة التي تهز المهدي يمينها هي الحقيقة بأن تحرك العروش بشمائها .

أما تلك التي تنسى واجباتها ، وتهمل مملكتها ، وتخرج إلى الطرقات لتبعث في الناس الفتنة ، وتثير فيهم مكان الشهوة بما تبديه من زينة وما تظهره من خلاعة ومجون ، فهي حرة بكل احتقار ، خليقة بكل ما يصيبها من ثلم شرفها والاعتداء على كرامتها ، ووصفها بأبداً أنواع النعوت ، لا يتام لها شأن ، ولا يلتفت إليها إلا كما يلتفت الحيوان إلى أليفه حينما تلح عليه الشهوة أو تثيره عوامل الاغراء ، لا يتام لرأيها وزن ، ولا يعبأ بمشورتها .

وقديما قسم العلماء والفلاسفة المرأة إلى ثلاث صنوف :

فالصنف الأول منهن هي التي تعيش في حدود أنوثتها الكاملة ، وموماتها السامية ، وردة ناضجة تشم ، لا شوكة تؤذى وتجرح ، وقلبا ينبض بالحيوية لا عقلا يتفلسف ، وشعرا يوحى ويلهم ،

والصنف الثاني - هي التي تلتزم حدود الأنوثة في سماحتها وعفتها ورقتها لها قوة العابدات لا عقل المربيات تعيش للرجل أمة تخضع ومتاعا يستغل .

والصنف الثالث - هي التي تعيش الآن في عصرنا الحاضر تتمرد على أنوثتها وتخرج عن حدود طبعها ، وتثور على حقها ، وتطالب بما للرجال من حقوق قبل إدراكها لمطالب المجتمع قبلها ، تتعلم لتجادل وتطلب التحرر لتتحلل من قيود

الفضيلة وتسعى في الأرض لتبث الفتنة أينما حلت وحيثما ارتحلت وما درت أن الثعالب تترقبها وأن الذئاب تنتظرها وأنها تذبح الفضيلة في ثورتها .
فعلينا إذا أردت أن تكون المرأة الكاملة في المدينة الفاضلة أن ترحم أمتهما وتعني بأسرتها وتثوب إلى رشدتها وتأخذ لها العبرة من الماضي والحاضر لتبني المستقبل على أسس الدين الصحيحة وأخلاقه الرشيدة ففيها كل السعادة لها وللأجيال المقبلة ، وكفها هذا الدستور السليم الذي أرسله رب العالمين إلى خير الهادين والمرشدين في قوله « وقل للؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذا هو النظام السكوني الصحيح الذي وصفه الله تعالى للمجتمع للسير على هديه وينتظم تحت لوائه وهو المجتمع المثالي الذي ارتضاه رب العزة والجلال لمخلوقاته .
أما تلك النظم الماسئة التي نضعها نحن لأنفسنا والتي لا تختلف في شيء عن نظم الغاب فهو عبث صيداني لا يبنى لأمة مجدداً ولا يرفع لها شأنًا ، ولا يعلى لها قدراً بل على العكس من ذلك يهدم بنيانها ويقوض دعائمها وفي النهاية تتردى في هوة سخيفة وتعود إلى همجيتها الأولى .

فالى القادة والزعماء أهيب بهم ألا يحاملوا أحداً على حساب دينهم وليقولوا بصوت الحق والعدل والانصاف للمرأة قوله الطهر والبراءة « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

عند ذلك تستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويعرف كل واجبه فيؤديه على خير الوجوه ويعود للأمة الإسلامية مجدها وعزها ومكانتها وسؤدها وتجتث عوامل الشر والفساد ونقضى على هذه الفوضى التي نئن منها جميعاً ويرضى عنا الله والناس أجمعين .

والله ولى الهداية والتوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدروس الدينية

في قصر رأس التين

ألقى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر حديثين دينيين من أحاديث شهر رمضان المعظم بعد صلاة العشاء، الأول يوم الجمعة ٤ رمضان، والثاني يوم الجمعة ١٨ رمضان، في قصر رأس التين العامر. وقد استمع الى حديثي فضيلته كبار رجال القصر الملكي العامر وكثيرون من العلماء الفضلاء وأهل الرأي.

وقد ختم فضيلته الحديث الأول بهذا الدعاء :

« نسألك اللهم وأنت العليّ القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول أعزه الله . وأن تسكتب له السلامة لخير الدين والأمة والوطن . اللهم أنك تعلم أنه قد بذل من جأهه وقوة نفسه وعزمه ولم يدخر في ذلك وسعا في سبيل مجد مصر ورفع شأنها وفي سبيل مجد العروبة والإسلام .

« اللهم أنك تعلم أنه انفق الكثير من ماله في سبيل الخير العام وواسى الفقراء واحسن الى الضعفاء وذوى الحاجات بماله وقوله وفعله وعمل لمصلحتهم ولخيرهم ورفاهتهم وكل ذلك في سبيلك وابتغاء مرضاتك .

« اللهم امنحه الرضا واملاً قلبه حكمة ورحمة ونورا من نورك الأسنى واجعل فيه ومنه الخير لعز الإسلام ومجد الإسلام إنك على كل شيء قدير .

« كما نسألك اللهم ان توفق حكومة جلالته إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها وفلاحها وأن تمدّها في هذا السبيل بعونك وقوتك وأن تمنحها في أعمالها الرشيد والسداد والسلام عليكم ورحمة الله . »

وتنشر فيما يلي نص هذين الحديثين :

الدرس الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم . ولا هم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حلیم (٢٦٣) يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين (٢٦٤) » .

في الآيات السابقة ذكر الله مثلين في حياة الأمم وموتها : مثل الأمة التي قدمت حياتها كأمة ، لتهاونها في شئونها ، وخور عزيمة أبنائها أمام عدوها مع كثرتهم . ومثل الأمة التي كادت تستكين لعدوها وتخضع لسلطانها ، وتفتقد حياتها كأمة ، لولا ما كان من فريق من أبنائها ذوى القوة والجلد والصبر ، قادوها في معترك الحياة إلى الدفاع عن كيائها ، والاستهانة بالشدائد في سبيل حياتها ، حتى غلبوا عدوهم وظفروا بأمتهم وسلامتهم ، وكتب الله لهم الملك والحياة .

وفي معرض ذكر هذين المثلين أمر الله المؤمنين بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وذكرهم بما كان من أمر هاتين الامتين ليعتبروا ، ودعاهم إلى بذل المال في هذا السبيل ، وسمى ما دعاهم إليه قرضاً حسناً لله ، مع أنه غنى عن العالمين ، فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » . وأتى بهذا الأسلوب الرائع القوي ليزعج قلوب المؤمنين هزاً ، ويملأ نفوسهم روعة وجلالاً ويملك عليهم شعورهم ووجدانهم ، حتى أنه ليسهل على المؤمن عند سماعه هذا أن ينزل عن كل ماله حبا في الله وابتغاء مرضاته . فكيف وقد وعده بالجزاء عليه أضعافاً كثيرة ، ووعدته الحق .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح : يا رسول الله : أو أن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : يدك قبل . فناولته يده . قال : فإني قد أقرضت ربى حائطى : حائطاً فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه فى عيالها ، فناداها : يأم الدحداح . قالت : لبيك . قال : اخرجى قد أقرضت ربى حائطاً فيه ستمائة نخلة . وقال زيد ابن أسلم : إن هذا الحائط كان أحسن الأرضين اللتين يملكهما أبو الدحداح .

هذا ما جاء فى الآيات السابقة . وبعد أن حذر الله المؤمنين من التواني فى الإنفاق فى سبيل الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة » ذكر هنا تفصيل ما سبق إجماله ، وبين فى الآيات ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فيما ينفقه فى سبيل الله حتى يحظى برضاء الله ، وينال عليه جزاءه فى الدنيا والآخرة ، فقال « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » أى أن ما ينفقه هؤلاء فى سبيل الخير العام للمؤمنين لإعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأمة الإسلامية ينميه الله تعالى ويضاعفه حتى يكون خيره كأبرك حب فى أخصب أرض نما حتى جاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، وأنهم بعملهم هذا سيجزون الجزاء الأوفا فى الدنيا والآخرة ، بما يكون لهم من الذكر الحسن بين مواطنهم ، وما يكون لهم بين أفراد الأمة من التمتع بحمايتها ورعايتها ، بما لها من المكانة ورفعة الشأن بين الأمم ، وما يتألون من الواب العظيم الذى يضاعفه الله تعالى لهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد . « والله يضاعف لمن يشاء » فيزيد من الأجر إلى ما لا يقدر . « والله واسع عليم » لا ينحصر فضله ، ولا يحد عطاؤه ، وهو أعلم بمن يستحق المزيد من فضله من أهل الإخلاص وعمل الخير الدائم .

ولنما قلنا إن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل الخير العام للمؤمنين ، لأن سبيل الله هو دينه وطريقه الذى يوصل إلى الخير العام . وقد جهز عثمان بن عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بألف بغير وألف دينار . وتصدق عبد الرحمن ابن عوف بنصف ماله أربعة آلاف دينار . ونزل الكتاب بأن ما أنفقاه هو فى سبيل الله يضاعف الله عليه الأجر . وأنفق أبو بكر ماله فى مصالح المؤمنين لإعلاء

كلمة الله ، وكان ما أنفق في سبيل الله . وهكذا كان ذوو اليسار من المؤمنين ينفقون أموالهم في خير الأمة وهم يعلمون أنهم إنما يفعلون ذلك في سبيل الله وابتغاء مرضاته . وعلى هذا فالإنفاق على نشر العلم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجئ ، وتسهيل سبل العيش على الفقراء ، وإعداد الجيوش ، وكل ما فيه خير للمسلمين ، هو إنفاق في سبيل الله ، يضاعف الله عليه الأجر ، ويجزى عليه خير الجزاء .

والحكومات وإن كانت تقوم بهذا ولكن موازينها عادة لا تكفي ، فيكون من حق الله على الموسرين أن يتموا هذا النقص ، ليسعدوا وتسعد أمتهم ، ويكون لهم من الله الجزاء العظيم .

لما عظم الله أمر الإنفاق في سبيل الله ، وكانت هناك أمور تعرض للنفوس فتكدر صنائع المعروف ، نبه الله المؤمنين إلى أنه ينبغي أن تكون نفقاتهم في سبيل الخير بعيدة عن هذه المسكدرات ، خالصة لوجه الله تعالى ، حتى يكون لهم عند الله عظيم الأجر ونعم العطاء ، فتمال تعالى « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والمن : هو ذكر ما ينفع المصالح المعروف ، بأن يذكر المحسن لإحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه . والأذى : هو أن يتناول المحسن على من أحسن إليه بسبب هذا الإحسان .

والمعنى أن الذين يبذلون أموالهم في سبيل الخير العام لأمتهم ، أو لذوى الحاجة من أبنائهم ولا يلحقون بهذا العمل ما يكدره من المن على من أحسنوا إليهم بإظهار تفضيلهم عليهم ، أو بإيذائهم بالتناول عليهم بسبب ما بذلوه لهم من الإحسان - سيكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتقرعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله .

وقول الله تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من النهي عن المن والأذى .

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يردبه السائل من غير عطاء ، وإغضاء عما يحصل منه من الإلحاف في المسألة ، أو ستر لحاله بعدم التشهير به - خير له

من صدقة يتبعها سوء التناول أو سوء المقابلة ، أو غيرهما من كل ما فيه إساءة أو إيذاء له . والله غنى حلیم ، أى غنى عن هذه الصدقات التى تجلب الأذى للفقراء ، لأنه طيب لا يتقبل إلا الطيبات . وحليم لا يعجل العقوبة على من يمن ويؤذى بصدقته .

وهذه الآية تقرر مبدأ عاما فى الشريعة ، وهو أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وأن الخير لا يكون طريقا إلى الشر . وفيها إعلام من الله تعالى لنا بأنه يجب أن نطهر أعمالنا فى الخير من الشوائب التى تنغص على الفقراء ، بل من حتمهم علينا أن نترفق بهم ، وأن الصدقة عليهم إذا لم تكن إلا مع المن والأذى فلنتركها ، ولا أقل من أن نجبر قلوبهم بكلمة المعروف .

وقال الأستاذ الإمام : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فمن لم يكن له مال ، يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل ، وينشط العامل ، ويبعث عزيمة البازل ، وهذا خير من الذى يساعد الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانها ، وبيان التقصير فيه ، أو تشكيك الناس فى فائدته . فإن كونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من أن ترضخ ببعض المال مع قول السوء وفعل الأذى .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى صدقاتهم على الفقراء أو فى سبيل المصلحة العامة للمؤمنين ، وهو أن تصدر خالية من المن والأذى ، أفبل عليهم ونهاهم عن ذلك نهياً صريحاً فقال : « يأيتها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » أى أن من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى فإن صدقته تقس على وجه لا ثواب فيه ، فيحبطها الله ويجعلها كأنها لم تكن .

أو المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى لأن المن والأذى يهدم الغرض المقصود من الصدقة ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، أو تخفيف حاجات الأمة ودفع الضرر عنها إذا كانت

الصدقة قد أنفقت في مصلحة عامة . ولا مراء في أن كل عمل لا يؤدي إلى الفائدة المتصورة منه يكون كأنه لم يكن . وهنا قد أتبعنا الصدقة بما يحبها ويمنع من الغرض المقصود منها ، بل هو ضدها ونقيضها .

وقد شبه الله أصحاب المن والأذى في الآية بالمرائي وهو الذي ينفق ماله حباً في الظهور أمام الناس بمظهر فعل الخير ليدحوه ويرضوا عنه ، وقلبه منصرف عن الله ، ومتعلق بالناس الذين يرائيهم ، فقال « كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والإنسان وإن كان مفطوراً على حب المدح وكراهة الذم ، وحب الجاه والسلطان ، ولكن الجاه والمدح والثناء لا يكون محموداً عند الله تعالى إلا إذا كان من طريق الكمال النفسى ، والإخلاص لله في العمل ، لا من طريق مراعاة الناس مع عدم الشعور بعظمة الله وسلطانه . فالذى ينفق ماله ليكسب حب الناس ومودتهم وتعاتمهم به ، وليكون له بينهم جاه وسلطان ، ليتوسل بذلك إلى التمكن من قلوبهم ، والسيطرة على نفوسهم ، ليصلح الفاسد ، ويقوم المعوج ، ويهديهم إلى طريق الخير - هو لا شك من القادة الأخيار ، الذين يستحقون أعظم الحمد والثناء في الدنيا ، وأحسن الجزاء عند الله في الآخرة .

وأصحاب المن والأذى هم كالمرائي في أحط صفاته ، وهو أنه مراء لا يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر ؛ فعمله مجرد من صفات الخير ، لا إيمان بالله ، ولا إيمان باليوم الآخر ، ولا هو يعمل العمل لذات الخير ، كالعمل الذى يعمل به غير المؤمنين لذات الخير غير مرأين فيه ، وإنما هو يعمل للهوى النفسى ، وشهوة المدح والجاه ، وما مثله إلا كمثل الصفوان ، وهو الحجر الأملس ، إذا كان عليه تراب ، يظنه الرائي صالحاً للإنبات ، ولكن لا يلبث هذا التراب حتى ينزل عليه وابل ، أى مطر غزير ، يمحوه فيعود ذلك الحجر أملس لا يصلح لتقبل البذور ، ولا للإنبات . فهو كما قال الله تعالى « فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً » .

والماتون المؤذون والمرءون هم سواء فى أنهم كالحجر الأملس على تراب هو عملهم الذى ىرى كأنه نافع فىنزل علىه الماء ، وهو مثل المن والأذى والمرأاة فىمحو هذا التراب وىغسله غسلا « لا ىقدرون على شىء مما كسبوا » . أى لا ىنتفعون بشىء مما عملوا يوم القىامة ، لأنه لا ثواب إلا مع الإخلاص ، ولا إخلاص مع المن والأذى والرىاء ، بل هم فى الدنيا ىكونون موضع سخط الناس ورضبهم عندما ىنكشف حالهم ، وتظهر سوءاتهم . « والله لا ىهدى القوم السكافرىن ، الذين خلت قلوبهم من نور الهداية ، فوجدوا نعمة الله علىهم ، ولم ىقابلوها بالشكران بأن ىنفقوا بما أنعم علىهم ، كما أراد الله ، من غير من ولا أذى ، ولا مرأاة ، لىكونوا فى عداد العاملين المخلصىن .

الدرس الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُوهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصْبَحْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) » أَيُودِ احْكُمُوا أَنْ تَكُونُوا لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَانِ ، فَاصْبَاهَا لِعِصَارِهِ فِيهِ نَارٌ ، فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ، ،

بين الله فى الآيات السابقة ما دعا اليه المؤمنين من الإنفاق فى سبيل الله ، وأنهم إذا أنفقوا فى سبيل الله فإن الله تعالى يضاعف لهم الأجر أضعافاً مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، ونهاهم عن أن يُتبعوا صدقاتهم بالمن على من أنفقوا عليهم ، أو لئذائهم ، بأن يسيئوا اليهم بأى نوع من أنواع الإساءة ؛ وبين لهم أن المن والأذى يبطل الصدقة ، كما تبطلها المراماة ، وأنهم هم والمرأى سواء ، فى أنهم كالحجر الأملس الذى عليه تراب ، يظنه الناس أنه تراب فيه نفع وصالح للإنبات ، ولكن هذا التراب لا يلبث حتى ينزل عليه مطر غزير ، فيذهب به ويغسل الحجر فيعود أملس ، لا يصلح لتقبل البذر والإنبات ؛ وأن هذا التراب هو مثل ما يقومون به من الصدقات ، وذلك المطر هو مثل المن والأذى والرياء ؛ يذهب بما عملوا ، ويجعله كأن لم يكن .

ثم أعقب الله هذا المثل بمثل المنفعة المخلصين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، للمقابلة ، وظهور الفرق بين هؤلاء وأولئك ، فقال : ، ومثل الذين

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة . . . ،
إلى آخر الآية .

والمعنى أن أهل البر والإحسان ، الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله ،
وهم مثبتون من أنفسهم أن عملهم خالص لله ، هؤلاء مثلهم كمثل جنة في أرض
مستوية ، جيدة التربة ، عظيمة الخصب ، إن أصابها مطر غزير آتت ثمرتها
مثلي ما كان يعمد منها ، وإن أصابها طل ، وهو الندى أو المطر الخفيف ،
فإنه يكفيها في أن تثمر وتأتي بالخير ، لحسن موقعها ، وجودة تربتها ،
وقوة إنباتها .

والوجه في هذا التمثيل أن هؤلاء المنفقين الصادقين هم كالجنة النامية ، الجيدة
الخصب ، فكما أنها إن أصابها الوابل ضاعفت الثمرة ، وإن خف المطر آتت
أَكْلُها على كل حال ، كذلك هؤلاء المخلصون في صدقاتهم ، إن وسع الله عليهم
أغدقوا الخير ووسعوا ، وإن أصابهم خير قليل أنفقوا بما يتسع إليه حالهم ؛
وهم في صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم لا ينضب معينهم ، ولا يخيب قاصدهم ،
كهنه الجنة أَكْلُها دائم ، ولا يخشى عليها التلف .

وقد ختم الله الآية بقوله : والله بما تعملون بصير ، ليعلمنا بأنه يعلم كل
أمرنا لا يخفى عليه شيء من أعمالنا ، وسيجازي كل عامل بما عمل . وفي هذا
تحذير أيضاً لأهل الرياء الذين يُعْمَلُونَ للناس بظواهرهم ، وتحذير لأهل المن
والأذى بأن الله بصير بعملهم الذي لا خير فيه .

وقوله تعالى : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ... إلى آخر
الآية ، مثل آخر ضربه الله للبرائين وأهل المن والأذى . والاستفهام في الآية
للإنكار ، والإعصار هو الريح العاصفة التي تستدير فوق الأرض ثم تنعكس
إلى السماء حاملة غباراً ، فتكون كهيئة العمود ، وهي المسماة بالزوبعة . والمراد
بالقار : السموم الشديد الحر الذي يحرق النبات والشجر .

والمعنى : أيود الإنسان أن تكون له هذه الجنة ، وهي جنة في غاية الحسن
شجرها الكرم والنخل ، اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه ، وفيها أنهار تجري

من تحتها تربدها حسناً ، وله فيها من كل الثمرات ، وقد لحقته الشيوخوخة وطعن في السن ، وذريته صغار لا يقدرّون على العمل ، ثم لم يلبث حتى أصابها إعصار فيه سموم محرقة أتت عليها فأحرقتها ، فصار في محنة ملأت نفسه غمّاً وهماً وحسرة بما ضاع من الثمرة التي لم يكن له ولذريته معاش سواها ، وأصبح في أشد الحاجة إلى النفقة .

والاستفهام الإنكارى في الآية يعطى معنى النفي ، أى لا يوجد عاقل يود أن يكون صاحب هذه الجنة ، ويصيبه ما أصاب صاحبها من التجرد من منافعها ، في وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها .

والمقصود من هذا المثل بيان حال المرائين وأصحاب المن والأذى ، الذين قرّنوا صدقاتهم بما يبطلها ويذهب بثوابها ، وذلك أنهم يجيئون في الآخرة وهم في أشد الحاجة إلى ثواب ما عملوا فلا يجدونه ، وفي غاية العجز عن اكتساب ما ينفعهم ، فيصيبهم من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلى الله . فمثلهم مثل ذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته في حال حاجته إليها ، وضرورته إلى ثمرها ، وضعفه عن عمارتها ، وفي حال صغر أولاده وعجزهم عن إحيائها والقيام عليها .

وبعد أن بين الله للمؤمنين ما ينبغي أن تكون عليه صدقاتهم ، وذلك بأن تكون خالصة لله لا يشوبها من ولا أذى ولا رياء ، وضرب لهم الأمثال ليعتبروا ، أعقب هذا بقوله : لعلكم تتفكرون ، أى أن الله تعالى قد بين لكم حقائق الأمور وما فيها من خير وشر بالأدلة الواضحة البينة ، وضرب لكم الأمثال لتتفكروا في عاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق السوى ، فتضعوا نفقاتكم في مواضعها التي يرضاها الله .

هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من الصفات وقت البذل ، وهى الإخلاص لله في أداء الصدقة ، وأن يتثبتوا من أنفسهم أن عملهم خالص لله

أما المال المنفق فقد وصفه الله في قوله : يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، وما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ، (٢٦٧) . والطيب : هو الجيد الذى تستطيبه النفس . والخبيث : هو الردى الذى تكرهه .

وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما نقل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجمهور من أئمة التفسير ، كما فى تفسير الطبرى والفرطى . أما ما نقل عن ابن زيد بن أسلم من أن المراد بالطيب الحلال ، وبالحديث الحرام ، فلا يظهر وجهه ، لأنه لا يتفق مع نظم الآية فى قوله : « ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ، ولا مع ما ورد من الآيات الأخرى ، مثل قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » ، لأن المعنى حينئذ : « يحل لهم الحلال » ، ويحرم عليهم الحرام ، وهو من تحصيل الحاصل ، ولا يتفق مع ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية ، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقته من ردى التمر .

فقد روى أن بعضهم كان يعزل الردى من التمر ، حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه له فيما عليه من الصدقة ، فنزلت الآية . ومع هذا فالخطاب للمؤمنين ، والأصل فى أموال المؤمنين أن تكون حلالا ، وهم إنما خوطبوا بالإتفاق مما فى أيديهم .

وقد بين الله فى الآية صفة المال المبذول فى الصدقة ، وهو أن يكون من طيب ما نكسب بعملنا ، كنكسب العمال والتجار والصناع ونحوهم ، ومن طيب ما تخرجه الأرض لنا من الزروع والثمار والمعادن والركاز وغير ذلك مما تحويه الأرض .

وقد نهى الله تعالى فى الآية عن أن نعود إلى الردى من أموالنا فنبدله فى الصدقة .

أما المال المتوسط بين الجودة والرداءة ، فالآية لا تمنع من بدله ، ولكن بذل الجيد أفضل ، لأن الصدقة قربة إلى الله ، وخير ما يتقرب به إلى الله أجود الأموال وأفضلها ، هذا إذا كان بعض المال جيدا وبعضه رديئا فقصد إلى الردى فأخرجه فى الصدقة وأبقى الجيد لنفسه ، أما إذا كان كل ماله دون الجيد أو كان الحاضر منه كذلك فتصدق منه كان عمله محمودا عند الله تعالى لأنه أنفق مما أعطاه الله من فضله ولم يبخل .

وفى قوله تعالى : « ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ، ما يشعر بالتقريع والتوبيخ لمن يتصدقون من ردى أموالهم . أى كيف تعتمدون الى الردى من أموالكم تتصدقون به وأنتم لا ترضون مثله لأنفسكم فى معاملتكم إلا إذا أغضيتكم النظر عما فيه من العيب تساهلا منكم !

ثم قال تعالى : « واعلموا أن الله غنى حميد » ، أى دعوا هذا المال الخبيث الذى لا خير فيه فالله غنى عن صدقاتكم وعن غيرها ، ولما دعاكم الى بذل الصدقة من طيب أموالكم ليغنى به عائلكم ، ويقوى به ضيفكم ، ويجزى لكم به فى الآخرة مثوبتكم : فهى لخيركم ومصلحتكم ، لا من أجل حاجته إليكم . وهو المحمود الواجب شكره على ما هداكم إليه من الخير ، وعلى ما تفضل وأنعم به عليكم .

ولما رغب الله المؤمنين فى أن تكون صدقاتهم على الفقراء وفى سبيل الخير العام من خير ما يملكون ، ونهاهم عن التصديق بالخبيث ، لفهم الى ما يمرض للنفوس من الوسوس التى تُتَخَيَّل لها أن الإنفاق يفضى الى ضياع المال وسوء الحال ، وأن الخير فى إمساكه ليسكون عدة المستقبل عند الحاجة إليه ، فقال : « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء » ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (٢٦٨) .

والمعنى أن الشيطان يعدكم الفقر ، أى يخوفكم منه ويخيل إليكم أن الإنفاق فى سبيل الخير يذهب بالمال فلا تجدونه وقت حاجتكم إليه ، ومع هذا هو يأمركم بالفحشاء ، وهى المعاصى ، ويغريكم بالإنفاق فيها . أو المعنى أنه يخوفكم من الفقر ويأمركم بالفحشاء أى البخل ، أى ويغريكم بالبخل لإغراء الأمر بالمأور . والفاحش عند العرب البخل ، كما فى قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ويقابل وسوسة الشيطان بالخوف من الفقر والإغراء بالبخل ، وعداؤه لنا بأن الإنفاق فى سبيل الله ومواساة الفقراء ، كل بحسب مقدرته وسعة حاله مع الابتعاد عما يذهب بشمرة الصدقة من المن والأذى والرياء ، سيكون منه الخير العام لنا فى الدنيا والآخرة . ففى الآخرة غفران الذنوب وتكفير الخطايا ،

وفي الدنيا ما يخلفه الله عليا من فضله ، وهو واسع الفضل ، يحقق ما وعدنا به ، وهو عليم بما تنفق ، يحصيه ويجزى عليه .

وقد جاء في الكتاب الكريم : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين ، وفي صحيح البخاري ومسلم : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملئان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفعا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا . أي أذهب ماله إلى حيث لا خير فيه . فالله تعالى وعد المتصدقين بأنه يخلف عليهم ما تصدقوا به ، ولكل ما يخلفه الله ليس ضروريا أن يكون من نوع ما أنفقوا ، بل قد يكون من الأمور المعنوية التي يحبها الإنسان وبرائها خير أ من كثير من المال وذلك كالذكر الحسن الذي يحصل لأهل البر والاحسان بين مواطنهم ، أو حب الناس لهم ، وتعلق القلوب بهم ، وكأن يرزقهم الله ذرية نافعة لخير الدين والدنيا ، ونحو ذلك من الأمور المعنوية التي يحبها الناس وليست بمال .

وقد يكون ما يخلفه الله من الأمور المادية ، وذلك بأن يسهل الله للمنفقين طرق الرزق ، وييسرهم بالعمل الذي يُدرُّ عليهم المال الذي يخلف الله به ما أنفقوا أو يزيد ، أو يرزقهم بما لا يكون في الحساب مما ليس لهم فيه كسب ، كالمال الذي يجيء من طريق الميراث أو الهبات أو الوصايا أو غير ذلك .

ويدخل في عداد البر والإحسان الذي يخلفه الله على المنفقين ، ما ينبغي أن يقوم به أصحاب الشركات وكبار الملاك من البر والإحسان نحو عمالهم الذين يعملون لهم ، بما يدفع حاجة هؤلاء العمال ويصلح شؤونهم المأشوية والصحية والاجتماعية لأن إنفاقهم في هذا السبيل هو من باب الانفاق في الخير العام للامة ؛ لأن العمال جزء منها ، والامة كل يتكون من عدة أجزاء إذا صلتحت صلتحت الامة كلها . فلينفقوا ، وليسبروا عمالهم ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك حق لهم ما وعدهم الله به من فضله عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفضل الله عليهم قد يكون من طريق الإرشاد والهداية إلى أقوم الطرق وأصلحها للإنتاج والنجاح في العمل ؛ وقد يكون من طريق ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، وهو النظام الذي سنه الله في هذه الحياة . وذلك لأن إصلاح

شأن العمال والإحسان إليهم يغبطهم ويحبب إليهم الملاك ، فينشطون إلى العمل بنفس قوة ، رائدها الإخلاص ، والإنسان عبد الإحسان ، فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة بما لا يقاس معه المال الذي أنفق في سبيل البر والإحسان إلى العمال .

وهذا فضل الله الذي يخلف ما أنفقوه . والله واسع الفضل ، عظيم الخير .
هـذا وعد الله ، وذلك لإغواء الشيطان ، الشيطان يعدكم الفقر وبأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ،

قوتان تلمان بالنفس عند نزوعها إلى عمل الخير : وسوسة الشيطان وهى قوة الشر التى تخوِّف من الفقر وتأمر بالفحشاء ، وإلهامات الرحمن وهى قوة الخير التى تدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله ، حيث يكون فضل الله ومغفرته .

وفى صحيح الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأبعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأبعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ : الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، واللئمة هى الهمة والخطرة التى تقع فى القلب ، فما كان منها من خطرات الخير فهو من الإلهامات الإلهية ، وما كان منها من خطرات الشر فهو من الوسوس الشيطانية .

فيا أيها المؤمنون : إذا أملت بكم قوة الخير فاحمدوا الله عليها ، وإذا أملت بكم قوة الشر فاستعينوا بالله من الشيطان ، وتحصنوا بحمى الله منه ، وأقدموا على فعل الخير ، وعودوا أنفسكم عليه ، حتى لا تُنلِمَ بتلو بكم خطرات الشيطان ولا وسوسه وهواجسه .

وانتم أيها الباخلون : راجعوا أنفسكم ، وحاسبوها ، وانظروا أين تضعون ثقتكم ، أفى وعد الله تعالى أم فى وسارس الشيطان ، وأى الأمرين تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه قلوبكم : وعد الله لكم بالخير أو إبعاد الشيطان لكم بالشر وقد ظهر الحق ووضح الطريق .

وقد أرشدنا الله تعالى بقوله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) ، إلى أن ما يقع في قلوبنا من الوسوس والهواجس الشيطانية ، والإلهامات الإلهية ، ويشتهبه الأمر فيه علينا ، إنما يتميز بالحكمة التي يوفقنا الله للحصول عليها . والحكمة هي العلم الذي تعظم منفعته ، وتَجِلُّ فائدته ، وهو العلم الذي يكشف حقائق الأشياء ، ويفرق بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار ، ويميز الإلهامات الإلهية من الوسوس الشيطانية ، ومن يؤت هذا العلم النافع الذي تَجِلُّ فائدته فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، الذين فتح الله قلوبهم للتقوى ، وأعدهم لقبول الهداية .

لَيْسَ هِنَا نَبْدَأُ

ليس من هنا نبدأ ، لأننا بدأنا فعلا من حيث يجب أن نبدأ ، وقد قطعنا مرحلة من الطريق التي يجب أن تسلك . فإن استعرض الباحث ما كنا عليه من حياتنا الاجتماعية والعلمية والعملية ، رأى رأى العين صدق ما نقول ، واستطاع أن يقدر ما قطعناه من الطريق في كل وجهة من وجهات الحياة الأدبية والمادية . فتمد أدركنا أن أساس الحياة العلم والعمل فاندفعنا في سبيلهما بقدر ما تستطيعه وسائلنا المادية والمعنوية ، فإن كنا لا نزال متأخرين عن الأمم التي تعتبر مُثُلًا عليا فيهما ، فذلك إلا لأننا بدأنا بعسرها ببضعة قرون ، فإن دأبنا وضاعفنا جهودنا فلا شك في أننا مدركوها وسائرون إلى جانبها وربما سيقناها ولا حرج على فضل الله .

فيجب علينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن ندرأ عنا شيطان العجلة فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبق .

نعم أن الغيرة الوطنية تشتد في بعض النفوس فتحتقر جهود الأمة التي تبذلها لتلحق بالقافلة ، فتشدد وطأتها في النعى على بطئها وتردها ، وفي التشهير بتؤدتها وتواكلها ، وهذه النزعة الحماسية من تلك النفوس تضر أكثر مما تنفع ، فهي تغذو مادة اليأس في قلوب الضعفاء ، وتزيد من عديد الجامدين على القديم منهم ، ولو تأمل هؤلاء المتحمسون منا لرأوا أن الأمة بجملتها استقامت في طريق الذين سبقوها . وترسمت خطاهم ، وتشبعت بفكرة اللحاق بهم ، وهي نزعة إذا سلبت من المثبطات أدت بأهلها إلى اللحاق بمن سبقوها ، لأنها تسلك طريقا عبثا من تقدمها فكفيت مؤونة التعييد والتمهيد ، وهما من أشد القواطع للساكنين ، فتقطع في الزمن القصير ، ما كان يضطرها للصبر الطويل ، وبذل الجهد الجهد . وفي ضرب المثل بالأمة اليابانية مقنع .

فتمد كانت هي والصينيون على مدنية عريضة في القدم ، ولسكنها كانت مدنية صناعة دقيقة وتفكير عميق ، ليس لقوى البخار والكهرباء فيها من نصيب . فتنبه

اليابانيون لذلك منذ نحو مائة سنة ، فاستخدموها فلم تمض عليهم بضعة عشرات من السنين حتى ارتقوا إلى مصاف الأمم الأوربية ، واحتذت حذوها الأمة الصينية ، فبلغت مكانة فيها . ونحن بعد فترة قصيرة من الزمن نستكمل فيها تعميم التعليم ، ويكثر بين ظهر انينا المتعلمون الذين لا يجدون عملا ، فيضطرون بحكم الضرورة الحيوية للبحث عن عمل يحصلون من القيام به ما يسد حاجتهم المعيشية ، وكلما اشتد بهم الضيق تشددوا في تركيز قواهم العقلية في ابتكار ما يوصل إلى كسب القوت من عمل يثيب الناس القائم به ، فتتفتح أمامهم ضروب الحاجات المعيشية والصناعية ، فيضطروا للاشتغال بها ، ولكنهم بسبب تفوقهم في القوة الفكرية يعملون عتولهم في التجديد والابتكار فيصلون بها إلى درجات رفيعة مما يرقى ذوق المجموع ويحمل مظهره ، ومنهم من يتوصل إلى اختراع أداة يصل من ورائها إلى أبعد حدود الثروة ، ويكون قدوة لغيره في إدمان التفكير في خدمة المدنية . وبازدياد عديد المفكرين من هذا القبيل تزداد قيمة الأعمال الحرة والعاملين فيها ، ويتمنى الذين يجرون وراء الوظائف الديوانية لو أتيح لهم أن يكونوا من قبيل هؤلاء الأحرار النافعين .

على هذا الوجه بدأت الحال في أوروبا ، وقد بلغت اليوم أوجها الأعلى ، فمن هؤلاء الرجال من لو بذلت له الحكومة مالا جما ليشغل وظيفة في إحدى مصالحها ، بل لو عرضت عليه وزارة من وزاراتها لأبى ذلك عليها ، لثقته بأنه يعمل عملا أشرف من عمله في وزارة وأنفع منه للأمة .

على هذا الوجه ترتقى الأمم ، وتبلغ أقصى الغايات في المدنية ، وليس بلوغ هذه الغايات بوقف على جنس من أجناس البشر ، ولا على قبيل منهم ، فجميعهم سواء في الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الحياة ، وقد وصل معظمهم إليها في مدى وجودهم . فالذين يقولون بوقف هذه الغايات على بعض الأجناس دون البعض الآخر واهمون .

فمن الذي يصدق الآن أن الأوروبيين الذين تضرب بعظمة مدينتهم الآمال ، كانوا قبل بضعة مئات من السنين في حالة من الانحطاط يصعب تصديقها الآن . فقد كانوا يبنون بيوتهم بالحلفاء ويلطخونها بالطين ، ولا يجعلون لها مداخن

يتسرب منها الدخان . وكانوا يرمون فضلات النباتات واللحوم التي يتخذون بها أمام الدور فيتراكم عليها الذباب ، وتتصاعد منها الروائح الكريهة . وكانوا يضطهدون النساء ويضعون على أفواههن الاقفال لينعوهن من الثرثرة والقييل والقال . وكان رجال الدين عندهم يضطهدون من يظهر منهم ميل إلى الفلسفة أو العلم ، ومن كان يثابر على الاشتغال بشيء من ذلك ، وفيها ما ينافي ما عندهم من كروية الأرض وصغر حجمها بالنسبة لغيرها من الكواكب ، يلقونه في النار بحجة أنه مناهض للكتب الدينية ، فأحرقوا على هذا الوجه أكثر من ثلاثمائة ألف عالم ومتعلم بهذه الحجة ، حين ثبت لهم أنهم يدأبون على ما هم عليه ، لمنافاته للدين فيما يزعمون .

أما الصنائع والفنون فكانوا منها في الحضيض . قلنا فن يصدق أن هذا كان ماضى أوروبا قبل بضعة قرون ، وهو يراها اليوم صاحبة الزعامة العلمية ، ورافعة علم المدنية في جميع الآفاق ؟

فالأمم تنحط وترقى ولا علاقة لذلك بجنس أو لون أو مناخ . أليس العرب الذين كانت تضرب بجاهليتهم وأميتهم الامثال هم الذين أحيوا موات العلم بعد دخولهم في الإسلام ، ورفعوا علم المدنية ، وآخوا بين الدين والعلم مؤاخاة لانقسام لعراها بفضل هذا القرآن ؟

محمد فريد وهبى

وصف حصان

ما مقرف يَحْتال في أشطانه	ملآن من صلف به وتلهوق
تغرى العيون به ويفلق شاعر	في نعته عفواً وليس بمفلق
قد سالت الأوضاح سيل قرارة	فيه ففترق عليه وملقى
صافى الأديم كأنما ألبسته	من سندس ثوباً ومن إستبرق
مسرد شطر مثل ما اسود الدجى	مبيض شطر كايضاض المهرق
فكأن فارسه يصرف إذ غدا	في متنه لبن الصباح الأبلق
أمليسه أمليسه لو علقت	من صهوتيه العين لم تتعلق

التفسير

بقية تفسير سورة الفاتحة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ مامد محبس

عضو جماعة كبار العلماء

قد انتهينا فيما سبق من التفسير إلى قوله تعالى «إياك نعبد، فلنبداً في الكلام على بقية السورة فنقول: إلى هنا قد تم بالآيات السابقة إذعان العبد بأن أولاه وآخرته إنما هما لله، وأنه تعالى المنفرد باستحقاق الحمد والتقدير لأنه وحده الممد للعبد بالوجود والمتعهد له بالتربية والمفيض عليه في كل أطواره.

واسع رحمته والمجازى له على عمله يوم الجزاء على الخير خيراً وعلى الشر شراً، فهو المهيمن عليه وهو مالك أمره في حياته. هنا وقد تم ذلك، أدرك العبد ألا مناص من الله تعالى إلا إليه فهو المرجع وإليه المصير.

وهنا وقد ملكت نفسه موجة من هذا الشعور كان لابد أن يسأله خاطره إذا كان ذلك شأن الله في رحمته وعظمته وملكوته لكل شيء فهل هناك في الوجود من يستحق أن يعبد ويقدر وأن يعظم ويكبر سوى من ذلك شأنه. ويكون جوابه هذا السؤال حتماً أنه تعالى وحده دون سواه هو المستحق لأن يفرد بالآلوهية ويختص بالعبادة ويصور ما اقتنعت به نفسه من الحق المبين وما امتلأ به قلبه من نور اليقين بقوله «إياك نعبد»، مما يفيد في الأساليب العربية اختصاصه بالعبادة أي يارباه يامن تولاني برعايته وغمرني برحمته يامسبغاً على نعمه وناشراً حولي رحمته يا مالك شأني كله في أولاي وآخرتي إن لك وحدك التقديس وإن لك وحدك العبادة والتزيه فلا إجلال إلا لك ولا تعظيم لسواك.

ولما دفع العبد إلى الإقرار بوجوب إفراجه بالعبادة ما ذكره له تعالى

من عظيم النعم وواسع الرحمة ، وما أيقن به مما سيقام يوم الجزاء من موازين العدل التي لا يضيع معها على العبد أوله مثقال ذرة من خير أو شر .

هنا وقد دفعه ذكر ذلك إلى التيام بواجب المنعم الرحيم والمجازى العادل وجد أن ما يقوم به من عبادة مهما أخلص فيها وأطال فليس موفيا حق الله عليه فلم يبق أمامه من سبيل يسلكه للوفاء بحق ربه أو المتاربة من الوفاء إلا أن يسأله تعالى المعونة حتى يوفى أو يدانى الوفاء وإذ ذاك يقول : وإياك نستعين .

أى لا أطلب إلا منك المعونة فأنت التدبير على كل شئ والعليم بباطن الأمور وظاهرها لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نيسة فإمدادك أنت هو الإمداد ومعونتك هي المعونة .

وهنا يدور بنفس العبد حين يملك نفسه هذا الشعور ويستغرق في ذكر عظمة الله ورحمته - سؤال - إذا كنت لا تسأل غيره اعونة فقيم تسأله المعونة أفى شأن دنياك وشخصك أم فى شأن آخرتك وربك ، وهنا يكون الجواب ببيان ما يسأل العبد ربه فيه وأن أحب شئ إليه إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصله إلى أسمى غاياته وأعظم مقاصده فيقول : إهدنا الصراط المستقيم .

أى اهدنا ربنا إلى ما يوصلنا إليك ، ودلنا على ما تحل به ساحة رضوانك ، وذلك هو الطريق المستقيم المفضى بنا فى اختصار إلى ساحتك وجنبنا معوج الطرق مما يبطئ بالسائر عن الغاية ومما قد يضل بالسائر عن المقصد .

وهنا إذ يشتد قرب العبد من ربه ، فيزداد احتياطه فيما يؤدى به إلى الغاية من واضح الطرق وقسيمها ، تراه يزداد فى التحرى والاحتياط لذلك لم يكتف العبد بسؤال ربه الهداية إلى الطريق الموصوف بالاستقامة ، بل زاد فى بيانه فقال : صراط الذين أنعمت عليهم ، وإنما اختار فى البيان أن يضيف الطريق إلى المنعم عليهم لمعينين : أولهما هو إبراز نفسية المحب المخلص ، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه ، وتفعم قلبه ، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثمة ويفعم قلبه طمأنة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ، كما فصل ذلك في غير تلك الآية . وثانيهما : أن من خواطر المؤمل في نعم ربه أن يكون تمامه في رفقة من الناس صالحين وصحب منهم محسنين .

ولما كان قد يتسرب إلى عموم النفس لفظ المنعم عليهم للكافرين والمؤمنين والعاصين والطائعين ، فقد زاد في تحديد المراد بوصف المنعم عليهم بأنهم « غير المغضوب عليهم » ، مبالغة في التحديد وزيادة في البيان حرصاً على من يتم بهم ومعهم استمتاعه بنعيم ذي الجلال ورضاه .

كما أنه زيادة في التنصيص على تمييزهم عن غيرهم ممن غضب الله عليهم ومن ضلوا سبيل الرشاد ليكون في ذلك إيماء إلى شدة حرصه على تجنب سبيل الضالين وإشارة إلى شدة الاحتياط لوضع الحواجز القوية لحفظ نفسه عن أن يفد عليها خواطر غير مرادة - وإن خرجت بعد ذلك - طريدة التأمل كما هو شأن أساليب القرآن في أنها لا تدع احتمالاً غير مراد يمر بالنفس ، كما أنها لا تترك معنى مراداً دون أن تمسكه في النفس .

ذلك أن نعم الله منها ما قد تشمل الكافر والمؤمن . والعاصي والمطيع ، فقوله تعالى ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قد لا يمنع لأول سماعه أن يتسرب إلى الذهن شموله وعمومه ، فلدفع هذا الخاطر من أول الأمر جرى بذلك التحديد للمراد من المنعم عليهم ، وأنهم الفائزون بنعمة الرضا بما آمنوا واتقوا ، والمثابون بحسن الجزاء بما صبروا وأحسنوا . فليس المراد مطلق منعم عليه ، بل المراد من نعموا برضا الله وحسن جزائه .

ولما كانت المقابلة بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين ، فقد قدم الأول على الثاني في الذكر ، وإنما جمع بينهما لأن العبد كما قلنا آنفاً كلما اشتد قربيه من ربه ، قويت حيلته لطريق فوزه وسلامته ، واشتد بغضه لمن لم ينالوا بالطاعة والتقرب رضا ربهم ، فكان عن ذلك المبالغة في بيان كل من يترب من ربه أن يجنبه طريقهم باستقاء عناوين الطوائف الذين حادوا عن الجادة ولم يهتدوا سواء السبيل .

ومن هذا تدرك ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من تصوير الفطر السليمة في تدرجها في الاتصال بربها وترتيبها في ما تطلبه إليه وفق قربها منه وقوة علاقتها به .

فإن الفطر إذا سلمت وحاطها من الشئون ما يعود عليها بالصقل والاستئارة ترى أنها أول ما تشعر به هو ما تحسه من نعمة وما يحوطها من رحمة يبعثها نحو الثناء على الله وحمده لما تدركه من حياطها بصانعه منذ تكويناها من الطين إلى أن بلغت مبلغ التفكير والاستنتاج وترتيب المعلومات فهي إذ تدرك نشأتها وتقلاتها في حياطة ربها وفي صيانة من رحمته تنبعث إلى اختصاصه بالحمد والثناء فإذا اتسع أفقها في التفكير وانبعثت إلى الخلوص من حيرتها في أن هذا العالم علويه وسفليه وما احتواه من أنواع وأجناس من ناطق وغير ناطق كيف يكون ذلك النظام البديع والملك المتقن إنما هو لتلك الأيام المعدودة التي تنتهي بموت الناس وفنائهم . هذه الحيرة وذلك التردد يبعث النفوس إلى الحكم بأن وراء تلك الحياة حياة أسمى من تلك الحياة وفيها يتفاوت الناس وفق تفاوتهم فيما أتوا في حياتهم من سوء أو حسن ومن خير أو شر . ذلك هو يوم الدين يوم الجزاء العادل يوم إقامة الموازين . فإذا بلغت الفطرة ذلك وأن هناك حياة أسمى من تلك الحياة فيها المقارنة العادلة بين أفراد البشر التجأت الى التقرب من خالقها حتى تؤدي واجب النعم في الدنيا وتحظى بالجزاء الحسن في الآخرة ، فيعلن في خضوع أنها تعبدته وتقدهه ولا تعبد غيره ولا تقدس سواه وإذا تحس الفطرة بواجب العبودية وأنه عظيم قد لا نستطيع له أداء أضطرت إلى سؤال معونته تعالى فإذا عبت وسألت المعونة اشتدت حيطتها فسألته تعالى الهداية إلى أوثق طريق يؤدي للغاية طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين . وبهذا تكون سورة الفاتحة قد أجمل فيها كل ما جاء مفصلا في الكتب السابقة وفي القرآن فإنها لم تعد شرح ما لله من نعم توجب حمده وبيان وعد ووعيد يوجب اتقائه وخوفه كما يوجب الرغبة فيه والسعى في سبيل رضاه ورسم طريق لما يؤدي به واجب العبودية وما توفي به مظاهر التقديس مهيئة طريق الحق الذي سلكه الفائزون وسار عليه المحسنون .

نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين ؟

بهاء الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغى

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

تختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حقبة طويلة من الزمن وطلبتهم مناصب الفتيا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عندهم معين صاف من العلم يرده الظالمون المتعطشون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يعرض لهم من حوادث الزمن وما هم في حاجة إليه من حكم الشريعة الغراء .

وهذا بهاء الدين رابع الثلاثة السبكيين وإسمه محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكي المسكنى بأبي البقاء كانت ولادته سنة سبع وسبعائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعى كعلماء أسرته وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقي الدين السبكي الذى لازمه ملازمة طويلة فى أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه الآخرين الحجار والدبوسى وعبد الله بن علي الصنهاجى والمزى والبرزالى والجزرى وعلاء الدين القونوى والقطب السنباطى ، وقد مهر فى اللغة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام . ولما ثبتت قدمه وتم نضجه العلمى واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها وذويها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكال التحصيل تصدر - على عادة الشيوخ - للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عذبا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة . وقال صاحب الدرر الكامنة : وذكر لى الشيخ شمس الدين ابن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضح إذا توجه عليه البحث وغالب من لقيناه كان يبالغ فى وصفه بالتحقيق والحذق ، وكانت له رحلات فى سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقي الدين سنة تسع وثلاثين وسبعائة وناب عنه فى قضاء الشام ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة فى القضاء فقد ناب عن القاضى عز الدين بن جماعة فى منصبه ثم أضيف إليه قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف ثم خلف عز الدين فى وظيفته سنة ست وستين وسبعائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه

من دربة وحذق وكياسة مع احاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضياً بدمشق إلى حين وفاته وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره وكان العماد الحسباني يشهد أنه يحفظ الروضة وكان هو يتمول عن نفسه أعرف عشرين علماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحد .

وقد أثنى عليه الذهبي ووصفه بأوصاف المبرزين في العلم الحاذقين لدقائق المسائل الغائضين في بحار العلوم والمعارف ، وقال عنه ابن حبيب : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضياؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماماً في المذهب طرازاً لردائه المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة في التفسير واللغة والنحو والأدب ثمة في الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهور في البلاد والأمصا سالك طريق من سلف من سالفه الأنصار . درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد .

وهذه شهادة من ثمة تدل دلالة لا ريب فيها على أن مترجنا قد حاز الأوصاف التي تليق بالائمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويظهرون أنفسهم ويستخون بما وهبهم الله تعالى من تفته في الدين فهم يجودون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد لكل من قرع بابهم وطلب منهم النوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية ، وإن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه في القضاء لدليل واضح على صلاحيته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير ، وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبه في الحياة التوجيه والإرشاد والاندماج في المجتمعات وتولى الشؤون التي لا تستقيم أمور الأمة إلا بها . وقد اختلفت كتب التراجم في ذكر مصنفات له فيتمول صاحب شذرات الذهب في اخيار من ذهب طبعة مكتبة القدسي في الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه : ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً ، ويتمول صاحب الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند في الجزء الثالث صحيفة تسعين وأربعائة وما بعدها ما نصه : ولم يظهر له من التصانيف شيء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصلي ، وعلى المطلب لابن الرفعة .

توفي رحمه الله بدمشق في جمادى الأولى سنة ٧٧٧هـ ودفن بسفح قاسيون بتربة السبكين .

المسلم والقرآن

للدكتور محمد يوسف موسى

هذا العدد تختم المجلة عامها الحاضر ، وبهذه الكلمة أوشك أن أختم فترة - إن لم أقل عهداً - من فترات حياتي العلمية ، فليكن الحديث فيها على بعض واجبات المسلم بالنسبة للقرآن ، ولا عجب : فنحن في الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

تحتفل مصر ، مثلها في هذا مثل كل بلد إسلامي ، بهذا الشهر المبارك بكلمات تنشر في الصحف وأحاديث تذاع بالراديو ، وإن كان الكثير من هذه الكلمات والأحاديث من المعاد المسكرور الذي لا يكشف عن جديد ، ولذا نراها فقدت لذة الجديد وأصبح تأثيرها جافاً قليل .

على أن لرمضان وهو الشهر الذي اتصلت فيه السماء والأرض بنزول القرآن ، وهو الشهر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل وأذل فيه الشرك وأهله في غزوة بدر الكبرى ، من الجلالة والكرامة والمنزلة ما يوجب أن يكون احتفالنا به على نحو آخر غير ما ألفنا كل عام .

أريد أن أقول بأن رمضان وهو موسم خير وبركات يجب أن تتجدد فيه العزائم وتنعقد الإرادات على أن نكون خيراً مما نحن ، وعلى أن ننهض فيه لحياة عزيزة خير من الحياة التي نحيها الآن ؛ وهذا ما لا يكون إلا بعد أن نفهم القرآن حق الفهم ، وأن نتعرف ما جاء به من هدى وبينات ، وأن نلجأ إليه فنتخذ فيه مثال المسلم الكامل الذي يعرف مكانه في الحياة ومركزه في قيادة العالم .

١ — لقد آن للمسلم ، منذ زمن طويل أن يظفر بتفسير للقرآن يستغنى به عن التفاسير التي ورثها عن القرون الوسطى والتي أصبحت لا تلائم روح العصر الذي نعيش فيه ، هذه التفاسير المذهبية ، والملئية مع هذا بما لا يتفق مع الحق من الإسرائيليات وغير الإسرائيليات . نريد تفسيراً وسطاً بين الإطناب والإيجاز

تتجلى فيه روح القرآن العظيم ، عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتقاليد طيبة ، فى التسك به عز الدنيا والآخرة ، تفسيراً يعرف منه المسلم أمور دينه ودنياه فى سهولة ويسر ، تفسيراً صالحاً للنقل إلى كل لغات العالم الحية ليعرف غير المسلم ما هو القرآن وما هو الإسلام الذى يقوم على هذا القرآن .

مثل هذا التفسير أصبح ضرورة لازمة وفرضا على الأزهر ورجاله ، بل فرض عين على القادر منا بما وهب الله له من العقل النافذ والأسلوب الممتع العربى المبين ، ويمكن له من قلوب الناس . متى ، إذأ ، نرى من يعكف على هذا المهم الجليل يقف عليه وقته وجهده ، ويخرجه للعالم أثراً يبق على الزمن ؟ مثل هذا العمل الجليل يكون خيراً للإسلام والأزهر ولمن يقوم به من الاصطلاح بأكثر المناصب فى الأزهر ، ولعل الله يفتح له قلب من تعنيه بهذا الحديث لى هذه الناحية فيقبل عليه مصحوباً دائماً بعون الله وتأييده ، وبخاصة وما ظهر له حتى الآن من دروس أو محاضرات فى التفسير يجعلنا نتق بأنه المرجى المأمول لهذا العمل الكبير .

والقرآن فيه ، مع هذا ، هدى ، فيما يختصم العالم اليوم بسببه من مشاكل السياسة والحكم والاقتصاد . إن فيه المذاهب المثلث فى كل هذه النواحي الحيوية ، وفيه - بصفة خاصة فى المشاكل الاقتصادية - المذهب الذى يحقق العدالة الاجتماعية كاملة بين أبناء الوطن الواحد . وكل ما علينا ، لنعرف هذا المذهب ، أن نقرأ القرآن لهذا الغرض ، وأن نتدبره حين نقرؤه ، وأن نضم للآية ما يتصل بها من حديث الرسول ، ثم نضم لهذا أو ذاك شواهد من التاريخ الإسلامى الصحيح فيها إيضاح وتطبيق لأصول هذا المذهب الذى يدعو إليه .

إنه ليس من الكرامة ولا من العقل فى شيء أن نولى وجوهنا شطر الغرب نلتمس لديه ما نحتاج من نظم سياسية أو مالية ، ولدينا القرآن لم نستخرج منه بعض ما يذخر به من كنوز !

سنجد إن درسنا القرآن هذه الدراسة ، أنه حين أباح الملكية الخاصة قد قيدها بقيود لا تبيح أن يكون منا من يملك الآلاف ومن لا يملك قوت يومه بانتظام ؛ وأن للفقراء فى الأموال التى تحت أيدي الأغنياء حقوقاً أخرى غير الزكاة المعلومة المفروضة ؛ وأن الإسلام حرص على أن يكون المجتمع الإسلامى كله متماسكاً

متضامناً ، لافرق بين المسلم وغير المسلم ، بحيث يجد كل من أعضائه العون حين الحاجة له من صغر أو زمانة أو كارثة حلت به مع الفقر ، وهذا ما يسمى في عرف الاقتصاديين المحدثين ، بالضمان الاجتماعي .

متى نعود للقرآن تفهمه وتتخذة لنا مثالا ؟ متى يارب متى ؟ ومتى يصرف الشباب في البلاد الإسلامية وجهه عن هذه الحياة التي يحياها ، ويولى وجهه نحو القرآن يتخذة إماما ؟

٢ — يرى شاعر الإسلام الدكتور ، محمد إقبال ، ، ورأيه الحق ، أن هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه ويفكر بعقله ، بل إن حياته عارية من الغرب فصار ظلاً لأوروبا ، وهو في ذلك يقول (*) :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ؛ مصقول الوجه ، مظلم الروح ؟ مستنير العقل ، كليل البصر ؛ ضعيف اليقين ، كثير اليأس هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، وبين الأجانب من تراهم الإسلامي كئاس وأدياراً . شباب ناعم رخو كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية . إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويديعون أرواحهم في ذلك .

« عمول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالقوارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول المساديات . قلوبهم لا تتلقى الخواطر ، وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة . »

٣ — هذا هو وصف شباب الجيل الحاضر في رأى إقبال ، ويحسن بجانبه أن نذكر رأيه في المسلم كما يجب أن يكون :

(*) هذه القول وما يحىء بعدها عن الرسالة اللطيفة القيمة التي أصدرها هذه الأيام ضيف مصر الأستاذ الكبير أبو الحسن علي الحسيني الندوي واسمها : « شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال » ، وهي رسالة يجب على كل مسلم استيعابها وتذورها .

«المسلم المثالى هو - فى رأيه - الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بأفاقته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الخميرة .

«وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ؛ ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول .

«هذا المسلم - فى رأى إقبال - لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ويملى عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تنسك له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويهلم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله حتى يقضى الله فى أمره ؛ وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفه الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد . وفى هذا يقول «إقبال» ، متمثلاً :
«سألتى ربى : هل ناسبك هذا العصر والنسجم مع عميد تلك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : لخطمه ولا تبالى !» .

وأخيراً ، يرى «محمد إقبال» أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء الأقزام . وفى هذا يقول فى بعض شعره : «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد» . كما يقول : «إذا أحسن المرء تربية شخصه ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه» . وبعد : هذه الصورة للمسلم المثالى فى رأى إقبال ، مع بيان مكان هذا المسلم فى العالم ، ليس لنا فيه من فضل إلا فضل الناقل لبعض ما يستحسن ؛ لعل فى ذلك ما يفتح أعين النائمة ، ويسمع الآذان الصم ، ويهز القلوب التى جمدت مع الدهر لتخشع لذكر الله وما نزل من الحق . ولعل فى ذلك أيضاً ما يلفت شبابنا عن الحياة الهزيلة الماسجة التى يحياها ، إلى الحياة الجادة السكريمة التى نرجوها له ، وبالله التوفيق .»

مذهب الامام مالك

في الأندلس والمغرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

فتحت الأندلس والخلافة الإسلامية في دمشق ؛ وإمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعي ؛ يتفقون على مذهبه ، ويتعبدون على فروعه ؛ وإنما جند الأندلس شعبه من أهل الشام ، فكان طبعيا أن يحملوا مذهبهم إلى مهجرهم الجديد ؛ فأقام الأندلسيون على مذهب الأوزاعي ، طيلة عهد الولاة ، وصدرا من عهد بني أمية ؛ ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك ، في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) .

ولعل مرد ذلك التحول ، إلى ما حكاه العلامة ابن خلدون ، من أن رحلة الأندلسيين كانت - غالبا - إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ؛ فاقترضوا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم ، مالك بن أنس . وإلى أن البداوة كانت غالبية على أهل الأندلس في أول أمرهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ؛ فسكنوا إلى أهل الحجاز أميل ، لمشاكاتهم لهم في البداوة ، فلما تحضروا ، قاسوا الأمور بأشباهها ، وجروا في التشريع مع العمران .

وقال ابن حزم : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما ، بالرآسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولي التضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله في الدولة الإسلامية : من أقصى المشرق ، إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .

ومذهب مالك عندنا بالأندلس ؛ فإن يحيى بن يحيى الليثي صاحب الإمام مالك ^(١) كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول في التضاء ، وكان لا يلي قاض

في أقطار الأندلس ، إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ؛ والناس سراع الى الدنيا ؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ؛ على أن يحيي لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ؛ وكان ذلك زائدا في جلاله عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه لديهم .

وكان القضاء مأمورين بالحكم بمذهب مالك ، لا يجوز لهم أن يقضوا بغيره ، وإن خالف رأيهم واجتهادهم .

فندر بن سعيد البلوطي (٢٢٣ - ٣٣٥) قاضي الجماعة ، قاضي القضاء ، لعبد الرحمن الناصر . ٣٠٠ - ٣٥٠ ، كان ظاهرياً ، يحتج لمذهب داود ويأخذ به في نفسه ، فإذا جلس للقضاء ، قضى بمذهب مالك وأصحابه ، لأمر الخليفة بذلك ، وقد كانت هذه المسألة موضع نزاع بين فقهاء الأندلس ، انشعبوا فيه إلى فرق ثلاثة ، إحداها تصحح التولية والشرط ؛ والثانية تبطلهما ؛ والثالثة تصحح التولية ، وتلغى الشرط ، قياساً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد إذا اقترن بالبيع .

* * *

ولما قامت دولة المرابطين بالمغرب (٤٤٨ - ٥٤٩) وضم عاهلهم يوسف ابن تاشفين جزيرة الأندلس إلى ملكه (٤٨٥) اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضاته ، عهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في جليل ولا حقير ، إلا بحضور أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء في عهده ، أعظم مما بلغوه في الصدر الأول من فتح الأندلس ؛ ولم تزل أمور المسلمين راجعة إليهم ، وشريعتهم موقوفة عليهم ، طيلة حكمه ؛ فانصرفت إليهم وجوه الناس ، واتسعت مكاسبهم ، وكثرت أموالهم ، حتى قال فيهم الشاعر الجياني أبو جعفر بن البني :

أهل الرياء لبستمونا موسكم كالذئب أدج في الظلام العاتم
فلستموا الدنيا بمذهب مالك وقستم الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصغ صبغت لكم في العالم

يعرض بالقاضي ابن حدين قاضي قرطبة للمرابطين ، ثم يصرح بهجائه بعد ذلك فيقول :

أدجال ، أوان الخروج ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حـمـدين أن يعتق وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك استه ليثبت دعواه فى تغلب !
وكان ابن حـمـدين يتنـسب إلى تغلب . ولا تخفى قوة البيت الأخير ؛ وهو من
قول جرير للأخطل :

والتغلبى إذا تنحـنـج للقرى حك استه وتمثل الامثالا

* * *

ولم يكن يحظى عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلا من عـلـم عـلـم فروع
مذهب مالك ، فنفتت فى ذلك الزمن كتب المذهب أو عمل بمقتضاها ، ونـبـذ
ما سواها ، حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما بغض الفقهاء إليه علم الكلام ، فكان يصدر المنشورات إلى مختلف البلدان ،
بمنع الخوض فى شىء منه ، وتوعد من يملك شيئاً من كتبه بالوعيد الشديد ؛
ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين
بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستئصال المال ، لمن وجد
عنده شىء منها !

* * *

ولما قامت دولة الموحدين ، على أنقاض دولة المرابطين ؛ وتولى من عواهلها
أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) وكان من الصالحين المتبتلين ،
خامرته فـسـكرة محو مذهب مالك من بلاد المغرب جملة ، كما خامرت أباه وجده
من قبل ؛ فقد أخبر الحافظ بن الجـد : قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب
أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى يا أبا بكر ،
أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ! أرايت يا أبا بكر ،
المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فى أى هذه الأقوال
هو الحق ؟ وأياها يجب أن يأخذ به المقلد ؛ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك
فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ،
وأشار إلى سنن أبى داود وكان عين يمينه ، أو السيف .

فأمر أبو يوسف هذا ، جماعة من علماء الحديث بجمع أحاديث المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومسندا بن أبي شعبة ، وسنن الدارقطني ، وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التي جمعها ، داعيتهم محمد بن تومرت في الطهارة ؛ فلما جمعوها ورفعوها إليه ، كان يملئها على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظها ، ويسنى عليه الجوائز من السكسا والأموال .

ثم تقدم بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرّد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم ، فكان يؤتى منها بالاحمال فتوضع ، وتطلق فيها النار ، في مختلف البلاد ؛ فكان مما أحرق : مدونة سخنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وغير ذلك كثير . وكان تهديده المروع كافياً في صرف وجوه الفقهاء عن البحث في الفروع إلى طلب علم الحديث ، الذي كفّل طلابه ، وقربهم ؛ ولما نمي إليه حسد الموحدين لهؤلاء الطلاب ، جهّهم بقوله : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر ، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء — يعني الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فهما نابهم أمر . فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون .

فعظم ذلك من أمرهم ، وحمل الموحدين على المبالغة في برهم وإكرامهم .

وكان صلاح أبي يوسف هذا صلاح المؤمن المستشير المثبت ، الذي لا تهفو به العاطفة ، ولا يميل به الهوى ، عن جادة الاعتدال ؛ روى أنه حينما حج ، اجتمع في حجر الكعبة بالشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن مطرف المري ، فقال له : يا أبا العباس ، إشهد لي بين يدي الله عز وجل ، أني لا أقول بالعصمة (يعني عصمة محمد بن تومرت) وكان الموحدون على أنه الإمام المهدي المعصوم .

وقال بعض علماء جيان : لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وقعة الأرك التي أوقع فيها بالأذفنش ، قدمني أهل جيان لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت به عادته ، فلما فرغت من جوابه ، سألتني كيف حالي في نفسي ، فتشكرت له ، ودعوت بطول بقاءه ؛ ثم

قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام (يعنى ابن تومرت)
فنظر إلى نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حكمك ان تقول :
قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئاً من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت ! .
وكتب قبل خروجه إلى بعض غزواته ، إلى جميع البلاد بالبحث عن
الصالحين وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة ، كان يقدمهم بين يديه
كلما سار ، فإذا نظر إليهم ، قال لمن حوله : هؤلاء الجند ، لا أولئك (ويشير إلى
الجيش) وكأنه فى هذا متأثر بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، حين لقي
الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثّر السؤال عنه ، فيخبر
أنه فى ناحية من الجيش ، متكئاً على سية قوسه ، رافعا أصبعه إلى السماء ، ينفض
بها ؛ فيقول : لأصبعه تلك ، أحب إلى من عشرة آلاف سيف ! .

ولعل الغلطة التى يقف فيها التاريخ عاتبا ، بل غاضبا ، تلك الخنة التى امتحن بها
فى أيامه ، الفيلسوف الإسلامى العظيم أبو الوليد بن رشد ؛ فقد ذكر المؤرخون :
أن أبا الوليد كان يشرح كتاب الحيوان لأرسططاليس ، فقال عند ذكر الزرافة ،
وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ : وقد رأيتها عند ملك البربر ؛ ونهى ذلك إلى
أبى يوسف ، فاضطغنها عليه ، إلى أن سعى به عنده بعض مناوئيه من أهل قرطبة ،
ورفع إلى أبى يوسف ملخصات بخط ابن رشد ، يتول فيها حاكيا عن بعض قدماء
الفلاسفة ، بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . فاستدعاه ، بعد ان
جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة ؛ فلما حضر أبو الوليد
رحمه الله ، قال له ، بعد أن نبذ إليه بالأوراق : أخطك هذا ؟ فأنسك ، فقال
أبو يوسف : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه
على حال سيئة ، وإبعاده ، وإبعاد من يتكلم فى شيء من هذه العلوم ، وتقدم إلى الناس
بترك هذه العلوم جملة ، وإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب
والحساب ، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ
سمت القبلة . ولكنه لما رجع إلى مراکش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم
الفلسفة ، واستدعى أبا الوليد إلى مراکش ، للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر
أبو الوليد رحمه الله إلى مراکش ، ففرض بها مرضه الذى مات منه سنة ٥٩٤ هـ ،
ومات أبو يوسف أمير المؤمنين بعده بيسير .

لغويات

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

عبدان - عبادان

يتردد ذكر هذا الاسم في هذه الأيام على صفحات صحف الأخبار وغيرها في الحديث عن نفط (بترول) إيران .

ففي مقال « البترول في إيران » المنشور في مجلة الكتاب (جزء يونيه ١٩٥١) :
« وبإيران أكبر معمل لتكرير البترول في العالم ، يكرر يوميا نصف مليون برميل من الزيت الخام ، ويقع هذا المعمل في عبدان على الخليج الفارسي ، وفي « مصر » ، يوم ٥ يونية سنة ١٩٥١ : « ونفى السيد فاطمي الأنباء المغرضة التي أذيعت عن وجود اضطرابات في منطقة عبدان وخوزستان » .

وقد درج الناس على كتابة هذا الاسم بالصورة الأولى « عبدان » . وهذا خطأ في الرسم ، صوابه : عبادان .

وعبادان مدينة قديمة تقع في رأس الخليج الفارسي ، وتنسب إلى عباد ابن الحصين الحبطي من قواد الحجاج . وقد ألحق بكلمة « عباد » المقطع « ان » ، ليدل به على النسبة ، فعبادان معناها في هذا الاصطلاح : عبادي أو عبادية . ويقول يا قوت في معجم البلدان في الكلام على هذه المدينة : « وأما إلحاق الألف والنون

أما بعد ، فإذا جرت عواد بالسعد والنحس ، على مذهب الإمام مالك ، فطغى سلطانه حيناً على العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعف شأنه حيناً ، حتى كاد يمحى إسماء ؛ وعلى أبي الوليد بن رشد وفلسفته ، فسميا مكانه وسميت ، عند أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ وهبط وهبطت إلى الخضيض ، عند ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . أقول : لئن جرت هذه العوادى بالسعد والنحس ، كما جرت على كثير من عظماء العالم ورجال التاريخ ، لقد محت أيدي الزمن فضول الإسراف ، فاعتدل الغالي ، وارتفع الهابط ؛ وبقي مذهب مالك حيا ، وبقيت فلسفة ابن رشد حية ، لأن الحق والعلم لا يموتان ؟

فهو لغة مستعملة في البصرة ونواحيها : أنهم إذا سموا موضعاً أو نسبوه إلى رجل يزيدون في آخره ألفاً ونونا ؛ كقولهم في قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى إلى عبدالله : عبد اللاهان ، وأخرى إلى بلال بن أبي بردة : بلالان .
لست أفيك حتمك .

يكثر هذا الاستعمال في هذا العصر . فيقال : أنا عاجز عن شكرك على ما أسلفت من يد ، وإن أفيك — مهما اجتهدت — حقك .
وقد وقع هذا في نثر الكتّاب ، وشعر الشعراء .

ففي مقال في مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول سنة ١٣٧٠) في الحديث عن القصص الانكليزية العبرى ، برناردشو : « ولست نستطيع أن نفى الرسالة الشوئية حقاً من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الانكليزي الذي اتجه به شو اتجاهها واقعياً » .

وفي ديوان لشاعر معاصر ذي خطر وشأن :

فلست أفيك بعض المدح شعرا ولست أفيك بعض المدح نثرا
وفيه : فاعذر فلست بمن تفيه قصيدة .
وفيه أيضاً : يا دسوقي لا يفيك مديحي .

وهذا الاستعمال لا تفره اللغة ، ولا هو يجري على مناهجها . وإنما ينبغي أن يقال : لست أوفيك حقك ، وأفيك حقك ، من أوفى ووفى . وفي اللسان : « أوفى الرجل حقه ، ووفاه إياه بمعنى أكمله له ، وأعطاه إياه وافياً . وفي التنزيل العزيز : « ووجد الله عنه فوفاه حسابه » . ويقال : أوفيته حقه ، ووفيته أجره » وفي المصباح : « وقال الفارابي أيضاً : أوفيته حتمه ، ووفيته إياه ، بالثقل ، فأما وفي فإنما يأتي لازماً ، يقال : وفي بالعهد ، فهو وفي من قوم أوفياء ، على أن أوفى قد يأتي لازماً كوفي ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته كما وفي بقلاص النجم حاديها
الرسالة الشوئية ، الشوئية

وقع البحث في النسبة إلى شو ، وهو الكتّاب الانكليزي « برناردشو » الذي طبق ذكره الآفاق بما أبدع من قصص سارت مسير الشمس في الشرق والغرب .
و « شو » هذا اللفظ يلحق بما وضع في العربية على حرفين ثانيهما حرف علة ؛

كلو، وفي، ولا . وتوجب قواعد النحو أن تزداد أمثال هذه الكلمات الثنائية عند النسب حرفاً لتحوّل ثلاثية، فيلحقها علم الإفاضة بعد اكتتابها . ومن الجلى أنه لا ينسب إلى هذه الحروف إلا بعد أن تجعل أعلاماً على أنفسها أو على غيرها فإذا أكثر إنسان من لفظ لو صح أن ينسب إلى هذا اللفظ، وترى أن (لو) في هذا الموطن علم على لفظها . وقد يسمى من يغلب عليه لو لوّا . ولو أريد إعرابها بعد التسمية فلا بد من ردها ثلاثية أيضاً .

وتتليث هذه الثنائيات بتضعيف الحرف الثانى، فيقال: لو، وفي. ومن شواهد ما نحن فيه قول الشاعر :

ألام على لو، ولو كنت عالماً بأذئاب لو لم تفتنى أوائله
وعلى هذا إذا نسب إلى لو قيل : لوى .

وعلى مثالها إذا نسب إلى (شو) قيل : شوى

ويرى بعضهم بدلاً من تضعيف الحرف الثانى أن يزداد همزة، أي كان الحرف . فيقال فى النسب إلى لو على هذا : لوتى

وعلى غرار هذا يقال فى النسب إلى (شو) : شوتى .

وعلى هذا النهج جرى كاتب مقال « فجيلة الشرق فى مهاتما الغرب ، المنشور فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٧٠) » إذ يقول : « وقيل أن نخوض فى جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التى كان لها أثر عميق فى توجيهه . »

وقد كان الوجه الأخير فى النسب موضع إنكار . ذلك أنك لا تكاد تجد فى كتب الصرف غير الوصية بتضعيف الحرف . ولسكننا نرى فى شرح الرضى للشافية ٦٠/٢ : « ولوى ، ولوتى ، فيمن يكثر لفظه لو ، وكتب الفضلاء المحققون للكتاب : « بعض النسخ سقطت كلمة (لوتى) ، والصواب ثبوتها . وأراد الشارح بذلك الإشارة إلى ما حكى عن بعض العرب : من أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة همزة على الإطلاق ، فيقول : لائى ، وكيئى ، ولوتى ، وما أشبه ذلك ، وهذا الكلام مأخوذ من كلام الرضى (١) ، وقد أحببت أن أسوقه لما فيه من تجلية البحث : « وإذا كان ثانى الثنائى حرف علة وجب تضعيفه إذا أعربته ، سواء جعلته علماً للفظ أو لغيره ؛ نحو لو ، وفى ، ولا ، وهو ، وهى . تقول :

هذا لو ، وفي ، ولاء ؛ زدت على ألف لا ألفاً آخر ، وجعلته همزة تشبيها برداء وكساء . وإنما وجب التضعيف لأنك لو أعربت بلا زيادة حرف آخر لسقطت ^(١) حرف العلة للتونين ، فيبقى المعرب على حرف واحد ، ولا يجوز وحكى عن بعض العرب أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة الثانية همزة بكل حال ؛ نحو لوء ، وفيء ، ولاء ، والأول - أى التضعيف - أولى ؛ لكون المزيد غير أجنبي .

هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء

يجرى هذا الأسلوب كثيراً في معرض تقرير التماثل بين شيئين واستوائهما . وفيه تكرار سواء مقروناً بباء الجر . والمعروف في اللغة لإفراد سواء . وبحسب المتكلم في إفادة غرضه أن يقول : هذا الكتاب لهذا الكتاب سواء . ويقال : الكتاب سواء ، والرجلان سواء في العلم .

وقد وقع السؤال عن هذا الأسلوب ، سواء بسواء ، وهل ورد في المأثور عن العرب . والباحث لا يرى المعاجم اللغوية عرضت له . غير أنه جاء في حديث الربا قوله صلى الله عليه وسلم : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وقد جاء هذا الحديث في مسلم وأبو داود ، بل قيل إنه في الستة ما عدا البخاري . وإذا جاء الحديث بلفظ واحد مع تعدد رواته وطرقه ، قوى الظن أنه لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضعف احتمال الرواية بالمعنى فيه .

ونرجع إلى الحديث . فالمراد أن يباع المثل بمثله ، والسواء بسوائه . فالباء في (سواء) حرف جر أصلي ، هي باء المعاوضة والمبادلة . وهل يأتي هذا في مثالنا : هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء ؟ وفي الحق أنه لا يظهر هنا معنى المعاوضة كما يظهر في الحديث . وهذا يتوعدنا إلى القول بأن الأسلوب الجارى على الألسنة احتذى به الحديث في غير دقة وسداد .

وقد خطر بالذهن أن الباء في (سواء) في الاستعمال الشائع زائدة دخلت على سواء ، وهو تأكيد لفظي ، كما تدخل على التوكيد المعنوي في قولك : جاء زيد بنفسه ، وبعبارة .

وهذا التخريج لا بأس به ، وإن كان يضعفه أن زيادة الباء يقتصر فيها على موارد المسموعة ، وليس هذا الموطن منها . والله يتولانا بالهداية إلى الصواب .

(١) يجرى الرضى على تأنيث الحرف لتأوله بالكلمة ، ولذلك يؤنث الفعل له .

ضيق الصدر

والازمات النفسية

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ

إن ضيق الصدر وما يحدثه من ويلات، وأزمات النفس وما تسببه من كوارث ونفاد الصبر وما ينتج عنه من بلاء وعناء . كل أولئك من الأمراض الخطيرة ، التي كثيراً ما تؤدي بأصحابها إلى سوء المصير - وتجعل حياتهم جحيماً لا يطاق . ولما كان لكل داء دواء ، ولكل علة طريق يفضي إلى الشفاء ، والإنسان إن لم يعالج مرض جسمه هلك ، والنفس كالجسم إن مرضت تحتاج إلى علاج ، وعلاجها بدواء يناسبها . وتركها بدون علاج يذبل زهرتها ويطفئ نورها - لما كان الأمر كذلك . وجب علينا أن نبحث متلمسين طريق الخلاص من مرض ضيق الصدر وما يسببه للنفس من كآبة وحزن ونحن إذا تعرفنا على علة الداء . أصبح من اليسير القضاء عليه قبل أن يستفحل ، ولقد قضى الحكيم العليم . أن تكون الحياة ميداناً صائباً بالهموم والأحزان . حافلاً بالرزايا والنوائب . مانحاً بالآلام والاستقام ، تصطرع فيه النكبات . وتزاحم على أهله التنازلات . والإنسان بين ذلك في جهد وتعب . ومشقة ونصب . خلقه الخالق العظيم وأراد به ذلك ، وفي هذا يقول جل جلاله : لقد خلقنا الإنسان في كبد ، سبحانه ربى علمت بحكمتك الأزلية فقضيت ولا راد لخصائلك . فلا يزال الإنسان في شدائد . فمن ظلمة الرحم ومضيقة إلى اضطراع في الحياة وجهاد مرير ، ثم يعقب ذلك النازلة الكبرى - الموت الذي يضع حداً فاصلاً بين معتركين . معترك الحياة الدنيا - والدار الآخرة - وللإنسان في هذه الحياة الدنيا آمال يرجو تحقيقها يحمدوه الرجاء . ويتملكه القلق . لأمل ينشده ويخشى الحرمان منه . أو لشر يحذره ويخاف وقوعه . . وقد يضيق صدره . ويحتم الحزن على قلبه . وتطير نفسه شعاعاً محبوب فات نواله ؛ أو ضر نزل به . وقد يحدث ما نابه أو ما يتوهم أن يصيبه أزمة نفسية يغدوا بها كثيراً كاسف البال

يؤساً موزع النفس ، فتراه ميتاً في صورة الأحياء . حياته شقاء . وعيشه عناء .
موته راحة له من الآلام . ولقد أدرك هذا المعنى وصوره أكمل تصوير من قال :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

فالاستسلام لضيق الصدر والأزمات النفسية داء خطر يوهن النفس ويضعف القلب ، ويقنط من زوال الخطب . فيشتد الكرب . ويدوم السكد ويستمر التكد .
فيجىء الغد كالأمس في غمه وبلائه ، ويلازم النفس التشائم والتطير . وينقطع الرجاء ، ويستعصى الخلاص - وهذه جميعاً بلايا لا تجلب خيراً ولا تدفع شراً ولا ترد فائتاً . ولا تحقق أملاً . وفي ذلك سوء الحال . وشر المسأل وفي الحكم المروية - من قل صبره ، وعظم عليه أمره . وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تبين كفره . فلا يؤمن على من كان الجزع من شأنه أن يذهب بإيمانه .

ويقول بعض العلماء : من كثر جزعه كثرت زلته ، وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله ، وكفى مرض ضيق الصدر قبحا أن الانتحار أثر من آثاره .
وسيثمة من سيئاته - وهو بعد ليس من صفات العقلاء في شيء . فالمصاب به عقله مختل وقلبه معتل ، ونفسه مريضة فلا يليق بالإنسان الذي جعل خليفة في الأرض .
وخلق لعبادتها وصلاحها أن يستسلم لهذا المرض الذي يقضى على الهناء ، وينقص الحياة ويهدم القوى ويحطم الأعصاب ويذيب الحيوية والنشاط ، ولنا في الأنبياء عليهم السلام أسوة وقدوة - فهذا موسى عليه السلام ، لم يستسلم لضيق صدره ، حيث لا ينطلق لسانه كما يريد - فطلب من ربه الذي أرسله . أن يعينه بأخيه هارون لأنه أفصح منه لساناً . فلا تختل دعوته ولا تضعف حجته . وفي ذلك شرح لصدره وتيسير لأمره) قال رب اشرح صدري يسهل أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى أشد به أزرى وأشركه في أمري :) وفي آية أخرى قال الله سبحانه (وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون) .

ومن شرح الله صدره بالإسلام ، سهل عليه علاج نفسه من هذا المرض الخطير

وسعد بالشفاعة - وعليه فقط أن يبحث عن الطبيب الحاذق - ويستعمل ما يصفه من الدواء فسيجد السلامة منه . وطيبه في هذا إرشادات الإسلام ، فمن هديه الدعوة إلى الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، وإحياء الرجاء في السلامة ، والحياة الصحيحة بالعمل على ذلك . وكل ذلك من شعب الإيمان .

وانتد حضرة القرآن الكريم على الصبر في أكثر من سبعين موضعاً . وأضاف أكثر الدرجات والحسنات إليه ، وجعلها ثمرة له وطلب منا الاستعانة على كل أمورنا ، وما ينزل بنا بالصبر والصلاة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » .

فاستعن بالصبر . وعالج أمرك بالروية والحكمة . وحذار أن ينفد صبرك ، أو تعيا حيلتك . فالرجل كل الرجل هو الذي يتخذ من الهزيمة في أمر من الأمور مطية للانتصار في محاولة مقبلة . والعامل الأريب هو الذي ينتفع بأخطاءه قد تقع منه فيتجنبها ويسير على نهج سوى . ولا يستسلم لليأس فإنه قتال للنفس ، مثبط للهمم ، جالب للهموم والأحزان .

وعلى من ضاق صدره لأمر من الأمور ، أن يتذكر أن أيامه في هذه الدنيا معدودة وأنفاسه محدودة . وأنه في هذه الحياة ضيف ولا بد من الرحيل . فإذا أيقن بهذا ، فلماذا يكدر عيشه بضيق الصدر ، وينغص أيامه القصيرة بالأحزان والكتابة . إن كان ذلك للبال فهو إلى زوال ، وإن كان لسعة الرزق فقد تكفل به الكبير المتعال - وعلى كل حال فالدنيا إما نعمة نازلة ، وإما نعمة زائلة : أولها عناء ، وآخرها فناء . حلالها حساب - وحرامها عقاب . ومن صح فيها أمن ، ومن مرض فيها ندم . ومن استغنى فيها فتن . ومن افتقر فيها حزن . ومن ساعاها فاته ، ومن تعد عنها أته . ومن نظر إليها أعتمته . ومن نظر بها بصرتة : ويرحم الله التماثل :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً فإنك منها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

أيها المسكتئب الحزين تمثل قول الحسن البصري رحمه الله :
الدنيا كلها غمٌ فما كان منها من سرور فهو ربح .

دراسات في التصوف

الأمير المتصوف

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الأدب

يا من ترفع للدينيا ودينها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في ذي مسكين
أبو العتاهية

كان يقوم في بلخ بخراسان ، في أوائل القرن الثاني الهجري ، قصر عال منيف ، يملؤه الخدم ، ويروح أمامه الحراس ، ويحيثون ، يقيم به أمير من نسل الملوك ، هو أدهم بن منصور بن يزيد العجلي ، من العرب ، من بني عجل ، أو من تميم^(١) ، كريم الحسب ، عريض الثراء .

حزم الأمير أدهم رأيه على أن يؤدي لله بعض حقه بحج بيته الحرام ، فأعد العدة ، وسار ركبته ، يضم زوجه وخدمه نحو الأرض المقدسة الطاهرة ، فبلغها . وكانت الزوج حاملًا في شهورها الأخيرة ، وكأنا ما أراد الله لها أن تضع مولودها في أرضه المباركة ، فوضعت غلامًا ، واستخفها الفرح — بالغلام وبالميلاد في الأرض التي حملت على ثراها الرسول — فجعلت تطوف به في المسجد ، وتقول للناس : ادعوا لابني أن يجعله الله رجلاً من الصالحين^(٢) .

وعلت وجوه الناس ابتسامة حلوة ، إذ هاجت فيهم عاطفة الأبوة ، فدعوا الله بقلوب خالصة خالية ، أن يحقق حلم الأم ، وكأنا ما كانت أبواب السماء مفتحة ، فاستجاب الله لدعاء الداعين .

وعاد الحجيح - كل إلى بلده ، وعاد أصحابنا إلى بلخ ، وشب الرضيع غلاماً .

(١) البستاني ٢١١/١ ، الحلية ٢٧٢/٧ . (٢) قارن الحلية ٢٧١/٧ .

ففتى يرتع في ثراء أبيه العريض ، ويحيا الحياة التي كان يحياها أترابه ، لهو وفراغ ، فإذا أضجره الفراغ بحث عن اللهو .

وكان أبوه قد حجب إليه الصيد ، فخرج يوما يصطاد ، وسار بين يديه نحو من عشرين شاكري^(١) ، فأثار أرنباً أو ثعلباً ، فتبعه بجواده ، وهو في نشوة السعادة بفتوة الشباب وفراغ الحياة . وسار به جواده يتبع الحيوان المسكين ، حتى بعد عن رفاقه ، فإذا به يسمع صوتاً يهتف به : « ليس لذا خلقت ، ولا بهذا أمرت » . فتوقف متلفتاً يبحث عن هذا المتحدث فلم يجد بجانبه إنساناً ، فظن الأمر وهما ، ولكن جواده يريد أن يسير ، فإذا بالصوت يخرج من قربوس سرجه : « يا ابراهيم ما لذا خلقت ولا بهذا أمرت »^(٢) .

وآن لدعاء الصالحين ، أن يستجيب له الله ، حين وقف الفتى المترف ، المدثر بالحرير والدمقس ، فصاح في نفسه : « أنبهت ، أنبهت ! جاءني نذير من رب العالمين . والله ما عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى » . وألقى الشاب المرفه المترف ثيابه الغالية ، ونزل عن فرسه المظلم ، واستبدل كل هذا بحجة من صوف راع من رعاة أبيه ، ثم أخذ يضرب في بلاد الله .

وقد تختلف الرواية قليلا ، ولكن أساسها يبقى واحداً ، وهو أن الشاب الموسر الغنى المترف المرفه ، ترك الدنيا فجاءه ، ونزع عنه أسبابها .

أو قد تختلف الرواية كثيراً . فتجعل الشاب جالساً في قصره ، يتفكر ويتأمل ، فيسمع ذات ليلة جليلة صاخبة فوق سطح القصر ، فلما ذهب الحراس يستطلعون الخبر ، فاجأوا قوما يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة ، فاقنيد هؤلاء المقتحمين للقصر إلى الأمير ، ولما سألهم : « هل حدث أن تفقد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل » ، أجابوا : « نحن لا نعمل إلا اقتداء بك أنت الذى تسعى إلى الاتحاد بالله ، بينما أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل في مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله » ، فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت^(٣) .

(١) الحلية ٣٧١/٧ . (٢) الحلية ٣٦٧/٧ ، الرسالة ٩ .

(٣) العقيدة والشرعية في الاسلام - الترجمة العربية ص ١٤٣ .

ذكر هذه الرواية جلال الدين الرومي ، ومنها نستطيع أن نتبين أمرين ، أما أولهما فهو أن فكرة التصوف - أو الزهد - كانت موجودة قبلاً في نفس إبراهيم ، وأما الثاني فهو اعتقاد فريق من المتصوفة بأن سمو المكانة يبعد المرء عن الله ، وهي فكرة نستطيع بها أن نفهم تواضعهم وزهدهم في كل شيء ، عدا الله ، بل ونستطيع بها أن نعلل سلوك الملامية وأن نعذرهم .

هجر إبراهيم إذن قصره ، وكل ما يربطه بالعالم ، حتى زوجته وأولاده ، ويرى جولد تسيهر ^(١) . أن قصة إبراهيم بن أدهم تشبه في سماتها البارزة سيرة « بوذا » . بدأ جوتامو بوذا حياته بهجره لعائلته ، والأسطورة المعروفة الشائعة عنه هي أن أميراً أقلقته منظر المرض والشيخوخة والموت ، فقرر أن يبحث عن الخلاص من آلام الحياة ، فترك في ظلام إحدى الليالي قصره الملكي الباذخ ، وعائلته الحبيبة ، ليبدأ حياته جواب آفاق فقيراً ، حياة راهب سائل . وقد تبدو هذه القصة خيالية ولكننا نرى فيها أعمق المعاني ، تناول مباشرة وبصراحة مأساة الحياة ^(٢) .

وإن كان بوذا وإبراهيم قد تركا الثراء إلى الفقر ، والعز إلى الزهد ، فتمت كثير من غيرهما فعلاً نفس الأمر ، وتاريخ التصوف الإسلامي يروي الكثير عن أمثال إبراهيم بن أدهم ، وإن لم تسكن هؤلاء مثل شهرته : روى الـكتاني قال : « كان بمكة فتى عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعته محبته في قلبي ، ففتحت لي بمانتي درهم من وجهه جلال ، فحملتها إليه ، ووضعتها على طرف سجدته ، وقلت له إنه فتح لي ذلك من وجهه حلال تصرفه في بعض أمورك . فنظر شزراً ، ثم كشف عما هو مستور عني ، وقال : « اشتريت هذه الجلـسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار ، غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تخدعني عنها بهذه . وقام وبددها » ^(٣) .

ومثل هذا الزاهد العابد العارف كثيرون ، تركوا جميعاً الدنيا ونزعوا اليد من الأسباب ، وأرادوا الله .

• • •

(١) المرجع السابق .

Great Age of world History, V. Stanka, 1946. P. 9 (٢)

(٣) الرسالة ١٦٤ .

المتصوفة فريقان : فريق آثر الإقامة فلم يسافر إلا لغرض ، ومن هؤلاء الجنيد وسهل بن عبد الله والبسطامي ، وفريق آثر السفر ، فكان على ذلك إلى أن خرج من الدنيا ومن هؤلاء أبي عبد الله المغربي وإبراهيم بن أدهم .
آثر ابن أدهم التنقل والسفر ، فهو كصوفي يرى أن العالم كله وطنه ، والناس كلهم إخوانه . لا يفرقهم عنه وطن ولا دين ، حتى ليقال إنه أخذ المعرفة عن راهب مسيحي اسمه أبو سمعان ^(١) .

ترك إبراهيم خراسان ، يرتدى فروا ليس تحته قميص ، ولا يلبس خفين ولا عمامة ، إذا كان الوقت شتاء ، أو يرتدى - صيفا - شتمتين ، بأربعة درام ، يتزر بواحدة ويرتدى الأخرى ، وسار أرض تضعه ، وأرض ترفعه حتى جاء العراق ، ومنها إلى مكة ، ثم البادية وبها لقي سفيان الثوري والفضيل بن عياض ^(٢) . وما لبث أن قصد بلاد الشام والثغور ، فتنقل في ربوعها ، جاعلا منها مركزه الرئيسي ، الذي يرجع إليه دائما بعد سفره الكثير . وهو لم يأت الشام لجهاد أو رباط ، وإنما ليشتبع من خبز حلال ^(٣) .

ومات إبراهيم بالشام عام ١٦١ أو ١٦٢ للهجرة ، في خلافة المهدي العباسي . قال أبو نعيم : إنه مات في صائفة السفر بالبطن ، وهذا قول مردود ، كما سنرى بعد . أما المشهور في موته فهو أنه مات وهو يغزو في إحدى الجزر ببلاد الروم - كما يقول البستاني ، وإن كان الأرجح ، فيما أرى ، هو ما رواه فرج - مولى إبراهيم - من أنه مات في الجزيرة أثناء الغزو ، فحمل إلى صور ودفن بها في موضع يقال له « مدفلة » ، وعرف أهل صور قدره ، فصاروا يذكرونه في تشييب أشعارهم ، ولا يرثون ميتا إلا بدأوا بذكره . وقال القاسم بن عبد السلام إنه رأى قبره بصور ^(٤) .

هذا هو إبراهيم بن أدهم ، الذي عد واحد من أربعة كانوا أهل الورع في زمانه حتى إنه وأصحابه كانوا يمنعون أنفسهم أربعا : لذة المساء والحمامات والحذاء ، ولا يجعلون في الملح أبارا . ^(٥)

وإلى العدد التالي لنكمل حديثنا عنه .

[يتبع]

(١) الحلية ٨ / ٢٨ . (٢) خراساني من مرو ، وقيل ولد بسمرقند ، ومات بحك سنة ١٨٧ هـ

كان يقطع الطريق ثم ناب . (٣) الحلية ٧ / ٣١٢ . (٤) الحلية ٨ / ٩٠ . (٥) الحلية ٧ / ٣٩٤

مِنْ طَرَفِ الْفَازِ الْحَكِيمِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوضى الراجحى

مبعوث الأزهر بسلكية الشريعة الاسلامية فى بغداد

نقتصر فى مقالنا هذا على سبع مفارقات تتعلق بتشابه النظم فى قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى واحد أو كالواحد يذكر فى أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفاً ونحو ذلك نكشف عن السر فى ذلك تفصيلاً بعد ما عرف إجمالاً من أن ذلك مردود إلى التنوع والتنويع ومناسبة المقامات المختلفة لمقتضيات أحوالها المختلفة .

المفارقة الأولى . . فى قوله تعالى فى سورة الاعراف فى قصة صالح : فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى . . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة شعيب . . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة نوح . . ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى . . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة هود : ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى : فقد كانت الرسالة فى قصة صالح على لفظ المفرد وفى قصة غيره على لفظ الجمع فهل من سر لذلك . ؟ والجواب أن المؤدى فى النهاية واحد لأن الرسالة بالنظر إلى وحدتها فى حد ذاتها يصح أفرادها وبالنظر إلى ما تشتمل عليه من الأوامر والنواهي والإرشادات الكثيرة يصح جمعها لكن الأفراد بقصة صالح أوفق لأنه لم يحك عنه فى القصة كثير من ذلك بل دار كلامه على الناقه والحث على إكرامها . . والجمع بقصص المذكورين من نوح وهو وشعيب أوفق فقد ذكر فى قصصهم كثير من الجدل والأوامر والنواهي سيما شعيب الذى كان مرسلًا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة الأمر الذى يقتضى تعدد التبليغ وتكثُر

الإرشادات وفي « ملاك التأويل » ما يعطى أن العرب في كلامها تضع الأكثر في متابلة الأكثر وبجواره والأقل في مقابلة الأقل وبجوانه فحيث كان في قصة شعيب كثير من أوامره ونواهيته المتعلقة بالعبادة والموازين والمساكيل وقع التعبير بالرسالات جمعا . . . وحيث كان في قول قوم نوح له « إنا لنراك في ضلال مبين » كثرة وشمول حيث أرادوا أنه ضال في كل ما يأتي ويذر ضلالا بينا كان الرد عليهم بالرسالات جمعا في قوله ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي . وكذلك كان الحال في قصة هود حيث قال قومه له « إنا لنراك في سفاهة » والسفاهة مصدر سفه بالضم أرادوا أنها صارت له ملكة في كل ما يأتي ويذر فكان في ذلك شمول فتناسب الجمع في الرسالة في رده عليهم « ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي . . . وحيث لم يذكر في قصة صالح شيء من ذلك اللهم إلا الناقة وكفر قومه به جاء لفظ الرسالة مفردا .

المفارقة الثانية : في قوله تعالى في سورة هود في قصة نوح رأيتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة صالح رأيتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة شعيب . رأيتم أن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا . فالآيات الثلاثة في حكاية أقوال هؤلاء الأنبياء الثلاثة لأقوامهم لكن المفعول الثاني لفعل الإيتاء في قصة نوح وقع تاليا للفعل ومفعوله الأول لا فاصل بينهما وفي قصتي هود وشعيب وقع المفعول الثاني رحمة في الأولى ورزقا في الثانية مفصولا بينه وبين المفعول الأول وفعله بالجار والمجرور وهو قوله « منه » فهل من سر لذلك ؟؟ والجواب أنه حيث تقدم في قصة نوح في نفس السورة أفعال اقتضت مفعولين لا فاصل بينهما بمثل هذا الجار والمجرور وذلك في قولهم له : « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك ابتعك إلا الذين هم أرادنا بادي الرأي » كان من الحسن انباع المتأخر بالمتقدم في الطريقة فلما كان التقدير في قولهم هذا نراك بشراً مثلنا . نراك متبوع الأراذل كان رده على نفس هذه الطريقة . . . آتاني رحمة من عنده بعدم الفصل بين المفعولين بجار ومجرور . . . وحيث تقدم في قصة صالح

فى نفس السورة قول قومه فى كفرهم « قد كنت فىنا مرجوا قبل هذا » فوقع الجار والمجرور بين اسم كان وخبرها كان من الحسن اتباع المتأخر بالمتقدم فى الطريقة بوقوع مثل هذا الفاصل بين المفعولين فتبيل « وآتانى منه رحمة » وقريب من ذلك الواقع فى قصة شعيب فأن ما فى حكاية كلامه من تقديم الجار والمجرور على المفعول الذى هو الرزق شبيه بما سبقه فى نفس القصة والسورة من قول قومه له « أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » ، بتقديم الجار والمجرور على المفعول ..

وفى « ملاك التأويل » ما يعطى فى سر هذا المفارقة جوابا آخر مؤداه أن قوم نوح ألقوا الشبه والكفريات على الأصل دون تقعر والتواء فى الكلام فقد اتهموه بالمثلثة فى البشرية واتباع الأراذل وكشفوه بظنهم كذبه وكذب اتباعه وقوم صالح تمعروا فى الكلام وأسقطوا صالحا عن رتبة الرجاء فى حاله فوقعت حكاية قول كل رسول على طريقة حكاية كفر قومه فكانت فى قصة نوح على الأصل من تقديم المفعول وتأخير المتعلق به فتبيل : « وآتانى رحمة من عنده » وكانت فى قصة صالح على خلاف الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثانى « وآتانى منه رحمة » وقريب منه ما فى قصة شعيب فقد كان قومه متعبرين ملتوين خارجين عن الأصل فى قولهم له « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد » فكان فى جوابه خروج عن الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثانى فى قوله ورزقنى منه رزقا حسنا .

أما التعبير بالرزق فى قصة شعيب بدلا من الرحمة فى قصتى هود وصالح فلمناسبة الأموال والمساكيل والموازن المذكورة فى قصته فإن لفظ الوزن بجوار ذلك أشكل وأوفق .

أما كون هذا الجار والمجرور فى قصتى صالح وشعيب بلفظ « منه » وفى قصة نوح بلفظ من عنده فالمعنى ، وإن كان واحدا إلا أن زيادة العندية تفيد زيادة التمسك فى المعنى وذلك أوفق بقصة نوح لما فيها فى هذه السورة خاصة من الاطناب والزيادة فى بيان جداله مع قدمه الذين كانوا كما نطق القرآن عنهم أظلم وأطغى ..

المفارقة الثالثة : فى قوله تعالى فى سورة الصافات فى قصة إبراهيم من قول ابنه له « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » مع قوله تعالى فى سورة القصص

في قصة موسى من قول صهره له ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين ، وواضح أن الأولى من قول الذبيح حين أخبره والده بعزمه على ذبحه تنفيذاً لوصي الله فكان له معاوناً على طاعة الله بامتثاله وقوله له يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين أي على آلام الذبح فالصبر بهذا الموضع أوقع وأن الثانية من قول شعيب لموسى حين المعاهدة بينهما على زواج الثاني بابتنة الأول على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرأفن عنده فقال له وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين أي في المعاملة لا ظالماً ولا طامعاً فالصلاح بهذا الموضع أوقع . .

المفارقة الرابعة : في سورة الشعراء في سائر قصص السورة^(١) يتول كل رسول لقومه ، فاتموا الله وأطيعون ، هكذا تكون آية برأسها إلا أنها في قصة كل من نوح وهود وصالح ذكرت مرتين وفي قصة لوط وشعيب ذكرت مرة واحدة . . والسر في ذلك - والله أعلم - أنها في قصة شعيب وقع الإغناء عن ذكرها مرة ثانية بما ذكر من قوله لقومه « واتموا الذي خلقكم والجليلة الأولين ووقع الإغناء عنها في قصة لوط بما ذكر من قوله لهم « إني لعمليكم من القالين » فهو بغض لعمليهم مستلزم لارادته أن يطيعوه بتقوى الله والاقلاع عما هم فيه . ثم لا يبعد أن يكون ذلك لأن شعيباً ولوطاً ذكر عنهما خاصة في السورة الاشتغال بالنهي عن معصية معينة هي اتيان الذكور والتلاعب بالمقاييس فكان ذلك اشتغالا بتحصيل طاعة وتقوى في أمر معين أغنى عن الاشتغال بتحصيل طاعة وتقوى عامة مرة ثانية^(٢).

المفارقة الخامسة : في قوله تعالى في سورة الشعراء قصة إبراهيم ، فأنهم عدوا لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين ، مع قوله تعالى في سورة النجم « وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأنه هو أमत وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الآخرة وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعري ، الكلام ها هنا في ذكر الضمير « هو » قبل بعض الأفعال المسندة إلى الله دون بعض في كل من الآيتين هل من سر لهذه التفرقة ؟ والجواب أن هذا الضمير ذكر قبل الأفعال التي يتوهم أنها من فعل العبد ومن شأنها أن يلبس الأمر فيها أما الأفعال

(٢) راجع السورة الكريمة

(١) ما عدا قصي موسى وإبراهيم فلهما نمط خاص

التي من شأنها أن لا يقع في أنها محض فعل الله اشتباه فيستغنى بوضوح خلوصها لله عن الاتيان بهذا الضمير وعلى ذلك فتد جاء قبل الاغناء والاقناء والاضحاك والابكاء والاطعام (١) والهداية وكونه ربا للشعري ولم يجيء قبل كونه عليه النشأة الأخرى وكونه خلق الزوجين الذكر والأنثى مع ما حصلت به تقوية هذا الأخير من سابق قوله تعالى في سورة النجم « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ولذا أتم أجنة في بطون أمهاتكم ، لكن ما يستحكم فيه السؤال فعل الإحياء والإماتة وتقدم الضمير عليهما في سورة النجم دون ذلك في سورة الشعراء وهما شيء واحد ولعل ذلك - والله أعلم - لأن الأصل عدم وقوع اللبس في أنهما من محض فعل الله لكن قد يعرض هذا اللبس ويحلو التلبس في هذا للنادر من المعاندين الذين يركبون رؤوسهم كالثريد حين حاجه ابراهيم فتعال له : ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، وإذا كان ذلك كذلك فقد جاء الكلام على الأصل من عدم الالتباس وبالتالي حذف الضمير في سورة الشعراء السابقة على سورة النجم في ترتيب التلاوة لأنها كالأصل لها فكان ذلك من وقوع الأصل في الأصل مع مراعاة أن عدم اللبس فيما يختص بشخص المتكلم أبرز وأظهر فيتبعه حذف الضمير وهذا هو الواقع في سورة الشعراء لأنها في حديث ابراهيم عن نفسه بينما كان المقابل لذلك كله هو الواقع في سورة النجم ..

المفارقة السادسة : في قوله تعالى في سورة هود والذاريات في قصة ابراهيم « أوجس منهم خيفة » مع قوله تعالى في سورة طه قصة موسى « أوجس في نفسه خيفة موسى » فقد زادت الثانية على الأولى قوله في نفسه وذلك لأن موسى استشعر هذه الخيفة وهو في موقف التحدى بمعجزة العصا على ملأ من الناس بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيمهم وخيل اليه من سحرهم أنها تسعى فكان يبالغ في إخفاء هذه الخيفة عن الناس وما صرح بها لأحد أما ابراهيم فما كان يبالغ في إخفاء هذه الخيفة عن ضيفه المسكرمين بل أنه أعلنها بعد أن توجسها بقوله إنا منكم وجلون فقالوا له لا توجل إنا نبشرك بغلام علم .

المفارقة السابعة : في قوله تعالى في سورة ابراهيم الآيات ٩، ١٠، ١١ قصص قوم نوح وعاد وثمود .

(٢) سورة البقرة

(١) قوله ويسقين معطوف على قوله يطعمني فهما واحد

لمحات في النظم التعبدية

(٢) الرهبانية والديرية والتصوف

الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

تناولنا في بحثنا السابق بعض نواحي هذا الموضوع ، فنحن قد تحدثنا عن أصل اشتقاق كلمات « الرهبانية والديرية والتصوف » ، كما عرضنا أيضا لماهية هذه النظم التعبدية والظروف التي نشأت فيها .

والآن ، وفي هذا البحث ، نتابع عرضنا لهذا الموضوع ، متناولين تطور هذه النظم التعبدية ، مع تحقيق ما جرينا عليه في بحثنا السالف وهو عتمد المقارنة بينهما كلها لاح لنا وجه ملائم لهذه المقارنة .

إن أول من نادى بحياة الرهبانية هما القديسان « پول Paul » وأنطون ٢٥١ - ٣٥٦ م ، ويعتبر الأخير المؤسس الأول للرهبانية ، في بلدة « قن العروس » بديرية بنى سويف ، كما يعد القديس « باخوم » المؤسس الأول للديرية في مصر العليا .

ولقد انتشرت الرهبانية والديرية بادي الأمر في مصر ، ثم انتقلت إلى فلسطين وسوريا ثم الشرق جميعه ثم الغرب .

وانتد نشأت الرهبانية أولا ثم الديرية ثانيا ، وتعد الديرية في الواقع تشذيب وتهذيب لحياة الرهبانية القاسية ، وقد تم ذلك على يد القديس « باخوم » المتوفى عام ٣٤٩ م ، إذ أدرك قسوة التعاليم الرهبانية ، التي لا تحسب لإنسانية الإنسان حساباً ، والتي تسكلفه فوق طاقته البشرية ، فبنى هذا القديس ديراً بجزيرة « تابيننا Tabenna » بالنيل ، حيث أسس طريقة تبنى في جوهرها على النظام والطاعة والعمل اليدوى والرياضة البدنية ، وبذلك أزال هذا القديس لأول مرة وحشة حياة النفسك الانفرادية ، ثم انتقلت الرهبانية والديرية بعد ذلك إلى الولايات

الرومانية الشرقية على يد أخت القديس « باسيلي » ، عام ٣٥٨ م ثم أسس « باسيلي Basil » ، هذا مستعمرة من الديرين في « كابدوكيا Cappadocia » ، وسرعان ما انتشرت تعاليمه في سوريا وفلسطين واليونان في العصور الوسطى ، ولدقة هذه التعاليم وشدة تنظيمها ، أطلق عليها اسم « القاعدة الباسيلية » ، ويعد « باسيلي » من الرجال النادرين الذين استطاعوا النهوض بالناحية العلمية من الحياة الديرية ، فكانت تعاليمه لا ترمى إلى مساعدة الذات فحسب ، بل إلى مساعدة الفقير والضعيف أيضاً ، وإلى تنمية حاسة الشعور بالواجب .

والواقع أن حياة التقشف الشديدة وحرمان النفس ملذات الحياة ، تجعل الإنسان غير صالح للنفع العام ، وقد كانت تعاليم « باسيلي » تجمع بين الناحيتين التعبدية الدنيوية والعملية في الحياة . وتتلخص الحياة داخل الدير الباسيلي في الصناعة والزراعة وإنشاء الحدائق وصنع الملابس من الجلود وأعمال التجارة وقطع الأحجار والبناء والترأف وحفظ المخطوطات ، كما أنه لم يسمح للديرى بتملك الأشياء وحيازتها ، فيما عدا ملابسهم وحدائهم ، وغير ذلك مشاع للجميع ، أى أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الاشتراكية داخل الدير ، وحتم على الديرى ، أن تكون ملابسهم بسيطة ، تشف عن فقر نظيف ، كما حرم عليه الفحش في القول والعمل . وبالاختصار فالحياة داخل الدير تتسم بالفقر والنظافة والنواضع والعفة والطاعة والتعاون والتجمل ، مع القيام ببعض الأعمال كالغزل والفلاحة والتعلم واستيعاب المخطوطات والصلاة والصوم والتبشير . ومع ذلك كله فيجب أن نقرر هنا أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية قامتا لتحاربا فحش القرن الرابع ، إلا أنهما مع ذلك لم تخلوا من الشرور ، فهذا النوع من الحياة يعتبر على أية حال « أنانية غير أنانية » ، إذ أن غرضها الاسمى هو أن يسمو الديرى بنفسه إلى ذروة الكمال ، عن طريق التسام ، وتنمية عاطفة حب الله في نفسه شخصياً بغض النظر عن الآخرين . كما أن هذه الحياة تعد ضرباً من ضروب الانحلال الاجتماعى ، ونتج من شدة تعصب الديرين أن اضطهدوا كل وثنى ، ونحن نعلم أن نشوء حركة الرهبانية والديرية ، كان يتمشى مع التضال الأخير بين الوثنية المحتضرة والمسيحية المتحضرة ، ونعلم كذلك أن النتاج الأدبى والفنى والفلسفى والعلمى كان كله من نتائج الوثنية ،

وثمره تفكير العقل الإنسانى حتى تلك العصور ، فراح جماعة الرهبان والديرين المتعصين يدمرون ويحرقون كل ما يمت للوثنية بسبب من معابد وتماثيل ومخطوطات ومكاتب^(١) ، بل زادوا على ذلك وحرموا على الناس قراءة الأدب القديم ، وأغلظوا فى معاملة الفلاسفة والمعلمين . وكل ذلك يعد ، دون ريب ، مسببة وعاراً فى تاريخ هذه الحركة .

شقت الرهبانية والديرية بعد ذلك طريقتها من اليونان الشرقى إلى الغرب اللاتينى ، وقد تم ذلك على أيدي أربعة هم : القديس « كسيان Cassian » ، « ٣٦٠ - ٤٣٥ م » ، والقديس « مارتن Martin ٣١٦ - ٣٩٧ م » ، والقديس « قيصر Caesar » توفى عام ٥٤٢ م ، والقديس « بندكت Benedict ٤٨٠ - ٥٤٣ م » ، ويهمنا من أمر هؤلاء جميعاً القديس « بندكت » ، حيث حظيت حركة الرهبانية والديرية على يديه والبره الأولى فى تاريخها بتعضيد البابوية ، ومن بين أحجار معبد « أبولو Apollo » الوثنى بمدينة « منت كاسينو » الإيطالية ، انبعثت التعاليم البندكتية ، ولقد أدرك « بندكت » عيوب الرهبانية والديرية الشرقية ، وعدم صلاحيتها للحياة فى أوربا ، فأخرج نظاماً معدلاً جديداً عرف باسم « المذهب البندكتى » ، طابعه الطاعة والعمل وإنكار الذات والصلاة والنظام ، جملة فضائل وضعت بحيث لا تترك ممارستها مجالاً للرزائل . أخذت دولة الأوثان تتضاءل بعد ذلك على أيدي بعثات التبشير المسيحية رويداً رويداً ، ويضيق بنا المتنام عن تتبع هذه الحركة تفصيلاً ، ويهمنا أن نعرف النتائج التى تمخضت عنها حركة الرهبانية والديرية : فقد علمت هذه الحركة رجال الكنيسة حب الإحسان والعفاف وكثيراً من الفضائل الأخرى ، أما تأثيرها على الحياة الاجتماعية فكان واسعاً بعيد المدى ، ففى الزراعة ، أصلحوا كثيراً من الأراضي البرز ، التى قاموا فيها بتجارب زراعية . وفى الصناعة ، صنعوا بأيديهم كثيراً من الأدوات التى احتاجوا إليها ، وعرفوا الغزل وصناعة الملابس وقطع الأحجار والبناء ورعى الماشية وطهى الطعام وصبغ الملابس ودبغ الجلود وغير ذلك . وفى التعليم ، حفظوا ما هنالك من مخطوطات

(١) أحرقت حينذاك مكتبة الإسكندرية الثانية .

وأنشئت المدارس التعليمية « اسكولات » ، ومن مزايا هذه الحركة أيضاً تعويد النظام والطاعة بغير إكراه ، كما عملت على نشر المسيحية في الأقاليم الوثنية ، وأعطت المرأة في تلك العصور فرصاً كانت محرومة منها ، لأن الأديرة النسائية كانت تدار بواسطة إدارة نسائية .

بقي من موضوعنا هذا ، أن نعرض لتطور التصوف ، مكتفين بقتبته أثناء القرنين الأولين من السيطرة الإسلامية ، ففي القرن الثاني لم يكن للمتصوفة رابطة منظمة تجمعهم ، أو مكان معلوم يزاولون فيه طقوسهم الدينية ، بل كان مهمهم هو الانصراف عن الدنيا تقريباً من الله تعالى ، ولم تنشأ عندهم بعد في هذا الدور نظرية الاتحاد أو الحلول والصوفية في هذا الدور إسلامية محضة ، لم تدخلها العناصر النورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف الاتصال لا الخلاص Slavation .

وفي القرن الثالث ، دخلت في التصوف العناصر غير الإسلامية ، وأشهرها فكرة الاتحاد ، ولهذا التغير في معتقدات المتصوفة عوامله : فالمتصوفة كانوا على الدوام ، ينظرون إلى الإسلام كمصدر للسلطة ، وأنهم اقتبسوا نظام الأقطاب عن الشيعة ، وتأثروا بمذهب الاسماعيلية ، وأخذوا مذهب الحلول منهم ، ثم أن الإسلام يعتبر من أصول الصوفية الأولى إن لم يكن من أولها ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التصوف قد تأثر دون شك بالعناصر الأجنبية فأخذت الصوفية عن النصرانية نظرية « الحب الآلهي » ، كما قيل إن لباس الصوف من أصل يوناني وأن نذور الصمت وحلقات الذكر يمكن إرجاعها إلى مصدر نصراني ، وتأثر التصوف كذلك بالافلوطينية الجديدة عن طريق الترجمة والنقل والاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران ، كذلك تأثرت الصوفية بالمعرفة Gnosis or Gnosticism ، ويمكننا أن نلمح هذا الأثر في أقوال الصوفية أنفسهم ، فلقد قال السكرخي « التصوف معرفة الحقائق الآلهية » ، ثم أن الرأي القائل بأن الكون سائر على نظام النور والظلام ، واعتقاد الرفاعية في « الحجب السبعة آلاف » كليهما مأخوذ عن نظرية المعرفة . كذلك تأثر التصوف بالبوذية ، فما استعمال المساجح في الصلوات وتشديد المقامات إلا ممتبسات عن البوذية كما أن « نظرية الفناء » هي أيضاً من تعاليم البوذية .

ويحسن في ختام موضوعنا هذا أن نورد شيئاً عن نظام التكايا في التصوف ،

تاريخ الرجال . . .

لفهـبـر الـسـنـانـه السـبـحـه ابراهيم أبو الحـسـب

المدرس بكلية الشريعة

قد يضيق الرجل منا ذرعاً بصديقه فيقطعه إلى غير صلة ، ويفارقه إلى غير لقاء ، متناسياً ما يوجبه دينه عليه ، من النهى عن هجران المرء لأخيه فوق الثلاث ، أو متغافلاً ما يلحتمه من لوم اللأئمين ، وزرابة الناقلين ، لأن الصداقة والعداوة من الأمور التي ترجع إلى المزاج والذوق ، والإحساس والعاطفة ، وأصعب محاولة يحاولها الإنسان التغلب عليها ، والإرغام لها ، وعدم النظر إلى ما يلائمها ، لأن كبت رغباتها ، ومحاربتها في شهواتها ، قتل للروح ، وموت للوجدان ، وهيات أن تكون للحى حياة بعدها ، أو يشعر من نفسه بالطموح بدونها .

لما لذلك من الشبه بنظام الديرية في المسيحية . يقول « المقرئى » ، إن الخانقاه قد دخلت الإسلام إبان القرن ٥ هـ (١١ م) ويقال إن « أبا سعيد بن أبي الخير » هو مؤسس التكايا . وفي هذه الأمكنة يجتمع الشيوخ ومريدوهم ، الذين يمرون بدور الارتضاع ثم العظام ، وتضم هذه التكية رجالاً من مختلف الأعمار والمقدرة ولهم قاعة عامة للصلاة تسمى « بيت الجماعة » ، ومن يرد الانضمام لهذه الزمرة ، فعليه أن يتخلى عن أمواله وممتلكاته للجماعة ، ويخضع لنظامها من تكرار الذكر والصلاة ، ومن أهم هذه الفرق التي نشأت على نظام التكايا : الرفاعية والبكطاشية والتمادية وغيرها ، والمهم هو أن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الشعوذة والدين والعلم ، وانشطرت علم الشريعة إلى نوعين : نوع اختص به الفقهاء وأهل الافتاء ، والعبادات ، ونوع اختص به الصوفية من مجاهدة ومحاسبة والكلام في المواجد والأذواق وكيفية الترقى وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم ^(١) ، وألف بعضهم في الورع والمحاسبة كالقشيري والسهروردى ، ولما جاء الغزالي دون النوعين في كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » ، فسكتب في الورع والافتاء وآداب الصوفية وسننها وشرح اصطلاحاتها ، ومن هنا صار التصوف علماً ،

ولهذا يحسب العقلاء الحساب للصدقة ، ويوصون بعدم التهافت عليها ، والإسفاف فيها ، ويقولون إن صديقك عرضك ، فتخيره ممن يسمون بشرفك ، ويرفعون قدرك ، ويعلمون منزلتك ، ويعززون جانبك ، وينصحون لك ، ويدلونك على مواطن الخير ، ومواضع النبل ، ومدارج السكال .

وهناك صديق لا يستطيع المستطيعون خلقه ، وليس في إمكانهم التخلي عنه ، ولا التخلص منه ، والهجران له ، وربما كانت المضاضة في مرافقته ، والتنغيص في مصاحبته ، والألم في زمالته ، وكم ود الناس لو يهجرونه إلى غير لقاء .

ومع ذلك فهم يغطون في نومهم ، ويسبحون في خيالهم ، ويغرقون في أحلامهم ويتيمون في صحراء أوسع من وادي التيه . ولا يعلمون أنه « التاريخ » لا يرحم صاحبه ، ولا يحابي رصيفه ، ولا يفضي لمن يستهتر به ، ويتهاون فيه ، وأن حياة الأمم والجماعات ، قد ينطلي عليها الرياء ، ويروح فيها الكذب ، وينفق في ساحتها سوق النفاق ، أما حياة الأفراد فلا يغتفر لديها التويه ، ولا يصح فيها المداجاة ، ولا يحسن أن تقوم على الباطل ، لأن الفرد هو الذي يكتب صفحاته ، وينقش سطوره ، ويملي على الزمن حوادثه ووقائعه ، وهو مسئول - لا محالة - أمام الله « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » .

بخلاف الشعوب حين تسف ، والدول حين تنزلق ، والأجيال حين تنحدر ، والفرق بين المعنيين واضح التباين ، ظاهر المنافاة ، ولذلك يتناسى الناس الذلة التي يشترك فيها الجماعة ، لأن الذي يحمل وزرها شخصية معنوية ، ولا ينسون الذلة التي تقع من الفرد ، مع صرف النظر عما يترتب على هذه وهذه من الإضرار والإفساد ، والأذى والتنكيل ، والإيلام والكيد ، وفوات الفرصة ، وضياع المصلحة .

ولذلك يعنى المربون بالواحد ، أكثر من عنايتهم بالبيئة ، وبهتمون به أولاً وبالذات ، كنواة ضرورية ، وحجر أساسي ، ونرى الشارع الحكيم ، في توجيه الواجب ، وإلزامه بالتكاليف ، يصيح في آذان المسكفين واحدا واحدا « ولا تزر وازرة وزر أخرى ... كل امرئ بما كسب رهين ... لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... ولا يحق المسكر السيء إلا بأهله » .

وما ذلك إلا لأن الأمل المعلق على الشخص بذاته أعظم من الأمل المعلق عليه دائرا في بني جنسه .

والرجل هو الذى يصنع تاريخ نفسه من غير شك ، ويملا صفحاته بما يحدث من أحداث ، أو يأتى من وقائع ، أو يفكر فيه من خير أو شر ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أنى ملاق حساييه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية . . . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حساييه ، ولذلك يرشده النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ومن نوقش الحساب هلك ، ويعلمه أن يتعظ بالماضى ، حتى لا يلدغ من جحر مرتين ، وأن ينظر إلى ما ينسكركه من سواء فلا يقارفه ، والدين النصيحة .
وأن يشاور فى أموره ، ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها ، بل إنه جعل هذه الشورى من صميم الإسلام .

وأصل ذلك كله أن يكون له ضمير يحذره ، وعقل يناصره ، وعزم يؤازره . .
وهذه ليست من السهولة بحيث تنأى لكل مرتاد ، وتنفاد لكل طالب ، وبخاصة الأول منها لأنه نتيجة التربية من البيت إلى المدرسة إلى البيئة . . . ولذلك تختلف الضمائر ، إلى بارزة وخافية ، ومريضة وصحيحة ، والويل لمن يموت فيه ذلك الحارس ، أو يغفل عنه ذلك المراقب . . وكما أن الجسم يقوى بالغذاء ، ويصح بتجنبه لمعاول الهدم والهلاك ، فكذلك الضمير غذاؤه التقوى ، ينمو بها ، ويشب عليها ، ويزيد تمسكاً وسلامة ، ومنعة وصلابة ، بحيث يحارب نوازع الشر ، ونوازع الطغيان . . . ولا يزال هكذا صحيحاً ، كلما دامت مراقبته . . . ولذلك كان من سنته سبحانه الابتلاء ، لا يعرف من الناس مالم يكن يعرف ، ويطلع على ما كان خافياً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن ليحفز المسلم بهذا إلى أن يرجع بنفسه إلى ضميره ، ليرى هل تغافل عن إيمانه فترعزع ، أو سها عن بنيانه فتهدم . . . والمصائب فى لغة الشرع تسمى المحن ، لأن صاحبها يمتحن بها ، فإذا جازها بنجاح ، وتخطاها بجلد ، وانتقل منها بفوز ، كان من أبطال التاريخ ، أما إذا انكشف بها عن ضعف ، وظهر منها عن خور ، وانتقلت به إلى سقوط ، كان أشبه بالحيوان الأعجم ، لا تاريخ له إلا فى حياة البهائم . . . فليُنظر الإنسان إلى أن الله كبرمه ، وليعتبر بغيره من الناس ، وليحاسب نفسه ، وليكن له ضمير المؤمنين ، وعقل المفكرين ، فإنه هو الذى يبنى مجده .

الإسلام والاشتراكية

محاضرة الأستاذ سعيد زهير

لا سبيل إلى إحراز السلام والاشتراكية عن طريق أسنة الرماح بل يمكن ذلك بفضل تقدم الطبيعة الإنسانية . ولم تنجح أوروبا حتى الآن في نبذ النفوذ الأخلاقي الذي بسطته آسيا ولكن لا بد لتسترد آسيا سلطانها من ميلاد محمد ثان ، والظروف التي تكتنف العالم تتطلب ظهور عبقرية قوية تربط بين القوى المادية والروحية ولعل هذه العبقرية تولد في أي حين فالتاريخ يصطنع أمثاله . وأوروبا تبذل قصارى جهدها لتجعل آسيا باقية تحت سيطرتها الدائمة ، ثم إن أوروبا وقد خشيت التقدم العجيب البارز الذي أحرزته جزيرة صغرى كالاليابان تتردد اليوم في السماح لآية دولة أو أمة أسيوية في تنمية مواردها المادية وزيادة قواتها البرية والبحرية التي بفضلها صارت لأوروبا اليد العليا على آسيا ، وأوروبا لا تدع لآسيا متنفسا تتمكن فيه من إصلاح حالها لأنها تعلم أنه لن يمضي وقت طويل على اندماج آسيا من الناحيتين المادية والروحية حتى تقف أمام أوروبا وجها لوجه . وإن المسلك العنيف الذي اتخذته بعض الدول الأوروبية لإزاء تركيا وإيران والصين عندما أبدت هذه البلاد علائم النهوض وحاولت أن تطبق الديمقراطية لدليل واضح على أن أوروبا لن ترغب طوعا في السماح لآية دولة أسيوية بأن تقوى نفسها ويكون منها اليابان الثانية سواء في آسيا أو إفريقيا . فلقد قلب الدهر لمراکش ظهر المجن ، وسيفعل كذلك بإيران ، وطرابلس على أبواب نضال ومصر في وضع سيء .

ولم تنض مضاجع هذه البلدان الإسلامية كلها إلا لأن أوروبا لا يسعها أن تنظر إلى قيام حركة إسلامية جامعة ولهذا فقد عقدت العزم على أن تقتلها في مهدها . ولا شك أن أوروبا تتمتع بأعظم قسط ممكن من قوتها المادية غير

أن الطبيعة الإنسانية حتى ولو كانت طبيعة الأوربيين تنطوى على شيء إلهي ، ومن شأن تقص الميثاق الإنساني الأدبي على أيدي الأوربيين أن يكون له صدى فيهم ويثير كثيرا من الذين سينحازون إلى جانب الآسيويين ومساعدتهم على إقامة السلام والاشتراكية العالمية عن طريق النمو الروحية . وقد اقترح الآسيويون بأن الدبلوماسية الأوربية الحاضرة هي وحدها النمو التي يعتمد عليها . لا ريب في أن مستقبل المسلمين إذا قيس إلى ماضيهم القريب ليس مزدهرا غير أن آسيا في وسعها أن تنجب رجالا مثل بوذا والمسيح ومثل محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن إنجاب مثل هؤلاء الذين لا يوجد في أوربا نظير لهم ميزة عظمى وميراث لآسيا . وقد أثار الهجوم الذي شنه رجال السياسة الأوربيين على آسيا اشمئزاز المستنيرين من أهل آسيا على الحضارة الأوربية . ولا سبيل إلى التحدث في مثل هذه الظروف عن الاشتراكية فالأوربيون الذين يتوقون حقا إلى اشتراكية عالمية ينبغي لهم أولا أن يوجهوا نشاطهم إلى المساواة في حقوق الإنسانية ، ولن يمكن أن نتاح للاشتراكية فرصة للنجاح ما لم يأخذ العالم بنصيحة الشاعر الأمريكي العظيم لويل ...

وينبغي أن تتألف الجمعية التي تستظل بهيئة تستلمهم العبقريّة الاشتراكية لحماية حقوق الإنسانية من كل معتد أوربياً كان أو آسيوياً أو إمبريكياً أو إفريقيّاً ، ويجب أن تقوم في كل قطر مجتمعات مهمتها تغذية الأخوة المتبادلة وتقويتها . فهذا وبهذا وحده تنجح الاشتراكية ، والامة الإسلامية خاصة أهل لتحمل رسالة الاشتراكية ، وبالرغم من أن المسلمين قد أصابهم ضعف مثل سائر أهل آسيا فإنهم ينطوون على الروح الذي يعد لازماً لتقدم الاشتراكية ، وقد بينت الكوارث الأخيرة التي أنزلتها أطماع أوربا بالعالم الإسلامي مظهرين من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون .

أولها أنه لا تزال توجد نقطة يتجمع فيها العالم الإسلامي أو مركز تتلاقى فيه أقطار دائرهم ، وقد كان أول أثر تركته الوحشية التي أنزلتها إيطاليا بطرابلس

في أنفس المسلمين هو أنهم توجهوا إلى أحكم الحاكمين الذي تسعد الأمة الإسلامية خليفته في الأرض والذي يجب أن يكون تمجيد اسمه وصفاته جل شأنه هو الغاية من حياة كل مسلم .

والمظهر الثاني من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون هو ذلك التعاطف الذي يشعر به المسلمون نحو إخوانهم في الدين من أهل طرابلس وإيران ، وهذا يدل على العواطف الحية القائمة على المودة والأخوة بين الأفراد والتي تعد الأساس الحقيقي للإشترابية لم تمت في نفوس المسلمين .

ولو أن هاتين الظاهرتين أشدت ساعدهما وأصبحتا حقائق واقعة لكان نصر المسلمين أمراً محققاً . فكون الجماعات ذات هدف مشترك في الحياة وكونها مرتبطة بعري مشتركة من الأخوة فضائل اشترابية ذات قيمة عظيمة ، ولو أن ثقتنا بالله قويت ولو أن شعورنا بالجامعة الإسلامية تأصلت جذوره في قلوب ثلثمائة مليون من الأنفس التي تسكن بقاعاً مختلفة في الكرة الأرضية لوجدت الحضارة من ذلك كله دافعاً عظيماً ولمضت قضية الإشترابية في خطوات واسعة إلى الأمام . وينبغي للمسلمين أن يعملوا على تحقيق فكرة الرصيد القوى أو يحياوا نظام بيت المال القديم ليتسنى بهذا المشروع الدفاع عن الإسلام والممتلكات الإسلامية المستقلة التي يجب أن يرى كل مسلم أن من واجبه المساهمة بنصيب من دخله في سبيلها ، وكان ينبغي أن تكون كل قطرة دم أراقها الإيطاليون في طرابلس أو الروس في إيران رابطاً يوحد بين قلب المسلم والمسلم في أنحاء العالم ، ويظن كثير من الأوروبيين - على ما يبدو - أنه من المتعذر تحقيق النظام الدستوري في ظل الإسلام غير أن الذين على علم بروح الديمقراطية والإشترابية المتأصلة في الإسلام يعجبون من جهل الأوروبيين بالإسلام ، ثم إن كثيراً من الكتاب الأوروبيين يتخذون من الاضطرابات التي وقعت في تركيا وإيران أمثلة على أن النظم الدستورية غريبة على الإسلام . إلا أن هؤلاء المفكرين يفسون كم من السنين مرت بها بلادهم المحترمة وهي تعاني الفوضى وإراقة الدماء قبل أن تنجح في إقامة النظم الدستورية الناقصة التي تسود معظم البلدان الغربية .

درس عملي في الزكاة

لحضرة الاسنان ابراهيم على سموط

المدرس بكلية اللغة العربية

في ليلة من ايام الصيف عام ١٢٦٥ هـ شمل النرية هدوءها المألوف ، ولها الليل بشوب أبيض شفاف ، صنعته النمر من فضته المعهودة حينما ينتصف شهره العربي . ونام شباب الريف في أحضان الطبيعة الجميلة ، واتخذوا من أجران القمح وسائد وحشايا ؛ وحين استسلم كل من الفتيان والفتيات الى حله الجميل ، روعتهم صيحة المذعورين ، واستغاثات الحراس . فهب النوام يهرولون على غير هدى ، وصارت كل جماعة تضرب الى ناحية باحثة عن مصدر الفرع . ثم اتضح أن هناك حريقا اندلعت ناره في قمح أحد الأغنياء المعروفين في القرية .

وراح الذين كشفوا هذا الخبر من شباب القرية الفقراء يرجعون الى ديارهم ؛ وكلما صادفهم مذعور من أمثالهم يجرى الى مصدر الصياح ردوه بقولهم : إرجع يا أخى ، وخفف عن نفسك . إن هذا الحريق ، وتلك النار في قمح فلان . فيرد عليه قائلا : زادها الله اشتعالا ، واستفحالا ؛ ياليتها اشتعلت في بيته ، أو في جسمه هو وأمثاله من الأغنياء الأثماء . إنه لم يك من المصلين ، ولم يك يطعم المسكين ؛ وليس في ماله حق معلوم للسائل والمحروم . ما فرج كربة عن مكروب ، ولا وائى فقيرا ، ولا عطف على بائس .

ارجعوا يا قرم إرجعوا ؛ فإنه انتقام من الله ، ودرس للعصاة . إنه يضن على الفقير والمسكين بنصيبه ؛ فكان جميع ماله طعمة للنار ، وعرضة للبور .

وراح الفلاح الساذج يرسل من زفرات قلبه أنات مكبوتة ممزوجة بروح من التدين ، والرجوع الى الله إعترافا بأن ما آمن به حق من آيات الله وشرعية رسوله . وكنت أسمع ذلك وأنا في طريقى الى النار المشبوبة ، التى عمد دخانها سحبا كثيفة فى سماء النرية فبدا عليها روح الانتقام من السماء ، وآيات الغضب من رب السماء .

وحملت نفسى إلى مكان الحريق لأرى : هل ترك حقيقة يأكل تراث الغنى كله أم إن هناك من تطوع بإخماده والقضاء عليه من شباب القرية العامل الكادح ، الذى يعتمد عليه فى مثل هذه الملمات ؟

وليس للأغنياء ، ولا أشباه الأغنياء عمل فى هذه الحالات إلا الأمر والتوجيه للفتة الفتميرة العاملة الكادحة التى تعتبر بحق عدة القرية ؛ بل عدة الريف المصرى جمعية فى أمثال هذه النوازل ، وتلك الملمات ، بل عدة الوطن كله فى حماية الأرواح والأموال ، والسهر على مرافقه ، وكرامته من عدوان مفاجيء ، أو استغلال مبيت .

ورحت إلى مكان الحريق ، فلمست ظاهرة تفسر متدار ما انطوت عليه قلوب الفقراء من حتمد وكرهية للأغنياء البخلاء : رأيت فرق الشباب التى وقفت نفسها لمحاصرة النيران قد انفقوا فيما بينهم عملياً على أن يحرسوا أموال الكرماء والفقراء ، ويمنعوا النار أن تقر بها ؛ على أن يكون ذلك على حساب صاحب القمح الذى تأججت فيه النار . وطريقة الريف فى إطفاء الحرائق هى حصار يضرب على النار بإخلاء ما حولها وإبعاد المواد التى تمددها بالاشتعال ؛ فلما هم هؤلاء بنقل كميات كبيرة لم تصل إليها النار من التمدح وعزلوها عن مكان اللهب ، جاء جماعة آخرون لينقذوا ما يمكن إنقاذه من أفواه السعير ليضيفوها إلى السليم المعزول ؛ وكانوا يتعمدون أن ينقلوا الشرر بهذه العملية إلى الناجى من التمدح ، فلا تلبث أن تلتهب الجذوة المنقولة فيما نجا من مال فينطلق الصياح من هذا الجانب : يا قومنا أدركوا النار . فى أسلوب ساخر لا ذع ، له مغزى يفهمه الأغنياء والفقراء .

وهكذا لم تدع النار لصاحب القمح شيئاً ، وعاد الفتيان وفى أفواههم عبارات التشفى ، وفى قلوبهم راحة لما حدث ، وتسبح بحمد الله بعباراتهم الريفية البريئة وهى قولهم : « يا ما أنت ياربى كريم » .

عاد الناس إلى مضاجعهم وقد خمدت النيران التى روعتهم ، لتشتعل من جديد فى نفسى لوجود تلك الروح بين الأغنياء والفقراء . فأردت أن أعرف من هؤلاء العمال والاجراء الاسباب التى جعلتهم يضمرون فى قلوبهم هذه المعانى لهذا الصنف من الأغنياء . وجمعتى مجلس بعدد كبير منهم أنسوا بى ، وارتاحوا إلى حديثى ؛ فكانت الزفات والانات تترجم إلى هذه الجمل ، وتلك الكلمات : إن الغنى الكريم نفديه

بالروح ، ونصب من أنفسنا حراساً على ماله . ونتمنى له البركات التي تضاعف تراثه ، وتحفظ أبنائه من كل مكروه . ولماذا يضمن الغنى بحق الفقير في ماله وهو الذي قام على هذا المال فتمه ورعاه ، وتعهده حتى تضاعف واتخذ سبيله إلى جيب الغنى وخزائنه؟ ألسنا نحن الذين وضعوا مجهودهم تحت تصرف الأغنياء والوجهاء فهم في ساعة الكوارث وعند الملمات يأمرؤنا فنطيع ، ويتسلطون علينا باسم الإنسانية فنبلي؟ نحمل موتاهم على أعناقنا إلى مقبرها الأخير في حمارة القميط ، وزمهرير البرد . ونبكي على هؤلاء السادة - أو نقباكي - حتى نعلن أننا وهم في الكارثة سواء . ونصطف على أبواب السراقات الأنيقة الفخمة في ولائهم . وعزائمهم لربط المطايا ، وإعداد الركائب للوافدين والمعزين . ثم نحن الذين نصب الماء على أيدي الآكلين للطعام الشهى وليس لنا منه نصيب . ونلقى بأنفسنا في النار إذا أصاب ما لهم مكروه لنحفظ عليهم المال والجاه رجاء أن ينالنا منه حظ قليل . وهكذا طال بذلنا للجهد ، ودفعنا للعرق والدم في كل مناسبة تلبية لنداء الغنى الذي يستحنا فيه باسم الإنسانية والإسلام . ولكن الأغنياء لم يقيموا لنا وزناً ، ولم يعترفوا لنا بوجود : خفلقوا في قلوبنا البغض ، حتى صرنا نتمنى زوال النعمة التي في أيديهم ، فلا ندفع السوء الذي يحيق بهم . فكيف نطالب بعد ذلك بإخماد النار التي تشتعل في ما لهم ، ودفع العرق الذي يحتاج محاصيلهم ، وهم بحقنا يبخلون وبكلمات الشكر يضمنون ؟

وراجعت ما سمعت على ما علمت ورأيت في قرى مصر ، فوجدت الحق معهم ؛ وأدركتني الحسرة على انتشار تلك الروح بين جماعات المسلمين . وتساءلت عن العلاج ، والتمسته في النظم الاجتماعية الحديثة كلها فلم أجده لذلك من علاج إلا ما شرعه القرآن الكريم ، وما التزمه المسلمون الأول حين كانوا قادة ، ضربوا للناس المثل العليا في الأخوة بين بني الإنسان ، في مشارق الأرض ومغاربها .

ليس من علاج إذاً إلا أن يخرج الغنى زكاة ماله فتؤخذ منه لترد على الفقير والمساكين ، فتترب المسافات الشاسعة بين الطائفتين ؛ في الريف نجد الخير كامناً في القلوب ؛ ولكن بعثه يحتاج إلى توجيه وتحريض ، وقليل جداً أن يوجد هناك العناد والتبجح ؛ وإن وجد فلا يوجد معه الإصرار . أو الاستمرار ، وهم أطوع الناس في مواسم الخير للتأثر بالارشاد ، وتلمس ما ينجيهم من عذاب الآخرة ، ويرفع

درجاتهم عند الله ، إذا لمسوا الاخلاص في التوجيه ، وأدركوا الرغبة الحقة في العمل على رضا مولا هم .

كانت هذه الدعوة في أول يوم من شهر رمضان المعظم عام ١٣٦٥ هـ ، فلما تحدثنا إلى الناس في الزكاة وسمعوا قول الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ومرت على أسماعهم العظات في الآيات (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) و (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) و (أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) . وجدت القوم كأنهم يسمعون كلاما ما سمعوه ، وأعجبوا به إعجابا تمليديا مجاملة للخطيب والواعظ .

فلما رأيت منهم ذلك قلت لهم : هذا هو الكلام في الزكاة ، وأما العمل فسنبداً به من اليوم : ومن حسن الحظ أنكم في موسم حصاد زرعكم ؛ والله تعالى يقول : (وآتوا حته يوم حصاده) فماذا أنتم صانعون ؟ خبروني بربكم عن الطريق الذي تريدون أن ترسموه لأنفسكم في العبادة لتكونوا مؤمنين .

يجب أن نحدد موقفنا مع الله ؛ فأما أن نكون مسلمين حقاً فتؤمن بما جاء به رسول الله جميعه ؛ وإما أن نخرج أنفسنا من عداد المسلمين ، فنرفض كل تلك التعاليم جملة ، ونكون بذلك صرحاء مع ربنا غير منافقين ولا خداعين . وأنا أعلن لكم هنا في مسجد القرية وفي بيت الله ، أنكم إن لم تخرجوا زكاتكم فلا حاجة لله في صلاتكم ، ولا صيامكم ، وأنكم حين تشهدون بأن لا إله إلا الله دون أن تطيعوه فأنكم كاذبون . والخطوات العملية يا قوم أن تأتوا جميعاً لتتسلبوا مني زكاتي وزكاة أقاربي ثم بعد ذلك نريد أن نعلن عن أنفسنا أننا مسلمون كما أراد الله منا الإسلام . فلما رأى الناس الجد في التنفيذ ، وصدق النية في الوصول إلى الهدف المقصود ، أستطع في أيديهم ، ووجدوا أن دعوة الحق إن قام أصحابها بتطبيقها على أنفسهم أولاً انهارت المقاومة ، وضعف المبطلون . كان عجبا أن يكون شباب التمرية من الموسرين أسرع الناس إلى الجهاد في سبيل هذه الدعوة ، فانتشروا في التمرية جباة يتحملون الأذى في سبيل الله . وضرب الحصار حول المتخلفين ، وأقيم للحساب سوق في المسجد يعرض فيه أمر المدعين الذين قالوا : إننا أخرجنا حق الله من زمن بعيد .

ومن أجل هذا كان الخير كل الخير أن تجمع الزكاة في مخزن عام ، ويحصى الفقراء والمساكين في القرية وخاصة المتعففين الذين لم يسألوا الناس فحسبهم أغنياء .

قدر لأهل هذه القرية أن يجمعوا خمسين أردبا من القمح في المخزن العام ونادى منادى الخير في جنبات القرية : من يرى نفسه أهلا للزكاة فليحضر في فجر يوم الجمعة أمام مخزن الزكاة ، وكان المحتاجون من الأسر التي أخنى عليها الدهر ، ومنعها كبريائها من أن تقف على باب مخلوق ، قد عرفوا أنهم إن حضروا أمام المخزن العام ، فإنه لا فضل لسكان من كان على هؤلاء الأفراد ، وليست هنا يد سفلى ولا يد عليا أمام الحق المقرر في القرآن .

فتسلل المستحقون والمستحقات ، وخرجوا من كهوفهم مع الليل ليستقبلوا النهار هناك عند المخزن المحبوب . فلما امتد ضياء الفجر في الأفق الشرقى ، وانتشرت أنواره لمع التدى على الوجوه الشاحبة ، والمناكب العارية ، والهياكل المتداعية كما نأما خرجت من القبور أشباح موتى قد نساهم أهلهم من الدعوات والرحمات . وتسلم كل منهم حقه بالنسطة ، وحصل على ما يكفيه بقية العام حتى يأتي الحصاد التالى .

ونما في القرية روح جديد من الود الخالص ، والتعاون التام بين الغنى والفقير ، ووجد الحب في كل قلب ، ووضع للبلاد المجاورة رخاء القرية ونعيمها ، فلم يعد يسمع الناس بتلك الحوادث التي تتسبب عن الفقر ، ومد الأمان والأمن رواقه في قلوب الزوم ، فعاهدوا أنفسهم على المواظبة في إخراج الزكاة وأن يعملوا أبناءهم الخير الذى حصلوا عليه من آداء هذا الفرض كما شرع الله .

هذه قصة الدرس العملى في الزكاة ، قد واظب عليه أهل هذه القرية المباركة إلى الآن ؛ فإن شئت أن تسأل عن القرية فأقول لك أنها [حصّة الغنيمى مركز قلين فؤادية] وإن شئت أن تعرف صاحب هذه الدعوة بين أهله في الريف ؛ فأقول لك : إنه كاتب هذه السطور .

المعتمد بن عباد

لفضيلة الاستاذ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

ملك غنت حوله دنيا الجمال فشد معها ، وكان وترآ من أوتارها سحرته الترانيم
فرجعها ألحانا عذابا هي وحي النعيم والهيام الجمال .

ولد المعتمد بين أعطاف النعمة ، وعاش بين أحضان أبيه المعتمد ملك أشبيلية
يجالس الشعراء ، وينادم الأدباء ، ويركض بين أفياء اللهو ، ويغفو بين رنين المزهري
ويصحو على قراع الكؤوس ، ويمجن ما شاء له شبابه الغض ، حتى توج ملكا
بعد أبيه ، فراح ينعم في ظلال ملكه الوارف ، وابتسمت له الحياة وزها له ضحاها
فلم يدع أمنية للشباب الدافق إلا عانقها ، ولا حلما من أحلام الهوى والشباب
إلا نادمه . تدار عليه الراح في مجلس رقت حواشيه ورقصت جوانبه ، فيرى
ساقيه غلاما تسيل رفته ويفيض إشراقه فتهز الخمر شاعريته فيهتف :

لله ساق مهفوف غنج قد قام يسقي فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته في جامد الماء ذائب الذهب

وتمتد بجالس خمره تحت ضوء القمر فتزهو أعطافه وعواطفه ، وتراقص حوله
أفنان الرياض ، وتتألا النجوم ، فيلهمه كل ذلك صورة شعرية ساحرة إذ يقول :

ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ملكا تنهى بهجة وبهاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياها عليه لواء

وهكذا كانت حياة المعتمد كلها شعر فهو يصدر ويصور ، ويفتن في الإصدار
والتصوير عن قريحة شاعرة ، فهو لا يجالس غير الشعراء ، ولا يستوزر إلا المبرز
منهم ، ولا ينادم إلا عباقرة الأدباء ، فابن زيدون وابن عمار من وزرائه ، وابن
حمدين وابن عبد الصمد وابن اللبانه من ندمائه ، وقصوره أندية يختلف إليها كل

من صفت قريحته ورق شعره ، ورحلاته للصيد ولغير الصيد ، لا يصحبه فيها
غير شاعر ولو كان من أصحاب الحرف ، خرج يوما للصيد ومعه حاشية من الشعراء
فالطلق بجواده في وسط مزرعة تين ف ضرب شجرة برمح فعلقمت به تينة فالتفت وراءه
فإذا ابن حاج الصباغ ، فتمال له أجز : كأنها فوق العصا

فتمال ابن حاج : هامة زنجي عصى

وكان يختبر بنفسه الشعراء قبل أن يستصفهم ، وقد حدث ابن حمديس الصقلي
أنه دخل عليه في مجلسه فأمر بطاق ففتح فإذا بكبير زجاج تلوح النار من بابه
وواقدهما يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، فقال المعتمد
لابن حمديس أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقال ابن حمديس : كما رنا في الدجنة الأسد

فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقها

فقال ابن حمديس : فعل امرىء في جفونه رمد

فقال المعتمد : فابتزه الدهر نور واحدة

فقال ابن حمديس : وهل نجا من صروفه أحد

فأمر له المعتمد بجائزه ، وأضافه إلى حاشيته بعد أن امتحن قدرته على ارتجال
الشعر ، وقد بلغ من تقديره للشعر وأهله أنه ركب النهر ومعه ابن عمار وزيره ،
فنظر إلى صفحة الماء وقد جعدها النسيم ، فبدت لعينه كأنها درع محكمة السرد
فقال لابن عمار أجز :

صنع الريح من الماء زرد

ففكر ابن عمار وطال تفكيره فهبت جارية غسالة فقالت : أى درع لقتال
لو جمد ، فأعجب المعتمد بها وبسرعة خاطرها وتزوج بها وتلك هى اعتماد الشاعرة
التي أنجبت له أولاده ، والتي اشتهرت بالرميكية ، وكان لها أثر في اضطغان قلب
المعتمد على ابن عمار الذي هجاها بعد فقال فيها :

تخيرتها من نبات الهجان رميكية ما تساوى عتلا

فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين عما وخالا

ولم تطق اعتماد صبرا على هذا الهجاء ، فأوغرت صدر المعتمد وأغرته بقتل ابن عمار ، ففتك به .

فخياة المعتمد الأولى حياة كلها لهو صارخ ونخر وسمير .

أما حياته الثانية فكلها شقاء وبكاء ، بدأت منذ رأى المعتمد أن العزة الإسلامية تأتي عليه أن يدفع الجزية المفروضة عليه وعلى ملوك الأندلس جميعاً لملك الفرنجة ، فلما جاءه الجبابة نكل بهم ومد يده يستنجد بيوسف بن تاشفين ملك المغرب فتقدم يوسف بجيشه الجرار وصد عدوان ملك الفرنجة على أشبيلية ، وعاد إلى المغرب ولسكن في النفس لهفة وبين الجوانح حسرات على الأندلس على نعيمها ومالها وجمالها الذي يتول فيه ابن خفاجة .

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وعز على يوسف أن يملك الأندلس ملوك لا يستطيعون حمايتها أو رد المغير عليها ، ومن ثم فلم يكذ ينتص ملك الفرنجة على أشبيلية ثانية حتى عاد يوسف لصدده فاتصر عليه ، ثم أعلن خلع ملوك الأندلس جميعاً ، وما كان للمعتمد أن يذعن لهذا الخلع ، ويترك عرشه لبرابرة الصحراء ينعمون به ، بل وقف يحارب أطماع يوسف ويطارده أحلامه ، وقام على أبواب أشبيلية يصول فوق فرسه ويهتف :

أن يسلب القوم العدا ملكي وتسليني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع

واشتد أوار الحرب ، وحصر بأشبيلية و طال حصاره حتى ألقى كثير من جنوده بأنفسهم إلى النهر فراراً من حصار يوسف ، وأخيراً أسر المعتمد ونفي إلى أغمات ، إلى صحراء المغرب ، ووقف ابن اللبانة شاعره في حشد من الناس على ضفتي الوادي ليكون ملكهم الأسير ، وقد خرج مكبلاً بالقيود حيث هتفت شاعرية ابن اللبانة بالباكية تقول :

تبكى السماء بجزن رانح غاد على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض فيهم ذات أوتاد
وكعبة كانت الآمال تخدمها فالיום لا عاكف فيها ولا باد
ألقى السلاح وخل المشرفى فقد أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
ومخرت بهم السفن بين نواح الأندلسيين وبكائهم إلى المغرب ، إلى الصحراء
إلى قرية ليس فيها شيء من سحر الجمال الذى كان ينعم به فى الأندلس تحت حراسة
جند لا يرحمون ملكا تنكرت له الأيام ، وازورت عنه آمال الليالى ، وراحت بناته
يغزلن للناس ، ويخدمن لياً كلن .

وكم آلمته ذكريات الماضى وأمره ونهيه وقيوده التى رست فيها الناس فقال :
قد كان لثعبان قيدك فى الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبي إلى الرحمن يشكو به ما خاب من يشكو إلى الرحمن
وأنة ليتفجع وقد طبقت أنباء أسره الآفاق ، وأنى له الفكاك من ذلك القيد
الذى لابنى عن عضه حتى ورمت فيه رجلاه ويذكر مع هذا سيفه وفتوحاته فيقول :
قد ضاق صدر المعالى إذ نعت لها وقيل إن عليك القيد قد ضاقا
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالبين وللسباق سباقا
وهكذا لا يفتأ المعتمد فى منغاه يبكى ثقل القيود ويندب عز البنود وأنى يجدى
البكاء أو ينفع التوجع إنه ينظر الى الطليق من الطير فيتمنى لو أصبح طليقا من
قيوده ينعم بما ينعم به الناس ويمرح كما يمرح الطير .

ويرى قرية تنوح على هديلها فوق الفن فتذكر من فقدهم فى الأندلس من أبنائه
وأصحابه فثار الأسى فى نفسه فجواب التمرية نوحها ورجع صداها فقال :

بكت أن رأت ألفين ضمهما وكر مساء وقد أخنى على ألفها الدهر
وناحت فباحث واستراحت بسرها وما نطقت حرفا ييوح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقدته وأبكى لآلاف عديدهم كثير
وهكذا كانت حياة المعتمد الثانية دموعا وبكاء وزفرات وأنات ، يصدرها
شعرا داميا يذيب الأكباد ، حتى أسلم روحه لا بين صليل السيوف بل بين صليل
القيود ، ودفن فى أغصان وبقيت مأساته تهيج الخواطر وتثير المشاعر ، ولم يعد
وفيا من شعرائه المخلصين يتسلل فى يوم عيد فيتدف على قبره يرثيه ويكيه ويناديه .

أعلام الأزهري

السيد على الدرويش المصري

المتوفى سنة (١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م)

نفضية الأستاذ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو السيد على الدرويش بن حسن بن ابراهيم الأنكورى . ولد ونشأ بالتماهرة فى غرة شهر المحرم سنة ١٢١١ هـ ، ولما شب ألحق بالأزهر ، فتلقى علومه على جلة من شيوخه ، وكان منذ صباه ميالا إلى الأدب وفنونه ، فأقبل على كتبه يغذى ملكته بقراءتها ، وقلب فى كتب اللغة فعرف أسرارها ، وكان هواه إلى الهندسة والحساب أيضا فأجال فيهما نظره ، ثم أنه تفرغ للكتابة وقرض الشعر ، وحرر الرسائل ، واشتهر بصناعة المواليا والموشحات حتى أصبح شاعر المرحوم عباس الأول .

وكان غنيا بماله وعقاره عن التكسب بشعره ، معروفا بميله إلى اللهو والطرب ، غزير المدح لمن يحبه ، لاذع الهجاء لمن يبغضه ، ولعله امتاز بهذين عن الشعراء الأزهريين الذين لم يكونوا فى ذلك مسرفين ، كما كان حاضر البديهة ، وكانت وفاته فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة .

شعره :

عصر الدرويش عصر صناعة وزخرف ، وكلف بالبديع ، على تفاوت الشعراء فى ذلك ، ولو أن الدرويش اقتصر فى شعره على الـاظ الذى تناوله المعاصرون له من الصناعة والمحسنات لكان من أجودهم شعرا ، إلا أنه أغرق فى البديع ، وكلف بالزخرف .

فمن جناسه الذى يستعمله فى شعره قوله :

أيام أفراح هى الحسن صدق الدين بأنها بمن

فالجناس بين اليمين واليمين وهو متكلف إلا أنه غير موغل في الثقل .
ومن الطباق الذى يستعمله في شعره قوله :

بيت جديد قديم المجد عن سلف بسعد أنجالهم قد شرف السكن
فقد طابق بين (جديد) و (قديم) ، وقوله :

فكم قالت لها الأخرى هلى وكم قالت لها الدنيا تانى
فقد طابق بين الأخرى والدنيا ، ومن أنواع البديع التى يستعملها في شعره
مراعاة النظير كقوله :

لهم جامع من غير باب ، فكم عوت عليهم من المحراب في الصبح جردان
إذا سجدت حيطانه فهى ركع وتسمع تسديح الحصا منه سقфан
وقد جمع سقن على سقфан والصحيح سقف وسقوف ، وبما أولع به من
التورية في شعره قوله في مליح اسمه رضوان .

قد أكثر البعض في إنكاره سفها يوم القيامة جنات ونيرانا
فأبطل الله في الدنيا أدلتهم لما أراهم من الجنات رضوانا
فيحتمل أن يكون أراد (رضوان) خازن الجنة ، أو المليح المسمى ، رضوان ،
أو الرضوان مصدر كالرضا من رضى ورضوان من الله أكبر .

وهو يغرى بالبديع أيضاً في الموشحات و (أدوار) الغناء فتراه يلتزم الجناس
فيها ، ويستعمل التورية ما استطاع ، كقوله .

بalfاتك الفتان ناسى ، ناسى ، أهواه
وخده النعمان كاسى ، كاسى ، آه ، واه

فقد أوقع الجناس بين ناسى اسم فاعل من نسى و (ناسى) بمعنى أهلى ،
وأوقعه بين كاسى اسم فاعل من كسا ، و (كاسى) التى هى إناء الخمر مضافة إلى ياء
المتكلم ، كما أوقعه بين أهواه ، فعلا بمعنى أحبه ، وآه وواه اسمى فعل بمعنى أتألم ،
وفي ذلك من التكلف والتشدد ما فيه .

ولوعه بالتاريخ الشعري :

وهو مفتون بالتاريخ الشعري ، وما زال يستعمله في شعره حتى عرف به ،
ومهر فيه ، حتى ما كانت تمر به حادثة إلا أرخها عفو الساعة ، ^(١)

فمن ذلك ما قاله يؤرخ به إنشاء قنطرة .

إنشاء ممدوح الملا من عدله الدنيا ملا
أعنى الوزير محمدا رب المحامد والولا
لقبولة قد أرخوا إنشاء قنطرة العلا

ومما قاله يمدح به المرحوم محمدا عليا ويؤرخ لامتحان المدارس .

أيجهد فى سوى العلم المعانى ومعنى الانس إدراك المعانى ؟
كفانى أن رب العلم باق على الدنيا وهل باق كفانى ؟

فهذه أبيات حشد الشاعر فيها ما قدر عليه من أنواع البديع المشدود ، وأنواع
الصنعة المتكلفة المستكرهة حتى لسكانها مقصده الأول ، وغرضه الاسمى ، فجاءت
بجفة مقفرة من جمال الشعر .

ومن شعره الذى فيه شىء من الطرافة وحسن السبك ما قاله من قصيدة يعتذر
بها للشيخ البديرى .

بدر صفا بعد تكدير النوى فيه وجادلى بعد أن زالت نوافيه
فروح الروح واغنم نور بهجتها بمفرد قد سما عمن يحاكيه
وقال مضمناً :

وغادة غار منى زوجها فعسى يريد قتلى وفى أحشائه ضرم
يا زوجها كف عن قتلى مساحة بينى وبينك لو أنصفتى رحم
وقال يتغزل فى قصيدة طويلة :

تعالى من أعار الغض ليناً وأحرم من خباه العازلينا
يهنا عاشقون بطيب عيش فما أحلى عذاب العاشقينا
سعدنا بالتواصل بعد هجر وقد كنا بجفوته شقيننا
فقل للصابرين على هواه دعوا العذال فيما يفتروننا
فإننا فى هواك عبيد رق على حب وما كنا سبيننا

وهذه أبيات تمثل غزل العلماء الجاف ، ولكن الدرويش لا يخلو أحياناً
من شعر مقبول ، ونظم على طرف من الجمال والحسن ، ويظفر بذلك كلما تحرر من قيود
التكلف ، وآثر السهولة والتطلق .

ومن ذلك قوله :

ألا محب يلاقيني أطارحه هوى حبيب منيع الدار نازحه
رأيت في الغصن شيئاً من رشاقتة فسكدت من فرط أشواقى أصاخه
ومن شعره العذب قوله :

لقد كان لى قلب تضمن لؤلؤاً من الشعر مسبوك النظام أنيماً
فلما حللت فيه حاولت نقله فأخرجته من ناظرى عتيماً

* * *

وقد جمع تلميذه مصطفى سلامة النجارى شعره ونثره فى كتاب سماه « الأشعار بحميد الأشعار » وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ هـ . ورتب الديوان على ثلاثة أبواب الأول فى الصناعات مرتبة على السنين ، والثانى فى غير المصنع مرتباً على حروف الهجاء ، والثالث فى النثر والأدوار .

أما نثره فهو صورة من شعره فى التكلف والتعسف ، يلتزم فيه السجع حسن أو ساء ، ولولا ما كانت تجره إليه الأسجاع من الحشو والخروج ، لعد من كتاب الطبقة الأولى فى منشاء ذلك العهد ، ^(١) .

وقد تضمن نثره الباب الثالث من « الأشعار بحميد الأشعار » وله مقامات ورسائل فيها روعة ورصانة .

ومن مؤلفاته كتاب الدرج والدرك ، وهو كتاب وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بكريم الصفات وجميل المزاي ، وضم ذوى الدنايا والمثالب ، على ما هداه ميله وأوحى إليه عقله . جعل الدرج للمدوحين ، والدرك للمذمومين . روى تلميذه مصطفى النجارى أن هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يرده . وله كتاب آخر اسمه « تاريخ محاسن الميل لصور الخيل » ، وهو كتاب وضعه تلبية لرغبة الخديو عباس الأول ، ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وله رحلة لم تطبع ولم يتيسر الاطلاع عليها . وله سفينة الآداب ، استعارها منه صديقه على أغا الترجمان ولم يردها .

عجالات في الأدب :

كبرياء القلم

لفضيد الاستاذ طاهر محمد عجمي

مدرس بالآزم

الأقلام معادن منها الحر الخالص للصدق ، ومنها العبد الذي يستخر ويصرف في شئون من يملك نواصيه ، ويقيد أقدامه ، ويذل كما تذلل الدابة ، ويرسله لإرسال السائمة ، وربما جلب حتفه بلعاب شبابه وَجَوْرِ زيوْفه أو اندفاعات نزقاته .
والقلم حرفة وهواية ، وهو مع ذلك رسالة تقوم على المواهب ، وتتبع من أعماق النفس الصافية ، وعالم الروح المنطوى على متابه ، لا ندرى من أمرها إلا الآثار التي تذلل . . والمبدعات التي تشهد . والله في خلق الأقلام شئون ، وما يعزب عنه القلم الضال ، ولا صريف اليراع المهتدى . والأقلام منها التقى والفاجر ، ومنها الضاحك والباكى . ومنها القوى والضعيف ومنها الغنى والفقر ، ومنها المترفع والمسف ، ومنها المتعالى والمتطامن .

* * *

ولن تقلب آثار القرائح على اختلاف ألوانها وأزمانها وأوطانها ، إلا وجدت نتاج الأقلام مقسما كما وزع الله المواهب على النفوس ، وكما أعطى الحظوظ .
وكل قلم ميسر لما براه الله له ، فلا عتاب ولا ملامة .

والأقلام الحرة تجوع في سبيل فنها وإبداع نتاجها ، ولا تأكل بتسخير لعبها وتوزيعه على مطالب الهوى وشهوة النفس التي تلعب بها الأهواء ، وتراقص بنوازعها الأغراض المسفة والمتع الزائلة ، واللففة على الشهرة المجلوبة .

وناشئ الأقلام من أبنائنا يجد القدوة بين يديه ممن يشرفون على تفهيم غضايرته الإنشائية . وما ينبغي لنا أن نمسك للعدوى السيئة من النفث في صفوف

الطلاب ، والسكن والأسف يقطر زفرات ويكاد - لولا الحياء - يسيل عبرات ... كثيراً ما نجد في حُصَب ما ينشر ، ومسف ما يكتب ونازل ما يحبّر صحفاً لا حظ لأقلامها من صدق الفكرة ولا سمو الغرض ولا الإمعان وراء الإبداع الفني والصوغ البياني .

ولإنما هو احتطاب للألفاظ وسوق للكلمات و (نسويد) لوجوه الصحائف بما يبرأ منه «الأدب الرفيع» والدين الصادق ، ومرد هذا شهوة الشهرة وقلة المراقبة للنتاج . ونحن في حاجة إلى أقلام لها كبرياؤها . حتى ترتفع بناشئتنا التي تعثرت في كدر (المجلات) المتهافنة ، وأخص منها التي تنسب إلى (الدين) ، وتستغل عواطف القراء ، ثم تطلق من مساييلها أساليب منهارة ، ومواد عفنة ، وتعايير هزيلة مكررة تذهب بنشاط المتلقي ، وتعني على قوته ، وتخدر الفتي ، فإذا عينه تدور من فرط الاجهاد بغير طائل وراء طحالب التعبير .

ولا أنكر أن أمثال هذه (المجلات) تولد في أحضان الفقر وتنمو في ظل الحاجة وتدرج على أكتاف تمددها لوجه الله لا تريد من نتاجها سمواً ولا من أسلوبها علواً ولا من عرضها تفنناً .

ومن المؤسف — ونحن في بلد إسلامي — أننا لا نجد من معارض الصحافة ولا حقول المؤلفات الشعبية الدينية إلا ما يخجل جبين الفن البلاغي ويسئ إلى الدين الذي يجب إلى أهله القوة والمتانة ولا يرضى لهم الترهل والخرقة والضعف . وسبب ذلك ، أن الأقلام التي تصطنع الكتابة الدينية ، أغلبها في أيد فاشلة ونفوس تتجر باسم الدين ولا تراه رسالة سامية يجب أن تنزه عن الرياء والاحتراف السوقي . والقلم الديني في حاجة إلى كبرياء وفي حاجة إلى أن يدلف إلى أعتاب الخلود ويلوذ بمراقي التجديد . ولا يكون ذلك إلا إذا غربلت مسفات المجلات وحيل بين الأقلام المتملقة والبراعات المتاجرة ، وبين التزوي به باسم الدين والعيش على حسابه . وحسبي من الدعوة إلى القوة والتجديد ، أنني أرى كبرياء قلم ما أهويته لريية ولا حملته نحو حقول السفساف من الأدب ، ولا زيوف الطغام من الأحلاس الذين يعيشون كلا على الدين . وماربك بغافل عما يسطر المسفون ، وتعالى الذي علم بالقلم ، وكرم من يصون كبرياه .

مناهج التفسير

حاجة المسلمين إلى تفسير أوضح

لفقيه الشيخ عبد المنعم النمر

دفعني للكتابة في هذا الموضوع حرج أشعر به دائماً حين يسألني أحد المتعلمين تعليماً مدنياً عن تفسير للقرآن يستطيع أن يقف منه على بعض أسرار الكتاب الكريم ومعانيه . فأستعرض أُممى التفاسير التي ورثناها عن العلماء السابقين لأختار له تفسيراً واضحاً يشبع غلته ويرضى نزغته ويقرب إليه المعنى دون أن يمله أو يتعبه أو يصدّه عن متابعة القراءة فلا أجد ويقتابني حرج وخجل !! أى التفاسير أدفعه إليه .

إن التفاسير التي أمانا قد وضعها في عصور قديمة علماء فطاحل دارسون ومستوعبون لكل العلوم الشرعية والعربية وغيرها فجعلوا تفاسيرهم معرضاً لعلومهم التي يعرفونها ، وكلما وجدوا كلمة أو جملة تتصل بأية ناحية من نواحي العلوم التي يعرفونها استطردوا إليها ولو كانت الآية لا تحتاج في فهمها إلى هذا الاستطراد ، وكلما وجدوا آية في القرآن تنصل من قريب أو من بعيد بموضوع من موضوعات الخلاف في التوحيد أو النحو أو البلاغة أو الفقه خاضوا بهذه الآية غمار الخلاف وتكلموا عن أصل الموضوع والخلاف الطارىء عليه وحجج الفريق الآخر والرد عليها حتى لتشعر وأنت تخوض هذا الخضم معهم أنك بعدت عن الشاطيء كثيراً شاطيء القرآن وأصبحت في جو جديد جو الفقه أو التوحيد أو النحو أو ما شئت من العلوم .

وتجد لكل تفسير من التفاسير التي بأيدينا ميزة يتميز بها عن غيره ، وهذه الميزة التي يظهر بها التفسير راجعة إلى ما يمتاز به المفسر نفسه ، فإن كان المفسر تغلب عليه علوم اللغة ، وجدت تفسيره غاصاً بأبحاث لغوية ، وإن كان متبحراً في علوم البلاغة ، وجدت لهذا أثره البارز في تفسيره ، وإن كان فقيهاً وجدت

للفقه أثره الملموس الغالب على كل ما عداه في تفسيره ، وإن كان عالماً كونياً فلسكياً انتهز فرصة الآيات التي تتكلم عن السكون وأفاض إفاضة لا يفهمها إلا أمثاله من العلماء السكونيين ، وبعض المفسرين يلجأ إلى نقل الاسرائيليات ويفسر بها كتاب الله وهي مدسوسة من علماء بنى اسرائيل تلقاها علماؤنا بحسن نية وفسروا بها كتاب الله ونسبوا غالباً إلى ابن عباس أو غيره من أجلة العلماء ، وبعضهم يحرص على نقل أحاديث كثيرة مختلفة في القوة والضعف يريد أن يفسر الآية بها ، وأنت أمام هذه التفاسير كلها لا تظفر بتفسير حقيقي للقرآن تطمئن إليه نفسك ويفشرح له صدرك ، وكما قيل تظفر من كتب التفسير بكل شيء إلا التفسير ، هذا فوق أن بعض هذه التفاسير يقرر أشياء بعيدة عن روح الإسلام وعن أصوله كما في قصة الغرائق وقصة زينب بنت جحش مما اعتمد عليه المستشرقون في مهاجمتهم للإسلام .

وتجد لهم أحياناً تفسيرات تافهة بعيدة كل البعد عن هدف القرآن وعظمته ، فتجد بعضهم مثلاً يذكر عن قوله تعالى : « ولما ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن ، أن من هذه الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم قص الظفر وحلق العانة والختان وتنف الإبط ، مما ننزه القرآن عن التعرض لمثله في هذا المقام ، بل نكبر الكتاب العاديين عن الخوض فيه .

وإذا كان كل كتاب من كتب التفسير ينفرد بالإفاضة في ناحية من نواحي العلوم الخارجة عن لب التفسير مع عدم إغفاله العلوم الأخرى . فأنتى لا أغالى إذا قلت إنها تكاد تكون خالية من البحث عن أهداف القرآن وأغراضه والروح العامة التي تشاق إليها النفوس الظائمة ، اللهم إلا بعض إشارات وعبارات يمكن الاعتماد عليها في الفهم العام لمعاني القرآن .

* * *

وإننا لا نزال حتى الآن مغرمين بالسير على منوال السابقين من المفسرين ، فالأبحاث اللفظية والبلاغية والفقهية والكلامية ، هي شغلنا الشاغل كلما تعرضنا لتفسير القرآن ، والمفسر العظيم هو الذى يستطيع أن يحشد فى مقاله أو تفسيره ما قاله السابقون فى كتبهم من الأبحاث البعيدة عن روح القرآن ، أما أنه يتحرر

قليلا من التقيد بهذه الأبحاث ، ويرمى إلى الكشف عن لب الآية ، ويربط بينها وبين الحياة وتياراتها دون أن يلتقي بالآلة إلى التمشور ، فذلك المفسر في نظر الكثير لا يعرف شيئا عن التفسير .

ودرستنا في الأزهر الآن متيدة كذلك بقيود السابقين ، ونظرتهم إلى دراسة القرآن ، فشغلنا الشاغل في درس التفسير هو النحو والبلاغة والفقه وعلم الكلام ؛ فإذا ما انتهينا من التحدث عن هذه العلوم كنا قد انتهينا من فهم الآية ودراستها ، ولذلك تجد درس التفسير كأى درس من الدروس الأخرى ، لا يفرق كثيراً عن دروس الكيمياء والطبيعة في جفافه وخلوه من الروح والعظة والهداية .

ولقد درجت على أن أسمى هذه الأبحاث التى أضطر إليها في درس التفسير ، تلبكاً ، في تفسير القرآن « كتلبك » المعدة تماماً ، إذ أنها تحول بيننا وبين هداية القرآن والاتعاظ به ، فتجد المفسرين مثلاً حينما يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « وفي خاتمكم وما يثبت من دابة آيات لقوم يوقنون » يهتمون كل الاهتمام بإعراب الآية من حيث عطف وفي خاتمكم ثم عطف وما يثبت ، والخلاف في ذلك « وآيات » معربة بالرفع أو النصب الخ ، ويذكرون كلاماً لا يفهمه كثير من العلماء !! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الآية الثانية ، وهكذا دون أن يدلوا على مكان العظة والعبرة والعظمة في خلق الناس وبث الدواب ، ودون أن يكشفوا عن آيات الله في خلقه مما تحشع له القلوب ، وتحذر له الجباه . وهكذا لا تجد ما يشقى غلتك أو يشبع نهمك في فهم معاني القرآن ، بينما تجد أبحاثاً تجلب الصداق وتصد عن الاطلاع .

ولم نجد من المحدثين من يسد هذا النقص بتفسير تام للقرآن ، يستطيع المتعلمون في غير الأزهر أن يقرؤوه ويفهموه ويجدوا فيه ضالتهم ، ويستطيع الأزهريون وغير الأزهرين أن يشموا منه رائحة الهداية في القرآن وناحية العظة فيه .

وقد ترك لنا الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا عليه رحمة الله نموذجاً طيباً في تفسير القرآن ، وإن كان لم يتم إلا أنه على كل حال فتح جديد في عالم التفسير ، يجد فيه المثقفون ضالتهم وغايتهم ، ويستطيع من يريد أن يخدم كتاب الله أن يتهج هذا المهج الصالح ، ولقد قام المغفور له الإمام المراعى بدروس في التفسير نهج فيها نهج إمامه وأستاذه الشيخ محمد عبده ، فكانت هي الأخرى على قلبها فتحاً جديداً في الكشف عن معاني القرآن وترتيبها لأذهان الناس

ومنذ سنوات عدة قام ثلاثة من كبار العلماء أصحاب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبدالوهاب خلاف والأستاذ عبد الوهاب حمودة بإلقاء محاضرات في تفسير القرآن بدار الحكمة بمعاونة الحاج يعقوب بك عبد الوهاب وقد لقيت هذه المحاضرات نجاحاً كبيراً واحتشد لها المثقفون على اختلاف ثقافتهم حيث وجدوا فيها الغذاء الذى يفتقدونه من القرآن الكريم لعقولهم وأرواحهم . وم نجد حضرات المفسرين فى هذا يترسومون خطى المفسرين السابقين من العناية بالآبحاث اللفظية بل إنهم عنوا بالمعنى ، بالروح ، بالهدف ، بالعظة والعبرة . فكشفوا بذلك عن عظمة القرآن وعن سر خلوده .

وهذا النجاح والاقبال حتى من كبار علماء الأزهر على هذه المحاضرات ترينا إلى أى حد نحن محتاجون إلى تفسير كهذا التفسير الذى قرأناه فى المنار وسمعناه فى المحاضرات .

إننا نقرأ كثيراً أن الواجب يقضى بوضع تفسير للقرآن يترجم إلى اللغات ليعرف الأجانب منه عظمة القرآن وتشريعاته ومبادئه : وإننى أقول إن المسلمين العرب لى أشد الحاجة إلى أن يقرأوا بالعربية تفسيراً يفهمون منه معانى القرآن ويقفون منه على عظمتيه وعظمة تشريعاته ومبادئه حتى إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

وإننا فى الأزهر لى أشد الحاجة كذلك إلى توجيه طيب فى كيفية دراسة التفسير بحيث نجعله درساً للهداية والعلم ، نفهم فيه القرآن بدل أن نردد فيه مانعرفه من علوم النحو والبلاغة والفقه . إذ أننا بهذا التوجيه السديد الجديد نفتح فتحة جديدة فى عالم التفسير ونربى جيلاً جديداً من العلماء يقوم علمه على اللب لا على القشور .

وإن فى الأزهر وخارج الأزهر من العلماء الأفاضل من يستطيعونه لو تضاموا وصح منهم العزم - أن يخدموا القرآن ويخدموا المسلمين ويخدموا أنفسهم ويخلدوا ذكرهم إذا وضعوا تفسيراً للقرآن يتم ما بدأه الإمام الشيخ محمد عبده وتليذه السيد رشيد رضا ، ويحقق للنفوس الظامّة المتلهفة رغبتها فى التزود من كتاب الله والارتواء من معينه العذب الفرات .

فهل يفعلون ؟ ! إننا منتظرون ؟

المسلمون والتصوير

لأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في التاريخ - ودبلوم في الآثار - وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

عرضنا فيما سبق للكلام عن اليهودية والتصوير ، وذكرنا بعض ما جاء في التوراة من آيات تتعلق بهذا الموضوع ، وتكلمنا عن أسباب منع التصوير في الشريعة الموسوية ، ودوافع ذلك المنع ، واحتمال تأثر المسلمين بتلك الأفكار . وننقل بعد هذا إلى الكلام عما يأتي :

المسيحية والتصوير :

جاءت المسيحية ، ولقيت أول ما وجدت ألواناً من الاضطهاد من أتباع الديانة اليهودية من جانب ، ومن الدولة الرومانية الوثنية من جانب آخر . وعاشت المسيحية في جحيم الاضطهاد سنوات ، ورأى المؤمنون بها أن رجال اليهود المكابرين وحكام الرومان الظالمين ، لن يغفروا لهم ثباتهم على تلك العقيدة . ولن يدعوا فرصة تزدون تعذيبهم والقضاء عليهم ، غير أن إيمان المسيحيين الأول كان أقوى من مكر اليهود وبطش الحكام ، وقد هداهم إيمانهم إلى الهرب بعقيدتهم إلى المغاور والكهوف والسراديب ، حيث جعلوا منها أما كن للصلاة والعبادة ، كما اتخذوا لأنفسهم رموزاً خاصة يفهمون وحدهم مدلولاتها : فكان رسم السمكة يرمز ليسوع المسيح المخلص « ابن الله » ، وكانت الحمامة ترمز للروح القدس ، وكان رسم الراعى الذى يحمل الشاة الشاردة فوق منكبيه ، يرمز للمسيح الذى بعث ليخلص الناس وهكذا . ومضت قرون وحل القرن الرابع الميلادى ، وخرجت الأفكار المسيحية من باطن الأرض إلى ظاهرها ، حين اعترف بها الأباطرة ديناً رسمياً للدولة الرومانية . ومن ثم انتشرت المسيحية فى كل مكان من بلاد الإمبراطورية الضخمة ، ورأى القائمون على أمر الدعوة المسيحية أن خير الوسائل التى تسكفل للدين الجديد الثبات والاستقرار ، اتباع كثير من الأساليب والنظم التى خلقتها الإمبراطورية الوثنية دون أن يخشوا شيئاً من زيف أو خروج على الدين . والذى حدث أن الكنيسة

أفادت كثيراً من ذلك الاقتباس الذى لم يحمل فى طياته أى خطر بالنسبة إليها . غير أن الفن المسيحى أو الفنون التى نشأت لخدمة الكنيسة وأغراضها قد اختلفت بطبيعة الحال عن الفن الرومانى الوثنى ، حيث كانت أقرب إلى البساطة ، وأطوع لرغبات رجال الدين المسيحيين ، وإن كنا لا نستطيع أن نتجاهل ما أفاده الفن المسيحى مما عاصره ، وما كان قبله من الفنون .

ولما كانت المسيحية قد استعانت منذ ظهورها بالصور لنشر العقيدة ونقلها عن طريق الرسوم الرمزية من مكان إلى آخر ، فقد ظلت على إيمانها بالفن ولزومه لشرح العقيدة ، واستخدامه فى تقريب معانى الإنجيل إلى أذهان الناس وأفهامهم ، وتوضيح الأحداث المسيحية الكبرى ، وحياة الرسل والقديسين باللوحات المصورة والمتأثيل . وجدير بالذكر أنه لم يتم - حتى القرن الثامن الميلادى - أى اعتراض أو خوف من رجعة الوثنية أو نسكسة المسيحية .

ولقائل أن يقول إن الاعتراض على الصور أو الخوف منها قد ظهر فى القرن الثامن الميلادى بدليل قيام حركة تحطيم الصور الدينية فى الامبراطورية الرومانية الشرقية .

والجواب على هذا أن تلك الحركة لا علاقة لها برجال الدين المسيحيين بل قام بها ودعا إليها الامبراطور نفسه لدوافع سياسية واقتصادية كان لها ما يبررها فى نظر الامبراطور حينذاك . مع أن تلك الحركة كانت قاصرة على اتباع الكنيسة الشرقية أو الكنيسة الأرثوذكسية . بينما ظلت الحال على ما هى عليه فى سائر أجزاء العالم المسيحى . وقد تخلف عن خدمة فن التصوير للمسيحية تراث ضخم رائع ليس الكلام عنه من موضوع هذا المقال .

الفرس والتصور :

يرجع ماضى الفرس الفنى إلى ما يزيد على ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، كما تدلنا على ذلك نتائج الحفريات التى قام بها الآثريون الغربيون هناك . وإذن فليس من السهل على شعب يرجع تراثه الفنى إلى ذلك الماضى السحيق ، أن يتحول عن طبيعته الفنية ، ولا أن يغمض عيونه عما يراه ماثلاً أمامه فى كل مكان من روائع ما أنتجه الأجداد السابقون .

ولم تحل الأفكار الدينية التي سادت إيران في عصورها التاريخية — دون مزاولة الفرس للفنون في شتى أشكالها ، فالزردشتية كانت تأمر الناس بعمل الخير اقتداءً بالله الخير ومساعدة له على أن يهزم بفضل أعوانه — الله الشر . ويفهم من هذا أن تقيد الآله في أعماله وأفعاله ، أمر تحض عليه الزردشتية ، والاقتداء به فيما يبتغي ويريد ، كمال مطلوب . والخلاصة أن الزردشتية لا تخاف تقليد الآله بل نرى أن هذا مما تنزع إليه كل نفس طيبة ، لأن الغرض الأول من ذلك هو الوصول للكمال لا المكابرة والعناد .

أما « المانوية » فقد استعانت على أداء رسالتها بالتصوير ، ذلك أن ماني نفسه — صاحب تلك العقيدة — كان مصورا ماهرا ، وقد زين كتبه التي نشرها بين أتباعه بالصور والرسوم وتقبل الفرس ذلك الجهد الفني قبولاً حسناً وإن لم يؤمن الكثيرون منهم بآراء ماني الدينية .

ثم جاء الإسلام إلى بلاد فارس فأمن به الفرس وتناولوا أصوله وأحكامه بعمولهم لا بقلوبهم فحسب . ويبدو أنهم كانوا أكثر تأملاً للنصوص وأعمق فهماً للحقيقة القائلة : « أن الدين صالح لكل زمان ومكان » . وعلى قدر ما كان الفتح العربي لبلاد فارس انتلاباً من حيث نظام الحكم وأشخاص الحاكمين وطبيعة الدين ، كان إيمان الناس بالإسلام استجابة لنداء العقل ، لا خضوعاً لقوة السيف ولا رهبة من بطش الحاكم . على أن الفرس احتفظوا بطابعهم المعيشي القديم ، ورعوا فنونهم بإخلاص حر متوارث ، وزاولوا تلك الفنون في ظل الحكم الإسلامي بنفس التذوق الذي كانوا يزاولونها به قبل أن يحل الإسلام بينهم ،

وفي ذلك العصر الإسلامي رسم الفرس بعض المواقف من حياة الرسول وأحداث التاريخ ، كما شرحوا كتب العلوم بالصور النباتية والحيوانية ، وزينوا الآثار والأواني ، ونقشوا البسط والنياب ، واتخذوا من الخزف والمعدن تحفاً على صورة الطيور والآناسى ، دون أن يخطر بأذهانهم عمد لمخالفة الدين أو رغبة في الخروج على تعاليمه . ولكن الفرس تحركوا في إيمان عميق ، بأن الإسلام لا يكره الصور ولا يخشاها ، وأن تلك الرسوم لا تستطيع — مهما بلغت من روعة الفن — أن تميل بالنفوس عن جلال الوحدانية وسموها .

دراسات في القرآن

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوي

تردد الحديث عن كليم الله موسى في خمسة وعشرين سورة من القرآن سردها جميعاً ثم بدأت أذكر مواضع الآيات من تلك السور مفسراً لها .

وتحدث اليوم عما تفيد به الآيات (٦٠) فما بعدها من سورة ، البقرة تذكراً (٦٠) من سورة البقرة أن موسى طلب السقيا لقومه ومعناه أنهم عطشوا في الصحراء ولا ماء . فسأل الله أن يسقيهم فأكرمهم الله بأن أخرج لهم الماء من الحجر . كما أكرمهم من قبل فجعل لهم طريقاً في البحر يبسا .

قال الله سبحانه لموسى منبها له ولهم على ما وضع من أسرار في هذه العصا التي أنقذته من سحر فرعون فالتفت ما كانوا يأفكون ، وضربت البحر فانفرد فكان كل فرق كالطود العظيم ، قال له أضرب بعصاك الحجر ففصر به فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، بعدد الاسباط الذي قسمهم موسى قسمة القائد الحكيم . وعلم كل أناس مشربهم بلا بغي ولا اعتداء .

بعد هذا تورد الآية (٦١) صورة من تمرد القوم في شأن الطعام بعد أن ذكرت ما قبلها صورة من حفاوة الله بهم في أمر الشراب ، فهؤلاء القوم قد أنعم الله سبحانه عليهم في الصحراء المحرقة المجربة ، فظلل عليهم الغمام وقاية ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما شهيا ، وغذاء قويا مع ذلك الشراب من الحجر ، فكفروا نعمة الله وقالوا لن نصبر على طعام واحد ، وسألوه عنتا وشقاء شيئا مما تنبت الأرض لا ما تنزل السماء ، فالتمسوا لأنفسهم الشقاء ، وطلبوا الأدنى بدلا من الأعلى .

فتحدهم الله سبحانه كما يتولى - الاستاذ محمد عبيد - أن ينزلوا إلى محاربة سكان الأرض الموعودة ، ولسكنهم امتنعوا جنبنا كما هو شأنهم .

وفي آيتي (٦٣ ، ٦٤) أن الله سبحانه أخذ عليهم العهد والميثاق بعد أن رفع فوقهم جبل الطور تخويفا لهم حتى يقبلوا التوراة . قالوا إن نبي الله موسى طلب من قومه لما رجع من مناجاة ربه ، ومعه التوراة ، أن يعملوا بها ، فأبوا إلا أن يروا الله ويكلمهم كما كلم موسى فأخذتهم الصاعقة كما ذكر في آية سابقة ثم بعثهم الله . ثم عادوا إلى خلافهم فأمر الله سبحانه جبريل أن ينزل الجبل فيجعله فوق رؤسهم . عند ذلك خافوا وعاهدوا موسى على العمل والطاعة . ثم خالفوا بعد ذلك . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لكانوا من الهالكين .

وذكرت آية (١٧١) من سورة الاعراف أن الله سبحانه نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ففي سورة الاعراف بعض تفصيل للرفع كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وفي سورة البقرة بيان أنهم نقضوا العهد .

وأما آية (٥٦) مما هنا (البقرة) فهي تحدثنا أن جماعة من بني إسرائيل اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وتذكر أن يهود الإسلام علموا ذلك وأن الله سبحانه جعل تلك العقوبة نسكالا وعبرة لمن في زمنهم ومن بعدهم وموعظة للمتقين ، والحادث مفصل بأكثر مما هنا في سورة الاعراف (١٦٣ - ١٦٦) ففيها أن ذلك كان بالقرية التي كانت حاضرة البحر قريبة منه وأنهم اعتدوا لأن الله سبحانه ابتلاهم فجعل الحيتان تظهر لهم يوم يسبتون ، ولا تأتئهم يوم لا يسبتون وأن طائفة كانت تنهاهم وأخرى كانت تلوم التي تنهاهم لأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا وأن الله أنجى الناهية وعذب الظالمة وسكت القرآن عن اللائمة فاختلف الناس فيها وأن الله أيضا قال لهم وللمعتدين ، كونوا قردة خاسئين هذا ما في الكتاب الكريم فإذا تعيين القرية بأكثر من أنها قريبة من البحر فهي موضع ابتلاء بالحيتان . وأما الكلام في أن الطائفة الناهية هلكت أو نجت فلا ثبوت له ومن عجب النظر وفضوله محاولة التأويل في أمر المسخ بأنه مجاز عن الخسة أو غيرها كما ينقل الشيخ رشيد رحمه الله في التفسير .

والآيات من (٦٧ - ٧١) من سورة البقرة تقص علينا من أنباء بني إسرائيل ما يصور بعض تنطعهم وإحفاثهم في السؤال ، وهي متصلة بما بعدها (١٢ - ٧٣) مرتبة عليهما ، متأخر مدلولها في الزمن عنهما ، ولكن ذلك مسالك الذكر الحكيم للتشويق حتى يستقر في النفس ما بعده ، ويقع منها موقع الماء من ذى الغلة .

تذكر أن موسى (ص) ينقل إلى قومه عن الله سبحانه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وأن ذلك لغرابته عندهم يجعل موسى عندهم كالمستهزى بهم ، فلا علاقة في عقولهم بين قتل نفس يراد معرفة قاتلها ، وبقرة يؤمرون بذببحها ، والاستهزاء من صفات الجاهلين ، فاستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين .

فطلبوا من موسى أولاً أن يعين لهم صفتها ، ما هي ، ففهم أن ذلك سؤال عن سننها فسأل ربه فأجاب بأنها لا فارض « مسنة » ولا بكر « صغيرة » . ولكنهن عوان « نصف » بين ذلك . ثم سأله ثانياً عن لونها فقال إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين بهذا اللون المحبوب . وطلبوا ثالثاً زيادة التمييز في الصفة أسائمه هي أم عاملة . واعتذروا عن هذا الإسفاف بأن البقر تشابه وأن لهم أملاً في الاهتداء فتمال لهم إن الله سبحانه يطلبها غير عاملة فهي ليست ذلولاً تقلب الأرض للزراعة . ولا تسقى الأرض المياه لها ويريدها مسلمة ليس فيها لون يخالف لونها فقالوا الآن جئت بالبيان الحق فذببحوها وما كادوا يفعلون . ولو أنهم ذبحوا بقرة لكفرتهم أيا كانوا ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، وبهذه القصة سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » ذلك فيما أفهم لأنها لم تذكر في غيرها وفي « ٧٢ و ٧٣ » أنهم قتلوا أنفسهم فاختلفوا في القاتل وتدافعوا كل يدفع عن نفسه ويتهم غيره ولكن الله مبين للحق فلذلك قال اضربوا القتل ببعض تلك البقرة وقوله « كذلك يحب الله الموتى » صريح في أن الله أحياء أو كالصريح فيه ، فلا عبرة بتعسف الشيخ رشيد وتعميده في آيات الكتاب . والله الموفق للصواب .

في حجب المكفوفين

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

يخطيء بعض الناس حين يظن أن القرآن الكريم قد شوه صورة العمى وقبح منظر الأعمى ، لأنه أكثر من ذكر العمى والأعمى في مواطن الذم والسوء ؛ وهذا ظن قد يساعده الشكل والمظهر ، ولكن الأمر يتبدل حين النظر الدقيق والبحث العميق ؛ وقد تتبعنا الآيات الكريمة التي وردت فيها مادة « العمى » ثم بحثنا ، فلاحنا فيها سمة غالبية ، هذه السمة هي أن القرآن لا يريد بمادة « العمى » في أكثر استعمالاته كف البصر وزوال الرؤية من العين ، ولكنه يريد بها ضلال العقل وسفه التفكير وخطأ الرأي ، ولنستعرض الآن طائفة من تلك الآيات لتبين فيها ذلك .

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة واصفا شأن المنافقين : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » ، وهؤلاء المنافقون مبصرون حسا ، ولكن القرآن أراد أن بهم عمى عن الحق وضلالا عن الهدى ، فإراد القرآن العمى الحسى ، بل أراد العمى المعنوى ، وهو شر ما يعاب به الإنسان . ويقول في سورة الأنعام : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . ويقول في سورة يونس : « أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون » ، والمراد به أيضا الضالون السفهاء الذين لا يستجيون . ويقول في سورة الإسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، والمراد الأعمى عن الحجة المنصرف عن الدليل ولو كان له بصر زرقاء اليمامة . وفي سورة الحج يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، والآية لا تحتاج إلى تعليق ، فهي في الباب أوضح ما يكون . ويقول في سورة النمل : « وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم » ، والمقصود مفهوم . ويقول في سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، فالمقصود بالعمى هنا هو الضلال لا فقدان البصر ولذلك قوبل بالهدى .

وفى نفس السورة يقول عن القرآن : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أى لا يفهمونه ولا يتأثرون به لبلاذتهم وظلمة قلوبهم وعقولهم . وفى سورة محمد يقول عن المجرمين من الكافرين والمعاندين : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أى أضلهم عن الإيمان فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد ، ولذلك عتب الآية السابقة بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على القلوب أقفالها » .

ويقول فى سورة فاطر : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور » . قال المفسرون : هذه أمثال ضربها الله فى حق المؤمنين والكفار ، فتقوله : الأعمى والبصير أى العالم والجاهل ؛ ولا الظلمات ولا النور أى الكفر والإيمان ؛ ولا الظل ولا الحرور أى الجنة والنار ؛ وما يستوى الأحياء ولا الأموات أى المؤمنون والكافرون ! ...

من هذا نرى أن أغلب الاستعمالات التى وردت فى القرآن الكريم لمادة « العمى » أريد بها عمى القلب والعقل والروح ، لا عمى البصر . فإذا أراد القرآن استعمال مادة « العمى » بمعناها اللغوى الأول وهو كف البصر ، لم يستعملها على وجه الظم والتمحيص ، بل يذكرها فى مواطن الرحمة أو التخفيف ، فهو مثلاً يقول : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتعه الذكرى » ، فيذكر المكفوف هنا باللفظ الصريح ، لا ليتندر عليه ولا ليسخر منه ولا ليستهزئ به ، وإنما لذكر رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن هذا « الأعمى » كان فى حاجة إلى الرحمة والإقبال ، لا إلى الإعراض أو الإهمال ، والقرآن الكريم يقول فى آية أخرى : « ليس على الأعمى حرج ، فيذكر أيضاً كلمة « الأعمى » بمعناها الأصلية وهو كف البصر ، ولكن فى أى موطن ؟ . ليس فى موطن الظم والتدح والتجريح ، بل فى موطن الرحمة والتخفيف ! .. وإذن فالقرآن لا يسخر من الأعمى كما يظن الجهال ، ولا يذكره ذاماً أو ناقداً ؛ وإذن فاستشهاد الكثيرين بالآيات التى تتضمن مادة « العمى » فى الجملة على المكفوفين أو السخرية بهم ، استشهاد يدل على عمى فى العقل وبلادة فى الشعور . وقد التفت إلى هذا المعنى بعض العباقرة وذكروه فى كلامهم ، فقال إبراهيم التيمى

« كنى بالمرء حسرة أن يفسح الله له في بصره في الدنيا ، وله جار أعشى ، فيأتى يوم القيامة أعشى ، وجاره بصيرا . » وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الله بن عباس : ما بالكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم ؟ (وكان ابن عباس قد كف بصره في آخر حياته) فألقمه ابن عباس حجرا حين أجابه قائلا : كما تصابون في بصائركم يا بني أمية ! . وسمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا . فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب أشد من عمى العين في الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لي كنهه محبته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها ! ... وقال رجل للقاسم بن محمد : لقد سلبت أحسن وجهك . قال : صدقت غير أنى منعت النظر إلى ما يلهى ، وعوضت الفسكرة في العمل فيما يجدى ! ...

والقاعدة التي نريد تثنيتهما في الأذهان ولو بالإلحاح في الإعادة والتكرار هي أن كف البصر ليس بعيب موجب للاحتقار ، وليس بنقص يعوق صاحبه عن سبق والتبريز في الحياة إذا هيئت له الوسائل والأسباب ، وكل ما يقال فيه هو أنه نقص جسمي لا يلام عليه صاحبه ولا يعاب ، وأحيانا يهش له صاحبه ويفرح به ، إذ يريحه من سيئات وييسر له حسنات ، ولعل أبا العلاء المعري أشار إلى ذلك من طرف خفي حين قال : « أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمدونه غيرى على البصر » . وكفيف البصر إذا أوتي الموهبة وواتته الظروف قد يعلو غيره من المبصرين وقد يسودهم في مواقف يقام لها كل ميزان ؛ ومن أمثلة ذلك أن أبا العلاء المعري الضرير دخل ذات يوم على المرتضى بلا قائد ، فعثر في طريقه برجل ، وتعجل الرجل فقال ، من هذا الكلب ؟ . فأراد أبو العلاء أن يرد عليه سبه بأقذع منه ، ولكن في أسلوب مطوى ومن طريق غير مباشر ، وفي الوقت نفسه يبين له أن هذا الضرير المشتوم أفضل في علمه وحفظه من البصير الشاتم ، فأجابه أبو العلاء معرضاً به : الكلب يا هذا هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما ، ومعنى هذا أن المعري يعرف للكلب سبعين اسما ، وإلا لحق عليه باعترافه هو أنه كلب ، وهذه عبقرية لغوية مدهشة ، ومعناه أيضاً أن أبا العلاء يدرك أن شاتمته لا يعرف هذه السبعين فهو إذن الكلب ! . ولما شاهد المرتضى ذلك قرب أبا العلاء وأدناه واختبره فوجده عالماً ، مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه وهو ضرير إقبالا شديدا بعد أن ترك المبصرين وراءه ظهرياً ! ...

فكرتا العالمية والقومية

في نظر الاسلام

لفضيرة الأستاذ محمود فياص

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

لقد أظهر البحث المقارن في علمي « السياسة والدستور ». أن الإسلام هو أول نظام عالمي سليم عرفته الإنسانية حتى اليوم ، وأن ما ظهر من فكر « عالمية » بعد سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح ، إنما استمد من النظم الإسلامية ، أليس الإسلام قد ألغى الفروق بين الأفراد في الأمة ، وفتحهم بالحرية والاخوة والمساواة ؟ أوليس قد ألغى الحواجز والامتياز بين الشعوب ، وجعل الشعب في الأمة الإنسانية فرداً . ومن مقتضيات الاخوة والتمراة ، المحبة والمودة ، وحسن المعاملة ، وضمان السلامة للجميع ، وتيسير الخير للجميع ، والتعاون في سبيل صالحهم العام ، وهذا هو معنى التعارف الذي جعله الله حكمة من حكم إيجاده البشرية « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فالتعارف والسلام هما أساس العلاقات بين الناس أفراداً كانوا أو شعوباً ، وكما يتفاوت الأفراد في النشاط والسكسب ، والقدرة على العمل ومبلغ النبل في القصد من العمل ، كذلك تتفاوت الشعوب في ذلك ، وهذا هو موضع تقدير الشرف ، ودرجة التسكريم للفرد أو للشعب ، وفق القاعدة الكلية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » أي أبعدكم عن الشرك الديني والاجتماعي ، وأتقاكم للبضار والمفاسد ، وأكثركم دفعاً لها عن الأفراد والشعوب .

ونظراً لهذه النظرة الإسلامية إلى البشرية كان الإسلام ديناً عاماً للبشرية كلها ، لا خاصاً بشعب من شعوب الإنسانية ، واتجه في دعوته إلى البشرية كلها . لا إلى الشعب العربي الذي بعث فيه رسول الإسلام محمد صلوات الله عليه ، ولهذا فهو ينادى البشرية في القرآن الكريم بـ « يا أيها الناس » « يا بني آدم » وغالباً ما تجد الحديث الذي يعقب هذا النداء في القرآن الكريم شأناً عاماً للإنسانية ، لا خاصاً

بتنظيمات يعمل بها الذين آمنوا . . وهذا أيضاً هو مغزى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

قرر الإسلام هذا المعنى منذ ١٣٨٣ عاماً (أى منذ بعث محمد رسولا إلى الناس كافة ، وهذا المعنى هو ما تحاول البشرية أن تصل إليه اليوم وعبثا تحاول كما حاولت فيما مضى ! !

حقيقة كانت المدنية اليونانية من عوامل إزالة الفوارق بين الشعوب . لأنها كانت خلاصة مدنيات لشعوب مختلفة ، وساعدت على قيام دويلات في حوض البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب ، فجاز أن توصف بأنها كانت نواة لنظام عالمي يجمع أكثر من أبناء شعب واحد في دائرة حضارة واحدة ، ولسكنك إذا عرفت أن « أرسطو » . عندما تحدث عن الرقيق عرفه « بأن كل من كان غير يوناني فهو رقيق ليوناني . لأن اليوناني لا يمكن أن يسترق ولا يحل أن يستعبد وكل غير يوناني يجب أن يكون عبداً ليوناني ، أو من شأنه ذلك ، لأن عبوديته لليوناني تهذبه وترقيه ، وتسمى مواهبه » !! وإذن فالمدنية اليونانية كانت مدنية استعمارية ، تحتم الفروق بين البشر ، ولا تعترف بحقوق الإنسان لغير اليوناني ، ودعوى « أرسطو » هذه هي أساس النظريات الاستعمارية التي أخذت ألوانا مختلفة في العصور الحديثة (استعمار . حماية انتداب . وصاية . مساعدة الخ) .

وحقيقة أيضاً أن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت عاملاً قضى على الحواجز السياسية بين الشعوب ، بتعميمها حق المواطنة الرومانية لأبناء الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ابتغاء الامتزاج في نظام عالمي واحد ، يقوم على التقليل من حدة الفوارق الجنسية والسياسية بين الشعوب سيما بعد أن انتشرت المسيحية فيها وحاول الدين ورجال السياسة جمع العالم كله في دائرة روحية واحدة تظلمها راية سياسية واحدة .

هذا . ولما جاء الإسلام باتجاهه إلى الإنسانية ، ودعى إلى وحدتها على أساس الأخوة والمحبة ، ورسم للبشرية منهجاً دينياً واجتماعياً وسياسياً ، يخلصها من قيود

الذل والعبودية ، ويحقق لها السلام ، ويضمن لها السعادة ، وكان بذلك أول تشريع أكرم الإنسانية ، وكان صاحب فضل ظاهر ، وأثر باهر ، في رقيها وسعادتها وتوجيهها نحو المثل العليا ، بقى أن يقول لى التمازى الكريم ، إذا كان الإسلام قد دعى إلى العالمية فما موقفه من القومية أو (الوطنية المحلية) ؟ وأبادر فأقول لك : إن الإسلام فى دعوته إلى العالمية لم يغفل القومية ولم يدع إلى إهدار الوطنية وهو هنا على عكس الشيوعية تماماً ، وذلك أن الإسلام يدعو إلى العالمية وفق منهج خاص يقول : إن بنى الإنسان إخوة وذوو أرحام ، وهم أحرار متساوون فى الحقوق والالتزامات ، ليس لفرد ولا لشعب أن يستعبد فرداً أو شعباً ، ثم يدعوهم إلى إقامة العلاقات بينهم - فردية وجماعية - على المحبة والمودة والسلام ، والبعد عن الظلم والطغيان ، كما يدعوهم إلى النضام الجماعى فى سبيل خير الجميع ، والضمان تحقق ذلك كله يدعو البشرية إلى عبادة إله واحد هو خالقها ، والاحتكام إلى دستور واحد (القرآن) من صنع الخالق لا من صنع البشر .

ولم تقتل الشعوب من عاداتها وتقاليدها ، إذا لم تتناقض مع مبادئ الإسلام الكلية ، بل نجده يتر العرف (وهو مجموعة العادات والتقاليد للشعب) ، ويحكمه فى كثير من الجزئيات ، ما دام متفقاً مع قواعد الإسلام الكلية ، حتى قال الفقهاء : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، والإسلام إذ يصبح موجهاً للإنسانية ، ويصبح دستوره دستورها ، يصبح لدى الناس قوميتان ، قومية عالمية إنسانية تساوى عندئذ القومية الإسلامية ، وقومية خاصة هى الوطنية المحلية لكل شعب من الشعوب ، وفى إبان العصور الإمبراطورية الإسلامية .

عرف الشرقيون بصفة عامة فى العصور الإسلامية المختلفة حتى قبيل انهيار الخلافة العثمانية باسم المسلمين ، وعرفت بلادهم ببلاد المسلمين أو دار الإسلام ، وعرف المسلمون بلاد غيرهم بدار الحرب أو بلاد الكفار ، وتحدث الأوروبيون عن الشرقيين باسم المسلمين أو المحمديين ، وألغيت الحدود بين بلاد المسلمين ، وأصبحت أرض الإسلام موطناً عاماً للمسلمين ، ومع هذا كان لكل شعب خصائصه

وميزاته ، وعاداته وتقاليد وعرفه ، وطرق معيشته ، وأسلوبه الخاص في الحياة ، وكان لكل إقليم حكومته ونظامه واقتصاده ، والإسلام من وراء ذلك كله مرشد وموجه ودستور عام ، وهذا غير ما دعت إليه العالمية اليونانية ، والرومانية والشيوعية ، فهي تصر إصراراً على إلغاء القوميات ، وتوجب انمياها في القومية اليونانية أو الرومانية أو الروسية مثلاً .

وألفت النظر إلى أن الإسلام عندما دعى إلى العالمية لم يحتم أن تكون للسليين في شتى البقاع حكومة واحدة ، ولم يحتم أن تكون للإنسانية حكومة واحدة ، كما أنه لم يمنع قيام مثل هذه الحكومة لو كان فيها تحقيق الخير والسلام لبنى الإنسان ! فهو يرى ذلك شأناً من شئون البشرية تقدره حسب مصلحتها ، فإذا رأى المسلمون أو البشرية أن سعادتها وسلامتها وتحقيق رخائها والعدالة فيها تحتقه حكومة عالمية مركزية واحدة ، فمن حقها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومة عالمية اتحادية تشرف على حكومات شتى لقوميات وشعوب شتى ، تتفق هذه الحكومات فيما بينها على طاعة الحكومة الاتحادية (كحكومة الخلافة في العصور الأولى) فلها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومات مركزية مستقلة لكل شعب من شعوبها فلها ذلك ، لا يحتم الإسلام شكلاً ولا لوناً من الأشكال السياسية ولا يمنعها ، ويترك ذلك لتقدير الإنسانية ، ولكن الأمر الذى يحثه الإسلام هو أن يكون الحكم وفق الدستور الإسلامى ، وأن تكون الأخوة والحرية والمساواة والتعاون والسلام هى أسس العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب والحكومات ، وهذا من أهم مميزات العالمية الإسلامية عن غيرها ، عالميتنا لا تلغى القومية ولا تدعو إلى التسلط والطغيان الاستعماري واستعباد الشعوب ، لأنها تقوم على دين مثالى يقرر الحرية والأخوة ، المساواة للأفراد وللشعوب ، ويوجب المحبة والتعاون على خير الجميع ، ويأمر أن تكون العدالة والسلام والبر والاحسان هى الروابط بين الأفراد والشعوب ، عالمية الإسلام هى سبيل السلام ، ولن تتحقق للإنسانية أحلامها وسعادتها إلا بها .

« جهاد الهوى .. »

لفضيلة الأستاذ على محمد حسن العمري

المدرس بالأزهر

النفس الإنسانية مطبوعة ، على ضرائب من اللؤم ، ومتهمة - دائماً - لتقبل ما يوحى به الهوى ، وكل تشريع سماوى أو أرضى يجعل من أول أهدافه تطهير النفس من أهوائها ، وتنظيفها من نزعات الشر فيها ، وإذا كان فى بعض التشريعات الوضعية ما يساعد النفوس على اتجاهاتها الصغيرة ، فما نشك أن هذه تشاريح فاسدة مفسدة ، فإن المجتمع الصالح لا يتكون إلا بأفراد صالحين ، والفرد لا يكون صالحاً حتى يكون العدل والانصاف ، وحب الخير للآخرين ، والرغبة فى إنهاض أمته ، ومساعدتها على الحياة الكريمة ، حتى تكون كل هذه أولى أهدافه ، وأسمى أغراضه .

وإذا سألتنى عن أمة يشيع فيها الفساد ، ويخالفها التأخر والانتكاس ، وتقطع أواصر المحبة والإخلاص بين بنينا بعضهم مع بعض ، وبين شعبها وحكومتها ، وبين رؤسائها ومرءوسها ، إذا سألتنى عن السر فى كل هذه المساوىء ، لم أتردد مطلقاً أن أقول لك : أن هذه الأمة يسود فيها الحكم بالهوى ، والميل مع الأغراض الشخصية ، والخضوع للتوازع الدنيا فى نفوسها ، وبذلك تندفع هذه الأمة إلى التأخر ، والفناء ، بمقدار ما تسود فيها أهواؤها ، وتتحكم فى بنينا شهوات نفوسهم ، ومنذ أربعة عشر قرناً أُنذرتنا الصادق المصدق بهذا الذى نئن من تفشيه بيننا ، فقد ورد أن امرأة من بنى مخزوم سُرقت ، وهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد ، ولكن قريشاً أهمهم أمرها ، وخافوا أن تتمطع يدها ، وهى كريمة قومها ، وسيدة من سيدات قريش العظيمات ، فقالوا من يكلم رسول الله فيها ، فقال قائل : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلّمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ، ثم قام فخطب الناس ، ثم قال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم

الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحسد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

إن هذه قصة يسيرة صغيرة ، ولكن دلالتها عظيمة الشأن ، كبيرة الخطر ، فالخزومية سرقت شيئاً قد يؤثر في حياة فرد ، فكيف يكون الحال لو أن الأيدي القذرة امتدت إلى ما يؤثر في حياة الأمة ، ثم ترك الشريف لشرفه ، فإذا كان ضعيفاً وسرق ما لعله في حاجة إليه رحبت به القيود والسجون ، لا شك أن مثل هذا السلوك خطير جداً على حياة الأمم ، لأنه يولد الاحتقاد والضغائن في النفوس ، ولأنه يسهل لمن يستطيع أن يعرض أمته لأخطر الشرور والاحداث .

والراصد لأحوالنا الاجتماعية ، يحزنه أشد الحزن ما يجده فيها من تغلب الأهواء ، وسيطرتها على كل شأن من الشئون ، وليس الحكم بالهوى ، فيما يخالف القانون ، هو المظهر الوحيد لسيطرة الهوى وسلطانه ، بل هناك في صغائر الأمور وكبارها أهواء مطاعة ، وشهوات متبعة ، وربما بدا لبعض السذج أن انباع الهوى في بعض الأمور له ما يبرره ، ولكن ذلك وسوسة الشيطان ، وخداع النفوس ، نأخذ مثلاً الامتحانات - ونحن في موسمها - فنرى بعض التافهين على أمرها يخضعون في كثير من الأحيان لأهوائهم ، فلماذا قريبه ، ولذلك ابن صديقه ، والثالث موصى على طالب أو تلميذ ، ولا بأس عندهم أن ينال واحد من هؤلاء أكثر من حقه ، ولكن لو كنا ننظر إلى الأمور نظرة جادة لرأينا أن الامتحان قضاء ، وأنه كما لا يجوز للقاضي أن يخضع لهوى نفسه ، فكذلك لا يحق للدرس أن يتعدى العدل والحق ، فكل محاباة لضعيف إنما هي ظلم لقوى ، وليس أضر على الناشئ من أن يشعر أنه يصعد على يد غيره ، فإن ذلك يعوده الاستهانة بالعمل ، والفسق في الحياة ، وكان يقال : إذا رأيتم خلة شر رائعة من رجل فاحذروه ، وإن كان عند الناس رجل صدق ، فإن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم خلة غير رائعة من رجل فلا تقطعوا عنه أيا سكم ، وإن كان عند الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات .

فإذا انتقلنا إلى مسلك الرجل مع أبنائه ، أو الأخ مع أخوته ، أو الصديق مع أصدقائه ، رأينا الهوى متغلباً في كثير من الأحيان ، ووجدنا الأمر كما يقول الشاعر :

فلست براد عيب ذى الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كائلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولقد حدثوا أن رجلا من يأكلون العيش بأخلاقهم ، كان يسير مع بعض
الأمراء على نهر يمر ببلدة من البلدان فقال الأمير ما أنفع هذا النهر لأهل هذا المصر
فقال صاحبه : أجل أيها الأمير ، والله أنهم يستعذبون ماءه ، وتفيض مياههم إليه
ويتعلم صبيانهم فيه العوم ، وتأتيهم تجارتهم وطعامهم فيه ، فلما إن كان بعد ذلك
ساير هنا هذا الرجل أمير آخر ، وكان عدواً للأمير الأول ، فقال : ما أضر هذا
النهر بأهل هذا المصر ؛ فقال صاحبه وهو الذى امتدح النهر بالأمس - أجل أيها
الأمير ، تنز منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم !

وليس الهوى الذى يدفع النفس إلى الغواية والشر ، بأقل خطراً من هذا الهوى
الذى يدفعها إلى أن تجانب العدل والانصاف حين تحكم ، أو حين تعامل الآخرين
فإن الهوى لا يأتي بخير أبداً ، وهو غلاب ، فالإنسان فى حاجة ماسة إلى إرادة
قوية تعصمه من الزلل ، وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الامارة
بالسوء ، ولذلك يقول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع . وإن تطفمه ينقطع
فاحذر هواها ، وحاذر أن توليه أن الهوى ما تولى يصم أو يصم

ويقول العارفون من الأولين : جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ، ما أشد
فطام الكبير ، بل كانوا يقولون قاتلوا أهواءكم أشد مما تقتاتلون عدوكم وقيل لعمر
ابن عبد العزيز رضى الله عنه : أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وجماع ذلك كله قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رجع من بعض غزواته :
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يريد مجاهدة النفس وشهواتها فإن
الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ، ولكنه يضعف أمام رغبات نفسه ، وقد
يرد الخنيس العرمم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه ، ومن
الصريح فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى
يملك نفسه عند الغضب .

في القصة المصرية

د. سنان أحمد عباس صالح

فن القصة :

تحتل القصة مركز الصدارة الآن في الآداب العالمية ، فهي ضرب من الفن يمتاز عن الفنون الأخرى بالشمول . إذ بينما تحتنق المسرحية في « المنظر » أو الحوار ، نجد أن الحركة وامتداد الحوادث وتغير الامكنة لا تتوقف في القصة بل تمضي مضيا طبيعيا يطابق واقع الحياة . وعلى العكس يقف فن التصوير والنحت عاجزاً في حيزه الضيق .

وفي الشعر لا تكاد القصيدة تنفي بأغراضها الفنية إلا في مجال محدود حيث العناية باللفظ والموسيقى والقافية تقف بالمرصاد لتنع القصيدة عن المضى في متابعة الحياة متابعة واقعية .

ومع أن الرواية قديمة قدم الانسان ذاته ، إلا أن الشكل الفني المصطلح عليه الآن ، من حيث الوحدة والتتابع والحبكة الخ . لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر . وعلى هذا ففن القصة الحديث مبثوث الصلة بالأساطير والحكايات والملاحم والسير والرحلات التي عرفت قبل هذا التاريخ . كما أن الفرق كبير بين المسرحية (Play) وبين الرواية (Novel) فالأولى يشترط فيها أن تمثل على المسرح ^(١) ويكون « الحوار » فيها عصب الموضوع بينما النائية لا تمثل على المسرح ولا تتقيد بالحوار ، وتستطيع أن تتنمل حيث تشاء ولها أن تطيل الوقوف عند حادثة ما أو أن تسكتني بالعرض السريع .

ولقد ظلت الرواية (Novel) تتطور في الشكل (Form) على أيدي كبار كتابها حتى أخذت شكلها الذي نعرفه الآن .

(١) كتبت كثير من المسرحيات في العصر الحديث للقراءة فقط .

والحرية التي تتمتع بها في الأداء ظهرت طرق متعددة لكتابتها فهناك اليوميات والخطابات والاعترافات الخ... ولكنها جميعا محتم عليها أن تكون ذات وحدة .

وقد انقسم هذا الفن بعد فترة من التطور إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو القصة الطويلة (Novel) وميدانها فسيح ، إذ تستطيع أن تعرض حياة شخص ما منذ نشأته مثل قصة (أوليفر تويست) للكاتب الانجليزي تشارلز ديكنز أو حياة جيل من الناس مثل رواية (الحرب والسلام) للكاتب الروسي تولستوى .

والثاني وهو القصة القصيرة (Short story) وقد بدأت في شكل حكايات قصيرة (Tales) على يدى بوكاشيو الإيطالي ، ثم تلقاها إدجار آلن بو الأمريكي ونزل بها ميدان الصحافة ، ومن ثم انتشرت في أوروبا وفي ربوع العالم .

وتختلف الأقصوصة عن القصة في أنها غالبا تعنى بحادثة واحدة أو جانب واحد وتدور حول فكرة واحدة ، وتمتاز بالتركيز والعرض السريع . وهي التي تطلع علينا بها الصحف اليومية والاسبوعية من حين لآخر .

والنوع الثالث وهو أحدث هذه الأنواع جميعا إذ يتف بين القصة والأقصوصة ويسمى (Novelet) وهو أطول من الأقصوصة وأقصر من القصة ، ابتدعها الكاتب الروسي تشيكوف ، وتبعه الكاتب الانجليزي المعاصر سومرست موم وأصبحت شائعة الآن في الآداب جميعا .

وتمتاز بأنها لا تمر مروراً سريعاً على الحياة التي تعرضها ، مثلما تفعل الأقصوصة كما أنها لا تطنب اطناب القصة الطويلة ، والواقع أنها نبعت من القصة القصيرة ، ففيها تجد الخط (Line) الواحد الذي قلما يتسع ، ونجد هذا واضحاً في قصة (رجل مجهول)^(١) لتشيكوف ، ثم أنها تتبع جانباً معيناً من حياة شخص ما ولا تتعدى إلى حياة الآخرين إلا بإيجاز .

(١) ترجمت هذه القصة إلى اللغة العربية دار الكتاب المصري .

فهرس

المجلد الثانى والعشرين

(لسنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م)

صفحة	بقلم	الموضوع
		(١)
٦٥٨،٥٤٣	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى	آراء العرب
١٦٧	محمد عبد المنعم خفاجى	آراء فى إعجاز القرآن الكريم ...
٣٤٥	على محمد العمارى	ابن سنان ومذهب الصرفة
٥٩٢،٥٠٢ } ٨٠١،٧٠٨ }	الدكتور محمد يوسف موسى	ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر
٨٥٨	فضيلة الأستاذ على محمد العمارى	ابن حزم
٥٠٧	عبد الله مصطفى المرافقى	أبو حامد بهاء الدين السبكى
٦٢٢،٥٢٠	محمود النواوى	أبو العيلاء الضرير
٧٧٦	صاحب العزة مدير المجلة	أثر الصيام فى تقويم الشخصية
١٢		احتفال الأزهر بذكرى الهجرة
٣٨٥		، ، بعيد الميلاد الملىكى
٦٨٤	فضيلة الأستاذ الكبير مدير الأزهر	الاحتفال بذكرى عبد القادر الحسينى
٦٧٩	، ، ، ، ،	احتفال جمعية المحافظة على القرآن الكريم
٧٦٩	وكيل الأزهر	احتفال ليلة نصف شعبان
٦٧٥	، ، ، ، ،	إحياء ذكرى الملك فؤاد
١٦٠	حضرة ، حمزة محمد الشيخ	الأساطير عند مختلف الشعوب
٤٢٠	فضيلة ، محمد عبد التواب	أسباب العزة
٤٥٣	حضرة ، عبد المنعم محمد الشيخ	أسباب الفتنة فى عهد عثمان
٥	صاحب العزة مدير المجلة	الأستاذ الأكبر الجديد
٧٤٤	فضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى	الإسلام أصل حضارة العالم

صفحة	بـقـلـم	الموضوع
٨٢٦، ٦٦٥	حضرة ، سعيد زايد	الإسلام والاشتراكية
٩٢١		
٦٦٢	فضيلة ، عبد الحليم عبد الرازق	الإسلام الحق
٥٥٥	حضرة ، عمر طلعت زهران	الإسلام فى مدغشقر
٣٢٨	حضرة ، محمود فياض	الإسلام يحقق السلام
٥٦٥، ٤٧٩	حضرة ، هاشم محمد ابراهيم	أسلحة القتال عند المسلمين
٩١	فضيلة ، عز الدين اسماعيل	أسلوب التمثيل فى القرآن
١٨٤	، ، ، ،	أسلوب الجدل فى القرآن
١٧٦، ٥٧	حضرة ، عبد المنعم محمد الشيخ	الأفضل بن بدر الجمالى
٤٤٦	فضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى	إلى أى طريق نحن مسوقون
٤٥٩	، ، محمود النواوى	إمام المفسرين ابن جرير الطبرى
٩٠٥	حضرة ، عمر طلعت زهران	الأمير المتصوف
٨٣٢	، ، كامل عجلان	إلى صائم
٥٠	، ، على حسن العمارى	أهل النار يختصمون
٢٩٩	، ، فكرى يس	أول القرآن نزولا وآخره
٥٢٦	، ، ابراهيم أبو الخشب	الإيمان بالله
٥٣٦	، ، محمود محمد المدنى	أى مجتمع نعيش فيه
٥٤٨	، ، منصور رجب	أيهما البردة
(ب)		
٤٩٥	، ، طه الساكت	بركة المسلم حياً وميتاً
٣٦٦	، ، هاشم محمد ابراهيم	البريد فى الإسلام
١٣٩	، ، ابراهيم أبو الخشب	بشرية النبى
٨٨٧	، ، عبد الله مصطفى المراغى	بهاء الدين السبكى
٩٧، ٨		بيان من فضيلة الأستاذ الأكبر
(ت)		
٣٠٤	فضيلة الأستاذ عبد الله المراغى	تاج الدين السبكى
٢٣	، ، فكرى يس	التاريخ

صفحة	بقـلم	الموضوع
٩١٨	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	تاريخ الرجال
٦	عبد الجواد رمضان	تحية شريفة
٦٣٨	بدر المتولى عبد الباسط	تسمية الأسماء بغير أسماؤها
٣٦٣	حضرة الأستاذ إبراهيم عمار	تعدد الزوجات
٥٠٢، ٣٣٤	سعيد زايد	تعريف الحكم
٨٨٣، ٧٧٩	فضيلة الأستاذ حامد محيسن	التفسير — فاتحة الكتاب
٦٩١	محمد محمد المدنى	التفسير
٥٨٣، ٤٨٦	عبد المنعم النمر	تفسير القرآن
٦٩٧		
١٩٠	...	تقاريط
١٣٦	عبد الله مصطفى المراغى	تقى الدين السبكي
٧	السباعى الشناوى	تهنئة شعرية
(ث)		
١٤٩	فضيلة الأستاذ عبد الحميد المسلول	ثقافة الأديب
(ج)		
١٦٣	فضيلة الأستاذ كامل عجلان	جراحات قلم
٢٨٣	عبد الله شوقي الاسد	جماعة التبشير الإسلامى
٩٥٦	على حسن العبارى	جهاد الهوى
(ح)		
١٣٢	الدكتور محمد يوسف موسى	الحج
٣٣		الحج من الناحية الفلسفية
٤٣٤	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى	حسن قويدر الخليلى
٤٦٧	أحمد الشرباصى	حرف بثمانين ألف
٦٢٨	فتوى	حكم الله فى المسلم يقاثل المسلم
٢٣٩	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى	حزة فتح الله

الموضوع	بتلم	صفحة
حول عروج الجسم الى السماء	حضرة الأستاذ أحمد ترجاني	٢٥٣
الحياة الأخرى	، ، عمر طلعت زهران	٨٤٨، ٦٥٠
(خ)		
خداع الحياة	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	٤٢٦
الخلافة بعد فتح الأتراك اصر	حضرة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم	٢٧٢
الخلافة العباسية في القاهرة	، ، ، ، ،	١٨٠
الخير باق في الناس	فضيلة ، محمد عبد التواب	٦٠٩
(د)		
درس عملي في الزكاة	، ، إبراهيم سقوط	٩٢٤
الدروس الدينية	، ، الكبير وكيل الأزهر	٨٦٥
دعاء مستجاب	فضيلة الأستاذ حسن جاد	٤٦
دعائم الدعوة إلى الحق	، ، حامد عوني	٦١٧
دعوة الإسلام إلى المساواة	، ، السيد شريف	٧٤٩
دفاع عن التعصب	، ، محمد محمد المدني	١٩٥
(ذ)		
ذكرى المولد الشريف - موشحة	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	٢١٥
(ر)		
الربا داء البشرية	، ، بدر المتولي عبد الباسط	٧٩٧
رثاء وتقاريط		٩٥
رسالة الأزهر	الشيخ أحمد صقر	٨٧
رسالة شيخ الأزهر	فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر	٢٨٩ د-١
الرسول الأعظم	، ، محمد عبد المنعم خفاجي	٢٦٦
رضا الناس	، ، علي حسن العماري	١٤٢
رمضان بين الماضي والحاضر	، ، محمد خليفة	٨٤٤
الربانية والدينية والتصوف	حضرة ، عبد المنعم محمد الشيخ	٩١٤، ٧٥٩

الموضـوع	بقلم	صفحة
(ز)		
زواج حضرة صاحب الجلالة الملك		٦٧٣
(س)		
السهروردى المقتول		٣٢٩، ٢٤٨
سوف أعود إلى الأرض		٣٧٣
سوق السعاة		٧٣٦
سيدى ابراهيم الدسوقى		٢٢٦
(ش)		
الشباب وكيف نعهده		٤٢٣
شرك العقيدة وشرك العمل		٤٠١
شعاع من فجر الإسلام		٥٣٣
الشعر		١٧٣
شعراء الأزهر		٣١٢
الشعر المسرحى		٤٧٣
شواهد البلاغة		٨٠
(ص)		
صفحة من المجد		٧٥٤
(ض)		
ضبط النفس		٣٦٠
ضيق الصدر		٩٠٢
(ع)		
عجالات فى الأدب		٤٧٦، ٢٨١ ٥٤٠
عدى بن الرقاع		٨١٤
عظة الهجرة		٧٦
العظمة والخلود		٨٢٩

صفحة	بقلم	الموضوع
١٥٥،٦٢	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	العقل والنقل والذوق
١٢٧،٦٦	د ، سالم أحمد الرشيدى	العلاقة بين الإسلام والنصرانية ...
٤٠٥	فضيله الأستاذ فسكرى يس	العلم بأسباب نزول القرآن
٣٢٠	د ، محمود النواوى	العلم والعمل
٦٣١	د ، محمد كامل الفقى	على أبو النصر المنفلوطى
٩٣٣	د ، د ، د	على الدرويش المصرى
٣٥١	د ، أبو الوفا المراغى	على هامش الأخبار
٢٢٤،٢٦٢	د ، محمود جميلة	على هامش المولد والهجرة
٦١٣،٥١٦		
٤١٤	سماحة الأستاذ ، السيد ،	عهد المدنية
٧٠٥	فضيله الأستاذ طه محمد الساكت	عيد الدستور
(ف)		
٢٧٧	حضرة الأستاذ حمزة محمد الشيخ	فاجعة الشرق فى مهاجمة الغرب ...
٥١٠،٤٤٠	حضرة الأستاذ محمود فياض	الفقه السياسى عند المسلمين
٧٢٣،٦٤٤		
٨٠٥		
٩٥٢	د ، د ، د	فكرتنا العالمية والقومية
٤٤٨	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	فلسفة التصوف
٤٩١	فضيله الأستاذ محمد محمد المدنى	فهم فى آية
٣٩٩	الدكتور محمد يوسف موسى	فى سبيل الله والأزهر
٨٢١،٧٣٩	فضيله الأستاذ أحمد الشرباصى	فى صحبة المكفوفين
٩٤٩		
٩٥٩	حضرة د ، أحمد عباس صالح	فى القصة المصرية
٦٥٥	فضيلة د ، السيد شريف	فى مجلس القرآن
٥٧١	الشيخ أحمد صقر	فى النقد الأدبى
(ق)		
١١٦	فضيلة الأستاذ فسكرى يس	القرآن كتاب جامع شامل
٥٩٦	د ، عبد الجواد رمضان	القرآن الكريم واللغة

صفحة	بقلم	الموضوع
٥٨٨	محمد محمد المدني	القرآن وعقيدة البعث
١٩٩	» » » »	القرآن وقواعد النحو
٣٦٩	حضرة » حمزة محمد الشيخ	القصة بين الذاتية والموضوعية
(ك)		
٩٣٧	فضيلة » كامل عجلان	كبرياء القلم
٣٠٧	الدكتور محمد يوسف موسى	كلمات
٢١٠	» » » »	كبتان
٢٢٢	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغي	كيف تتقارب الشعوب
٥٦٨	حضرة » حمزه محمد الشيخ	كيف نقرأ الشعر
٢٨٥	الشيخ أحمد صقر	كيف ندرس الأدب
٤٠٩	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	كيف ندرس الأدب
٦٤١	» » على رفاعي	كيف ينهض المسلمون
(ل)		
٥٤	» » محمود جميلة	لا يستوى الخبيث والطيب
٢١٨، ١٢١	» » محمد التجار	لغويات
٧١٨، ٤١٥		
٨٩٨، ٨٣٥		
١٠٤، ١٧		
٢٨٩، ١٩٣		
٤٨١، ٣٩٠	صاحب العزة مدير المجلة	ليس من هنا نبدأ
٦٨٧، ٥٧٧		
٨٨٠		
(م)		
٣١٧	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحشب	المبشرون بالإسلام
٢٣٢	» » » »	متاعب الرسول
٤٣٠	» » محمود جميلة	مجدنا في ديننا
٣	صاحب العزة مدير المجلة	مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين
٨٩٣	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	مذهب الإمام مالك
٧٣٠، ٦٠٥	فضيلة الأستاذ أحمد محمد عيسى	المسلمون والتصوير
٩٤٣		

صفحة	بقلم	الموضوع
١٨٨٩	الدكتور محمد يوسف موسى	المسلم والقرآن
٣٧٩	الأستاذ سعد الدين موسى	مشكلات المدنية الحديثة
٣٥٤، ٢٥٧	عبد المنعم محمد الشيخ	مصر والسودان
٧١٣	عبد الجواد رمضان	مصطفى عبد الرازق
٩٢٩	محمد خليفة	المعتمد بن عباد
٨٤	نور الدين شريعة	منايع التصوف الإسلامى
٨٦٢	محمود المدنى	من أدب الإسلام
٥٢٩	أحمد الشرباصى	من أهداف الاستغفار
٩٣٩	عبد المنعم النمر	مناهج التفسير
١١١، ٢٨	محمد محمد المدنى	المنتفعون بهدى القرآن
٤١	محمود النواوى	من توجيهات الاسلام
٩٠٩	عبد الغنى الراجمى	من طرائف القرآن الحكيم
٦٧٠	حضرة الأستاذ ابراهيم عمار	من مآسى الحياة
٨٤١، ٥٣٨	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراكى	من نوادر المخطوطات
٧١	أحمد حسن كحيل	من وحى بدر
٣٨	ابراهيم أبو الخشب	المهاجرون والانصار
٩٤٦، ٨١١	محمود النواوى	موسى الكليم
٨٥٤	السيد شريف	موقف الإسلام من الفقراء
٢٣٥	على رفاعى	مولد النور
١٤٦	محمود جميلة	ميلاد محمد
(ن)		
٢٠٣	فكرى يسن	نزول القرآن
٦١٠	ابراهيم أبو الخشب	التفاق الاجتماعى
٧٨٤	الدكتور محمد عبد الله دراز	التمد الفنى لمشروع ترتيب القرآن
(و)		
٤٩٨	فضيلة الأستاذ بدر المتولى عبد الباسط	واجب مصر نحو القرآن الكريم
٥٦٠	حضرة الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ	واقعة الجبل
٧٦٣	أحمد عباس صالح	الواقعية الحديثة
٤٦٣	فضيلة المنشاوى عبود الخولى	وسائل النصر